سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء الأول

سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء الأول

الليالي كلّها

منشورات الجمل

ولد **سعدي يوسف** في البصرة عام ١٩٣٤. تخرّج من دار المعلمين ببغداد سنة ١٩٥٤. عمل في الصحافة وتنقل بين عدة بلدان ويقيم اليوم بلندن. نشر العديد من الترجمات الشعرية والنثرية، وكتب القصة والرواية، ترجمت أشعاره إلى العديد من اللغات ونال جوائز أدبية في البلدان العربية والأوروبية. من أعماله وترجماته: **القرصان**، شعر (١٩٥٣)؛ **أغنيات ليست للآخرين**، شعر (١٩٥٥)؛ **قصائد مرئية**، شعر (١٩٦٥)؛ **بعيداً عن السماء الأولى**، شعر (١٩٧٠)؛ **نهايات الشمال الأفريقي**، شعر (١٩٧٢)؛ **الأخضر بن يوسف ومشاغله**، شعر (١٩٧٢)، **والت وايتمان: أوراق العشب**، ترجمة (١٩٧٦)؛ **تحت جدارية فائق حسن**، شعر (١٩٧٤)؛ **قصائد أقل صمتاً**، شعر (١٩٧٩)؛ **خذ وردة الثلج، خذ القيروانية**، شعر (١٩٨٧)؛ **قصائد باريس، قصائد إيثاكا**، شعر (١٩٩٢)؛ **كافافي: وداعاً للاسكندرية التي تفقدها**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **يانيس ريتسوس: إيماءات**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **لوركا: الأغاني وما بعدها**، ترجمة (١٩٨١)؛ **فاسكو بوبا: شجرة ليمون في القلب**، ترجمة (١٩٨١)؛ **غونار أكيلف: ديوان الأمير وحكاية فاطمة**، ترجمة (١٩٨١)؛ **أونغاريتي: سماء صافية**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هولان: قصائد**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هنري ميللر: رامبو وزمن القتلة**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **نغوجي واثيونغو: تويجات الدم**، ترجمة (١٩٨٢)؛ **ديفيد معلوف: حياة متخيلة**، ترجمة (١٩٩٨)؛ **وولي سوينكا: المفسّرون**، ترجمة (١٩٨٦).

سعدي يوسف: **الأعمال الشعرية، الجزء الأول: الليالي كلّها**
الطبعة الأولى
خطوط الغلاف: الفنان علي عاصي
كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٤
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨/١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2014
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

في قراءة الأرض

في هذا المساء الرطب، مساء باريس الرصاص، وفي الخامس من كانون الثاني ١٩٩٢، أُفكر بالأعوام الأربعين التي أعقبت أول نص شعري نشرته، كنت لا أزال في أيام الطلب، استدنت من عم لي عشرة دنانير لأطبع قصيدة طويلة في كراس، أعدت المبلغ إلى عمي، لا ورقة «واحدة» أو ورقتين كما تسلمته، بل كيساً من معادن مختلفة الشيات والأصوات، ومن تلك القصيدة كسبت الكثير: حزاماً جلداً، وكرسياً في سينما.

اليوم، يؤنسني الشعور ذاته: إنني أتحزم، أحزم أمري، وأذهب إلى الفن.

كيف قدر لي، أنا ابن القرية الفقيرة كأهلها، أن أذهب إلى الفن، وأمضي في الذهاب، حتى هذا المساء، حتى هذه اللحظة؟

كيف قدر لي، أن أقطع القفار والبحار، واستبدل بالمصر أمصاراً، وبمنزل الجد شققاً نصف مفروشة، وغرفات فنادق رخيصة، وبالمكتبة الأولى رفوفاً صفيقة تطوى وتنشر كالحقائب؟

كيف قدر لي أن أقطع القنطرة بين مسجد قرية حمدان والطريق العام، ذلك الحبل السُّرِّي الذي هو الميلاد والموت؟

كيف قدر لي أن أحمل النصب والشظف، وأتحملهما، وأحاورهما، حتى وإن وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً؟

الأيام دُولة، والسنون تمضي عقوداً، لا صوى في السبيل ولا نيران في رأس الجبل.

سلاماً.. إذاً

سلاماً أيها الأبد المخبأ في القميص.

أكتب عن الناس. أحبهم، وأُدافع عنهم لكن، لا نيران في رأس الجبل.

أتذكر، مرة، القبض علي: أُخذت من المنزل، إلى مركز الشرطة، وبعد ليال هناك، ذهب بي شرطي، وأنا مغلول، إلى محطة القطار، القطار الصاعد من البصرة إلى بغداد حيث سأُحاكم.

كنا راجلين، أنا والشرطي، والطريق بين مركز الشرطة ومحطة القطار يمر بكل الأماكن التي أعرفها، ويعرفني الناس فيها: السوق، المقاهي، المكتبة، كان الناس يضطربون مضطربهم اليومي، وأنا أسير بينهم مغلولاً، لم يقل لي أحد: سلاماً، لم تطرف لمرآي عينان، كان الناس مشغولين بشؤونهم، وما أنا من هذه الشؤون، يا لوحشة المسعى! لكني في الانعطافة الأخيرة نحو محطة القطار، أبصرت فتى أسرتني عيناه بأنه سيحكي للمدينة حكايتي.

عن هذا الفتى كتبت.

الفنان يكتشف ناره، ويعلي جبله، حيث تتوقد الشعلة.

في بيروت ١٩٨٢، في الأيام الأولى، ومنذ الرابع من حزيران، أخذت أكتب قصائد شخصية، جاءت الغارة الأولى على المدينة الرياضية، وأنا أكتب قصيدة، أتتبع فيها مريم العذراء عند ريلكة، مع

الأيام بدأت تحولات مريم التي بلغت تجليها الأخير في قصيدة «مريم تأتي» التي كتبتها يوم الخامس والعشرين من تموز.

كيف كنت التقط مادة القصائد؟

كنت كثير الحركة، قبل أن تغدو الغارات الجوية بتلك الكثافة الوحشية، أزور المواقع المجاورة، أتحدث مع المقاتلين، أذهب إلى مناطق خطرة، أبيت الليل أحياناً مع المقاتلين الشبان في ملاجئ مظلمة، أدور على الأجهزة الإعلامية، أتسقط الأنباء هنا وهناك، كنت أشعر بأن حياتي هي من التدفق بحيث إن الموت لن يكون سوى تتويج لها إذا جاء. الفنان يكتشف واقعه، ينقيه، وينتقيه، يرفع واقعه ذاته ناراً في رأس الجبل.

كثيراً ما يرد تعبير الدهشة، توصيفاً للشعر أو لما يثيره، وقد استوقفني التعبير طويلاً، وجعلت أتمثل بيت المرقش الأصغر:

تحلّين ياقوتاً وشذراً وصنعةً
وجوعاً ظفارياً ودراً توائما

نساء المرقش الأصغر، هؤلاء الحلوات المتحليات، كيف برزن إلينا، في هالة الفن البهية؟ نساء سان جون بيرس وريلكة، كيف أتيننا؟

لم يقل المرقش الأصغر غير أشياء سمّاها، إنها أشياء نعرفها، لكن الشاعر وضعها أمامنا بحيث نراها للمرة الأولى، لقد منحنا اللون والشكل، أعطانا الملمس المتقري والعيون الواسعة، ودعانا عبر الملمس والعين إلى الدخول في عالم من التصور والتخيل لم نكن لندخله لولاه، لولا هذا المدهش المنهمر أمامنا كمطر ملون.

الحواس، إذن، هي هدف موجة الشاعر، هي المستهدفة لأنها

المستقبلة، ولأن عناصر التصور والتخيل تمر عبرها أولاً، لتواصل مسيرتها نحو التركيبة، الفنية اللاحقة، أعني النصف الثاني من التركيبة، المتعلق بالقارئ، هذا القارئ الذي سيلتقط العناصر، ويعيد تركيبها، حسب هواه ومستواه.

أين الدهشة في هذا؟

أحسب أن الدهشة هي في أن عناصر الواقع وأشياءه التي ينتقيها الشاعر، مادة خاماً، تخاطب (أعني العناصر والأشياء) الحواس، إشارة، لا دلالة، أي أن العلاقة بين المرء والعالم تعاد إلى بدايتها، إلى بداءتها، إلى بداهتها المفاجئة، إنها تثير استجابات لا أجوبة، إنها تحرك، وقد اطلعت على دراسة تتعلق بالاستجابة الجسدية لنصوص شعرية معينة، مثل اختلاج عضلات الوجه، ورفيف الأجفان، ووقوف الشعر، ووتيرة التنفس.

وليس ارتباط الأشعار الأولى بالرقص سوى مثل في السياق ذاته.

لكن الأمور، ليست بهذا اليسر المتوهم في التأويل النظري، إنك في العملية الإبداعية، ستجدك إزاء احتكامات تطبيقية خطيرة، تدفع بك في قوة طاردة عجيبة، خارج المتداول السائد، مثلاً: ما دامت الأشياء مادتك الخام، وما دامت اللغة رموزاً للأشياء، وليست الأشياء، فماذا أنت صانع باللغة؟

ومثلاً: إن كان الفعل والاسم الجامد هما الأقرب إلى توصيف المادة الخام، فماذا أنت صانع بالمصدر والمشتق؟

ومثلاً: إن كنت رأيت أخلاقية العملية الفنية متلازمة، ومادتها الأُولى، الأولية، وهي فيما توافر لديك: اللغة في لحظتها الأُولى، فماذا أنت صانع بالذاكرة؟ أبمقدورك أن تقدم الكأس هكذا، حرة،

بين يديك. . بينما الذاكرة مكتظة بالكؤوس: سقراط، الخيام، أم كلثوم؟ ومثلاً: إن كان الشعر إعادة نظر في العالم ونقداً، وما دامت الصورة وسيلته في إعادة النظر، وفي النقد، فإي مكان يظل للفكرة؟ بمعنى، هل الفكرة تسبق العملية الإبداعية أم تتلوها؟

هل الشاعر هو الذي يتوصل إلى الفكرة أم القارئ؟

أسئلة كهذه، لن تجد جوابها إلاّ في التطبيق، أي في الكتابة، وإلاّ بعد زمن يمر، وسعي يتراكم، وستظل هكذا، ما دام الطريق إلى الفن أطول من حياة.

على الطاولة أمامي، ورقة، علبة كبريت، منفضة، ولفافة تبغ، الأشياء أمامي أربعة، وعليَّ أن ألعب، للأشياء الأربعة نظامها المعروف المألوف، تنسى الورقة، تشعل اللفافة المتقدة في المنفضة، هكذا نفعل كل اليوم، لكن عليَّ أن ألعب، أن أغير النظام المعروف المألوف، أن تكون قصيدتي مخالفة، مختلفة، وفي الوقت نفسه، عليَّ أن أحتفظ بمفاتيح لي وللقارئ، مفاتيحي هي الأشياء، هكذا سأخرج اللفافة من علبتها، وأشعلها بعود كبريت، لكني لن أضعها وهي متقدة في المنفضة، سأدخل الورقة في المشهد، أضع اللفافة المتقدة على الورقة، وأترك الأشياء تتفاعل، خارج السياق المألوف، أتركها تتفاعل في كيمياء الشعر.

السابع من كانون الثاني ١٩٩٢.

صباح باريسي آخر، مطر، وسماء رصاص، الساعة الثامنة والنصف، والعتمة لا تزال شاملة، النوافذ وحدها تضيء الصباح البهيم، في هذه الضاحية العمالية حيث أُقيم، هدير سيارات وحافلات يخترق الزجاج المزدوج، الناس يمضون إلى معاملهم ومصالحهم،

بينما أوراقي التي تنتظر لا تزال بيضاً.

لِـمَ أنا في باريس؟ لِـمَ أنا هنا وهناك، هناك وهنا، في هجرات بدأت منذ خمسة وثلاثين عاماً؟

موسكو ـ دمشق ـ الكويت ـ بيروت ـ الجزائر ـ دمشق ـ بيروت ـ قبرص ـ بيروت ـ دمشق ـ عدن ـ قبرص ـ بلجراد ـ تونس ـ وأخيراً: باريس.

ماذا أفعل في باريس؟

ماذا أفعل في أرضٍ غير عربية؟

يتضمن المنفى فكرة الإلغاء، إلغاء علاقة الفرد بالسماء والأرض والمجتمع، ثمة خط عمودي يصل بين السماء حيث المعبود والأرض حيث الأسلاف في هدأة الموت الطويلة.

وثمة خط أُفقي ينتظم القرية أو البلدة، حيث المنازل والذكرى وملاعب الطفولة.

وفي نقطة تقاطع الخطين يقف الفرد.

هول المنفى هو في اقتلاع الفرد من نقطة التقاطع هذه، وازدراعه، في بقعة أخرى لن تكون نقطة التقاطع فيها، فلا السماء أولى، ولا الأسلاف أسلاف، ولا منازل وذكرى وملاعب طفولة.

ماذا يتبقى، إذن؟

الشظف وحده، الكد، والعناء، بغية الحفاظ على التكوين الأول، على السلالة المهددة بالانقراض، على الجذر الذي يجفّ.

لكن شروط العملية الفنية تجعل من هذا الحفاظ مهمة بالغة الصعوبة، فكلما تقدم المرء في طريق الفن خطوة زاد احتياجه إلى جذور أكثر غوراً، أكثر غوراً في نقطة التقاطع تلك، لا في تراب المنفى.

أفكر بالأرض العربية، بأهلها الجميلين، ولغتها الأجمل، أفكر بحضاراتها وثرواتها، وأفكر في الوقت عينه بالحال الذي نحن فيه، بالزمن المغلق الذي أطبق علينا، وأقول: لسنا الوحيدين بين الأُمم في معاناة الزمن المغلق، أُمم عديدة، سوانا، مرت وتمر بأزمنة مغلقة، ولقد خرجت منها، وتخرج، لأنها احتفظت بالجمرة، كابية أو لاهبة، وما هذه الجمرة إلاّ الجوهر، إلاّ الثقافة المخالفة، القادرة وحدها على أن تغذو كل جيل يجد، بمبرر تسميته جديداً.

ترى، ماذا كنا فاعلين بلا طه حسين؟ إن رايته لَتَقْدُمنا في الزمن الأعمى؟

باريس ـ ١٩٩٢

الساعة الأخيرة

(١٩٧٧)

الحالم

في زاويةٍ،
تحلُمُ . .
ينفضُّ الهتّافونْ
عنكَ،
وينهشك البيروقراطيون السفلةْ .
لكنّ عليَّ بنَ محمّدْ
بكتائبه الزنجيةِ
ينهضُ بين العِرق وبين العرقِ
قرنفلةً مشتعلةْ .

١٩٧٦/٩/١٦

استقصاء

بيتُ مَن في الجناح المداهَم بالريحِ؟
في الورق المتساقط عن سروةٍ؟
في ثياب البنات التي بدأتْ تتقاصرُ؟
في منزل السهروورديّ؟
في نظرة الحيوان الجريحْ؟
بيتُ مَن في ضلوع الصبيّ المشاكسْ؟
بيتُ مَن في يدي؟

*

إنَّه اليانسونُ الطريّ
أرضُنا القرويةُ، أسنانُ أطفالنا
والذهولُ البهيّ.
أيَّ جذرٍ سنقضمُ؟
والموتُ واليانسون الطريّ
قريةٌ للطفولةِ
أو جرعةٌ للذهولْ.
يا لهَذا الفتى...
هل رأى اليوم أيضاً

كيف نحزم أشياءنا ثم نرحلُ؟
أين التقينا بهذا الفتى؟
أيَّ ماءٍ سقانا. . .
أيَّ خبزٍ أكلنا معاً. . .
أيُّ عشب يعلّمنا كيف نحزم أشياءنا ثم نرحلُ؟
من أين هذا الفتى؟

*

في المياه التي لا تمسُّ التويجاتِ
سافرتُ عشرين عاماً
كنتُ أرقبُ ما يصلُ الريشَ بالقلبِ
والطيرَ باللؤلؤةْ
غير أن المياه التي كنتُ سافرتُ فيها
غادرتْ
والتويجاتِ
والريشَ
والقلبَ
والطيرَ
واللؤلؤةْ

*

للهدوء المبارك هذي الخطى الملكيةُ
والشرفةُ العاليةْ
حيث أبصر في نبضات الحديقةْ

دورةَ النملِ
أو ذرّةَ الجلّنارْ
غير أني إذا ما تولّى النهارْ
أرتقي بالنعاس الذي لا يفاجئُ
أو بالنعاس الذي أنتقي ـ
شرفةً عاليةْ.

*

عبثاً يستريح المحاربْ

١٩٧٦/٩/٨

الساعة الأخيرة

فلسطينية كانت

تبدو المنائرُ غير ما ألِفَ الهواءُ:
أهلّةٌ في الأرض أنشبتِ النهاياتِ الدقيقةَ. . .
والسلالمُ. . . دربُها الحلزونُ يحمل رجفةَ الأصواتِ
نحو القاع، منكفئاً. . .
وأيُّ مؤذنٍ بالاختباء، يقولُ:
أرملةٌ حمامةُ غارنا المنسيّ
أرملُ هجسُنا
والعشبُ في الطرقات أرملُ. . .
أيها الساعون كالحيّات، جاءت ساعة الصلواتِ
فاختبئوا. . .
وفي سجداتنا اختبئوا
وتحت نجوم من قادوكم اختبئوا
وفي الصحف التي سطرتم اختبئوا
وفي الكتب / المقاهي / المشرب / المبغى /
ألاعيبِ السياسة / سقطةِ الشعراء / نادي
النخبةِ / البترولِ / أردافِ النساءِ /
وشقّةِ اللواطيِّ / قاعاتِ الفنادق / موعدِ الحزبيِّ /

مدرسةِ التجسسِ / غرفةِ الإعدامِ /
في كلِّ الذي أحببتمُ. . .
اختبئوا. . .
لئلا تبصروا وجه التي اغتُصبتْ
وقُطّع جسمها قِطعا
وفُرِّق ـ وهو يقطر ـ مالئاً عشرين مقبرةً. . .
وآلافاً من الثكناتِ
مرفوعاً على الأرماح حين يُدرَّب الفرسانُ
مرفوعاً على راياتنا العشرينَ
مرفوعاً على الألواح قربَ مدارسِ الطيرانِ
منقوشاً بكل رصاصة قتلت فتى منّا
وكلِّ حجارةٍ، في كل دارٍ حُوّلت سجنا
أقولُ:
لأجلها اختبئوا
وخوفَ بهائها اختبئوا
وخوفَ مَعادها اختبئوا
فلسطينيةً كانت
وصارت لعبةً دوّارةً في ساحة العشرين.

تل الزعتر

تُحشرج طفلةٌ في المخبأ ـ الخيمةْ
وتأكلُ ثديَها. . .
وتُقاسمُ الأمّةْ.

تلفزيون

يتحدثُ عن تل الزعترْ
ويغنّي للفتياتِ الشبقاتْ
وللغلمان بحانات النهرْ.

مجنّد

لم يُؤسرْ في حربٍ طبقيةْ
أو حربٍ أخرى
لكن جُزّتْ ناصيتُهْ.

دولة

مُذ سمعتْ آخرَ صوتٍ في تل الزعترْ
دخلتْ في مصرفها
دخلتْ... لكن لم تخرجْ حتى الآنْ.

المدينة

يسقطُ تلُّ الزعترْ
في جرعات العرق الثلجيّ
وينهض تل الزعترْ
في الشبقِ الباحث عن شقّة عاهرةٍ
في آخرة الليلْ.

أشخاص

بدلاً من رايات الثورةْ
رفعوا راياتِ ذكورتهمْ.

رقيم بابليّ

تحت الأسوار ولدْنا
وعلى الأسوار نموتْ.
لم نعرف في بابل
غيرَ القتل لأجل القوتْ.

الأسئلة

للقادمِ من تل الزعترِ منخوباً بالزخّاتْ
للمتلثّمِ في الليل العربيّ... ضمادَ الأمواتْ
للقادمِ من نهر الباردْ
والقادمِ من أيلول العام السادس والسبعينْ
للمتقدم قائمةَ القتلى
للناشر ألبسةَ الأطفالِ المذبوحينْ
للباحث عن عذراءِ فلسطينْ
للصوت الصارخِ في البرّيةْ
للمُطعم غدّارتَهُ لحمَ ذراعيهِ:
نقدم هذا الحَمَأَ المسنونَ
نقدم بلداناً عارية إلا من بدلات جاهزةٍ
ونشيداً للمنتصرينَ على أطفالِ اللّه
وناعوراً من دمِ هذا الشعبِ
وقنبلةً للأسماكِ
وراياتٍ تتغير كلَّ ثلاثِ سنينْ...

عمَّ يُسائلنا هذا الصوتُ الصارخ في البرّيةْ؟
عمَّ يُسائلنا القادمُ من تل الزعترْ؟
والقادمُ من نهر الباردْ؟
والقادمُ من أيلولْ؟
عمَّ يُسائلُنا الصوتُ الباحثُ عن عذراءِ فلسطينْ؟
أوَلم نعرفْ بعضاً؟
أوَلم نولم لطيور الاردن لحومَ «الوحداتِ»
وأطفالَ الزرقاءْ؟
أوَلم نأكلْ فوق جسومِ القتلى خبزهمو مرشوشاً بالماءْ؟
أوَلم نجلسْ في قاعةِ مشرحةٍ حول فلسطينْ؟
أوَما مزّقْنا جثتَها . . . مِزَقا
لنسلّمها، واحدةً، واحدةً، واحدةً، واحدةً، واحدةً،
واحدةً، واحدةً، واحدةً، واحدةً، واحدةً،
واحدةً، واحدةً، واحدةً، واحدةً، واحدةً،
واحدةً، واحدةً، واحدةً، واحدةً، واحدةً،
أوَلم نعرفْ بعضاً؟
حسناً . . .
وإذنْ . . .
عمَّ يُسائلْنا هذا الصوتُ الصارخ في البرّيةْ؟
عمَّ يُسائلنا القادمُ من تلّ الزعترْ؟
عمَّ يُسائلُنا الصوتُ الباحثُ عن عذراءِ فلسطينْ؟

هاجس

لكأنني ألقى الحقيقةَ في يديَّ.. بسيطةً كالعشبِ:
أمتُنا تشيخُ. وبين مكاتبِ الحكّامِ والعقداءِ
تفقدُ آخرَ أرضِها: القبرَ المهيأ. أمةً بُعثتْ
ولكنْ منذ آلافِ السنين. وما الذي يأتي؟
الشرارةُ قد تجيءُ. وليس بعد الموت من موتٍ.
وأخرُ أرضنا: القبرُ المهيأُ كان عند التلِّ...
والحكّامُ والعقداءُ ينتظرون ساعتَها الأخيرةْ

١٩٧٦/٨/٢٠

الجيكولو العجوز

تتعثر كسرةُ خبزٍ في فمه الأدردْ
عُودُ الثقّاب يغور بكهفٍ في اللثّةِ. . .
ما أوحشَ هذي الليلةَ
ما أوحشَ هذا الكرسيَ
وما أوحشَ رائحةَ الأخشابِ وقد نخرتْها الأرَضةْ.
لم يبقَ من البيت سوى غرفتهِ
لم يبقَ من الشعر المسترسل غيرُ تراب القطنِ
ومن سُرُرِ الماضي غيرُ سريرِ حديدٍ وملاءاتٍ صوفْ
لم يبقَ من الجيكولو غيرُ الخد المنتوفْ
ونظرتهِ الذئبيةْ
أحياناً ينظر من غرفتهِ
فيرى الكالبتوسةَ في الشارعْ. . .
كم كانتْ خضراءَ
وكم كانت ناعمةً
كم كانت باردةَ الأغصانْ. . .
لكنَّ الأعوامَ الخمسينْ
جعلتْها خشباً أبرصَ مهجوراً

خشباً منخورا
ما أوحشَ هذي الليلةَ . .
تمتدّ يدُ الجيكولو .
يختلط الماءُ ورائحةُ العرقِ المغشوشِ
ورائحةُ الكالبتوسةِ
والشيبِ
وخبزُ الجيكولو .

١٩٧٦/٩/٩

البستاني

منذ أن كان طفلاً تعلّمَ سرَّ المطرْ
وعلاماتِهِ:
الغيمُ يهبط في راحةِ الكفِّ
والأرض تقنطّ
والنملُ كيف يخطّطُ أرضَ الحديقةِ. . .
والجذرُ يهتز في سرهِ. . .
والشجرْ.

. . . . . .

منذُ أن كان طفلاً، تعلّمَ أن المطرْ
حين يأتي رذاذاً. . .
فلا برقَ في آخرِ الأفقِ
لا رعدَ في القلبِ. . . لا موجةٌ في نَهِرْ

. . . . . .

غير أنكَ تعلمُ أن الحياةَ التي اتسعتْ
كالعباءةِ في الريحِ
سوفَ تسوقُ المطرْ
ليلةً، هائجاً كالجواميسِ. . .

لا يتحدث مع فلسطينَ إلا نائماً
وأحيانا، يسير إليها بلا نجمْ
الأصدقاءُ الذين أحبَّهمْ يفتحون له
الأبواب
من القنيطرةِ إلى القنطرةْ
إنه لا يحبّ البرتقالَ،
لكنه يحبّ أشجارَهْ.

في «سِيدي بلعباس» مقبرةٌ بيضاءْ
وفي الأعياد ترتدي الأبيضَ
والأخضرْ:
عباءاتِ النساءِ
والصنوبرْ.
كثيراً ما فكّرَ أنه سَيُدفَنُ فيها.

أيَّ قصيدة يكتب؟
الهواءُ مختومٌ في زجاجة
واللسانُ خشبةٌ جفّفَها الكحول.

سوفَ يجيءُ المطرْ
ولا برقَ في آخرِ الأفُقِ
لا رعدَ في القلبِ. . .
لا موجةٌ في النَهَرْ.
. . . . . .

هكذا نتعلّمُ
أو نتكلْمُ

أو ننتمي للشجرْ

١٧/ ٤/ ١٩٧٦

تنويع على ثلاثة أبيات

بين منزله في «المعرة» والسوق، دربٌ يظلله شَجَرٌ مُترِبٌ
وشناشيلُ بيضاءُ ـ بُنّنيةٌ، كلُّ بابٍ رَتاجٌ، وكلُّ الكُوى
تستدقُّ نهاياتُها مغلقاتٍ عن النورِ. كلبٌ وحيدٌ،
تكادُ الرطوبةُ أن ترتمي حَجَراً في الرئاتِ،
الظهيرةُ واقفةٌ. يُعْوِلُ الكلبُ. يهدأُ. من غُصُنٍ
سقطتْ وَرْقَةٌ كالحجرْ.
أرى الأشياءَ ليس لها تباتُ وما أجسادُنا إلاّ نباتُ
يتحسسُ «أحمدُ» عينيهِ، قد كانتا منذ لا يتذكّر بئرينِ
مطويّتينِ جدارينِ في محبسٍ. كم تحسَّسَها منذُ لا يتذكرُ...
بل كم تراءى له أنه سائرٌ في الظلامِ: الرواحلُ تسرعُ
بين النجوم العريضةِ، والرملُ تحت المناسمِ كان المجرّةَ،
تلك الأسودُ البعيدةُ تزأرُ، والسيفُ في غِمدهِ سالَ...
من آخرِ الشرقِ يخطفُ عينيه برقٌ...
هَلا... لا... ا... ا... ا...
أيامَ آملُ أن أمسَّ الفرقدينِ براحتيْا
أمسِ، في سجدةٍ للتأملِ، أرهقَهُ هاجسٌ: هَبْ عروقَ الدمِ
المتجلدِ عادت عروقاً من النور في حفرتين بوجهكَ... هَبْ

كلَّ هذا الظلامِ استحالَ ضياءً. . تُرى كيف تصنعُ؟ كيفَ تُعيدُ القراءةَ؟ هل يستوي النظرُ المحضُ والبصرُ المحضُ؟ بَرْدٌ من الأرضِ. . . بردٌ تغلغلَ في جبهةِ المتأملِ. «أحمدُ» في سجدةٍ للتأملْ

تمنيتُ أني بين روضٍ ومنهلٍ
مع الوحشِ، لا مِصراً أحلُّ ولا كَفْرا

للبلاد التي قتلتْ ملكاً، ثم نامتْ، يسافر «أحمدُ»، منزلُهُ في «المعرة» غادرهُ آخرُ المشترينَ، وها هو «أحمدُ» في الدربِ. كلُّ الكُوى مغلقاتٌ، وكلبٌ وحيدٌ يرافقه، والغصونُ التي مُسِختْ حَجَراً تتساقطُ أوراقُها. . .

البرقُ يُقبلُ من آخرِ الشرقِ. . .

«أحمدُ» لم يلتفتْ. . .

والبلادُ التي قتلتْ ملكاً، ثم نامتْ. . . بعيدةْ

٢/ ٥/ ١٩٧٦

ملابس

فكّرتُ يوماً بالملابسِ. . .
قلتُ: إني مثل كل الناسِ، ذو عينينِ
أُبصرُ فيهما شيئاً
وأخطئ فيهما شيئاً
ولكنْ، مثل كلِّ الناسِ، لستُ أريدُ أربعَ أعينٍ
عيناي كافيتان لي.
بل. . . ربما أبصرتُ عن شخصٍ ينام الآنَ
أو يخشى انفتاحةَ مقلتيهِ. . .
أقولُ:
قد فكّرتُ يوماً بالملابسِ
إذ تكونُ جديدةً يوماً
وإذْ تتجددُ الألوانُ بالأصباغِ يوماً. . .
ثم تبهتُ
ثم تنسلُّ الخيوطُ. . .
غريبةٌ هذي الملابسُ. . .
زهرةُ الصبّيرِ؟
حتى زهرةُ الصبّيرِ تملكُ زهوةَ الموتِ الأخيرةَ. . .

بذرةُ الرمّانِ إذ نلقي بها للأرضِ؟
تنبتُ بذرةُ الرمانِ. . .
ماءُ النهرِ حين يعود مُنْسرَباً؟
نواةُ التمرِ؟
أعشابُ الحدائقِ؟
للملابس أن تكون وريقةً في الريحِ
طائرةً قليلاً
ثم ملقاةً. . .
أفكّرُ:
نبعةُ الريحان تملك سرَّ نبعتها
وماءُ النهر يملك دورةَ الأشياءِ
والفقراءُ يمتلكون أن يضعوا الضمائرَ في ملابسهم
ويبقى كيف نختارُ
البذورَ أو الملابسْ؟

٢٧/ ٤/ ١٩٧٦

روبرتو

قيثارٌ مقطوعٌ في الحانةِ
كان يرنُّ، يرن، يرنُ. . .
امرأةٌ تنتظرُ. انتبه المارونَ. . .
انتبهَ النارنجُ
وقيثارٌ مقطوعٌ في الحانةِ
كان يرنّ، يرن، يرنُ. . .
وتنتظرُ امرأةٌ في الحانةْ.
كانت الحانةُ غريبةً عن حاناتِ «تورّيه مولينوس»، التي
تبعدُ قليلاً عن مدينةِ «مالقا»، إنها في الواقع دكانٌ صغيرٌ
ذو دكّتين طويلتين واربعةِ كراسيّ، دكانٌ تدخله بعد أن
تصعدَ درجاتٍ أربعاً من الشارعِ. أحدُ الكراسيّ الأربعةِ لعازفِ القيثار.
عَبْرَ الكوّةِ تنتصبُ امرأةٌ بملابسَ سوداءَ
نعدُّ زجاجاتِ البيرةِ، واحدةً، واحدةً
تمسّدُ شعراً أبيضْ.
عَبْرَ الكوّةِ تمتدُّ يدٌ معروفةْ
عبر الكوة تمتدُّ امرأةٌ بملابسَ سوداءَ
وأكمامٍ مشقوقةْ
هذه اللّيلةَ، دخلتُ الحانةَ الغريبةَ، كما لو أنني أدخلُ بيتي.

ففي ضحى أمسِ، شربتُ القهوةَ مع عازفِ القيثارِ في مقهى المحلّةِ. النسوةُ المتّشحاتُ بالسواد يبعن الخبزَ
وأوراقَ اليانصيبِ والدانتيلَ اليدويَّ. أيُّ نسوةٍ هؤلاء. . .
يا روبرتو؟
ـ أراملُ الحربِ الأهلية.
أمي. . . . . .
أمي تسأل في الحانةْ
أمي تسهر في الحانةْ
قيثارٌ مقطوعٌ في الحانةْ
كلَّ ليلةٍ. . . وقبلَ أن تُغمضَ السيدةُ عينيها المجهدتين. . .
يدخل فتىً مثل روبرتو. نشرب نحن الثلاثةُ، ثلاثْ
زجاجاتٍ أخيرةٍ، من بيرة النارنجاتِ الثلاثِ، ومن بينِ أناملِ روبرتو. . تَدْرُجُ الأغنيةُ. . . هادئةً أولاً، لكنها
تحملُ كلَّ الغضبِ المختزَنِ في ثلاثِ لغات.
قيثارٌ مقطوعٌ في الحانةِ
كان يرنّ، يرنّ، يرنُ. . .
امرأةٌ تنتظرُ. انتبهَ المارونَ. . .
انتبهَ النارنجُ
وقيثارٌ في الحانةِ
كان يرنّ، يرنُ، يرنُ
يرنّ، يرنُ
يرنّ

١٩٧٦/٤/٢١

كيف كتب الأخضر بن يوسف قصيدته الجديدة؟

مرتْ عليه سبعةُ أيامٍ، وهو لا يكتبُ. كان يقرأُ حتى توجعه عيناهُ. يتمشى ظهراً في الحديقةِ.

وليلاً... يتمشى على رمالِ وهرانَ البحريةِ.

قالت له صديقتهُ: إنك لم تنمْ منذ ستةِ أيامٍ.

قال لها: لم يبقَ من الأصدقاءِ غيرُكِ.

إنه ـ على أيّ حالٍ ـ شخصٌ غيرُ متزنٍ، وإن بدا شديدَ الهدوءِ. ولأنه غيرُ متزنٍ، ولأنه مشتتُ الذهنِ، ولأنه لم ينم منذ ستةِ أيام... لم يستطع أن يكتبَ قصيدةً. إلا أنه دوّن هذه الملحوظات، خَشيةَ أن ينساها:

ملحوظات*

* لا تقلبْ سترتَكَ الأولى حتى لو بَلِيَتْ.
* فَلْتبحثْ بين ترابِ الوطنِ الغالبِ عن خاتمكَ المغلوبْ
* لا تسكنْ في كلماتِ المنفى حين يضيقُ البيتْ.
* لا تأكلْ لحمَ عدوّ.
* لا تشربْ ماءَ جبينْ.
* لا تنهشْ راحةَ مَن يُطعمكَ الأزهارْ.
* للضيفِ الدارُ، ولكنْ ليس له أهلُ الدارْ.
* مَنْ يسأل يُعْطَ... سوى الحبّ.
* في الشيخوخةِ قد يبدو الشعرُ الأبيضُ أسودْ.
* يبتدئُ الخائنُ بالمرأةْ.

حسناً. ها هوذا الأخضرُ بنُ يوسفَ أمامَ مَهَمَّةٍ أكثرَ تعقيداً مما كان يظنُّ. صحيحٌ أنه حينَ يكتبُ القصيدةَ يفكر قليلاً بمصيرها... إلاّ أنَّ الكتابةَ تصبحُ يسيرةً عندما يستطيعُ التركيزَ على شيءٍ، لحظةٍ، رجفةٍ، ورقةِ عشبٍ...

أما الآن فهو أمامَ وصايا عشرٍ. لا يدري أيَّها يختار...

والأهمُّ من هذا كلهِ: كيف يبتدئُ؟

النهاياتُ مفتوحةٌ دائماً، والبداياتُ مغلقةٌ.

لا تسكن في كلمات المنفى حين يضيق البيت

تتدافعُ الأمواجُ بين يديهِ. . .
يُمسكُ، بغتةً. حَجَراً، ويبرؤُهُ محارةْ
ويظلُّ ينصتُ:
هَبّةٌ للريح ثابتةٌ، تهبُّ، تهبُّ. . . ثابتةً
سيدخلُ في العناصرِ
كلُّ ما في البحرِ يُصبحُ موجةً كُبرى
وما في الأرضِ يُصبحُ موجةً كبرى
ويدخلُ في العناصرِ
قبضةً مشدودةً
حَجَراً
ووجهاً ناتئ القسماتِ. . .
ها هو في شوارعه الأليفةِ، ماثلٌ
خُطواتُهُ عَجلى
وفي يده محارةْ.

أهيَ أنفاسُكَ أكثرُ هدوءاً؟ ربما شعرتَ بأنكَ لا تزال قادراً على الكتابةِ. كثيراً ما أحسستَ، حتى منذ عشرينَ عاماً، بحالةِ الخطرِ، وأنتَ تبتدئُ القصيدةَ.

لكنكَ حين تُتمُّ المقطعَ الأولَ تجدُ في نفسِكَ قوةً لا تعلم مصدرَها. . . مثلَ نبع خفيَّ التدفقِ. الهديرُ المكتومُ وحدَهُ.

أنتَ، إذنْ، تعتقد، أيها الأخضرُ بنُ يوسفَ، بأنكَ ما زلتَ تنتسبُ إلى الفئةِ الضالةِ؟

لا تقلب سترتك الأولى حتى لو بليت

في الدكانْ
ألبسةٌ مستعملةٌ. . .
وفتاةٌ تدخل في الدكانْ
ناحلةً كانتْ
عيناها تتسعانْ
كما تتسعُ التنّورةُ في الريحِ
وتتسعانْ
كي تريا سترةَ عاشِقها المقلوبةْ
سترتَهُ الحمراءَ ـ السوداءَ
وازرارَ الصدرِ المثقوبةْ.

لقد استخدمَ وزناً جديداً، أو اللاوزنَ. الأمرُ لا يهمُّ كثيراً. وعندما يبتعد الأخضرُ بنُ يوسفَ عن الأرضِ يفقدُ قواهُ. هكذا يظلُّ جناحُهُ مشدوداً بخيطٍ سائبٍ. . . خيطٍ يمسحُ وجهَ الأرضِ.

فلتبحث بين تراب الوطن الغالب
عن خاتمك المغلوب

لا غالبَ في آخرةِ الليلِ ولا مغلوبْ
الكلُّ يُغالبُ عثرتَهُ
والكلُّ يُعاتبُ سكرتَهُ
والكلُّ يسيرُ إلى مسلخِهِ، أحمقَ كاليعسوبْ
فلتبحثْ بين ترابِ الوطنِ الغالبِ عن خاتمكَ المغلوبْ
فلعلَّ النجمَ الضائعَ
تلقاهْ
ولعلكَ إذ تلقاهْ
تُطْلقهُ في آخرةِ الليلْ.

أخيراً، تذكرَ المتنبي... وقوفَ شحيحٍ ضاعَ في التُّربِ خاتمه. في الدنيا صاغةٌ، وفيها فنانونَ. البِساطُ الجزائريُّ يتوازى فيه الأسودُ والأحمرُ، وما بينهما رمادٌ.

والأصفرُ... لماذا؟ أصفرُ... jaune, jaune آرثر رامبو أو تريستان تزارا؟ ما أقربَ الأضفرَ إلى الأخضرِ. البحرُ وحدَهُ. كان كامو يحبُّ إصفرارَ القمحِ في الحقولِ القبائليةِ المطلةِ على البحرِ في «تيبازا».

تيبازا، آهِ... تيبازا...

في الشيخوخة قد يبدو الشعر الأبيض أسود

شيخٌ في الخمسينْ
يقبعُ في غرفتهِ، يحترفُ الكِذْبةَ والتدخينْ.
مَن يُرجعُ للأدردِ أسنانَ صباهْ
مَن يُرجع للرأسِ الأشيبِ شعرَ فتاهْ؟
مَن يملأُ هذا الرأسَ الفارغْ؟
لكنْ...
في الشيخوخةِ، قد يبدو الشَعرُ الأبيضُ أسودْ
قد تبدو الكِذْبةُ، قولةَ حقّ
وسحابُ التدخينِ... سماءً تمطرُ
قد تَنبتُ في لثتهِ الدرداءِ نُيوبُ الطينْ
لكنْ...
في الشيخوخةِ أيضاً...
يسقط شيخٌ في الخمسينْ
في غرفته ميْتاً...
ثَوباه: الكِذْبةُ والتدخينْ.
الأخضرُ بنُ يوسفَ، ما زال غيرَ متزنٍ... ما زالَ مشتتَ الذهنِ، لأنه:

١ ـ لم يَنَمْ منذ ستةِ أيامٍ.
٢ ـ لم يستطع أن يكتبَ قصيدةً.
٣ ـ لم يترددْ في نشرِ ما كتبَ.

١٩٧٦/٦/١٩

الأوراق

الورقةْ
في السطحِ، تمرّ بها الريحُ.
الورقةْ
في السطح الصيفيّ تلوذُ بظلِّ الحائطِ...
والورقةْ
ـ كيسُ التغليفِ المفتوحُ ـ
اتحفظُ اسمَ الورقةْ
وهي على السطحِ تمرّ بها الريحُ؟
أتبقى ورقةْ
بين الحائطِ والظلِّ وصمتِ الورقةْ؟
طفلٌ خارجَ أسوارِ البيتِ
وحيطانِ السطحِ
تُطاردُ عيناه الورقةْ
إذ تهبطُ نحو ترابِ الدربِ...
فتلتصقُ الورقةْ
بالأرضِ...
وتنطبقُ الورقةْ

كالزهرةِ، أو كالحَدَقهْ.
الطفلُ الآتي بالقصبهْ
والخيطِ
سيصنع من هذي الورقهْ
طائرةً. . .
أعلى من أسوارِ البيتِ
ومن سطحِ الصيفِ. . .
وأطولَ من ظِلِّ الحائطِ.
يُطلقها أبعدَ من نظرتهِ القلقهْ.

١٩٧٦/٦/٥

قصيدة حب

أعرفُ، إذ أنظرُ في عينيك، مسافةَ ما بين السافلِ والنجمةِ
أعرفُ أن خطئً واحدةً قد تغرقُ
لكن لا تتفرقُ. . .
أعرفُ أن ذراعاً أتوسدها تُحكم إغلاقَ مدينتنا
حين يدورُ السافلُ، أشيبَ، تحت الأسوارِ
وأعرفُ انكِ حينَ نثرتِ رصاصاتي اخترتِ
المسمومةَ منها. . .
أعرفُ أن عدوّي قتلتهْ امرأةٌ. . .
أنَّ الكلبَ الأدردَ لا ينهشُ، حين يجوعُ، سوى ذيلهْ.
سيدةً ستظلينَ
وناصعةً ستظلينَ
وساخنةً بين ذراعيَّ تظلينَ. . .
أحبّكِ. . .
يكفي أن تمتدَّ أصابعُنا، كي نمسكَ بالحقِ
ويكفي أن نتنفسَ، كي نتفرّسَ في الأفقِ المفتوحِ
ويكفي أن نضفرَ غصناً، كي يتجرجرَ كلبٌ أدردُ. . .

يكفينا أنَّا حينَ نكونُ معاً
ينطمرُ السافلُ، أشيبَ، تحت الأسوارْ.

١٩/٧/١٩٧٦

من أين تأتي القصيدة؟

فَجأةً، تُصبح القصائدُ أحجاراً. . . هو الصحوُ
في زمان التردي / الارتداد / الدريئةِ /
الأملِ المهصورِ. . .
من أطلقَ النسورَ على لحمِ الفتاةِ الوديعةِ؟
انتبهَ الحلاجُ. . .
بيتٌ على الذرى كان مسكوناً بأشباحنا
زماناً طويلاً.
واتّركناهُ، مسرعين إلى السوقِ
اشتَرينا شقائقاً
واشتُرينا ذمّةً
مَن يبيعُ ديناً بدُنيا؟
ربما كان للتعاملِ وجهاهُ، ولكننا رضِينا
بأن نُخدعَ. . .
حُبّاً لكلِ مَن كان في السوقِ؟
غباءً؟
ترفُّعاً؟
هل سمعنا للمعريّ؟

بيتُنا واتّركناهُ. . .
وأحجارُه العزيزةُ؟
هل ننقلُ أحجارَه العزيزةَ شِلواً بعد شلوٍ
لنبتني في ليالي السرِّ. . . . في القهرِ
صورةً؟
سورةً؟
أرضاً؟
بلاداً؟
هي الحقيقةُ أحجارٌ
ولكنْ. . . من أين تأتي القصيدةْ؟

١٩٧٦/٩/٢٠

السياج

بيتُه، كان منكشفاً لغبار الشوارعِ
كانت حديقتُه ـ وهي مزهوّةٌ بالقرنفلِ أحمرَ ـ
مفتوحةً للكلابِ
وللحشراتِ الغريبةِ. . .
مفتوحةً للسنانيرِ ذاتِ المخالبِ،
كانت زهورْ القرنفلِ إذ تتفتّحُ يومينِ ـ
مائدةً للكلابِ
وللحشراتِ الغريبةِ
مائدةً للسنانيرِ ذاتِ المخالبِ. . . .
كان غبارُ الشوارعِ يقتحمُ الورق الغضَّ:
مِلحٌ على الزهرِ
مِلحٌ على الشَعرِ
مِلحٌ على قمرٍ يستدير بأثوابهِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

ذاتَ يومٍ تذكّرَ كيفَ بنى جدُّهُ
المنزلَ العائليّ.

١٩٧٦/٩/٢١

لازمة

مِن الصعب أن ينتهيْ. . . .
كلُّ ما علّمْتهُ الطفولةُ مستوَرٌ في أصابعهِ:
شجرُ الراحلين
انحناءُ الكتابةِ بالفارسيّ
السفينةُ مائلةٌ في الخليجِ الصغير

*

من الصعبِ أن ينتهيْ. . .
في بلادٍ تُديرُ تواريخَها حولَ أعوادِها
أيُّ شيءٍ سيبدأُ
أيُّ امرئٍ ينتهيْ؟

*

من الصعبِ أن ينتهيْ. . .
كتلةٌ من زجاجٍ يُعالجها في كوابيسهِ
كتلةٌ من زجاجِ السفينةْ
كتلةٌ من زجاجِ النوافذْ
كتلةٌ من زجاجِ المصابيحِ
أو كتلةٌ من زجاجِ النبيذْ. . .

زجاجُ السُّمومِ المظللُ في آخرِ الصيدليةِ
هذا الزجاجُ ـ الكوابيسُ
هذا الزجاجُ الذي ظلَّ منذ الطفولةِ ينمو على رملةٍ /
يتكوّر / يشتدّ / يقتاتُ سرَّ الصبي / ارتعاشاتهِ
في البلوغِ المبكّرِ / أسفارَه / خطوَهُ المتوجسَ /
أوهامَهُ في الوصولْ. . .

*

من الصعبِ أن ينتهيْ.

٣/ ١٠/ ١٩٧٦

ليلية

«١»

في شارع ضاعتْ ملامحهُ، ستخمدُ آخرُ الشعلِ الصغيرةِ، تُغْلَقُ الأبوابُ سرّاً بالسلاسلِ، أيُّ نجمٍ في السماءِ يغيبُ دوماً؟ أيُّ أغنيةٍ نكتّمها؟

الشموعُ تُقطّر البستانَ حيثُ الطفلُ كان يسفّ طينَ النهر. . .

طيري يا حمامةُ. . . برهةً ويغيبُ غصنُكِ، شمعةٌ سقطتْ. تعبتُ من ارتداءِ ملامحيْ. وجهٌ من الصِخريج كان يدورُ. . . يبهتُ شارعٌ ضاعتْ ملامحهُ، ويبهتُ. . . يختفي في غُبرةٍ، ويغيمُ في عينيّ، أرصفُ فوق ذاكرتي حجارَتهُ الهشيمةْ.

«٢»

في قبرهِ، كانتْ مياهُ السيلِ ملحاً ليّناً، كان الصبيُّ يراقبُ الشهُبَ المضيئةَ فرقعاتٍ، نسوةٌ يبكينَ، والطفلُ اليتيمُ يطيرُ في سيارةٍ أولى. لماذا تَذْكُرُ الفيتاتُ اسمَ أبيهِ: يوسفُ. . . يوسفُ؟ انتبهتْ امرأةٌ، وقبَّلَ خدَّها. كانتْ مياهُ السيلِ ملحاً ليّناً، والنخلُ أبيضُ، والصبيُّ يراقبُ الشهبَ المضيئةَ فرقعاتٍ. ساحرُ الفتياتِ عَمُّكَ، كان يُطلقُ من يديهِ الشهبَ، والفتياتُ يصرخْنَ الظهيرةَ باسم يوسفَ. . . قبرُه

الطينيُّ يهبطُ في مياهِ السيلِ، والصرخاتِ، والشهُبِ المضيئةْ.

«٣»

لو كان لي برجٌ لعشتُ به وحيدا
لو كان لي قصرٌ لأسكنتُ الكلابَ به، لتحرسني وحيدا
لو كان لي امرأتان، لاستصفيتُ واحدةً، وعشتُ لها وحيدا
لو مرّةً كانت خطايَ على المياهِ ـ
لسرتُ حتى آخرِ الدنيا وحيدا. . .

١٩٧٦/١٠/٥

الشخص السادس

خمسةُ أشخاصٍ في الغرفةِ كانوا يتحكمونَ إلى شخصٍ سادسْ.

● بدأَ الشخصُ الأولُ لعبتهُ
فتسلّقَ بالحبلِ
إلى كرسيٍّ في السقفْ.

● والثاني أخرج كلباً أسودَ
من جهةِ الصدرِ اليسرى.

● والثالثُ أخرجَ «تأريخَ البشريةِ» من مكتبةِ الغرفهْ
وتَحاملَ فوق السلّم
حتى أوصلَ «تأريخَ البشريةِ» فوقَ الرفّ.

● أما الرابعُ فاستلّ عصا مغمدةً
وتناولَ «تأريخَ البشريةِ»
يَجْلدهُ ألفا...

● لكنْ الخامسَ إذْ جاءتْ نوبتهُ استخفى.

● ضحكَ الشخصُ السادس.
تَرَكَ الغرفهْ
أغلقَ بابَ الغرفةِ بالمفتاحْ.
ثم مشى في طرقاتِ الناسْ.

١٩٧٦/٩/٩

الليالي كلها

(١٩٧٦)

محاولة استبطان

تكونُ المقاهيْ
كما شئتَ، فارغةً، تعلنُ الساعةَ الواحدةْ
كراسيُّها، والهدوءُ على نبضكَ. . .
الآنَ، ضوءُ الشجيراتِ مِلْكٌ لعينيكَ
مِلْكٌ لعينين لم تبصرا وطناً هادئاً، كالمقاهي
ولم تعبرا غير قنطرةٍ بين قرنينِ فاتا.
فتاةُ النعاسْ
أتتْ. . . يَقرعُ الشارعَ الحجريَّ جناحا الحمامةِ
دارتْ قليلاً، وحطّتْ. . .
فتاةُ النعاسْ
تُحاور كرسيَّها، تحت أشجارِ مقهى
فتاةُ النعاسْ.
تُغادرُ كرسيَّها، تحت أشجارِ مقهىْ
تغادرْ.
على النبضِ تمرقُ خشخاشةٌ
والأصابعُ إذ تتهدّلُ. . . إذ تتلقّى جذورُ الكراسي
مفاصلَها المستدقّةَ ـ

هذي الأصابعُ. . . هل حملتْ للحجرْ
سرَّ نبضكَ؟
هل لجأتْ للحجرْ؟
والبرودةُ. . . أهيَ التي وصلتْ بين عينيكَ والأرضِ؟
أهي التي أوصلتكَ إلى الأرض؟
والنبض؟
خشخاشةٌ. . . أم شجرْ؟
تُرى. . . من يكون السجينَ الذي يلتوي في الأصابعِ. . .
في اللمسةِ الباردةْ؟
ومن جاء، في غفلةٍ، ليصُفَّ الكراسي، ويرصفَ داخلها المائدةْ؟
اجئنا معاً. . . من قلاع السجون القديمةِ
نحمل ازهارَنا
والرصاصَ الذي ظل في دمنا دائراً
واليدَ العامدةْ؟

١٩٧٥/٩/٢٢

قصيدة إلى وائل زعيتر

مرت العجلاتُ بِطاءً على الرملِ
مرت يداكَ على الرملِ
مرت يدايَ على الرملِ
ها نحن نسأل أشجارَنا. . .
أنت تسألُ زيتونةً
وأنا. . . نخلةً:
هل تركْنا على الرملِ غصنا؟
. . . . . .
مرت العجلاتُ بطاءً على الرملِ. . . .
هل مرت العجلاتُ بطاءً علينا؟
. . . . . .
. . . . . .
وجهُكَ المتطامنُ بين الوجوه التي كنتُ أعرفها
والبلادِ التي قد وُلدنا بعيدينَ عنها
أترانا البعيدينَ عنها؟
. . . . . .
. . . . . .

مرت العجلاتُ بطاءً على الرملِ. . .
هل مرت العجلاتُ بطاءً عليها؟
تفتح اللاذقيةُ أحجارَها
تتفتّح أحجارُها
للنحاسِ المبلّلِ فيروزةٌ. . .
ليت وجهَكَ إذ يتطامنُ في البحرِ يذكرني
مرةً، إذ مررنا بتاريخنا
بالموانئ مفتوحةً
بالقبائلِ ـ
آويتَني
وترفقتَ بي
وانتظرت وصولي إلى القدس في راحتيك.
. . . . . .
. . . . . .
تُرى، حينما تفتح اللاذقية أحجارَها
والنحاسُ المبللُ ينشفُ في النارِ
والبحرُ فيروزةٌ. . .
هل تقولُ: تذكرتُ؟
أيامَ كنا نمر بتاريخنا
بالموانئ مفتوحةً. . .
قل: سمعنا معاً رجفةَ العشبِ
حتى عرفنا البلادَ المقيمةَ في راحتيكَ

بلاداً نُحاورها بالبنادقِ

. . . . . .

. . . . . .

لو تهمسُ الآنَ:

إني تذكرتُ أيامَ كنا نمرُّ بتاريخنا. . .

عنباً لفلسطينَ، خبزاً لأطفالها. . . كنتَ

في غرفةٍ بأزقةِ روما،

وفي شرفةٍ بالكتاب الذي كنتَ تقرأُ. . .

أيَّ العذوبة كنتَ

وأيَّ العذابِ. . .

وأيُّ بلادٍ تخيّرتَ حبك فيها؟

. . . . . .

. . . . . .

هكذا؟

ألبغدادَ متَّ؟

أللقدس؟

أم للكويت التي كنتَ تكرهُ؟

كم يتطامن وجهُكَ بين الوجوهِ التي كنتُ أعرفُها. . .

مرةً. . . إذ مررنا بتاريخنا

بالموانئ مفتوحةً،

بالقبائل ـ

آويتَني

وترفقتَ بي
وانتظرتُ وصولي إلى القدس في راحتيك. . .
لماذا تراقبني؟
منذ عشرين عاماً تراقبني
نحن كنا صغيرين: نقرأ أشياءَنا،
نتهجّى، فنعرف أسماءَنا. . .
منذ عشرين عاماً تراقبني. . .

٢١/ ٥/ ١٩٧٥

ثلاث قصائد عن الأشجار

١ ـ معرفة

أيكونُ للأوراقِ أن تنمو بلا شجرٍ؟
أو أنّ وريقةً تلتمُّ حولَ خطوطها
سريّةً أولى؟
أيكون يوماً، للأنامل أن تُلامسَ قطرةً
في النهر واحدةً، وتسألَها:
أكان ضميرُها بالماء مغسولا؟
أهجستَ في الطرقاتِ
بين البيتِ والمقهى
وبين البارِ والجدرانِ ـ
نبضةَ خطوةٍ أولى؟
كنْ، مرةً، مَن كنتَ:
للأوراق ملتمساً
وللقطرات ملتمساً
وفي الطرقات ملتبساً
وإلاّ فلتكنْ كالجمرِ مبلولا . . .

١٧/ ١٠/ ١٩٧٥

٢ ـ أغصان

قرّبتُ غصناً لِصْقَ آخرَ،
ثم قلتُ: أموت بينهما.
وقلتُ: لعلّ غصناً ثالثاً ينمو
فيضفرَ كلَّ أوراقِ الغصونِ شُجيرةً...
ولعلَّ...
لكنّ الخريفَ يُباعدُ الأغصانَ
والأوراقَ
والموتَ الجميلْ.

١٦/ ١١/ ١٩٧٥

٣ ـ الخطوات العجلى

لي سِدرةٌ في بيت جَدِّي
كنتُ قد أنبتُّها من غصن مقبرةٍ...
وكنتُ أجيئُها بالماء والأسماكِ
والأملِ ـ الخرافةِ.
هكذا ارتفعتْ، ودارت خُضرةً أولى
وملتجَأً نلوذُ بهِ
ويأكلُ منه حتى الطيرُ...
يا شجرَ الطفولةِ
أيها الأملُ ـ الخرافةُ

أيها الشجرُ الذي حين اجتمعنا عندهُ
بعدَ الطفولةِ ـ
مزَّقت خطواتُنا العجِلاتُ مشتبَكَ الجذورْ

١٦/ ١١/ ١٩٧٥

خطوات

اكتفي من مرايا الحدائقِ بالمرأةِ الناحلهْ
والغليلِ الذي كان عندي
والقليلِ الذي صار عندي
والحوارِ الذي يتجانسُ في امرأةٍ ناحلهْ
كم رأيتكِ خلفَ الزجاجِ، وعَبْرَ الزجاجةِ. . .
كادتْ يدي تتحول باباً ويُفتَحُ، سيارةً وبطاقةَ
ملهىً صغيرٍ بأعلى العمارةِ، أو أسفلَ القبو،
ها أنت هادئةٌ تستكينين للشاي ينحلُّ شَيئاً
فشيئاً. . . ويأتيكِ، يدفأُ فيكِ. . انتظرتُ
ولكن شايكِ ما زال ينحلُّ، يحمرُّ، يَدفأُ فيك.
لم يَعدْ ملمسُ العشبِ مثلَ زهورِ القماشْ
إن في الشجرات القديمةِ رائحةً للحنينْ
ورائحةً لاحتراقٍ دفينْ
إن في الشجراتِ القديمةِ رائحةً للفراشْ
هل أرى وجهكِ اليومَ في ساحة السوقِ؟
إن الكنائسَ إذ تنحني وهي تُعلنُ ساعاتِها
كلَّ رُبعٍ، تناديكِ، والحارسَ التتريّ الذي

ظلَّ يُطلق بوقاتِهِ منذ ألفٍ يناديكِ، هل
أنتِ مثقلةٌ بالصفاتِ التي تجهلينَ؟ انتظرتُكِ
في ساحة الصوقِ، كل اللواتي يجئنَ،
أيُدنينَ لي صورةً منكِ؟ ها أنتِ خلفَ الزجاجِ،
وعبرَ الزجاجةِ، للعُنق المشرئبِّ تهاويلُ
وحشيتي النوادي الغريبهْ.
في النبيذِ الذي تشربينْ
كنتُ استفُّ طعمَكِ، أو أُمْسِكُ الفاختهْ
كنتُ بالنظرة الثابتهْ
أتحصَّنُ، أو أمسحُ الراقصينْ
غادر الراقصونَ الموائدَ، ضوءُ الصباحِ الشفيفُ،
على الشجر المتطاولِ والأعينِ المجهداتِ. الشوارعُ
تمتصُّ إقدامَنا والحديثَ الأخيرَ، تجيئين أنتِ معي؟
بل تجيءُ إلى شقتي. أين معطفكَ؟ البردُ
يمضي بنا مسرعينَ، تلوكينَ كلَّ الحديثِ المشاعِ،
وتنسَينَ أنّا انتهينا، وأنّا بدأنا، وأنّا
نسير إلى شقّةٍ في الضواحي.

١٩٧٥

حجر

كان صخراً، وكلّمتُهُ
حجراً مهملاً، بين بيتي وبابِ السماءِ الأليفهْ
حجراً لم يُلامس يدا
حجراً كان بين الندى والشموسِ الأليفهْ
حجرٌ
للنبيّ الذي كان يلعبُ
أو للصبيّ الذي كان يتعبُ
للنجمِ إذ ينطفي
حجرٌ
والمطارَدِ إذ يختفي
حجرٌ
للبلاد التي كرهتني. . . حجرْ
أيها المتطامنُ بين الندى والشموسِ الأليفهْ
هل تظل السماءُ الأليفهْ
مثلما جئتَها
حجراً أزرقا
حجراً أزرقَ الشفتينْ
شفةً من حجرْ؟

١٩٧٥

قصيدة مديح إلى مؤرخ مغربي

هكذا نغرقُ،
بين السفن اللائي تراءينَ، ورملِ الأنظمهْ
ربما، في لحظةٍ مستحكمهْ
يولَدُ الضباطُ، أو يهجرنا نسرٌ إلى الريفِ
ولكنا سنبقى دائرينْ
في زجاج «البلدِ المخزنِ». . . نحن المالئينْ
ـ كلما استُنفدَ بيتُ المالِ ـ أوراقَ الدواوينِ
وأوراقَ مرورِ الجندِ.
قالت في الحَريق الشجرهْ:
هذه النارُ التي امتدتْ إلى البذرةِ. . .
هل تنبتُ منها شجرهْ؟
كان في «سبتةَ» هذا الطفلُ. . .
لم يحملْ إلى الشاطئ، والبحرِ الذي يُغرقه وهماً
وما كان نبيَّ القهوة المغتربهْ
كان بين الأتربهْ
يفصلُ الصخرَ عن الرملِ، ويُقصي الأجوبهْ.
يُمطر الوحلُ على أسوارِ مرّاكشَ

تلك الوردةُ الطينيةُ الأوراقِ. . . أيامَ شممناها، تعلّقنا بها
ثم انكسرنا
مثلَها. . .
أيّانَ يأتينا زمانُ النظرةِ الأولى
وأيانَ ترانا قرطبةْ؟
نحن خلفَ العربهْ
قد تعلَّقنا وعُلّقنا قناديلَ
ولكنْ من زجاج «البلدِ المخزنِ». . . حيث المأدُبهْ:
حلْقةٌ من رؤساء البدوِ
في خانٍ على النهرِ. . .
سكارى
يحكمون الساعةَ المنقلبهْ.
هكذا نغرقُ بين السفنِ اللائي تراءينَ، ورملِ الأنظمهْ
ربما في لحظةٍ مستحكمهْ
يولَدُ الضباطُ
أو يهجونا نسرٌ إلى الريفِ. . .
ولكنا، سنبقى، دائرينْ.

٢١/ ١/ ١٩٧٥

الغابات

مرتين انتهيتُ إلى غابةٍ. . .
مرةً، كنتُ مستسلماً لرفاق الطفولهْ
للعيون التي كنتُ أقرأُ في عمقها السرَّ، والعمرَ، والسعفاتِ النحيلهْ
للأكفِّ التي كنتُ لاعبتُها
والثيابِ النديةِ بالطينِ، والأغنياتِ القليلهْ
غير أني انتهيتُ إلى غابةٍ. . .
ورأيتُ العيونَ التي كنت أقرأُ، مغلقةً عن سماءِ الطفولهْ
والأكفَّ التي كنتُ لاعبتُها. . . تحمل الخيزرانَ أنابيبَ موجِعةً
والغصونَ. . . بنادقَ
أين الثيابُ النديةُ بالطينِ؟
هل غادرتْنا الأغاني، وقد هاجمتْنا الأناشيدُ؟
يا غابةً للطفولةِ:
كيف أتيناكِ مستسلمينَ
وكيف انتهينا وحيدينَ
نبحث بين الأصابع عن موضعٍ للشجارِ
وعن موقعٍ للشجرْ؟
. . . . . .

. . . . . .

مرتين انتهيتُ إلى غابةٍ

مرةً: كنتُ مستسلماً لرفاق الطفولهْ

وأخرى: لنفسي

١٦/ ١٢/ ١٩٧٥

الغيم

يُقبل بين الشجر الناتئِ، والشوكِ الذي يخضرّ.
الغيمْ
يهبط مبتلاً، وفي هدأتِهِ يظمأ قلبُ الصخرْ.
الغيمْ
يسقط مرآةً نسينا وجهِها المغبرْ
الغيمْ
يلقي بنا فُجاءةً في القفرْ.
هذا الوريدُ المرتخي، بين المُدى والكفْ
هذا الردى الملتفْ
هذا الذي في لحظةِ الأَشباهْ
يفتح عينيَّ على مَرآهْ
ماذا رأى مني؟
ماذا رأى في غيمةٍ بين يدي والخوفْ؟
نمرقُ في حديقةِ الشارعِ، أو في الغابة الأولى؟
نغرسُ أزهاراً على كفٍّ
ومسماراً على كفٍّ
ويأتي الغيمُ مبلولا . . .

١٩٧٥/٨/٦

انتهاءات

تركْنا على رملةٍ بين وهرانَ والمغربِ البربريِّ
بَرانسَنا، وارتحلْنا إلى زمنٍ لائذٍ بالنخيلِ،
الطيورُ ترافقنا، والسفينةُ تندى من المطرِ
المتدافعِ والموجِ، هذا الصباحُ الأخيرُ، وهذي
الصنوبرةُ المستقيمةُ، أغطيةُ النوم منثورةٌ
في مخادع مَن ودَّعونا، وفي غرفة الفندق الساحليِّ
تمهَّدُ أغطيةٌ لعشيقينِ. وهرانُ تهبطُ
بيضاءَ زرقاءَ خضراءَ للبحرِ، طيرٌ وحيدٌ
يرافقنا، وصنوبرةٌ، ومحارٌ. نسافرُ. . .
أم ننثني نحن في زمنٍ لائذٍ بالنخيلِ؟
بلادي التي بين وهرانَ والمغربِ البربريّ:
لماذا تركتِ السفينةَ في ليلة الأربعاءِ؟
انتظرنا ارتباكاتِ أحداقنا إذ تجيئينَ
محلولةَ الشعرِ. نحن انتظرنا ارتباكاتِ
أقدامِنا في حبالِ السلالمِ، والسقطةَ
المستحبةَ في الماءِ. ليلٌ يطوّقنا ورصاصٌ.
بلادي التي بين وهرانَ والمغربِ البربريّ:

سمعْنا الرياحَ البعيدةَ بين نخيلِ الطفولةِ
مرهفةً بالأغاني، ولكننا ما سمعنا
أناشيدَ أعدائنا. خائبٌ سَمْعُ من لا يرى
في الظلام... السفينةُ تهتزُّ، وهرانُ
حاضرةٌ، ونخيلُ الطفولة تنصُلُ ألوانُهُ
في موانئَ مقرورةٍ. يختفي في فراش المحاربِ
سيفٌ قديمٌ...
ووهرانُ حاضرةٌ
والنخيلُ وريقاتُ مكتبةٍ
والسفينةُ تهتزُّ
تهتزُّ
تهتزُ
بين الرياح القديمهْ...

١٩٧٦/١/٥

حالة

شيخٌ في العشرينْ
يستيقظ، دوماً، في ساعات الصبح الأولى
يمشطُ شعراً مبلولا
ويُدير المذياعَ. ويُنصتُ للباكينْ
يختار قميصاً ورديّا
وحذاءً ذا كعبٍ عالٍ، وكتاباً أبيضْ
يقرأ شيئاً منه، وإذ ينهضْ
يصنع ما يقرأُ كرسيّا
في غرفته، حيثُ العملُ المأجورُ
ثلاثةُ أطفالٍ بُدَناءْ:
أولُهم: لا يقرأُ حتى نفسَهْ
ثانيهم: ضيَّعَ في مزبلةٍ رأسَهْ
ثالثهُم: يحلم بالفقراءْ.
كلَّ مساءٍ، يغلق شيخٌ في العشرينْ
شقتَهُ، وينام وحيداً
أمس، استيقظَ في منتصفِ الليلِ
تناول موساهُ

وحزَّ بيسراهُ وريدا
وأدارَ المذياعَ
وانصتَ للأتينْ.

١٩٧٥

حوار مع الأخضر بن يوسف

أتذكرُ؟
(إذ يُصبح الفعلُ ذكرى يضيعُ التساؤلُ)
يا سيدي. . . أيُّ طعمٍ لهذا المساءْ؟
وفي حانةٍ بالرباط رأينا الزجاجاتِ فارغةً. . .
والزجاجاتُ عشرون، فارغةٌ في المساءْ
وفارغةٌ في عيون النساءْ
وفارغة كلُّ تلك الزجاجاتِ
حتى التي قبعتْ في اليسار المؤطَّرِ بالزخرف العربيّ
وتلك التي غلّفتْني
وتلك التي خلّفتني على البار في حانةٍ. . .
سيدي
سيدي
سيدي الأخضرَ المرَّ
يا سيدي يابنَ يوسفَ
من لي سواك إذا أُغلقتْ حانةٌ بالرباطِ؟
ومن لي سواك إذا أُغلقتْ بالعراقِ النوافذُ؟
خلّفتَني في التعاملِ:

في أن تكون الرئيسيَّ والثانويَّ
وفي أن أرى الثورةَ المرحليَّةَ
والطبقاتِ الحليفةَ،
في أن تكونَ الرباطُ الحيادَ،
وفي أن يكونَ المحيطُ الخليجَ. . .
لماذا التقينا إذن؟

* * *

بأطراف تطوانَ أدركَنا الليلُ والبندقيةُ،
عبدُ اللطيفِ الذي لم يكن بعدُ في السجن أدركَنا
والجبالُ الشقية بالماء ما أدركتْنا
ولم يأتنا البربرُ المستريبون حتى بكأسٍ من العشبِ. . .
كنّا يتامى إذن!
آه من أمّةٍ لم تجدْ بعدُ ما يفصلُ الليلَ والبندقيةَ،
أو يَصلُ الليلَ والبندقيةْ

* * *

رأيتكَ في قرطبةْ
وكنتَ تبيعُ الجلودَ التي حملتْ رسمَنا
والجلودَ التي حملتْ وسمنا
والجلودَ التي نرتديها.

* * *

في الدار البيضاء
لم أسألْ عنكَ الماءَ ولا الميناءْ

كان الشرطيُّ دليلي
والبارُ الخامسُ في شارعِ سِيدي محمدٍ الخامسْ

* * *

سنجلس ـ إن شئتَ ـ حِينا
نفكّرُ في أمرنا مرةً
نفكّرُ في أمرنا مرتين
وننسى ثلاثا.

* * *

نسافر بين الجوازِ المزوّرِ والثورةِ المستحيلةْ
ونأسى، لأن القناعاتِ أكبرُ منا
وأصغرُ منا،
وأن الجبالَ التي ناولتْنا التشردَ كانت جبالَ القبيلةْ

* * *

ولكننا بين هذا الجوازِ المزورِ والثورةِ المستحيلةْ
وبين الجبالِ ـ القبيلةِ... كنا غريبينِ:
لم نأكلِ القمحَ أخضرَ
والوردَ أخضرَ...
لم نعرفِ الورقَ المتساقطَ...
هذا البذارَ البعيدَ، وتلك النجومَ القليلةْ
غريبينِ كنا عن الصخر تحت المياهْ
عن الماء تحت الصخورْ...
أكنا ضحايا الجوازِ المزورِ والثورةِ المستحيلةْ؟

* * *

فلنفتحْ أبوابَ الخشبِ الحصراويةَ. . .
أبوابَ الأكواخ القصديرِ،
وأبوابَ الكتبِ الممنوعةِ في غرفاتِ «القرويينَ». . .
لنفتحْ بابَ الموتِ
وبابَ الصمتِ
وأبوابَ القصرِ الملكيِّ. . .
لننسفْها بالحجرِ الطالعِ من أشجارِ الريفِ. . .
لِنَبْنِ العالمَ أجملَ. . .
أجملَ
أجملَ
وليرفضْنا العالمْ

* * *

هدأْنا، إذن، يابن يوسفَ؟
فليهدأ البحرُ. . .
للكلمات
ولي
ولكَ الآنَ. . . أن نستريحْ.

* * *

ويا سيدي الأخضرَ المرَّ. . .
يا سيدي
يابن يوسفَ:
من قال إنّا شقِينا؟

ومن قال إنّا لقِينا
ومن قال إنّا حُكمنا معاً. . . بالتداخلِ؟
ها نحن نشقى
وها نحن نلقى
وعبدُ اللطيف على ساحة السجن ملقى

١٩٧٤/٣/٣

ظهيرة

بين أن نتشهّى
وأن نتمشى معاً
ساحةٌ للترددِ
أو للتأملِ
أو للملالْ.
فكّري أنتِ:
هل نستطيع التحدثَ في مطعمٍ
أو نراودُ نهراً، فنغمسَ راحاتنا فيهِ...
أم نكتفي بالتنفسِ
أم ننطفي في سؤالْ؟
غير أني سأبقى إذا ما رأيتكِ
مضطرباً
خجِلاً
ممسكاً أولَ الخيطِ
منتظراً في الظِلال.

١٩٧٥

عن الأخضر أيضاً

مرةً سألوا نجمتينْ
كيف لا تمسيانْ
نجمةً واحدةْ؟
مرةً سألوا نجمة واحدةْ
كي لا تُصبحينْ
نجمتينْ؟
حينَ يضغطُ هذا الحديدُ الثقيلْ
على موضعِ الشنقِ في عنُقي
موضعِ العقدةِ الناتئةْ
خلفَ عنْقي
أيها الأخضرُ المتطاولُ. . .
أين تكون المدينةُ؟
تلك التي كانت «القرويينَ؟»
تلك الأزقةَ. . .
و«العَدْوة» القرطبيةْ؟
قل للطاهرِ بِنْ جَلّون
لِلُّعبيّ

لعلي يعتهَ
للصحف الموبوءةِ
Le petit marocain
هل أسبح في ميناءِ الصيدْ؟
أو أسبحُ في الشاطيءِ
حيث العلويون يقيمون منازلهم
ومباذلهم
تأتيني أنتَ
وجهُكَ يُصبحُ لي القانون. . .
تحبُّ مليكةَ؟
فاطمةَ؟
الهيبياتِ اللائي يسألنَ بمرّاكشَ؟
تحمل في الريفِ الغدّاراتِ؟
فرنسياً كالن سلاحكَ؟
اسبانيّاً؟
روسيّاً؟
أم حجراً في الصحراء يتيماً؟
قل: إن البربرَ يبنون حضارتَنا
قل: إن الثورةَ في قومية «س»
ستأتي من قومية «ص»
قل: إن الأوغاد
والنسوةَ والضباطَ يجيئون إلى الدار البيضاء

بالأنباء عن السفنِ المملوءةِ سوّاحاً
تبغاً أشقرَ
قنيناتٍ لا يشربها أحدٌ
قل: إن المصعدَ قد عُطّل
قل: إن فتاةَ البارِ تراقبنا
قل: إن محدثَكَ الليلةَ يرسمُ في السرِّ محاكمةَ الزهرةِ. . .
لكنْ. . .
ماذا ستقول عن القتلى؟
ماذا ستقول عن المشنوقين. . .
عن امرأةٍ بثياب العرس يُراقصها حبلٌ. . .
عن كل الجبل المخلوقِ وأرضَكَ؟
هل تملك تلك القنبلةَ الذريةَ كي تهدأَ؟
كي تجعلَه صحراءَ يهيم بها البدُو،
تغادره الحربُ أقانيمَ موطّأةً؟
قل. . .
فالنجمةُ كانت واحدةً
النجمةُ عادت واحدةً. . .
والناسُ سواسيةً
والثورةُ ناجحةً
والعمالُ لهم نادي الشغّالين
لهم رجلٌ يعرف كيف يصوغ الكَلِمَ المطلوبَ
ويكسرُ اضراباتِ العمالْ. . .

لقادتهم عشراتُ السياراتْ
لقادتهم عشراتُ الرشواتْ
أأخطأْنا العدَّ؟
إذن. . . فَلْنَعُدِ الليلةَ للشعر الصافي
للأدب المأبونْ:
للأدب المأبونْ:
مرةً سألوا نجمتينْ.
لم لا تمسيانْ
نجمةً واحدةْ؟
مرةً سألوا نجمةً واحدةْ
لم لا تصبحينْ
نجمتينْ؟

١٩٧٤/٦/٢١

تقسيم

حين كانت تجيءْ
خطواتُ الصنوبر، رائحةً للمياه التي سكنتْ شجراً
وغيوماً تضيءْ
كانتِ الأرضُ بيتاً، وكانت يداها يديكْ
وأغصانُها ساعديكْ
حين كان المساءْ
نجمةً حاصرتْها المرايا
خطوةً في الطريقِ المعاكسِ، أو جهشةً في الخلايا
كنتَ تعرفُ أن المساءَ المحاصَرَ بين المرايا وبين الخلايا
قادمٌ في المساءْ.
حين أدركتَ أن الصباحْ
ما يزال بعيداً. . .
وأنْ على الأرض أن تبتدئْ
كنتَ أقربَ أن تبتدئْ

٢٠/ ٩/ ١٩٧٤

منزل المسرات

آه، لقد غدا صاحبي الذي أحببت
ترابا.
وأنا، سأضطجع مثله
فلا أقوم أبد الآبدين.
فيا صاحبة الحانة:
ـ وأنا أنظر إلى وجهك ـ
أيكون في وسعي الاّ أرى الموت
الذي أخشاه
وأرهبه؟

كَلكَامش

تُزهر أشجارُ الكافورِ
عصافيرَ،
وتُزهرُ أشجار الكافورِ
روائحَ مشتبهاتٍ
إذ يختلطُ الشارعُ، والأمسيةُ الرطبةُ، والأشجارْ.
الجدرانُ غصونٌ
والإسفلتُ طريقٌ ريفيٌّ يلمعُ فيه النهرُ
ولوحاتُ السياراتِ،

وثوبُ فتاةٍ تسرعُ. . .
كان المنزل في زاويةِ الشارعِ
يُخفي عبرَ نوافذِهِ سهرَ الليلِ الفائتِ
أو سهرَ الليلِ القادمِ
أو ثوبَ فتاةٍ يُنزعُ
في سهَرِ الليلِ الفائتِ
أو سهَرِ الليلِ القادمِ
أو في مقعدِ سيارَهْ
. . . . . .
. . . . . .
أشجارُ الكافورْ
مصباحٌ أخضرُ في بابِ المنزلْ
وسراويلُ نساءٍ في الأغصانْ
أشجار الدُّفلى
تندسُّ، مع الليلِ الثابتِ
والأوراقِ الماليةِ
والصفقاتْ.
أشجارُ السدرِ تراقب كلَّ خريفِ الشارعْ
تتشبّثُ بالأوراقِ المصفرّةْ
بلحاءِ الشجرِ المتشققِ. . .
أشجارُ السدرِ تؤرجحُ في السرِّ مقابرَها
تفتح للبومِ عيوناً ماكرةً. . .

أشجارُ السِدرِ تراقبُ بابَ المنزلِ:
تأتي الفتياتُ
وتمضي.
تأتي السياراتُ
وتمضي.
يأتي الليلْ...
وعيونُ الفتياتِ، غبارٌ ليليٌّ
ومياهٌ يثقلها الملحُ...
وتنقلُها عجلاتُ السياراتْ.
.....
.....
.....
في المنزل، يدخل سادةُ منتصفِ الليلِ
ووحشةُ بردِ الليلِ
وآخرُ غدّاراتِ الليلِ
وازهارُ الدُّفلى.

١٣/ ١/ ١٩٧٥

وحدة

ذاتَ صباحٍ لاحظتُهما مسرعتينِ
تسيرانِ معاً. . .
في الشارع شيءٌ من رائحةِ اللوزِ. . .
أأختان هما؟
لاحظتُ قليلاً خطواتِ القططِ اللائي هذّبها التدريبُ. . .
لماذا أحسستُ بأن اللوز يلاحقني
وبأني أعرف شيئاً عن أختينِ. . .
تسيران صباحاً مسرعتينْ؟
كلَّ صباحٍ. . .
حين الساعةُ عاشرةٌ أقلقُ. . .
هل ستمرانِ؟
تمرانِ. . .
وألمسُ رائحةَ اللوزِ
وباطنَ كفِ القطةِ. . .
ثم تغيبان مع الأشجارِ
وفي منعطَفِ الشارعِ. . .
في آخر زاويةٍ من نافذتي.

أحياناً تلتفتان
فأرى خيطاً يصلُ الغرفةَ
والأشياءْ.

١٥/ ١/ ١٩٧٥

سقوط فندق النهرين

لا تَبعُدُ الصحراءُ عنهُ.
وإذ يدورُ النخلُ في غرفاتِه، يغبرُّ مثل الماءِ
في النهر القريبِ، وفي الأنابيبِ القديمهْ
كانت طوابقُه الثلاثهْ
مبنيةً بالجصّ والآجرّ، ينفتح الزجاجُ الإنجليزي الثخين بها على بار الحديقة والزوارقْ
ولربما كان الطريقُ إليه أقصرَ حين تختار اليمينْ،
ولربما فكرتَ: ما أبهى الحدائقْ.
في فندق النهرين
عاشرْنا، وقامرْنا
تعلمْنا مراوغةَ الكحولِ ـ السمّ،
في غرفاته... يوماً تزوجنا
وجئنا بعد أن دارتْ بنا السنواتُ
جئناه نجرّ صغارَنا، يتعرفون على حدائقهِ...
وكنا مرهقينَ بما تحمّلْنا.
لم ندر أنَّ الجصَّ والآجرَّ...
لم نشعر بأن الماءَ كان يسيلُ...

أن السقفَ. . .

آهٍ. . . بعد أن دارتْ بنا السنواتُ

جئناه، نجرُّ صغارَنا، يتعرفون على حدائقهِ

وكنا مرهَقينَ بما تحمّلْنا.

١٩٧٤/٦/٢٥

تلمس

يرتدي في المساء المخطط، ثوباً من الخوص والقطنِ. . .
كان الطريقُ إلى القصر يمتدُّ. . .
يمتدُ. . .
يمتدُ. . .
حتى يضيقْ.
والمساطرُ تهبط من قمم النخلِ
ماثلةً في التراب المعلّقِ
ما بين أردانهِ والطريقْ.
فزَّ في نخلةٍ طائرٌ
ـ ربما كان فاختةً ـ
ثم أرخى جناحيه، واختبأ العنقُ البضُ في ريشهِ
والمساءُ المخططُ يفقد أشكالَه الهندسيةَ
والثوبُ يفقدُ تنويعةَ الخوصِ،
مستغرقاً في المساء العميقْ
والطريقُ إلى القصر يعرضُ. . .
يعرضُ. . .
يعرضُ. . .

حتى يضيعْ
كان يرسمُ في خوفهِ سِدْرةً
كان يرسم قبراً. . . وعينين جوّالتينِ
وفي صوبه. . . فَجأةً. . . كان قلبٌ يدقُ. . .
يدقُ. . .
يدقُ. . .
وفي شفتيه رمادُ الغريقْ.

١٩٧٤ ـ ١٩٧٥

الرسائل

من الصخر تأتي الرسائلُ، في الليل تأتي، تدور
على لمسات الأصابعِ، حاملةً ملمسَ الحجرِ الخشنَ
والبهجةَ الناعمةْ.
أبقيتَ لي ما لا يخونُ الرأيَ، أبقيتَ التفرُّسَ...
ثم ماذا ارتجي لو قلتَ لي يوماً: منعتُكَ
نظرةً أولى، ولو أسررتَني يوماً: منحتُكَ
أن تقرَّ العينُ راضيةً؟ هي الأعشابُ تحفرُ
في عروقِ الصخرِ... تحضرُ في سماءٍ كلما
استترتْ أرَتْ، يا بِضعةً من وردةِ الشهداءِ،
شمسٌ أنتَ: بارقةٌ وظلُّ.
ومن أول الريح تأتي الرسائلُ، في الفجر تأتي،
لتحملَ لي لهفةً من عيونٍ أُحِبُّ استداراتِها لهجةً
للعواصفِ إذ تتكوّرُ، والمدنِ العاصمةْ.
أيامَ فكَّرْنا بأنَّ العالم الحجريَّ حِرفتُنا، وأنَّ
هواءَهُ الموبوءَ يُبْلغُنا الأقاليمَ البعيدةَ...
إن طيراً واحداً للنار يشعلُ كلَّ أحجارِ الخليقةِ...
فلنفكّرْ مرةً أخرى: تكون الريحُ اهدأَ حينَ

نرفعُ رايةً في وجهها، وتكون أوضحَ. . .
أيَّ بيتٍ للعواصف تسكنُ الراياتُ!
أيُّ مدينةٍ في واجهاتِ الريحِ تسألُنا وتغلو. . .
وفي موجةٍ من جداولَ لم نستعدْها، تجيء الرسائلُ. . .
أيُّ اختلاف أمام المياه القديمةِ؟ هل طوّقتْ
ساعديَّ الجداولُ؟ لو طوّقتْ ساعداي الجداولَ. . .
لو كنتُ في السِّرِ أجراسَها النائمةْ.
للماء حين يغورُ رائحةٌ. . . أيخطئ طائرٌ أسماءها؟
للماء حين يفور مملكةٌ مقدسةٌ، وجوقةُ منشدينَ
وفرقةٌ بيضاءُ. . .
يمضي فارسٌ في الليل نحو النبع، أين تريدُ
يا ملكَ التفرّسِ؟ إنه يمضي، وإثْر خطاهُ
نجمُ الشرق، عند النبعِ تغتسلُ الحوافرُ
مرهفاتٍ. . . إنه في النبع يدخلُ. . .
كان ماءُ الليل أسودَ
كان أزرقَ
كان أبيضَ
كان ماءُ النبعِ يعلو. . .

١٩٧٦/٢/٩

السكون

الرياحُ التي لا تهبُّ العشيّةْ
والرياحُ التي لا تهبُّ الصباحْ
حمّلتْني كتابَ الغصونْ:
أن أرى صيحتي في السكونْ.
يهبط الليلُ، أزرقَ، بين الخطى والنجومِ... أرى
شجراً أزرقاً، وشوارعَ مهجورةً، وبلاداً
من الرملِ، لي وطنٌ... ثم ضيعتُهُ، لي بلادٌ...
وهاجرتُها... كم أحسُ النجومَ القريباتِ
ملصقةً بالخطى، أيها الشجرُ الأزرقُ، الخشبُ
الأزرقُ... الليلُ... إنّا انتهينا إلى عالمٍ
يتراكمُ، أو يبتدي، أو يموتْ.
شجرٌ للأكفّ التي قُطعتْ. شجرٌ للعيون التي
سُملتْ. شجرٌ للقلوب التي مُسختْ حجراً...
في المدينة، تدنو الحدائقُ زرقاءَ من وسط المقبرةْ.
والأكفُّ التي قُطعتْ لا تميلُ، العيون التي
سُملتْ لا تميلُ، القلوبُ التي مُسختْ
حجراً... لا تميلُ...، إذن... هل تجيءُ

الرياحُ الغريبةُ؟ أن الحدائقَ مسكونةٌ بالسكونْ.
للمآذنِ لونُ المياهِ القديمةِ. للناسِ لونُ الخيولِ
المسنَّة. للكتبِ التتريةِ ختمُ الرقابةِ...
أيَّ بلادٍ أتيتَ؟ هنا: سوف تدخلُ باباً،
ومختبراً للعذابِ، وسوف ترى في الحدائقِ يوماً
ذراعَكَ، عينيكَ، أو قلبكَ المتسارعَ...
لكنك اليومَ أقوى، فقلْ كلماتِكَ... قُلْها...
فبعدَ غدٍ تبتدي، أو، تموتْ.
الرياحُ التي لا تهبُّ العشيَّةْ
والرياحُ التي لا تهبُّ الصباحْ
حمَّلتْني كتابَ الغصونْ:
أن أرى صيحتي في العيونْ.

٣/ ١١/ ١٩٧٤

هواجس

أحياناً، أخطو في الظُّلمهْ
اتتبَّعُ شطآناً ومشاهدَ من ورق الرسم
ومن مدنٍ أفريقيهْ
هكذا، يتنأى عن الرجسِ، يحملُ تعميدَهُ في
زجاجةِ خمرٍ، ويَهدمُ أشكالَهُ. مدنٌ من جنودٍ
تمرُّ، قرىً للحراسةِ. يا غُصناً مثقلاً بالثمارِ. . .
لماذا تظلُ الرياحِ جنوبيةً؟ إنه يستعيرُ
الوجوهَ التي غادرتْ، والبلادَ التي قد أَحَبَّ،
وأصواتَها الناحلةْ.
أحياناً، أهبطُ في (السلمان) على حبة رملٍ
أبحثُ فيها عن يومياتٍ مدفونهْ
عن لمسةِ كفٍّ، ما زالت تنبضُ تحت الرملِ
بأرضٍ أخرى
في المساء يودّعنا دائماً، ثم يُصبح ذكرى. . .
بأيّ قرارٍ هوى؟ تحتَ أيّ جدارٍ تدحرجَ
مختَرماً بالرصاصِ؟ وماذا نقول له لو أتى
في الزيارةِ سريةً؟ كيف نُخفي شواهدَهُ

الشجريةَ عمّن يجيئونَ؟ يا وطناً للشواهدِ
والنظرةِ الغافلةْ؟
أحياناً، أصغي في الليل إلى نَفَسي
أحصي الطلقاتِ المكتومةْ
وخطوطَ الهْجسِ. . . وأسألُ عن حَرَسي.

١٩٧٦/١/٤

الليالي كلها

في زمن الفتنةْ
والقتلِ، سأغمض عينيَّ. . . وانظرُ للقتلِ
أحاصرهُ حيناً
وأحاوره حيناً
أو أرضى حيناً بالقتلْ.
تسقطُ في الماءِ الشمسُ الريفيةُ. . .
عمالٌ يضعون على الماءِ رصاصَ ملابسِهمْ
ويصلُّون ليومٍ لا يأتي
عمالٌ يفدون إلى بيتي
كلَّ مساءٍ، حين تغيمُ الطرقاتُ
وتُغلَقُ أبوابُ الكتبِ الأولى
عمالٌ أمواتْ
عمالٌ قتلى
عمالٌ حملوا الراياتْ.
. . . . . .
افتحُ أرشيفاً للثوراتْ.
يسألني الأول: هل تعرف عنّا؟

يسألني الثاني: هل تخجل منّا؟
يسألني الثالثُ: هل تسأل عنا؟
ينتصفُ الليلُ على الكتبِ المفتوحةْ
ويغادرني العمال
العمال الأموات
العمال القتلى
العمال الرايات
لتظلَّ الكتبُ المفتوحةْ
أرشيفاً للثورات
وسماءً تعبرُ منتصفَ الليلِ
وتمتصُّ رصاصَ اللون الأزرقِ
والعشبَ،
وأوردةَ الكفِ المرخاةْ
في الصبح أُحَصّنُ بابي

١٩٧٤/٨/٢٨

بغداد الجديدة

تأتيني حين تحاصرني أبخرةُ العَرَقِ المغشوشِ. . .
بصحنِ حساءْ
تأتيني في الهاجرةِ المغبّرةْ
تأتيني كلَّ مساءٍ يخطفه الليلُ. . .
بنجمِ مساءْ
في المقهى، تجلس حول الشاي المرِّ
وفي السوق تبيع الجبنَ
وأكبادَ الجاموسِ،
وتنفضُ كلَّ دكاكينِ ملابسِها المستعملةِ المكويّةْ
باحثةً عن عظمٍ في صحنِ حساءْ
وحليبٍ في شفتي طفلٍ
وبريقٍ في عينينِ
وشيء لا تعرفه امرأةٌ
وشوارعَ لا يخضوضرُ فيها الماءْ
في الليلِ
تطوّفُ بين بيوتٍ هاجَرَها الفقراءُ
وبين كنائسَ يَرْهَفُ فيها القدّاسُ

وبين منازلَ تُغْشى فيها فتياتُ الفقراءْ
في منتصف الليلِ
تعود إلى المختَبإِ المسحورِ، وراءَ شوارعِها الطينيةِ.
حاملةً خبزَ الموتى
وزهورَ الآسِ
وشيئاً من كبدِ الجاموسِ
وعظمينِ لصحنِ حساءْ
في الفجرِ تدورُ على كلِّ منازِلها
توقظ كلَّ بنيها
تدفعُهم في وسطِ الشارعِ. . .
آلافاً، ينتظرون السيرَ إلى بغدادْ

٨/ ٤/ ١٩٧٥

تحت جدارية فائق حسن

(١٩٧٤)

قصيدتان

نحن لم نحتكم

لم تَضِـعْ، أو تُضيَّعْ، فأنتَ الحقيقةُ منثورةً في الترابِ الذي نتنفسُ أو نجتلي، أنتَ عبرَ العراقِ: المسافةُ، تاريخُه القرمزيُّ وأطفالُه القادمونْ.

*

في خلاياكَ ـ هل نتذكر سرَّ التناسخِ؟ ـ آخيتَ بين الحجارةِ والمستحيلِ، إذنْ، نحن في السرّ ننهضَ... كلُّ الوجوهِ التي اخترقتْ حاجزَ السيفِ تأتيكَ في ورقٍ قد يكونُ الجريدةَ، أو غَسَقٍ قد يكونُ الغصونْ.

*

منذ كنا صغاراً عرفناكَ، في وطنٍ، أنتَ سميتَه... في رجالٍ تخيرتَهم، كالبداهةِ... كالمنتهى... نحن لم نحتكمْ، والبنادقُ والعشبُ لم تحتكمْ مرةً، والطريقُ التي جئتَها لم تمِلْ... إنها السالكون.

قصيدة

حين صافحتَني . . .
صار كلُّ اغترابي
هاجساً للجذور

١٢/ ٢/ ١٩٧٤

في تلك الأيام

١

في أول أيارَ دخلتُ السجنَ الرسميَّ،
وسجّلني الضباطُ الملكيونَ شيوعياً،
حوكمتُ ـ كما يلزم في تلك الأيامِ ـ وكانَ
قميصي أسودَ، ذا ربطةِ عنقٍ صفراءَ،
خرجتُ من القاعةِ تتبعني صفعاتُ
الحراسِ، وسخريةُ الحاكمِ. لي امرأةٌ
أعشقُها، وكتابٌ من ورقِ النخلِ، قرأتُ به الأسماءَ الأولى.
شاهدتُ مراكزَ توقيفٍ
يملؤها القملُ، وأخرى يملؤها الرملُ،
وأخرى فارغةً إلاّ من وجهي.

* * *

يومَ انتهينا إلى السجن الذي ما انتهى
وصّيتُ نفسي وقلتُ المشتهى ما انتهى
يا واصلَ الأهلِ خبِّرهم وقلْ ما انتهى
الليلَ بتنا هنا، والصبح في بغدادْ

٢

أحتفلُ الليلةَ بالقمر الزائرِ من خلفِ
القضبانِ، لقد رقد الشرطيُّ، وأنفاسُ
«السيبةِ» مثقلةٌ برطوبةِ شطِّ العربِ،
التفتَ القمرُ الزائرُ ناحيتي، كنتُ أدندنُ
في ركنِ المواقفِ.. ماذا تحملُ لي في
عينيكَ؟ هواءً ألمسهُ؟ وسلاماً منها؟
كان القمرِ الزائرُ يدخل من بين القضبانِ
ويجلسُ في ركن الموقف. مفترشاً بطانيتيَ
السوداءَ، تناولَ كفي: محظوظٌ أنتَ.
وغادرني.. أبصرتُ بكفي مفتاحاً من فضةْ.

* * *

كلُّ الأغاني انتهتْ إلاّ أغاني الناسْ
والصوتُ لو يُشترى، ما تشتريه الناسْ
عمداً نسيتُ الذي بيني وبين الناسْ
منهم أنا، مثلهم، والصوت منهم عادْ

٣

في الثالث من أيار، رأيت الجدران الستةَ
تنشقُّ، ويخرجُ منها رجلٌ أعرفهُ، يلبسُ
سروالاً عملياً، وقلنسوةً من جلدٍ أسودَ،
قلتُ له: كنتُ أظنكَ سافرتَ.. أما كانَ

اسمُكَ بين الأسماء الأولى؟
أو لم تتطوعْ في مدريدَ؟ أما قاتلتَ وراءَ
متاريسِ الثورةِ في بتروغرادَ، ألم تُقتلْ في
أضرابِ النفطِ؟ أما شاهدتُكَ بين البرديّ
تعبّئُ رشّاشاً؟ أَوَلم ترفعْ للكومونةِ رايتَها
الحمراءَ؟ أما كنتَ منظّمَ جيشِ الشعبِ
بسومطرةَ؟
خذْ بيدي. فالجدرانُ الستةُ قد تُطبق بين
اللحظةِ والأخرى... خذْ بيدي.

* * *

يا جارُ آمنتُ بالنجم الغريب الدارْ
يا جارُ نادتْ ليالي العمرِ: أنتَ الدارْ
ياما ارتحلنا وظلَّ القلبُ صوبَ الدارْ
يا جارُ لا تبتعدْ... دربي على بغدادْ

١٩٧٣/٣/٣١

خاطرة غير متشنجة

أقولُ: صباحاً لدجلة..
إن الصباحَ الذي كان مغتسِلاً هو والعشبَ يقتادني
من يديَّ، ويجلسني قبلَهُ:
هذه المصطبةْ
تضمُّكَ والناسَ...
قد ترتأي أنكَ المتفضلُ...
من يُوقف النفسَ (إذ تتواطأُ والنفسَ) قُدّامَ مفرزةٍ؟
ربما كانت المصطبةْ
كما شئتَها، بين مرسى الزوارقِ والجسرِ، مشغولةَ...
هل ترى تفقدُ الأجوبةْ؟
وهذا الصباحُ الذي جئتَهُ أنتَ؟
كان الصباحُ جديداً على العشبِ...
فكّرتَ: إن الحياةَ الجميلةْ
تظل ضروريةً كالزوارقِ والجسرِ...
ها أنت تخدعُ حتى العبارةَ،
تستلُّ ـ مثلَ خبيرِ القنابلِ ـ كلَّ الفحولةْ
وتلقي بها: زهرةً في حياةٍ جميلةْ

إذن. . . أنت تقنع بالجلسةِ الهادئةْ
على ضفة النهرِ:
تمضي المياهُ
أمامكَ، والنخلُ يمضي، وتمضي الحياهْ
ولكنّه جاءَ. . .
ها أنت تُصغي إلى خطوةٍ منه مكتومةٍ،
كنتَ تُصغي
إلى هاجسِ العشبِ تحت الحذاءِ الممزّقِ،
إلى دورةِ الخبزِ في دمه. . . البارحةْ
يسارَ الذي يجلس الآن قربكَ:
يبتدئُ الجسرُ،
يبتدئُ الباصُ أحمرَ رحلتَهُ،
تتبعُه أنتَ. . .
يبدو لك الباصُ في وسطِ الجسرِ مرتجفاً ثابتاً،
لحظةً. . . ثم يمضي
إلى آخرِ الجسرِ. . . أحمرَ، مندفعاً في السماءِ العريضةْ.

بغداد ٧/ ٦/ ١٩٧٣

أوراق من ملف المهدي بن بركة

١

يتبادلُ والمغربَ العربيَّ الرسائلَ، كلُّ الطوابعِ
صورتُه، والخطوطُ التي يدرسُ الخبراءُ اندفاعاتِها
خطّهُ. كان يحفظ تاريخَ مولدِهِ... قال للمخبرِ
اليومَ: هل نتعشى معاً؟ مَرَّ بالمطبعةْ.
في الصباح تأخّرَ عن شُربِ قهوتِه، ظلّتِ الغرفةُ
الجانبيةُ مغمورةً بالضياء إلى الفجرِ... هل كان
يقرأُ؟ باريسُ تفتحُها شاحناتُ الأقاليمِ بالجَزَر
المتوردِ والخضرةِ المشبعةْ.
جاءه رجلٌ يرتدي معطفاً مطرياً... تلفّتَ واجتازَ
بابَ العمارةِ... ماذا يخبّئُ هذا الذي جاءهُ
أمسِ
أيضاً: أفي المعطفِ الخبزُ والجبنُ والبرتقالةُ؟
ها هو ذا خارجٌ
خارجٌ
خارجٌ...
بين بابِ العمارةِ

والسلّمِ المتطامنِ أدركتُه. . حينَ أبصرتُ عينيهِ
قررتُ أن أتبعَهْ

* * *

تبدين شاحبةً، رأى قسماتِكِ الفقراءُ في صيفِ الرباطِ
أكنتِ خلفَ السورِ زهرةْ؟
إني مددتُ يدي إليكِ. . . لمستُ وجهَكِ
كنتِ ساخنةً. . . فلم أقْبلْ سواكِ، ولم أعانقْ
ها هم جياعُ المغربِ العربيّ، مثلي،
يمنحون بهاءَكِ السريَّ سِرَّهْ
ها هم جياعُ المغربِ العربيّ ينتشرون باسمكِ
ينتشرون على اسمِكِ الممنوعِ أوراقَ الخلايا والحدائقْ
هل تذهبين معي؟
سندخلُ عَتمةَ الحاناتِ
ندخل عَتمةَ الأكواخِ
ندخل عَتمةَ الثُكناتِ
ندخل عَتمةَ الوطنِ

٢

آه. . . بِنْ بركةَ الجالسَ اليومَ بين الرصيفِ
وبين الرصافةِ، في مشربٍ للمغاربةِ اللاجئينَ:
انتظرتُكَ يومينِ، أتعبني الانتظارُ، فغادرتُ
حَيطتيَ المستمرةَ، حتى سألتُ الصحافيَّ

ذا اللحيةِ الفوضويةِ، لكنه لم يجبني
قال لي مخبرٌ: «عاد من رحلةٍ في الضواحي».
إذن كنتَ في حارةٍ بالحزام الشيوعيّ
حيثُ الأفارقةُ القادمونَ من المدنِ المتسولةِ النورَ،
أو من مساجدِ تلك القرى وهي تنهار في ليلها المطمئنِّ.
إنه الشخصُ ذو المعطفِ المطريِّ... الذي كنتُ
فاجأتُه مرةً... يدخلُ المشربَ الآنَ... يجلس قُدّامَ
بِنْ بركةَ المتحدثِ... يُحكمُ نظارتيهِ، ويُنزل
حافةَ قبعةِ الجوخِ، يشربُ قهوتَهُ: رشفةً
رشفةً... كان ضابطَ أمنِ.

* * *

إذ ألمحُ القرميدَ في البيت الذي غادرتُه زمناً،
أحسُّ المخبرين على جبيني
يتحسسون غضونيَ الأولى
ورعشةَ هُدبيَ الأولى،
ورائحةَ الشرايينِ الغريبةْ.
إني أحسُّ بهم: أصابعُهم تجسُّ بريقَ عيني وهي تبحثُ
عن معادلةِ السجينِ
إني أحسُّ بهم: على ورقِ الكتابةِ يتركون أوائلَ البصماتِ،
يغتصبون أزهارَ الحبيبةْ
إني أحسُّ بهم: يجالسني على كرسيّ مكتبتي فتىً منهم
يوشرحُ لي شؤوني

حاولت أن أترصّدَ البابَ الوحيدةْ
غيّرتُ مفتاحي
وضعتُ جهازَ إنذارٍ بذاكرتي
هجرتُ موائدَ الباراتِ
حصّنتُ النوافذَ بالنحاسِ
وإذا هدأتُ دخلتُ مكتبتي:
هنالك عشرةٌ يتناولون شرابَهم فيها.

٣

في المطار تلبثتُ بين رجالِ الجماركِ... كنتُ أراقبُ
كلَّ الذين يجيئون من ساحلِ المتوسطِ أيقظَني رجلٌ
من رتابةِ تلكَ الوجوهِ التي تقطعُ المعبرَ الضيقَ
الصدرِ، شاخصةً نحو ما تحملُ العرباتُ، وما تفعلُ
الفتياتُ، وما تشتريهِ المغاورْ
كان شخصاً طويلاً، طويلَ الخطى، ربما كان
في الجيشِ حتى عشيةِ أمسِ... اجترأتُ فساءلتُه عن مناخِ
الرباطِ... ولكنه لم يُعرني انتباهاً، ولم يلتفتْ لي....
ترى... هل تعمّدَ إخفاءَ عينيه وسْطَ الحقيبةِ، وهوَ
يحاولُ أن ينتهي مسرعاً من قناعِ المسافرْ؟
عدتُ ثانيةً: مشربُ اللاجئينَ المقاربةِ. ارتحتُ
حين وجدتُ الذي كان في الجيشِ حتى عشيةِ أمسِ...
فها هو ذا هادئٌ وحدَهُ، يشرب الشايَ ـ هل كنتُ

شخصاً ذكياً؟ ـ لقد دخلَ الشخصُ ذو المعطفِ المطريِّ،
تلفّتَ، ثم استدارَ إلى حيث يجلس ذاك. تركتُهما
واتجهتُ إلى حيثُ يسكنُ بِنْ بركةَ المتأخرُ. أحسستُ
أني بنفسي أغامرْ.

* * *

القتلُ يلبسُ خُفَّ راقصةٍ تراودني...
ترى المدنَ الغريبةَ قاعةً للرقص ضيقةً،
لماذا تنظرين إليّ هادئةً؟
أتنتظرين خطواتيَ الأخيرةْ؟
أنا لا أجيدُ الرقصَ...
أحملُ في الشوارع رايتي، لم أُخفها يوماً
وربتما انتهيتِ إليّ عن خطأٍ،
وربما لمحتُكِ في بداياتِ المسيرهْ
لكنّ أغنيةَ الشوارعِ لم تضقْ يوماً كما ضاقتْ هنا..
ها أنتِ تقتربين مني
تُلصقين بأضلعي كفاً من الفولاذِ مرهفةً...
رأيت دمي ينثُّ على ثيابكِ..
وهو يصبغُ قاعةَ الرقصِ الصغيرةْ

٤

عند باب العمارة هاجمني رجلٌ كنتُ شاهدتُ عينيهِ،
يومَ المطارِ... يدٌ ترتدي خنجراً مغربياً تهاجمني...

لم يكن لي سوى الصمتِ. . . خنجرهُ المغربيُّ يشقُّ الطريقَ
إلى صخرِ حنجرتي. . . وهو يُجلسني في مؤخّرِ سيارةٍ
داكنةْ
ليلتين تُركتُ وحيداً. . . أضمُّ الظلامَ على جسميَ المتشنجِ،
فكرتُ: في أيّ ضاحيةٍ كنتُ ملقى؟ لقد غادروني
ولم يتركوا غير ميسمهم في ضلوعي وبقيا سجائرهم. . .
إن منزلَ بِنْ بركةَ الآنَ منكشفٌ. . . تلمسُ الريحُ
والغرباءُ نوافذَه الساكنةْ.
تحاملتُ. . . حاولتُ أن أبلغَ البابَ. . . أفتحَهُ. . . يُفتحُ
البابُ. كان شميمُ الصنوبرِ في رئتي بارداً، والضياءُ
الذي يبهر العينَ يمتدّ عبر الحقولِ كما كان دوماً. . .
جلستُ على عتْبةِ البيتِ منكسراً ذابلاً. . . حاملاً وجهَ
بِنْ بركةَ المتأرجحَ بين الحزام الشيوعيّ، والبيتِ والقهوةِ الساخنةْ.

* * *

فتّحتُ عينيَّ اللتين تحوِّم الأسماكُ حولهما. . .
رأيتُ العالمَ السفليَّ ماءً
مترقرقاً بين انكسارِ الضوءِ والحجرِ القديمِ
يداي موثقتانِ خلفي
دارتِ الأسماكُ حولي
كنتُ ألمح في التماعهما السماءَ
وأحسُّ بالأمواه تحملني وراء «السين». . .
إني أعبر البحرَ المحيطَ. . .

يداي موثقتان خلفي
والرباطُ قريبةٌ:
أسوارُها الرمليةُ الصفراءُ تدنو وهي تهبطُ
ثم تدنو وهي تهبطُ
ثم تدنو وهي تهبطُ
كانت الأسوارُ أشجاراً وأطفالاً وماءَ

بغداد، ٥/ ٣/ ١٩٧٣

ثلاث حالات لامرأة واحدة

حالة

لماذا يُلحُّ عليّ اسمُكِ الآنَ؟
ـ في السجن تُنسى الحروفُ وتبقى المعاني ـ
أحاولُ أن أتذكرَها حرفاً . .
أعيدُ اصطفافَ الحروفِ التي أتذكّر :
كلَّ الحروف
وكلَّ المعاني
ولكنه
عامضٌ : مثل عينيكِ، سيدتي . .
غائبٌ : مثلما تتركين الزيارةْ
شاحبٌ : مثلَ كلِ النعومةِ في وجهكِ البيضويِّ الصغيرْ
أتأتينَ أنتِ . . مدللةٌ، مشتهاة، غريرةْ
وبين ثيابكِ يأتي الربيعُ الأخيرْ . .
وأنسى اسمكِ المتأرجحَ . . .
بين الذهولِ وبين التداني

٢٦/ ٤/ ١٩٧٣

حالة

في المحطة
كان القطارُ الأخيرُ إلى برشلونةْ
يُطْلقُ الصفراتِ الأخيرةْ
كنتِ شاحبةً في غصونِ الصباحِ التي تشربُ البردَ والريحَ
والتمتماتِ الأخيرةْ
ترحلين إذن؟
تبحثين عن العمل المنزليّ
بمملكةٍ في بلاد الشمالْ؟
أنتِ.. سيدةُ المطعم الغجريِّ...
ألم تبصري كيف طاف المغنون حولكِ؟
كيف رأونا عروسينِ، بين زهورِ النحاسِ وأطباقه وغصونِ الظلالْ؟
ليلةً...
ثم تمضينَ...
شاحبةً...
في القطارِ الأخيرِ إلى برشلونةْ

١٩٧٣/٥/٣١

حالة

كأنك لم تسكني نُزُل الساحةِ الضيقةْ
ولم تتركني فوق كرسيّ غرفتِكِ: الثوبَ والرملَ والزنبقةْ
كأنكِ ما كنتِ بالملح مُشْرَبةً. . .
طعمُكِ البحرُ. . .
والموجةُ الضيقةْ
كأنكِ ما كنتِ ـ حين نزلنا سراعاً إلى قهوة الفجرِ ـ مرهقةً
مرهقةْ

٢/٦/١٩٧٣

المسافة

قبل عشرينَ عاماً، أتيتُ مساءً إلى نُزُل بالمدينةِ. . .
كان دمي مثلَ ماءِ الينابيعِ أبيضَ. . . هل كنتُ أسمعُ
بين عروقي وبين النقاباتِ حين تُحطَّم أبوابُها
جدولاً؟ إنه الماءُ يبدأ، والمدُّ يعلو. . . وتبدو
جذورُ النخيلْ.
قبل عشرين عاماً، تملّصتُ مما اصطفاني له الساحرُ
الطبقيُّ. . . تعلّمتُ أنّ الحقيقةَ أبعدُ من منزلي
بين مسجدِ «حمدانَ» والجسرِ، أَنَّ الحقيقةَ قادمةٌ
في المناشيرِ: زرقاءَ، مستنسخاتٍ بأيدي الذينَ
يظلون لا يحملون من الأرض إلاّ ثراها الثقيلْ.
قد تراني الصبيةُ لا أُحسنُ الكلماتِ التي يُتقنُ الشعراءُ. . .
وربما استغربتْ أنني أكتب الكلماتِ. . . اقتربتِ. . .
فلستُ أرى ما يباعدُ بيني وبين التهامي كيانَكِ،
اني من الجائعين طويلاً، وأنتِ البهيةُ سيدةً كنتِ
منذ اقتسامِ البساتينِ والنخلِ. . . سيدةً كنتِ منذُ سوادِ الأصيلْ.
لي عليكِ الشبابُ الذي مرّ منطوياً، والطفولةُ
دونَ رُواءِ الطفولةِ، والواجبُ المدرسيُّ الذي كنتُ

أكتبه في بقايا الدفاترِ. . . تلكَ
الثيابُ التي يسخر الفتيةُ الجامعيون منها، ولكنني
كنتُ أعرف أنكِ حين تمرينَ مسرعةً، لا ترينَ
ثيابي، ولا الواجبَ المدرسيَّ، وإنكِ خلفَ الجدارِ،
الذي لم تقيميه أنتِ: جدارِ الصراعِ الطويلْ.
في الوجوهِ التي أتوجّسُ منها، بلادي التي أتوجّسُ منها
رأيتُ القطارَ القديمَ، القطارَ المغادرَ بغدادَ، يوصلني
مرةً للمياهِ، ويوصلني مرةً للمحاكمِ. . . أن تقضيَ
العمرَ مغترباً. . حرفةٌ ترتضيها ولا ترتضيها. . . ولكنكَ
اليومَ تلمسُ بين اغترابكَ والنخلِ خطوتَكَ الملكيةَ. . .
معناكَ. . . رايتَكَ المستدقةَ. . . خُذْ جرعةً للمسافةِ. . .
هل يملكُ الطيرُ غيرَ مسافاتِهِ واضطرابِ الغليلْ؟

١٩٧٣/١٠/٧

تحت جدارية فائق حسن

١

تطير الحماماتُ في ساحةِ الطيرانِ. البنادقُ تتبعُها،
وتطيرُ الحماماتُ. تسقطُ دافئةً فوقَ أذرعِ مَن جلسوا
في الرصيفِ يبيعون أذرعَهم. للحمامةِ وجهانِ:
وجهُ الصبيِّ الذي ليس يؤكل ميْتاً، ووجهُ النبيِّ
الذي تتأكّله خطوةٌ في السماء الغريبةْ.
وإذ يقف الناسُ في ساحةِ الطيرانِ جلوساً، يبيعون
أذرعَهم: سيدي قد بنيتُ العماراتِ... أعرفُ
كلَّ مداخِلها، وصبغتُ الملاهيَ... أعرفُ ما يجذبُ الراقصينَ
إليها. ورمّمتُ مستشفياتِ المدينةِ... أعرفُ
حتى مشارحَها، سيدي... لم لا تشتري؟ إن كفي
غريبةْ.
ـ أجسُّ ذراعك؟
ـ يا سيدي جسَّها...
ـ أمس... أين اشتغلتَ؟
تطيرُ الحماماتُ في ساحة الطيرانِ.. وعينا المقاولِ
تتجهان إلى الأذرع المستفزةِ. يدخل شخصانِ

سيارةَ النقلِ. . ثم يدور المحركُ، ينفثُ في ساحةِ الطيرانِ دخاناً ثقيلاً. . ويتركُ بين الحمائمِ والشجر المتيبسِ رائحةً من شواءٍ غريبةْ.

* * *

يقول المقاولُ: نرجع بعد الغروبْ.
تقول الحمامةُ: أهجع بعد الغروبْ.
يقول المغني: بلادي. . . لماذا يظل الغروبْ؟

٢

تطير الحماماتُ في ساحةِ الطيرانِ. تريد جداراً لها ليس تبلغ منه البنادقُ، أو شجراً للهديلِ القديمِ. . . ارتفعنا معاً في سماءِ الحمائمِ صُغنا من الحجرِ المتألقِ وجهَ الجدارِ، انتقيناه جزاً فجزءاً، وقلنا لسعفِ النخيل وللسنبلِ الرطبِ: هذا أوانُ الدموعِ التي تضحكُ الشمسُ فيها، وهذا أوانُ الرحيلِ إلى المدنِ المقبلةْ.
ولكننا يا بلادَ البنادقِ كنا صغاراً، فلم نلتفتْ لإِله الجنودِ، ولم نلتفتْ للحقائبِ مثقلةً. . . نحن كنا صغاراً. . . أقمنا جداراً ونمنا على مضضٍ، والحماماتُ خافقةٌ في الهزيعِ الأخيرِ. لماذا تظلينَ خافقةً؟ قد بنينا ملاذاً لنا، وغصوناً تنامين فيها، ونحن هنا في الرصيفِ ـ المقاولُ يأتي. .

ويأتي إلهُ الجنودِ. . وتهوي على الوطنِ المقصلةْ.
تطيرُ الحماماتُ مذبوحةً، دمُها الأسودُ النزْرُ يسقطُ
فوقَ الجدارِ الذي قد بنيناه. يسقطُ مختلطاً بالرصاصِ.
وفي ساحةِ الطيرانِ تدورُ المدافعُ محمولةً. . . شاحناتُ
المقاولِ كانت تطاردنا والمدافعُ محمولةً. . يا بلادَ البنادقِ
إن الحماماتِ مذبوحةٌ، والجدارَ الذي قد بنيناه
بيتاً وغصناً، ينزُّ دماً أسودا، ويهزُّ يداً مثقلةْ.

* * *

يقول المقاولُ: جئنا لنبقى
تقول الحمامةُ: هل قال حقاً؟
يقول النقابيُّ: إن السواعدَ أبقى

٣

تعبنا: زماناً نلمُّ دماءَ الحمائم، نرسُمُ في السرِّ أجنحةً،
ثم نطلقها في القرى. . يا زمانَ الجذورِ الذي ما انقطعتَ
وما انقطعتْ عنك تلك الجذورُ هنا نحن في ساحةِ الطيرانِ وقوفٌ
أمام الجدارِ، نرمّمهُ قطعةً قطعةً، حجراً حجراً
ونمسّدُ أذرعَنا. . يا زمانَ الجذورِ انتظرنا طويلاً،
وها نحن نبني على هاجسِ الروحِ مملكةً فاضلةْ.
ويبقى لنا أن نحبَّ وأن لا نحبَّ. كرهنا كثيراً، كرهنا حقيقتَنا
والوجوهَ الأليفةَ. . حتى الجدارُ الذي قد بنيناه يوماً كرهناهُ،
يبقى لنا أن نحبَّ وأن لا نحبَّ. انتهينا إلى البدءِ، يا وطناً

ظلَّ ينزف أبناءَهُ بين قَصْرِ النهاية والماءِ والعجلاتِ السريعةِ
يا وطني. . لم يعد لي سوى أن أحبَّ، وأن لا أحبَّ، وبينهما الطلقةُ الماثلةْ.
تباركتَ يا وطني. . إن كلَّ الوجوه التي غيبتْ بين قَصْرِ النهاية
والماءِ والعجلات السريعةِ. . ما غادرتْكَ، وما غادرتْ
منكَ غيرَ عذاباتِها. . وطني: زهرةً للقتيلِ، وأخرى
لطفلِ القتيلِ، وثالثةً للمقيمينَ تحتَ الجدارِ. .
تطيرُ الحماماتُ في ساحةِ الطيرانِ. ارتفعْنا معاً. .
في سماءِ الحمائمِ. قلنا لسعفِ النخيلِ وللسنبلِ الرطب:
هذا أوانُ الدموعِ التي تضحكُ الشمسُ فيها، وهذا
أوانُ الرجلِ إلى المدنِ الفاضلةْ.

* * *

يقول المناضلُ: انا سنبني المدينةْ.
تقول الحمامةُ: لكنني في المدينةْ.
تقول المسيرةُ: دربي إلى شرفاتِ المدينةْ.

١٩٧٣/٧/١٧

ست قصائد

(١)

للأشجارِ المسقيةْ
للباراتِ المهجورةِ في ليلٍ هادئْ
لصديقٍ أفهمهُ
لفتاةٍ تعرفُ غيرَ الجنسِ، وغيرَ اللونِ الهادئْ
أرسلتُ بطاقاتِ بريدٍ لم تَبلغْ أحداً

(٢)

أحياناً، أسألُ: هل يأتي النسيانْ
بالرحمةِ، أو يأتي باللعنةْ؟

(٣)

في بغدادَ أرى ساحاتٍ تُسْلمني
لأزقّةْ
لكني لم أرَ في بغدادَ أزقّةْ
تُسْلم لي الساحاتْ.

(٤)

كلُّ القتلى أعرفهمْ
هل يعرفني الليلةْ
أحدٌ منهم؟

(٥)

بائعةُ الحلوى تضحكُ:
موعدُها الأولْ
قد فاتَ...
وموعدُها الثاني
مقترَحٌ قبلَ دقيقةْ...
أرأتْ في صوتكَ موعدَكَ الأولْ؟

(٦)

من سُومَرْ سِتْ مُومْ
أتذكّرُ رباناً أعمى
ظلَّ يقودُ سفينةَ شحنٍ
عبرَ ممراتِ الجزرِ الشرقيةِ أعواماً...

٢٤/ ١١/ ١٩٧٢

مزرعة الزاهي محمد

لكِ يا قُبَّعةً من أزهار الفلفلِ تَزيَّنُ بالأوراقْ
لكِ يا رائحةَ الأوراقْ
لكِ يا أولى الأزرارِ على الداليةِ الأرضيةِ
يا أولى الأوراقْ
أرفعُ كأسَ الوحلِ وأشربُ نخبكِ. . .
قولي: ملتجئاً كنتُ
وقولي: منتبذاً جئتُ. . .
وقولي أيتها الأوراقْ. . .
فحديقةُ بيتي تُنبتُ أغصانَ العنبِ الذئبيّ
وتُسكتُ قمصانَ العشاقْ.

*

في مزرعةِ الزاهي بنِ محمدٍ استيقظتُ
رأيتُ الأشياءَ: فُجاءتَها. . .
هذا الجرحَ المدهشَ في أن يُصبحَ شيءٌ ما
حقاً ليس يناقشُ. . .
قانوناً للعشبِ، وللعنبِ الأحمرِ،
والمدرسةِ الريفيةِ، والأجرِ الأسبوعيِّ. . .

إلى آخرهِ. . .
أن تُدْهَشَ حين ترى الواحدَ والواحدَ، اثنين
لماذا؟
مزرعةُ الزاهي بنِ محمدٍ امتدّتْ
بين طريقِ «تلمسان» و«وجدةَ»
بين الحقِ الفادحِ
والخطأِ الفادحِ. . .
بين الأسيجةِ الشرقيةِ، والأسوارْ

*

أيتها الأرضُ العربيةُ، يا من تصطدمين بنفسكِ
يا من تُلقين بنادقَ ثواركِ
في مستنقعِ أغواركِ. . .
يا من ترتجفين لأنكِ ما خنتِ
ولكنَّ مَزارعَ خانتْ. . .
لكِ مزرعةُ الزاهي بنِ محمدْ:
فلاحٌ في حربِ التحريرْ
قاتَلَ في الصحراءِ، وفي الجبل الغربيِّ. . .
وفي مدنِ الريفِ
وأُعدِمْ. .

١٩٧٤/٢/٤

نجمة سبارتاكوس

خمسون رايةً حمراءَ على بواباتِ قصرِ الشتاء
خمسون قطاراً مصفحاً من بتروغراد حتى فلاديفوستوك
خمسون سفينةَ قمحٍ من الفولكا إلى أطفالِ المدنِ الجائعة
خمسون وردةً لقومسارِ الشعب
خمسون مليونَ عاملٍ حول لينينَ الجريح
خمسون اطلاقةَ كاتيوشا لسبارتاكوس المنتصر
خمسون
خمسون
خمسون
خمسون مركبةَ فضاءٍ لأبناء الحرسِ الأحمر
لفتيانِ الطلائع . . .
وفتياتِ الكومسومول
مرةً، في القطارِ المسافرِ بين القرى والعواصمِ
أبصرتُها نجمةً . . . لم تكنْ كالنجومِ التي وَهبتْ
يوليسيسَ ارتحالَ التمزقِ، أو وَهبتْ
سندبادَ العراقِ اندهاشاتِهِ والمرافئَ، إذْ
يشحبُ الضوءُ فيها .

لم تكن نجمةً للمجوس الثلاثةِ، حينَ
الولادةُ والموتُ معتنقانِ، وحينَ العناقُ انهيارْ.
ثم أبصرتُها في كتابٍ نخبئه عن خطى الشُرطِّي
الخفيّةِ، كان الكتابُ المخبأُ ينشر أسماءنا في الرياحِ
الجديدةِ، يُطبع في «موسكفا» مرةً، ثم يُطبع في القلبِ أخرى، .
ويُطبع فوقَ السلاسلِ
نافذةً وغداً أحمرَ الأفقِ. . . يمتدُّ هذا الكتابُ
يصيرُ جناحينِ. . . يغدو عواصمَ تسكنها
النجمةُ الساهرةْ.
نجمةٌ في خطى الفقراءْ
نجمةٌ في الخلايا التي لم تزل بعدُ سريةً
نجمةٌ في جبينِ المناضلْ
نجمةٌ فوق خوذاتِ من قاتلوا عند أبوابِ موسكو
ومن قُتلوا في شوارعَ مجهولةٍ. . . هبر قاراتِنا الخمسِ
من أجلِ نجْمةْ. . .
خمسون اطلاقةَ كاتيوشا لسبارتاكوس المنتصر!
خمسون
خمسون
خمسون
خمسون مركبةَ فضاءٍ لأبناء الحرسِ الأحمر
لفتياتنِ الطلائع. .
وفتياتِ الكومسومول!

ثلاث قصائد

بداية مقترحة إلى جورج سيمنون

كان يجلس في مشربٍ. . . هو والكلبُ
والشمسُ تلمعُ في الكأسِ،
في عيني الكلبِ
في مفرِقِ الرجلِ المتعدّي الثلاثينَ. . .
كان الثلاثةُ:
الرجلُ المتعدي الثلاثينَ
والكلبُ
والكأسُ
لا يبصرون الغصونَ الأخيرةْ
وهي تُسقط أوراقَها في الرصيفِ المقابلِ،
لا يبصرون الموائدَ تُقفزُ. . .
ها هو ذا الباصُ يأتي. . .
ويتركهم وحدَهم في جزيرةْ

١٤/ ١/ ١٩٧٣

حديث يومي

حينَ قال «انتهينا ولم نبتدئْ»
سقطتْ في فراغِ المعاني يداهُ
يومَها، كنتُ منتظراً أن أراهُ
أن أرى العشبَ في صوته والجبلْ
أن أرى ما يراهُ
غير أنّا انتهينا ولم نبتدئْ
وامتهنّا ولم نبتدئْ
واتّركْنا بذاكرةِ العشبِ كلَّ مراقي الجبلْ

*

هل تكون النهايةُ أن نشتري ورقاً
للسقوفِ التي تسترُ الخاتمةْ؟
هل تكون النهايةُ أن نحذقَ الكلماتِ
التي لا تغادرُ بسمتَنا الدائمةْ؟
هل تكون النهايةُ فينا؟
هل تكون المراثي أغاني المهودِ التي ترتضينا؟

*

كم أقول: انتظرتُكَ

ها انتذا جئتَ . . .
قلتَ انتهينا ولم نبتدئْ
ـ حسناً، فلنغادرْ معاً . . .
غير أني سأبحثُ في حانتي عنكَ،
أو عن سواكْ
في الليالي التي لا تراكْ
والليالي التي طعمُها أولُ .

١٩٧٣/١/١٥

البرج

كلما ضقتُ بالسهل، واجَهَني عالياً. . .
كان صخرُ الجبالِ القريبةِ ينمو عليه، وتنمو على
الصخرِ أعشابهُ. . .

كان برجاً قديماً.
منه أُبصرُ حتى القلاعَ مُوَطّأةً، والسماءَ التي يحتويها
سديما

كان برجاً قديماً
مائلاً لليسار قليلاً، ومنهدمَ البابِ
يدخلُه الصاعدونْ
ويخرجُ منه الذين يرون النجومَ القريبةْ.
ولقد يأخذُ السائحونْ
في حقائبهم بعضَ أحجارِه. . للمعارضِ والكتْبِ
والمدنِ المستريبةْ.

وهو يسخر، في صمته، عالياً. . .
مُشْرِعاً بابَهُ المنهدمْ

مائلاً لليسار قليلاً
ماثلاً في المعارض والكُتْبِ والمدنِ المستريبةِ همّاً مقيماً
كان برجاً قديماً.

١٩٧٣/١/١٦

أغنية للشعر الطويل

في العشبِ الماثلِ بين الصفرةِ والنجمِ الباردِ راقبتُكِ
يا سيدةَ الزمنِ المثقلْ
بيديك عناصرُ أربعةٌ، صورٌ أربعُ ظلّتْ تلعبُ بي
منذ فتوّتيَ الأولى
منذ كتابي الأولْ.
لا أسألكِ اليومَ قراركِ
لا أملكُ أن أسألكِ اليومَ قراركِ
لا أملكُ غيرَ النظرِ الأولْ.
سيدتي... سيدةَ الزمنِ المثقلْ
أهجسُ أحياناً أنكِ مثلي...
أن يديكِ تشدهما الصورُ الأربعُ...
أن الحلّ ـ
سيظل الليلةَ مرتهناً بالعشبِ الماثلِ بين الصفرةِ والنجمِ الباردِ...
سيدةَ الزمنِ المثقلْ
لكِ أن تمتنعي عني
لكِ أن تبتعدي عني.
لكِ أن تغتسلي مني

لكن ليس لكِ اليومَ، ولا الغدوةَ
أن تقترحي سني
فأنا بين عناصركِ الأربعةِ. . . الأولْ
وأنا. . . يا سيدةَ الزمنِ المثقلْ
حاورتُ الصورَ الأربعَ، حتى كدتُ أحاولُها
حاولتُ الصورَ الأربعَ، حتى كدتُ أحاورُها
عبثاً. .

يا سيدةَ الزمنِ المثقلْ
فالعشبُ الماثلُ بين الصفرةِ والنجمِ الباردِ. . . طالْ
والليلُ المتطاولُ طالْ
والشَعر على الناصيةِ الثوريةِ طالْ
يا سيدةَ الزمنِ المثقلْ. . . .
فلمن اقرأ حتى الآن كتاباً أولْ؟

١٩٧٣/١١/٢٨

الأخضر بن يوسف ومشاغله

(١٩٧٢)

سيدة النهر

توهمتُ إنكِ زاويتي، والمدارُ الذي يقفُ النجمُ فيهِ
توهمتُ نخلَ السماوةِ، نخلَ السماواتِ
حتى حسبتُكِ عاشقةً،
فانتظرتُ النهارَ الذي يطلُعُ النجمُ فيهِ
توهمتُ
أَوهمتُ
لكن أرضيّةَ الوهمِ يغسلُها ضابطٌ ملكيٌّ تَلَبَّسَ عينيكِ
سيدةَ النهرِ!
هم يعشقونَ، ولا يملكونْ
ولكنهم حينما تغرقينْ
يمدّون كلَّ الخيوطِ التي قطّعتْها احتراقاتُهم
إن كلَّ الزنابقِ في الماءِ لم تنتظرْ مثلَ عرسِكِ
طافيةٌ أنتِ
بين الخيوطِ التي قُطّعتْ، وانتظارِ المدارْ

بغداد، ١١/ ٥/ ١٩٧٢

الأخضر بن يوسف ومشاغله

نبيٌّ يقاسمني شقّتي
يسكن الغرفةَ المستطيلهْ
وكلَّ صباحٍ يشاركني قهوتي والحليبَ، وسرَّ الليالي الطويلهْ
وحين يجالسني،
وهو يبحث عن موضعِ الكوبِ في المائدهْ
ـ وكانت فرنسيةٍ من زجاجٍ ومعدِنْ ـ
أرى حولَ عينيهِ دائرتينِ من الزرقةِ الكامدهْ
وكانت ملابسنا في الخزانةِ واحدةً:
كان يلبسُ يوماً قميصي
وألبس يوماً قميصَهْ
ولكنه حين يحتدُّ. . .
يرفضُ أن يرتدي غيرَ بُرنُسهِ الصوفِ. . .
يرفضني دفعةً واحدةْ
ويدخلُ كلَّ المزارعِ:
يحرثُ
أو يشتري سكّراً
أو يقولُ العلامةْ
ولما التقينا على حافةِ البارِ

أخرجَ من جيبه زهرةً، وانحنى
هامساً: إنها لي... أتيتُ بها
عبْرَ أسوارِ «وَجدَةَ» حيثُ الحدودُ
التي ما تزال معاركَ... لكنها
ـ ويقدّمُ لي زهرةَ الآس ـ ملْكٌ
لكَ الآنَ... إفعلْ بها ما تشاءُ
سوى أن أراها بجيبكَ ذابلةً...
آهِ؛ وجدةُ، وجدةُ... إن طريقَ «الصخيراتِ»
يغلقه الحرسُ الملكيُّ... أتيتُ بها
من هناكَ، وخبّأتها بين جِلدي وأحذيةِ
الحرسِ الملكيِّ التي أثقلتْها المساميرُ
ـ يكشف لي صدرَه مسرعاً، ثم
يُغمضُ عينيه ـ وجدةُ... وجدةُ...
كيف تكونين لو جئتِ عندي!
يرافقني في زيارة محبوبتي...
ثم يدخل قبلي
يقبّلها في الجبينْ
وينظر في مقلتيها طويلاً، ويجلسُ في آخرِ الحجرةِ المعتمهْ
وإذ أرسُمُ الرغبةَ المبهمهْ
وسائدَ، أو منزلاً
يرسمُ الرغبةَ المفعمهْ
نسوراً ـ طباشيرَ، فوق الجدار الذي يحمل النافذهْ

ويدنو . . .
ليأخذَ كفَّ الفتاةِ (أنا جالسٌ لِصْقَها)
ثم يمضي بها خارجَ الحجرةِ المعتمهْ
على باب سبتةَ كان رجالُ الجوازاتِ خلفَ مكاتبهم
يحتسون النبيذ الرديءْ
وفي البعدِ . . .
حيث المدينةُ في ليلة العيدِ
تخترق الشهبُ الاصطناعيةُ الأفقَ المتلبدَ
كانت تضيءُ
تضيءُ
تضيءُ
وظل رجالُ الجوازات خلفَ مكاتبهمْ
يعلكون النبيذَ الرديءْ
تتبّعتُهُ، خجلاً، ما يزالُ الذراعانِ معتنقينِ،
انتظرتُ قليلاً أمام التقاطعِ، كانت
فتاتي تشير إلى واجهاتِ المخازنِ ضاحكةً . . .
كان يسخر منها، مشيراً إلى الشجرِ المتطاولِ
في مدخلِ المسبحِ البلديّ . . . استدارا،
فأسرعتُ خطوي وراءهما . . . ها هما
يدخلان الحديقةَ: هل تبصرينَ الغصونَ الصغيرةَ؟
هل تلمسينَ بها الخضرةَ البِكرَ؟ هل تسمعينَ
بها النبضَ مندفعاً؟ قرّبي ذلك الغصنَ

منكِ. . . اجعليه لصيقَ ذراعِكِ. . . كوني
له نُسْغَهُ، وليكن في ذراعيكِ منهُ
ارتسامُ الوريقاتِ. . . حريةُ الطفلِ حينَ
يلامسُ أهدابَهُ في المرايا.
وقبّلَ زندَ الفتاةْ!
سأستخدمُ اسمَكَ. . .
معذرةً
ثم وجهَكَ. . .
أنت ترى أن وجهكَ في الصفحةِ الثانيةْ
قناعٌ لوجهي
وأنت ترى أنني أرتدي الربطةَ القانيةْ
أتذْكُرها؟
يوم كنا معاً في «الحسيمَةِ»،
حيثُ اهتدينا إليها
ويومَ قصدتَ المصوّرَ، قبلَ جوازِ السفرْ
وقبلَ السفرْ
وقد كنتُ ألححتُ أن ترتديها
رجالُ الجوازاتِ خلفَ مكاتبهم
يعلكونَ النبيذَ الرديءْ
وكان جوازُ السفرْ
يُطالعهم، واحداً، واحداً. . .
بين أختامهم والنبيذِ الرديءْ

بغداد، ٢٥/ ٥/ ١٩٧٢

كابوس

١٠ شارعُ لامورْ سِيَّير
الجزائرْ.
فندق رطبُ البابِ...
دقَّ الجرسْ
لحظةً...
كان من مطرِ الليلِ شيءٌ على الشارعِ الضيقِ
وعلى الشرفات الصغيرةِ كان يئنّ الجيرانيوم.
دقَّ الجرسْ
لحظةً...
إن بين المطاراتِ والأرضِ ما بيننا والجذورْ.
هدأَ الصوتُ تحت القميصِ السويسريّ...
دقَّ الجرسْ
لحظةً...
كانت العتمةُ المستسرهْ
ما تزال غيوماً، روائحَ تبغ، وخُضرهْ
كانت العتمةُ المستسرةُ جلدَ الحقيبةِ، مطروحةً في الندى،
وثيابَ الحبيبةِ...
دقَّ الجرسْ

فجأةً. . . يُفتَح البابُ وحدَهْ:
الممرُّ يدورُ على نفسه، في الظلامِ القديمِ.
الممرُّ يدور على نفسهِ نصفَ دورهْ.
ثم يرقى على درجاتٍ تآكلَ فيها الحجرْ
والرطوبةُ تُلصق بالجلدِ هذا القميصَ السويسريَّ.
تُلصقُ بالخوفِ وجهَ المسافرِ، تلصق بالسلَّم الحجريِّ
خطاه الغريباتِ، تلصق بالأرضِ جلدَ الحقيبهْ.
سقطتْ في الظلام الحقيبهْ
وأمامَ ارتعاشِ المسافرْ
وأمامَ الظلامِ القديمْ
كان جسمُ القتيلْ
يتأرجحُ. . .
كان اتساعُ العبادةْ
يتأرجحُ. . .
عن قدميه اللتين تنوسانِ
عن قدميه اللتين تنوشان، مشقوقتينِ،
حجارَ السلالمْ.

الجزائر ـ سيدي بلعباس ١١/ ٥/ ١٩٧١

عبور الوادي الكبير

بَعُدنا عن النخلِ. . .
ها هي شمسُ القرى تمنحُ النخلَ غاباً من الريشِ أحمرَ
ها هي أكواخُنا:
ـ سعفةٌ نستظلُّ بها أو وَقودٌ لبغضائنا ـ
كلُّها تهبطُ الأرضَ، كوخاً فكوخاً، وتلقي بها الأرضُ
للماءِ. .
كنا نمدُّ لها شعرَ أطفالنا:
سروةٌ شَعرُ أطفالنا
أمسكيها
أمسكينا بها. . .
غير أن المنازلَ مثل الطباشير تُمحى
من الأرض تُمحى
وفي الماء تُمحى
وها نحن بين المُدى والسماءِ وحيدينَ
يا أرضَنا المشتراةَ المباعةَ، والمشتراةَ المباعةَ، ثانيةً
أنتِ يا وجهَ من يتذكّر منها شهادةَ ميلادهِ:
بَعُدنا عن النخلِ

ها هي شمسُ القرى تمنحُ النخلَ غاباً من الريشِ أحمرَ
ها هي شمسُ القرى تمنح النخلَ غاباً
وها هي شمسُ القرى
ها هي . .
ها هي . .
ها . . .
هي . . .
كواكبُ مائيةٌ في السماءِ التي تعرفُ الصيفَ والسفنَ
الأمريكيةَ الصنعِ،
* في المتوسط لا تستحم الكواسجُ
* هل تذكرين المنازلَ؟
* تلك التي غادرتْها السفنيةُ؟
* لا .
* حانةَ البحرِ في أورَ؟
* لا .
* دارتي في سمرقندَ!
** لا .
إن كلَّ المنازلِ مغلقةٌ، فأمامَ الوجوهِ
الشريدةِ لا يفتحُ الناسُ أبوابَهمْ
قد نسِينا بقرطبةَ، الشرفةَ الأمويةَ،
والطفلَ . . حينَ نسافرُ ننسى الحقائبَ،
أو نتناسى متاعبَنا وكتابَ القصائدِ
يا أيها الفارسُ المستحيلُ: تظل المسافاتُ

تنأى، وفي مقلتيكَ تغورُ الشواطئُ،
لا تكتئبْ فالحوافزُ فيها الشرارُ، وهذا
السبيلُ الحجارُ. . .
* ولكننا قد بَعُدْنا عن النخلِ. . .
* آخرُ راياتِ كولمبسَ المستدقةِ تُبحر من برشلونهْ
* وآخرُ أبراجِ غرناطةَ اقتحمتْهُ خيولُ الشمال.
تصيرُ المسافاتُ لي رايةً. . أن أهلي بعيدونَ
لا تحملُ الطيرُ أخبارَهم لي، ولا تحملُ الطيرُ
أخبارَنا
لهمو. . يا جناحَ الليالي الطويلةِ، كُنْ موطني
والكتابَ الذي ليس يُطبع. . كنْ في مقاهي
المحبينَ
دورةَ شايٍ. وفي شفتَي من أُحبُّ: الشقائقَ
والرجفةَ المستسرةَ. . كنْ يا جناحَ الليالي
الطويلةِ نجمي. . لقد ضيَّعَ القطبُ
نجمَ الهداةِ. . ولكن أهلي البعيدينَ ما برحوا
بانتظاري. . .
* إلى أين تذهبُ يا فارسَ الليلِ؟
* أهلي بعيدونَ سيدتي. . .
* إنني بانتظارِكَ منذُ ليالٍ ثلاثٍ. . . علمتُ بأنكَ آتٍ. .
أتنزلُ؟
* سيدتي. . . حين أنزِلُ أُقتَلُ
* تُقتَلُ في منزلي؟

* آهِ سيدتي. . . إنني متعبٌ. . غير أني. .
وداعاً
وداعاً

* * *

وغادرتُ منزلَها. . كان في بابه القرطبيّ صنوبرةٌ
كنتُ أسمعُ نبضَ العصافيرِ إذ تتنفسُ نائمةً
بين أفنانها والنجومِ الخفيضةِ. ، أحسستُ
أن العصافيرَ سوف تموتُ صباحاً.

* * *

حين ناديتُهُ: فارسَ الليلِ! شدَّ العنانَ
قليلاً. كثيرونَ مرّوا ببابي، ولكنني
لم أجدْ مثلَهُ. . . شاحباً كانَ، ضمآنَ،
لكنه رفضَ الماءَ من جرتي. . . لم يقفْ
مثلَ فرسانِ قرطبةَ الآخرينَ يغازلني. . .
قال شيئاً، وسارْ. . .

* * *

على باب جَيَّانَ في قرطبةْ
رآه الندى يدخلُ المسجدَ المتوحدَ، في آخرِ الليلِ،
كان الندى خُصَلاً في جبينِ المسافرِ، والليلُ
إغماضةً في عيونِ الجوادِ، وكانت نوافذُ
قرطبةَ المشرئبةُ بالوردِ تنتظرُ الخطوةَ الملكيةَ،
ألقتْ نوافذُ قرطبةَ الوردَ. . غطّتْ به غبرةَ السفرِ
المستديمةَ فوق قِباءِ المسافرِ، والتعبَ المرَّ

في لفتاتِ الجوادْ.
وفي لحظتينِ رأيناهُ يخرجُ من بابِ مسجدِنا
أغلقَ البابَ. سمَّرها، دوننا، تحتَ إغضاءِ عينيهِ،
ثم اعتلى صهوةَ الفرسِ المتمايلِ بين غصونِ الصباحِ
المبكرةِ الطيرِ، والنسوةِ المسرعاتْ..
وكانت ورودُ المسافرِ تهطلُ... والنسوةُ المسرعاتُ
يخبئنها في صدورِ الصبايا.
ذهبتُ إلى السوق، كنتُ غريباً به، متعباً، والتّجار
يدورون حولي...
يقولون لي: نشتري منكَ هذا القميصْ
وكانوا يمدُّون أيديَهم نحوهُ:
نشتري منكَ هذا القميصَ الملطّخْ
ولكنه رايةٌ لبستْني غَداةَ الهزيمةْ.
جوادي على الوادي الكبير، ورايتي
بغرناطةِ الأبراجِ، يكنزُها الصخرُ
فلا تسألوا عني وعنها، فإننا
لها آخرُ العشاقِ، والهاتفُ السرُّ
لقد كان لي فيها أنيسٌ، وإن لي
أنيساً بها، حتى لو اجتاحَها العصرُ
وغُيّبَ ما بين القلاعِ وسهلِها
كتائبُها العشرونَ والسامرُ البدرُ
«إذا عَلَمٌ خلّفتُهُ يُهتدى به

بــدا عَــلَــمٌ فــي الآلِ» أشــقــرُ مــفــتــرٌّ
فــشــدَّ عــلــى كــفّــي، وأطْــلَــعَ زهــرةً
من الصدرِ
عندَ القلبِ. . .
وانهمر الزهرُ

قميصي. . لكل المشترين أبيعهُ
وسيفي
وعينا جوادي.
أنا الآنَ منجردٌ بينكمْ
فاحملوا كلَّ ما يُشترى
ـ هل خسرتُ سوى عبءِ أغلالِكم؟ ـ
علِّقوا فوقَ جدرانِ قاعاتِكم غِمدَ سيفي
وعينيَ جوادي الجميلْ
اجعلوا من قميصي حديثَ اجتماعاتِكم
ـ هل خسرتُ سوى عبءِ أغلالِكم؟ ـ
واتركوني وحيداً
دعوني أقلْ ما أشاء
دعوني أكنْ من أشاء
دعوني أمتْ، أو أعشْ نجمةً
فغرناطةُ العشقِ عريانةٌ، وحدَها
إن غرناطةَ العشق عريانةٌ وحدَها

بغداد، ١٣/ ٣/ ١٩٧٢

وأنا أنظر إلى الجبال

في الجبالِ تكونُ الغيومُ رماديةً،
والجبالُ رماديةً، لو عرفتُ الطريقَ
إليها، ولو جئتُ ألمس أهدابَها
بحفيفِ الصنوبرِ، أفتضُّ أثوابَها
بدموعِ الصنوبرِ،
لكنني مثقلٌ بقميصي
مثقلٌ بخطايَ الأليفهْ
مثقلٌ بالوجوه التي ترتديني.
مثقلٌ بالصفاتِ
قد تجيئين عبرَ البنادقِ، أو عبرَ صَمْتِ الخلايا
قد تجيئين عبرَ انقلابِ المرايا
ولأني أرى في امتلاءِ الشفاهِ، امتلاءَ الينابيعِ
عندي،
لأني أرى في خفوتي بذورَ الأناشيدِ
عندكِ،
يا امرأةً في ثيابِ المحاربِ،
فالليلُ يفرشُ غصنين: لي، ولكِ، الليلُ

يعرف أنا نحبُّ، وأنّا نهبُّ،
وأن انتظارَ الخلايا
يطولُ
وأن انقلابَ المرايا
يطولُ
وأن عيونَ البنادقِ قد أُطفئتْ في البيادقِ،
والليلُ يعرف أنكِ عندي
تعيشين في ليلةً
وتدورين بي ليلتين
وأنك يا امرأةً في ثياب المحارب سوف تعودين لي كل ليلهْ
وليكنْ!
كان غيمٌ من المتوسط، يبيضُّ، فوق جبال الجزائر
فوق الشقائقِ والنرجسِ المتوحشِ،
كانت صواري السفنْ:
* ناقلاتِ النبيذْ.
* ناقلاتِ الحديدْ.
* ناقلاتِ الوقودْ.
* ناقلاتِ البطالةِ
كانت صواري السفنْ
وحدَها، الضوءَ فوق جبالِ الجزائرْ.

الجزائر ـ سيدي بلعباس، ٢٦/ ٥/ ١٩٧١

الشارة

لجنود المظلاّتِ فيوطني أمنحُ الشارةَ القرمزيةَ،
للعَلَمِ الفردِ فوق الربيئةِ
للحارس المتلفّعِ في أولِ الجسرِ. . .
للمدفعيةِ. . .
أمنحُها للعريفِ الذي يرصدُ الطائراتِ المغيرهْ.
ولكنْ. . . لمن أمنحُ الشارةَ القرمزيةَ غيرهمو؟
أن تكون المكاتبُ جسري
وأن أرفعَ الختمَ لي رايةً؟
إنني داخلٌ بالحقائبِ في أرض «دارينَ»، فارغةٌ كلُّ هذي الحقائبْ.
إنني خارجٌ بالحقائب من أرضِ «دارينَ»، فارغةٌ كلُّ هذي الحقائبْ.
ـ تَعجبون لأن العصافيرَ قد عقدتْ أمسِ
مؤتمراً ثانياً ناقشتْ فيه أكلَ الذُّرهْ!
نَقْرةً
نَقْرةً
نقرتين اثنتين معاً

نقرةً واحدةً

هكذا علمتني العصافيرُ أسرارَها، منحتْني
مفاتيحَ أهراءِ «دارينَ»، لكنني ـ وأرى
أنكم تَعجبون ـ أكلتُ لساني القصيرَ،
وأطعمتُ أطفالَ «دارينَ» منهُ. . .

نَقْرةً

نَقْرةً

نقرتين اثنتين معاً

نقرةً واحدةً

كلُّ أطفالِ «دارينَ» جاءوا. . .
أيها المقبلون على أرض «دارينَ»
إن لنا إخوةً
حينما يخطئون نموتُ
وحين نراهم يصيبون نُشتَمُ
يا وطني: صفقةً!
نتبادل فيكَ المواقعَ
كن مرةً حَكَماً، لا تكن حاكماً!
ها هم المقبلون على أرض «دارينَ»،
بين الحقائبِ والقبّعاتِ يديرون أعناقَهمْ:
ـ انظروا في كتابِ التعاليمِ:
* لا تشربوا الكأسَ دون الثمالهْ
* لا تمطوا الشفاهَ التي لم تعدْ تقبلُ المطَّ. . .

* لا تصبغوا الأحذيةْ.

لم يروا منكَ با وطني غيرَ أوراقِهم ونساءِ المعارضِ...

أنتَ لهم مكةُ السائحِ الأجنبيِّ

وكُحلُ العيونِ التي لا ترى

أيها الوطنُ المنتهي بانتهاءِ حروفِ الهجاءِ وتاريخِ أسمائهمْ

آهٍ... قفْ لحظةً لي

كم وقفنا لأجلكَ... نحن الذين رأيناكَ في لحظةِ الروعِ أبهى

آهٍ... قفْ لحظةً لي

لكَ عندي السماءُ التي تشتهي، والهواءُ الذي هو أبهى

ضيّقٌ أيها المتداركْ!.

أكورُ من يديكَ حمامتينِ؛ وأطلقُ الدنيا

وراءهما...

ـ تعالَ

تعالَ...

يا زمنَ الخنادقِ

نحن نرجفُ في العراءِ...

ـ تعالَ...

يا زمنَ البنادقِ

نحن نبكي طلقةً حتى ولو صَدِئَتْ.

نريد نحاسَها يخضرُّ تحتَ جلودِنا،

ورصاصَها يسودُّ بين عروقنا، والأرضِ...

ينبت في مضاجعنا لتنبو، يستفزّ مواطئَ العشاقِ

مثلَ الجمرِ، يُزهرُ في مزارعنا. . . سياجاً للحدودِ،
وللغدِ المتزاوِجِ الطبقاتِ. .
نحن نبكي طلقةً حتى ولو صَدِئَتْ!

بغداد، ١٩٧٢

عن المسألة كلها

سـمـوتُ، فـردّتـنـي سـمـاءٌ خـفـيـضـةٌ
وعُـدتُ، فـمـا أشـقـى الـمـعـادَ، ومـا أبـهـى
إذا وَرَدَ الـشُّـذّاذُ خُـمْـسـاً وجـدتُـنـي
أرى الـحـقَ، مـحـضَ الـحـقِ، أن أَرِدَ الـرِّفْـهـا
وتـلـكَ عـيـونٌ بـالـرمـيـلـةِ أُوقـدتْ
هـي الـمـنـتـأى، والـدارُ، والـمـأمـلُ الأشـهـى
بغدادُ تسكنُ تحتَ مئذنةٍ، نهارَ الفاتحِ التتريّ. . .
كنتُ أظنُّ وجهَكِ طالعاً لي خلفَ هَفّةِ سعفةٍ،
وكأنّ آلافَ الأزقةِ يحتويهِ واحدٌ منها؛ غبارُ
الخيلِ والعجلاتِ في وَهَجِ الظهيرةِ كان آلافَ المرايا:
لو تراءتْ عنكِ، واحدةً، فواحدةً، لكنتُ
منحتُها صدري، وكنتُ وهبتُها سري،
وكنتُ ضممتُها. . . فأضمَّ حتى لو خيالاً منكِ. . .
سيدتي الجميلةَ!
إن كلّ الليلِ يهبطُ، والمآذنَ تسكنُ العَتَماتِ
سيدتي الجميلةَ!
أنتِ ضائعةٌ. . . مراياكِ الرهيفةُ ليس فيها غيرُ وجهِ

الفاتحِ التتريّ. . .
سيدتي الجميلةْ!
الليلُ تحتَ الجسرِ يجلسُ.
كان شخصٌ ما يراقبُ في المسنّاةِ النجومْ
حتى إذا ما جئتُ. . .
ـ قفْ!
قفْ!
لا تخفْ!
أغضى قليلاً وهو يرقبُ تحتَ أحجارِ المسنّاةِ النجومْ
ـ هل جئتَ تبحثُ عن حبيبتكَ التي ضيّعتَها بين المدائنِ؟
هل تقاذفتِ التخومْ
أثوابَها، حتى أتيتَ هنا، هنا تُسائِلُ عن مدينتها النجومْ؟
سأقول شيئاً: إنها عبرتْ.
وهذا الجسرُ بينكما. . .
وذاك الحارسُ التتريّ. . .
والأفقُ الذي فَقَدَ الغيومْ
يقرّبني من آخرِ الليلِ أنني
أرى الوهمَ أشجاراً بعَتْمتِهِ تعلو
يُلامسُ منها النجمُ لِينَ ارتواءةٍ
وتنهلُ منها الأرضُ ما غيرُهُ النهلُ
غصونٌ بأطرافِ العراقِ، ودونَها
ودون الذي أمّلْتُ، ممتنعٌ سهلُ

أسريتُ عبرَ الجسرِ، أقطعُه، قروناً. . . كنتُ أسري،
كانت الأحجارُ تشربُ هاجسَ الظلماتِ، ثم تعيدهُ
لي خفقةً في القلبِ، أو إشراقةً في العينِ،
أو إسراعةً في خطويَ الأبديّ. . . أن الجسرَ
ما بين الرصافةِ والرميلةِ كان أبعدَ. . . كان أبعدَ. . .
كان أبعدَ من يديكِ. . .
حبيبتي!
ضعنا، وضَيَّعْنا. . ولكنّا نتابع هاجساً هو
حبلُنا السُّرِّيّ، رايتُنا الخبيئةُ، والخيارُ الصعبُ. .
سيدتي الجميلةَ!
إن منتصفَ الطريقِ حماقةٌ، والليلُ منتصِفٌ،
وأنتِ هناكَ ما بين المدائنِ والتخومِ. .
حبيبتي!
ضِعنا، وضَيَّعْنا. . . ولكنّا قَطعنا الجسرَ حتى
نصفِهِ الثاني. . .
وخيَّمْنا.
للحارسِ التتريّ وجهُ من شمالِ الأرضِ. وجهٌ من جزيرهْ
يحتاطُها بحرُ الشمالْ
للحارسِ التتريّ مركبةٌ بها أسدٌ ـ جوادْ
قد كنتُ أرقبهُ. . .
رأيتُ أصابعَ الأشجارِ قربَ نهايةِ الجسرِ الأخيرهْ
تمتدُّ. . .

تهبطُ . . .

كان وجهُ الحارسِ التتريّ يشحبُ . . .

كان جسمُ الحارسِ التتريّ بين أصابعِ الأشجارِ،

ملتوياً،

طريحاً بين ضوءِ الفجرِ والأسدِ ـ الجوادْ

ولـمّـا ركـزْنـا بـالـعـراق رمـاحَـنـا

تَـدافَـعَ مـن أدنـى مـنـابـتـهـا الـصـبـحُ

تـعـالَـوا إلـيـنـا: مـتـعَـبـيـنَ ورُمَّـضـاً

تـعـالَـوا إلـيـنـا: إنـه الأمـلُ الـجـرحُ

أقـيـمـوا . . . وكـونـوا الـمـاءَ يـمـنـعُ نـفـسَـهُ

وكـونـوا رمـاحَ الـمـاءِ إن أورقَ الـرمـحُ

لـكـأنَّ وجـهَـكِ فـي يـديَّ سـحـابـةٌ أولـى،

بياضُ منازلِ العمالِ في سفحِ الجزائرِ . . .

لـهـفـةُ الأعـلامِ وسْـطَ الـسـاحـةِ الـحـمـراءِ،

وجـهُـكِ فـي يـديَّ حـمـامـةٌ . . .

حـيـن الـتـقـيـتُـكِ كـانـتِ الآبـارُ طـافـحـةً،

وفـي حـقـلِ الـشـمـالِ أحـبَّـكِ الـعـمـالُ،

ها هم عاشقوكِ يغازلونكِ:

حلوةْ

يا حلوةْ

ركضنا اليوم للجلوةْ

ومن كركوك جيناها

من كركوك والبصرةْ
جينا اليوم للحلوةْ
جينا اليوم للجلوةْ

بغداد، ٢٧/ ٦/ ١٩٧٢

المملكة الثالثة

نحن في الكتبِ الأجنبيةِ نرحلُ،
أو نشتري الشِعرَ،
أو نلمسُ الثورةَ امرأةً. . .
نحن نبني سقوفَ المقاهي التي هبطتْ في المياهِ
نحن نضحكُ:
ـ كأسينِ
ـ أكثرَ
لكننا سوف نبكي
مثلما كان آباؤنا
يضحكونَ ويبكونَ
أو مثلما سوف يصبحُ أبناؤنا.
في الليالي الطويلاتِ نبحث عن وجهها. . .
غادرتْنا مساءً،
وفي جيبها حملتْ كلَّ ما يَهَبُ النفَسَ المحضَ معناهُ.
ها نحن في شهقةِ الفحمِ نعزلُ ما كان منها
نعيش بهِ
أو لهُ. .

غير أنّ التأملَ ليس التعاملَ . .
تلك التي غادرتنا مساءً
إلى المدنِ الساحليةِ . . .
تستقبل الصامتينْ
إنه يصنعُ الوهمَ حلماً
إنه يصنعُ الحلمَ في صمتهِ شجراً
أيها الواقفون على خطوتينِ من الغابةِ المستكنّةِ تحت أصابعِكمْ :
أقبِلوا
أقبِلوا . . .
في زمانِ التحدّي تكونُ الأناشيدُ أيدي .

بغداد، ٢١/ ٥/ ١٩٧٢

العمل اليومي

يهبطُ من مقهىً بغرناطةْ
يهبط من خرائطِ الكرمْ الفرنسيةْ
يهبط بالمظلّةِ الأولى التي أودَعَها نفيَهْ
يهبط في البئرِ الخريفيةْ
في غرفةٍ بالطابقِ الرابعِ،
من عمارةٍ في ساحةِ التحريرِ
مكتبانْ
يمتلئانِ، الآنَ، بعدَ الآنِ. .
بالغبرةِ والإعلانْ
ويوقفان الأفقَ الأوسعَ والأغصانْ
على حدودِ الحائطِ الأبيضِ حيثُ ارتمتِ العينانْ
وحيثِ أسرابٌ من النوارسِ الميْتةِ ملقاةٌ
على الشطآنْ

أغنية

في النبع غمسْنا الأزهارَ الأولى
فابتلّتْ بالماء أصابعُنا
يا شَعَراً بين الزهرةِ والقطرةِ محلولا
خصلاتٌ منكَ شرائعُنا

يجلسُ بين العشبِ والجنديِّ في مزرعةٍ أخرى
يجلسُ بين صاحبِ الحانةِ والآنسةِ الواثبةِ النظرةْ
يجلسُ بين الماءِ والأسماءْ
يجلس ساعاتٍ إلى عينينِ، أو زهرةْ
يجلس في الأضواءْ
في غرفةٍ بالطابق الرابعِ،
من عمارةٍ في ساحة التحريرِ. . .
كرسيّانْ
لا يبعدُ الواحدُ عن صاحبه متراً، رماديانْ
وبين كرسيٍّ وكرسيٍّ. . . وبين الشيءِ والأسماءْ
أسلاكُ كهرباءْ
أجراسُ كهرباءْ
أجراسُ أزهارٍ من الشايِ، وأوراقٍ من الإعياءْ
(لا يَبعدُ البحرُ عن المقهى كثيراً. . .
كان صوتُ الريحْ
والملحِ والشيحِ يناديكَ طوالَ الليلِ)
في الغرفة كرسيّانْ
تمسحُ عنهما الستائرُ المعدِنُ طعمَ الشيح والموجةِ والشطآنْ

أغنية

سمّيتُ العشبَ فتىً، والشمسَ «مليكهْ»
وجلستُ على الأحجارْ
فرأيت الأرضَ أريكةْ
ورفاقي الأشجارْ

يَفتحُ باباً مغربياً في سكونِ الصبحْ
يفتح صمتَ الجرحْ
يفتح عينيه على العالم، أو يفتتح العالمْ
يفتح أوراقَ القمارِ الصعبِ. . . أو أوراقَهُ الأولى
يفتح باباً معدنِياً يعزلُ العالمْ
في غرفةٍ بالطابق الرابعِ،
من عمارةٍ في ساحة التحريرِ. .
دولابانْ
منغلقانِ، اليومَ، بعدَ اليومِ
لا تدري بأسرارهما عينانْ
يكدّسانِ الصيفَ فوقَ الصيفِ والأحقابَ والأحقابْ
وفجأةً. . .
تأتي فتاةٌ:
تفتح الدولابْ
وتفتح الثاني.
وتغلق الدولابْ
وتغلق الثاني
تأتي، ولا زهرٌ، ولا أوراقْ
وتختفي،
فُجاءةً،
عاريةَ الكفّينِ:
لا زهرٌ ولا أوراقْ

أغنية

للقبوِ المعتمِ
رائحةُ العنبِ الصيفيةُ والقدمِ العُريانةْ
ولأهدابي الغابةُ بعد المطرِ
من ضيّع تيجانَهْ
فليسألْني يومَ السفرِ

في غرفةٍ بالطابق الرابعِ
من عمارةٍ في ساحةِ التحريرِ،
يغفو
مبحراً
إنسانْ

بغداد، ٢٠/ ٦/ ١٩٧٢

تنويعات استوائية

ما الذي قد صنعتَ بنفسكَ؟
كانتْ بلادُ الجزائرِ واسعةً مثلَ. . . إفريقيا
كان في كل مزرعةٍ غابةٌ مثل. . . إفريقيا
كان في كل مفترقٍ نخلةٌ مثل. . . إفريقيا
كان شاطئها ملعباً للأسود الصغيرةْ،
إنه يذكرُ البحرَ. . .
سيدةٌ ساءلتْ عنكَ سُترتها الجلدَ،
ثم اختفتْ في رُواق العمارةِ:
ناحلةً
هشةً
مشتهاةً. . .
ـ أريدكِ:
لم نقتسمْ عالماً، لم نقل للمسيء أسأتَ
ولم نَبلغِ الحبَّ،
لم نُبلغ الحبَّ أسماءنا، والعناوينَ،
كنا نلوذ به، مثلما يختفي وجهكِ الآنَ
خلفَ توازي الضياءِ الذي يُلصقُ السُتُرَ الخشبيةَ

بالليل. . . خارجَ شرفتكِ الضيقةْ

* * *

ما الذي قد صنعتَ بنفسكَ؟
محترقٌ وجهُك المغربيُّ. . . الظهيرةَ
عند الظهيرةْ
بدأَ الليلُ يسقطُ. . .
فتَّحتَ عينيكَ ـ كان النبيذُ الجديدُ خفيفاً وحلواً ـ
نظرتَ من النافذةْ
إلى الساحة الجانبيةِ، حيث غبارُ العصورِ
البويهيةِ، امتدَّ، وامتدَّ، حتى اعتلى
وجهَكَ المغربيَّ، وألصَقَ بالبرنسِ الصوفِ
شاراتِهِ. . . من ترى ينفضُ الذلَّ عن
درعِكَ المغربيِّ؟
انتفضْ!
ما الذي قد صنعتَ بنفسكَ؟
ساومتَ نفسكَ؟
ساومتَ؟
خبزُ الجزائرِ كان الأهلَّةَ في الفجرِ،
كنتَ تظلُّ إلى الفجر مستقبِلاً كلَّ ما يَهَبُ البحرُ،
مسترخياً ترقبُ الشاطئَ ـ الرملَ يُصبحُ
بعضاً من البحرِ، خطّاً، فخطّاً، إلى أن

يلامسَ أضلاعَكَ البحرُ
وحدَكَ
كنتَ المواجه، والموجَ،
كان العدوّ الذي يرتدي كلَّ أسماء من قاتلوا تحت راياتكَ المعلنهْ
كلَّ أسماء من قاتلوا ضدَّ راياتِكَ المعلنهْ
كلَّ أسماء من قاتلوا
كلَّ أسماء من خاتلوا:
الحنينْ
وها أنتَ منهزمٌ:
تدخل المصعدَ، الساعةَ الثامنهْ
تهبط المصعدَ، الساعةَ الثانيهْ
أيهذا العدوُّ الذي ظلَّ يطردني، ويطاردني... في البلادِ البعيدهْ
أيهذا العدوُّ الذي كنت ألمحه في الشجرْ
والذي كنت اقتاتُهُ في سطورِ الجريدهْ
وسقوطِ الثمرْ
أيهذا الحنينْ
أيهذا الأنينُ الذي كنتُ اسميتُهُ وطناً،
وادّعيتُ له، واجتزأتُ حماقاتِهِ، واجترأتُ
على ما رأيتُ ـ انتساباً لهُ...

أيها الوطنُ الأولُ
إننا نذبلُ
يدرك الشيبُ أبناءنا . . .
أيها الوطنُ المقبلُ . . .

بغداد، ٢٤/٨/١٩٧٢

إشـارات

(*) وجدة: مدينة مغربية على حدود الجزائر.

(*) الصخيرات: قصر ملكيّ في المغرب.

(*) الحسيمة: مدينة مغربية.

(*) سبتة: مدينة في المنطقة الإسبانية من المغرب. و«باب سبتة» مركز الحدود بين المغرب والمنطقة الإسبانية.

(*) الجيرانيوم: زهر.

(*) دارين: موضع بالجزيرة.

يقول الشاعر القديم:

يمرون بالدهنا خفاقاً عيابهم ... ويخرجن من دارين بُجْرَ الحقائبِ

على حين ألهى الناس جُلُّ أُمورهم ... فندلاً زريقُ المالَ نَدْلَ الثعالبِ

(*) مليكة: من أكثر أسماء الفتيات انتشاراً في بلدان المغرب العربي.

نهايات الشمال الأفريقي

(١٩٧٢)

لا أريد أكثر من أن أتحدثَ ببساطة
وأن أُمنحَ هذا المجد.
فلقد أثقلنا أغنيتَنا بالكثير من الموسيقى
حتى بدأتْ تغرق تدريجاً. . .
ووشّينا فنَّنا بالكثير
حتى ذهبَ الذهبُ بقسماته.
إن الوقت قد حان
لنقول كلماتنا القليلة
فغداً تنشرُ الروحُ الشراع!

سيفيريس

حانة على البحر المتوسط

أعتمَ البحرُ،
منذُ الظهيرةْ
كان يُعتمُ، شيئاً، فشيئاً، وكان بريقُ الثيابِ القصيرةْ
يختفي في العيونْ
يلتقي والعيونْ
يرتقي في ضباب الزوايا سوادَ العيونْ.
والمرايا ـ النبيذُ
المرايا ـ الدخانُ
المرايا ـ المرايا
في غموض الزوايا
أعتمَ النهرُ،
منذ الظهيرةْ
كان يعتمُ، شيئاً، فشيئاً، وكان نخيلُ الجزيرةْ
يختفي في سماءٍ من القطنِ مبتلّةٍ
ـ هل تريدين شيئاً من الثلجِ؟
ـ لا . . .
فندقٌ قربَ بابِ المعظّمْ

غرفةٌ قربَ بابِ المعظّمْ
ليلةٌ قربَ بابِ المعظّمْ
كنتُ منكشفاً للرصاصِ الذي جاءني من وراء الفراتِ
للّيالي السياسيةِ المثقلاتِ
للبساتينِ،
حيثُ تئنُّ البنادقْ
ـ وهي مدعونةٌ ـ في الصناديقِ:
غدّارةُ «اسْتِنّ» أو «بور سعيدْ»
ـ أنتِ لا ترقصين!
ـ ربما بعد كأسينِ. . .
ـ شيئاً من الملحِ؟
ـ لا. . .
أعتمَ الوجهُ،
منذ الظهيرةْ
كان يعتمُ، شيئاً، فشيئاً، وكان سوادُ العيونِ الصغيرةْ
يختفي في سوادِ القماشْ.
إن كفيهِ مشدودتانْ.
إن عينيهِ معصوبتانْ.
إنه، فوق كرسيهِ. . .
سوف يُعدَمْ.
ـ هل تريدينَ شيئاً من النارِ؟
ـ لا.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أنتِ لا تفهمين.

الجزائر ـ وهران

٢٩/ ٣/ ١٩٧١

نهايات الشمال الأفريقي

حملتُ على رمالِ شمالِ إفريقيّةَ السعفا
وأحرقتُ الخرائطَ في مرافئِ مصرَ:
بين الشرقِ والمنفى
وعبرَ دروبِ بنغازي، ودَرْنَةَ، كنتُ أُسألُ عن هويتي
التي مزّقتُها نصفينِ:
أعطيتُ المفوضَ نصفَها، وحبيبتي نصفا

*

وفي أحياءِ تونسَ، في مقاهيها الشتائيةْ
رأيتُ صبيةً تبكي
بلا حرفٍ، ولا وجهِ
على أبوابِ إفريقيّةَ المفتوحةِ الأفخاذْ
وكان الثلجُ يسقطُ، والصبيةُ تحته تبكي

*

طوالَ البعدِ، تبتسمينَ:
كان المغربُ الأقصَى
يدور مع ارتخاءِ اليوسفيّ، وحلمِ إشبيليّةَ الوردِ
وكان ضياعُ خطوكِ فيه، بين الظل والظلمةْ

وكنتُ أراكِ، وحدكِ، تحلمينَ، وأرقبُ البسمةْ
تَلَوّنُ ـ وهي تولَدُ ـ بالغروب، وتشربُ الظلمةْ
بأفياءِ الرباطِ، وساحةِ النافورةِ القُزحيةِ الألوانِ،
في إمساءِ غرناطةْ
طوال البعدِ، ترتجفينَ:
كان المغربُ الأقصى
يدورُ ـ كما تدور الأسطوانةُ في الظلامِ ـ وأنتِ مشدودةْ
بكل هنيهةٍ، ويدورُ هذا المغربُ الأقصى
وأنتِ إليه مشدودةْ
وأنتِ إلى إسطوانته المخمسةِ الوجوهِ أراكِ مشدودةْ
ولكنا، ندور، مكبلينَ بعطرهِ، ونعومةِ الرملِ
على صيفِ الشواطئِ، مثقلينَ بخمرهِ الأبيضْ
إلى أن تنتهي تنويمةُ الرملِ
ويحمرَّ النبيذُ، فتشحبَ الصورةْ
وتقتسمَ الحياةَ دوائرُ الغرباءِ والهجرةْ
ثلاثةَ أشهرٍ، فثلاثةً، فثلاثةً، فثلاثةً أخرى

*

حملتُ على رمالِ شمالِ إفريقيةَ السعفا
حملتُ الطلعَ من منفى إلى منفى
وسبعاً كانت السنواتُ، سبعاً كانت الأرَضونَ، بعدك،
والسّماواتُ
وأنتِ هنا، الرضيةُ:

سعفُكِ الشاحبْ
سواقيكِ الصَّموتُ، وطينُكِ الذائبْ
وأنت هنا، الصغيرةُ،
يا أميرتيَ الجنوبيةْ
أتنسَينَ الأحبةَ هكذا؟
هل تقبلين تَعَفُّنَ المنفى
لمن قَبِلَ الشهادةَ، دون وجهِكِ، يا مدينتيَ الجنوبيةْ؟

*

أيا وطني المحاصرَ، أيها الوجهُ الثلاثيُّ
ويا عينينِ جائعتينِ تمتدان بين الصخرِ والبحرِ
ويا وطنَ المرايا، أيها الجرحُ المفتَّحُ، أيها الجذرُ الثلاثيُّ
جريحٌ أنتَ، تنزفنا دماً ودماً، ولكنّا
نريدُ الجرحَ، بدءاً منه بالصفرِ
أيا وطني المحاصرَ بالذين يحاصرون عيونَهم، يا أيها الزمنُ الثلاثيُّ
غريبٌ أنتَ،
وجهُكَ مُصْلَتٌ،
عيناكَ جائعتان للسرِّ

*

غريبٌ أنتَ في الأرض التي تمتدُّ بين جداولِ البصرةْ
وأسوارِ الرباطِ:
رأيتُها غصناً فغصناً، صخرةً صخرةْ

ولكنَّ المخاضَ هنا، بعينيكَ اللتين تواجهانِ غرابةَ السرِّ
وأزهارَ البنادقِ والمياهِ وزرقةَ البصرةْ

*

رأيتُ يديكَ تمتدان لي في المغربِ الأوسطْ
مغضّنتينِ، حانيتينِ،
مسّدتا خيوطَ الشيبِ واختفتا
وأمسِ،
تزورني شفتاكَ هامستين: أنتَ فتى

*

حملتُ على رمالِ شمالِ إفريقيّةَ السعفا
جوازاً للمرورِ ـ
ألستَ تعرف أنهم سحبوا جوازَكَ مرةً فرقدتَ في شارعْ؟
وكان الثلجُ ملتفًّا
على عنُقِ المدينةِ، حين جئتَ، وكانتِ الأشجارُ
في الشارعْ
زجاجاً بارداً من ماءْ
وكان تشَنُّجُ الأضواءْ
ينثُّ، كما ينثّ الثلجُ. . .
شيئاً يلمسُ الشارعْ
ويبقى لِصْقه، متجمداً، مائعْ
ـ ستذكر أنهم سحبوا جوازَكَ مرةً، فرقدتَ في شارعْ.

*

وفي أسواق بلعبّاسَ،
في وسط المدينةِ،
في المقاهي حيث لا تتركز القهوةْ
وفي الباراتِ إذ تتأخرُ الساعةْ
ستُسمَعُ همسةٌ «دخلَ المهاجرُ»،
ثم لا تتأخرُ الساعةْ
وتبقى قطرةُ البيرةْ
بحلقي شوكةً،
وتدقُّ في سوقِ الهنودِ، وفي دمي، ساعةْ.
لماذا تلبسُ السنواتُ أحذيةً رصاصيةْ؟
وماذا يمّحي لو سرتَ في الليلِ
وراء السروِ والنخلِ
وراء تقلّباتِ الجوِ والصحفِ
وراء فنادقِ السوّاحْ
وراء معاطفِ الجنسِ الفريدِ وهدأةِ الرملِ
إلى أن تلتقي والبحرْ
إلى أن تختفي والبحرْ
إلى أن ترتدي في البحرِ أثوابَ الطحالبِ
في نعاسِ القاعِ والسفنِ الشراعيةْ

*

سلاماً أيها القتلى
سلاماً أيها الأحياءْ

سلاماً أيها الحزبيّ والجنديّ والفلاحْ
سلاماً أيها العمالْ
سلاماً أيها الماشونَ فوق الماءْ
سلاماً أيها النخلُ الذي لم يُشبعِ الأبناءْ
ويا أرضَ البنادقِ،
والقبورِ،
ودورةِ الأشياءْ
سلاماً. . .

الجزائر، آذار ١٩٧١

تسجيل

يتوازى الشجرْ
تتوازى غصونُ الشجرْ
تتوازى السنابلْ
يتوازى الجبلْ
والسحابْ
حين أُخبِرَ أن المدينةَ كانت مسيحيةً، والبيوتَ التي
يعرفُ الآن كانت فرنسيةَ الرائحةْ. . .
وبأن المشاربَ كانت تظلُّ إلى الفجرِ تستقبلُ الفرقةَ الأجنبيةْ،
لم يجدْ ما يقولْ.
والحقولُ التي تنتهي في السماءِ، الحقولُ التي
ليس فيها نساءُ القبيلةِ، كانت وراءَ الزجاجِ
المسلّحِ مبتلّةً بالرياحِ المسائيةِ المتعَبةْ.
كان يعرفُ أن الحقولَ الذكيةَ قد خبّأتْ سرَّها في
رؤوس السنابلْ،
أَنَّ بوابةَ المزرعةْ
مثلَ قرميدِها، لم تشمَّ رغيفَ الأصابعِ، أنَّ
الطريقَ إلى المزرعةْ،

ما يزال امتداداً
ما يزال الجبلْ.
هذه مهنةُ العاشقاتِ: العيونُ ـ البريقُ،
الثيابُ ـ الشذى، والشفاهُ ـ العقيقُ
هذه مهنةُ العاشقاتْ:
شققٌ نصفُ مفروشةٍ، تبغٌ أسودٌ في ضفافِ
النبيذِ، وخمسُ اسطواناتِ جازْ.
هذه مهنةُ العاشقاتْ
غير أنَّ العطلْ
غيرُ مدفوعةِ الأجرِ...
في الصيف تبقى المدينةُ، ظُهراً، بلا عاشقاتْ.
كان ينظرُ عَبرَ الشجرْ
وغصونِ الشجرْ
والسنابلْ
كان ينظرُ عبرَ الجبلْ.

الجزائر ـ سيدي بلعباس ٣٠/ ٤/ ١٩٧١

البحث عن خان أيوب في حي الميدان بدمشق

تساءلتُ حين دخلتُ المدينةَ عن خانِ أيوبَ،
ما دلّني أحدٌ،
فالتففتُ ببعضي، ونمتُ:
لقد كان وجهُ المدينةِ أزرقَ. . .
أشجارُها تستطيلُ وتكبو، ولكنها تستطيل لتكبو. . .
وثالثةً تستطيلُ
وكانت منائرُها خزفاً مغربياً،
وبحراً محيطاً أزقتُها،
تتقافزُ منه الوجوهُ التي ترتدي عريَها. . .
كان بين العراقِ وبينيَ رملُ الجزيرةِ،
قلتُ: انتهيتُ. . .
ولكنني حين فتّحتُ عينيَّ أبصرتُ عينيكِ
إن السماءْ
تظلّ ـ كعينيكِ ـ زرقاءَ
إنكِ في الشجرِ ـ الوهمِ، والوخزِ، بيتي ومكتبتي
والسبيلُ إلى سفحِ سنجارَ. . .
لملمتُ بعضي وسرتُ،

*

لماذا يراني جنودُ الخليفةِ شخصاً غريباً؟
لأني تحدثتُ في السوق عمّا وراءَ النهرْ؟

*

يقول ليَ السوقُ شيئاً، يقول ليَ الشوق شيئاً، فأَقسم بين اثنتينِ
القميصَ الذي ورِثَ الفتنَ الداخليةَ
والكتبَ المستباحةَ. . .

أَقسم بين اثنتينِ الشفاهَ التي تتناولُ
والجامعَ الأمويَّ الذي يُتناولُ،
أَقسم بين اثنتينِ الإلهْ.

*

ولكنني لدمشقَ، المدينةِ والجرحِ، أمنحُ نارَ التوحُّدِ،
أُعلِنُ في الصحفِ المشتراةِ
وفي الصحفِ المشتهاةِ بيانَ الذين رأوا وجهَها قبل
أن يولدوا،
والذين يريدونها امرأةً تتزاوجُ فيها الشهادةُ والماءُ،
بين الشهادةِ عشرونَ ميلاً وبين دمشقْ
وعشرةَ آلاف ميلٍ تناءتْ دمشقْ
وأشجارُها عن دمشقْ.

*

مضى زمنٌ كانتِ الأرضُ فيه تدورُ على نفسها،

وأَتى زمنُ العاشقينَ الذين إذا دارتِ الأرضُ ماتوا،
أو اجترحوا الرفضَ كي يوقفوها.

*

مضى زمنٌ كانتِ البندقيةُ فيه التفرُّدَ والحلَّ،
إنّا على رقعةٍ لا تُهاجرُ فيها الخيولْ.

*

مضى زمنٌ كانتِ المدنُ العربيةُ فيه ثغوراً...
لقد جاءنا زمنُ المدنِ المصرِفيةْ.

*

يراقبني الليلُ...
أعمدةُ الجامعِ الأمويِّ العتيقةْ ـ
تراقبني...
وتدورُ الأزقةُ بي، وتدورُ المنازلُ خلفَ «الحريقةْ»
إلى حيثُ ينفردُ الظلُّ بي والمياهُ العميقةْ
وأسمعُ بين الغصونِ التي أزرقَّتِ الأرضُ منها وَرَقّتْ:
أنا الطائرُ
أنا الصوتُ، والجدولُ النافرُ
أنا ابنُ الإلهِ الدمشقيّ...
إني انتظرتُكَ عاماً فعاما،
وعاماً فعاماً هجرتُكَ،
لكنني العاشقُ الفردُ.
ـ هل نتحدثُ وقتاً قصيراً؟

ـ ألا تجلسُ؟
هنالك مقهى، كراسيُّهُ سَعَفٌ، كان يرتادُهُ
العدميونَ، والهاربونَ، ومَن يصنعونَ
القنابلَ سريةً، لوددتُ لو انيَ آتيكَ
منه بفنجانِ قهوةْ.
ولكنني ـ إن أردتَ الحقيقةَ ـ أخجلُ مِن
بعضِ روادهِ، فلنقلْ ما نشاءُ هنا، إنني
قائلٌ ما تقولْ.

*

تفتَّحَ لي خانُ أيوبَ،
ما دلّني أحدٌ،
غير أني دخلتُ
وبين حديقتهِ والدهاليزِ أبصرتُهم يصنعونَ القنابلَ...
إنهمُ إخوتي، يرسمون على النهر أعمدةَ الجامعِ الأمويِّ
جسوراً
جسوراً
جسوراً
جسوراً
جسوراً
وقد ينسفونَ الجسورْ
إلى الناصرةْ.

*

سأسكنُ في خانِ أيوبَ،
ما دلّني أحدٌ،
غير أني اهتديتُ.

دمشق، ١١/ ١٢/ ١٩٧١

قصيدة تركيبية

وجهُها كان بين الرخامِ الصناعيّ، والآسِ. . .
هل غادرتْ قرطبةْ
مساجدَها؟
هل تخطّى العراقُ الخوارجَ؟
هل أمسكتْ يدُها بالغصونِ التي شربتْ خضرةَ الجرحِ
حتى الثمرْ؟

*

وجهُها كان بين الرخامِ الصناعيِّ والآسِ، بين يدي والسفرْ
في السماءِ الذي يتعبُ
في السماءِ الذي يلعبُ
في المساء الذي كانَ نصفينِ: بين أعالي الشجرْ
وظلامِ الحديقةْ.

*

ذهبٌ في ضفائركِ اليومَ، نرجسةٌ في جبينكِ،
نهرٌ من الريحِ أحمرُ فوقَ أعالي الشجرْ.

*

وجهُها كان بين الرخام الصناعيّ والآس، يمتصُّ ماءَ الذهبْ

في ضفائرها، كان يمتصُّ لونَ النراجسِ
يخلو من اللون، شيئاً فشيئاً. . .
وتحتَ غصونِ المساءْ
يتشمّعُ شيئاً فشيئاً. . .
ويشحبُ
يصفرُّ. . .
كان المساءْ
يتوحّدُ. . . بين أعالي الشجرْ
وظلامِ الحديقةْ.

*

للنساء اللواتي يرحنَ ويغدون في حجرةٍ يتحدثن عن
ميكائيل أنجلو
للنساء اللواتي يطالعْن أثوابَهنَّ، ويلبسن ـ قبل المساءِ ـ الكتبْ
للنساء اللواتي يداومن في «التوكالونْ»
للنساء اللواتي اشتهينَ اكتشافَ الحقيقةْ
للنساء اللواتي اشتهينَ اكتشافا
للنساء اللواتي اشتهينْ
أُقَدِّمُ وجهَكِ يا طفلةً يَنصُلُ من وجهها في حديقةْ:

مشهد «١»

غابةٌ في الضواحي التي تسكن البحرَ، في برشلونةْ
كنتُ أعرفُ أني سألقاكِ فيها

حينما يهدأُ البحرُ. . .
أبيضَ كان النبيذَ. . .
وأبيضَ قد كان ثوبُكِ، وجهُكِ. . .
وجهُ السماءِ
التي ينصعُ الماءُ
والملحُ
والورقُ الهشُّ فيها.

*

مشهد «٢»

هل تحبُّ الأميرةُ أن ترقصَ الليلَ كلَّهْ
هي والساكسفونْ؟
هل تحبُّ الأميرةُ أن تهتدي كلَّ ليلةْ
بمرايا العيونْ؟
الأميرةُ ترقصُ
ترقصُ
ترقصُ
ترقصُ
حتى تراها العيونْ
فجأةً ترتمي
فجأةً تحتمي بذراعِ الأمير الصغيرْ
وجهُها وردةٌ، ويداها حريرْ.

*

مشهد «٣»

على عرباتِ القطارْ
نثيرٌ من الثلجِ . . .
ليتكِ تدرين أنَّ المسافرَ
في قاعةِ الانتظارْ
وأنَّ على شعرهِ الجعدِ بضعَ لآلئَ من عرباتِ القطارْ
وليتك تدرينَ أن المسافرَ أضناهُ طول السِفارْ
أما زلتِ خلف زجاجِ المحطةِ
في حجرةٍ دافئةْ
برائحة الخشبِ الرطبِ والشاي . . .
بين رفوفِ التذاكرْ؟

*

أنتِ، يا من لوجهِكِ بين الرخام الصناعيّ والآسِ
لفحُ الحقيقةْ
أنتِ، يا طفلةً ينصلُ الدمُ من وجهها في حديقةْ
أنتِ، يا وجهَ أمي الصغيرةْ:
لن تري عرباتِ القطارِ اللأخيرةْ
عبر نافذةٍ للتذاكرْ،
لن تري غابةً تسكنُ البحرَ في برشلونةْ،
لن تكوني الأميرةْ.
. . . . . .
. . . . . .

. . . . . .

أنتِ في عامكِ الـ ١٦

سوف تغدين أُمّاً. . .

سوف تغدين أُمّاً وَلودا

سوف تَغْذين أطفالَكِ الشاحبينْ

واحداً بعدَ آخرْ

بالعروق التي تنزفينْ

واحداً بعدَ آخرْ. . .

*

تنويمة

في البراري فتاةٌ جميلةْ
شعرُها أصفرُ
وجهُها أصفرُ
في البراري فتاةٌ تغنِّي
للصغيرِ الذي لا ينامْ
للصغير الذي شعرُهُ أصفرُ
وجهُهُ أصفرُ
ـ يا فتاةَ البراري الجميلةْ
كيف لا ترقدينْ؟
نزلتْ نجمةٌ فارقدي يا فتاتي الجميلةْ
يا فتاةَ البراري الجميلةْ. . .
وانظري. . .
إن وجهَ الصغيرِ الذي شعرهُ أصفرُ
أحمرُ. . .
فارقدي يا فتاةَ البراري الجميلةْ
ارقدي
أرقدي. . .

بغداد، ٣١/ ١٠/ ١٩٧١

حوار أول

حيث لا يخفقُ العلَمُ الأمريكيُّ، تجلسُ
حيث الجذورُ المعرّاةُ، تجلسُ
حيث الحدائقُ ليلية والحماقاتُ يوميةٌ، تجلسُ
حيث لا تُشترى
حيث لا تشتري غيرَ خبزكَ،
أنت، إذن، تجلسُ. . .
حسناً:
ما الذي خلّفتْه المطاراتُ. من وجهكَ اليومَ؟
قُلْ ما الذي جئتَ تحملُ من كلِ أرصفةِ العالمِ الماءِ:
هل جئتَ تحملُ لي زهرةً؟
إن كلَّ الزهورِ الغريبةِ عن وجهِنا الاستوائيِّ هذا تموتُ غُصناً؟
ليس طعمُ الغصونِ الرماديُّ قنبلةً للفدائيّ. .
هل جئتني بالرباطِ الحريرِ
بالخطى المستقيمةْ
بالحديثِ المجاملِ:
كم سرّني أن تكونَ القصيدةُ منشورةً

بالفرنسيةِ، الناقدُ اليومَ أخطأَ،
لم يلتفتْ للتداخلِ في اللونِ، للمنطقِ الجدليِّ
الذي طوّقَ الضرباتِ الأخيرةَ، هل
تشربُ الـ Canada Dry
سمعتُ بما قلتَ في حفلةِ الانتصارِ على الـ. . .
آهِ، كم تحرقُ الشمسُ وجهي!
كم أراكم على شاطئ البحرِ. . .
في طرقاتِ كراكوفَ القديمةْ،
بين أسوارِ فاسٍ وأبراجِها،
في دمشقَ التي لا تحبون أن تنتهي.
كم أرى صوتكم يتقلّصُ، كالقوقعِ الشجريِّ الذي لامسَ
النارَ. . .
كم يُتعبُ الصمتُ عبر البرامجِ. . .
إنكمُ الشاهدونَ الذين أرادوا الشهادةَ بين رواتبهم
والفراشْ

جمعية بناء المساكن لرواد الفضاء

هيوستن ـ طاشقند

تعلن عن قرب توزيع أراض مفروزة

يفضّل المتزوجون

ما البحارُ التي تستحْمون فيها وراءَ جلودِ الوجوهِ الحليقةْ؟
ولماذا تنامون خلفَ العويناتِ؟
خلفَ المناضدِ؟
خلفَ النساءِ؟
مرةً في غصونِ الشتاءِ
في القطارِ الذي مرَّ ما بين شيرازَ والأدرياتيكِ. . .
أبصرتُ عبدَ الملكْ
كان يكشطُ في سطح سرسنكَ وجهي
كان يكشط في سطح سرسنكَ أوجهَكم أيها السادةُ
المنصتونَ، الحليقونَ، يا من تريدونَ أن
ينتهي اللِّعبُ الفجُّ بالكلماتِ، لتمضوا. . .
إلى أين تمضون، يا إخوتي المتعبين من الراحةِ الباردةْ؟

● فوانيس.

● نادي الـ. . .

● صحارى.

● الجحيم؟

آه، كم تحرقُ الشمسُ وجهي!

كم أخافُ مكاتبكم، أيها الأخوةُ القانعونْ. . .

كم أخافكمُ أيها الإخوةُ الهادئونْ

إن عينيّ لا تخفيان ارتجافي أمامَ الدروعِ التي تلبسونْ

بين أزرارِ قمصانِكم والحقيقةْ.

كان عبد الملكْ

في القطارِ الذي مرَّ ما بين شيرازَ والإدرياتيكِ. . .

يكشطُ في سطح سرسنكَ وجهي

كان يكشطُ في سطح سرسنكَ أوجهَكم أيها الإخوةْ القانعونْ

*

إنه المغربيّ

إنه السائحُ المحترفْ

إنه القرويُّ الذي يجهل الأوبرا والقوانينَ. . .

ـ أنت هنا تجلسُ؟

ـ حسناً. . . .

بغداد، ٤/ ٩/ ١٩٧١

مسرحيات

حكاية في فصل واحد

(ليل. ممر من القضبان الحديدية، في وسطه زنزانة. الجوقة بملابس شعبية)

الجوقة: في هذا العصرِ المختارْ
قد يحيا خمسةُ أشخاصٍ في خمسةِ أمتارْ
ولقد يتربّعُ شخصٌ، أو لصٌّ واحدْ
في دار ملايينٍ خمسةْ.

(يدخل المغامر والسجان، ثم يقفان عند باب الزنزانة)

السجان: هذي هي الزنزانةُ السابعةْ

المغامر: فليقفوا باحترامْ

السجان: يا سيدي، إنهمو نائمونْ
فالساعة الآنَ هي الرابعةْ
ولم يناموا أمس حتى انتصافِ الليلِ.
كانوا في مقرّ الحرسْ.
وحين عادوا ـ أو أعيدوا ـ رأيت الدم في قمصانهم.

المغامر: قد يبسْ... طبعاً

السجان: وحيّوني، وهم يَعرجونْ

المغامر: (يتقدم خطوة نحو باب الزنزانة)

اسمعوني
اسمعوني
اسمعوني

صوت الزنزانة: أيها الطارقُ باباً دون دارْ
أيها الطارقُ في الليل على بابِ النهارْ
ما الذي تحملُه للساهرينْ
حول قمصانِ الدمِ اليابسِ والغصنِ السجينْ؟
ما الذي جئتَ به دون انتظارْ؟

المغامر: جئتُ أحيّيكم

صوت الزنزانة: ترى، من أنت؟ من؟

المغامر (للسجان): لم يعرفوا صوتي...
(للزنزانة):
أنا

صوت الزنزانة: من أنت؟ من؟

المغامر: أنا من سجنتكمو
ومن أقسمتُ أن تبقى سجوني
كمحطةٍ للاختيارِ
بين الشوارعِ والمقابرْ
بين الأزاهرِ والخناجرْ
ومحطةٍ للانتظارِ

صوت الزنزانة: ألستَ تراه انتظاراً طويلاً...
وليسَ اختياراً؟

فمن لا يُرَجِّي السنابلَ بعد البِذارْ
ومن لا يرى في الزهورِ الثمارْ
وفي زرقةِ البرقِ صوتَ الرعودْ؟
فهل مَطلع الشمس فيه اختيارْ؟
نعم. . . إن فيه انتظارا

المغامر: أنا لستُ أعرفُ غيرَ سيفي. . .
إنني رجلٌ مغامرْ
لم أقرأ الكتبَ الجديدةْ. . .
يوماً، ولم أنظر إلى أحداقِ شاعرْ
ولربما سرّحتُ عيني عبر أعمدةِ الجريدةْ
فلقد تعلّمتُ القراءةَ والكتابةَ حين
كان أبي يتاجرْ
بالخردواتِ
وبالكراريسِ الصغيرةِ
والمساطرْ
لكنني فكّرتُ:
ما نفعُ القراءةِ والكتابةْ
إن لم تكن حدّاً لسيفي؟
أنني رجلٌ مغامرْ
يا سادتي، والأمر أبسطُ من معادلةٍ بسيطةْ
١ إلى ١ = ٢
ها أنتمْ أولاءِ هنا وراءَ الليلِ والقضبانِ

أما «اللصُّ» فهو على عبادِ اللَّه ساهرْ

صوت الزنزانة: قد تنقلب الكأسُ

قد ينقلب الرأسُ

نعلاً، قد تنقلبُ الصورةْ

فنراك وراء القضبانِ

تصفرّ أمام السجانِ

وستنقلب الصورةْ

فالعالم ليس بناعورةْ

غامرتَ، ولكنّ العالَمَ

عِلْمٌ، لا أسطورةْ

تاريخُ العالم لا يُهزمْ

حتى لو شُوّهتِ الصورةْ

والمنبعُ لا يهرمْ

المغامر: سأترككم هنا

تتنفسون عفونةَ الأسماكِ في الأرضِ

ومثلَ الخبزِ في الماءِ

تذوبُ جلودكم

سأقودكم مثلَ الأرقاءِ

وأمنع ليلكم تهويمةَ الغمضِ

إذا لم تتبعوا في الصبح إيمائي

وداعاً . . .

(للسجان): أيها السجان

أتركْ كل زنزانةْ
وراقبهم هنا . . .
سأعود ظهر اليومِ

السجّان : تأمرُ سيّدي

(يبتعد المغامر عن الباب ويتبعه السجان)

السجّان : (لنفسه)

يا لعنتي لن أدخلَ الحانةْ

(يغادران)

الجوقة : في أعلى النخلةِ عصفورُ
يلهو بجناحيه النورُ
في «باب سليمان» المدُّ
ووراءَ البحرِ، الصاري ـ
والميناءُ الأبيضُ، والهندُ
وسمرقندُ
والنجمةُ والسورُ
وهنا . . . في ليل الزنزانةْ
إذ يشربُ قلبٌ أحزانَهْ
سيظل بأعلى النخلةِ عصفورُ
وتظل سمرقندُ
وببابِ سليمانَ المدُّ
والنجمةُ والسورُ
لكنْ . . .

إذ يلبس قلبٌ أحزانَهْ
إذ يزرعُ أحزانَهْ
في المرآة
فهنا، قد يسقط عصفورُ
من أعلى النخلةِ،
قد يخبو النورُ. . .
والسورُ، فلا مَدٌّ
في بابا النهرِ، ولا هندُ
وتذوب سمرقندُ
والنجمةُ تنطفئُ
والسورُ الأحمرُ ينكفئُ
في ليلِ الزنزانةْ

ثلاثة أصوات من داخل الزنزانة:

الصوت الأول: كلماتُه التصقتْ عليه، كأنما التصقَ الذبابُ
بثيابهِ، وكأنما اقتفتِ الكلابُ
آثارَ سيدِها. . .
سنرقدُ نصفَ ساعةْ
ـ إن شئتمو ـ حتى ينادينا الحساءُ المستطابُ

الصوت الثاني: بين وادي النعاسِ، واليقظةِ، الجمرُ ـ
وبين النعاسِ، والموتِ، بيتي
افتحوا، افتحوا النوافذَ للنخلِ
أريدُ النخيلَ يمتصُّ صوتي

في الجذورِ الإسفنجِ، في السعَفِ الشاحبِ
في تمرةٍ على شفتي طفلٍ، وفي طلعةٍ
على كفّ زارعْ
افتحوا، افتحوا النوافذَ، فالوديان تنأى
وتضمحلُّ الخيولُ. . .
إن أفراسَها على صهوة الغيمِ،
وأعرافَها الندى، والذهولُ

الصوت الثالث: فلننمْ نصفَ ساعةْ
ولكنْ ما يكونْ.
ما تراه العيونْ
تعتليه الشجاعةْ

الجوقة: نحكي لكم يا أيها السادةُ والسيداتْ
عن قصةِ الغصنِ ونهرِ الفراتْ
يقال:
إن الغصنَ يوماً نزلْ
ليشربَ الماءَ، فقالَ الفراتْ:
أما رضعتَ اليومَ عن أمكَ الحلوةِ. . . يا غصن؟

فقال الصغير: أحببتُ أن أشربَ وحدي.

فقال النهر: ما زلتَ صغيراً
فلم تقفْ على الأرضِ
ولم تسمعِ الأرضَ
وكم من غُصنٍ همَّ أن يشربَ من مائي

قليلاً فماتْ
لكنّ غصنَ التوتِ لم يفهمِ النهرَ:
تدلّى
وتدلّى
وألقى ثقلَهُ
أوراقَهُ
مرةً واحدةً، فانكسرْ
ولم يزل يذكرُ نهرُ الفراتْ
صيحتَهُ الهشّةَ والماءُ يطويهِ، ويلقيهِ
ويجري الفراتْ
كالنائمِ الساري، وتجري الحياةْ

الصوت الأول: (إغفاءة)
يتوهّجُ الصّلصالُ تحت خطايَ،
ينتثر الحصى ذهباً وفضةْ
والماءُ ينبعُ من تلالِ الرملِ ثم يغورُ فيهِ
يسقيهِ، يسترضي حصاهُ، ويمنحُ
الألوانُ أرضَهْ
أَنَّى اتجهتُ تَقُدْ خطايَ الشمسُ في أفقٍ شبيهِ
صحراءُ،
يا صحراءُ،
يا صحراءُ،
هل تُخفين عن عينيَّ زهرةْ؟

الصوت الثاني: شُرفةٌ في التلالِ الخفيضةْ
يزرعُ الفجرُ فيها الصنوبرَ بين الزهورِ
العريضةْ
شرفةٌ أم سفينةْ. . .
إنني في السفينةِ أمضي، ولا أُقلعُ
إنني أغرفُ الماءَ في راحتي
إنني أَغرقُ. . .
عند سورِ المدينةْ.

الصوت الثالث: (إغفاءة)
فوق قبري حمامةْ
تبتني عشَّها، فوق قبري علامةْ
سعفةٌ. .
يا حمامةْ
يا أغاني تِهامةْ
حين يأتي الربيعْ
حين يأتي الربيعُ بأوراقه المزهرةْ
فاتركي لي علامةْ
أنقري فوق قبري، وغنِّي تِهامةْ
واحملي يا حمامةْ
خُوصةً، أحمليها إليها. . .
وأتركيها لديها، علامةْ
(يدخل السجان)

(السجان): (يدق على القضبان)

انهضوا انهضوا

صوت من الزنزانة: آنَ أنْ ننهضا

(نشيد)

الصواري لها أجنحةْ
والنخيلُ له أجنحةْ
والجبلْ
مروحةْ.
والنوارسُ حولَ الشراعْ
كالمناديل قبلَ الوداعْ
والأملْ
كالذراعْ.
يا طريقاً يشقُّ النجومْ
لن تغطّي ذراك الغيمْ
فالجبلْ
للنجومْ.

الجوقة: لن نطيل الحكايةْ.
فلنقلْ: قد فهمتم
فلنقلْ: قد فهمتم
ولتقولوا:
وأين النهايةْ؟

الجزائر، ١٩٦٧

حانة الطرق الأربعة

«مسرحية في فصل واحد»

الشخصيات: صاحب الحانة.

مساعد أول: يوسف

مساعد ثان: ميخائيل

رواد الحانة: يرتدون ملابس غير مرتبطة بعصر ما.

*

أغنية مع القيثار: ربما تسألونْ:

حانةُ الطرقِ الأربعةْ؟

ما سمعنا بها

ما شربنا بها.

إنكم واهمونْ...

سادتي...

حانةُ الطرق الأربعةْ،

كلكم تشربونْ

خمرَها

كلكم تعرفونْ

سِرَّها.

حانةُ الطرقِ الأربعةْ

سادتي:

«مساء. حانة متوسطة أقرب إلى الصغر.
الإضاءة ليست جيدة. أغنية غجرية.
صاحب الحانة جالس على كرسي خلف البار.
يوسف يمسح الكؤوس».

صاحب الحانة: (ليوسف)
كم مرةً قلت لكم أن تغلقوا المذياعْ؟
كم مرةً قلتُ!
فلتغلقوا المذياعَ،
أو فلنغلقِ الأسماعْ

يوسف: (يتجه إلى مذياع صغير على رف الزجاجات):
أمركَ

(يغلقه ويعود إلى مسح الكؤوس)

صاحب الحانة: (لميخائيل):
ميخائيلْ...

ميخائيلْ: (صوته فقط):
نعم... نعم...

صاحب الحانة: أسرعْ،
فالساعةُ الآنَ هي الخامسةْ
وكلُّ شيءٍ في شحوبِ المساءْ
يشحبُ...
أين الضوءْ؟

ميخائيل: يا سيدي، أُشعلَتْ

كلُ مصابيحِنا.

صاحب الحانة: (لميخائيل)

امسحْ زجاجَ النوافذْ

ميخائيل: مسحتُه سيدي.

صاحب الحانة: مسحتَهُ؟ إنه يبدو بلون الترابْ

ميخائيل: يا سيدي...

كلُّ زجاجٍ قديمْ

يبدو بلونِ الترابْ.

صاحب الحانة: إنكَ تغدو فيلسوفاً...

ألا تعرفُ أن الليلَ والفلسفةْ

شيئان لا يُجمعان؟

ميخائيل: العفوَ يا سيدي

أعرفُ أن البارَ والفلسفةْ

شيئان لا يُفْصَلانْ

صاحب الحانة: البارُ والفلسفةُ

كالليلِ والفلسفةْ

شيئان لا يُجمَعانْ

شيئان لا يُفْصَلانْ

(تبدو في صوته رنة سخرية)

شيئان مستهلكانْ

صاحب الحانة: (ليوسف)

يوسف...

يوسف: (يترك مسح الكؤوس ملتفتاً ناحية صاحب الحانة):

نعم.

صاحب الحانة: أين كراسينا؟

أين كراسينا؟

أحسب معي يوسف (يبدآن حساب الكراسي) ١ ـ ١ ـ ٢ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٣ ـ ٤ ـ ٤ ـ ٥ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٦ ـ ٧ ـ ٧ ـ ٨ ـ ٨ ـ ٩ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٣ ـ ١٤ ـ ١٤ ـ ١٥ ـ ١٥ ـ ١٦ ـ ١٦ ـ ١٧ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢٠.

صاحب الحانة: (مستغرباً)

عشرين؟

(إلى يوسف):

يوسف...

يوسف: نعم؟

صاحب الحانة: (يرفع صوته):

نعم... تعال... ميخائيل...

(يدخل ميخائيل من وراء ستارة سوداء في جهة البار اليسرى)

ميخائيل: أتيتُ يا سيدي

صاحب الحانة: يوسف، ميخائيل

روّادنا التسعةُ والعشرونْ

مشتركونا، السادةُ التسعةُ والعشرونْ

سوف يجيئونا . . .
وما الذي نعملْ؟
إن كراسينا
لم يبق منها غيرُ عشرينا
فما الذي نعملْ؟
(إلى يوسف)
قل ما الذي نعملْ؟

يوسف: يا سيدي، لا نعمل الليلةْ
ولنغلقِ الحانةْ . . .

صاحب الحانة: (متجاهلاً الجواب ومتوجهاً إلى ميخائيل):
قل ما الذي نعملْ؟

ميخائيل: يا سيدي أجهلُ ما تجهلْ
لكنني أعرف شيئاً واحداً عن هذه الحانةْ
أعرف أن السادةَ التسعةَ والعشرينْ
مشتركينا
سوف يصطفُّون في الحانةْ
قبل انهائي من حديثي . . . إنني . . .
(يقطع كلامه رنين جرس)
ها الجرسُ الأولْ!
(يتجه إلى الباب ويفتحه):
تفضّلْ . . .
(يدخل المشترك الأول)

المشترك الأول: سلاماً سادتي

ميخائيل: وعليكم السلامُ. تفضّلْ. إن كرسيّكم هنا.

(يقدم له كرسياً. يجلس)

صاحب الحانة: (للمشترك الأول):

كما أَلِفْتُم؟

المشترك الأول: نعم

صاحب الحانة: بالملحِ أم بالعسلْ؟

المشترك الأول: أُحبها بالعسلْ.

(يختار صاحب الحانة زجاجة من الرف، ويقدمها إلى المشترك مع كأس. يأتي ميخائيل ليصب في الكأس ماء وعسلاً).

المشترك الأول: (لميخائيل):

أشكرك

ميخائيل: أشكرك

(يخرج المشترك الأول بأصابعه جريدة صغيرة مطوية داخل الزجاجة، يقرأ. يقطع الجريدة باعتناء قطعاً صغيرة، ويضعها في الكأس. يحرك القطع الورقية داخل الكأس بإصبعه. يشرب الكأس، يبقى صامتاً).

صاحب الحانة: (للمشترك الثاني).

كما ألفتم؟

المشترك الثاني: نعم.

صاحب الحانة: بالملح أم بالعسلْ؟

المشترك الثاني: أحبها بالملحْ.

(يختار صاحب الحانة زجاجة من الرف، ويقدمها إلى المشترك مع كأس. يأتي ميخائيل ليصب في الكأس ماء وملحاً».

المشترك الثاني: أشكرك.

ميخائيل: أشكرك.

(يخرج المشترك الثاني بأصابعه جريدة صغيرة مطوية داخل الزجاجة. يقرأ. يقطع الجريدة ويضعها في كأس. يحرّك القطع الورقية داخل الكأس بإصبعه. يشرب الكأس. ويبقى صامتاً).

ميخائيل: (يتجه إلى الباب ويفتحه)

تفضّلْ

(يدخل المشترك الثالث)

المشترك الثالث: سلاماً، سادتي

ميخائيل: وعليكم السلام، تفضّلْ، إن كرسيّكم هنا.

(يقدم له كرسياً فيجلس)

صاحب الحانة: (للمشترك الثالث)

كما ألفتم؟

المشترك الثالث: نعم.

صاحب الحانة: بالحبر يا سيدي؟

المشترك الثالث: بالحبرِ، أي بالحبرْ

(رنين جرس. المشترك الرابع يدخل)

صاحب الحانة: كما ألفتم؟

المشترك الرابع: لا.

صاحب الحانة: بأيّ شيء إذن؟

المشترك الرابع: أحبها بالسم...

صاحب الحانة: بالسم، يا سيدي؟

المشترك الرابع: نعم... نعم... بالسم.

(يشرب فيموت. يمدده ميخائيل على الأرض)

(رنين جرس. المشترك الخامس يدخل)

صاحب الحانة: كما ألفتم؟

المشترك الخامس: لا.

صاحب الحانة: بأيّ شيء إذن؟

المشترك الخامس:

بالنفظ، أي بالنفط.

(يشرب فينتفخ. ميخائيل يمدده على الأرض)

(رنين جرس. المشترك السادس يدخل)

صاحب الحانة: كما ألفتم؟

المشترك السادس: نعم.

صاحب الحانة: بالتمر يا سيدي؟

المشترك السادس: بالتمر، أي بالتمر.

(رنين جرس. يدخل المشترك السابع)

صاحب الحانة: كما ألفتم؟

المشترك السابع: نعم.

صاحب الحانة: بالرز، يا سيدي؟

المشترك السابع: أحبها بالرز.

(رنين جرس. يدخل المشترك الثامن)

صاحب الحانة: كما ألفتم؟

المشترك الثامن: لا.

صاحب الحانة: بأي شيء إذن؟

المشترك الثامن: أحبها بالحُب.

صاحب الحانة: لم يبق عندي حُب.

(رنين جرس. يدخل المشترك التاسع)

صاحب الحانة: كما ألفتم؟

المشترك التاسع: نعم.

صاحب الحانة: تحبها ناشفةْ؟

المشترك التاسع: ناشفةً، ناشفةْ.

(يقرأ الجريدة، ثم يأكلها قطعة قطعة)

(رنين جرس. المشترك العاشر يدخل)

صاحب الحانة: كما ألفتم؟

المشترك العاشر: لا.

صاحب الحانة: بأيّ شيء إذن؟

المشترك العاشر: أحبها الليلةَ بالمشنقةْ.

(يقدم صاحب الحانة الزجاجة ذات الجريدة الصغيرة. المشترك يقرأ)

صاحب الحانة: (إلى يوسف)

جهّزْ لنا المشنقةْ.

يوسف: جاهزة سيدي.

صاحب الحانة: (للمشترك العاشر)

تفضلوا، سيدي.

(يقوم المشترك من كرسيه، وقد عصب عينيه بالجريدة. يوسف يقوده).

يوسف: من ههنا، سيدي.

(رنين جرس. المشترك الحادي عشر يدخل. يوسف يعود).

صاحب الحانة: كما ألفتم؟

المشترك الحادي عشر: . . . .

صاحب الحانة: بأي شيء إذن؟

المشترك الحادي عشر: أحبُّها بالرصاصْ.

(يقدم صاحب الحانة إليه الجريدة. المشترك يقرأ)

صاحب الحانة: (إلى يوسف)

جهز لنا الرشاشْ.

يوسف: جُهِّز يا سيدي.

صاحب الحانة: (للمشترك الحادي عشر)

تفضلوا، سيدي.

(يقوم المشترك من كرسيه، وقد عصب عينيه بالجريدة، يوسف يقوده).

يوسف: من ههنا سيدي

(يخرجان، ويسمع بعد لحظات صوت إطلاق الرصاص)

(رنين جرس. المشترك الثاني عشر يدخل. يوسف يعود).

صاحب الحانة: كما ألفتم؟

المشترك الثاني عشر: لا

صاحب الحانة: بأيّ شيء إذن؟

المشترك: أحبها بالعمى.

(يقدم صاحب الحانة إليه الجريدة. المشترك يقرأ)

صاحب الحانة: (إلى يوسف)

جهز لنا المِفْقَأة.

يوسف: جاهزة، سيدي.

يوسف: (للمشترك)

من ههنا، سيدي.

(يخرجان).

(رنين جرس. المشترك الثالث عشر يدخل. يوسف يعود).

صاحب الحانة: (للمشترك الثالث عشر)

كما ألفتم؟

المشترك: أحبها بالصمْ.

(يقدم صاحب الحانة إليه الجريدة. المشترك يقرأ)

صاحب الحانة: (إلى يوسف)

هيِّئ جهازَ الصمْ.

يوسف: هُيِّئ يا سيدي.

صاحب الحانة: (للمشترك)

تفضلوا، سيدي.

يوسف: (للمشترك)

من ههنا، سيدي.

(يخرجان).

(رنين جرس. المشترك الرابع عشر يدخل. يوسف يعود).

صاحب الحانة: (للمشترك الرابع عشر)

كما ألفتم؟

المشترك الرابع عشر: لا

صاحب الحانة: بأي شيء إذن؟

المشترك: أحبها بالخَرَسْ.

(يقدم صاحب الحانة إليه الجريدة. المشترك يقرأ)

صاحب الحانة: (إلى يوسف)

هيِّئ له كلاّبة الإخراسْ.

يوسف: قد هُيئت، سيدي...

صاحب الحانة: (للمشترك الرابع عشر)

من ههنا، سيدي.

(يخرجان وقد ألصق المشترك بلسانه الجريدة. يعود يوسف بعد لحظات).

صاحب الحانة: (مستعرضاً الجالسين وهم صامتون بلا حركة):

يا أحباءُ... حانةُ الطرقِ الأربعِ تدعوكمُ إلى الموسيقى

(لا استجابة).

صاحب الحانة: (يعيد):

يا أحباء، حانة الطرق الأربع تدعوكم إلى الموسيقى

(يفتح المذياع. نشرة أخبار محلية.. تتم النشرة)

صاحب الحانة: يا أحباء، تمت الموسيقى

(يغلق المذياع)

المشترك ١: (يصفق ثلاث مرات): أحبها بالعسل (يسكت)

المشترك ٢: (يصفق ثلاث مرات): أحبها بالملح (يسكت)

المشترك ٣: (يصفق ثلاث مرات): أحبها بالحبر (يسكت)

المشترك ٦: (يصفق ثلاث مرات): أحبها بالتمر (يسكت)

المشترك ٧: (يصفق ثلاث مرات): أحبها بالرز (يسكت)

المشترك ٨: (يصفق ثلاث مرات): أحبها بالحب (يسكت)

(فاصل زمني

المشترك ٩: (يصفق ثلاث مرات): أحبها ناشفة (يسكت)

(يشترك صاحب الحانة ومساعداه في تقديم زجاجات الجرائد والكؤوس)

(رنين جرس. المشترك الخامس عشر يدخل)

صاحب الحانة: (يقترب من المشترك)

كما ألفتم؟

المشترك الخامس عشر: لا

صاحب الحانة: بأيّ شيء إذن؟

المشترك الخامس: (يقيد يدي صاحب الحانة بحركة سريعة)

أريد أن أشربك!

المشترك الخامس: (ليوسف وميخائيل)

ضعاه في المرحاض.

يوسف وميخائيل: معاً

أمرك يا سيدي...

يوسف وميخائيل: لصاحب الحانة)

من ههنا، سيدي.

(يرافقانه خارج المسرح ثم يعودان. يجلس المشترك الخامس عشر على كرسي صاحب الحانة وسط البار).

(يبدأ الجالسون في تقطيع الجرائد وإذابتها وشربها، إلا المشترك الثامن. رنين جرس. المشترك السادس عشر يدخل فيتجه نحو الكرسي)

المشترك السادس عشر: اعتذرُ الليلة يا سادةْ

فإنني لن أشربَ الليلةْ

جريدتي، لن أثملَ الليلةْ

فموعدي أعظمُ يا سادةْ

أعظم منكم كلكم يا أيها السادةْ...

المشترك الخامس عشر: قل أين؟ قل لي... أين؟

المشترك السادس عشر: في بيت قوَّادةْ!

المشترك السادس عشر: (متجهاً إلى الجلوس الصامتين)

وفي أمان اللَّه، يا سادة (يخرج)

المشترك ١٥: كما ألفتم؟

المشترك ١٧ : نعم.

المشترك ١٥ : كما ألفتم؟

المشترك ١٧ : نعم.

المشترك ١٥ : كما ألفتم؟

المشترك ١٧ : نعم.

(رنين جرس. يفتح المشترك ١٥ الباب، يدخل المشترك ١٨)

المشترك ١٥ : (دون خدمة المشترك السابق)

كما ألفتم؟

المشترك ١٨ : نعم.

المشترك ١٥ : كما ألفتم؟

المشترك ١٨ : نعم.

(رنين جرس. يدخل المشترك التاسع عشر بعد أن فتح له المشترك ١٥ الباب)

المشترك ١٥ : (دون خدمة المشتركين السابقين)

كما ألفتم؟

المشترك ١٩ : نعم.

(رنين جرس. يتجه المشترك ١٥ لفتح الباب. يثب المشترك ١٧ ويقيده بسرعة)

المشترك ١٧ : (إلى يوسف وميخائيل)

ضعاه في المرحاض.

يوسف وميخائيل : (معاً)

لكنه مشغول.

المشترك ١٧ : (بصوت حاد)

ضعاه في المرحاض.

يوسف وميخائيل : (معاً)

أمرك يا سيدي.

يوسف وميخائيل : (معاً للمشترك ١٥)

من ههنا، سيدي.

(رافقانه خارج المسرح، بينما يجلس المشترك ١٧ على كرسي صاحب الحانة. يوسف يدخل متجهاً إلى الباب يفتحه فيدخل المشترك العشرون الذي يتوجه إلى كرسي فارغ. يجلس)

المشترك ١٧ : (للعشرين):

أجلس هنا أو هناك

أن الكراسي كثيرة.

(رنين جرس. يدخل المشتركون التسعة الباقون. يصطفون أمام البار)

المشترك ١٧ : تفضلوا يا أيها السادة

تفضلوا أن كراسينا

تنتظر السادة كالعادة

أول التسعة : (يعيد ملتفتاً إلى زملائه)

تفضلوا، أن كراسينا

تنتظر السادة كالعادة

(يتقدم إلى كرسي دون أن يجلس، بينما يبقى زملاؤه في أماكنهم أمام البار)

المشترك ١٧ : (للثمانية الباقين)

إن نظام الشرب في الحانةْ

حسب المواد ١٢، ١٤، ٢٠

وحسب ما أورده القانونْ

يسمح لي أن أمنع الفوضى من الحانةْ . .

أول التسعة : سنمنع الفوضى من الحانة .

(يُنزل الثمانية المشترك ١٧ من كرسي صاحب الحانة، بينما يجلس أول التسعة على هذا الكرسي)

أول التسعة : (ليوسف وميخائيل)

ضعاه في المرحاض

يوسف وميخائيل : (معاً)

لكنه مشغول

أول التسعة : (بصوت حاد)

ضعاه في المرحاض

يوسف وميخائيل : (معاً)

لكنه مشغول

يا سيدي، مرتين!

أول التسعة : (بصوت أكثر حدة)

ضعاه في المرحاض

يوسف وميخائيل : (معاً)

أمرك، يا سيدي .

يوسف وميخائيل : (للمشترك ١٧)

من ههنا، سيدي

(يرافقانه خارج المسرح)

أول التسعة: (يتوجه بخطاب إلى المشتركين الجالسين دون حركة أو اهتمام)

أيها السادةُ الأعزاءُ...

يا أبناءَ شعبي، وحانتي، وطريقي...

ألفَ شكرٍ إليكم...

أيها الآتون في الليل تنقذون مصيرَ الحانةِ المستباحَ،

يا أملَ الشعبِ، ويا شارةَ الوفاءِ العريقِ

أيها الإخوةُ العطاشُ،

أغني لكم الآن صوتكم، فاسمعوهُ

مرةً...

ثم مرةً.. رددوهُ

(يقف فوق الكرسي، ويغني بمرافقة طبل ومزمار من يوسف وميخائيل)

هل نبدل الزجاجة؟

لا، لا، للا...

الثمانية: (يرددون):

لا، لا، للا...

أول التسعة: هل نبدل الكؤوس؟

لا، لا، للا...

الثمانية : (يرددون)

لا، لا، للا . . .

أول التسعة : سنبدل الصحيفة

نعم، نعم . . .

الثمانية : نعم، نعم . . .

أول التسعة : ونبدل الحروف

الثمانية : نعم، نعم . . .

أول التسعة : سنأكل الوظيفةْ

ونعتلي الخروفْ

الثمانية : سنأكل الوظيفة

ونعتلي الخروف . . .

(أول التسعة يبدأ بإنزال الزجاجات من الرف، ويضعها في صف واحد على البار، بينما يخرج الآخرون نسخاً من صحيفة يدخلون نسخة منها في كل زجاجة . . . ثم يجلسون)

أول التسعة : (على كرسي صاحب الحانة)

تعال يا يوسف

(يقف يوسف إلى يمينه)

تعال ميخائيل

(يقف ميخائيل إلى شماله)

أول التسعة : (ليوسف)

افتح لنا المذياع

(يفتحه يوسف)

الأغنية:

حانة الطرق الأربعة

ما سمعنا بها

ما شربنا بها. . .

أول التسعة: (لميخائيل)

اغلق لنا المذياع

(يتجه ميخائيل لإغلاقه، بينما تستمر الأغنية)

(ستارة)

الطريق إلى سمرقند

الأشخاص: مسافر ١

مسافر ٢

الميت

الفتاة

الساقي

رجل الميليشيا.

«صحراء، سيارة لاندروفر مهيأة للرحلات الطويلة، قمر»

المسافر ١ : لقد رأيتُ التلْ. . .

المسافر ٢ : ماذا رأيتَ؟

التلّ؟

أمرةً أخرى حديثُ التلّ؟

اذهبْ، ونَمْ. . .

إنّا تركناهُ

من قبلِ يومينِ. . .

ألا تذكرُ؟

المسافر ١ : والميْتُ؟

المسافر ٢ : دفنّاهُ. . .

في أسفلِ التلِ، وكان القمرُ الشاهدْ

وحينما غابَ، تركنا قبره، حراً، بلا شاهدْ.

وكنتَ تبكي،

صامتاً، والرملُ ينسلُّ

تحت جفوني، والصدى ينسلُّ، والليلُ

ألم تكن قربي. . .

وقلتَ: ابتدأ الشيءُ؟

المسافر ١ : بلى . . .

وحين أتممتُ حديثي، انفجرَ الضوءُ . . .

(يتجه المسافر ٢ يسار المسرح ثم يختفي وراء السيارة)

المسافر ١ : (يهمهم أغنية وهو يُنزل الفراش)

في المقاصفِ، كان رجال الفضاءْ.

يشربون عصيرَ الفواكهْ.

في المقاصف كانت ثياب النساءْ

من زهور الفواكهْ.

في المقاصف كان رجال الفضاءْ

يدرسون عيونَ النساءْ

صوت : (عن قرب)

أغنية الليلِ انتهتْ، أم بدأتْ؟

المسافر ١ : (يلتفت دهشاً)

من أنتَ؟

قُل . . . من أنتْ؟

الصوت : (يقترب)

أنا الذي ودّعتَه في التلّ

أنا الذي أودعتَهُ الصحراءْ

تركتَه يبحث بين الرملْ

عن زهرةٍ من ماءْ

أنا الذي رأيت ما لا يُرى

وإنني أرى الذي لا يُرى

المسافر ١ : (يتجه متردداً ناحية الصوت)

قد رأيناك أمس تُدفَنَ بين الرملِ والشوكِ
والعيونِ الخفيضةْ
كنتَ مسجىً على الصخور، وكانت
زهرةُ الليلِ تستقرّ عريضةْ
فوق عينيكَ،
كنت ميْتاً حقيقياً،
وكنا مشيعيكَ الحزانى
كنتَ ميْتاً، وكان خيراً لكَ الموتُ،
وخيراً لنا . . .
ألستَ ترانا ـ
نَصِلُ الليلَ بالنهار، ونسري،

نحن والوخدَ والنجومَ القريبةْ
لا تشقُّ الحصى خطانا، ولا تستبقُ الريحَ
أغنياتٌ غريبةْ
نأكلُ الرملَ مشتهىً،
ونغنّي الخبزَ صخراً،
ونشربُ الليلَ فجراً
فلماذا أتيتَ؟
إنّا لنرضى بكَ نجماً، وأنت تسكنُ قبراً
هذه الصورةُ النحاسُ . . .

ألا تعرفُها؟

الميت: صورتي . . .

المسافر ١: لقد كنتَ نجماً

كنتَ نجماً من النحاس، وتبقى

أبداً تسكنُ النحاسَ مدمَّى

أوَليس النحاسُ خيراً من القتل؟

أليسَ النحاسُ أكثرَ أمناً؟

عُدْ إلى قبرك المهيّأ عند التلِّ،

عُدْ

فالصباحُ يجري إلينا.

الميت: ذاهبٌ، غير أنني

أصِل الموت بالحياه

كل ما قد بدأتُهُ

بالغٌ عنف منتهاه

من يحدثْ ضميرهُ

يلقني.

إنني خطاه

(بعد اختفاء الصوت يتجه المسافر ١ إلى فراشه، الضوء يشحب).

المسافر ٢: (يدخل من يسار المسرح قرب السيارة. يهمهم أغنية على القيثار):

سمرقند بين التلالْ.

لماذا أحبكِ؟ شعرك هذا قصيرْ
وثوبك هذا قصيرٌ، قصيرْ
فلو طالَ شعركْ. .
ولو ظل ثوبكْ. . .
ولو صرتِ لا تكرهينَ السفرْ. . .
ـ سمرقندُ بين التلالْ.
لماذا نحب الوطنْ؟
لأنكِ فيهِ؟
لأن شذى الورد فيهِ؟
لأن المنائرَ ليست منائرْ؟
أمِ الغصنُ إذ يُقطعُ
يعود، كما كان، أخضرَ فيهِ؟
ـ سمرقندُ بين التلالِ

المسافر ١ : (يدخل من يمين المسرح، يمسك بيد المسافر ٢ بعنف)
جاءني الآن. .

المسافر ٢ : مَن؟

المسافر ١ : صوتُه المثقلُ
برائحةِ الأرضِ. . .

المسافر ٢ : هل عدتَ تهذي؟

الميت: أتسمعني؟ إنني أحملُ
على كتفيّ رمالَ الخليقةِ، إني بها مثقلُ
أنوءُ بها، غير أني سأبقى

أنوء، إلى أن تجيءَ يدٌ تحملُ.
فهل هاجرَ الأرضَ عشاقُها؟
وهل نضبَ الجدولُ؟

المسافر ٢: لماذا تغالطُ نفسَكَ؟
إنك ميْتٌ...
وإنَّ سمرقندَ ليست بعيدةْ
وإنّا سنبلغها، إن أردتَ وإن لم تُرِدْ:
عجلاتٌ جديدةْ
وخارطةٌ...
ثم تمضي الدروبُ العديداتُ مثل الليالي العديدةْ

الميت: ولكنني، أنا، أنبتُّ في صحاراكمُ صورةً للمدينةْ
وأشجارِها، أنا أعلنتُ أن وراء الرمال صواري السفينةْ

المسافر ٢: بهتتْ كلُّ صورةٍ
وامّحى البحرُ في الرمالْ
نحن في كل دَورةٍ
نبصر النَّيلَ لا المنالْ
الأغاني هي المدى
والأماني هي الرجالْ
فلمن تنكر الردى؟..
ألما قيل أو يقالْ؟

«سمرقند. ركن في مقهى حديث جدّاً»

المسافر ١ : أخيراً سمرقندُ . . .

المسافر ٢ : كنت أظن المدينةْ

لها قلعةٌ

(تدخل المقهى فتاة ذات شعر طويل، وثوب ميني، ومعطف ماكسي).

الفتاة : (على البار)

كأسُ نبيذٍ أبيضْ

بالليمونْ،

والماءِ الغازيّ

المسافر ١ : (للثاني)

شمبانيا الفقراء.

الفتاة : (تلتفت ناحية المسافرين ثم تعود إلى جلستها، متحدثة مع الساقي):

أرأيت مبارة الكأسِ

في غرناطةْ؟

الساقي : (يجيب وهو يهيئ الكأس ويقدمه:

لا، لا

الفتاة: (تلتفت ناحية المسافرين)

هل شاهد السيدانِ؟

المسافر ٢: لا . . . لم نكن في المدينةْ.

الفتاة: كنتم إذن في القمرْ؟

المسافر ٢: كنا حيارى تحت ضوء القمرْ

الفتاة: كنتم حيارى، داخلَ المركبةْ؟

المسافر ٢: لا . . .

الفتاة: وقلتَ كنتم تحت ضوءِ القمرْ؟

المسافر ٢: نعم . . .

الفتاة: لكنما هذا من المستحيلْ

فهذه الأيام ليلُ القمر.

المسافر ٢: نعم . . .

وكان الرمل تحت الضياءْ

يلمعُ . . .

والتلُّ

يلمعُ . . .

والظلُّ

الفتاة: (ضاحكة للساقي)

كم شرب السيد؟

الساقي: زجاجةً.

الفتاة: فودكا؟

الساقي: عصيرَ تفاح!

(يفتح الباب، فيلتفت المسافر ١، يدخل الميت، وينتحي ركناً من المقهى)

المسافر ١ : (للثاني)

أرأيتَ الذي أتى؟

إنه يجلس كاللصّ في مقاهي الجنودِ

وجهُه الشاحبُ احتواني،

وعيناه تدوران في مسارٍ بعيدِ

المسافر ٢ : (للأول)

أتراه مواطناً من سمرقندَ؟

(يلتفت مستفسراً إلى الفتاة)

الفتاة : (ملتفتة نحو الميت)

أتعني أني أراه غريباً؟

لم أجدْ مثلْ وجههِ

(تلتفت إلى الساقي)

أيها الساقي، أشاهدتَ مثلَهُ في المدينةْ؟

الساقي : (ينعم النظر إلى الميت)

عجباً!

إن وجهَه كوجوه الناسِ

لكنْ عيناه مطفأتانِ.

إنه يبصر الطريقَ، ولكنْ

لا يرى فيه صورةَ الإنسانِ. . .

انظروا:

سيدي ألا تشربُ القهوةَ . .
خذْها . . .

(يقدم له القهوة على البار)

الميت : (يقوم من مجلسه متجهاً نحو البار. يتناول القهوة)
شكراً . . .
وماءً رجاءً

المسافر ١ : (مخاطباً الميت)
سيدي . . . هل أتيتَ هذي المدينةْ
سائحاً؟

الميت : جئتُ كي نكونَ جميعاً

المسافر ١ : مع من؟ سيدي؟

الميت : أتجهلُ حتى الآن؟

المسافر ١ : عفواً . . . عفواً . . .

الميت : أجبني سريعاً :
هل وصلتم هنا صباحاً؟

المسافر ١ : وصلنا الفجرَ!

الميت : آ، آ . . . لقد فهمتم طريقي!

(تخرج الفتاة لتعود بعد هنيهة ومعها أحد رجال الميليشيا)

رجل الميليشيا : (يتجه نحو الميت)
سيدي،
إنهم يريدونك الآن . . .

الميت : لماذا؟

رجل الميليشيا: يا سيدي،
لست أدري!
الميت: حسناً، فلنقم. . .
إلى أين؟
رجل الميليشيا: سيارتهم، بانتظاركم. . .
الميت: من؟
رجل الميليشيا: ولكنيَ، يا سيدي، لست أدري!
الميت: هكذا الناس في سمرقندَ؟
رجل الميليشيا: إني لست منها، فإنني من بُخارى!
الميت: من بُخارى؟
رجل الميليشيا: أجل، وكان لنا فيها،
رصيدٌ
ومنزلٌ،
وحديقةْ.
الميت: عجباً!
رجل الميليشيا: غير أنني في سمرقندَ. . .
الميت: لماذا؟
رجل الميليشيا: لأن أجريَ أكبرْ.
الميت: عجباً!
رجل الميليشيا: سيدي، ألا تذهب الآنَ؟
الميت: إلى أين؟
رجل الميليشيا: سيدي.

لست أدري.

الميت: (لرجل الميليشيا)

حسناً، فلنقم...

(لنفسه):

سمرقندُ...

ما زلتِ على عهدك البعيد بعيدةْ.

(يمسك رجل الميليشيا بيد الميت. يخرجان)

الجزائر ـ نيسان ١٩٧١

القصائد السبع والعشرون الآتية كتبت بين آذار ١٩٦١ وتموز ١٩٦٢. ثم فقدت القصائد، وانقطع أثرها.

ثم كانت تلك السنوات العجاف التي لم أرَ وطني فيها، فلم أعد أتذكر أمر القصائد إلا نادراً.

غير أن صديقاً كريماً استطاع العثور عليها، وسلمها إليّ مشكوراً في نيسان ١٩٧١.

س. ي.

مسألة صغيرة

الآسُ في آذارَ يُزهرُ، والنجومُ عليكَ تمطرْ
يا صمتَ عينيها وتبحرْ.
وأنا، مع الأنهارِ، أسألُ يا نُسْغاً وصمتا
وأدقُ أبوابَ المدينةِ، شاحباً، بيتاً فبيتاً:
يا صمتَ عينيها:
يكادُ الصمتُ ينبع منكَ صوتاً ـ
عريانَ، يسألني الشهادةَ، كلَّ ليلةْ:
إني على نفسي مسمّرْ
إكليلي الشوكيّ أَصحَرَ حين أَزهَرْ
كسفينةٍ في الريح تغرقُ، والمرافئُ بعضُ ليلةْ.
إني أتيتكِ من منابعِ نهرِ دجلةْ
طوّفتُ كلَّ الأرضِ، خلّفتُ الذين أُحبهم، أسريتُ وحدي
أحرقتُ خمسَ سفائنٍ، مزّقتُ وعدي
لأكون قربكَ أنتَ، يا صمتاً بعينيها غريبا
يا صمتَ عينيها الغريبا

انطقْ . . .

وإلا فلتظلَّ سُدىً، ووهماً في قصائدْ

وحكايةَ امرأةٍ تعاندْ!

البصرة، ٦/ ٣/ ١٩٦١

المحكومون

الصوت

في عَتمةِ الإعدامِ، كان على سلاسلهم جناحُ
أصواتُهم ينبوعُ أَغنيةٍ تدورُ بها الرياحُ
الحارسُ الليليّ يشربها، ويفهمُها السلاحُ
في عَتمةِ الإعدامِ، كان على سلاسلهم صباحُ

المحكوم الأول

إني أحدثكم، وضوءُ السجنِ يشحبُ كالسنابلْ ـ
في غرفةٍ سوداءَ:
صوتيَ مثلُ جرحي
أبداً عميقْ
إني أحدثكم، وفي عينيّ يرتجف الحريقْ
والليلُ، والحمّى، ويبتسم المقاتلْ
إني أحدثكم، وفي عينيّ ترتجف السلاسلْ.
هذا هديرُ البحرِ...
إني أسمع الصيحاتِ مُشرَعةً سراعا
أنا، لن أقول لكم...
وداعاً.

الصوت

الموتُ في آذارَ، كان يدقّ أبوابَ المدينةْ
وحشاً رصاصياً يمزق في مخالبه الرهينةْ
كانت مدينتُهم وراءَ الليلِ داميةً سجينةْ
في قلعةٍ حجريةٍ. . . والوحشُ يلتهم المدينةْ

المحكوم الثاني

كان المساء دماً، وكنت أرى النساءْ
يصرخنَ، والطلقاتِ تصرخُ، والرجالَ يزمجرونْ
والشارعَ المهتزَّ بالطلَقاتِ، والدمِ، والمساءْ
ورأيت قتلانا هناك
أكفانُهم بَرْدُ النجومْ
وشفاهُهم، ثلجيةٌ، كالشمع، ترقبها النجومْ.
. . . . . .
. . . . . .
لن يحفروا قبراً لقتلانا، فما زالوا هناك
أكفانهم برد النجوم
وشفاههم، شمعية، كالثلج، ترقبها النجومْ

الصوت

يا من تعذَّب، صامداً في السجن، نحن هنا نراكْ
ونعيش جرحَكَ، عمقَهُ الأزليَّ، نشربُ من رؤاكْ
صوتاً مع الصيحات ننشره، وترفعه يداكْ
في كل بيتٍ رايةً لدمٍ، وغصناً من ذراكْ.

المحكوم الثالث

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

المحكوم الرابع

زهراتُ ليمونٍ على ينبوعِ مفرقها الحريرْ
إني لألمحهنَّ في المطر الغزيرْ
في الريح، في زنزانة الإعدام، في أقصى المدينةْ
سوداً، على عينين أُسبِلتا، وأهدافٍ حزينةْ
لو مرةً قبّلتُ عينيها ومفرقَها الحريرْ
لسألتُها أن تمنحَ العبراتِ وردةْ
أن لا ترى في الليل، لونَ الليلِ، وحدَهْ

الصوت

جرحٌ أمامَ السورِ، يرفعُ قبضةً للشمس كبرى
هذا النداءُ ـ الجرحُ، يهدرُ، عبر صمتِ الليلِ أسرى
فعلى النجوم الشاحباتِ سنىً، وكلُ الأرض ذكرى
الموتُ لن يرث الحياةَ، ولن يكون، ولن يمرا

المحكوم الخامس

كان المساءُ على امتداد السور جرحاً من عباءةْ
ونقاوةُ الأصواتِ توقدُ في تهدّجِها دماءه
كان الشعارُ يشقّ مندفعاً سماءه
فوق العباءاتِ العزيزةِ، فوق أحداقِ السلاحِ
قد كنتُ أسمعُ في الصباحِ
أصواتَهنَّ، غريبةَ النسماتِ، تنبضُ في جراحي
يا صوتَ أمي الغائرَ المضنى، على الجرح التقينا
في غرفةٍ بالسجنِ. . .
لكن الشعارَ يذودُ عنّا
وعلى امتدادِ السورِ يخفقُ. . فوق أحداقِ السلاحِ

الرؤيا

كسفينةٍ في الفجر، وجهُ مدينتي. . . . كلُّ المنازلْ
مخفيّةٌ في الوردِ، تربُ من منابعها النجومْ
الناس فيها يعلمون ويحلمونْ.
وكموجةٍ في الفجر، وجهُ مدينتي. . كلُّ المنازلْ
مفتوحةٌ للشمس فيها
النورُ يُطعم ساكنيها
والناسُ فيها يعلمونَ ويعشقونْ.
وكنخلةٍ في الفجر، وجهُ مدينتي. . . كلُّ المنازلْ
تمتد في الآفاق مُشْرعةً، ومثل السعف تجمعها الجذورْ
والناسُ فيها يعرفون، من الزهورِ. . . من البذورْ
أنَّ الحياةَ تظلُّ ـ رغم الموتِ ـ أغنيةً تدورْ.

بغداد، ١٩٦١

نزوات

«١»

أراد أن يوقفها مرةً
في زَحمةِ الشارعْ
يسألُها، يصفعُها، يفتدي
جبينَها الرائعْ
لكنها مرتْ، وظَلَّ الحريقْ
في قلبه ضائعْ. . .

«٢»

لو جاء منها نبأٌ واحدٌ
لأمطرت دنياه
أزهارَ تفاحِ
لأُغمضت عيناه.
يا نبأً يهواه
يا نبأً واحدْ
كلُّ حياتي نبأٌ. . . يا أملاً واحدْ!

«٣»

قيل لها: جاءَ. فمرت على
شفاهها بسمةْ
وانتظرت يومينْ
وانتظرتْ شهرينْ...
تغزل، حتى غابت النجمةْ.

«٤»

أضحكُ مما أكتب الليلةْ
أقول لي: سعدي!
يا سيدي «العاقل»...
ماذا تكتبُ الليلةْ؟

البصرة، ١٥/٣/١٩٦١
الساعة الواحدة والثلث ليلاً

وداع

الصمتُ في الغرفةِ، والأهدابْ
في جرحنا، والزهرُ في الآنيةْ
لم تبقَ إلا ساعةٌ ثانيةْ
وتختفي عن دربيَ الأهدابْ
والصمتُ، والغرفةُ، والأثوابْ
وحبُّها المهملُ في زاويةْ.
أردتُ أن أخبرَها أنني
في الصيف قبّلتُ أختَها مرةْ
دعوتُها يوماً إلى البصرةْ
أردتُ أن أصرخَ، لكنني
كنتُ بلا غارٍ ولا سوسنِ
كنت حزيناً، غائمَ النظرةْ.
رداؤها البيتي. أزهارُهُ
شاحبةٌ، غائبةٌ، تذيلُ
كأنما فارقها الجدولُ
كان الأسى تخفق أسرارُهُ
في حرقةِ الصمتِ ونشتاره

ونحن من أعماقنا نخجلُ.

لا تسألي عينيكِ، لا تُسبلي

جفنيكِ، لا تقرّبي الخصلةْ

يا وردةً ظمأى على دجلةْ

ساعتنا دقت، فلا تسألي.

البصرة، ٢٨/ ٣/ ١٩٦١

الدم في الشوارع

من يغسلُ الدمَ في الشوارعْ؟
من يغسلُ الدمَ في الشوارعْ؟
هذا الدمُ الأزليّ. . . من يلقي عليه اليوم سترهْ
من يسرقُ الشهداءَ حفرةْ
ومعاولاً سريةَ الرجفاتِ، معتمةً، وحُمرةْ
مخضرةً، وعقيق خُضرةْ؟
من يغسل الدمَ في الشوارعِ. . .
أيها المطرُ؟
فاهطلْ على الإسفلتِ، اهطلْ. . . أيها المطرْ
ولتنهمرْ أقسى من الطلقاتِ تنهمرُ
هذا دمي العاري على الخشبات ينحدرُ
ويظل عبرَ الريحِ، والطرقاتِ، والأبوابِ، ينحدرُ
هذا الدم ـ الظفَرُ
وكزهرةٍ وحشيةٍ. . .
يوماً سينفجرُ.

البصرة، مساء ٥/ ٤/ ١٩٦١

رباعية

أعيشُ على مقلتيكِ، كأني بعينيّ لا أبصرُ
وليلُ شفاهي ارتجافٌ، ودربي هوىً أخضرُ
أقول إذا الريح مرتْ: لمن دونها تعبرُ
لمن يزهر الجلّنارُ، ويندفعُ المرمرُ؟

البصرة، ١٠/ ٤/ ١٩٦١

قناطر

إلى «وجه» رشدي

أعنّي، وحيداً، إليكِ
كما يقطعُ البحرَ طائرْ
وحيدٌ، غريبٌ، مهاجرْ:
أنبقى... كلانا جزيرةْ
وكلُّ هوانا قناطرْ؟
وأمسِ رأيتكِ والأخرياتْ
تسيرينَ... لكنْ وحيدةْ.
فهل تعرفينَ الدروبَ الشريدةْ
كما تعرفينَ الحياةْ...
ونبقى: كلانا جزيرةْ
وكلُّ هوانا قناطرْ؟

*

وكالطفلِ، هذا المساءْ
تأوهتِ، ثرثرتِ عن حبنا
وكنا معاً ضاحكين
بعيدَينِ... نصمتُ عن جرحنا

نلوك الشؤونَ الصغيرةْ
ونبقى: كلانا جزيرةْ
وكلُّ هوانا قناطرْ!

البصرة، ٢٨/ ٤/ ١٩٦١
الساعة العاشرة مساء

إلى أبي تمام

نوّارَ أهلِ الشرقِ، يا قمرِ القبائلِ، يا سِنانَ دجىً وخضرةْ
حدثَتني بالأمس مرةْ
ومضيتَ عني، غامضَ الخطواتِ، تبكي.
وعلى جبينكَ من عناءِ الحرفِ قطرةْ
ونجومُ قافلةٍ... وزهرةْ
أواه، يا قمراً على حورانَ، هل زرتَ المعرةْ
فأتيتني متسائلَ العينينْ؟

*

الثلجُ في هَمَدانَ يسقطُ، والدروبُ إلى تِهامةْ
ما زال فيها الليلُ، والدنيا ببغدادَ ابتسامةْ
مذبوحةٌ، والخمرُ في حانات نيسابورَ مُرةْ.

*

بالأمس، يا قمرَ الندامى، كانت الدنيا صغيرةْ
لم تندفع فيها المداخنُ، بعدُ، تستبق المهارى
نحو السماءِ، ولم تكن فيها بُخارى
أغنيةً حمراءَ للفقراء... يرتجفُ التِجارُ
منها، ويخضرُّ النهارُ.

ذهب السرى والوخدُ، يا حامي العذارى
إلا الطريقَ إلى بخارى، لم تزل عبر الصحارى

*

لو زرتَ يوماً مرفأَ الشعراءِ في ليل المدينةْ
لسكرتَ حتى الصحو، حتى يحملوك على سفينةْ
ستجوبُ عالمهم، وتشعلُ من توهّجه سجارةْ
. . . . . .
ما عاد عالمنا استعارةْ
معنىً، وتشبيهاً، وزخرفةً ثمينةْ
ما عاد عالمنا تجارةْ

*

لكنني، والبحرُ يغسل جبهتي برداً ولينا
سأظل منتظراً خطاكْ
وحديثَكَ الليليَّ، يا قمراً حزيناً. . .

*

لو جئتَ عالمنا، لكنتَ معي سجيناً!

البصرة، ١٦/ ٥/ ١٩٦١

شرفة الساعة التاسعة مساء

تكاد لا تعرف من شوقك الهائجِ ماذا تقولْ.
تَقْصُرُ بالجرح الخطى أم تطولْ. . .
تكاد لا تعرف أنْ الوصولْ
إلى يديها حلُمٌ أولُ
يموت إن لم يهمسِ البلبلُ
فمن ترى تسألُ
غيرَ المسافاتِ التي تجهلُ
ومن ترى يعرف كي السبيلْ
إن صمتَ البلبلُ في التاسعةْ
وأُغلقتْ شرفتُها الضائعةْ
بين الدجى والنخيلْ؟

*

يا شرفةً، مخضرةً، ضائعةْ
غامضةً. . .
في الساعة التاسعةْ
لن يقفَ العاشقُ والقيثارْ
لن تقفَ الأزهارْ

لن تقفَ الأشعارْ
تسأل عن أميرةٍ غارقةْ
في نومها. . . في شرفةٍ تنهارْ
حتى ولو في الساعة التاسعةْ!

البصرة، ١٩/ ٥/ ١٩٦١
الساعة الثالثة والربع عصراً

ثوب أبيض

ألمسهُ، لكنني لا أراهْ
ألمسُ فيه زندَها العاري
أضمُّه جدولَ أزهارِ
أحياهُ، لكنْ. . . رجفةً في الشفاهْ
كأنه الحرفُ بميلادهِ
والنجمُ في أبعد أبعادِهِ
والبُّ، والحلمُ، وشوقُ الجياهْ
وكلُّ ما تمنحه البصرةْ
نصاعةَ اللؤلؤ، والأسماكِ، والخضرةْ
والنورسِ النهريِّ، والجمّارِ في منتهاهْ

*

صديقتي. . . مَرَّ على حبنا
ربيعُه، وجاءنا الصيفُ
ولست أدري. . . أيمرُّ الخريفْ
بنا، فلا نغفو
معاً. . . ونبقى في انتظارِ الشتاءْ؟

*

صديقتي. . . أموت هذا المساءْ!

البصرة، ٤/٦/١٩٦١

غزل أموي

مضينا، فيا وادي العقيقِ: تذَكُّراً
وعُدنا، فيا وادي العقيق: أمانا!
ويا شرفةً بالضفتينِ فشارقٍ
سلاماً، ويا حبّاً ضممتِ... حنانا!
نغضُّ لديكِ الطرفَ محضَ مروءةٍ
وتبخلُ حتى بالحديث رؤانا...
وإني لأستحيي إذا رنّ هاتفٌ
فيوشكُ قلبي أن يقولَ: كفانا!
كأني مع الركْبِ اليمانينَ مُصْعِدٌ
وإن كان أدنى من يديّ هوانا
فيا دارَها بالنخلِ، إن جئتُ ظامئاً
غريقاً، وإن أُقصيتُ عنكِ مكانا
فكلُّ ليالينا لقاءٌ، وكلُّها
رجاءٌ، وكلُّ الأبعدينَ سوانا
ويا دارَها بالنخل... لا هبطَ الدجى
عليكِ، ولا سَنَّ الوشاةُ سنانا

يداها، وعيناها، ولفتةُ جيدِها

لديكَ. . .

فيا وادي العقيقِ:

أمانا!

البصرة، ٧/٦/١٩٦١

صراحة

صمتي، يغني لكِ، يا فاحمةَ الأهدابْ
يسأل عن خصركِ، هل تجرحُه الأثوابْ؟
يسألُ عن فراشِكِ اللائذِ بالظلمةْ
هل داعبتْ مخملَه النجمةْ؟
وشعركِ النعسانُ. . . يغفو الآنَ أم ينسابْ؟

*

قبّلتُ أمسِ الشفةَ الدافئةَ السفلى
كنا بعيدينِ، ولكنْ، كانتِ الأحلى
أحسستُها في شفتي ترجفُ
تحرقني، تسكرني، تعصفُ
يا ليلُ. . . أين الشفةُ الدافئةُ السفلى؟

*

لا تتركيني ظامئاً محترقَ العينينْ
منتظراً صوتَكِ يأتي ليلةَ الاثنينْ
وددتُ لو عانقتُكِ الليلةْ
حتى يذوبَ النجمُ، حتى تنزفَ القبلةْ
وتدفعيني عنكِ مضنىً مغمض العينين

البصرة، ١٧/٦/١٩٦١

في المكتبة

صباح ٢٢/٦/١٩٦١

عينايَ، آناً في الكتابِ، وفي ارتجافِ البابِ آنا
ومع اختلاجِ الحرفِ أبحثُ عن ذراعِكِ، عن هوانا
أستعجلُ اللحظاتِ، أحسبهنّ في قلقي زمانا
عينايَ، آناً في الكتابِ، وفي ارتجافِ البابِ آنا.
لو جئتِ لأنهمرَ الصباحُ دجىً، وأظلمتِ الرفوفُ
وتيبستْ شفتايَ من خجلٍ، وخانتني الحروفُ.
قد كنتُ ملتهبَ الجبينِ، ممزقَ الرؤيا، مُهانا
عينايَ، آناً في الكتابِ، وفي ارتجافِ البابِ، آنا.

*

وأتيتِ...
فانتفضَ الممرُّ سنىً. وأزهرتِ الرفوفُ
وتبسمتْ شفتايَ من فرحٍ، وأورقتِ الحروفُ
قد كنتِ هادئةَ الخطى، مضمومةَ الشفتينِ، حين دنوتِ مني
وتصافحتْ كفانِ، وارتجفتْ رؤىً... وسألتِ عني
يا نجتمتي: عينايَ غائمتانِ... لستُ أرى الأساورْ
فضيةً، والخصرَ، والثوبَ البنفسجَ، يا بنفسجةَ المسافرْ

يا حلوةً، ليليةَ القبلاتِ، يا شعراً يهيم بلا ضفائرْ
أحببتُه. . . حتى كأنَّ فمي بعتمتهِ. . . يغامرْ

*

وكقطعةٍ مسحورةٍ. . .
فارقتِ فارسَكِ الخجولا
لم تنطقي حتى بتمتمةِ الوداعِ
لم تتركيه يقول عن شفتيكِ شيئاً كم تمنّى أن يقولا
لكنْ ذهبتِ بلا وداعِ
ومضيتِ، نحو الشارعِ البحريّ، وحدَكِ. . .
كالشراعِ

البصرة، ٢٤/٦/١٩٦١

الأشرعة

أيتها الأشرعةْ!
أيتها الأنّةُ في الأشرعةْ!
أيتها اللعنةُ في الأشرعةْ!
يا ثوبَ مصلوبٍ تركناهُ
ممزقاً في البحر نستجدي عطاياهُ
يصنعه أطفالُنا من ورقْ
ويشربُ الرجالُ فيه القلقْ
والعرقَ ـ الليمونَ، والمجهولْ
في ساحلٍ مجهولْ
تعانقَ النجمُ به والغرقْ

*

أيتها الأشرعةْ!
أيتها الرجفةُ في الأشرعةْ!
أيتها اللعنةُ في الأشرعةْ!
لقد حلمنا بكِ حتى الضياعْ
لقد نسجناكِ شراعاً شراعْ
يا ذلَّ أيامنا

يا نَفَسَ الأفيونْ
يا مِيسمَ العارِ بأحلامنا

*

أيتها الأشرعةْ!
أيتها الصيحةُ في الأشرعةْ!
أيتها اللعنةُ في الأشرعةْ!
لن تخدعينا بعدُ. . . لن نرتدي
أثوابَكِ العاريةْ
لن نصلبَ الدنيا على ساريةْ
إنّا هنا، في الأرض. . . راياتُنا
مغروسةٌ في قلبها الرائعْ
خفاقةٌ في أفقها اللامعْ
محمرةٌ في وَهَجِ الزوبعةْ

*

أيتها الأشرعةْ!
أيتها الثورةُ في الأشرعةْ!
أيتها اللعنةُ في الأشرعةْ!
إن لم تكوني كأناشيدنا
صوتاً. . . ودرباً ضاعَ من ضَيَّعهْ
مزقتُ أثوابكِ في الزوبعةْ
مزقتُ حتى الرجفةَ المسرعةْ
والبحرَ، والملحَ، وصمتَ الرذاذْ

أيتها الأشرعةْ!

إنكِ في صيحاتِ راياتنا

صوتٌ لمجد البحر والزوبعةْ

صوتٌ لشوقِ الأرضْ!

البصرة، ٢٣/ ٧/ ١٩٦١

السائر

أنتَ . . .

يا نافذةً للحرفِ خضراءَ هناكْ

في ارتجافِ السعفِ والعتمةِ والموتِ تضيءْ

عندما أغمضُ عينيّ أراكْ:

وجهكَ الساذجُ، عيناكَ، يداكْ

والندى في ثوبك القطنيّ، والعشبُ على هجسِ خطاكْ

إنني أسمعُ أنباءكَ في الهمس، وأُغضي

إنني أتبع في صمتي خطاكْ

أنت يا سرّاً مع الأنهار سائرْ

أيها العابرُ آلاف القناطرْ

ودروبَ النخلِ والوحشةِ والشوقِ المغامرْ

تحمل المنَّ أحاديثُك، والسلوى يداك

. . . . . وعميقاً في قرىً مخضرةِ الماءِ أراكْ

الندى في ثوبك القطنيّ، والعشبُ على هجسِ خطاكْ.

البصرة، ٢٦/ ٧/ ١٩٦١

ثلاث حكايات عن الكويت

١ ـ موت حمود

لم يحفروا قبراً له في وحشةِ الصحراءْ
في رملها الأبديّ، في صيحاتها الخرساءْ
ما بللوا شفتيهِ قبل مماتِه بالماءْ
لم يسمعوا كلماتِه الرمليةَ الشوهاءْ
بل لم يكونوا يقدرونْ
أن يحفروا قبراً لَهُ
أن يمسحوا شفةً لَهُ
فالكلُّ موتى مثلَهُ. . .

*

٢ ـ أبو ذهب

كان مهرّباً خجولاً فاحمَ الأهدابْ
كوفيةُ الحريرِ فوق كتفهِ تنسابْ
كان يغني في لياليه عن العشاقْ
عن لوعةِ الأشواقْ
عن نخلةٍ في البيت يبكي حولها العشاقْ

وحين عُدنا، قبل أعوامٍ، من المنفى. . . من الكويتْ
حدثني عن حبهِ، عن حلوةٍ في البيتْ
وأطبقَ الأجفانَ خجلانَ. . .
ومرتْ نسمةٌ بالماءْ

*

أبو ذهبْ
ليس مهرّباً، وإن ظلَّ خجولاً فاحمَ الأهدابْ
كوفيةُ الحريرِ فوق كتفهِ تناسبْ
أبو ذهبْ
حكايةُ المسافرينَ والبريدْ:
سفوانُ يا مطلاعُ. . . أو مطلاعُ يا سفوانْ!

*

وأمسِ، في رطوبة البصرةِ والغدرانْ
سألتُه عن المسافرينَ والبريدْ
لكنه كان مهرباً خجولاً فاحمَ الأهدابْ
كوفيةُ الحرير فوق كتفهِ تنسابْ
وكان مهموماً. . .
غريباً. . .
مثقلَ الأجفانْ

٣ ـ عبد الله سمارة

كان من الأردنّ. . . ألقته معي الدنيا
في قريةٍ ملعونةٍ تكرهُ أن تحيا

كان يحب الجبنةَ البيضاءَ والزيتونْ
والزعترَ النفّاذَ والليمونْ
واسمَ التي يهوى
ورايةً في عتمةِ الأردنّ خفاقة

*

أواه لو مرّ على منزلنا يوماً
لو صافحتْ كفَّيّ كفاهُ
لو أومضتْ في الصمتِ عيناهُ
لو زارني يمحضني بهجةَ دنياهُ:
جبنتَهُ البيضاءُ والزيتونْ
والزعترَ النفّاذَ والليمونْ
واسمَ التي يهوى وتهواهُ

*

أنباءُ عبداللَّه:
في السجنِ، أو في عتمةِ الأردنّ

بغداد، ٣/٨/١٩٦١

إلى رائد فضاء TOVARICH!

عندما تبتعد الغاباتُ عن عينيكَ مخضرهْ
وتخبو أرضُنا زرقاءْ
وتشحبُ في زجاجِ المرقبِ الأضواءْ
ستبقى نجمةٌ حمراءْ
على أهدابك الشقراءْ
نداءً لافحاً لم ينطفئ مرةْ
وتبقى الأرضُ حتى في جذور جذورِها حمراءْ
وتبقى أنتَ بين نجومها زهرةْ.
TOVARISCH!
عندما تنفجر الأحلامُ كالبركانْ
وتُركَز مثل شلاّلٍ من النيرانْ
كرمحٍ من سلام، رايةُ الإنسانْ
فإن العالمَ الزائلْ
وإن القتلَ والقاتلْ
وإن الدودَ في الأغصانْ
وإن الصُّفرةَ الشوهاءَ في نيسانْ
ستذروها بعيداً رايةُ الإنسانْ

TOVARISCH!

والسنى اللألاءُ في عينيَّ ينهمرُ
فتثملُ جبهتي، ويدور فيها النجمُ والمطرُ
وأُغضي في اختلاجِ الفرحةِ ـ الرؤيا، وأنتظرُ:
إذا لم تنفتحْ عيناك في عينيَّ... أنتحرُ!

بغداد، ٨/٨/١٩٦١

الصلبان الخمسة

خمسُ محطاتٍ عبرناها، ولم نتركْ بها تذكارْ
لم نرتجفْ فيها، ولم نثملْ، ولم نُطرقْ على قيثارْ
خمسةُ أنهارٍ من الرمل على القيثارْ
خمسةُ صلبانٍ من الصمتِ:
حزينةٌ أنتِ
أنفض عن أهدابكِ السودِ رمادَ العالمِ المنهارْ
ساذَجةٌ أنتِ
وجهُكِ في صحرائنا ينتظر الإبحارْ
متعبةٌ أنتِ
شَعرك يرخي الظلَّ بين الصحوِ والأمطارْ
وحيدةٌ أنتِ
كأننا لم نرتجف يوماً، ولم نثمل، ولم نُطرق على قيثارْ
في شفتيكِ العطشُ المرُّ، وفي إغضائكِ الأسفارْ
شجيرةٌ أنتِ
معتمةٌ. . . ليليةُ الأزهارْ
ألمسُ في أوراقها صوتي

*

أواه، يا خمس محطّاتٍ بلا تذكارْ
أواه، يا خمسةَ أنهارٍ على قيثارْ
أواه، يا خمسةَ صُلبانٍ من الصمتِ

*

لا تتركيني هذه الليلةَ مصلوباً على الأسوارْ!

البصرة، ٢١/ ١٠/ ١٩٦١

أشياء

لم يقلْ صمتيَ «لا فائدةَ اليومَ»، ولا «نحن انتهينا»
إنه يسألُ عبرَ الحلمِ عنّا
وهو إذ تنفتحُ الأحداقُ، لا يسألُ عن أثوابنا البيضاءِ،
لا يسألُ عنا
ربما أخفَى وراء السور عينيكِ وأَغفى
ربما أُخفي وراءَ النبلِ عينيك وأُغفي
ربما أُخفي وراءَ النبل خوفي
قانعاً بالحلم، في العَتمةِ، أستيقظُ مضنى
شاحباً، أُنكرُ ما قبّلتهُ خَدّاً وعينا:
وجهُكِ الغامضُ، واستحياؤك القاسي، وضمّاتُ الأناملْ
وانطباقُ الهدْبِ، والبحّةُ، والهمسُ المماطلْ
وجهُكِ الغامضُ... كم أحلم أن أغرزَ فيهِ
شفتي، تمتصّهُ، تعرف ما ينبضُ فيهِ
ووراء الليلِ... كم أشتاقُه لمساً ولونا.

*

إنني أعبدُ في بغدادَ وردةْ
وقميصاً زلقاً يسهرُ وحدَهْ

وحريراً لامعَ العتمةِ، مغرورَ المخدّةْ

*

أيهذا الزغبُ الناعمُ. . . كنْ حتى أمامَ السورِ وردةْ!

البصرة، ٢٠/ ١٢/ ١٩٦١

الفردوس المغلق

ماذا تخبّئُ أيها البستانْ؟
إني لأبحثُ في الدجى النعسانْ
عن زهرةٍ، وحمامتينِ، ونخلةٍ، وشُجيرتي رمّانْ
إني هنا أصغي. . .
كأنّ البابَ أُغلقَ. . .
وارتمتْ في العتمةِ الألوانْ
السورُ أخضرُ أيها البستانْ
وعلى بحارِ العشبِ يعبر فارسُ الأحزانْ
خصُلاتُه تندى، وملءَ قميصِهِ يتأرّجُ الريحانْ
الفارسُ الليليُّ يا بوابةَ البستانْ
قد أتعبتْهُ البيدُ والأنهارْ
الفارسُ الليليُّ يا بوابةَ البستانْ
يهفو لآفاقِ وراءَ الصمتِ والقيثارْ
الفارسُ الليليّ يا بوابةَ البستانْ
ليس يحسُّ الثلجَ والجمرةْ
لا يعبأُ الليلةَ بالصحو وبالخمرةْ
لا يملكُ الليلةَ أن يضحكَ أو يبكي

الفارسُ الليليُّ يا بوابةَ البستانْ
ملقىً على الشوكِ
ممزقٌ، منتفضٌ، ظمآنْ
ملقىً على الشكِ
يدمى بلا ربٍ، ولا شيطانْ

*

أواه. . . يا بوابةَ البستانْ
من يفتح الفردوسَ للإنسانْ؟

البصرة، ٨/ ١/ ١٩٦٢

النهر

دربٌ من الصفصافِ، والطُحلبِ المائيِّ، والخضرةْ
مسراهُ عبرَ النخلِ أمواجٌ، وفي قبعتي زهرةْ
نهرٌ من الريحانْ
والصمتِ والرمانْ
يمتدّ حتى بيتها المغلقْ
حتى جذورِ الوردِ في البستانْ
والقمرِ السهرانِ، والأحزانِ في الزورقْ
يا نهرُ، والفضةُ تلهو على
أمواجِكَ الخُضرِ فلا تغرقْ
والفجرُ من سلّته ناثرٌ
شمساً وعنقودَ سنىً ندیانْ
كسعفةٍ أوراقُها مرجانْ
يا نهرُ. . . إن جئتَ إلى بيتها
تلثمهُ. . . تجعلُه شطآنْ
فاحملْ إليها هذه الزهرةْ
أحملْ إليها زهرةَ المرجانْ
لعلها تنسى بها النسيانْ

البصرة، ٢٨/ ١/ ١٩٦٢

المحطة

«في ذكرى صمد وادي»

هززنا الريحَ، والفولاذَ، بالراياتْ
وفي صمتِ المحطةِ تهدرُ الصيحاتْ
وملءَ صدورنا مفتوحةِ القمصانْ
يئزُّ الحقدُ والريحُ
وتهتزُّ المصابيحُ
وتندى مقلتا إنسانْ
وصاياه على أكتافنا، تابوتُه، أحلامُه المرجانْ.

*

لأجلكَ تلمسُ الرايةْ
جبيناً ناصعاً لم يترك الرايةْ
إلى أن أُغمضَتْ في الموت عيناهُ
فيا بذراً زرعناهُ
ويا غصناً رعيناهُ
ويا زهراً لأجل الشمسِ والدنيا وهبناهُ

ستبقى تخفقُ الرايةْ
على عينيكَ حتى تشرق الشمسُ

*

وفي صمتِ المحطة تخفقُ الصيحاتْ
وتعلو صرخةٌ وحشيةٌ مُرةْ
وتسفي عَتمةَ العرباتِ أضواءُ المصابيحِ
ولا يبقى سوى الريحِ
سوى الريحِ
سوى الريحِ

البصرة، ١٣/ ٣/ ١٩٦٢

أفكار ليلية

في هذه الليلةِ من أيارْ
سألتُ عن أهدابكِ المعتمةِ الزرقاءْ
أردتُ أن أعقدَ ينبوعاً من الأزهارْ
على محيّاكِ، وأن أقتحمَ الأسوارْ
مدينةٌ بحريةٌ أنتِ. . .
فما أبعدَ. . . ما أبعدَ عينيكِ عن الصحراءْ.

*

أمسِ، مسحْنا وجهَكِ الغامضَ بالأغصانْ
نمنحهُ الممكنَ في تيهٍ من الألوانْ
واليومَ، حتى الغصُنُ المخضلُّ بالإيماءْ
طافٍ على نهرٍ من النسيانْ

*

حين تهبُّ الريحُ عبرَ القصبِ النهريِّ والظلماءْ
حين يذوبُ النجمُ في اللألاءْ
حين يدورُ الماءُ في أغنيةٍ من ماءْ
حين أرى الأشياءْ
في لحظةِ الرؤيا بلا أسماءْ

ألمحُ في الظلماءْ
أهدابَكِ المخضرّةَ الزرقاءْ
والخَدَرَ البحريَّ في عينيكِ والإعياءْ
أبوابُ بيتي أُوصِدَتْ بالشمعِ والأزهارْ
عن خطوكِ الليليِّ يا أغنيةَ الأسفارْ
من غرفتي أسمع أصواتي
تئنُّ خلفَ البابْ:
زمجرةَ البحرِ، وهمسَ النورسِ الآتي
والصمتَ، والحانةَ، والخندقَ، والأنهارْ
والموتَ، والمنديلَ، والقمّةْ
والثلجَ، والأهوارْ
والساحةَ الحمراءَ، والنخلَ، وأوليانوفَ، والعتمةْ
والدمَ في مدريدَ، والبسمةْ
وخطوَكِ الغامضَ إذ يَنبتُ في الأحزانْ
«غصناً من الأحلام، أو حلماً من الأغصانْ»
من غرفتي أسمع أصواتي
تنهش شمعَ البابِ والأزهارْ
تتركني خجلانَ من صحراءِ مرآتي

*

من قال للزهرة: لا تذبلي؟
من فتّح النبعَ على الجدولِ؟

من منحَ القيثارَ للبلبل؟
من قال لي: لن تموتْ؟

*

في غرفتي تدخلينْ.

البصرة، ٣/ ٥/ ١٩٦٢

صور قديمة من «كوت الزين»

١ ـ صديقُ جَدّي

عندما لاقيتُه كان ضبابُ النخلِ أزرقْ
كان في بستانه يُطعم عصفوراً معلقْ
ـ إنها قطتنا، لا تترك المسكينَ مرتاحاً هناكْ.
والفراشاتُ على لحيتهِ، والوردُ، والطَلْعُ الممزقِ
كإله العشبِ في عينيه تمتدُّ المراعي
ويرفّ الماءُ والزهرُ ينابيعَ شعاعِ.
آه يا كوفيةً حمراءَ في الخضرة تغرقْ
والندى الليليُّ ما زال على أهدابها قطناً نسيلا
صَدَفاً بضّاً، وجوريّاً، وزنبقْ
كم تمنيتُ طويلا
تاجَكِ الياقوتَ يختالُ على رأسيَ مرةْ!

٢ ـ المقبرة

عندما ينهمرُ الليلُ تئنُّ المقبرةْ
ويهزُّ الجنُّ والموتى غصوناً مقفرةْ

وتنوح الريحُ في سدرتها، والنجمُ يصفرُّ ويهوي
مطراً من ورقٍ أصفرَ يسقي مقبرةْ

٣ ـ أم الرصاص

أنتِ، يا سِريةَ الأنهارِ، يا طعمَ جزيرةْ
في بحارِ النخلِ، تلتفُّ على أحزانِها، تعبى، كسيرةْ
أنتِ، يا مجهولةً، طينيةَ الشطآن، سوداءَ الحياةْ
يا دروباً لم يكنْ فيها إلهْ
يُطعم الأحياءَ والموتى، ويسقي حلمَهم مَنّاً وسلوى
من ترى يرفع عن أستارِكِ الخضراءِ أسرارَ لياليكِ الغريقةْ
حينما يشربُ موتاكِ المياهْ
من نجومِ النهر؟
هل تدرين ما تخفي الجباهْ
في قبورِ الطينِ. . . يا أمَّ الرصاصْ؟
حينما يشربُ موتاكِ المياهْ
من نجومِ النهرِ، تأتيكِ سفينةْ
دون مرساةٍ وملاحينَ. . .
تأتي كالسفينةْ
وعليها يفتحُ الموتى عيوناً من خزفْ
ويهيمون على أخشابها السودِ إذا الليلُ انتصفْ
ينقلون الشايَ والصابونَ والطِيبَ،
ويبكون طويلا

وعلى شطآنكِ السوداءِ تهتزُّ النجومْ. . .
ويمر الفجرُ بالنخلِ. . .
وتشتاقُ النساءْ
والندى يلمعُ. . .
والموتى يعودونَ. . .
ويبكون السفينةْ
وقبورُ الطينِ تنهارُ انتظاراً للمساءْ. . .

البصرة، ١٢ ـ ٢١/٦/١٩٦٢

إليك... أيتها الجزائر

١ ـ وحدات من جيش التحرير تدخل المدينة

سماءُ الفجرِ في أحداقهم، وبنادقُ الزيتونِ في صيحةْ
وإثرَ خطاهمو نبعٌ من الفرحةْ
شميمٌ من ترابِ الجنةِ الحمراءِ، أو قطرةْ
وراياتٌ بوجهِ الريحِ مخضرّةْ
كأن مدافعَ الثوار لم تُنبتْ سوى زهرةْ
ولم تدفعْ سوى نبعٍ، ولم ترفعْ سوى نفحةْ
كأن «خليفةَ» المذبوحَ يحملُ زهرةً بيضاءْ
كأن عيونَهُ السوداءَ فوق نفائض الجندِ
كأن الموتَ والتاريخَ ينشقّان عن مهدِ
كأن العالمَ الثورةْ

٢ ـ أنا في شارع

لمن تمضي الخطى في الجدولِ الإسفلتِ؟ في الشارعْ؟
ومن يُرخي على عينيّ شمساً في الدجى ـ
شمساً في الندى الخضراءَ ـ
شمساً في الضحى خضراءَ ـ

شمساً في الضحى حمراء
ترش الشارعَ المغبرَّ، والقمصانَ، والباعةْ
وخذي من أُحبُّ، وحسرتي، والسجنَ والعمالْ.
وثوبَ الطفلِ، والباصاتِ، والمنديلَ، والساعةْ
ومَن؟
أَنصِتْ!
كأن الريحَ تدعوني
إليها، والمدى ينشقّ عن بحرٍ وليمونِ
وداعاً، يا شراعاً دامعَ العينينْ
وداعاً، يا دروباً لم تسَعْ اثنينْ
ويا درباً إلى وهرانَ، يا درباً إلى الإنسانْ
خذيني في ذراعِ الريحْ!

٣ ـ طفل في ساحة بتلمسان

نسيمُ الليل يمشط شعرَهُ في آخرِ الساحةْ
وفي رأسِ أمهِ تندسُّ كفّاهُ
ملوّحتين، ماشطتين، نائمتينِ...
والراياتُ في الساحةْ
ويستانٌ من الأضواءِ والذكرى.
وعيناهُ ـ
على شعر أمهِ نجمانِ
ترتيلانِ
ينبوعان للآتي...

٤ ـ شابة وجندي يرفعان العلم الجزائري في روشيه نوار

هنا، يا صخرةً سوداءَ، جئنا نغرزُ الرايةْ
نغني عشبَها الأخضرْ
ننادي نبعَها الأبيضْ
نشمُّ البرعمَ الأحمرْ
هنا، في الريح، في الأرضِ التي تزأرْ
وهبْنا وجهَها الأخضرْ
مراعي النجمِ والأنهارْ.
وهبْنا نبعَها الأبيضْ
حنينَ الصمتِ والثوارْ.
وهبنا زهرَها الأحمرْ
وفاءَ الجرحِ والأنصارْ.
فيا كفّاً على صخرةْ
ويا حُبّاً على صخرةْ
ويا حقداً على صخرة:
ركزنا في الأعالي رايةَ الثورةْ!

بغداد، ٧/ ٧/ ١٩٦٢

بعيداً عن السماء الأولى

(١٩٧٠)

جزيرة الصقر

يحجبها سقفٌ من النخلِ فلا نعرفُ ما فيها
ويأكلُ النورسُ والبطُّ الشريدانِ أغانيها
وحينما يُزهر عند الساحلِ النورُ
تطلُّ في الظلمةِ، في ظلمتها الخضراءِ، مهجورهْ
كأنها قصرٌ وراءَ النهرِ مسحورُ
أو مركبٌ غاص إلى القاعِ، وأبقى رايةً سوداءَ، مقرورهْ

* * *

وفي ضباب الفجرِ يبدو الماءُ والطينُ
ذَوباً، هو القهوةُ والنارنجُ والتينُ
والنخلُ أشباحاً، وسعفُ النخلِ أشراكاً
وبغتةً . . .
فتَّحتِ للعالم شبّاكا
وانحسر الفجرُ الضبابيُّ، وبانَ الماءُ والطينُ
وبعضُ أكواخٍ، ولونٌ فيكِ مكنونُ
جزيرةَ الصقرِ!
وأطبقتِ عن العالم شبّاكا.

* * *

وحين كنا نذرع الدنيا على قاربِ قصديرِ
ونسبقُ الأسماكَ في المدِّ
وننفضُ التوتَ رذاذاً أحمرَ الشُّهدِ
يبتلُّ منه الماءُ، بالجوريّ، والصيحاتِ، والنورِ
كنا نراها قلعةً يحرسها الجنُّ
في مهبطِ الليلِ. . .
فهل ندخلها نحنُ؟

* * *

واليومَ، أصبحنا كباراً، أيها الزورقْ
وامتدت الآفاقُ حتى آخرِ الدنيا
وامتدّ نهرُ الشيبِ في الصُدغينِ والمفرِقْ
لكننا لما نزلْ نسألُ أن نحيا
أن نعبرَ الخيطَ إلى الجرف الذي يخفقْ

* * *

جزيرةَ الصقرِ!
أرى أكواخَكِ الشهباءَ في المنفى
منخورةَ الأعوادِ، يلهو فوقهنّ الريحُ والماءُ
والشمسُ ـ كالتّنور ـ حمراءُ
تستقطرُ الأعشابَ، والبرديَّ، والسعفا
حتى إذا ما أصفرّ أو جفّا
غابت، وأبقت بعدها للناس ما شاؤوا
الخبزُ، والعتمةُ والداءُ

* * *

جزيرةَ الصقرِ!

لقد نام هنا الشارعْ

وانقطعَ الخطوُ، وهبّتْ نسمةٌ في غصنِ ليمونِ

وارتجفَ النجمُ قليلاً، وارتمى دوني

مثلَ سنانٍ من حريرٍ خيطُه اللامعْ

وأنتِ في الماء تنامين، وكالماء الذي يرجفْ

ترجفُ أضلاعُكِ. . .

تدعوني

أن أمنَحَ الدفءَ لأطفالكِ، والبردَ لأحداقِكْ

والوردَ والأثمارَ واللونَ لأوراقِكْ

. . . . . .

جزيرةَ الصقرِ!

سأحيا يومَكِ المشرقْ

الجزيرة، ١١/٣/١٩٦٦

كلمات شبه خاصة

«إلى عبد المجيد الراضي»

قد يقعُ الإنسانْ
في قبضةِ السجّانِ، أو في قبضةِ الأزهارْ
بلربما أوقفَ من سنينهِ، عشراً، على الأحجارْ
يمنحُها النُسْغَ، كما تمنحُ أزهارُ الدجى الشطآنْ
وربما استنفدتِ الأشجارْ
أعمارَنا. . .
من أجل ألاّ نجهلَ الأشجارْ
لكنني أريد أن أخبر الليلةْ
وأنت لا تجهلُني ـ
كنا معاً في ذلك البستانْ ـ
أريد أن أخبرَكَ الليلةْ
بأنني في قبضة الذكرى:
سجينٌ دونما سجّانْ
وحين يبدو التلُّ كالغيمِ، ويدنو الغيمُ كالتلِّ
وترتعي في العُشبِ المبتلِّ والداليةِ الألوانُ والقطعانْ

أغنيةً للسروِ والنخلِ
أغورُ في الذكرى، فتمتدُّ على جبهتيَ القضبانْ

* * *

كما أحسدُ الليلةَ من أوقفَ للبستانْ
شبابَهُ، منجلَهُ، رايَتهُ الأولى
كم أحسدُ الليلةَ من دسّ كتاباً واحداً في راحَتيَ إنسانْ. .

* * *

أواه. . . كم أحسدُكَ الليلةْ.

الجزائر ـ بلعباس، ١٤/ ٣/ ١٩٧٠

خواطر في مدينة قريبة من البحر

أمثلما مرّتْ عليكَ الليلةُ الأولى
تمرُّ هذي الليلةُ الألفُ؟
أيبقى الحرفُ مشلولا
ينخرهُ المنفى؟
أيبقى الغصُنُ المقطوعُ مقطوعا
أوراقُه تستمطر الجوعا
أوراقُه تصفرّ. . .
أوراقُه تحت السماواتِ الغريباتِ تعرّي غصُناً كالجذر مجهولا؟

* * *

هل نعرفُ النجمَ على حُزمةِ أوراقِ؟
هل نعرفُ البحرَ بلا زُرقةِ أعماقِ؟
ومن ترى يمنحُ هذا المغربيَّ: الدهشةَ الأولى
والخجلَ البصريَّ، والبسمةْ؟
والنخلَ والعتمةْ. . .
والبيرةَ السوداءَ، والساحاتِ، والماءَ الذي ينهلُّ مجهولا؟

* * *

أكلّما لوّنَ هذا المطرُ القرميدَ بالماءِ

أكلما أبصرتُ عصفوراً على حائطْ
أكلما أرعدتِ الأدواءُ أعضائي
واجهني النخلُ. . .
نحيلاً، غامضاً، مستوحداً، نائي
قاماتُه تمنحني لحظةَ إيماءِ
وسعفُه يهمسُ في العتمةِ أسمائي

* * *

تخجلُ أن تأسى، ولا تقدرُ أن تَضحكْ
وتعصبُ العينينِ حتى لا ترى جرحَكْ
تريد أن تبقى قوياً دون أن تقوى
وفي ظلامِ الصوتِ تنسى أن ترى صبحَكْ
إنك لا تهوى، ولا تبصرُ من يهوى
كأنك الحدأةُ، والطائرْ
والبيتُ، والمنفى
كأنكَ الأولُ والآخرْ.

الجزائر ـ سيدي بعلباس، ١٤/ ١١/ ١٩٦٧

شط العرب

حلم ١

يبللُ ماؤهُ طعمَ الوسادةِ في ليالي النوءِ والحسرةْ
ويأتي مثلَ رائحةِ الطحالبِ، أخضرَ الخطُواتِ،
يمسحُ كفّيَ اليمنى
بغصنِ الرازقيّ:
ـ أفقْ...
أنا النهرُ...
ألستَ تحبني؟ أوَلَم تُرِدْ أن تبلغَ البصرةْ
بأجنحةِ الوسادةِ؟
أيها النهرُ
أفقْتُ، أفقتُ.
«فوق وسادتي قطرةْ
لها طعمُ الطحالبِ...»
إنها البصرةْ.

حلم ٢

تظللني السماواتُ
تظللني السماواتُ الخفيضةُ والعصافيرُ

وجدّي ممسكٌ بيدي
تظلل وجهَهُ كوفيةٌ حمراءْ. . .
ويلمعُ في البعيدِ الماءْ
وجدّي ممسكٌ بيدي:
لنسرعْ قبل أن تمضي العصافيرُ
لنسرعْ قبل أن يأتي على شبكاتنا النورُ. . .

* * *

على الأعشاب، من شبكاتنا، تقاطرُ الأسماكْ
وتبدو في ضبابِ النهرِ مثلَ سفائنٍ خضراءَ
مثل سفائنٍ حمراءَ
مثل سفائنٍ زرقاءْ
سفائنَ أبحرتْ قبلَ ارتفاعِ الماءْ

حلم ٣

على شطآنِ «كوت الزين» كان الفجرُ ينهمرُ
وكان النخلُ يلبس قبّعاتٍ أرجوانيةْ
وفي شعَري، النجومُ، الدفءُ، والمطرُ
وكنتُ أعوم نحو الضفةِ الأخرى
أعومُ لأبلغ الأهوازْ
وفي الأهوازِ كان الفجرُ ينهمرُ
وكان النخلُ يلبس قبعاتٍ أرجوانيةْ
وكان الماءُ في «كارونَ» مثلَ الماءِ في البصرةْ.

سيدي بلعباس، ٤/ ٥/ ١٩٦٩

بطاقة زيارة

«إلى رشدي»

عامَ ألفينِ، وفي منتصفِ الليلِ، وفي بابِ حديقة
سائرٌ مرَّ، خطاهُ المثقلاتُ
برصاصِ العُمُرِ الضائعِ، تروي كيف ماتوا
أين ماتوا. . .
في سِباخِ الكرخِ، أم في حُفَرِ الروحِ العميقةْ؟

* * *

هذه الأرضُ التي يعرفها مقهىً فمقهى
والتي سار على إسفلتها القيريِّ، أعواماً، وناما
في سواقيها النديات، وذاق العرقَ الأبيض ـ
في بارٍ على شارعها النهريّ صِرْفا
والذي ضمّتهُ زنزاناتُها عاماً ونصفا
وتلقّى زهرةَ الدُّفلى عليها. . .
ثم هاما
هذه الأرضُ:
ترى، أين المدينةْ؟

رحلتْ أم هبطتْ في العالمِ الأسفلِ،
أم طارتْ إلى حيثُ تطير القبّراتُ؟
أترى الأحياءُ ماتوا
أم ترى الموتى عليها نُشروا، فانتشروا؟
إن المدينةْ
مثلَ سعفِ النَخَلِ اليابسِ، أنقاضُ سفينةْ
تصفر الريحُ على ساحاتها الغبرِ، وتصفرُّ حزينةْ
حيث لا دجلةَ يحمرُّ، ولا يصفر فراتُ

* * *

إنه يعلم يا أيتها الأرضُ التي ما قيل حتى عن ثرى
اجداثِها يوماً: مَواتُ
إن شيئاً لم يزلْ يولَدُ فيكِ
صافياً كالنسغِ، يمتصُّ مراثي ساكنيكِ
وأغانيهم.
وكالنسغِ، خفاياه صفاتُ

* * *

إنه يعلم، لكن الحديقةْ
تختفي في عتمةِ الشارعِ زرقاءَ الظلالِ
لا مصابيحَ، ولا شيحَ، ولا ريحَ شمالِ
مرفأٌ من سفن الموتى ومن بدءِ الخليقةْ

* * *

والخطى
تنأى
ويبقى
في المدى
منها الصدى
ينأى
وينأى

* * *

سائرٌ مرَّ على باب حديقةْ
واختفى. . .
لم يفتحِ البابَ، ولم يعرفْ صديقهْ

الجزائر، ١/٥/١٩٦٦

رسائل جزائرية

أمطار حزيران

حين يأتي المطرْ
ناعماً كزجاجِ النوافذْ
غائماً كزجاجِ النوافذْ
دافئاً كالشجرْ
حينَ يأتي المطرْ
تستفزّ الصبيّاتْ عشاقَهُنَّ، وتبقى الموائدْ
وحدَها تشربُ الشايَ تحتَ المطرْ
حيث لا عابراتٌ يغازِلنَ، أو عاشقٌ يُنتظرْ
حيث تهتزُّ فوقَ الرؤوسِ الجرائدْ:
La République
Le Peuple
Le Monde
Sous le drapeau rouge
Alger
المجاهد.

فندق صغير

في الفندق المعتمِ لم نحتفلْ
كنا شريدينَ به متعبينْ

خمسةُ أعوامٍ ولما نزلْ
نشربُ في المرآة عارَ الجبينْ
يا سارقَ الشعلةِ للمتخمينْ
أجفانُنا الليلةَ مفتوحةٌ
زرنا، وأطبقْها على جدولٍ
ننهل منه لهفةَ الثائرينْ

مساء في مرفأ صيد شِباكُكَ الزرقاءْ
يقطرُ منها بحركَ الأخضرْ
يقطرُ منها سمكٌ أخضرْ
يقطر منها الماءْ
يا مرفأً في الماءْ
يا مرفأً للماءْ
أُطفِئَتِ الشمسُ ولم يبقَ لي
مرسىً سوى حانةْ
تشعلُ في ظلمائِكَ الملحيّةِ الزرقاءِ رمّانةْ

ديوجين حين تدق الساعةُ التاسعةْ
وتُقفز الساحةْ
تظل في الصمت الخطى الضائعةْ
ويحمل الشرطيُّ مصباحَهْ

مسافر ودعتُه أمسِ، وكان العراقْ
في وجههِ المتعَبْ
أخافُ أن تذهبْ. . .

سيدي بلعباس سماءُ بِلْعبْاسَ لا تنحني فيها، ولا تمطر منها النجومْ
سماءُ بلعباسَ مبنيةْ
قرميدةٌ حمراءُ فوق الكروم
سماءُ بلعباسَ صخريةْ

إلى بلند نُولدُ في الغربةِ أم نموتُ؟
أتعرفُ الأشجارُ والبيوتُ
وجوهَنا؟ وأننا. . . نولد كلَّ ساعةْ
نموتُ كلَّ ساعةْ
وحولنا تولد أو تموتُ. . .
الناسُ والأشجارُ والبيوت؟

الجزائر، ١٩٦٦

تأملات عند أسوار عكا

خيولهُم عاصفةٌ
رماحُها الرقُ
لكنني أعظمُ من أسوار عكّا، أنني كالبحرِ ينشقُّ
عاصفةً يضمرها الشرقُ
عاصفةً أسرعَ مما أسرعَ البرقُ

* * *

جيشُ السلاطينِ طوى رايةً
أريدُ أن تُطوى
فلترتفعْ في السوق راياتُنا
وليبدأ الأقوى

* * *

عشرون ألفاً عند أسوارها
ماتوا، ولكنني
من أجلهم عشتُ
كان جودي متعباً، متعباً
أعرافُه الموتُ
وكانت الأسوارُ عندي: صخرةً صخرةْ

ومنجنيقاً منجنيقاً. . .

أيها الصمتُ

يا أيها الصوتُ الإلهيُّ:

أنا الأسوار والميْتُ

* * *

أُومنُ أنَّ النار قد تحرقُ العارَ الذي فيَّ وقد تخبو

أُومنُ أن البغضْ

أعظمُ ما يمنحه الحبُّ

* * *

كرهتُ سيفي وذراعي على أسوار عكّا، وكرهتُ الجميعْ

غمستُ حتى مقلتي في النجيعْ

أحرقتُ أسمائي. وها إنني

ادعى صلاحَ الدينِ، ادعى الجميعْ.

بلعباس، ٣١/ ٧/ ١٩٦٧

شجرة الدفلى

مهملةٌ في آخر الساحةْ
أثوابُكِ الفاتحةُ الخضرةْ
تلقي عليها عرباتُ النقلِ، والأحذيةُ، الغبرةْ
ويضحكُ الأطفالُ في الساحةْ
يدنون من أذرعكِ المعروقةِ المحروقةِ المرةْ
يغافلون الحارسَ المتعبَ: نوارةْ؟
يا عميَ الحارسَ، هل آخذُ نوارةْ؟
لكن أغصانَكِ لن يلمسَها الأطفالْ
لن يسرقوا من زهرها زهرةْ
فأنتِ بين الشيءِ والصورةْ
ضائعةُ الأسماءْ
ضائعةٌ كالماءْ
يا قلعةً، منسيةً، مهجورةَ الأقفالْ
عنيدةً بين خيولِ النقلِ والأحذيةِ السوداءْ
رابعةً راياتِها الحمراءَ في الساحةْ.

الجزائر، ٢١/٦/١٩٦٧

الحي العربي

«لقد ألقت بنا العواصف مرغمين على شواطئك»

يوليسيس

شوارعُها الفِساحُ تضيقُ حين تُلامسُ الحيّا
وتنحدرُ العمائرُ، تُنبت الفِطْرا
بيوتاً من رقاقِ اللوحِ والقصديرِ ملويّةْ
على أعناقها، تتسول القرميدَ والصخرا
وتدبقُ بالصبايا الخادماتِ وبالبغايا حولها الدنيا
كأن البحرَ يقذفُ كلَّ يومٍ عند مرساها
رذاذَ السلِّ، والسيلانَ، والآها
كأن الحيَّ لا يحيا

* * *

وفي أسواق روما: العبدُ والسيدْ
وعبرَ قناطرِ الرومانِ يجتازُ الأرقّاءُ
ممراً عسكرياً. . .
ـ أيهذا البربريُّ الساقطُ المولدْ
لقد أخلفتَني الموعدْ

ولم تأتِ أختُكَ الصغرى عشيةَ أمسِ. . .
عبرَ قناطرِ الرومانِ يجتازُ الأرقاءُ
ممراً عسكرياً، والرذاذُ يسيل فوق وجوههم، ويسيلُ
تحتَ المعبرِ الماءُ

* * *

وتحت مُصارعي الثيران تشهقُ نسوةُ السادةْ

* * *

أعود إليكَ يا حيّاً من الألواحِ والقصديرِ والقمرِ
يهزُّ نُخيلةً حجريةَ الشيصِ
ويرقبُ كلَّ ليلٍ نجمةَ السفرِ
وخطوةَ سيّدٍ يأتي مع الريحِ
ليزرعَ أرضَ هذا الحيِّ بالنعناعِ والشيحِ
ويبني مسجداً ويطيرَ بالبشرِ

* * *

سلاماً أيها الحيُّ الذي لم نغتربْ فيهِ
ولم نطعم مآكلَهُ، ولم نتركْ مقاهيهِ
سلاماً أيها الأعمى المغني قصةَ التيهِ
ويا متسوليهِ، وباعةَ التبغِ المهربِ، والأفاويهِ
ويا شيئاً يفوحُ على أزقتهِ، ويُزهرُ في نواحيهِ
شممتُ ـ على البعاد ـ مدينتي فيهِ

مليلة (في المنطقة الإسبانية بالمغرب)
١٨/ ٣/ ١٩٦٥

قصيدة وفاء إلى «نقرة السلمان»

على شرفاتِكِ التسعينْ
رأينا أنجمَ الصحراءِ تدنو، وهي رمليةْ
تَنزَّلُ فوّهاتٍ، أو عقاربَ، أو. . . زهيراتِ
وفي قاعاتكِ العشرِ
عرفنا ضجعةَ الأسفلتِ والريحَ السديميةْ
وآلافَ الرسائلِ:
«إنني في القاعة الأولى
بخيرٍ. . . أرسلوا». . .
والقاعةُ الأولى
كمصطبةٍ من الصخرِ
كتابوتٍ من الصخرِ
تفتّحُ بابَها الخشبيَّ، والأسفلتُ يلتهبُ
وآخرُ زهرةٍ في الرملِ والصابونِ تضطربُ
قليلاً. . .
لحظةً. . .
ويلفُّها اللهبُ

* * *

مرثية إلى هادي طعين

في ١٩٤٨، كنتَ عامل ميكانيك سجيناً في نقرة السلمان.
في ١٩٥٨، كنتَ في نقابة الميكانيك بالبصرة، مطلق السراح حديثاً من نقرة السلمان.
في ١٩٦٨، مضت ثلاثة أعوام على موتكَ بالسل في نقرة السلمان.

* * *

موقف شرطة السماوة ١٩٧٨

السيارة الأولى:

١، ٢، ٣. . . ، ٣٠

السيارة الثانية:

١، ٢، ٣. . . ، ٣٠

السيارة رقم ١٠٠:

١، ٢، ٣. . . ، ٣٠

* * *

ستُبنى نقرةُ السلمانِ، أعرف أنها تُبنى
بآلافِ العظامِ، وأنها طابوقةً في إثرِ طابوقةْ
سترفعُ سورَها، وتراقبُ الأعناقَ مشنوقةْ
على شرفاتِهِ التسعينْ. . .
أتحسبُ نقرةَ السلمانِ في تاريخنا سجنا؟
أتحسبنا نسيناها؟
أتحسبنا كرهناها؟
أتحسبنا هجرناها؟
أما قلنا بأنّا لن نعود لقصرِها الحَجَرِ
وأن تناوحَ الأرياحِ والمطرِ

سيمحوها، ويمحو لَسعَها منّا؟
ولكنّا بنيناها
بماء جباهِنا الحَجَرِ
بصفرِ وجوهِنا، بعروقنا المنزوفةِ المعنى
وصلّينا على أعتابها في ساعةِ الخطرِ

* * *

وداعاً نقرةَ السلمانْ. . .
وداعاً نقرةَ السلمانْ. . .
إلى أن نلتقي. . .
ولربما، ولربما، يا نقرةَ السلمانْ
يكون أمامَ سورِكِ، مرةً، بستانْ.

الجزائر، ٦/ ١٠/ ١٩٦٨

نافذة في المنزل المغربي

أَبعْدَ ١٢ سنةً. . .
دونَ أن ألمحَ البابَ، أو ألمسَ الشارعا
ودونَ زهورِ الحديقةِ تمنحني الأرَجَ الضائعا. .
أبعد ١٢ سنةً. . . لم أجدْ وجهَكِ الحلوَ فيها
ولو لحظةً. . .
ولو مرةً في مرايا النخيل الهشيمةْ
وفي الأفقِ المغربيّ
أبعد ١٢ سنةً. . .
تتركينَ على الليلِ وشمَ ذراعِكِ. . .
وشمَ الذراعِ الصبيةْ
وطعمَ الشفاهِ الصبيّ؟
فكيف انتهيتِ إلى المنزلِ المغربيّ؟
وكيفَ دخلتِ إلى المنزل المغربيّ؟
وبيني وبينكِ ثلجُ السنينَ الطوالِ، وموجُ السنينَ الرمالْ. .
ـ وداعاً. . .
ـ وداعاً، وداعا. . .
وداعاً. . . إلى أن أموتْ

الجزائر، ٩/ ٣/ ١٩٧٠

عن المدن الأخرى

١ ـ تقسيم

وراءَ السماءِ النديهْ
تمرُّ العصافيرُ،
هذا المساءْ
رأيتُ على الريحِ خصرَكِ. إن السماءَ النديةْ
كرائحةِ الأرضِ، سريةٌ، والثيابِ القصيرةْ

* * *

وراءَ السماءِ الأليفةْ
تمرُّ النوارسُ.
هذا المساءْ
رأيتُ على البحرِ شَعرَكِ أن السماءَ الخفيضةْ
كرائحةِ العشبِ، مبتلّةٌ، والشباكِ الصغيرةْ

* * *

إلى أين أحمل خصرَكِ؟
إن مقاهي النبيذ القديمةْ
يحجّبها التبغُ.

إني رفعتُ ـ
على العشب خصرَكِ.
إني شممتُ ـ
على العشب شَعركِ.
إني استرحتُ

الجزائر، ٢٩/٩/١٩٦٩

٢ ـ شتاء سابع

من يقلْ: كيف يغنّي
فليقلْ للعشبِ: لا تنبتْ، وللقدَّاحِ دعني

* * *

إن هذا عاميَ السابعُ، والأرضُ القريبةْ
لم تزل أهدابُنا مطبقةً فيها...
كأنّا ما وُلدنا...
وكأنّا ما عرفنا الخطوةَ الأولى، وما جئنا، وما متنا مراراً، وبُعثنا
هذه الأرضُ التي يعرفها الأفّاق، والثوريُّ، والغصن المغنّى
هذه الأرض القريبةْ
لم تزل أرضاً غريبةْ
غير أن الأغنيةْ
طائرٌ يولَدُ في أرضٍ، على وعدِ سماءْ
طفلةٌ، كالبحر، لا شرعيّةٌ.

ـ بضعُ نساءْ

يتغزلن بأفخاذ الرياضيّ.

مُواءْ

قطةٍ في آخر المبنى ـ

وينهلّ الشتاءْ مطراً فوق الشجرْ

مطراً فوق الحجرْ

مطراً فوق الحجرْ

مطراً فوق زجاج النافذةْ

حيث لا شيء سوى برج كنيسةْ

وتصميم شجرْ

حيث لا شيءَ سوى وجهِ المساءْ

الجزائر، ١١/١١/١٩٦٩

باب سليمان

فليسقط الشعراء، ولتسقط قصيدتك الجديدةْ

ماذا ستكتب غير لغوكَ؟

أنجماً وندىً ونخلا

وحكايتين عن الضياع، وتشتم العصر المملاّ

وتخط رمزاً في السياسة ليس يفهمه سواك. . .

في المغربِ الأقصى، تسيل مياهُكَ الخضراءُ، في عَتَباتِ داري

ويدور وردُ الهيلِ، والمرّانُ، نقشاً في ستارِ

يا أيها النهرُ المشتتُ في جداولَ من نخيلِ

يا أيها الملقى على بُعد المزارِ

بيني وبينك لحظةٌ، بيني وبينك بابُ داري

* * *

المدُّ يأتي، مثلَ شيءٍ لستُ أعرفهُ، ولستُ أرى خطاهُ

إلاّ على الأعشاب في ضفةٍ، وفي الأخرى أراهُ

يسقي جذورَ النخل، تلمع حين تلمسها يداهُ

وتغيبُ جذراً بعد جذرٍ،

ثم تحضنها المياهُ

* * *

الجَزْرُ، يبقى خيطهُ الفضِّيُّ معبرْ
يلهو الفراشُ على حبائلهِ، ويقطعه السَمَنْدَرْ
حتى إِذا أرخى اليمامُ جفونَهُ، والنجمُ أزهرْ
وتفرقَ الصبيانُ،
غنّى بلبلٌ في التوتِ. . .
فانثنتِ المياهُ

* * *

في المغرب الأقصى، غريبٌ أنتَ. . .
يا نهراً تشفّ به السماءُ
ما دجلة العوراء
ما «المختارةُ» الخضراءُ؟
أسماءٌ وماءُ
وادٍ ببلعباسَ، يسقي الزان والبستانَ، خيرٌ منكَ. . .
لكنْ، أين تُلتمسُ السماءُ؟
وجرارُ نسوتكَ النحاسُ، وسدرتي، وشِباكُ جَدّي؟
وسجارتي الأولى، ولمحٌ من مظاهرةٍ،
وكوخٌ كنتُ أحلمُ فيه وحدي؟

* * *

أين الطريقُ إِليكَ؟
يا ماءً نشاءُ كما يشاءُ

كلُّ الدروب إِليكَ تومئُ، غير أني لا أراها
هَبْ لي طريقاً لن نعفِّر في مسالكها الجباها
جذعاً لقنطرةٍ تأكلها الشتاءُ
مرتْ بها أقدامُ فلاحيكَ مثقلةً، ومرَّ بها الزمانُ فما رآها
لو كنتُ جذعاً فوق قنطرةٍ قصيّةْ
إني أجفُّ هنا. . .
أموت. . .
وأنتَ تبخلْ بالهديةْ

الجزائر، ٢٨/ ١١/ ١٩٦٥

تقاسيم على العود المنفرد

١ ـ دقتِ الساعةُ الدقةَ العاشرةْ
دقتِ الساعةُ العاشرةْ
دقتِ العاشرةْ.
عبرَ برجِ الكنيسةِ أوْمَضَ نجمٌ وغابْ
واختفى بلبلٌ في الصنوبرْ
في سرابٍ من الليل أخضرْ
فادخلي يا صبيةُ داري
أن بيتي مزاري
الكنيسةُ قد أُغلقتْ
والقناديلُ قد أطفئتْ
والمناديلُ مبتلّةٌ بالشرابْ
٢ ـ في ممر الحديقةْ
يصمت الماءُ والورقُ اليابسُ
والظلالُ العميقةْ.
في ممر الحديقةْ
لم تغنِّ العصافيرُ،
والجدولُ الهامسُ

لم يغنّ الحديقةْ. . .
يا الهَ الحروفِ الغريقةْ
أينَ، أينَ، ارتعاشُ الصدى الناعسُ؟
يدُها في يدي،
وبصدري حديقةْ.
٣ ـ يا بلادي التي لستُ فيها
يا بلادي البعيدةْ
حيث تبكي السماءُ
حيث تبكي النساءُ
حيث لا يقرأ الناسُ إلاّ جريدةْ
يا بلادي التي لستُ فيها
يا بلادي الوحيدةْ
أيها الرملُ والنخلُ والجدولُ
أيها الجرحُ والسنبلُ
يا عذابَ الليالي المديدةْ
يا بلادي التي لستُ فيها
يا بلاد الطريدةْ
ليس لي منكِ إلا شراعُ المسافرْ
رايةٌ مزّقتْها الخناجرْ
والنجومُ الشريدةْ.

الجزائر، ١٦/٨/١٩٦٥

العمادية

ماذا؟

أغيمٌ قد أسَفَّ هنا، أم ارتفع الضبابُ؟

أم غابَ في الأمداءِ وجهُكِ. . .

فاختفى. . .

وصفا السرابُ؟

كانت ظلالُ السرورِ ناصلةً، وكان السروُ أسودْ

ـ عَلَماً جنازيّاً ـ

وكان التوتُ والسُمّاقُ أجردْ

كملابسِ الأطفال.

و«السوالاف» مجراه الترابُ. . .

ها أنتِ بين أصابعِ الثوريِّ والجنديِّ:

أرقامٌ وأمرٌ مُستجابْ.

خذني إلى بغدادَ. . .

* * *

كان الطفلُ يمسكُ بي ويعدو

بين الصخورِ، وبين تعميةِ الربيئةِ كان يعدو

شيءٌ من القمر اشرأبْ، وأومضتْ في القلب نجمةْ

وعلى الخطى البيضاءِ لمحٌ من مظاهرةٍ ووعدُ

* * *

طوّفتُ في بغدادَ، أبحث في منائرها العتيقةِ عن منارةْ
وأدقُّ أبوابَ المكاتبِ:
يا سياستَنا المعارةْ
يا سيداً يستوردُ الكلماتِ والويسكي وأحذيةَ النساءْ
إني أدقُّ هنا، أدق، أدق... ان دماً يدقُّ
إني أدق مع الشمالْ
إني أدق مع الجنوبِ، أدق... إن دمي يدقُّ

* * *

والطفلُ يمسك بي: يداه تَوَهَّجانِ من الحرارةْ
ويداه تبتعدان عني
وتمرُّ في الأفق الشفيف حمامتان بعيدتانِ...
عبر ارتجافِ النخلِ، والنهرِ المسوّرِ، والمباني
والطفلُ يمسك بي:
«التفتْ»...
ـ بغدادُ ظمأى
بغداد... ألافُ الأكفِّ تدقُّ... آلاف الأكفّ تدقُّ ظمأى.
والليلُ ينزل في المدينةِ، في منائرِها العتيقةْ
والطفلُ يمسك بي:
ألستَ ترى الحقيقةْ؟
بغدادُ ظمأى...

والأكفّ تدقُّ. . . والأبوابُ تنأى. . .
والطفلُ يمسك بي،
وتنهمرُ النجومُ على حديقةْ. . .

* * *

الغيمُ فوق صخوركِ المحمرةِ البيضاءِ منزلقُ. . . كأفخاذِ النساءْ
وعلى منازلكِ المقنبلةِ السطوحِ خيوطُ ماءْ
تسقي حدائقَكِ الصغيرةْ
وتغور في الأزهارِ والأعشابِ، كاليدِ في الضفيرةْ
ومن الصنوبر ـ أسفلَ الوادي ـ تطير حمامتانْ
ومن الجذوع السودِ تلمحها صنوبرةٌ صغيرةْ
أوراقُها إبريّةٌ خضراءْ
أوراقُها الإبرية الخضراءُ تدفن عبرَ رحلتها رصاصةْ.

الجزائر، ٢٥/٦/١٩٧٠

ثلج

أنفضُ عن شعَري زهورَ السماءْ
نيلوفراً أبيضْ
في الغسقِ الأبيضْ
أنفضُها، أنفضُها، فضةْ
أنفضُها عن هدبيَ المغمضْ
يا قمري الأبيضْ
نافذتي ألقت عليها الشموعْ
فانوسَها الأبيضْ

الجزائر، ١٩٦٨

الغصن والراية

«في الذكرى المئوية لميلاد ف. إ. لينين»

نحن لم نحملْ على قمصاننا وجهَكَ. . .
لم نحملْ نحاسا
لم نقلْ للكتبِ السريةِ التوزيعِ «آمنّا بما أُنزِلَ»، ما كنتَ لنا نجما
فما كنا مجوسا
إنما أنتَ مقاتلْ
معنا، جنباً إلى جنبٍ، تقاتل.

مساء باريسي

ينهمرُ المطر
على مظلاتِ المقاهي وعلى أرصفةِ الصورْ
وكان في أغنية المطرْ
يسرعُ. . .
منفيّاً
وحيداً، ثابتَ الخطوِ، ويمضي هو والمطرْ
أبعدَ من نورِ المقاهي، حيثُ لا ينهمرُ المطرْ

إلاّ على معاطفِ العمالِ، والأرصفةِ الحَجَرْ

مكتبة زيوريخ

من أجل أن يقرأَ كلُّ الناسْ
يقرأ كلَّ وقتهِ. . .
من أجل أن تغادرَ الأجراسْ
كنائسَ العالمِ، لبّى رنّةَ الأجراسْ
من أجل أن يولَدَ في الأوراقْ
أكتوبرُ الأحمرُ، شقّت عينُه الأوراقْ

ثلج

يهبط الثلجُ السيبيريُّ على القرية، تبيضُّ المنازلْ
تحته، والشجرُ الأعجفُ يبيضُّ، وتلتاثُ المسالكْ
وغداً يهبطُ فوق القريةِ الثلجُ، فتبيضُّ المنازلْ
مرةً أخرى، وهذا الشجرُ الأبيضُ يبيضُّ،
وتُمحى دون عينيه المسالكْ
يهبط الثلجُ السيبيريُّ
وفي زاويةٍ تهبط كفُّ
فوق صُدْعِ الرجلِ الجالسِ:
ما أبهى المسالكْ!

الضريح

لم تكن نائماً حين زرتُكْ

لم تكن مغمضَ المقلتينْ
لم تكن في القميص المنشّى
كنت مبتسماً واقفا
لامعَ المقلتينْ
دامعَ المقلتينْ
في دخانِ المتاريسِ. . . يعلو قميصُك رايةْ

نشيد للعالم الذي يولد

وقوفاً. . .
وان حزّتْ قيودٌ، وأثقلت سدودٌ
وقوفاً. . .
أن راياتِنا تعلو
وأن الوفاءَ المحضَ، والأرضَ والمدى
لها قالةٌ هيهات يُخْلِفُها القولُ
فإن كانتِ الدنيا القديمةُ موطئاً
لأقدامنا حيناً، وجبهتُنا ظلُّ
فللقمم البيضاءِ تسمو عيونُنا
وإثرَ خطانا الخضرِ يندفع النخلُ
وهبْنا سماءَ الحقِ غصناً ورايةً
وعانقَنا الصبحانِ والعالمُ الكلُّ
فوارسُ من هذا الزمانِ وأهلهِ
ونحن لآتيهِ إذا ما أتى أهلُ

فيا غصناً يعلو
ويا رايةً تعلو
هنا نحن لم نبرحْ كأنّ وجوهَنا
شواهدُ، لكن للطريقِ التي تعلو

الجزائر، ٣/ ١/ ١٩٧٠

حين تموت زهرة الصبير

رأيتكَ في العراق، على صحاراهُ
وعند شواطئِ الأنهار، والمدنِ الخريفيةْ
وإثرَ النخلِ كنتَ تسيرُ، والسككِ الحديديةْ
ذراعاً أخضراً كالقيحِ. . .
نصمتُ حين نلقاهُ
ونُطرقُ، ثم نطرقُ، ثم ننساهُ
ونخجلُ حين ننساهُ
وتبقى الآهُ، تبقى الآهُ. . .
ـ «إن مجلةَ نيوزويك مرميةْ
وراءَ خطىً ثلاثٍ في الحديقةِ ما يزال الشايُ لم يَخْدَرْ.
لقد جاءت سعادُ. . . خطيبُها قد باع موسكوفج. . .
فإنكِ تعرفينَ الصيفَ».
والنسماتُ ليلية
وتلتمع المراوحُ في الحديقةِ لحظةً.
ـ «ما أجملَ الصبّيرَ،
إن الياسمينَ يُغيظني. إني سأوصي مصطفى»
ومساكبُ الأزهارِ محنيةْ

على الأعشابِ، تفرش للندى طرقاتِ مركبةٍ حريريةْ
وتذكرُها المراوحُ لحظةً، فتميلُ. . .
ثم تعود مطويةْ

* * *

وفي حَلَبٍ رأيتُكَ أيها الصبّيرُ تنهمرُ
على الأسوارِ تنهمرُ
وفي الطرقاتِ تنهمرُ
كأنّ القلعةَ الحجريةَ الأبراجِ تنتظرُ
نفيضةَ يومِكَ الشوكيِّ، رمحاً يَدّريهِ الصخرُ والمطرُ
يمرُّ على المعرةِ برقَ جنّيةْ
وفي شفتي صلاح الدين أغنيةً صليبيةْ
وفي بيروتَ، ترقد أيها الصبّيرُ في العرباتِ ثلجيةْ
ويبذرُ قلبُكَ الأصفرْ
بثورَ الصخرِ، في الأفواهِ، والطرقِ
وعندَ مشارفِ الحاناتِ والغسقِ
وحولَ نراجسِ الشرفاتِ والمرمرْ
خطاكَ متوجاتٌ، كالمصارفِ، سورُها المعتمْ
يحيط مزارعَ التفاحِ والصحفا
وفي فُوّهةِ القمقمْ
تُجيل الساحلَ البحريَّ، والأعناقَ، والغرفا
وتختم بالبثور مغالقَ القمقمْ

* * *

وفي جدرانِ وهرانِ
وفي ينبوعِ أغنيتي وإيماني
وشرفةِ من أُحبُّ، وشعرِها الأسودْ
رأيتُكَ زهرةً من عالمٍ ثانِ
تدور شقائقُ النعمانِ فيها والمدى السرمدْ
رأيتُكَ زهرةً حمراءَ
أو صفراءَ
أو بيضاءَ، تعلن عالمي الثاني
رأيتك رايةً في جسر «مَغْنِيّة»
وصاريةً من الحنّاءِ
والصحراءِ
والماءِ
وحرفاً واشتراكيةْ

الجزائر، ٢٨/٦/١٩٦٥

غرناطة

منتصفُ الليلِ.
في «البائسينَ» أراكَ تبحثُ في الظهيرة
لقد أطفئتِ الحمراءُ.
ووراءَ بهرجةِ المدينةِ، والمخازنِ، عن حكاياك الصغيرة
في الساحةْ
عن منشدٍ أعمى، وزاويةٍ تدورُ بها القصائدْ
عيناه. في الساحةْ
سريةً، عن ذلك السفح الذي قتلوا به لوركا، وعن بُقيا قصائدْ
خطوتهُ. في آخر الساحةْ
لما تزلْ مطويةَ الأهدابِ ترقد بانتظارِكْ
قميصُها يستر بالزرقةِ مصباحهْ
طوّفتَ حتى الأزقةِ حيث تتبعك الكلابْ
منتصفُ الليلِ، كخصر امرأةٍ يُطوى...
متسائلاً عن شاعرٍ قتلوه، وانفجرَ الجواب:
وفي الشارع قيثارةْ
«لوركا؟ أجل... لوركا؟ درسناه». وتتبعُكَ الكلابْ
ينهمر النارنجُ منها، والندى يغرس أزهارَهْ

متعثرَ الخطواتِ، تسألكَ الأزقةُ عن جوابْ.
في الليلِ
عُدْ، فالفتاةُ الآن في المقهى، وقد يأتي سواكْ
في منتصف الليلِ
كي يطلبَ الثقّابَ منها،
هنا فارقَ عبدُ اللّه أسوارَهْ
تلك أغنيةُ اليتامى
جوادُه النجمُ، وأغنيتهُ شارةْ
تمّتْ... ومُنشِدُها تململَ... ثم قاما

* * *

نائمةٌ أنتِ. وفي شعَركِ نوّارةْ

غرناطة، تموز ١٩٦٥

الوجوه والأقنعة

رحلتي في الشرابْ
رحلتي في الصحارى
رحلتي في سماء القبابْ
حيث في كل نجمٍ شِهابْ
حيث نأبى المداراً

* * *

بلادي في بحار الشمس، فوق جبينها الوضّاءِ تستبقُ العصورُ، ويُزهر الأملُ الربيعي الذي غنّتهُ أرضٌ كلُّ ما فيها اجتراحُ الأبعدِ الأبعدْ. . .

* * *

بلادي لستُ أعرفُها
ولست أرى لها وجها
تقرّيتُ الصخورَ لعلّها. . . ولعلْها تتمخّضُ الوجها
ونثّرتُ العيون كأنني في قلبِ رمّانةْ
أفتّشُ عن شموسٍ رحلتي فيها
وأرقبُ نبعةً أو برعماً في رسمِ ريحانةْ
فأين غناؤها الأزرقْ؟

وأين الظلُّ والبيرقْ؟
وأين هي العواصمُ؟ أين، أين، الفأسُ والمبدأْ

* * *

رحلتي في مدينةْ
رحلتي في دمِ الكهرباءْ
رحلتي في النقاءْ
حيث في كل نجمٍ مدينةْ
حيث أرضي سماءْ

* * *

ألستِ ترينَ ما تَهَبُ الحدائقُ للمدينةِ؟
إن عينيكِ التماعُ الغابِ
في الأرضِ التي كانت صحارى. . .
أن كفّيكِ انسيابُ الماءِ ضوءاً في القرى. . .
فلْنسهرِ الليلةْ. . .
شوارعنا من الحجرِ
شوارعنا من القارِ
شوارعنا بلا شجرِ
شوارعنا بلا مطرِ
يغني فوقها الذبّانُ والشرطيُّ والسارقْ
وتُقتل في المقاهي خطوةُ البشرِ
في باراتها الملتفة الشجرِ

يسيل القيءُ. أفيونُ أمِ كلثومِ
وفي صمتِ القرى تَنعابةُ البومِ

* * *

رحلتي في الفراتْ
رحلتي في احتراقي
رحلتي في العراقِ
حيث في كل شبرٍ سماتي
حيث ظلي ضياءْ

* * *

تناديني المنائرُ، وهي تنبت من بعيدٍ، مثل غاباتِ
النخيلِ المثقلِ الأعذاقِ بالذهبِ،
ويتبعني العراقُ خطاهُ من ماءٍ ومن لهبِ،
تُناديني الأخوّةُ، والصِّبا ومنازلٌ ولدتْ بها كتبي

* * *

ـ عام ١٢٥٨م ـ سقوط بغداد

على الموتى، وأنصاف المنائرِ، يهبط الليلُ المغوليُّ
وترتفع الحرائقُ، طعمُها كتبُ
ويمسي الحبر واللهبُ
طعامي. . .
إنه الليلُ المغوليُّ

أغنية للرياح الخمس

تأتينَ عبرَ الصخرِ والأسفلتِ يا ريحَ البحارِ
مطويةَ الأهدابِ، غامضةَ القرارِ
ماذا تبقْى منكِ يا ريحَ البحارِ؟
أوَتَدْفعين إليَّ، واهنةً، سفينةْ
ورقيةً صفراءَ ترسو عند مقهىً في المدينةْ؟
ماذا تبقّى منكِ؟
إن الميتين على الصواري
لا يَسألون، وأننا ـ الأحياءَ ـ نذبلُ موثقينَ على جدارِ
يا ما سألتُكِ أنتِ، يا ما دُرتُ أعمى في إخضراري
أتلمّسُ المرسى، أشمُّ الرملَ، أحلم بالسفينةْ
حتى كأني أحرث الأمواجَ، أزرعُها انتظاري
وكأنّ (داري غير داري)
يا ما سألتُكِ، غير أني اليوم أحتقر السؤالا
هبّي جنوباً أو شمالاً
هبّي وكوني لي سفائن أو صِلالا
اليومَ حسْبي أن أراكِ

مبتلةَ الأهدابِ، ساذجةَ الشِباكِ
اليومَ حسْبي أن أراكِ

* * *

الريحُ في الصحراء رملٌ في المياهِ
وعلى وجوه النسوةِ المترقباتِ وفي المقاهي
أهدأْ. . . فإن الساعةَ العشرينَ أدركتِ المزارا
الريحُ في الصحراءِ، والنجمُ المخمَّسُ في الجباهِ
يا ريحُ، يا صحراءُ، مَن ألقى بنا عبر الصحارى؟
من غلّقَ الأبوابَ دونَ جناحِ طائرْ؟
دون ارتعاشةِ زهرةٍ، وحروفِ شاعرْ
من قال للأطفال عبر متاهنا: موتوا انتظارا
المدفعُ الرشّاشُ زهرتُنا، وجنّتُنا المقابرْ

* * *

كالثلجِ أنتِ، كأنما تذْرينَ في وجهي نثيرهْ
فتّحتُ نافذةً لأجلكِ يا مغنّيتي الأميرةْ
قد كنتُ أحلم بالزيارةْ
وازيحُ شيئاً بعد شيءٍ عن بساتيني الستارةْ
وأزخرف الجدرانَ أسراراً صغيرةْ
نبعاً، صنوبرةً، طريقاً ضائعاً، شفةً أسيرةْ
وشجرةً كالزيزفون، وأرنباً يُخفي صغارهْ
لِم جئتني يا ريحُ؟ خلي الوهمَ يغرقني طويلا

خليه يغمض مقلتيَّ، ويلثم الهدبَ الخضيلا
ماذا يخبّرني غناؤكِ أنتِ يا ريحَ الجبالِ؟
لا شيء إلا الموتُ يقتحمُ الممرَّ إلى اللآلي
والثلج، النبعِ المرقرقِ، والصنوبرْ
وجنينةِ التفاحِ، والجبنِ المدوّرْ
لا شيءَ إلاّ الموتُ يا ريحَ الشمالِ
وتغيبُ عني جنةٌ أخرى، وترتعشُ الستارةْ

* * *

في «الفاوِ» تنهمر الشِباكُ
وتَساقَطُ الأسماكُ، والحنّاءُ تكنزُ للنساءْ
لونَ الشروقِ، وليلةَ الحنّاءِ، والكوخَ المضاءْ
ريحُ الجنوبِ تهبُّ مثقلةً، وأنتَ هناك مثقَلْ
لا نهرَ يقتسمُ المدينةَ في الدجى، لا صمْتَ جدولْ
والنخلُ؟
إن النخلَ في وهرانَ ليس كما عرفتَهْ
غاباً من السعَفِ الشَّحوبِ تعمّقُ الأنهارُ صمتَهْ
النخلُ في وهرانَ ـ كالأسدينِ ـ يمشي في الظلالِ
متمهلاً، يدنو من الباراتِ مغلقةً، وأبوابِ المنازلْ
والبحرِ والساحاتِ. . . ثم يعود يقبعُ من ملاكِ
ريحُ الجنوبِ تهبُّ. . . يا ريحَ الجنوبِ:
لو مرةً قطّرتُ شيئاً من رطوبتكِ الثقيلةِ ملءَ كوبي

* * *

الريحُ من بغدادَ، طعمُ الريحِ في شفتيّ، طعمُ الريحِ طينُ
يا أيها الغصنُ الحزينُ
يا أيها الملقى على أرضٍ ـ وإن قَرُبَتْ ـ غريبةْ
لكأنَّ طعمَ اللَّه طينُ
وكأنّ كلَّ الأرضِ ـ إلاّ أرضَ بغدادٍ ـ غريبةْ

الجزائر، ١٩٦٥

استطراد

«إلى محمود البريكان»

أأخطأتُ الطريقَ؟ فلم أجدْ بيتي
وراءَ قناطرِ النخلِ الشتائيةْ. . .
وأخطأتُ الطريقَ، فلم أجدْ صوتي
يهزُّ محرري الصحفِ المسائيةْ
وأخطأتُ الطريقَ، فلم أجد موتي
جداراً في احتقانِ الفجرِ ينزفُ جثةً مكشوفةَ العينين مرميةْ؟

* * *

نخلةٌ لم تصل إلى سعفها الريحُ، ووجهٌ على الزجاج جريحُ
أين أمي؟
ويسقط الوردُ ظلاً قاتماً فوق جبهتي. . .
أين أمي؟
ثم ترمي أوراقيَ الريحُ للريحِ. . . ويبقى وجهٌ وظلٌ وريحُ

* * *

ـ يا سيدي، سيدتي، آنسةْ
ما جئتُ عند الساعة الخامسةْ

ـ آسف ـ فالصفُّ كما تعلمونْ

يحتاج في الصرفِ دروساً، ولكنْ... آهِ... إن الساعةَ الخامسة والربع، لا بأسَ... سأحكي عن «الكامل» لا بأسَ:

كما تعلمونْ

كما علمتم، هو بحرٌ، إلخ.... إنما الـ...

* * *

يحملني النبيذُ

ساريةً، يمنحني ألوانَهُ النبيذُ

يمنحني قرارةَ اللمسِ

يمنحني حرارةَ الأمسِ

يجعلُني أعرف أن العالم النبيذُ

* * *

هنا بيني وبين النخل آلافُ الفراسخ، بيننا الصحراءُ والبحرُ

وبين البحرِ والصحراءِ آلافُ الفراسخِ: بيننا القبرُ

وبيتي في جذور النخل كان ستارةً خضراءَ مفتوحةْ

تمرّ بها الرياحُ الأربعُ الرطباتُ أرجوحةْ

وكأن الليل فيه يضمّه الفجرُ

ويسقي وردَهُ الشوكيَّ إمّا يبخلِ النهرُ

وكانت بابُه للشمس مفتوحةْ

* * *

فكيف أُغلّقُ الأبوابَ، والأصواتُ تأتيني

أكفّاً لا تُرى، مائيةَ اللينِ

تحشرجُ، ثم تعلو، ثم تعلو، ثم تلقيني
على طين الجذور ونبعةِ الوردِ
وتشربني وتسقيني
فأسمعُ سرَّها وحدي
وأبصرُ في مراياها
طريقاً لم تفارقه الخطى، ألقي عليه خطوتي البيضاءَ. . . ألقاها تشقُّ
على الطريق خطوطَ مسراها
. . . . . .
أسيرُ مع الجميعِ، وخطوتي وحدي

الجزائر، ٧/ ٤/ ١٩٦٧

بعد

قد لا نرى الغابةْ
إذ نلمسُ الأشجارْ
قد لا نرى الأشجارْ
إذ نلمحُ الغابةْ.
لكنّ بين الغصن والغابةْ
لكنّ بين الماءِ والتيّارْ
ما يجمعُ المبدأَ والمنتهى
ما يجمع الأشعارَ والأشجارْ
نعاس ١ : صوتُ أختي يجيءُ
غائماً غامضاً
صوتُ أختي يضيءُ
أيهذا المسافرْ
أيهذا المقيمُ المسافرْ
أيهذا البريءُ. . .
. . . . . .
صوتُ أختي يجيءُ
نعاس ٢ : لا أحبُّ السهولَ التي تصمتُ

لا أحبُّ التلالْ
إنني للجبال التي تصمدُ
سطور: قد لمستُ الشجيراتِ، أحسستُ بالنُسْغِ فيها
قد عرفتُ الشحوبَ الذي يعتريها
وانتظرتُ الجفافْ
والربيعَ الرفيها
غير أن الشجيراتِ ظلّتْ وَريقةْ
سِرّها نسغُها
وجهُها نسغُها
يا غصونَ الصنوبرِ، طَلْعَ الجذورِ العريقةْ
أين من يُدرك المستقى؟
أين من يدرك المستقى لا الشبيها؟
أين من يعرفُ؟

الجزائر، ٤/٤/١٩٦٨

الجسور الثلاثة

تجري وحيداً، مثقلاً بالطحلبِ المزرقِّ، منسيّا، وئيدا
تتلامع الأمواجُ فيكْ
وتَساقَط الصفتانِ فيكْ
في صمتكَ المهجورِ، تحملُها مع الأعشابِ، تحملُها بعيدا
ليظلَّ حضنُكَ، عارياً، نديانَ، تُثقله الهدايا
خضراءَ مثلَ الماءِ، داكنةَ المرايا:
غصناً، وقبّعةً، وقطاً ميّتاً، وحذاءَ طفلِ
وغشاءَ منعِ الحملِ. . .
تضفرُ حولَها الأعشابُ أشرطةَ الهدايا
ولأَنتَ، يا مترفِّقَ الخطواتِ، تحملُها، لتوْدعها انحناءً في انحنائكْ
حتى إذا ما مرّتِ الأيامُ عادتْ بعض مائِكْ
تتلامع الأمواجُ فيهْ
وتَساقَطُ الضفتانِ فيهْ
وتعودُ تحمل مرةً أخرى: الهدايا والمرايا

الجسر الأول

خبّأتُهم تحتي. . .
وكان الليلُ يأتي بالنجومْ

ويبلُّها في الماء، يغسلُها، ويتركها تعومْ
كان الثلاثةُ يحملون نجومَهم. . . لكنهم لم يغسلوها
في الماءِ. . .
وانتظروا. . .
لقد احسستُ بالعجلاتِ تسحقُ
عظمَ ظهري
كان الثلاثةُ يحتمون بظلِّ صدري
ورأيتُهم يجرونَ. . .
وانفجرَ الحديدُ، وغار ظهري
في الماءِ، وارتمتِ النجومُ عليّ. . .
كان النهرُ يجري
والليلُ يرخي كفَّه الذهبيةَ البيضاءَ فوق حُطامِ صدري

الجسر الثاني

شجيرةٌ مزهرةٌ بالعصافير إليها يعبرُ الجسرُ
أميرةٌ تنصتُ من شرفتها الخضراءْ
تسمعُ همسَ الشمسْ
في خصرها الأخضرِ بوّابةْ
في خصرها الأخضرِ كان النهرُ بوابةْ
أميرتي:
أواه. . . كم يعبدك الجسرُ
يكاد لا يعرف ما النهرُ
ما الماءُ، ما العابرْ

ما السائرُ الزائرْ
يكاد لا يعرف ما الجسرُ

الجسر الثالث

هبني يديكْ
هبني يديكَ الخشنتينِ أحسّ قلبَكَ في ذراعي
هبني يديكْ
دعني أحسّ الريحَ تصرخُ في الشراعِ
هبني يداً للعنفوانِ، ولفتةً لسُرىً مضاعِ
أيامَ كنا نبصر الدنيا على حلم الشعاعِ
لم تلتمع أحداقُنا السوداءُ إلاّ بالعروق على يديكْ
وبخطو من يتقحّمونَ صخورَ أنفسهم إليكْ
واليومَ، نمنحُكَ اليدينِ لعلّنا نجدُ الحديقةْ
أواه، لو أعطيتَني يَدَكَ الجريحْ
يا أيها الجسرُ ـ الضريحْ
فعيونُنا الدكناءُ مثقلةٌ، وصاريتي العتيقةْ
ربانُها أعمى . . .
ولكنّ الحديقةَ ما تزال هي الحديقةْ
أزهارُها الحمراءُ لم تعرفُ مناديلَ الوداعِ
يا موعداً عبرَ الضياعِ
هبني يديكَ الخشنتينِ أحسّ قلبَكَ في ذراعي

الجزائر، ١/ ٤/ ١٩٦٥

ثمانية مقاطع

لمغني الأسطواناتِ الرديئةْ
قد تركتُ الياسميناتِ، وخلّفتُ التشنّجْ
إنني أبحثُ في الزهرة عن دنيا خبيئةْ
ربما ضَنَّ بها الجذرُ فما لامستِ الشمسَ الوضيئةْ

❊ ❊ ❊

في قرار البحرِ أسريتُ، وعن أمواجه الغضبى أشَحْتُ
ألقِطُ الأصدافَ زرقاءَ على ريشِ الطحالبْ
وكما يغمرُها يغمرني في اللجِّ صمتُ
إنه القاعُ. . . فهل للّؤلؤِ المبتلِّ صوتُ؟

❊ ❊ ❊

أمس في حانٍ على الشاطئِ مهجورٍ ثملنا
وتحدثنا، وغنّينا طويلا
غير أنّا حينما فارقنا الحانُ بكينا
كان رملُ الشاطئِ المهجورِ صلباناً علينا

❊ ❊ ❊

مرةً كل ثلاثاءٍ أزورُ المزرعةْ
أتملّى سورَها الأبيضَ والأعشابَ فوقَ السورِ، والغصنَ المندّى

وإلى سبعِ حماماتٍ ستأتي مسرعةْ
أسْلمُ الساعاتِ، والسورَ، وأنسى المزرعةْ

* * *

تخرج من مقهاكَ والريحَ الشتائيةْ
والشجرَ العريانْ
أرصفةُ الشارعِ، كالشارعِ، مطويةْ
أين هو الإنسانْ؟

* * *

أمرُّ بالنهر، وفي مائِهِ
تذوبُ أو تنفصلُ القطرةْ
المنتهى من بعض أسمائِهِ
والمبدأُ الثلجيُّ والثورةْ

* * *

طوالَ ليلِ البعدِ، ظلَّ الشجرْ
يُسقط أوراقَهْ
حتى إذا جاء صباحُ السفرْ
جمّعتُها باقة

* * *

أيتها الأرضُ التي أعبدُ
أيتها الأرضُ
بيني وبين اللّه ما يوجدُ
الطولُ والعرضُ

الجزائر، ١٩٦٦

قصَائد مرئيَّة

(١٩٦٥)

خطوات الصحو

أَهدابُه الأَبنوسُ، تسألُ، تنهلُ الحلمَ المغنّي
في لحظةٍ، في لحظتينِ
تستشرفان منابعَ الشرفاتِ، تنفتحان عني
يا هُدْبُ، لولا برعمُ الأَبنوسِ لاستنكرتُ ظني
هو فِلذةٌ مني، ومحضٌ من يدي وغدي وغصني
يا عالماً في لحظتينِ
إن كنتَ حقاً فلتكن أَبداً، وإلا فاتّركني
دعني أشمّ طراوةَ الأَعشابْ
أُرخي نسيماً منك فوقهمو، أَمدُّ عرائشَ الأَعنابْ
أَرقى من الآهاتِ جُلجُلةً، وأَعصبُ بالنجومِ الزرقِ عيني
يا عالماً في عالمينِ
أَتظل نهراً أحمرَ الأَسماكِ أو بيتاً بعيدا
يخفيه صمتُ النخلِ، يخفي الوردَ والحبَّ الوحيدا
شفةً وهفهفةً وجيدا
ونوافذاً سهرتْ ستائرُها لتسألَ: أين سجني؟
يا عالماً في عالمينِ
أتظلُّ غصناً يمطر الأَهدابَ دمعا

ومرارةً وقذىً وشمعا
حتى كأنّ مدائنَ الريحانِ يشربُها الضبابْ
حتى كأنّ قرارةَ الإيمانِ لم تمنحْك نبعا
وكأن حرفَكَ بين تمتمةِ الشفاهِ ورعشةِ العينينِ أَفعى
وكأن ملحَكَ ملءُ جنفي
يا عالماً في عالمينِ
حيث الخديعةُ والحقيقةُ تزحفان معاً، وحيثُ الفجرُ يشحبْ
والعشب يذوي، والنساء يَلُبْنَ، والتاريخُ متعَبْ
حيث السفائنُ تحمل الدنيا، وحيث البحرُ غيهبْ
إني لأنكر وجهَكَ المستلَّ مني
وعلى ركامِكَ أَركزُ الإصرارَ كوكبْ
وأَشقُّ بالصيحاتِ أذني
يا عالماً، لا عالمينِ
يا عالماً في ضوء نجمةْ
حمراءَ تغسلُ بالنبيذ جبينَ سجني
إني وهبتُكَ كلَّ ما أَرجوه مني:
بيتي، ومكتبتي، وسجني
وعذوبةَ الدنيا على شفة المغني
إني وهبتُكَ يا رسولَ الصحوِ ما يهبُ المناضلْ
سنواتِه النضراتِ:
عمقَ البحرِ، صمتَ البحرِ، عنفَ البحرِ ـ
إني قد وهبتُ لوجهك الأَبدي راياتِ المناضلْ.

١٩٦٣

نوم مضطرب

عشرةُ قضبانٍ على النافذةْ
والليلُ تبكي فيه ريحُ الشمالْ
والنخلُ يبكي،
ويشفُّ الجدارْ
شيئاً فشيئاً،
وتدورُ التلالْ
في آخر الدنيا:
أَنا في العراءْ
رطوبةُ العشبِ ومدُّ الشتاءْ
وشَعرُها المغسولُ هذا المساءْ
على جبيني.
وتدورُ التلالْ
في آخر الدنيا:
أَنا في المطرْ
قميصُها المبتلُّ تحتَ الشموعْ
يحسّ طعمَ المطرْ
دفءَ محطاتٍ وبُقيا دموع

وهدبُها السهرانُ حتى الخَدَرْ
سفينةٌ تجهل ليلَ الرجوعْ
والريحُ تعلو،
وتدورُ التلالْ
في آخر الدنيا:
كأنّ المياهْ
تعلو وتعلو، وكأنّ الجباهْ
تُعانقُ النجمَ، كأنّ الشجرْ
أَشرعةٌ تلمسُ وجهَ القمرْ
والروحَ والريحَ ذراعا الحياهْ

*

عشرةُ قضبانٍ على النافذةْ
عشرةُ أَغصانٍ على النافذةْ.

١٩٦٢

نعاس

في جرحِ صمتي لا تهبّ الريحُ، لا تبكي الصحارى
والفصنُ لا يذوي،
وتبقى مقلتاكِ غنىً ودارا
والعالمُ الأَرضيُّ، ملقىً، مثقلُ الخطواتِ، صامتْ
كالبحرِ أمنحُه انتظارا
كالبحر يمنحني محارا
لكنه شيءٌ سواي
شيءٌ يضيعُ الملحُ فيه، كما يضيع الحلمُ فيَّ ـ
بطاقتان بلا بريدْ
كتبتْهما كفٌّ على كهفٍ لتخترقا البحارا
والفكرَ والآزالَ والموتى وتخترقا الصحارى
لتخبِّراني في حديقةِ منزلي عن ورودةٍ سكنتْ بُخارى
ولتبنيا لي في الصحارى القهر دارا
قصراً على شرفاتهِ السبعين تنهارُ الكواكبْ
وعلى مدارجِه الفساحِ تعومُ أشواكُ العقاربْ
يأوي إليه البومُ والحيّاتُ والرجلُ الذي يهوى بخارى

*

في جرح صمتي، أنتِ، ترتجفين،
وجهُكِ كالنجومِ ـ الرملِ شاحبْ
وبجيدكِ البلّورِ وشمٌ من شفاهي
وجبينُكِ المتوجسُ المقرورُ تلسعُه الكواكبْ
يا جنةً في بيتيَ الورقيّ ناضبةَ المياهِ
ماذا تحدثني النجومُ ووجهُكِ الوضّاءُ شاحبْ؟
في جُرحِ صمتي، مرةً أخرى، تهبّ الريحُ، تنتحب الصحارى
والغصنُ يذوي، والبحار تلوبُ زرقاءَ الصحارى
ووراءَ قصرِ التيهِ تبكي مقلتاكِ غنىً ودارا
حتى كأنّ العالمَ الأَرضيَّ ينتحر انتحارا
وكأنني وحدي أموتْ.

*

لا توقظيني...
قبليني قبلةً أخرى...
ونامي

١٩٦٣

مرثية الألوية الأربعة عشر

أتيهُ الليلَ في ساحاتِ بيروتٍ، كأني من دُوارِ البحر مُلقى، تُغمَضُ العينان في صمتي على الحلم الذي ينبع أشجاراً وماءً في دروبِ النخلِ، حيثُ الخضرةُ الزرقاءُ كالماءِ، وحيثُ الماءُ كالزرقةِ مخضرّاً، وحيثُ البيتُ أعرفهُ، وأعرفُ في شفيفِ الليلِ نافذةً تضيءُ الياسمينَ على مساءٍ تستظلّ به الكواكبُ، أيها النهرُ الذي يحملني سأمانَ حتى آخرِ الدنيا، لمن أضرعُ في ساحاتِ بيروتٍ. . . لمن أضرعْ؟

ومن يمنحُني بين ارتعاشاتِ الذرى غرفةْ
ومن يغرزُ في ثلجِ الأَسى الشرفةْ
ومن يُرخي على عينيّ أهدابي
ومن يلمسُ في أغنيةٍ بابي
ومن أسألهُ زيتونةً أو جبنةً بيضاءْ
إذا ما غاضَ في الساحاتِ ينبوعي
وبلّغني الترام محطةَ الجوعِ
رصيفاً من مجاري الوحلِ عبر حدائقٍ سوداءْ؟

*

شربتُ الماءَ أسودَ في ظلالِ التوتِ، لامستُ التماعَ الطحلبِ النهريِّ والأَسماكِ، حدّقتُ به عشرينَ عاماً، يا مياهاً لم أجدْ وجهي عليها،

آهِ يا أعوامَكَ العشرينَ، يا متسولاً في الطائراتِ صنوبرَ القضبانِ والجرحى، ويا متوسلاً بالناشرينَ وبالنساءِ، تبيعُ من لا يشتري جرحاً، وتمضي في ضبابِ الليلِ والسيكارِ تصرخُ: أيها القتلى أفيقوا... أيها القتلى أفيقوا...

أيها القتلى... أفيـ... فلتنطمرْ أعوامُكَ العشرونَ، ولتخرسْ.

فلستَ الخِضرَ في بيروتَ، والأمواهُ فيها ليستِ العينا

ولستَ الناصريَّ: اللَّه والغصنا

وما «قصر النهاية» قبرَ سلمانَ بنِ داودِ

مزاراً يمطرُ الأَطفالَ والعشاقَ والأَزهارَ من قبعةٍ خضراءْ

بلى، من قبرنا الطامي على الظلماء

بُعثنا أعظماً لمّا تزل حمراءْ

تناهشتِ الذئابُ لحومَها مهروسةً هرسا

لتعوي مثلما يعويّ قطارُ الموتِ في الصحراءْ

يجرّ محارقَ الفولاذِ، يطوي الشاحناتِ الرمسَ فالرمسا

وتعوي خلفه الذوْبانُ في الأَوحالِ والباراتِ والدودِ

وتنبشُ في الدجى قبراً لسلمانَ بنِ داودِ

* * *

شوكان إسما؟ كانت صغيري

وماتت... البيموت ما له اسم.

«الأخبار»، ٢٣/ ٢/ ١٩٦٤

الاستخبارات البريطانية كانت تنوي.

«النداء»، شباط ١٩٦٤

كالوها بالأَمثال: كلمن ضميره
يا عيوني... كلمن ضميره
«أغنية غير شائعة»

*

وراءَ الرملِ والأَسلاكِ، أوقدْنا مصابيحَ الدجى صفينِ من عبّادِ شمسٍ أورقتْ سيقانُه بِيضاً ملائكةً، وكان الليلُ يردي «نقرةَ السلمانِ» في المهواةِ، يلقي فوقها سقفاً رمادياً وشمعاً، نجمُهُ القطبيُّ يهدي الهاربين، بلادَنا، يا صارياً بالنجم
والأَوحالِ زخرفناهُ، هشّمناهُ، لَم نعرفْ له اسما، ولم نحفره فوق جباهنا وشما، ولم نمنحْه إلا حبّنا الوحشيَّ، ترتجُّ البنادقُ كلما قلنا: سلاماً أيها الآتون، يا زهراً بغيرِ الرملِ لم يُغسلْ...
ويا باباً نحاسياً طرقناهُ
وسمّرنا ملايين العيون على محيّاهُ
وبالقبضاتِ مثقلةً سقيناهُ
دماً، حتى إذا ما أنّتِ الأَبوابُ واهتزَّتْ تركناهُ
لنبكي في الصنوبر جنّةً صغرى
وجثّةَ عاملٍ مزرقَّةً مرميةً في العشبِ عندَ الضفةِ الأخرى
وشيئاً في قرارتنا أَضعناهُ
لنسألَ عبر ثرثرةِ النساءِ، وتبغنا المسودِّ، والذكرى
وتهويم النبيذِ المرِّ، والصالونِ، والمقهى ـ
لنسألَ: كيف كُنّاهُ!

بيروت، ٣/٦/١٩٦٤

لمحات جزائرية

مقهىً على البحرِ،
وأَغصانٌ على المقهى
تُوشوشُ الموائدَ الفارغةَ الخمسَ
سدىً.
سيدةٌ تبكي
وحيدةً
في الغسقِ الصيفيِّ
والبحرِ الذي ينصتُ
والمقهى.

*

فوق قميص العاملِ الأزرقْ
فوق عيونِ الطفلِ والراقصِ والبحّارْ
فوق البيوتِ البيضِ والساحةِ والأَزهارْ
والدمعِ والفرحةِ والخندقْ
ساريةٌ تخفقُ عبرَ الرحيِ والمرمرْ
في الأفقِ الأَخضرْ

في الأفقِ الأَبيضْ
في الأفقِ الأَحمرْ

*

صنوبراتُ التلّ تعطي القمرَ النعسانْ
نافذةً زجاجُها أَغصانْ
وشرفةً يلمحُ منها المرفأَ الغائمْ
يمنحُه بحراً سماويّا
ونورساً يهبط في بستانِه النائمْ
شيئاً فشيئاً،
دون أَن تتبعَهُ عينانْ

* * *

بعد قليلٍ تولَدُ الساحةْ
تتركها باصاتُ نصفِ الليلِ أَحجاراً وأَشجارا
تتركها واحةْ
بعد قليل تسمعُ الساحةْ
آخرَ ما يهمسُه العشاقْ
أَولَ ما يقوله الحارسُ والأَفّاقْ
بعد قليلٍ تسمعُ الساحةُ أَشعارا.

الجزائر العاصمة، ٢١/ ٧/ ١٩٦٤

انطباعات عن أغنية
في قطار الساعة ١٨

الأغنية

رُدّي البسمةْ
تتلألأُ في عيني نجمةْ
ردي
ما أَطولَ أَيامَ البعدِ
وقطارَ الليلِ، قطارَ الليلِ، قطارَ الـــ. . . يـ. . .
ردي، يا أَصفى من دمعةْ
ردي، يا لوعةُ، يا لوعةْ
يا أمي، الفارسُ في القيدِ
وليالي البعدِ بلا شمعةْ
وقطارُ الليلِ، قطارُ الليلِ، قطارُ اللـ. . يـ. . .
عرباتٌ مثقلةُ العتمةْ
ورمادٌ في نجمةْ
وسيورٌ في الأَيدي. . .
يا أمي، يا أمي، ردي
ردي، ردي، ردي، ردي
ردي
ما أطول أَيامَ البعدِ
وقطارَ الليلِ، قطارَ الليلِ، قطارَ الليلِ، قطارَ اللـ. . . يـ. . .

الانطباعات ـ ١ ـ انطباع المسافر ذي الكفية والعقال:

على عيني، سمعنا، لكن الدنيا
تدور اليوم، أسرع من قطار الليل
وأمك، أَنت، عيني. . . يا مغني الليل
تراها ما تهاب البعد. . .
والدنيا ـ
كواكب، لو نناديها نضوِّي الليل

٢ ـ انطباع الشرطي:

نعسنا، ما سمعنا غير: يا أمي!

٣ ـ انطباع المغني نفسه:

ربما أحزنتكم، لكنّ حزني
نبعةٌ تُزهر في صوتِ المغني
ويدٌ تحملني، تسْلمني
لينابيعَ شفيفاتٍ وغصنِ
كلما هدهدتُ من غلوائها
وتناءيتُ. . . رأَيتُ النبعَ مني
ربما أَحزنتُكم، لكنني
لم أَقلْ، لقد كنتُ المغني!

٤ ـ انطباع سعدي يوسف:

للمرة العشرين، أَحملُ عبءَ أغنيةٍ صغيرةْ
حاولتُ أَلاّ أَرتدي فيها ثيابكمو الأَميرةْ
حاولتُ أن أحكي، وأَن أَبكي، كما شئتُ
حاولتُ أَن تتناهشَ العجلاتُ عِقداً خَيْطُهُ «البيتُ»
أَن أُلبسَ الصحفيَّ سروالاً وقبعةً وأكماماً قصيرةْ

٥ ـ انطباع مرتب الحروف:

حرفٌ أَسود!
حرفٌ أَبيض!
بولْدْ ١٠!
لو تُرفَضُ هذي «الأَشعارُ» الحرةْ
لو أَفهمها مرةْ
لو أَقرؤها مرةْ!
ـ محمودُ، كم الساعةْ.

أغنية أخرى كتبت خصيصاً لمرتب الحروف

نيسانُ، أَغصانٌ من الريحانِ، يا نخلَ «السماوةْ»
لكنْ هذا الليلَ يسقيكَ الظلامَ، فلا نراكْ
إلا مرايا داكناتٍ تحتَ هدهدةِ النجومْ
لكننا سنراكَ يا نخلَ «السماوةْ»
يا مزهراً بالطّلعِ والعصفورِ، يا جسراً سماوياً ـ

تنامُ على قناطرهِ الكرومْ.
اليومَ نمضي:
لا وداعَ،
ولن نقولَ:
إلى اللقاءْ!
فالليلُ يخسرُ ساعةً أخرى.
لقد غرِقَ المساءْ
في لُجّةِ الطينيّ.
إنَّ البطَّ عبر الضفّةِ الأخرى يعومْ
والفجرُ يبني عشَهُ القاني،
وتبتردُ النجومْ.

الجزائر العاصمة، ١٧/ ٧/ ١٩٦٤

الشخص الثاني

«إلى لورنس دريل»

في المطعمِ الشتويِّ، أصغيتُ إلى سعلته الأولى
راقبتُه يمسحُ بالمنديلِ كفّيهِ
ويكتمُ الضحكةَ في إغماضِ عينيهِ
راقبتُه، يلحظني للمرةِ الأُولى
يسخرُ مني. . .
دونَ أن يُسمعني حرفا
أو يوقظَ الصمتَ الذي أَغفى.
كان زجاجُ المطعمِ الشتويِّ مبلولا
وفجأةً. . .
غادَرَهُ، بالمعطفِ الباهتِ ملتفّا

*

وفي المحطاتِ، تقابلْنا، شربنا الشايَ والنعناعْ
لم نتحدثْ، كانت الأَمداءُ تمضي، ساعةً ساعةْ
وكان يبدو مثقلاً من جلستي، مرتاعْ
من وجهيَ الهادئِ ـ في «تليلاتْ»
كادَ يناديني. . . ولكن جاءتِ الصيحةْ ـ

وهكذا عادَ إلى عالمهِ الباحثِ عن معنى
يرقبني، كاللصِّ، من زاويةٍ في عينهِ اليمنى
ومرةً أخرى، افترقنا. . .
لم نقلْ: «صَحّةْ»

*

وأمسِ، في غرفتيَ المغلقةِ الشبّاكْ
كنتُ أغنّي، باسماً، للمطرِ الناعمْ
والريحِ، والوردِ الذي لمّا يزلْ نائمْ
وبغتةً. . .
أَحسستُ بالرجفةِ في الشبّاكْ:
أَهْيَ أكُفّ الريحِ تدعوني؟
تزورُني؟
أم غصنُ ليمونِ
يريد أن يدخلَ خوفَ الريحِ؟
أم أغنيةٌ للمطرِ الناعمْ
تحملُ لي من آخرِ الدنيا عبيرَ الوطنِ الغائمْ؟

*

لكنني أبصرتُ عينيهِ
عبرَ الزجاجِ الرطبِ، مبتلّتينْ
أبصرتُ في عينيهِ أغنيتينْ.

سيدي بلعباس، ٢٥/ ١٠/ ١٩٦٤

محاولة

أما زلتَ، لم تعبرْ إليها ولم تر الشقائقَ
في الوادي، ولم تلمحِ النجمَ الخريفيِّ أجراساً
من الماءِ أيها المسافرُ: لا تعجلْ، حقيبتُها الأُخرى
على الشاطئ الثاني
محارٌ وغصنانِ
ومنديلُها المملوءُ ملحاً وأحرفاً
يصيرُ قميصاً واشتهاءً ومعطفا
ونبعاتِ ريحانِ
يدورُ بنا شوقٌ إلى الليلِ لا نرى الوسائدَ
إلاّ لمحةً كانتباهةِ السكارى ولِيناً وارتجافاً،
نوافذُ العبيرِ شممناها، وذُقنا زهورَها
فيا شعرَها الغافي
ويا ثوبَها الضافي
ويا شرفةً بين النخيل وحيدةً
وأغنيةً مخبوءةً. . . وقصيدةً
ويا وجهَها الصافي
أظلُّ أجوعُ الليلَ، لا الحلمُ واهبُ العطاءِ،

ولا الريحُ التي تُمطر الحزنَ الجليديَّ، آهٍ
لو أنامُ، بهدبيَ ارتعاشٌ، وفي عيني تنامين، في عيني
ذهولٌ، ولا رؤيا
ورؤيا، ولا لُقيا
ومن متعبٍ في آخرِ الليلِ عابرِ
تهامسَ شبّاكي، وأنَّتْ ستائري
. . وأمطرتِ الدنيا

سيدي بلعباس، ٥ ـ ١١ ـ ١٩٦٤

أبراج في قلعة سكر «برنامج تلفزيوني»

الزمان: العقد الأول من القرن العشرين.

المكان: ناحية قلعة سكر في العراق العثماني.

الشخصيات

السندباد

سلمان

جابر المسعود

ابن عم الشيخ

الجوقة

فلاحون

*

يحتوي البرنامج على ثلاثة مناظر

*

الافتتاح

السندباد «من شاشة التلفزيون»:

يؤسفني أن أخبرَ المشاهدينَ أَن برنامجنا عن «رحلتي السابعةِ» العرجاءِ، قد أُجِّلَ... إني لستُ بالآسفِ جداً، فأنا متعبٌ.

أُريد أَيضاً أن أنبهَ المشاهداتِ ـ ممن لسنَ في الفراشِ حتى الآن! ـ أَن ينمنَ، أو يمرضْنَ، حتى تهتفَ الساعةُ من محطتي عشراً، ويسترخي الضحى والدفءُ... عفواً، وأريدُ أَن أَقولَ إنني سأصلحُ الأَخشابَ في سفينتي العجوزِ ـ ها، ها... فلقد تحطمتْ في ساحلِ الغرّافِ ـ في العراقِ، عند قلعةٍ صغيرةٍ، والحقُ أَني لم أَجدْها قلعةً، حتى ولم ألمحْ بها قصراً... ولا أدري لماذا سُمّيتْ «قلعةْ»!

«يختفي»

ـ فاصل من صور وموسيقى ريفية ـ

المذيع:

سيداتي، سادتي، سوف تشا...

السندباد

«يظهر فجأة ليسكت المذيع بإشارة حاذقة»:

سادتي! لو توقظونَ السيداتِ الآن! لو تتركونَ الورقَ المغشوشَ والوسكي ونهشَ الناسِ والأَخبارَ، لو تصغون لي. . . لو تبصرونَ السندبادَ القادمَ الليلةَ يروي لكمو عن هذه «القلعةِ» أَشياءَ صغيرةْ. . . حسناً. . .

منظر

«القسم الأَعلى من برج طيني، ذي ثلاثةِ مزاغل. ضوء القمر يغمر البرج وما حوله. شجيرة بعيدة. سلمان. فلاح.
الفلاح الثالث يراقب. فوهة البندقية تبدو من خارج المزغل».

سلمان

«مخاطباً الفلاح الثالث»

أَتراهم قادمين؟

الفلاح الثالث

«دون أَن يلتفت»

قد يجيئون إذا غاب القمرْ

الفلاح الثاني

«وهو يثبت عقاله»

كاللصوص؟

سلمان

قد يجيئون إذا غابَ القمرْ
ويجيئون على ضوءِ القمرْ
إنهم ليسوا اللصوصَ الفقراءْ
المساكينَ الحزانى
سارقي الرمانِ والتمرِ ونومِ الخُفراءْ

إنهم ليسوا يخافون القمرْ
إنهم يسطون في الليلِ، وفي شمسِ الظهيرةْ
دون أن تسأَلهم يوماً: لماذا؟
فلهم وحدهمو القولُ. . .
ولكنّا سألناهم: لماذا؟

صوت

«من بعيد»

يا جماعة. . .

الفلاح الثالث

«يعد بندقيته»

من؟

الصوت

صديق. . .

«يسرع سلمان والفلاح الثاني إلى مزغليهما حاملين بندقيتيهما».

سلمان

«صائحاً»

اقترب. . .
من أَنتَ؟

الصوت

«أكثر وضوحاً»

إني. . .

سلمان

«مستغرباً»

آهِ! . . . جابرْ؟

جابرُ المسعودُ. . .

من جاءَ بكَ الليلةَ في ضوءِ القمرْ

مسرعاً من آخرِ القلعةِ. . .

يصطكُّ الحجرْ

تحت مسرى مهرِكَ الأشهبِ. . .

صنجاً وشرزْ؟

الصوت

إنني أَحمل وردةْ؟

سلمان

أيَّ وردةْ؟

الصوت

مكن مضيف «الشيخ» بيضاء، وأَغصانَ مَوَدَّةْ

سلمان

وردةً مسمومةً منه، وأَغصانَ عقاربْ

الصوت

إنني أَحملُ خنجرْ

سلمان

دَعْهُ لي أَغرزُهُ في صدرِ مَن لا يتذكرْ

الصوت

إنني أَحملُ منجلْ

سلمان

دعه لي أَفتحْ به للنجمِ جدولْ

الصوت

إنني أَحملُ ليراتِ ذَهَبْ

سلمان

أَلقِها في الماءِ

يا جابرُ. . .

من يطفئُ أَحداقَ الغضبْ؟

«يختفي البرج»

ـ يظهر السندباد على الشاشة ـ

السندباد

يا سيداتي، سادتي، آتي إليكم مرةً أخرى، لعلّي أوْضحُ الأمرَ: فقد كان هنا شيخٌ، وفلاحونَ، في القلعةِ، أما جابرُ المسعودُ، فهو الرجلُ المولعُ بالخيرِ، لقد أَرسلَهُ الشيخُ ليسترضيَ فلاحيهِ «مقلداً الشيخ»

ـ فليتَّركوا الأَبراجَ، وليسلِّموا البنادقَ السبعينَ، في المسجدِ، ولنقتسمِ الحنطةَ بالعدلِ، كما كُنَّا. . . ـ ولكنّ الذين استلموا الحنطةَ والأَبراجَ والبنادقَ السبعينَ، يخشَون ضياعَ الحنطةِ البيضاءِ والأَبراجِ والبنادقِ السبعينَ، حتى لو أتاهم جابرُ المسعودُ، لكنهمو قالوا أَخيراً إنهم قد يبحثون الأمرَ في منزلهِ، وليحضرِ الشيخُ أو ابنُ عمهِ ـ إن شاءَ ـ أَما القمحُ، والأَبراجُ، والبنادقُ السبعونَ، فلتبقَ بأيدي أهلِها حتى يريهم جابرُ المسعودُ حُكْمَ العدلِ في القلعةْ!

«يختفي»

منظر

«في مضيف جابر المسعود. جابر المسعود جالس في صدر المكان.

قهوة. نمارق ريفية.

ابن عم الشيخ

«وهو يدخل»

سلامٌ عليكم

جابر المسعود

«ينهض»

«يشير بيده نحو مكان إلى يمينه. يجلس ابن عمر الشيخ، فيجلس جابر المسعود. الاثنان يشربان القهوة»

ابن عم الشيخ

أتيتُ بأمر ابنِ عمي...

جابر المسعود

«مبتسماً»

لتسمعَ رأَيا؟

ابن عم الشيخ

لأُبلغَ رأيا...

«يدخل الفلاحون»

سلمان

سلامٌ على جابرِ

الجوقة

سلامٌ، سلامٌ، سلام

سلمان

أَتينا لنسمعَ رأيا

الجوقة

ونُبْلغَ رأيا

سلمان

وننتظرَ العدلَ من جابرِ

الجوقة

سلامٌ، سلامٌ، سلام
جمعْنا المناجلَ في منجلِ
وكلَّ المنابعِ في جدولِ
ولكننا قد ركزنا البنادقْ
على كل برجٍ بيارقْ
على كل برجٍ بيارقْ

سلمان

أجلْ، وأَتيناكَ يا جابرُ
لتجبرَ ما كسر العاثرُ
لكَ القولُ. . . إنَّا هنا سامعونْ

لكَ الرأيُ. . . إنَّا هنا طائعونْ

«همسة من الجوقة»

جابر المسعود

«ملتفتاً ناحية ابن عم الشيخ، ثم مخاطباً سلمان»

سأحكمُ بالعدلِ. . . لكنني

أَرى العدلَ أَمسى لئيما

أَقول بما قاله الأَوَّلون

وأُفتي بما كان حقاً صميما

أنا الوارثُ الفردُ، مَرَّ الزمانُ

وحُمِّلْتُهُ أَبديّاً أَليما

رضيتُ به مكرهاً طائعاً

ومن دانَ للحكمِ كان الحكيما

الجوقة

تحت الصفصافةِ نادَينا

وجمعنا السنبلَ وارتحنا

قلنا للبلبل ما قلنا

وسألْنا النهرَ وغنَّينا:

يا قعلةُ. . . يا بابَ الدنيا

النهرُ تحوَّلَ مجراهُ

النهرُ تحوَّلَ مجراهْ

جابر المسعود

«مُطْرِقاً»

أَعيدوا البنادقْ. . .

الجوقة

لمن؟

جابر المسعود

أَعيدوا السنابلْ. . .

الجوقة

لمن؟

جابر المسعود

وكلَّ المزاغلْ. . .

الجوقة

لمن؟

سلمان

«يخطو خطوتين مبتعداً عن الجوقة»

لقد نطق الحقُّ. . . إنَّا هنا

لنسمعَ ما ينطقُ العادلونْ

الجوقة

النهرُ تحوّل مجراهُ

النهرُ تحوُّل مجراهُ

سلمان

لقد حكمَ العادلونْ

الجوقة

لمن؟

«تخرج جوقة الفلاحين تاركةً سلمان في المضيف»

«من الخارج تُسمع أصوات تتضخم تدريجياً:

النهر تحوَّل مجراهُ

النهرُ تحوَّلَ مجراهُ

النهر تحوَّلَ مجراهُ

. . . . . .

. . . . . .

«يختفي المنظر»

منظر

«البرج ذو المزاغل الثلاثة التي تطل منها فوهات البنادق، الفجر ما زال في أَوله»

الفلاح الأَوَّل

لقد باعنا جابرُ

الفلاح الثاني

ولكننا لا نُباع

الفلاح الثالث

لقد باع سلمانُ نفسَه

«أَصوات طلقات بعيدة»

الفلاح الأوَّل

أَلا تلمسُ الريحَ؟

الفلاح الثاني

ماذا؟

الفلاح الثالث

أحسُّ كأن الرياحْ

تنادي

تقول. . .

أَحسُّ كأني أصليّ

«صوت هبوب الريح»

الفلاح الأَوَّل

سيأتون بعد قليلٍ

الفلاح الثاني

ليأتوا. . .

الفلاح الثالث

ليأتوا. . . فأيدي الرجالْ

بنادقْ

وأيدي الرجالْ

بيارقْ

«أَصوات الطلقات تقترب»

«بينما يتعالى النشيد»:

في الفجرِ المفتوحْ سِرْنا

للأفقِ المفتوحْ سِرْنا

شجراتُ الرمانْ

حمراءُ الأَغصانْ

في الفجرِ المفتوحْ سِرْنا

للأُفقِ المفتوح سِرْنا

يا أبراجَ الدنيا

نحيا نحيا نحيا

في الفجرِ المفتوحْ

في الأُفقِ المفتوحْ سرْنا
سرْنا
سرْنا.

سيدي بلعباس، ٢/ ١٢/ ١٩٦٤

ساحة إسبانية

«ما أكثر السفنْ
في مالقا. . .
وما أَشد البرد في الساحة!» لوركا

*

رائحةُ القيثارِ في الساحةْ
والتَبغُ والسوّاحُ في المقهى. . .
ـ لقد كنا هنا أَمسِ
رقصتُ حتى مُزّقَ الجوربُ، حتى مُزقتْ نفسي
. . . . . .
وتختفي ضحكتُها مبحوحةَ الجرْسِ
وثوبُها يشحبُ في منعطَفِ الساحةْ

*

تركتُ في البحر مفاتيحي
أَسلمتُها للَّيلِ والريحِ
حتى إذا غُلِّقت الأَبوابُ دوني. . .
جئتُ للساحةْ

*

يا غجرَ الحاناتِ: من يفتحُ لي الحانةْ؟
الفارسُ الليليُّ من ينفضُ أَردانَهْ
ينفضُ عن دفءِ البراميلِ ترابَ الصيفِ والعتمةْ
ويقطفُ الزيتونَ خلفَ السرجِ والليمونَ والنجمةْ
يا غجرَ الحاناتِ. . . لم تنفتح الحانةْ
والفارسُ الليليّ في تَطوافِهِ يسألْ
عن بابها الموعودِ، عن بستانها المثقلْ
يتبعه عشرةُ قوادينَ نحو المنزلِ الأَولْ
في شارعٍ لم تكتنزْ ظلماؤهُ حانةْ

*

حين أَزاحَ السندبادُ الثلجَ عن بوابة الحجرةْ
واضطربتْ كفّاهْ
وهو يغنِّي مُوقظاً أقفالَها العشرةْ
واقتحمَ البابَ، وصلّى. . .
لمحتْ عيناهْ
أفعى بلا عينين تلتفُّ على زهرةْ

*

أرصفةَ الميناءِ، يا أرصفةَ الميناءْ
يا أولَ الأَرضِ التي عانقتُ لقياها
يا آخرَ الأَرضِ التي ضيعتُ رؤياها
بحثتُ عنها دون أن ألقى محيَّاها
حتى كأني لم أصافحْ غيرَ أيدي الماءْ

وخمرِها الأَسودِ، والسكيرةِ الشقراءْ
والعازفِ السأمانِ، والراقصِ، والظلماءْ
وعبرَ آلافِ المقاهي كدتُ ألقاها
في نبإٍ عن سجنِ «ألفاريز»
في سجنِ «ألفاريز»
سراً وراءَ الليلِ والساحاتِ والضوضاءْ
والحرسِ الأَهليِّ والشحّاذِ والسائحِ والحذَّاءْ

*

يا أيها السرُّ الذي أودعتُهُ أرصفةَ الميناءْ
قبّعتي طارتْ مع الريحِ ودارتْ زهرةً في الماءْ!

سيدي بلعباس ـ مالقا، ٧/ ١/ ١٩٦٥

مرثية

«في ذكرى بدر شاكر السياب»

جيكور توقد في المساء الرطب فانوساً ولا تلقى ضياءه
ـ مات اليتيمُ، وخَلَّفَ امرأةً وأيتاماً وراءهْ
يا رحمةَ اللَّه التي وَسِعَتْ شقاءَهْ
يا أمَّ مَن لا أمَّ تُغمضُ جفنَهُ: كوني رداءهْ
ولتمنحي الجسدَ المعذّبَ راحةً، والحلقَ قطرةْ
ولتمسحي بالسدر جبهتَهُ، وبالأَعشابِ صدرهْ
هو طفلكِ المصلوبُ فوق سريرهِ عاماً فعاما
متقيحَ الطعناتِ، مشلولاً، مضاما
يا رحمةَ اللَّه التي وسعت شقاءَهْ
قودي خطاهُ إلى السماءِ، فطالما حجبوا سماءهْ
وترفّقي. . . إن الجراحَ تسيلُ من قدميهِ، تنبتُ وردةً في إثْرِ وردةْ
فلترفعيه إلى جذورِ النخلِ حيث ينام وحدَهْ
ولتضفري من سعف نخلته مخدةْ
حتى إذا ما أُغمضَتْ عيناه وانسرحتْ يداهُ
وتهدّل الأَبنوسُ فوق جبينه. . . كوني رؤاهُ.

*

أيوبُ في المستشفياتِ يهيمُ، تسبقه عصاهُ
بين القرى المتهيباتِ خطاهُ والمدنِ الغريبةْ
وهو المسيحُ يجرُّ في المنفى صليبَهْ
أنهارُ جيكورَ التي اندثرتْ تفجّرها عصاهُ
وبيوتُها تنشَقُّ عن لَبَنٍ إذا مرّت يداهُ
عبرَ الجبينِ. . .
وأورقتْ في السرّ أغنيةٌ وآهُ.

. . . . . .

جيكورُ مطفأةٌ كأنَّ الليلَ عانقَ ساكنيها
لا التوتُ في الأَنهارِ يهبطُ، لا السماءُ تشفُّ فيها
والنجمُ والأَسماكُ ما عادتْ حدائقَ للمساءِ
باباً إلى وديان نجدِ
غيلانُ يصعدُ فيه نحوي من ترابِ أبي وجَدّي
فأرى ابتدائي في انتهائي

. . . . . .

أيوبُ، في جيكورَ، ألقى عند قنطرةٍ عصاهُ
وللحظتينِ تماوجتْ في عمقِ عينيه المياهُ
والخضرةُ البيضاءُ، والصفصافُ،
وانطبقتْ على الكنزِ المبدّدِ مقلتاهُ.

*

يا عالمَ المتوحشينَ ذوي البنادقْ

حيثُ الحديثُ عن الورودِ سدىً، وحيثُ النسلُ يُزرعَ في الحدائقْ
ونساؤه يُجهضْنَ في المستشفياتِ، وخلفَ أستارِ الفنادقْ
يا عالماً يَهَبُ الحياةَ لموتِهِ
يَهَبُ المماتَ لصوتِهِ
يا عالمَ المتوحشينَ ذوي الخزائنْ
والجامعاتِ، وجدولِ الإحصاءِ، والفرموثِ، والحرفِ المداهنْ
حيثُ الدواءُ، دمٌ، يُباع ويُشترى، حيثُ المداخنْ
تتنفسُ الآلاتُ فيها
ويحشرجُ الإنسانُ فيها
يا عالمَ المتوحشينَ ذوي الحوافرْ
الصِلِّ واللواطيِّ، والـ. . . ، واللصِّ، والقردِ المقامرْ
حيث الحضارةُ أُوقفتْ سنتينِ حتى ماتَ شاعرْ
. . . . . .
من يشتري جلدَ المسيحِ؟
إنَّا سلخناهُ، فيا دنيا استريحي.

*

يا بيتَ جَدّي في دجى جيكورَ،
يا نخلَ العراقْ
قبري وراء التلِّ يستبقُ القيامةْ
في وحشةِ المنفى الأَخيرِ، وتستظلُّ به حمامةْ.
والبردُ يُرجفني:

عراقُ. . . عراقُ. . . ليس سوى عِراقْ

*

وأنا: العراقُ أو القيامةْ.

الجزائر ـ سيدي بلعباس، ٩/ ١/ ١٩٦٥

(ملحوظة: ضمنت القصيدة خمسة أبيات من شعر بدر، في أماكن متفرقة، مع شيء من التحرير).

النهر

نهرٌ من الأَسماكِ والطّحلبِ المائيّ والخضرةْ
مسراهُ في عينيّ أمواجٌ وفي قبّعتي زهرةْ
نهرٌ من الريحانْ
والوردِ والرمّانْ
يمتدّ حتى بيتها المغلقْ
حتى جذورِ النخل في البستانْ
والقمرِ السهرانِ والأَحزانِ والزّورقْ.

*

يا نهرُ والفضّةُ تطفو على
أمواجِكَ الخضرِ فلا تغرقْ
والفجرُ من سلّته ناثِرٌ
دفئاً وعنقودَ سنىً ندیانْ
كزهرةٍ أَوراقُها مرجانْ
يا نهرُ إن جئتَ إلى بيتها
تغسلُه، تجعلهُ شطآنْ
فاحملْ إليها هذه الزهرةْ
احملْ إليها زهرةَ المرجانْ
لعلّها تنسى بها النسيانْ

ثلاثة أصوات

سفينةٌ في المطرْ
مهجورةٌ عاريةْ
قلوعُها الباليةْ
تشربُ صوتَ المطرْ
لا تسأليني عن دروبِ الملحِ يا خشباً وماءَ
بيني وبين البحرِ أرضٌ لستِ أنتِ لها سماءَ
لا تذكري الشوقَ القديمَ فقد مللناه انتشاءَ
ماذا لديكِ عدا نبيذَكِ والنوارسَ والنساءَ
شفتايَ تنتظرانِ غيرَ صليبِكِ الداجي نداءَ.

*

معاطفٌ في المطرْ
داكنةُ الألوانْ
لكنه عريانْ
يركضُ تحتَ المطرْ.
الشارعُ النهريُّ يحرسُ بالمعاطفِ والقضاهْ
تاريخَهُ، وعلى مخازنه نوافذُ من مياهْ
وظلالُ أشياءٍ مهرّبةٍ ولمحٌ من شذاهْ

يا شارعاً في البصرةِ الزرقاءِ تلمعُ مقلتاهْ
إني هنا عُريانُ مرتجفٌ، فطوبى للحياهْ.

*

عباءةٌ في المطرْ
كقطرةٍ هائلةٍ سوداءْ
تلمعُ تحتَ المطرْ
مطرٌ على القضبانِ تشربه العيونُ خيوطَ حزنِ
وعلى العباءةِ وجهُ فاطمةٍ وليلُ أسىً ولونِ
وعلى يديكِ شموسُ فاكهةٍ وأنتِ أمام سجني
يا أختُ لا تبكي على أبوابهم. . .
إنّي أغنّي.

البصرة، ١٠/ ٣/ ١٩٦٢

ترتيلة للبحر

يا بحرُ من بستانِكَ الصَدَفيّ إمنحْني محارةْ
مرجانةً، شيئاً من الأَعماقِ، لوناً غير لؤلؤتي المعارةْ
يا بحرُ أغرقني، وأغرقني، وأغرقني
أكنْ للشوق شارةْ
هبني ولو لمحاً من الرؤيا
خذْ كلَّ ما أعطتنيَ الدّنيا
اجعلْه قبراً لي وأسدلْ فوقَه حُبي ستارةْ.
يا بحرُ يا أفقاً بلا دنيا
أمسِ ارتجيتُكَ أن تردَّ إلى تمرّديَ إخضرارهْ
أَن تغسلَ الأَسماءَ تمنحَها الحقيقةَ والنّضارةْ
أَن تجلوَ الرؤيا بعينيَّا
وتكونَ لي شفتين من حلٍ وكفّاً من غزارةْ
وتعيدَ لي أَعماقيَ العليا
واليومَ جئتُ إليكَ وجهي في جبينكَ وارتمائي
في صدركَ المغبِّر،
أبحثُ في مراياكَ الهشيمةِ عن سمائي.

*

يا بحرَنا الأَزليَّ إن تهنا فضيّعناكَ حينا
أن كنتَ قرباناً لآلهةِ سواكْ
إن لم نمرّغْ في عواصفِكَ الجبينا
فلأَننا ضعفاءُ أسرى
ولأَننا ضعفاءُ أسرى
ولأَن شيئاً مات فينا.

*

يا بحرُ جئنا مرةً أُخرى فلا تكنِ الضنينا.

النجم والرماد

(١٩٦٠)

المسافر

معي كان في ٥/٦
لقد كنتُ أشربُ صوتَهْ
وأنباءَهُ واغترابي وصمتَهْ
وفي البحرِ، كان المساءْ
نديا، وكان الفضاءْ
نديا، وكان بعينيّ ماءْ

*

ـ؟
ـ مضى قبل شهرين. . . في صمتهِ
وغربتهِ، وندى صوتهِ
لقد كنتُ أجهلُ أين يريد السفرْ
وقد كان يكرهْ حتى الوداعْ
يغني أغاني حزينةْ
عن النخلِ. . . عن رحلةٍ في سفينةْ
وكان بعينيه شيءٌ مضاعْ

البصرة، ١١/١٠/١٩٥٩

إلى محيسن من هور السفطة

مزقتَ قلبي. . .
صوتُكَ الدامي يمزقه كخنجركَ الصدئْ
وحشيةُ الأعماقِ فيه، وزرقةُ الأوراقِ فيهْ
مزقتَ حتى الجرحَ، حتى لفحةَ الشوقِ الجريءْ
لأكادُ أحتضنُ الترابَ، أمرّغُ الأحداقَ فيهْ
لأكادُ أحفر باليدينِ على فؤادي مقلتينْ
لأكادُ أصرخُ دونَ صوتٍ، دونَ صوتٍ، دونَ صوتْ:
يا قلبيَ الحجريَّ، يا متلصّصَ الخفقاتِ، يا زَيَفَ المقاهي
أبصرْ. . .
فوجهُ الفاقةِ العظمى كوجهِ الميتينْ
أعمى، يمصُّ الدودَ والزُهريَّ، مبحوحَ الأنينْ
أبصرْ. . .
كأنكَ أنتَ لم تولدْ لتبصرَهم جميعاً
لتصيحَ بين الناس، من أجلِ الذين يعذَّبون ويُدفَنونْ
في الصمتِ، من أجلِ الذين يجررونْ
أقدامَهم في بولِ مرضاهم، ورغمَ القيحِ والماءِ المسمَّمِ يزرعونْ
يا قلبيَ الحجريَّ. . . أبصرْ كي تراهم يبصرونْ

أبصرْ . . .

وإلا فليمرّغْكَ الحذاءُ، على الزجاجِ، على المقاعدْ
وعلى أنابيبِ المياهِ، وفوقَ أغطيةِ الموائْد
وأمامَ أبوابِ الأطباءِ الأنيقةِ، والمطاعمِ، والقضاهْ
أصرخْ بأعماقِ المدينةِ، قفْ بساحاتِ المدينةْ
أصرخْ بهم عن شعبنا المنسيِّ في صمتِ المياهْ
أتركْ من الصرخاتِ وسماً في الجباهْ
وسماً من النيرانِ، يُمحى، حين ترتعشُ الحياهْ
في شعبنا . . . المنسي
في صمتِ المياهْ

العمارة، ٨/ ١٩٥٩

بعد منتصف الليل

وحـــــدي مـــــع الأوراقْ والـــلـــيـــلِ والـــشـــبّـــاكْ
وهـــــدأةِ الأعـــــمـــــاقْ
وأنـــــتِ فـــي بـــغـــدادْ نـــائـــمـــةٌ تـــحـــلـــمـــيـــنْ
بـــالـــبـــحـــرِ والأبـــعـــادْ
بـــزهـــرةٍ خـــضـــراءْ زرقـــاءَ، كـــالـــفـــيـــروزْ
نـــاعـــمـــةِ الأضـــواءْ
وشـــعـــرُكِ الـــهـــائـــمْ وددتُـــه فـــي يـــدي
مـــســـتـــرســـلاً نـــائـــمْ
أحـــبُّ أن ألـــمـــسَـــهْ فـــي يـــقـــظـــتـــي مَـــرةْ
يـــا فـــضـــةً مـــشـــمـــســـةْ يـــا خـــجـــلَ الـــبـــصـــرةْ!

١٩٥٨/١٠/٤

كآبة

مَرَّ بها أمسِ، وكان الليلُ في الصحراءْ
نهراً من الموج الترابيّ، وصمتِ الريحِ، والأصداءْ
كان يرى نجماً، ولكنْ كانتِ الأضواءْ
دفينةً كالماءْ
بعيدةً كالماءْ
باردةً كالماءْ
مَرَّ بها أمسِ، وفي إطراقةِ الظلماءْ
منزلهُ المهجورُ يبكي، يسكنُ الصحراءْ
حديقةً تنهشُ حتى صمتَها الأنواءْ
يا قطرةً من ماءْ
مُرّي على منزله مرّي
ولتسألي عنها، وآهٍ. . . آهٍ لو تدري
أن الليالي بعدَها سوداءْ
أني هنا كقطرةٍ من ماءْ
في الليلِ. . . في صحراءْ

بغداد، /٩/ ١٩٥٩

زائر

لم تأتِ لي وحدَكْ
يا حاملاً في وحشتي وَردَكْ
يا حاملاً شعبي
أغنيةً للأرضِ. . . للقلبِ
يا أيها المعطاءْ
يا مشرقَ العينينِ بالحبِّ
يا رائعاً حتى مع البغضاءْ. . .
لم تأتِ لي وحدَكْ
لم تأتِ لي وحدَكْ
. . . . . .
. . . . . .
الريحُ في الصحراءْ
تلتفُّ بالبردِ
والرملُ عند البابْ
يرقبني وحدي
والليلُ كالقطةْ
مكومٌ عندي

إني هنا وحدي
أحلم في البردِ
حتى الأسى مدَّ ذراعيهِ
يمنحني من دفئه الثلجيّ أسرارا
إني أرى في الليل أنهارا
أغرق فيها باسماً باسما
أغرقُ في أمواجها وحدي.
. . . . . .
لو لم تجئْ عندي. . .
يا أنتَ. . .
لو أبقيتَني وحدي!

نقد

كان هنا في زرقة النافذةْ
محترقاً. . .
يبحث في الأوراقْ
عن قيمةِ الأوراقْ
كان هنا يسأل في الصمتِ
عن قيمةِ الصمتِ:
أنت ترى أن قلوبَ الناسْ
لا تعرف اللؤلؤةْ
في عتمة الأعماقْ
وحينما ننظر للزهرةْ
قد نعرف البذرةْ
لكن إذا أخفيتَ حتى أحرفَ الديوانْ
هل نعرفُ البذرةْ؟
. . . . . .
أنصتْ:
ألم تهتزَّ للموتى. . .
للبحرِ. . للأقمارْ. . .

ألم تفتّحْ قلبَكَ الأنهارْ
يا خائفاً حتى من الأسفار!
أنصتْ:
لقد كنتَ مع الشارعْ
كنتَ معي... كنتَ بلا أسرارْ
.....
.....
.....
كان هنا يحلم بالأزهارْ
في زرقةِ النافذةْ
عيناه خضراوانْ

الكويت، ٢١/٢/١٩٥٨

مساء

إني أحدّقُ عبرَ نافذتي وحيدا
ما كنتُ أقدر أن أفكرَ. . .
إنني أرنو بعيدا
السحْبُ سودْ
السحْبُ تدخل عبرَ نافذتي كأنيَ في العراءْ
السحْبُ تدخل في فؤادي
والحزنُ. . .
إن الحزنَ ماءْ. . .
. . . . . .
عينايَ مغمضتانِ. . . ها أني أراها
أهدابَها، والنورَ، والكتبَ التي فقدتْ شذاها
إني لألمسُ صوتَها السريَّ، من نبعٍ عميقِ:
أضللت عني يا صديقي
في غيمةٍ سوداءَ. . . سوداءِ البريقِ
يا أيها النجمُ العزيزْ
سأظل أغمضُ مقلتيَّ بلا انتهاءْ

لأقولَ أغنيةً هناكْ
لأقول أغنيةً تراكْ
يا أيها النجمُ العزيزْ
يا واحةً بين البراري
ستظلُ تخفقُ مقلتاكَ كزهرتينِ على شعاري

البصرة، ١٩٥٧

رزوقي

شيءٌ من الزرقةِ في أحداقهِ، شيءٌ من العنادْ
شيءٌ من الودادْ
كان يراني أقرأُ الكتابْ
فيومضُ المكرُ بعينيهِ. . . ويطلقُ السؤالْ
إثر السؤالِ:
آهِ، هل تظنُّ ما يقالْ
عن الشيوعيين حقاً؟ هل رأى المسيحْ
دقَّ المسامير بعينيهِ؟
هل السماءْ
بعضٌ من الأرضِ؟ وكيفَ تلبسُ العباءةَ النساءْ؟
وكيفَ؟
كيفَ؟
كيفْ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
وهكذا أحببتُه، أحببتُ في عينيهْ

شيئاً من العنادِ والزرقةِ والوداْ
أحببتُ في كفّيهْ
خشونةَ الجنديِّ والفلاحْ
أحببتُ في أعماقه التساؤلَ الملحاحْ

بغداد، ٢١/٦/١٩٥٩

الأسوار

يا أزهارَ القصبِ الرمليةْ
يا أغنيةً غجريةْ
يا أزهارَ القصبِ. . . يا أزهارْ
الحبُّ يجيء مع الأمطارْ
والسعَفُ الباهتُ تشربُه الأنهارْ
وتغمغمُ في صمتي الأسفارْ
لو نعرفُ يا أزهارَ القصبِ
لو نعرفُ يا أزهارْ
أغنيةَ الأسفارْ
أغنيةً غيرَ الكتبِ
لمضينا دفءِ الأمطارْ
في دربٍ لا تحرسُها الأسوارْ
يا أزهارَ القصبِ!

بعض محرري «الصحف»

إحسانُ. . .
لا تنظرْ من الشبّاكِ
إقبلها نصيحةْ
مني، ولا تخشَ «الفضيحةْ»
أتخافُ إن قالتْ «جريدتُهم»: فلان
«ماتت أغانيه الحسانْ»،
أو: سوف لن تهواه أهدابُ الحسانْ
أتخافُ إن قالوا: يسيرُ مع الذين
لا يعرفون سوى حديثِ الجوعِ؟. . .
يا قمري الحزينْ،
لا تقرأ الصحفَ الدنيئةْ
إذهبْ إليهم، حطّمِ الأبوابَ، وابصقْ في وجوههم البذيئةْ
إحسانُ، حين ترى من الشبّاك تلقاهم رجالا
بملابسٍ سوداءَ. . .
أوراقٌ كثيرةْ
ولفائفٌ تخبو وتومضُ، مثلَ نيرانٍ صغيرةْ
فإذا افتحمتَ عليهم الأبوابَ أبصرتَ الرجال

صُفراً كما تلقى خيالا
أوراقُهم فيها علاماتُ الفضيحةْ
ولفائفٌ للنصفِ ملقاةٌ، بها لونُ الفضيحةْ
مِن صُنعِ سيّدهم، مريحةْ
قمصانُهم بيضٌ ملطّخةٌ بأصباغِ الشفاهْ
وملابسٌ سوداءُ تنكرها الحياهْ
إحسانُ، يا رجلاً يناديه العراقْ
أنظرْ أغاني الحبِّ فوق شفاههم، طُهراً يُراقْ
كالخمرِ . . . كالخمرِ الرخيصةِ، مثلَ أنباءِ البغايا
إحسانُ . . .
هم لا يعرفون الحبَّ والمهجَ الجريحةْ
لا يعرفون الصدقَ، أغنيةَ الجماهيرِ، الصريحةْ
إحسانُ . . .
لا تخشَ «الفضيحةْ!»

البصرة، ١٩٥٥

اغتراب

وحيدٌ بمقهاكَ. . . إن ليالي الشتاءْ
بباريسَ ليست وحيدةْ. . .
وفي شقة ما بوارشو تغني فتاة
أغاني شريدةْ. . .
أغاني بعيدةْ.
وفي الصيف، في بمبلونهْ
أحبتكَ، كانت تحبُّ النبيذْ
وكانت تناديكَ في أمسياتِ المدينةْ:
Amigo
وكان زجاجُ المطارْ
ندياً. . . وفي ثغرها
ورائحةِ الليلِ. . . في شَعرِها
رأيتَ النهارْ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

وحدٌ بمقهاكَ، إن الليالي
هنالك. . . ليست وحيدةْ

البصرة، ١٨/ ١١/ ١٩٥٩

لمسات

١

قميصُها يهمسُ لي، صوتُها
يفرشُ صمتَ الليلِ. . . صمتَ السَهَرْ
كالمطرِ الخافتِ بعدَ المطرْ
كالعشبِ بعد المطرْ
كالدفءِ بعد المطرْ

٢

غرفتُكَ الموصدةْ
والكتبُ الرثةُ والمنضدة
وفي ثيابِ الليلِ تأتي الكلابْ
تحملها الريحُ من النافذةْ
مغمضةَ الأجفانْ

٣

يا قلقَ الإنسانْ
يا صوتَه الراجفَ في القضبانْ

هبني احتراقاً منكَ، هبني رجفةَ الإنسانْ
والدهشةَ البكرَ، أعطني شيئاً سوى الإيمانْ
يا قلقَ الإنسانْ

البصرة، ٢٢/ ١١/ ١٩٥٩

احتراق

وطني، أرهقني حبُكَ، أبكاني طويلا:
أنتَ تدري: نحن لا نعرف للحب بديلا
غير أن القلقَ المرَ عليكْ
والليالي السودَ، والأمطارَ، والخوفَ النبيلا
وأغاني يوسف الصائغ في القضبانِ... تشكوكَ إليكْ
.....
وطني لو يعرف الشاعرُ للصمتُ سبيلا
لطوى أوراقَهُ في ماءِ عينيهِ، لأخفى مقلتيكْ
عن لياليه الجريحاتِ... فأغفى ثم ماتْ
غير أن الرجفةَ الثكلى وراءَ الكلماتْ
والدمَ المحضَ، وصمتَ الأمهاتْ
وأغاني يوسف الصائغ في القضبان... تدعوكَ إليكَ
.....
ضائعٌ مَنْ صَمَتَ اليومَ ولم يوقظْ يديكْ!

إلى زميل موقوف

لعينيكَ إذ تومضانْ
بعيداً عن البصرةِ
كما التمعتْ نجمتانْ
ببغدادَ . . في الظلمةِ
لعينيكَ أغنيتي

* * *

حزينٌ . . حزينٌ عليكْ
على الحزنِ في مقلتيكْ
ولكنّ في غرفتي
كتاباً سأهديه يوماً إليكْ
كتاباً صغيراً يقولْ :
هو النورُ في الظلمةِ!

البصرة، ١٩٥٥

تلفيق

قدماهُ فوق الماءِ أخضرَ تعبرانْ
تترقرقُ الأوراقُ بينهما. . . ويخفقُ شذروانْ
كان النخيلُ يمدّ آلافَ الشِباكْ
ليصيدَ فيها الظلُّ آلافاً من الأسماكِ مشمسةَ الثيابْ
كانت بقايا الليل في عينيه لمحةَ أرجوانْ
وعلى خطاهُ الظلُّ والأسماكُ تومضُ، والترابْ

. . . . . .

. . . . . .

ـ كان ابنكَ الملعونُ يا عيسى يسيرُ إلى الدواسرْ
وبجيبه اختبأتْ خريطةْ
كاد ابنكَ الملعونُ ينسفُ بيتَ مختارِ الدواسرْ

. . . . . .

. . . . . .

في مركزِ العشّارِ أغنيةٌ تضوعْ
والصمتُ يبحرُ في دروبِ الليلِ. . . والمبنى سفينةْ
حجريةُ المرساةِ، باهتةٌ، تنامُ بلا قلوعْ

كان ابن عيسى العونِ يبحث عن سفينةْ
في مركزِ العشّارِ. . .
إن البحرَ تشربُه المدينةْ!

البصرة، ١٠/ ١٢/ ١٩٥٩

زيارة

في الصمتِ، كان يراكِ. . .
كانتْ مقلتاه على الوِسادْ
ومن النوافذِ تحملُ الهمساتُ صوتَكِ والسهادْ
ومن البعيدِ يراكِ. . .
شاحبةً، صغيرةْ
من لا مكانٍ تدخلينَ. . . تسلمينْ
خجلى. . .
وتقتسمينَ باسمةً سريرهْ
شفتاهُ فوق ذراعِكِ العاري وصمتِكِ والحنانْ
يا زهرةَ الدنيا ويا شفةً سريرهْ
شفتاهُ فوق ذراعِكِ العاري وصمتِكِ والحنانْ
يا زهرةَ الدنيا ويا شفةً أسيرةْ
كانت يداهُ بثوبكِ القطنيِّ ذلك. . . تُبحرانْ
تتلمّسانِ وتبسمانْ
وتذوبُ في عينيكِ غربتُه المريرةْ

البصرة، ٢٢/١٢/١٩٥٩

الأربعاء ٩ آذار

الأربعاءُ، دمٌ على وجهِ الرخامِ، دمٌ وريحْ
وشفاهُ قتلى ملء زرقتها تصيحْ:
القبرُ أوسعُ منك داراً أيها القبرُ الفسيحْ!

* * *

في الدربِ، لم تكنِ الخطى تعبى. . . لقد كانوا ثلاثةْ
يمضون نحو السجنِ:
امرأةٌ، وتلميذٌ، وشيخْ
كانوا لأحمدَ يحملون. التبغَ، والشوقَ المسهَّدَ، والطعامْ
وعلى خطاهم آخرون لغيرِ أحمدَ يحملونْ
منَّ السماء، وتبغَ قريتهم، وأغنيةَ ابتسامْ
إن الظهيرةَ عند بابِ السجنِ أفجعُ ما تكونْ!

* * *

الأربعاءُ، دمٌ على وجهِ الرخامِ، دمٌ وريحْ
وشفاهُ قتلى ملء زرقتها تصيحْ:
يا رايةً للشعبِ. . . ارتفعي مع الأملِ الفسيحْ!

* * *

مطرٌ رصاصيٌّ على الإسفلتِ يخترقُ الوجوهْ
مِزَقاً، ويحفرُ للدم الأبديِّ نهراً في المدينةْ
ومن الأزقةِ تصرخ الخطواتُ، تندفعُ الوجوهْ
ويمرُّ أحمدُ مرهفَ الخطواتِ. . . كان يرى المطرْ
واللمعةَ السوداءَ في الرشّاشِ، والوجهَ الحجرْ
كانت دروبُ النورِ يغلقها المطرْ

* * *

الأربعاءُ، دمٌ على وجهِ الرخامِ، دمٌ وريحْ
وشفاهُ قتلى ملءَ زرقتها تصيحْ. . .

البصرة، ١/ ٣/ ١٩٦٠

حكايات من البصرة

١ ـ أمرٌ بإلقاء القبض

أحببتُ يوماً صوتَهُ الصافي، ونظرتَهُ الغضيضةْ
وقميصَه المائيَّ، والكلماتِ يهمسُها خفيضةْ:
«الشعبُ يعرفُ كيفَ. . .». .
والنسماتُ تزهرُ في المساءْ
في ٥٤ هذا، حين كنا «أصدقاءْ»
من قبلِ أن يقضي وليلَ السجنِ أعواماً ثلاثةْ
. . . . . .
ورأيتُ أمسِ قميصَهُ المائيَّ يغرقُ في الظلامْ
في شارعٍ خالٍ. . . وفي عينيه ضوءْ
وتغمغمُ الكلماتُ يهمسُها خفيضةْ:
«الشعبُ. . .». . .
ثم يغيبُ وجهٌ في الظلامْ. . .

٢ ـ لا مواجهة

كانت أمامَ السجنِ تبكي. . . كانتِ امرأةً صغيرةْ
محمرةَ العينينِ، تلفحُها الظهيرةْ

وعلى عباءتها تمرُّ الريحُ ناعمة الترابْ
وتدورُ أوراقٌ على الإسفلتِ شاحبةٌ كسيرةْ

. . . . . .

ـ اليومَ، قلنا «لا مواجهةٌ. . . ولاهم يحزنونْ». . .

. . . . . .

وتظلُّ واقفةً ببابِ السجنِ تبكي. . .
كانتِ امرأةً صغيرةْ

٣ ـ التحري

أيامَ كنا في دمشقَ. . . نجوعُ، نحلمُ، نستميتْ
من أجلِ حرفٍ أنتَ تكرهُه، رأينا الفجرَ يحرسُه الرفاقْ
حتى إذا ما اهتزتِ الآفاقُ وانفجرَ العراقْ
عدنا، وكان معي كتابٌ ـ سيدي! ـ هذا الكتابْ!
لا تلمس التاريخَ، لا تجرحْ كرامتَهُ العميقةْ
لو كنتَ تعرفُ أيَّ شيءٍ فيه لم تمددْ له كفاً غريقةْ

. . . . . .

أتجوعُ يوماً، كي ترى عيناك حرفاً في كتابْ؟

*

البصرة، ٣٠/ ٣/ ١٩٦٠

«حادث» يومي

شارعُه يُقفرُ في العاشرةْ
والنصفِ. . .
والليمونةُ الساهرةْ
في آخرِ المنعطفْ
وحيدةٌ، غامضةُ اللونِ، لياليها بلا أوراقْ
وحينما تلمحهُ النجومُ بعدَ الساعةِ العاشرةْ
تلتمعُ الفضةُ في ليمونةٍ غامضةِ الأوراقْ
ويهمسُ الشارعُ بالخطوِ. . . وترنو قطةٌ ماكرةْ

* * *

يا سيداتي. . . سادتي. . . في نشرةِ الأخبارْ:
- مؤتمر الأقطابِ لن يُعقدَ في نيسانْ.
- يحاكَمُ غليزوسُ في اليونانْ.
- مقتلُ عشرينَ من الطلابِ في ماسانْ.

إلخ. . . إلخ. . . إلخ

* * *

يا سيداتي، يا سادتي، وكالةُ الأنباءْ
من شارعٍ في ليلِ بغدادَ تحيّيكم. . . هنا الأنباءْ:

. . . . . .

محمدٌ يعرفُ أنَّ الساعةَ العاشرةْ

والنصفَ. . .

تعني دربَهُ والبيتَ والليمونةَ الساهرة

والنجمَ والفضةْ

وهكذا. . .

كان على الدربِ وفي أعماقهِ أغنيةٌ غضّةْ

ناعمةٌ كالنجمِ، كالليمونِ، كالفضةْ

لكننا، يا سيداتي، سادتي، نختصرُ الأنباءْ

محمدٌ. . . ماتَ مع الظلماءْ

ممزقَ الأحشاءْ

خناجرٌ أربعةٌ كانتْ مع الظلماءْ

تنتظرُ الأنجمَ والليمونَ والفضةْ

تنتظرُ الأغنيةَ الغضةْ

* * *

معذرةً، يا سيداتي، سادتي. . . لهذه الأنباءْ!

*

بغداد، ١٨/ ٤/ ١٩٦٠

ثلاثة جنود

«في الساعات المبكرة من صباح ١٤ تموز ١٩٥٨، الجنود يسيرون إلى بغداد»

البنت: في شحوبِ المساءْ
تطلُّ عليّ النجومْ
مضرجةٌ بالدماءْ
ويخفتُ في الأرضِ حتى البكاءْ

الأب: هنا لا يرانا المطرْ
ولا يومضُ البرقُ بين الشجرْ
وحينَ أتانا الربيعْ
تيبَّسَ حتى احتضرْ

الحنطة: سنابلْ
سنابلْ
سنابلْ
وأنتم تموتون جوعا

الجندي الأول: سريعاً. . . سريعاً

الريح: آ. . . آ. . . آ. . . ه. . . آ. . . آآ. . . ه

* * *

الزوجة: رأيناه أمسِ قتيلا
على جدولٍ من دمِ
وفي وجههِ الأزرقِ المعتمِ
شممتُ الرصاصْ

الرفيق: لقد كنتُ أسمعِ صوتَكْ
لقد كنتُ أسمعُ صوتَكْ

الشارع: بصدري تلقيتهُ
وفي القلب قبَّلتهُ
لقد ظلَّ يهتفُ حتى المماتْ
لقد ظلَّ ينزِفُ حتى المماتْ
وحيدا

الجندي الثاني: سنمضي... سنمضي

الريح: إليـ... يـ... يـ... ه.... إليـ... يـ...
يـ... ه

* * *

الحبيبة: إذا رفرفَ الفجرُ في المنزلِ
بلون الهوى الأولِ
مضيتُ أدق البيوتْ
أنادي... أنادي: غسيلْ
غسيلْ...

الكتاب: أهالوا عليَّ الترابْ
وفي قبريَ الرطبِ، في زاويةْ

تموتُ الحروفْ
وتشحبُ، تشحبُ ألوانيهْ

الجندي الثالث: معاً يا رفيقَ السلاحْ

الريح: رفيقَ السلا... أ... أ... أحْ

بغداد، ١٩٥٩

سر

الظهرَ كنتَ أمامَ غرفتها. . .
لقد يبستْ يداكْ
في لحظةٍ، فبقيتَ عند البابِ، ثم خطوتَ خطوةْ
ودخلتَ غرفتَها:
وِسادتُها هناكْ
وكتابُها. . . وحزامُها الفضيُّ مهملْ
وبقيةٌ من عطرها، وجريدةٌ قد عانقتْها الأرضْ
إن الستائرَ لم تكنْ مخملْ
وفراشُها الثلجيُّ حتى صمتُه يسألْ
عن هُدْبها المسبلْ
فكّرتَ. . . لو كانت هنا، لو أُغمضتْ عيناكْ
في ليلةٍ معها
في صمتِ غرفتها
تغفو أناملُها هنا
ترتاحُ خصلتُها هناكْ
وتظل تحلم أنتَ بالجدولْ. . .
. . . . . .
يا فاضحاً أسرارَ غرفتها: ألا تخجلْ؟

بغداد، ٣٠/ ٤/ ١٩٦٠

القتلى يسيرون ليلاً

في الليلِ، يستيقظُ القتلى
عيونهمو البيضاءُ، واسعةٌ مفتوحةٌ أبدا
وفي المدينةِ حتى في أزقتها
يمشون، أكفانُهم لا تستر الجسدا
همو يسيرون، والأفواهُ مزرعةٌ
من الرصاص، تغني، والدروبُ صدى
وحين يرتجفُ الأطفالُ، نسمعُهم
صوتاً لغيرِ الأسى الوحشيّ ما وُلدا
صوتاً يدق على الأبوابِ. . . محترقاً
كطائرٍ عبر وادي الموتِ قد وردا
أيارُ مرَّ. . . وفي أمواج رايتهِ
دمٌ سيوقظ من تنويمةٍ بلدا

بغداد، ٢/٩/١٩٦٠

من «باب الشيخ»

١ ـ المساء

بيوتُ بابِ الشيخِ حين يزهر المساءْ
تخبو، كما تخبو بحيراتُ الندى في الماءْ
ويشربُ الليلُ جداولاً سوداءْ
رائحةُ الصابونِ فيها، والأسى، والداءْ
بيوتُ بابِ الشيخْ
مدينةٌ منسيةٌ، في عالمٍ وضّاءْ
سفينةٌ في الوحلْ. . .
حديقةٌ شوكيةٌ أزهارُها صفراءْ

٢ ـ التوت

كانت تحب التوتَ، تبكي حينما ينساهْ
يوماً، فلا تحمل منه سلةً كفاهْ
وعندما تلمح عيناها وراءَ البابْ
سلتَهُ الخوصَ، يغنّي جدولٌ، يهمس عصفورٌ على الأعشابْ
وتخفق القريةْ
في لحظةٍ. . . في سلةٍ بالبابْ
وبغتةً، تخضرُّ بابُ الشيخْ

٣ ـ دوندرمة

خضراءُ، أو صفراءُ، أو حمراءْ
سكّرةٌ ذائبةٌ في الثلجِ. . . برتقالةٌ في الماءْ
لو ملأ الكوبَ بها، لو ذاقها مرةْ. . .
لكنَّ «أمَّ حسينْ»
لم تعطهِ بالدَّينْ
وظلَّتِ الحمّى
تأكلهُ مشتعلَ العينينْ
كان طريحاً وحدَه تأكلُه الحمّى
وهمسةُ اللافحُ: أمّ حسين! أمّ حسين! أمّ حسينْ

بغداد، ١٢/ ٥/ ١٩٦٠

إلى عامل في الميناء

صديقَ الأغاني والبحارِ. . . صديقَنا
مضينا معاً، حتى عرفتَ طريقَنا
ربيعاً وإيمانا
وحباً ونيرانا
لقد وهبَ الإنسانُ للأرض موعدا
وقلتَ: سيأتيها. . . فصرتَ رفيقَنا

* * *

عرفناك لم تمددْ لأعدائنا يدا
وكنتَ بنا برّاً، كأغنيةِ الندى
سهرتَ ليالينا
هويتَ أغانينا
ولم ترتجفْ منك الخطى حين أظلمتْ
بحارٌ. . . فإنّ الأرضَ ترقبُ مولدا

* * *

محيّاكَ في ليلِ الجنوبِ ضياءُ
ومرفأُ راياتٍ به ورجاءُ
فيا بذرةً منا

يا زهرةً منا
رفاقُكَ في الميناء ألفُ حديقةٍ
فيا بؤسَ ما يستنبطُ «الأمناءُ»!

بغداد، ٣٠/ ٥/ ١٩٦٠
الساعة ١٢ ظهراً

تطلع

يا خضرةَ الليمونْ
يا مطراً أزرقَ، في الليلِ أناديهِ
أسألُه طعمَ لياليهِ
يا خضرةَ الليمونْ
عينايَ في التيهِ!

* * *

كفاك ما طوّفتَ. . . إن البحارْ
لم يبقَ فيها ستارْ
تزيحهُ عيناك، حتى القمرْ
يسألُ: أين القمرْ؟
يا خضرةَ الليمونْ
هَبي فؤادي قطرةً من مطرْ
أزرقَ، في الليل أناديهِ
أسألهُ سرَّ لياليهِ
يا خضرةَ الليمونْ
قلبيَ في التيهِ!

* * *

أمسِ سألتُ النجمَ. . . إن النجومْ
بيعدةٌ عني
وأنتِ يا نهراً من الليمونْ
قريبةٌ مني
أمسُ أغصانَكِ. . . أبكي على شيءٍ فقدناهُ
لولاهُ. . . لولا هذه الآهُ
لكان حتى الفجرُ لا يحمل البشرى، ولا تُزهرُ عيناهُ
يا خضرةَ الليمونْ
هَبي دمي الصدقَ، هبيني كيف أحياهُ
أكاد في الإيمان أنساهُ
وأنتِ لي يا خضرةَ الليمونْ
أواهُ. . . لو تدرينَ. . . أواهُ؟

بغداد، ٥/ ٧/ ١٩٦٠

سليمان

أكادُ أُغضي حياءً حين أنساهُ
كأنّ عينيَّ عند الصمتِ عيناهُ
هذا محيّاهُ
البحرُ أحرقهُ، والملحُ مزّقَهُ
لكنّ بسمتَهُ ما فارقتْ فاهُ
نجماً يُضيءُ بليلِ البحرِ دنياهُ
قد كنتُ ألقاهُ
والملحُ ما زال في أحداقِه مطراً
مُرّاً، وما زال في الأهدابِ مجراهُ
ولم تزلْ في القلوعِ الغبرِ أغنيةٌ
ما كان أفقرَها صوتاً، وأغناهُ
هذا الذي لم تعانقْ قلبَهُ الآهُ
هذا الذي كلُّ ما في البحر يهواهُ
يوماً، ويكرهُه يوماً. . . فيأباهُ
لكنّه أبداً. . . للبحرِ عيناهُ!

بغداد، ٢٣/ ٧/ ١٩٦٠

وطني

وطني! كأنَّ الحرفَ يهمسُ باسمكَ الغالي ويزأرْ
ما مَنْبِتَ الراياتِ، يا أفقاً على الراياتِ أخضرْ
يا موكباً أعلى وأغلى من مواكبنا وأكبرْ
مجدُ الطلائعِ أن تراكَ طليعةً وحقولَ عنبرْ

❊ ❊ ❊

وطني! ركزنا القلبَ دونَكَ أنتَ يا ماءً ووردا
يا بيتَ أحبابي ويا صحراء نلمسُها فتندى
يا قمةً خضراءَ تلبس في الثلوج البردَ بُردا
سنظلُّ نمنحكَ الوفاءَ المحضَ أغنيةً ووقدا

❊ ❊ ❊

وطني! ونهرُ الشمسِ يغسلُ كلَّ بيتٍ، كلَّ شارعْ
والشرقُ تنتفضُ الحياةُ لديه راكضةَ المنابعْ
أبداً ستبقى مجدَ أغنيةٍ مدويةِ المقاطعْ
يا مولدَ التاريخِ، يا نجماً عريقَ النورِ رائعْ

❊ ❊ ❊

وطني! إذا ما الليلُ أظلمَ، وأدلهمَّ الأفقُ يوما
فالشعبُ يعرفُ كيفَ يزهرُ في الليالي السودِ نجما

شعبي. . . لكَ الآفاقُ واسعةً، لك الإصرارُ شهما
راياتُنا خفقتْ. . . فأيةُ خفقةٍ أسنى واسمى!

* * *

وطني! خضبْنا الأرضَ باسمكَ حين نادتْنا السماءُ
فعلى جباهِ الثائرينَ نجومُ صوتِكَ والفداءَ
إنا سنبقى واللواءُ الطلْقُ يقْدمه اللواءُ
فلتزدهرْ أبداً نجومُكَ. . . أيها الأرضُ ـ السماءُ!

بغداد، ١٤/٨/١٩٦٠

إلى عبد الرحمن خليفة

يا صوتَهُ المبتلَّ بالدمِ، أين نمضي؟ أين نمضي؟
إن لم نمدَّ إلى المضرّجِ صرخةً من كل أرضِ؟

* * *

يا صوتَهُ المبتلَّ بالدمِ، يا رفيقي
إني لأشربُ منكَ حتى الحزَّ في العنقِ الغريقِ
وأظل ألثمهُ وأصرخُ: يا حضارتَنا استفيقي
يا رايةَ الإنسانِ هبِّي
إنا وهبناكِ الوفاءَ، فهل رددتِ وفاءَ شعبي؟
يا رايةَ الإنسانِ هُبِّي...
إن الدمَ المسفوحَ في سجنٍ هناكَ يصيحُ: هُبِّي!

* * *

يا صوتَهُ المبتلَّ بالدمِ... أين صوتي؟
إن لم يبلّغْهُ الحياةَ فدعْهُ حشرجةً لموتي
إن لم يشقَّ النجمَ محترقاً فلا خَطّتْ يدايْ
حرفاً، ولا انطلقتْ لمأثرةٍ خطايْ
وليندثرْ بالعار بيتي!
أخليفةُ الملقى على الإسفلتِ في سجنٍ هناكْ

متدفقَ الدمِ، أسودَ الشفتينِ، مزرقَّ المفاصلْ:
لكأنَّ وجهَ الأرضِ أعمى
أخليفةُ الملقى على الإسفلتِ، يا شرفَ المناضلْ:
صوتي هناك مضرّجٌ أبداً، يضجُّ على السلاسلْ
عنقي هناك ممزقٌ في السجن، تحرقه المقاصلْ
فولاذُها الكابي ـ يشقّ اللحمَ ـ أعمى
لكنني أبداً أقاتلْ
والفجرُ يفتحُ مقلتيَّ... على المنازلْ
والبحرِ، والأرضِ الغريقةِ بالسنابلْ.
أخليفةُ العربيُّ، في وهرانَ تنفجرُ المشاعلْ
فليندفعْ دمُكَ النبيُّ، نذيرَ مقتولٍ لقاتلْ
ولتنفجرْ في الأرضِ أجمعِها المشاعلْ!

* * *

لكَ أنتَ وحدَكَ أن تحدثَني... فليس سوى الحياةْ
والموتِ، من لُقيا.
لكَ أنتَ وحدَكَ أن تقولْ
فلْتصمتِ الدنيا.
فلْتصمتِ الدنيا
فلْتصمتِ الدنيا.
.....
.....
فلْتصرخِ الدنيا!

بغداد، ١٩/٨/١٩٦٠

الأرض الأخرى

كنا معاً في الصمتِ. . . أهدابُنا تغرقُ في العتمة
كنا وحيدينِ، نخافُ السماءْ أن توقظَ النجمةْ
والأرضَ. . . أن تهمسَ في أعشابها النسمةْ

* * *

يا بُحّةَ الصمتِ، ويا قُدْسَهُ هبي لنا قطرةْ
وخبزةً منكِ، وبعضَ الذهولْ
ومِيتةً في أرضكِ الأخرى
حيث يغورُ الصوتُ مثلَ الجذورِ ويُزهر الصمتُ
حيث يعيش الحبُّ والموتُ
وحيث تذوي في البحارِ النجومْ
وتخفقُ العتمةْ
مدينةً ما مرَّ فيها الزمانْ.
يا زهرةً للصمتِ والعنفوانْ
في عالمٍ يصخبْ
في عالمٍ متعبْ
نحن وحيدانِ. . . وأهدابُنا تغرقُ في الحزنِ
كالليل في البحر، كخطٍّ شريدْ في لجة اللونِ

يا زهرةً للصمتِ والحزنِ
نحن وحيدانِ أمامَ الشموسْ نحن وحيدانِ
مَزّقَ عينينا العذابُ العظيمْ
يا زهرةً للعالم الثاني!

بغداد، ٢٥/٩/١٩٦٠

المهاجر

غصنٌ من الأحزانِ في شفتيكَ، يا طيراً مهاجرْ
كلُّ البحارِ لديكَ ملحٌ. . . كلُّ ما في الأرض عابرْ
يا أيها الطيرُ المهاجرْ
إنا نحبُّ البحرَ، والأرضَ النبيةَ، والغدائرْ
ونودُّ أن نمضي إلى مدنٍ غريبةْ
ثلجيةِ الطرقاتِ، مزهرةِ الأغاني والمنائرْ
أبوابُها صَدَفٌ، وعتمتُها ضفائرْ
مدنٍ من البلّورِ تجري في منازلها المعاصرْ

* * *

يا أيها الطيرُ المهاجرْ
أتظنّ أن البحرَ والآفاقَ والحلمَ المغامرْ
ومدائنَ البلّورِ. . . يجهلُها سواكْ؟
أتظننا نحن الذين نشقّ في حُمّى الخنادقْ
درباً إلى شيرازَ، نخشى أن «نغامرْ»؟
إنا لنحلم بالأغاني والمعاصرْ
ومدائنِ البلّورِ. . .
لكنْ. . .

لن نهاجرْ!
إنا سنبقى في الخنادقْ
حرساً أمامياً. . . سنحلم في الخنادقْ
وعلى مَفارقنا نجومُ ظهيرةٍ، وسماءُ شاعرْ
ولتسقطِ الثوريةُ الشماءُ إن لم تشتعل خطواتِ ثائرْ!

* * *

سنظل في بغدادَ نُطعمها البشائرْ
وضراوةَ الإصرارِ والعملَ المثابرْ
يوماً فيوماً. . .
و«لتعلّقْ» أنتَ. . .
يا طيراً مهاجرْ!

ديوان ٥١ قصيدة

(١٩٥٩)

من أجل أن تعيش جمهورية العراق

إننا لا نرهبُ الموتَ. ولكنْ، يا جميعَ الشرفاءْ
يا جميعَ الأصدقاءْ..
ارفعوا أصواتكم من أجلِ شعبي
إننا نطلبُ من أعماقكم صيحةَ حبِ
ورصاصةْ...
إننا نصرخُ كالبحرِ بوجهِ القاهرةْ:
أيها الوجهُ الذي ينبضُ حقدا
ومحبةْ
إننا ندعوكَ من أجلِ العراقْ
إننا ندعوكَ يا قلباً لشاعرْ
وذراعاً كادحاً في مزرعةْ
وعلى الأحرفِ مجدَ المطبعةْ
إننا ندعوكَ من أجلِ العراقْ
أنتَ يا جندينا المجهولَ في ليلِ الجزائرْ
يا جميعَ الأصدقاءْ
يا جميعَ الشرفاءْ
أرفعوا أصواتكم من أجل شعبي

إن أيدي المجرمين القتلةْ
مثلَ آلافِ الأفاعي
زحفتْ تشحذُ للثورةِ حدَّ المقصلةْ
فاصرخوا بالقتلةْ
اصرخوا بالقتلةْ

القاهرة، ٢٠/ ٧/ ١٩٥٨

الوطن الصغير

وليكنْ!
إن أغانيها عنيفةْ
كلها تسعى وراء الجوع، سوداءَ، مخيفةْ
يا محمدْ!
إنها الأرضُ التي نحيا عليها
ونموتُ
والتي ما زال من أجدادنا فيها بيوتُ
أرضُنا الرطبةُ، حيث الألمُ
والجداولْ
حيث لا نأكلُ أزهارَ السنابلْ
فلمن نحن نغني؟
أعرفنا غيرَها؟
أوَلم نأكلْ جذورَ العشبِ فيها..؟
كم قطفْنا زهرَها...
وغسلْنا تمرَها...
أوَ ما كانت على وجه أبي
لمحةٌ من لونها

إنه مات وعيناه عليها
إنه مات عليها
مثلَ طيرٍ متعبٍ عاد إليها
. . . . . .
. . . . . .
وطني. . .
أيتها الأرضُ الصغيرةْ
أنتِ يا بحرَ النخيلْ
لكِ يا أرض أصلي
وأقاتلْ

البصرة، ١٩٥٦

توسل

يا موطني. . . يا مُبدعَ الإنسانْ
يا بِرْكةً ينبعُ منها الجانْ
والخبزُ. . .
هَبني البصرْ
إني سئمتُ النظرْ
إليكَ عبرَ النظرْ
يا ربِّ. . .
هَبني البصرْ
اكشفْ ليَ الينبوعْ
دعني أحسّ الجوعْ
وأكتوي بالألمْ
يا ربِّ. . . هَبني الألمْ
مستنقعاً أو قممْ
مزّقْ شفاهَ الشفاهْ
أحسّ طعمَ الحياهْ
حليبَ أمي ورذاذَ المطرْ
هل يعرف المشنوقْ

في ساحةٍ ـ في سوقْ
في لحظةٍ بين الدجى والضياءْ
هل يعرفُ الأسماءْ
اسمكَ يا موطني
اسميَ يا موطني!

شيء عن المسألة

إنني قد أحلمُ الآنَ بشبّاكٍ صغيرِ
يفضحُ الوردُ حكاياتِ عبيرِ
حولهُ. . .
حلْمٌ بشبّاكٍ صغيرِ
وبمنديلٍ حريرِ
وعل نافذةٍ يغفو قمرْ
يا صديقي. .
لا تقل: «أصبحتَ. . . !»
تهدمْ ذراعا
عن دروبِ الفجر ـ لا تطفئْ شعاعا
إنني قد أحلمُ الآن بشبّاكِ القمرْ
وبآلامكِ البشرْ
إنني قد أحلمُ الآنَ بحبي
وبشعبي
غيرَ أن المسألةْ
أن ترى من يمنح الحلمَ دما
يا صديقي. . .

يا صديق المسألةْ

إننا نمنحُ للحلم دما

ونضيءُ القمما

ولهذا دخل السجنَ «رجاءْ»

إننا نبني من الأرضِ سماءْ

البصرة، ١٩٥٧

نحن

اننا أقوى من الموت لنا دفءُ الدماءْ
والغدُ الأحمرُ والدنيا لنا
سننادي أرضَنا
أرضَنا والسوسنا
إننا أقوى من الموت سقينا أرضَنا
وزرعناها فكانت غُصُنا
وحماماتٍ وسلْماً أخضرا
نحن من إخواننا القتلى صنعنا أفقنا
وعرفنا دربنا
فإذا ما شئتَ مزقْ صدرَنا
لن ترى إلا السنى
والمنى
والموطنا
إننا أقوى من الموت فتحنا قلبنا
لجميع الناس حتى عادتِ الأرضُ لنا
وردةً من دمنا

البصرة، ١٩٥٤

إلى شوقي بغدادي

الليلُ يزحفُ في دمشقَ، وأنتَ تُغمضُ مقلتيكْ
في غرفةٍ بالسجنِ، باردةٍ كئيبةْ
والحزنُ يلسعُ قلبَ خائفةٍ عليكْ
في غرفةٍ أخرى على بردى حبيبةْ
شوقي، مع النيران أنتَ، وما خبتْ يوماً لديكْ
شوقي... مع الشعبِ المطارَدِ أنتَ، في وهَجِ الطليعةْ
في القلب يا شوقي العزيزْ...
فلتصرخِ الضرباتُ في الليل الشتائيّ الغريقْ
وليكذبِ العملاءُ.... وليصفوك ما شاؤوا جزافا
ولتنطلقْ خطواتُهم سوداءَ معتمةَ البريقْ
وليشربوا بردى، فإنكَ أنتَ أعلمُ بالحريقْ!
شوقي... لقد غنيتَ للحب المورّدِ والحياهْ
شوقي... لقد غنيتَ من أجْلِ العراقْ
متحرراً...
لكنهم وضعوك يا شوقي هناكْ
في غرفةٍ بالسجنِ باردةٍ كئيبةْ
العارُ يا شوقي لمن سجنوكَ... يا أفقاً طليقا

يا منشداً للشعب أغنيةً، وللدنيا طريقا
أنا من هنا، من بيتيَ النائي أشدُّ على يديكْ
وأراكَ تغمض مقلتيكْ
في غرفةٍ أخرى على بردى حبيبةْ!

١٩٥٩

إرفعوا أيديكم عن سعيد حورانية

ارفعوا أيديَكمْ عنه ارفعوها
ارفعوها
هذه الأيدي المدماةَ اللئيمةْ
التي تأكل حتى في الجريمةُ
ارفعوها
إنها تغلقُ عن أحداقِهِ ضوءَ البحارِ
ويواري ظلُّها المجرمُ ألوانَ النهار
انها تسلبه خبزَ الحقيقةْ
أيها الفاشستُ، لكنَّ الحقيقةْ
أبداً تبقى على الوجه الدمشقيّ نداءا
ضارياً يصرخُ بالناس رجالاً ونساءا
فتلهبِّي يا رياحَ الصدقِ. . . هبِّي
ابذري أنشودةً في كل دربِ
واصرخي من أجله في كلِّ شعبِ
وارفعي وسطَ الأكاذيبِ لواءَ المعركةْ
ولتهبَّ العاصفةْ
انهم قد زرعوا الريحَ. . . وأنتِ العاصفةْ!

١٩٥٩

الكويت

الزيتُ في الأسواقْ
والبحرُ في الشارعْ
بحرٌ بلا أعماقْ
والناسُ قد يقرأون
لكنَّ كلَّ الناسِ لا يكتبونْ
والبحرُ في الشارعْ
يخوضُ في الأوراقْ
أمواجُه تجهلُ حتى رملَها المحتقرِ
هوادجَ الفولاذِ والمطّاطْ
أمواجُه تجهل حتى رملَها المحتضرْ
. . . . . .
والزيتُ في الأسواقْ
زيتٌ بلا خبزٍ ولا خمرةْ
لكننا نشرب منه قطرةً مُرةْ
وقطرةً قطرةْ
نسيلُ في الشارعْ
البحرُ في الشارعْ

البحرُ يمتصنا
يمتصُّ منا الكتابْ
يمتصُّ حقدَ الناسْ
يمتص حقدي قطرةً قطرةْ
البحرُ مثل السرابْ
ندفنُ في عتمتهِ أرضاً بلا موتى
لأن في قمصاننا القطنيةِ البيضاءْ
أوراقَنا مطبوعةً زرقاءْ:
أوراقَنا الموتى
يا حقدَنا الغالي الذي لا يموتْ
افتحْ لنا الأبوابْ
اصرخْ بكل البيوتْ
ولمنشِ في الشارعْ
ولنمشِ نحو البحرْ
في الأفق المغبرّ
لننقذَ الأرضَ التي قد تموتْ

الكويت، ١٠/ ١٢/ ١٩٥٧

أرض زهران

يا قطاراً عربيَّ الشمسِ يجتاح المدينةْ
خلّني أمضي معكْ
ولأقلْ: ما أسرعَكْ
يا قطاراً صائحاً في كل بيتْ:
إنني من أرضِ زهرانٍ أتيتْ،
إن لي في أرضِ زهران خنادقْ
وقلوباً وبنادقْ
وبقايا من محمّدْ
الإلهِ الجائعِ المدفونِ في أرض الحرائقْ
حيث لم تعبّر سفينةْ
أبداً إلا على صدرِ محمدْ
حيث يستشهدُ زهرانُ الفتى خمسينَ مرةْ
كلما مرتْ سفينةْ
انطلقْ بي يا قطارَ العربِ
نحو أرضٍ لونُها وجهُ أبي
إن آلافَ المناديلِ تناديني إليها
ومن الأعماقِ تدعوني ابتسامةْ

وأناشيدُ وصوتٌ من أبي
يا قطارَ العربِ
ألقِني في الزوبعةْ
صارخاً بين الجموعِ المفزعةْ
حاملاً قلبي المناديلَ وكفِّي البندقيةْ
ولأمتْ حين تعيشُ الأغنياتُ العربيةْ
إنني قاتلتُ من أجلِ هواها
ولقد مرّغتُ وجهي في ثراها

البصرة، ١٩٥٦

طريق إلى قسطنطينة

أنا لستُ أملكُ بندقيةْ
لكنهم لو يسمحون هنا لأسرعنا إليك
ولبعتُ أوراقي ومكتبتي وجئتُ ببندقية
ولكنتُ جندياً لديك
أمضي،
وأُقتَلُ في المدينةْ
من أجلِ أطفالِ المدينةْ
ولنسمةٍ من برشلونةْ
ولوجهكِ العربيِّ يا ضوءَ الشمالْ
قلبي يرفُّ على سفينةْ
والنخلُ تنفضُ سعفَهُ ريحُ الشمالْ
وهناك في الآفاقِ تلتمعُ المدينةْ
ويموتُ في أعماقها حبي. . .
وتُنسَفُ برشلونةْ
خذني إليها يا شمالْ
أأظلُّ بين النخلِ والأنهارِ أعمى لا أراها
وأموتُ في أرضٍ سواها؟

أعبرْ بيَ الدنيا إليها
أنا هاربٌ وحدي إليها
قلبي يدقُّ لها: تحيةْ!
وعلى ذراعي بندقيةْ

البصرة، ١٩٥٦

إلى أحد الجزائريين الخمسة

الملحُ في البحرِ
والزيتُ في الزيتونْ
والخبزُ في القمحِ
وأنتَ في قلبي
قد زرتَ بيتي هذه المرةْ
وكنتَ في الأسرةْ
حدثتَنا عن بيتكَ المسروقْ
عن شاعرٍ في السوقْ
عن أمةٍ لا تموتْ
وعاملٍ مشنوقْ
يا زائرَ البيتِ
لا أستطيعُ اليومَ أن أتبعَكْ
لكنني أقدرُ أن أسمعَكْ
في هبّة الناسِ
خمسةَ أجراسِ
تشعل آلافَ الشعاراتِ
خمسَ رصاصاتِ

خمسةَ أبوابٍ لنا تَفتحُ
درباً إلى وهرانْ
درباً إلى ما يبدعُ الإنسانْ
للملحِ والزيتونْ
والخبزِ والحبِّ
يا طيبةَ الشعبِ
يا قسوةَ البغضاءْ
يا غُصنَ الزيتونةِ الحمراءْ
انظرْ إلى شعبي
ليمونةً يمتصُّها المخبرونْ
ملعونةً صفراءْ
لكنها تحلمُ
أحلامَكَ الخضراءْ
من أجل هذا نغلقُ الأبوابْ
لنفتحَ الأبوابْ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
اضرابْ

١٩٥٦

إلى فريتز شولتز

معسكر أوشويتز للاعتقال

عيناكَ جامدتانِ في عينيّ. . . لا تتألقانْ
إلا برعبٍ يعتريني
إلا بومضِ الموت يسقي زهرتينِ من الفظاعةْ
عيناكَ ظامئتان حتى للوداعةْ
وكأنما الفزعُ الأليمُ بمقلتيكْ
يومَ ارتقابكَ ساعةَ الإعدامِ يجري في فؤادي
فيهزّ أعماقي إليكْ
إني لأرقبُ مقلتيك
كالرعب واسعتينِ. . . كالدنيا، فأغرق في مياه
سوداء مظلمةٍ حقيقتُها لديكْ
يا مقلتينِ بلا أسى، يا نظرتين بلا انتباهْ
أوَلم تجدْ يوماً صديقاً
فعرفتَ كيف يحبُّ إنسانٌ أخاهْ؟
اليوم إقبلْني صديقا
فلربما حدثتَني عما تحبُّ

ولربما مرتْ من الذكرى سحابةْ
فوددتَ لو حدثتَني
عن بيتكَ المهدومِ عن كتبٍ مخبأةٍ وغابةْ
فتحتْ ذراعيها وضَمَّتْ عاشقينْ
لكنْ ستصمتُ يا صديقي
فالحبلُ لم يتركْ على شفتيكَ إلا قطعتين من الرمادْ
. . . . . .
. . . . . .
إني سأصرخ يا صديقي
عن لحمكَ المزرقِّ. . . عن حزٍّ عميقِ
في عنقكَ الملقى على ريحِ الشتاءْ
عن صوتكَ المخنوقِ والكتبِ الخبيئةْ
يا أرضَ كاتوفيسَ، يا كتباً خبيئةْ
يا غابةً أعشابُها حمراءُ، يا دنيا دفيئةْ
الشمسُ تشرق مرةً أخرى عليكْ
والنورُ يغسلُ كلَ شيءْ
حتى دروبَ الموتِ في أوشويتزَ حتى المِحرقاتْ
اليومَ ترتفع الحياةْ
كقلاعِ بولندا ملوَّحةً مدارجُها عصيبةْ
لكنها ـ كقلاع بولندا ـ حبيبةْ
أما إذا أخفيتِ عن أطفالِ فارسوفيا صديقي
أما إذا أبقيتِ في أحداقه الفزعَ الأليمْ

أما إذا صافحتِ جلاديه يوماً
تركتِ للعملاء أن يطأوا صديقي
ويمرغوه على كنائسَ من حميمْ
ويمزقوا عينيه حقدا
فلسوف أوقظهُ، سنوقظُه جميعا
سنلمُّ من بين المحارقِ والترابْ من آلافِ آلافِ العظامْ
كلماتِهِ وعظامَهُ الغضبى، ليوقدَ في الضبابْ،
في السمِّ، مشعلَهُ، ويحملَ بندقيةْ
معنا. . . مع الدنيا جميعا

دمشق، ٢٦/ ٩/ ١٩٥٧

أربع أغنيات إلى صوفيا

إني أتيتُ إليكِ يا بيتي. . . أتيتُ بلا نجومْ
إلا نجومَكِ أنتِ يا صوفيا وإلا أغنياتي
إني قطعتُ مع النجومْ
درباً حديدياً ترقرقَ في حياتي
درباً من العتماتِ والجوعِ الأليمْ
لكنه كالنور يومضُ في حياتي
إن كان يوصلني إليكْ
إن كان يتركُ قلبيَ المضنى رضيعاً في يديكْ
يا نهرُ. . . يا درباً إلى صوفيا. . . تألقْ في حياتي
بالأمس أطفأتُ الفوانيسَ العتيقةْ
ومضيتُ نحو عوالمٍ ملأى وألوانٍ صديقةْ
بالأمسِ لم أتركْ على الشبّاكِ إلا ذكرياتي
زرقاءَ مظلمةً غريقةْ
أعماقُها حقدُ السياطِ ووجهُها ألمُ الخليقةْ
بالأمس لم أحفرْ على قلبي سوى نارِ العراقْ
واليومَ جئتُ إليكِ يا صوفيا العريقةْ

نجمانِ في قلبي: هواكِ، وكلُّ نيرانِ العراقْ
الناسُ في وطني المعذَّبِ يرقدونَ بلا بيوتْ
أبوابُهم مفتوحةٌ للريحِ. . . للمطرِ الصَّموتْ
واليومَ أرقدُ يا صديقة
في غرفةٍ بيضاءَ ناعمةٍ أنيقةْ
الماءُ والأزهارُ فيها
والدفءُ والخشبُ الصقيلْ
يا أيها الشعبُ النبيلْ
سأظلُّ أذكرُ منكَ نافدةً وأزهاراً وحبا
سأظلُّ أذكرُ كلَّ شيءْ
لكن شعبي أيها الوطنُ النبيلْ
ملقىً على المستنقعاتْ
ملقىً على جوعِ الصحارى
عيناه من مِزَقٍ ولكنْ نحو شمسِكَ تنظرانْ
يا موطنَ العمالِ يا وشمَ الكفاحْ
يا موعداً للحبِّ. . .
عمالُ العراقْ
هم في انتظارك منبعاً للفجرِ واليدِ والسلاحْ
لو كنتُ أجهلُ كلَّ أغنيةٍ سواكِ لما أسفتُ
لحنٌ إلى صوفيا وبعدكِ يا صباحُ ليأتِ صمتُ
لو كنتُ أقدرُ أن أغني

كلَّ الأحبةِ في بيوتكِ في شوارعكِ الجميلةْ
لبنيتُ فوق الشمس مجدي
لكنْ ستنتظر النجومُ بقلب سعدي
يوماً تزركشُ فيه فيتوشا فتبلغ كلَّ حدِّ

صوفيا، ١٩٥٧

يوميات السفينة جروزيا

١ ـ أيها الصاري، ٢٢ ـ ٧ ـ ١٩٥٧

أنا في انتظارِ مدينةٍ بيضاءَ يا صاري السفينةْ
أسرعْ. . .
ففي الآفاقِ تلتمعُ المدينةْ
والنورُ في قلبي وعينايَ انتظارْ
الريحُ تصرخ والبحارْ:
أسرعْ. . . .
وكلُّ الأغنياتْ
أسرعْ. . .
فعندي موعدٌ أنا والحياةْ

٢ ـ أغنية للبحارة السوفييت، ٢٣ ـ ٧ ـ ١٩٥٧

في الليلِ أضواءُ النجومْ
زرقاءُ خافتةٌ وأنتم تنشدونْ
والبحرُ أهدأُ ما يكونْ
والقلبُ أصفى ما يكونْ
يا إخوتي. . . غنوا معي شيئاً عن الأنهارْ

فالماءُ في الفولجا يلونهُ النهارْ
والماء في وطني يهيم بلا شموس أو نجوم

٣ ـ أقاصيص روسيه، ٢٣ ـ ٧ ـ ١٩٥٧

في يوميَ الثاني رأيتُ الأصدقاءْ
كنا معاً في البحرِ يجمعنا كتابْ
في غرفةٍ مسدودةٍ مفتوحةِ الأبوابْ
كانوا وراءَ الحرفِ ينتظرون زائرهُم طويلا
إيفان بافلوفيتش والتتريُّ والرجلُ الصغيرْ
ما أروعَ الإنسانَ يفتح قلبَهُ حرفُ الكتابْ!

٤ ـ فلاديمير إيليتش لينين، ٢٤ ـ ٧ ـ ١٩٥٧

كم يحلمُ العمالُ في وهجِ العراقْ
ببلادِكَ السمحاءِ مزهرةً توشّحُها السكينةْ
واليومَ أنتَ هنا على خشبِ السفينةْ
متألقُ العينينِ . . .
تعطيني يديكْ
ونسير في الريحِ الرذاذيّ الغزيرْ
جنباً إلى جنبٍ . . .
وندخلُ في المدينةْ

٥ ـ أسطنبول، ٢٤ ـ ٧ ـ ١٩٥٧

ماذا سأحملُ منكِ نحوَ المهرجانْ؟

يا صخرةً بُنيتْ على قلبي. . . على قلبِ العراقْ. . .
ماذا سأذكرُ يا جميلةْ
يا زهرةَ الأحزانِ عنكِ
والناسُ إن سألوا فهل بيديَّ حيلةْ!
سأقول: إنكِ يا جميلةْ
لم تعرفي دفءَ الشموسِ ولم تردي الليلَ عنكِ

٦ ـ الأناشيد، ٢٥ ـ ٧ ـ ١٩٥٧

«يا عزةَ الشهداءِ. . .». . .
أقسمْنا نقاتلْ
من أجلِ وجهِكَ أيها الصوتُ العميقْ
من أجلِ بحّارٍ صديقْ
من أجل أغنيةٍ صغيرةْ
ولأجل موطنيَ السجينِ وبيتيَ العاري
يا أيها لاصتُ العميقْ
كنْ صيحةً للثأرِ في أعماقِ ثوارِ!

٧ ـ البحر الأسواد، ٢٥ ـ ٧ ـ ١٩٥٧

أقبلتَ في هبّاتِ عاصفةٍ صغيرةْ
متسلقاً نحو الحواجزِ مثلَ أغنيةٍ خفيّةْ
بالموج تبعثُ لي تحيةْ
يا ناسجاً فوقَ ارتجافِ الريحِ أنهارَ النبيذْ

الفضةَ التعبى وأثوابَ النساءْ
إني أعيشُ على رجاءْ
أمواجِكَ السوداءِ يا بحرَ الضياءْ!

٨ ـ ساعات ثلاث إلى أوديسا، ٢٥ ـ ٧ ـ ١٩٥٧

الغيمُ أمواجٌ على لمحاتِ أوديسا البعيدةْ
يُخفي دروبَ البحرِ عن عينيّ. . .
يُخفي ما أحبُّ
والموجُ غيمٌ في طريقي
يا قلبُ. . . هل دنياكَ أمواجٌ وسُحْبُ. . .
لا تكتئبْ يا قلبي المجنونَ يا طفلُ
يا كوكباً بالدمع يبتلُّ. . .
أفلا تحسُّ عوالماً تدنو حبيبةْ
ومن البعيدِ تلوح أوديسّا قريبةْ!

إلى الاشتراكية

كان الشتاءُ يلفُّ معطفَهُ
فوق الثلوجِ
وكانتِ الريحُ
مجنونةً
يهتز صَرْصَرُها
وكأنه بالبرد مجروحُ
وهناكَ
في مسرى سفينتهم
قلبي
وبطرسبرجُ
والريحُ
قلبي لوجه الشمس أفتحهُ
ولوجهكِ الأرضيِّ أفديهِ
يا بذرةً
ما هبَّ زارعُها
إلا وهبّتْ من أغانيهِ

١٩٥٨/٦/٨

موطني

موطني. . . لو نسمة من موطني
لو شراعٌ نحوهُ يحملني
لو تخفيتُ كعصفورٍ فما يعرفني
حارسٌ يغلقُ عن عيني سمائي
لو صديقْ!
لم أقلْ عزَّ الصديقْ
إن كلَّ الشرفاءِ
أصدقائي
إنما. . . آهٍ لأقمارِ الطفولةْ!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
عندما تنهمرُ العتمةُ في بيتي ويأتي المطرُ
وتهزُّ الريحُ شبّاكي، أراهْ
واقفاً بالبابِ مفترَّ الشفاهْ
غائماً فظّاً حبيبا
وعلى سيمائه الوحشيةِ الغبراءِ زهرٌ أخضرُ

وإخضرارٌ مزهرُ
وندىً يحملُ للبحرِ النذورْ
أمسِ في رملِ الدجى كدتُ أراهْ
لم يكنْ بالبابِ . . .
لكنْ كان مُفترَّ الشفاهْ
وعلى سيمائهِ الوحشيةِ الغبراءِ تبكي أغنيةْ
كان في الدربِ على صندوقِ صابونٍ ينامْ
كان يبكي في دموعِ الأغنيةْ :
«أريدْ أشردْ
من البصرةْ
ولا عودْ
. . . . . .
. . . . . .
وأنا في خطوةِ المحكومِ بالموتِ أسيرْ
في ظلامي . . . في ظلامٍ لا يسيرْ . . .
وأغني وأغني وأغني . . . وإلخ . . .
أغنيةْ

الكويت، ٢٣/ ٢/ ١٩٥٨

الصوت

البحرُ في عينيكَ، والأرضُ النبيةُ في جبينِكْ
ومحمدُ المحمودُ رغمَ الموتِ اسمعهُ لديكْ
متلاحقَ الأنفاسِ، محترقاً، يطلُّ بمقلتيكْ
والصوتُ من أعماقِ هذي الأرضِ، من حقدِ الجريحْ:
سلمانُ... إني لا أموتْ
سلمانُ... إني لا أموتْ
إن الرصاصةَ في أعزِّ القلبِ لكني أصيحْ
ودموعُ أمي...
آهِ...
تغرقُ في قميصي
وجبينُ أمي الشاحبُ المضنى، يسيلُ على دمائي
وشفاهُها تهتزُّ:
يا ولدي الصغيرْ....
أتموتُ يا ولدي ولم تشربْ سوى ماءِ الشقاءْ؟
يا أُمُّ... إن الموتَ في أيامنا ما عادَ موتا
يا أمُّ... إني لا أموتْ

كالفأرِ في الأرضِ التي غنّيتُ فيها
ووهبتُها إيمانيَ الأرضيَ واستُشهدتْ فيها
. . . . . .
أمحمدُ المحمودُ. . . انكَ في دمشقَ مع الربيعْ
والصوتُ صوتُكَ أنتَ في المذياعِ، في قلبِ الجميعْ
نهراً وأغنيةً ودرباً في القمرْ
ورصاصةً غضبى وثاراً من معاركنا انفجرْ
أمحمدُ المحمودُ، صوتُكَ من دمشقَ، من المتاريسِ العريقةْ
يأتي إلى «بلد السلامةِ» مثلما تأتي الحقيقةْ
ويهزُّ حتى النخلَ في «باب الطويلْ»
ويشقُّ بين الناسِ نهراً للأناشيدِ العميقةْ
وسطَ الأكاذيبِ الدنيئةِ، وسطَ حقدِ المخبرينْ
أمحمدُ المحمودُ، صوتُكَ في القرى تمرٌ وماءْ
وذرى متاريسٍ وعزةُ بندقيةْ
إني هنا، في وحشة المنفى، بعيداً عن بلادي
عن قلبِ مكتبتي. . .
عن الميناءِ، والريحِ الخفيّةْ
تلك التي قادت خطاي إلى رصيفِ اللاذقيةْ
لكنني أدري بصوتكَ. . .
أنهم يترقبونهْ
في همسةِ المذياعِ، في أوراقِ حربٍ ما، وفي خطواتِ صحبي

وغداً إذا ما اهتزَّ شعبي
واحتزَّ بالقبضاتِ خائنَهُ، وهبّتْ برشلونةْ
دَيناً عليّ لأطلقنَّ لوجهِ صوتِكَ يا صديقْ
أولى رصاصاتي. . .

الكويت، ٥/٣/١٩٥٨

الليل في حمدان

إننا في ليلِ حمدانَ نقولُ:
نَمْ إذا نامَ النخيلُ
عندما تشرقُ في قريةِ «حمدانَ» النجومُ
تُطفأُ الأكواخُ والمسجدُ والبيتُ القديمُ
إنه النومُ الطويلُ
تحتَ همسِ السَعفِ الشاحبِ: الموتُ الطويلُ
إنها حمدانُ. . .
سلٌ نخيلُ
نحن لا نسمعُ في حمدانَ إلا ما نقولُ
ليلُنا والنخلُ والحلْفاءُ النهرُ القديمُ
حيث أوراقٌ من الليمونِ في الماء تعومُ
إنها خضراءُ كالماء كعينيكَ ـ إذا شئتَ ـ أقولُ
أنتَ يا من يُرتجى من لونِ عينيكَ الربيعُ
كيف ينساكَ صديقُ؟
إنني ألقاكَ إذ يغمرُ حمدانَ الأفولُ
حين يُلقى فوقَها ليلٌ ثقيلُ

. . . . . .

وسوياً نحن في أعماقِ بغدادَ نجولُ

عندما يغمرُ حمدانَ الأفولُ

البصرة، ١٩٥٥

إلحاح

يا سالمُ المرزوقُ، خذْني في السفينةِ. . . في السفينةْ
خذْ مقلتي ثمناً. . . سأعملُ ما تشاءْ
إلا «حكايات» النساءْ!
يا سالمُ المرزوقُ. . . زوجتيَ الحزينةْ
في بيتِ والدِها سجينةْ
في قريةٍ بالقربِ من «سيحانَ» جرداءِ النخيلْ
قد كان والدُها من الشكوى يموءْ
كالقطِ في عِزِّ الشتاءْ
يا سالمُ المرزوقُ. . . أعملُ ما تشاءْ
إلا «حكاياتِ» النساءْ!
يا سالمُ المرزوقُ. . . أنتَ أبو المروءةْ
إن لم أسافرْ سوفَ يخنقُها البكاءْ
ستموتُ في عِزِّ الشتاءْ
من بُخلِ والدِها ومن ليلِ الشتاءْ
يا سالمُ المرزوقُ. . .
ليستْ كالنساءْ
هي حلوةٌ يا سالمُ المرزوقُ يُذبلها البكاءْ

هي طفلةٌ ما زال يُفرحها القمرْ
وتخاف أن هطلَ المطرْ. . .
يا سالمُ المرزوقُ. . .

البصرة، ١٩٥٦

ميت في «بلد سلامة»

قد مات عبدُ اللَّه. . . والأمواتُ في «بلدِ السلامةْ»
يمضونَ كالأحياءِ في صمتِ الدموعْ
والناسُ في «بلدِ السلامةْ»
ينسَونَ حتى الموتَ حين يرونَ قريتَهم تجوعْ
لكنْ سأروي كيف عبدُ اللَّه ماتْ:
كان الظلامُ يكفّنُ الضوءَ الأخيرْ
وتلوحُ أحداقُ الفوانيسِ العتيقةِ مطفآتْ
لا صوتَ. . . لا إنسانَ. . .
صمتٌ كالصلاةْ
الليلُ يلتهمُ الحياةْ
من قلبِ عبدِ اللَّه وهو يموتُ في «بلدِ السلامةْ»
ملقىً يموتُ، مهشمَ الأضلاعِ، تغمرهُ الدماءْ
والأرضُ تشربُ، والنجومْ
حمراءُ واسعةٌ، وعبدُ اللَّه ماتْ
قد متَّ وحدكَ أيها الملقى جريحاً في الضبابْ
عيناكَ غارقتان بالدمِ والترابْ
وبقيتَ طولَ الليلِ وجهاً للرياحْ

ودماً يذوقُ النملُ منه في الصباحْ
متخثراً كالتمرِ في «بلدِ السلامةْ»
يا من هوَيتَ وأنتَ تحلمُ بالمواسمْ
مثلَ المسيحِ حملتَ سعفةْ
وبقيتَ طولَ الليلِ مصلوباً تحشرجُ دون رفّةْ
أنّا سواءٌ أيها الرجلُ العظيمْ
يا ميتاً لم ننسَهُ يوماً ولن ننساه يوما
يا حاملَ الستينَ، يا رباً مدمّى

البصرة، ١٩٥٧

أغنية لا تدري إلى مهرب جريح

يا فارساً في الليلِ، بيتي هنا
بيتي على الأنهارْ
قفْ مرةً في الدارْ
واتركْ بقلبي حلُماً ليِّنا
وحدي وراءَ البابْ
والليلُ . . . ما أطولَهْ
لو عرفَ الأغرابْ
أني وراء البابْ
فلن يناجي بلبلٌ جدولَهْ . . .
مُرَّ علينا يا فتىً ليّنا
عشرونَ نهراً فُرشتْ بالماءْ
والوردِ الأحمرْ
وههنا المعبرْ
فمرُّ من دربنا
يا أملاً لينا
أسمعُ في الأعشابْ
حوافراً متعبةً خضراءْ

نديةً بالماءْ
وأنتَ. . . هل تعرفُ
أني وراء البابْ
ثوباً شفيفاً وهوىً ليّنا؟
ليلٌ بلا ظُلمةْ
كأنما عتمتُه نجمةْ
وفارسي ملطّخٌ بالتوتْ
ووجههُ نجمةْ
تضيءُ قلبي فرحاً لينا
وحدي وراءَ البابْ
وفارسي يأتي
يأتي. . .
لكنه نعسانْ
مسربلٌ بالتوتِ والصمتِ. . .
لم يلتفتْ حتى إلى بيتي

البصرة، ١٩٥٧

الخيط

إنني أحسستُ بالموتِ قريبا
قبلَ أعوامٍ. . .
وما زال كعينيَّ قريبا
أنني ألمحه اليومَ كما كنتُ أراهُ
شيّقاً كالحلمِ تدعوني خطاهُ
مثلما تدعو حبيبا. . .
نحن كنا أربعةْ
وعلى الشارع آلافُ العصافيرِ تطيرْ
من حَجرْ
كانت الدنيا مطرْ
من حَجرْ
كانت الأرضُ إناءً من رصاصٍ. . . .
وبشرْ
ذلك اليومَ رأيتُ الموتَ يدنو
فكرةً فيها عذوبةْ
وارتعاشْ

لحظةً ألمسُ في أعماقها كلَّ الحياةْ
خطوةً مملوءةً ثم أموتُ
برصاصةْ
ثم يمضي الموتُ والشارعُ عني والبيوتُ
والرصاصةْ
نحن كنا أربعةْ
ورجعنا أربعةْ
غير أني عدتُ كالنائمِ في الماء طويلا
شاحباً يأكلُني شوقٌ إلى نارِ الحريقْ
إنني دستُ على الخيطِ ولم ينقطعِ
أيها الموتُ العميقْ
أنتَ يا عمرَ البريقْ
آهِ يا أغنيةً كانت معي!
أترى لونتَ عينيه شموسا
وهززتَ الكفَّ بالمجدِ العظيمْ
وكشفتَ القلبَ في وجهِ الرصاصْ
واهباً أنبلَ ما يعطي الكريمْ؟
. . . . . .
. . . . . .
أنا ما شاهدتُه يهوي قتيلا
زاهياً كالنور لم يحملْ من الوحلِ إشارةْ

مُسْلماً عينيه للحلمِ. . . قليلاً. فقليلا.

. . . . . .

إنه داسَ على الخيطِ طويلا

البصرة، ١٩٥٧

حادثة في الدواسر

اهربْ. . .
لقد قدموا إليكْ
ببنادقٍ متأرجحاتْ
وعلى الطريق تدقُّ أحذيةٌ قديمةْ
سوداءُ يخفي النخلُ موطئَها كما يخفي الجريمةْ
ليلٌ بلا قمرٍ. . . وأحذيةٌ قديمةْ
كالخيلِ مسرعةٌ إليكْ
وخناجرٌ متوهجاتْ
سلمان عبد اللَّه يا قمرَ الدواسرِ. . . يتبعونكْ
ببنادقٍ متأرجحاتْ
أبداً وراءك يركضونْ
فعيونُهم تخشى عيونَكْ
لكنهم قد يقتلونكْ
لن يذكروا يا طفلَ عبدِ اللَّه، أغنيةً سخيةْ
كنا نغنيها معاً: «للناصريّةْ
تِعْطَشْ وشَرْبَكْ مايْ. . . للناصريةْ»
. . . . . .
. . . . . .

النهرَ يا سلمانُ. . . لا تعبرْ. . . هنالكَ يدركونكْ
اربضْ مع الحلفاءِ. . . لا تعبرْ. . . هنالك يقتلونكْ
لا تمضِ. . . . إن النهرَ أشباحٌ لئيمةْ
سوداءُ يخفي النخلُ موطئَها كما يُخفي الجريمةْ
وبنادقٌ متربصاتٌ. . .

. . . . . .

. . . . . .

البصرة، ١٩٥٥

الليل أزرق

الليلُ أزرقُ مثل آلافِ الخناجرْ. . .
محمودُ. . . يا تلميذُ، يا قمرَ العراقْ
الليلُ أزرقُ يا صغيري
الليلُ أزرقُ والنجومُ تموتُ في طَرَفِ المدينةْ
مثلَ الفوانيسِ البعيدةِ في سفينةْ.
إن الطريقَ الموحشَ الخالي ينامُ مع السكينةْ
إلا خُطىً مثلَ الحريرِ
الليلُ أزرقُ يا صغيري
فلأجْلِ مَنْ تمضي بعيدا. . .
في الشارعِ الخالي، وحيدا؟. . .
محمودُ، يا تلميذُ، يا قمرَ العراقْ
حتى جنودُ الموتِ لا يتحركون بلا عناقْ
وهناكَ أنتَ بلا أغاني
لا نورَ موسيقى. . . خطىً مثل الحريرِ
الليلُ أزرقُ يا صغيري
ويلوحُ وجهُكَ في الضبابْ

خطوٌ وأوراقٌ صغيرةْ
سمراءُ . . .
تطرقُ كلَّ بابْ

البصرة، ١٩٥٥

أمر بإلقاء القبض

كان الصباحُ الرطْبُ يغسلُ في المدينة
وجهَ الشارعِ بالضبابْ
ويضيءُ أغنيةً حزينةْ
بشفاه فلاحينَ تطردهم حوانيتُ المدينة:
«يا بصرةْ لا تِبچيْن»...
تملؤها الضغينةْ
وأنا، وأنتَ، وأصدقائي
يا أشهلَ العينينِ، كنا كالنجومِ بلا سماءِ
وكأنّ بصرتَنا الحزينةْ
البصرةَ الخجلى تنام على وسائدَ من سكينةْ
تُخفي دمَ العمالِ.
قال صديقُنا: اثنان جاءا
بملابسٍ خضراءَ، جاءا مسرعينِ بلا عيونْ
إن الخطى تهتزُّ متقنةً على بحرٍ ترابيٍّ طويلْ
كانا أمامكَ عندَ منعطفِ الطريقِ
الجسرخ فالدّكانُ... فالمقهى، وتُمسَكُ يا صديقي

يا أشهلَ العينينِ . . .

قلتَ لنا : وداعا

عيناكَ تلتمعان بالحقد التماعا

ودلفتَ مختفياً تؤجّجكُ الضغينةْ

يا أشهلَ العينينِ، يا شمسَ المدينةْ!

البصرة، ١٩٥٤

الهارب الليلي

كل شيءٍ ينهضُ الآنَ من الماضي الغريقِ
هذه الليلةَ من مايو. . .
بفانوسٍ. . . وريحِ
وكتابينِ وسروالٍ عتيقِ
هكذا. . .
إنه الفانوسُ يهتزّ ضئيلا
وظلالُ النخلِ خضراءُ. . . وفي النهر سفينةْ
إنها تدنو من الأرض قليلاً. . . فقليلا
هكذا. . .
كانت الأنجمُ زرقاءَ البريقِ
مثل عينيكَ حزينةْ
إنها الثورةُ في الحزنِ العميقِ
هذه الليلةَ من مايو. . . ستمضي يا صديقي
بكتابين وسروالٍ عتيقِ
أترى ترجعْ يوماً بالسلامةْ. . .

وعلى صدركَ تهتزُّ حمامةْ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

كلُّ شيءٍ ينهضُ الآنَ من الماضي الغريقِ
إن هذا عامُه الثاني ولم يرجعْ إلينا
سوف يلقي الطفلُ يوماً ما ذراعيه علينا
سوف يأتي بكتابين وسروالٍ. . .
جديدِ
إنه يرجعُ دوماً بالسلامةْ!

البصرة، ١٩٥٦

شعار

إني سمعتُكَ يا صديقي
إني سمعتُكَ هائجَ الصيحاتِ بالحبِّ العميقِ:
يا إخوتي، لا تذهبوا. لا تتركوهم يُنزلونْ
هذا الشعارْ.
والنارُ، والمتظاهرونْ
يهرولونَ ويصرخونْ:
«لا حربَ، لا فاشستَ»...
كانوا عن شعاركَ يهربونْ.
كنْ يا صديقي من تكونْ
كنْ عاملاً ألقاه «تيسو» منذُ عامْ
للجوعِ، للدمِ، للظلامْ
كنت أنتَ فلاحاً يريد بكردلانْ
الخبزَ والغدَ والحنانْ
كنْ طالباً يطوي كتاباً للسلامْ
بيدٍ...
وفي الأخرى الشعارْ
كن يا صديقي من تكونْ

إني دعوتُكَ يا صديقي
فلقد سمعتُكَ هائجَ الصيحاتِ بالحبِّ العميقِ

يا من رأيتكَ بعد حينْ
تطوي الشعارَ ووجهُكَ الزاهي حزينْ:
أنّا معاً. . .
وغداً نعودُ مع الرجالِ العائدينْ.

البصرة، ١٩٥٤

تحت أيديهم

وعندما تُلقى من الغرفةِ
مهشمَ الأضلاعِ مذهولا
أزرقَ كالميّتِ
في ليلةٍ سوداءَ،
مقتولا
فكّرْ مع البصرةِ
فكرْ بما نهوى
وما نغنّيهِ من القلبِ
بالشمسِ والخبزةِ والحبِّ
. . . . . .
فكّرْ مع البصرةِ

البصرة، ١٩٥٦

الاستشهاد

رمحٌ من الفولاذِ في أحشاءِ عيسى
رمحٌ يمزقهُ ويسحبهُ طويلا
زهراً قماشياً تشرَّبَ بالدماءْ
والموتُ يتركُ خلفَ عيسى
قمراً من الدمِ والمساءْ
متعثراً قذراً طَويلا
والرمحُ يحفرُ في طريّ اللحمِ دربا
ويدقُّ بالفولاذ قلبا
متصلباً في قلب عيسى
وهنا تدحرجَ رأسهُ المقطوعْ
وبعنقهِ تسعونَ سكّينا
. . . . . .
. . . . . .
المخبرونَ يهرولونْ
متعثرينَ برأسِ عيسى
وعلى المطابع تشربُ الصحفُ الحقيرةْ
بين السعال دماءَهُ
سوداءَ حاقدةً غزيرةْ

البصرة، ١٩٥٧

لقاء مع رجل ما

بعيداً في ضبابِ مدينتي الخجلى
لقيتُكَ أنتَ والعرباتِ والليلا
حزينٌ أن أراكَ هنا
سعيدٌ أن أراكَ هنا
وفي عينيكَ ألقى وجهَكَ الطفلا
نقياً كطيورِ البحرِ في أمسيةٍ جذلى
لقد علمتَني البغضاءَ والحبا
لقد علمتَني أن أعبدَ الشعبا
. . . . . .
. . . . . .
ومرتْ نسمةٌ. . . ومضيتَ والعرباتِ والليلا
ـ وداعاً. . .
والخطى تنأى. . . وتلقي دوننا ظلا
بعيداً في ضبابِ مدينتي الخجلى

البصرة ـ شتاء ١٩٥٥

رفض

أنا في انتظارِ يديكَ يا رباً يسيرُ على الرمالْ
إن الذي قد سار فوق الماء ماتْ
وبقيتَ أنتَ:
بلا صفاتْ
لكنّ قلبي في انتظاركْ
فالبحرُ مزّقهُ نبيٌّ بالحذاءِ.
وبالبخارِ
ألقيتَهُ يبكي على قدميّ، مهتوكَ الإزارِ...
وبقيتَ أنتَ...
الهيَ الرمليّ، مجهولَ الصفاتِ
إلا من الألمِ، المقدسِ في انتظاري
وأنا أشقُّ الرملَ لكني أغوصْ
في الصِفرِ...
أحصي اللانهايةَ في النهايةْ
كتبيك الممنوعِ ـ صلباً ـ عن طواطمهمْ
متألماً حتى الشهادةْ
لكن سعدي لن يموتْ

في الرملِ. . . في شيرازَ. . . من أجل الشهادةْ
متمسكاً بالصفرِ. . .
يُحصي اللانهايةَ في النهايةْ. . .

الكويت، ٢٢/ ٤/ ١٩٥٨

رجاء

يا رجاءْ
إن بي شوقاً إليكْ
أنا أهوى لو تلمستُ يديكْ
لو تحدثنا قليلا
أوَ ما زلتَ خجولا
يا قوياً كالرجاءْ
يا رفيقاً كالرجاءْ
لستُ أدري كيف ألقاكَ فلن تأتي إلينا
لن ترانا بعدُ في صمتِ المساءْ
ونسيمُ البحرِ يغفو. . .
والسمرْ
والقمرْ
وحكاياتٌ أُخَرْ. . .
غير أنْ النورَ أقوى. . .
يا رجاءْ
سيعود الغرباءْ
سنرى عينيكَ في وهجِ اللقاءْ

أنت يا من طرقوا البابَ عليكْ
ليسدوا شفتيكْ
ليشدوا معصميكْ
أنهم جاؤوا على صمت المساءْ
ـ هكذا قيل ـ
ولكن، اختفى عنهم رجاءْ

البصرة، ١٩٥٤

اغتيال محمد بن عبد الحسين

١٤ ذئباً بقتلكَ يفخرونْ
وعلى أزقةِ قريتي يتقدمونْ
بملابسٍ مخضرةٍ شوهاءْ
وبنادقٍ سوداءْ
كانوا بقتلكَ يحلمونْ
بالليلِ والعجلاتِ في نارِ الكمينْ
برجالِكَ المترفعينْ
نحن الذين نموت في قلبٍ تمزقُهُ البنادقْ
ونظل نرجفُ ثم نحتضنُ الترابْ
مترفعين بمقلتيكْ
يا جثةً بين الذئابْ
وهمُ الذين يثرثرون عن الجريمةْ
عن ميّتٍ داست حوافرُهم جبينَهْ
عن خاتمٍ حرموه إصبعكَ اليمينْ
ليظلَّ حتى القبرِ يصرخُ: يا أمينةْ!
هم يزحفون على المدينةْ
هم يذبحون الوردَ والذكرى وأوراقَ الكتابْ

هم يقتلونكَ مرةً أخرى بأحشاءِ المدينةْ
أما الذين يحاربون بلا وجوهْ
أما الذين يقاتلونَ بلا بنادقْ
كالريحِ . . .
كالأمواجْ
فهم الذين سيبعثونك حين تنتفضُ المدينةْ

البصرة، ١٩٥٧

أنطونيو بيريز من غواتيمالا

إنه أنطونيو بيريز، وقد كان الرفاقْ
أبداً يَلقَون أنطونيو العزيزْ
بالتحايا والعناقْ. . .
كان أنطونيو قويا
لامعَ العينين، تغفو أغنيةْ
من أغاني الأوديةْ
أبداً في شفتيهِ
كان عند الأمسيةْ
يلتقي في الحزبِ بالعمالِ. . .
أنّا يا رفاقْ. . .
ويضيء الشوقُ عينيه ويغشاه انطلاقْ
كان أنطونيو نبيا
كالذينْ
لوّنوا تبريزَ في الفجرِ الحزينْ
كان أنطونيو نبياً دون دينْ
كان أنطونيو مع الدرب المضاءْ
مثل آلافِ الرفاقْ

في بلادي. . . في العراقْ
إنه أنطونيو بيريز. . . لقد كان جميلا
مثل بحارٍ صغيرْ
أسمرِ الخدّينِ من شمسِ الجنوبْ
إنه مات قتيلا
أنت يا أنطونيو بيريز العزيزْ
أنت يا من مزقوكْ
قرب مبنى الحزبِ. . .
إن غواتيمالا
والهوى، والرايةَ الحمراءَ، منا تعالى

١٩٥٤

إلى عبد الوهاب البياتي

الريحُ من منفاكَ تأتي نحو بصرتنا القديمةْ
الريحُ تحمل كلَّ شيءٍ نحو بصرتنا القديمةْ
حتى المكاياتِ الأليمةْ
حتى أغانيكَ العظيمةْ

* * *

البصرةُ الزرقاءُ . . آلافُ الجداولِ والنجومْ
النهرُ والبحرُ الحنونْ
وسفائنُ ترسو وملاحونَ يا عبدَ الوهابْ
البصرةُ الزرقاءُ أغنيةٌ حنونْ
للبحرِ ناعمةٌ حنونْ
لكنّ ملاحي السفينةْ
ألمجهدين يزمجرونْ
أغنيةً للبحرِ، داميةً حزينةْ
للخبزِ والريحِ المزمجرِ والسفينةْ
للخبزِ يا عبد الوهابْ . .

* * *

والبصرةُ الخضراءُ يا عبدَ الوهابْ
لو زرتَها يوماً لغنّيتَ المدينةْ
والبحرَ والعمالَ والنارَ الدفينةْ
لرأيتَ أعماقَ الجنوبْ
حيثُ العيونُ الدامياتُ تشعُّ نيرانَ الضغينةْ
حيث النخيلُ يموت يا عبدَ الوهابْ
حيث النساءُ الجائعاتْ
يُقتَلن في بؤرِ المدينةْ

* * *

أترى ستومض في ندى عينيكَ بصرتُنا القديمة
وهجاً وأغنيةً عظيمةْ

١٩٥٥

مرة أخرى أيها الفرنسيون

حيثُ تُلقي ظلَّها الأصفرَ غاباتُ البنادقْ
لا ترِفُّ الرقصاتْ
وعلى القضبانِ لا تنمو الزهورْ.
وعلى صمتِ القبورْ
لا نرى وجهَ الحدائقْ.
أيها الشعبُ الفرنسي
حيث تقتاتُ من الحقدِ الحرائقْ
لا تحبُّ الفتياتْ.
والنبيذُ الحلوُ لا يُشربُ ممزوجاً. . .
بدمْ
أيها الشعبُ الفرنسيُّ، لقد أبصرتَ أنيابَ الجريمةْ
أنها لم تُنشبِ السمَّ بعمالِ الجزائرْ
لو قطعتَ الرأسَ في ساحاتِ تموزَ القديمةْ
أنها تأكلُ من عمالِ باريسَ وعمالِ الجزائرْ.
أيها الشعبُ الفرنسيُّ. . . ندائي
كلُّهُ حزنٌ عليكْ. . .
إن آلافَ الخياناتِ مدلاةٌ عليكْ

أيها الشعبُ، ولكنْ. . . أين حَدُّ المقصلةْ؟
أين حدُّ المقصلةْ؟
أنها تقطع في سجنٍ بأعماقِ الجزائرْ
عنقي
أنها تسأل عن عنقِ جميلةْ
ويقول السادةُ الضباطُ: لن تحيا جميلةْ
وعلى أكتافهم تشحبُ كورسيكا العتيقةْ
مثلَ أعصابِ المظليينَ في ليلِ الجزائرْ.
أيها الشعبُ الفرنسي
أيها العمالُ في الأرصفةِ الليلِ: اسمعوني
أيها الطلابُ: إن المسألةْ
لم تعدْ في الأسئلةْ. . .
لم تعدْ محتملةْ. . .
هل يموت الشعبُ من أجلِ الخيانةْ
ولأجل القتلةْ؟
يا فرنسا الثورةِ
يا فرنسا الجبهةِ الشعبيةِ
إن حدَّ المقصلةْ
في أكفِّ القتلةْ. . .
فاصرخي بالقتلةْ. . .
اصرخي بالقتلةْ

الكويت، ١٩/ ٣/ ١٩٥٨

عبد السلام

سأظلُّ أبحثُ عنكَ في الأعماقْ
في جنةٍ أثمارُها أزهارْ
في عتمةٍ ملتفةِ الأوراقْ
سأظل أسألُ عنكَ أهلَ الدارْ
يا طارقاً قلبي. . .
يا طائراً أضناهْ طولُ السفرْ
قلبي هنا. . . في المطرْ
يرقبُ من تأتي به الأسفارْ.
واليومَ أنتَ تجيءُ، تسألُ عن صديقِكْ
أني عرفتُ الاسمَ يا عبدَ السلامْ
لكنني أنسى
فالخبزُ والسنواتُ يا عبدَ السلامْ
تركتْ غضوناً في صديقِكْ
والناسُ مثل النخلِ يا عبد السلامْ
الناسُ مثل النخلِ يا عبد السلامْ
قد يُقطَعُ السعفُ القديمْ
لكنه يُبقي جذورَهْ

. . . . . .

إني لأبحثُ عنكَ يا عبد السلامْ
في قريةٍ مغبرةِ الأكواخِ خضراءِ المياهْ
أطفالُها يتهامسونْ
بحثاً عن الأعشاشِ. . .
أو يتراكضونْ
للنهرِ في جمرِ الظهيرةْ.
والنارُ تشعلُ ثم تطفئُ في المساءْ
وجهاً على التنورِ يختلسُ العجينْ
ليكونَ للأسماكِ طعماً في الصباحْ
أيكونُ وجهَكَ يا صديقي
أتكون أنتَ مدربَ القططِ الصغيرةْ؟
أم أنتَ أشهرُ سارقٍ للبرتقالْ؟
أم أنتَ مَن يهوى السلاحفْ؟
أم أنتَ. . . أمْ. . . أمْ. . .
آهِ يا عبد السلامْ

الكوي، ١٤/ ١٢/ ١٩٥٧

شوق

خجلانَ، أسألُ عنكِ يا أمي، لكي أهديكِ زهرةْ
إن الزهورَ هنا تموتْ
لكنّ في قلبي من الأشواق زهرةْ
ممبتلةٌ بالدمعِ، قانيةً صموتْ.
أرسلتُ يا أَمي رسالةْ
لكِ من دمشقَ، وكنتِ فيها
تتألقينَ على الحروفْ
إني لأعرفُ عنكِ يا أماهُ أنك تجهلينْ
ماذا كتبتُ، وتسألينْ. . .
لكنني لو طفتُ بصرتَنا لما عرف الجميعْ
الاكِ يا أماه حرفي.
واليومَ يا أماه لم أرسلْ رسالةْ
فلربما لن تقرأيها
ولربما طرقوا عليكِ البابَ في الليلِ الغريقْ
متسائلينَ عن الرسالةْ
أماهُ، يا أماهُ، يا أماهُ. . .
إن لديّ زهرةْ!

الكويت، ٢٨/ ١٠/ ١٩٥٧

أبيات بسيطة

الساعةُ العاشرةْ
وفي القرى تخبو المصابيحُ
النخلُ والريحُ
وفي فؤادي نجمةٌ ساهرةْ
والساعةُ العاشرةْ
الليلُ يمضي متعَبا. . . متعَبا
وفي طريقِ النهرِ يغفو الضبابْ
رطباً. . .
وفي قلبي نداءٌ إليكْ
شوقٌ إلى مَن لديكْ
يا نجمتي الساهرةْ
الساعةُ العاشرةْ
وفي شفاهي أغنياتٌ بِعادْ
هادئةٌ عن بلادْ
تلوِّنُ الليلَ بأضوائها. . .
يعرفها السندبادْ

هناكَ شمسٌ قبلَنا تُشرقُ
هناك ينمو الثلجُ والزنبقُ
والنجمةُ الساهرةْ

البصرة ـ نهاية ١٩٥٥

في درب ريفي

الليلُ في القريةْ
صافٍ. . . وأغنيةٌ خريفيةْ
تتأوهْ النسماتُ فيها
تهتزّ في قلبي وتحملني إليكِ مع النجومْ
وحدي أسيرُ إليكِ ليلا
أنا والأغاني والنجوم وخطوتي الخجلى
سأظل أسألُ عنكِ حتى لو تغوّرتِ النجومْ
فالليلُ في القريةْ
أيكون محتملاً. . . وأنتِ هناكَ نائمةٌ وحيدةْ
وأنا هنا وحدي؟. . .
. . . . . اني أكادُ أراكِ يا حُبي. . . بعيدةْ
مهجورةَ الشفتينِ، طعمُ الياسمينْ
طعمُ الندى والبحرِ. . . باقٍ في شفاهِكْ
وعلى شفاهي الملحُ. . .
أن البحرَ، أن الياسمينْ
أن الندى يغفو بعيدا
والليلُ في القريةْ

صافٍ، وأغنيةٌ خريفيةْ
تتأوه النسماتُ فيها
وعلى ارتعاش النخل والأنهار ترتجفُ النجومْ
وتغورُ في قلبي. . .
ويأتلقُ الدجى شيئاً فشيئا

البصرة، ٣/ ١٠/ ١٩٥٨

إحساس

مساءٌ. . .

وقلبي يحسُّ المياهْ

كأعمقِ شيءٍ يراهْ

كعمقِ السماءِ الخريفيةِ الباردةْ

وفي النهرِ تمضي الحياهْ

مياهْ. . .

وفكرتُ في أن أموتْ

مساءٌ. . .

وريحُ الخريفْ

لها في فؤادي حفيفْ

وفي الشارعِ

مطرْ

وفي الشارعِ

يبلل قلبي المطرْ

وفي الشارعِ

تمر فتاةٌ وحيدةْ

وأمضي بعيداً . . .

بعيدا . . .

بعيدا . . .

البصرة، ١٩٥٧

إلى بعيدة

كزهرةٍ في الرملِ. . . أنتِ، كالفرحْ
في موطني الصامتِ. . . يا هادئةَ العيونْ
الكلُّ في الدروبِ يرقصونْ
في المطرِ الناعمِ. . . في المرحْ
الكلُّ، إلا أنتِ يا ناعمةَ العيونْ
الكلُّ يرقصونْ
وحينما أجبتُ كالذاهل: من بغدادْ. . .
ضحكتِ في صمتٍ، وكان الأصدقاءُ يرقصونْ
والكلُّ يرقصونْ
وقلتِ: هلْ؟
ـ لكنني لا أعرفُ الكثيرْ
وربما سحقتُ خُفَّكِ الصغيرْ،
ضحكتِ يا آنستي. . . والكلُّ يرقصونْ
وعندما سألتُ عن اسمكِ كنتِ تبسمينْ
وعندما أجبتُ عن اسميَ كنتِ تبسمينْ
وددتُ لو بقيتِ تسألينْ!
وهكذا. . .

. . . . . .

لم يبقَ إلا بعضُ راقصينْ

في الشارعِ اللامعِ . . .

والشجرْ

يُنصتُ للمطرْ . . .

كان الرذاذُ يحملُ العبيرْ

إلى فؤادينا وكنا وحدَنا نسيرْ

الكويت، ٩/ ١١/ ١٩٥٧

الفأر

ها أنتَ وحدَكَ مرةً أخرى كأنكَ لم تسافرْ
يوماً إلى أرضِ الجميعْ
ها أنتَ وحدكَ مثلُ طائرْ
ألقتْ به ريحُ الشمالِ على الكويتْ
أوَ هكذا أحببتَ؟
أن تبقى وحيدا
متلفتَ العينينِ تنتظرُ البريدا
وكأنّ في ورقِ الرسالةْ
موجاً سيحمل قلبكَ المضنى بعيدا
شيئاً فشيئاً في ظلامِ البحرِ. . .
ثم ترى يديها
بين الزهورِ تلوّحانْ
والنورُ يغمرُ مقلتيها
عدْ. . . عدْ لنفسكَ أيها الأفّاقُ، يا رجلاً يطوّفُ دونَ بيتْ
أرجعْ لنفسكَ، واصفعِ «الشعراءَ». . . إنكَ في الكويتْ
كالفأرِ تبحثُ عن وظيفَةْ
عن جبنةٍ بيضاءَ تأكلُها. . . فدعْ تلكَ الفتاةْ
وإذا شبعتَ غداً فأرسلْ ألفَ أغنيةٍ إليها

الكويت، ١/ ١٠/ ١٩٥٧

المدينة

آهِ لو نمضي مع المدِّ إليها
في ضبابِ الفجرِ نأتيها سراعا
بالأناشيدِ. . .
شراعاً
فشراعا
يهبطُ النخلُ علينا
مظلمَ الخضرةِ يدعونا إليها
آهِ لو نمضي إليها!
نتركُ القاربَ في همسِ المياهْ
وعلى ومضٍ من النجمِ هداه
انه يعرفُ شبّاكاً صغيرا
أخضرَ النورِ وخبزاً وفتاةْ. . .
اننا نرسو لديها
حيث يبقى القمرُ
في البحيراتِ. . . وينمو الزهرُ
حيث لا تغربُ شمسُ
والحياةْ. . .

. . . . . .

يا أعزَّ الأصدقاءْ

اتبعونا بالأناشيدِ إليها

البصرة، ١٩٥٦

عشرون أغنية عن الأنهار

عشرونَ أغنيةٍ عن الأنهارِ؟ . . .
أنصتْ يا فؤادي
كم حلوةٌ تلك الأغاني
بيضاءُ قادمةٌ من الدنيا لتجري في بلادي
الدفءُ والأزهارُ فيها
والنورُ والأملُ العميمْ
يا أيها النهرُ العظيمْ
احفرْ إلى وطني طريقَكْ
حرّرْ من البلوى صديقَكْ
نهراً سيخرجُ من قرى وطني إلى الدنيا الكبيرةْ

البصرة، ١٩٥٥

حسون الذي يعمل أشياء كثيرة

حسناً . !

هذا فتىً ثانٍ إذا كنتَ تلحُّ

هو من قريتنا أيضاً، له وجهٌ صغيرْ

إن هدبيه طويلانِ . . .

وفي عينيه صبحُ

ويقولونَ على أضلاعهِ جرحٌ قديمْ

كلُّنا نعرفهُ، كان كريما

رائعاً يدخلُ في كلِّ البيوتِ

مسرعاً كالطفلِ :

أماهُ، تعالي . . .

ـ مَن؟ عيوني أنتَ، يا وردَ الشمالِ!

أين ألْفُ البرتقالِ؟

. . . . . .

. . . . . .

إنه يعرفُ كلَّ الناسِ في «بابِ الطويلِ»

من لصوصِ التمرِ حتى المخفرِ الرابضِ في صمتِ النخيلِ

إنه يعملُ أشياءَ كثيرةْ

ويبيعُ الطِيبَ والخمرَ. . . وأشياءَ كثيرةْ
. . . . . قال لي يوماً وملءُ الليلِ أزهارٌ صغيرةْ
وعلى كيسٍ من الليمونِ قد نامت يداهْ:
آهِ لو يحترق المخفرُ. . . آهْ!. .

البصرة، ١٩٥٦

سؤال

ماذا بعينيكِ؟ شيءٌ كم هفوتُ لَهُ
دوماً لأغرقَ في أمواجهِ مَرّةْ
سكرانُ بالحلم أمضي دونَ أشرعةٍ
في زرقةِ البحرِ، في الآفاقِ، في الخضرةْ
إني ألاحقُ شيئاً كدتُ أدركهُ
يوماً وأقطفُ من أسرارهِ زهرةْ
أُغضي وأغمضُ عيني علَّ شاردةً
من سرِ عينيكِ تأتيني مع السكرةْ
مع الدروبِ التي مرَّ الضبابُ بها
مضنىً فألقى على أوضاعها ستره
أنا الوحيدُ بها، أسري ومنطلَقي
آفاقُ عينيكِ يا مشبوبةَ السُمرةْ!

١٩٥٩

السبب

أنا لا أرحلُ خوفاً من. . .
فإنّ الأصدقاءْ
يعرفونَ المسألةْ
كلَّها حتى الزوايا المهملةْ
في بلادي يفتحُ الأعمى عيونهْ
ويموتُ الشعراءْ
في سراديبَ من الجوعِ إلى حرفِ مجلةْ
وسراديب مذَلّةْ
انني أفقأ عينيّ أمامَ البؤساءْ
بالطباشيرِ. . .
ويبقى الزنبقُ
بائساً في الماء، ملقى الزهِراتْ
مهملاً يسرقُه من يسرقُ
فانفضي يا زنبقاتْ
انفضي أزهارَكِ البيضَ فقد جاءَ الخريفْ
انفضي يا زنبقاتْ
واغمري بالقمرِ الميّتِ درعَ السلحفاةْ

. . . . . .

آه يا آنستي. . . يا أصدقائي
انني أنشبتُ أسناني بأرضي
وعبدتُ العشبَ والنملَ وحتى الأغبياءْ
انني غنيتُ من أجلِ النساءْ
عندما يخبزنَ أقذارَ البهائمْ
انني غنيتُ للنهر المغشّى بالجرائمْ
ولكلِ الأصدقاءْ
انني سوف أغنّي
عندما أكشفُ عن حبي وبغضي
عندما أنوءُ عن ثوبي القذارةْ
والرياءْ
حين لا أبصر غلماناً بغايا
عندما أفتحُ قلبي للسماءْ
وبلا كأسٍ من السمِّ أرى وجهَ القمرْ
واغنّي في المطرْ
في بلادٍ، لا تقولي، أجنبيةْ
آهِ لو تدرينَ معنى المسألةْ. . .
أنا لا أرحل خوفاً من. . .
فإن الأصدقاءْ. . .

البصرة، ١٩٥٧

أغنيات ليست للآخرين

(١٩٥٥)

يداً بيد

أنا من يلمُّ صعيدَ النجومْ
ويجمعُ من ثمرِ الفرقدِ
ومن يلمسُ البدرَ في أفقهِ
ومن يرتدي أنجمَ السرمدِ
ونهرُ المجرةِ ألهو بهِ
وأسبحُ في لُجّهِ المزْبدِ
فإمّا أردتِ بلوغَ السماءْ
فهاتي يداً للهوى في يدي

التي من عمان

سلّمتِ! يا أهلاً بجارتنا ... يا مرحباً بفتاةِ غسّانِ
بالموج في الأردنّ يدفعهُ ... من صدركِ الملفوفِ نهدانِ
من أيّ أشذاءٍ أتيتِ لنا ... فغمرتِ بالأشذاءِ أحزاني؟
من ضيعةٍ في السَّلْطِ نائيةٍ ... أم قريةٍ في سفحِ شيحانِ
أغلقتُ بابَ الحانِ، ليس لنا ... بعدَ العيونِ الخضرِ من حانِ
لا أربدُ الخضراءُ ناعمةً ... بالأبيضِ الزحليّ تلقاني
جذلى، ولا شفةٌ تطوفُ على ... كأسٍ ولا همساتُ ندمانِ
نام السقاةُ فليس يوقظهم ... إلا ندىً وشذىً وعينانِ
واليومَ جئتِ لنا مورّدةً ... بيضاءَ من زيتونِ عمّانِ
أعيونُكِ الخضراءُ في وطني؟ ... أفدي لها أهلي وإخواني!
أنتِ الثمالةُ تجتلي أبداً ... أشباحَ أعرابِ وروما ن
عرباتِهمْ وخيولِ قائدِهم ... وجنودِهم والفاتحِ الجاني
ونبيذُ روما لاثمٌ شفةً ... يا أختَنا بالأحمرِ القاني
لكنْ أكادُ أرى بحُمرتها ... لونَ الدماءِ بفجرِ أوطاني

١٦/ ١٠/ ١٩٥٣

اسم

وفــي الــقــلــبِ إن شُــرِّدا ... نــدى اسـمِـكِ قـطْـرُ الـنـدى
تــرفــرفُ مــنــهُ الــشــفــاهُ ... ويــنــهــلُّ مــنــه الــصــدى
كــأنَّ ارتــعــاشَ الــحــروفِ ... ســمــا فــارتــدى فــرقــدا
عــلــى مــوجــتــيــهِ ابــتــهــالُ ... الــعــصــافــيــرِ كــم غــرّدا
وفــي مــقــطــعــيــهِ نــداءٌ ... لــعــيــنــيــكِ كــم أُنــشــدا
أكــادُ أرى فــي الــحــروفِ ... شــذى الــحــبِّ والــمــوعــدا
ومــنــديــلَــهــا والــتــحــايــا ... وهــمــســتَــهــا والــغــدا
أكــادُ أرى مــقــلــتــيــهــا ... إذا مــا اســمُــهــا رُددا
وأرقــبُ شــمــسَ الــهــوى ... وأرعــى لــهــا مــولــدا
رأيــتُ اســمــكِ الأســعــدا ... تــوهّــج مــلءَ الــمــدى
وفــي الــقــلــب إن شُــرّدا ... نــدى اســمــكِ قــطــرُ الــنــدى

أبو الخصيب، ٧/٦/١٩٥١

غضب حزين

لا تعودي
غضِبَ البحرُ وجرحي
والرياحُ
نثرتْ للموتِ آلافَ الورودِ
السماءُ البضةُ الزرقاءُ لم تتركْ مكانا
لسوانا
فاقتحمتِ النارَ وأنهارَ جناحُ
لهوانا
واحتوانا
أمسُكِ المجنونُ والسرُّ الصفيقُ:
كان ريحُ الليل يغفو
والضبابُ الأشهبُ الباردُ كالليلِ ثقيلُ
كان يهفو
كلُّ شيءٍ كان يهفو
والمصابيحُ سكارى، والطريقُ
رطِبٌ، والضوءُ وسنانُ ضئيلُ
وعلى الضفّةِ أبصرتُ مكانا

لسوانا
أنتِ، والأبعدُ، ما كان، فكانا
واحتواني المعبرُ المظلمُ، والنهرُ البخيلُ
شاحبُ الأمواجِ. . . ألحانُ مضاءُ
ثم أغمضتُ عيوني
والرذاذ. . .

البصرة، ١٥/ ١/ ١٩٥٣

صغير على الخمر

سكرتَ . . .

ليتَ الندامى ما سَقوكَ بها إني لألمحُ في خديكَ نيرانا
وأُبصرُ الكأس وسناناً على شفةٍ كم رتّلتْ في صلاةِ الليلِ قرآنا
وألمحُ المقلةَ الخجلى يراودها طيفٌ يراوده المصباحُ ألوانا
أنت الصغير . . . فهل ترضى مرارتها إذا اتّبعْنا نبياً من ندامانا

١٩٥٢

الورد والعصافير والصغيرة

تلك العصافيرُ على بابي ... تمرُّ أسراباً من الغابِ
والفجرُ تُضفي نورَهُ بِركةٌ ... شرقيةٌ في حُمْرِ أهدابِ
وأنتِ في وثبكِ عصفورةٌ ... تنفّضتْ من عشِّ أطيابِ
يقرُّ في الغابةِ مستخفياً ... سكرانَ محفوفاً بأعنابِ
دفءُ الدروبِ الخضرِ من دفئهِ ... وهمسُهُ همسةُ أحبابِ
صغيرةُ النهدين في داري ... طفلةُ أشواقٍ وأسرارِ
قالوا لنا: قد صبغتْ خدَّها ... بالأمس من حُمرةِ أزهارِ
لو أكثروا الأقوالَ في حسنها ... مزقتُ خدَّ الوردِ من ثاري
حبيبتي سمراءُ غنّى لها ... كأسي وندماني وسُمّاري
لو باحَ يوماً باسمها بلبلٌ ... خبّأتهُ في صدرها العاري
حبيبتي تهوى أغانينا ... والشعرَ والوردَ ووادينا
تُلونُ القريةَ من صوتها ... إن قلتُ: يا حلوةُ غنّينا
ربيعُنا جُنَّ... يُدَنّي لها ... آساً وقد أوصتْهُ نسرينا
فتّقَ ما تهوى ولم يُرضها ... فزركشَ الآفاقَ تلوينا
حبيبتي كافرةٌ... إنها ... لم تتخذْ غيرَ الهوى دينا

بغداد، ٢٢/٣/١٩٥٣

أغنية ليست هادئة

الصيفُ طوّقنا فالكرْمُ أسوارُ ... تحفُّ بيتيَ والينبوعُ هدّارُ
وعندَ أحراشِ «بوبافا» مصفقةٌ ... من الكؤوسِ وتفاحٌ وأبكارُ
وبنتُ «سلمانَ» تسقينا معتقةً ... حمراءَ في كأَسِها شهبٌ وأقمارُ
سكرٌ ينام على سكرٍ، وعربدةٌ ... تهفو لعربدةٍ، والليلُ خمّارُ
والنارُ تجتاح صدري دونَ مُطفئةٍ ... وبنتُ جارتنا تجتاحُها النارُ
جاراتُنا جبلياتٌ فلا صلةٌ ... فالثلجُ في القمةِ البيضاءِ غدّارُ
واللوزُ كادت أكفُّ الحبِّ تبلغهُ ... لكنه من رفيقِ اللمسِ ينهارُ
فقلْ لسكرينَ قد جُنتْ جوانحُنا ... ظمأى، وكلُّ السفوحِ الفيحِ أنهارُ
ما كانَ سلمانُ ممراحاً ينادمُنا ... لو لم يكنْ من رحيقِ النهدِ يشتارُ
لهفَ المآزر ما نامتْ وما هدأتْ ... أكلُّ ليلتها نارٌ وإعصارُ!
يا بنتَ سولافَ، ما عاد الهوى أملاً ... أكلُّ حظيَ من واديكِ تذكارُ
لنا على السفحِ من سولافَ أغنيةٌ ... وفي الينابيعِ من سكرينَ سُمّارُ

١٩٥٣/٧/٢٠

شيء قديم

حُـلـمَ الـفـوارسِ والـقـبـابِ، وزهـوةَ الـبـطـلِ الأشـدِّ
الـمـرتـبـي الأفـقَ الـمـدلَّ كـمـا ارتـبـتْ هـبـواتُ «نـجـدِ»
قـلْ لـلـخـيـولِ الـهـائـجـاتِ: مـغـارُ أهـلـكِ دونَ حـدِّ
هـم روّعـوا الـدنـيـا ومـا وثـبـوا لـنـازلـةٍ بـغـمـدِ
الأوجـهُ الـسـمـرُ الـمـخـضّـبـةُ اسـتـبـاحـتْ كـلَّ مـجـدِ
جَـرَحَ الـحـجـازُ لأجـلـهـا خـدّاً وروّى جَـهْـمَ خـدِّ
وروتْ تِـهـامـةُ لـلـنـجـوم حـكـايـةً عـن خـيـرِ وُلْـدِ
ألـمـشـعـلـيـنَ ذرى الـجـبـالِ، الـمُـصـعـديـنَ بـكـلِّ نـجـدِ
الـرائـعـيـنَ الـروعَ والـمـاضـيـنَ جـنـداً إثْـرَ جـنـدِ
يـا رائـدَ الأمـلِ الـمـدلَّـلِ مـا ارتـوى ظـمـأٌ بـوعـدِ
أحـرقْ جـبـالَ الـثـلـجِ أحـرقْـهـا وزلـزلْـهـا بـرعـدِ
وانـفـضْ عـن الـفـرسِ الـجَـمـوحِ نـثـيـرَهـا واهـزأْ بِـصَـلـدِ
واركـزْ رمـاحَـكَ فـي الـثـلـوجِ تـحـدّيـاً يـدعـو الـتـحـدي

*

يـا عـائـداتِ الـفـتـحِ فـي الـذكـرى: عـبـدتُـكِ مـن مَـرَدِّ

بغداد، ١٩٥٢

من أجل كل شيء

لكِ عندنا كأسٌ وبعضُ شذىً من وردِنا وحديثُ أشواقِ
ومُطرَّزٌ نسجتْهُ والدتي ووسادةٌ نُقشتْ بأوراقِ
أضنتْ بها أختي أناملَها وشياً، ووشّتْ أميَ الباقي
وجدلتُ من أغصانِ غابتنا لكِ مخدعاً في حضنِ دفّاقِ
وبنيتُ كوخاً نستريحُ به وينامُ تحتَ غصونهِ الساقي
زركشتُهُ ورداً وجئتُ له بالنورِ من أعماقِ أحداقي

*

نذلٌ . . .

وأوغادٌ . . .

قُتلتِ؟ فدىً لنضالِنا . . . لطريقِ إشراقِ
من أجلِ قريتنا وقمتِنا ومكبّلٍ ناءٍ وأفّاقِ
إمّا قُتلتِ فما تزال يدٌ غضبى تهزُّ إليكِ أعماقي
يا من أردتِ . . . وما مررتِ بنا: لك سلةٌ من وردِ آفاقِ

البصرة، ٢٧/ ١٠/ ١٩٥٣

أريد

سألثمُ هِلاّسَ في الوجنتينِ وأصحبُ باخوسَ في سُكْرهِ
سأمضي على عرباتِ الجنودِ لنيرونَ أسألُ عن خمرهِ
وأخلقُ روما من الياسمينِ تصلّي فجوراً على طهرهِ
لأنسجَ منه قميصَ العذارى وأغمسَ رأسيَ في عطرهِ
وأنزعَه عن صدورِ الصبايا وأسطو على النهدِ من نهرهِ
فأسرقَ من كنزهِ حبّتينِ فدىً لهما المجدُ في كِبْرِهِ
سأشربُ حتى تملَّ الكؤوسُ شبابي وتنهدَّ من شرّهِ
فإن أذبلَ العجزُ مني الشبابَ وأُغلقتِ الحانُ عن شِعرهِ
سأرقدُ في زحَماتِ السحابِ وأعصرُ خمريَ من قَطْرِهِ

بغداد، ١٩٥٢

على الطريق القديم إلى أصفهان

أتينا وقد سكرَ الساقيانْ وقافلتي أثقلتْها الدِنانْ
نخوّضُ في لُجَّةٍ من نجومٍ ونغرقُ في موجةٍ من أغانْ
إذا أُغمضَتْ مقلتا عازفٍ أفاقَ على لحنهِ عازفانْ
هو الليلُ . . .
والرملُ . . .
والممنشدون أغانيهمُ يرتديها الزمانْ
بها من فمِ الحبِّ أغرودةٌ ومن شفةِ الكأسِ أغرودتانْ
تمرُّ بها الريحُ عبر البراري ويهمسُها الوردُ والأرجوانْ
هو الليلُ . . .
والهودجُ المستريحُ وسِترٌ بدتْ خلفَهُ مقلتانْ
تحنّانِ للحبِّ والراقصينَ وللنورِ والأهلِ تستشرفانْ
هنالكَ حيثُ يسيلُ العبيرُ جداولَ ينشرُها الأقحوانْ
وتسبحُ فوقَ البيوتِ النجومْ هنا . . .
تُلمَسُ الشهْبُ والفرقدانْ
وحيثُ شذى الوردِ فوقَ الجبالِ وملء المدينةِ . . . كانتْ فكانْ
هنالكَ من كل سترٍ أغانْ ومن كلِّ نافذةٍ ناهدانْ
هنالك بيتي ومِن حولهِ قِبابٌ . . . وشِعرٌ . . . وخمّارتانْ

هو الليلُ . . .

يُـفـتَـقُ عـنـه الـصـبـاحُ نـقـيـاً، فـيـسـتـيـقـظُ الـسـاقـيـانْ

. . . . . .

دعِ الهودجَ البضَّ يطوي الطريقَ قليلاً . . . فقد ظهرتْ أصفهانْ!

بغداد، ١/ ٣/ ١٩٥٣

لم أكن مثلهم

أنا ما عبدتُكِ مثلما عبدوا ... عبثاً، ولم أنطقْ بما قالوا
لم أستبحْ من ناهديكِ حمىً ... بضَّ التدفقِ سترُهُ شالُ
لكنْ على شفتيّ أغنيةٌ ... ظمأى، وبين يديَّ آمالُ
وعلى فؤادي موجةٌ خفقتْ ... طُهراً وزهريْ بَعدُ أشتالُ
يا من زرعتِ الوردَ عابثةً: ... يسقيهِ من عينيَّ هطّالُ!

*

واليومَ عاد غرامُنا حلُماً ... تطويه عن عينيَّ أليالُ
والزهرُ أثمرَ وازدهى غضباً ... مُرّاً تطوفُ عليه أوشالُ
والدمعُ ذاب بنورِ طافحةٍ ... والقلبُ لم يغررْ به آلُ
والحانُ جُنَّ وماجَ من فرحٍ ... وهوى على الصَبَواتِ ضُلاّلُ
اليومَ أعبدُ مثلما عبدوا ... عبثاً وأنطقُ بالذي قالوا!

بغداد، ١٩٥٢

موسيقى عن بغداد القديمة

وتـرٌ يـبـوحُ بـلـوعـةِ الـوجـدِ فـيـطـوفُ فـوقَ مـرابـعِ الـخـلُـدِ
ويُـسـلـسـلُ الألـحـانَ مُـصْـعـدةً زرقـاءَ نـحـوَ عـوالـمٍ مُـلْـدِ
فـيـهـا الـربـيـعُ يـظـلُّ مـخـتـلـجـاً والـزهـرُ أيـنـعُ مـن صَـبـا نـجـدِ
وكـأنـهـا إذ طـافَ طـائـفُـهـا سـيـكـاهُ تـرقـصُ فـي الـنـهـاونـدِ
أو طـائـرٌ عَـصَـفَ الـشـمـالُ بـه فـهـوى بـهـنـدِ الـشـرقِ والـسـنـدِ

*

وتـرٌ يـمـوجُ بـلـوعـةِ الـوجـدِ مـوجَ الـبـحـارِ بـمـركـبِ الـوردِ
بـغـدادُ فـي رقـصـاتـهِ انـتـفـضـتْ حـانـاً وأسـتـاراً مـن الـنـدِّ
تـحـنـو الـحـسـانُ عـلـى مـلاعـبـهـا بـالـخـمـرةِ الـحـسـنـاءِ تـسـتـهـدي
فـعـلـى فـم الأبـكـارِ أغـنـيـةٌ هـبّـتْ تـرفـرفُ فـي سـنـى الـخـدِّ
وعـلـى الـقـلـوبِ تـمـوّجٌ فـرِحٌ أسـرى فـكـانَ تـرجـرجَ الـنـهـدِ

*

غـنِّ الـصِـبـا . . . ودعِ الـهـوى حـلُـمـاً رغـداً يـهـفُّ بـمـوعـدٍ رغْـدِ
بـكـفـيـكَ مـجـداً أن يـظـلَّ فـمُ الـعـذراءِ يـهـتـفُ: أنـتَ لـي مـجـدي!

أبو الخصيب، ٢٥/٧/١٩٥١

ثنائي

أتــهــوانــي وتــرتــجــفُ وثــغــرُكَ حــائــرٌ وَجِــفُ
أأنــي الــحــلــوةُ الــسـمـراءُ والأشـــذاءُ والـــتـــرفُ
ومـن غـنّـى لـهـا الـعـصـفـورُ مــا تــشــدو ومــا تــصــفُ
ومــن هــامــوا بــسُــمــرتــهــا ومــن لــجــمــالــهــا هــتــفــوا
بــريــقُ الــشــوقِ فــي عــيــنــيــكَ بــالأشــواقِ يــعــتــرفُ
لــقــد أســرفــتَ مــرتــقــبــاً فــفــيــم الــحــزنُ والــسَّــرَفُ
إذ لــم تــأتِ غــرفــتَــنــا فــلا الــديــبــاجُ والــغــرفُ
ولــكــنْ يــا قــلــيــلَ الــديــنِ قــد يــتــكــسّــرُ الــخَــزَفُ!

بغداد، ١٩٥٢

عالياً... حيث أسمع صوتك

صوتُكِ يا بيضاءُ في خاطري ينبضُ في عمقِ الشذى الساحرِ
أُوقظُه ليلاً إذا ما دجا قلبٌ وباحَ النجمُ للعابرِ
صوتُكِ. . .
ثم استيقظتْ زهرةٌ وماجَ كأسٌ بهوىً غابرِ
صوتُكِ. . .
غنّتْ ليَ عصفورةٌ ورنّ نايٌ في يدِ السامرِ
أُغمضُ عينيّ على وحدتي أرتوي من حلُم غامرِ
وارتبي أفقاً بعيدَ المدى وفوقَ دنيا مطلبٍ عابرِ
فأجتلي صوتاً وأغفو على صوتٍ. . . وأهفو لهوىً غائرِ
يلمسُ قلبي مثلما لامسَ الماءَ جناحٌ رفَّ من طائرِ

*

صوتُكِ يا بيضاءُ في خاطري ينبضُ في عمقِ الشذى السّاحرِ

أبو الخصيب، ٢/٦/١٩٥١

نافذتان ونهر وأغنية

النافذاتُ البيضُ والبابُ فتّحتِها فترنّحَ الغابُ
ومضتْ زهورُكِ في حديقتها من شوقكِ المجنونِ ترتابُ
قولي لزهركِ قول حالمةٍ: الحبُّ جاءَ وأهلُنا غابوا
قولي... فزهرُكِ لن يبوحَ به فالزهرُ والأحبابُ أحبابُ

*

النافذاتُ البيضُ والبابُ والنهرُ يفصلُنا... وينسابُ
أَوَكلما فتّحتِ نافذةً رفّتْ على القضبانِ أهدابُ
ونظرتِ لهفى من جوانبها ورنا لعبرِ النهرِ هيّابُ!
يا ليتَ هذا النهرَ يجمعُنا رغمَ الرفاقِ إذا همُ عابوا

*

يا نهرُ! إن ألوى بنا سببٌ فالعاطفاتُ الشقرُ أسبابُ
أبديتَ إيلاماً وتفرقةً فكأننا يا نهرُ أغرابُ
إن كنتَ تأبى أن تكونَ لنا جسراً فيعبرَ منكَ أحبابُ
فالنخلُ منتحبٌ بنافذتي والزهرُ والعصفورُ والغابُ

أبو الخصيب، ١٩/ ٢/ ١٩٥٢

قريتي قبل اليوم

كانت ليالينا تضيءُ القمرْ وتُطلعُ الأزهارَ قبلَ الشجرْ
كنا كطيرينِ إذا رفرفا هلّتْ سماءٌ وتهادى سَحَرْ
فوق رُبانا همساتُ الهوى تزجي لنا الشوقَ تحايا غُرَرْ
وحولَنا لم ينفتحْ برعمٌ لو لم نفتّحْهُ لنجني الزهَرْ
وقريتي كانت ربيعاً حَبا مَرَّ ليرعانا فعافَ السفرْ
ونامتِ الأنهارُ في حضنهِ مزهوةً بالسهلِ والمنحدَرْ
والموجُ حتى الموجُ يدري بنا فعادَ للهدأةِ لمّا هَدَرْ
والنخلُ حتى النخلُ ترنيمةٌ وسنانةٌ فوق ليالي السمرْ
يستسلمُ الصفصافُ في ظلها خميلةً للأسمرِ المنتظَرْ
وكعبةً أسرى إليها الصِبا ونامَ فيها الطيرُ لمّا عبرْ

*

يا قريتي... يا قريةً من شذىً يا لؤلؤاً غاصتْ إليه الدررْ
إن تذكري عهداً رفيقاً مضى فعهدُنا أزهى وأبهى ذِكَرْ
قولي: رأيتُ الحبَّ في حانهِ يعبُّ خمراً فإذا ما سكرْ
بدا لعينيَّ يرشُّ الضحى لعاشقينِ استلقيا في نهَرْ

أبو الخصيب، ٢٢/ ٢/ ١٩٥٢

صلاة جدية تقريباً

نـــهـــاونـــدُ كـــانـــت لـــنـــا وكـــان لـــنـــا مُـــلـــكُـــنـــا
وغـــرنـــاطـــةُ الـــفـــاتـــحـــيـــنَ وبـــغـــدادُ والـــمـــنـــحـــنـــى
ولـــبـــنـــانُ طـــلُ الـــشـــراعِ ونـــجـــدٌ وكـــلُّ الـــدنـــى
وكـــانـــت بـــلادي مُـــنـــى نـــوشّـــحُـــهـــا ســـوســـنـــا
وكـــان لـــنـــا فـــي الـــســـماءِ إلـــهٌ رحـــيـــمٌ بـــنـــا
وفـــي الأرضِ كـــان بـــنـــيٌّ أبـــيٌّ ومـــن أهـــلـــنـــا
يـــعـــزّ عـــلـــيـــه ضـــنـــانـــا فـــيـــمـــســـحُ عـــنـــا الـــضـــنـــى
ويـــدفـــعُ عـــنّـــا أذانـــا ويـــســـبـــحُ فـــي حـــبـــنـــا
وكـــان يـــدنّـــي الـــنـــجـــومَ ويُـــضـــفـــي عـــلـــيـــنـــا الـــســـنـــى
ويـــبـــذلُ مـــن قـــلـــبـــهِ لـــيـــغـــمـــرَنـــا بـــالـــهـــنـــا
وكـــانـــا إذا الـــخـــيـــلُ جـــالـــت تـــنـــادتْ لـــهـــا خـــيـــلُـــنـــا
جـــعـــلْـــنـــا الـــســـمـــا خـــيـــمـــةً دعـــائـــمُـــهـــا مـــن قـــنـــا
تـــعـــالـــيـــتَ يـــا ربّـــنـــا لـــقـــد كـــنـــتَ بَـــرّاً بـــنـــا

بغداد، ١٩٥٢

الصيف جاء...

شُدِّي من الثوبِ ففي عُنفِهِ وضيقهِ المجنونِ ما تشتهينْ
وأقسي على الصدر ولا ترحمي نهدينِ ما مالا على العاشقينْ
إن الطيورَ البيضَ تهوى الذرى فما لهذا النهدِ يبقى سجينْ؟
وإن أحالَ الصيفُ فيك المنى ناراً فزيديها بما تفعلينْ
لا تعبأي بالثوب إمّا اعتلى يكشفُ بالرفلةِ صدراً ضنينْ
أو يفضحُ الطِيبَ مضاعاً على ساقينِ كانا أمسِ سراً دفينْ
ولا تهابي نظراتِ الهوى تساقطتْ ظمأى لِما تحملينْ
فالصيفُ قد أنضجَ أثمارَهُ ومرَّ بالشوقِ على الحالمينْ
وطافَ يسقي كلَّ خدٍ سنىً وكلَّ ثغرٍ خفقاتِ الحنينْ
وزهرُنا يفضحُ أسرارَهُ فما يضيرُ الناسَ لو تفضحينْ؟

بغداد، ١٩٥٢

موعدٌ في مكان ما

تـقـولـيـنَ إن لـنـا مـوعـدا نـلـمُّ بـأضـوائـهِ الـفـرقـدا
ونـغـرقُ فـي مـوجـةٍ مـن شـذىً تـهـلُّ عـلـيـنـا وراءَ الـمـدى
شـريـديـنِ إلا مـن الأمـنـيـاتِ الـفـسـاحِ تـنـاجـي الـفـسـيـحَ الـغـدا
تقـولـيـنَ نـحـن اعـتـنـاقُ الـنـجـومِ تـحـطّـمُ قـيـداً لـهـا أسـودا
وإنّـا جـنـاحـا إلـهٍ رفـيـقٍ يـشـقُّ الـمـدى بـهـمـا أصـيـدا

*

أقول!

حنانيكِ... ماذا أقولُ؟ وكُلِّيَ من شفتيكِ الصدى
إذا فـتّـحَ الـزهـرُ أوراقَـهُ حـنـانـاً، فـمـاذا يـقـولُ الـنـدى
ومـاذا تـقـولُ غـصـونُ الـورودِ إذا بـلـبـلٌ فـوقـهـا غـرّدا؟
ومـاذا يـقـولُ الـربـيـعُ الـخـجـولُ إذا الـربُّ زحـزحَ عـنـه الـردى؟
فديتكِ...

إنـي عـبـدتُ الـجـمـالَ وغـيـرَ جـمـالـكِ لـن أعـبـدا
فإنكِ فوقَ جمالِ الجمالِ... وإن هـواهـنّ أضـحـى سـدى

١٩٥١/٩/٤

بوح خجول

وفي لجةِ الحلمِ في عالمٍ بعيدٍ غريقٍ بأعماقيهْ
لمحتُكِ غامضةً كالضبابِ وكالنورِ في الأنجمِ النائيهْ
أصلّي لعينيكِ إمّا ابتعدتِ وأُخفيكِ إن جئتِ أصحابيهْ
وبي خجلٌ منكِ، بي لهفةٌ وشوقٌ يمزقُ إيمانيهْ
كأنيَ أحملُ وِزْرَ الزُناةِ إذا ما ذكرتُكِ يا غاليهْ
أخافُ عليكِ فؤادي الرفيقَ وحبي العميقَ وأشواقيهْ
أحبكِ شمساً بصبحِ السجينِ ودفئاً بليلتِه الشاتيهْ
وأختاً تلوّنُ فجرَ الإخاءِ وتصبغُ بالحب أوطانيهْ
وهفهفةً من جناحِ الحمامِ ومن همسةِ الوردِ للساقيهْ
أحبكِ . . .

ليتَ الهوى لا يقالُ ولكنها مُهجةٌ داميهْ!

بغداد، ١٨/ ١١/ ١٩٥٣

أغنية جبلية

يـا لـيـت ريـحَ الـشـتـاءْ عـن أرضـنـا تـخـبـو
فـيـسـتـفـيـقَ الـمـسـاءْ وتـومـضَ الـشـهـبُ
وكـيـف يـمـضـي الـشـقـاءْ إن لـم يـكـن حـبٌّ
دومي وصُدرتَكِ الحمراءَ إن يداً من ثلجِ كانونَ للنهدين تجتاحُ
والسابحُ الأبيضُ الملفوفُ خفقتُهُ ملءُ الشراعينِ لا يرعاه ملاّحُ
أخفيتِ نهديكِ عنا؟ إن ثائرةً حمراءَ فوقهما للوجدِ مصباحُ
مُري علينا إذا ما شئتِ مختبأً فكلُّ ضيعتنا وردٌ وتفّاحُ
مري تمرُّ النجومْ ويثملِ الفرقدُ
وفوقَ بيضِ الغيومْ مسندُنا الأرغدُ
والحبُّ ظلٌ يحومْ يحنو عليه الغدُ
والنورُ يَخْضبُ في أحناءِ ضيعتنا كرْمَ السفوحِ إذا ما هلَّ إصباحُ
وكوخُنا الأبيضُ الثلجيُّ يغمرهُ وردٌ على النافذاتِ البيضِ فوّاحُ
جفناكِ والطيبُ مفضوحاً وطفلتُنا ما نرتجيه وليلُ الوجدِ والرّاحُ
كم تفرحينَ إذا مرَّ الربيعُ بنا ورفَّ في غابةِ الصفصافِ صدّاحُ
هناك تغفو الزهورْ على شذى حبنا
وتستكنُّ الطيورْ لكوخنا والجنى
نلوّنُ الفجرَ نورْ ونزرعُ السوسنا

ومعبرٌ يهبطُ الوادي لقريتنا كأنه من جديلِ الوردِ ألواحُ
يأتيكِ بالخمرِ من شيرازَ إن ظمئتْ له الشفاهُ وغاضتْ منه أقداحُ
فتسكرينَ إلى أن يمّحي أفُقٌ وتهبطَ الأرضَ أشباحٌ وأشباحُ
نيرانُ فارسَ في الكأسينِ مُوقَدةٌ والحبُّ في وجهكِ الممراحِ ممراحُ
لو تتبعين هوانا كانت لنا إصفهانْ
وكان فوقَ رُبانا ما يشتهي عاشقانْ
لاتسرعي عن صِبانا لقد خلقْنا الزمانْ

بغداد، ١٠/ ٢/ ١٩٥٣

دعوة

إنــي وهــبــتُــكِ دفءَ آفــاقــي والـنـورَ مـن أعـمـاقِ أعـمـاقـي
والـصـدقَ والـحـبَّ الـنـبـيَّ ولـم يُـظـهـرْكِ حـتـى لـونُ أحـداقـي
حـتـى رفـاقـي لـم أقـلْ لـهـمـو حـرفـاً ولـم أهـمـسْ بـأشـواقـي
خوفاً عليكِ، وكلُّ ما كتبتْ كـفّـي خـبـيءٌ بـيـن أوراقـي

*

لـسـنـا مـعـاً، أفـلا نـكـونُ مـعـاً عند الغدِ الضاحي.. ألا نمضي
في الليلِ، في صمتِ البحارِ، على سـفـنٍ تـهـيـمُ سـدىً بـلا أرضِ
حيث الـمـرافـئُ كـالـنـجـومِ نـرى أضـواءَهـا مـبـهـورةَ الـومـضِ
حيث الـجـزائـرُ تـسـتـفـيـقُ عـلـى ريحِ الـجـنـوبِ وطيبه الـمـغـضـي

*

إنــي أراكِ هــنــاكَ لامــعــةَ العينينِ بالأضواءِ... بالبحرِ
بـالـغـابِ، بـالـحـبِّ الـعـمـيـقِ، وبالنجمِ الصديقِ، وخفقةِ النهرِ
تـسـتـقـبـلـيـنَ الـبـحـرَ ضـاحـكـةً مـحـلـولـةَ الأزرارِ والـشَـعـرِ
والـثـوبُ تـرفـعـه الـريـاحُ بـلا خـجـلٍ، كـأن الـريـحَ لا تـدري!

*

يا أنتِ... حلْمي هل تمزقُه
كلماتُكِ الخجلى؟

فلا الغابُ

عندي، ولا ريحُ الجنوبِ، ولا
صـــمـــتُ الـــبـــحـــارِ. . .
ويـوصَـدُ الـبـابُ

خـلـفـي، وأمـضـي دونَ أغـنـيـةٍ
ويهشمُ الغاباتِ حطّابُ؟

يـا إخـوتـي الـغـربـاءَ. . . إن لـنـا
وطنَ اللظى. . .

فـلـيـوصَـدِ الـبـابُ!

بغداد، ١٩٥٤

ما كنت قاسية

هـا . . . قـد مـررتِ وغـبـتِ عـنـي
أيـنـامِ بـعـدَ الـحـلـمِ جَـفـنـي؟
أنـــا لَـــم أزلْ أهـــفـــو إلـــيـــكِ
وإن رددتِ الـــطـــرْفَ عـــنـــي
إنـــي ســـأبـــقـــى بـــانـــتـــظـــاركِ
فـــي الـــطـــريـــقِ فـــلا تـــضـــنّـــي
لـــو زرتِ . . . أفـــرشُ أرضَـــنـــا
ورداً، وأُســـرعُ بـــالـــمـــغـــنّـــي!

البصرة، ١٩٥٤

لست أسير وحدي

ما هكذا تمضينَ . . . لا تذهبي
يا بعضَ أمي، يا بقايا أبي
يا عالماً تخفقُ ألوانُهُ
في لفتةِ الطفلِ وشوقِ الصبي
بعيدةٌ أنتِ، ويا طالما
كنّا سوياً في شذى المغربِ
لا تذهبي، إني ضللتُ التقى
لو جئتِ لم أشربْ ولم أذهبِ
مستنقعُ اللاهينَ يطغى على
روحي ويلقيني مع المسربِ
يا بعضَ أمي . . .
لا تردي يدي
إني أخافُ السيرَ في غيهبِ!

البصرة، ٢٣/ ١٢/ ١٩٥٤

المدينة التي أردت أن أسير إليها

تلك المدينةُ يا حبيبةُ والمنازلُ بانتظاري
تتوشحُ الياقوتَ ثوباً والزمرّدَ والدراري
تلك النوافذُ تستفيقُ مزركشاتٍ باخضرارِ
الوردُ يهمسُ فوقَها والطبيبُ يغمرُ كلَّ دارِ
تسقيه أهدابُ النجومِ قرارةَ الوجدِ المثارِ
تلكَ السفائنُ والقلوعُ أتتْكِ من زرقِ البحارِ
وقوافلُ الأعرابِ جاءتْ من تِهامةَ بالعرارِ
إن البحارَ السبعةَ الزرقاءَ ملكُكِ والصحاري
تلك المدينةُ. . .

للهوى بُنيت، وغابتْ عن نهارِ
طافتْ بأنفاسِ المحبِّ ومزّقتْ سرَّ المدارِ
تبريزُ في حاناتها الشقراءِ عاريةُ الإزارِ
وهفتْ لها بغدادُ بالخمرِ المخضَّبِ والجواري
والأغنياتُ بها كأعمقِ ما بدجلةَ من قرارِ
تلك المدينةُ. . .

دونَها جرحُ الهوى وعذابُ نارِ
إنا إنْ وصلتُ فدربُها وارٍ بما ألقى ودارِ

بغداد، ٢١/ ٢/ ١٩٥٣

صديقةٌ تحبّ البحر

يـا أخـتَـنـا إنّـا بـلا وطـنٍ نـهـواهُ، إنْ صـدقـاً وإن كـذِبـا
الـرمـلُ أطـفـأَ دونَ أعـيـنـنـا لـونَ الـبـحـارِ ومـزّقَ الـكـتـبـا
حـتـى رأيـنـا مـن ضـلالـتـنـا رُشـداً ومـن أكـواخِـنـا قِـبـبـا
والـمـجـدُ أغـنـيـةٌ مـلـطَّـخـةٌ نـلـهـو بـهـا ديـنـاً ومـنـتـسَـبـا
والـشِـعـرُ. . . ضِـلّـيـلٌ يـتـيـهُ بـه ظُـلـمـاً، ونـابـغـةٌ إذا ربـهـا قومي؟

ومَـن قـومـي إذا عـبـدوا دونَ الشموسِ الصخرَ والخشبا؟

*

وتـلـفـتـتْ عـيـنـانِ نـورُهـمـا نـورُ الـسـمـاءِ عـذوبـةً وصِـبـا
قالت: هناكَ البحرُ. . . أمنيتي يسقي الصخورَ ويقطفُ الشهُبا
أتحبّ لونَ البحرِ؟

ـ آنـسـتـي! إنـي أحـبُّ الـبـحـرَ إن غَـضِـبـا

البصرة، ١٩٥٤

تخطيطٌ أوليّ عن حصار غرناطة

تلك الممراتُ النديةُ بالدماءِ وبالضبابْ
حمراءُ تلهثُ وهي تصعدُ للقلاعْ
تهوي الصخورُ على الصخورْ
فيها وتِجهشُ باللهيبِ وبالدخانْ
وبصرخةِ الحربِ الثقيلةِ، والفوارسِ والجنودْ
والقلعةُ العربيةُ الحمراءُ تقتربُ الخيولْ
من سورِها والبرجِ هائجةً. . . وتنطلقُ السهامْ
باسم العذارى والعيونِ الخائفاتْ
رمياً! فلم تزلِ البنودْ
خفاقةً حمراءَ يقْدمها المغيرْ
رمياً! وتنطلقُ السهامْ
رمياً! ويسقطُ قائدُ الأعداءِ تسحقُه الخيولْ
هذا الصليبْ
صلبوا عليه الناصريَّ ـ ولم يتوبوا ـ من جديدْ

*

والفجرُ يبسمُ للضبابْ
ومزارعُ الزيتونِ توقظُها الدوالي والسلال

وغداً. . . يطوفُ الفجرُ بالحاناتِ مغلقةً وينتفضُ الرجالْ
للسيفِ والدمِ والبنودْ
حمراءَ تلهثُ وهي تصعدُ للقلاعْ

بغداد، ١٩٥٣

إلى شاعرٍ فارسيّ

نـهـاونـدُ والـعـودُ والـمـنـشـدُ وشـيـرازُ والـوتـرُ الأرغـدُ
ومـا رفَّ فـي شـفـتَـي عـاشـقٍ تـراءى بـأحـلامِـهِ الـمـوعـدُ
فـداءٌ لـثـغـركَ، والأغـنـيـاتُ لـه ضـائـعـاتُ الـشـذى تـسـجـدُ

*

تـعـالـيـتَ والأمـلُ الـمـقـبـلُ يـمـوجُ بـأثـوابِـهِ الـسـلـسـلُ
وبـغـدادُ تـرويـكَ أسـطـورةً وكـأسـاً إذا مـا نـأى مـنـهـلُ
بـهـا مـن أغـانـيـكَ أغـرودةٌ يـرددهـا صـادحٌ عَـنْـدَلُ

*

خـيـالاتُ فـارسَ والأربُـعُ يـهـدهـدُهـا مـجـمـرٌ مـتـرعُ
حسـانـاً عـلـيـهـنّ ثـوبُ الـسـمـاءِ ودنّـاً يـداعـبُـه أروعُ
وأنـتَ تـرفـرفُ عـبـرَ الـمـدى نـبـيّـاً لـه كـأسُـه مـرتـعُ

*

نـبـيـاً يـريـدُ تـرابَ الـبـشـرْ سـمـاءً تـمـوتُ عـلـيـهـا الـغِـبَـرْ
مـلاعـبُـهـا مـن نـقـاءِ الـكـرومِ وألـوانُـهـا مـن ضـيـاءِ الـسَـحَـرْ
وأنـجـمُـهـا مـن بـريـقِ الـشـفـاهِ وهـدأتُـهـا مـن لـيـالـي الـسَـمَـرْ

أغنيةٌ فارسيةٌ قديمة

«في ذكرى نعيم. ص. الوادي»

لـنـا الـغـابُ والـجـدولُ ومـلـعـبُـنـا الأولُ
ولـيـلُ الـنـدى والـنـدامـى ومـا يـهـمـسُ الـبـلـبـلُ
وأبـيـضُ بـضُّ الـكـؤوسِ مـن الـسُـكـر لا يُـسـكـرُ
بأعماقهِ عبقرُ
تدورُ عليه الشموسْ
سـقـى سـاعـةً ثـم نـامـا فـهـا... جَـفـنُـه مُـسْـبَـلُ

*

وعـنـدَ الـمـراقـي الـفـسـاحْ يـضـمُّ الـجـنـاحُ الـجـنـاحْ
هـنـالـك تـزهـو الأغـانـي وتُـلـقـي الـنـهـودُ الـوشـاحْ
هـنـالـك بـالـيـاسـمـيـنْ نـلـوّنُـهـا والـنـدى
بفارسَ يجثو المدى
على نغمِ الراقصينْ
وفـي هـمـسـاتِ الـغـوانـي هـنـالـك لَـونٌ وراحْ

بغداد، ١٩٥٢

أرادوا أن أتحدث عن الفن

طـــيـــبٌ وغـــابـــاتٌ وأرديـــةٌ
ورنـــيـــنُ إزمـــيـــلٍ وقـــيـــثـــارِ
ومـعـابـدٌ بـيـضـاءُ مـرَّ بـهـا
دفءُ الـــشـــروقِ ووردُ آذارِ
ومـرافـئٌ كـالـوهـمِ نـائـيـةٌ
تـدنـو بـأشـرعـةٍ وبـحّـارِ
ونـبـيـذُ شـيـرازٍ وأغـنـيـةٌ
لـلـخـمـرِ مـا عَـرضـتْ لـخـمّـارِ

*

واهـاً! تـهـاوتْ كـلُّـهـا ومـضـتْ
لا غـابُـهـا بـاقٍ ولا الـوردُ
شـيـرازُ مـاتـتْ والـكـؤوسُ هـوتْ
وتـهـدّمـتْ ظـمـأً نـهـاونـدُ
حـتـى الـبـحـارُ الـزرقُ لـوّثـهـا
وغـدٌ وكـدّر لـونـهـا حـقـدُ . .
لـكـن . . صـديـقـي! مـا تـزال لـنـا
شـفـة الـهـوى والـخـدّ والـنـهـدُ

*

يا عالمَ الفنّانِ. . . هل خلَقتْ
دنـــيـــاكَ ألـــحـــانٌ وألـــوانُ
أسرى بها الوجدُ الجريحُ إلى
قـمـمٍ بـهـنّ الـفـنُّ نـيـرانُ؟
هي من دماءِ القلبِ منبعُها
كالخمرِ يُهرقُ كأسَها ألحانُ؟
أم من قلوبِ الناسِ قد نبعتْ
وأضـاءَهـا بـالـفـنِ فـنـانُ؟

*

هـي حـانـةٌ حـمـراءُ خـضَّـبَـهـا
بـالأحـمـرِ الـوضّـاءِ مـصـبـاحُ؟
كـأسٌ عـلـى كـفٍ وأغـنـيـةٌ
خـرقـاءُ صـاخـبـةٌ وأشـبـاحُ؟
أم زهـرةٌ بـيـضـاءُ أيـقـظَـهـا
من خدرها المغسول صدّاحُ؟
سبحَ الندى فيها ودغدغَها
بـالـنـور والأشـذاء إصـبـاحُ؟

*

يـا عـالـمَ الـفـنـانِ كـن ألـقـاً
يـهـدي الـرفـاقَ لـعـالـمٍ ثـانِ
من بسمةِ العشاقِ بسمتهُ
ومن السلامِ ربيعُهُ ألحاني
حيث البحارُ تنامُ حالمةً

والأرضُ تثملُ بالندى الداني
وطنٌ حلمتُ به فيا أملَ الفنانِ
كـــنْ آمـــالَ أوطـــانـــي

*

إنـي وهـبـتُ دمـي لـمـشـرقـهِ
وفـديـتُـه بـسـوادِ أحـداقـي
يـا كـم سـهـرتُ الـلـيـلَ أرقـبـهُ
نـجـمـاً يـضـيءُ بـلـيـلِ أعـمـاقـي
وطـنـي هـو الـدنـيـا . . مـلـوّحـةً
بـهـوىً، مـلـوّنـةً بـإشـراقِ
هـو حـلْـمُ روما حـيـن أيـقـظَـهـا
صـوتُ الـمسيحِ ومزّقَ الساقي

*

لـم يـبـقَ مـن لألاءِ مـرمـرهِ
إلا بـقـايـا لُـطـخـتْ بـدمِ
فـنٌ تـمـزقُ وجـهَـهُ مِـزَقـا
كـفُ الـطـغـاةِ وبُـحّـةُ الـعـدَمِ
فـنُ الـسـكـارى إن ألـمَّ بـهـم
في الـمـوبـقـاتِ خـيـالُ مـجـترمِ
يـا مـوبـقـاتِ الـفـنِ . . لـستِ لـنـا
فـتـمـرغـي في الـطـيـنِ وانـهـدمي!

بغداد، ١٧/ ١٢/ ١٩٥٣

القرصان

أيها البحرُ، أيها الصاخبُ الهدّارُ، يا صولةَ الردى والسوافي
أيها الشامخُ الذرى، أيها المنهدُّ موجاً على صخورِ الضفافِ
هدأةً للغريبِ، يا موجُ صمتاً، يا رياحُ أخمدي، ويا شمسُ وافي
آهِ لو تعلمينَ مَن يركبُ البحرَ هَزوءاً بموجهِ العزّافِ
يرقبُ البرَّ من سفينتهِ شوقاً فيفترُّ ثغرهُ بارتجافِ
باسماً للرذاذِ تقذفُه الريحُ على الوجهِ كالرحيقِ الصافي

* * *

هدأَ النورُ، واستكانَ له البحرُ، وأرختْ ذُكاءُ منها ذيولا
سحبتْها على خدودِ المويجاتِ فأدمتْ خدودَها تقبيلا
فكأنَّ الشراعَ تدفعهُ الريحُ قليلاً وترتجيه وصولا
تلمسُ المركبَ الصغيرَ كما تلمسُ عذراءُ ثوبَها المهدولا
رفرفَ الطيرُ فوقَه يتلقّاه جناحاً على الصواري بليلا
أيها الطيرُ. . . قد بلغتَ به البرَّ، فهل يحفظُ الشراعُ الجميلا؟

* * *

القلوعُ البيضاءُ تلمعُ في البصرةِ والبحرُ مستكينٌ لديها
يحملُ النازحينَ والخمرَ والأطيابَ والمالَ نعمةً في يديها
والجواري من كل طرفٍ سحيقِ البعدِ يمسحْنَ بالشذى قدميها

حفلتْ بالسفائنِ الحمرِ آلافا أتتْ تنثرُ الثراءَ عليها
من ضفافِ الأسرارِ في الهندِ والصينِ ومَن يستطيعُ درباً إليها
إنها مرفأُ الشذى، بصرةُ الجندِ، يفيضُ الشروقُ من عينيها

* * *

أيها المؤمنونَ، يا أصدقاءَ البحرِ! هل تعلمونَ ما في السفينةْ!
إن فيها الحريرَ والخزَّ والعنبرَ والمسكَ والخمورَ الثمينةْ. .
إن فيها لأربعاً من جواري التركِ، فيهن فتنةٌ مجنونةْ
هنّ عند القصيدِ مجنونكم قيسٌ ويُخجلنَ مَعْبداً ولحونَهْ. . .
أيها القادمونَ، يا فتيةَ البصرةِ، صفحاً لمن يبثُّ شجونَهْ
قد جلبتُ الأموالَ من خلفِ سورِ الصينِ من ألفِ قريةٍ ومدينةْ
أفلا تشترونَها؟ والجواري؟ أين من يشتري الغوالي الأمينةْ؟

* * *

فجرى الناسُ للسفينةِ والصبحُ على البحرِ مُطْرفٌ من حريرِ
لونتهُ الشمسُ الغريرةُ لوناً من نبيذٍ معتقٍ مسحورِ
والطيورُ البيضاءُ تخفقُ فوقَ الناسِ ريشاً من الشذى والنورِ
لم تدُرْ دورةً على السوقِ حتى سمعَ الناسُ وقعَ خيلِ الأميرِ
إنه قادمٌ ففي المركبِ الراسي جَوارٍ لقصرهِ المشهورِ
أيهذا الربانُ، أين جواريك؟ أما زلتَ غارقاً في الخمورِ؟

* * *

فأطلَّ الربانُ وسنانَ سكرانَ وألقى بسوطهِ في الفضاءِ
قال: حُييتَ يا فتى! أيها البحّارُ. . . إرفعْ لهم ستارَ النساءِ
قل لهم: إن بينهنّ عروساً خُطفتْ عندَ ليلةٍ ظلماءِ. . .

حين كان الزفافُ حلماً قريباً بعد يومين من هوىً وغناءِ
خطفوها من قصرِها حيث كانت ترتدي للزفاف أزهى رداءِ
قل لهم: واسمُها (جنانُ) فلا يبخلْ عليها أميرُنا بالعطاءِ

* * *

رُفعَ الستر للأمير ففاح الطِيبُ من خلفِه وضَوَّعَ خمرُ
وشدا بلبلٌ وهفهفَ ثوبٌ، وعلتْ همسةٌ ورفرفَ سترُ
برهةً ثم هَمِّ قال له البحّارُ يا سيدي أمامك خِدْرُ
إنني فاتحٌ ولكنْ تمهّلْ يا أميري ففي فؤاديَ سرُّ
ثم أفضى له بسرٍ عميقٍ قاله للأمير وهو يمرُّ:
يدخلُ البيتَ من يريهن أن الحبَّ يا سيدي عناقٌ وثغرُ
إن بيتَ النساءِ بيتٌ من الشِعر رقيقٌ عند الدخول ووعرُ
والمحبُّ الفنانُ كالشاعرِ الفنانِ لا يعتريه عَيٌّ وحَصْرُ

* * *

فأجابَ الأميرُ: حُييتَ يا بحّارُ ارفعْ لنا الستارَ الثاني
ففؤادي يرفّ في الصدر شوقاً إن دون الهوى جراحَ الأماني
نسمةٌ أوغلتْ، ، فرفرفَ سترٌ من حرير بدتْ لديه الغواني
كنّ يضحكنَ للصباح ويخلعنَ ثياباً شفيفةَ الألوانِ
عرضتْ للنسيم صدراً جريئاً فاشتكى لذعَ لمسه الناهدانِ
ومشى الشوقُ رجفةً فتلوينَ اشتهاءً تلويَ الثعبانِ
ثم أسرعن للفراشِ عذارى ثائراتٍ يحلمنَ بالأحضانِ
ليس يعلمنَ أن من هزّ أستارَ حماهنَّ لحظةً رجلانِ
كن يحسبن أنهن بعيداتٌ عن الواغلين غير (جنانِ)

فلقد راقبتْهما فأمالتْ صدرَها وانثنتْ ببعضِ الأغاني
عن ليالي غرامها وفراشٍ للهوى لم ينمْ به عاشقانِ

* * *

فاشتراها الأمير كالزهرةِ الظمأى تروّي بعطرها كلَّ نفسِ
وسرى موكبُ الجواري وقد حلّتْ جنانٌ محفةً من دمقسِ
يزدهي حولها الفوارسُ ألواناً فمن صُقلُبٍ وعُرْبٍ وفُرسِ
وإذا صيحةٌ يرددها الدربُ فأصغى لوقعها ألفُ حسِ
وإذا بالفتى ينادي وراءَ الخيلِ يسعى إلى الأمير بلمسِ
يا أميرَ الندى ويا سيدَ البحرِ وآفاقه ويا خيرَ غرسي
إنني لا أريدُ عَوداً إلى البحرِ وأمواجهِ وطولِ التأسي
فاحمِني أيها الأميرُ من الربانِ والبحرِ فهو تعسي ورمسي

* * *

كان ثغرُ الصباحِ يبسمُ للبصرةِ نوراً مغلغِلاً في الخمائلْ
ماسحاً بالندى ظِلالَ الليالي ناشراً فوقهنّ حُمْرَ جدائلْ
في دروبِ الربيعِ والنخلِ والبحرِ وأمواجهِ وفوقَ المنازلْ
فيحيلُ الندى على قممِ الوردِ نبيذاً على شفاهٍ نواهلْ
يُذْكرُ الشمس بالجواري وبالكأسِ وندمانهِ وسحرِ الأصائلْ
حين يحلو الهوى إلى سكرةٍ فيها تنامُ الكؤوسُ تحتَ الأناملْ

* * *

الندى مالئٌ بُرودَ الندامى والجوى مالئٌ نهودَ الجواري
هكذا العازفونَ جاءوا إلى البحرِ سكارى على شفاهِ النهارِ
يملأون الطريقَ بُرداً رقيقاً تتصبّاه رِفلةٌ من إزارِ

فأطلَّ الربانُ يعبثُ بالسوطِ ويرنو لشاهقاتِ الصواري
فإذا بالفتى يردُّ الندامى ملقياً عودَهُ بلا أوتارِ. . .
هاتفاً للقلوعِ: قد عدتُ فاسري موكباً ترتمي عليه الدراري
أنا لا أستريحُ يا سيدي الربانَ إلا مطوّفاً في البحارِ

* * *

فدعاه الربانُ حباً وألقى سوطه وانتحى به غضبانا. . .
قال يا أيها الفتى، أيها المجنونُ، هل كنتَ عندهم سكرانا؟
كيف تسعى إلى الأميرِ لتبقى عنده خادماً ذليلا جبانا
أنت يا من ضربتَ في البحرِ حتى كاد يلقي على يديك الجمانا
أنتَ يا من ضربتَ بالسيفِ حتى أَلِفَ الغِمدُ أن يظلَّ مهانا؟
إن هذي سفينةُ المجدِ تأبى ذلّةً أو يسدَّها قتلانا!
صرخةُ الحربِ لن تكلَّ نداءً يُرغمُ البحرَ أن يُحلَّ خطانا

* * *

ليس يسعى إلى الأمير ذليلاً من جثتْ تحت اخمصيه الخطوبُ
أنت أدرى بنا إذا هدرَ الموجُ وجاشتْ غواربٌ ولَهوبُ
وإذا ما أطلقتَها صرخةَ الحربِ وعزَّ الكميُّ من يستجيبُ؟
كما أملْنا على العدو العوالي خُفّضاً وهو أخرسٌ لا يجيبُ
ورددْنا عن النساءِ المواضي ذُهَّلاً هدّها النجيعُ الصبيبُ
أَوَلم اختطفْ جناناً من القصرِ وبحرُ السهامِ طامٍ رهيبُ
حينَ جالَ الرجالُ واستنجَدُ الجندُ فلم تنفعِ الحريبَ الحروبُ

* * *

أنت أذكرتَني جناناً فمهلاً يا فتى البحرِ يا أميرَ الندامى!

قد دجا الحبُّ في السفينةِ لما فقدتْ سربَها فباتت ظلاما
ومضى عرسُها فقد هدأَ الراقصُ واستمهلَ المغني وناما. . .
لم تكنْ هكذا الليالي قَتاما حين كانت جنان نجلو الغراما
وتشدُّ السهامَ في القلب لكنْ تنثني بعدها فتنضو السهاما
نزعتْ أسهمَ الهيامِ ولكنّ فؤادي ما زال يشكو الهياما
فأجاب الفتى: لقد كنتُ في القصر وأبلغتُها الهوى والسلاما
قلتُ: ما زال سيدي يرقبُ الأفقَ ليلقاكِ في النجوم ابتساما

❊ ❊ ❊

إستفاقَ النخيلُ طَلْقَ المحيّا يرقبُ البدرَ في الأعالي وضيّا
فإذا سعفُه الثقيلُ أيادٍ مشرعات تنوءُ شيئاً فشيّا
قبّلَ البدرُ بالضياءِ أعاليها وأبقى السعفَ الخفيضَ خليا
قبلةَ النورِ يسكبُ البدرُ فيها روحَه فالدُّنى من السحر رؤيا
وسرى النهر لاثماً قدمَ النخلِ مُجيلا بين الخمائل ريّا
وإذ الليلُ تطعنُ الصمتَ فيه صرخةٌ تملأ السفينَ دويّا:

❊ ❊ ❊

أيها الأصدقاءُ لُفّوا المراسي وارقبِ البرَّ يا فتى والقصورا
يا كشيفَ الذراعِ أسرعْ إلى الدفّةِ واحذرْ هنيهةً لندورا
أيها العازفُ الصغيرُ حناناً قل لمن يجذفون: عرّوا الصدورا
أيها المبحرونَ! أين الهدايا؟ والتحايا. . فقد نزور الأميرا!
افتحوا مخزنَ السلاحِ، إلى الحربِ! فقد أسدلَ الظلامُ الستورا
يا نسيمَ القتالِ والبحرِ هذي رايةُ الحربِ فانتفضْ مسعورا!

❊ ❊ ❊

هـكـذا سـارتِ الـسـفـيـنـةُ يـرعـاهـا ظـلامٌ داجٍ ومـوجٌ مُـعْـنَـى
وكـأنّ الـنـجـومَ أرهـبَـهـا الـروعُ فـنـامـتْ عـن الـتـألـق وَهْـنـا
وجـثـا الـبـحـرُ وارتـمـى مـسـتـذَلاً شـدَّ أنـفـاسَـهُ هـوانـاً وحـزنـا
بـغـتـةً دمـدمَ الـفـتـى: يـا رفـاقَ الـبـحـرِ صـمـتـاً وهـدأةً قـد وصـلـنـا
ذاك قـصـرُ الأمـيـرِ يـا سـيـدي الـربـانَ هـل تُـنـزلُ الـمـراسـيَ عـنـا؟
فـعـلا صـوتُـه الـمـزمـجـرُ، هـيـا!.. قَـرُبَ الـفـوزُ يـا رجـالُ وفـزنـا.
اسـبـحـوا يـا رفـاق! قـد هـدأ الـجـنـدُ ونـامَ الـعـدوُّ سـمـعـاً وعـيـنـا

❊ ❊ ❊

حـارسٌ سـاهـرٌ يـطـوفُ أمـامَ الـقـصـرِ واهـي الـخُـطـى غـريـبـاً وحـيـدا
يـرسـلُ الـطـرفَ واهـنـاً وهـو يـخـطـو خـطـوةً ثـم يـنـثـنـي مـكـدودا
فـكـأنّ الـنـخـيـلَ ألـقـى عـلـيـه رُقـيـة أيـقـظـتْ خـيـالاً شـريـدا
مـن لـيـالـيـه فـي نـهـاونـدَ... والـخـمـرِ... وحـانٍ يـضـمُّ حـبـاً بـعـيـدا
مـن رفـاقِ الـشـقـيـقِ والـجـبـلِ الأبـيـضِ والـزهـرِ والـربـيـعِ جـديـدا
وأرادَ الـغـنـاءَ لـكـنّ سـهـمـاً أخـرسَ الـقـلـبَ والـغـنـاءَ الـولـيـدا

❊ ❊ ❊

سـيـدي.. سـيـدي.. لـقـد هـدأَ الـسـامـرُ فـي الـقـصـر فـلـنـزرْ زهـرتـيـهِ
هـا هـنـا غـرفـةٌ.. وثـمـةَ أخـرى.. خـلْـفـهـا سـلّـمٌ.. فـأسـرعْ إلـيـهِ
فـنـضـا سـيـفَـهُ وإذْ بـجـنـانٍ فـاحـتـواهـا الـربـانُ فـي سـاعـديـهِ
لَـغِـبَ الـصـدرِ ودَّ لـو حَـطَّـمَ الـصـدرَ ومـصَّ الـرحـيـقَ مـن نـاهـديـهِ
فـعـرتْ رعـشـةٌ جـنـانـاً ومـالـتْ وفـراشُ الـهـوى وثـيـرٌ لـديـهِ
وهـمـتْ دمـعـةٌ فـمـال عـلـيـهـا لـيـروّي مـن خـمـرهـا شـفـتـيـهِ
غـيـر أنّ الـدمـوعَ أوفـتْ بـيـنـبـوعِ الـهـوى لـعـنـةً عـلـى نـاهـلـيـهِ

إذ تـراخـتْ جنـان واشـتـدّ صـبٌّ نـبـضـاتُ الـجـحـيـمِ فـي أصـغـريـهِ
عـجـزَ الـثـوبُ أن يـضـمَّ كـنـوزاً عـجـزتْ أن تـردَ فُـسـقَ يـديـهِ

❊ ❊ ❊

يا نبيَّ السهامِ لم يطشِ السهمُ ولم تخطئِ اليدانِ مجالا . . .
قد ثوى الحارسُ الغريبُ قتيلاً دونَ أن يعرفَ الضنى والقتالا
فامضِ للبابِ مسرعاً . . سترى الربانَ يخفي عند النخيل الرجالا
هكذا أنبأَ الفتى مُرسَلٌ مرَّ عليه هنيهةً ثم . . مالا
هامساً : قد خلا الأميرُ بجيشٍ «يطلبُ الكرَّ ناعماً والنزالا»
سنري جيشهنَّ كيفَ العناقُ العذبُ حتى يتهنَ منا دلالا

❊ ❊ ❊

سيدي . . قد مضى الرجالُ إلى المركبِ والبحرُ ناعمٌ بالهجوعِ
وتركنا الأميرَ في المخدعِ البضِّ سجيناً بلا مُجيبٍ سميعِ
وأسرْنا الجنودَ والناعماتِ الحورَ بيضاً مرقوقاتِ الدموعِ
ونهبنا الأميرَ حتى دنانَ الخمرِ سَحْباً إلى أميرِ القلوعِ
سيدي . . سيدي . . لقد لألأ الفجرُ فأسرعْ عن الندى المفجوعِ
إن صوتاً من السفينةِ يدعوك إلى المعقلِ المريعِ المنيعِ

❊ ❊ ❊

يا فتى . . ! من أتى؟ أتسمعُ خيلاً؟ إنني أسمعُ الخيولَ تجولُ
ليت خيلَ الأميرِ تنكصُ سلْماً قبل أن يغتلي عليها السبيلُ
يا فتى! يا جنانُ! يا سيفُ! عادتْ ضربةُ السيفِ والنزالُ الجليلُ
ويكَ! للبحرِ . . للرجالِ . . اتبقى ذاهلاً حين يستحرُّ الذهولُ؟
أيعيدُ الأميرُ بالسيفِ عاراً مَدَّهُ أمسِ سوطُنا المفتولُ

إن درعَ الـشـراعِ والـبـحـرِ مـنـا غُـرَرُ الـحـربِ بَـرْزةً والـحـجـولُ

* * *

ضـربـةً يـا حـسـامُ حـتـى يـثـوبـوا رمـيـةً يـا سـهـامُ حـتـى يـتـوبـوا
جـولـةً يـا رجـالُ حـتـى تـكـلَّ الـخـيـلُ وهْـنـاً ويـسـتـكـيـنَ الـوثـوبُ
كَـرّةً يـا رجـالُ حـتـى يـلاقـي الـسـيـفُ سـيـفـاً ويـسـتـبـدَّ الـغـريـبُ
هـجـمـةً يـا رفـاقُ! ولـيـنـحـنِ الـمـجـدُ فـبـقـيـاه بـحـرُنـا والـحـروبُ
لـن يـهـابَ الـسـهـامَ إلا مُـصـابٌ أو يـحـبَّ الـسـهـامَ إلا مُـصـيـبُ!

* * *

يـا حـبـيـبـاً أمـالَ طَـرْفَ الـوشـاحِ رافـلاً فـي شـبـابـهِ والـمِـراحِ
يـا حـبـيـبـاً «بـفـارسِ» لـيـت أنّـا نـزرعُ الـوردَ فـي الـربـى والـبـطـاحِ
بـسـمـةٌ مـنـكَ تـمـلأُ الـبـحـرَ خـمـراً وتُـجـيـلُ الـنـسـيـمَ بـيـن الـريـاحِ
يـا حـبـيـبـي ثـوى الـعـراقُ ونـجـدٌ ونـهـاونـدُ فـي يـد الـمـلاّحِ
هَـبْ نـجـومَ الـمـسـاءِ شـعـتْ ضـيـاءً أتـراهـا تُـزري بـنـجـمِ الـصـبـاحِ؟
إن في «فارسِ» الكؤوسِ حبيباً سوف يُذكي الهوى ويُطفي جراحي

* * *

هـكـذا طـافَ بـالـشـفـاهِ غـنـاءُ الـمـبـحـريـنَ الـبِـعـادِ يـطـوي الـبـعـادا
وكـأنَّ الـريـاحَ ألـقـتْ عـلـى الـبـحـر وشـاحـاً مـن نـسـجـهـا يـتـهـادى
كـلُّ ثـغـرٍ عـلـى الـسـفـيـنـة يـشـدو بـالـنـزال الـجـلـيـل ذِكْـراً مُـعـادا
قـد أنـال الـفـتـى الأمـيـرَ حـسـامـاً مـاضـيـاً فـرَّ مـن شَـبـاهُ ارتـدادا
وأنـالَ الـربـانُ قـائـدَهُ الـمـجـنـونَ سـهـمـاً أصـمـاهُ قـتـلاً وجـادا
ومـضـى الـجـنـدُ يُـغـمـدونَ سـيـوفـاً لـم تـنـلْ فـي الـلـقـاء إلا ارتـعـادا

* * *

وإلـى غـرفـةٍ تـطـلُّ عـلـى الـمـوجِ تـهـادت جـنـانُ والـربـانُ
وسـرى الـعـازفـون حـولـهـمـا يـروون أسـطـورةً رواهـا الـزمـانُ
عـن شـذى الـحـبِ والـعـنـاقِ وقـصـرٍ صـاغ جـدرانَـهُ الـصِـبـا والـحـنـانُ
هـم يـقـولـون: قـد ظـفـرتِ بـصـيـدٍ لـم يـنـالـوه فـاسـعـدي يـا جـنـانُ
إن ربـانـنـا الـجـمـيـلَ أمـيـرٌ مـلـكُـهُ الـخـمـرُ والـقـنـا والـحـسـانُ

* * *

أيـهـا الـعـازفـونَ.. يـا أصـدقـائـي! اعـزفـوا عـنـد جـنـدنـا... يـا رفـاقُ!
واتـركـونـي مـع الـحـبـيـبـةِ فـالـقـلـبُ ضـرامٌ وكـلُّ ثـغـري اشـتـيـاقُ
أيـهـا الـعَـازفـونَ.. سـوف تـلـوحُ الـهـنـدُ فـي بُـرهـةٍ ويـحـلـو الـعـنـاقُ
فـمـضـوا لـلـجـنـودِ حـتـى إذا راحـوا بـدا فـوق مـقـلـتـيـه انـطـبـاقُ
قـال: مـا كـنـتُ يـا حـبـيـبـةُ وغـداً دأبـهُ الـسـيـفُ والـنـجـيـعُ الـمـراقُ
إنـمـا كـنـتُ يـا جـنـانُ أمـيـراً بـاركَ الـشـامُ مـجـدَهُ والـعـراقُ

* * *

كـنـت أهـوى الـفـنـونَ والـكـأسَ والـشِـعـرَ ويـهـفـو لـقـصـري الـشـعـراءُ
وأواسـي عـلـيـلَـهـم إن جـفـاهُ الـدهـرُ حـتـى يـمـوجَ مـنـه الـغـنـاءُ
كـنـت أمـضـي إلـى الـخـلـيـفـةِ والـجـنـدُ أمـامٌ بـمـوكـبـي ووراءُ
أدفـعُ الـظـلـمَ عـن صـدورِ الـمـسـاكـيـنِ وآبـى أن يـبـطـشَ الأغـنـيـاءُ
غـيـر أنَّ الـسـمـاءَ شـقّـتْ رداءً وهـبـتـنـيـه عـن رضـاهـا الـسـمـاءُ
فـرمـانـي الأمـيـرُ والـقـائـدُ الـمـجـنـونُ بـالـكـفـرِ واجـتـوانـي الـبـقـاءُ
يـا جـنـانَ الـهـوى... لـقـد أبـعـدونـي! أبـعـدَ الـلّـه مـجـدَهـم والـعـفـاءُ!

* * *

هـكـذا... وانـطـوى بـسـاطُ الأمـانـي غـيـر أن الـشـبـاب فـيـه الـشـبـابُ

قد جمعتُ الرجالَ والصحبَ جُنداً عرفَ السيفُ بأسَهم والعبابُ
كنت أرجو الحياةَ حتى يحينَ العَودُ في هدأةٍ ويدنو العقابُ
كنت وغداً أجولُ في العالمِ المجنونِ والأفقُ عتمةٌ وضبابُ
لستُ أرضى إلا انتقاماً رهيباً كم جلاه لمقلتيّ السرابُ
وأنا اليومَ.. في عيونكِ مجدي وصلاتي ومأملي والمتابُ

* * *

سيدي.. إنني أرى مركباً يسري رفيقاً على العبابِ حنونا
انزَلوا قارباً صغيراً إلينا!... إنه جاءَ!.. إنهم وصلونا!..
سيدي... سيدي... يقولون!.. ـ إن في قولهم شجىً وشجونا
ـ يا فتى! أصعِدِ الرجالَ إلى المركبِ واحذرْ في بغتةٍ أن تهونا..

* * *

قد عفا عنكَ ـ يا أميري ـ أميرُ المؤمنينَ العظيمُ والمؤمنونا
قال «في البحر يا رجالي ابنُ عمٍّ يذرعُ الأفقَ شارداً موهونا
قد عفونا عن الأمير فلا يحذرْ عقاباً وليأتِ بيتي أمينا!»

* * *

أطرقَ القائدُ المخضّبُ واستأنى قليلاً ومال عنهم قليلا
ومضى للرفاقِ يحدو بقايا من أمانٍ تحدو فؤاداً كليلا
ومضتْ مقلتاهُ في الأوجهِ السمرِ تباعاً تحدّقان طويلا
يا رجالَ القلوعِ! قد جاءنا العفوُ فهل نستجيبُ عفواً جميلا؟
فأجابَ الفتى: اميريَ! هذا السيفُ لن يستكينَ غِمداً ذليلا!
لن تكلَّ السواعدُ السمرُ حتى تلهبَ البحرَ من شَباها صليلا
يا رفاقَ العبابِ لن يهجرَ البحرُ رفاقاً له وسيفاً صقيلا

* * *

هل تهزُّ الأنواءُ منا الذراعا حين نجفو القنا ونطوي الشراعا؟
نحن لن نشهدَ الضبابَ يغطّي بسمةَ الشمسِ والربى والقلاعا
لن ترانا الأمواجُ والعاصفاتُ الهوجُ رَوعاً تفرُّ عنه ارتياعا
لن نرى البحرَ والليالِيَ والشُّهْبَ تذرّي على الشراع الشعاعا
سنرى بسمةَ الذليلِ وسيفاً في يدِ المستبدِ يزهو التماعا

* * *

يا رسولَ الأميرِ! من يُنزلُ النسرَ عن القمّةِ الموشّاةِ ثلجا؟
يا رسولَ الأميرِ! إن على البحر لمأوى من الظلوم ومَنجى
أرأيتَ الكريمَ يدهمهُ الهولُ فلا يستبيحُ أمناً مرجّى؟
ليت أرضَ العراقِ والبصرةِ الخضراءِ تطغى على الضلالةِ موجا
غضبةُ البحرِ يا رسولَ العوادي ستدكُّ القلاعَ برجاً فبرجا

* * *

أيها البحرُ.. أيها الصاخبُ الهدّارُ.. يا صولةَ الردى والسوافي
أيها الشامخُ الذي أيها المنهدُّ موجاً على صخورِ الضفافِ
هدأةً للغريبِ.. يا موجُ صمتاً، يا رياحُ اخمدي، ويا شمسُ وافي
آه لو تعلمينَ مَن يركبُ البحرَ هزوءاً بموجهِ العزّافِ
يرقبُ البرَّ من سفينتهِ شوقاً فيفترّ ثغرهُ بارتجافِ
باسماً للرذاذِ تقذفُه الريحُ على الوجهِ كالرحيقِ الصافي

١١/١٠/١٩٥٢
بغداد ـ الوزيرية

المحتويات

في قراءة الأرض ٥

الساعة الأخيرة (١٩٧٧) ١٣
الحالم ١٥
استقصاء ١٦
الساعة الأخيرة ١٩
فلسطينية كانت ٢١
الجيكولو العجوز ٢٧
البستاني ٢٩
تنويع على ثلاثة أبيات ٣١
ملابس ٣٣
روبرتو ٣٥
كيف كتب الأخضر بن يوسف قصيدته الجديدة؟ ٣٧
الأوراق ٤٥
قصيدة حب ٤٧
من أين تأتي القصيدة؟ ٤٩

السياج ٥١
لازمة ٥٣
ليلية ٥٥
الشخص السادس ٥٧

الليالي كلها (١٩٧٦) ٥٩
محاولة استبطان ٦١
قصيدة إلى وائل زعيتر ٦٣
ثلاث قصائد عن الأشجار ٦٧
خطوات ٧٠
حجر ٧٢
قصيدة مديح إلى مؤرخ مغربي ٧٣
الغابات ٧٥
الغيم ٧٧
انتهاءات ٧٨
حالة ٨٠
حوار مع الأخضر بن يوسف ٨٢
ظهيرة ٨٧
عن الأخضر أيضاً ٨٨
تقسيم ٩٢
منزل المسرات ٩٣
وحدة ٩٦

سقوط فندق النهرين ٩٨
تلمس ١٠٠
الرسائل ١٠٢
السكون ١٠٤
هواجس ١٠٦
الليالي كلها ١٠٨
بغداد الجديدة ١١٠

تحت جدارية فائق حسن (١٩٧٤) ١١٣
قصيدتان ١١٥
في تلك الأيام ١١٩
خاطرة غير متشنجة ١٢٢
أوراق من ملف المهدي بن بركة ١٢٤
ثلاث حالات لامرأة واحدة ١٣١
المسافة ١٣٦
تحت جدارية فائق حسن ١٣٨
ست قصائد ١٤٢
مزرعة الزاهي محمد ١٤٤
نجمة سبارتاكوس ١٤٦
ثلاث قصائد ١٤٩
بداية مقترحة إلى جورج سيمنون ١٥١
حديث يومي ١٥٢

البرج ١٥٤
أغنية للشعر الطويل ١٥٦

الأخضر بن يوسف ومشاغله (١٩٧٢) ١٥٩
سيدة النهر ١٦١
الأخضر بن يوسف ومشاغله ١٦٢
كابوس ١٦٦
عبور الوادي الكبير ١٦٨
وأنا أنظر إلى الجبال ١٧٤
الشارة ١٧٦
عن المسألة كلها ١٨٠
المملكة الثالثة ١٨٥
العمل اليومي ١٨٧
تنويعات استوائية ١٩١

نهايات الشمال الأفريقي (١٩٧٢) ١٩٧
حانة على البحر المتوسط ٢٠٠
نهايات الشمال الأفريقي ٢٠٣
تسجيل ٢٠٩
البحث عن خان أيوب في حي الميدان بدمشق ٢١١
قصيدة تركيبية ٢١٦
تنويمة ٢٢١

حوار أول ٢٢٢
حكاية في فصل واحد ٢٢٩
حانة الطرق الأربعة ٢٣٩
الطريق إلى سمرقند ٢٦١
مسألة صغيرة ٢٧٥
المحكومون ٢٧٧
نزوات ٢٨٨
وداع ٢٩٠
الدم في الشوارع ٢٩٢
رباعية ٢٩٣
قناطر ٢٩٤
إلى أبي تمام ٢٩٦
شرفة الساعة التاسعة مساء ٢٩٨
ثوب أبيض ٣٠٠
غزل أموي ٣٠١
صراحة ٣٠٣
في المكتبة ٣٠٤
الأشرعة ٣٠٦
السائر ٣٠٩
ثلاث حكايات عن الكويت ٣١٠
إلى رائد الفضاء ٣١٣
الصلبان الخمسة ٣١٥

أشياء ٣١٧
الفردوس المغلق ٣١٩
النهر ٣٢١
المحطة ٣٢٢
أفكار ليلية ٣٢٤
صور قديمة من «كوت الزين» ٣٢٧
إليك. . . أيتها الجزائر ٣٣٠

بعيداً عن السماء الأولى (١٩٧٠) ٣٣٣
جزيرة الصقر ٣٣٥
كلمات شبه خاصة ٣٣٨
خواطر في مدينة قريبة من البحر ٣٤٠
شط العرب ٣٤٢
بطاقة زيارة ٣٤٤
رسائل جزائرية ٣٤٧
تأملات عند أسوار عكا ٣٥٠
شجرة الدفلى ٣٥٢
الحي العربي ٣٥٣
قصيدة وفاء إلى «نقرة السلمان» ٣٥٥
مرثية إلى هادي طعين ٣٥٦
موقف شرطة السماوة ١٩٧٨ ..... ٣٥٧
نافذة في المنزل المغربي ٣٥٩

عن المدن الأخرى ٣٦٠
باب سليمان ٣٦٣
تقاسيم على العود المنفرد ٣٦٦
العمادية ٣٦٨
ثلج ٣٧١
الغصن والراية ٣٧٢
حين تموت زهرة الصبير ٣٧٦
غرناطة ٣٧٩
الوجوه والأقنعة ٣٨١
أغنية للرياح الخمس ٣٨٤
استطراد ٣٨٨
بعد ٣٩١
الجسور الثلاثة ٣٩٣
ثمانية مقاطع ٣٩٦

قصَائد مرثيَّة (١٩٦٥) ٣٩٩
خطوات الصحو ٤٠١
نوم مضطرب ٤٠٣
نعاس ٤٠٥
مرثية الألوية الأربعة عشر ٤٠٧
لمحات جزائرية ٤١٠
انطباعات عن أغنية في قطار الساعة ١٨ ..... ٤١٣

الشخص الثاني ٤١٩
محاولة ٤٢١
أبراج في قلعة سكر ٤٢٣
ساحة إسبانية ٤٣٩
مرثية ٤٤٢
النهر ٤٤٦
ثلاثة أصوات ٤٤٧
ترتيلة للبحر ٤٤٩

النجم والرماد (١٩٦٠) ٤٥١
المسافر ٤٥٣
إلى محيسن من هور السفطة ٤٥٤
بعد منتصف الليل ٤٥٦
كآبة ٤٥٧
زائر ٤٥٨
نقد ٤٦٠
مساء ٤٦٢
رزوقي ٤٦٤
الأسوار ٤٦٦
بعض محرري «الصحف» ٤٦٧
اغتراب ٤٦٩
لمسات ٤٧١

احتراق ٤٧٣
إلى زميل موقوف ٤٧٤
تلفيق ٤٧٥
زيارة ٤٧٧
الأربعاء ٩ آذار ٤٧٨
حكايات من البصرة ٤٨٠
«حادث» يومي ٤٨٢
ثلاثة جنود ٤٨٤
سر ٤٨٧
القتلى يسيرون ليلاً ٤٨٨
من «باب الشيخ» ٤٨٩
إلى عامل في الميناء ٤٩١
تطلع ٤٩٣
سليمان ٤٩٥
وطني ٤٩٦
إلى عبد الرحمن خليفة ٤٩٨
الأرض الأخرى ٥٠٠
المهاجر ٥٠٢

ديوان ٥١ قصيدة (١٩٥٩) ٥٠٥
من أجل أن تعيش جمهورية العراق ٥٠٧
الوطن الصغير ٥٠٩

توسل ٥١١
شيء عن المسألة ٥١٣
نحن ٥١٥
إلى شوقي بغدادي ٥١٦
إرفعوا أيديكم عن سعيد حورانية ٥١٨
الكويت ٥١٩
أرض زهران ٥٢١
طريق إلى قسطنطينة ٥٢٣
إلى أحد الجزائريين الخمسة ٥٢٥
إلى فريتز شولتز ٥٢٧
أربع أغنيات إلى صوفيا ٥٣٠
يوميات السفينة جروزيا ٥٣٣
إلى الاشتراكية ٥٣٧
موطني ٥٣٨
الصوت ٥٤٠
الليل في حمدان ٥٤٣
إلحاح ٥٤٥
ميت في «بلد سلامة» ٥٤٧
أغنية لا تدري إلى مهرب جريح ٥٤٩
الخيط ٥٥١
حادثة في الدواسر ٥٥٤
الليل أزرق ٥٥٦

أمر بإلقاء القبض ٥٥٨
الهارب الليلي ٥٦٠
شعار ٥٦٢
تحت أيديهم ٥٦٤
الاستشهاد ٥٦٥
لقاء مع رجل ما ٥٦٦
رفض ٥٦٧
رجاء ٥٦٩
اغتيال محمد بن عبد الحسين ٥٧١
أنطونيو بيريز من غواتيمالا ٥٧٣
إلى عبد الوهاب البياتي ٥٧٥
مرة أخرى أيها الفرنسيون ٥٧٧
عبد السلام ٥٧٩
شوق ٥٨١
أبيات بسيطة ٥٨٢
في درب ريفي ٥٨٤
إحساس ٥٨٦
إلى بعيدة ٥٨٨
الفأر ٥٩٠
المدينة ٥٩١
عشرون أغنية عن الأنهار ٥٩٣
حسون الذي يعمل أشياء كثيرة ٥٩٤

سؤال ٥٩٦
السبب ٥٩٧

أغنيات ليست للآخرين (١٩٥٥) ٥٩٩
يداً بيد ٦٠١
التي من عمان ٦٠٢
اسم ٦٠٣
غضب حزين ٦٠٤
صغير على الخمر ٦٠٦
الورد والعصافير والصغيرة ٦٠٧
أغنية ليست هادئة ٦٠٨
شيء قديم ٦٠٩
من أجل كل شيء ٦١٠
أريد ٦١١
على الطريق القديم إلى أصفهان ٦١٢
لم أكن مثلهم ٦١٤
موسيقى عن بغداد القديمة ٦١٥
ثنائي ٦١٦
عالياً. . . حيث أسمع صوتك ٦١٧
نافذتان ونهر وأغنية ٦١٨
قريتي قبل اليوم ٦١٩
صلاة جدية تقريباً ٦٢٠

الصيف جاء. ٦٢١
موعدٌ في مكان ما ٦٢٢
بوح خجول ٦٢٣
أغنية جبلية ٦٢٤
دعوة ٦٢٦
ما كنت قاسية ٦٢٨
لست أسير وحدي ٦٢٩
المدينة التي أردت أن أسير إليها ٦٣٠
صديقةٌ تحبّ البحر ٦٣١
تخطيطٌ أوليّ عن حصار غرناطة ٦٣٢
إلى شاعرٍ فارسيّ ٦٣٤
أغنيةٌ فارسيةٌ قديمة ٦٣٥
أرادوا أن أتحدث عن الفن ٦٣٦

القرصان (١٩٥٢) ٦٣٩

سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء الثالث

سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء الثالث

جنّة المنسيّات

منشورات الجمل

ولد **سعدي يوسف** في البصرة عام ١٩٣٤. تخرّج من دار المعلمين ببغداد سنة ١٩٥٤. عمل في الصحافة وتنقل بين عدة بلدان ويقيم اليوم بلندن. نشر العديد من الترجمات الشعرية والنثرية، وكتب القصة والرواية، ترجمت أشعاره إلى العديد من اللغات ونال جوائز أدبية في البلدان العربية والأوروبية. من أعماله وترجماته: **القرصان**، شعر (١٩٥٣)؛ **أغنيات ليست للآخرين**، شعر (١٩٥٥)؛ **قصائد مرئية**، شعر (١٩٦٥)؛ **بعيداً عن السماء الأولى**، شعر (١٩٧٠)؛ **نهايات الشمال الأفريقي**، شعر (١٩٧٢)؛ **الأخضر بن يوسف ومشاغله**، شعر (١٩٧٢)، **والت وايتمان: أوراق العشب**، ترجمة (١٩٧٦)؛ **تحت جدارية فائق حسن**، شعر (١٩٧٤)؛ **قصائد أقل صمتاً**، شعر (١٩٧٩)؛ **خذ وردة الثلج، خذ القيروانية**، شعر (١٩٨٧)؛ **قصائد باريس، قصائد إيثاكا**، شعر (١٩٩٢)؛ **كافافي: وداعاً للاسكندرية التي تفقدها**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **يانيس ريتسوس: إيماءات**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **لوركا: الأغاني وما بعدها**، ترجمة (١٩٨١)؛ **فاسكو بوبا: شجرة ليمون في القلب**، ترجمة (١٩٨١)؛ **غونار أكيلف: ديوان الأمير وحكاية فاطمة**، ترجمة (١٩٨١)؛ **أونغاريتي: سماء صافية**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هولان: قصائد**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هنري ميللر: رامبو وزمن القتلة**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **نغوجي واثيونغو: تويجات الدم**، ترجمة (١٩٨٢)؛ **ديفيد معلوف: حياة متخيلة**، ترجمة (١٩٩٨)؛ **وولي سوينكا: المفسّرون**، ترجمة (١٩٨٦).

سعدي يوسف: **الأعمال الشعرية، الجزء الثالث: جنّة المنسيّات**
الطبعة الأولى
خطوط الغلاف: الفنان علي عاصي
كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٤
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨/١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2014
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

عندما في الأعالي

مسرحية شعرية

(١٩٨٩)

شرح كلمات

ابسو: إِله الماء العذب.

ارشكيجال: إِلهة العالم السفليّ. أخت عشتار.

انكمْدو: الفلاح. أراد أن يتزوج عشتار.

انكيدو: صديق جلجامش. كان في البرية فاستأنسته امرأة.

آنو: إِله السماء. والد عشتار.

الأنوناكي: مجمع الآلهة.

اوتو ـ نبشتم: البعيد. جد جلجامش. أنقذ البشر في الطوفان، فمنحته الآلهة الخلود.

إِيا: إِله الفطنة والمياه الباطنية. قَتل أباه ابسو، واغتصب المُلك.

اينوما ايليش: الاسم البابلي لقصة الخليقة (عندما في الأعالي).

جلجامش: (معروف؟)

خمبابا: وحش الغابة. قتله جلجامش وانكيدو في غابة الأرز.

تيامات: إِلهة الماء الملح. زوجة ابسو.

دومكينا: زوجة إِيا، التي ولدت مردوخ.

سيدوري: فتاة الحانة البحرية.

كينغو: قائد جيش تيامات. ذُبح بعد هزيمته مع جيش تيامات، وخُلق البشر من دمه.

مردوخ: ابن إِيا ودومكينا. صار فيما بعد، ربَّ الأرباب. بنى بابل.

قَتل جدته تيامات.

ممّو (أو نمو): ثَبَجُ المياه الأولى، أو الضباب الناجم منها.

ننسون: إِلهة. أم جلجامش.

عشتار: (معروفة؟).

الراعي: إِشارة إِلى تموز.

القسم الأوّل

قصة الخليقة

(فضاء. معالم مشوّشة. موسيقى إِلكترونية. ضباب. آلهة هائمة)

الجوقة: عندما في الأعالي
لم تكن زرقةٌ أو سماءْ
عندما في الدواني
لم تكن لمسةُ الأرضِ
كان العماءْ
العماءُ
العماءْ
لم يكن غيرُ ماءْ،
غيرُ تهويلةٍ من ضبابٍ وماءْ
لم تكن غيرُ تلكَ الإلهةِ
تلك التي هي ماءٌ ضبابٌ
وماءٌ ضبابٌ
وماءٌ وماءٌ وماءْ
أحد الأنوناكي: ولكننا قد وُلِدنا.
ثانٍ: كيف تُستولَدُ الآلهةْ.
من عماءْ؟
ثالث: كيف يغدو الفضاءْ
صفةً؟

رابع: كيف جئنا لنسكنَ هذي السماءْ؟
الأول: ولكننا قد وُلدنا
لنسكنَ هذي السماءْ. . .
ألم يكن الكونُ ماءً؟
ألم تكن الأرضُ ماءً؟
فكيف، إِذن، لا تكونُ السماءْ؟
وكيف، إِذن، لا يكونُ العلاءْ
مساكنَنا؟
نحن لم نأتِ من غيمةٍ
نحن أصلٌ، وفصلٌ، ونحن النّماءْ
نحن آلهةُ الكونِ
أولُ مَن فيه والانتهاءْ.
الجوقة: هذه الآلهةْ
كلُّها
وسواءٌ لها
منزلُ الأرضِ
أو مَعْرَجٌ في السماءْ
هذه الآلهةْ
كلُّها
لا تُطاقْ. . .
انظروا: إِنهم يسكرونْ
دون أن يخجلوا من أحدْ

دون أن يخجلوا
منكمو، أيها البشرُ العابرونْ.
إِنّهم يسكرون
ليقولوا لكم: إِننا الآلهةْ
إِننا الخالدون!
ثم ماذا؟
دعوهم يقولوا الذي يشتهونْ.
نحن نعرفهم واحداً واحداً
نحن نعرف أسماءَهم واحداً واحداً
نحن نعرف أنهمو في الخرافة يستغرقون
دعوهم، فأنتم هنا، وحدكم تعرفونْ
أيَّ شيءٍ يُخَلَّدْ
أيَّ شخصٍ يُمَجَّدْ
أيَّ شخصٍ يهونْ. . .
أحد الأنوناكي: جوقةٌ للكلام البذيءْ
جوقةٌ للمهانهْ.
صوت: (هذه الآلهةْ
كلُّها
وسواءٌ لها
منزلُ الأرضِ
أو مَعْرَجٌ في السماءْ
هذه الآلهةْ

كلُّها
لا تطاقْ)
أحد الأنوناكي (يستمر): من أتانا بها؟
ثانٍ: لتكنْ نابِها...
ثالث: أوَلم تسمع الرعدَ؟
رابع: أبصرتُ برقاً تخاطَفَ من جهةِ البحرِ...
الأول: مَن جاء؟
ثانٍ: ابسو...
ثالث: سكرْنا
لقد قالت الجوقةُ الحقَّ.
رابع: أما جاء ممّو؟
الأول: سكرْنا
لقد قالت الجوقةُ الحقَّ...
ثانٍ: ابسو
رابع: وممّو...
الأول: قبل أن يوجد بيتٌ قُدُسٌ للآلهةْ
في مكانٍ قُدُسٍ
قبل أن يُخلَقَ في الماء القصبْ
قبل أن تخضرَّ أغصانُ الشجر
قبل أن يُبتكَر الآجُرُّ والقالبُ...
قبل المدنِ العظمى
وقاماتِ البشرْ

لم يكن ثَمَّ سوى البحرِ
ونحن الآلهةْ
قد ظهرنا، بغتةً
وسكنَّا بيتَنا القُدْسَ
وما كانَ على الأرض البشرْ
فلماذا تطلبُ الجوقةُ أن نسجدَ شكراً للبشرْ؟
الجوقة: عندما شُكِّلتِ الأرضُ وقامت
عندما حُدِّدَ للأرضِ مصيرٌ والسماء
عندما امتدّت مع الشطآن دجلةْ
والفراتْ
ذُبحتْ آلهةٌ كي يُخلق الإنسانُ
من فيض الدم الغالي الإلهيّ، ومن أعراقه المستنفَرات
وليكنْ!
لم يُخلق الإنسانُ من طِينٍ فُتات.
أحد الأنوناكي: قد خلقناه لكي يخدمَنا،
كي يحمل السلّةَ والمعولَ
يحيا في الخنادق
أو يموتْ
قد خلقناه لكي يبني للآلهة العظمى
بيوتاً وبيوتْ
قد خلقناه لكي يحفظَ أحجارَ الحدودْ
أو يموتْ

قد خلقناه ليسقي الأرضَ،
يستنبتها خيراً وغَلَّهْ
ويغنّينا
يغنّيها
ويستخرجُ ماءً سلسلاً منها. . .
خلقناه لكي نحيا
ولم نخلقه كي يحيا. . .
الجوقة: عجباً!
أيُّ إِلهٍ ظالمٍ هذا؟. . .
كأن الكون ما مرّتْ به آلهةٌ أخرى. . .
ثانٍ: لمن أنتم تشيرون؟
ثالث: ألا تعرف من تعني هنا الجوقةُ؟
رابع: إِني العارفُ الهارفُ.
الأول: لا بأسَ. سنبدأْ
بالبدايةْ:
صوت: (هذه الآلهةْ
كلُّها
وسواءٌ لها
منزلُ الأرضِ
أو مَعْرَجٌ في السماءْ
كلُّها
لا تُطاقْ).

ابسو، الماءُ العذبُ
سَلَفُ الآلهةِ العظمى
وتياماتُ، الماءُ الملحُ
أمُّ الآلهة العظمى...
يا لسكونِ الهيبةِ، يا لَلصمت الكاملْ
يا لنهار أهدأَ من ليلٍ
يا بيتاً أقْدَسَ
يا قدسَ الأقداسْ.

الجوقة: ما معنى الآلهة العظمى
إِن وثبتْ آلهةٌ صغرى
وَثْبَتها؟
ما معنى الآلهةِ العظمى
إِن قتلَتْها آلهةٌ صغرى؟
ما معنى الماءِ العذبْ
إِن جعلوه المُرّا؟

الأول: قلتُ لكم، هذي الجوقةُ ملعونهْ
ستظل تعاندني
ستظل تناكدني.

الثاني: انْسَ الجوقةَ، وابدأْ

الرابع: هيا!
انسَ الجوقةَ، أو لا تنسَ الجوقةَ
هيا! وابدأْ...

الأول: السمكُ الكبيرُ يأكل الصغيرْ
لكنما يَحْدثُ أن السمكَ الصغيرَ يأكلُ الكبيرْ
وأن للفيلِ جناحينِ
وأن الطيرَ لا يطيرْ.
الجوقة: هل تسمعونهُ؟
أما قلتُ لكم: تَعْتعَهُ السكرُ
وسالتِ الخمرُ
على ثيابهِ...
الأول: أخطأَتِ الجوقةُ هذي المرّةَ...
الكلامُ لي.
الثاني: انسَ الجوقةَ، وابدأْ
الأول: تمرّدتْ آلهةٌ صغرى
وصفَّتِ الآلهةَ الكبرى.
السمكُ الصغيرُ التهمَ الكبير.
الثالث: وكيف للفيلِ جناحانِ؟
الرابع: وكيف الطيرُ لا يطيرْ؟
الأول: صبراً، لنبدأْ أولاً بحكمة الأسماكِ،
كيف السمكُ الصغيرُ التهمَ الكبيرْ...
ابسو: الماءُ العذب
سَلَفُ الآلهةِ العظمى.
وتيامات: الماء الملحُ
أمُّ الآلهة العظمى...

كان الإثنان بلا أبناءٍ يضطربون ولا أحفادْ
لكنْ جاءَ الأبناءُ وجاءَ الأحفادْ
وضجَّ البيتُ القُدْسُ بصيحاتِ الأولادْ
وحَطَّ الأحفادُ على لحية ابسو
وتعالى الضحكُ السمْجُ وقعقعةُ الإنشادْ
وتعالى غضبُ الشيخِ، ولكنْ. . . مَن يُوقفُ أغنيةَ الأولادْ؟
مَن يُوقف هذا الصخبَ الفظَّ، وهذا اللعِبَ القاسيَ بالأزمانِ
ويُرجعُ أفراحَ القلب؟
وإِبسو يهدرُ: سوف أدمِّرهُمْ.
وتياماتُ تقول:
هل نقتلُ مَن أحيَينا؟
هل نقتلُ من نحنُ وهبناهم حقَّ حياةٍ منّا؟
والشيخُ يقولُ.
الصبحُ معاشي
والليلُ لباسي
لكنهمو قتلوا صبحي والليلْ. . .
سأدمِّرهُمْ:
والويلُ لهمْ:
الويلْ.
صوت: هذه الآلهةْ
كلُّها
وسواءٌ لها

منزلُ الأرضِ
أو مَعْرَجٌ في السماءْ
هذه الآلهةْ
كلُّها
لا تطاقْ.

الأول: قلتُ لكم، هذي الجوقةُ معلونهْ
ستظلّ تعاندني
ستظلّ تناكدني!

الثاني: هيا!
انسَ الجوقةَ، وامضِ
هيا!

الأول: نحن قتلْنا ابسو
نحن الأنوناكي.
السمكُ الكبيرُ يأكلُ الصغير.
وهكذا حينَ سمعنا أنه قاتِلُنا غداً
قلنا: علينا قتلُهُ اليومَ...
وصارَ السمكُ الصغيرُ يأكل الكبير.

الجوقة: هذا الأنوناكي
الدائخُ بالسَّكرهْ
ثيابهُ ماءٌ
ورأسُه جَرّهْ
لو قَتَلَ الإبسو

لكان في العلياء
وما أتى الليلهْ
في هذه الضوضاء
لكنه الرأسُ
ينضح كالسلّهْ!
الأول: قلتُ لكم، هذي الجوقةُ معلونهْ.
ستظلُّ تُعاندني
ستظلُّ تناكدني!
الثاني: هيّا!
انسَ الجوقةَ، وامضِ
هيّا!
الأول: حقاً، لم أقتل ابسو بيديّ
لكنّ الأنوناكي قتلوه
وأنا منهم...
الجوقة: ما زال الرأس
ينضح كالسلّهْ!
الأول: اللعنةُ!
مَن جاء بهذي الجوقهْ؟
الجوقة: هذا الأنوناكي السكران
هيمانُ بدون لسان
ولهذا سنقول لكم،
نحن، اللحظةَ والآن

ما يمكنُ أن يعرفَه الإنسان
عن مقتلِ إِبسو.

(فاصل)

كان الشيخُ المسكين
في منزلِه المائيِّ
وجاء «إِيا»
رتّلَ ترتيلتَهُ الأعجوبهْ
رتَّلَها
وأحاطَ بها
وجهَ الماء...
فنامَ رفاقُ الشيخ المسكين
نام الشيخُ المسكين
نام طويلاً،
و«إِيا» حلَّ نطاقَ الشيخِ المسكين
ونضا عن مَفْرِقِهِ التاجَ
وتوَّجَ نفسَهْ
ربّاً أعلى،
شيَّدَ منزلَهُ
فوق رفاتِ الشيخِ المسكين
النائم حتى الآن...

الأول: قلتُ لكم، هذي الجوقةُ ملعونهْ

ستظلّ تعاندني
ستظلّ تناكدني!
الجوقة: هذا الأنوناكي السكرانْ
ما زال بدون لسانْ
ولهذا سنقول لكم،
نحن، اللحظةَ والآنْ
ما يمكن أن يعرفه الإنسانْ
عن قتل تيامات
الأمِّ الأولى
زوجةِ إِبسو.

(فاصل)

عاش «إِيا» في منزله المائيّ طويلاً
ومَقاماً قُدُساً شادَ
له، ولزوجته دومكينا
وثمّتَ في غرفة تقدير الأقدار
كان له ولدٌ:
مردوخ.
كان جميلاً
وطويلاً
تخلب قامتُه الألباب
وكانت عيناهُ البرقَ

تشعّانِ عيوناً أربعَ
كانت أذناه تجسّانِ السمعَ
كآذانٍ أربعَ
كانت نيرانُ الفطنة في شفتيه
كان الأعلى بين الآلهةِ الأعْلَين
ـ ابنَ الإله الشمسِ
ابنَ شمسِ الآلهةِ ـ
كان بهيّاً،
يسطعُ أبهى من عشرة آلهةٍ
كان الجبّار.

(فاصل ريح وموج)

تيامات (تتأمل): هذي الرياحُ الأربعُ الشرساتُ
أدفعُها، فلا ترتدُّ
إنّ هديرَها يمتدُّ
في صدري ويحتدُّ
وهذا الموج يعصف بي
كأنّ غدائري طارت شَعاعاً
كيف أهدأُ
كيف أهدأُ
كيف أهدأْ؟
(يدخل أحد الآلهة الكبار): يا أمَّنا، لن تنفعَ الحسراتُ،

كوني، مثلما عَوَّدتِنا:
جذعَ الشجاعةِ
ماءَها
كوني لنا الدرعَ السبيغَ
لعلّنا
قاضونَ ثأرَ أبٍ لنا
قتلتْهُ آلهةٌ صغارُ.
يا أمَّنا صبراً
فهذا الصوتُ يعقبهُ قرارُ.

تيامات: لو كان للحَدَثانِ أن يحكي لكنتُ أنا الحكايهْ
لو كان للأشجار أن تبكي لكنت أنا الدموع
لو كان للأمواج صدرٌ كنتُ مضطَربَ الضلوع
لكنني لم أضطربْ حتى وإِن قتلوا رفيقَ صبايَ ـ ابسو
اليومَ أشعرُ أنّ عِرقَ حقيقتي العظمى يُمَسُّ
ولأجله سأقول للثبجِ
للريحِ، للأعداءِ، للحَرجِ
سأقولها للغادرينَ: كفى!

(فاصل موج وريح)

كينغو (يدخل): تياماتُ، جئتُكِ بالجيشِ...

تيامات: فليدخلوا!

كينغو: ادخلوا!

الأفعى الهائلة (تدخل): سلاماً تياماتُ
إِن دمي ـ السُّمَّ في إِمْرَتِكْ
التنّين (يدخل): سلاماً تياماتُ
إِن لساني الذي يتلهَّبُ في إِمرتِكْ
الأسد الجبار (يدخل): سلاماً تياماتُ
إِن مخالبيَ السودَ في إِمرتِكْ
الكلب المسعور (يدخل): سلاماً تياماتُ
إِن دمي المتسعِّرَ في إِمرتِكْ
الرجل العقرب (يدخل): سلاماً تياماتُ
إِن الرجالَ العقاربَ في إِمرتكْ
الذبابة العملاقة (تدخل): سلاماً تياماتُ
نحن الذبابَ العماليقَ في إِمرتكْ
الجاموس الفحل (يدخل): سلاماً تياماتُ
إِن الفحولةَ في إِمرتِكْ
تيامات: تقدَّمْ إِلى الضوءِ، كينغو
تقدّمْ!
(يتقدّم كينغو)
جعلتُكَ أنتَ العليَّ العظيما
فَقُدْ أنتَ جيشي،
وكُن صاحبَ الأمرِ في مجلسِ الآلهةْ
الجوقة: واستعدَّتْ تياماتُ للحربِ
كانت تهدِّدُ أبناءَها، مثل صاعقةٍ تائهةْ

آه، أيتها الأمُّ
ما أظلمَ الحربَ، حربَكِ!
ما أظلمَ الخَلَفَ الآلهةْ!
صوت: (هذه الآلهه
كلُّها
وسواءٌ لها
منزلُ الأرضِ
أو مَعْرَجٌ في السماءْ
هذه الآلهةْ
كلُّها
لا تطاقْ)

(فاصل)

ـ غرفة تقدير الأقدار في منزل «إِيا». الأنوناكي مجتمعون ـ

أحد الأنوناكي (مخاطباً إِيا): أيّهذا البطل الرائعُ، يا مقدامُ، يا وثّابُ
يا قادرُ، يا غلاّبُ
يا مُحْكَمُ
يا أحكَمُ
يا قاتلَ إِبسو،
هذه الأمُّ تيامات أعدَّتْ جيشها
فامضِ إِليها

قُلْ لها: فلتهدأي روحاً
وقُلْ: فلتسكني قلباً
وقُلْ: لا تدخلي حربا.
إِيا: سوف أمضي برهةً (يخرج)
أحد الأنوناكي: نحن لا نملكُ إِلا الانتظارْ
آخر: أنت تعني، نحن لا نملكُ رأياً أو قرارْ
الأول: أترى أنتَ الفرار؟

(فاصل)

(تيامات مع جيشها العجيب، وإِلى جانبها كينغو قائد الجيش)

إِيا (يدخل مرتبكاً): سلاماً تيامات...
تيامات: لا مِن سلام يُرَدُّ على القاتلِ
إِيا: ولكنني جئتُ أرجوكِ...
تيامات: ماذا؟
إِيا: أطالبُ بالعدلِ من عادلِ
تيامات: وزوجي القتيل؟
إِيا: مضى في النعاسِ الطويل
تيامات: وأنت ترتِّلُ ترنيمةَ القاتلِ...
إِيا: أريدُ السلامَ، تياماتُ،
تيامات: لا من سلامٍ مع القاتلِ. (تلتفت نحو كينغو)
ويا قائد الجيشِ

قدِّمْ له الرجلَ العقربا (يتقدّم الرجل العقرب)

إِيا (متراجعاً): تياماتُ، جئتُ أريد السلام (الرجل العقرب يتقدّم)

تيامات (مشيرة إِلى الرجل العقرب): تحدثْ مَعَهْ

(ومشيرة إِلى الآخرين) أو إِلى هؤلاء. . . .

(المخلوقات المهولة تتقدّم)

إِيا: تيامات!

تيامات: هل خفتَ؟ كيف وأنت البطلْ!

ويا قاتلاً مَن قَتَلْ. .

يا ساكنَ الغرفةِ العاليهْ. . .

(المخلوقات المهولة تتقدّم)

إِيا: تيامات!

تيامات: يا قائدَ الجيشِ، كينغو

دعِ الكلبَ يطردْهُ. . .

إِيا (وهو يخرج): يا ويلَنا! أيُّ جيشٍ رهيب!

(فاصل)

ـ غرفة تقدير الأقدار في منزل «إِيا». الأنوناكي مجتمعون ـ

إِيا (يدخل): مضيتُ إِليها، وكلّمتُها. . .

أحد الأنوناكي: وهل جنحتْ للسلامْ؟

إِيا: كأنيَ من رهبتي قد نسيتُ الكلامْ

ثانٍ: أتعني أخافتْكَ؟

إِيا: إِن مخاليقَها أرعبَتْني.

ثالث: وماذا رأيتَ؟

إِيا: رأيتُ دماً يغمرُ الغَمْرَ في لحظةٍ،

ورأيت تيامات ترخي غدائرَها الزرقَ

أوسعَ من سَعة الغمرِ...

رابع: هل جيشُها مثلُ جيشِكَ؟

إِيا: لا. ليس جيشاً...

الأول: إِذن؟

إِيا: مخاليقَ كانَ، عفاريت عاصفةٍ، ورجالاً عقاربَ

ماذا أقول؟

أكلْبُ تياماتَ يطردني؟

الأول: عجباً يا سليل الإِله!

صوت: (هذه الآلهةْ

كلُّها

وسواءٌ لها

منزلُ الأرضِ

أو مَعْرَجٌ في السماءْ

هذه الآلهةْ

كلُّها

لا تطاقْ)

ثانٍ: إِذنْ، ما العملْ؟

إِيا: أنا لستُ أدري. . .

ثالث: ومَن غيرُكَ اليوم يدري؟

ألست المقدَّم في المعركهْ؟

ألستَ المُحَكَّمَ في الأمرِ؟

هل أرعبتْكَ كلابُ تياماتَ، حقّاً؟

إِيا: أنا أمسيتُ شيخاً. . .

الأول: إِذن، فَلْنُنادِ الفتى!

إِيا: مَن؟

الأول: ومَن غيرُ مردوخَ، ابنِكَ؟

هذا الجميلِ

الطويلِ

الجريءِ

النبيلِ

الذي قاد مَرْكبةَ العاصفهْ. . .

إِيا: فَلْنُنادِ الفتى!

(يخرج الأول ليعود صحبة مردوخ)

مردوخ (لأبيه إِيا): نعم يا أبي؟

(إِيا، مُطرقٌ، لا ينطق)

نعم يا أبي؟

آهِ، لا صمتَ يُنبي كصمتِ الإِله!

الأول: عرفتَ الحقيقة، مردوخُ،

نحن نناديكَ، كي تعتلي، اليومَ، مركبة العاصفهْ

لتقهَرَ جيشَ تياماتَ
تلك التي قد أخافتْ بنبحة كلبٍ أباك. . .
مردوخ: إِذا كان لي أن أردَّ الإِهانهْ
وأقهرَ جيشَ تياماتَ هذا
وأحفظكم آمنين
فلي أن أقول لكم: سلِّموا بيديَّ المقادير
وليكن الأمرُ لي
إِن نطقتُ أُطِعْتُ
وما شئتُ كانْ.

(هتافٌ لمردوخ)

الجوقة: وتنادَى آلهةُ الأقدار
أكلوا خبزاً
شربوا خمراً
حتى انطفأوا سكرا
ولمردوخ الأعلى تركوا الأمرا.

(فاصل)

ـ مردوخ جالس على عرشه الربّاني يتلقى المبايعة ـ

ترتيل: **أنتَ الأعلى بين الآلهةِ الأعْلَين**
ليس يدانيكَ أحدْ
ومن الآنَ، لك الأمرُ

أنتَ تُعِزُّ
وأنتَ تذِلُّ.
من الآنَ، لكَ الأمرُ
والقولُ
منَ الآنَ، لكَ الكلمهْ
مِنَ الآنَ، لك الأمرُ
فاحفظْ، يا ربُّ، مساكنَنا
وانتقمِ، اليومَ، لنا
ليكنْ أقوى أجنحةِ الريحِ جناحُكْ
وليقهرْ كلَّ الأعداءِ سلاحُكْ
من الآنَ، لكَ الأمرُ
وعليكَ توكَّلْنا،
فاحفظْنا
يا ربّ
من الآنَ، لكَ الأمرُ.

(فاصل)

ـ الآلهة يأتون بثوب ويضعونه في وسطهم ـ

أحد الآلهة (مخاطباً مردوخ):
أنتَ الأعلى بين الآلهةِ الأعْلَين
وأمامكَ هذا الثوب

فلتُفْنِ الثوبَ بكِلْمَهْ
مردوخ: زُلْ يا ثوب (الثوب يزول).
أحد الآلهة: وَلْتُعِدِ الثوبَ كما كان
بكِلْمَهْ.
مردوخ: عُدْ يا ثوبُ كما كنتَ (الثوب يعود)
الآلهة: من الآنَ، لك العرشُ
لكَ الْمُلْك
ورداءُ الْمُلك

(فاصل)

الجوقة: مالكَ الْمُلكِ والعرش والصولجان
هل ستلقى تياماتَ؟
إن كانت الحربُ لا بدَّ منها
فأَعِدَّ لها
واستَبِقْ هولَها...
مالكَ الْمُلْكِ والعرش والصولجان
أيَّ قوسٍ ستحملُ؟
أية نارٍ ستشعِلُ؟
أيَّ سهام ستُطْلقُ في اللحظةِ الراجفهْ؟
مالِكَ الْمُلْكِ والعرشِ والصولجان
دَعْ خيولَكَ تصهلُ في الريح
أيُّ الرياحِ تَحَمَّلُ مركبةَ العاصفهْ؟

(فاصل)

ـ تيامات بين جيشها العجيب وإلى جانبها كينغو قائد الجيش ـ

تيامات (لنفسها): لستُ أدري لماذا يضيق المكان
هل مضى بي زماني، ليأتي زمان؟
والحياةُ المديدةُ ما طَعْمُها
إِن تَسَرَّبَ من عِرِقها العنفوان؟
الغدائرُ زرقٌ
وأغنيتي يبستْ
والضَّبابُ الذي يحجبُ الكونَ بانْ
هل مضى بي زماني، ليأتي زمان؟
كينغو: ولكننا، يا تياماتُ، نبدأُ في كل يومٍ بدايهْ
أما قلتِ ليس لبحرٍ نهايهْ
أما قلتِ إِنّ العماء
سيبقى
وإِنّ الفضاء
سَيَخْلُدُ: ماءً وماءْ؟
تيامات: كأنكَ، يا قائدَ الجيش، تغمضُ عينيكَ
عمّا يرى الجيشُ كُلُّهْ.
كأنكَ، يا قائدَ الجيشِ، تُوْقِرُ أُذْنَيْكَ
عن كلِ ما يسمعُ الجيشُ كُلُّهْ. . .

كينغو: أتعنين مردوخَ؟
تيامات: أعنيكَ أنتَ!
لماذا تخبّئُ عنكَ المقاديرَ؟
أنتَ تراها، وتلمسُها، مثلَ صاعقةِ الفجرِ
لكنْ... تخافُ إذا قلتَ: أعرفُ
يا قائدَ الجيشِ
ما نَفْعُ أن نغمضَ العينَ عن رجفةِ القلبِ؟
ما نَفْعُ أَلاّ نرى المستحيل؟
(صوت الرياح الأربع ومركبة العاصفة)
كينغو: تياماتُ!
إِني لأسمعُ مردوخَ!
تيامات: فَلْيَأتِ
حانَ اللقاءْ!

(فاصل)

الجوقة: جاءَ مردوخُ فجراً بمركبةِ العاصفهْ
جاءَ يسبقهُ البرقُ
مدَّرِعاً نارَهُ
وممتشقاً قوسَهُ
جاءَ يدوي مع الريح:
ريحِ الجنوب، وريحِ الشمالِ
وريحٍ من الشرقِ، ريحٍ من الغربِ

والخيلُ تصهلُ في الفجرِ
والفجرُ مركبةُ العاصفهْ.

(تيامات بين جيشها، وإلى جانبها قائد الجيش كينغو، يدخل مردوخ)

تيامات (لمردوخ): مَن تكونُ لتكسبَ مجتمعَ الآلهةْ؟
ومَن أنتَ حتى يسيروا معكْ؟
سوفَ أسحقُ في لحظةٍ أضلُعَكْ...
مردوخ (مُطْلِقاً فيضان المطر): كفى ما رأيناهُ من كبريائِكِ
والعجرفهْ
لقد ملأ الحقدُ قلبَكِ
حتى رفعتِ لواءَ القتالِ
وأوقعتِ بين البنينَ وآبائِهِمْ
وأبغضتِ مَن أنتِ أنجَبتِ
أنكرتِ آلهتي
واحتفيتِ بشرِّ الفِعال.
فاتركي الآنَ جيشَكِ
ولتكنِ الحربُ ما بيننا
وحيدينِ:
لا جيش عندي
ولا جيشَ عندكِ...

ملحوظة للمخرج:

بالإِمكان الاستفادة مما ورد في النصّ البابلي: (اينوما ايليش) من وصف للمعركة بين مردوخ وتيامات: القتال فرديّ، استخدم فيه مردوخ شبكةً أوقع تيامات فيها، وحين فتحت فمها لابتلاعه أطلق في فمها الرياح، فامتلأ جوفها، وانتفخ بطنها، وظل فمها مفتوحاً، فأرسل مردوخ سهماً واحداً مزّق أعماقها وشَطَرَ قلبَها، وعندما تهاوت أمامه أجهز عليها، وطرح جثتها أرضاً واعتلاها. أما أتباعُها الذين حاولوا الفرار فلم يجدوا سبيلاً؛ إِنهم محاصرون من كل جانب، وأسلحتهم في شبكة مردوخ. المخلوقات المهولة والعفاريت كُبِّلت بالأصفاد. وأُسِرَ كينغو قائد جيش تيامات.

بالإِمكان استخدام مختلف المؤثرات لتجسيم المعركة.

صوت: هذه الآلهةْ
كلُّها
وسواءٌ لها
منزلُ الأرضِ
أو مَعْرَجٌ في السماءْ
هذه الآلهةْ
كلُّها
لا تطاقْ)

(الأنوناكي يراقبون)

الجوقة: ومردوخُ شَقَّ تياماتَ نصفينِ
كالصَّدَفَةْ
كما يَفتحُ الصَّدَفَةْ
رفعَ النصفَ الأعلى
قال: سماءً كُنْ
فكانت.

(حركة رفعِ السماء)

وتأمَّلَ مردوخُ سماءَهْ
قال: أزيِّنُها بالقمرِ الطالعْ
ليكونَ منازلَ للأيام.

(حركة إِطْلاعِ القمر)

وقال: القمرُ الليلُ

وهذي الشمس نهارٌ
فليتعاقبْ ليلٌ ونهار.
(حركة إِطْلاع الشمس)
من ريقِ تياماتَ سيعلو الغيمُ
ومن هذا الغيمِ سينزلُ ماء
(حركة المطر)
من عينيها فَجَّرَ نهرينِ عظيمين
فسمَّى الأولَ: دجلهْ
والنهرَ الثاني سمّاهُ: فراتْ.
(حركة تفجير النهرين)
وعلى ثدييها ارتفعتْ، خضراءَ، جبالٌ سامقةٌ
ذاتُ عيونٍ يترقرقُ فيها الماء.
(حركة إرساء الجبال)
والأرضَ دحاها من نصفِ تياماتَ الأسفلِ
قالْ:
كُوني أرضاً راسخةً
وسماءً شامخةً
وأنا الكونُ...
أنا: أرضٌ وسماء.
(حركةُ تَمايُزِ الأرضِ عن السماء)
(فاصل)

ترنيمة الآلهة

كان الابنَ فصارَ أباً
كان الهادمَ وهو الباني الآن
كان الريح الجوّابَ
فأمسى حصنَ الأرباب
كان القوسَ فصارَ الباب
كان الابنَ فصارَ أباً
كان الربَّ
فأمسى ربَّ الأرباب
ربَّ الأرباب
ربَّ الأرباب

(مجمع الآلهة. مردوخ. كينغو ـ قائد جيش تيامات ـ مقيَّد)

مردوخ (يخاطب الآلهة): حين يأتي المساءُ، وحيداً، أفكِّرُ
بالأرضِ راسخةً
والسماءِ
شامخةً تتخاطفُ فيها البُروق. . .
حين يأتي المساء
وحيداً
أفكرُ:
إِن كان دجلةُ يجري

ويَجري الفراتُ
لكي يسقيا البحرَ . . .
إِن كان ثلجُ الينابيع يسقي الحجرْ . . .
وإِن كانت الشمسُ
تحرق ما أنبتَتْهُ يدي من شجر . . .
وإِن كان ضوءُ القمرْ
لا يلاعبُ غيرَ القمرْ . . .
إِذا كان هذا الذي قد أردتُ
فلماذا أتيتُ؟
لماذا أتيتُ بكَوني؟
ألأسكنَ بيتاً وحيداً
أصلِّي وحيداً
أغنّي وحيداً؟
أحد الآلهة: لكنّا يا ربَّ الأربابِ معك . . .
مردوخ: نحنُ، الأربابَ، أحَدْ
أحدٌ واحدْ.
الأحدُ الواحِدْ
إله آخر: يا ربَّ الأربابِ
لكَ الكَلِمَهْ
قدِّرْ ما شئتَ
وقُلْ للمُضمَرِ كنْ فيكون . . .
مردوخ: فكّرتُ بأن أخلقَ من يملأ هذي الأرضَ.

يرى ناصيةَ الشمسِ
ويلعبُ بالأقمارِ.
فكّرتُ بأن أخلقَ من يخلقُ هذي الأرضَ
بقولاً وحقولاً
أزهاراً ومنازلَ
أثواباً زاهيةً وجداولَ
فكرتُ بأن أخلقَ مَن يعبدُني
مَن يعبدُ آلهةَ الكونِ
ويخدمني

(فاصل)

فكّرتُ بأن أخلقَ في هذي الأرضِ:
الإِنسانْ...
الجوقة: عندما شُكِّلت الأرضُ وقامت
عندما حُدِّدَ للأرض مصيرٌ والسماء
عندما امتدّت مع الشطآن دجلهْ
والفراتْ
ذُبحتْ آلهةٌ كي يُخلَق الإِنسانُ
من فيض الدمِ الغالي الإِلهيّ، ومن أعراقه المستنفَرات
وليكن!
لم يُخلَق الإِنسانُ من طينٍ فُتات!

مردوخ: فلتسْمعني الآلهةُ الكبرى
ولتسْمعني الآلهةُ الصغرى
ولتسْمعني الشمس
ليسمعني القمرُ الدوّارُ
لتسْمعْني الأنهارُ
ليسمعْني الجبلُ العالي
والنبعُ الداني
وليسمعْني الموجُ
ليسمعْني الطيرُ
ليسمعْني البحرُ
لتسمعْني الأمطارُ
ويسمعْني الشاطئْ ـ
اليومَ يموتُ إِلهٌ خاطئْ
كي يُخلَقَ من دمِهِ الإِنسانْ!

أحد الآلهة: أيُّ إِلهٍ يا ربَّ الأرباب؟

مردوخ: كينغو، قائد جيشِ تياماتَ، المغلول. . . .
خذوه!

الجوقة: ورد في الإِينوما ايليشَ:
انزَلوا به العقابَ
فقطعوا شرايينَ دمائهِ
ومن دمائه جرى خَلقُ البشر.

ـ **ملحوظة إِلى المخرج**: تُوجَّه عناية خاصة إِلى جميع المؤثّرات المساعدة في تجسيد عملية الخلق، وظهور البشر الأوائل بكل البهاء اللائق.

(مجمع الآلهة، الأنوناكي، مردوخ)

أحد الآلهة (مخاطباً مردوخ): مالِكَ الْمُلْكِ والعرشِ
والصولجانْ
مالِكَ المبتدا
مالِكَ المنتهى
يا زمانَ الزمانْ
كيف نشكر الاءَكَ الغاليهْ
كيف نبلغُ سُدَّتَكَ العاليهْ
كيف نمنحك الامتنانْ؟

إِلهٌ آخر (مخاطباً مردوخ): سوف نبني لكَ الهيكلَ
القُدْسَ...

إِله ثالث: أنتَ بنيتَ الزمانْ
فدعْنا نُمَكِّنْ لمجدِكَ
دعنا نُشيِّدْ مكانَ المكانْ

مردوخ: لكم ما تشاؤونَ...
سوف أسمِّيه بابل
أسمّيه بابل

أسمّيه بابل

(فاصل)

إِلهٌ رابع: سيبنيه خيرُ البُناة
وسوف يكون لنا، أبدَ الدهرِ، بيتاً
له ننحني
وبه نستريحْ
نمدُّ أساساتِهِ لتلامسَ عمقَ المياه
ونرفعُ أبراجَهُ لتلامسَ وجه القمرْ
ونبنيه من طينةٍ لم يَنَلْها حجرْ.
وسوف نسمّيه بابلْ
نسمّيه بابلْ
نسمّيه بابلْ!

(فاصل)

ملحوظة للمخرج: من الضروري تماماً، أن تظهر على خشبة المسرح، أو أي مكان آخر، معالم غائمة لشواخص بارزة، مثل: شارع الموكب. بوابة عشتار. زقورة. حديقة معلّقة... إلخ.

الجوقة: ها هي ذي بابلُ تُبنى.
واحد من الجوقة: فلمن ستكون؟
الجوقة: ستسكنُ بابلَ آلهةٌ.

واحد من الجوقة: أين، إذن، سيقيمُ البنّاؤون؟
الجوقة: وستعلو أبراجٌ، في كل مكان.
واحد من الجوقة: أعلى من قامةِ هذا الإِنسان؟
الجوقة: سيكونُ بها الهيكلُ.
واحد من الجوقة: هيكلُ مَنْ قُتِلوا؟
الجوقة: هيكلُ مَنْ قَتَلوا.
واحد من الجوقةِ: إِن كان الأمرُ كهذا
فلماذا تُبنى بابلْ؟
الجوقة: تُبنى بابلُ كي تُبنى بابلْ
لا بُدَّ لهم، ولنا، من بابلْ
وحسابُ الدهرِ طويل.
واحدٌ من الجوقة: معنى هذا أن التكوينَ بعيدْ
معنى هذا أن عماءً يُبدي ويُعيدْ
معنى هذا أن الخطأ الأولَ ألبسناهُ ثيابَ العيدْ
معنى هذا أن سؤالي عن معنى مردوخَ طريفٌ وتليدْ
معنى هذا أن الأكذوبةَ ـ لا الأمثولةَ ـ عاليةُ الأبراجْ
معنى هذا أنكِ، يا بابلُ، آخرُ ما نحتاجْ.
الجوقة: أحياناً يمضي المرء بعيداً...
واحد من الجوقة: هل من خطأٍ في هذا؟
الجوقة: لا. لكن قد تتساوى أنتَ ومردوخ...
واحد من الجوقة: كيف؟
الجوقة: من يدري؟

قد تكبرُ بابلُ، تكبرُ
حتى تغدو كالقصرِ تحاصرهُ الأكواخ
وقد تمتدُّ مزارعُها أبعدَ من مرأى العينِ
لتغدو بلدةَ فلاّحينَ
وسوقَ رعاةٍ
واحد من الجوقة: إِن أمستْ بابلُ بلدةَ فلاحينَ
وسوقَ رعاةٍ
أفَليسَ من الممكنِ أن تختارَ إِلهاً فلاّحاً؟
الجوقة: يمكن. . .
واحد من الجوقة: أم أنّ الراعي أيضاً. . .
الجوقة: يمكن. . .
واحد من الجوقة: كيف؟
الجوقة: لن نحكيَ عن بابلَ
لن نحكيَ عن طبقات جنائنها
لن نحكي عن دنيا الطبقاتِ
وعن طبقاتِ الدنيا.
لن نحكي عن آلهةٍ أحياءَ
وعن آلهةٍ موتى
لن نحكي عن بابلَ. . .
ما بابلُ؟
ما بابلُ هذا العصرْ؟
هل بابلُ غيرُ جدارٍ تَرِبٍ، وخواتمِ طينْ

ورؤوسِ تماثيلٍ مقطوعهْ
وأواني مقتولينْ؟ .
فابحثْ بين متاريسِ الكونِ
وشيِّدْ متراسَكَ :
أعلى
أعلى
أعلى،
شيِّدْ عاصمةَ البنّائينْ .

«ستار»

نيقوسيا، ٢٩/ ٥/ ١٩٨٨

القسم الثاني

نزول عشتار
إلى العالم السفليّ

(لوحة تقدِّم لحضور عشتار، وتتضمّن هيأة الخشبة)

شجرٌ يَدَّني
شجرٌ يدَّني هادئاً
شجرٌ يدّني هادئاً مثلَ ريح المساءْ
شجرٌ لا غصونَ بهِ
شجرٌ لا عيونَ بهِ
شجرٌ مستدير
شجرٌ مستديرُ الورقْ
شجرٌ لا غصونَ بهِ
لا عيونَ بهِ
ليس غيرُ الورقْ
ليس غيرُ الشذى المستديرْ
كانت الريحُ تدخل كالضيفِ
تلمسُ كفَّ الورقْ
ورقهْ
ورقهْ
كانت الريحُ تدخل في الغاب كي تستريح
وكي تتركَ الليلَ مستوحداً والورقْ. . .

الجوقة: أيّها البدرُ، ما أجملَكْ

يا فتاتي

يا فتاتي التي سافرتْ منذُ حينْ

ثم جاءت مع الياسمينْ

أيّها البدرُ ما أجمَلَكْ

يا فتاتي

يا فتاتي التي سافرتْ في الظلامْ

ثم عادت وصدرَ الحمَامْ

أيّها البدرُ، ما أجملَكْ. . .

يا فتاتي

يا فتاةً تُدير الفَلَكْ. . .

أيّها البدرُ، ما أجملَكْ!

(غابة الورق المستدير. القمر بدر)

عشتار (تدخل): أنا الأول، وأنا الآخر

أنا البغيّ، وأنا القديسه

أنا الزوجة، وأنا العذراء

أنا الأمّ، وأنا الإِبنه

أنا العاقر، وكُثْرٌ هم أبنائي

أنا في العرس الكبير ولم أتخذْ زوجا

أنا القابلةُ، ولم أنجبْ أحدا

وأنا سُلوةُ أَتعابِ حَملي

أنا العروس، وأنا العريس

وزوجي مَن أنجبني
أنا أم أبي، وأختُ زوجي
وهو من نسلي.

انكمدو (يدخل حاملاً نذوره فاكهةً وبقلاً):

يا سيدةَ الغابات
يا سيدةَ البرِّيّهْ
يا واهبةَ الفتياتِ النُّضرهْ
يا واهبة الفلَواتِ الخُضرهْ
يا مالئةَ الكأسِ الذهبيهْ
يا متسربلةَ اللّذةِ
يا عسلَ الشفتينِ
ويا لألاءَ العينينِ
ويا حاضنةَ النبتِ الطالعِ كالرمحِ
ويا سُرَّة هذي الدنيا...

عشتار: ماذا، يا انكمدو الفلاّح؟

انكمدو: قد جئتُكِ يا سيدةَ الدنيا بنذوري

عشتار: أيَّ نباتٍ لم أُحْيِ
وأيَّ حياةٍ لم أُنبتْ
يا انكمدو؟

انكمدو: لكنّي يا سيدةَ الأقمارِ
أتيتُ بما لم يأتِ به أحدٌ من قبلُ...

عشتار: أتيتَ بماذا، يا انكمدو الفلاّح؟

انكمدو: لن تجدي غيري يا سيّدةَ الأقمار. . .

عشتار: عجباً. . . يا انكمدو!

انكمدو: يا سيّدتي عشتار. . .

عشتار: وأراكَ تريد كثيراً، يا انكمدو. . .

انكمدو: أريدُ بقدْر نذوري وهواي.

عشتار: عجباً. . . يا انكمدو!

انكمدو: جئتُ بأغصان القمر الأولى.

(يقدم الأغصان فتأخذها بيمينها)

عشتار: ما أخصبَ حقلَكَ يا انكمدو!

انكمدو: سيّدتي!

نبتي لا يخصب إِلا فيك. . .

عشتار: الآنَ، أردتَ كثيراً، يا انكمدو!

انكمدو: سيّدتي!

نبتي لا يخصب إِلا فيك. . .

عشتار: انكمدو!

(يدخل تموز. معه جَدْي، وناي)

تموز (متلفّتاً بين عشتار وانكمدو):

ما الذي جاء بكَ اليوم إِلى عشتار؟

انكمدو. . . قل الحقَّ!

أجئتَ اليومَ من بستانك المخضلِّ، بالفاكهة الأولى؟

أجئتَ اليومَ بالخمرِ

وبالتمرِ؟

تُرى. . . هل تبتغي عشتارُ هذا الخمرَ
والتمرَ
أو الفاكهةِ الأولى؟
تقدَّمْ أيّها الفلاّح، قل: ما شأنُنا والخمرَ والتمرَ؟
أتدري أنهم في العالم الأعلى
يعيشون على ضوع رحيقٍ ذائبٍ؟
هل جئتَ بالنُّذر لعشتارَ ولا تدري الذي ندري؟
لكَ العذرُ
ولي العذرُ،
ولكن، أيّها الفلاح، لن تقطفَ من عشتارَ
غيرَ النظرةِ المحضِ،
فلا تنسجْ لكَ الأحلامُ أفوافاً من البرديّ. . .
لا تطمعْ بما جئت لَهُ. . .
وارجعْ إِلى البستان، انكمدو!

انكمدو: لكني جئتُ بأغصان القمر الأولى
ها هي ذي!
انظرْ!

عشتار (إِلى تموز): أغصانُ القمر الأولى
بيميني، يا تموز. . .
انظرْ!

تموز: يا انكمدو. . .
لن تقطفَ من عشتارَ سوى النظرهْ.

انكمدو: لكنكِ، يا عشتارُ، فرحتِ بنُذري. . .

(تموز يعزف على الناي)

عشتار: اسمعْ يا انكمدو. . .

أغمضْ عينيكَ قليلا.

ماذا تبصرُ يا انكمدو؟

انكمدو: لا أبصرُ غيرَكِ يا عشتار. . .

عشتار: أوَ ما أبصرتَ حفيفَ القصبِ المتطامنِ تحت الماءْ؟

أوَلم تلمسْ نِيْلوفَرَةَ الأشذاءْ؟

والغيمُ العابرُ تحت سماواتِ الوردِ. . .

ألم تبصرْهُ؟

وهذا القمرُ الوضّاءْ؟. . .

انكمدو: لن أبصرَ غيرَكِ يا عشتارْ. . .

عشتار: لن تبصرَني، يا انكمدو

ما دام البستانْ. . .

لكَ بستانُكَ، يا انكمدو

لكَ بستانُكَ، فاقنَعْ. . .

لا فلاّح له بستانانْ.

(تأخذ جَدْيَ تموز بشمالها. تخرج هي وتموز.

يظل انكمدو وحده، برهةً، حتى اختتام المشهد)

رقصة احتفاليّة في الساحة العامّة

علَّمني حبُّكِ، علَّمني
أن أفتتحَ الوردةَ في الغُصنِ
علَّمني حبُّكِ، يا قُبَلي
أن أمزجَ خمراً بالعسلِ
علَّمني حبُّكِ أن أثِبا
كالسهمِ، وأن أجتنيَ الحَببا
علَّمني حبكِ، علَّمني.

* * *

أهديتُ غزالي إِسوارهْ
للبيتِ
وأخرى للحارهْ
لم يمضِ غزالي ليلتَهُ
لا والبيتُ غدا حارهْ
أيّةُ إِسوارهْ
جُنَّ بها...
أيّةُ إِسوارهْ؟
علَّمني حبكِ، علَّمني.
سلّةُ رمّانٍ في باب السورْ
سلّة رمانٍ...
مَن يأخذُ منها؟ من يأكلُها؟

قال الحراسُ: سنأخذُها،
وسنأكلُها، القشرةَ والبذرهْ.
لكنّ السلّةَ طارتْ
لكنّ السلّةَ دارتْ
واختبأَ الرمّان
بين ثياب وصدور
والسلّةُ ما عادت في باب السور
علَّمني حبُّكِ، علَّمني.

❊ ❊ ❊

في أعلى النخلةِ قُمْريّهْ
هام بها مجنون القريهْ
قال لها: يا قُمريّهْ
إِني عاشقُكِ المفتونْ
لو كان لديّ جناحانِ صعدتُ إِلى أعلى النخلهْ
فهبيني أنتِ جناحينِ
أنا عاشقُكِ المفتونْ
والقمريّةُ دارتْ
القمريّةُ طارتْ
القمريّةُ طارت والمجنونْ
علَّمني حبُّكِ، علَّمني.

(عشتار بكامل زينتها تنزل إِلى العالم السفليّ)

عشتار (تطرق الباب): افتحْ يا خازن. . .

افتحْ بابَ البيت

حيث الداخلُ لا يخرجْ.

افتحْ يا خازن

افتحْ هذا الدرب

حيث السالكُ لا يرجعْ

افتحْ يا خازنُ، هذا البابْ

افتحْهُ، وإِلا حطّمتُ مزاليجَ الباب

وأيقظتُ الموتى. . .

الخازن (من خلف الباب): سيّدتي، مهلاً، لو حطّمتِ الباب

هلكنا. . .

سيّدتي، أنا ماضٍ، سأقولُ لأختكِ:

سيّدتي جاءت

عشتارُ الموصوفةُ جاءت. . .

سيّدتي، مهلاً، بعد قليلٍ أفتحُ هذا الباب

ارشكيجال (الخازن يدخل): من ناداكَ لتأتي الآن؟

الخازن (مرتبكاً): سيّدتي عشتارُ، تدقّ الباب

ارشكيجال (تشحب): كيف أتت عندي؟

أيُّ فؤادٍ قال لها أن تأتي عندي؟

أتريدُ لأرشكيجالَ رغيفَ الطينِ

وخمرَ الوحلِ
وفاكهةَ المقتولين؟
الخازن: ماذا أفعلُ يا سيّدتي؟
ارشكيجال: دَعْها تدخلْ يا خازنُ. . .
دعْ عشتارَ الموصوفةَ تدخل هذا الباب
الخازن: عجباً يا سيدتي!
ارشكيجال: تدخلُ كالداخل من هذا الباب. . .
الخازن: كالداخل من هذا الباب؟
ارشكيجال: تماماً. . .
الخازن: عجباً يا سيدتي!
ارشكيجال: تدخل كالداخل من هذا الباب
تماماً. . .
(الخازن يخرج)
الخازن (يفتح الباب الأول لتدخل عشتار):
تاجَكِ سيدتي (يرفع التاج)
عشتار: ولماذا ترفع تاجي؟
الخازن: سُنَّةَ هذا العالمِ، سيّدتي.
عشتار (أمام الباب الثاني): هذا الباب الثاني، يا خازن. .
الخازن: سيدتي، آخُذُ هذينِ القرطين. . (ينزع قرطيها)
عشتار: ولماذا تأخذ قرطيّ؟
الخازن: سُنَّةَ هذا العالمِ، سيّدتي.
عشتار (أمام الباب الثالث): هذا الباب الثالث، يا خازن. .

الخازن: أنتزعُ الآنَ قلادتَكِ الوهّاجةَ، سيّدتي.

عشتار: ولماذا، يا خازن؟

الخازن: سُنَّةَ هذا العالمِ، سيّدتي.

عشتار (أمام الباب الرابع): هذا الباب الرابع، يا خازن

الخازن: سيّدتي... أنتزعُ الآنَ حُلِيَّكِ...

عشتار: ماذا يا خازن؟

الخازن: سُنَّةَ هذا العالم، سيّدتي...

عشتار (أمام الباب الخامس): هذا الباب الخامس، يا خازن

الخازن: سيّدتي... أنتزعُ الآنَ الزنّار

عشتار: هل تنزع عني زنّارَ الأسرار؟

الخازن: سُنَّةَ هذا العالم، سيّدتي.

عشتار (أمام الباب السادس): هذا البابُ السادس، يا خازن

الخازن: سيّدتي، أنتزعُ الآنَ أساورَكِ المثلى وخلاخيلكِ

عشتار: ماذا يا خازن؟

الخازن: سُنَّةَ هذا العالمِ، سيّدتي...

عشتار (أمام الباب السابع):

وأخيراً، هذا الباب السابعُ، يا خازن...

الخازن: سيّدتي، أنزعُ عنكِ المئزرْ

عشتار: يا خازنُ.. حتى المئزرْ؟

الخازن: سُنَّةَ هذا العالمِ سيّدتي...

عاريةً ستلاقين ارشكيجال...

وعاريةً ستظلِّين.

(قاعة عارية. أبخرة. ظلال. موسيقى إلكترونية.
ارشكيجال واقفة تنتظر. تشبه عشتار تماماً.
الفرق هو ما بين النور والظلام)

عشتار (تدخل عارية): جئتُ لأسألَ...
ارشكيجال: عمّنْ؟
عشتار: لا أسألُ عن أحدٍ
أسألُ عن معنى.
ارشكيجال: عشتار!
يا سيّدةَ العالمْ
يا سيّدةَ السنبلِ والغزلان
يا نصفي الجذلان
يا أختي
يا مالكةَ الأوّلِ والآخرِ
أنتِ تجيئين إليّ؟..
باحثةً عن معنى
في عالميَ الداثرْ؟
ثم، لماذا تسأل عشتار
وقد جاءتني طائعةً تدخل في عالميَ الداثرْ
لتظلّ معي
في غسقٍ لا أوّلَ فيه ولا آخِر؟
ما معنى البحثِ عن المعنى

في مُنتبَذي العاثر
في غَسَقٍ لا أوّلَ فيه ولا آخِرْ؟
(تخاطب الحارس)
خذْها
أوثِقْها لعمود الأحزانْ
واتركْها تأسى معنا في الأبد النعسانْ. . .
(الحارس يوثق عشتار العارية إِلى عمود)
عشتار: ارشكيجالْ
يا أختي. . . جئتُكِ أسألُ
ارشكيجالْ: عَمَّ؟
عشتار: رأيتُ الناسَ يموتون بأسواق المدن الكبرى
آلافاً، آلافا
ورأيتُ الغصنَ الأخضرَ يذوي
والماءَ يغورُ
ونارَ الأجبال تفورُ،
رأيتُ الأطفالَ عظاماً في وُكُناتِ الطيرِ
فقلتُ: لماذا؟
ارشكيجال: يا أختي
يا قمري
يا نصفي الجذلانْ. . .
ها نحن تساوَينا، وانطبقَ النصفانْ
قمراً أسودَ.

عشتار: لكني سأعود.

ارشكيجال: لا عودةَ من وادي النسيانْ

عشتار: والنبتُ الأخضرُ؟

والمدنُ النهريةُ؟

والموسيقى؟

والألوانْ؟

ارشكيجال: لا عودةَ من وادي النسيانْ.

عشتار: وحبيبي تموز؟

ارشكيجال: تظلِّين معي في وادي النسيانْ.

عشتار: وماذا عن زهرتيَ الأرضيةِ

ماذا عن ولدي الإِنسان؟

أنا جئتُكِ كي أمنحَهُ السلوى،

لم آتِ لأمنحَكِ السُّلوانْ.

ارشكيجال (متجهّمة): فَلْيُفْدَ الإِنسانُ، إِذنْ..

عشتار: أنا أفديهِ

ارشكيجال: ولكنكِ، يا عشتارُ، إِلهتُهُ...

وفداء الإِنسانِ، الإِنسانْ

عشتار: مَن يفديهِ؟

ارشكيجال: أنا أختارُ

عشتار: قبلتُ...

ارشكيجال: إِذن، تموزُ هو الفادي

تموز سيهبط في وادي النسيان

تموز سيسكن في مملكة الموتى

عشتار: وأنا؟

ارشكيجال: ستعودين إِلى الدنيا

وتعود الخضرةُ للأشجارْ

ويجري السَّلْسَلُ في الأنهارْ

ويعود الأطفالُ إِلى أغنيةِ الطيرِ

وتنضجُ في الفتياتِ الأثمارْ

عشتار: وتموز؟

ارشكيجال: يظلُّ هنا الفادي

ليكونَ أميرَ الإِنشادِ، وأغنيةَ الموسِمْ

ويكونَ لكِ الابنَ الملهِمْ. . .

عشتار: ما أقسى قلبَكِ، يا أختي!

ارشكيجال (للحراس): فَلْيُؤتَ بتموز حالاً. . .

ولتصعدْ عشتارُ إِلى الدنيا

ولتأخذْ زينتَها والحَلْيا. .

عشتار: سأعود إِليهم، عاريةً. . . يا أختي!

الجوقة: جاء عفاريتٌ سودٌ

وطيورٌ سودٌ

ومناقيرٌ سودْ. . .

لم يترِكوا مرعى

لم يترِكوا قصباً أو زرعا

بحثاً عن تموزَ المنكودْ
وأخيراً غَلُّوه
بسلسلةٍ،
وبأسياخٍ حاميةٍ شَلُّوه
وبكُلاّباتِ مخالبهم حملوه
حتى الأرض المنسيّةِ
حتى مملكةِ الموتى.
يا تموزُ، الأولُ والآخِرُ، يا تموزُ المنكود
يا قلبَ القصبِ المترنّحِ والريحَ
ويا سقفَ البيتِ، ويا تاجَ عمود
يا حَجَرَ الركنِ المعقود. . .
لن تخفيكَ الأعشابُ
ولن يخفيك الأحباب
لن يخفيكَ الليلُ ولا الأثواب
حتى لو كنتَ غزالاً، لن تنجو يا تموز
أختُكَ خافتْ
يا سقفَ البيتِ
ويا مُدَّرَعَ الناسِ
فكان الشفقُ المنكودْ

(العالم السفليّ. يؤتى بتموز مغلولاً مدمّى. ارشكيجال بين عشتار الموثقة إِلى عمود، وتموز)

ارشكيجال: لكِ أن تمضي يا عشتار. . .
يا خازنُ
خذ عشتار
وافتحْ كلَّ الأبوابِ السبعة
باباً، باباً
كي تطلع عشتار
بزينتها المثلى.
عشتار: لن أخرجَ يا أختي
إِلا عاريةً.
ارشكيجال: إِن كنتِ تريدينَ. . .
عشتار: ولكن، لن أخرجَ يا أختي
إِلا ومعي تموز. . .
ارشكيجال: تموزُ، هو الإِنسانُ الفادي
لن يخرجَ. . .
ما مِن فادٍ يخرجُ من فِدْيَتِهِ
عشتار: وإِذن،
سأظلّ هنا، يا أختي!
ارشكيجال: لن يرضى القمرُ. . .
عشتار: والبشرُ؟
ارشكيجال: ما أفدحَ هذا الحبَّ، وما أقساه!
عشتار: هذا تموزُ
حبيبي

ولدي
وغريبي،
لن أتركه في مملكةِ النسيان. . .
ارشكيجال: كوني مع أختِكِ يا عشتار
عشتار: لن يرضى القمرُ. . .
ارشكيجال: سيجيء القمرُ الأسودُ.
عشتار: لا.
إنّا نصفاهُ. . .
ارشكيجال: فأين القمرُ الكاملْ؟
عشتار: نحن نديرُ الكونَ، ارشكيجال
بيدينا، نحن، الفَلَكُ الدّوار
نمنحهُ الأقمار
وتقديرَ الأعمار
ارشكيجال: ما أجملَ نطقَكِ، يا عشتار. . .
عشتار: والآنَ؟
ارشكيجال: الإنسانَ الفادي لن يخرجَ
تموزُ الفادي لن يخرجَ من مملكةِ الموتى. . .
عشتار: لو كان إلهاً!
ارشكيجال: ليكنْ!
عشتار: ما أجملَ نطقَك، يا أختي!
سيكونُ إلهاً
حبي سيكون إلهاً

ولدي سيكون إِلهاً
تموزُ الراعي سيكون إِلهاً
تموزُ الفادي سيكون إِلهاً.

ارشكيجال: وسيخرجُ من مملكةِ الموتى،
عشتارُ...
وأنتِ معهْ.
(تلتفت إِلى الخازن)
يا خازنُ
زيِّنْ عتباتِ الأبواب
وانضَحْ عشتارَ بماءِ حياةٍ دافقْ
ولتأخذْها من مملكةِ الموتى...
أما تموزُ الفادي
فليُغسَلْ بالماء الطاهرِ،
ولْيُنضَحْ بالطيبِ
لِيَلْبَسْ تموزُ عباءتَهُ
وَلْيَعْزِفْ خلَجاتِ الناي
يا خازنُ
خذْ تموزَ بعيداً عن مملكةِ الموتى.

(يخرج تموز وعشتار)

ـ ملامح غائمة من بابل. حديقة معلقة. زقورة. باب عشتار... إلخ. ساحة ـ

(رقصة احتفاليّة في الساحة العامّة)

علَّمني حبُّكِ، علّمني
أن أفتتحَ الوردةَ في الغُصنِ
علّمني حبُّكِ، يا قُبَلي
أن أمزجَ خمراً بالعسلِ
علّمني حبُّكِ، أن أثِبَا
كالسهمِ، وأن أجتنيَ الحَببا
علّمني حبُّكِ، علّمني.

* * *

أهديتُ غزالي إِسوارهْ
للبيتِ
وأخرى للحارهْ
لم يُمْضِ غزالي ليلتَهُ
إلا والبيتُ غدا حارهْ
أيّةُ إِسوارهْ
جُنَّ بها...
أيّةُ إِسوارهْ؟

علَّمني حبُّكِ، علَّمني.

* * *

سلّةُ رمّانٍ في باب السورْ
سلّة رمانٍ...
مَن يأخذُ منها؟ من يأكلُها؟
قال الحراسُ: سنأخذُها،
وسنأكلُها، القشرةَ والبذرهْ.
لكنّ السلّةَ طارتْ
لكنْ السلّةَ دارتْ
واختبأَ الرمّان
بين ثياب وصدور
والسلّةُ ما عادت في باب السور
علَّمني حبُّكِ، علَّمني.

* * *

في أعلى النخلةِ قُمْريّهْ
هام بها مجنونُ القريهْ
قال لها: يا قُمريّهْ
إِني عاشقُكِ المفتونْ
لو كان لديّ جناحانِ صعدتُ إِلى أعلى النخلهْ
فهبيني أنتِ جناحينِ
أنا عاشقُكِ المفتونْ

والقمريةُ دارتْ
القمريّةُ طارتْ
القمريّةُ طارت والمجنونْ
علَّمني حبُّكِ، علَّمني.

(ستار)

لارناكا، ٢٢/٦/١٩٨٨

القسم الثالث

جلجامش

(أسوار أوروك. غَبَش. جلجامش يرتدي ثوباً بسيطاً)

جلجامش (متأملاً): هذا ليلٌ آخَرُ يمضي
بهواجسهِ
ونواياهُ
بسحائبهِ
ورؤاهُ
ليلٌ آخرُ يمضي،
لكنّي، وأنا نِصفُ المدفونِ بأرضي
سأظلّ، وحيداً أنتظرُ الليلَ الآتي
بهواجسهِ
ونواياهُ
بسحائبهِ
ورؤاهُ
لم يتبقَّ لديّ سوى الليلِ، الليلِ، الليلِ
فماذا تحمل لي الأيّامُ؟
ألَمْ أرَ ما في الأرضِ
وما في كلِّ تخومِ الأرضِ
أوَلَمْ أعرفْ ما لا يُعرَفْ؟
أوَلم تكسرْ عيناي صخورَ الظلمهْ؟

أوَلم أدركْ أسرارَ الأشياءِ
وأشياءَ الأسرار؟
أوَلم تأكلْ قدماي الأسفار؟
أوَلم أقطفْ، كالبستانيّ الغاوي، ألفَ امرأةٍ؟
أوَلم أقتلْ بيديّ، يديّ العاريتين، أسودَ الغابِ
وثيرانَ النار؟
وأوروكُ الأسوار. . .
ألم أرفعْها، حجراً حجراً، حتى ائتلقت أحجاري
كالأزهارْ
قدتُ جيوشاً
وبنيتُ قصوراً
وحصوناً
ورفعتُ، بآجُرِّي، معبدَ عشتار. . .
وماذا؟
جلجامشُ أقوى؟
كيفَ؟
وهذا ليلٌ آخرُ يمضي
بهواجسهِ
ونواياهُ
بسحائبهِ
ورؤاهُ
وأنا، أنتظرُ الليلَ الآتي

بهواجسهِ
ونواياهُ
بسحائبهِ
ورؤاهُ. . .
جلجامشُ أقوى؟
حقاً! لكنْ بين الضعفاء
إِن كنتُ الأقوى، فَلأَكنِ الأقوى بين الأكْفاءْ. . .
قادةُ جيشي يرتعدون إِذا جئتُ،
فهل قادةُ جيشي، الأعداءْ؟
والفتياتُ المذعوراتُ يَمُتنَ
إِذا هُجِستْ خطواتي في الساحةِ. .
والشبانُ يفرّون إِلى القصْباء،
فأيَّ وباءٍ أحملُه؟
أيَّ وباء؟
أيُّ كوابيسٍ تغسلُ شَعري عَرَقاً
وتُقلِّبني كالشحم على وقْدِ الحصباء. . .
(تظهر أمه ننسون، وهي تشبه عشتار، وترتدي ثوباً بسيطاً).
ننسون: جلجامش!
جلجامش: أمّي. . .
ننسون: مَن جاءَ بكَ الآنَ إِلى الأسوار؟
أتراقبُ جيشَ عدوٍّ في الأفقِ المحمَّرِ
أم الروحُ تُقلِّبُها وهي تلوب؟

جلجامش: يا أمّي، أرهقَني الليلُ...
ننسون: وما الليلُ سوى صورتِنا.
جلجامش: المقلوبة؟
ننسون: لا، يا ولدي.
جلجامش: إِن كان الأمرُ كهذا، والحلمُ حقيقةْ
فأنا العاثرُ والحائرُ، يا أمّي...
ننسون: أخبِرْني، يا جلجامش
أسرِرْني، يا ولدي، برُؤاك...
جلجامش: كان الليلُ
وكنتُ أسيرُ وحيداً في طرف الساحةِ، حينَ نظرتُ إِلى أعلى
أبصرتُ نجوماً تتزاحمْ وإِذا بي ألمحُ نجماً منها يهوي بين
يديّ.
نجماً أشعلَ في الساحة نورَ الأنوار.
قلتُ: لألمسْ هذا النجمَ
لأرفعْهُ قليلا...
كان النجمُ ثقيلا
لم يتزحزحْ،
وازدحمَ الناسُ عليهِ...
ننسون: وهل غابَ النجم؟
جلجامش: لا، يا أمّي
لكني مِلْتُ عليهِ
كأني أكتَنِهُ امرأةً

ثم حملتُ النجمَ إِليكِ
إِلى قدميكِ. . .
ننسون: غريبٌ!
جلجامش: أمّا أنتِ، فقلتِ:
وجدتَ الكُفْءَ الغائبَ يا جلجامش. . .
ننسون: يا ولدي،
هذا حلمٌ يُروى، أفَلا تروي حلماً آخر. . .
جلجامش: كنتُ أسير، صباحاً، في السوق
ورأيتُ الناس قد التمُّوا. . .
ننسون: وعلامَ التمُّوا؟
جلجامش: كانت فأسٌ في السوق.
قلتُ لأرفعْها
مِلتُ عليها
وكأني أكتَنِهُ امرأةً
ثم حملتُ الفأسَ إِليكِ
إِلى قدميكِ. . .
فقلتِ: وجدتَ الكُفْءَ الغائبَ يا جلجامش!
ننسون (متهدّجة): ليس النجمُ سوى رجلٍ يأتي أوروكَ قريبا
رجلٍ سيكون أخاً وحبيبا
سيُعادي، وهو القادرُ، مَن عاداك
ويوالي مَن والاك. . .
جلجامش: والفأس؟

ننسون: ليس الفأسُ سوى الرجلِ الآتي أوروكَ قريبا
كان يعيش طليقاً، ووحوشَ البرِّيّهْ
سيجيء إِلى أوروك
سيكون أخاً وحبيبا
وستفرحُ، يا جلجامشُ، بالرجلِ الآتي أوروكَ قريبا
وكأنكَ تفرحُ بامرأةٍ،
سيعادي مَن عاداك
ويوالي مَن والاك.
ستعانقُه يا ولدي
وستأتيني بالرجلِ الآتي، يا ولدي...
الجوقة: يا سيّدات بابلْ
لنختصِرْ، لكُنّ، أنتنّ فقط، يا سيدات بابلْ
قصةَ انكيدو الذي عاش مع الوحوشِ
والذي حوّلَهُ الحبُّ
إِلى أجملِ مَن تذكرهُ أجملُ سيّدات بابلْ:
لا بدّ أنكنّ قد سمعتُنّ بصيادٍ أتى جلجامشَ المسكونَ:
جلجامش!
في بريّةِ الوحش، رأيتُهُ
كان يسابقُ الوحوشَ، والغزلانَ للماءِ
وساقاهُ تطيرانِ مع الريحِ
ويكسو جسمَهُ الشَّعرُ
جميلٌ، وقويٌّ، هوَ...

جلجامشُ، حينَ استذكرَ الحلمَ، وما قالت له الأُمُّ
اصطفى عاهرةً من بيتِ عشتارَ،
وقال: فَلْتمضي مع الصيادِ
ولتأتي بهذا الرجلِ الوحشِ،
فتىً مستأنَساً. . .
يدخلُ أوروكَ كما أدخُلُها.
إِمضي. . .
(البغيّ تدخل. تشبه عشتار تماماً)
البغيّ: سادتي
للمفاتنِ فِطنَتُها
وأنا امرأةٌ،
ومقدَّسةٌ مثلما تعرفون، بمعبد عشتارَ أيضاً
إِذن، أنا أؤمن بالحبِّ
بامرأةٍ تصنع الحبَّ
إِني وعشتارَ، واحدةٌ
نحن في معبدٍ واحدٍ
والرجالُ على بابِ معبدِنا أسوياءٌ سواءْ
هكذا قلتُ أمضي إِلى رجلٍ في العراءْ
في العراءِ البعيد. . .
الجوقة: لكنكِ أمضيتِ معَهُ
سِتَّةَ أيامٍ
سبعَ ليالٍ

فهل استمتعتِ معهْ؟

البغيّ: مُتعتي فِتنتي

أنا أبصرتُ كيف تلينُ ذراعاهُ

كيف تَمَوَّجُ ساقاهُ

هدهدتُه، وهو يرقدُ مسترخياً

ثم ضمّختهُ بالعطورِ

وبالزيتِ مسَّدْتُ أحلى الجدائلِ

أطعمتهُ خبزتي

وساقَيتُه خمرتي

ثم أغفى. . .

وحين استفاقَ رأيتُ فتى الحُسْنِ

أجملَ فتيانِ أوروكَ. . .

يا فتنةَ المنتهى!

(ساحة السوق في أوروك. الناس يتجمعون. يقترب انكيدو مع البغيّ. كانت البغيّ شقّت ثوبها نصفين. كست انكيدو بأحدهما واكتست هي بالآخر)

انكيدو: خذيني إِلى حيثُ جلجامشُ الثورُ. . .

جلجامشُ الطاغيهْ

دعيني أقولُ له: لستَ أقوى ـ

وقد جئتُ.

إِني وليدُ البراري

أتيتُ لأُبْدِلَ شِرعةَ أوروكَ . . .

البغيّ : فلْتنتظرْ!

سوف يلقاك جلجامشُ المقتدرْ

وهو أقوى . . .

انكيدو (يمسك برجلٍ عابرٍ في الساحة):

إِلى أين تسرعُ؟

الرجل : أمضي إِلى ساحة السوقِ .

انكيدو : ماذا هنالكَ؟

الرجل : جلجامشُ الفذُّ (يبتعد الرجل).

(انكيدو (للبغيّ) فلنمشِ أيضاً إِلى ساحةِ السوقِ ولتسرعي . . . (يسيران. انكيدو يتقدم البغيَّ. الناس متجمعون في الساحة. بعضهم يشير إِلى انكيدو: إِنه يشبه جلجامش. إِنه أقوى مَن في البريّة. لقد رضع حليب حيوان البرّ).

الجوقة : في بابِ الساحةِ، انكيدو.

جاء إِلى الساحةِ، جلجامش.

انكيدو سدَّ الباب

قال لجلجامش : لا تدخلْ

جلجامشُ أمسكَ انكيدو

انكيدو أمسكَ جلجامش

واشتبكا كالثورين.

البابُ تهدَّمْ

واهتزَّ جدارُ السوق. . .
والثورانِ اشتبكا في سوقِ البلدهْ
والناسُ تصيح:
جلجامش. جلجامش.
انكيدو. انكيدو.
وأخيراً هدأ الثوران. . .
وانكيدو قال لجلجامش:
أنتَ الرجلُ الفذُّ
ارفعْ رأسَكَ بين الناسِ جميعا
ترفعْ رأسي
ترني سيفاً وربيعا
سنكون معاً أخوينِ
نسيرُ معاً حتى مَلْقَى البحرينِ. . .
نسيرُ معاً حتى نفتحَ أبوابَ الدنيا.

(ينتهي المشهد)

(جلجامش مع انكيدو في برج حراسة على أسوار أوروك. الوقت أوّل الغروب)

جلجامش: يا انكيدو
قلبي مضطربٌ مثل وُرَيقةِ بُرديٍّ بين الأسماك

وقد يهدأ قلبي حين أراك
لكني، كالناعورِ، أعودُ لأغرفَ من مائي. . .
انكيدو: ولماذا تقلقُ يا جلجامش؟
إِنك سيدُ أوروكَ وحاميها
باني معبدِها أنتَ
وخبزُ أغانيها
فلماذا تقلقُ يا جلجامش؟
جلجامش: ليست أوروكَ، الحلمَ
وليس المعبدُ دارَ بقاءٍ إِلاّ لإِلهتهِ
انكيدو!
نحن نموت
فهل سوف يموتُ الشرّ؟
أم أنّ القبحَ سيخلُدُ مثلَ الدهرْ؟
انكيدو: قالت لي البنتْ
كلْ خبزاً
واشربْ خمراً
وتمتَّعْ. . .
جلجامش: لكنّ الأمرْ
أعمقُ مما تُخفي أعماقُ البحرْ. . .
انظرْ يا انكيدو!
(يشير إِلى النهر وقد طفت عليه جثث الموتى)
انظرْ جثثَ الموتى طافيةً فوقَ الماء. . .

والنهرُ يسيلُ بها نحوَ البحر
ستقضمُها الأسماكُ هنا
وستنهشُ حيتانُ البحر
مَن كان فتيّاً وجميلا
وحكيماً ونبيلا . . .

انكيدو : أوَلَمْ تعرفْ آلهةُ الكونِ بهذا؟

جلجامش : مَن يسألُ عمّا لا تحتاجْ؟
لكني سأخلِّدُ اسمي
سأخلِّدُ اسْمَينا . . .

انكيدو : كيف؟

جلجامش : سنسيرُ معاً يا انكيدو
كي نمسحَ عن وجهِ الأرضِ، الشرْ . . .
سنسيرُ إلى غاباتِ الأرزِ
لنذبحَ خمبابا الوحشَ
لنمحوَ روحَ الشرِّ
ويَخْلُدَ إسمانا أبدَ الدهرِ

انكيدو : وإنْ مُتنا؟

جلجامش : لا بأسَ،
سيحكي الآتونَ حكايتَنا
ويقولونَ : أرادا قتلَ الشرْ . . .

(نهاية المشهد)

(في الساحة الرئيسية بأوروك. الناس محتشدون لاستقبال جلجامش وانكيدو، بعد عودتهما من غابة الأرز حيث ذبحا خمبابا الوحش. عند السور، عشتار. جلجامش وانكيدو وسط الناس المهلّلين)

عشتار (لنفسها): يا لَجمالِ الرجلِ الظافر!
يا لَجمالِ جدائله المرخيّةِ حتى الكتِفين...
يا لَجمالِ الثوبِ
ويا لَبريقِ التاج على مَفْرِقِهِ
يا لَبهاءِ سلاحِهْ!
يا قوّةَ سِربِ الثيرانِ على فَخِذَيهْ...
(تميل بنصف جسمها على السور وتخاطب جلجامش)
جلجامشُ!
هَلاّ جئتَ إليّ...
لتكنْ زوجي يا جلجامشْ
أكُنِ الزوجهْ.
جلجامش: عجباً يا عشتار!
عشتار: مركبةً من ذهبٍ سأقدِّمها لو جئتَ إليّ...
وستدخلُ بيتاً فوّاحاً بشذى الأرز،
سيسيرُ الجبلُ العالي والسهلُ إليك
وتُقبِّلُ دكّةُ بيتي قدميك
سيبايعكَ الأمراءُ
ويتبعُكَ الحُكّامُ

ويأتي كلُّ ملوكِ الأرض لديك.

جلجامش: ما أحلى عشتارَ!

كأنكِ بنتٌ تلمحُ مَن تهوى، من نافذةِ الدارِ، لأولِ مرّهْ!

وكأني ولدٌ يلمح مَن يهوى، من نافذةِ الدارِ، لأولِ مرّهْ.

ما أحلى عشتار!

كأنّ على عشّاقِكِ ألفَ ستارْ...

وكأني لا أعرفُ مَن ذا اخترتِ

ومَن لا أختارْ...

فدعيني يا عشتار

دعيني، يا حَجراً من بيتِ عدوٍّ

يا كومةَ قارْ

يا باباً خَلْفيّاً

يا قصراً يقتلُ من يَدخُلُهُ

يا كلساً

يا نعلاً غدّار...

عشتار: عَمَّ تُحَدِّثُ يا جلجامش؟

جلجامش: عمَّ أُحَدِّثُ يا عشتار...

عمَّ أُحَدِّثُ؟

فلأَترِكْ عشاقَكِ

ولأُسدلْ دونَهمو ألفَ ستار.

ودعيني أسألْ عن تموزَ...

ألم يدخلْ، غدراً، مملكةَ الموتى؟

عشتار: تموزُ، الآنَ، إِله...

جلجامش: أيُّ إِلهٍ بَوّابٍ يا عشتارْ!

كان هنا

كان على الأرضِ، الراعي

والنايَ، وأغنيةَ السُّمّارْ

كان الواهبَ خُضرتَنا

والطافحَ بالبهجةِ كالأنهارْ

والآنَ؟

الآنَ خلتْ بابلُ إِلا من عشتارٍ

ومعابدِها.

لا تموزَ بها

لا نايَ

ولا أغنيةٌ يتشرَّبُها سُمّارْ.

عشتار (وهي تغادر غاضبة): ما أبشعَ جلجامشْ!

ستَرى يا جلجامش!

سترى...

ـ احتفال الجمع المحتشد يستمر ـ

(نهاية مشهد)

الجوقة: يا سادتي

نختصرُ الآنَ لكم شيئاً من القصةِ

فالوقتُ قصيرٌ دائماً

والسيداتُ اشتقنَ للبيتِ،
فما المسرحُ؟
والوقتُ قصيرٌ:
غضبتْ عشتارُ، يا سادةُ
قالت لأبيها إِن جلجامشَ قد حَقَّرها
في ساحةِ السوقِ بأوروكَ...
على جلجامشَ اللعنةُ!
فليرسِلْ إِلى أوروكَ، كي يثأرَ من جلجامشَ
الثورَ السماويَّ...
ليقتلْ أهلَ أوروكَ
ويسحقْ رأسَ جلجامشَ بالثورِ السماويّ
الذي ينفثُ ناراً ودخاناً...
أخطأتْ عشتارُ، أيضاً هذه المرةَ
فالثورُ السماويُّ الذي أرسلَهُ «آنو» أبوها
يشخبُ الآنَ دماً في ساحةِ السوقِ
ذبيحاً
بين انكيدو وجلجامشَ
والجندِ
وتهليلِ العذارى.
إِنها الجوقةُ يا سادةُ
مجدُ الاختصار!

(غرفة في قصر جلجامش. دكّتان متقابلتان للنوم. انكيدو وجلجامش نائمان).

انكيدو (يستيقظ قلقاً ويوقظ جلجامش):

جلجامش!

جلجامش!

جلجامش: ماذا يا انكيدو؟

أنكيدو: أرهقني ليلٌ قاسٍ

كادت ظُلمتُهُ تدخل عينيَّ لتنطمسا

وكأنّ مرارتَهُ سكنتْ وجهي

أَفَلا تبصرُهُ كيف قسا؟

جلجامش: كم كنتَ بلا أحلامٍ يا انكيدو...

انكيدو: ما زلتُ بلا أحلامٍ

محضُ كوابيسَ...

جلجامش: إِذن، ما الأمرُ؟

انكيدو: رأيتُ الآلهةَ العظمى مجتمعينَ

غِضاباً للثورِ المقتول...

قالوا: ليمتْ انكيدو!

جلجامش: وأنا، ما خَبَري؟

أَفَلَمْ نَقْتُلْهُ معاً في الساحة؟

انكيدو: قالوا لن نُهلكَ جلجامش...

جلجامشُ ثلثاهُ إِله...

جلجامش: يا لَلآلهةِ الظمأى للدم..
انكيدو!
كيف نغيِّرُ هذا العالم؟
كيف نحوِّلُ مجرى الدم؟

الجوقة: وانكيدو لم يتركْ دكّتَهُ
انكيدو أدركَ
ـ في لحظاتِ النّزْعِ ـ
الكونَ ولعبتَهُ...
لعنَ الصيادَ، وعاهرةَ المعبدْ
لعنَ الخبزَ السائلَ
والخبزَ
وجدرانَ المعبدْ
لعنَ الساحةَ والسوقَ وأوروكَ الأسوارِ
بكى...
وتواثبتِ الغزلانُ بعينيهِ
وهَسْهَسَ نبعُ الماءْ...
انكيدو لم يتركْ دكّتَهُ...
انكيدو ماتَ،
كما ماتَ
وسوف يموتُ
الضعفاءْ...

(الغرفة ذاتها. انكيدو مسجّى. جلجامش يبكيه)

جلجامش: أبكيكَ بكاءً مُرّا
يا أنكيدو الطاهر
أبكيك بكاءَ الثكلى.
هذي عُدّةُ حربي
فأسي
قوسي
وسهامي
والخنجرُ يبرق عند حزامي
والدرعُ أمامي
لكنّ عدوّي، يا أنكيدو الطاهر
خالَسَني
واختطفَكْ
يا أنكيدو الطاهر
يا إِلفي وأخي الأصغر.
يا قانصَ وحشِ البرّيّه
والنّمِرِ الغادرْ
يا طَلاّع جبال
يا غالبَ خمبابا الساكنِ في غابات الأرز
يا سفّاحَ الثورِ الهادر

يا إِلفي الصِّدِّيقْ
يا خيرَ شقيقْ
أيُّ نعاسٍ سلبَكْ؟
أيُّ ظلامٍ غلبَكْ؟
يا ولدي، وشقيقي
يا أملي، ورحيقي
يا أنكيدو الطاهر
يا حظي العاثر
يا دمعةَ أوروك الأسوار. . .

(وقفة قصيرة جداً)

كيف سيهبطُ ليلٌ
كيف يُطلُّ نهار
وأنا أرقبُ موتَكَ يدركني
وكأني أنتَ
كأني أهبطُ في مملكة الموتى
وخُطاي خُطاك. . .
يا أنكيدو!
لم نسألْ إِذ جئنا
لم نسألْ إِذ ضعنا
والكونُ سؤال. . .

(نهاية المشهد)

(حانة سيدوري على شاطئ البحر. أعنابٌ معرِّشة.
سيدوري تشبه عشتار تماماً)

جلجامش (يدخل. شعره طويل أشعث. ملابسه جلود. وجهه سفعته الشمس. إنه يشبه أنكيدو والبرّية):

سلاماً، صاحبةَ الحانة.

سيدوري (تنهض لاستقباله):

أهلاً بالقادم من سفرٍ قاسٍ وطويل...

اجلسْ

فأنا لكَ رَوْحٌ

والحانةُ راحْ

جلجامش (يجلس): ما أجملَ هذي الحانَةَ

ما أحلى الأكوابَ

وما أعذبَ هذا الضَّوعَ

وما أبهى داليةَ الأعناب...

سيدوري (مبتسمة): وأنا؟

جلجامش: كانت كلماتي عنكِ

سيدوري: عجيبٌ...

لم يتبدلْ جلجامش!

جلجامش: كيف تعرَّفتِ عليّ

وأنا أشعثُ، أغبرُ، مسفوعُ الوجهِ

ثيابي الجِلْدُ

وبيتي النأيْ؟

سيدوري: لن تُخْطئكَ امرأةٌ يا جلجامش!

(تقدم له كأساً)

جلجامش (يرتشف قليلاً): لكني أخطأتُ امرأةً. . .

سيدوري: أيُّ امرأةٍ يا جلجامش؟

جلجامش: تلك المدعوّةُ في الألواح «حياة». . .

سيدوري: ما زلتَ عنيداً

لم تتعلمْ حتى من دمعةِ أنكيدو.

جلجامش: أنكيدو علّمني أن أسأل. . .

سيدوري: عَمَّ؟

جلجامش: عن معنى امرأةٍ تدعى في الألواحِ «حياة»،

وهي الموتُ

الموتُ صريحاً

قذِراً، مغتصِباً

وقبيحا.

سيدوري: آلهةُ الكون أرادت هذا ـ

أن نحيا لنموت

وتبقى آلهةُ الكونِ مخلَّدةً. . .

جلجامش: هل هذا عدلٌ، يا سيدوري؟

سيدوري: سُنّة هذا الكونِ

قبلناها، أم لم نقبلْ.

جلجامش: لن أقبلْ.

سيدوري: ستحارُ طويلاً، يا جلجامش
ستسيرُ طويلاً
وستلقى الأهوالَ
وتعتبرُ الأحوالَ
ولكنكَ، يا جلجامشُ، سوف تعودُ إلى الحانةِ. . .
كي تلقاني
فأنا لكَ رَوحٌ، يا جلجامش
والحانةُ راحْ.
كُلْ خبزَكَ يا جلجامش
وافرحْ ليلَ نهارْ
وارقصْ
والعبْ
ليلَ نهارْ
اغسلْ وجهَكَ
واسبحْ في الماءِ
ودلِّلْ طفلَك
ولْتُبهِـج زوجتَكَ الحلوةَ في أحضانِكَ
يا جلجامش. . .
جلجامش: سيدوري، لا بد من الرحلةِ. . .
سيدوري: أين؟
جلجامش: إِلى أوتو ـ نَبِشْتِمَ، أوتو النائي. . . جَدِّي
دُلّيني يا سيدوري.

سيدوري: سأرى،

إِن مَرَّ الملاّحُ بنا. . .

(نهاية المشهد)

(كوخ قصب. أوتو ـ نبتشم شيخٌ طويل طويل نحيف، دقيق الملامح. المكان يُشعِر بالقداسة. حركة موج خفيفة. أصوات طيورٍ مائية).

جلجامش (يدخل مع الملاّح): جئتُ أخيراً، يا جَدّي. .

أوتو ـ نبشتم: كيف وصلتَ إِلينا يا جلجامش؟

جلجامش: أوصلني الملاّحُ

عبرنا في قاربه بحرَ الموتِ. . .

أوتو ـ نبشتم: وأين رأيتَهْ؟

جلجامش: في حانة سيدوري.

أوتو ـ نبشتم: هي أغوتْهُ، إِذن، حتى يأتيَ بكْ!

الملاّح: قلبي حنَّ عليه. . .

أوتو ـ نبشتم: اذهبْ يا جلجامش، واغتسل الآن

وهاكَ رداءً مني، فالبَسْهُ

وعُدْ كي نَطْعَمَ شيئاً

وتحدّثَني. . .

(يخرج جلجامش والملاّح، بينما يظل أوتو ـ نبشتم يفكر في أمر جلجامش)

أيُّ فتىً هذا!

كم كانت رحلتُه مرعبةً هوجاء. . .
خاضَ وُحُولَ الموتى
واجتازَ جبالَ الشمسِ
وأرضَ العقربِ
والغاباتِ المسكونهْ
وبساتينَ الفاكهة الذهبيةِ. . .
أيُّ رياحٍ ألقتْهُ هنا؟
أيُّ هواجسَ أطلقَتِ البَدَنا
من محبِسهِ خلفَ الأسوار؟
(يعود جلجامش مرتدياً ثوباً أبيض فضفاضاً
اجلس يا جلجامش
واطْعَمْ من خبزي (يقدم له رغيفاً).
جلجامش: يا جَدّي
كنتُ أظنّك عملاقاً
مُدَّرِعاً
مندفعاً، كالثورِ الهائجِ
لكنكَ يا جَدّي
أنحفُ مني
وأرقُّ وأجملْ. . .
أوتو ـ نبشتم: ولماذا كنتَ تراني عملاقاً؟
جلجامش: يا جَدّي
إِنك نلتَ خلوداً مثل إِله. . .

أوتو ـ نبشتم: نلتُ خلودي
حين أقرّت آلهةُ الكون جميعاً بخلودي.
جلجامش: بعد الطوفانِ؟
أوتو ـ نبشتم: نعم.
جلجامش: وأنا...
لو حاولتُ خلوداً يا جَدّي؟
أوتو ـ نبشتم: من يجمع آلهةَ الكونِ؟
جلجامش: إِذن، لا فائدةَ، البتّةَ، يا جَدّي؟
أأموتُ كما مات الناسُ
أيأكلُ عينيَّ الدودُ، كأنكيدو
وأنا، ثلثايَ إِلهٌ، يا جَدّي؟
أوتو ـ نبشتم (متأثراً): لم يبقَ سوى دائرةِ الأسرار،
لم يبقَ سوى العشبةِ...
جلجامش: ماذا يا جَدّي؟
أوتو ـ نبشتم: لم يبق سوى العشبةِ في قاع البحرِ...
فإِن ذقتَ العشبةَ عدتَ شباباً
يا جلجامش...
جلجامش: والناسُ بأوروك الأسوار؟
أوتو ـ نبشتم: من ذاقَ العشبةَ عاد شباباً...
جلجامش (متهللاً): ما أرحمَ قلبكَ يا جَدّي!
أوتو ـ نبشتم: ابحثْ عنها في قاعِ البحرِ
هناكَ

وخذْ معكَ الملاّح . .

(يخرج جلجامش والملاّح)

الجوقة : جلجامش!

جلجامش!

عاشقُ أوروك الأسوار

غاصَ إلى قاعِ البحرِ

وجاءَ بتلكَ العشبةِ

لم يأكلْ منها المسكينُ . . .

وقال سأزرعُها في أوروكِ الأسوار

ليأكلَ منها الناسُ جميعاً

وأكونَ أميرَ العشاق . . .

جلجامش!

جلجامش!

جلجامش عند الشاطىءِ نامْ . . .

والحيّةُ شمّتْ رائحةَ العشبهْ

أكلتْها وانسلّتْ

جلجامش!

جلجامش!

جلجامش عندَ الشاطىءِ قامْ . . .

لم يَجد العشبهْ

يا ويلَ الحيّهْ

يا لَشبابِكَ، يا جِلْدَ الحيّهْ!

جلجامش!

جلجامش!

يا لَدموعِكَ يا جلجامش!

يا عاشقَ أوروكِ الأسوار. . .

(حانة سيدوري على شاطئ البحر. الحانة مزدحمة بالروّاد. سيدوري عند الباب. جلجامش والملاّح يقتربان)

جلجامش (يدخل والملاّح):

سلاماً، صاحبةَ الحانةِ

سيدوري: مَن هذا القادمُ من سفرٍ قاسٍ وطويلٍ؟

آهٍ!

جلجامش!

جلجامش: لكِ أن تبتسمي، ماكرةً، يا سيدوري. . .

سيدوري: قلبي مبتسمٌ يا جلجامش

ها قد عدتَ أخيرا

موفورَ الحكمةِ

حرّاً

وأميرا. . .

اجلسْ يا جلجامش

اجلسْ بين الناسِ

ودعْ للمُرِّ مرارتَهُ. . .

ولنشربْ كأسَ العودةِ
يا جلجامش،
ولتتطامَنْ منكَ الأنفاسْ.

(يجلس جلجامش والملاّح. روّاد الحانة يتحلّقون حول جلجامش وسيدوري والملاّح)

أحد الروّاد: من أي بلادٍ جئتَ؟
جلجامش: أنا آتٍ من أرض الموتِ...
من الآلهةِ النزِقين.
آخر: وإِلينا ترجعُ يا جلجامش...
نحنُ البشرَ الفانين؟
جلجامش: كنتُ أفكّرُ أنّ الموت عدوٌّ شخصيٌّ لي
أنّ حياتي ليست إِلاّ سنواتي.
لكني آمنتُ الآن
بأنّ حياتي والموتَ هما الوجهان
وأنّ حياتي باقيةٌ ما دام الإِنسان
وأنّ العالم لن يفنى
فالوجهان هما الوجهان
يظلاّن، كليلٍ ونهارٍ، يصطرعان.
سيدوري: قلبي مبتسمٌ يا جلجامش
ها قد عدتَ أخيرا
موفورَ الحكمةِ
حراً

وأميرا . . .

جلجامش: فلنشربْ يا سيدوري

ولنشربْ يا حكماءَ الحانهْ . . .

سيدوري: وأنا لكَ رَوحٌ

والحانةُ راحْ

جلجامش: ها هي ذي الشمسُ تطلُّ

وتغسلُ موج البحر وسقفَ الحانِ بقرمزِها

فلْتأتِ الأكواب

ولنفرح يا حكماءَ الحانهْ!

النشيد

مباركةٌ طلعةُ الشمسِ

هذا النباتُ المبارَكُ جُنَّتُنا:

غصنهُ الغضُّ، أزهارُهُ، ولحاءُ الشجرْ

مباركةٌ قطراتُ المطرْ

مباركةٌ ضحكاتُ البشرْ

مباركةٌ دورةُ النهرِ

والنهدِ

وامرأتي

ومباركةٌ لغةُ الطيرِ

في لثغةِ الطفلِ،
تلك الأغاني، وهذا السَّهَرْ
مباركةٌ خُطُواتُ المسافرِ:
أوْباتُهُ والسَّفرْ
مباركةٌ موجةُ البحرِ.
أسماكُنا
مباركةٌ
والخيولُ التي ترتعي عُشُبَ السهبِ،
أسماؤنا
مباركةٌ
السهولُ مباركةٌ
والجبالُ مباركةٌ
والكواكبُ، والموسمُ المنتظَرْ.
(وقفة قصيرة جداً)
مباركةٌ هذهِ الأرضُ
أرضُ البشرْ!

(ستار)

بولس، ٢٧/٦/١٩٨٨

محاولات

(١٩٩٠)

منظر شتويّ

يغرقُ الفندقُ الساحليّ
وتحتَ كراسيّ شرفتهِ
تحتَ غمغمةِ الطاولهْ
كان يختبىءُ الماءُ، ماءُ المطرْ
إِنَّه البحرُ يلهثُ في مركبِ الريحِ
مرتطماً بزجاجٍ من الملحِ. . .
تحتَ الكراسيّ يختبىءُ الماءُ
تحت الكراسيّ كان غبارٌ من الصيفِ
دبّوسُ شَعرٍ
وقنّينةٌ كان فيها نبيذٌ
وفي مركبِ الريحِ يندفعُ البحرُ
مرتطماً بالزجاجْ.
. . . . . .
. . . . . .
كيفَ لي أن ألامسَ هذا الشتاء؟

كيف لي أن أرى الزنبقهْ؟
شرفتي مغلقةْ
وَبِعَيْنيَّ ماءْ. . .

نيقوسيا، ١٧/ ٣/ ١٩٨٨

خريف

بعد حينٍ تتعبُ الأوراقُ من خضرتها
يأتي النعاسْ
حاملاً قهوتَهُ. . .
تندلقُ القهوةُ، والأوراقُ بالقهوةِ تبتلُّ
صباحَ البُنِّ. . .
يا غُصناً خريفيّاً
صباحَ البُنِّ يا كرْماً وآسْ؟

●

قطّةٌ في آخرِ العالمِ
مستأنيةٌ، مقرورةٌ، تدخلُ في كرسيّها ـ الميناءِ
هل تتّسعُ الحدْقةُ
كي تدخلَ شمسٌ أطفأتْها سُحبٌ ثابتةٌ؟
لا جندبَ اليومَ على السروةِ
كي تُرهفَ سمعاً. . .
لا عصافيرَ
وفي كرسيِّها تقتنصُ القطةُ حلماً
وتنامْ

●

هدأت أغنيةُ الشارعِ
والآنَ:
بعيداً
من حقولٍ فظّةٍ
منزوعةِ العشبِ
سيأتينا الغرابْ. . .

نيقوسيا، ١٧/ ١٠/ ١٩٨٦

مصطفى

ـ ١ ـ

شجرٌ صافٍ، وسماءٌ خضراءْ
وبرائحةٍ من مومباسا يبتلّ الماءْ

وبرائحةٍ من حنّاءِ البحرِ عرفناكِ وسمّيناكِ. مدينتنا!
أيامَ أتيناكِ تعلَّمْنا كيفَ يدورُ الفِطْرُ خبيئاً بين الظل
وبينَ النخلِ،
تعلَّمنا كيفَ نؤذِّنُ في العيدِ
وكيف نُلاعبُ أسماكاً هادئةً
كيف نراوغُ حيّاتِ الماء. . .
وتعلَّمنا أن نجلسَ أحياناً والغيمَ. . .
كباراً كنّا؟
وكباراً كانت قطراتُ المطرِ؟
استروحْنا زهرَ النوّامِ
عرفنا كيف تكونُ تويجاتُ الزهرةِ كاللحمِ.
بعيداً في أنهارٍ غامضةِ الأصواتِ نخوضُ.

ومَن أنبتَ هذي العنبةَ عندَ مُسَنّاةِ الجامعِ؟
مكتبةُ المخطوطاتِ الأولى في جيبِ الدشداشةِ.
سافرتُ بعيداً حتى بابِ سليمانَ
أميري في قلعتهِ النهريةِ كان سجينا.
حين تظاهَرْنا ـ طلابَ المحموديةِ ـ
قالوا ستطاردنا الشرطةُ.
دخّنّا في البستانِ المهجورِ سجائرَنا الأولى،
وبكينا من خوفٍ.
رائحةُ الأشَناتِ
السمكُ الميّتُ في القيظِ...
قناطرُ تحملُنا
وقناطرُ تركلُنا
وقناطر تغسلنا
شرفاتُ أميراتِ الهندِ بعيدهْ
والبستانُ بعيدٌ
بابُ سليمانَ بعيدٌ
والبيتُ بعيدٌ...
والشمسُ التفّتْ بالسعفِ اللدْنِ ونامتْ.
.....
.....
رِجْلُ المعزى
رِجْلُ المسحاةِ

. . . . . .

ونسمعُ في العتمة خطوَ السعلاةِ. . .

وفي الدمعِ انطفأتْ نارُ سجائرِنا الأولى.

يا حلو، يا مصطفى
يا قُرّةً للعينْ
نومَ الهنا. . . مصطفى
يا أشهلَ العينينْ
غمِّضْ على خيلنا
والبصرةِ الصوبين
تحميك بعد النبي
والسادةِ الألفين
يحميك يا مهجتي
مختارُ «كوت الزين»

ـ ٢ ـ

وردٌ أزرقُ
وسماءٌ حمراءْ
وبأسنانِ الكوسج يبتلُّ الماءْ

لا بأسَ، سأفتحُ جرحاً في كفّي
لأخبِّئ نجما
ثم أذرُّ دقيقَ الليفِ عليها
وأقولُ سلاماً يا حمّالي سفنِ العالمِ
يا عمّالَ قطاراتٍ لم تمنحني تذكرةً أو ذاكرةً. . .
في الليلِ نجوبُ درابينَ الصيفِ
ونفتحُ في جدرانِ رطوبتهِ ثقباً نتنفسُ منهُ،
ويا أوحالَ صرائفِنا، يا مطرَ الأمطار
فساتينٌ تزَّيَّنُ بالأطمار
وتكتمُ نجما. . .
وعباءاتٌ تعتمرُ البصرةَ كوخاً كوخاً
ومناشيرٌ تخفقُ تحتَ سماءٍ حمراء. . .
وبينَ القرنةِ والفاو:
بساتينُ النخلِ، وأزهارُ الملحِ
سلاماً للطالعِ
للطّلْعِ
لكل امرأةٍ تحملُ في سُرَّتها نجماً قطبيّاً
وتُطوِّفُ بين القرنةِ والفاو. . .
مدينتَنا!
سبعُ عرائسِ ماءٍ جئن إلينا في ليلٍ شتويٍّ،
قُلنَ لنا: أبصرْنا سربَ كواسجَ يأتي من جهةِ الغربِ،

فأبحرْنا نلقاه. . .
لكنْ بزوارقَ من برديٍّ
من ورقٍ
من سعفٍ هشٍّ
أبحرْنا. . .
لكنّ البلطةَ كانت تحتزُّ زوارقَنا كالماءِ.
الماءُ سماءٌ حمراءُ
دمٌ يتدفقُ مطلولاً بين القرنةِ والفاوِ، وهذا الكوسجُ
يبحثُ عن نجمٍ قطبيٍّ يأكلُهُ.
انفتحتْ بوّاباتُ الغربِ. . .
مدينتَنا!
أيَّ طبولٍ نسمعُ في الليلِ الهامدِ. . .
أيَّ حكاياتٍ يسمعُها حتى النخلُ
فيذوي منكفىءَ الجذعِ،
وأيُّ خريفٍ سيطولُ إلى آخرةِ الدنيا. . .

يا حلو، يا مصطفى
يا زينة الشبّانْ
مرّت غيومُ العدا
مرت على «حمدانْ»
يا حلو، يا مصطفى
هانَ الذي ما هانْ
بعد الندى والندامى
ضعضعوا البنيانْ
يا حلو، يا مصطفى
يا سدرةَ البستانْ
يا ليت سمش الضحى
حنّتْ على الولهانْ

ـ ٣ ـ

تابوتٌ أخضرْ
وسماءٌ بيضاءْ
وبطلْعِ النخلةِ يبتلُّ الماءْ

في الضفة الأخرى: عمّي.
في شاطئنا: كان أبي.
في شط العربِ:
الزورقُ مختبىءٌ بين البرديّ. وحيدٌ.

لم يبقَ من النخلِ سوى أعجازٍ خاويةٍ.
أن سماءً بيضاءَ
سماءً كانت خضراءَ
تمدُّ يديها نحو سماءٍ ثالثةٍ:
«أنا عريانهْ
أنا عريانهْ
ذهبتْ بالنخل مدافعُهم
ذهبتْ بالأهل مدافنُهم
أنا عريانهْ»
والبصرةُ تدخلُ تحت شوارعها
تدخلُ تحتَ الماء أُجاجاً
تدخلُ تحتَ الكتبِ الموصوفةِ
تدخلُ في الروحِ ولا تخرجُ إلا والروحَ...
مدينتَنا!
مَن ضيَّعَ عاداتِ النورسِ؟
من جاء بغربانِ الجثثِ الأولى؟
مَنْ جاءكِ بالأكياسِ الرمليةِ يا فيروزَ الشطآن؟
مَن عضَّ سِباخَكِ بالقتلى؟
نهرٌ عبّاسيٌّ يحفرُ مجراه
قروناً هذا النهرُ العبّاسيُّ يتابعُ مجراه
من أسباخِ الزنجِ يتابعُ مجراه
ونحنُ، حلمنا، يوماً، أن نوقفَ بالأيدي مجراه...

مدينتَنا!

سنظل ـ وإِن شِبنا ـ أطفالَكِ

نحملُ طلعَكِ في جيبِ الدشداشةِ

نشربُه في حشرجةِ الماء. . .

مدينتَنا!

ما ضعتِ

وما ضعنا،

لكنْ، ضيَّعَنا الأعداءْ. . .

يا حلو، يا مصطفى
يا زينةَ البصرهْ
نوم الهنا، مصطفى. . .
ما أضيقَ الحفرهْ!

نيقوسيا، ١٢/ ٤/ ١٩٨٧

خريف وامتثالات لأبيات يابانيّة

يا لوحدتي
أن جسدي قصبةٌ تطفو
مقطوعة الجذور
وإني لأتبعُ الماء الذي يجذبني(*)

ـ ١ ـ

شهرُ تشرينَ مقْبلٌ يرفعُ الراياتِ بيضاً،
هي السماءُ بلا غيمٍ كجنديّ وحدةٍ فَقدتْ
في الليلِ أخبارَها يحدّقُ في مرآةِ قصديرٍ،
الصباحُ أتى في غفلةٍ: أين تهبطُ الإِصبعُ
الآنَ؟ انتهى اليومُ وهو لم يبتدىءْ بعدُ.
اتركي لي ولو بحاشيةِ الأردانِ خيطاً
أشُدّهُ كلما ضعتُ، اتركي لي رمّانةً
في مراعي البقرِ المثقلاتِ بالعشبِ والزبدةِ.
إِني انتظرتُ عِرقاً على صدغي، ولكنه

(*) الشاعرة اليابانية أونونو كوماشي/ من القرن التاسع.

تأبَّى. . . وصدغي الآنَ مستبسطٌ كمرآةِ
قصديرٍ. . مُرِنٌّ. نأتْ عرائسُ أنهارٍ
جنوبيةٍ. وداعاً، إذن، للغيمِ والدهشةِ
الصغيرةِ والطيرِ. وداعاً لإصبعي، ووداعاً
لشرارٍ يختضُّ في عتمةِ الأدغالِ ما بينَ إصبعَيَّ وصدغي.

قمرٌ بهيٌّ للخريف.
كلما سرتُ
تناءتْ أبعدَ فأبعد
سماءٌ مجهولة(*)

ـ ٢ ـ

سعفةٌ في البعيدِ، في المسجدِ التركيّ تهتزُّ.
والجبالُ الرماديةُ موسوقةٌ بأعبائنا. . .
أيّانَ نمضي إلى الغِلال، ونمضي عن بهاءِ الجبالِ،
نتركهُ للريحِ والنملِ والأرانبِ والثلجِ،
اتركي لي رسالةً في صناديقِ البريدِ التي
تخلَّى ذووها عن مفاتيحها. سأسألُ عنهم
واحداً واحداً، لآخذَها من واحدٍ. ليتهُ
يفيقُ فيهديني صباحي تحيةً وسلاما. . .
أيُّ سعْفٍ يدورُ في المسجدِ التركيّ!

(*) الشاعرة اليابانية كاغونو تشيو/ من القرن الثامن عشر.

يا كوخَنا المندّى كغاسولٍ، كإسفنجةٍ. . .
ويا نهرَ أسماكٍ شفيفاً. . . يا مَعْبراً غارَ في الطينِ،
اتركي لي رسالةً، خُوصةً في سعفةِ المستحيلِ
والمسجدِ التركيّ. . .
ريحُ الخريفِ.
نافذةٌ من معدنٍ.
هل أرى الشناشيلَ في الماءِ؟
الخريفُ في هذه اللحظةِ يأتي. . .
قُطعانُه البيضُ تأتي.

لم يتبدل شيء
لكنني لم أعد في صباي.
ريح الخريف تهبّ
وأنا قلقة، كشأني من قبل(*)

ـ ٣ ـ

ثم، من أين جئتَ لي؟ نحن كنا في بساتينِ عالمٍ
قد دجا الليلُ بها سندساً وثوبَ مَراثٍ.
أنتَ من أين جئتَ لي؟
إننا، الاثنين، كنّا. . . ولم نَعُدْ.
هكذا، في غفلةٍ، في فُجاءةٍ. .

(*) الأميرة اليابانية شيكيشي/ من القرن الثاني عشر.

غير أَنَّا لم نَعُدْ.
فالتفتْ حواليكَ، هل تعرفُ وجهاً أو وجهةً؟
أيها المقرورُ برداً، يا أيها الملكُ الحافي...
ويا صورتي:
لماذا تنازلتَ، فقيراً، عن سُدَّةِ الغيبِ؟
لماذا هجرتَ سدرتَهُ؟
نحنُ الغيابُ المقدسُ
الرجعةُ الطوبى...
ثيابُ الشهيدِ
والسندسُ الأخضرُ...
ماذا أردتَ؟
ماذا أردتَ اليومَ، بي، في صباح قبرصَ؟
إِنَّا أخوةٌ ـ مثل ما نقول ـ يمانونَ،
وإِنّا لأهلنا...
غير أنّا لم نعد. لم نَعُدْ.
.....
.....
خريفٌ خفيف.

نيقوسيا، ٢/ ١١/ ١٩٨٧

ثلاثيّة الحاضرة

- ١ -

مرَّةً في مساءٍ بصنعاءَ
كان فضاءُ البيوت
يشِفُّ.
كأنّ البيوتَ التي يقطرُ النورُ منها
على النبضِ
قد أُشرعتْ لليراعاتِ.
أيَّ البيوتِ سندخلُ؟
في ايِّما دورةٍ من سلالمها سوف نتعبُ؟
في أي زاويةٍ سيكون النعاس
النعاسُ البليل
النعاسُ الطويل؟

منذ ألفينِ نسري لنبلغَ صنعاءَ
طالتْ سِفارٌ وطالتْ ولم يلمسِ الهدبُ صنعاءَ.
نرحلُ في الصيف عنها
ونرحلُ في هَبَواتٍ شتائيةٍ نحوها

والطريقُ إليها غدا طرقاً لا تؤدي إليها
فهل هبطتْ في نقيعِ التهائمِ صنعاءُ؟
كنا نرى نارَها في رؤوسِ الجبالِ
نشمُّ مباخرَها تتوقدُ في عتماتِ القلاعِ
وكنا نقولُ: غداً.
أرهقتنا الرمالُ
وغصَّ المغنّي بأصواتنا
والجبالُ البعيداتُ لمّا تزلْ (منذ كنّا) الجبالَ البعيداتِ
خطّاً مع الأرضِ مشتبكاً والسماءِ.
المراحلُ؟
لم نطوِ مرحلةً بعدُ.
حتى الصخورُ الغريبةُ طولَ الطريقِ انتأتْ بتلاوينها.
كيف نذكرُ؟
لم تكنِ الأرضُ ملساءَ
لكننا لم نلامسْ تضاريسَها
نحن لم نتلامسْ بها.
كيف نذكرها؟
كيف نذكرُ؟
والأرضُ فاتحةُ الضائعين.

ـ ٢ ـ

مرّةً، في صباحٍ بصنعاءَ
كان فضاء البيوت
يضيقُ
كأنّ البيوت التي ثقُلَ الصبحُ فيها
على النبضِ
قد أُشرعتْ للنهاياتِ.
أيَّ البيوت سندخلُ؟
في أيِّما دورةٍ من سلالمها سوف نُقتَلُ
في أي زاوية سيكون القتيل
القتيل النحيل
القتيل الجميل؟

يدخلُ الطِلْحُ والشيحُ صنعاءَ
يدخلُها الدَّومُ والسيسبانُ
حدائقُها لم تَعُدْ كالحدائقِ. . .
(كانت بساتينَ)
قِيل: الكرومُ ارتعتْها الجداءُ الهزيلةُ.
صنعاءُ!
ها نحن نسري إِليكِ ونسري. .
كأنّ الخليقةَ تبتدئُ الآنَ.
إِني أحبّكِ. . .

لكنّ بيني وبينكِ كلَّ الدروب التي قد تؤدِّي وقد لا تؤدِّي.
المسايلُ تُنبتُ أزهارَها الحجريةَ
والماءُ ينشفُ في العينِ.
أمْسِ بلغْنا الجبالَ وقد غابت الشمسُ.
قلنا: نخيِّمُ.
لكنّ وجهاً تراءى لنا في اضطرابِ الظلالِ،
وقال لنا:
ليس يبلغُ صنعاءَ من غابَ عنها ولو لحظةً.
قد ينامُ المسافرُ
لكنكم أهلُها القادمون...
إِذن، كيف نفعلُ؟
كانت سماءٌ رماديةٌ
تتباطأُ عن طلعةِ النجمِ.
والليلُ مختبأُ السائرينْ.

ـ ٣ ـ

مرّةً، في ظهيرة صنعاءَ
كان فضاءُ البيوت
يغيمُ
كأنّ البيوت التي رحلَ الضوءُ فيها
عن النبضِ
قد أُشرعتْ للبداياتِ.
أيَّ البيوت سندخلُ؟
في أيِّما دورةٍ من سلالمها سوف نكمنُ؟
في أي زاويةٍ سيكون الصهيل
الصهيلُ ـ الغليلُ
الصهيلُ النبيل؟

وليكنْ!
قد ركزنا الرماحَ يمانيةً حول «باب اليمنْ»
وليكنْ!
قد ركضنا بدارِ السلاحِ نهزُّ البنادقَ
لكننا ما نزالُ بعيدينَ عن فرحةِ الطفلِ بالعيدِ.
كنا نظنُ الوصولَ إِلى البابِ وعداً بصنعاءَ
أو موعداً للتوحدِ.
نحن هنا في المدينةِ
لسنا المدينةَ. . .

من قال: إِن الوصول يؤدِّي؟
ومن قال: إِن الطريق انتهاءُ الطريق؟
لكَ السورُ والبرجُ والساهرون بهِ
ولكَ الشاخصُ المستقيم.
لك الحلُّ والحُلّةُ.
الليلُ والويلُ.
لكنّ صنعاءَ لمّا تزلْ ـ كالجبال ـ البعيدةَ.
فلتغتبطْ!
ولتظل المدينةُ نائيةً في اختلاج الجفون...

صنعاء، ١٢/٦/١٩٨٨

إنه يحيى

راياتُ يحيى، ثوبُكَ المنخوبُ بالطلقات
يحيى في البراري
في قطرةِ الماء التي انسكبت على قدمينِ
وانسربتْ بأفئدةِ الصغارِ
راياتُ يحيى تعبرُ الأنهارَ والطرقَ التي اكتظّتْ
وتدخلُ في مَنازعِنا، مُضرّجةَ السِرارِ
من بيتِ إبراهيم
من عبد الرحيم
وماءِ رام اللّه تأتينا:
أغزّةُ هاشمٍ في البرقِ،
أم هذي كتائبنا مدججةً تلوح مع الدراري؟

●

راياتُ يحيى، ثوبُكَ المنخوبُ بالطلقاتِ
يحيى في المخيّمِ
يرفعُ الأرضَ التي احتقنتْ
ويدحوها، ويَبْرأُها، ويقذفُها بوجه النار
يحيى يُنبتُ الأحجار

يجعلُ من سواعدِنا مقاليعَ النبوّةِ
من أصابعنا دمَ الثوّار.

●

راياتُ يحيى، ثوبُكَ المنخوبُ بالطلقات
يحيى في الشوارعِ
درعُهُ كوفيّةٌ رقطاءُ
وثْبتُه بُراقٌ أزرَقُ
وسماؤهُ صفراءُ...
يا لفحَ الفتوّةِ،
أيها الجمرُ الذي لا يغتذي إِلا بهذا الجمرِ
يا ولدي:
سلاماً أيها المتقدمُ القدّوسُ
يا ملكاً يسير مخضّبَ الرايات
يا يحيى
سلاماً...
خذْ، كما تهوى، الشوارعَ
خذ بلادَ الله مملكةً
فلسطيناً
وخُذنا...

نيقوسيا، ٢٦/١/١٩٨٨

افتراض

لو أتانا مساءٌ جميلٌ
وقلنا: المساء جميلٌ
فهل يصدُق الهجسُ في ما نقول؟
لو أشارت إِلينا حقولٌ
لنركض عبر الحقول
فمن أين نأتي بأجنحةٍ للحقول؟
لو تراءى النخيل
على خضرةِ الماءِ، وامتدَّ سعفُ النخيل
إِلينا. . .
فهل من يدٍ تتناولُ سعفَ النخيل؟

نيقوسيا، ١٧/ ٣/ ١٩٨٨

قشعريرة

دثِّريني
فما أوجعَ الصخرَ هذا المساء. . .
دثِّريني
لأهذيَ:
إِن النجوم رماديةٌ
والسبيلَ إِليها ضياء.

نيقوسيا، ١٧/ ٣/ ١٩٨٨

فتى أو نص

بعيداً عن الحافلاتِ الكبيرةِ
أسكنتُه
ثم قلتُ له:
فلنسافرْ بعيداً. . .

١٩٨٨/٣/٢٣

دندنة

ربما، قد تكون الشجيراتُ تلكَ، انتهاءَ الشجرْ
ربما. . .
وبما أنّ ما ينتهي ينتهي
مثلَ ماءِ السفرْ
مثلما يمسحُ السجنُ ماءَ الصورْ
فلتقلْ للإِوزِّ المهاجرِ:
لم تُطلِ المكثَ
حتى أردتَ السفرْ.

بلغراد، ٨/ ١/ ١٩٨٩

الصقلبي

لا المتاعُ القليل
لا المتاعبُ
لا الجندبُ المتشبِّثُ بالسرو
لا غيضةُ السلسبيل ـ
فلمن أنتَ؟
لستَ عليها
ولستَ لها
أيها الصقلبيُّ المضلَّلُ
يا زانَ رمحي الظليل!

٨/ ١/ ١٩٨٩

غجر

دائماً، سنفيق على قهوةٍ
طعمُها غيرُ قهوة أمسِ.
وما أمس؟
همسُ خطى اليومِ
أم مطعمٌ حجريّ المصاطبِ
كنا عرفناه في لحظات التأهُّب؟
يا قهوةَ الفجرِ
أيُّ البلادِ، المذاقُ
وأيُّ الجهاتِ، الشميم؟

٨/ ١/ ١٩٨٩

في النهاية

بعد أن دخل النملُ مسكنَهُ
واختفى،
ظلّ عودٌ من القمح بالبابِ.
هل هو مفتاحُهُ
أم هو الغلقُ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
بعد قليلٍ، سيأتي المطر.

٨/ ١/ ١٩٨٩

الجوهر

بينما كانت الريحُ تدخلُ في دوحةِ الجوزِ
قلتُ لها: هل تبيتين فيها؟
قالت الريحُ: مَن كان مثلي نبيها
باتَ يسري...
ولكنَّني، لحظةً، أستريحُ.
قلتُ همساً: ومَن كان مثليَ، يا ريحُ؟
ردَّتْ: عدمتُ الشبيها.

٨/ ١/ ١٩٨٩

ذكرى المدينة

الجنودُ يغنّون
جاءوا، هنا، بقطار الضواحِي
وأقاموا معسكرَهم، في دقائقَ. . .
أما قطارُ الضواحي
فهو ينقلُنا منذ شهرٍ وشهرٍ وشهرٍ
بعيداً
وفي عَرباتِ الخرافِ
إِلى ما وراء الضواحي.

٨/ ١/ ١٩٨٩

الصيف

صلبةٌ، كالحصا في الشواطئ.
ناعمةٌ، كالحصا في الشواطئ
حين تلمّستُ خصركِ
كان الحصا يتجانسُ والرملَ،
يهبط والرملَ،
كان فضاءٌ يسيلْ.

٩/ ١/ ١٩٨٩

فكرة

العشيقةُ
حين تكون البعيدَ، تحنُّ إِليها
وحين تكونُ لديها
تملُّ. . .
ألهذا هو الكونُ: ضوءٌ وظلٌّ؟

٩/ ١/ ١٩٨٩

سهرة

كان ثلجٌ خفيف
كان ثلجٌ خفيفٌ يدور
كان ثلجٌ خفيفٌ يدورُ على عذَباتِ الصنوبرِ
في ساحةِ الحيّ
حتى تكاد الأغاني تدور،
ولكنني في نهايةِ عاميَ هذا
أدورُ وئيداً
وفي حجرتي
أنوءُ بأحجارِ بيتي وحيداً
بدونِ صنوبرةٍ
دونما شمعةٍ
دونما لمعةٍ أو حفيف.

٩/ ١/ ١٩٨٩

الشجيرة

قد توقّفَ هذا المطر
منذ أن طلعَ الفجرُ
لكن تلكَ الشجيرةَ
ـ ألمحُها من وراءِ الزجاجِ ـ
تظلُّ، كأغنيةِ النبعِ ـ تمطرُ. . .
من أين يأتي المطرْ؟

٩/ ١/ ١٩٨٩

ضباب مسائيّ على نهر سافا

الأشجارُ اللائي يتعرَّينَ قليلاً فقليلا
تحتَ مساءٍ مبتلٍّ
وسماءٍ غائبةٍ
لُذنَ بهذي الغيمةِ تصعدُ هادئةً
بين الشاطئِ والسفنِ النهريةِ،
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
والسفنُ النهريةُ تفقدُ في الغفلة أُلفَتَها
أحياناً تبدو مئذنةٌ
أو قمرةُ نوتيٍّ
أو مرساةٌ،
أحياناً تتراءى سعفات. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

بين الشاطئِ والسعفاتِ يقوم الماءُ
ويصعدُ
يصعدُ
حتى يبلغَ أهدابي
أدخلُ مملكتي
أدخلُ أسواري والأبراجَ الطينَ
وكوخَ العبدِ
وأعبرُ قنطرةَ المسجدِ. . .
أيةُ رائحةٍ!
هل فاح المصحفُ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ها هي ذي السفن النهريةُ تفقدُ في الغفلة أُلفتَها
أحياناً تبدو مئذنةٌ،
أحياناً تتراءى سعفات. . .

بلغراد، ٨/ ١١/ ١٩٨٨

حياة

لحظةً . . .
واكتملَ المشهدُ:
بالأمس، دخلتَ البيتَ، في ضاحيةٍ أخرى:
بلغراد الجديدهْ
فلتقلْ: لا بأسَ
هذي الغُرفاتُ الأربعُ
المدخلُ
والشرفةُ
والنهرُ الذي يأتيكَ من بينِ غصونِ الكستناءِ . . .
انتهتِ اللعبةُ؟
لكنكَ تأتي بأصيصِ الزهرِ
والتربةِ
والنبتةِ
والسُّقيا
إذن . . فلتبتدئْ دورتَكَ المُرّةَ
ولتنتظرِ الزهرةَ

ولتنتظرِ اليومَ الذي تتركُها فيهِ
إِلى ضاحيةٍ أخرى
إِلى بابٍ ـ كأبواب السماواتِ ـ حديد. . .

بلغراد، ٢٤/ ١٠/ ١٩٨٨

برج

هكذا،
بعد أن قاسمتْنا عواصمُنا سُمَّها
طردتْنا إِلى غيمةٍ.
نحن لم نبتئسْ حينَ عُدنا طريدينَ. . .
لكننا لم نَعُدْ، كالبروق، خفافاً
لنسكنَ في غيمةٍ. . .
أيّما غيمةٍ عابرهْ.
في الصباح نجرُّ صناديقَنا في المرافئِ
أو عبرَ أحزمةِ النقلِ تحتَ المطاراتِ. . .
ـ من أين جئتَ؟
● !
ـ إِلى أين تذهبُ؟
● !
كيف حملتَ صناديقَكَ المثقلاتِ؟
● !
ـ أتعرفُ أن المحطةَ قد غُيِّرتْ

والقطارَ مضى منذ عشرينَ عاماً؟

● !

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ولكنَّني سأجرُّ الصناديق

أحملُها، في المساء، إِلى غرفةٍ

ثم أُدخلُ برجي على غرفةٍ

أيّما غرفةٍ

أيّما غيمةٍ عابرهْ.

بلغراد، ٢/ ١٠/ ١٩٨٨

ظهيرة ماطرة في تشرين

لا صيادينَ الآنَ
الأسماكُ محصَّنةٌ بطبيعتها
والشارعُ يقفرُ،
الشارعُ أقفرَ
إِلا من خطواتِ مظلتيَ المسكوبةِ تحت المطرِ،
العشبُ قريبٌ
والأشجارُ مُواتيةٌ
والسفنُ النهريةُ (حتى يكتمل المشهدُ) غائمةٌ
والشارعُ (قلتُ لكم) أقفرَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
فلتقفرْ كلُّ شوارعِ هذا الحيّ
لتقفرْ كلُّ شوارعِنا المطروقةِ
وليقفرْ مصباحُ المطعمِ
واللجنةِ

والمكتبِ
والمرأبِ
ولتقفرْ جمهورياتُ الموزِ
وجمهورياتِ اللوزِ
وجمهورياتِ الرزِّ
ولكني، سأتابعُ، وحدي، خطواتي
تحتَ المطرِ الآتي
وأظلُّ أسيرُ
أسيرُ
أسيرُ
إِلى البلدِ الآتي.

بلغراد، ٢١/ ١٠/ ١٩٨٨

أمطار الصباح

ظَلَّ هذا الشجرْ
يتشرّبُ أمطارَ تشرينَ
منذُ الصباحِ الذي جاءَ يستعجلُ النوءَ
هذا الصباحَ،
اليمامةُ غائبةُ الصوتِ. . .
ـ هل غادرتْ؟
والمساكبُ تنسى خطى قططِ الليلِ
كان المطرْ
يتسرَّب بين حبالِ الغسيلْ
يتشرَّبُ صبري القليلْ
ويمضي معي، غائراً في لحاءِ الشجرْ

بلغراد، ٢/ ١٠/ ١٩٨٨

رسائل

سوفَ أبعثُ للوردِ (يحمرُّ في الشرفات البعيدةِ)
كلَّ الرسائلِ.
هل تسألين لماذا؟
ألا تبصرينَ الرمالَ بآنيةِ الزهرِ عندي؟
ألا تبصرينَ السلالَ الهشيمةَ في شرفتي؟
أنتِ أسررتِني:
لم يَعُدْ في التراب بذورْ...
إِذن،
سوف أبعثُ للوردِ في الشرفاتِ البعيدةِ،
كلَّ الرسائلِ
كلَّ المياهِ التي جمعتْها يدان.

٢/ ١٠/ ١٩٨٨

رواية ثريا أنطونيوس

للروايةِ أن تنحني
كي تقصَّ لنا قصةَ البيتِ.
للبيتِ أن ينحني
كي تقصَّ (بحدَّي مقّصٍ له نسَبُ الأرمنِ)
الثوبَ.
للثوبِ أن ينحني
كي تمرَّ الأميرهْ
من عَنَبْتا الفقيرهْ
أو بساتينِ يافا
أو القدسِ، حيث القناديلُ والسجنُ
حيثُ الحكايةُ
حيث تضيعُ (ولسنا لها آسفينَ) الروايهْ!

٢/ ١٠/ ١٩٨٨

مجاز وسبعة أبواب

غصنانِ وانكسَرا. . .
لأوقدْ شمعتينِ، إِذن، وأدخلْ
أيَّ بابٍ منكِ أطرقُ
أو أقيمُ وليمتي، غَسَقاً، على عتباتِه؟
الأسوارُ شاخصةٌ
وثمَّ كتابةٌ
وكتابُ أسرارٍ من الفخّار،
دولابٌ يدور بمائهِ
واللونُ صحراءُ
(الكتابةُ صالحتْني والكتابةَ. . .)
كيف أدخلُ
أيَّ بابٍ منكِ أطرقُ
أو أقيمُ وليمتي؟
غسقٌ على الأسوارِ
والبرجُ الوحيدُ أسيرُ ليلِ الجندِ
والطرقاتُ خافيةٌ
يكاد الجبسُ وهويموِّهُ الجدرانَ يُمسي النورَ

في عتماتِ هذا التيهِ
يمسي وحدَه النورَ المخالفَ. . .
أين مصباحُ النحاسِ يدورُ فيه النورُ
أخضرَ
ثم أزرقَ
ثم كوناً كالنحاس؟
ألم تكن مُرّاكشُ الحمراءُ في هذا المكانِ؟
ألم تكن في بابها، هذا، الأرائكُ؟
والأراكُ؟
هل اختفتْ عَذَباتهُ في الرملِ؟
في الذهبِ المسافرِ
في الرواحلُ والرواحِ؟
وأين مكتبتي؟
لقد فارقتُها قرنينِ، حقاً
غير أني ما أزال أرى الرفوف مُنَضَّداتٍ
مُذْهباتٍ
جلدُها الغزلانُ، والخطُّ الذي لا يشبهُ الخطّاط
. . . . . .
. . . . . .
فلأجلسْ قليلاً عند مَحْنَى السورِ
ولأتذكّر الطرقاتِ. . .
من يدري؟

لعلّي أنتهي وحدي
ومن يدري
لعلّي أعرفُ البابَ التي كانت تؤدي:
إِنها مُرّاكشُ الحمراء.

ـ ١ ـ

للثلجِ أو للرملِ
قُلْ:
للثلجِ أو للشمسِ...
ثم تجيء غرناطهْ!
.....
.....
لكنّ نخلاً بالضواحي، ينقلُ الخطواتِ أبعدَ
نحو أرض اللّه
نحو تميمةٍ معقودةٍ بالروحِ
كيف أقامَ هذا النخلُ عندكِ
كيف قامَ
وأيُّ تمراتٍ على كِسَرِ الشعيرِ توهّجتْ
مثلَ العقيقِ يمانياً في لحظةِ الإِفطارِ...
تأتي النسمةُ الأولى من السعفاتِ
والأخرى تأرَّجُ بالصنوبرِ
أيّها النخيلُ المهاجرُ

أيّها الجبلُ البعيدُ
الماءُ يثلجُ راحتيَّ مُمَسَّكاً بالزعترِ البريّ
بالنعناعِ
بالعودِ. . . .
السفينةُ أقلعتْ
ونأتْ بلنسيةُ العجيبةُ. . .
سوف نرجعُ للسهوبِ
وسوف نسري، مثلما كنّا، على طرقِ البريدِ
وسوف تستبقُ القوافلُ مثلَ مسبحةٍ
نخوّضُ في الرمالِ
وفي عظامِ جِمالنا
ستكونُ إِفريقيّةُ المنأى
أو المنفى
تكون على أناملِ من نُحبُّ: الليلَ
والحنّاءَ
والذهبا
تكون الموتَ واللعِبا.
. . . . . .
. . . . . .
وها أنذا، الغريبُ، أطوفُ بالأسوارِ
لا النخلُ الذي يذوي يُسامرني

ولا أرَجُ الصنوبرِ في الثّنِيةِ. . .
ربما ذهبَ الذين أحبُّهم
وبقيتُ. . .
ليستُ السيفَ كي أحيا على ماءِ الفِرَندِ،
أريدُ أن ألقى الذين أحبُّهم
يا أيّها البرجُ الوحيد.

ـ ٢ ـ

البيتُ تثلمه الجداول من ثلاث جهاتهِ
والماءُ يهدأُ
تحت قنطرةٍ من الأعشابِ والقصبِ الخفيفِ
الماءُ يأتي من بعيدٍ
ثمّتَ القُنزُ التي ليست تُرى
لكنها بيضاءُ
قالوا: بعدَها الصحراءُ
قالوا: بعدها إِفريقيا السوداءُ
تمبكتو، ومملكةُ الممالكِ
والرجالُ ملثمينَ
. . . . . .
. . . . . .
البيتُ تثلمه الجداولُ
كنت أغمسُ كفّيَ اليسرى ببردِ الماء منتظراً

فترجفُ كفيَ اليمنى
وكنتُ أسرِّحُ الأعشابَ بالقصبِ الخفيفِ
لعلّ أفراسَ النبيِّ، كريمةً، تعدو
لعلّ جرادةُ مخضرةً تبدو
ولعل كنزَ الجنّ بين أصابعي الوعدُ
. . . . . .
. . . . . .
هيهات ذاك البيت!
كنّا في الشتاء نلوذُ من ريحِ الجبالِ
بشمسِ باحتهِ الصغيرةِ
بالبرانسِ
بالأغاني والصلاةِ
وأُمِّنا،
هيهات ذاك البيت.
. . . . . .
. . . . . .
هل كان خطويَ في سنين الرحلةِ العشرينِ
أبعدَ من معادلةِ المدى؟
هل كان أبعدَ من تخومٍ لم أضَعْها؟
كان أبعدَ من حدودِ العين؟
إن كانت جهاتُ البيتِ، في مرّاكشَ، التاثتْ
فهل معنىً لهذا البيت؟

وإِن كان الطريقُ إِليه ملتبساً، عليَّ أنا
فما جدوى طريق البيت؟

●

يا من بأعلى البرجِ!
يا جندَ المدينةِ!
يا سكارى ساحة الإِعدامِ!
يا سورَ المخازنْ!

ـ ٣ ـ

ـ سأكون خزّافاً. . .
فقال أبي: ستتركنا، إِذنْ.
وأقول: كيفَ؟
يقولُ: من يخلقْ من الصلصالِ أشكالَ الطيورِ يطرْ.
ولكني التففتُ ببرنسي
ومضيتُ نحو السوقِ. . .
دكّانُ ابنِ حفصونٍ يواجهني،
اقتربتُ، متمتماً، أتأمّلُ الفخّارَ
ساءلني ابنُ حفصونٍ:
أجئتَ لتشتري؟
خذ جرّةً
خذ ذلك الإِبريقَ

هذا القِدرَ
خذْ طيراً. . .
وحين تشبُّ تأتيني بأوّلِ درهمٍ من رزقِكَ المكتوبِ
يا ولدي.
أخذتُ الطيرَ
ثم جلستُ، مرتبكاً، أقلِّبهُ. . .
ووشوشَني، ابنُ حفصونٍ:
كأنكَ، يا بُنيّ، تريدُ أجنحةً
تعالَ. . .
وشدّني لَهْفانَ:
سوف تكونُ خزّافاً،
وسوف أنالُ أوّلَ درهمٍ من رزقِكَ المكتوبِ
يا ولدي.
. . . . . .
. . . . . .
وها أنذا أعودُ
أجرُّ خلفي كل ما جرَّتْه لي أعواميَ العشرون
عبرَ ممالكِ الدنيا
أعودُ:
خلقتُ آلافَ الطيورِ
برأتُ آلافَ الأباريقِ الرهيفةِ كالنسائمِ
في بلنسيةَ اكتشفتُ معادنَ الألوانِ

في بغدادَ علّمتُ الصغارَ تدرُّجَ النيرانِ
كنتُ أريدُ أجنحةً
وطرتُ. . .
كأنّ اسمي الطائرُ الجوّابُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
واليومَ، انتهيتُ هنا، إِلى هذا المساء الصعبِ:
أدخلُ
أم أغادرُ مرةً أخرى؟
ولكنّ ابنَ حفصونٍ يطالبني
بأولِ درهمٍ من رزقي المكتوب. . .

ـ ٤ ـ

عمّن سأسألُ إِن دخلتُ؟
وأيةُ امرأةٍ ستهجسُ خطوتي الليليةَ؟
الغسقُ العميمُ
ووحشةُ الطرقاتِ
والعسسُ الذين يراقبونَ النجمَ
من كُوّاتهم بالبرجِ. . .
فلأهدأْ قليلاً
ولأُرِحْ رأسي على حَجرٍ:

تعبتُ من الطوافِ
ومن دروب الليلِ،
عائشةُ
افتحي من قصرِكِ المهجورِ نافدةً
أطلِّي لحظةً
إِني وراءَ السور. . .
عائشةُ البهيّةُ
هل يغيض النور
يخبو، بغتةً، فيذوب في الديجور؟
عائشةُ البهيةُ
كنتُ أحسبُ موعدي وعداً
ولكنّ السنين تمرُّ
والعرباتِ تنأى
والقوافلَ
والنساءَ يلدن أو يولدنَ. . .
هل يجدُ المسافرُ غيرَ ما تهَبُ الوسادةُ
في خبيءِ الليلِ:
وجهَكِ وهو يصغرُ
وهو يكبرُ
وهو يهدأُ
وهو يدفأُ. . . في يديّ،
كأنني لم أنثرِ الشَّعرَ الذي جعَّدتُه قُبَلاً

على كتفيكِ عاريتينِ،
عائشةُ البهيّةُ
يا قرنفلةً
ومسكاً ضائعاً
يا طعمَ ريحاني
ويا ريعانَ أجفاني المغضّنةِ
افتحي من قصركِ المسحورِ نافذةً
أطلِّي لحظةً. . .
إِني وراءَ السور.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لا همسَ من مُرّاكشَ الحمراءِ
لا تلويحَ
لا لمعانَ نافذةٍ،
بطيئاً سوف يأتي الفجرُ، مغبرّاً
وأبطأَ منه سوف أكونُ في الطرقِ التي ملّتْ سُراي.

ـ ٥ ـ

الآنَ، والليلُ البطيءُ يئنُّ عندَ السورِ
أفتحُ راحتي اليمنى
وأستقري الخطوطَ بها:

أرى خطّين معتنقينِ من طرفٍ
ومنعتقينِ من طرفٍ،
وخطّاً ثالثاً يمضي ليمسكَ، مرهَفاً، سبّابتي.
أتشيرُ حيث يشيرُ؟
أم أني أسيرُ كما يسيرُ؟
لمحتهُ للمرةِ الأولى، ضُحىً، في معملِ الفخّارِ
كنتُ أديرُ إِبريقاً
وراقبتُ انطباعاً ناتئاً في قطعةِ الصلصالِ
قلتُ: جُرِحْتُ...
لكني لمحتُ براحتي الخطَّ العميقَ
يغورُ في سبّابتي...
أتشيرُ حيثُ يشيرُ؟
أم أني أسيرُ كما يسيرُ
إِلى اليسارِ؟
الليلُ كانَ يئنُّ عندَ السورِ
والأحجارُ غائمةٌ
ولم تزلِ البنادقُ في مَدارِ البرجْ...

●

في معملِ الفخّارِ
كان فتىً يسامرني طويلاً
حينَ نأوي في السماءِ إِلى مَهاجِعنا.

ويوماً قال لي ـ ما أجملَ الذكرى ـ:
لماذا نصنعُ الفخّارَ؟
قلتُ له: لنأكلَ...
قال لي: هل نأكلُ الفخّارَ؟
قلتُ: بدرهمٍ من رزقنا نبتاعُ خبزاً...
قال: هذا سعرُ إِبريقٍ.
أقولُ: نعمْ...
ويسألُ: كم نِصابُكَ، يا فتىً، في اليوم؟
قلتُ: أظنّه عشرينَ إِبريقاً أُتمِّمُها،
ويسألُ ضاحكاً: كم خبزةً تكفي ابنَ حفصونٍ؟
أتعرفُ؟
مِن هنا
من جهدِنا
من خبزِنا المسروقِ
تبدأُ دورةُ السرقاتِ
والشركاتِ...
تغدو دولةً
وتقيمُ أسواراً وأبراجاً
وجنداً يسهرون على أباريقِ ابنِ حفصونٍ
وسجناً في المدينهْ.

ـ ٦ ـ

في فجرِ يومٍ من جُمادى (ربما الأولى)
وكان البردُ يُقرس وجنتيّ
ولم أكنْ متوضِّئاً بعدُ،
اعترتني رجفةٌ في كفّيَ اليُمنى
وحينَ نظرتُ قالتْ لي الخطوطُ براحتي:
إيّاكَ أن تبقى هنا، في معملِ الفخّارِ...
أين ترى سأذهبُ؟
والفتى؟
إن الجميعَ هنا، نيامٌ في مهاجعهم، سواه...
أيكون غادَرَنا الفتى ليلاً؟
تأمّلتُ السماواتِ الرمادَ
(وكان ضوءُ الفجرِ يكشفُها قليلاً)
ثمّتَ الأشجارُ مثقلةٌ بما شهدتْ.
ومن مُرّاكشَ الحمراءِ
لم يفترَّ في الغبشِ الثقيلِ سوى نُخيلاتٍ مبعثرةٍ
بدتْ سعَفاتُها بِيضاً
(أكان الفجرُ أسودَ؟)
كان أسودَ
كان أسودَ
كان...

جاؤوني
وقد أخْفَتْ برانسُهُم خناجرَهم. . .
● تعالَ، تعالَ!
ـ أينَ؟
● تعالَ تعرفْ.
أوثَقوني
ثم ساروا بي على مهلٍ
كأنّ الفجرَ في مُرّاكشَ الحمراءِ نومُ الفجرِ:
أسواقُ مُغَلَّقةٌ
وساحاتٌ تُبعثرُ عِثْيَرَ الأسواقِ. . .
ساروا بي خفافاً
والبرانسُ مثل أغربةٍ تَلاطمُ في نسيم الفجرِ. . .
ـ أينَ؟
وبغتةً وقفوا
ودقَّ كبيرُهم باباً
عرفتُ الباب.

●

في السجنِ، كان فتايَ مغلولاً
وموثوقاً بجذعِ النخلةِ الوسطى،
وكان يئنُّ. . .
لم أعرفْ له وجهاً من الكدماتِ
قالوا لي: أتعرفهُ؟

صمتُّ للحظةٍ،
وبكيتُ. . .
ساروا بي خفافاً، مرةً أخرى
وفي زنزانةِ الحسراتِ ألقَوا بي
أنا والليل. . .
لم أدرِ كم أمضيتُ في نومي المهشّمِ. . .
عندما استيقظتُ كانت مقلتاي أليمتينِ
ثقيلتينِ
وكنتُ ممدَّداً، متورِّمَ الأطرافِ
مزرقّاً
وفي شفتيّ كانت فحمتان:
أريدُ ماءً. . .
غير أنّ الصوتَ يخفتُ مثلَ حشرجةٍ
وتُجهشُ فحمتانِ:
أريدُ ماءً. . .
فجأةً، تمتدُّ كفٌّ لي
وتمسحُ قطرةٌ شفتيَّ (في زنزانتي شخصٌ سواي)
عامينِ قد أمضيتُ في زنزانتي، ومعي الفتى
كنا إذا هجعَ الجنودُ ونامتِ الأقفالُ
نرحلُ نحو دنيا خارجَ الأسوار
كان يقولُ لي:
مرّاكشُ الحمراءُ تُبنى الآن، عاليةً وعاصمةً

فهل نحنُ الحجارةُ؟
نحن نبنيها، ولكن كي تكونَ عظامُنا جبساً على الجدرانِ
نبنيها، لتسكن نسوةُ التّجارِ والغلمانِ
أيُّ مدينةٍ هذي؟
لنرحلْ خارجَ الأسوارْ. . .
لنرحلْ قبل أن تمتدَّ أيديهم إِلينا
قبل أن تبني البنادقُ دولةَ التجّارْ.

ـ ٧ ـ

بعد أن درتُ في الأرضِ عشرينَ عاماً وعامينِ
لم تَدُر الأرضُ. . .
هذي المدائنُ أمشي إِليها
ولم تمشِ يوماً إِليّ،
وكلُّ النجومِ التي كنتُ خبّأتُها بين جلدي وبين القميصِ
اختفتْ في قصورِ الضَّبابِ. . .
ولم تسكن امرأةٌ راحتي مثلَ لؤلؤةٍ رطبةٍ. . .
لم أجدْ شجري في الحجرْ
لم أجدْ حَجري في الشجرْ
والبلادُ التي نازعتْني البلادَ
تُسلسلُ أيّامَها،
والليالي:
مسوّرةٌ

فظّةٌ

مثلَ مرّاكشَ النائيهْ.

هل قلتُ للفتيانِ ما أهذي بهِ:

إِنّ المدى وهمٌ

وإِن الخمرَ ماءْ؟

هل قلتُ للفتيانِ:

إِن على النساءْ

ألاّ يلدنَ سوى الأفاعي؟

هل قلتُ: قد كلّتْ ذراعي

ممّا كتبتُ على الحوائطِ...

أيُّ معنىً للصراعِ

إِن كنتُ مقتولاً؟

وما الراياتُ

إِن أُخِذَتْ قلاعي؟

●

اتّئدْ يا بُنيّ

اتّئدْ

حين تلقى طريقكَ أطولَ مما ظننتَ الطريقْ

واتّئدْ يا بُنيّ

عند أولِ منعطفٍ يتخطّاك فيه الرفيقْ

اتّئدْ يا بنيّ

ولتكنْ نخلةَ الدارِ

من ذاقَ تمراتِها لن يضيقْ
واتّقدْ يا بنيّ
إِن موعظةَ النجمِ:
من غابَ غُيِّبَ...
فَلْتتّقدْ يا بُنيّ!

●

لكأنني أحبو على كِسَرِ الزجاج...
أكلما أدركتُ نبعاً جفَّ نبعٌ قبلهُ؟
ما هذه الدنيا التي جئنا نحاولُها...
ظننّا الأرضَ تذكرُ مهرجانَ فتوّةٍ
لتكون أرضاً
حرَّةً
يتسامقُ التهليلُ من أشجارِها نحوَ النجومِ
ظننتُ أن الخطوةَ الأولى
تظلُّ ـ كما انتهتْ ـ بيضاءَ...
هل تقسو الحقيقةُ دونَ أن تقسو؟
وتلكَ البذرةُ السريّةُ السَّرّاءُ
هل تفنى
لتتركَنا نُساقي الوهمَ؟
.....
.....

أغمضْ، يا محمدُ، مقلتيك!

●

قلتُ إِنّا بعيدون عن غيضةِ الآسِ
قمصانُنا نَصُلَتْ في الهجيرِ
وشفّتْ برانسُنا
والرياحُ تُذَرِّي جدائلَنا
والشتاءُ الذي جاءَ جرَّحَ أنفاسنا. . .
هل نظلُّ بعيدينَ عن غيضةِ الآسِ
حتى نموتْ؟
قال: يا صاحبي
لا تسلْ عن زمانٍ يفوتْ
لا تسلْ
واحفرِ الآنَ في الأرضِ مثوى
لعلّ النعاسَ الشفيف
لعلّ النعاس
يُبَلِّغُنا غيضةَ الآس
يا صاحبي!

●

كان الفتى في السجن يرسم لي نواصي الخيلِ
يرسمُ، لاهثاً، أعرافَها:
هذي كتائبنا
ستطوي الأرضَ، موسيقى وألويةً

ستهدمُ كلَّ سجنٍ
وهي تصهلُ بالنشيدِ الفذّ طائرةً. . .
وتبلغ «حلمَ آبادٍ»
لترعى زهرةَ الإِكسيرِ. . .
قلتُ له: ونحنُ؟
يقول: نتركُها لترعى
ثم نأخذُ غيرَها
ونطيرُ، موسيقى وألويةً
لنبلغَ «حلمَ آبادٍ» جديدةْ
. . . . . .
هل سوى خفقةِ السرِّ تُفضي إِلى السرِّ؟
حاولتُ أن ألمسَ النُّسْغَ
في ما ترقرقَ من ورقِ العشبِ،
حاولتُ في تربةِ السورِ
أن أتقرّى هشاشةَ ما يرفعُ السورَ. . .
من أين أدخلُ مرّاكشَ الآنَ؟
من مطمأَنِّ الأساريرِ
أم من لُهاثِ السريرةِ؟
من لمسةِ الصخرِ
أم همسةِ السرِّ؟
وحدي أنا الطائفُ الفردُ
لي غُصّتي في السؤالِ

ولي بهجتي
ولتطلْ غربتي ما تطول.

●

ـ سأعود خزَّافاً. . .
ويلتفتُ الفتى، قلِقاً، إليّ:
● وكيفَ؟
هل ضاقتْ بك الدنيا
وضاعتْ من يديكَ صنائعٌ سبعٌ؟
أتعرف أن كلَّ الناسِ في مرّاكشَ الحمراءِ
ما عادوا يرونَ غضارةَ الفخّارِ؟
ـ كيفَ؟
● الأغنياء لهم صِحافُ المنزلِ الذهبيةُ القوراءُ
ـ والفقراءُ؟
● آنيةُ الصفيحِ. . .
ـ عجيبةٌ أيّامُنا
لكنني سأعودُ خزّافاً
أعودُ إلى احتكامِ الطينِ
والنيرانِ
والطيرِ الذي أسماؤه بيديّ،
كم ضيّعتُ! كم ضيّعتُ!
لكني أعود. . .

●

غَسقٌ على الأسوارِ
والبرجُ الوحيدُ أسيرُ ليلِ الجندِ
والطرقاتُ خافيةٌ
يكاد الجبسُ وهو يموِّهُ الجدرانَ يمسي النورَ
في عتماتِ هذا التيهِ
يمسي وحدَهُ النورَ المخالفَ ـ
هذه مرّاكشُ الحمراءُ
إِن غادرتُها عشرينَ عاماً
أو أقمتُ بها
تظلّ عجيبةً: مُرّاكشَ الحمراءَ
لا فقراؤها افتقروا
ولا تُجّارُها اتّجروا
تظلُّ مدينةً في الريحِ
درباً للقوافلِ والجيوشِ
وساحةً للسحرِ والأعشابِ والمترادِفاتِ وفندقاً للصامتين
ونفحةً من غامضِ الذكرى. . .
ولكني ابنُها
سأظلُّ أرسمُها على الفخّارِ
أُطلقُ منتهاها في طيورِ الطينِ
أُسميها: المدينهْ!

قصائد باريس
شجر إيثاكا

(١٩٩٢)

واقعية

وهذا الديكُ من ذهبٍ وشذْرٍ
يطيرُ
على البنايةِ
وهو يمضي إِلى برج الكنيسةِ،
أيُّ نجمٍ
أتى بالديك؟
أيُّ ندىً مصفّى
ترقرقَ في بهاء الريشِ؟
طلْقاً
يطير الديكُ
أبعد من سواري بنايتنا
وأبعدَ من نحاسٍ
على برجِ الكنيسةِ. .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أيُّ ديك!؟

باريس، ٢١/ ١١/ ١٩٩٠

غرفة سعد

أيُّ شيء بباريس يدخل غرفتَهُ:
شجرُ الصينِ
والمسكُ
لومونْدُ، والسهروردِيّ
والفتياتُ اللواتي يراجع في هاتف الصبح أثوابهنَّ
البساتينُ
والنحلة المستحيلةُ في الفيلم
رائحة السترة الجلدِ
فالنسيا. . .
. . . . . .
. . . . . .
أيُّ شيء بباريس يدخل غرفتَهُ:
الجبنةُ المنزليةُ
والليل منطوياً في عباءاتِه
والنبيذُ الذي جاء من شمس إِفريقيا
والنحاس الذي يتحلّبُ مستقطراً
والعسلْ. . .

. . . . . .

. . . . . .

أي شيء بباريس يدخل غرفتَهُ:
مرةً
تحت سقف القماش
مسحتْ قطّةٌ فروَها بالأغاني
وها هي ذي
بعد عامين
تلتذُّ، ناعمةً في الفراشِ.

● ● ●

وباريسُ غرفتهُ
هكذا كان يجلس في آخر الليلِ،
باريسُ غرفتهُ
وله أن يرتِّبها
أن يرتِّب أشياءها:
يحمل النهر في كفّهِ
ويرشّ بيوت الضواحي،
مثلاً. . .
أو يُغرّقُ بالخمر دُورَ السلاح.

● ● ●

أي شيء بباريس يدخل غرفتَه؟
أي شيء تسلل من أسفل البابِ؟

لا شيء. . .
لكن، لماذا رأى نفسه في العراءْ
فجأةً؟
ولماذا ادَّنتْ في يديه السماء؟
لماذا تراءى له الرملُ أزرقَ؟
والنخلُ أزرقَ:
كان الحصا يتلامع في الماء
والنهر يمضي بأسماكه نحوَ أفقٍ عجيبٍ. . .
وفي الأفق غرفته،
كيف سارت به؟
كيف سارت لتغدو تفاحةً؟
كيف صارت فضاء؟

● ● ●

أي شيء بباريس أشعلَ غرفتَهُ؟

باريس، ٨/ ١٠/ ١٩٨٩

بار الأنتيل

(١)

كيف لم أدخل البهو؟
قد كنتُ، منذ حللتُ المدينة هذي، أدورُ بهِ
وأمرُّ به، دون قصدٍ
كأنيَ في غفلتي لا أراه. . .
ولكن نمنمةً خلف عنقي تُهاجِسُني أنه قد يراني
أكان يرانيَ في رحلة اليومِ
ما بين أسواق بلفيلَ والمطعمِ المغربيّ؟
شهوراً أمرّ بهِ
لا أميل بوجهي إِليه، ولا أتجاهَلُهُ
كنت من طرف العين أشتافُه
ربما، كصديقٍ قديمٍ يداري ارتباكَ يديّ
فيصفح لو لم أصافحهُ. . .
كنا غريبينِ في طرقات المدينة،
كان لنا: أنا والبهوِ
أن نتعارفَ

أو نلتقي مثلما يفعل الغرباءُ ولو لحظةً،
غير أنّا ظللنا بعيدَين،
ألمح من طرف العينِ مصباحَهُ
أتباطأ. . .
ثم أواصل خطوي ما بين أسواقِ بلْفيلَ والمطعمِ المغربيّ. . .
السماءُ ادّنَتْ
والشوارعُ مسقوفة ببطاطينَ مبتلّةٍ
والسبيل إِلى البهو ملتبسٌ كالسبيل

(٢)

أنتِ لم تحتفي بدم الطيرِ
لم تكتبي، فوق صخرٍ، عروقَ النباتِ
ولم تشربي البرقَ. . .
بل لم تقولي لماذا انتهيتِ إلى خيمةٍ من ثياب البنات،
أما كان لي أن أراكِ
كما كنتِ
حافيةً بين أسواقَ بَلفيلَ والمطعمِ المغربيّ؟
أما كان لي أن أراكِ
مرفرفةً في غلائل فضفاضةٍ
ومسرعة في الشوارع؟
عبر أسطُح باريس كانت ديوكُ النحاس
مبرّأةً كالمداخنِ،

لكنك اخترت خيمةَ أمسِ: ثيابَ البناتِ
وريشَ المآذن. . .
من قال إِنيَ حصَّنتُ عينيّ عن قطرةِ الملحِ؟
من قالَ إِنيَ الذي لا يغيِّرُ مفتاحهُ بين يومٍ وآخرَ؟
سوف تدقُّ النواقيسُ
معلنة رُبْع ساعتها في الندى
وتدقُّ النواقيسُ
معلنةً أن باباً فتحناهُ بين الأغاني
تناءى ومرّ مرور الأغاني
تناءى ومرّ مرورا
تناءى ومرّ
تناءى. . .
ولم أدخل البهوَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
والآنَ، من بعدِ عامٍ، أرى مسرباً
وحبالاً منقّعة، ألمحُ الآن ضوءَ السفينةِ
يهبطُ في مسرب الماء منزلقاً. . .
ثمّت النخلةُ المستدقةُ تثمرُ بدراً يسيلُ
على سعفة. والهواء يسيلُ على الخدِّ.
يدْبَقُ صدرُ القميصِ. . .

أرى مَشرباً
وقلائدَ زنجيّةً
وطاولةَ تترنحُ بين دخان السجائرِ
. . . . . .
. . . . . .
لم أدخلِ البارَ
هل أدخل الأغنية؟

صفاقس، ٣/ ٥/ ١٩٩٠

نزل السان ميشيل

ما الذي تفعلُ يونانيةٌ في هذه الساعةِ،
في النُّزْلِ؟
تُداري طفلةً صاخبةً
أو تتركُ المفتاحَ منسياً على الكرسيّ
أو تلتفتُ اللحظةَ فاللحظةَ . . .
لا شيء هنا في مدخل النُّزْلِ:
الكراسي
فقدتْ ألوانَها
والكلبُ لا يعرف إِلا النومَ
والبَحّارُ
ما زال بعيداً في البحار . . .
ما الذي تفعلُ يونانيةٌ في هذه الساعةِ،
في النُّزْلِ؟
. . . . . .
. . . . . .
إِذا ما انتصف الليلُ

وأرخى آخرُ العشاق جفنَيه على عاشقةٍ أخرى ـ
مضت كي تغلقَ البابَ عن الشارعِ
والبردِ
وعادت لتغنّي
وحدَها . . .

باريس، ٣٠/ ١١/ ١٩٩٠

حقيقة

الآن، تعبرُ بي روحُ الخريفِ
على ريحٍ
وسبعِ وريقاتٍ
وقنطرةٍ.
كيف انتهيتُ إِليها، والمساءُ على باريس
يهبط مشدوداً بأذرعةٍ على النوافذِ؟
كيف استضرمتْ
ورمَت أثوابَها كي تراني؟
لا الطريق إِلى بوذا طريقي
ولا معنى حِراءَ معي. . .
خل كنتُ أرقبُ في المقهى
التفاتَتَها
ونصفَ دورةِ كرسيٍّ؟
هل انطلقت من ساحةٍ لم أجدها في الخرائطِ؟
هل جاءت بلا سبب من المحطةِ؟
لكني لمستُ يداً على قميصيَ في المقهى.
لمستُ يداً،

حتى ارتعشتُ
وحتى غامَ في بصري مرأى الزجاجِ. . .
شجيراتُ الهُلامِ
ونسوةٌ يرحلن في أثوابهنَّ
ولونُ مائدةٍ ترنّحَ واستقرّ مُرنّحاً،
لي المنظرُ السرّيُّ
لي ما تتركُ الشفتانِ
لي العظمُ الذي علكتهُ أنيابُ الكلابِ
ولي الخرافةُ:
أن ألامسَ ما تناءى
أنْ يكون اللصُّ جاري
أن تكون سجارتي عيداً.
وأن أرِثَ المياه طليقةً من ألفِ جسرٍ،
لي الأصابعُ
والمنابع في لهاثِ الجذرِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لي البيتُ العجيب. . .

● ● ●

والآن، تعبرُ بي روحُ الخريفِ. . .
هل الريحُ التي دخلت عندي

بسبعِ وريقاتٍ
وقنطرةٍ
هي الحقيقةُ؟
لو أنّ المساء مضى، غُفْلاً
كأيّ مساءٍ. . .
أهل أكلمُهُ في وحشة الطُّورِ؟
لو أنّ المساء أتى
محمّلاً بالهدايا
هل سأحفظُهُ في غفلتي؟
. . . . . .
. . . . . .
فلتهبّ الريحُ
ولتكن السبعُ الوريقاتُ في جيبي. . .
لأمْشِ على قناطري
ولتَطِشْ مني السهامُ. . .
فمن يدري؟
لعلَّ بها سهماً سيغرقُ في الماءِ الذي أجدُ. . .

باريس، ٥/ ١١/ ١٩٩٠

تفصيل

الغُريفةُ، ملأى مساميرَ
غادرَها الساكنون
وما خلّفوا ليَ إِلا المساميرَ
دقّوا مساميرهم في الخشبْ
أولجوها بقلب الحديد
وشقّوا السمنتَ بها حائطاً من حطبْ. . .
ثم لم يتركوا أثراً غير هذي المساميرِ
من أين جاؤوا بها؟
ما الذي فعلوه بها؟
عند رأسي مساميرُ
ملء فراشي مساميرُ
في الحوض، حيث أمرِّغُ بالماء وجهي، مساميرُ
حتى الهواءُ مساميرُ. . .
لا تعجبوا إِذ أقول لكم إِنني قد مددتُ يدي في جيوبيَ
أبحثُ عن درهمٍ
فوجدتُ المساميرَ
أمشطُ شعري فتسقط عنه المساميرُ

حتى الفتاةُ التي كنتُ أحببتُها أبعدتْها المساميرُ . . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

إِني امرؤٌ مثلكم :

أستريحُ إِلى غرفةٍ

وفتاةٍ

وأغنيةٍ

فلماذا تكون المساميرُ لي؟

باريس، ٢٢/ ١١/ ١٩٩٠

IDEAL HOTEL

لكِ أن تدخلي في ذراعيّ. . .
أُغلِقَ باب الممر إِلى الغرفة التاسعةْ
والتقى شجرٌ صائفٌ في التقاطعِ. . .
كان هواءٌ يغافلُ لون الستائرِ
والصمت،
أنتِ الحريرُ
وأنت الطريّةُ
قهوة هذا الصباح
وفضةُ هذا الصباح التي طوّقت ملمس العنقِ
تلك التي طوّحتْ بي
أنا والحرير
على شرفات السرير
نهاراً. . .
أحبكِ. . .

بلغراد، ٧/ ٩/ ١٩٨٩

منزلُ كافافي

٨ شارع لبسوس:
هل كانت اسكندريّتُكَ، البحرَ؟
أم أنها الاستدارةُ
حيث يضيق الزّقاق
وينتشر النورُ مثل حلازينَ مسلوقةٍ؟
ربما كانت اسكندريّتُكَ، البابَ
هذا
الذي لا أراه
ربما كانت التمتماتِ التي ارتبكتْ في الشفاه
ولم تنطلقْ. . .
ربما كانت المزهريةَ
أو شرفةَ القصرِ، حيث الإله
كان يخذل أنطونيو. . .
٨ شارع لبسوس:
من أين جاء أغارقةُ الليلِ؟
من أين جاء النبيذ؟
ومن أين هذا الغناء الذي يترنّحُ؟

هذا البوزوكي المهشّمُ؟
هذا الهواء الذي هو هيهات هيهات هيهات
هذا الهواء الذي هو في هوَّةِ الآه، آه؟
٨ شارع لبسوس:
أعتمت الشرفةُ. . .
الغرفةُ انسحبت عبر مرآة دولابها
والقميصُ يطير إِلى البحرِ
والبحر غاب. . .
. . . . . .
. . . . . .
فإِن كنت أنطونيو فانتظرْ
قد يناديك عبر هشيم المرايا إِله. . .

تونس، ١٢/٢/١٩٩٠

الزائرة

اللوحاتُ الخمسُ من السيدةِ المتوفّاةِ
أتيتُ بها
أربعُ لوحاتٍ من زاويةٍ متربةٍ في القبوِ
وخامسةٌ من باب العلِّيّةِ. . .
هذي اللوحاتُ الخمسُ
أتيتُ بها، أمس، مساءً
نظفتُ الأطر المطليّةَ بالذهب الكابي
وأزحتُ بماءٍ تربةَ كل السنوات
وعلّقتُ الجدران بها،
وجلستُ إِلى كأسي:
لم أتقرَّ اللوحات
وألم أقرأ ما يَخفى
لم أجرؤْ أن أتفرّسَ في التكوين طويلاً
أو أن أمضيَ في التلوينِ. . .
جلستُ إِلى كأسي
وإِلى اللوحات الخمسِ. . .
وقد علّقتُ بها الجدرانْ.

هل تعرف سيدةٌ راحلةٌ
أن اللوحاتِ الخمسَ لديّ الآنْ؟
هل تعرف سيدتي أني أعرفها، لكن لن أستقبلها إِلا الآنْ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في منتصف الليلِ
سمعتُ الخطوةَ. . .
مرهفةً
واضحةً
قادرةً
كحريرِ الجورب. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
تلك الليلةَ، خِفْتُ. . .

باريس، ٨/ ٥/ ١٩٩١

الشرفة

هذه الشرفةُ اللعينةُ في المبنى المُوازي
تكاد تسكن وجهي. . .
هذه الشرفةُ التي قابلتْني منذ شهرٍ
أحارُ فيها
وأدنو من تفاصيلها
ولكنني أرتدُّ عنها، مضنىً، حسيراً
لماذا؟
إِنها الشرفةُ الوحيدةُ في المبنى
التي لا أرى ستائر فيها تصطفيني،
كأنني لا أراها. . .
أيُّ سرٍّ في شرفةٍ تتعرّى هكذا؟
لا فتىً بها.
لا فتاة،
هكذا. . .
ربما تكون هي العيدان للعُشِّ،
أو تكون نقيضَ العشِّ

أو منزلَ المسافرِ
أو مأوى الندامى في آخر الليلِ
أو غار اللصوصِ،
ارتعشتُ
لا أدري . . .
ولكنها أطلّتْ
وظلّت منذ قابلتُها تُخدِّشُ يومي
ومنامي،
ولم يَعُدْ ليَ إلا شرفةٌ في العراءِ
بيتُ ظلامِ . . .

باريس، ٦/ ٥/ ١٩٩١

جسرُ سُلِي Pont Sully

تحت جسر سُلِي أعبرُ، الفجرَ
كلُّ المياه التي عبرتْ قبل فجري أنا، لم تعُدْ ليَ المياهْ
والحياةُ التي غبرتْ قبل يومي أنا، لن تكون الحياةْ

● ● ●

تحت جسر سُلِي، يَلْصفُ السّين
قد غادرتْهُ القواربُ من سُلّم السائحين
واكتفى هو بالورق المتساقطِ
بالشجراتِ القليلةِ
والسمكِ المتطامن في القاعِ
بالصيفِ ذكرى
وبالفتياتِ اللواتي تشبّهْنَ بالصيف مرتحلاً
وتشبّثنَ بالصيف:
يلبسنَ أثوابَهُ
ويُدانينَ أعتابَهُ بالحنينْ

● ● ●

سُلّمي مائةٌ أستريحُ بها في اللُّهاث
ومن بَعدُ لي أربعون ستُبلغُني غرفةً في السماء

سُلّمي درجاتُ الفضاء
والمنازلُ
لي قمرةٌ مثل روّادهِ
لي الأميرةُ
والقصرُ
والقُبلةُ ـ الجمرُ
لي سدرةُ الغافلينْ

●●●

تحت جسرِ سُلِي أعبرُ، الليلَ. . .
دجلةُ
دجلةُ
ما أطولَ الليلَ. . .
ما. . . . . .

باريس، ١٩/ ١١/ ١٩٩٠

الصباح

تخرجُ البنتُ التي تعملُ في المخزنِ
من غرفتها بالطابق الثاني
تضيء النور في السُّلّمِ
يبدو وجهها مرتبكاً، مرتجفاً، في النورِ. . .
هذه البنتُ تستأني قليلاً
قبل أن يستلم الشارعُ دنياها.
ستمضي البنتُ، كالصبح، إِلى المقهى
تضمُّ القهوةَ الأولى إِلى كنزتها. . .
والبردُ في الشارع
والمقهى الذي تألفهُ يدفأ. . .
كي تحلم أن تبقى هنا:
تجلسُ في الركن إِلى طاولةٍ،
تقرأُ،
أو تسمعُ موسيقى،
ومن يدري. . .
لعلَّ الحبَّ يأتي
فجأةً. . .

باريس، ١٨/١٢/١٩٩٠

الموعدُ

الثلجْ
يسقط حُرّاً وخفيفاً
ويذوب على أحجار الشارعِ
أسودَ. . .
لم تغتسلِ الأحجار بهِ
لم تغتسل المرآةُ بهِ
كان الثلجُ الأبيضُ
أسودَ. . .
لكنَّ المرأةَ في بهجة أمسيةِ الأحدِ
المرأةُ تُسرع في خطواتها
المرأةُ تلتفُّ بمعطفها أكثرَ
ترفعُ خصلةَ شعرٍ عن عينيها
وتسيرُ إِلى موعدها
أسرعَ
تحت الثلجْ.

باريس، ٩/١٢/١٩٩٠

سقوف باريس

سقوف باريس التي تنبتُ فخّاراً على الرصاص والقرميد
سقوف باريس التي تميد
في دورة الليل،
وفي الفجر تغني الشاطئَ البعيد. . .
سقوف باريس التي تهبط من مداخنٍ بلا دخانٍ
والتي تبحث عن أماكنٍ خارج ما يحتمل المكان
سقوف باريس
النبيذُ المصطفى
والطحلبُ
النحلةُ
والقطةُ. . .
والأجراسُ تهديني جناحاً
. . . . . .
. . . . . .
كيف للطائر أن يطير؟

باريس، ١٩/ ١٠/ ١٩٨٩

مهزلة

لستُ نيرودا
لكي أعلنَ أني قادرٌ أن أكتب الليلة هذي
أكثرَ الأشعار حزنا.
مثلاً:
إِني وحيدٌ
(ربما خيّبتُ ما كنتم تريدون)
إِذنْ
فلأقُل:
الليلُ طويلٌ
(هكذا خيبتُكم ثانيةً)
فلأقُل:
البنتُ التي أحببتُها قد سافرتْ أمسِ
(وهذي خيبةٌ ثالثةٌ)
هل قلتُ: إِني رجلٌ أخطو إِلى الستين لكني بلا بيتٍ؟
وهل قلتُ: بلادي لم تعُدْ لي؟
أم تراني قلتُ: إِن الموت في الغربة داري؟

حسناً

لا تضحكوا مني

أما قلتُ بأني لستُ نيرودا

لكي أعلنَ أني قادرٌ أن أكتب الليلة هذي

أكثرَ الأشعار حزناً؟

باريس، ١٢/ ١١/ ١٩٩٠

كآبة

دع لهذه النبتة الخضراء أن تهدأَ
في زاوية الغرفة. . .
أن تحيا، كما شاءت،
فماذا ترتجي منكَ؟
صباحٌ يلصق، اللحظةَ، ألواحَ زجاجٍ معتمٍ
نافذةٌ تنزع عنها جِلدَها.
السقفُ الذي تلمحه في البُعد أضغاثُ رصاصٍ،
ساعةُ البرج التي أعلنتِ الربعَ
انطوتْ في الماء. . .
هل كان على عينيك أن تنتظرا كل الذي يأتي؟
وهل كان على عينيك ألاّ تغمضا؟
لا، لا تقلْ شيئاً
ودع للغيم أن يهبط في كفّكَ
دع للغيم أن يأوي
كما يأوي النعاس. . .

باريس، ٢/ ١١/ ١٩٨٩

الإبرة

هذه الضجةُ من أين؟
لقد غلّقتُ أبوابي
ولم أفتح على المفترقِ، الشبّاكَ
والمذياع في زاوية الغرفة ملقى
مثل ما خلّفتُه في الليلة الأولى. . .
ولا قطرةَ في المغسلِ
لا نأمةَ تأتي أسفلَ البابِ
ولا رفّةَ في آنية الزهرِ
ولا قطةَ تدعوني إِلى مخلبها،
والصبحُ لم يأتِ. . .
إِذن:
من أين هذي الضجةُ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الليلُ الذي وسّدني الصخرَ، بطيءٌ

مرهفٌ

يدخل أذنيّ على إبرةِ خيّاطٍ . . .

كفى!

باريس، ١٧/ ١٠/ ١٩٨٩

صباح الجزيرة

أملكُ من باريس هذا المستطيلَ:
(المتر × النصف من المترِ)
أهذا المستطيلُ ـ العجبُ، الدنيا؟
أرى في جامهِ النهرَ
وفي أنجمهِ الظهرَ
وفي مرآته وجهي الذي غامت به الدنيا. . .
أهذا المستطيلُ ـ العجبُ، النافذةُ؟
استيقظتُ:
كان الفجر محمولاً على الغيمِ
وكان الجسرُ مبلولاً
وثَمَّ امرأةٌ واحدةٌ تعبرُ. . .
كان الفجرُ ملتفاً بجسم المعطفِ،
استيقظتُ
لكني تركتُ الفجرَ
والجسرَ
وتلك المرأة العابرةَ،
استيقظتُ كي أفهم هذا المستطيلْ. . .

● ● ●

وليكنْ!
أملكُ من باريسَ
هذا المترَ × النصفِ،
فهل أملكُ غيرَ المستحيل؟

باريس، ١٧/ ١٠/ ١٩٨٩

البَرْدُ

في هذه الغرفةِ
حيث السماءْ
هابطةٌ، منذرةٌ بالمطرْ
في هذه الغرفةِ
حيث البياضْ
يرشني من سقفها المنحدرْ
أحسُّ أحياناً ببردِ القبورْ
بمفصلٍ أنَّ
ونَصْلٍ يغورْ

باريس، ٢٢/ ١١/ ١٩٩٠

إدراك

للمرة السابعة، اخترتُ شميمَ البحرِ.
إِني أجهلُ التقويمْ،
لا أقرأُ...
أو أنيَ لا أفهمُ ما أقرأُ...
مَن يدري، لَعلّي لستُ أدري أن في الجملة معنىً واحداً...
رُبّما لم أجد المعنى،
ومن يدري...
لعلّ الشرفةَ الخضراء في المنزلِ لا تُشْرِفُ
أو أن ينابيع الدجى لمّا تعُدْ تنبعُ
أو أن التي أحببت لم تغتسلِ الليلةَ بالسّدرِ...
ولكنيَ، بين الفجر والصبح، سمعتُ الرجفة الأولى
سمعتُ الماء في الأحجار يغدر موجةً،
والرملَ ينهالُ مع الماءِ
سمعتُ النملَ إذ يدخل في مسكنهِ
والنحلَ إِذ يبْرأُ بين السيسبان النحلَ...

ذاك السرَّ بين الأرض والريحِ،
وقد أدركتُ ما يعنيه ذاك السرُّ. . .
هل أدركتُ ما يعني شميمُ البحرْ؟

باريس، ٢٨/ ١٢/ ١٩٨٩

خاطرة

هذه الغابةُ ليستْ لي
أهذا السُّرخسُ الناشبُ في الأشجارِ
لي؟
والورقُ الناشفُ في الشمس الربيعيةِ
هل جئتُ بهِ
كي أفرشَ الأرضَ؟
السماءُ اتصلتْ دون سماواتي،
وذاك البيتُ
في منعطف الدرب الموازي
ليس لي...
.....
.....
.....
أجلسُ في الغابةِ
لي الجذعُ لم يبق منه غير ما ينتأُ
لي العشبُ الذي يسكن هذا الجذعَ
لي شمس الغروب...

فونتنبلو ١٣/ ٤/ ١٩٩١

في الضاحية

يوم الأحد، السابع من نيسانَ
وفي ضاحية أخرى
ببلاد أخرى:
تبدو، في البُعد، غيومُ ربيعٍ سودْ
وعمائرُ تنحلُّ أعاليها في الغيمِ
وأشجارٌ لا تعرفها
ودخانٌ أبيضُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
ما معنى أن تلمس، منذ الآن العنقودْ
والصيفُ بعيدٌ،
والمرأةُ لم تأتِ
وعبر زجاج الشبّاك غيومُ ربيعٍ سودْ؟

باريس، ٧/ ٤/ ١٩٩١

قوس قُزَح

بين باريس، وبوبيني، أتى قوس قُزَحْ
كان في الصيف الذي يُسمى هنا، الصيفَ
وقد كان اسمهُ قوسَ قزح.
قلتُ إِذ أبصرتهُ يدخل في الغرفة من شبّاكها:
ماذا ترى
لو أننا دُرنا، معاً، في الحيِّ، يا قوس قزحْ؟

● ● ●

ومشينا
كان بعد الظهر، في يوم أحدْ...
لستُ أدري:
لم نجد في الحيِّ طفلاً واحداً
أو امرأةْ
لم نجد حتى الكلاب.
وحدَها، الأشجارُ كانت ترتدي قوسَ قزح
وتُدَنّي الغصنَ
والجذعَ
وتُهديه المرحْ...

● ● ●

حسناً، يا سيدي
ها نحن، قد جئنا
ودُرنا
وانتظرنا أن نرى
أو أن يرانا الناس. . .
لا بأس
ولكن
كان بعد الظهر، في يوم أحدْ. . .

باريس، ١٧/٦/١٩٩١

مشرب جزائري

لا الأغاني
ولا الفتاةُ التي جاؤوا بها
من أطراف «وجدةَ»
تدري ما الأغاني،
ولا الذين أقاموا
فجأةً
خيمةً
هنا. . .
كلُّ شيء مدمدمٌ:
قرعةُ الكأسِ
الكراسي
والبابُ
والقطُّ
والأعصابُ. . .
لن تدخلَ الجزائرُ في الليل مدمّىً
ولن يطيب شرابُ. . .

باريس، ١٠/ ١٢/ ١٩٩٠

زاوية الجاز

لحظةً بعد منتصف الليلِ
في كل ليلةْ
يبدأُ الجازُ يُثملُ زاوايةَ الجازِ
مثل النبيذ الجديد
نبيذ القرى. . .

• • •

لحظةً بعد منتصف الليلِ
في كل ليلةْ
تهبط امرأةٌ سلّماً معتماً
كي تغنِّي البرازيل
أو شرفات القناديل
أو فتيات القرى. . .

• • •

لحظةً بعد منتصف الليلِ
في كل ليلةْ
يُفتحُ البابُ
تدخلُ بائعة الزّهرْ

تعبى
وتخرج تعبى متوّجةً بالأسى
وأريجِ القرى. . .

● ● ●

لحظةً، بعد أن تعلن الساعة الثالثةْ
أُطبقُ الهُدْبَ
زاويةُ الجاز نائمةٌ بين عينيّ
أسمعُ نبض يديكِ على ساعدي. . .
أطمئنُّ
وأهجِسُ، في الصمتِ، نبضَ القرى. . .

باريس، ٢١/ ١١/ ١٩٩٠

PAESTUM(*)

الذين أتوا بسفائنهم
كي يقيموا هنا، معبداً لإِله البحارْ
وآخرَ لامرأةِ الجلّنارْ. . .
الذين أتوا بمعابدهم
كي يقيموا، هنا، مدناً. . .
الذين أتوا بمدائنهم
كي يقيموا الصلاهْ. . .
كيف لم يعرفوا أن أرض المياهْ
تظلُّ مكللةً باعتياداتها:
الماءُ يعلو
ويُنبتُ، حتى مراقي الإله، القصبْ؟
كيف لم يعرفوا أن كلَّ النصَب
هو للّحظةِ الباقيةْ
هو للسرِّ، يَبْرقُ في كِسْرة الآنيةْ؟

باريس، ١/٦/١٩٩١

(*) معابد وأطلال إغريقية في جنوبي ساليرنو بإيطاليا.

أوائل صيف إيطالي

كيف تأتي الأغنيةْ؟
بدأتْ:
كان فتىً يركض عند البحرِ،
والبنتُ
تدلّتْ ذهباً مسترسلاً
حتى مضيق الخاصرةْ
ثم فاضتْ مرمراً يلهو
على ظهر الفتى. . .
كان الفتى يحملها كيساً من التفّاحِ
يا حمّالُ:
هل أحسست في صُلْبكَ ماء الأغنيةْ؟

سالرنو، ٢١/ ٥/ ١٩٩١

أوليفيا

كم أسمعُ موسيقى
كم أسمع موسيقى في الليل
كم أسمع في موسيقى الليل
خُطى أوليفيا
عند الباب
عند ممرِّ الغرفةِ
عند البحر المركون إِلى الحائطِ
عند المرآة. . .
وتدخلُ أوليفيا
تدخل في موسيقى الليل
تدخل في المرآة. . .
وأهمسُ:
أوليفيا!
أوليفيا!
أوليفيا!
أهمسُ، حتى يأخذني البحر

وأدخلَ في الموسيقى
أدخلَ في موسيقى الليلِ،
. . . . . .
. . . . . .
وتخرجُ أوليفيا. . .

باريس، ٢٥/ ٤/ ١٩٩١

مساء في أواخر نوفمبر

هذه الليلةَ،
فكّرتُ بأني ربما لم أُحسنِ القولَ
فما معنى الذي تمتمتُه في موقف الباص؟
وما معنى الذي لم أجدِ المعنى له حينَ تَلَفتُّ قليلاً عن زجاج الباص،
ما معنى يدي يخذلُها الإيماءُ؟
حقاً. . . إِنني لم أُحسنِ القولَ،
ولكنكِ، هذي الليلة ـ البُعْدَ، تعودين إِلى عاصمةِ البُعْدِ
إِلى حيث المصابيحُ التي تُطفأُ عصراً
والشبابيكُ التي لم تنفتح يوماً على الشارعِ
ما أقربَ هذا، كلّه مني:
أنا، في غرفتي، في الطابق السابعِ
قد هيأتُ خبزي
ونبيذي
وبقايا جبنةِ الأمسِ
وشبّاكي ـ كما تدرين ـ لا يدخله الضوءُ

ومصباحي صباحي. . .
ليلة أخرى، ولا أدفأُ،
والباصُ الذي ودّعتُه نحو المطار اختارَ أن يمضي بعينيكِ
بتلك اللفتةِ ـ اللحظةِ
بالقرطِ الذي داعبتُه فجراً
وبالخيطِ الذي أمسكُه حتى أرى يوميَ حراً. . .
أنت تدرينَ بما خلّفْتِهِ لي:
بَرْدَ أطرافي
وذكرى حانةٍ غائمة الأصواتِ
والضحكةَ في منتصفِ الليلِ. . .
فماذا أفعلُ الليلةَ؟
هل أمضي إِلى الموقفِ
حيثُ الباصُ يمضي، هادئاً، نحو المطار؟

باريس، ٢٦/ ١١/ ١٩٩٠

امرأة

لا أقول: اليدان طريقي إِليك
لا أقول: اليدان.
أنتِ جوهرةُ العنفوان
ترفعين سماءً إِذا ما تمددتِ
ـ ثمَّت كان البساطُ المخططُ للنسوة البدوياتِ ـ
إِني، إِذن، في الرخام الذي يتفتّحُ
أمضي
وألقي على فسحةٍ، بين غيمٍ وغيمٍ، عصاي
هكذا
سوف تندى يداي
منكِ
حتى أرى، في تهاويل حلمٍ، خُطاي...

● ● ●

يترك المسكُ أثوابه في زواياكِ
يقطُرُ في عَرَقِ الإِبطِ
أو غَرَقِ العُنْقِ
يقطرُ

يتركني أتقطَّرُ مستحلَباً من نحاس. . .
ولم تضقِ الأرضُ بي
حينما ضقتِ في رعشات الغِراس. . .

● ● ●

وها نحنُ:
أثوابُنا في الزوايا
وغاباتُنا في العيون. . .

باريس، ٢٨/ ١٠/ ١٩٨٩

اقتسام

لن أسمّي حديقةَ أمسِ
الحديقةْ
بل سأدخلُ عينيكِ مخضرّتين
من ممرِّ اليدين
وأقولُ: ابتدأتُ الخليقةْ

• • •

من يهلِّلُ في معبد الشمسِ؟
عشبٌ ربيعٌ
ودائرةٌ دونما حجرٍ في سكون المياه. . .
أأنتِ التي ارتبكتْ فجأةً
خوف نبضٍ يضيع؟

• • •

لي احتفاءُ الشوارعِ، أشربتُها بندى اللمسِ
لي خطواتي الغافلةْ
ولكِ البحرُ حين تعودينَ
والجسرُ
والإصبعُ الناحلةْ. . .

باريس ١٧/ ١٠/ ١٩٨٩

مُسافِرة

انتهتْ حمرةُ الغروبِ،
أهذا الضوءُ في الحائطِ الأخيرِ،
من النهرِ؟
ضياءٌ يشتدُّ في الوهَجِ الأقصى
وينهدُّ مثلما سرعةُ الماءِ
لماذا تمضينَ عني صباحَ الليلةِ ـ المجدِ؟
هل نقولُ: وداعاً
بين باصٍ وآخر؟
إِننا نمضي
كما رنّ هاتفٌ في الضواحي.
فلتقولي: أظلُّ»،
فالفستقُ الباقي من الليلةِ الأخيرةِ
لمّا يزلْ،
وهذا الخمرُ الذي قد تركنا فوق أثوابنا الحسيرةِ
لمّا يزلْ،
فماذا؟

ولماذا تأتي المسافةُ؟
لا
لا تتركيني
فالليلُ عندي يقيمُ. . .

باريس، ٢١/ ١١/ ١٩٩٠

الموجة

وردتينِ
أريدُهما فوق غصنهما
وردتينِ،
ترفّانِ لي طليةَ الليلِ
حتى أنامَ
هنيئاً
بذاك الحليب الذي طعمُه اللوز
والموجَةُ العائدةْ. . .
أتلمّسُ بالفم ـ خوفَ الأصابع ـ ما يتمادى شفيفاً
يذوب على شفتي
ثم يقطُرُ بي
مثل نار الينابيع:
لا أملأُ الكفَّ جمراً
ولا أكتفي باليد الباردةْ.
فاتركي وردتيكِ، ترفّان لي

طيلةَ الليلِ،
ولْيَطلُع الصبحُ . . .
هل تهدأُ الموجةُ العائدةْ؟

باريس، ٧/ ٤/ ١٩٩١

هدايا

أين أخطأتُ؟
قلتُ: قميصاً لنومكِ، هيأتُ، أصفر
قلتُ: لكِ القرطُ من ذهبٍ وزُمُرّدَ. . .
قلتُ: خطاكِ الرهيفاتُ في صندلِ الصينِ. . .
أخطأتُ؟
قد تهملين السؤال،
ولكنني سوف أهوى مراياكِ
عبرَ قميصٍ لنومكِ أصفرَ
سوف أرى القرطَ من ذهبٍ وزُمُرّدَ
والقدمين تخفّانِ في خطوة الصين
سوف أرى
وأقولُ:
بلغتِ
وبلّغتِني
في المساء الفُجاءةِ،
ماءَ الذّرى. . .

باريس، ١٠/ ٤/ ١٩٩١

السيارة

سيّارةُ آنّي مونتيني
بجوادين تسير، إِلى ٣ شارع هنري الرابعْ
لكنْ
سيّارةُ آنِّي مونتيني
بجناحينِ
تطيرُ
إِلى غرفتها في الدور السابعْ . .
سيّارةُ آنِّي مونتيني
تحمل خبزاً ونبيذاً
وتطيرُ
إِلى غرفتها في الدور السابعْ .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أحياناً تحلمُ سيّارةُ آنِّي مونتيني
مثل جوادٍ متعَبْ

بالنوم طويلاً
وبعيداً
عن شارع هنري الرابعْ

باريس، ٢٤/ ١١/ ١٩٩٠

أعشاب

يقطع أعشاب حديقته
يوماً في الشهرِ:
أينتظر العشبَ يتابع دورتَهُ
يكبر أو يزهرُ ـ
أم يقطعه حين تكون الأعناق مواتيةً؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
يوماً في الشهر سيحمل آلَتَهُ
ويدحرجها عبر ممرّات الدار
محتمياً بالفجر عن الناس وأطفال الجار
وسيقطع أعشاب حديقتهِ
ويعود إِلى شاي النعناع ومائدة الإفطار
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

هذا الرجل اللاهث خلف زهور الأعشاب
هل فكّرَ في أي رؤوسٍ قُطعت
في يومٍ واحد
في زنزانته الممتدة بين الصخر ورمل البحر؟

بغداد، ١٩٨٧

مصير

في الصّالة
هذا الفَرعُ المقطوعُ عن الغصنِ
الفرعُ المنقوعُ بكأس الماءِ
مع الأوراق الخمسِ. . .
الصامتُ في غير هواء الشجرةْ
والثابتُ
والنابتُ
والباهتُ. . .
هذا الفرعُ، إِلى كم سيدومْ
منقوعاً في كأس الماءْ
مقطوعاً عن سرّ الشجرةْ
مرتعشاً كلَّ مساءْ
مختلفاً عن كل أثاث الصالةْ؟

باريس، ١٤/٦/١٩٩١

تنويع

ذهبٌ وحنّاءٌ
وحنّاءٌ على ذهبٍ
وقيلَ: الخيلُ غرّبتِ النواصي نحو أرض الشام
غرّبتِ النواحي نحو أرض الشام
قرّبتِ النواحي نحو أرض الشامِ
حنّاءٌ على ذهبٍ
ولي
ذهبٌ وحنّاءٌ
ولي
ثوبُ الأميرةِ إِذ يشِفُّ
الخيلُ غرّبتِ النواصي نحو أرض الشامِ
حنّاءٌ على ذهبٍ
وماءٌ في الترائبِ. . .
يا تراب الشامِ
يا أنفاسَ خُطوتِها التي ضيّعتُ. . .
كم ضيّعتُ!
كم ضيّعتُ!

لكنّ النواصي غرَّبتْ
والخيل تنتهب الليالي نحو أرض الشامِ
حنّاءٌ على ذهبٍ
وحنّاءٌ على ذهبٍ
ولي
أمرُ الأميرةِ في دمشق الشامْ!

باريس، ٩/٦/١٩٩١

اختطاف

لم تكن تلك بلاداً:
كان فيها كلُّ ما يجعلنا صورتَها
نحن، أبناء التراب المستحيلْ. . .
لم تكن تلك بلاداً:
كان فيها كلُّ ما يطمسُ أوراقَ السبيلْ. . .
كيف جاءت مرةً أخرى
وشقّتْ دمَنا كالبرقِ؟
قد كنا نسيناها
وقُلنا لن نرى بُرديّها، حتى ولو في الحلمِ
قد كنا نسيناها
كما ينسى الجنودُ القُبَلَ الأولى
كما ينسى السريرُ الرملَ،
كالموجة تنسى طحلبَ القاعِ. . .
نسيناها
وقلنا لن نراها مرة أخرى،
فمن أدخلَها من فُرجة الشبّاكِ؟

من أدخلَها من أسفلِ البابِ؟
ومن جاء بها في غفلةٍ منّا
لكي تخطفنا
في كفِّها تدمى
وتلقينا على القمة
لحماً للنسور؟

باريس، ٥/ ٥/ ١٩٩١

حالُ الدنيا

عندما تصبح الكلاب
بشراً
يصبح البشر
كالكلاب. . .

باريس، ٨/ ٥/ ١٩٩١

1989

فلاديمير إِليتش
أي مساءٍ هذا؟
أية راياتٍ ترتفع الليلةَ في الساحة؟
أي قياصرةٍ يأتون بأثواب الإِغريق؟
وأي نساءٍ سيُفقن
صباحاً في أجراس كنائس مهجورة؟
فلاديمير إِليتش
هل كنتَ وأنت ترتِّبُ أوراق المنفى
تُبعِدُ للأعوام الخمسة والستين
مُدْيةَ منفانا؟
هل كنت وأنت تنظّمُ سوفييتَ الله
ترسُمُ للأعوام الخمسة والستين
طاحوناً
وسِناناً
وحصاناً؟

تونس، ٢٤/٧/١٩٩٠

(*) ١٩٨٩، مرور خمسة وستين عاماً على رحيل فلاديمير إِليتش لينين.

الانفجار

وَليكنْ
نغرقُ في الموتِ الذي لمّا نزل فيه
كأنَّ الموتَ ماءُ النُّطفةِ الأولى. . .
سلاماً أيها الموتُ العراقيُّ
لقد علَّمتنا أن نحفرَ السورَ بأيدينا
كما كنّا فعلنا. . .
ولنكنْ بابلَ
والزقّورةَ العظمى
وعشتارَ التي تهبطُ
والثورَ السماويَّ. . .
سلاماً أيها الماء العراقيُّ
سلاماً يا دمَ العصفور في أربيلَ
والبصرةِ
والنجمِ الذي نحفره في الصخر حيثُ الثلجُ. . .
يا أمي التي قامت
سلاماً لكِ

للقامات تعلو

للقيامات نراها وحدنا

وسلاماً أيها البيتُ الذي ضاق بنا

حتى انفجرْ. . .

باريس، ٥/ ٤/ ١٩٩١

سلاح كيمياوي

كان أكرادُ آذار في هدأة المستحيل
الثيابُ ربيعيةٌ
والوجوه ربيعيةٌ
والمغني قتيل
الغيوم التي هبطت خردلاً أسوداً في الرئات
الغيوم التي ربطت عقدة الموت حول الصباح الجميل
الغيوم التي خثّرت دم أطفالنا
والغيوم التي خمّرتْ خبزَ إبليس في حدقات الأصيل
هل تراها ستعبر من غيضة السروِ
حتى تمسَّ النخيل؟
كان أكراد آذار في هدأة المستحيل.

نيقوسيا، ٢٣/ ٣/ ١٩٨٨

شجَرُ إيثاكا

ـ ١ ـ

هكذا، في غسقٍ، باغتَنا آدمُ
والكونُ الذي يسكننا قصرُ زجاجْ. . .
يا فتى اللحظةِ
يا آدمُ
ما اللحظةُ؟
والخمسةُ والعشرون في مفرِقكَ الشوكيّ تاجْ. . .

● ● ●

لم يكونوا كثيرين. كانوا فصيلاً واحداً
أسلحتُهم مسروقةٌ كساعات الخلايا.
كانوا يجتازون حدوداً.
لا معنى للبلدان، إذاً.
لقد دخل الاضطراب.
ثمَّت إِماراتُ آبارٍ مطويّة.
ثمَّت ممالكُ شائعةٌ
وجمهوريات ملكيّة.

ثمَّت فلسطينيون بلا مملكة ولا جمهورية.
أمواهُ الخلجان تبرّدُ أنابيب الفاقة،
وفي الليل، تشتعل أسماءُ القرى.
نحن فلاّحون في خيام بدوية.
معلّمون ينتعلون أخفافاً.
تجّارُ بضائعَ مصادَرة.
لسنا العميانَ فنسألَكم خبزاً ونبيذاً.
نحن نلفُّ الأرض كما يلفّ الراعي عباءتَه.
لكنن سنحبُّ لكْنتَنا، ومخارجَ الحروف الصحيحة.
لتأتِ القاراتُ إِلينا.
لتأتِ أحزابُ العرب.
كانوا يجتازون حدوداً. هذه البلدانُ لا معنى لها.
أسماءُ القرى، وحدها، تشتعل في الليل.
ولسوف نلبسها كالبزّة المموّهة.
سوف نعلِّقُها على أكتافنا، بنادقَ،
ونطلقها مع رصاصاتنا الأولى...
وستكون لنا أسماؤنا:
وائل زعيتر. غسان كنفاني. ماجد أبو شرار.

● ● ●

يا فتى اللحظةِ
يا كوفيّة الليلِ
أتدري، أننا مذ جئتَنا، لم ندرِ ما نفعلُ؟

أنّا لم نزل يسكننا قصرُ الزجاج الهشّ؟
حتى وحشةُ الذكرى تهاوت
قبلَ أن ينهالَ ما تعلو به الجدرانُ. . .
نحن الإِخوةُ الأنذالُ
يا آدمُ. . .
في خطوتكَ الأولى، أقمنا حفلةَ السجنِ،
دعوناك إِلى مأدُبةِ الذئبِ،
وقد لبيّتَ يا آدمُ
لبّيتَ لكي تعرفَ. . .
ما أبهاكَ يا آدمُ
لبّيتَ لكي تعرفَ؟
كي نعرفَ؟
لكنّا، ونحن الإِخوةُ الأنذالُ، كنا نحتفي بالدمِ
مطلولاً على كوفيّة الليلِ، وكنا نحسِبُ الوردَ
بأعدادِ المُدى نغرسُها في الجسد العذبِ. . .
لقد أسرفتَ، يا آدمُ
فالحفلةُ ظلت حفلةَ السجنِ
ولم تنتفضِ الجوقةُ في مأدبُة الذئبِ
كما قدّرتَ،
والكونُ الذي يسكننا، لمّا يزلْ، قصرَ زجاجْ. . .

ـ ٢ ـ

هكذا، في غبشٍ، داوَرنا آدمُ
والكونُ الذي يسكننا، قصرُ زجاجْ
يا فتى اللحظةِ
يا آدمُ
ما اللحظةُ؟
والخمسةُ والعشرون في مفرقك الشوكيّ تاجْ. . .

● ● ●

عجينُ المدينة الرياضية يتخمّر في الهواء الحِرِّيف
حيث القنابلُ العنقودية تتناثر مثل مسبحة الشيطان.
وفي شاتيلا تتطاير السقوف
والصور العائلية
وحنفيات المياه الشحيحة.
ومن البحر، إِلى حيّ السلّم، إِلى المتحف كانت الأجساد خطوطَنا
وفي الحمرا أقمنا مهرجان الفقراء في فنادق النجوم الألف.
هذا الهديرُ القادم من خلدة هو صوتنا المكتنز.
المجلسُ الثوري في موقعه.
ومبنى أبو إِياد يقيم متمدداً على الرصيف،
وها نحن أولاء نحفر في الكون. . .
لا قطرةَ ولا مرآة.
بالبزّة المموّهة، إِذاً.

بالسلاح الفرديّ ومدافع الشاطئ
سنظل نحفر في الكون.
أعطنا خبزنا، كفافَنا، أيها السلاح الملتصق باللحم.
أعطنا صرخةَ السلالة.
كان عمّار الفلسطيني يكفهرّ كالنهار المشبع بالانفجارات
كان يعرف أن العدوّ تقدَّمَ عشرين متراً على محور المتحف ـ البربير.
الطلبة الذين سئموا جامعاتهم الباردة في الشمال
كانوا يتوهجون هنا، كأنهم لم يغادروا القواعد يوماً.
لتهدرْ، إِذاً، صرخةُ السلالة...
لتكنْ لنا أسماؤنا: سعد صايل. عزمي الصغير. علي فودة.

● ● ●

هل لنا، أن نوقدَ الشمعةَ، يا آدمُ
أن نلبسَ، حيناً، ما تلبّسناهُ
أن ننهضَ أطهاراً، كما كنتَ...
صباحٌ باكرٌ يدخلُ في الأشجار والريحِ،
صباحٌ باكرٌ تذكرُه، يا آدمُ:
الليمونُ في خضرتهِ
والخَسُّ في بهرجةِ الكيمياءِ...
صيفٌ للأغاني
للأكورديون
للموجةِ

للماءِ الذي تمزجهُ بالماءِ،
آهٍ لكَ، يا آدمُ. . .
كان الصيف محمولاً على صينيةٍ من فضةٍ زرقاءَ
كان الكونُ طفلاً لاعباً في جنّةٍ
مثلكَ، يا آدمُ. . .
لكنّا، ونحنُ الإِخوةُ الأنذالُ، جئناك بدبّاباتنا،
بالنار في البحرِ
وبالصارخ في الريحِ
وجئناكَ بقنّاصينَ من مملكةٍ أخرى. . .
أردنا، كلنا، أن نقتلَ الصيفَ الذي يلعبُ
والطفلَ الذي يتعبُ. . .
أن نقتل مَهْوَى موجةٍ هابطةٍ
خشية أن تعلو. .
أردنا قتلَ ما تضمره المرأةُ من وحشيةِ الأصلاب والصَّلبِ
أردنا قتلَ ما تحفره كوفيّةُ الليل، على الريحِ
أردنا قتلكَ، المرةَ، والمرةَ، والألفَ. . .
وكم كنا سعيدينَ بما نفعلُ
كم كنا جميلينَ
ولكنّا نرى مفرزة الإعدام قُدَّامكَ أجملْ. . .
آهِ، يا آدمُ. . .
كم كنتَ رهيباً حينما خلّفتَنا، إِخوتَكَ الأنذالَ،
أحجاراً على الشاطئِ

أعجازاً على رملٍ يسيلْ
أيها القاتلُ في ثوب القتيلْ. . .

ـ ٣ ـ

هكذا، في عتمةٍ، غادرَنا آدمُ
والكونُ الذي يسكننا قصرُ زجاجْ
يا فتى اللحظةِ
يا آدمُ
ما اللحظةُ؟
والخمسةُ والعشرون في مفرقك الشوكيّ، تاجْ. . .

● ● ●

نحن، أهل الكوفيّات المشدودة كالخوذ،
لنا تغريدة الرصاص
والأرزّ المنهمر كالدموع.
لنا أغنية المرفأ
حيث يدخل الفتيانُ في أنشودة البطولة.
لنا الطلقات الإِحدى والعشرون وشاحنات الجيش الجديدة.
ومن الملعب البلدي
وساحة أبو شهلا
نمرُّ مثل نهرٍ من الأغاني
«مثل نهرٍ من الأسود».
غدّارةُ الباريتّا مصقولة في الصباح المبكر، ورائقة.

أيُّ ندىً سيتغلغل في نبتة الشرفة؟
أيُّ امرأة ستقول: لا؟
أحبكِ هكذا
في قوّة الغرابة والجدل.
كنا نهرِّبُ أطفالنا مخبّأين بين جسدٍ وجسد.
الكوفيّةُ خوذة
والوجه نبيٌّ
ندخلُ البحر الإِغريقيَّ لندخلَ أرواحنا.
وستكون لنا أسماؤنا:
ليلى خالد، ومحمود درويش،
والخِضر...

●●●

إِنه يصنعُ فُلكاً من ضلوع القولِ
يُعْلي القلْعَ من رائحة الليمونِ
يُدْني مُدناً غيّبها الطاعونُ
والغازون
والأخوةُ
والتاريخُ...
كم يلزمهُ كي يقطعَ البحرَ، ولا بحرَ؟
وكم يلزمه كي يبلغَ الأرض، ولا أرضَ؟
وكم يلزمه من فِتيةٍ كي يفتحَ المعلومَ؟
نورٌ أرجوانيّ على كوفيّةِ الليلِ

وبارودُ رصاصاتٍ. . .
وهذي السترة الخضراءُ،
هذي الرحلةُ العظمى. . .
لمن يذْخُر مسحوقَ الأغاني؟
وبمن يرحلُ؟
لكن. . . هوذا يرحلُ،
والأشرعةُ الأرهفُ من طعم الهواء امتلأت بالريحِ،
والفتيان بين الكوثلِ الغائمِ والقيدومِ
كانوا يحملون العشبَ
والرايات
والأسلحةَ الصغرى. . .
أتمضي، هكذا، يا آدمَ؟
البحر الذي تقطعُه. . . يقطعُنا،
يتركنا، أسرى، عراة، دونما آدمَ. . .
لا نعرفُ ما نفعلُ. . .
قد كنتَ لنا، النّول، الذي لا ينتهي
والليلَ، والصحوةَ، والبرهانَ
كنتَ الغفلةَ ـ المغزى
ومعنى أن يظلَّ الإِخوةُ الأنذالُ أنذالاً. . .
لماذا ترحلُ، الليلةَ، يا آدمُ؟
هل تتركنا أسرى
وقد كنتَ الأسيرْ؟

ـ ٤ ـ

لـــم يـــقـــل آدمُ مـــا أضـــمَـــرهُ
ولـــمَ الـــقـــولُ، وعـــيـــنـــاه الـــضـــمـــيـــر؟
والـــنـــوايـــا كـــلـــمـــا دافـــعَـــهـــا
انـــدفـــعـــتْ كـــالـــعـــشـــب تـــغـــذوه الـــجـــذور
هـــي أرضُ الـــلَّـــه إِن ضـــاقـــت بـــه
فـــلـــتـــضـــقْ، ولـــتـــكـــن الـــشـــبـــرَ الأخـــيـــر
فـــهـــي أرضُ الـــلَّـــه قـــد أودَعَـــهـــا
مـــلَـــكـــاً طـــفـــلاً عـــلـــى الـــمـــاء يـــســـيـــر. . .

وهي أرضُ اللَّه، يكفي حجرٌ واحدٌ منها. . .

رأيتُ الخضرَ

كنتُ أسير، والماءُ الذي أعلو به يعلو

وكنتُ أريدُ أن أمضي إِلى الأسوارِ

كنتُ أريدُ باباً واحداً. . . والخضرُ قال: تعالَ، إِنك قد بلغتَ البابَ

فادخلْ جنّتي،

أحجمتُ

قال الخضرُ:

لم تدخلْ؟

صمتُّ.

الخضرُ قال: بُنَيَّ. . .

مَن قطع المسافةَ

مَن أنام الماءَ
مَن جاب الحجارةَ
مَن أقام خيامه بالوادِ
يدخلْ جنّة المأوى.

ـ ٥ ـ

وهنا، في ظُهر إِفريقيّةَ العالي...
هنا، تحت نجوم الظّهرِ
يا آدمُ
نسترخي قليلاً
نشربُ الشاي، وماءَ اليانسونِ،
القهوةَ المرّة
أو نعلكُ (كالأوهام) صحنَ الفولِ،
لا بأسَ
بلغْنا عامَنا الخامسَ العشرينَ
والحنكةَ
والحكمةَ...
حتى الشجرُ الغائم في مرفأ إِيثاكا بدا في البُعدِ،
فلنجلسْ قليلاً...

باريس، ٣١/ ١٢/ ١٩٨٩

جنّةُ المَنْسِيّات

(١٩٩٣)

إلى جان آنّوَيّيه

الرّسالة الضّائعة

ستجيءُ الحمامةْ
وسألمحُ دورتَها من هُنا
سوفَ تَبْدو الخوافي من البُعْدِ
بيضاً
رَمادِيةً
تَتَواثَبُ في خَفَقاتِ الجناحَيْنِ
إِذْ يَهْبِطانِ
هُنا
وأنا
مِنْ مكاني الذي لا يُرى
سأُقيمُ الصَّلاةَ
السَّلامُ على مَعْشرِ الطَّيْرِ أنَّى تَهادى جَناحْ. . .
رُبّما كنتُ أَهْذي
ولكنْ. . .
ستأْتي الحمامةْ
فأنا الأعْرَفُ، الآنَ، بالأرضِ والرّيحِ

حتّى وإِنْ كنتُ أعْمى، هُنا
غافِلاً
نافِلاً
لا يَراني أَحَدْ. . .
منذُ سَبْعِ سِنين ولا شيءَ يَدْخُل في مَكْمَني
لا أَحدْ. . .
غيرَ ما تُرْسِلُ الرّوحُ،
أو غيرَ ما يَتَناثَرُ مِنّي على كُوَّة البُرجِ
حَبّاً
وماءْ

باريس، ٢٦/ ١٠/ ١٩٩١

الطّريق

منذُ الطَّيرِ الأوّلِ،
منذُ الفَجْرِ،
أسيرُ إِلى وَجْدَةَ ذاتِ الأسوارِ
وعيناي يَدُ امرأةٍ.

كم مُدُنٍ تَدْعوني، كي أرْحَلَ عنها
ومنازِلَ كي أُطرَدَ منها
ووجوهٍ كي تُنْكِرَني...
لكنّي سأَظلُّ أسير.

فلا تَقِفوا في وَجْهي
لا تَقِفوا...
لا تَصِفوا للأعْمى الطُّرُقات
ولا عينَ الماءِ
ولا بابَ الخانْ

لا تَصِفوا
وقِفوا صَفَّيْنِ له، حينَ يَمرُّ عليْكُم
مُبْتَعِداً عنكم
مُرْتَفِقاً رُسْغَ امرأةٍ
مُرْتفِعاً في أُفُقٍ لا تَرْسُمُه الأسْوار.

دمشق، ٩/ ١٢/ ١٩٩٢

نهايات

أَعْمى،
يَطَّوَّفُ بينَ قُرى اللَّهِ الإِحْدى والعِشرين
وَحيداً
مُكْتَنِزاً بعَماه
يَضْرِبُ في التِّيهِ، وتَسْبِقُهُ في التِّيه عَصاه.
أحْياناً يَتَوَهّمُ أنَّ الأرضَ صَديقَتُهُ
أَنَّى حَلّتْ قَدَماه
فهوَ النّاهلُ والمَنْهَلْ
وهو المتسائِلُ عمّا لا يُسْأَلْ
وهو الأوّلْ
المُنْجَرِدُ الأجْردْ
وهو السَّرْمَدْ...
.....
.....
.....
لكنَّ قُرى اللَّهِ الإِحْدى والعِشْرين
ظالمةٌ...

قدْ يُدفَنُ، حيّاً، في بِئْرٍ تُطوى
قد يُخنَقُ في مأْوى
قد تَتَناهَشُهُ بينَ نِساءِ النُّزُلِ الذُّؤْبانْ. . .
وعليهِ الآنْ
أن يُحْكِمَ خُطْوَتَهُ:
يَتَسابَقَ، والأخْطارَ
ليفْتَتِحَ الأخْطَرْ.

دمشق، ٩/ ١٢/ ١٩٩٢

نومُ الضُّحى

ألمهديّ(*)
يتمشّى في الشُّرفةِ
مُنزعِجاً من دَبَقِ البَصْرةِ
من بَقِّ البَصْرةِ
كانَ يُحاولُ أن يَسْتَمْتِعَ بالمشْهدِ:
سَعَفِ النَّخْلِ
وموجِ النَّهَرَ... إلخ...
لكنَّ هواءَ البَصْرةِ كان كثيفاً
مُختَنِقَ النّسْمةِ
كان ضبابٌ يَصَّاعَدُ حتّى أَقْصى السَّعَفِ،
نَديفاً أبيضَ
يُخفي النّخْلَ
وموجَ النهرِ
وأكواخَ الزُّنْجِ
وأدنى السُّفُنِ الصّينيّة من شُرفتِه..

(*) هو الخليفة العباسيّ، قاتل بشّار بن برد.

قالَ المهديّ:
«أيُّ صَباحٍ هذا؟»
وارتدّ إِلى غرفَتِهِ بالقَصْرِ
يَسيلُ نُعاساً
وتَذَكَّرَ أنَّ أَذانَ الفَجْرِ
لن يَرْفَعَهُ بشّارٌ
(فَلقدْ أُلْقِيَ في الخرّارة، مَيْتاً مُنْتَفِخاً)
لن يرفَعَهُ أحَدٌ
حتّى يَرتفعَ الفَجْر...
.....
.....
.....
نامَ المَهْديُّ عَميقاً.

دمشق، ٩/١٢/١٩٩٢

النّور

فوقَ جبالِ عَدَنْ
في القِمّةِ
حيثُ الحَجَرُ البُركانُ يَئِنُّ سَوادا
والبحرُ يَطير رذاذا،
فوقَ جِبال عَدَنْ
مكْشوفاً للرّيحِ وللأَمْواج
مكْشوفاً لخَرائِطَ غارقةٍ منذُ قُرون
مكْشوفاً للجُنْدِ وللأَبْراج
كانَ فنارٌ أعْمى . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في الصُّبحِ الباكرِ تدْنو منهُ نِساءٌ أوراسِيّات
يَلْبُطْنَ كثيفاتِ العانات
كشيفاتٍ . . .
يتصارخنَ بأسماءِ رجالٍ غابوا في بهجةِ أسلحةٍ

وخُمورٍ لاذعةٍ
ومياه. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في الليل
يدنو منهُ الموجُ وَئيدا
وتوشوِشُهُ سَرطاناتٌ، وسَلاحِفُ هائِلةٌ
وكواسجُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في الليلِ كذلك
يتململُ بحّارٌ في قاعِ البحرِ
ويحملُ فانوساً أوقدهُ منذُ قرون
ويدورُ مع المَرْقى المُتعرّج
حجراً
حجراً
حتّى يبلغَ قِمَّتَهُ
حتى يوقِدَ من سِرِّ الليلِ فَناراً أعمى.

دمشق، ١٠/ ١٢/ ١٩٩٢

إبتداء

سوفَ تسأمُ زاويةَ الشّامِ أيضاً
ونَبْتَتَها وهي تذبُلُ خلفَ الزُّجاجْ،
ولسوفَ تُردِّدُ في السّرِّ:
إِنّي أتيتُ لكي أَحْتمي بالزُّجاج. . .
الظّهيرةُ
و
ا
قـ
فـ
ـةُ
والشُّجيراتُ من طَرَفِ العَيْنِ تَلْمَحُها
وهي تهدأُ في الظِّلِّ
والشّمْسُ تهدأُ في الظِّلِّ
والطِّفلُ يهدأُ في الطِّفلِ
والهاشِمِيَّةُ ضائعةٌ في الطَّريقِ إِلى الشّامِ. . .
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

هَلْ بَدَأَ الانْتِظار؟

دمشق، ١١/٦/١٩٩٢

مَلْمَس

ألخريف. . .
أيُّ أُرْجوحَةٍ من حِبالِ المَطَر
يتلهّى بها
ناسِجاً
ناشِجاً
في مساءِ الضّواحي
أيُّ أُرْجوزَةٍ في سَماءِ الضّواحي
أتلهَّى بها
باسِطاً راحَتي للمناقيرِ مائيّةً
تَنْتهي بي إِلى غُرفةٍ
تَنْتهي بي إِلى رَفّةٍ من جَناح. . .

هَلْ أُغَلِّقُ نافِذَتي؟
ألرّيحُ تُعْوِلُ بينَ العماراتِ
والبردُ. . .
هَلْ أحْتَمي بالزُّجاجِ المُضاعَفِ؟

هل أكْتفي بالبُرودَةِ زرقاءَ لِصْقَ جَبيني؟
وهل أُطْبِقُ الهُدْبَ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

لكنّني أُرْهِفُ السَّمْعَ خلفَ الزُّجاج
أظلُّ، أنا والمَطَرْ
أظلُّ، أنا والخريفْ
أظلُّ، أنا والخَطَرْ. . .

باريس، ٢٦/٩/١٩٩١

القيثارة الحمراء(*) Die rote Harfe

لم يَعُدْ في الشّوارعِ ما تَعْزِفينَ لَهُ:
ألسّاحةُ انْطَفأتْ
والحرائِقُ قد غادرتْ في مياه المجاري
المقاهي مُهذَّبةٌ في الصَّباح
ومُغلقةٌ بعدَ منتصفِ الليلِ
مِثْلَكِ
لَم تَبْقَ إلاّ الملابسُ:
قُطْنٌ
وجِلْدٌ
وأُغنيةٌ لثُقوبِ السَّراويلِ زَرْقاءَ عندَ الرُّكَبْ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سوفَ يأتي المُغنِّي
ويَذْهَبُ.

(*) مقهى في برلين كان متطرفو اليسار يرتادونه.

يأتي الخريف
ويَذْهبُ. . .
لكنْ، سَتبْقَيْنَ بَرميلَ بيرةْ
تظلّينَ في هَدْأَةِ الزّاويةْ
أنتِ
والأمسَ
والرَّمْسَ
والقَدَمَ الحافيةْ.

برلين، ٧/٨/١٩٩١

ألفجر

لمَ لا يَطْرقُ، هذي اللَّحظَةَ، من هذا الشُّبّاكِ
المطرُ؟
لمَ لا يدخلُ من مُنفَرَجِ الشُّبّاكِ
الماء؟
لمَ لا تَقْتَحِمُ الأنْواءُ ستائِريَ المُزْدَوِجَةْ. . .
وقُمامَةَ أوراقي
ووِساداتِ الرّيشِ
ومِصباحَ المِنْضَدة؟
ألفجرُ يُغَمْغِمُ،
ما زالَ هديرُ السّيّاراتِ بعيداً
بعيداً جدّاً
حتّى لأَكادُ أُشَبِّهُهُ بهديرِ الماء. . .

باريس، ٩/ ١٠/ ١٩٩١

نُعومة

ألمطرُ
يَتَلَمّسُ وجهَكَ
هلْ تذكرُ الآنَ تلك الصّديقةَ
تلكَ التي لا تُلامِسُ منكَ سوى الوجهِ؟

إِنّ المطر
يتلمّسُ صدرَكَ تحتَ القَميص
فهلْ تذكُرُ الآنَ تلكَ الصّديقةَ
تلكَ الّتي تكْتَفي بالأصابعِ تحتَ القميصِ؟

ألمطرْ
يَتَغَلْغَلُك الآنَ
كُلَّكَ . . .
هلْ تَذْكُرُ الأُغنيةْ؟

باريس، ١٩/ ١١/ ١٩٩١

تربية

أَبَدَأْتَ، إِذنْ، تشربُ قهوتَكَ الأولى
في أُولى ساعاتِ الفَجر. . .
في السّاعة ٣
مثلاً؟
أَبَدَأْتَ تُخَبِّئ أوراقَك
عن صُحفٍ تعرفُها
وعيونٍ لا تعرفُها
عمّن أحببتَ طويلاً. . .
مثلاً؟
أَبَدَأْتَ تُغيِّرُ عاداتٍ كي تَعتادَ سِواها:
أَلاّ تَحْلِقَ يوميّاً
ألاّ تكْويَ قُمصانَكَ
ألاّ ترفعَ مِسْمَعَةَ الهاتِف حينَ يرِنّ
مثلاً؟
أَبَدَأْتَ تُخالفُ قانونَ السَّير:
تتملَّى كُتباً بالمقْلوب

وتُقَطِّرُ جُرْعَةَ ماري جْوانا في كأسِ الفودكا
وتمشِّطُ شَعْرَ امرأةٍ بالإِبْرة
أو تَدْخُلُ في كَهْفٍ كيْ تفتحَ عينَ التنّين
مثلاً؟
أَبَدَأْتَ؟
إِذنْ. . .
فَلْنَحْتَفِلِ اللَّيلةَ
ولْنَدْعُ جميعَ القِدِّيسين. . .

باريس، ٣/ ١٠/ ١٩٩١

اضطرابٌ عصبيّ

بناتُ آوى كُنَّ عندَ البابِ يَضْحكنَ
وكانَ البابُ مفتوحاً
وكانتْ نخلةٌ بالبابِ
قالَ الرّجلُ الغافي:
بناتِ آوى. . .
ما الّذي تُرِدْنَهُ منّي؟
صَباحَ الخير!
أما تَعْرِفْن أنّي راحلٌ ليلاً وراءَ البحرِ،
نحوَ المشرقِ الأقْصى
لكيْ أسألَ عن سِرِّ ابْنَتي ليلى الّتي ضاعتْ؟
أما تَعرِفْنَ أنّي قد نزعْتُ البابَ
كي أرْكَبَهُ في البحرِ
نحو المشرقِ الأقصى؟
. . . . . .
بناتُ آوى كُنّ يضحكْنَ
وكانَ البابُ مفتوحاً. . .

. . . . . .

. . . . . .

وآآآآآ. . .

كانَ قَطيعٌ من ذِئابٍ يُنْشِبُ الأنْيابَ. . .

آآآآآ. . .

باريس، ١٨/٩/١٩٩١

منطقة محايدة

بُركانُ إِثْنا
يُبْرِقُ، اللّيلَ، على جَناحِ الطّائرةِ
ما أبعدَ دمشق
حينَ الرَّجُلُ ماثلٌ
ومُسَدَّسُه.

لن تَنْتهي الرِّحلة
ولن تَنْتهي حَماقاتُنا.

أيُّ هدير!
أيُّ هديرٍ في ذراعِ الكُرسِيّ!

سأقول...
لِمَنْ؟
طالَتِ الرِّحلة
واستطالتِ الحَماقَة.

ألشَّفَق
أضْغاثُ بنفسجٍ . . .
لماذا، إِذاً
تطلُعُ الشّمس؟

ألّيلةَ
أُريدكِ ذَكيّة
أُريدكِ عارِية . . .

١/٦/١٩٩٢

الزّيارة الطّويلة

أ

ل

شُّـ

قُـ

رُّ

ق

تَتَمَطّقُه، ذاهِلةً، أفْعى.

و أ

ل

شَّـ

ر

شـ

ف

يَهْوي، مُنْزَلقاً عن ظَهرِ الأفعى

وسيأتي قمرٌ

ويسيلُ حليبُ نُحاسٍ

يـ يـ يـ يـ

قـ قـ قـ تـ

ط ط ط قـ

ر ر ر طّ

رُ

يقرطُ ظَهر الأفعى

عَرَقاً

ونشيجاً

بين

ا لـ حـ ر شـ فِ

لـ

حـ

ر

شـ

فِ

واللألاء

. . . . . .

. . . . . .

ألغرفةُ غائبةٌ

والسُّلَّم منحدرٌ

في سَوراتٍ تعوي

وسُهوبِ نِساء

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

في الكأسِ مُكعّبُ ثلجٍ
وعلى السّجّادة
حيثُ يُطَبْطِبُ طبّالونَ على أعْجازِ طرائِدِهم
قمرٌ يُلْقي بذراعَيْه على أفعى. . .

تونس، ٢٥/ ٤/ ١٩٩٢

عند قلعة الكرك

دائماً في الغُروب، تبدأُ أسْوارُ القِلاعِ التّنَفُّسَ.
إِنتهتِ الحربُ منذُ قرنَيْنِ أو عِشرينَ قَرْناً،
لكنّها فَجأةً تعودُ إِذا ما هَبَطَ اللّيلُ، يوقِدُ
الجُندُ في الأبْراجِ قِنديلهمْ، بَعيداً عن
الرّيحِ، ويَبْكونَ وحدَهم. سوفَ يأتي
الرَّسولُ، حتْماً سيأتي، حامِلاً رأسَهُ
على رأسِ رُمحٍ. رُبّما كان مُتْعَباً فَغَفَا
بانْتِظارِ أنْ يورِقَ الرُّمحُ مع الصُّبح.
هَلْ تراهُ سيستيقظُ؟ والجُنْدُ في البُرج،
وقنديلُهم تخافَتَ، والصُّبحُ لم يجِئْ،
والرَّسولُ الذي سيأتي وقد ثبّتَ بالرُّمحِ
رأسَهُ، بعدُ لم يأتِ. إِذن، ما الّذي
سيفعَلُه الجُنْدُ في الصّباح المُنَدّى؟
ما الّذي يَفْعلون؟
توقِفُ أسوارُ القِلاعِ التَّنفُّسَ، والقِنديلُ
فحمٌ في الماءِ والرّيحِ.

ألحروبُ انْتَهتْ
ولكنَّها سوفَ تُنادي جُنودَها دائماً
كلَّ مساءٍ
وسوفَ يأتي الجُنودُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
دائماً
دائماً
سَيَبْكي الجنودُ

عمان، ٤/ ١٢/ ١٩٩٢

الغرفة دافئة

خيولُ البحرِ والسّراطين
تلتفُّ بالصوفِ الذي لوّنَتْهُ نساءُ الأعشاب
وترقصُ في البحر
أحمرَ
أصفرَ
أزرقَ
بَهاراً.
ألخيولُ والسّراطينُ التي ترقص
تندفعُ أسرعَ، أسرعَ
حتّى كأنّها ثابتَة
والبحرُ الأحمرُ / الأصفرُ / الأزرقُ / البَهار
يفترشُ الأرضَ
تحتَ شمسٍ نُحاسٍ
بينما ترفلُ ضِفافهُ
ببياضِ الزَّبدِ.
. . . . . .
. . . . . .

. . . . . .

أتُحبّينَ أنْ ننام

في السرير الذي تناوبَ عليه المتزوِّجونَ

منذُ ألفٍ وخمسمائةِ سنة

حيثُ صورُ الزَّفاف

تفترشُ الأرضَ مثلَ شواهد؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

إِذن، فلتكنْ لكِ السّجّادة

حيثُ تتبارى الخُيولُ والسّراطين

حيثُ نهدأُ، نحن، في النِّهاية.

عمان، ٢٠/ ١٢/ ١٩٩٢

لقطة

ليسَ ما يُذهِلُ في هذا الصَّباح:
سَرْوَةُ البيتِ الذي في الجهةِ الأخرى من الشّارعِ
ما زالتْ كما كانتْ،
ولمّا يزلِ البابُ الذي أَغلقهُ المجهولُ مجهولاً كما كان
وما زالَ سياجُ البيتِ مهدوماً كما كان
ولم ينقطعِ الأطفالُ عن خَطْفِ زُهورِ الياسمين.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
فجأةً
يَهْبِطُ من سيّارةِ الأُجْرَةِ كلبٌ وامرأةْ
وكما يفعلُ أبهى ساحرٍ تَفْتحُ بالمفْتاحِ بابَ البيت. . .
لم يُسْمَعْ صَريرٌ،
دخلَ الكلبُ، لكيْ تتبعَهُ المرأةُ
وارتابتْ يماماتٌ على السَّرْوةِ
والأطفالُ في منعطفِ الشارع كانوا يرسُمون

طُرُقاً أُخْرى
إِلى أسيجَةٍ أُخْرى
وكانوا يعرفون
جيّداً، أنّهمو لن يَخْطَفوا، بعدُ، زُهورَ الياسمين.

عمان، ٢١/١٢/١٩٩٢

قد يسقط الثّلج

ألغُرفة
مُحَصّنةٌ بستائرَ من خشبٍ وزُجاج
ومصابيحُ الغُرفة
مُطفأَةٌ
ووسائِدُها هادئةٌ عندَ زواياها
واللّوحات
ـ سماء زرقاءُ ورملٌ أصفر ـ
تستدْعي كُلَّ نواياها. . . تستبْعِدُ ما أُضْمِر
ثَمَّتَ أشجارٌ عَبْرَ النّافذةِ
(ألأشجارُ هُنالك دوْماً)
وهواءٌ يتسلّلُ، كالقِطّة مقروراً، من تحتِ الباب
ليَأْنَسَ بي. . .
لا ريحَ توشوِشُ في الأغْصان
لا طيرَ يُرفرفُ تحتَ سماءٍ بيضاء
لا صوتَ سِوى موسيقى
آتِيَةٍ من أرضٍ أُخرى. . .

لكنّ الثَّلجَ يُلَمْلِمُ سلّتَهُ
وبَعيداً عنّا
في الغفلةِ
أو في هذي اللّيلةِ
سوف يجيءُ الثَّلجْ!

عمان، ٢٢/ ١٢/ ١٩٩٢

نباتات منزلية

لم يَكُنِ الجيرانيوم
قد أزْهَرَ بعدُ. . .
وأوراقُ المطّاط
تتدفَّأُ في زاويةٍ قُرْبَ المِدفأةِ
ألقزَمُ اليابانيُّ، الفُلفُلُ، مَزْهُوٌّ بحرارتهِ
والنَّبتُ المُتَدَلّي كاد يُلامِسُ أرضَ الغرفةِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أمّا النّبتُ المُتَسَلِّقُ
هذا المُتَصاعِدُ، ملْهوفاً، حتّى الرفّ
فماذا يفعلُ
والرَّفُّ يظلُّ الرفّ؟
وإلى أين سيَمْضي
حتّى لو بلغَ السّقفْ؟

عمان، ٢٢/ ١٢/ ١٩٩٢

ضباب

فَجأةً
تجلِسُ عَمّانُ على البحرِ . . .
مِهادٌ أبيض طافَ بها، ليلاً
وسمّاها جزيرةْ
وأتى يمنَحُها بعضَ هداياه:
مصابيحَ السُّفنْ
ورَذاذَ البحرِ
والهَدْأَةَ في مُنتصفِ اللّيلِ
وَمَمْشى الصّخرِ والعُشّاقِ . . .
عَمّانُ التي تلبِسُ قُفّازاتِها، ليلَ نهارَ
ارْتَعَشَتْ
تخلعُها، كي تلبِسَ البحرَ
وتمضي، هي والبحرُ، وأَضواءُ السُّفُنْ . . .

عمان، ٢٢/ ١٢/ ١٩٩٢

بَلل

سَعَفاتُ جَوْزِ الهِنْدِ تُمْطِرُ . . .
يا قُرنفلةً تأخّرَ نومُها هذا الشِّتاءَ
لكِ اللآلئُ وهي تصْفو فيكِ من سَعَفاتِ جوزِ الهِندِ
والعُشبُ الّذي يخضَرُّ حولَكِ
وابْتِسامةُ من رآكِ، فَريدةً، هذا الصّباحَ
أَلَسْتِ طالِعَةً، مُبَلَّلَةً
كأَنَّكِ صَبْوَةٌ وصَبِيّةٌ
وكأَنَّما الدُّنيا قرنفلةٌ
وماء.

عمان، ٢٣/ ١٢/ ١٩٩٢

مُتابعة

بعدَ يومْينِ من مَرضٍ كُنتُ قاسمتهُ سِرَّها والسّريرَ
أعودُ إِلى هَضَباتِ التّأمّلِ:
كم مَرّةً، عَبْرَ هذا الحديدِ المُطَرَّقِ، أبصرتُ ما يفعلُ الغيمُ؟
كم مرّةً صادفتْ مُقْلَتايَ الشَّجر؟
وكم مرّةً كنتُ وَحْدي؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ألمدينةُ، في البُعدِ، مَنثورةٌ في رُؤوس الجِبال
والمنازِلُ مَقرورةٌ خلفَ أحْجارها
رُبَّما هدأَتْ تحتَ أشجارِها ومقابِرِها، القُبَّرات
غيرَ أنّ النباتَ الذي يتضوَّرُ في الثَّلجِ
يَكْتُمُ أسْرارَهُ
كي تَمُرَّ اللّيالي
كي يَمُرَّ القَذى والتَّأمُّلْ
كي يُعَلِّمَنا

وبكُلِّ فجاجَتِهِ
أو فَجاجَتِنا
كيفَ يُطْلِعُ أزْهارَهُ.

عمان، ٢٧/ ١٢/ ١٩٩٢

اللّيل

مُسرعاً يَهْبِطُ
حتّى قبلَ أن نُنْصِتَ عَنْ بُعدٍ لَهُ
أو ترْتجي عَتْمَتَهُ عينٌ. . .
هو البَغْتَةُ
لكنْ، دونَ أن يرتعشَ الصَّخرُ أو الشارعُ
أو تهجُسَ شيئاً ما وُجوهُ السّائرينْ.
مُسرعاً يهبطُ
حتى ناسياً ما يَفْرُقُ الليلَ عَنِ الصُّبحِ
ولكنّ البُيوت
وحدَها، تمنحُهُ، من نورِها، الضِّدَّ
الذي يجعلهُ ليلاً. . .
لِتَلْتَمَّ البُيوت
في لآليها
وتحيا، إِذْ يَموت. . .

عمان، ٢٧/ ١٢/ ١٩٩٢

مزهريّة

في قلبِ زُجاجٍ رومانيٍّ أزرقْ
حيثُ الماء
يهدأُ في الأزرقْ
تمتدُّ جذورُ النّبتةِ
مُرهَفَةً
صافيةَ الأزرقْ. . .
أمّا الأوراقُ الخضراء
أمّا الدُّكْنَةُ كُلَّ مساء
فبأيِّ زُجاجٍ نَبَتَتْ
وبأيّ مياه؟
. . . . . .
. . . . . .
ولماذا لم نَنْتَظِرِ الأصْفرْ؟

عمان، ٢٩/ ١٢/ ١٩٩٢

ثَمَل

هذا الكُرّسيُّ، تزحزحَ عن موضعهِ أمسِ
وهو الآنَ
تماماً
في وسط السّجّادةِ.
سِلْكُ الهاتِفِ
كيفَ أتى حتى جاورَني؟
لم أسمعْ، منذُ ليالٍ، صوتَ الجيرانِ...
وهذا المصباحُ، ضئيلُ النورِ
لماذا جئتُ بهِ؟
واللّوحةُ:
نسوةُ موديلياني يَضْحَكْنَ عليّ!
وأنا لم أُكْمِلْ كأسي الثّالث
حقّاً
لم أُكمل كأسي الثّالث...
لن أسهرَ هذي الليلةَ
إِنّي...

وتموجُ بيَ الأمواج
تموجُ بيَ الأمواج
تموجُ
بيَ
أ
لـ
أ
م
و
ا
ج...

عمان، ٢٩/١٢/١٩٩٢

العُلبة

هذهِ المرأةُ التي كنتُ أحببتُ، طويلاً، أسرارَها
كيف تأتي، كُلَّ يوم، إليَّ:
تنظرُ في عُلْبَتِها، مُسْتَخِفَّةً،
ثم تُلقي في يدي بعضَ سِرِّها...
كلَّ يوم تُبيحُ سِرّاً
فيا مَنْ تَسْتَحِثّينَني إلى علبةِ الأسرارِ
هل تعلمينَ أنّي سأُخفي
كُلَّ أسرارِكِ
ابتداءً من التّفّاحةِ التي تَمْضغينَها فجّةً
وإلى المِزْقَةِ في الجوربِ النّزيعِ؟
ولكنّني وَدِدْتُ لو أنّ العلبةَ الصّغيرةَ
عادتْ تختفي في يديكِ
أو في مراياكِ
بعيداً عنّا
وأبعدَ حتى عن يدي
وارتباكتي
وسُؤالي...

عمان ٢٩/ ١٢/ ١٩٩٢

بلاد

صعبةٌ هذهِ المدينةُ. . .
لا بابَ لها كي تَدُقَّهُ حين تأتيها
ولا أبراجَ فيها
لا سورَ
لكنّها القلعةُ. . .
إِنَّ الهواءَ، هذا الذي يأتي إِليها
يرتدُّ عنها
وهذا البرقُ يخبو
إِن لامسَ الغيمُ أطرافَ تضاريسها
فلا رعدَ
لا رعدَ. . .
النّساءُ اللاّئي وُلدْنَ بها
سوفَ يَلِدْنَ. . .
الرِّجالُ سوفَ يسيرونَ سرايا
لكي تظلَّ المدينةْ
قلعةً خارجَ المدائنِ

حِصْناً
للموالي
وجنّةً للرَّهينةْ.

عمان، ٢٩/١٢/١٩٩٢

الحطَّاب

يعرفُ أنّ فروعَ الأشجار
تتحدّث
ولهذا يستنطِقُها، حينَ يمرُّ بدورتهِ السّنويةِ:
يا غُصني
سوفَ تقولُ الآنَ وداعاً للأُمّ
ويا أنتَ المُتَمَرِّد
لن يُجديكَ تمرُّدُكَ اليوم. . .
ويا أغصاناً تائهةً عن شكلِ الشَّجرةْ
سَتَتيهينَ بَعيداً. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أمّا جذعُ الشَّجرةْ
هذا النّاهضُ حتّى بالحَطّاب
فلهُ أنْ يسخرَ منّا

نحنُ الرّاضينَ بقاماتِ الأعشاب. . .
نحنُ الراضينَ بما يفعلهُ الحَطّاب،
نحن الرّاضينَ بما نفعلهُ، نحنُ. . .

عمان، ٣١/ ١٢/ ١٩٩٢

جنّة المنسيّات

ألشّجرةْ
عاريةٌ، إلاّ من بضْعِ وُريقاتٍ تسقطْ
وتويجاتٍ ميّتةٍ
والشّجرةْ
سوداءُ، تمرُّ بها الرّيحُ
ولا همسَ من الرّيحِ
أو الشّجرةْ
لكنّ العُصفورَ الأولَ يأتي
فالعُصفورُ الثّاني
فالعُصفورُ الثّالثْ،
وإذا بالشّجرة. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كم أَحلمُ أنْ أُطْبِقَ هُدْبي!

عمان، ٣١/ ١٢/ ١٩٩٢

صباحٌ مُمْطر

تمرُّ السّيّارات
مُبلَّلةً
مسرعةً
وأنا أنتظرُ الهُدهدَ تحتَ الكالِبْتوسةِ
غصنُ الكالبتوسةِ يقطرُ في كفّي
أيُّ شميم!
أيُّ روائحَ
من غاباتٍ يَسقيها مطرٌ منذُ قرون
غاباتٍ لم يَدخُلْها حَطَّابون
ولم يمسسْها بشرٌ
غاباتٍ ما كانت لتكون. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سأظلُّ معَ المطرِ،
في الموقفِ تحتَ الكالبتوسةِ
أسْتافُ بَخورَ الغابات
وأذكرُ شَعْرَكِ. . .

عمان، ٣١/ ١٢/ ١٩٩٢

الورقة

ماذا في غرفةِ هذا الفندق، كي تشعرَ أنّك حرٌّ؟
مِرْوَحةُ السّقفِ اصْفَرّتْ منذُ سنين
وأغصانُ السّجادة ناصلةٌ
والأستار
ورقُ الحائط
والطّاولةُ. . .
ألكُرسيّ المخلوعُ على قائمتين ونصفٍ
والدّولابُ بلا بابٍ. . .
لكنّك تبحثُ، ملدوغاً، عن ورقةْ
واحدةٍ
حتى واحدةٍ. . .
. . . . . .
. . . . . .
أتكونُ هي المرآة؟

بيروت، ٢٥/ ١/ ١٩٩٣

ألمُنتأى

هلْ تَذْكُرُني حينَ أسافرُ هذي الليلةَ؟
هل تتذكَّرُ وجهي؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كان الثّلجُ
يهبِطُ، والأشجارَ، إِلى مملكةٍ من سُفُنٍ بيضاءَ
ولا يترُكُ للشّارع
ما نعرِفُ في الشّارعِ
لا يترُكُ للشّارع
ما لا نعرِفُ في الشّارع
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كان الثّلجُ
يهبِطُ، بي، والأشجارَ، إِلى مملكةٍ من سُفُنٍ بيضاء

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

هل أذكُرُ وجهَكِ؟

بيروت، ٢٦/ ١/ ١٩٩٣

إسترخاء

أنتَ، الليلةَ، تهدأُ
أنفاسُكَ خافتةٌ
وجبينُكَ في موضعهِ. . .
والأوردةُ الزّرق بظاهرِ كفَّيكَ تنام
وتخضرُّ، قليلاً، زُرقتُها. . .
أنتَ، الليلةَ، تبرأُ من حُمّى
من تَبِعاتِ امرأةٍ أحببتَ أخيراً
تبرأُ ممّا لم تعرِفْ أنْ تمنَحَهُ اسما
. . . . . .
أغمضْ عينيك
ونَمْ، حتى في النّومِ. . .
هدوءاً
ولْنَتَذَكَّرْ أُغنيةَ الأعمى.

بيروت، ٢٥/١/١٩٩٣

الوحيد يستيقظ

(١٩٩٣)

دائرة المثلّث

آيتُنا، أن نفترسَ الأنهار
لنُنبتَ زهرةَ رملْ.

●

نادتِ الريحُ، واقفةً عندَ بابِ القصبْ. كيفَ أستأذنُ؟ كيف أدخلُ، سرّيةً، في نعاسِ السمكْ؟ كيف أمشي على قدميَّ وقد دارتِ الأرضُ بي؟ هل ستسمعُ خطوي السلاحفُ؟ هل ينظرُ النيلوفَرْ؟
إِن صوتي يكلِّم صوتي: اتّئدْ. خفِّفِ الوطءَ.
لستَ المغنّي هنا. ليستِ الريحُ في لحظةِ الريحِ.
فلتجدي السرَّ، ولتسجُدي. واتركي الأرضَ تنسجُ أثوابَها: ورقاً، ومياهاً، ضباباً، ورائحةً من زهورٍ سماويةٍ. سوف تأتي الزوارقُ قبلكِ. تلمُسُ بُرديَّها بالأصابع والطيرِ. تأتي لتدخلَ، من ألفِ بابٍ...
فمن أنتِ يا ريحُ؟
قولي سلاماً، سلاماً، سلاماً، سلاماً...
لقد نهضَ الفجرُ والطيرُ
واتّسعَ الورقُ
استيقظَ النيلوفَرْ.

سومريّون يُخفونَ تحتَ السماواتِ أسماكَهم، بضّةً، ويحوكونَ أسمالَهم بالنواجذِ. كانت جواميسُهم تمضغُ الزهرَ. كانوا ملوكاً. لماذا تزورينَ أيتها الريحُ أرواحَهم؟

أنصتي!

إنها الطَّيطَوى...

●●

آيتُنا، أن نفترش الرملَ

ونرفعَ من أشواكِ الصبّيرِ مآذنَنا

●

بعيدينَ عن رجفةِ الماء كنّا، بعيدينَ عن رشفةٍ من عروقِ الورقْ. لقد كانتِ الخيلُ آلهةً للجنودِ، ولكننا، مذ عرفنا الجِمالَ، استكنّا إليها، وقلنا لها: أقبلي يا سفائننا. قبِّلي الشوكَ، وليكنِ الرملُ موجاً...

وها نحن نمضي إلى النيل، نمضي إلى الفيل، نمضي إلى شجراتِ المدائنِ هل أُشعلتْ في البراري غصونُ سمرقندَ؟ هل ذهبَ المصطفى في طريقِ الذهبْ؟ بعيدون عن طلعةِ المصطفى نحنُ. قد جاءنا، وسألناهُ: من أين جئتَ؟ البراري التي علّمتنا الرمايةَ والرملَ تمتدُّ أعمقَ في الروحِ. لكنه قالَ: أنتم هنا جُنّتي والجنائنُ. صدَّقَ أشياخُنا، فالتفتنا إلى الماءِ يلمعُ.

كانت سيوفٌ يمانيةٌ وكراديسُ...

كنا حفاةً

خفافاً

وكان الندى يترقرقُ في حشرجات المغنّي: تكون لكم سُرَّةُ الأرضِ. أنتم مفاتيحُها،
والسوادُ لكم، والجزيرةُ، والشامُ
والنهرُ
والبحرُ...
● يا سيدي، نحن أضألُ من بعرةٍ
● قال: فلتوقدوا ناركم في اليَفاعِ...
السوادُ لكم، والجزيرةُ، والشامُ
والنهرُ
والبحرُ
هل تبصرونَ تهامةَ؟
أنتم لها
مثلما للرقابِ الحسامْ
مثلما في المآذنِ يعلو السلامْ.

●●●

آيتُنا أن نرحلَ
لكنْ في دائرةِ الرَّحْل

●

قرنينِ وأكثرَ، بل هذي المائةَ الأربع عشرةَ، بل هذا اللاتاريخَ، ونحن ندورُ...
تحدثنا عن جزرٍ وممالكَ، عن أنهارٍ وبحارٍ وتهائمَ، أبحرْنا بالسيفِ وبالوجهِ الناشفِ

والعينين الصقرِ
ولكنْ. . . أين ذهبنا؟ وإلى أين سُنْسلمُ خطوتَنا؟
كم أبصارٍ وسملْناها، وأكفٍّ وقطعناها، وجذورٍ وقلعناها. . .
كم كنا سعداءَ لأنّا في أرضٍ أخرى.
قلنا إنّا سنكونُ، وإن الريح مواتيةٌ. كنا نَقتلُ.
نقتلهم، ونشدُّ عمائمَنا، أي نساءٍ كنَّ لنا! أيُّ حريرٍ. . .
ما معنى المرأة؟
ما معنى الخمرِ؟
وما معنى أن نتلمسَ لحمَ الزهرِ؟
حفاةً كنّا، وخفافاً، وأغاني إبِل
أما الناسُ، الناسُ، فسوف يظلّون الناسَ.
ونحنُ، وإن كنا الأمراءَ، نظلُّ حفاةً، وخفافاً
وأغاني إبلٍ. . .
فلنعترفِ الليلةَ
أن الماءَ يحاصرنا.
والصحراءَ بعيدةْ. . .

بيروت، ٣٠/ ٣/ ١٩٩٣

اليقظة

لم تكن مطفأً ساعةَ انتصفَ الليلُ في غرفتكْ
كنتَ تدخلُ تحت المُلاءةِ
تلتمُّ تحتَ المُلاءةِ
ما أبردَ الليلَ في غرفةِ السطحِ
ما أبعدَ الخصلاتِ التي سافرتْ أمسِ
ما أبعدَ النافذةْ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أنتَ تلتمُّ تحتَ المُلاءةِ
تغمضُ عينيكَ
تسمعُ همساً
ووشوشةً ربما كانت الموجَ،
تشعرُ أنّ حريراً يمسِّدُ صدرَكَ
أنّ الندى يترقرق في العشبِ
في غيضةِ الخيزران
. . . . . .
. . . . . .

. . . . . .

الروائحُ:

مسْكُ

ونَدٌّ

ومجمرةٌ للبخور

وماءٌ من الإِبط

قطرةُ فودكا

وقنّينة سقطتْ، فجأةً، من أعالي رفوفِ النبيذ

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

إِنها الساعةُ الخامسةْ

ليس ثمّتَ من أملٍ. . .

لن تعودَ الحمامةُ

لن يخطئَ الديكُ موعدهُ

والمؤذِّنُ ـ حتى وإِن قمتَ ليلَكَ ـ لن يذكرَكْ

فلتنمْ يا صديقي

ولتدعْ للتي قاسَمَتْكَ سريركَ

ما نسيتْ في السريرةِ:

مرآتَها

مشطَها

والسوارَ الذي فضّضتْهُ نصارى الكرَكْ!

بيروت، ١/ ٣/ ١٩٩٣

أسئلة

ـ ١ ـ

لماذا تحدِّقُ في البحرِ
والبحرُ، أيضاً، له منتهاه؟

ـ ٢ ـ

لماذا ينامُ الشريدُ
على شاطئِ امرأةٍ لا تنام؟

ـ ٣ ـ

لماذا الحقيقةُ بيضاء؟
إِن أنتَ صدّقتَ هذا
فأين الحقيقة؟

ـ ٤ ـ

لماذا القناديلُ تُطفأ في لحظةِ الحبّ؟
أم أن قلبَ الظلامِ يضيءُ الظلام؟

ـ ٥ ـ

لماذا تراقبُ كأسكَ؟
كم قلتَ: لم يبقَ ما لا يُراقَب. . .

ـ ٦ ـ

لماذا تصدِّقُ بالأغنية
وتعرف أن الأغاني شفاه؟

ـ ٧ ـ

لماذا تفيقُ صباحاً
وتهجرُ مملكةً كنتَ فيها الملكْ؟

ـ ٨ ـ

لماذا المدينةْ؟

ـ ٩ ـ

لماذا السلاحفُ تحمل مرآتنا؟

ـ ١٠ ـ

لماذا أحبكِ؟

بيروت، ٣١/٣/١٩٩٣

أولُ المساء

الشمعةُ التي تنوسُ
في فضاءِ الغرفةِ
تتدلى من السقفِ بحبالِ سيركٍ ثلاثةٍ.
الشمعةُ تنوسُ
كأنها ستثبُ كلَّ لحظةٍ
لتستقرَّ على الطاولةِ.
وعلى الطاولةِ
شمعةٌ أخرى
مطفأةٌ.
ها هي ذي الشمعةُ تصنعُ أغنيتَها على الحائطِ
أراجيحَ
وأرخميدسياتٍ
وأشياء من دافنشي،
بينما ظلُّ الكرسي
يدفع إلى الحائطِ
وبإصرارٍ
امرأةً من عماءٍ. . .

بيروت، ٧/ ٤/ ١٩٩٣

أكثر من شمس واحدة

أمس
في الغروبِ
كانت شمسانِ تطفوانِ على البحرِ
وغلالةُ غيمٍ أبيضَ
تدنو منهما لتصطبغَ . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أين الشمسُ التي نعرفُها
شمسُ الهاجرةِ
قرصُ الفولاذِ السائلِ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لو كان الأمرُ بيدي
أو بيدِ الطفلِ

أما كنا سنطلقُ من جيوبنا الشموسَ
لتطفوَ على البحرِ كلهِ
طوافاتِ نجاةٍ؟

بيروت، ٨/ ٤/ ١٩٩٣

الوحيد يستيقظ

افتحْ عينيكَ واسعتينِ
ولا تعتذرْ للصباحِ الذي يناديكَ من وراءِ الزجاجِ.
ألم يأتِ المطرُ، خفيفاً، طيلةَ الليلِ؟
ألم تجدِ السطحَ نظيفاً؟
إذاً، لم لا تفتحُ عينيكَ واسعتينِ؟
أيكونُ ذلك لأنّ الشرشفَ الذي بسطتَهُ على الفراشِ
مكوياً، سَبْطاً، بلا غضونٍ
ظلَّ ما بسطتْهُ يداكَ
مكوياً، سبطاً، بلا غضونٍ؟

بيروت، ٨/ ٤/ ١٩٩٣

علاقة

ـ ١ ـ

كم تُروِّض هذا الفتى!
كم تعذِّبه
كي تقول له:
نحن اثنانِ. . .

ها نحنُ ندخلُ في حانة. نحنُ منذ الظهيرةِ نشربُ.
من، يا ترى، يتعبُ الآن؟ اثنانِ نحن، ولكننا نتجاهلُ ما بيننا. يثقلُ الجفنُ. ينحدرُ العنق شيئاً. وينعسُ واحدُنا لحظةً. سأقولُ له: نَمْ، ودعني على البارِ. . .
لكنه يتشبثُ بي: نحن اثنانِ. جئنا معاً. كيف تتركني؟
يا لهذا الفتى!
يا نهارَ الحماقاتِ!
نمضي معاً، قلتُ، لا بأس. نمضي معاً في الظهيرةِ والخمرِ والساندويتشاتِ. لكنّ لي موعداً. . .
إنّ لي موعداً وتأخرتُ. ينظرُ نعسانَ، لا تصطفي شفتاهُ الكلامَ.
إذاً، أنتَ باقٍ.

سنوقدُ في الركنِ قنديلَنا. سوف يأتي السُّقاةُ، ويأتي المغنّي، ونضحكُ. . .
هوِّنْ عليك!

ـ ٢ ـ

قلتُ: ماذا ترى لو ذهبنا إلى البحرِ؟ كان الصباحُ نديّاً، وكانت غيومٌ تُسِفّ على تلعةِ البرجِ. قال: الرمالُ انتهتْ. أنا أكرهُها. فلنكنْ في ممرِّ الصخورِ، هنالكَ ينفتحُ البحرُ، والموجُ يهدرُ، والريحُ تلهو بنا حرّةً. . .
من ممرِّ الصخورِ هبطنا معاً، ودخلنا، سعيدينِ، بوابةَ البحرِ. . .
ها نحن نمضي إلى القاعِ، سهبٌ من العشبِ يمضي بنا، وقناديلُ تومضُ بين فَراشٍ وأسرابِ طير، زهورٌ ترانا فتطبقُ أجفانَها، والقنافذُ زرقاءُ. . . ندخلُ كهفاً لنخضرَّ. يلمسُ أضلاعَنا سمكٌ، وتُدغدغ باطن أقدامنا الرخوياتُ والسلطعوناتُ. . .
نهبطُ
نهبط
نهبطُ
قوسُ قُزَحْ!
كان همسٌ من القاع. مرجانةٌ تتفتحُ أذرعةً وقناديلَ، أجنحةً، وزعانفَ خضراءَ. . والهمسُ يعمُقُ. . .
يا خدَرَ العمرِ خذني معكْ. .
فجأةً
قال لي لاهثاً: إِنتفضْ!
نحن نغرقُ يا صاحبي. . .

انتفضْ!
ليس هذا أوانَ الغرقْ!

ـ ٣ ـ

مرةً في الضواحي
في قطار الضواحي
في قطارِ الضواحي البطيء
في قطارِ الضواحي البطيءِ الذي كان يحملُني نحو أمسِ
كنت أبحثُ عما أضعتُ
وفكّرتُ أن قطارَ الضواحي
سوف يبطئُ أكثر
يتركني، اليومَ، أبحثُ عما أضعتُ. . .
ولكنني ـ والفجاءةُ تبدو طبيعيةً ـ قد وصلتُ
المحطةُ مفتوحةُ البابِ
مفتونةٌ بالصباحِ
وها هوذا، في المحطة، يضحكُ:
يا صاحبي، عمَّ تبحثُ
إِن كنتُ، في لحظةٍ، قد وصلتُ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
يا لَهذا الفتى!

بيروت، ١١/ ٤/ ١٩٩٣

اللحظة

في الغرفةِ،
حيث السطحُ المفتوحُ على البحرِ
أعدَّ القرصانُ المتقاعدُ وجبتَهُ:
نصفَ رغيفٍ
وشريحةَ لحمٍ أحمر
وزجاجةَ فودكا...
القرصانُ المتقاعدُ أحكمَ إغلاقَ البابِ
وأخرجَ من صندوقِ الأبنوسِ دفاترَهُ
وخرائطَهُ
ومرافئَهُ...
وهو الآن سعيدٌ
ووحيدٌ...
.....
.....
.....
لكنّ الصدرَ يحشرجُ
والعينينِ تغيمانِ قليلا

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

من دقَّ البابَ ثلاثاً؟

من جاءَ هنا، يتتبّعهُ حتى غرفتهِ بالسطحِ؟

القرصانُ المتقاعدُ أغلقَ صندوقَ الأبنوسِ

على أسرار دفاترِهِ

وخرائطهِ

ومرافئهِ

ومشى يترنّحُ، بضعَ خُطىً، كيس يستافَ شميمَ البحرْ

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أيكون الأعمى مَن دقَّ الباب؟

الأعمى المتنكرُ في هيأةِ سيدةٍ

جاءتْ تصحبهُ لحظةَ مختَتمِ العمرْ؟

بيروت، ١٤/ ٤/ ١٩٩٣

المأوى

كيف أخرجُ من هذه الغرفةِ؟
اليومَ
أمسِ
ومن قبلِ عشرينَ عاماً
أفكرُ أن أصطفي لي سواها
أحاولُ ألاّ أراها
ولكنني لا أزالُ بها.
هذه الغرفةُ التي أطعمتني، جرعةً جرعةً، أفاويهَها
صارت هوائي
وجُبّتي
وجليسي الذي يُقاسمني غرفتي.
غريبٌ هذا الذي يجري...
غريبٌ
لكن، إذا غادرتُها مرةً
فأين سأمضي؟
.....
.....

. . . . . .

أمس

فكرتُ أن أمرَّ على الأسواقِ صبحاً

أسائلُ الناسَ عن مأوى

فلم أستطعْ

لقد تقدّمَ بي العمرُ

وما عادت خُطاي الخُطى. . .

والناسُ

حتى الناسُ لو أسررتُهم محنتي فلن يعرفوني

إِنني امرؤٌ وحيدٌ

وهذي الغرفةُ التي قد عرفتُها لم أجد مأوىً سواها. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

من قال مأوايَ هذا؟

بيروت، ١٨/ ٤/ ١٩٩٣

الساقية

J'écoute...

لكنْ، من ينصتُ في الطرفِ الآخر؟

من يمنح وردةَ أُذنكِ أن تتفتّح؟

منذُ أسابيعَ، ترينَ الناسَ يجوبون شوارعَهم

واجهةً

واجهةً

ينتظرون مساءَ العيدْ.

أمّا أنتِ، فما زلتِ وراءَ زجاجِ البار

متعبةً

بين البيرةِ والقهوةِ والتَّبْغِ وأوراقِ سباقِ الخيل

وثرثرةِ الزوّار

تنتظرين صباحاً لا يرميكِ وراءَ زجاجِ البار

J'écoute...

لكنْ، لا همسَ يوشوشُ وردةَ أُذنكِ

ماذا لو أُغلقَ عن لحظةِ هذا العالمِ

أو لحظتكِ،

الخطّ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ستكونين وحيدةْ

كأنكِ ما كنتِ طوالَ شهوركِ في شقّةِ

AUBERVILLIERS

وحيدةْ

فلماذا ألححتِ طويلاً هذي الليلةْ؟

ولماذا قلتِ بأنكِ، من دونِ الناسِ، وحيدةْ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ألأنّ الناسَ جميعاً كانوا في العيد

وكنتِ تخافين صباحاً سيُعيدكِ، متعبةً، خلفَ زجاجِ البار؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

J'ÉCOUTE!

بيروت، ٢١/ ٤/ ١٩٩٣

صعوبة

الشرفةُ التي لا تتّسع إِلا لسبعِ نبتات
الشرفةُ التي تَخلَّعَ حاجزُها الحديدُ، في الوسطِ تماماً
الشرفةُ التي لا تنفتحُ إِلا على جدارينِ مقابلينِ
الشرفةُ التي تكادُ تلامسُ أسلاكَ الكهرباءِ العاريةَ
الشرفةُ التي يُنَصِّفُها حبلٌ أصفرُ
الشرفةُ التي ترتجفُ إِن هطلَ المطرُ
الشرفةُ التي لا تدخلُها الشمسُ إِلا ساعةً
الشرفةُ التي لم تشملْ فيها امرأةٌ جيداً
الشرفةُ التي لا يقصدُها الزائرونَ
الشرفةُ التي تُنكرها الهندسةُ
الشرفةُ التي قد تنهارُ في كلِّ لحظةٍ
الشرفةُ التي تجلسُ فيكَ
كيف لكَ أن تقولَ: هي الكونُ؟

بيروت، ٢٣/ ٤/ ١٩٩٣

من النافذة

آهِ، أيتها السيِّدةْ
كيف تقضين عمرَكِ، هذا الجميلْ
تحت حبل الغسيلْ؟
آهِ، أيتها السيِّدةْ
كم أرى في الصباح حِبالَكِ
بل كم أرى في المساء حبالكِ
أنتِ الجميلةُ
أنتِ
يداكِ، اليدانْ
صاعدتان
وهابطتان
أبداً، تحتَ حبلِ الغسيلْ. . .
آه، أيتها السيِّدةْ
أيّ عمرٍ سنقطعهُ تحتَ حبلِ الغسيل؟
أم ترانا سنقطعُ حبلَ الغسيل؟
آهِ، أيتها السيدةْ. . .

بيروت، ٢٣/ ٤/ ١٩٩٣

رحّالة

وليكنْ!
إِنها آخرُ المدنِ الملكيةِ. . .
فلتدخلِ الآن!
ولتفتتحْ، قبلَ أن تذبلَ الوردةُ، الحانةَ المغلقةْ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
آخرُ المدنِ الملكيةِ. . . . .
هل تتذكرُ أولى خُطاك؟
أتذكرُ قنطرةَ البيتِ
تلكَ المسنّاة
والجسر، حيثُ السبيلُ إلى المدرسةْ؟
أتذكرُ صفصافةَ المدرسةْ
وهي تغسلُ، في النهرِ، خصْلاتِها؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

كم بَعُدْتَ عن النخلِ
والأهلِ. . .
كما فاضتِ الأرضُ حتى تتالتْ عواصمُها بين كفّيكَ. . .
كم غاضتِ الأرضُ حتى غدتْ محضَ زنزانةٍ. . .
لا تهنْ يا صديقي الذي لا يفارِقُ
كن مثلما قد عرفتُكَ. . .
لا تبتئس!
نحن في آخر المدن الملكيةِ في أولِ الجُلجُلةْ. . .

عمّان، ٢٩/ ٤/ ١٩٩٣

نعاس الضحى

شجيراتُ سروٍ تجرِّبُ أغصانَها المستدقةَ خلفَ السياجِ
الكراسيُّ، من ليلةِ الأمسِ، مسندَةٌ للموائدِ
اثنين، اثنينِ
حتى المظلاتُ مطويّةٌ
والزهورُ الكبيرةْ. . .
من البُعدِ، تهفو أعالي الصنوبرِ في الريحِ
أمّا أنا
حيث أجلسُ وحدي هنا
على حجرٍ عند أقصى السياج
أراقبُ ما يفعلُ الحلزونُ بأوراقهِ
وبفضّتِهِ وهي تنشفُ في شمسِ نيسانَ. . .
أمّا أنا
فالظلالُ التي وشوشتْني تنادي رفيقي النعاسْ.

عمّان، ١/ ٥/ ١٩٩٣

التحيّة

الشمس
وهي تقولُ صباحَ الخير
للسروةِ في منعطفِ الشارع
تنشر قُبلتَها
تُوْسعُ سروتَها قُبلاً
هابطةً
من خصلاتِ السروةِ
حتى السُّرّةِ
حيثُ الخصر. . .

عمّان، ١٩/٦/١٩٩٣

حشرجة

ربما حين لا يتبقّى سوى لحظةٍ
أو نَفَسْ
نتذكّرُ ما كنَّ يفعلنه الأمّهاتُ لنا
فنقولُ سلاماً لهنّ
ونسألُ عمّا يُرِدْنَ
ولكننا لن نقول. . .

عمّان، ١٩/٦/١٩٩٣

كيف؟

كيف صار الغناء
مريراً
إلى حدِّ أنّا صمتْنا؟

●

كيف أمستْ كؤوسُ النبيذ
تُجرِّح راحاتِنا
إِلى حدِّ أنّا انتُزِفنا؟

●

وفي الحُلمِ
تدخلُ حتى الشجيرةُ
مثقلةً بالسكاكينِ . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هل قلتُ : إِنّا انتهينا؟

عمَّان، ١٩/٦/١٩٩٣

متعجِّلون

كم مضينا بعيداً. . . لكي نجهلَ الأرضَ
نحن الذين اندفعنا لنقرأَها
نتقرّى تفاصيلَها
ودوائرَ أشجارِها
ونوافذَ من سكنوا بيتَها
وأقاموا مآدبَهم فيهِ. . .
حيث النبيذُ الذي يتلألأُ بين المشاعلِ
حيث الصنوبرُ تأرجُ أغصانُه في المواقدِ
حيث تستكملُ الفتياتُ الأنوثةَ تحتَ العرائِش
حيث البيوتُ سواسيةٌ
والأغاني اختلاف. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ولكننا قد مضينا بعيداً
نأَينا عن الأرضِ في نشوةِ المتعجِّلِ. . .

لم نقرأ الأرضَ
لم نتقرَّ تفاصيلَها
ولم نُرهفِ السمعَ
لم ندرِ أنّ برابرةً قادمون. . .

عمّان، ٢٠/٦/١٩٩٣

مكابَرة

سأسعى، إلى أن أرى المرتقَى، من أعاليهِ
والمرتقى شاهقٌ
ضيّقٌ
تتدحرجُ أحجارُهُ إذ تهبُّ الرياح
وتسقطُ أشجارُهُ
ربما بلغَ الماعزُ الجبليُّ انحناءته
حيث ينبثقُ النبعُ. . .
أو ربّما حاولتْه البغالُ لتهوي مدوَّخةً في الهواء الخفيف
النسورُ التي منذُ قرنٍ تذرِّقُ
قد نحتتْ في عمامتهِ ملمسَ الثلجِ
حتى الذين أحبّوا بنادقَهم
كسَّروها إذ ارتدَّ عنه الرصاص. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هو المرتقى
شاهقٌ

ضيّقٌ
غير أني سأصعدُهُ
خطوةً
خطوةً
وسنينَ، فأخرى . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
وإِلاّ، فمن يُدركُ المرتقى؟

عمّان، ٢٠/٦/١٩٩٣

الشاطئ

سنغادرُ، فرداً فرداً، هذا الشاطئَ
حيث أقمنا منذ سنينَ،
نلمّ قواقعَهُ
وسراطينَ البحرِ، وأعشابَ المَدِّ
ونحلم، ظُهراً، أن نستنفرَ في الليل عرائسَهُ. . .
سنغادرُ هذا الشاطئَ
مندهشين كما كنّا
مسرورين بما كنّا
مقتنعين بأنّ الشاطئَ لن يقفرَ منّا
حتى لو غادرناه. .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
صحيحٌ، انّ عرائسَهُ لم تأتِ
وصحيحٌ، ان قواقعَهُ كانت ملأى بالرمل
وصحيحٌ، ان النجمَ به يخبو في منتصفِ الليل. . .

لكنّ الشاطئَ
مهما كان فقيراً
قفراً منسيّاً
سيظل لنا الشاطئَ
شاطئَنا
حيث لمسْنا أولَ نجمٍ
وأقمْنا الصلوات. . .

عمّان، ٢٤/٦/١٩٩٣

استنبات

لا تُتعبْ نفسكَ
إِن الأمر لأصعبُ مما تتصوّرُ:
حقاً، آنيةُ الفخّار، تماماً، في زاويةٍ تبلغُها الشمسُ
وحقاً، أنّ التربةَ حمراء
وأنكَ تعرفُ أن تتحكمَ في قطراتِ الماء. . .
لكنّ فسيلَ النخلةِ لن ينمو في غرفتكَ
النخلةُ لن تتنفسَ مثلَكَ
حتى لو هدأتْ أنفاسُكَ
حتى لو كُتمتْ أنفاسُكَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لكنْ، حين يجيءُ الليلُ
وتغمضُ جفنيكَ
ويأخذُكَ الماءُ إلى حيثُ يشِفُّ الماء
ستأتيكَ النخلةُ

فارعةً

ضارعةً

زرقاء . . .

عمّان، ٢٦/٦/١٩٩٣

الكوفة

ما سمّيناها لتكونَ مدينةْ
نحن أتيناها ظمآنين
جياعاً
نعرجُ من وَهق الرملِ
ونعمى من وهجِ الشمسِ. . .
قطعنا العالمَ بالسيفِ
إلى أن نتأ العظمُ بأيدينا ومحاجرِنا. . . وابْيَضّ
قلنا حين بلغْنا الماءَ
لنجلسْ
ولنتأمّلْ هذي الضفّةَ
حيث الماءُ يسيلُ، ويمضي، ويسيلُ. . .
غمسْنا الأسيافَ بهِ
أغمدْنا أيدينا، مرتجفينَ
وصلّينا. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

ما سمّيناها لتكون مدينةْ
لم نبنِ بها إِلا المسجدَ
والسورَ
وكوخ عليٍّ . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لكنّ القرن الأولَ لم يَعُدِ الأوّل
ها نحن أولاءِ نغادرها
م
ش
ن
و
ق
ي
ن
على ماسوراتِ مدافعِ دبّابات . . .

عمّان، ٢٧/٦/١٩٩٣

جواب

ماذا يمكنُ أن تمنحَ هذا الكونْ؟
هل تقدرُ أن تضفرَ من أليافِ الكلماتْ
غصناً؟
هل تقدرُ أن ترفعَ كفّيكَ لتستمطرَ غيمةْ؟
هل تقدرُ أن تمسيَ في العتمةِ
نجماً؟
هل تقدرُ أن تعصرَ من ثوبِ الحُمَّى
كأسَكَ؟
هل تقدرُ أن تهبَ الطفلةَ أبعدَ من دهشتها؟
ماذا يمكنُ أن تمنحَ هذا الكونْ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أحياناً تغمضُ عينيكَ
وفي أقصر من لحظةْ
تشعرُ أنّ الأرضَ سماء. . .

عمّان، ٣٠/٦/١٩٩٣

ولاء

من بلدٍ ستدورُ إِلى آخر
ومن امرأةٍ ستفرُّ إلى امرأةٍ
من صحراءَ إلى أخرى
لكنّ الخيطَ الممدودَ مع الطائرةِ الورقيةْ
سيظلُّ الخيطَ المشدودَ
إلى النخلةِ
حيثُ ارتفعتْ طيّارتُكَ الأولى. . .

عمّان، ٣٠/٦/١٩٩٣

في البحر الأحمر

لم نكن البحّارةَ
كنا أسرى القبطانِ
وكنّاسي مطبخهِ. . .
أحياناً، يتمشّى القبطانُ مع الكلبِ الذئبِ
فنجفلُ مرتعدينْ
ونلوذُ بركنِ الكوثلِ. . .
كان المركبُ يسري في الليلِ
ويلقي المرساةَ صباحاً عند مرافئ أفريقيةْ
والبحّارةُ يمضونَ إلى حاناتِ الشاطئِ. . .
أمّا نحن
فنظلُّ، كما كنّا
أسرى القبطانِ
وكنّاسي مطبخهِ. . .

عمّان، ٣٠/٦/١٩٩٣

حربٌ أهليّة

أربعةٌ
منتصبو القاماتْ
يمشونَ، وئيدينَ، على أرضٍ مكشوفةْ
أوجُههُم جلدٌ مدبوغٌ
وبأيديهم تنطلقُ الرشاشات. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كانوا أربعةً
يمشونَ، وئيدينَ، على أرضٍ مكشوفةْ
كان رصاصٌ من رشّاسِ البيتِ يُواجههم
ويئزّ. . .
ولكنهمو يمشون، ويمشون
وئيدين
وفي أيديهم تختضّ الرشاشات. . .
. . . . . .
. . . . . .

. . . . . .

يصمتُ رشّاشُ البيت

وتعلو من نافذةِ البيتِ المحترقِ، النيران

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أربعةٌ

منتصبو القامات

يمشونَ، وئيدينَ، إلى بيتٍ آخر. . .

عمّان، ٣٠/٦/١٩٩٣

اغتيال

«في ذكرى عبد الوهاب الكيالي»

المصعد في برج الكارلتون بطيءٌ،
أبطأُ من فيلٍ يتمرّغُ قربَ الماء
المصعدُ يهبطُ . . .
ينفتح البابُ
وينغلقُ البابُ
كأنَّ العالمَ ما زالَ هو العالمَ . . .
لكنّ البارود
سيظلُّ طويلاً في رائحةِ المصعدِ
والرجلَ المقتول
سيظلُّ طويلاً في غرفته العليا . . .

عمّان، ١/ ٧/ ١٩٩٣

تدريب حواس

محاطٌ بالسروِ
كأني في برْكةِ قلبِ الغابة
حولي تتحدثُ أسماكٌ وطيورٌ
على كفّي يهبطُ أحياناً
ورقٌ
أو نملٌ طائرْ
أو قطرةُ ماء. . .
أُرهفُ سمعي:
ثمَّتَ موسيقى
وسماواتٌ بيضْ. . .
أُرهفُ سمعي:
ثمَّتَ نبعٌ في قلبِ الغابِ يغيضْ. . .
أُرهف سمعي:
ثمَّتَ نبعٌ في قلبِ الغابِ يفيضْ. . .

عمّان، ١/ ٧/ ١٩٩٣

التِّيه

كنا في قاعِ سفينةِ شحنٍ
أسرى
وعبيداً
نتكوّمُ فوق حبالٍ يقطرُ منها زيتٌ أسود
وننامُ على أذرعنا
مذعورين. . .
قطعنا البحرَ العربيّ
قطعنا البحرَ الأحمر
ودخلنا في المتوسطِ. . .
كانت أيدينا، كملابسنا، يقطرُ منها زيتٌ أسود
يتقطَّرُ منها عَرقٌ
وهواءٌ
ودمٌ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أيُّ بِحارٍ ما زال علينا أن نقطعَها
قي قاعِ سفنيةِ شحن؟

عمّان، ٦/ ٧/ ١٩٩٣

منظر

من بعيدٍ أراقبُ برجَ الكنيسة:
كانت سطوحُ المنازلِ تعلو وتَعلو...
السماءُ بلا غيمةٍ
ولا طائرٍ...
ولم يبقَ من منظرِ البرجِ إلاّ الصليب
وإلا أعالي من السروِ
.....
.....
.....
مقبرةٌ في السماء...

عمّان، ٦/٧/١٩٩٣

إلى أمام

الرايات
خافقةٌ، تحت سماءٍ لم تتكوَّنْ بَعد. . .
أمّا نحن المنذورون لنحملَها
تحتَ الريح
وتحتَ المطرِ
فعلينا أن نتكوَّنَ أيضاً. . .

عمّان، ٦/ ٧/ ١٩٩٣

بـغداد

قال لي صاحبي: كيف تبدو لعينيكَ بغدادُ؟
قلتُ: المدينةُ بالناسِ.
قال: ولكنهم أنتَ...
قلتُ: إذن، سوف أطلبُ أهلاً سواهم
وأقصدُ بغدادَ أخرى...

عمّان، ٦/ ٧/ ١٩٩٣

بساتين

ـ ١ ـ

مثقلاً، يهطل التوتُ
والماءُ أحمرُ
والجرفُ أخضرُ
والنخلُ يمشطُ سعفاتِهِ بالندى
سوف تأتي اليماماتُ
عابرةً من أقاصي النخيلِ (حدودِ الصحارى)
إِلى حفلة التوتِ
والظلُّ يأتي ليغفوَ
والطفلُ يأتي
ويقفزُ حتى الفروعِ المدلاّةِ سربُ السمكْ.

ـ ٢ ـ

كيف جاءت إلى مركز الشرطةِ، السدرةُ؟
القومُ، لم يزرعوها، أكيداً
ولكنها تملأ الحوشَ بالسِّدرةِ:
الظلُّ، والجذعُ، والنبقُ...

سدرةُ بيتٍ حقيقيةٌ
وهي في مركز الشرطةِ. . .
الفرقُ، أنَّ السلاسلَ، لا الطيرَ، فيها
وأنَّ الذي سوف يُجْلَدُ، يوثَقُ،
حتى يرى أنجمَ الظُّهرِ فيها. . .

ـ ٣ ـ

في الشرفةِ
حيث أجلسُ أنا والساحة،
في الشرفةِ
حيث تزدحم نباتاتي
وتتحاورُ،
في الشرفةِ
ورقةٌ واحدةٌ تتمايلُ، مزهوةً
في نبتةِ نرجسٍ ذاتِ ورقتين. . .
أنَّى لي أن أختارَ إِحداهما؟

عمّان، ٦/ ٧/ ١٩٩٣

الرفيق «س»

ليس فيه الآنَ ما يُرعبُ. . .
هذا ما تقولُ النشرةُ الأولى
وما يكتبه عنه الصحافيون. . .
لم يبقَ له جيشٌ
ولا قنبلةٌ ذرّيّةٌ
وانشطرَ الأسطولُ،
لم يبقَ كتّابٌ ولا مكتبٌ. . .
اليومَ رأى حتى اسمَهُ مختلفاً
(عندَ أناسٍ لم يكن يعرفهم)
صارَ هو السابقَ
(هل كان هو السبّاقَ؟)
لا بأس
فهذي دورةُ الأشياءِ
يومٌ لكَ
أو يومٌ عليكَ. . .
الصعبُ في قصتنا أنّ الشيوعيّ الذي أعرفُه في معملِ البيرةِ
ما كان له جيشٌ

ولا قنبلةٌ ذريّةٌ
حتى الأغاني نسيتْ أسماءهُ
(كان يغنِّي وحده)
لم يكنِ السبَّاقَ
حتى يُمسيَ السابقَ. . .
والأمرُ لديه، مثل ما كانَ، بسيطٌ دائماً:
زيدوا غنىً
يزددْ أنينُ الأرضِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هل في «س» ما يُضحكُ؟

عمّان، ٧/٧/١٩٩٣

بيت

هذا البيتُ لنا:
غرفاتٌ أربعُ
بابانِ
وشرفةْ
وقناديلُ، وفخّارُ ووسائدُ. . .
أنتِ تقولين: «البيتُ لنا».
لكنْ. . .
هل قالَ الطائرُ
ـ وهو يهذِّب عيدانَ العشِّ ـ
«البيت لنا؟»

عمّان، ٧/ ٧/ ١٩٩٣

تشاؤم؟

حين جئنا هذه الأرضَ
وقلنا: «سوف نبني عالماً أجملَ».
كان الكونُ أجملْ. . .
أوَلم يسمحْ لنا بالأسئلةْ
وبمنأى الحلمِ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أمّا الآنَ
والطيرُ الذي يُنبئنا طارَ
فقد حلَّ زمانُ القتلةْ.

عمّان، ٧/ ٧/ ١٩٩٣

ارتباط

مطرٌ ينزلُ في شبه رذاذٍ
وأنا، في خيمةٍ تلمُسها الأشجارُ، عند البحرِ
فانوسي الذي أوقدتُه قبلَ قليلٍ
لم يزل متّقداً
مرتجفَ الشعلةِ
في البُعدِ
أرى مركبَ صيدٍ يبدأُ الرحلةَ
لا بأسَ، إذاً
ما دامت الأشياءُ تعني أنها الأشياء
تعني أنني في نبضِها أدخلُ،
فيها. . .

عمّان، ٧/ ٧/ ١٩٩٣

الانتباه

الذين يمرّون بي عابرين
سوف أذكرُهمْ
والذين يجيئونني مثقلين
سوف أنساهمو
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هكذا
حين تندلعُ الريحُ بين الجبال
نَصِفُ الريحَ دوماً
وننسى الحَجرْ. . .

عمّان، ٨/ ٧/ ١٩٩٣

إلى جمال جمعة

وأخيراً. . .
إِن كنت جلستَ على رأسِ الكرةِ الأرضيةْ
وقد دلَّيتَ، سعيداً، قدميكَ المتسلّختينِ من التطوافِ
لتكتبَ شعراً،
فهنالكَ من يتمنّى أن يأخذَ رأسَكَ كرسيّاً
ويُدّلِّي قدميه الحرشفتينِ على صدرِكَ
كي يكتمَ حتى ولولةَ الشِّعرْ. . .

عمّان، ١١/ ٧/ ١٩٩٣

الحرية

وحدَكَ، أنت الحُرّ
تختارُ سماءً فتسمِّيها
وسماءً تسكنُ فيها
وسماءً ترفضُها. . .
لكنّ عليكَ، لكي تعرفَ أنك حرٌّ
وتظلَّ الحرّ. . .
أنت تتثبّتَ من موطئ أرضٍ
كي ترتفعَ الأرضْ
كي تمنحَ أبناءَ الأرضْ
أجنحةً. . .

١١/٧/١٩٩٣

المحتويات

عندما في الأعالي: مسرحية شعرية (١٩٨٩) ٥
شرح كلمات ٧
القسم الأوّل: قصة الخليقة ٩
القسم الثاني: نزول عشتار إلى العالم السفليّ ٥١
القسم الثالث: جلجامش ٧٥

محاولات (١٩٩٠) ١٠٩
منظر شتويّ ١١١
خريف ١١٣
مصطفى ١١٥
خريف وامتثالات لأبيات يابانيّة ١٢٣
ثلاثيّة الحاضرة ١٢٧
إنه يحيى ١٣٣
افتراض ١٣٥
قشعريرة ١٣٦
فتى أو نص ١٣٧

دندنة ١٣٨
الصقلبي ١٣٩
غجر ١٤٠
في النهاية ١٤١
الجوهر ١٤٢
ذكرى المدينة ١٤٣
الصيف ١٤٤
فكرة ١٤٥
سهرة ١٤٦
الشجيرة ١٤٧
ضباب مسائيّ على نهر سافا ١٤٨
حياة ١٥٠
برج ١٥٢
ظهيرة ماطرة في تشرين ١٥٤
أمطار الصباح ١٥٦
رسائل ١٥٧
رواية ثريا أنطونيوس ١٥٨
مجاز وسبعة أبواب ١٥٩

قصائد باريس، شجر إيثاكا (١٩٩٢) ١٨٥
واقعية ١٨٧
غرفة سعد ١٨٨
بار الأنتيل ١٩١

نزل السان ميشيل ١٩٥
حقيقة ١٩٧
تفصيل ٢٠٠
IDEAL HOTEL ٢٠٢
منزلُ كافافي ٢٠٣
الزائرة ٢٠٥
الشرفة ٢٠٧
جسرُ سُلِي Pont Sully ٢٠٩
الصباح ٢١١
الموعدُ ٢١٢
سقوف باريس ٢١٣
مهزلة ٢١٤
كآبة ٢١٦
الإبرة ٢١٧
صباح الجزيرة ٢١٩
البَرْدُ ٢٢١
إدراك ٢٢٢
خاطرة ٢٢٤
في الضاحية ٢٢٥
قوس قُزَح ٢٢٦
مشرب جزائري ٢٢٨
زاوية الجاز ٢٢٩
PAESTUM ٢٣١

أوائل صيف إيطالي ٢٣٢
أوليفيا ٢٣٣
مساء في أواخر نوفمبر ٢٣٥
امرأة ٢٣٧
اقتسام ٢٣٩
مُسافِرة ٢٤٠
الموجة ٢٤٢
هدايا ٢٤٤
السيارة ٢٤٥
أعشاب ٢٤٧
مصير ٢٤٩
تنويع ٢٥٠
اختطاف ٢٥٢
حالُ الدنيا ٢٥٤
1989 ..... ٢٥٥
الانفجار ٢٥٦
سلاح كيمياوي ٢٥٨
شجَرُ إيثاكا ٢٥٩

جنّةُ المَنْسِيّات (١٩٩٣) ٢٧١
إهداء ٢٧٣
الرّسالة الضّائعة ٢٧٥
الطّريق ٢٧٧

نهايات ٢٧٩
نومُ الضُّحى ٢٨١
النّور ٢٨٣
إبتداء ٢٨٥
مَلْمَس ٢٨٧
القيثارة الحمراء ٢٨٩
ألفجر ٢٩١
نُعومة ٢٩٢
تربية ٢٩٣
اضطرابٌ عصبيّ ٢٩٥
منطقة محايدة ٢٩٧
الزّيارة الطّويلة ٢٩٩
عند قلعة الكرك ٣٠٢
الغرفة دافئة ٣٠٤
لقطة ٣٠٦
قد يسقط الثّلج ٣٠٨
نباتات منزلية ٣١٠
ضباب ٣١١
بَلل ٣١٢
مُتابعة ٣١٣
اللّيل ٣١٥
مزهريّة ٣١٦

ثَمَل ٣١٧
العُلبة ٣١٩
بلاد ٣٢٠
الحطَّاب ٣٢٢
جنّة المنسيّات ٣٢٤
صباحٌ مُمْطر ٣٢٥
الورقة ٣٢٦
ألمُنتأى ٣٢٧
إسترخاء ٣٢٩

الوحيد يستيقظ (١٩٩٣) ٣٣١
دائرة المثلّث ٣٣٣
اليقظة ٣٣٧
أسئلة ٣٣٩
أولُ المساء ٣٤١
أكثر من شمس واحدة ٣٤٢
الوحيد يستيقظ ٣٤٤
علاقة ٣٤٥
اللحظة ٣٤٨
المأوى ٣٥٠
الساقية ٣٥٢
صعوبة ٣٥٤

من النافذة ٣٥٥
رحّالة ٣٥٦
نعاس الضحى ٣٥٨
التحيّة ٣٥٩
حشرجة ٣٦٠
كيف؟ ٣٦١
متعجِّلون ٣٦٢
مكابَرة ٣٦٤
الشاطئ ٣٦٦
استنبات ٣٦٨
الكوفة ٣٧٠
جواب ٣٧٢
ولاء ٣٧٣
في البحر الأحمر ٣٧٤
حربٌ أهليّة ٣٧٥
اغتيال ٣٧٧
تدريب حواس ٣٧٨
التِّيه ٣٧٩
منظر ٣٨٠
إلى أمام ٣٨١
بغداد ٣٨٢
بساتين ٣٨٣

الرفيق «س» ٣٨٥
بيت ٣٨٧
تشاؤم؟ ٣٨٨
ارتباط ٣٨٩
الانتباه ٣٩٠
إلى جمال جمعة ٣٩١
الحرية ٣٩٢

سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء الثاني

سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء الثاني

من يعرف الوردة؟

منشورات الجمل

ولد **سعدي يوسف** في البصرة عام ١٩٣٤. تخرّج من دار المعلمين ببغداد سنة ١٩٥٤. عمل في الصحافة وتنقل بين عدة بلدان ويقيم اليوم بلندن. نشر العديد من الترجمات الشعرية والنثرية، وكتب القصة والرواية، ترجمت أشعاره إلى العديد من اللغات ونال جوائز أدبية في البلدان العربية والأوروبية. من أعماله وترجماته: **القرصان**، شعر (١٩٥٣)؛ **أغنيات ليست للآخرين**، شعر (١٩٥٥)؛ **قصائد مرئية**، شعر (١٩٦٥)؛ **بعيداً عن السماء الأولى**، شعر (١٩٧٠)؛ **نهايات الشمال الأفريقي**، شعر (١٩٧٢)؛ **الأخضر بن يوسف ومشاغله**، شعر (١٩٧٢)، **والت وايتمان: أوراق العشب**، ترجمة (١٩٧٦)؛ **تحت جدارية فائق حسن**، شعر (١٩٧٤)؛ **قصائد أقل صمتاً**، شعر (١٩٧٩)؛ **خذ وردة الثلج، خذ القيروانية**، شعر (١٩٨٧)؛ **قصائد باريس، قصائد إيثاكا**، شعر (١٩٩٢)؛ **كافافي: وداعاً للاسكندرية التي تفقدها**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **يانيس ريتسوس: إيماءات**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **لوركا: الأغاني وما بعدها**، ترجمة (١٩٨١)؛ **فاسكو بوبا: شجرة ليمون في القلب**، ترجمة (١٩٨١)؛ **غونار أكيلف: ديوان الأمير وحكاية فاطمة**، ترجمة (١٩٨١)؛ **أونغاريتي: سماء صافية**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هولان: قصائد**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هنري ميللر: رامبو وزمن القتلة**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **نغوجي واثيونغو: تويجات الدم**، ترجمة (١٩٨٢)؛ **ديفيد معلوف: حياة متخيلة**، ترجمة (١٩٩٨)؛ **وولي سوينكا: المفسّرون**، ترجمة (١٩٨٦).

سعدي يوسف: **الأعمال الشعرية، الجزء الثاني: من يعرف الوردة؟**
الطبعة الأولى
خطوط الغلاف: الفنان علي عاصي
كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٤
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨/١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2014
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

قصائد أقل صمتاً

(١٩٧٩)

أجسادُ الشبان هذه،
هؤلاء الشهداء المعلَّقين من المشانق ـ
هذه القلوب التي اخترمها الرصاص الكالح،
والتي تبدو باردةً، جامدةً،
إنها لتَحيا في أمكنة أخرى، متدفقة الحيوية.
إنهم يَحْيون في شبان آخرين، أيها الملوك!
إنهم يحيون في أشقَّاء مستعدين لأن يَتَحدُّوكم ثانيةً.

والت ويتمان

القنفذ

يكمنُ في قارتهِ القديمةْ
منكمشاً، بين ترابِ الشمسِ والعشبِ المسائيّ
وحيداً،
بطنُه الأبيضُ مشدودٌ كجلدِ القوسِ
والعينان تشتفان صوتَ النملِ
والرجفةَ في الماء الذي يخترق الجذعَ
وتشتفَّان ما يلمسه الطفلُ إذا جُنَّ
وما يلبسه الليلُ إذا جَنّ
وما تأتي به الأشجارُ، أو تأتيه. . .
والقنفذُ
هذا الكامنُ المأخوذُ بالأشياء في قارته القديمةْ
والمُحْتَبي في الغفلة العظمى
الذي إن ظنَّه الأطفالُ يوماً ـ
كُرةَ الأسمالِ يلهون بها،
أو حسبتْهُ المرأةُ الصخرَ الذي يَدلكُ رجليها
وأفعى النخل إن ظنته فأراً هامداً ـ
ما حَلّ من حَبْوَتِه.

لكنه في أولِ الليلِ
وفي قارته القديمةْ،
يسعى
بطيئاً
ضاحكَ العينين
مسروراً بأن الأرضَ فيها هذه الفتنةْ.

بغداد، ١٩٧٩

العام الثالث عشر

«في الذكرى الثالثة عشرة لانطلاقة الثورة الفلسطينية»

«١»

البرزخ

حجرةٌ في الطابق المفردِ. . .
بابُ الحجرةِ المصقولُ باللمس، وبالأغشية المضطربةْ
ظَل مفتوحاً على كل المصاريعِ
بسيطاً، مستفزاً،
أيها الطفلُ الذي علَّمه القرآن حرفَ العطفِ:
مَن يدخلُ في الحجرة، في مقتبلِ الليلِ؟
من «السلمان» سُلِّمنا
ضُربنا عند باب السجنِ،
مثلَ القمل فُتِّشنا
ولم يتركْ لنا السجَّان حتى لمسةَ القرآنِ.
بابٌ،
حجرةٌ في الطابق المفردِ. . .
بابُ الحجرةِ المصقولُ باللمس، وبالأغشية المضطربةْ

ظل مفتوحاً على كل المصاريعِ. . .
تُرى. . . من يدخل الليلة؟
في سيارةٍ من «نقرة السلمان». .
في راياتِ بتروغرادَ،
في عينين من غزّةَ؟
سُلِّمنا إلى حراس «بعقوبةَ»:
يا أرضَ النتوءاتِ التي تركلُ حتى كلماتٍ
بلَّغتْها قوةَ الحلم،
ويا أرضَ الجنود الكتبةْ. . .
هذه الحجرةُ في آخر «بعقوبة»
هذي الحجرةُ المقتربةْ. . .
من تُرى يدخل فيها؟
من ترى يحسبها مثواه، أو مضطرَبهْ؟
حجرة للمشنقةْ
حجرة أم حَدَقةْ؟
حجرة لم يكفِ .T.N.T عليّ بنِ محمدْ
وبيانُ «الجبهة الحمراء» أن تُنسَفَ. . .
مَن يدخلُ فيها؟

«٢»

التنفيذ

تستقيمُ المشنقةْ
أبداً في آخر الحجرةِ. . .
كان الخشبُ المدهونُ باللمسِ وبالجهشةِ
فظّاً، مستقيماً:
تستقيمُ الطبقةْ.
يدخلُ الحجرةَ عشرون نبياً،
يحملون الورقَ الجاهزَ، والقهوةَ، والأحكامَ
والليلَ الذي غادرَ. . .
عشرون نبياً أحدقوا بالمشنقةْ،
وضعوا الطفلَ الفلسطينيّ في دائرة الضوءِ:
عمودُ المشنقةْ
كان مما قدَّروا أعلى.
وحبلُ المشنقةْ
كان مما حسبوا أغلى.
ومعنى المشنقةْ
كان مما فكّروا أجلى.
على كوفيةِ الطفلِ الفلسطينيّ
أحداقُ الذين استمتعوا

بالدم الشاهدِ.
أحداقُ الذين استمعوا
لأنينِ العشبِ إذ يدخلُ ما بينَ حذاءِ الطفلِ والأرضِ...
وأحداقُ الذين ارتقبوا
قِبلةً بين مدارَينِ:
البساتينِ، وعودِ المشنقةْ.
.....
.....
.....
يقفُ الطفلُ الفلسطينيُّ في الحجرةِ:
يصغي الأنبياءْ
لصريرِ الحكمِ،
تصغي الطبقةْ
للإراديةِ،
تصغي المشنقةْ
لأغاني الطفلِ...
في الساحةِ، كان الفجرُ مبتلاً
وفي الحجرةِ كان العنْقُ المائلُ مبتّلاً
وفي الكوفيةِ الملقاةِ في زاويةِ الحجرةِ...
أحداقُ الذين ارتقبوا
قِبلةً بين مدارينِ:
البساتينِ، وعودِ المشنقةْ.

«٣»

بيسان

بعد أن متنا، عرفنا الأرضَ.
سمَّينا الذي لم يكن الهجسُ يسمِّيه...
دعَونا الشجرَ الطالعَ «بيسانَ»
وصدرَ الأمّ «بيسان»
وعنقودَ الخريفِ الشُهْدَ «بيسان»
وسمَّينا ضريحَ الطفلِ «بيسان»
وقُلنا للرصاصاتِ التي تصدأُ في أليافنا:
تبدأُ بيسان
انتهى البدءُ
ومن كلِ الخلايا نهضت «بيسان»
من كلِ الدهاليزِ التي تكتظّ بوَّاباتُها
بالزخرفِ الموروثِ
من كلِ المرايا.
هكذا نقرأُ بيسانَ على الصخر الذي علَّمَنا
كيف نغدو الماءَ، أو نعدو سرايا،
وهي «بيسانُ» قرأناها طويلاً
في القرى تُمحى
وفي الفانوس يهتزّ ضئيلاً

وقرأناها بعينِ المنشدِ الأعمى
قرأناها سقوفاً من صفيحْ
وقرأناها صفوفاً
وحفرناها على الأرضِ التي لمَّا نزلْ نُطردُ منها
وقلبناها، وركَّبنا حروفاً وحروفاً
وبرأْناها ضِماداً للجريحْ.

«٤»

نذور

للفتى «بيسان» غنَّينا
وصلَّينا
وقدّمنا نذورَ الفقرِ والتنظيم
قدّمنا الجذورَ المُرّة الأولى
وقدّمنا الثمرْ.

«٥»

الجلسة

حكماءُ البدوِ في الخيمةِ.
«بيسانُ» الفتى يدخلُ.
«بيسانُ» الفتى يخرجُ.
والجلسةُ ما زالت:
يدير الحكماءُ الملتحون القهوةَ المرةَ
والخاتمَ
والتاريخَ...
يمشون على آثارِ موتاهم
على آثارِ عشرينَ نبياً قتلوا طفلاً
ويستنُّون ما قالوا شريعةْ.

«٦»

العام الرابع عشر

بينما تصرخُ في شهرِ شُباطَ القططُ السودُ
وترتاحُ الصبايا
وإذ يُراقَبنَ،
وإذ يرقُبنَ،
تأتي نسوةٌ في أولِ الليل، ويُخبرنَ الصبايا
أن «بيسانَ» الفتى غابَ
وأن الدركَ الليليّ يرتادُ الزوايا
باحثاً عنهُ. . .
الهلالُ الطفلُ في غيمِ شباطَ الداكنِ استخفى
وأخفتْ زوجةُ النجَّار طفلاً ضاحكاً في كومةِ القشِّ.
الرجالُ انتظروا يوماً، فيومين
النساء انتظرتْ شهراً، فشهرين
الصبايا انتظرتْ عاماً، وعامين
و«بيسانُ» الفتى الغائبُ، في غيبتِهِ. . .
أيَّانَ يأتي؟
أيُّ وعدٍ في السماوات التي تنهدُّ بالرعدِ؟
وأنَّى موضعُ الغيبةِ؟

«بيسانُ» الفتى، غاب. . .

وكالغائب، والغيبة. . . كانت عشبةٌ تنبتُ في

الأرض الخراب.

بغداد، ١٩٧٨

الجواهري

حين رأى الجواهريُّ، الجنَّ بين الصخرْ ـ
تقفزُ،
أو تندسُّ تحتَ الرملْ
أقامَ من ضفدعهِ المبتلِّ والمختلّ
دارتَه المُثلى،
وبيتَ العقلْ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لكنما أبو فراتٍ حينَ أكملَ القصيدةْ
واستلَّ من سيجارةٍ مدعوكةٍ،
أخرَ ما يؤرّثُ السيجارةَ الجديدةْ
أغمض عينيه على كأسٍ من البيرةِ
في مقهى
يَبعدُ آلافاً من الأميالِ
عن ضفدعهِ
والدارةِ المثلى
وبيتِ العقلْ.

بغداد، ١٩٧٨

طيران

غيمةٌ في الضحى تتدحرجُ . . .
لو كنتُ طفلاً
لأمسكتُها بيدي
ثم ألقيتُها في الحديقةْ
كُرةً . . .
ودخلتُ الكرةْ
وأمرتُ الكلاب :
انبحي . . . كي أطير .

بغداد، ٢٤/ ٩/ ١٩٧٨

الأيائل

كيف تغدو السماءْ
خطوةً واحدةْ؟
كيف تغدو الجذورْ
تاجَنا؟
كيف تغدو المدينةْ
جبلاً؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في الجبالْ
في ظلام الجبالْ
تتمشّى الأيائلْ.

بغداد، ١٨/ ١١/ ١٩٧٨

الجنة

ينامُ في «مكتبةِ الريّ»،
ينامُ النهرُ في صمتِ التقاريرِ
السدودُ استُودِعتْ،
والفيضاناتُ التي روَّضَها الرفُّ الحديديُّ ـ
ترابٌ يمسح الأهدابَ.
هل يقرأُ حتى تنطفي عيناه؟
هل يمحضُ أرضَ اللَّه، ما يمحضُ، حتى آخرِ العمرِ؟
السنون ازّاحمتْ مغبرةَ الأهدابِ في «مكتبة الريّ»،
وفي «مكتبة الريّ» ينامُ النهرُ
حراً، نَضِراً، منتظمَ الأنفاس
لا بأس،
فهي الحجرةُ الموعودةُ:
الجنةُ،
والسقفُ الذي سمَّيتَهُ (في الغربة) الأسماء.

بغداد، ٢٤/ ١٠/ ١٩٧٨

خماسية الروح

«١»

يومَ عالجتُها بِالترابْ
ـ هذه الروحَ ـ قال الترابْ:
بالضياء احترقتُ.
كيف يمضي إلى كوكبٍ ليس يعرفُه؟ هذه الطرقُ
المستقيماتُ ماثلةٌ منذُ أن كان طفلاً... وهذا الترابُ
الذي ظلَّ دهراً يُبعثره، أو يسفُّ احتمالاتِه: البذرةَ
الأمَّ، والدّرْنةَ القاتلةْ.
بالأظافير يحتثُّهُ، بالأكفِّ الرقيقاتِ يَحْثوهُ...
هذا الترابُ الجميلُ، الترابُ المموَّهُ بالناس، من أينَ
يأتيهِ؟ من أين يقتادهُ للمتاعبِ؟ دارتْ به السنواتُ:
الترابُ المبعثرُ بين أصابعهِ، والسبيلِ المبعثرُ،
والنظرةُ الحائلةْ.

«٢»

حين عالجتُها بالهواءْ
ـ هذه الروحَ ـ قال الهواء:

يومَها، ما هببتُ.
هو، والبحرُ، كانا شقيقينِ... ذاك الهواءُ المشبَّعُ
باليودِ، والسمكِ المتعفنِ، والثوم... ذاك الهواءُ
الذي يتسربُ بين القواقعِ، والهبَّةُ البكر تُزهرُ
فقَّاعةً...
هو، والبحرُ، كانا شقيقين... من يملأُ الرئةَ اليومَ؟
إني أحشرجُ بين الرفوفِ التي سكنتها الرواسبُ،
والفيضاناتْ...
هذا الهواءُ الذي جاء من نينوى، والهواءُ الذي ظلَّ قنينةً...
والهواءُ ـ الهواءْ.

«٣»

يومَ عالجتُها بالحجرْ
ـ هذه الروحَ ـ قال الحجرْ:
هل أكونُ انتهيتُ؟
كم دُفعنا إلى حجرٍ، كي نطوّف دهراً بهِ...
أمس قلَّبتُه في يدي... أيها الحجرُ النيزكُ، الحجرُ
الأبيضُ، الحجرُ المتلونُ: أيَّ زمانٍ قطعْنا معاً!
أيَّ أرضٍ حللنا! وأيُّ مواطنَ لم تنفتحْ وطناً!
ربما كنتَ لي ساعداً يومَ كنا صغاراً... وصرتَ الهراوةَ
في الرأس حيناً. ولكننا الآن ندّان: أنتَ الذي

جئتَ من أول الكون. . . هل جئتَني؟ وأنا الناهضُ
ـ الدهرَ ـ هل أنثني؟

«٤»

يومَ عالجتُها بالشجرْ
ـ هذه الروحَ ـ قال الشجر:
كالتراب احترقتُ.
شجرات الطفولةِ، يا شجراتِ الطفولة، يا شجراتِ الطفولةْ
لنكنْ مرةً واضحِينْ،
لنقلْ مرةً إن أقسى الحنينْ
نُدبةٌ في الجبينْ.
لنقلْ مرةً إن أبهى الغصونْ
ما اختفى في العيونْ.
لنقلْ إننا ما عرفنا الطفولةْ:
أنت يا شجراتِ الطفولةْ
كنتِ ممتدةً. . .
وأنا كنتُ أبكي.

«٥»

يومَ أطعمتُها نارَها
قالت الروحُ:
إني استرحتُ.

طلْقةٌ هذه الروحُ . . .
مجنونةٌ، هي لا تشتري بالفداحةِ غيرَ عذاباتِها .
تستجيرُ بـ «رامبو» لتأخذَ من شُحُناتِ بنادقِه
الحبشياتِ واحدةً. تهبط الليلَ في الماءِ مأخوذةً
بارتعاشاتِ بشَّارٍ المحتضَرْ.

طلقةٌ هذه الروحُ . . .
هل سوّرتْها سماءٌ؟ وهل صوَّرتْها ممالكُ مثلَ
المماليكِ، هل أودِعتْ في روائحِ طابوقةٍ منذُ بابلَ؟
نيرانُ جنٍ يغنُّونَ، أم نارُ مجمرةٍ عندَ رأسِ
الشهيدِ . . أم الغائبُ المنتظَرْ؟

طلْقة هذه الروحُ . . .
كالريحِ تعوي وتذوي
وكالريحِ تذوي فتعوي
وكالريح تعوي . . . ووووووووي . .

بغداد، ٧/ ١١/ ١٩٧٨

صباح الخير أيها الفاكهاني!

صباحَ الخير!
صباحَ الخيرِ أيتها الشوارعُ والبنادقُ. . .
يا صباحَ الخيرِ
يا «بيريَّةً» حمراءَ، يا شمساً على شَعرِ الفتى. . .
ولكم صباحُ الخيرِ، حرّاسَ المقرِ
لفُوَّهاتِ الليلِ، سرِّ الليلِ
للتعبِ اللذيذِ على عيونكم الجميلةِ.
يا صباحَ الخير للأطفالِ في زيّ المدارسِ
للصبايا يَشتهِينَ
ويُشتهَينَ
لقهوةٍ عند الرصيفْ.
لأمّ نبيلٍ. . .
ابتسمي!
صباحَ الخيرِ، أمَّ نبيلٍ. . . ابتسمي!
صباحَ الخيرِ، شايَ أبي عليٍ. . .
أيها المتحرقون إلى أزيزِ الطائراتِ،
على مدافعكم. . .

صباحَ الخير.
صباحَ الخير، عمَّالَ ـ القمامةِ.
للمذيعةِ
للشبابِ المتعبينَ من النقاشِ
لصمت «توليدو»
لمن عَرضَ «الشغيلةَ» مرَّتين عليّ...
للطلابِ يجتازون، في المقهى، مراحلَهم
صباح الخير.
صباح الخير للثوراتِ تنفجرُ
كفرقعة الفقاقعِ، في مُسَوّدة «البيان» الطفلِ،
للثوريّ في المقهى: صباح الخير!
للثوريّ في قلبي: صباح الخير!
لامرأتي، صباح الخير
صباح الخير
صباح الخير
صباح الخير!

بيروت، ١٧/ ٤/ ١٩٧٩

الرماة

«إلى ابن خلدون»

«١»

بعد أن داروا على رملتهمْ
شقّقوا أقدامَهم فارتحلوا
الأقانيمُ على أحداقهم
والأقاليمُ تراها الإبلُ
في السماءِ التي تجفُّ، رأينا العشبَ، نحن الموكَّلينَ
بأرضٍ من قبورِ البناتِ والفتيةِ العشّاقِ. للحربِ
نستديرُ، وللحبّ نغني. أمانةَ اللَّه، ما كنا الرجالَ ـ
الموكَّلينَ بقتلِ النفسِ، لكننا نموتُ إذا لم نقتلِ
البذرةَ المعدّة للعشبِ، إذا لم نضعْ دماءَ غزالٍ
فوقَ كفّ العروسِ. كان لنا بيتٌ، وطُفنا بهِ
زماناً، تُرانا قد نسينا ما كان يكتبهُ الرمحُ على الرمل،
أم نسينا ارتطاماً بحدودٍ؟ بلادَنا؟ نحنُ
لم نعرف بلاداً، خيوطُنا الغزْلُ نرميها فنثوي،
هذا الحِمى كالسرابِ، الليلَ خطَّتْ عصا بلاداً،

وفي الصبحِ انتهى الرملُ من تهاويلِ أهراماتِه. . .
بعضُنا كان ضاربَ السيفِ. . . من نضربُ؟
أهراماتِنا التي قد بناها الرملُ؟ أحجارَنا التي
قد عبدناها، النساءَ المعذباتِ؟ الرجالَ الجائعين؟
انتهت مضاربُنا يوم رأينا السماءَ سدرتَنا:
أغصانُها الجدولُ العراقيُّ والطيرُ. انتهينا إذن،
وقهوتُنا ظلّت بلا سُكَّرٍ. . . مرارةُ هذي الأرضِ
دارت قصائداً، نحن نتلوها على ميتينَ، أو عُلِّقتْ
حولَ الصخورِ النيازكِ. الرملُ في أفواهنا
غُصَّةٌ، وماءُ العراقينِ: الملاذُ العظيمُ، خيماتُ
أولادِ الأفاعي، خيماتُنا الوبُر الفظُّ، الجِمالُ
السليبةُ، النسوةُ اللائي خطفْنا. العراقُ يمتدُّ
خطينِ. المياهُ احتراقُنا، نظرةُ الفلاّحِ تلقي
بنا إلى رُبعنا الخالي، ولكننا سنأتي: العراقُ ـ
العشبُ، مرعىً لنا، وبستان موتانا، العراقُ ـ
الفلاّحُ، أهراؤنا، صندوقُ أشياخنا، نقبِّلُ
هذا السيفَ، نستلُّهُ من الإبل العطشى. . . ونمضي
به، البُداة يجيئون، الكتائبُ، الصيحةُ،
الأرجالُ، قاماتُنا النحيلةُ كالأرماحِ تمضي
إلى العراق العراق.

«٢»

ربما مرّتْ على أهدابنا
خفقةٌ خرساءُ ممن قُتِلوا
ينبتُ العشبُ على أجسادهم
حين تشتو الريحُ أو تنتقلُ
ربما مرتْ بنا، لكننا
كلَّ عامٍ، بينهم نحتفلُ

جاءنا في القريةِ النوروزُ. كانتْ فتياتُ الحَضَرِ البضَّاتُ يرشقنَ زهورَ الحقلِ في كَذلاتهنّ. الصِبيةُ الأيتامُ (آباؤهمو قتلى بأيدينا) يغنُّونَ وراءَ الفتيات:

لو هلهلت يا ميَّاسةْ
تأتي الفرسانُ الدوّاسةْ
لو هلهلتِ يومَ الحنَّةْ
تأتينا أغصانُ الجنةْ
لو هلهلتِ
يا ورداتي

يهبط الصوتُ على أسماعنا، يُحرقنا كالماءِ: فلاّحونَ في النوروزِ. مَن نحن؟ بُداةٌ دخلوا القريةَ بالسيفِ، أقاموا خيمةً أخرى من الطينِ بأقصاها، وبعدَ الإبلِ العجفاءِ صاروا يحلبونَ البقرَ الفاقعَ، نيرانهمو الروثُ، وأضيافهمو أهلُ الربابات. يمرُّ الصِبيةُ الأيتامُ

(آباؤهمو نحن قتلناهم) يغنُّون. ونحن البدو مرميونَ
في خيماتنا الطينِ. أولاءِ الحضرُ التمُّوا على أشجارهمْ.
والبدوُ؟ نحن البدو ملتمُّون حول البقرِ ـ الإبْلِ،
نرى عبرَ الرباباتِ: صحارانا، وفي أدخنةِ الروثِ:
بخورَ الشيحِ والقيصومِ. ليلُ الحضرِ المسكونُ بالماءِ.
وفي الليلِ تشفُّ القهوة المرّةُ (مرميون في القريةِ
لا طعمَ لنا)، أهزوجةُ النوروزِ تأتي من بعيد:

لو هلهلتِ يا ميَّاسةْ
تأتي الفرسانُ الدوّاسة
لو هلهلتِ يوم الحِنَّةْ
تأتينا أغصانُ الجنةْ
لو هلهلتِ
يا ورداتي

«٣»

آنَ أن ننفضَ عن أقدامنا
حبةَ الرملِ، ونعلَ ـ الأَدَمِ
آنَ أن نحفر في قريتهم
خندقاً أعمقَ من خيطِ الدمِ
إذنْ، فلنكنْ حضراً... هل تكونُ البدايةُ أن
نرتدي ما نشاءُ... السراويلَ أو زهرةَ الرازقيّ؟
ولكنهم يضحكونَ، الصغارُ الذين فتكنا بآبائهم
يضحكونَ... تُرى ما نزالُ البُداةَ؟ وهل ذبلتْ

زهرةُ الرازقيّ وقد أُلصقتْ بحراشيفنا؟ كيفَ
نغدو هنا القرويينَ؟ هل تستوي زهرةً إبرةٌ
غُرزتْ في الجبين؟ العراقُ المراوغُ ينأى بنا
عن بساتينه. فلنكنْ مرةً حضراً. فلنراوغْ
مع الماءِ هذا العراقيَّ، ولنفتتحْ سوقَنا:

(عصبة من شيوخ البُداةْ
وأبنائهم. عصبة من رُماةْ
أقاموا معسكرهم في أعالي الفراتْ
ومن يأتِهِمْ يلقَهُم).

ولكنهم لم يجيئوا، وظلَّ المعسكر.. ساحاتُهُ
في الليالي الشتائيةِ الوحلُ. ساحاتُه العِثْيَرُ الصيفَ.
ظلَّ المعسكرُ مستوحداً في أعالي الفرات ـ هو الطينُ
يأكلُ زيتَ البنادقِ، طينُ العراق القديم... تُرى:
هل سيختم أعمارَنا والمعسكرَ؟ هل نكتفي بالتطلعِ
نحو مصيرِ الرقيم؟ المعسكرُ مستوحدٌ في الشتاء:
أتوا، هكذا، بغتةً...
أتونا ثلاثتهم... والوجوهَ الدنانيرَ. لم يبصرِ
الحضريُّ العراقيُّ أمثالَها. نحن في السوق ـ
قال الثلاثةُ: «فلنقتسمْ» ـ

لكمو كلُ ما هو فوقَ التراب
ولنا كلُ ما هو تحت الترابِ

هكذا، قاسمتْنا الملوكُ الثلاثةُ. في الليل أقسمَ

كلُ الرماةِ. وفي الفجر كان العراقُ المراوغُ مقتسَماً بيننا:

للملوكِ الثلاثةِ ما هو تحت التراب
ولنا كلُ ما هو فوق التراب

«٤»

فليكنْ! قد دارت الدنيا لنا
دونَ أن نعرفَها كيف تدورْ
أهُمُ الناسُ ترامَوا كِسَفاً
بين أيدينا، فأمسَينا البذورْ
قد جاء أبناءُ العمومةِ، مثقلينَ من الأقاليمِ البعيدةِ،
في الحقائبِ ترفع الليراتُ أعناقاً. وعند شواطئ
الأنهارِ ترتفعُ المنازلُ. أمسِ حين سألتُ عن حرّاسِنا
قربَ المعسكرِ لم أجدْهم. في المساءِ رأيتُهم في دارةِ
«اسطيفانَ» مختنقينَ خمراً، والبنادقُ تحتَ أثوابِ
العواهرِ. قلتُ: «أمضي للأمير». مضيتُ،
عندَ القصرِ أوقفني الجنودُ. رُدِدتُ. كانت حانةُ
«القمرِ المهددِ» في طريقي. قلت: «فلأدخلْ». دخلتْ.
رأيتُ كتَّابَ الأمير. سألتُهم، وخرجتُ. هل أمضي
إلى «قيثارةِ العميانِ»؟ رُبتما سمعتُ قصيدةً وشربتُ
كأساً. لم تكن «قيثارةُ العميانِ» قد فُتحتْ. طرقتُ
البابَ. قالت لي فتاةٌ:

ـ غادرَ الشعراءُ.

● أين؟

ـ إلى الوليمةِ.

● كلُّهم؟

ـ كلُ الذين عرفتَهم.

ودّعتُها قبلَ انطباقِ البابِ. ثم مضيتُ عبرَ أزقةِ الفقراءِ، نحوَ النهرِ مغتمّاً. جلستُ ونخلةُ قربي، وفَيءُ شُجيرةٍ، والنهرُ تقطعهُ الزوارقُ والشِباكُ.

وفجأةً:

أُلقيتُ أرضاً.

قيَّدوني بالحبالِ

سألتُهم: ماذا فعلتُ؟

فلم يجيبوا.

أركبوني زورقاً، ومضَوا خفافاً صامتينَ. هناكَ عند الضفةِ الأخرى، قلاعُ السجنِ، معتمةٌ ثقيلةْ

«٥»

نفخَ الخيمةَ حتى خالَها

تجمعُ العالمَ من أطرافهِ

ثم لم يعرفْ بها إذ نالها

ما ينالُ الطينَ من خَزّافِه.

يقفُ البدوُ مستنفَرينَ. المدينةُ نائمةٌ. والقصورُ التي هَرِمتْ في السنين الأخيراتِ، تهبطُ في الماءِ،

شيئاً فشيئاً، على شاطئ النهرِ تبدو القلاعُ.
الزوارقُ مشدودةٌ بجذوعِ النخيل. المعسكرُ
مستوحدٌ في أعالي الفراتِ، وحرّاسُه غادرَوا.
الحانةُ استقبلتْهم. ومن قمةِ السورِ تلمعُ نارُ البُداةِ.
يَشِفُّ النسيمُ النديُّ. تُسِفُّ الوريقاتُ في منزل
الفيلسوفِ المزيَّفِ. في البُعدِ نيرانُهم. يقفُ البدوُ
مستنفَرينَ:

العراقُ ـ المياهُ
العراقُ ـ الملاذُ
العراق ـ المراعي
العراق ـ القرى

إنهم يعرفونَ. البرابرةُ استجمَعوا للصلاةِ الأخيرةِ
أربابَهم. والمدينةُ من ليلها الحضريّ. النساءُ الجميلاتُ
يرقُصنَ فوقَ السلاحِ المبللِ بالخمرِ. في قلعةِ السورِ
يُقطَعُ عنقُ المغنِّي. يقفُ البدو مستنفَرين. أتَمُّوا
الصلاةَ الأخيرةَ. باركَهم ربُّهم. والمدينةُ في فجرِها
الحضريِّ. النساءُ الجميلاتُ يرقدن بين السلاحِ
المبللِ بالخمرِ.
في قلعةِ السور يعلو الأذانُ
المدينةُ جاهزةٌ...
والرماةُ هم القادمون.

بغداد، ١٩٧٨

استغفار

أعطِني من ثوبكَ المُلقَى على الشاطئِ
ما يسترني.
أعطني من كَفَني
بعضَ ما يسترني الليلةَ ـ عن عينيّ:
عارٍ في السماواتِ التي تشحبُ
عارٍ في السماواتِ التي تلعبُ
عارٍ في السماوات التي سوف تدورُ
الرايةُ الحمراءُ فيها.

*

أيها الطفل الذي يمشي على الماءِ
فنخطو نحنُ في الوحلِ:
لماذا؟

*

قد أراكَ اليومَ في المقهى
وقد ألقاكَ في ضلعي
وقد أسألُكَ المغفرةَ الكبرى،
ولكني أرى وجهكَ بين الشهداء

بغتةً . . .
يا أيها الطفلُ الإلهيّ،
لقد علَّمتَنا كيف يجيء الشهداء
بغتةً . . .
لكننا، كيف نكون الشهداء
دون أن نحملَ أيدينا
ونمضي في قرارِ البحرِ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أطلقْنا العصافيرَ
وطلَّقْنا صفيرَ القنبلةْ

*

آه، يا راياتِنا المنخذلةْ!

بيروت، ٢٥/ ٤/ ١٩٧٩

قصيدة

● بين بيتٍ يُسوّرني وسماءٍ طليقةْ
كيف أختارُ بيتي؟

● بين صمتي وأغنيتي
كيف أختارُ همسي؟

● بين أحداقها والثياب ـ
كيف أدخلُ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

تمتمةٌ من شميمِ الصنوبرِ
همهمةٌ من غصونِ الصنوبرِ
غمغمةٌ في الظلام. . .

بيروت، ٢٨/ ٤/ ١٩٧٩

إنغمار

من تُراها تقتلُ الأخضرَ بِنْ يوسفَ في بيروتَ ـ
من يأتمرُ، الليلةَ، في بارٍ، عليه. . .
من تُرى يقتلُه في دورةِ الشارعِ
أو في دورةِ المقهى
وفي دائرةِ الظلِ،
وفي الدورِ الذي لن يصلَ الخَطُّ إليه. . .
من تُرى يُسْلمهُ للنزْعِ مطعوناً، ومدهوناً بزهر البرتقال؟

*

كلُّ ما قالَ انتهينا منهُ:
ما يحسَبهُ نجماً عرفناهُ
وما كان له بيتاً بلغناهُ،
وذاك الشاطئِ الأولُ. . . رملُ الصبوةِ المسحورُ ـ
مهجورٌ. . .
عظامُ الطيرِ والأسماكِ، والصخرُ الذي ينحلُّ،
لكنْ. . . ذلك الهجسُ الذي لما يزلْ ينبضُ في الأخضرِ فتَّاناً. . .
وذاك النجمُ
ذاك البيتُ

هذا الشاطئُ المهجورُ ـ
والمسحورُ في إيماءةِ الأخضرِ . . .
ذاك الهجسُ . . .
تلك القطرةُ الملعونةُ الحرقةِ في آخرةِ الكأسِ الأخير!

*

يجلسُ الأخضرُ في البار
ـ كما كان ـ
وحيداً .

*

● ولماذا جئتَهُ الليلةَ؟
هل فكرتَ بالكأس التي يشربها حتى الـ . . ؟
ـ ولكني انتظرت
أن أرى صحوتَهُ يوماً . . .
● وهل أيقظتَهُ؟
ـ لا .

*

بعد حينٍ يقفرُ الشارعُ
في «البستانِ» يخبو الضوءُ،
من غرفته يهجسُ آثارَ الخطى،
ينقطعُ الخطوُ . . .
وفي أبراجِ «توليدو» ينامُ الحارسُ الطفلُ

وتأتي ليلةٌ أخرى،
وتأتي امرأةٌ بالزهرِ، في ثوبِ الحِداد.

*

حين جاءَ القتلةْ
لم يكن سيِّديَ الأخضرُ في مأواهُ...
كانت سدرةٌ مشتعلةْ
تعلنُ الرجعةَ...
كان الكونُ مدهوناً بزهرِ البرتقال.

بيروت، ٧/ ٤/ ١٩٧٩

بيت خالي

من بعيدٍ أراكْ
عنباً أو مياهْ
من بعيدٍ أراكْ
هل تراك الحياةْ؟
قيل جئنا إلى بعضنا، واتَّركنا على عتباتكَ
أحذيةَ السفرِ الغُبْرَ، قلنا: «سلاماً... طفولتَنا»،
ودخلنا. فيا ظلمةَ الغرفةِ الجانبيةِ، يا ظلمةَ
البيتِ، من أين نأتيكِ أو نرتديكِ؟ انتهينا
إلى حيثُ كنا. ولكننا في البراري. لماذا، إذن، نحن؟
ماذا انتظرْنا طوالَ السنين... أغرفتكَ ـ الجانبيةَ
يا بيتَ خالي؟ أظُلمتَها في الظهيرةِ؟
بيتانِ أنت: فأيَّ المداخل أختارُ؟ من أين
آتيكَ يا بيت خالي؟

*

نسمةٌ في الهواءْ
تتحرك بين القصبْ

هل يدورُ الهواءْ
في عروقِ العنبْ

*

خلِّنا نتفيَّأ، أو نفتدي بالعرائشِ ما تركتْهُ
السنونُ على لونِ قمصاننا. خلِّنا نتفصَّدُ تحتَ
العرائشِ، يجري بنا العَرقُ ـ الملحُ، نستفُّهُ
قطرةً قطرةً، همسةً همسةً، واعتراضاً وأسئلةً.
كيف مرَّ الطريقُ بنا؟ كيف كنا المَدينينَ؟
كنا المُدانين؟.. هذا الهواءُ الذي يتثاقلُ
تحتَ العرائشِ: أنفاسُنا أم أنينُ الخلايا؟
ارتكاباتُنا أم نسيمُ الظهيرة، يا بيتَ خالي؟

*

حين يمضي بهِ
زورقٌ من ورقْ
يصطفي ما بهِ
موجةً للغرقْ.

*

للمياه التي تصنعُ الكونَ يمضي. لآخرةِ البصر.
البصرةِ، البحرِ، يمضي. وزورقُه ورقٌ أو
صفيحٌ. بلادٌ سماويةٌ بين أهدابهِ والمجاذيفِ.
أنْ يغرقَ اليومَ مستسلماً للمياه، ومستلماً

عشبةً في القرار. البلادُ البعيدةُ وثَّابةٌ
بالكواسجِ. أين المساءُ الذي سوف يُدركهُ قبلَ
أن تغربَ الشمسُ؟ لي منزلٌ في البلادِ
البعيدةِ، لي عشبةٌ، واتِّكاءٌ على صخرةٍ،
ليَ عينانِ مغمضتانِ. . .
انتظرْني إذن.

بيروت، ١٢/ ٥/ ١٩٧٩

الوردة المستحيلة

مدن في دمشق:
انتسبتُ إلى بعضها
وتناسبتُ في بعضها
وتناسيتُ بعضا.
مدنٌ في دمشق التي تمنحُ السرَّ أرضا.

*

أمسِ، في الجامعِ الأمويّ، استندتُ إلى الخالقِ الفردِ،
هذا الرخام الذي يستدقّ إلى أن يشارِفَني، ويغورُ
إلى أن أُشارِفَهُ...
أمس، في الجامع الأمويّ، وفي فيءِ سجَّادةٍ، كنتُ
أقرأُ أسماءَ من سقطوا يحفرونَ الخنادقَ حولَ المدينةِ،
أقرأُ أسماءَ من نحتوا في صخورِ الربيئةِ أجسادَهم.
كنتُ في الجامعِ الأمويّ، وحيداً، يُظللني سقفهُ
المطمئنُّ الثريَّاتِ...
يدنو جناحٌ ويسألني: «هل رأيتَ الحجرْ؟
هل تقرّيتَ هذي الخشونةَ في حَجرِ الجامعِ الأمويّ؟
وهل غرزتْ مقلتا زينبٍ زهرتين على راحتيك؟

وهل كنتَ مستوحداً حين أغفيتَ:
ظهرُك لصق العمود
وعيناك لصق الحدود؟».

*

منذ عشرينَ عاماً وعامين
لي منزلٌ بدمشقَ العتيقةِ،
جدرانهُ راحتاي
وأشجارُه لهفتي.
منزلٌ في دمشق العتيقةِ
حاذرتُ أن يطأ العابرُ المتعجلُ أعتابَهُ،
أو يراه المُتاجرُ،
أو تدّعيه الغيومُ الجديدةْ
إنه الآن يمشي معي
في البلادِ التي كرهتْ
والبلادِ التي هويَتْ
والبلادِ التي لا أراها.

*

من يكون الملوّحُ بالنارِ في زمنِ القمّةِ العاريةْ؟
من يكون الصديقُ الذي لا يغادرني
عند أولِ منعطفٍ؟
من تكون الفتاةُ التي تتآمر لي؟
من يكونُ الفتى؟

من تكونُ دمشقُ التي تتبرجُ في ليلها؟
من نكون؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

هل أتى حُبنا الصعبُ؟
هل آذنتْ، بعدَنا، الوردةُ المستحيلةُ؟
هل آذنت مدنٌ في دمشقَ:

انتسبتُ إلى بعضها
وتناسبتُ في بعضها
وتناسيتُ بعضا؟

دمشق، آذار ١٩٧٩

نسخة أولى

أحياناً، أحتاجُ فلسطين.
لماذا ينفتح الشبَّاك صباحاً؟
أجلسُ في المقهى، وأفكِّرُ:

*

ما صحفُ اليوم؟
وفي القهوة أشرب نفسي
في الشاي أرى وجه امرأتي

*

كلب تحت المطر النيسانيّ
وحيد...
وأحبكِ يا زائغة العينين
أحبُّ الأثواب الممدودةَ،
تدبيركِ، هذا الخشنَ الأسود
شعرَكِ هذا الأسودَ
عينيكِ السوداوين.
أحبكِ حين تموتين
أحبكِ حين تعودين

وماذا في شفتيّ سوى القهوة والشاي؟
وماذا في عينيّ سوى صحف اليوم. . .
وأنت تعودين من الشاطئِ
مثقلةً بالخبّازي
مثقلةً بالقتلى
مثقلةً باسم فلسطين. . .

بيروت، ٢٢/ ٤/ ١٩٧٩

صداقة

«إلى أدونيس»

حين تمتد كفِّي
لا تصافح إلا أصابعَها.

*

حين تمتدّ كفُّكَ
كيف تصافحُ إلا أصابعَها؟

*

نحن من أنبتتنا البراءةْ
نحن من أنّبتنا البراءةْ
نحن من لا نريد البراءةَ ماضيةْ
لا نريد البراءةَ لاحقةً،
نحن أبناءُ ذاك المسيلِ المحاصَرِ ما بينَ بحرينِ
أبناءُ من يحفرون الجدارَ إلى الفجرِ،
والفجرَ يصحون عند الجدار.

*

ربع قرنٍ أتيناه:
هذا ابنُ تيميةَ المتحولُ رأسَ عصا،
والموفَّقُ يحتزُّ مختارةَ الزنج من رَحِمِ الأرضِ

يركلُنا الشرَطيُّ الدمشقيُّ
يركلنا الشرَطيُّ العراقيُّ
تركلنا شرْطةُ العرب الأمريكيةُ
الإنجليزيةُ
الإنتربول
الفرنسيةُ
الفارسيةُ
شرْطةُ عثمانَ
أو شرْطةُ الحاكمِ الفاطميّ. . .
ويركلُنا أهلُنا
أهلُنا السذّج الطيبون
أهلُنا القاتلون.

*

نحن أبناءُ هذا الجنونْ
فلنكنْ من نكونْ.

*

ليس ما بيننا ثقةً:
بيننا عُنقُ الوردةِ النازفةْ
بيننا تبدأُ العاصفةْ ـ
من عناصرِها. . .

*

فلأقُلْ: إننا نتصافحْ!

بيروت، ٨/ ٤/ ١٩٧٩

من يعرف الوردة؟

(١٩٨١)

موقف

هدوءاً. . .
وكُنْ مثلَ مَن قاتلوا في المَمَرّ
وهم يعلمونَ بأنَّ الممرّ
سيجتاحُهُ كلُ من مرَّ. . .
. . . . . .
. . . . . .
لم يرفعوا رايةً
أو كتاباً
ولم يخفِضوا رايةً
أو كتاباً
ولكنهم يحلمون بأنّ الحجرْ
سوف يَسْتَنُّ صيحاتِهِمْ
في صُدوعِ الحَجَرْ.

باتنة، ٧/ ٥/ ١٩٨٠

الواحة

في الغروبِ السِرّيّ تسري البناياتْ، الجذوعُ التي أقامتْ سقوفاً، والزوايا التي استقامتْ شبابيك، الترابُ، الدخانُ في حَجَرِ الموقدِ، هل كانتِ البيوتُ خياماً، أم كلاماً عن الرحيلِ؟ التقتْ أشواقُ صبَارةٍ بأوراقِ كَرْمٍ، ثم ماتتْ معَ الرحيلِ الرحيلِ.

طُولقة(*)

طُولقة

أيتها المدينةُ التي تقهركِ الصحراءُ

وهندسةُ الجنسياتِ المتعددة

أيتها المشيدة

من الجِذعِ الميتِ، والجذعِ الحيّ

أيتها المهاجرةُ

صوبَ المرابينَ والحليبِ المجفّفِ

أُهاجرُ إليكِ

هجرةَ الخارجيّ إلى الباطنِ

(*) «طولقة»، واحة في جنوب شرق الجزائر.

وأقولُ: بهيةٌ أنتِ
تقفُ الريحُ عندَ «زاويةٍ» في النخلِ. . . . بُوذيةَ المناسكِ: من أَعلى
ضريحاً على الوطيئةِ؟ من قال «الكتابُ الحقيقةُ»، «الأرضُ بستانٌ»؟
ومن خَطَّ بالمُذَهَّبِ والأسودِ، تاريخَكِ الجميلَ الذي ننسى؟ إذن،
فلنقُلْ: سلاماً، لندخلْ في التراويحِ. . . ولْنمُتْ في الأصيلِ.
طولقة
طولقة
في «الزاويةِ» تعيشينَ
وفيكِ كانت تعيشُ «الزاوية».
من أزقتكِ المتربةِ
وعيونِ أطفالكِ
تقتلعينَ الرُّخامَ
وتفترشينَ أرضَ «الزاويةِ»
تفرشينَ تربتَها ذاتَ الشميمِ
بسكاكينِ المَقالعِ
لماذا؟
لماذا؟
ربما كنتُ ميتاً حينما جئتُكِ أمشي
على خطاي الأخيراتِ. فهلْ أنتِ
دهشتي؟ أم مَلاذي؟ أم سماواتيَ
التي لم أجدْها مَرةً؟ ربما

ولكنني أخطو خفيفاً على مِهادٍ
من الأعشابِ والسعفِ والتحولِ،
فلأصمتْ قليلاً عن احتضاري الطويلِ.

باتنة، ٦/ ٥/ ١٩٨٠

لقلق نيسان

هكذا جاءَ . . .
بلا طبلٍ، ولا فرقةِ موسيقى
أتاها، هادئاً، منهمكاً
في اللحظةِ الأولى: اختيارُ الدارِ
في الثانيةِ: العودُ الذي سوفَ يكونُ العشَّ
في الثالثةِ: العشُّ . . .
ولكنّ المدينةْ
لم تزلْ في القاعِ . . .
لم تعرفْ لماذا جاءَ
لن تعرفَ ما يفعلُ
لن تدري به حينَ يناديهِ الرحيل.

باتنة، ٣/ ٥/ ١٩٨٠

أوهامُ الأخضر بن يوسف

١ ـ الحانة

هي حانتهُ ١٠٠٪
وهو يعرفُها: بابُها الخشبيُّ الصغير
والزجاجُ الملوّنُ
والبارُ عندَ اليسار
والزقاقُ المؤدِّي...
.....
.....
.....
وهي حانتهُ
ربما دارَ في غيرها
واصطفى عُصبةً غيرَ روّادِها
أو سُقاةً
ومائدةً
في بلادٍ سواها
ربما...
غير أنّ الزجاجَ الملونَ
والبارَ عند اليسار

والزقاقَ المؤديَ
والبابَ. . .
كانت حصيلتَهُ، والوسادَ الذي ظَلَّ يرجوهُ
والملجأَ الفردَ
لو كان عُمُركَ أرحمَ. . .
لو قسوةُ الصخرِ كانت أقلَّ. . .
ولكنْ، لماذا تُحاكمُ ما أحكمتْهُ الهواجسُ؟
ها هو ذا البابُ
فادخلْ
ترَ الكأسَ ممتثلاً، ماثلاً
والسقاةَ حميمينَ. . .
وادخلْ
تجدْ عصبةَ العمرِ
وادخلْ. . .
. . . . . .
. . . . . .
فيا وحشةَ العمرِ
يا وهمَهُ
يا لَهذا الطريقِ الذي لا يؤدِّي. . .
ويا بابَ حانتِه الخشبيَّ المسمّرَ
والورقَ الفظَّ فوقَ الزجاج
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

رذاذٌ،

وخطوتُه تتثاقلْ

شيئاً فشيئاً

ويمضي، كما جاءَ

مستسلماً للرذاذ.

باتنة، ٢٤/ ٣/ ١٩٨٠

٢ ـ القرية

أمسِ، انتحى بشهادةِ الميلادِ، زاويةً
وقلَّبَ، وهو يلهثُ، ما تجيءُ به الخطوطُ:
العمرَ
والسنواتِ
والوجهَ الصبيَّ
وثَمَّ قريتهُ...
أحسَّ الأرضَ تحتَ خُطاهُ ثابتةً
وأنَّ الماءَ يجري
أنَّ ذاكَ الجسرَ لم يزلِ الصغيرَ
وبغتةً...
مسَّته أغنيةُ الطفولةِ
هل يقولُ الأخضرُ المترددُ الكلماتِ شيئاً؟
والخُطى؟
هل يتركُ القدمينِ تتجهانِ أنّى شاءتا؟
.....
.....
.....

في البُعدِ قريتهُ
وفيها الجسرُ
والدُّفلى
وأغنيةُ الطفولةِ
والطريقُ إلى يديه.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كانت حقيبتُه الوحيدةُ نزرةً:
خمراً
وأوراقاً
ومبذلةً مخططةً
وأغنيةً لأغنيةِ الطفولة.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لم يعرفِ البيتَ القديمَ
ولا رأى المقهى
ولم يرَ في البعيدِ شُجيرةَ الدُّفلى
وكان الناسُ، عندَ الجسرِ، مسمولي العيون.

باتنة، ٢٥/ ٣/ ١٩٨٠

٣ ـ الرايات

وجدتُ في زاويةِ الدكانِ، ظُهراً، حزمةَ الرايات
ـ ألم تكنْ مسندةً يوماً إلى الحائطِ
والحائطُ رطبٌ؟
قلتُ: ما دمتُ هنا، في غفلةٍ من صاحبِ الدكانِ
فلأخرجْ بها للشمسِ
ولتخفقْ قليلاً
ربما يسقطُ هذا العَفَنُ الناشبُ في أعوادها
أو ربما تنشفُ في الشمسِ
وقد يُبصرها العابرُ
والعاثرُ. . .
قد أختارُ منها رايةً أحملُها
حين أرى اللونَ بهياً خافقاً في الريحِ
وامتدّتْ يدي. . .
لكنني ما كدتُ في تَلهفي أُمسكُها
حتى تهاوتْ بين كفيَّ
تراباً
خانقاً

أخرجَني من غفلةِ الدكانِ
والزاويةِ الرطبةِ
والراياتِ
والبابِ الصدئ.

باتنة، ٢٥/ ٣/ ١٩٨٠

٤ ـ الزيارة

حين زارَ العراقَ اكتفى بالزيارةِ
قالوا: هو الأخضرُ المتكبرُ...
قالوا له: «كم تضوّعَ بعضٌ بهذي البلادِ
وكم ضاعَ بعضٌ،
وأنتَ بها المتفرجُ...
ما ضُعتَ يوماً
وما ضِعتَ...»
قالَ:
«البلادُ لأصحابها
لا البلادُ بلادي
ولا أهلُها الأهلُ
والماءُ ليسَ السماء».

باتنة، ٢٦/٣/١٩٨٠

٥ ـ الشعر

من هشَّمَ هذي المرآةَ
ونثَّرها
كِسَراً
كِسَراً
بين الأغصان؟
والآنَ. . .
أندعو الأخضرَ كي ينظرَ؟
تضطربُ الألوانُ
وتختلطُ الصورةُ بالشيءِ
وتحترقُ العينان
لكنّ على الأخضرِ أن يجمعَ تلكَ المرآةَ
على راحتهِ
ويلائمَ بين الأجزاء
كما شاء
ويحفظَ ذاكرةَ الأغصان.

باتنة، ٢٦/ ٣/ ١٩٨٠

٦ ـ النعاس

ما الذي جاءَ بي؟
كيف ألقيتُ نفسي بهذي البلاد. . .
دائراً في شوارعِها
ذاهلاً في الحدائقِ
مستسلماً للنعاسْ. . .
ما الذي جاء بي؟
إن أهلي بعيدونَ
لا يعرفونَ
فإن عرفوا. . . هل تراهم يمدّون لي الحبلَ؟
قد يَصعبُ الأمرُ:
غادرتُهم في الطفولةِ،
والناسُ يَنسون. . .
حتى أنا لستُ أذكرُ أهلي.
ولكنّ هذا النعاسَ المعتّقَ إن طالَ يقتلُني،
كيف أنجو إذن؟
إنني، في الأقل، أُحسُّ بهذا النعاس. . .

باتنة، ٢٦/ ٣/ ١٩٨٠

٧ ـ النهر

ألقيتُ نفسي عند شاطئهِ
وقلتُ: ألا أباعدُ هذه الأغصانَ عن عيني
فأبصرَ في المياه؟
وجلستُ. . .
لكنْ، كلما باعدتُ غصناً جاء غصنٌ،
كيف أخترقُ المياه؟
وكيف أنفذُ في دروبِ القاعِ؟
غطَّتني الغصونُ
فنمتُ:
كان الماءُ يمسحُ هدبي المرخى
ويفتحُ لي مدائنهُ
وكنتُ إذا دخلتُ مدينةً غرقتْ
وأبقتْ لي البصيرةَ،
ليتها أبقتْ لها، ولي، البصيرةَ والحياة!

باتنة، ٣/ ٤/ ١٩٨٠

باتنة(*)

جبالٌ، كمكةَ، جرداءُ
وادٍ، كمكةَ، لا زرعَ فيهْ
وأنتَ الهِلاليُّ ـ
أفقرُ من ذرّة الرملِ
بدّلتَ تيهاً بتيهْ.

باتنة، ٢٣/ ٣/ ١٩٨٠

(*) باتنة: مدينة في الشرق الجزائري كانت أحد مستقرات الهلاليين في التغريبة.

خراسان... خراسان[1]

خراسان تَرهُفُ في البُعدِ
بيضاءَ
بيضاءَ
شفافةً
وحريريةً . . .
ربما تستدير تفاصيلُها في غبارِ الطريقِ إلى «مشهدٍ»
أو بساتينِ «شيرازَ»
ربتما نستعيدُ كتابَ «الفِتَن»
و«المقَاتلِ»
أو قائلَ البيت يوماً:
أرى تحت الرماد وميضَ نار
ويوشكُ أن يكونَ لها ضِرامُ[2]
ولكننا منذ قرنٍ وقرنينِ أو عشرةٍ
قد فقدْنا تهاويلَها

---

(١) «خراسان، خراسان» صيحة لياسر عرفات.
(٢) هو نصر بن سيّار أمير خراسان الأموي زمن مروان بن محمد.

واكتفينا بزرقةِ مئذنةٍ
وشعاعٍ غريبٍ يراه المصلّونَ
في مسجدِ «الشاهِ عبّاسٍ»
القبةُ الأمُ فيروزةٌ أصفهانيةٌ،
والريقُ بـ «قُمّ» صفيحٌ وحلوى
و«مُتعةُ» مستطرِقٍ
أو فقير . . .
خراسانُ تنبضُ في القلبِ
بيضاءَ
سوداءَ
هفهافةً
وحريريةً . . .

نحن لم نكترثُ للدعاةِ يهيمون في الغَسقِ الفارسيّ
ولم نكترثْ للقرى العربيةِ
ولم نكترثُ للنشيجِ الذي يصلُ اللَّهَ بالأرضِ
لم نكترثْ للنسيجِ المدمّى
وكانتْ خراسانُ تولدُ
كانت خراسانُ توجدُ
سِرّيةً
وسرايا . . .

وكانت خراسان تلتزُّـ في الكفِّ
خضراءَ
سوداءَ
صفصافةً
وحديديةً . . .

يا بلادي التي لم تجدْ وجهَها بعدُ
لم تقرأ القصبَ الفارسيَّ
ولم تضطربْ في السماواتِ
يا قريةً للذهولِ
ويا قامةً للذبولِ المباغِتِ،
ها هي ذي صبوةُ الأرضِ:
جاءت خراسانُ تخفقُ في الرمحِ
حمراءَ
سوداءَ
عصَّافةً
وحديديةً . . .
من ممراتِ «خيبرَ» حتى صخورِ المحيط.

باتنة، ٢٣/ ٣/ ١٩٨٠

علي الجندي

قد تضيق العبارةُ
لكن قهوتَهُ في الضحى المشرئبِّ
افتتاحٌ
وفتحٌ،
وقد يستقي النارَ من قِطعِ الثلجِ في الكأسِ
أو يرتقي السحبَ البيضَ من تبغٍ أسودٍ
قد ينامُ. . . ولكنْ مع الفجرِ
معتنقاً حُلماً للفتوةِ،
قد يُقذعُ القولَ
لكن كفيهِ غصنانِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هذا الأميرُ الدمشقيُّ
من رابَهُ؟
من تسوَّرَ أهدابَهُ
وتَصَوّرَهُ،
كي تضيق العبارة؟

باتنة، ٢٢/ ٣/ ١٩٨٠

ربيع ١٩٨٠

في أنباءِ العَدْوِ الريفيِّ
وفي صيدا المحترقةْ
تأتي
فبأيّ النبتِ تجيء؟
وبأيّ بذورٍ نملأ صينيتَنا؟
وبأيّ نذورٍ نأتي؟
أيَّ جرارٍ نُحضرُ؟
أيَّ جِرارٍ نكسرُ؟
أيَّ أمانٍ نتمنى؟
ولمن نستأني؟
وبمن نتغنى؟
وبأي بلاد. . .

باتنة، ٢١/ ٣/ ١٩٨٠

العصافير

لأنكِ أنتِ الطيورُ الوحيدةُ
في هذه البلدةِ المقفرةْ.
لأنكِ لا تسكنينَ لغيرِ الشجرْ
ولأنّ الشجرْ
ليس يُؤويه في هذهِ البلدةِ المقفرةْ
غيرُ عينيّ والمقبرةْ
صرتِ في المقبرةْ.

باتنة، ٢١/ ٣/ ١٩٨٠

ألف باء

«١»

يطلّ القاتلُ
عبرَ غلافِ مجلتهِ الأولى
وجهاً مقتولاً.

«٢»

في الصفحاتِ يدور «الفارسُ»
سيفاً من خشبٍ
بين سيوفٍ من خشبٍ
وحصاناً مخبولاً.

«٣»

بين القصرِ وبين القبرِ
خُطى،
لكنّ الخطوةَ
هذي اللحظةَ
قد تبلغُ ميلاً.

«٤»

للصقرِ المحتضرِ
الوحدةُ
والمجدُ
وهذا الأفقُ المفتوحْ
لكن الذئبَ يموتْ
ملعوناً
منتَهشاً
دمويَّ الروحْ.

باتنة، ١٩/ ٣/ ١٩٨٠

الجزائر

في المقهى
رائحةُ الصوفِ، وشمسٌ غاربةٌ
والساعةُ
ثابتةٌ عند الثالثةِ. . .
القهوةُ باردةٌ.
يدخلُ شرطيٌّ في المقهى
يجلسُ في زاويةٍ،
ينظرُ نحوَ الساعةِ، جِدِّياً
ويعدّلُ ساعتَهُ. . .
يأتيهِ النادلُ بالقهوةِ ساخنةً،
يشربُها
ويغادرُ.
أنظرُ نحوَ الساعةِ في الحائطِ:
هل كانتْ في الثانيةِ؟
المقهى يكتظُّ
ويمضي النادلُ نحوَ البابِ
ويغلقُ بابَ المقهى.

باتنة، ١٨/ ٣/ ١٩٨٠

سر النافذة

يطلّ من نافذة الشقّةِ
من نافذتي، طفلٌ. . .
تُرى. . . من جاءَ بالطفلِ هنا؟
كيف اهتدى في الليلِ والريحِ؟
إلى بيتي؟
ومن أدخلَهُ الغرفةَ؟
من أوقَفَهُ في هذهِ اللحظةِ،
هذي الوقفةَ اللعنةَ
عند النافذةْ؟
أريدُ أن أُبعدَه شيئاً
وأن أنظرَ نحوَ الجبلِ المثقلِ بالثلجِ
ما اعتدتُ. . .
ولكني لا أجرؤُ.
فلأستسلمِ الآنَ إلى دفِء فراشي
أدفنُ الرأسَ ببطانيتي. . .
ولْينظرِ الطفلُ من الشباكِ
وليفعلْ كما شاءَ

فإن شاءَ تخطَّاني
وإن شاءَ أتاني
إنها غرفتهُ
والجبلُ الماثلُ، والدنيا
وسرُ النافذةْ.

باتنة، ١٧/ ٣/ ١٩٨٠

ثلج أول

يطيرُ في الشارعِ ثلجٌ أوّلٌ
تبدو على الأشجار منه النقطُ الأولى
وتحمرُّ خدودُ الفتيات.
من يسألُ الوردةَ كيف انفتحتْ؟
ينهمرُ الثلجُ
وفي الريحِ يدورُ الورقُ الشاحبُ
والثلجُ...
وتمضي، دافئاً،
تلتفُّ في معطفكَ الجلدِ
إلى أن ينتهي الشارعُ
والثلجُ...
وتحمرَّ على أوراقِكَ الأخرى خدودُ الفتيات.

باتنة، ١٧/٣/١٩٨٠

قول

كيف لا تعرفُ الخطواتُ الممرَّ الذي في الجبلْ؟
كيف لا تعرفُ الخطواتُ الجبلْ؟
كيف لا نعرفُ النجمَ؟
لو كانتِ الأرضُ بيتاً لكُنَّا سكنَّاهُ
كنا استرحنا به
وارتشفنا قليلاً من النبعِ
لكنها الأرضُ. . . مرآتُنا
ـ الأرضُ مرآةُ من لا يرى ـ
كيف ننظر فيها، ونهتفُ:
ها هي ذي الأرضُ!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
قال الطريدُ المطارَدُ:
حَطِّمْ مراياكَ
حَطمْ

وحَطمْ
وحَطمْ
إلى أن ترى في الشظايا.

باتنة، ١٦/ ٣/ ١٩٨٠

سؤال

أنا لا ألمس بيروتَ
كمن يذكرُ في المقهى امرأةْ.
إنيي أنشِقُ عطرَ الزنبقةْ
قبل أن أفقدَها. . .
لا طلقةَ اليومَ
ولا خمرةَ في الشرفةِ
هل قاتلتُ كي أُقتَلَ؟
مَن، يا سيدي عُقبةُ. . .
يأتيكَ بأزهارِ المراعي؟

باتنة، ٣/ ١/ ١٩٨٠

بنت

كيف تمّ التوازنُ
حتى دخلتِ القصيدةْ
مثلما تدخلُ الشجرةْ
في الجبالِ البعيدةْ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كيف برّرتُ أن أرتضيك
في برودِ العناصرِ
أو في التعادلِ؟
يا وحشةَ النفسِ:
أن أرتضيكِ
ولا أرتديك.

باتنة، ١٨/ ١٢/ ١٩٧٩

هلاليون

للبلاد البعيدةْ
نحن نمضي. . . وأين البلادْ؟
للسماواتِ نمضي
وأين السماءْ؟
حينما نستريحْ
يأكلُ العشبُ أقدامَنا،
ثم نأوي إلى بعضنا
مغمِدينَ الصريحْ
في قصائدَ مهزوزةٍ
وانتظارِ جوادٍ جريحْ.

باتنة، ١٨/ ١٢/ ١٩٧٩

وطن

أيكون أقصى الأرض لي سكناً
والمخبرُ البدويُّ يتبعني؟
أنَّى اتجهتُ رأيتُ قامتَهُ
مغروزةً في صورة الوطنِ
زمنٌ هو الشرطيُّ، في يدهِ
أرضُ العراقِ شبيهةُ الزمنِ.

باتنة، ١٨/ ١٢/ ١٩٧٩

المعاد

تنتهي آخرُ العماراتِ بالمقبرةِ،
الآنَ قد يكونُ على الحارسِ
أن يشتري أسطوانةَ غازٍ. . .
ربما جاءت الجبالُ هنا في غفلةٍ عن عروقها،
ربما كنا سعيدينَ أن نراها ليومينِ
ولكن، من أين نأتي إليها؟
والفتاةُ، الفتاةُ، أين يراها؟
دارُها في انطفاءةِ المغربِ الأولِ
من كان عندَها؟
من رآها؟
كيف مسَّت ذراعَه شفتاها؟
يقف السروُ، ليس فيه سوى السروِ
انتهتْ آخرُ العماراتِ. . .
سورٌ
سروةٌ
عندها أسطوانةُ غازٍ
ومساءٌ يجيءُ قبلَ المساءِ.

باتنة، ١٨/ ١٢/ ١٩٧٩

مسافرون

يتركون النهارْ
دائماً خلفهم.
يتركون الصغارْ
وحدَهم.
. . . . . .
. . . . . .
أيُّ صمتٍ يسافرْ
في برانيسهم
أيُّ صمتٍ يقيمْ
هلى سيخفقُ شيءٌ قديمْ
في برانيسهم
فيرونَ النهارْ
بين أحداقهم
ويرون الصغارْ؟

الجزائر العاصمة، ٢٣/ ١١/ ١٩٧٩

القبو

أعرفُ هذا القبوَ. . .
كم عامٍ، وكم عامٍ، مضى
والقبوُ يغدو محكماً أكثرَ ممّا كانَ
أيامَ دخلتُ المرةَ الأولى.

*

أسألُ أحياناً
عن الضوءِ الذي يدخلُ في القبوِ:
لماذا يألَفُ العينَ
ولا تألفُه العينُ. . .
تُرى. . . كان الرضا وهماً؟
وتلكَ السنواتُ الأبجدياتُ ـ
أكانتْ خطأً؟

*

بعضُ الذين استوطنوا القبوَ
أقاموا جَنَّةً فيه،
ولكني لم أعرفْ
لماذا أجدُ الجنةَ

شيئاً خارجَ القبوِ. . .
كما أنكَ تدري
أنني حينَ دخلتُ القبوَ
ما كنتُ وحيداً،
غيرَ أنّ القبوَ ظَلَّ القبوَ
والجنةَ ظلتْ حلُمَ الجنةِ
والقبوَ الأخير

الجزائر العاصمة، ٢٣/ ١١/ ١٩٧٩

محطة

تأتي المحطاتُ في الذكرى،
أكان على أبوابها بعضُ ضوءٍ
أم ترى انطفأتْ
في هدأةِ العمرِ؟
أم أني أناديها
في لمحةٍ من شبابيكٍ وأرصفةٍ
لعلني أُوقفُ استغراقتي فيها.

*

يا وجهَ من لا أراها حين ألمسُها
ومن أراها مع الذكرى:
لِمَ اختلفتْ
تلك الملامحُ في المابينِ
وانطفأتْ
وأبرقتْ
وكأنّ الرعدَ رائيها؟

*

عند المحطةِ
كان الضوءُ منهمراً
وبارداً.
إنه المقهى
وفي طرفِ المقهى
أقرّبُ من كأسي لأقصيها.

الجزائر العاصمة، ٢٣/ ١١/ ١٩٧٩

صباح الخير أيها العرب

صباحَ الخيرِ، ألْفاً، أيها العربُ!
صباحَ الخيرِ للمشرقْ
صباحَ الخيرِ للمغربْ
صباحَ الخيرِ، عبدَ الناصرِ، الغلَطا
صباحَ الخيرِ، يا أَمةً، تعرّتُ أُمّةً وسَطا.
صباحَ الخيرِ، ألفاً، أيها العربُ
صباحَ الخيرِ للأولادْ
صباحَ الخير للجلادْ
صباح الخير للثوراتِ تنقلبُ
صباح الخير للطلقاتِ مكتومةْ
صباح الخير للراياتْ
صباح الخير، عشراً، للوحولِ تُلطخُ الراياتْ
صباح الخير للشعراءْ
صباح الخير للرقباءْ
صباح الخير للسفراءِ أميينَ مثلَ نبينا
ولهم صباحُ الخيرِ حين يخططونَ القتلَ والشهداء

للشركات حاكمةً: صباحُ الخير
للأحزابِ إذ تُرشَى: صباحُ الخير
للدولارِ قومياً: صباحُ الخيرِ
للقدسُ التي صلّى بها الجربُ
صباحُ الخير...
صباح الخير، تُفْ... تُفْ... أيها العربُ!

الجزائر العاصمة، ٢٣/ ١١/ ١٩٧٩

منفيون

أجملُ ما في فكرةِ المنفى
أن يُصبحَ المنفيُّ سلطانا
«يُنظِّمُ» العُملةَ
والسائحاتْ،
ويُلبس الثورةَ قفطانا.

الجزائر العاصمة، ٢١/٨/١٩٧٩

رمضان

ليس سوى الغروبِ والأشجارْ
في هذه الساحةْ.
يمرقُ طيرٌ، يحملُ اللحظةَ، نحوَ البحرِ
مذعوراً.
وتبقى هذه الساحةْ
خاليةً، إلا من الأسفلتِ والأشجارْ
هل دقّتِ الساعةْ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
بعد قليلٍ تخرجُ الأحجارْ
وتملأُ الساحةْ.

الجزائر العاصمة، ١٧/٨/١٩٧٩

مراجعة

«مقهى على البحرِ»،
ولكنك لا تمضي
إلا مع الضحراء
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ما هكذا تَستبقُ الأشياء!

الجزائر العاصمة، ١٧/ ٨/ ١٩٧٩

مريم ابنتي

تكنزُ آلافَ المرايا
دونَ أن يُرهقَها إدراكُ ما فيها
لكنني اليومَ أرى مريمَ
في الساحاتْ
زائغةً،
تخمشُ في مرآتها وجهَ نبيٍّ ماتْ.

الجزائر العاصمة، ١٧/٨/١٩٧٩

توعك

يعرف أن ابنَ زُريقٍ. . .
آهِ للحُمَّى
والبردِ،
والجوعِ الذي كابرتَ أن يُسْمى.
قد ترحلُ الليلةَ. . .
لكن قضاءَ اللَّه
ضاقَ
وضاقت معه حتى عروقُ الآه.

الجزائر العاصمة، ١٧/٨/١٩٧٩

مطر أول

في شُرفة الفندقِ
حيثُ امتدْتِ القضبانُ سوداءَ
رأيتُ القطرةَ الأولى
كانت على أرضيةِ الزُلِّيج
وحيدةً
تذبلُ كالزهرةِ في آبَ، على الزُلِّيج.

*

أيتها البنتُ التي تهجِسُ في بغدادْ
صمتي... ولا تأتي
وفي غرفتها تستقطرُ الأبعادْ
لا تفتحي الشرفةَ
إن القطرةَ الأولى
قد يبِستْ
والمطرَ الأولَ أرخى الهدْبَ مبلولاً.

الجزائر العاصمة، ١٧/٨/١٩٧٩

MADONNA

في أعشابِ البحرِ.
وفي أكواخ الصيادينْ
في أرض اللَّه المحروقةِ
في وجه امرأةٍ أعرفُها
في الهجرة نحوَ الهجرةِ
في شجرات التينْ:
مادونا
مادونا
مادونا

*

هَلِّلوا يا...
هللوا يا...
هللوا يا...
هللوا، يا أيها الآتونَ من كلِ القرى،
يا أيها الآتون من كلِ المتاريسِ، ومن كلِ الحواجزَ.
هَلِّلي، يا امرأةً موصوفةً بالكُحلِ والبحرِ،
وهللْ أيها الطفلُ الذي يحملُ رسماً عربياً

في جناحَيهِ. ويا أيتها البنتُ التي صادفتُها
أمسِ بلا أهلٍ. . .
لماذا لا نرى الوجهَ
الذي نرسمهُ في هداةِ الليل، وفي إطراقةِ الفجرِ،
وفي الصُّحبة، والقُبلةِ، والذكرى؟
لماذا لا نرى الوجهَ الذي لم نتعلمْ أن
نحبَّ الوجهَ لولاه؟
لماذا لا نرى بيروتَ، في الهدأةِ، مادونا؟

*

مادونا
مادونا
مادونا
في رملِ المتراسْ
في لفتاتِ الناسْ
في الرشّاشِ الصامتِ
في ثقةِ الحراسْ
في الزهرة تلتفُّ على الحبِ الأولِ
في لغةِ الأنفاسْ.

*

هللوا يا. . .
هللوا يا. . .
هللوا يا. . .

هللوا، ولْنرسُمِ الليلةَ، مادونا، على ضوءِ
الصواريخِ
لنرسمْ هذه الليلةَ، مادونا، على ضوءِ القناديل،
لنرسمُ هذه الليلةَ، مادونا، على وجهِ النجوم:
الوجهُ يأتينا كما لم يأتنا وجهٌ عرفناهُ. . .
وتأتي المقلتان
في سوادِ الأملِ الغائبِ
تأتي الشفتان
وردةً ناصعةً ضائعةً في الحلم. . .
مادونا!
وتمضينَ بعيدةْ.

*

هللوا يا. . .
هللوا يا. . .
هللوا يا. . .

بيروت، ١٠/٦/١٩٧٩

الأعداء

قصيدة في ثلاث حركات

١ ـ الطفولة

في ورد الهيلِ، وفي البرديّ، وفي التّمرِ المتساقطِ،
نمضي.
يا قطراتٍ بين الجبهةِ والفم...
رائحةٌ يسكنها الخنزيرُ الوحشيُّ
سَتَعْلَقُ بالأثواب.
بنادقُ أهلينا يدويات الصنعِ.
بأيدينا سَعَفٌ،
والخنزيرُ الوحشيُّ يعومُ على غيمٍ أخضرَ.
خبزُ الصبح تعلَّقَ بالأظفارِ،
عيونُ يتامانا تبحثُ في وردِ الهيلِ
وفي البرديّ
وفي البلهارزيا
عن أخشابٍ تلقيها سفنٌ عابرةٌ.
تبحثُ عن سفنٍ عابرةٍ عن معنى البحرِ،
يُلَوّحُ بحَّارٌ...
نرفعُ أثوابَ الطينِ:
«سلاماً يا ربَّ الخشبِ المُلقى

يا ربَّ العُلَبِ الطافيةِ».
النورسُ ينقضُّ على مزبلةٍ في الماءِ.
الخنزيرُ الوحشيُّ يُخشخشُ في الصدرِ المبتلِ.
وبقعةُ ماءٍ تحمرُّ...
نبولُ دماً،
نضحكُ.
والخنزيرُ الوحشيُّ يخشخشُ في البرديّ.
أنادي الشاطئَ:
خالةُ، يا خالةُ، يا خالةُ...
أين بنادقُ أهلينا اليدوياتُ الصنعِ؟
الخنزيرُ الوحشيُّ يخشخشُ في الطينِ.
يتامى كنَّا،
نبحثُ عن معنى البحرِ.
تلمّسْنا الأشياءَ ولم نتعلمْ.
وتلمَّسنا الأسماءَ ولم نتكلمْ.
هذا السعفُ الأخضرُ، مجروداً، أسلحةُ الأطفالِ
ورائحةُ الخبزِ
وسقفُ التعريشةِ في الشاطئِ
(خالةُ، يا خالة، يا خالةُ)
هذا السعفُ الأخضرُ
والخنزيرُ الوحشيّ يعومُ على غيمٍ أخضرَ،
تبدو قطعةُ ماءٍ أحمرَ

بين البرديّ وأقدامِ الأطفالِ.
إلهُ البحرِ يغيبُ.
وآخرُ موجاتِ سفينتهِ تحملُنا
بين الخشبِ الطافي، والعلبِ الملقاةِ.
الرأسُ يدورُ
الرأسُ المحترقُ الشعرِ
المحترقُ العينينِ،
الشمسُ تدورُ...
الشمسُ البحريةُ تهبطُ في الرأسِ الدائخِ تحتَ الماءِ،
الخنزيرُ الوحشيّ يغادرُ مكمنَهُ في الغيمِ الأخضرِ
بتبع قرصَ الشمسِ الدائخَ تحتَ الماءِ...
الخنزيرُ الوحشيّ يخشخشُ
بين الخشبِ الطافي والعلبِ الملقاةِ،
عيونُ يتامانا تتعلَّقُ بالخبزِ إلى الشاطئِ،
والرأسُ الدائخُ تحت الماءِ...
الخنزيرُ الوحشيُّ يُراوغُ تحتَ الماءِ الأحمرِ
(خالةُ، يا خالةُ، يا خالة).

٢ ـ التمرد

طائرة تُسقِطُ سَلوى من ورقٍ،
مَنّاً من كلماتٍ لا نفقهُها
نتخاطفُها مسرورينَ ومرتجفينَ،
بلادٌ ننسى كيف نُسميها. . .
نعرف أن ع.ر.ا.ق حروفٌ نتهجّاها
أين نراهُ؟
وهل يدخلُ يوماً من بابِ الكوخِ السعفيّ؟
تراه سيحملُ برنيَّتَهُ ملأى بمخيضِ الصبحِ؟
بزُبدٍ أبيضَ؟
طائرة تُسقطُ سلوى من ورقٍ
وتدورُ على النخلِ
معلِّقةً كلماتٍ لا نفقهُها. . .
عبدُ الحسن بن مبارك جمَّعَ عشرةَ آنيةٍ
للسّلوى والمَنِّ،
وعبدُ الحسن بن مبارك قال لنا:
«الليلةَ نأكلُ».
طائرةُ السلوى تمرقُ عبرَ أعالي النخلِ

كخنزيرٍ أسودَ. . .
نحن الفتيانَ الفقراءَ
ونحن الماشينَ على أرض ع.ر.ا.ق نجهلهُ،
الليلةَ نأكلُ. . .
عبدُ الحسن بن مبارك يأخذُنا للشطِ جميعاً،
عشرةُ آنيةٍ في الجيب الأيسرِ.
طائرةٌ كالخنزير الأسودِ
دارتْ فوقَ النخلِ،
وعبدُ الحسن بن مبارك إذ يتقدمنا عُريانَ إلى الماءِ،
يصيحُ بنا:
«الليلة نأكلُ فَلْتثبوا». . .
كان الماءُ يفيضُ
وكان المدُّ الأحمرُ أسماكاً.
طائرةٌ
كالكوسج
دارت فوق الماءِ،
وعبدُ الحسن بن مبارك، عرياناً، يتقدمُنا في الماءِ. . .
«الليلةَ نأكلُ».
كنا نحملُ آنية السلوى،
والمدُّ الأحمرُ يحملُ أسماكاً نتشهاها
والصيادون على الضفةِ الأخرى،

والطائرةُ الكوسجُ تمرقُ عبرَ الشطِّ.
هبطْنا في الماءِ الدافئِ
عريانينَ
وحيدينَ
وكنا نحملُ آنيةَ السلوى،
الكلماتِ اللائي لا نفقهُها،
وع.ر.ا.ق ابنِ مبارك...
كانت أجسادُ السمكِ البالغِ ناعمةً فوقَ حراشِفنا.
عبدُ الحسن بن مبارك يصرخُ:
ك.و.س.ج
ك.و.س.ج
كوسجُ
كوسجُ...
كان الذنَبُ الأسودُ مرتفعاً كالبلطةِ فوقَ الماءِ،
وطائرةٌ كالخزيرِ الوحشيِّ
وكالكوسجِ
تمرقُ فوقَ الماءِ.
صرخْنا نحن الفتيانَ الفقراءَ
صرخنا نحن الماشين على ماء ع.ر.ا.قٍ نجهلهُ...
وهُرعنا نحن الفتيانَ الفقراءَ إلى الشاطئِ...
كان الذنَبُ الأسودُ كالبلطةِ مائلةً فوق الماءِ،

ويصرخُ عبدُ الحسن بن مبارك منتهَشَ اللحمِ. . .
الماءُ الأحمرُ يحمرُّ ويحمرُّ،
وعبدُ الحسن بن مبارك يهبطُ نحو الأشَناتِ،
وكان الكوسجُ مندفعاً نحوَ الماءِ الأبيضِ. . .
طائرةٌ تمرقُ عبر ع.ر.ا.ق نجهلهُ. . .

٣ ـ أيام ١٩٦٣

أرقدُ في «السيبةِ».
كان الشرطيُّ وديعاً عبرَ القضبانِ
مريضاً كان
بعيداً مثلي
وغريباً كان.
الفتيانُ الفقراءُ يطوفونَ منازلَ في الصحراءِ،
منازلَ في المدنِ المقهورةِ،
كانوا في عرباتِ الشحنِ تؤرجحهم
مغلولينَ اثنينِ اثنينِ...
وكان «الخنزيرُ ـ الطائرةُ ـ الكوسجُ» يرقبهم.
أيّ ع.ر.ا.ق ينهضُ في السيبةِ؟
والبارحةَ امتلأ «الموقفُ»،
ظلَّ الفتيانُ يغنّون إلى أن صرخَ الخنزيرُ الوحشيُّ،
الحنزيرُ الوحشيُّ يخشخشُ عبرَ القضبانِ،
الخنزيرُ الوحشيُّ له نابانِ من الفولاذِ.
من الزاويةِ اليمنى يأتي النهرُ.
قديماً جاءَ هنا رجلٌ يبحث عن نبتِ الربّ.

قديماً كان الماءُ المسمومُ سبيلَ المشتاقينَ،
العشاقُ اختبأوا في الحلْفاءِ.
من الضفةِ الأخرى تتعالى أبخرةُ الزيتِ
وراءَ النخلِ.
لناقلةِ البترولِ الكوسجِ رائحةُ الخنزيرِ الوحشيّ،
بريقُ الطائرةِ السوداءِ.
نغنّي في الموقفِ.
أين فتاةُ الحانةِ؟
في بارٍ تحتَ البطّانيةِ يرتاحُ مهربُ أسلحةٍ.
عمالٌ إيرانيون ينامون الليلةَ في الساحةِ.
في منتصفِ الليلِ تجيء القريةُ
حاملةً سعفاً مشتعلاً
وقرابينَ من الخبزِ
نذوراً من تمرٍ.
عمالٌ إيرانيون ينامون الليلةَ في الساحةِ.
في الضفةِ الأخرى أبخرةُ الزيت. . .
وراءَ النخلِ معابدُ زارا.
في الساحةِ عمالٌ إيرانيونَ.
زيارتُه مُنعتْ.
زوجتُه ستلفُّ عباءتَها.
تحملُ أوراقَ استرحامٍ.
زوجتُه تجلسُ في ركنٍ، باسمةَ العينين،

يحاولُ أن ينظرَ في عينيها.
رشّاشٌ في سطحِ الموقفِ كان يراقبهُ.
أين فتاةُ الحانةِ؟
. . . . . .
. . . . . .
أرقدُ في «السيبةِ».
كان الخنزيرُ الوحشيُّ على سطحِ «الموقفِ».
والفتيانُ الفقراءُ يطوفون منازلَ في المدنِ المقهورةِ،
كانوا في عرباتِ الشحنِ
تؤرجحهم
مغلولينَ اثنينِ اثنين.

بغداد، ١٩٧٧

تقاسيم

«١»

في السماءِ النديةْ
تمطرُ الشجرةْ
وحدَها.

«٢»

في السماءِ البعيدةْ
يولدُ النجمُ
وحدَه.

«٣»

في البلادِ التي لن أراها
تولد الأغنيةْ
وحدَها.

«٤»

قال لي: أنتَ غصنٌ

ولكنه
لم يقلْ أيُّ ريح
ولا قال أيُّ الشجرْ. . .

«٥»

أين منبتُ ذاك الشجر؟

«٦»

كيف لي أن أرى
بينما يفقدُ اللونُ لسعَ الأصابع؟

«٧»

كيف لي أن أقول
والمرايا نوافذُ
في مركباتِ قطارٍ سريع. .

«٨»

كيف لي أن أقولَ الحقيقةْ؟

باتنة، ١٢/٦/١٩٨٠

يوميات الجنوب
يوميات الجنون

(١٩٨١)

هذه المجموعة

سبع وعشرون قصيدة، من قصائد هذه المجموعة التسع والثلاثين كتبت في اليمن، وثمت قصيدة أخرى هي «الأحفاد» كتبتها وأنا أحاول خلق أجواء يمانية، من حضرموت، تحديداً قبل أن أرى اليمن.

القصائد السبع والعشرون تنفست هواء زيارة لي، استمرت شهراً في عدن، بدعوة من الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني، الرفيق علي ناصر محمد.

وهذه المجموعة مهداة إلى شعب جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، وإلى كل الأخوة اليمانيين الذين محضوني ودهم الحميم وألفة اللغة الواحدة... عن عنفوان الحياة والثورة، عن عراقة التاريخ، وتجسيد المثل، عن الصخر البركاني والبحر والطير والبشر، أردت أن أقول شيئاً أرده إلى هله.

س. ي.

منظر ١

مذهلةٌ جبالُ عدن
لا تلوِّنُ البحرَ ولا تتلونُ به
كأنها ملقاةٌ هنا، دون أن تدري لماذا.
منذ ملايين السنين وهي هنا
تجاورُ البحرَ ولا تحاورُه.
فقد الغيمُ النادرُ يمنحُها زرقةً رمادية
زرقةً تتحولُ إلى تنويعٍ على حجرِ البراكين.

عدن، ٣١/ ١/ ١٩٨١

منظر ٢

الشِّباكُ منشورةٌ تتجفف
وصيادُ السمكِ بين آلافِ مشاغلهِ الصغيرة
والزورقُ مستقرٌ على الرملِ اليابس.
النوارسُ خيطٌ أبيضُ على الماء
والغربانُ خيطٌ أسودُ على الشاطئ.
وعلى الزورقِ ينقرُ غرابٌ، ويحطّ نورس
بينما تتقد أجسادٌ سلافيةٌ عارية
مترنحةً بين الرملِ والبحرِ.

عدن، ٣١/ ١/ ١٩٨١

رائحة

هذه الرائحةُ
في صندلٍ ودهنِ وردٍ
وخصلاتِ فتاةٍ هندية
ومشمومٍ،
كيف تسللتْ مع الموسيقى العاليةِ لطائرة «أَلْيَمْدا»؟
هل دخلتْ مع العمالِ المهاجرين
أم أنها قادمةٌ من المطار
حيثُ البحرُ البعيد؟

الكويت، ٣٠/ ١/ ٨١

فتاة

الفتاةُ التي هُرعتْ إليّ. . .
عبرَ حديقتها الصغيرة
الملفقةِ من شُجيراتِ الخروعِ وورودِ الهيلِ،
هذه الفتاةُ التي لم أرها
ولم ترني يوماً ـ
أيَّ تفاصيلَ تكنزُ عيناها؟
وأيُّ طريقِ آلامٍ سلكتْهُ
حتى جاءتْ راكضةً هنا،
عبرَ حديقتها الصغيرة؟
عراقيةٌ أيضاً،
والعراقُ يتراكضُ: في السماءِ حسبُ. . .

عدن، ٣١/ ١/ ١٩٨١

أصداف

قالت لها سهام: أريد قواقعَ وأصدافاً.
قالت مريمُ: سواراً من الأصداف.
وقالت شيراز: قلادة...
أما أنا...
فكيف لي أن أجدَ اللؤلؤَ
كيف أجمعُ الأصداف؟

عدن، ٣١/ ١/ ١٩٨١

صيف

صيفٌ أفريقيٌّ على الشاطئ
صيفٌ وهرانيّ. . .
لو غامتْ فقط ذاكرةُ الخضرةِ
لرأيتُ جبالَ خليجِ عدن كالمرسى الكبير.
الأطفالُ يسبحون
والنسوةُ السلافياتُ
وأنتَ في بُرنسِكَ الصوفِ. . .
أتريدُ أن تتدفأَ لشتاءٍ صنعتَهُ أنتَ؟

عدن، ٣١/ ١/ ١٩٨١

قات

إذن. . . لا بد من التجريب.
ولطالما جربتَ القليلَ لتعرفَ الكثيرَ
والطالما جربتَ الكثيرَ لتعرفَ القليلَ.
وأنتَ في اليمن
لن تكونَ يمانياً، إن لم تَذُق النبتةَ الخضراءَ. . .
فليكنْ تعميدُكَ.
لكنّ النبتةَ الخضراءَ كانت في تلك الليلةِ
ممرَّكَ إلى الفودكا
ممركَ إلى الشِّعرِ وحضرموت.

عدن، ١/ ٢/ ١٩٨١

اختيار

البيكاجي كومبرادورٌ هنديّ.
جاء إلى عدن بغرابينِ زوجينِ
ومبنى ذي طابقين.
حدثَ هذا منذُ قرنٍ. . .
المبنى ما يزال مبنى
والغرابانِ صارا مليوني غرابٍ.

*

لِمَ أختارَ هذا الكومبرادورُ
من بينِ كلِ طيورِ الهندِ
وماليزيا
وشرقِ أفريقيا،
غُرابيهِ الأسحمين؟

عدن، ١/ ٢/ ١٩٨١

غيم

غيومٌ بيضٌ على الجبالِ.
غيومٌ غيرُ دانيةٍ.
وريحٌ رطبةٌ تتحركُ بين وردِ الهيل.
سفينة تبتعدُ في طرفِ الخليجِ.
كم أحبُّ الآن أن يهطلَ المطرُ
أن يهبطَ الغيمُ في راحتي...
أن يغسلَ عن جبالِ عدن لونَ الرمادِ
ويمنحَها خضرةَ الجبالِ: سرواً وصنوبراً وعشباً،
ورائحةَ الغابةِ بعدَ المطر...

عدن، ١/ ٢/ ١٩٨١

عصافير

هذا الصباحَ أبصرتُ للمرة الأولى عصفوراً
كان على ساقٍ دقيقةٍ لنبتةِ ذرةٍ صفراءَ
نبتةٍ يتزينُ بها الفندقُ البحريّ.
العصفورُ ينظفُ نفسَه.
الساقُ تهتز.
عصفورٌ ثانٍ يأتي.
الساقُ تميل.
عصفورٌ ثالث.
الساقُ تسجد خاطفةً.
فجأةً، وبخطفةٍ واحدةٍ، تطيرُ العصافيرُ الثلاثةُ
مبتعدةً عن الفندقِ البحريّ...
وتحتَ قميصي ترتعشُ آلافُ العصافير.

الساحل الذهبي، ١/ ٢/ ١٩٨١

ارتباك

«أبو زهرة» ضاربُ الطبلِ. . .
لحيتُه الصغيرةُ ما تزالُ صغيرةً،
كأنه في بغدادَ البعيدةِ.
إنه ما يزال يرى الحياةَ، رائقةً، من فُوَّهةِ الطبلِ.
«أبو زهرة» يرتبكُ أحياناً.
يرتبكُ حتى لَيرى بغدادَ أيضاً، من فُوّهةِ الطبلِ.

١٩٨١/٢/٢

رامبو

الجبالُ الرماديةُ
أوجين كيفك يدخلُ «الساحلَ الذهبيّ»
كمن يدخلُ بيتَهُ.
ينظرُ إلى جبالِ عدن الرماديةِ:
«يومَ كانت الأرضُ شاعرةً
وجدتْ هذا اللونَ».
وقصيدتُه الجديدةُ؟
«الليلُ أقدم عهداً من المجترّات»
وماذا ترون في هذا البيتِ:
«حبةُ الذُرةِ الصغيرةُ تعكسُ القمرَ الممتلئَ»؟
هل أقولُ:
«حبةُ الذرةِ الصغيرةُ تصنعُ القمرَ الممتلئَ»؟
الكلامُ يدور مع البيرةِ الباردةِ
بينما يركضُ رامبو حافياً على الصخرِ البركانيّ.
من يعرفُ؟
هل لنا أن نتأثرَ خطى رامبو في عدن؟
كيف دخلَ. أنّى سكنَ. في أي وكالةِ تجارةٍ كان.

الكريتر. المعلا. خور مكسر. التواهي...
ومحمد عبدو، وثابت اللحجي، والسلطانة العذراء،
وأحمد بن عيسى، وعبد اللّه باذيب، وعلي العيدروس،
ومحمد ناصر علي، وإسماعيل عبد الفتاح، ومؤلف
«الفتن في تاريخ اليمن»..
هل يعرفون أشياء كثيرةً؟
من يستنقذُ يوماً، رامبو، من ترابِ البراكينِ المتقادمِ؟
قال كيفك: سيكون عملاً عظيماً.
لكن عينيه الخضراوين
الصغيرتين
كانتا مفعمتين بالندى.
التواهي
في هذا المبنى العتيق
مبنى وكالةٍ تجاريةٍ مندثرةٍ
بـ «التواهي»
كان يعمل رامبو.

*

ألم يتبقَّ من الأميرِ الشمسِ، هنا
غيرُ هذه اللوحةِ المتآكلةِ،
اللوحةِ التي لا تحملُ حتى اسمَهُ؟
لا تحملُ إلا مخالبَ الشمسِ؟

عدن، ٢/ ٢/ ١٩٨١

أثيوبيات

الأثيوبياتُ يرقصنَ
وفي قاعة المدرسة العليا للاشتراكية العلمية
(خور مكسر)،
يغني ماركس
على إيقاعِ طبلٍ أفريقيٍّ.

١٩٨١/٢/٢

المنارة

قبل أن يهبطَ الليلُ في البحرِ
تعطي المنارةُ فوقَ الجبلْ
كلَّ ما للمنارةْ.

. . . . . .

. . . . . .

بعد أن يهبطَ الليلُ في البحرِ
تطفئُ هذي المنارةُ فوقَ الجبلْ
كلَّ ما للمنارةْ

. . . . . .

. . . . . .

أين تذهبُ في الليلِ غربانُ هذي المدينةْ؟
أين يذهبُ في الليلِ نورُ المنارةْ؟

٣/ ٢/ ١٩٨١

زنجبيل

للفتاة الدمشقيةِ
طعمُ السكّرِ والليمون.
أمّا هنا
فالزنجبيلُ الشراب.

عدن، ٣/ ٢/ ١٩٨١

شاطئ

سراطين
السراطينُ البحريةُ
تخرجُ، عجلى، من بيوتِ الرملِ
خفيفةً، متعددةَ الأرجلِ.
أفَرِحةٌ هي؟
أم خائفةٌ من زُمَّجِ الماءِ
الذي ينتظر عندَ الشاطئِ
بمناقيرهِ القويةِ؟

٤/ ٢/ ١٩٨١

رعب

تأملتُ حصى الشاطئِ
وجمعت من الوَدَعِ عَشراً
وضعتُها في جيبي.
وحينَ جلستُ إلى الطاولة أتأملُها
تحركتْ كلُ ودعةٍ في اتجاهٍ..

٤/ ٢/ ١٩٨١

برزخ

على رائحةِ السمكِ
المتقطرِ من الشِّباك الصباحيةِ
تجلسُ القططُ والغربانُ والنوارسُ
وتجلسُ الكلبةُ الوحيدةُ.
لكنّ الصيادَ، وهو يُخرجُ أسماكَهُ
من عيونِ الشبكةِ
يجلسُ في البرزخِ:
بينَ البحرِ والنسوةِ المنتظراتِ.

عدن، ٤/ ٢/ ١٩٨١

صديق قديم

للمرة الأولى
أكونُ مع رئيسِ دولةٍ
حول طاولةٍ تتقدمُ إليها الأشجارُ
وكائناتُ البحرِ
ووشيجُ القطرةِ بالنبتةِ المتخمرةِ.

*

للمرة الأولى
يكون لي صديقٌ قديمٌ
في أربعِ ساعاتٍ.

عدن، ١٢/ ٢/ ١٩٨١

نصيحة أوجين كيفك

«إن لم تجد البحر
فانظر في باطن كفك» . .

*

كيف يكون البحر
وأنا لم أعرفْ، بعدُ، البر؟

*

أنظرُ في باطن كفي
فأرى ظاهرَ كفّي . . .

*

كيف يكونُ البحر؟

١٦/ ٢/ ١٩٨١

رياح

كالسكاكينِ، تحتدُّ حولي الجبال
لم تصفرُ مثلَ القطاراتِ
في الليلِ،
تصفرُ مثل القطاراتِ
في الفجرِ،
تصفرُ مثل القطاراتِ
في قارةٍ ضائعةْ. . .

١٦/ ٢/ ١٩٨١

مدن

شبام

لتنتهِ الأساورُ والسُّرُرُ
لينتهِ الخطُ
والحجرُ.
لتنتهِ الكفُّ الصغيرةُ الموشومةُ بالوردةِ
لينتهِ صوتُ الماءِ
ولتكنْ لنا استطاعةُ الطينِ وحدَها
وهي تتكئُ على نفسها.

*

النصارى را را را

«أغنية لأطفال شبام»
عدن، ٩/ ٢/ ١٩٨١

تريم

دَمُّونُ هنا
أقربُ من مقبرةِ البيتِ
ودمونُ بعيدةٌ
بعيدةٌ، حتى كأنّ امرأ القيسِ
لن يبلغَها أبداً.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

الأرضُ كلُّها مسجدٌ
فهل خلعتَ نعليكَ؟

١٢/ ٢/ ١٩٨٢

سيون

يا أحمد بن عيسى
من ارتقى غيرك
درجاتِ سَلُّمكَ المائة والخمس عشرة؟

*

أحمد بن عيسى
علويٌّ عراقيّ
هاجرَ من البصرة، وجاورَ
ثم سكنَ قبل ألفِ عامٍ
سفحَ جبلٍ في «سيّون» اليمن.

*

قبرُ الابنِ في الوطيئةِ
قبرُ أحمد بن عيسى في السفح
وبينهما تمتد الدرجاتُ المائة والخمس عشرة
مرهفةً
بيضاءَ
ساطعةً في المساءِ الهابطِ

على وادي حضرموت.

*

لا غربانَ في «سيّون»
النساءُ مكبلاتٌ بالسواد.

*

راياتٌ حمراءُ
وأولادٌ مهازيلُ يسيرون في الشارعِ الممهَّدِ بالحصى
مع الموسيقى وأغنيةِ الشبيبةِ
لكنْ منذُ قرونٍ
ظلتْ «سيّون» تطردُ عن بناتِها
أغنيةَ أولادِها

١٩٨١/٢/٥

لحج

هل يتبقّى من لَحج
غيرُ رفيقِ المدرسةِ الحزبيةِ
وأشجارِ البابايِ؟

٦/ ٢/ ١٩٨١

خط مسند

أأكونُ الذي خَطَّ هذا الحجرْ؟
أتكونُ ارتساماتُه اسمي؟
وعيناهُ؟
إني أحدِّقُ في الوجهِ
أشتفُّ مرآتَه الحجريةَ . . .
ثم أسري بها
أنفضُ اللمسَ عن زهرتَي حضرموت
عن بلادِ السرابِ الذي صارَ هذا الحجرْ.

عدن، ١٦/ ٢/ ١٩٨١

محاولة

عدنٌ بين الجبالِ السودِ والبحرِ. . .
فهل نمضي بها نحوَ الفراتْ؟
أم نرى درباً لها بين أغاني البحرِ
والأرضِ المواتْ. . .
أم نغطيها بما تفترضُ الأشجارُ
أم نصبغُ بالأخضرِ أثوابَ البناتْ؟

*

عدنٌ في آخرِ الكونِ
وفي أولهِ كانت،
وفي أولهِ كانَ النباتْ. . .

١٩٨١/٢/٢٤

الليل

يهبطُ الليلُ كما لم يهبطِ الليلُ بأرضٍ
غيرِ هذي الأرضِ. . .
ليلٌ من صهاريجَ بلا ماءٍ
وغربانٍ بلا مأوى
وأَجبالٍ تراها فتياتُ الدَّورةِ الأولى
انتصاباتٍ
وفحماً
وتهاويلَ اغتصابْ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
يهبطُ الليلُ كما يهبطُ في الحلمِ الغرابْ.

عدن، ٢٤/ ٢/ ١٩٨١

يمن

يا أرضَ الأصدافِ
يا أرضَ الأرضِ المنزوعةِ من أسنانِ البحر
يا أرضاً من ثوار المدنِ
يا أرضَ المدنِ المنسية
يا أرضَ الماعزِ كالغزلان
يا أرضَ طيورِ البحر
يا أرضَ الحجرِ النابتِ مثلَ الطين
يا أرضَ الطينِ الثابتِ مثلَ الحجر
يا أرضَ الصيادين. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هل يبتدئُ التكوين؟
من يبتدئُ التكوين؟

عدن، ٢٥/ ٢/ ١٩٨١

الأحفاد

«١»

أدخلتِني في زهرةِ الرمانِ، ثم مضيتِ عني
وتركتِني بين التُّويجةِ واللقاحِ
تركتِني، أعرفتِ أني. . . سائرٌ في زهرةِ الرمّانِ
آلافاً من السنواتِ؟
أفتحُ في التويجِ مدينةً قرويةً
وتعاونيةَ مستريبينَ. . .
السماءُ قريبةٌ
وبعيدةٌ أرضي.

«٢»

من حضرموتَ، سفينةٌ خشبيةٌ حفرتْ عل الحيزومِ
حشرجةَ ابنِ ماجدٍ. . . استقامتْ وهي تنشقُ
في المحيطِ الفظِّ وردتَهُ الكشيفةَ للرياحِ. . .
سفينةٌ من حضرموتَ ينزُّ منها الماءُ والسمكُ المجففُ.
أيُّ جَدٍّ في السفينةِ كان يستخفي على حَقَويهِ

همياناٌ وأحفادٌ عراقيون؟ أيُّ فحولٍ عبرتْ به
تلكَ السواحلَ، حيث تنتظرُ النساءُ مضمخاتٍ
ضوعَ «بنتِ البحرِ»، حيثُ يَصُغْنَ في الغَبَشِ
المندّى المسكَ والحنّاءَ، أيُّ روائحَ اختلبتْهُ؟
رائحةِ القرنفلِ والثيابِ الهاشمياتِ؟
القواقعِ وهي تغدو الرملَ؟ رُزِّ الزعفرانِ
وأيةُ امرأةٍ محنَّاةِ اليدينِ، صغيرةِ القدمينِ
قد عشقتْهُ أو هجرته؟ هل يطوي يديه على خيوطٍ
من ملابسِها الخفيةِ؟ هل تُرى تركتْ على صندوقهِ
الخشبيِّ دمعتَها؟ سفينةُ حضرموتَ تئنُّ في
ليلِ الخليجِ، وبين حورياتهِ، بين الكواسجِ والنجومِ
يدور أحفادٌ عراقيون، وامرأةٌ ستخلبها الفحولةْ.

«٣»

طيرٌ غريبٌ فوق نافذتي
أناديه، فيدنو.
ويدورُ في حِجري، فألمسُه
فيغدو في يدي حَجَراً
وتسقطُ جمرةٌ مني
فينتفضُ الجناحُ.

«٤»

بيديهِ (كان البحرُ نصفَ محارةٍ بيضاءَ، زرقاءِ
الظلالِ، خطوطُها المتموجاتُ المستقيمةُ تخبرُ
عن زمانِ السرِّ والتكوينِ) أطفأَ نارَهُ الليليةَ،
انطفأتْ جدائلُه وفي صندوقهِ الخشبِ استردَّ
البحرُ نصفَ محارةٍ. . . أتُرى ستنطبقُ المحارةُ
مرةً أخرى؟ أيأتي مرةً أخرى زمانُ السرِّ
والتكوينِ؟ يلقي النجمُ نيزكَهُ، وتهبطُ
حبةٌ حتى قرارِ البحرِ. . . ثم الخَلْقُ؟
تخبو حضرموتُ، سفينةٌ خشبيةٌ تنأى. . .
وها هو وحدَهُ في النخلِ: صندوقٌ، ونصفُ
محارةٍ في كفهِ، حَقَواهُ يختضّانِ بالأحفادِ،
وامرأةٍ ستخلبُها فحولتُهُ. هنا، في هذه الأرضِ
التي سمعَ الجنادبَ فوقَها، سيُقيمُ مملكةً،
ويغرسُ نخلةً، ويُلاعبُ الأحفادَ. . .
تخبو حضرموتُ. سفينةٌ خشبيةٌ تنأى. . .
وتنغز قلبَهُ صيحاتُ «أهلِ البحرِ»:
في ليلِ العراقِ تهيمُ وحدَكَ، تعلكُ السمكَ
المجففَ. حضرموتُ بعيدةٌ، حَقَولكَ يختضّانِ.
مملكتي التي سأُقيمُ فوقَ محارةٍ: كوني مباركةً
ويا امرأتي التي سأشدُّها: كوني مباركةً.

ويا نخلاتِنا: كوني مباركةً
نسيمُ الليلِ حَرَّكَ من جدائلهِ. ورائحةُ الطحالبِ
في الهواءِ الرطبِ. أغمضَ مقلتيهِ هنيهةً.
هدأتْ جدائلُه، وغابتْ نجمةٌ.
في الشرقِ تنهضُ وردةٌ حمراءُ. ترتفعُ الخليقةُ.
بغتةً تهتاجُ فاختةٌ، ويفتحُ مقلتيه.

«٥»

قُلنا كثيراً
غيرَ أنّ الببغاءَ تظل صامتةً
وإن نطقتْ أخيراً
جُعنا كثيراً
غيرَ أنّ أكفَّنا ستظلُ متخَمةً
فقد بُسِطتْ أخيراً.

«٦»

لم يبقَ من ذكرى السواحلِ غيرُ وحشتها...
لقد نهضَ النخيلُ. النهرُ يدخلُ في الجداولِ،
والجداولُ في البيوتِ. النسوةُ المرحاتُ ينشرنَ
الغسيلَ على حبالِ القِنَّبِ. الأطفالُ يجتمعون
مدرسةً وراءَ التوتِ. مملكتي هي البستانُ
مشتركاً. هي الخبزُ الموزَّعُ في المناقيرِ.

احتمائي: أذرعُ الأحفادِ، والأرضُ التي
اكتنزتْ بشهوتها، وأخرجُ من وِثاقي.

«٧»

قد نبتني بيتاً، فَنُسجَنُ فيه
ما أبهى الحياة!

«٨»

ما الصوتُ يأتي من جذورِ النخلِ... يدعوني:
مهاجرَ حضرموتَ! رأيتُ أمسِ النهرَ مقطوعاً.
مهاجرَ حضرموتَ! سمعتُ أمسِ النسوةَ المرحاتِ
ينشرنَ الغسيلَ، ويحتضنَّ الجُندَ بينَ النهرِ والمقهى.
مهاجرَ حضرموتَ! رأيتُ دار المُلْكِ عاليةً...
مهاجرَ حضرموتَ! مررتُ بالبستان مقتسَماً.
مهاجرَ حضرموتَ! سألتُ عن صندوقكَ الخشبيِّ،
عن نصفَي محارتهِ. وقيلَ: أضعتَهُ في النهرِ...
قلتَ لنا: أتيتُ هنا أوحِّدُ شاطئينِ.
وأبتني في النهرِ مملكةً مقدسةً. وفي الأرضِ السلامَ.
وأهتدي بالنجمِ، والشرقِ المفتَّحِ وردةً.
أيّانَ تنطبقُ المحارةُ مرةً أخرى؟
الفحولةُ لم تَعُدْ تختضُّ في حَقَويكَ.
والأحفادُ ينتظرونَ عند التوتِ حورياتِهم

في الليلِ. أسمعُ خفقَ أجنحةٍ. سلاماً للحياةِ.
لشهوةِ امرأةٍ تصوغُ المسكَ والحنّاءَ.
تلبسُ في المساءِ، الهاشميَّ، ووجهُها ثملْ
بريحِ البحرِ... من يأتي غداً؟ كانتْ مباركةً يداكَ.
وكنتَ تهجشُ نبضةَ الصَّلصالِ حين تمسُّهُ...
وتحسُّ بالأحفادِ يضطربون تحتَ يديكَ
حينَ تعانقُ امرأةً...
مهاجرَ حضرموت!

«٩»

للبحرِ. أنتَ تعودُ مرتبكاً
والعمرُ
تنشرهُ وتطويهِ
لو كنتَ تعرفُ كلَّ ما فيهِ
لمشيتَ فوق مياهِهِ. مَلِكاً.

«١٠»

خشبُ السفينةِ لم يَعُدْ بيديكَ كالصلصالِ.
لونُ البحرِ أكثرُ وحشةً مما ظننتَ. وهذهِ
الآفاقُ تعرفُها وتنكرها: الرياحُ تهبُّ،
والأسماكُ تسبقها؟ ووردات ابنِ ماجدٍ
الكشيفةُ هل نسيتَ نداءَها؟ كانت

تشيرُ، تشيرُ. . . والأسماكُ قبلَ الريحِ. . .
لونُ الماءِ قبلَ الريحِ. والأخشابُ تنذرُ
بالعواصفِ. طائرٌ يأتي. . . أتعرفُه؟
وأهلُ البحرِ؟ كنتَ تحسُّ في أحداقِهم يوماً
سبيلَكَ، وتهجسُ اللفتاتِ حين تشفُّ أو تقسو،
وتقرأُ في ملابسهم خطوطَ القلبِ. . .
أنتَ الآن منفردٌ بغرفتكَ الصغيرةِ،
ربما أومأتَ للأمواجِ منكسراً. . . ستبلغُ حضرموتَ،
تعودُ. . . لكنْ لستَ مثلَ النهرِ حينَ يعودُ نحوَ
المنبعِ السريّ. أنتَ الآن تبلغُ حضرموتَ
مقرَّحَ الجفنينِ، تبلغها كليلَ العينِ والرئتينِ،
تبلغُها ثقيلَ الخطوِ. . . لا امرأةٌ محناةُ اليدينِ،
صغيرةُ القدمينِ تثملُ بانتظارِكَ، لا حفيدٌ
سوف يحملُ عنكَ صندوقَ المسافرِ. . .
ما الذي عادت به سنواتُك الستونَ؟
أنتَ تقولُ: مملكةً بنيتُ، ونخلةً أنبتُّ،
وامرأةً عشقتُ. تقولُ: أحفاداً تركتُ هناكَ. . .
وهماً كانتِ السنواتُ:
وحدَكَ قابعٌ في غرفةٍ خشبيةٍ،
والبرقُ يصبغُ بالبنفسجِ لحظةً جفنيكَ،
يصبغُ بالبنفسجِ ما تبقّى من جدائِلكَ الجميلةْ.

«١١»

أحفادُه في الأرضِ ينتشرونَ كالأغصانْ
أحفادُه يأتونْ
أحفادُه في دهشةِ الإيمانْ
بنسَونَ ما يأتونْ.

«١٢»

يتقاسمُ الأحفادُ مملكةً مخرَّبةً: ويستهدونَ
بالسقطاتِ. ساحلُ حضرموتَ يمرُّ في النجمِ
الذي يتداولون مخبأً. والجَدُّ مرتسمٌ
على راحاتهم خَطّأ من التيزاب...
طولَ الليلِ ينتظرون حورياتِهم. والصبحَ ينتقلونَ
في العرباتِ. مفترقاتُهم كثرتْ، وأيُّ مسالكَ
اختلطتْ... وأيُّ معالمَ التاثتْ... أينهضُ بينهم
في الفجرِ، من سيشير معتنقاً ذراعَ حبيبةٍ،
متنكِّباً: «من ههنا سنسيرُ؟»
نصفُ محارةٍ في النهرِ،
نصفُ آخرُ التقطتْهُ حورياتُهم.
أيّانَ تنطبقُ المحارةُ مرةً أخرى...
ويأتيهم زمانُ السرِّ والتكوينِ؟
آتٍ أنتَ يا زمناً سنحياهُ
وآتٍ أنت يا زمناً سننساه

وآتٍ أنتَ يا زمناً نُبادلهُ مرارةَ حضرموتَ معاً
وندخلُ فيه دار الجَدّ. . .
فتياناً ملائكةً
ونُنبتُ نخلةً
ونعانقُ امرأةً
ونقولُ: عادَ الجَدّ. . .

مملكة معين

أهذا الذي قد تبقَّى؟
أمملكةٌ في حجرْ؟
أمملكةٌ من خطوطِ الحَجَرْ؟
أهذا الذي قد تبقّى. . .
إذن. . . كيف نفعلُ؟
هل نتقي بالخطوطِ ارتباكاتِنا
أم نرى وجهَنا في الخطوط؟

عدن، ١٦/ ٢/ ١٩٨١

هذيان

أتجيءُ الصحراءُ إذا دخلتْ في الغرفةِ قنبلةٌ؟
موسيقى. . . والبحرُ بعيدٌ، ومحارتُه في حوضِ
الفندقِ. لو أبلغُ أشجارَ دمشقَ. سلاماً لقميصي.
يرحلُ هذي الليلةَ. . . مَن؟ أثيوبيا خضراءُ.
وفي الرملِ الساخنِ يمضي السرطانُ البحريُّ.
أبغدادُ تنامُ؟ الطلقاتُ الإحدى والعشرونَ.
رأيتُ أبي في البابِ طويلاً نعسانَ. . .
سلاماً وهران. وفي ليلِ «القرويين» مخابئُ
بِنْ بَركةَ. أدخِلْني يا ربَّ القلعةِ غرفتَها.
سَهْبٌ أبيضُ. هل كانَ قطارُ الليلِ بطيئاً؟
عدنٌ سوداءُ. يدورُ السلّم كالحلزونِ.
قواقعُ تمشي بالعكّازِ. روائحُ كَمّونٍ. . . ثومٍ. . .
أين البارُ الصيفيّ؟ سَفانا. كيفَ يطولُ العشبُ
إلى أن أخفي فيه قميصي الرثَّ؟
سأسألُ عن نجمٍ في راياتِ الصيادين.
لماذا تورقُ في «صُورَ» الأشجارُ؟
وأسألُ عنكِ.

وأسألُ عنكِ.
الليلُ يجيءُ على عجلاتٍ.
طيرانٌ إسرائيليٌّ.
ترتجُّ الغرفةُ بالطلقاتِ.
ومن «بعقوبةَ» حتى بيروتَ.
من «الخندق» حتى بيروتَ.
ومن بيروتَ إلى قاطرةِ الحلزونِ.
لماذا؟

عدن، ١٥/ ٢/ ١٩٨١

تنويع

«١»

فَصَّلْتُ سماءً مغرقةً بالأزرقْ
ثم صنعتُ قميصي
ودخلتُ به حانة بحّارةْ
قدمتُ شراباً لثلاثةِ بحّارةْ
وجلستُ. . .
قال البحّارُ الأولُ: شكراً.
قال البحّار الثاني: فلنشربْ خمراً.
قال البحارُ الثالثُ: كيف لبستَ البحر؟

«٢»

فصّلتُ سماءً مغرقةً بالأخضرْ
ثم صنعتُ قميصي
ودخلتُ به حانةَ فلاحين
قدمتُ شراباً لثلاثةِ فلاحين
وجلستُ. . .
قال الفلاّحُ الأولُ: شكراً.

قال الفلاحُ الثاني: لا أشربُ خمراً.
قال الفلاحُ الثالثُ: كيف لبستَ العشبَ.

«٣»

فصّلْتُ سماءً مغرقةً بالأحمرْ
ثم صنعتُ قميصي
ودخلتُ به حانةَ عُمالٍ
قدَّمَ لي الخمرَ ثلاثةُ عمالٍ
فجلستُ. . .
قال الأولُ: شكراً.
قال الثاني: ما أعذَبَهُ خمراً.
قال الثالثُ: ما أبهى الساحةْ
لو كان قميصُكَ راياتِ الساحةْ!

عدن، ١٩/ ٢/ ١٩٨١

سواد

لا أُقَلِّبُ الاحتمالاتِ
أُقلِّبُ الحجر.
لا أُقلِّب الاحتمالاتِ
أقلِّبُ الجسد.

*

أشتهي الآن نوارةً في دمشقَ
أقولُ لها: حين ألمسُ شَعَركِ
أو أتقرّاهُ،
أشعرُ أنا أفقنا معاً
من سريرٍ لشخصينِ...
نوارةٌ في دمشقَ
الكلامُ الوحيدُ الذي بيننا
راحةٌ وأصابعُ...
أغنيةٌ في دمشق.

*

ربما نهبط الآنَ
أو نرتقي

ربما نلتقي حين نلمس أشياءنا
نتلامسُ
أو نتعرّى على حافةِ المائدةْ.
غير أني أسرِّحُ شَعركِ
إني أسرحُ شَعركِ
في غرفةٍ لم أجد بابها بعدُ،
فلنتفقْ،
ولنُقْمِ غرفةً... حافةَ المائدةْ.

*

لا أُقلِّبُ الاحتمالات
أقلِّبُ الجسد.

*

أنتِ مملكةٌ للسواد:
العيون
القميص
الجوارب
لكن مملكتي الشَّعر
لي أن أُفتِّحَ أدوارَهُ
ودوائرَهُ
وارتباكاتِهِ
ـ واحتمالاتِ تسريحةٍ في دمشق

*

لا أُقلِّب الاحتمالات
أقلِّب الجسد.
لا أقلِّب الاحتمالات
أقلِّب الجسد.

*

هل تكونين أجملَ
حين أغطي بشَعركِ عينيكِ
وجهَكِ
حين أرى بين هذا السوادِ
الشفاهَ التي...
والمرايا التي...
والسريرَ لشخصينِ...
.....
.....
.....
نائمةٌ في دمشق.

اليمن ـ سيّون، ٦/ ٢/ ١٩٨١

سحابة

تدنو السحابةُ، ثم تدخلُ في قميصي
حرةً، شفّافةَ الأبنوسِ
تبرقُ حين ألمسُها،
كأنّ براحتي حجرَ الخليقةِ. . .
أيها البرقُ الذي سمّيتُهُ الخصلاتِ
والمعنى
ورعشةَ أن يكون اثنان،
يا أغنيةَ الصلصالِ حين يصيرُ همساً أو دمقساً
هل تكون دمشقُ بين يديّ. . .
أم أني المغيَّبُ في دمشقْ.
أم أنني ودمشقَ ننأى في السحابةِ:
في ارتجافِ فمٍ
ومفصلِ أصبعٍ
ودقيقتين من اتحادِ الغصنِ بالغصنِ؟
السحابةُ لا تجالِسُ
لا تجالسني
وتجلسُ وهي طائرةٌ. . .

أسَرِّحُ شَعرَها
وأُمسِّدُ البرقَ الذي يختضُّ بين يديّ. . .
ـ هل جاءت لتخطفَ نظرةً وتطيرَ؟
هل جاءت لتخطفَني
وأنا على الكرسيّ. . .
مشدودٌ بأوراقي وأحداقي إلى الكرسيّ. . .
آهٍ، يا سحابةُ
يا سحابةُ
يا سحابةُ. . .
أمطري ما بين جلدي والقميصِ
رذاذَ زنبقةٍ. . .
وطيري!

دمشق، ٢١/ ١/ ١٩٨١

المضيق

لم تجلسِ الأُمُّ الصغيرةُ تحتَ تاجٍ من غصونِ الياسمينِ،
وقد وُلدتُ، مهياً ركنُ السقيفةِ لي. بلادٌ من
نخيلِ أبي الخصيبِ وحفنةٌ من تمرِها بيديّ.
كوخُ السعفِ قصري حين يأتي في الشتاءِ الرطبِ
ماءُ اللَّهِ. غصنُ التوتِ قصري في الظهيرةِ.
ألبستْني الأُمُّ في استعجالها قدمينِ حافيتينِ.
جِكْ جِكْ جِكْ. . .
أُخوّضُ في المياه، وفي سماءِ «الخبزُ ـ لا ـ يأتي ـ
كما ـ لا ـ يهبطُ ـ العصفورُ ـ في كفِّ ـ الصبيّ»،
أجوعُ حتى أعلكَ الأغصانَ
حتى أعلكَ المطّاطَ
حتى أعلكَ الثوبَ الوحيدَ
وأعلكَ الغَرَبَ المخبأَ في مذاق الشَبِّ
شَبَّ الشاب، شَبّ الشاب، شبّ الشاب
شبَّ الشاب، شبَّ الشاب، شبَّ الشاب
لكنْ ظلّت القدمانِ حافيتينِ. . . جِكْ جِكْ جِكْ

أخوّضُ في تظاهرةٍ، وأهتفُ عندَ رأسِ الجسرِ،
ـ أهتفُ في تظاهرةِ «البلادُ ـ تريدُ ـ خبزاً ـ لا ـ رصاصاً»، ثم أسقطُ جائعاً.

*

واخترتُ أن أتتبعَ الأنهارَ، عبرَ خرائطِ الدنيا
وباطنِ راحتي. في حلقةِ الفانوسِ أنهاري تدورُ،
وتقفزُ الأسماكُ والأشَناتُ حولي. راحتي تستقبلُ
البحارةَ الغرباءَ. يأتيني قراصنةٌ بأثوابِ الملائكةِ..
الصحابةُ يسكنون توهُّجَ الفانوسِ في ركنِ السقيفةِ.
أيها الوجهُ الإلهيُّ: انتظرتُكَ... هل ترى نمضي
معاً في هجرةٍ أولى؟ و ـ هـ ـ و ـ لا ـ لا ـ و ـ
هـ ـ و ـ لا ـ لا ـ و ـ هـ ـ و ـ لا ـ لا ـ
إلى ترنيمةِ الأحباشِ، مومباسا، وزهرةِ حضرموتَ.
ويدخلُ العمالُ ملتحفينَ جزّاتِ الخرافِ...
مهاجرِينَ إلى بلادٍ لستُ أعرفُها... تقولُ
كتابةٌ أولى: ستبصرُها بباطنِ راحتيكَ،
فتدخلُ النهرَ المقدَّسَ، حافياً، متألقَ العينين،
تهبطُ في القرارةِ... ثم تنهضُ عبرَ أغنيةِ البلادِ إلى البلاد.

*

لكأنني أتحسَّسُ السعفَ القديمَ، أجيءُ منزلقاً
على الأغصانِ... تلتفُّ الجذورُ عليّ.

رائحةُ الترابِ تكادُ تخنقُني. وفي رئتيَّ يمنحُني
الهبوطُ المشتهى رئتينِ. . . آهٍ للغناءِ بنسمةٍ
أخرى، وللأرضِ التي التبستْ، ولليدِ
مُرّةً وطليقةً كالجذرِ، للرأسِ المدوَّخِ بالروائحِ.
قِنَّبٌ في الماءِ. أسماكٌ بباطنِ راحتي. امرأةٌ
تَجَرَّدُ من ملابسها الحميمةِ. عشبةٌ في
بحرِ سومرَ. خندقٌ بين النخيلِ. أتولَدُ الأشياءُ
من أضدادِها؟ والأرضُ من ينبوعنا السريِّ؟
والأغصانُ من شكل التفحُّمِ؟ هل سنمضي
من مضيقِ الأرضِ نحو الأرضِ؟ ماذا نرتجي
لو ضاقتِ الدنيا، وأطبقتِ الجهاتُ
الأربعُ؟ الموتى؟

بيروت، ١٠/ ١/ ١٩٨١

المعسكر

كلما انتصفَ الليلُ أوقدتُ نارَ المعسكرْ
ـ في النهارِ احتطبتُ ـ
ثم أنصَتُّ:
هل هذه خطواتُ الجنودْ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كلما انتصفَ الليلُ جاؤوا بأطفالهم حولَ نارِ المعسكرْ
ـ أأطعمُ أطفالَكُم؟
● لا.
ـ أأطعمُكم؟
● إن أفواهَنا في الترابْ.
ـ أأسقيكمو؟
● كيف نشربُ؟
ـ أمنحُكم معطفي؟
● نحن موتى...
ـ إذن... كيف جئتُم إليّ؟

● نحنُ جئنا بأطفالنا.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

كلما طلعَ الصبحُ أطفأتُ نارَ المعسكر.

دمشق، ٢١/ ١/ ١٩٨١

قرار الاضطراب

الذكرى السادسة عشرة للثورة الفلسطينية

مقدمة

هكذا نجتمعُ الآنَ على مائدةِ الثورةِ:
نأتي بالبطاقاتِ التي كنّا سرقناها من القتلى،
ومن تبغِ الصحابيينَ،
من أحجارِ سورِ القدسِ
كي نسهرَ في بيروتَ
أو نسكرَ في نُزْلٍ على الشاطئِ
أو نستفسرَ الليلةَ، في الهاتفِ، عن بضعِ نساء. . .
هكذا نجتمعُ الآنَ على مائدةِ الثورةِ
جئنا. . . نحملُ التقريرَ، والبيعةَ، والصفقةَ،
جئنا كالدُّمى، في غفلةٍ، مدفوعةِ الأجرِ ـ
وجئنا كالدمى:
نسكرُ في نُزْلٍ على الشاطئ،
كي ننسى خيوطَ الضابطِ الأمنيّ،
والسهرةَ. . . تلكَ السهرةَ/ الصفقةَ في الملهى،
فبيتِ المستشارِ الصحفيّ،
الراتبَ الشهريَّ

والبيعةَ
والثعلبَ بين العينِ والقلبِ
وفي الدفترِ. . .
فلنجتمعِ الآنَ على مائدةِ الثورةِ
لكنْ. . .
لا نقلْ: «جئنا إلى الثورةِ. . .»،
لا نجتمعِ اليومَ على رأسِ الحسين!

«١»

سعفةٌ تنبتُ الآنَ في غصنكِ البرتقال
في السريرِ الذي يحتويكِ العشيّةَ، طعماً من البحرِ
من رملةٍ، غربَ بيروتَ، بيضاءَ، بيضاءَ، بيضاءَ
ـ أنتِ الملاءاتُ، والموجةُ. . .
إبتعتُ عرياً لأكسوكِ، إذ تنحنين على الشرفةِ الضيقةْ
وإذ تدخلين من الشرفةِ الضيقةْ
وفي شَعرِكِ الجَعْدِ. . . تَضَّوَّعُ الزنبقةْ
والقناديلُ بيضاءُ، بيضاءُ، بيضاءُ
في غرفةٍ كلُها أنتِ
في رملةٍ، غربَ بيروتَ، بيضاءَ، بيضاءَ، بيضاءَ
في شرفةٍ مغلقةْ.

«٢»

أمي إلى حَجرٍ على الدامورِ. . .
أرقى سُلَّمَ المطرِ، المموَّهَ بالحشائشِ والظلامِ
أقولُ: أخطو خطوةً أخرى،

وأخجلُ. . .
آه، يا وَهَناً يشدُّ الركبتينِ إلى اعتيادِهما
وآهٍ للمدارسِ علَّمتني أن أكونَ معلِّماً. . .
لو كان لي شَغَفُ الأيائلِ
لارتقيتُ السلّمَ المطريَّ وثباً، والتمستُكَ يا حَجَرْ

«٣»

نخلةٌ تنبتُ الآنَ في جذعِكِ البرتقال
نخلةٌ ما أظلَّتْ غريباً
نخلةٌ خلَّفتني غريباً
غالبتْني، وما اسَّاقَطَتْ. . .
ثم غادرتُها. . . أنفضُ الرملَ عني
أنفضُ الذلَّ عني
أهتدي بالمحطاتِ مهجورةً،
والمرايا التي هشّمتْها العيون.

«٤»

في المكتبِ الصحفي أنتظرُ الغزالةَ. . .
كامناً في قهوتي والشايِ والذكرى،
الغزالةُ ناولتني الخيطَ ثم مضتْ،
ولم تتركْ على الكرسيّ
غيرَ الضوعِ من نوّارةٍ مقضومةٍ. . .

لو كنتِ أيتها الغزالةُ جئتِني في الفجرِ
أيامَ الندى يهتزُّ في الخُصلاتِ
في قُطنِ القميصِ
وفي التماعِ المقلتينِ. . .
تعبتُ أيتها الغزالةُ:
منكِ
من عينيكِ
من تعبي. . .
فهل ألقاكِ أيتها الغزالة؟

«٥»

نخلةٌ تذبلُ الآن في جذعكِ البرتقال
من أتانا وقال:
إنها نخلةُ المقبرةْ؟

«٦»

بأزقةِ اليرموكِ:
بينَ توثُّبِ المغزى
وأغنيةِ الفلافلِ
والمقراتِ الأليفةِ. . .
كان وجهٌ حيثما حدّقتُ واجَهَني،
غريباً، مثقلَ العينينِ

سَمْحاً، غيرَ أن غضونَهُ تمتدُّ. . . في اللحظاتِ
خطّاً يمّحي، خطّاً يجيء،
ولما اشتبكتْ خطوطُ الوجهِ، أبصرتُ المخيَّمَ،
كان بين توثُّبِ المعزى
وأغنيةِ الفلافلِ
والمقراتِ الأليفةِ:
طائراً
كفّاً
كتيبةَ أرجوانٍ
ساحلاً في الصيفِ. . .
أو بيتاً ببيسانَ القديمةْ.

«٧»

سعفةٌ تسقطُ الآنَ عن غصنكِ البرتقال
آهِ، بيضاءُ، سوداءُ، حمراءُ، خضراءُ
خضراءُ
خضراءُ
إني أحبكِ خضراءَ
الريحُ خضراءُ
والغصنُ أخضرُ،
هل فتّحتْ نخلةٌ زهرةَ البرتقال؟

«٨»

أمضي إلى حجر بسورِ القدسِ
أبرأُ خالقي حجراً
وأسجدُ. . .
أفتدي بالخالقِ المخلوقِ. . . قُوتَ دمي
وأهبطُ في قرارِ الاضطرابِ
ومنزلِ الفوضى
وأعلنُ:
أنني المبدأْ
وإني من هنا أبدأْ. . .
وإن الماءَ والأسماءَ تحت أصابعي تبدأْ

تشريح

هراء ١

بادَلَني الليلُ بعينيَّ
فقلتُ: إذن، مَن يبصُر هذا الليلِ؟
بادِلْني ما شئتَ: قميصي، صيحةَ أغصاني
قبرَ أبي، لكني سأظلُّ طريدَ الليلِ
أطاردُه. . .
حتى لو دارَ على أهدابيَ نجمُ الليل.

أغنية ١

يا ليلُ، مَرَّ الندى، وأظلمَّت الوردةْ
والصبح. . . من يذكرُ الصبحَ الذي عندهْ؟
الناسُ صارت تشوفُ الشوكَ والوردةْ
في واحدٍ. . . آهِ لو كلّمتُهُ. . . وحدَهْ.

سؤال ١

أتظلُّ تخدعُكَ القصيدةُ في مَزالقها؟
أما زال التأنُّقُ، والشذى الريفيُّ

حتى حينَ تشهَقُ في احتضارِكَ؟
لا تقلْ: ما أجملَ الكلمات
مات، مات، ومات...

ضمير وحيد

فارسٌ جاء من صخرةٍ... فارسٌ من بلادٍ بعيدةْ
ثم ماذا؟ الكلامُ الهراءُ
المجازُ. الجناسُ. الطباقُ. القصيدةْ
آهِ يا امرأةً لم تجدْ بعدُ حتى القصيدةْ!

هراء ٢

غير أني أغني لها، قادماً من بلادٍ تُسمَّى بلادي
وأسمَيتُها المقبرةْ
غير أني أغني...
وإن ضاقت الأرضِ، وامتدّت المجزرةْ
غير أني وحيد
في شوارعَ مسكونةٍ...
في قرىً للرصاصِ المراوغِ
في شرفةٍ
أو نشيدْ.

سؤال ٢

لكأنكَ استمتعتَ بالذاتيّ
تمنحُه حناناً لستَ تعرفُه
ـ كأنكَ تهجسُ الأزهارَ في وَهَجِ الحرائقِ.
قُلْ: مددتُ يدي
فلم أعرفْ سواي،
صراحةً...

هراء ٢

مضى مثلما جاء...
هذي المدينةْ
مثل كلِ البلادِ التي ظَلَّ فيها الشريدْ
ظلّ فيها الوحيدْ
ظلّ فيها
ولكنها... مثل تلك المدينةْ
اطفأت نارَها، واكتفتْ بالبريدْ

سؤال ٣

هاأنتذا...
خلّفتَ قوقعةً
لتدخلَ شبهَ قوقعةٍ...
لماذا؟

أغنية ٢

من بعدِ خمسينَ. . . داري لم تَعُدْ داري
يا صاحبي. . . لا تجاورْ عَتبةَ الجارِ
ما تُنبتُ الوردَ حتى ديرةُ الداري
ما أوحشَ الليلَ. . . لولا خطوةُ الشاري
من بعدِ خمسينَ، أمشي خُطوتي. . . يا ليل

كم قلتَ إنكَ لستَ تعرفُ كيفَ ترتكبُ القصيدةْ
ماذا فعلتَ؟
كتبتَ. . .
ثم محوتَ؟
أم قلتَ الهواجسَ مثلما جاءتكَ. . .
عاريةً
مشوشةً. . .
على أثوابها الدُّفلى وعشبُ البحر. .؟
صمتا.

دمشق، ٢٥/ ١٠/ ١٩٨٠

الخنزير

راقبتُ أرضَ اللَّهِ، لم أسألْ لأنَّ نيازكاً سقطتْ، ولكني سألتُ لأن زهرتَنا الوحيدةَ حين مَدَّتْ عنقَها قُطِعَتْ. سألتُ لأن خزّافاً تراكضَ في أصابعنا طويلاً ماتَ من جوعٍ إلى الطينِ النقيّ. سألتُ: أيَّ مدينةٍ نبني... ولم نكتبْ على حَجرِ البراكينِ انطفاءتَنا؟ وأيَّ الطيرِ نُطْلقُ، مَرَّ بي رجلٌ من المِعدانِ:

«إن الموتَ قاسٍ. هل بنينا منزلاً يبقى؟ وهل عَقْدٌ ختمناهُ يدومُ؟ وهل يفيضُ النهرُ دوماً؟ والفراشةُ لا تكادُ تشقُّ شرنقةً وتبصرُ وجهَ هذي الشمسِ حتى يصطفيها الموتُ...»[1] في بدءِ الخليقةِ مَرَّ بي الرجلُ الفلسطينيُّ: أنظرْ... للحجارةِ طعمُ قلبي. هل مصصتَ نواةَ تمرٍ بعد أن عُلِكَتْ؟ يظلُّ الآسُ ينبضُ زهرةً بيضاءَ. تحرقهُ الصواعقُ وهو ينبضُ. يعتليه الرملُ والحشراتُ والموتى... وينبضُ. تأكلُ الديدانُ كلَّ جذورهِ، جذراً فجذراً، وهو ينبضُ.

مَرَّ بي حَرَسُ الظهيرةِ: نحن نعرفُ من مُحَيّاكَ اختيارَكَ... نحن نعرفُ أن «وجهاً ناحلاً. عينين جائعتين»[2]، سوف تُقيمُ

---

(١) من حديث أوتونبشتم إلى جلجاش في «قصة الطوفان»

(٢) شكسبير ـ من «يوليوس قيصر»

عاصمةَ الخليقةِ. أدخَلوني منزلَ الخنزيرِ. شقُّوا بغتةً صدري. وأخرجَ واحدٌ قلبي، وأبدَلَهُ بمنفحةٍ. . .

ـ لقد أصبحتُ خنزيراً.

بغداد، ١٩٧٥

النهر

«١»

طفلٌ عندَ سياجِ السطحِ الهابطِ
يفتحُ عينيهِ
النجمُ الشاحبُ يدنو من جِذعِ النخلةِ
ثم يغيب. . .
نجمٌ آخرُ في الجذعِ يغيب
آخَرُ. . .
آخَرُ. . .
آخِرُ نجمٍ كان يغيب.
هل يطلُعُ طيرٌ أحمرُ بينَ نجومِ النخلْ؟
هل يُطلقُ عبرَ التلّ ـ
صيحتَهُ؟
ينكشفُ النهرُ ضبابيَّ الضفتينْ
يلمعُ في العينينْ
موجاً وحشائشَ. . .
في الفجرِ يسيرُ الطفل

قدماهُ تجسّانِ ترابَ الممشى
وتُحسّانِ نعومتَهُ تترطّبُ بينَ أصابعهِ
ـ مثلَ السَّرطانِ النهريّ،
وتزلقُ أسماكٌ من طينٍ في الممشى.
تنحدرُ الضفةُ. . .
الحَلْفاءُ القاسيةُ الغبراءُ تشفُّ وتخضرّ
يشمُّ عروقَ السّعْدِ، يدورُ النهر
الماءُ تحرّكُهُ أسماكٌ وسلاحفُ ترفعُ أعناقاً خضرء
قدماهُ تجسّانِ برودةَ ماءِ النهر
والفجرُ البالغُ يغسلُ في الماءِ جدائلَهُ
ويخبِّئُ تحتَ التوتِ ينابيعاً من ذهبٍ
يستكشفُها طفلٌ تحتَ التوت.

«٢»

كانَ عُريانَ في الفجرِ. مستوحداً تحتَ نخلةْ
كلُ ما كانَ يملكُه يسكنُ الجذعَ: أثوابهُ
والترابُ الذي في النسيج
والترابُ الذي في النشيج
والترابُ الذي في عيون المذلّةْ.
كان عُريانَ في الفجرِ. مستوحداً والمياه
حاملاً ليلَهُ في يديه
حاملاً صبحَهُ في يديه

عكراً، صافياً، كالمياه.
أيُّ غصنٍ شبيه
ينزلُ الماءَ في الفجر، أو يرتديه
أيُّ صوتٍ شبيه
كان يدعوه، أو كان يرتدُّ فيه؟
إنه الماءُ... هل يتشرَّبُهُ جِلْدُه؟
مثلَ تلكَ الوريقاتِ؟
هل ينتهي -
مثلما جاءَ؟
ماءُ الصباحِ، العذوبةُ... تلكَ الطراوةُ
في أن يعودَ إلى المهدِ... في أن يراقبَ
أطرافَهُ تستكينُ. السماءُ على الماءِ مخضلَّةٌ،
وهو في الماءِ، مضطربٌ ـ ساكنٌ، هو في الماءِ:
مضطربٌ ـ ساكنٌ
ساكنٌ
ساكنٌ.

«٣»

فجأةً، يسقطُ في الليلِ، كما لو لم يكنْ صبحٌ...
أهذي الموجةُ السوداءُ ما كان مِهاداً دافئاً؟
تغدو جذورُ السّعْدِ أطرافَ مساميرَ...

ولونُ الماءِ يَسْودُّ،
يدورُ السمكُ الدائخُ مقلوباً. . .
ويسعى سرطانُ النهرِ،
كلاّباتُهُ مرفوعةٌ، في الضفةِ الطينيةِ.
الماءُ الذي كانَ بساطَ التوتِ والتمرِ،
تدلتْ فوقَهُ أزهارُ دُفلى لم تكنْ في شاطئِ البستانِ،
أزهارٌ مليئاتٌ عصيراً
ربما سَمَّمتِ الماءَ إذا دارتْ به حيناً. . .
وفي الماءِ يدورُ الطفلُ:
كفاهُ تحومان
وعيناهُ تغيمان
ورجلاهُ تنامانِ على إعيائهِ الليليّ. . .
يدنو قمرٌ أصفرُ من أثوابهِ الملقاةِ عند الجذعِ،
كان الطفلُ عُريانَ،
وفي مَفرِقهِ يشتبكُ الطحلبُ،
والدفلى ترشُّ الماءَ بالزهرِ الذي يخنقُ. . .
في أيِّ البساتينِ تراءى الطفلُ؟
من أيِّ سبيلٍ جاءَ؟
والنهرُ الذي يغفو به الآنَ؟
تُرى، هل كانَ. . . هل كانَ؟
ضبابٌ قاتمٌ يهبطُ فوقَ السمكِ الدائخِ والماءِ

ضبابٌ قاتمٌ يهبطُ فوقَ الطفلِ
والليلِ
وصمتِ الأشَنات

«٤»

بعيداً عن الناسِ، تدنو فتاةٌ من النهرِ. . .
كانت تشمُّ الغصون
تلمُّ القواقعَ
تقتطفُ اليانسونَ الطريّ. . .
بعيداً عن الناسِ، كانت تسيرُ إلى نخلةٍ،
جلست عندَها
وهي تجمعُ أثوابَهُ. . .
ثم تحملُها باعتناء.

بغداد، ١٩٧٥

التسلل

نتفيأُ أوراقاً ذابلةً
نشربُ أوراقاً منقوعةْ
نقرأُ أوراقاً قُرئتْ في العامِ الفاصلِ بين النومِ وجمعِ القوتْ
نبحثُ عبرَ شقوقِ التابوتْ
عن شجرٍ
نبحث في التابوتْ
عن حجرِ الحكمةِ
نصنعُ في زاويةِ التابوتْ
خلفتَنا
ونرى العالمَ في التابوتْ.

*

أي كتائبَ في زهراتِ الرمّانِ الأولى؟
أيةُ بتروغرادَ تلوِّحُ في غصنِ قرنفلةٍ؟
أيُّ قرامطةٍ من سوق الأحساءِ يدورونَ بأغنيتي؟
أيُّ فلسطينيٍّ ينهضُ في الكلماتِ المخبوءةْ؟

*

في هذا الوطنِ المتسللِ نحو التاريخْ
في هذا الوطنِ المبعَدِ عن أفكارِ الشجرةْ
أفتحُ ثقباً في التابوتْ
أبصرُ:
ثوريينَ بقاعاتِ الرقصِ
بناةَ منازلَ مشبوهةْ
ملتزمينَ كحولَ الصبحِ
وإفسادَ الفتيات.

*

لم يتعلمْ هذا الطفلُ المنحوس
لم يتكلمْ ما يتكلمُه الأولادُ المغسولون
لم يسكنْ في غرفٍ مانعةٍ للصوت
لم يشربْ ماءَ الورقِ المنقوع
لم يعشقْ إلا امرأةً واحدةً...
لم يعرفْ أن يأكلَ لحمَ أخيه
ولم يخطئْ ذاكَ الخيطَ الواصلَ
بين النجمِ وبيتِ أبيه.
بيتٌ أبعدُ من كلِ بيوتِ الشام
تفتحهُ امرأةٌ يعرفُها.
بيتٌ أقربُ من كلِ بيوتِ الشامِ
تفتحُه امرأةٌ لا يعرفُها.

بيتٌ في بتروغراد
فتحتْهُ امرأةٌ يعرفها.
بيتٌ في بغداد. . .

بغداد، ١٩٧٧

مناظر متفرقة

غيماتٌ بيضٌ تركضُ في الريح
وأغصانُ النبتِ المتسلقِ
ترفعُ أذرعَها
بينَ الحائطِ والأسلاكْ
وتنادي الغيماتِ البيضَ:
خُذيني.

*

أعرفُ هذا الطالعَ بين الأشجار
أعرفُه،
كلَّ ربيعٍ كان يُحدِّثني
يستقبلُني عند البوابةِ
يُدخلني مملكةَ الأشجار.
أعرفُ هذا الطالعَ
لكنّ الطالعَ هذا العام
أوقفَني عند البوابةِ
لم يُدخلْني مملكةَ الأشجار
لم أسألْهُ: لماذا؟

*

سبعُ مداخن
تتنفسُ عبرَ سطوحٍ مغبرّةْ
سبعُ مداخن
تخمدُ عبرَ سطوحٍ مغبّرةْ
سبعُ مداخن. . .
أيةَ واحدةٍ يختارُ الطائر؟

بغداد، ١٩٧٦

البطء

أستقبلُ القطرةَ، مدفوعاً من المحيط.
أيةُ أصواتٍ أناديها من الغرفةِ؟
هذا التعبُ البطيء
هذا رصاصُ السنواتِ، الصدأُ الهابطُ كالفُجاءةِ
النومُ على الأسلاكِ،
في قوقعةٍ نهريةٍ ألمُّ حبّاتٍ من الرملِ الذي
ما خالطَ الطينَ،
فتاةٌ لا أراها، تصرخُ الليلةَ
بين الجدولِ اليابسِ والحَلْفاءِ.
هل مرَّ بنا العصرُ الجليديُّ؟
نباتٌ ناتئُ الأوراقِ، ملعونٌ، على أبوابنا...
أفتحُ شبّاكاً، وأسترضي وريقاتٍ من التوتِ
الجواميسُ تخوضُ الماءَ ضحضاحاً،
ويبقى الزنبقُ الواسعُ في أعناقها.
راياتُ عبدِ الناصر الملقاةُ في الوحْلِ اليساريّ.
الكحولُ:
الحربُ

لم نعرفْ بها يوماً
ولم نجهلْ بأنَّ الحربَ دائرةٌ. . .
بلادٌ أنتَ أدرى بالذي فيها.
الكحولُ:
الليلةَ اخترنا موائدَنا، وهيأنا المواضعَ حولها
غِبنا، وغنّينا، تحدّثنا، كذَبنا
ما الذي نأتي غداً؟
والحربُ لم نعرفْ بها يوماً
ولم نجهلْ بأنّ الحربَ دائرةٌ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
فتاةٌ لا أراها، تصرخُ الليلةْ.

بغداد، ١٩٧٧

الدورة

أتدورُ بي؟
دارت بي الأغصانُ، لم تتركْ بكفِّي غيرَ رائحةٍ،
ودارتْ بي الزهورُ، فخلّفتْ لي وحشةً، ومضتْ. . .
ودارتْ بي الجذورُ، فلم تَدَعْ لي غيرَ لوعتِها
ودارتْ بي شجيرةُ بيتنا يوماً،
ولكنْ البنوّةَ غادرتْ
ومضيتُ:
ساءلتُ الغصونَ ولم تُجِبْ،
وسألتُ زهرةَ عمريَ الأولى، فما نطقتْ
وحينَ سألتُ جذراً كان في إيماءتي اليسرى ولم ينطقْ ـ
سألتُ شجيرةً بالبيت
لكني مضيتُ:
تقودني طُرقٌ، وتُسْلمني إلى طرقٍ
مضيتُ:
أقودُها طُرقاً، وأُسلمُ بعدَها طُرقاً
مضيتُ:

أثمّتَ البستانُ، يُعتمُ في الظهيرةِ؟
كان بين هوائه شيءٌ كمنتبَذِ اللقاحِ،
كزهرة النوّامِ، شيءٌ في الهواءِ
يشفُّ، يُعتمُ. . . زهرةُ النوّامِ،
رائحةُ السفينةِ حين تُدهَنُ بالغِراءِ،
القِنَّبُ المنقوعُ. أضغاثٌ من العشبِ
الجَنيِّ عشيّةً. والنخلُ يلمسُ سعفُه
الأرضَ النديةَ. في الجداولِ تنشِقُ
الأسماكُ ضوعَ التوتِ أحمرَ. . .
كلّمتني عند سدرتهِ اليتيمةِ،
عند سدرةِ منتهاهُ يمامتانِ
رأيتُ جَدّي في مَمَرِّ الآسِ،
جَدي يستريحُ،
مُلاعباً أسماكَهُ. . .
عيناهُ زرقاوانِ تبتسمانِ لي،
ويداهُ تمتدّانِ. . .
ثم رأيُتني أدنو
وكان يرشّنَي بالماء
كان يرشّني بالماء
كان يرشّني. . .
ودنوتُ:

لم أنظرْ إليه
ولم أقلْ. . .
ـ لكنني صلّيتُ بين يديه ممتنّاً،
وقمتُ.

بغداد، ١٩٧٧

مريم تأتي...
قصائد بيروت

(١٩٨٢)

كتبت هذه القصائد بين ٣/ ٦/ ١٩٨٢
و٥/ ٨/ ١٩٨٢ في بيروت المحاصرة

حماسة

أريدُ أن أسألَ في بيروتْ
عن اسمِها، عن قلبِها الياقوتْ
أريدُ أن أدخلَ في بيروتْ
باسمِ التي قبّلتِ الجمرةَ في عينيّ
باسمِ التي ضعتُ بها، لكنها نامتْ على عينيّ
وقبَّلَتْني مرّةً أخرى
وقالت: نحنُ أهلُ الحيّ
أريدُ أن أنامَ في بيروتْ
هنيهةً...
أريدُ أن تمرقَ عني طائراتُ الغزو
هنيهةً...
أريدُ أن استقبلَ الأغصانْ
في شقّتي،
أريد أن أسكنَ في أسئلةِ الأطفالْ
بين السياسيّ وبين الغارةِ الأولى
بين يدي والرعدْ
بين الفجاءاتِ التي تخمدُ والأنشودةِ

الأولى
أتّقدُ الليلةَ في خضّةِ هذا الرعدْ
أدخلُ في الغارةِ
في المغارةِ:
المذودُ، والنجمُ، وهذي مريمُ الحلوةُ:
الـ. . .
يَهْ، يَهْ، يَهْ، يَهْ
يا شوارع
بيروت الحرب اليوميّةْ
مدينةٌ تصرخُ بالعالم
مدينةٌ تصرخُ بالرايات
مدينةٌ تصرخُ بالصرخةِ في الرايات
تصرخ بالبلّورِ والبازلتْ
تصرخُ: وحدي في دمي ما زلتْ
ونقولُ: نقاومْ
ونقولُ: ستبقى بيروت
ونقولُ: هنا بيسانْ
ونقولُ: هنا نسقط قتلى
ونقولُ: هنا ننهض قتلى
ونقول: لنا لبنان. . .

بيروت، ٢٥/٦/١٩٨٢

أيها الأخوة

قبل أن نحتفي بانكسارِ الصنوبرْ
قبل أن نشتري للإله الجميلِ سريرَ الإبَرْ
قبل أن نلقيَ الأسلحةْ
قبل أن نشتمَ الأصدقاءْ
قبل أن ننتقي خشبَ الشققِ المقبلةْ
قبل أن نصنعَ المقصلةْ
قبل أن نبتدي بالمراثي
قبل أن نتقنَ الفلسفةْ
قبل أن نتنافسَ في فطنةٍ لم تكنْ
قبل أن يتوازنَ قصرُ الشتاءِ وأمُّ القرى
قبل أن نتذكرَ واشنطنَ العادلةْ
قبل أن نتقرى عناوينَ منسيّةً في الخليجْ
قبل أن تتخفّى الهويّةُ ملفوفةً بالنشيجْ
قبل أن نبتدئْ
قبل أن ننكفئْ
قبل أن نتباهى بأن فلسطينَ ليست على الخارطةْ

قبل أن نختفي في قصيدةْ
قبل أن. . .
ثمت الأرضُ، ثمت: «بعدُ». . . البعيدةْ

بيروت، ٣٠/٦/ ١٩٨٢

أبدأ.. لأظلَّ أبدأ

افتتاح

يأتيكَ هذا البحرُ باليوميّ
بالنبأ الذي لمّا يَعُدْ نبأً،
وتأتي الطائراتُ من اختناقِ البحرِ
تطوي في متاهاتِ المبادئِ حاجزاً
وتدقُّ للأطفالِ عنقوداً من البارودِ
واللحمِ المشظّى.
أيها البحرُ المغادرُ في الهدير المدفعيّ
ويا مهاداً للبوارجِ وهي تخلطُ بالرصاص
الماءَ والصاروخَ
يا بحراً عرفناهُ ولم نعرفهُ
تهنا فيه حتى ضاعت الأغصانُ عنّا
فانتبهنا ليلةً
لنكونَ خلفَ الساترِ المتواضعِ . . .
انتبهتْ لنا بيروتُ، فانتفضتْ
وأرختْ شَعرَها الوحشيَّ
مشرعةً ذوائبَها إلى الأفق الملبَّدِ
ليلةً، ونموتُ

أو شهراً ونحيا
أو سنينَ فنستكين إلى الشواطئِ
نغرزُ الراياتِ في الرملِ المبللِ
ثم نَبْرأ زهرةً بحريّةً حمراءَ
نبرأُ زهرةً أولى. . .
لماذا دارت الأسلاكُ دورتَها؟
لماذا استنطقتْنا ريشةُ العنقاءِ أعواماً
ولم ننطقْ؟
وأيُّ العابرينَ أستوقفَ العربات مسرعةً
فخلّفناهُ؟
خلّفنا إله الضربةِ العمليقَ؟
رشّاشٌ أمام البحرِ
مريمُ ضد بارجةٍ
جناحا طائرٍ في وجهِ طائرةٍ،
ويونسُ يرصدُ الحيتانَ. . .
كان البحرُ أسودَ كالسماءِ
البحرُ منبسَطُ الرصاصِ
البحرُ مَقلعُ كلِ ما يهوي على صفة المدينةِ
والسماءُ بغيضةٌ كالبحرِ
آلافُ المدارجِ والمطاراتِ: السماءُ
وملعبُ اللّه اليهوديّ: السماءُ
ونحنُ بين البحرِ نجلسُ والسماواتِ.

استدارَ فتىً إليّ، وقال: أين النجمُ؟
قالتْ لي فتاةٌ: هل رأيتَ قرنفلاً؟
وتساءلَ اللَّهُ الفلسطينيُّ
عن أوراقِ سدرتِهِ:
سنجلسُ هكذا، متزاحمينَ على امتدادِ البحرِ
نجلسُ واثقينَ بساترٍ متواضعٍ
وبمدفعٍ وقذيفتين ورايةٍ سوداءَ،
نجلسُ في حصارِ البحرِ نمضغُ لحمَنا
متلذذينَ،
ويجلس الحلزونُ ملتصقاً بأوراقِ الشجيرةِ
«سَمِّني»... قالت تُماضرُ.
«سَمِّني»... قال امرؤ القيسِ.
السماءُ بغيضةٌ كالبحرِ
والفتيانُ يقتسمونَ بين قذائفِ الـ م/ ط
أسماءً وماءً من مراعي اللَّهِ.
كان الصخرُ ينبتُ،
والسواترُ مثلهم تعلو...
وكانت موجةٌ خضراءُ
كانت موجةٌ حمراءُ
كانت موجةٌ بيضاءُ
كانت موجةٌ سوداءُ تعلو،
والسماءُ خفيضةٌ كالبحر...

حي السلم

أسلمتُ «حيَّ السلّم» العينينِ
قلتُ له: سأبصرُ ما تُبَصّرني
سأقرأُ ما تقولُ حجارةٌ لحجارةٍ،
ما يهمسُ الشبّاكُ للشبّاكِ
ما تستروحُ الأبوابُ. . .
أقرأُ ما تنوءُ به الغصونُ
وبعضَ ما تُخفي حدائقُكَ الصغيرةُ
أو تدورُ به أزقتُك الحفيرةْ
في المخبأ السرّيِّ
أشرعْنا النوافذَ للرياح الأربع الثملاتِ
لم نتركْ مكاناً للهواجس غيرَ هذا الصمت
كان رفاقُنا الضباطُ يرتجلون أغنيةً:
وماذا لو تخلَّوا كلُهم عنا؟
وغنّى الرفقةُ الضباطُ:
«حيُّ السلّم» الدنيا، ووقفتُنا الأخيرةْ.
ما بين حائطِكَ المثلّمِ والعدوِّ، خُطىً

وما بين الخُطى والموتِ غَمضةُ مقلةٍ يُسْرى
سلاماً أيها الحيُّ المتوجُ بالقذائفِ
أيها الحيُّ الذي اخترناه جُلجُلةً.
سلاماً للصبايا في بساتين الخضارِ
وللشبيبةِ في المحاورِ
للشهادةِ في السريرةْ.

الفاكهاني

نقولُ له مساءَ الخير، حسبُ
وننقلُ الخطواتِ سرّاً في المساءِ إلى مكاتبهِ
نُلملمُ في تعجُّلنا دفاترَ وأسطواناتٍ وأختاماً
وأشرطةً مسجّلةً
وأرقامَ الهاتفِ في زوايا العالم القُصوى
وقمصاناً ستنصُلُ، مثلَنا، ألوانُها
ونظلُّ نحملُها إلى القاراتِ
نحملُها إلى تلكَ المطاراتِ العدوّةِ
والشقيقِ النذلِ
والمدنِ الغريبةِ
والضواحي. . .
هل نأتْ، في الريح، جمهوريةُ الفقراءِ؟
هل كانت سلالمُنا ـ مكاتبُنا، الذهولَ؟
وهل مضَينا، دون أن ندري
إلى الخطرِ الكبير
إلى معادلةِ الجذور. . .
وحينما وقفتْ سلالمُنا وقعنا؟

ليل الحمراء

شمعةٌ في الطريقِ الطويلْ
شمعةٌ في نعاسِ البيوتْ
شمعةٌ للدكاكين مذعورةً
شمعةٌ للمخابزْ
شمعةٌ للصحافيّ يختصُّ في مكتبٍ فارغٍ
شمعةٌ للمقاتلْ
شمعةٌ للطبيبةِ عند الأسرّةْ
شمعةٌ للجريحْ
شمعةٌ للكلامِ الصريحْ
شمعةٌ للسلالمْ
شمعةٌ للفنادقِ تكتظُّ بالهاربينْ
شمعةٌ للمغنّي
شمعةٌ للمذيعين في مخبأٍ
شمعةٌ لزجاجةِ ماءْ
شمعةٌ للهواءْ
شمعةٌ لحبيبين في شقةٍ عاريةْ

شمعةٌ للسماء التي أَطبقَتْ
شمعةٌ للبدايةْ
شمعةٌ للنهايةْ
شمعةٌ للقرارِ الأخيرْ
شمعةٌ للضميرْ
شمعةٌ في يديْ

أيها المقاتلون

ألأنّ هذا البحرَ نعرفُ كيف نحرثُه، أرادَتْنا البوارجْ؟
ألأنَّ هذي الأرضَ فِلذتُنا، أتتنا الطائراتْ؟
ألأننا الفقراءُ، أغلَقَ عالمٌ عنا منافذَهُ. . .
وخلّفنا على متراسنا الأولْ؟
ألأنّ عشبَ اللّه لا يُقتلْ
قطعوا علينا الماء؟
ألأننا الأبناء
عرضوا علينا أن نكونَ سفينةً في عَتمةِ الأنواءْ؟
ألأنّ أيدينا أرادتْ حرفةً غيرَ التسوّلِ
أطبقَ الأعداءْ؟
لكننا ننهضْ
في ضعفنا ننهضْ
في جرحنا ننهضْ
في قتلنا ننهضْ
ونسيرُ نحوَ البحرْ
في فيلقٍ مغبّر
في غاسقٍ أحمرْ. . .

بيروت، ٦/ ٧/ ١٩٨٢

أيام حزيران

في صباحٍ حامضٍ، يتناولُ الجنديُّ بندقيتَهُ
ويكسرُها على شجرةٍ.
في صباحٍ حامضٍ، يتناولُ خليل حاوي بندقيتَهُ
ويكسرُها على رأسهِ
في صباحٍ حامضٍ، يتناولُ «س» الشايَ وحيداً.
هكذا في الصباحاتِ الحامضةِ، يتخمّرُ نسيجٌ حيّ
وتكونُ الشمسُ مشوشةً
ويكونُ البحرُ ضباباً
وتدورُ الأسطوانةُ على نفسها
كذلك الصحيفةُ
والمنظمةُ
وماءُ صنّين
والطائراتُ المدنيةُ
ومراكزُ الأبحاثِ المعاديةُ للماركسية
والطريقةُ المثلى لالتقاءِ الجسدِ بالجسدِ
ليس في نيةِ الشجراتِ التي قربَ نافذتي أن تدورْ
ليس في نيّة البحرِ أن يترقرقَ أخضرْ

ليس في نيّةِ السائرينَ العبورْ
غير أني أُهدهدُ، في السرِّ، أرجوحةً
استشفُّ المياهَ التي في الشجرْ
والمياهَ التي سوف تخضرّ في البحرِ
تلك المياهَ التي سوف تعلو إلى النافذةْ
ثم أمضي، خفيفاً، إلى شرفاتٍ تدورْ

ما الذي جعلَ الظهيرةَ هكذا
ثقيلةً بالأبخرةِ والزجاجاتِ الفارغة؟
مَن الذي أجلسَ على الكرسيّ الواطئِ
عقيداً لمدرّعاتِ العدوّ؟
ما الذي علّمَ الخنزيرَ أن يأكلَ الوردةْ؟
وهذا الهديرُ الآتي من سماوات فلسطينية. . .
أيحملُ صاروخَ القيامةِ؟
الظهيرةُ ساخنةٌ منتفخةٌ
مثلَ كبشٍ تحتَ شجرةٍ هزيلةٍ
الظهيرةُ تُغمضُ عيني كلبٍ مقرّحتين
الظهيرةُ تتمددُ على البحرِ
مثلَ حوتٍ قتيل منذُ عشرةِ أيامٍ.
وفي فنادقِ المهجَّرينَ ذواتِ الطوابقِ الألفِ
روائحُ جواربَ شتوية
وحليبٍ

وزيتٍ نباتيّ
وحقولٍ بعيدةٍ.
الظهيرةُ تختلجُ.
عندما تمرقُ الطائراتْ
وهي تهدرُ...
يهتزّ عِرقٌ ضئيلْ
بين صدغي وعينيّ
يهتزُّ هذا الفضاءُ المحدَّدُ بين السيجارةِ والمنفضةْ.
عندما تمرقُ الطائراتْ
يتصلَّبُ شكلُ الشظيّةِ في الروحِ
ثم تكونُ الشظيّةْ
روحَ هذا الإلهِ المزوّرِ
هذا الإلهِ اليهوديّ
هذا الإلهِ القبيح.
لا أريدُ أن أراكِ في مساءٍ آخر
أريدُ أن أراكِ هذا المساءَ، هذا المساءَ فقط.
السفينةُ مثلُ بارجة
والبارجةُ مثلُ بارجة
ثمةَ الشجرةُ والبارجة
ملاءةُ مريمَ والبارجة
والمساءُ وحيدٌ مع البارجة.
أهي التي تسللتْ من شيربورغ في مساءٍ ما

لتخترقَ مضيقَ جبلِ طارقٍ أمامَ عيني ملكٍ عربيّ؟
المساءُ أحمرُ. . . أهو سحابةُ دانتي؟
أريدُ أن أراكِ هذا المساء. . .
للثلاثين قنبلةً في الدقيقةْ
للبيوت التي تنكفئْ
للعيونِ التي تترصّدُ أو تنطفئْ
للقبور التي نُثّرتْ
للشجيراتِ مخنوقةً بالرمادْ
للمخيمِ مستفرَداً كالبلادْ:
نرسم الدائرةْ
نرسم الأُمّةَ العاثرةْ
ثم نُدخلها في هواءِ الخنادقْ.

بيروت، ١٥/ ٧/ ١٩٨٢

مريم تأتي...

«١»

وللحظةٍ غمرتْكَ بالقبلاتِ
ثم نأتْ متوجةً بخُوصٍ أبيضٍ.
في أي نهرٍ سوفَ تنغمسُ الأناملُ؟
أيُّ ماءٍ سوف يبتلُّ القميصُ بهِ؟
وأيةُ نخلةٍ ستكونُ مُتّكأً؟
وهل يَسَّاقطُ الرُطَبُ الجَنِيُّ؟
أكان جِذعُ النخلةِ المهتزُّ أقصى ما تحاولُ مريمُ؟
الأشجارُ موسيقى،
وهذي الشقّةُ البيضاءُ في بيروتَ ما زالتْ أمامَ البحرِ
تخفقُ في البعيدِ مدينةٌ مائيةٌ أخرى
وألمحُ وجه جَدّي: زرقةَ العينين، والكوفيةَ الحمراءَ
ألمحُ في الحواجزِ وجهَ مريمَ،
في المَحاورِ خطوةَ الملكِ المتوّجِ بالقذيفةِ
يدخلُ الرومانُ منتظمين كردوساً،
وقوميون يقتتلون في الدكانِ.

مريمُ في مدينتها،
وأنتَ تراقبُ الطرقَ البعيدةَ: هل تجيءُ اليومَ؟
كانت عندَ مزبلةِ الرصيفِ
وأوقدتْ نيرانَها،
ومضتْ متوجةً بأدخنةٍ،
تباركتِ المدينةْ.

لهفي عليكَ وأنتَ مشتعلُ
في الليلِ خلفَ الساترِ الرملِ
هل كان ينبضُ دونَك الأملُ
أم كانَ يخفقُ منتأى الخيلِ؟
كلما جئتُ بيتاً تذكرتُ بيتاً
كلما كنتُ حيّاً تناسيتُ ميْتاً
غير أن الذي جئتُهُ
غير أن الذي كنتُهُ
لم يعدْ لي
لم يعدْ غيرَ ظِلِّ
وليكنْ!
إن ظلاً يصيرْ
خيرُ ما يُرتجى في ظلام المسيرْ

«٢»

لو كنتُ أعرفُ أين مريمُ
لاتّبعتُ النجمَ نحو بلادِها،
لكنّ مريمَ خلّفتني في المتاهةِ منذُ أن رحلتْ
وقالتْ: سوفَ تلقاني إذا أحببتَني.
في الرملِ أبحثُ عن أناملها
وفي أطلال «عينِ الحلوةِ» السوداءِ عن عينينِ،
في باب «الوكالة» أسألُ الشبّانَ: هل مرّتْ؟
وبين صحيفةٍ وصحيفةٍ أتسقّطُ الأنباءَ
في المذياعِ، أمسِ، سمعتُ صوتاً: صوتَ مريمَ؟
أم تراها تسكن الطلقاتِ
بين الليلكيّ وبين حيّ السلّمِ المنخوبِ؟
بيروتُ التي استندتْ إلى أحجارها
فزّتْ كطير البحرِ،
والعشاقْ يمتشقون رشاشاتِهم
والبحرُ يهدأُ
يُنصتُ الأطفالُ للصوتِ المباغتِ...
في البعيدِ حرائقٌ،
والطائراتُ تدورُ في أفقٍ رصاصيٍّ
لكِ العشاقُ والطلقاتُ... مريمُ
تدخلينَ، إذن؟
تعالَي...

هذا الفضاءُ نظلُّ نطرقهُ
حتى نرى في الوحشةِ العَلَما
حتى يدورَ الطيرُ نُطلِقُهُ
نحو النجومِ ليطلقَ القَسَما
في البراري فلسطينُ، في قبّراتِ المخابئْ
في الرصاصِ الكثيفِ
وفي صيحةِ الراجمةْ
في الأغاني فلسطينُ، في الخصلةِ الفاحمةْ
في قميصِ الشهيدْ
في حديدٍ يردُّ الحديدْ

في يدٍ
في زنادْ
في اقترابِ البلادْ

«٣»

ها نحن، مريمُ، نرسمُ الطرقاتِ في الليلِ الملبّدِ
نرصدُ الطلقاتِ تتبعُنا
ونقفزُ مثل عصفورينِ مذعورينِ بين قديفةٍ وقذيفةٍ
ها نحنُ، مريمُ، نهبطُ الدرجاتِ نحوَ الملجأ الليليّ،
نحصي الطائراتِ مغيرةً
ونقولُ: آمَنّا. . .

ونمشي، خِلسةً، للبحرِ
نجلس خلفَ أكياسِ الترابِ
ونرقبُ الأمواجَ تهدرُ، والشباب مقاتلينَ. . .
ثيابُهم مخضّرةٌ كالصخرِ عند شواطئِ المتوسطِ
انتظري قليلاً، كي نقول لهم: سلاماً
كي نباركَ بالدموعِ سلاحَهم
كي نمسحَ الخصلاتِ بالماءِ القليلِ
ونمضغَ الخبزَ المجففَ صامتينَ. . .

ومريمُ، المرآةُ والرؤيا،
بشارةُ أن نموتَ ممجّدينَ
وأن نعيشَ كما يعيش الرِفقةُ البسطاءُ
مريمُ تسكنُ الميلادَ
تسكن في الدمِ العربيّ
نتبعُها، وتتبعُنا
ولكنّا، هنا، في قسوةِ اللحظات
ننسجُ من عباءتها هويتَنا
وندخلُ في القيامةْ

في الموقع الحجريّ رايتُنا
مغروزةٌ في وقفةِ الزمنِ

سنظل نغرزُها ونغرزُها
حتى نفجّرَ نبعةَ الوطن.

وليكنْ ما يكونْ
وليكنْ أن يجيء الجنونْ
وليكنْ...
إننا القادمونْ

بيروت، ٢٥/ ٧/ ١٩٨٢

لمسات يوميّة

ماء...

تشربُ القبّرةْ
يشربُ النجمُ
والبحرُ يشربُ
والطيرُ
والنبتةُ المنزليةُ تشربُ
لكنّ أطفالَ «صبرا»
يشربونَ دخانَ القذائفْ

بيروت، ٢٨/ ٧/ ١٩٨٢

غرفة

ليس فيها سوى مكتبةْ
وسريرٍ
وملصقْ.
جاءت الطائرةْ
حملتْ في الهواءِ السريرْ
والكتابَ الأخيرْ
وخطّتْ بصاروخِها بعضَ مُلصقْ

١٩٨٢/٧/٢٨

الكهرباء

فجأةً نتذكرُ ليلَ القرى
والبساتينَ
والنومَ في الثامنةْ
فجأةً نتعلمُ فائدةَ الفجرِ
نسمعُ صوتَ المؤذّنِ
والديكِ
والقريةِ الآمنةْ

٢٨/ ٧/ ١٩٨٢

موقع

ربما كان بيتاً لتاجرْ
أو لأرملةٍ مرحةْ
ربما كان في ذكرياتِ المسافرْ
غير أنّ المنازلْ
أقبلتْ هكذا في ثيابِ المقاتلْ
نصبتْ ساتراً
واختفتْ. . .

١٩٨٢/٧/٢٨

أين؟

أين يذهبُ هذا الفتى
في المساءِ العجيب؟
زمزميةُ ماءٍ
وقنبلةٌ في الحزامِ العريض
والسلاحُ الذي لا يفارِقُ. . .
هل يقصدُ البحرَ؟
آهٍ لهذا الفتى. . .

١٩٨٢/٧/٢٨

إذاعة

في الخرائبِ، أو في القصورْ
ينتقلُ مذياعُنا
بين أكوابِ شايٍ تدورْ
وانفجارٍ هنا أو هنا
قد نغنّي قليلاً
قد نُمنّي قليلاً
ولكنْ مذياعَنا مثُل بوقِ النشورْ

٢٨/ ٧/ ١٩٨٢

مخصص

ما الذي نشتري بالمخصصْ؟
نكتي بقميصٍ وحيدٍ
بـ «جينزٍ» قديمٍ
ونصفِ رغيفٍ وجبنةْ
وبالزهر نقطفُه من وراءِ السياجْ. . .
ما الذي نشتري بالمخصص؟
ربما لحظةَ الاندماجْ. . .

١٩٨٢/٧/٢٨

مدافع

تهدرُ المدفعيةُ في الفجرِ،
والبحرُ يلتفُّ حولَ المدينةِ مثلَ الدخانْ
تهدرُ المدفعيةُ في الفجرِ،
والطيرُ يفزعُ. . .
هل جاءتِ الطائراتُ؟
وفي الشقّةِ الخاليةْ
يصمتُ النبتُ
ترتعشُ الآنيةْ

١٩٨٢/٨/٤

نشور

الطفلُ الميّتُ من ظمأٍ
في المستشفى المظلمْ
دفنوه سريعاً
ومضَوا مرتبكين
وها هو يفتحُ عينيهِ الذابلتين
يفتح عينيهِ الواسعتين
ويحفرُ
يحفرُ في الأرضِ عميقاً.

١٩٨٢/٨/٤

مساكن

أيّ طوابقَ يعشقُها الصاروخُ
وأيّ طوابقَ نعشقُها
أيّ طوابقَ نسكنها؟
للقطةِ أن تمرحَ في السطحِ
وللطفلةِ أن تصرخَ في الملجأْ
ولنا أن نرتقبَ اللحظةَ
مسكونين

١٩٨٢/٨/٤

شهداء عراقيون

كانوا أربعةً في «حيّ السلّم»
قنّاصي دباباتٍ
ورواةَ قصائدْ
كانوا عشاقاً لفلسطينَ
رفاقاً في بغدادَ
وأمسَوا أشجاراً في «حيّ السلّم»
أربعةً كانوا في «حيّ السلّم»

٥/٨/١٩٨٢

ريلكه

مرتبكاً
يبحث عن مريمَ في حديقةٍ
أو في صبيّةٍ بالمنزلِ الآخرِ
أو عبرَ مسافاتٍ بلا نجمٍ،
وريلكه
شاحباً
منتظراً
بردانَ
يستأني على الشرفة تلك الخطوةَ الأولى
ترى. . . هل أقبلتْ مريمُ؟
كان البحرُ في الشرفةِ
والوردةُ تبتلُّ
وعيناه على نافذةٍ بالمنزلِ الآخر

بيروت، ٤/٦/١٩٨٢

سهاد

أريدُ أن أنامَ حتى يعلوَ البحرُ بساطَ الغرفةِ البيضاءْ
أريدُ أن تبتعدَ الأشياءْ
أريدُ أن أنامَ: لا ذكرى ولا نسيانْ
أريدُ أن يهدأَ نبضٌ في جبيني، أن يغطيني سكونُ الماءْ
مجمرةٌ في آخر الغرفةِ
ضوءٌ من بخورٍ ساحليٍّ.
وجهُها يصغرُ..
عيناي تغيمانِ
ويعلو البحرْ...

١٩٨٢/٦/٥

غارة...

ترتجفُ الغرفةُ من قذائف بعيدةٍ
ترتجفُ الستائرْ
ومرةً يرتجفُ القلبُ. . .
لماذا أنت في الرجفةْ؟

١٩٨٢/٦/٥

انهاك

مثل جوادينِ
انطلقْنا، هكذا، نحو تخومِ الأرضْ
ثم سقطْنا،
دون أن ندري
كما يسقطُ ظِلُ الشمسِ
في زاويةِ الغرفةْ

١٩٨٢/٦/٥

ثمل

اعتذرُ الليلةَ، عن كلِ الذي أحببتُ في غرفتها
عن نبتةِ الشرفةِ
عن مكتبةِ الحائطِ
عن عشرِ مرايا تتوازى في بساطٍ بدويٍّ
أسطوانةٌ تدورُ في البحر قريباً
هذه الفودكا التي تشربني في لحظةٍ
كم كانت الساعةُ؟
من وسَّدَني الغيمةَ؟
من خبّأَ في صدرِ قميصي طائراً؟
لكنني أعتذرُ الليلة عن كلِ الذي أحببتُ
عن كلِ الذي ارتكبتُ في غرفتها. . .

١٩٨٢/٦/٣

زرقة

أُمسِكُ أحياناً، بصوتٍ خافتٍ
يأتي شريداً، وردةَ اللحظةِ. . .
ما أبعدَ هذا البابَ والكرسيَّ والتمثالَ
والهاتفَ، والسيارةَ الملقاةَ في زاويةِ الشارعِ
هذي المرأةُ الزرقاءُ
ما أهدأَها في الوردةِ ـ اللحظةِ
تلتمُّ على صوتٍ
وتَخْفى فيه
حتى يتلاشى الصوتُ في لحظةْ.

٤/٦/١٩٨٢

صمت

في الصمتِ يأتي المطرُ الآخرْ
في الصمتِ تأتي دورةُ الأعشابْ
في الصمتِ يأتي العسلُ الأوّلْ
في الصمتِ أُصغي لنبيذٍ لاذعٍ
ينزُّ في الهدأةِ من جِلدي. . . وئيداً
مُفعِماً أوردةَ المرأةْ.

١٩٨٢/٦/٦

براءة

عندما نتداخلُ في شرفةٍ
أو سريرْ
عندما نتدخلُ في لحظةٍ مرهقة
عندما نجدُ الأقنعةْ
كالثيابِ التي نتنازعُ
أو كالثيابِ التي ننزعُ الآنَ قربَ السريرْ
عندما يدخلُ الوقتُ مثلَ الحريرْ
في الأصابيعِ . . .
أسألُ نفسي قليلاً
وأنسى قليلاً
وأأسى قليلاً
ولكنني قد أقولُ: أحبكِ . . . .

بيروت، ٦/ ٧/ ١٩٨٢

خذ وردة الثلج
خذ القيروانية

(١٩٨٧)

الوردة

لي وردةٌ بيديكَ
قد أحببتُها، حتى بلغتُ منازلَ العشاقِ
لكن الحبيبةَ سوف تبقى في يديك.

لي وردةٌ في الروحِ
كم غنيتُها، حتى غدوتُ مغنيَ الطرقاتِ
لكن الأغاني سوف تبقى في يديك.

لي وردةٌ في الأرضِ
كم حاولتُها، حتى بلغتُ مواقعَ الثوار
لكن المواقعَ سوف تبقى في يديك.

*

قل إنها تذوي
وقل إن الرمالَ تدورُ حولَكَ
والثلوجَ تحاصرُ الطرقَ البعيدةَ
والنساءَ يَنُحنَ
والأبناءَ يضطربون في الآفاقِ

قُلْ إن السماءَ تضيقُ أيضاً
إن خبزَ الأهلِ مرٌّ
إن متراسَ الفقيرِ الفقرُ
قل يا أيها الملكُ المتوَّجُ بالشظيّةِ ما تقول. .
لكنني أدرى بما خبّأتَ تحتَ الجلدِ
أدرى بالذي تنوي إذا ما أسودّت الآفاقُ
وانقطعتْ بك الطرقاتُ:
تذهبُ للبدايةِ من نهايتها
وتقولُ للعشاق: هذي وردتي الأولى
لنضفرْها على خصلاتِ قنبلةٍ
لندخلْ في النهايةْ. . .

دمشق، ٢٥/ ١/ ١٩٨٣

مشاهدات

اسمعُ إطلاقاتِ رشاشٍ.
هو البحرُ الذي يصطخبُ الليلةَ مثلَ الريحِ
تأتي شجراتٌ مستسراتٌ بأصدافٍ وموسيقى هواةٍ.
ليلةٌ مقليةٌ بالملحِ والسمسمِ.
أمسِ افتتحوا زنزانةً في مكتبِ المنفى.
الصراصيرُ على أغلفةٍ مغبّرةٍ
والبابُ صحراءُ.
تغني امرأةٌ تهبطُ في البحرِ:
«لماذا كانت الساحاتُ؟
هل نستنفرُ المتراسَ في زهرةِ آسٍ؟
أيها الأحبابُ
ما أجملَ أن نمضي، وما أتعسَ أن نُغضي».
تغني امرأةٌ تغرقُ في زنزانةِ المنفى:
«رأيتُ الموتَ أهونَ
كنتُ أبكي
والصراصيرُ ارتدتْ قمصانَ عينِ الشمس...

يا عيني على بغداد
يا عيني على من عاد
يا عيني على جبلٍ تدورُ بثلجه الأورادُ»

إطلاقاتُ رشاشٍ

وندخلُ مسرعينَ سفينةَ الغرباء.
إرهابيةٌ في خبزةٍ سكنتْ
ودرويشٌ يراقبُ نجمةً في الشرقِ
بيتٌ من دروعِ سلاحفٍ
مَن هذه المجلوّةُ البيضاءُ كالمرآة؟
مَن هذا الذي يستنزلُ الراياتِ؟
تأتي موجةٌ صغرى فأتبعُها
وتأتي موجةٌ كبرى فأسألُها
وتأتي من أُحبُّ...
سفينةُ الغرباءِ بين اللَّهِ والمتوسطِ.
انفتحتْ زجاجة دُمّلٍ.
لم تبقَ عاصمةٌ بعيدةْ.
ما أضيقَ الدنيا إذا أمّحت المسالكُ.
أنتِ ترتجفين في فجرٍ رماديٍّ.
وما بين الثيابِ العسكريةِ والنبيذِ المزّ
كلُ متاعبِ السنواتِ.

حاولْنا محاورةً
وحاولْنا مغامرةً
وآمنّا بأن الكونَ أيضاً بذرةٌ.
ونموتُ. . .

إطلاقاتُ رشاشٍ

فضاءٌ لا فضاءَ له
وكان رصاصُنا يصطَكُّ من سقفٍ، إلى سقفٍ متاحٍ
هل تكونُ رصاصةُ الغيتو إذن؟
لكنها خرساءُ. . .
(صيادون عادوا الآن
ملتحفينَ بالأسماكِ والقاتِ المكابرِ.
للنوارسِ صرخةٌ مكتوبةٌ.
طابورُ عشاقٍ على مستودعِ التثليج.
تأتي قطرةُ المطرِ الوحيدةُ في جبينك
لم يعد بحّارةٌ في دكّةِ البحرِ القديمِ
أأنت تقصدُ دكةً أخرى؟)
فضاءٌ لا فضاءَ لهُ
وكونٌ ـ بذرةٌ أيضاً
ومعتقلونَ في زنزانةِ المنفى
وكونٌ ـ بذرةٌ أيضاً

وخصلةُ شعرها انكسرتْ مع المرفا
وكونٌ ـ بذرةٌ أيضاً . . .

يئسنا من قوانينِ البذار
فَقُلْ لنا يا بحرُ :
كيف نروّض الأرضا؟

عدن، ٥/ ٢/ ١٩٨٣

موقع

الذي كانَ يأكلُ في القبوِ بين القذائفِ مركونةً
والذي يمسحُ الزيتَ عن بندقيتهِ
والذي جاءَ في الليلِ من شجرِ «الناعمةْ»
والذي ظلَّ يعلكُ أزرارَ سُترتهِ حينَ أقبلتِ الطائراتْ
والذي يتمنّى إجازةَ حُبٍّ سريعةْ
والذي لا يحبُّ الكلام
والذي فرّ من أمه كي يقاتلْ
والذي كاد يسرقُ دبابةً
والذي يكمنُ الآن قربَ المنارة
والذي قال لي: لن أودعَكم بالرصاصِ الأخير
والذي فجَّرَ الشاحنةْ
والذي كان يمنحني خبزَ تموينهِ
والذي
والذي
. . . . .
. . . . .

هؤلاء
أين أمضي بهم
في مساءٍ كهذا المساء؟

دمشق، ٢٠/ ٤/ ١٩٨٣

هدوء

قبل أن نبتني في فضاء الذهولِ
غيوماً رماديةً
وجبالاً رماداً
وبحرا،
قبل أن نغتني بمسرةِ أن نحفظَ السرَّ
أو نكتفي بالتساؤلِ:
هل كانتِ الأرضُ نصفينِ
أم أنها البرتقالةْ؟
قبل هذا سندخلُ في غايةِ الانعكاسات
حيثُ المياهُ العميقةُ مغمورةٌ بمياهِ السواحلِ
بالنسوةِ الباحثاتِ عن العشبِ
بالقادةِ القانعين.

*

ثم ماذا؟
إذا كان للنيزك اسمانِ
هل تَبْرُقُ المسألةْ؟

دمشق، ١٨/ ٤/ ١٩٨٣

تمرد

من زجاجِ المكاتبِ
تستكشفُ الفتياتُ الملولاتُ عشاقَهنّ.
الضحى نافرٌ
والمياهُ اختلتْ بالمدينةِ
والشجرُ النائمُ استيقظَ الآنَ
تأتي الضواحي
بأفراسها...
اللوزُ أخضرُ
والباص أخضرُ
والنسمات الخفيفة خضراءُ...
.....
.....
.....
في لحظةٍ
تقفزُ الفتياتُ الملولاتُ
عبرَ زجاجِ المكاتبْ.

دمشق، ٢٠/ ٤/ ١٩٨٣

البستان

نفرش أنفسَنا عند النهرِ
ونجلسُ
ننصتُ للحورياتِ يلاعبن الأسماكَ
ونسمعُ كالبوقِ دبيبَ النملِ
ونهجسُ كيف يمدُّ الجذرُ أصابعَهُ مترعةً بالماء
وكيف تدورُ الشمسُ بأوردةِ الورقةْ

*

نفرشُ أنفسَنا عند النهرِ
ونرقدُ
تأتي الحورياتُ وينظرنَ إلينا
يأتي النملُ
ويأتي الجذرُ
وتأتي الشمسُ
ويمتلئُ الجسدُ الغافي باللمسات.

*

نطوي أنفسَنا في المقهى
نجلسُ
لكنْ. . . هل ندركُ ذاكَ البستان؟

دمشق، ٢٠/ ٤/ ١٩٨٣

تركة

قطرةٌ واحدةْ
قطرةٌ ثم أخرى
قطراتٌ طوالٌ على هذه النافذةْ
كنقاطِ التعجبْ. . .
بعد حينٍ يغادرُ نيسانُ
محتملاً، مثلَ رحّالةٍ، روحَهُ وروائحَهُ
تاركاً للغبارِ نقاطَ التعجبْ
تاركاً لي البقاء

دمشق، ١٨/ ٤/ ١٩٨٣

الانجراف (١)

«إلى معين بسيسو»

بيننا الشَعرُ أبيضَ
والعمرُ أحمرَ
والأرضُ سوداءَ،
ما بيننا البندقيةُ
نكسرُها، أو نلوذُ بها، مثل رضّاعةِ الطفلِ،
هذا الهواءُ
الزجاجُ ـ الهشيمُ الذي نتنفّسُ،
هذي البراءةُ تدخلُ، والماءَ، قمصانَنا
ثم تَبرقُ في العينِ كالنصلِ. . .
ليست مصادفةً أن يدورَ الحصا والحصا
أن يدورَ الحصا والمياه
أن تدورَ المياهُ المياه. . .
فهل كنتَ تعرفُ؟
هل كنتَ تعرفُ ما يبتغيه اليمامْ
وما يعتليه الحسامْ؟

فلتقلْ يا معينْ
كيف مرّ الزمانُ الضنينْ؟

*

أتكونُ عزةُ في غضونِ يديك
عزّةَ هاشم،
أم شارعاً يتظاهر الطلابُ والشعراءُ فيه،
أم الجنودُ وقد أتَوا بخرافةِ الصحراءِ
يندفعونَ خلفَ بنادقٍ
لم تَعرفِ الطلقاتِ إلا في صدور الموج؟
فوجٌ مدرسيٌّ يحمل الأحلامَ آنيةً
كآنية البيوتِ
وأنتَ في النبض الذي يُنسى ولا يُنسى
فهذا النبضْ
نعتاده كالأرضْ
نقتاتُه كالأرضْ
نعيا بهِ
نحيا بهِ
كالأرضْ. . .

*

بيننا، يا معينُ، البلادْ
بيننا، يا معينُ، البلادُ البعيدهْ
بيننا، يا معينُ، البلادُ البعيدةُ عن قصبِ الدغْلِ

عن نسمةٍ تتخلخلُ
أو تتغلغلُ
أو تمنحُ القصباتِ الأنينْ. . .
هل تكون، إذن، صوتَها؟
هل تكون لها القصبَ المترنحَ والريحَ
هل تغتذي نُسغَها
بالأنينْ؟
فلتقلْ يا معينْ
كيف مرّ الزمانُ ـ الأنينْ؟

*

وتقولُ: أقصدُ مصرَ.
كانت مصرُ بين يديكَ، لكنْ عبرَ زنزاناتها
حتى إذا حاولتَها حيناً ولهتَ بها
فكانت مصرُ بين يديكَ ثانيةً
ولكنْ عبر أحداقٍ رأيتَ بها نوافذَكَ الأليفةَ. . .
بحرك المكتظُّ بالغزلانِ
رايتَكَ التي نبتتْ بآنيةٍ من الفخّارِ
أو خُطّتْ على البرديّ
أو حَطّتْ على المنشورْ. . .
وتظل تقصدُ مصرَ،
كلُ الأرض مصرُ

وكلُ مصرَ الأرضُ:
ذاك ظلامُها والنورْ.

*

بيننا، يا معينُ، الفراتْ
قل له يتمهلْ قليلاً
قل له أن يردَّ السلامْ
قلْ له إن ريش الحمامْ
صار سجّادةً للإمام المسلَّحِ
أو خوذةً للظلامْ
بيننا، يا معينُ، الفراتْ
أنتَ سمّيتَهُ بعضَ أسمائِه
كنتَ من مائهِ
كنتَ في مائهِ
إذ أقمنا الصلاة...
بيننا، يا معينُ، الفراتْ.

*

سأظل أذكرُ كيف كنتَ تلاحقُ الأنقاضَ في بيروتَ
تحفرُ في مساءٍ ضيّقٍ ينبوعَكَ الحجريَّ.
ما جاءتْ إليك سفينةُ الأنصارِ حاملةً مدافعَها،
ولم تتخافقِ الراياتُ حين سألتَها أن تُطْلقَ الوردهْ
كانوا لأوراق البريد، وكنتَ للوردهْ...
وأظل أذكرُ كيف فزّتْ نجمةٌ، وهوتْ

وكنتَ تقولُ: ما زلنا. . .
أليست نجمتي في شرفتي؟
لكنه، هذا الرماديُّ الذي كم كنتَ تنعتُهُ
الرماديُّ الذي كم كنتَ تمقتهُ. . .
الرماديُّ الذي كم كنتَ تلقاهُ.

*

لن تكونَ سماءَكَ بيروتُ
أنت الذي ما أقمتَ بها غيرَ بوّابةٍ للخطرْ
موقعاً واجهَ البحرَ
معترضاً، كالعُبُوَّةِ، عاداتِنا
واستهاناتِنا.
منزلاً من حجرْ
كنتَ ترمي النعوماتِ عن شاهقٍ فيهِ
حتى تُهشمَها
فتلُمَّ الحصا
وتعيدَ النشيدَ إلى قعقعاتِ الحجرْ.

*

ليكنْ إذنْ. . .
ولننجرفْ في الكونِ:
ـ ضوءٌ أوّلٌ يفضي إلى غَسقٍ.
ـ وماذا؟
أيَّ تيجانٍ سنخسرُ؟

نحن لم نمسكْ بهذا الكون من قرنيهِ
لم نخلقه من تفصيلِ صورتنا وصخرتنا
ولكنا أتينا مثلما تأتي العناصرُ. . .
وليكنْ!
ولننجرفْ في الكونِ،
من يدري. . .
لعلَّ عناصراً ستجِدُّ.
من يدري. . .
لعلّ هناك ضوءاً أوّلاً يفضي إلى الضوء الأخيرْ.

*

بيننا، يا معينُ، المصير. . .

مطار الكويت، ١٩/ ٤/ ١٩٨٤

عن تلك السحلية
عن هذا الليل...

في هذي الليلةِ لا يبلغُ حتى البحرُ الشبّاك
لا يبلغُ صوتُ البحرْ
حتى صندوقاً خشباً ينتظرُ التفريغ على الشاطئ
هل أسمعُ صوتَ الريح
أم أسمعُ صوتَ الصرخةِ في زهرةِ ليمونٍ تصفرُّ؟
رأيتُ الشجرَ الواقفَ
ينتظرُ امرأةً صبغتْ فَخِذَيها بالأخضرِ. . .
من يأتي في هذي الليلةِ؟
من يأتي في هذي الدعوةِ؟
لا. . . لا تأتي
لا تأتي. . .
فالبحرُ العابرُ من شبّاكي لا يأتي
والنهرُ الغائرُ في أظفاري لا يأتي
(دمُهُ يتخثرُ
مثلَ هواءِ الخليجِ
الذي يتخثرُ في قوقعةْ)

فلماذا تأتين؟
ولماذا أنتظرُ الآتينْ؟

*

هذي الليلةَ
أُرسلُ خمسَ بطاقاتٍ للسرطانِ الرمليّ
أرسلُ أزهارَ الميموزا للأفعى
أرسلُ قوّادينَ إلى الجنةِ
أرسلُ أغشيةً مانعةً للحمل إلى القديسين
وأرسلُ أبنائي لعرائسِ بحرٍ مقتولات
(أعطني أيها اللَّهُ
ما شئتَ أن تصنعَهْ
أعطني الزوبعةْ)

*

هذي الليلةَ لا تأتي
سأقولُ: «أحبكِ»، لكنْ لا تأتي
يا ـ لا ـ ئـ ـ مي ـ يا ـ لا ـ ئـ ـ مي ـ لا
يا ـ لا ـ ئـ ـ مي ـ يا ـ لا ـ ئـ ـ مي ـ لا
هذي الليلةَ
أستأجرُ شقتَها لحظاتٍ
وأسافرُ عنها
أتركُ تحتَ وسادتيَ القطنِ
مسدسَ ماغنومَ

وسبعَ رصاصاتٍ
أتركُ إطلاقاتٍ للتنويرِ
وحبّاتٍ من عَرَقٍ ليليٍّ
أتركُ بستاناً في أكرةِ باب الشقةِ
ثم أسيرُ إلى كاتمندو. . .
في كاتمندو أجلسُ في حلقات البوذيينْ
ألمسُ ضوءاً أوّلَ تحت غصون التينْ
وأدخّنُ سَبعَ سجائر
وأقولُ: لعلكِ تأتينْ. . .
(لن أقول: سأمضي معهْ)

*

سأسيرُ إلى تمبكتو
أجلسُ مسكوناً عند رواق الطين
وأشربُ ماءَ ملائكةٍ في جرةِ يقطينْ
وأقولُ: لعلكِ تأتينْ
(هل أظل إلى أن أموت
أتبعُ الأشرعةْ؟)

*

سأسيرُ إلى بغدادْ
أجلسُ عند النهر قليلا
وأدورُ بـ «باب الشيخ» قليلا
وأغادرُ بغداد خفيفَ الزادْ

. . . . . .

. . . . . .

(آخرُ الزوبعهْ؟

أولُ الزوبعهْ؟)

*

سأسيرُ إلى القدسِ

وأدوّنُ أسماءكِ

أسمائي

أحفرُها في أحجار السورْ

وأبسطُ كفّيَّ بحفنة قمحٍ لحمامٍ مذعورْ

وأمرُّ على نفسي

وأقولُ: لعلكِ تأتينْ. . .

هل ـ لي ـ لو ـ يا

هل ـ لي ـ لو ـ يا.

عدن، ٣٠/ ٨/ ١٩٨٤

إعلان سياحي عن «حاج عمران»(*)

(*) «حاج عمران» منطقة في كردستان العراق احتلتها القوات الإيرانية مؤخراً.

مَقَدونيون في منعطف النيسم
أو خيّالةٌ روسٌ يجرّون بغالاً
أو رعاةُ الماعزِ الماكرِ يمضون برشّاشاتهم والجبنةِ البيضاء. . .

هل أشعلَها عبدُ السلام البارازاني كما يشعلُ عودَ التبغ؟
لا تتركُ راوندوزُ إلا حسرةً مدبوغةً بالجوز في الكفّينِ
أيُّ الشجراتِ استنطقتْ للنقشبنديين نجمَ القطبِ؟

يأتي المقدونيون
تأتي قامةُ الإسكندرِ المُثلى
ويأتي الروس

يأتي البارازانيون
يأتي الإنجليزيّ
وتأتي طبقاتُ الأرض
يأتي الشاه
يأتي مدفعيونَ وضباطُ صواريخٍ.

ويأتي جنرالٌ من وراءِ البحرِ
تأتي امرأةٌ تبحثُ عن أبنائها. . .
(في هذه الزاويةِ ـ التيهِ من العالمِ صارت سُفنُ العالمِ أحجاراً، وفي الزاوية ـ التيهِ أقامَ المجلسُ القوميُّ للأحقاد بستاناً من الأحجارِ والبارودِ. برقٌ من وراءِ النهرِ. وردٌ من بخارى. سبُحةٌ من «قُمَّ». وجهٌ أرمنيٌّ. هدأتْ أمواجُ «فانَ». ارتجف الناقوسُ في الهدأةِ. سريانٌ. يزيديون. عنفٌ تركمانيٌّ. وفلاحون من آشورَ. ما أحلى نبيذَ القريةِ. الأنصارُ في كهفٍ. وبوب دينار في الميراج ٢٠٠٠).

يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين
بلاداً لم تكد تُعلنُ عن خارطةٍ للضوءِ حتى انطفأتْ مئذنةُ القادمِ من سومرَ أو سورِ «الرَّها». . . أيةُ هللينيةٍ بيضاءَ ـ سمراءَ أقامت مشغلاً للخمرِ والفخّارِ؟ من أولِ حاجّ عمرانَ حتى أولِ البحرِ أقامت مدناً. . .
(حين مات الإسكندر كانت ثلاثمائة بلدةٍ ومدينةٍ في بلاد ما بين النهرين تحمل اسمَه).
يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين
بلاداً مُرّةً، تافهةَ الحكّامِ. . .
(كان المقتدرْ

كلما شاغبه العامةُ
أعطى جندَه الأموالَ
حتى أكلوه) . . .

ـ في سنة ٣٢٠هـ قُتل المقتدرُ، إذ اشتدتْ ثورةُ العامة في بغدادَ. ففي محرم انتهبوا دارَ الوزير واصطبلَهُ. وفي جادى الأولى اجتمع أهلُ الثغورِ والجبالِ إلى دارِ السلطانِ واستنفروا الناسَ ببغدادَ، وذكروا ما ينالُهم من الدَيلمِ والرومِ، وأن الخَراجَ إنما يؤخذُ منهم ومن غيرِهم ليُصانَ به عامةُ الناسِ ويُدفعَ عدوهُم عنهم، فثارَ الناسُ معهم، وساروا إلى الجامعِ بمدينةِ المنصورِ، وكسروا درابزينَ المقصورةِ وأعوادَ المنبرِ، ومنعوا الخطبةَ وضربوا الخطيبَ لأنه يدعو لرجلٍ لا ينظرُ في أمورِ المسلمينَ قد اشتغلَ بالغناءِ والزنا عن النظرِ في أمورِ الحرمينِ والثغورِ. وفي جمادى الآخرةِ سوّدَ الهاشميونَ وجوهَهُم، وانتشروا في الطرقِ يطالبونَ بأرزاقهم، وصاحوا: الجوعَ الجوعَ. واشتدَّ تهيجُ العامةِ، وحملوا أصنافَ الحديدِ ـ

يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين

ارتعى أعشابكِ الفَجةَ أطفالُ «نصيبين». ونامت وردةُ الكلدانِ في قدّاسِها المنسيّ. . . هل تحملُها النسوةُ في أحشائهنّ؟ انتبهي يا وردةً مسقيةً بالنهر والبحرِ. أردنا مرةً أن نصبحَ التاريخَ. لكنّا انتظرنا. . . ثم مرَّ الصبحُ والتاريخُ. مرّ الرومُ والديلمُ. بيزنطةُ أو مكةُ. والحلاجُ والحجاجُ. من يوقظُ في هذي السباخِ الوردةَ

الأولى؟ وهل نقدرُ أن نزْرقَ في آجرّ عشتارَ نبيذاً كان في أحداقِ جلجامشَ؟

آهٍ

يا بلاداً بين نهرينِ

بلاداف بين سيفينِ

بلاداً كلما استنفرتِ الأسلافَ دقتْ طبلةُ الأجلافِ. . .

قوميون لم يستنطقوا التاريخَ إلا في قطارِ الموتِ.

بعثيونَ في بحبوحةِ التعذيبِ يقتاتون بالمليونِ ممن قَتلوا

(كان الشيوعيون معصوبين مشدودين كالموتى، وإذ تصحو مع الفجرِ المريضِ مفارزُ الإعدامِ تشتدُ الأغاني.

يا دماً في بابلٍ: ما الفرقُ بين مفارزِ الأعوامِ والإعدام؟

لو كانت يدي كالجذرِ لاستوقفتُ ثيراني مجنحةً، لأوقفتُ الغزاةَ مسمَّرين بسحرِ آلهتي وأبنائي على أسوارِ أوروك). . .

ولكنْ،

يا بلاداً بين نهرين

بلاداً بين سيفين

بلاداً بين حاجْ عمرانَ والبصرةِ

بين القتلِ والثورةِ

كانتْ ساعةُ التوقيتِ أمضى منكِ. . . أمضى من رضا ساعاتِكِ المائيةِ. استسلمتِ للبدو الألى جاؤوا من الأطرافِ، من تلك القرى الملقاةِ بالحرفِ الكبيرِ على خرائطِ عسكريي العالمِ القاسي. العواصمُ عبرَ بحرِ الرومِ كانت تُحكمُ الساعاتِ. والأجلافُ يندفعونَ

من تلك القرى المتوحشاتِ إليكِ. أنتِ البنتُ في تلك الجرارِ السومريةِ. أنتِ، أنتِ، النبتةُ الخزفُ الجميلةُ في الجداريات. أنتِ الماءُ والأسماءُ... لكنّ العواصمَ أحكمتْ توقيتَها... وأتى البداةُ

وأنتِ منهكةٌ

مدمّاةٌ

بلادٌ بين نهرين

بلادٌ بين سيفين

لماذا:

حانةُ البّحارِ. خيلُ الموصلِ. ديانا. وحفرياتُ آشور. ملوكُ «الحضرِ». السريانُ. شقلاوةُ. بابُ الشيخِ. شلالاتُ بيخالَ. سماءُ المنتهى. الزقّورةُ. البرديُّ في الأهوار. فهدٌ. والعشائرُ. واللينينيونَ. والطيارُ في الميغ. وأهلُ الكوفةِ. المنفيُّ في «السلمانِ». والجنديُ في مقهى بسامرّاءَ. والعمالُ في الميناءِ ـ أمسَوا كلُهم في غابةٍ للوحشِ؟

ماذا يفعلُ الأطفالُ في «أوروك»؟ ماذا يرتجي الكاهنُ؟

والعرّافُ؟ والأسرىَ الذين استسلموا للّه بالآلافِ؟

والقتلى؟

أيأتون بلاداً بين نهرين

بلاداً بين سيفين؟

اقتنتْ أحجارُ كردستانَ ميكانزمَ تدميرِ الربيئةِ

لم تكنْ فيتنامُ بالجغرافيا. في «سواره توكه» كانت العرباتُ وهي تحملُ هاوناتِ الفرقةِ العشرينَ تُجهش كالبغالِ.

يقولُ جنديٌّ احتياطٍ: لستُ أدري كيف لا يتمردُ العرفاءُ؟
أمسِ استسلمتْ إحدى السرايا تحتَ جُنحِ الليلِ.
اخرسْ أيها الجنديُّ. واخرسْ أيها النخلُ الممزقُ بين خرمشهرَ والأهوازِ. صوتي عمةٌ فقدتْ بنيها. طفلةٌ
تختصُّ في المنفى. وكردستانُ تنأى في مضائقها،
وتسألُنا ديانا عن ديانا...
يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين
اشترت بغدادُ قفازاتها من دارِ أزياء بباريس.
ترى هل كان جاك شيراك Monsieur 10%؟
وهذا الاشتراكيُّ الذي يمسحُ بالشمبانيا صاروخَ أكزوسيت؟
أيُ العربِ الأعرابِ في «بواتييه» كانوا السلفَ الصالحَ؟
أيُّ العربِ الأغرابِ في تلك القرى ـ النسيانِ كانوا الاشتراكيين؟
(إني أنصح السيد فرانسوا ميتران رئيس الجمهورية الفرنسية بأن يقرأ قراءةً متأنيةً ـ ولا بأسَ بأن يساعدَهُ ريجيس دوبريه ـ المؤلفاتِ الكاملةَ للحاج خيراللَّه طلفاح، المنظّرِ الرسميّ المعتمَدِ في بغداد).
يا بلاداً بين نهرين
بلاداً بين سيفين
أعادت هذه الأرضُ التي كانت لنا بيتاً ولو يوماً، ممراً للغزاةِ؟ فريسةً أخرى؟ أكان عليكِ أن تجدي لكِ الرجلَ المريضَ ولو بأفدحِ ما وهبتِ؟

عليكِ يا أرضي السلام
عليك، يا أرضُ، السلام. . .

*

«لا أبطالَ لنا ولا حروب/ لنا، فقط، ضحايا حالة مقرفة/
يموتون بالقروح/ التي تتفتح تحت أمطار الحقد القاسية/
لا معارك لنا ولا أيام/ كي يسجلها التاريخ في ملحوظة بائخة/
لنا، فقط، أسرى يُقتلون في ليال عمياء/ وحوادث موت
في الظلام/ ولكن حين تقترب الساعة/ وننادي أولئك الذين ماتوا
في سبيل أرضنا/ فإن هؤلاء الذين هم بلا أسماء/ ولا أسلحة/
سيقفون مع المقاتلين الذين يحققون الظفر الأخير».

دنيس بروتوس
شاعر من جنوب أفريقيا

*

مندلي
بعقوبةٌ
بغداد. . .
في ترتيب هللينية العالمِ
كان الطالبُ الإسكندرُ المترعُ من كأسِ أرسطو
يمسحُ البلدانَ بالخيلِ وبالخمرِ
ويبني مدناً يهدمُها من بعدهِ الرهبانُ والضباطُ والبدوُ
وكانت مندلي الدربَ. . .

و«أنا باز» زينوفون: كانت مندلي الدربَ. . .
وخيّالةُ بوديوني: وكانت مندلي الدرب. . .

قره قوينلو آق قوينلو	عبد الكريم قاسم عبد السلام عارف	الأيس الليس
الأمين المأمون	ابن حنبل المعتزلي	الاستخبارات الفرنسية الاستخبارات البريطانية

فُرسٌ وأتراكٌ. وأتراكٌ وأتراكٌ. مماليكٌ وأجنادٌ بويهيون.
أعرابٌ لهذا أو لهذا. سُنَّةٌ. صابئةٌ. شيعةُ آل البيتِ.
عيّارون. كلدانٌ. نساطرةٌ. ملاحدةٌ. بهائيونَ. عُبّادُ شموسٍ.
وحَروريّون. . .
والإسكندرُ المترع من كأس أرسطو جاءنا من مندلي يوماً
وخيّالةُ بوديوني
و«أنا باز» زينوفون.

*

هولاكو أتى أيضاً. . .

*

مندلي
بعقوبةٌ
بغداد. . .
قد يعترضُ الضباطُ في الأركان. فالطائرة السمتية، الروسيةُ الآن، تغطي حاجَ عمرانَ، وبشت آشانْ. . . تغطي مندلي. تبلغ مهرانَ.

وهذي الحرب ليست كحروب الزمنِ الغابرِ
فالحربُ هنا منسيةٌ
منسيةُ الأعوامِ والقتلى
فمن يتذكر القتلى؟
ومن يتذكر الأعوام؟

تذكرها بعض البيانات
التي تصدر في الخارج

والضباطُ في الأركان: نحن هنا نحاربُ في بلاد لم تكنْ يوماً لنا.
بيرمام أم تركيت؟
فليحترقْ شجرُ الأخامصْ
وليحترقْ ماءُ المسيلْ
تكريت باقيةٌ
وبغدادُ السبيلْ.

*

مندلي
بعقوبةٌ
بغداد...
والأوراقُ تدخلُ في مهازلها
وبغدادُ القتيلُ هي القتيلْ

*

حرسٌ سويسريٌّ لماري أنطوانيت الذكيةِ
وهي تحرس بيتَ مال المسلمين.

حرسٌ فرنسيٌ لمكة والمدينةْ
حرسٌ أميركيٌ لمن ورثوا بلادَ النيلْ
حرسٌ سعوديٌّ لبغدادَ الرهينةْ
حرسٌ يهوديّ لبيروتَ التي استعصتْ على التفصيلْ
حرسٌ على بيتي
حرس على صوتي
حرس على الخلجان
حرس على التيجانِ من «أبها» إلى «إفرانْ»
حرس على رملِ الجزيرةْ
حرس على كلِ المداراتِ التي تصلُ الجزيرةَ بالجزيرةْ
حرس على كلِ المطاراتِ القريبةِ والبعيدةْ
حرس على حبرِ الجريدةْ
حرس على سجني
حرس على السجّانْ
حرس على الزهرةْ
حرسٌ على تهويمةِ الخمرةْ
حرس على الغصنِ
حرس على وطني
حرسٌ إلهيٌّ لعبد اللَّه، من شرقِ الفراتِ إلى بلادِ النيلْ

*

ماذا تبقّى؟

ربما في «حاج عمرانٍ» سألنا بعضَنا عن كأسِنا، هذي الذي نحن

انتقيناها، وهيأنا موائدَها الصبيغةَ بالدمِ الوطنيّ. كم كان اليساريون مبتدئينَ! كم كان المغنيّ خافتاً! يتطاولُ البرديّ... والرشّاشُ منكفئٌ، وتلتزُّ الصخورُ ولا بنادق. نحن سلّمْنا لحانا (مجدَ آشورٍ) إلى من ليس يعرفُ كيف ينتفُها. وعلّمناه. علّمناه كيف يكون سيّافاً. وقلنا للصديقِ الكذبةَ السوداءَ. نحن الآن ننتظر انتهاءَ حماقةِ الكأس العجيبةِ. ربما في «حاج عمرانٍ» عرفنا أن هذي الكأسَ باقيةٌ. سيختلفُ السقاةُ، وربما اقتتلوا. سيمضي واحدٌ، ويجيءُ آخرُ... ثم آخرُ، غير أن الكأسَ باقيةٌ. ومن يدري؟ لعلّ قيامةً أخرى ستُعتقنا من التسآلِ.

من يدري؟ لعلّ تعادلاً (من دوننا) يقضي بإيقافِ الوباءِ...

ونحن؟ متّقدون بالأسلاف نحنُ، مهيأون لوردةٍ في الروحِ،

كشّافون مكشوفونَ، جوّابو معابَر...

غير أن الأرضَ أفدحُ

أن عبءَ النيزكِ المنقضِّ أفدحُ،

أن كلَّ رصاصِنا في هذه الأيامِ أضألُ من رصاصةِ بندقيتنا القديمةْ.

فلنرتفعْ في الروحْ

عن يومنا المذبوحْ

ولنعترف مرّةْ

بالدورة المُرّةْ
ولتبدأ الرحلةْ
من عتمة الليلةْ!

أديس أبابا، ١٩/٨/١٩٨٣

تداخل

أحياناً، حينَ أكونُ بعيداً في البحر
أبصرُ أعشاباً في القاعِ
تدورُ بها مخلوقاتُ اللَّه.
لماذا تمتدُّ يداي إلى أعشابِ البحر
أتُرى ضاقَ بكفيَّ نباتُ البرّ؟

*

كيف ينامُ الطفل؟
(حشيّتُهُ ليفٌ، ووسادتُه نجمةْ)
كيف ينامُ الطفل
وفي الفجرِ المتسللِ بين النخلِ
رأى جملاً يُذبَحُ...
كيف ينامُ الطفل؟

*

تتركني الحورياتُ على الصخرةْ
(سأظلُ أنادي)
تتركني الحوريات
(سأظلُ أحدّقُ في الصخرة)

تتركني الحوريات
(سأنامُ قليلاً لأفيقَ على زهرةْ)

*

هاجرتُ بلاداً كانت تسكنُها أمي
ومضيتُ مع الطرقات
لا مسمارَ لديّ ولا مزمار
اتنقّلُ في عرباتِ الموتى
وأنامُ قريرَ العينِ بعينِ الإعصار
والآنَ. . .
وقد جمّعتُ على رأسي صندوقَ عجائبَ
هل ترجعُ بي العربات
نحوَ بلادٍ كانت تسكنُها أمي؟

*

بين عروقِ المرجانْ
تتقافزُ أسماكُ النورْ
لا تقلقْ يا ولدي
لا تُفرحْكَ الأغصان
ولا يحزنْكَ الدَّيجورْ. . .
كتلةُ مرجانٍ في الشرفةْ
وأصابعُ عاقولٍ في القمصانْ.

عدن، ٦/ ٩/ ١٩٨٤

حالة حُمّى

منذُ أيامٍ، وهذي الريحُ ما تنفكُّ تأتيني من البحرِ
طوالَ الليلِ تهذي هذه الريحُ
وتُهديني سراطينَ
وأسماكَ هُلامٍ
في سلالٍ من حبالِ السفنِ الغرقى
وقمصاناً عليها نَمِرٌ يضحكُ. . . .
طولَ الليلِ تهذي هذه الريحُ
تئنّ الريحُ
قطٌّ يخمشُ البابَ،
ومن تحتِ فراشي أسمعُ الخطوَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
لماذا انتعلتْ هذي السراطينُ حذاءَ الخيشِ؟
مَن أخبرَها أني هنا تُرعدُني الحُمّى؟
وهذا القطُّ. . .
هل يقفزُ، كالكنغرِ، عبرَ النافذةْ؟

عدن، ٦/ ٩/ ١٩٨٤

موت بحار

السريرُ الذي ما تَمدَّدَ فيه سوى قبلِ يومينِ. . .
ضاعْ
تحتَ هذا الغطاءِ ـ الشراعْ
السريرُ الذي ما تمددَ فيه سوى قبل يومين. . .
أرهَفَ حدَّ الوداعْ.

. . . . . .

. . . . . .

بعدَ بضعِ دقائقَ يأتون
تدنو ممرضةٌ
ثم يأتي رجالٌ
(عرائسهُ في الجروفِ العصيّةِ غادرنهُ)
ويُرفَعُ، في لمحةِ البرقِ، هذا الغطاءُ ـ الشراعْ
برهةً. . .
(خفقُ أجنحةٍ)
ثم يرحلُ هذا السريرُ الذي ما تمدَّدَ فيه سوى قبل يومينِ

يرحلُ
منطوياً
كالشراعْ.

عدن، ٧/ ٩/ ١٩٨٤

مساء قائظ

في الهواءِ الذي يتعثرُ بين القواقعِ
أسماكُ طيرٍ قتيلْ
وأسماكُ بحّارةٍ لن يعودوا.
في الهواءِ الروائحُ:
هنديةٌ مشطتْ شَعرَها تحتَ حبلِ الغسيلْ
واحتراقُ سراطينَ تُشوى
ثم هذا القميصُ البليلْ.

عدن، ٧/ ٩/ ١٩٨٤

لعبة ليلية

في بيتي صالةْ
في الصالةِ نافذةٌ
في نافذةِ الصالةِ مشكاةٌ
والمشكاةُ بها مصباحْ
المصباحُ انطفأَ الليلةَ تدريجاً
حتى دفنتني الظلماتْ
والليلةُ أمستْ سنواتْ
أمّا الآن. . . وقد غالبتُ السنوات
فهل أبقى أبداً في الصالةْ؟

١٩٨٤/٩/٨

امرأة

أين أنقلُ خطوي لها الآن؟
في أيّ أرضٍ أراها
وأيَ الشوارعِ أسألُ
أيَّ المدنْ؟
ولو أني اهتديتُ إلى بيتها
(لأقلْ جدلاً)
هل سأضغطُ زراً على الباب؟
كيف أردُّ الجواب؟
وكيفَ أحدّقُ في وجهها
كيف ألمسُ ذاك النبيذَ المرقوقَ بينَ الأصابعِ
كيف سألقي التحيةَ . . .
ألقي عذابَ السنين؟

*

مرةً
قبلَ عشرينَ عاماً
في القطارِ المكيَّفِ
قبّلتُها الليلَ كلهْ . . .

٨/ ٩/ ١٩٨٤

بار جبهة النهر

آخرَ باراتِ البحّارة كانْ
باراً من خشبٍ صَلْدٍ ومعادنَ برّاقةْ
كان يطلُّ على السفنِ البحريةِ في النهرِ
يطلُّ على السفنِ النهريةِ في البحرِ
وآخرَ باراتِ البصرةِ كانْ
في قصرٍ غادرَهُ نبلاءُ النخلِ
إلى أشجارِ النسَبِ الأولى في الصحراء

*

كان وحيداً في عزلتهِ
مكتفياً بالخشبِ الصّلْدِ وبابِ القصرِ المفتوحْ
مكتفياً بروائحهِ
ملتمّاً حولَ بهاءِ الروحْ
والأشجارِ الهنديةِ والمعمارِ المجروحْ

*

آخرَ باراتِ البحّارةِ كانَ
وأولَ أغصانِ الروحْ

فيه تهجَّينا أسماءَ مرافئْ
وتلمّسنا أرصفةً
وتعلّمنا صفةً:
أن نثملَ في أفقٍ مفتوحْ. . .

١٩٨٤/٩/٨

وجوه «يافع» الثلاثة

الصخرةُ جبل
والجبلُ صخرة
والوادي سيفُ السيلِ الجبار
«يافع» زهرةٌ حجرية
وكوزُ ذُرةٍ من زمرد
من أي غراباتٍ جئتنّ بتيجانكن يا ملكاتِ حِمْيَرَ
يا من ترقصنَ حافياتٍ في أبّهةِ لعرش
والشاعرُ بين الصفَّين يميلُ يمنةً ويسرة
مترنحاً من القاتِ والوجوهِ الصبيغة
وراحةِ الآسِ في الجدائلِ المستدقة؟
الصخرةُ جبلٌ
والجبلُ صخرةٌ
والوادي سيفُ السيلِ الجبار
«يافع» قلعةُ حرسٍ
ونيرانٌ على قُننِ النسور

وشجرةُ بنٍّ ومدرّجاتُ آلهةٍ زراعيةٍ
حيثُ الماءُ تعتصرُه من الثدي القاسي
شفتا تفاحةٍ
ويدا أميرةٍ صغيرةٍ
وأزهارُ جبلٍ نافرةٌ نجهل أسماءَها
وتجمعُنا في باقةِ ذهولٍ

الصخرةُ جبلٌ
والجبلُ صخرةٌ
الوادي سيفُ السيلِ الجبّار

«يافع» وجهُ وليٍّ ناصع
متيممٍ غبارَ الكلسِ والبنادقِ والحدودِ الشرسة

يافع
أقولُ سلاماً لكِ
للقرمطيّ في الضميرِ
وللمقاتلِ في التنظيمِ الأولِ
لقصورِ حِمْيَر المترفعةِ
وللملكاتِ الحافياتِ على أفواهِ الآبارِ الشحيحةِ

أقولُ سلاماً لكِ، وأسألُ:
من يفتحُ للزهرةِ الطريقَ؟
من يردُّ تحيةَ السلاحِ؟

يافع، ١٤/ ٩/ ١٩٨٤

رحيل ٨٢

بعدَ حينٍ ستُغلَقُ كلُّ الغُرَفْ
وابتداءً من القبوِ
نتركُ هذي الغرفْ
غرفةً
غرفةً
ثم نبلغُ سطحَ العمارةِ
حيثُ المدافعُ
نتركُها هكذا. . . كالغرفْ
ثم نمضي
لنبحثَ في دمنا، أو خرائطِنا، عن غُرَفْ!

٢٦/ ٩/ ١٩٨٤

حسرة

ربما كنتُ طوّقتُ خصركِ، ذاك الرهيفَ
جهاراً
ونحن إلى لوحةٍ. . .
ننتظرْ
ربما كنتِ أنتِ انتظرتِ يدي
كي تمرَّ على كلِ تلك القرى
قد أكون أردتُكِ في لحظةٍ
غير أني أقاومُ
أعرفُ أن العزيزَ من الناسِ بيني وبينكِ
لكنني قد أمدُّ يدي. . .
ما مددتْ يدي.
وأنا الآنَ، ما زلتُ في حسرةٍ، أنتظرْ!

١٩٨٤/٩/٢٣

السيارة

«إلى عبد الجبار وهبي ـ أبو سعيد»

كنتَ تعالجُ سيارةَ موسكوفتش قديمةْ
وتدورُ بها في طرقاتِ الناسْ.
هل تصلُ السيارةْ؟
لم يُخْطئْكَ الإحساسْ
يوماً...
لكنّ السيارةَ ظلّتْ موسكوفتش قديمةْ
فمضيتَ وحيداً في طرقاتِ الناسْ،
وقُتلتَ وحيداً.

١٩٨٤/٩/٢٧

بار مطار أثينا

فجأةً أقفرَ البارُ
غادرتِ الطائراتُ الأخيرةُ في ثُلثِ الليلِ
والعابرون القليلون ناموا ببدلاتهم وكراسيّهم
تحتَ ضوءٍ خفيفْ.
لم يَعدْ أحدٌ يُرهقُ البارَ. . .
والآنَ يأتي الجميعُ:
محاسِبةُ البارِ
والقهوجيُّ الجميلُ
وكنّاسةُ القاعةِ
الحارسُ المتأخرُ دوماً
وبائعةُ العطرِ
مسؤولُ مستودعِ الخمرِ
والمكتبيّةُ
والساهرون الكثارْ
وهوميرُ أيضاً، وقِطُّ مديرِ المطارْ
. . . . . .

. . . . . .

هكذا يولَدُ الآنَ في البارِ بحرٌ،

وفي شاطئِ البحرِ يبني أغارقةُ الليلِ حانتهم كالمطارْ.

١٢/ ١٠/ ١٩٨٤

بار الشاليهات

يأتيه الصوماليون وتجّارُ القات
نهاراً،
وتجيء الفتيات
ليلاً
بِلُغاتِ الساحل
وثيابِ طيورِ الساحل.
أحياناً يأتيه فرنسيون
وألمانٌ غربيون
وأحياناً يهبطُ في الكأسِ العشرينَ ملائكةٌ مخبولون.

عدن، ١٠/ ١١/ ١٩٨٤

سيدي بوسعيد

بعد أن تُغلَقَ المقاهي، ويمضي السائحون الكثارُ
عن سِيدي بوسعيدٍ. . . أرى وجهَهُ، وليّاً مضاعاً،
غابَ في الصخرِ مثلما غابَ في البحرِ. أناديهِ
من غصونِ الشبابيكِ، أنادي:
بوسعيد!
بوسعيد!
أين التفتَ العابرُ الأخيرُ بغرناطةَ؟
أين التي أرادتْكَ بالحنّاء؟
أين افتقدتَ مفتاحَكَ الأولَ؟
هل هذه المساميرُ في الأبوابِ كانت تَشدّ ألواحَ
«جَيّانَ» التي أُغرقتْ؟
لماذا، إذن، نادى من البحرِ مَن يناديكَ:
بوسعيد!
بوسعيد!
البلادُ التي تحبُّ. . . بعيدةْ.

تونس، ١٧/ ١/ ١٩٨٥

استعادة

في قميصي المخططِ:
مقهىً على البحرِ
كرسيُّها الخيزرانُ
وأهدابُها عبرَ كأسِ النبيذ.
ففي أيّ خيطٍ قلادتُها البربريةُ
في أي خيطٍ أناملُها
أيُ كُمّ يخبِّئ، كالمزهريةِ، لحظتَها النافرةْ؟
أيُ نبضٍ تناهتْ بهِ
أيُ مقهىً بعيدٍ
وأيُ قناني النبيذ؟

تونس، ١٥/ ١/ ١٩٨٥

إحساس

قربَ دكانِ أشرطةٍ، سمعَ الأغنيةْ
بغتةً . . .
ألقت امرأةٌ حجراً في البحيرةِ.
كان رذاذُ المطرْ
دافئاً
يتنشفُ فوقَ زجاجِ المخازنِ،
والسروُ يقطرُ حولَ البحيرةِ.
هل سمعَ الشارعُ الأغنيةْ؟

تونس، ١٥/ ١/ ١٩٨٥

دوران

«غريبين في الليلِ»،
في بُحّةِ البحرِ، والفندقِ التونسيّ
وفي صفةٍ لم نجدْها. . .
وبوابةٍ لدهاليزنا لم نُرِدْها
إذن، دارت الأرضُ
دارت
ودارت
ونحن غريبانِ في الليلِ
نبحثُ في بُحّةِ اللمسِ عن صفةٍ لم نجدْها.

تونس، ١٦/ ١/ ١٩٨٥

منظر

شجراتُ الضواحي احتمتْ بضبابٍ شفيفْ
وهي الآنَ ترسمُ في السرِّ أثوابَ نيسان. . .
هادئةً مثلَ خيّاطةِ الحيّ
ذاهلةً مثلَنا حينَ ننسى
متلاشيةً في فضاءٍ شبيهْ.
إنها الآنَ تنسجُ ثوباً لنا
مات من يرتديهْ. . .

تونس، ٢٢/ ١/ ١٩٨٥

العزلة

يجلسُ في الغرفةِ
محتمياً من مطرِ الليلِ
ومن تَبِعاتِ صداقاتٍ فاترةٍ
محتمياً من شارعهِ المتلاشي في الظلمةِ
محتمياً ممّا يألفهُ
مرتمياً في منجرَفِ السيلْ

والغرفةُ زرقاءُ
خزانتُها زرقاءُ
شراشفُها زرقاءُ
وسائدُها زرقاءُ
حتى المرآةُ بها زرقاءُ. . .

وفي الغرفةِ يجلسُ.
كان الرعدُ يُجلجلُ بالأمطارِ الأولى
وتُصلصلُ في أوراقِ النرجسِ

في ركنِ حديقتهِ
أجراسٌ خافتةٌ. . .

وارتجفَ المصباحُ
انطفأَ المصباحْ.
وبحثتُ طويلاً في جيبِ قميصي عن شمعةْ:

عشرِ أناملَ من ماءٍ تتغلغلُ عبرَ زجاجِ الشبّاك
عشرةُ فتيانٍ فتحوا بالضْحكاتِ البابَ
وجاءَ الشارعُ معتذراً عن ساعاتِ تأخُّرِهِ
معتمراً، كالهرِّ الشاميّ، قلنسوةَ البحّار
وأصرَّ على أن يشربَ من كأسي نخب الأنخابْ.

والغرفةُ زرقاءُ
خزانتُها زرقاءُ
شراشفُها زرقاءُ
وسائدُها زرقاء. . .
لكنْ المرآةَ بها ما عادت زرقاء.

تونس، ٢٩/ ١/ ١٩٨٥

الزيارة

ياسمينٌ، ومصطبةٌ في الحديقةِ مرميةٌ لرذاذٍ غزيرْ
غيرَ أن الحديقة تلتمّ بي
تتشبثُ بي
تدخلُ البيتَ هادئةً
ثم تجلسُ صامتةً تتنفسُ في غرفتي
أيُ طيرٍ صغيرْ
سوف ينقرُ شَعري مساءً
وأيُ افتتانٍ أخير؟
ربما اللوزُ
ربتما قطةٌ متورطةٌ بخيوطِ حريرْ
ربما أشتهي أن أقبّل عينيكِ
واحدةً، ثم واحدةً
ثم أسكنُ في هدأةٍ
كي أقبِّل عينيكِ
واحدةً، ثم واحدةً. . .
هل أقول: انتهينا؟
هل أقول: انتهى اللوزُ؟

هل نامت الياسمينةُ تحتَ الرذاذِ الغزيرْ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

مطرٌ في الأصابعِ

غلغلةٌ في قميصكِ،

فالنبتةُ الاستوائية الآنَ

تصعدُ نحو السياجِ الأخيرْ.

تونس، ١٢/ ٣/ ١٩٨٥

نبيذ

يبدأ الحب بعدَ التماعِ النبيذْ
في العيونِ التي طالما أغمضتْ
والعيون التي طالما أومضتْ
والعيونِ التي لم تُرِدْ أن تضيق
والنبيذُ المرقرَقُ
بين السواحلِ والتلِّ
هل كان يبدأُ رحلتَه في الشرايين
كي يبلغ الإصبعَ الناحلةْ؟
النبيذُ المرقرَقُ
ينتظر الآن لحظته الفاصلةْ
ربما في تفاصيل أغنيةٍ
أو فراشٍ يضيقْ.

تونس، ٢٤/ ٣/ ١٩٨٥

أبيات

ليس لي من أعالي الرباطِ
سوى وردةٍ ذبلتْ
وقميصِ امرأةْ

فلنكنْ في المساءِ العجيب
ولنقلْ: أنتِ مَنْ ضوّأهْ

أيُنا قاربَ الاقترابْ
أيُنا حاورَ المنتأى؟

أينا كان في راحتيه
غيرُ جمرتهِ المطفأةْ؟

٢٧/ ١٠/ ١٩٨٤

غيمة

تدخلينَ سريري، كما تدخلُ امرأةٌ بعدَ منتصفِ الليلِ
لكنّ عرسَكِ أكملُ:
عينانِ برّاقتانِ
وبضعُ خطىً طائرةْ،
وقميصُ الفتى، والتلفتُ في موقعِ الساحرةْ.
ثم تأتينَ عبرَ التمهلِ
تتّركينَ لشَعركِ هذا الكثيفِ، فُجاءتَهُ
والتوقفَ في الركنِ
في أولِ الدائرةْ
ثم تأتينَ عبرَ التأملِ
تأتينَ في اللمسِ
في هاجسٍ للتنفسِ
من قبلِ أن ندخلَ الغيمةَ الماطرةْ.

برلين، ٣٠/ ٣/ ١٩٨٥

سؤال

من بعيدٍ. . أُحبكِ
لكنني من قريبٍ. . . أريدكِ.
هل نختلفْ؟

برلين، ٣٠/ ٣/ ١٩٨٥

بُحّة

كيف يختارُ صوتُكِ بُحّتَهُ في العناقِ الطويلْ؟
كيف يُمسكُ ذاكَ القرارَ الذي لا نراه سوى لحظةٍ. . .
هل يكونُ النبيذ. . .
هل يكونُ الهواءُ الذي غابَ في نملةٍ للأماكنِ
ذاك الهواءُ الذي ذابَ في البحرِ
تلك الجزيرةُ في المتوسطِ
حيثُ الشواطئُ مهجورةٌ كالنخيلْ؟
. . . . . .
. . . . . .
كيف أدخلُ في الصوتِ
في بُحّةِ الصوتِ. . . .
كيف سأمضي بها، ثابتاً، مثلَ قوقعةٍ في ممرٍ طويلْ؟

برلين، ١/ ٤/ ١٩٨٥

نبت متسلق

بعد عامٍ، أو اثنين، أبلغُ أعلى السياجْ
إنها الأرضُ
تدفعني من عروقي لأبلغَ أعلى السياجْ.
وهي الشمسُ
تختارُ طاولةً
ثم تُجلسني كي تقدمَ لي كأسَها طافحاً بالهياجْ.
والهواءُ الذي يتخلَّلُني
صار يعبقُ بي
وأنا أقطعُ الخطواتِ الأخيرة
نحوَ أعالي السياجْ...
ربما بعد عامٍ، أو اثنين...
لكن طيراً بنى عشَّهُ تحتَ إبطي يُسائلني:
هل ستمضي مع الخطواتِ الأخيرةِ
كي تتمزقَ، مخترَقاً، دامياً، بكسيرِ الزجاجْ؟
كيف أمسكُ نفسي، إذن؟
إنها الأرضُ

والشمسُ
والريحُ
ترفعُني، هكذا، نحوَ أعلى السياجْ.

تونس، ١١/ ٥/ ١٩٨٥

زهرة بوقية

تتّقدُ الزهرةْ
لا بأسَ أن نرسُمَ أشكالاً على الساحةِ
أو نُسْلِمَ للرفرفةِ الروحَ.
هواءٌ نائمٌ في زهرةٍ بُوقيّةٍ أيقظَنا اليومَ...
فمن يوقظُنا إن غامت الزهرةْ؟

١٦/ ٥/ ١٩٨٥

تنويع

نخلةٌ بالجزائرِ
في بَسْكَرةْ. . .
نخلةٌ مُسْكِرَةْ.

نخلةٌ سكنتْ حضرموتْ
قربَ خاناتِ دربِ البهارْ
إنها الآنَ في كلِّ دارْ.

نخلةُ القيروانْ
خبّأتْ تمرَها
في شفاهٍ تدغدغُ تحت اللسانْ.

نخلةٌ في مهاوي الجزيرةْ
وُضعتْ بين سيفينِ
ثم انحنتْ فوقَ قبرِ الأميرةْ.

نخلةٌ بالعراقْ
نبتتْ وَسْطَ جامعْ
نخلةٌ نَخَلَتْها المدافعْ.

تونس، ١١/ ٥/ ١٩٨٥

عناد

إلى «أ»

في هذه الليلةِ أيضاً يسقطُ الثلجُ
دعيني أتلمسْ وردةَ الهُدْبِ، إذنْ.
ساحتُنا بيضاءُ
والأيدي التي تدفأُ بالأيدي نسِيناها
فلم تعتنقِ الإصبعُ حتى إصبعاً أخرى
ولم نتركْ على راحاتِنا ما يتركُ الطيرُ على الغصنِ:
انطباعاً أو طباعاً.
هذهِ الليلةَ أيضاً يسقطُ الثلجُ
فهل ننتظرُ الصبحَ لنلقاهُ على الشرفةِ مرشوشاً كملحِ البحر؟
هل ننظرُ في المنفضةِ الملقاةِ كي نملأَها بالوردِ مسحوقاً؟
وهل نسكبُ في أقداحِنا البلورِ ماءً معدنياً؟
إنها المائدةُ الأخرى
مغطّاةٌ ـ كما شئتِ ـ بأصدافِ البتولا...
ابتعدَ البحرُ
وغطّى الثلجُ كفَّيَّ...
وما زلتِ ـ كما جئتِ صباحَ النظرةِ الأولى ـ عنيدةْ.

موسكو، ٢٢/ ١١/ ١٩٨٥

خذ وردة الثلج
خذ القيروانية...

«١»

ناعساً في قطارِ العرائسِ، أخترقُ الغابةَ الذهبيةَ. . .
كان المطرْ
ناعساً
نائماً في بيوت الضواحي
ونافذتي
والسجائرِ،
والغابةُ الذهبيةُ تمتدُّ حتى تلامسَ هذا القميصَ الخفيفَ.
الخريفُ؟
السجائرُ عادتْ رماداً،
وفي الشاي تنطفئُ الجمراتُ الأخيرةُ. . .
لا بأسَ. أهو الخريفُ؟
على الطاولةْ
ورقٌ للبياضِ، ورمّانةٌ من سمرقندَ
خبزٌ

وقنّينةٌ من دمِ الطيرِ،
والطاولةْ
لا تردّ السلامْ
لا تريد الكلامْ
إلى أين يمضي قطارُ العرائسِ بي؟
أين يمضي بهذا القميصِ الخفيفْ
أين يمضي بهذا الخريفْ؟

*

مدنٌ علَّمتْنا قراءةَ أسمائنا. . .
ثم ماذا؟
نحن لم نَبْنِ حتى حجارةَ طفلٍ
لنرمي بها في هدوءِ البحيراتِ
لم نَبْنِ حتى جناحاً لعينينِ
لم نتعلمْ كتابةَ أسمائنا في الصفائحِ. . .
هذي المدنْ
قد بناها سوانا
ولأهلٍ سوانا تكونْ
ولنا أن نغنّي لها
مثلما ينحني الغصنُ
أو مثلما يذهلُ الراحلونْ.

«٢»

في ضريحِ أبي زَمْعَةَ البَلَويِّ(*)، بخورٌ
وماءٌ من الكوزِ،
شمعٌ، وهدهدةٌ قيروانيةٌ.
يطلُعُ الصبحُ أخضرَ.
ليتَ النساءَ الحزيناتِ حولَ الضريحِ يودعنني
قبل أن أدخلَ السجنَ.
في الليلِ كانت قبورٌ هلاليةٌ تتمرغُ تحت النجومِ
وأسوارُ بغداد ترفعُ أبراجَها الحجريةَ.
مكتظةٌ بالمذابحِ أحداقُنا.
الليلُ يكتظّ بالهاربينَ،
الفطاراتُ
والثُكْنةُ الحجريةُ...
لا تتركوني وحيداً.

*

هل سننأى طويلاً عن الأرضِ؟
عن كلِ طعمِ الطفولةِ تحتَ اللسانِ؟
وعن قطَراتِ الحليبِ التي أبرأتْنا بها حُلْمةُ الأمِّ من رمدٍ؟
يهبطُ الثلجُ ريشَ وسائدَ،

(*) أبو زمعة البلوي، صحابي جاء في فتح شمال إفريقيا، ودُفن في القيروان. كان حلاق الرسول.

يخلعُ غصنٌ بقايا ملابسِه كي تطيرَ مع الريحِ.
عصفورةٌ هذه؟
والحماماتُ تحت الأفاريزِ
مرّتْ بنا عرباتُ المغيرينَ.
مرت بنا عرباتُ النجومِ.
فهل نتذكر ماذا تبقّى لنا:
عرباتِ الرحيلْ
عرباتِ الشتاء الطويلْ
عربات العويلْ...

«٣»

آخرُ المقبرةْ
كان ملتبساً بالذي جاءَ هذي الظهيرةَ
هل جاءَ من كربلاءَ البعيدةِ
كي يتوسدَ مترين من تربةٍ باردةْ؟
والرجالُ الذين مشَوا خلفه شاحبينَ...
وقالوا له، مرةً: إننا سوف نمشي،
أقالوا له: سوف نمشي...
ولكنْ، إلى آخرِ المقبرةْ؟

*

وطنٌ بين حمدانَ والقيروانِ اكتفى بالقصيدةِ والخمرِ
قالوا: دمشقُ. وقلنا: الفراتان.

قال: اهبطوا أرضَ مصرَ. . . إلى آخرِ السُبحةِ الذهبية.
كان الهلاليُّ سكرانَ في البارِ
لا مَرْبطٌ للجيادِ
ولا رُبُطٌ للجنودِ
وقال: اهبطوا أرضَ مصرَ.
المراثي انتهتْ
والأناشيدُ لم تبتدئْ.
مرةٌ في الحدودِ الهلامِ أردْنا فلسطينَ بالبندقية
والآنَ:
شيءٌ من الرملِ لي
وشيءٌ من الأمرِ لكْ
هل يدور الفَلَكْ؟

«٤»

هل تحبُّ التنزهَ بين المحطاتِ في باطنِ الأرضِ؟
كانت تقول له: إن موسكو تضيقُ.
يقول لها: الأرضُ واسعةٌ.
انظري في العيونِ الوسيعةِ عبرَ المحطاتِ،
وانتظري النبعَ.
أيُّ البلادِ العراقُ؟
وأيُّ المدائنِ بيروتُ؟
ثلجٌ خفيفٌ على شَعر غوغول. . .

جاءتْ حمامةُ نُوحٍ وحطّتْ.
سلاماً إذنْ.

*

مشربُ البيرةِ الفاترةْ
صامتٌ. لا غناءٌ ولا جمرةٌ.
السجائرُ في الجيبِ، والصمتُ في القلبِ.
تأتي النساءُ اللواتي يفتشنَ عنّا
اللواتي تناءَينَ عنا.
وتأتين أنتِ البهيةُ...
تأتين دافئةً، مثلما يدفأُ الثلجُ.
ألمحُ من فُرْجة البابِ وجهَكِ،
خصلةَ شَعرٍ أماميةً
وتهاويلَ من معطفٍ.
مشربُ البيرةِ الفاترةْ
صامتٌ.
لا غناءٌ ولا جمرةٌ.
السجائرُ في الجيبِ، والصمتُ في القلبِ.
تأتي النساءُ اللواتي يفتشنَ عنّا
اللواتي تناءين عنّا.
وتأتين أنتِ البهيةُ...
تأتين دافئةً، مثلما يدفأُ الثلجُ.

ألمحُ من فُرجةِ البابِ وجهَكِ،
خصلةَ شَعرٍ أماميةً
وتهاويلَ من معطفٍ
مشربُ البيرةِ الفاترةْ
صامتٌ
أنتِ لم تدخلي
أنتِ لم تسبلي خصلةَ الشَعر لِصقَ جبيني
الذي يتغضّنُ
في مشربِ البيرةِ الفاترةْ.

«٥»

متعَباً كان عُقبةُ،
متعَبةً كانت الخيلُ.
والسهلُ يمتدُّ أبعدَ مما ترى الخيلُ،
أضيقَ مما يرى عقبةُ الليلَ.
والأرضُ خضراءُ.
زيتونةٌ لوّحتْ لجوادِ المحارِب، سارتْ إليه.
وعُقبةُ: هذا هو القيروانُ، المَقِيلُ.
أيا داخلَ القيروانِ، تؤرِخُ بالشمس ساعاتِنا
بالمساميرِ أربعةً
(الماضي في الشروق ساعتان)

دعْ لنا ساعةً للتأملِ
أو لحظةً للأملْ.

*

لن أكونَ الغريبَ المُغَنِّي هنا
لن أكونَ الغريب
لن أكون الذي يتساءلُ عن فندقِ الضاحيةْ
لن أكونَ الذي يتهدلُ في زاويةْ
أنا من ساعةِ البرجِ
من ساحةِ الثلجِ، أنقلُ خطوي الخفيفَ
إلى جامعِ القيروان...
أقول لعُقبةَ:
عُقبةُ، أين الخيولْ
وأين نريدُ الوصولْ؟

«٦»

ساحةً بالطباشيرِ مرسومةٌ.
والذي كان غيرُ الذي كان.
ثلجٌ من القطنِ مرتسمٌ منذ يومينِ عندَ حدودِ التصوّرِ
زينةُ عرسٍ على شاحناتِ اللهانةِ.
شرطيُّ سيرٍ وحيدٌ بكأسٍ زجاجيةٍ.
والسماءُ رماديةٌ.
ترسلُ الشمسُ برقيةً: نلتقي بعد شهرينِ

تلميذةٌ تتورّدُ في سرِّ هذا الشتاء،
وفي الصيف سوفَ ترى الحُبَّ أوّلَ،
سيارةُ الخبزِ مسرعةٌ.
يا رفيقي العزيز: هو الخُلْدُ أحمرُ حقاً،
ولكنّ لي رايتي الآنَ
لي نجمتي
والصواريخَ عابرةً
والذي كان غيرُ الذي كانَ.
والساحةُ ارتسمتْ بالطباشيرِ...
قُلْ كيف أحببتَها؟
كيف أحببتَ فيها... رفيقي العزيز؟

*

في الكنيسة ندخلُ
هذا العشاءُ الأخيرُ
وهذا هو الصَّلْبُ...
والبعثُ.
هل مريم المجدليةُ تعرفُ؟
تعرفني؟
لوددتُ لو أنكِ عابئةٌ بالذي في الهواءِ المباغِتْ
وددتُ لو أنكِ ما كنتِ عابثةً بالذي في الهواء المباغت
لو كنتِ أرهفَ...
لكننا ـ ولنصدِّقْ قليلاً حماقاتِنا ـ في العشاءِ الأخير.

«٧»

غرفةٌ في فضاءٍ من الشجرِ المترنحِ بالثلجِ
والريحُ تلهثُ عندَ النوافذِ.
في الغرفةِ الدافئةْ
ملصقٌ، وصحونٌ على الأرض مرميّةٌ
وسريرٌ من الكتبِ الحمرِ.
في الغرفةِ الدافئةْ
سوف يأتي البريءُ
فهل تدخلُ البارئةْ؟

*

هل أصلِّي، إذن، للتي قاسمتني السريرْ؟
هل أصلّي. إذن، للتي قاسمتني الضمير؟
كان بي ثَمَلٌ من نبيذ التلالْ
والحديقةُ تدخلُ
والوردُ يدخلُ
والتينُ يصنع سُكّرَهُ في هدوءِ السلالْ.
السماءُ هنا غرفتي
والسحابةُ فَرشي
والفتاةُ التي قاسمتني سريري مضت قبل أن يطلعَ الفجرُ...
باقٍ هو النهرُ

باقيةٌ كلُ تلك الغصونِ التي هدهدتني
وباقيةٌ لمسةُ الساحرةْ. . .

«٨»

ولدي!
هل أضعنا الطريقَ إلى البيتِ؟
كان لنا منزلٌ قد وُلدتَ به أنتَ.
لا شكّ أني هرمتُ
وذاكرتي وهنتْ مثل عينيَّ. . .
لكنكَ الآنَ يا ولدي تتساءلُ عن بيتنا!
كيفَ؟
ماذا أقولُ، إذن، للضيوفِ الذين يجيئونَ؟
ماذا أقولُ لمن يرسلونَ الرسائلَ؟
يا ولدي!
قل لهم: إنني أعرفُ الدربَ.
أَخبرهمو بالذي أتذكّرُ. . .
بيتي على النهر، لا شكَّ.
بيتٌ به نخلةٌ
وحديقةُ وردٍ وآسٍ
ونافورةٌ للحشائشِ،
ليمونتان، وأرجوحةٌ أنتَ تعرفُها جيداً.

ولدي!
موقفُ الباصِ كان قريباً من البيت،
قد كنتَ تقصدُه أنتَ يا ولدي حينما تقصدُ المدرسةْ
هل تذكرتَهُ؟
هل تذكرتَني؟
فلْتُعِنِّي بُنَيّ. . .

«٩»

ليلةُ الأحد الثامنةْ.
المساءُ المهيّأُ ينتقلُ الآنَ بين العماراتِ
يدخلُها، شقّةً بعد أخرى
حاملاً في قرارةِ أكياسِه المنتقاةِ هداياه:
لحماً قديداً
ورطلينِ من سمكٍ داخنٍ
وزجاجةَ فودكا
وخبزاً وخمراً
وأغنيةً للبياض البهيجْ
المساءُ المهيأُ حصّنَ عشاقَهُ خلفَ أبوابهم
ومضى
دون أن يتذكرَ أني وحيدٌ بعيد
وأنّ الأصابعَ مرهقةٌ بالضجيجْ.

«١٠»

لنقُلْ إن قبلَ الكلامِ انتهاءَ الكلامْ
لنقلْ لعصافيرِ موسكو السلام
للصبايا بساحاتها
ولنجمتها ساعةَ الاحتكامْ.
لنقل لبنادقِ موسكو السلامْ
للعيونِ التي لا تنامْ
للبتولا تضيءُ الظلام
للنوافذِ في ليلةِ العيدِ
للشقّةِ الدافئةْ
للحدائقِ
للراقصينْ
ولأغنيةِ العاشقينْ.
لنقلْ لسماواتِ موسكو السلامْ.

موسكو، ١٨/ ١١/ ١٩٨٥

وداعاً عدن!

منذ أن غادرتْكِ الدلافينُ
أحسستُ أن الطريقَ إلى حضرموتَ القريبةِ
أطولُ من لحظةِ النزعِ. . .
أيَّ الفراتاتِ أختارُ
من بعدِ أن نضبَ الفُلُّ من بئرِ ناصر؟
قد كان لي زورقٌ واحترقْ
كان لي منزلٌ لم أغادره حتى غرقْ
فلأقُلْ لا تزوري المضافةَ
حيث نثرنا الأراكَ
الأرائكَ
والدَّومَ والسيسبانَ الرزين
ولاتتركي في دمي اليودَ والملحَ
لا تتركي في لهاث الرئةْ
بعضَ رملكِ
هذا الذي كنتُ أستفُّهُ زاحفاً تحتَ نارِ القذائفِ
تحتَ الرصاصِ الكثيف.

*

على رملِ ساحلِ أبْيَنَ
كنا نودعُ راياتِ يعربَ
كنا نودعُ نجماً براياتِ يعربَ. . . أحمرَ
هل تعرفينَ الوداعْ
وهل تذكرينَ الوداعْ
وهل تذكرينَ عدنْ
يا عدنْ؟

*

هكذا قرَّرَ القادةُ/ الآلهةْ
هكذا يجدُ الماركسيُّ الحقيقةَ في النظريةِ لا في النظرْ
هكذا نتوهّمُ أن المطرْ
في سحابِ الكتابْ
هكذا لا نرى في السحابِ الزوابعَ
والرعدَ
والردَّ
والرِدّةَ القادمةْ
هكذا لا نرى فاطمةْ
في عيون البُنيّاتِ من يافعٍ
(يافع والشِّحر والقطن والحوطة وتريم وشبوة والحد ويهر ومكيراس والبريقة ومودية ودار سعد والمكلا وبئر علي والمهرة وزنجبار)
لا نرى اللحظةَ القائمةْ

*

لمساجدكِ المستكنّةِ كالأضرحةْ
لجنودكِ في المذبحةْ
للميليشيا
للنساءِ يكفّنّ بالصمتِ أبناءهنّ
للوجوه التي نُحِتَ الحقدُ فيها
للبلادِ مبرّأةً من بنيها
لمياهِ القمرْ
للسلاحِ الذي حارَ حتى انتحرْ
لأغاني البعادْ
لجبال الحِدَادْ
ولاسمكِ ذاكَ الجميل
لذكراه
للذاكرةْ
أمنحُ الدمعةَ العاثرةْ
كم حصارٍ سنشهدُ. . .
كم عدنٍ سوف ننسى
وكم مارجٍ سوف يَخضِدُ قاماتِنا النافرةْ. . .

*

وداعاً عدنْ
وداعاً عدنْ
وداعاً، وداعاً، وداعاً، عدنْ

اللاذقية، ٣١/ ١/ ١٩٨٦

مائدة مهيأة

باركتُ هذا البحرَ
كان مبارَكاً
لكنني أحسستُ أن الملمسَ المائيّ
سوف يُعيدني نحوي
وأن قرابةَ الغرباءِ واحدةٌ.
ثلاثونَ انقضتْ.
والبحرُ يحملُني ويلقيني
وأحملهُ وألقيهِ
سلاماً أيها الأبدُ المطرزُ في القميصِ.
وأنتِ... ماذا تفعلين معي؟
انتظرتُ مدينةً أخرى
ولكن الذين أتَوا إليّ متوَّجين، تركتُهم...
وسألتُ عن عُريٍ أقاسمهُ السريرَ
وكسرةَ الخبزِ الأليفةَ
قطةٌ بين الموائدِ
والمدائنِ
أنتِ...
كالسرطانِ بين غمامتين:

الرملِ والبحرِ،
افترقنا دون أن نلقي التحيةَ
والرسائلُ لم تصلْ إلا لأسوارِ العواصمِ
كم تحاولُني دمشقُ
وأنتِ في البيضاء
كم كانت لنا عدنٌ وشاحاً من نباتِ البحر
ضوعاً من بناتِ البحرِ
شيئاً كالمنارةِ، ضائعاً، متخافقاً
بين السواحلِ
قهوةً ليليةً
خطَّ استواءٍ
في مداراتٍ ملوثةِ المياهِ،
سأتّقي جِلدي إذنْ،
سأظلُ بين الخطوِ والخطواتِ أنتظرُ الإله الطفلَ
قولي يا فتاةُ. . .
ألستِ تنتظرينَ جفنَكِ في معادلةِ الذهولِ؟
ألستِ ترتعشينَ حينَ ترينَ نجماً نافراً تحتَ الوسادةِ
ثم. . . ماذا لو أتتْ بغدادُ داليةً على الشرفاتِ
مثلَ الرازقيّ؟
سأكتفي بأصابعي

*

باركتُ هذا البحرَ. . .
أي مدينةٍ أرجو ستولَدُ حرّةً بين اليدين

أصوغُها في دورةِ الصلصالِ من نورٍ ونرجسةٍ
وأمنحُ كلَ بيتٍ رايةً، وأقولُ: طيري يا حمائمُ. . .
ولنكنْ حريةً أولى
لنعرفْ أننا الأغلالُ
نخرجُ من غلائلنا
لنلمسَ سدرةَ الملكوتِ
والناسوتِ
والحريةَ الأولى.

*

باركتُ هذا البحر
أدخلُ في سريرٍ ضيقٍ لأغوصَ في قاعٍ من الأعشابِ
ليلي برتقاليٌّ
وصبحي إثمدٌ
والخبزُ مما تغتذيهِ الطيرُ والأسماكُ
خبزٌ باردٌ
ويدان ساخنتانٍ. . .
لكني أناديكم جميعاً: إن مائدتي مهيأةٌ
بخبزٍ باردٍ
ويدين ساخنتين
أدعوكم لنأكلَ مرةً، فنطيرَ
أدعوكم لنمشي فوقَ هذا البحر!

دمشق، ٩/ ٣/ ١٩٨٦

شكراً لامرئ القيس

أخيراً
وفي غرفةٍ نصفِ مفروشةٍ
قربَ نيقوسيا
أتيتَ لتلقي على شفتيكَ السلامْ. . .
أمِن بعدِ خمسةِ آلاف ميلٍ
وجدتَ الكلامْ؟
أمن بعدِ أن سكَنَ الطُّحلبُ الميْتُ بيتَكَ
وانتثرتْ في البحارِ السهامْ؟
سلامٌ لدوحةِ تينٍ
سلامٌ لهذا الظلامْ
سلامٌ لقوقعةٍ خبّأتْ دمَها في نعاسٍ بَليلٍ
سلامٌ لهذا الحطام

*

لكأنّ نبعاً من يدينٍ نحيلتين
يزيح أغطيتي، وئيداً،
مثل فلاّحٍ يُزيحُ لحاءَ مشمشةٍ
ـ أتبرقُ فضةٌ بيضاءُ والدنيا رصاصٌ؟ ـ

كل ما حولي سواحلُ
هل دخلنا مرةً؟
مدنٌ يُقال هناك. . . بلداتٌ، قرىً، وعواصمُ
اختلفت بنا الطرقاتُ واشتبكتْ
أندخلُ في الخروجِ هنا؟
أنخرجُ في الدخولِ هناك؟
نائيةٌ مدينتنا
وناءٍ ذلك الأبدُ المجرَّحُ في الجفونِ
إني أريدُ يديكِ ناحلتينِ
لن أحيا طويلاً فاشربيني أنتِ،
لن أحيا طويلاً. . . فاقتليني.

*

غيومٌ مثبتةٌ كالجبالِ الطباشيرِ
يمرقُ طيرُ السنونو
ويبلغُ برجَ الكنيسة في آخرِ الحي
ثَمَّ ثلاثُ شجيرات أرْزٍ
ـ سأرسُمها ذاتَ يومٍ ـ
ومنفضتي بالحلازينِ مكتظةٌ
والضحى أبيضُ
النبتةُ المنزليةُ تختصُّ
والطاولةْ. . .

أهذا الهديرُ البعيد؟
أهذا الدمُ المتراكضُ في مرفقٍ أو وريد؟
سلامٌ لنحلةِ هذا الصباح!

*

أيامَ جئنا نذرعُ الطرقاتِ،
فكّرنا بأن الليلَ أقصرُ من مقدمةِ ابن خلدونٍ.
وقلنا: المغربُ الأقصى برانسُنا
تقينا القيظَ والقرَّ المسنَّنَ
ربما كنا صغاراً
ربما عدنا لنأكلَ حصرماً قد عافه الآباءُ.
أيةُ حكمةٍ في دورةِ الخُذروف؟
أيُّ الموتِ أهونُ؟
لم نقلْ حتى ولو في السرِ: أيُّ الموتِ أجملُ؟
سروةُ المرسى وسامراء
بسكرةُ التي التمّتْ بزاويةٍ على ينبوعها
والرفقةُ والفيتانُ يقتسمونَ ـ حتى القتلِ ـ صندوقَ الذخيرةِ
هكذا نمضي كما كنا،
تعلّمْنا... ولكنْ دورةَ الخُذروفِ
شكراً لامرئ القيسِ القتيلْ.

*

إلى الجلّنارِ المبكرِ ترسلُ عصفورةٌ ريشةً
سنونو يطيرُ، مُسِفّاً إلى سنتيمترٍ من الشارعِ...

الشرفاتُ الصغيراتُ في وحشةِ المنتأى
والصباحُ انتهى منذ جاءَ الصباحْ
فمَن سوف يأتي؟
ومَن سوف تأتي؟
ومن ستلوِّنُ أقصى المُلاءةِ؟
من تحتفي بالأناملِ؟
من تختفي في ذهولِ الصباحْ؟
قواربُ أربعةٌ في بياضِ الجدارْ
قواربُ أربعةٌ في القرارْ.

*

تتدخّلُ المرآةُ
كنتُ أريدُ صوتاً لا مثيلاً
غير أني عبرَ قاعاتِ المرايا:
أُغمضُ العينينِ أم أُغضي مع العينين؟
هذا الدربُ طال
ولم تزلْ تتدخلُ المرآةُ
أحياناً أغيبُ مرنَّحاً في ماءِ خلجانٍ مصغَّرةٍ.
أمامي يلمعُ الفوسفورُ
أعشابٌ من القاعِ المُخادِعِ في يدي ومحارةٌ
تتخاطفُ الأسماكُ
من حولي فراشاتٌ. قنافذُ. أنجمٌ. وعيونُ غرقى...

أيها الصمتُ السديميُّ الذي يقتاتني:
من أينَ يأتي الصوتُ؟
بعد هُنيهةٍ سأعودُ أخطو عبرَ قاعاتِ المرايا. . .

نيقوسيا، ٩/ ٥/ ١٩٨٦

ثلاثية الصباح

«١»

في صباحٍ بعيدٍ سأنهضُ
محتمياً بالطريقِ الذي ينحني هادئاً مثلَ قشرةِ بطيخةٍ
سوف أمنحُ نفسي إجازةَ يومٍ
وأُطلقُ عينيّ من قاعةِ القصدِ
«لا شيءَ لي» هكذا سوفَ أهتفُ
«لا شيءَ لي» سوفَ أهتفُ حتى لقبّرةٍ عابرةْ
ثم ماذا إذا ما مضى اليومُ؟
ماذا سأفعلُ بالنظَرِ الطلْقِ
بالمنظرِ الطلْقِ
بالناضر الطلْقِ
باللحظةِ السافرةْ؟

*

في مياهٍ جنوبيةٍ يهطلُ التوتُ، أبيضَ، أحمرَ، أسودَ. . . خضراءُ، خضراءُ. . . إني أريدكِ خضراءَ (يدخلُ لوركا!) وخضراءَ كانت أصابعُنا، الريحُ خضراءُ، والغصنُ أخضرُ. . . أفواهُنا في الظهيرةِ

حُمرٌ، هو التوتُ يهطلُ، والظلُ يهطلُ، أغصانُ رمانةٍ مثقلاتٌ بزورقنا. سمكٌ دائخٌ في القرارِ القريبِ. النساءُ ينادينَ مستوحداتٍ بحنّائهنّ. الضفائرُ ملساءُ من غِرْيَنِ الشمسِ. نسمعُ هجسَ السلاحفِ. في بغتةٍ تختفي كالحصاةِ حُبيبةُ توتٍ.. تو... تو... تركضُ السلحفاتُ بها نحوَ قاعٍ شفيف.

«٢»

في صباحٍ قريبٍ سأنهضُ
مستطلعاً، مثلَ آدمَ (وِيتمانُ يدخلُ!)
ذاكَ الصباحَ القريبَ سأمضي إلى سروةٍ ما
وأبحثُ عن جُندبٍ ضجَّ فيها
سأسألُ فاختةً عن بنيها
وأسألُها أن تنادي ولو لحظةً، غافلاً أو نبيها
وأسألُ عن طائرِ الطّيطوى...
ـ ولكنه مرَّ...
* هل مرَّ يا فاختةْ؟
ـ مرَّ...
● والصوتُ يا فاختةْ؟
ـ ليس من سامعٍ بينكم
ليس من راحلٍ بينكم...
● آهِ... ما أهدأَ الموتَ يا فاختةْ!

*

ربما أتلمسُ رائحةً لو غفوتُ على زندِها خمسَ عشرةَ تنهيدةً. هل سنسمعُ في الفندقِ الساحليّ اضطرابَ الحصا في شواطئَ مهجورةٍ؟ أنتَ ملتبسٌ أيها الزعفرانُ. البخورُ الرمادُ على شَعرِها. والملابسُ متروكةٌ كالأريكةِ. كانت حبالُ القواربِ تقطرُ. لو كانتِ الأرضُ نرجسةً وانطوتْ لفتحْنا شبابيكَها. غيرَ أنّا الدُّوارُ الذي لا نريدُ له غيرَ طعمِ الدُّوارِ. الملاءاتُ قد تتوضأُ في الليلِ. والقارُ ينضحُ من قاربٍ في الظهيرةِ. يقطرُ، يقطرُ... أهو اضطرابُ الحصا في الشواطئ؟

أهو الرمادُ الجليل؟

«٣»

قبل هذا الصباحِ انتهضتُ
أتّركتُ على طرقاتِ الجبينِ العواسجَ والوخزَ
ألمحُ في ركنِ نافذتي أَرزةً في القمامةِ مقطوعةً
ثم ألمحُ أخرى ببيتٍ قريبٍ... أتُقطَعُ؟
مَن جمعَ العنكبوتَ إلى نجمةِ البحرِ؟
ماذا تخبئُ تلك التلالُ البعيداتُ؟
كان الضبابُ (غريبٌ هو الصيفُ)
يدنو كبحرٍ من القطنِ
كيف ستعلو البساتينُ والقططُ المنزليةُ من وحشةِ القاعِ؟
كيف السبيلُ إلى أن نرى؟
كيف نسألُ؟

برجُ الكنيسةِ في البُعدِ. . .
ناقوسُه يَرْتَرِنّ
يرترنّ
يرترنّ. . .

*

أن نحبَّ إلى أن نموتَ (وبودليرُ يدخلُ!) تلك البلادُ التي شابَهتْنا، البلادُ التي أطعمتْنا بذورَ الشفلَّح، كمأتَها، والرصاصَ الغزيرَ. . . البلادُ التي سكنتْ دمَها مثلَ بيتٍ يضيقُ بمستأجِرٍ. . . أوَ ما آنَ إلاّ نحبّ بها؟ أوَ ما آن أن ننتهي كي نقولَ لها:
لا تميلي علينا
لا تَمُدّي يداً
نحنُ جئنا إلينا
فسكنّا الغدا
هكذا، كلَّ صبحٍ يجيءُ الصباحُ. . .
وفي كلِ صبحٍ نقولُ الكلامَ الشبيهَ. . . الكلامَ الذي
قد حفرناه طولَ الليالي المديداتِ. لا بأسَ.
لكنما الليلُ أقصرُ من أن تطولَ به شجراتٌ هلامٌ
لتصبحَ قمصانَنا. . .
هو أقصرُ من أن تطولَ الأفاعي به وهي تلتفُّ حولَ الضلوع.

نيقوسيا ٢١/ ٧/ ١٩٨٦

الينبوع

«١»

الظَهرُ إلى الحائطِ. والرصاصةُ تنتظِرُ. ليس في ظهركَ إلا وشمُ الإسمنتِ العربيِّ. أرضيةُ السجنِ وجزمةُ الفتى المتخصصِ بكسرِ الفِقْرات. الرصاصةُ تنتظرُ. أيها المتدرِّعُ بالعينينِ... السماءُ هابطةٌ. السماءُ ضيقةٌ. مثلَ حَجرٍ على وردةٍ. وأنتَ في المسافةِ بين الحَجرِ والوردةِ تفتحُ عينيكَ. يأخذُكَ المُقاتلُ إلى الملعبِ الرياضيّ. تُسدِّدُ: طلقةٌ واحدةٌ في الشاخصِ الحجريّ... والطلقاتُ الباقيةُ تطيرُ كالعصافيرِ نحوَ النجمِ والبحرِ. زمنٌ في عنقِ الزجاجةِ. والدربةُ في مُحاورةِ القتلِ فقط. الطبقاتُ لم تستقرَّ بعدُ. هكذا انسللتَ من معادلةِ الموتِ المحكمةِ. الظَهرُ إلى الحائطِ. والرصاصةُ تنتظرُ. دَعْ عينيكَ مفتوحتين في إغماضةِ الدهشةِ. دَعْ لنا مساحةً للحلمِ. حتى لو كانت بقدْرِ رصاصةٍ.

*

للبحرِ أرجعُ مرةً أخرى
كأني أحتوي عدناً بجيبِ قميصيَ الصيفيّ...
هل تجدُ الطيورُ مغارةً في البحرِ

أو تجدُ الفتاةُ فِراشَها في الصخرِ
أو يجدُ المُقاتلُ خندقاً؟
لكنني للبحرِ، هذا البحرِ، أرجعُ
أحتوي عدناً بجيبِ قميصيَ الصيفيّ
ألمسُها كأني ألمسُ امرأةَ السواحلِ
والقبابَ البيضَ
والأهلَ الذين نأوا. . .
ويهتفُ بي دمي:
إني إلى الأمواجِ أرجعُ
أحتوي عدناً بجيبِ قميصيَ الصيفيّ
أحملُها كوردةِ ساحرٍ
وأقولُ للعشاقِ: هذي وردتي
فتقدَّموا للبحرِ
أن سَمِيَّهُ صَدَفٌ
وأن شميمَهُ أحمرْ. . .

«٢»

أسميكَ الترابَ أيها الوجُه العربيُّ. أسميكَ مُوشَّحاً من سواحلَ مجهولةٍ. أسميكَ سنبلةً متناثرةً بين مضائقَ وصخورٍ. أسميكَ وأنتَ الغيابُ. أتقرّاكَ في هُلامِ اللحظةِ اللزجةِ. من يَهَبُنا أسماءَ أمهاتِنا؟ من يتركُ على الوسادةِ ريشةَ العنقاءِ؟ هكذا نستيقظُ

في صباحِ الخرافةِ. نغسلُ أيدينا من المعتَقَدِ. . .
ونقولُ: ها نحن أولاءِ أبرياءُ كالمرملِ. نقولُ:
الجليلُ لنا ولا نخجلُ. في صباحِ الخرافةِ تكونُ الكلماتُ
أجساداً. لن أسخرَ من الثورةِ. السفنُ تحفرُ
بابَ المندبِ. والطيرُ أكثرُ ارتفاعاً من الجبلِ. مرةً
قالت لي فتاةٌ فلسطينيةٌ، ونحنُ بين صيادي بيروت:
مِن هناكَ تأتي طائراتُ العدوّ. كانت سبّابتُها
تمسحُ العالمَ كلَّه.

*

عمّانُ في صنعاءَ، أم عجمانُ في بيروت
أم بغدادُ بستانٌ تسوّرهُ الرياضُ
أم المدائنُ قد خلتْ أسماؤها فتداخلتْ
حتى كأنّ حروفَها نسيتْ رواسمَها وراسمَها
لتنسينا البلادَ وعشبَها
واللَّهَ والأرضينَ والميلادْ
وتنسينا عروقاً شدَّتِ الأضلاعَ بالأضلاعِ
والعربيَّ بالنجمِ المخبّأِ
والصبيَّ بلعبةِ الأحفادْ
ولكني أخبئُ للصبيّةِ وردةً أخرى
أقول: ظُفارُ. . .
ثم تطيرُ أغنيتي بأجنحةِ العُمانياتِ

بالأثوابِ من كُحلٍ ونرجسةٍ
ومعنى النَّدِّ
معنى الضدِّ
معنى الرمحِ والأملودِ
أو أصغي إلى تنويعِ هذا العودِ
في عدنٍ
ومن عدنٍ
إلى عدنٍ
ومن نجدٍ
إلى يمنٍ
أخبئُ للصبية وردةً أخرى
وأرسُمها على بابِ المضيقِ وبدلةِ البحّارْ
وأنحتُها على الأحجارِ إذ أتوهمُ الأشجارْ
وأحفرُها على الأشجارِ إذ أتذكرُ الأحجارْ
وأفتحُها:
أعُدُّ وريقةً للـ ع
ثم وريقةً للـ د
ثم وريقةً للـ ن
ثم أكون في عدنِ. . .
ومن عدنٍ أخبئُ للصبيّةِ من عُمانَ الوردةَ الأخرى

«٣»

نتناهشُ المطرَ في الحلمِ كأنه زندُ غزالٍ. الحلاجُ رئيسُ جمهوريةٍ.
وبيننا كنوزُ الأرضِ والغيمةُ غيرُ العابرةِ.
أيها الوطنُ الذي ضاقَ. أيها الوطنُ الذي مضى.
نحن مانحوك الهُويّةَ وحضورَ المائدةِ. علّقناكَ
مُلصقاً في «الفاكهاني» وجلسنا نحرسُكَ ببنادقِ الفقراءِ.
زرعناك وردةً في القنبلةِ اليدويةِ، وقلنا: لن ننزعَ
الصاعقَ. الأمرُ لكَ. فلتسكنْ غرفَنا المهددةَ.
لتقطعْ معنا الشارعَ الأخيرَ. المائدةُ معدّةٌ في الدامورِ.
فلتشربْ معنا هذه الكأسَ. إشربْ معنا هذه الكأسَ
وإلا تجرّعناها حتى القتلِ وكسرناها على رأسِكَ.

*

كهذا الماءِ، نَزْراً، أنتَ
تأتي في ابتهالِ يدينِ ضارعتينِ
أو شفتينِ فاحمتينِ
أو لبلابةٍ تمتدُّ بين عريشةِ الرؤيا وسامراء. . .
مثلَ الماءِ، نزراً، أنتَ
تسكنُ بين لَحْجٍ والمُكَلاّ.
في مسايلَ أخطأَتْ أبارَها زمناً
فدارتْ في متاهِ العمقِ
مثلَ الماءِ، نزراً، أنتَ

ترجفُ لاقترابِ النجمِ
تلمحُ في بريقِ القطرةِ الأولى. . . السديمَ
كأنّ بينَ الماءِ والملكوتِ سرَّ الغفلةِ الأولى
وسرَّ الرعشةِ الأولى
وتمتدُّ الأناملُ. . .
بغتةً
وتتمتمُ الشفتانِ:
تحت خُطا الصبيةِ شهقةُ الينبوعْ.

«٤»

في القوقعةِ البحريةِ تنصتُ إلى نداءِ الحورياتِ.
في ذرّةِ الرملِ تستنبتُ الأرجوانةَ. يا لَهذه البلادِ. . .
تأخذكَ ولا تأخذُ. مثلَ النجمِ لا يتّسعُ إلا في العينينِ.
مثلَ أغنيةٍ تقتربُ. الراقصُ ذو الترسِ الصغيرِ
والخنجرِ القوسِ يدخلُ الساحةَ لتكونَ سفينةً.
والنساءُ عيونٌ. من أيِّ دارةٍ أنتِ أيتها الحضرميةُ
المزركشةُ كشجرةِ الميلادِ؟ إذن. . . إلى دمّونَ أنتسبُ،

لأقولَ: غداً أمرٌ. وفي الحقيبةِ الخوصِ رائحةٌ
من عَرَقٍ سريٍّ يتقطّرُ في الوادي
فلنختبئْ وراءَ بوابةِ الصندلِ والنحاسِ.

لنختبئْ في مجمرةِ الوليِّ.
لنختبئْ لحظةً. . .
أريدُ أن أحبَّكِ.
أريدُ أن أخدشَ ذراعَكِ لأعرفَ دمي. . .

وأريدُ أن أستروحَ اليمنَ اليمان
أريدُ أن أجدَ الشجيرةَ حيثُ أرخى الجَدُّ خُصلتَهُ
أريدُ الريشةَ الأولى لأشعلَها
فلعلّ ذاك البرقَ يأتي بالسحابةِ من بلادِ الجان. . .
هل كان لي أن أسكنَ اليمنَ اليمان
شهراً. . .
ليسكنني
فينسجَ من خيوطِ قميصيَ الصيفيّ مئزرَهُ
ويكشفَ صدريَ العاري لنجمةِ أرجوانْ؟
أم أن لي في أولِ اليمن اليمان
غصناً
ومتّكأً
وخطّاً مُسنداً
وحجارةً شفّت بها العينان؟

عدن، ٢٠/ ٣/ ١٩٨٢

تكوين ٣٤

من قبلِ أن نأتي القواعدَ
كنتَ قاعدةً أمامَ اللَّهِ والطبقاتِ
كنتَ تُفتتُ الأحجارَ بين الناصريةِ والشمالْ
تقولُ للوردِ: التويجُ مخبّأٌ
وتقولُ للبرديّ: خبّأنا البنادقَ فيك
للورقِ: الجريدةُ أنتَ
للمتياسرينَ: إليَّ..
للفُوضى: سلاماً للذين يُنَظمون مدائحَ الفوضى
وينتقلون بين الناصريةِ والشمالْ.
لوجهكَ: الظلماتُ مُطِبقةٌ
لأهلكَ: ليس بعدَ الليلِ إلا الليل.
للتاريخِ: نحنُ الفجر...
لم ننزلْ على خيلٍ مُسَوَّمةٍ
فأطلقْنا خيولَ الجِنِ...
تجدحُ،
وانطلقنا قبل أن نأتي القواعدَ

نحوَ قاعدةٍ أمام اللَّهِ والطبقات. . .
كان مثلَنا في الناصريةِ.
مثلَنا في صورةِ الأسلافِ
والكوفيةِ الرقطاءِ
والدمِ مدلهمّاً في خطوطِ الوشمِ
أيامَ النساءُ محجباتٌ
في المآتمِ والقطاراتِ البطيئةِ
والمساجدُ تختفي في النخلِ
أيامَ الكنائسُ لم تزلْ بيضاءَ يونانيةَ القُدّاس
أيام المُسَمَّى، أنتَ: قاعدةً أمام اللَّه والطبقاتِ
سارت مثلَنا مقروحةَ الأقدامِ
تحملُ مثلَنا ما يحملُ الأسلافُ
وشمَ الحِنكِ والكفّينِ
والمنشورَ أزرقَ
والرصاصةَ في عيونِ الخيلِ
تحملُ مثلَنا ما يحملُ الأسلافُ
بين الناصريةِ والشمالْ.

سنُعيدُ هذي الدورةَ الصمّاءَ
هذي الوردةَ المقطوعةَ الأعضاء
نُقتلُ في الخلايا

ثم نُقتلُ في المواقفِ،
ثم نُقتلُ في قواعدنا. . .
نعيدُ الدورةَ الصمّاءَ والوردةْ
نعيد رهافةَ الوحدةْ
ونسكنُ في التفردِ. . . في إخضرارِ الوشمِ
نسكنُ:
في خلايا لم ترشِّحْها الخلايا
في مواقفَ لم تُعَرِّفْها المواقفُ
في قواعدَ تحتفي بدمِ الزمانِ النذلِ. . .
ننأى في التفردِ
في تفاصيلِ الهويةِ والكلامِ
وملمسِ الأيدي التي وُشمتْ،
وإيقاعِ الرصاصةِ والسؤال:
أتطلُعُ الأشياء
فلتطلُعْ بنا الأشياءُ كالأشياء
تطلُعْ
رايةُ حمراءُ في التكوينِ: بين الناصريةِ والشمال.

الانجراف (٢)

«إلى جليل حيدر»

بينما نتركُ السجِيّةَ للأغصانِ والريحِ والخريفِ الذي يأتي، وئيدينَ، معتبينَ، سعيدينَ. . الرضا بانجرافِنا في مياهٍ لم تكنْ بعدُ سرمداً. . في مياهٍ كانت الوصفَ والتهجيَ والسرَّ المسمّى، فأيُّ تمتمةٍ من رأسه رضوى تهدلتْ مثلَ صفصافاتِ بغدادَ في المُسَنّاةِ؟
أيُ النسوةِ الميتاتِ يندبننا الليلةَ؟ لو كانَ، يا جليلُ، الزمانُ النذلُ هِرّاً لأستأنسَ البسمةَ والصمتَ خافتاً، غير أنَّ الشجرَ ـ السمَّ ذاهبٌ في جذورِ الدمِ، في الأمِّ وهي تسألُ عن غيبةِ نجمٍ. .
في الحلمِ وهو الترابُ.

*

للإلهِ الجميلِ، نحلقُ شَعر السمكِ القرمزيّ، نأكلُ
في الفِطر المساميرَ، أو زجاجَ قناني العرقِ المَسْتكيّ،
ها هوذا النارنجُ نارٌ في الراحتينِ. خُذِ المرأةَ. خُذْ
لوعةَ الأساريرِ. خُذْ هذا السريرَ. الملاءةَ. انتبهي. . .
جاءَ الإلهُ الجميلُ يا وردةَ السرِّ. الإلهُ الجميلُ يخطو
على راياتِ دكّاننا، ويخطو على أوراقِنا، ثم ينتقي

في بهاءٍ من سماواتهِ في فتىً غافلاً منا، ويُهديه جمرةً وفتاةً،
ويُدَنِّي له السحابةَ:
«طوعٌ لك يا مصطفى، السحابُ الترابُ»

*

مرةً كنتُ في دمشقَ. بها أمضيتُ قرناً ونصفَ قرنٍ،
وأمضيتُ الثواني مُدَجّجاتٍ. وكانَ الصخرُ في قاسيونَ ماءً.
أتدري يا جليلُ؟ اختطفتُ نسراً من القمةِ. ألبستُه
قميصي، وأطلقتُ الهتافَ: انطلقْ بعيداً إلى الأعماقِ
يا نسرُ، وانطلقْ في التهاليلِ. انطلقْ في الخريفِ،
في جهشةِ الأغصانِ والريح، لا تَعُدْ أيها النسرُ...
ابتعِدْ وابتعِدْ
وكُنْ أيها النسرُ الخريفيُّ مثلما تعرفُ النسرَ...
الوداعَ
الوداعَ
يا نسريَ الملتاعَ
أنتَ البقيةُ ـ السيفُ
إن خفَّتْ وإن أثقلتْ
وأنتَ السرابُ...

دمشق، ١٨/٨/١٩٨١

منازل

يدخلُ النخلُ في الظلِ
خبّأتُ عينيّ عني
وفي النهرِ أسريتُ
في الماءِ أدخلتُ ثوبي
ستمتصُّ هذي الأصابيعَ جنيّةٌ
أو سلاحفُ بُنيّةٌ.
تنتهي
أنتهي.
أيهذا المساءُ الذي لم يفاجئْ سواي:
مرةً حينَ لملمتُ صحنَ الطفولةْ
حين تمتمتُ في حفنةِ التمرِ اسمي
حين كان الهواءْ
ساكناً مثلَ زنجيةٍ في المساءْ
ساخناً مثلَ زنجيةٍ في المساءْ
أيهذا المساءُ الذي لم يفاجئْ سواي
كيف أدركتَني؟
كيف أسلمتَني للمياهْ
كيف علمتَني أن تكونَ المياهْ

في الأصابيعِ
أن تمسيَ القطرةُ المحضُ نجمَ الهداهْ؟

*

أستريحُ إلى غصنِ صفصافةٍ في سماءٍ ضبابٍ
وأستفُّ طيناً
غِرْيَناً . .
هل تراني اهتديتُ
هل تراني ارتديتُ الثيابَ التي ليس عندي سواها
هل تراني ارتديتُ الثيابَ التي ليس يُقبَلُ مني سواها
هل تراني ارتديتُ الشبابَ
الفتوّةَ
دشداشةَ الطفلِ؟
أهلي . . .
لماذا نكونُ البعيدينَ؟
إني استرحتُ إلى غصنِ صفصافةٍ
واستففتُ، على مَهَلٍ، غِرْيَنا
وارتديتُ الثيابَ التي تعرفون
ولكنكم ما تزالون عني البعيدينَ . . .
في هدأةٍ بين «حمدانَ» والجسرِ
في خُضرةٍ بين «حمدانَ» والجسرِ
في قارةٍ ضائعةْ

*

كيف لي، يا معلمُ، أن أتبعَكْ؟
كيف لي أن ألابسَكَ المعطفَ ـ الغيمَ؟
أن أهتدي بالنبوءاتِ
أن أخطفَ النورَ زاداً معكْ؟
كيف لي، يا معلمُ، أن أختفي في يديكْ؟
كيف لي أن أرى في خُطاي خطاياي؟
إقطَعْهما، يا معلمُ
دعني بلا قدمين. . . أتَّرِكْني أطِرْ زاحفاً
لاثماً قدميك اللتينِ ترودانِ ما لا أرى
كيف لي، يا معلمُ، أن أقتفي في الذرى
مسلكاً
ملكاً
وامتثالَ الكرى؟
هل ترى أستريحُ إلى غصنِ صفصافةٍ في سماءٍ ضبابٍ
وأستفُّ طيناً. . .
جرعةً
جرعةً
وعراقاً مَهيناً؟

*

في العراقِ المدوَّخِ بالطلقاتْ
في العراق الثقيلْ

في العراق الجميلْ
في العراق المعارِض بالصمتِ والأضرحةْ
في العراق الذي جَمَّلَ المذبحةْ
في العراق الذي دوَّنَ المذبحةْ
فوق بردّيةٍ
فوق سعفِ النخيلْ
في العراق الذليلْ
في العراق المسمّى
في عراقٍ أسميه وهماً
في عراقٍ نحيلْ
ذاهبٍ في خيوط القميصْ
في عراقٍ صغيرْ
ذائبٍ في عروق اليدينْ
في عراقٍ شفيفْ
ساكنٍ عتمةَ المقلتينْ
في عراقٍ خفيفْ
دائرٍ في دمي. . .
أنزعُ الآن، في السرِّ، أوراقَ وردهْ
أتركُ الوخزَ وحدهْ
ثم أمضي إلى آخرِ الكونِ
مستنزَفاً بالعراقْ.

*

تمرُقُ الشاحناتْ
بعد منتصفِ الليلِ. . .
من أين تأتي الخيولُ التي تصطفي حلباً والجزيرةَ؟
أنّى تكنْ ينبتِ العشبُ في السرجِ
أنّى تَدُرْ تستدرْ نجمةٌ مثلَ زنبقةِ الماءِ
أيّانَ تهدأْ ترَ الماءَ منبجساً من سنابكها. . .
تمرُ الشاحنات
بعد منتصفِ الليلِ. . .
من أين تأتي سرايا الدروعِ التي تصطفي طُورَ سيناءَ
أو جبلاً بالحجازْ؟

*

تمرقُ الشاحناتْ
بعد منتصفِ الليلِ. . .
من أين تأتينَ يا امرأةً ناحلةْ؟
تمرقُ الشاحناتْ
بعد منتصفِ الليل. . .
يهتز مهدٌ على القشِ مخضوضرا.
تمرقُ الشاحنات.

١٩٨١/٦/٢٣

لحظة

أحبكِ متلبسةً بانتظارِ اللحظةِ
مرتبكةً
مثلَ ورقةٍ قبلَ المطرِ
أحبكِ متلعثمةً حتى في «صباح الخير»...
فهل نعلمُ في أيِّ صباحٍ تكونُ الطلقةُ
وأي قطرةٍ تسقطُ
وحيدةً
مرهفةً
في فُجاءةِ الاحتمالِ...

١٩٨١/٤/١٥

اكتناز

«إلى أونغاريتي»

الريحُ الثلجيّ يعضُّ بأسنانِ زجاجٍ
والعشبُ يغور
تحت سماواتٍ بيضٍ
لو كان السرُ عميقاً، لحفرنا مثل الخُلْدِ عن الجذرِ الأولِ. . .
ماذا ترسمُ قبرصُ غيرَ البحرِ
وغيرَ الذاكرةِ الإغريقيةِ؟
أخفيكِ، بعيداً في الصمتِ
أخبِّئُ ما يتنبهُ مني
وأقولُ: الليلةَ أرحلُ عن تركيبِ الصورةِ
والبيتِ
وأسألُ عن غيركِ. . .
أشجارٌ من أسلاكٍ في واجهةِ المخزنِ
والشارعُ يقفزُ
تمرقُ سياراتُ الأجرةِ فارغةً. . .
والإعياءُ يغيم بعينيّ،
وئيداً

رطباً
لا بأسَ، فهذي الليلةُ مرتْ
وتمرُّ الأخرى
وتمرُّ الفتيات
تمرُّ الأوراق.
. . . . . .
. . . . . .
ويبقى ما خبّأتُ عن الأوراقْ

نيقوسيا، ٢٥/ ١٢/ ١٩٨١

كحول

أريدُ أن أدخلَ في اللوعةِ، هذي الليلةَ
أعتدتُ طويلاً
وانتظرتُ العوسجَ المخضرَّ أن ييبسَ
أن يمنحَني الشوكةَ
في كفي
وفي العينين
في الصوتِ الذي يهدأُ. . .
هذي الليلةَ استأتُ طويلاً
وانتظرتُ النجمَ أن يخبوَ
أن يمنحَني العتمةَ
في كفي
وفي العينين
في النورِ الذي آلفُهُ. . .
إني انتظرتُ البُعدَ أن يشرقَ
أن يمنحني القدرةَ
في كفي
وفي العينين

في إغفاءتي. . .
انتظرتُ أن أدخلَ في اللوعةِ. . .
لا! يا أيها الواقفُ كالجلاّد
لا! يا أيها الواقفُ في الباب
لماذا. . . أيها الرأسُ الذي أحملُ؟
ما أوحشَ أن نبقى مع الزهرةِ
ما أوحشَ أن نبقى مع المصباحِ
ما أوحشَ أن نبقى مع النكرانِ واللَّهِ. . .
ولكني أريدُ أن أدخلَ في اللوعةِ هذي الليلةَ. . .
احترتُ طويلاً
والمساءُ امتدَّ
والصبحُ أتى
واللوعةُ البيضاءُ لم تأتِ
ولم تأتِ التي قبّلتُ منها شَعرها الأسودَ
لم يأتِ المغني
والشيوعيون
والطفلُ الذي علّمَني في ملعبِ الإغريق إمساكَ المسدسْ.
كأنّ هذي الأرجلَ الأربعَ للكأس
استعادتْ طينَها الأولَ
عادت تفتحُ البرزخَ بين الشيءِ والتكوينِ
بين الليلِ والليلةِ
بين الصمتِ واللوعةِ

فلأنتظرِ الطارقَ
ولأنتظرِ الطارقَ
ولأنتظرِ الطارق
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
إني أفتحُ الشرفةْ:

تتكشفينَ، مدينةً تجدُ القرنفلَ فجأةً في لُعبةِ الخصلاتِ
بحرٌ غيرُ منتسبٍ لذاكرةٍ ومعنى
والعمائرُ تحتمي في رعدةِ الطيرانِ بالأزهارِ والشرفاتِ
صيدا ـ صور
صيدا ـ صور
صيدا ـ صور
أيَّ الموجِ نُمسكُ في الشواطئِ؟
لفتةَ الصيادِ حين يجيء؟
لونَ الماءِ أسماكاً؟
أمِ القتلَ المخبّأَ في اتحادِ البحرِ والأفقِ الملبَّدِ؟
أم هديرَ محركاتٍ خافتاً؟
أم نبضةً في القلبِ ضد القلبِ؟
صيدا ـ صور
صيدا ـ صور

صيدا ـ صور
نعرف أننا الشهداءُ والغرقى
ولكنا لأجلِ الثوبِ والأشجارِ نرفضُ أننا الشهداءُ والغرقى
ونرفضُ أن تكونَ حمامةٌ في ساحةِ الإعدامِ
أن تتحلّلَ الأقدامُ ماءً. . .
يا سماءً في يديّ
ويا بلاداً قاتلتني كي أراها خارجَ الذكرى
أقولُ. . مدينةٌ في الرسمِ أنتِ
وقريةٌ بين الطباشيرِ الملونِ في حقيبةِ مصطفى وجيوبِ مادونا
أقولُ لشرفةٍ بيضاء:
إن البحرَ أوسعُ من قرنفلةٍ.
أقولُ لمن تحبُ الزعترَ البريّ بالليمون:
إني اصطفيكِ أصابعاً تحتَ القميصِ القطن. . .
صيدا ـ صور، صيدا ـ صور، صيدا ـ صور
صيدا ـ صور، صيدا ـ صور، صيدا ـ صور
صيدا ـ صور، صيدا ـ صور، صيدا ـ صور

بيروت، ٢٢/ ٤/ ١٩٨١

اكتفاء

إذنْ، لم يَعُدْ أملٌ.
مرقتْ شاحناتُ النبيذِ.
الكنيسةُ تهتزّ في البعدِ
والعشبُ ينبتُ بين العظامِ القديمةِ
كانت بيوتٌ بلا أحدٍ.
يهبطُ السبتُ نيزكَ قطنٍ،
وفي حانةِ «الجرة» استيقظَ القطُّ
أهديكِ خيطاً.
لتبقَ المتاهاتُ لي.
يا إلٰهاً له لحيةُ العملةِ الورقيةِ
يا ملكَ البحرِ...
من أين تُهدي لنا أفروديتُ المحارةَ والزهرةَ؟
ارتفعتْ طائراتٌ هلاميةٌ.
عبرَ مائدتي سوف يَبْيَضُّ هذا النبيذُ القديمُ المفاجئُ.
أنذرَني جُندبٌ مرةً،
قال لي: منذ مليونِ عامٍ تعلمتُ كيف أغنّي برجليّ...
شيرازُ. شيراز. شيرازُ

شَيرزْتُ. أتْهَمْتُ. أنجدتُ
أعرقتُ. أصحرتُ. أبحرتُ
صرّفتُ فعلينِ. لي: الحبَّ والحربَ.
هذي البيوتُ التي ترفعُ الشمسَ لافتةً للسويديةِ
احتجبتْ خلفَ أشجارِها
وارتضتْ بالشواءِ.
الجبالُ القريبةُ في لحظةٍ تمَّحي...
والبعيدُ هو البحرُ.
أهدأُ في شرفتي.
فسحةٌ رطبةٌ تتناسلُ فيها الكلابُ الشريدةُ.
لو كان لي غيرُ هذا الجوازِ المزورِ لاستوطنتْ فأرةٌ رئتي.
في الجزيرةِ لا تدلهمُّ الغيومُ
فهل أنبتتْ كمأةً راحتي؟
بين صهريجِ ماءٍ وآخرَ عامٌ نريدُ له أن يحولَ ولكنه لا يحولُ.
انتظرْنا العمامةَ من زاجروسَ،
الحمامةَ من سفحِ سنجارَ...
قلنا:
الجليلُ البدايةُ
طاووسُ «زارا» النهايةُ
عنقاءُ رضوى
أبو الهول
فينيقُ...

في شقتي يدخلُ الزائرونْ
يدخلُ المنتهى والتآمرُ
للدينامياتِ معي المزهريةُ
هذا الجهازُ الذي كم يسمّونه القلبَ.
أصنعُ:
إرهابيةً في مخدعِ الشقيقِ؟
صاعقاً من أنبوبِ المياهِ
مِجَسّاً في سلكِ الهاتفِ
فتىً من ترنُّحِ الجمرةِ
ساعة توقيتٍ من الوقتِ
ماركسَ من امرئ القيس
وأصنعُ في شُرفتي: شجراتٍ، وسرّاً، ومائدةً...
أيهذا الغريبْ
أيهذا الغريبُ المهاجرْ
أيهذا الحبيبْ
خلِّنا نكتفي لحظةً
خَلِّنا ننطفي في الحريقْ.

نيقوسيا، ٢٥/ ١/ ١٩٨٢

إذن نزنر هذا الوطن بالبترول والديناميت

كيف أدفعُ عن عشبةٍ كنتُ أمتصُّها غبَشَ الصيفِ
ماءً
وملحاً
وبعضَ مذاقٍ من الصمغِ
لذعةَ هندٍ
وخضرةْ؟
كيف أدفعُ عن نجمةٍ نزلتْ في منارةِ مسجدِنا
مرةً،
فاختبأْنا لها أسفلَ السلّمِ الحلزونيّ،
ثم اختبأنا بها
في الجداولِ ناشفةِ الماءِ
ـ في مسلكٍ من خيوطِ الدشاديشِ
في السعفِ والطينِ
حتى أتانا فتىً أسكنَ النجمَ صدرَهْ؟
كيف أدفعُ عن قامةِ امرأتي؟
كيف أدفعُ عن شرفةِ البيتِ
حتى ولو كان مستأجَراً؟

كيف أدفعُ عن سرِ قلبٍ وسهم
وقلبٍ واسمين
في جذعِ سروةْ؟
كيف أدفعُ عن أمهاتِ الجنودِ، الغرابْ؟
كيف أدفع عن خِلْيةٍ في دماغي، الخرابَ المفاجئْ. . .
كيف أدفعُ عن «صور»؟
كيف أدافعُ؟
كيف الهجومُ/ الهجومُ
الدفاع/ الهجومُ
الهجوم/ الدفاع
الدفاع/ الدفاع
الدفاع
الدفاع
الدفاع؟

*

ليس لنا، بعدُ، أن نتحدثَ عن هندسيةِ المتاريسِ
وبواباتِ «قصر الشتاء».
ليس لنا، بعدُ، أن نتحدثَ عن مساواتيةٍ
حتى لو كانت موروثةً كالسجاجيد.
ليس لنا أن نتحدثَ عن مارسيل خليفة إلا بُلغةِ النوتةِ.
ليس لنا أن نعرفَ عن مظفر النواب إلا طرائقَ الكوكتيل.
ليس لنا أن نقولَ إن كاتب ياسين اسمُه كاتب.

ليس لنا أن نتذكرَ جمهوريةَ «وجدة».

ليس لنا أن نسمي مارغريت تاتشر السيدة كوكلاكس كلان.

ليس لنا أن نقول إن فرنسا ذبحتنا

تحتَ أشجارِ الغوطةِ.

ليس لنا أن نقولَ إن الأكراد يُقتَلون كالهنودِ الحمرِ.

ليس لنا أن نقولَ إن موسوليني كان إيطاليّاً.

ليس لنا أن ننادي ماركس: يا أولَ الهيبيين...

ليس لنا أن نقول إن القنافذَ شائكةٌ.

ليس لنا أن نقفَ مع سميح القاسم إلا في النقاش «المبدئي».

ليس لنا أن نضعَ الألفَ مع الباء.

ليس لنا أن نضعَ الألفَ مع الميم

ليس لنا أن نجمعَ الألفباء والألفميم في فراشٍ آمن.

ليس لنا أن نجعل الألف إلى الألف هكذا:

آآآآآآآ

آآآآآآآ

ليس لنا أن نجعلَ الميمَ إلى الميمِ هكذا:

م

م

م م م

م م م

م م م م م م م

م

م

م

م

م

م

م

ليس لنا أن نجعل الميم إلى النون هكذا:

من؟ من؟ من؟ من؟ من؟ من؟ من؟

من؟ من؟ من؟ من؟ من؟ من؟ من؟

ليس لنا أن نكتب مرثيةً للعراق.

*

إذن، فالطريقُ إلى عدنٍ

مغلقٌ.

والطريقُ إلى غيمةِ الجلّنارْ

مغلقٌ.

والطريقُ إلى أصفهانْ

مغلقٌ.

والطريقُ إلى منزلي في النخيلْ

مغلقٌ.

والطريقُ الذي ظل مستغرقاً بين بيروتَ والشامِ

مغلقٌ.

. . . . . .

. . . . . .

هل يكون الطريقُ الذي جئتُ ارتادهُ
نحو بيسانَ
يُغلَقْ؟

*

أعلينا أن نبعثرَ شَعر أمهاتِنا،
من سنجار إلى بني صاف؟
أعلينا أن نكشفَ
قبورَ الهجرةِ الأولى والعاشرةِ والمائةِ والألفِ
لنكتشفَ؟
أعلينا أن نزوِّج «الجازيةَ» يهودياً
ليهجسَ أبو زيد؟
أعلينا أن نأكلَ لحمَ الأفاعي شواءً؟
أعلينا أن نضعَ لحمَ أجسادنا تحتَ العظم؟
أعلينا أن نُشَظِّي الوحيدَ نثاراً كالألعابِ الناريةِ؟
أعلينا أن نسألَكَ أيها الربُّ:
لماذا خلقتَنا هكذا؟
أعلينا أن نبيعَ دمَنا كما نبيعُ ماءَ الوجهِ؟
أعلينا أن ننتظرَ فرسانَ خراسانَ وحدهم؟
إذن. . .
أعلينا أن نزنِّرَ هذا الوطنَ بالبترولِ والديناميتِ؟

*

يا وردةَ النارِ لا تستعجبي للنارْ

دنياكِ دارتْ، فلا للنجمِ فيها دارْ
يا وردةَ النارِ، أهلي أخمَدوا بالعارْ
نيرانَهم، واستوى التُجّار والثوّارْ

*

يا وردةَ النارِ، لا بُدَّ السما تنزلْ
كالنجمِ في الليلِ، حتى عتبةِ المنزلْ
يا وردةَ النارِ... لا بدَّ القُرى تسعلْ
نيرانَها، والملا يمشونَ بالمشعلْ

*

لا فائدةَ.
سعدي يوسف يكتب منذ ثلاثين عاماً.
يجربُ.
ويقتتلُ
ويحتقرُ الحكّامَ.
يقول: إنهم يقتلون القصيدةَ الجديدةَ...
لكني أسألكَ:
«ألم تجد شكلاً أكثرَ حداثةً من الموّال؟»
لا فائدةَ.
إذن؟
نزنِّرُ هذا الوطنَ بالبترولِ والديناميتِ..
و؟

دمشق، ١٨/ ٤/ ١٩٨١

المضيق

تتطامنُ بين الينابيعِ، والقمرِ الجبليّ، وأشجارهِ
تتطامنُ في صمتِ أحجارهِ
تتطامنُ ملتوياً، والمسيلَ الضنينَ بأسرارهِ
ضيّقٌ أنتَ مثلَ لحاءِ الشجرْ
ضيقٌ أنتَ مثلَ الحجرْ
ضيّقٌ أنت بالعجلاتِ التي تشتهيكَ ولا تشتهيك
ضيقٌ أنتَ بالقادمِ المنتظرْ:
ضجةِ الطائراتِ
وضوءِ البيوتِ الذي كادَ أن يصطفيكْ.

*

للسماواتِ هابطةً
كنتَ صمتَ المحاربِ، أو عرباتِ المدافعْ
للنجومِ العريضةِ
كنتَ ظلامَ الكمين، وبرقَ الفظائعْ
للنهارات
كنت الصدى وهو يوحشُ

للأرضِ
كنتَ السبيلَ المخادعْ

*

أيها الممرُّ العسكري
الذي لم تنطبقْ عليه أحذيةُ الجنودِ
«راوندوزُ» قعلةُ أحمد الشيخ معروف
ينزُّ دمُها في الشلاّلات.
أيها الممرُّ العسكريّ
حيثُ تماثيلُ الإسكندرِ المقدوني
شعريةٌ وغيرُ شرعيةٍ، كالأسلحةِ:
إن قروييك يستدلون بأنسجتهم الصوفِ
بضائعَ البلاستيكِ المهربةَ.
أيها الممرُ العسكريّ
حيث شقّتْ كتائبُ «بوديوني» الطريقَ القديمَ:
لم يَعُد الجنودُ يوجِّهون رصاصَهم
إلى صدورِ الضباطِ القيصريينِ
أيها الممرُ العسكريّ
حيث تتأكّلُ الرطوبةُ
مقرَّ عبد السلام البارزاني:
كلُ الطرقِ المؤديةِ إليكَ تمرّ بغيركَ.

*

في استدارتكَ العاشرةْ
قال لي حجرٌ:
آنَ أن نستريحْ.

*

للمصابينَ أوقدتُ ناري
وقلتُ لكل الجنودِ:
تعالَوا إليها
إلمسوا دفئَها
واتركوا قربَ بيتي بنادقكم
أيها المتعبون
امنحوا نارَنا حطباً تشتعلْ
وامنحوا جُرحَنا سبباً يندملْ
وامنحوني الأكفَّ التي اخشوشنتْ
أتقرَّ الطوالعَ فيها.

*

في استدارتكَ العاشرةْ
بين ماءِ الصخورِ الذي يتحدّرُ والهاويةْ
شجراتٌ ثلاثْ.

هجوم

غيرةٌ ليليةٌ في الشارعِ العشرين
في مقهى الشبيبةْ
في عيون الناسِ
في الأبوابِ
في لونِ العباءاتِ الرمادْ.
كانتِ الأبوابُ في مقهى الشبيبةْ
كجناحينِ حديديينِ في وجهِ التآمرْ
مغلقاتْ
إن شيئاً يزحفُ الليلةَ، من صمتِ المقابرْ
فوق وجهِ الشارعِ العشرين:
أنفاسُ التآمرْ.
كانت الأحداقُ فوق الشرفات
زهَراً أسودَ يبكي
ومن البُعدِ، من الريحِ، تئزّ الطلقات
ويظلُّ الشارعُ العشرون في العتمةِ يبكي
صدرُهُ المغبّرُ مفتوحُ الذراعينِ كجنديٍ يموتْ.

إنهم يأتونَ عبرَ الصرخاتْ
والصدى
والطلقاتْ
وعلى أحداقِهم يرتجفُ الحقدُ عليك
إنهم يأتونَ كالقبرِ على مقهى الشبيبةْ. . .
ثم يمضون
مع العتمةِ
والريحِ
وصمتِ الطلقاتْ.

بغداد، ١٩٦٠

المحتويات

قصائد أقل صمتاً (١٩٧٩) ٥
القنفذ ٩
العام الثالث عشر ١١
١ ـ البرزخ ١١
٢ ـ التنفيذ ١٣
٣ ـ بيسان ١٥
٤ ـ نذور ١٧
٥ ـ الجلسة ١٨
٦ ـ العام الرابع عشر ١٩
الجواهري ٢١
طيران ٢٢
الأيائل ٢٣
الجنة ٢٤
خماسية الروح ٢٥
صباح الخير أيها الفاكهاني! ٢٩
الرماة ٣١

استغفار ٣٩
قصيدة ٤١
إنغمار ٤٢
بيت خالي ٤٥
الوردة المستحيلة ٤٨
نسخة أولى ٥١
صداقة ٥٣

من يعرف الوردة؟ (١٩٨١) ٥٥
موقف ٥٧
الواحة ٥٨
لقلق نيسان ٦١
أوهامُ الأخضر بن يوسف ٦٣
١ ـ الحانة ٦٥
٢ ـ القرية ٦٨
٣ ـ الرايات ٧٠
٤ ـ الزيارة ٧٢
٥ ـ الشعر ٧٣
٦ ـ النعاس ٧٤
٧ ـ النهر ٧٥
باتنة ٧٦
خراسان. . . خراسان ٧٧

علي الجندي ٨٠
ربيع ١٩٨٠ ..... ٨١
العصافير ٨٢
ألف باء ٨٣
الجزائر ٨٥
سر النافذة ٨٦
ثلج أول ٨٨
قول ٨٩
سؤال ٩١
بنت ٩٢
هلاليون ٩٣
وطن ٩٤
المعاد ٩٥
مسافرون ٩٦
القبو ٩٧
محطة ٩٩
صباح الخير أيها العرب ١٠١
منفيون ١٠٣
رمضان ١٠٤
مراجعة ١٠٥
مريم ابنتي ١٠٦
توعك ١٠٧

مطر أول ١٠٨
«مادونا» ١٠٩
الأعداء: قصيدة في ثلاث حركات ١١٣
١ ـ الطفولة ١١٥
٢ ـ التمرد ١١٨
٣ ـ أيام ١٩٦٣ ..... ١٢٢
تقاسيم ١٢٥

يوميات الجنوب ـ يوميات الجنون (١٩٨١) ١٢٧
هذه المجموعة ١٢٩
منظر ١ ..... ١٣١
منظر ٢ ..... ١٣٢
رائحة ١٣٣
فتاة ١٣٤
أصداف ١٣٥
صيف ١٣٦
قات ١٣٧
اختيار ١٣٨
غيم ١٣٩
عصافير ١٤٠
ارتباك ١٤١
رامبو ١٤٢

أثيوبيات ١٤٤
المنارة ١٤٥
زنجبيل ١٤٦
شاطئ ١٤٧
رعب ١٤٨
برزخ ١٤٩
صديق قديم ١٥٠
نصيحة أوجين كيفك ١٥١
رياح ١٥٢
مدن ١٥٣
شبام ١٥٥
تريم ١٥٦
سيون ١٥٧
لحج ١٥٩
خط مسند ١٦٠
محاولة ١٦١
الليل ١٦٢
يمن ١٦٣
الأحفاد ١٦٥
مملكة معين ١٧٦
هذيان ١٧٧
تنويع ١٧٩

سواد ١٨١
سحابة ١٨٤
المضيق ١٨٦
المعسكر ١٨٩
قرار الاضطراب ـ الذكرى السادسة عشرة للثورة الفلسطينية ١٩١
مقدمة ١٩٣
تشريح ٢٠٠
الخنزير ٢٠٤
النهر ٢٠٦
التسلل ٢١١
مناظر متفرقة ٢١٤
البطء ٢١٦
الدورة ٢١٨

مريم تأتي. . . قصائد بيروت (١٩٨٢) ٢٢١
حماسة ٢٢٣
أيها الأخوة ٢٢٥
أبدأ. . لأظلَّ أبدأ ٢٢٧
افتتاح ٢٢٩
حي السلم ٢٣٢
الفاكهاني ٢٣٤
ليل الحمراء ٢٣٥

أيها المقاتلون ٢٣٧
أيام حزيران ٢٣٨
مريم تأتي. ٢٤٣
لمسات يوميّة ٢٥١
ماء. ٢٥٣
غرفة ٢٥٤
الكهرباء ٢٥٥
موقع ٢٥٦
أين؟ ٢٥٧
إذاعة ٢٥٨
مخصص ٢٥٩
مدافع ٢٦٠
نشور ٢٦١
مساكن ٢٦٢
شهداء عراقيون ٢٦٣
ريلكه ٢٦٤
سهاد ٢٦٥
غارة. ٢٦٦
انهاك ٢٦٧
ثمل ٢٦٨
زرقة ٢٦٩
صمت ٢٧٠
براءة ٢٧١

خذ وردة الثلج خذ القيروانية (١٩٨٧) ٢٧٣
الوردة ٢٧٥
مشاهدات ٢٧٧
موقع ٢٨١
هدوء ٢٨٣
تمرد ٢٨٤
البستان ٢٨٥
تركة ٢٨٧
الانجراف (١) ٢٨٨
عن تلك السحلية عن هذا الليل. ٢٩٤
إعلان سياحي عن «حاج عمران» ٢٩٩
تداخل ٣١٣
حالة حُمّى ٣١٥
موت بحار ٣١٦
مساء قائظ ٣١٨
لعبة ليلية ٣١٩
امرأة ٣٢٠
بار جبهة النهر ٣٢١
وجوه «يافع» الثلاثة ٣٢٣
رحيل ٨٢ ..... ٣٢٦
حسرة ٣٢٧
السيارة ٣٢٨

بار مطار أثينا ٣٢٩
بار الشاليهات ٣٣١
سيدي بوسعيد ٣٣٢
استعادة ٣٣٣
إحساس ٣٣٤
دوران ٣٣٥
منظر ٣٣٦
العزلة ٣٣٧
الزيارة ٣٣٩
نبيذ ٣٤١
أبيات ٣٤٢
غيمة ٣٤٣
سؤال ٣٤٤
بُحّة ٣٤٥
نبت متسلق ٣٤٦
زهرة بوقية ٣٤٨
تنويع ٣٤٩
عناد ٣٥١
خذ وردة الثلج خذ القيروانية. ٣٥٣
وداعاً عدن! ٣٦٨
مائدة مهيأة ٣٧١
شكراً لامرئ القيس ٣٧٤

ثلاثية الصباح ٣٧٩
الينبوع ٣٨٣
تكوين ٣٤ ..... ٣٩٠
الانجراف (٢) ٣٩٣
منازل ٣٩٥
لحظة ٤٠٠
اكتناز ٤٠١
كحول ٤٠٣
اكتفاء ٤٠٧
إذن نزنر هذا الوطن بالبترول والديناميت ٤١٠
المضيق ٤١٦
هجوم ٤١٩

سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء الخامس

سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء الخامس

حفيد امرئ القيس

منشورات الجمل

ولد **سعدي يوسف** في البصرة عام ١٩٣٤. تخرّج من دار المعلمين ببغداد سنة ١٩٥٤. عمل في الصحافة وتنقل بين عدة بلدان ويقيم اليوم بلندن. نشر العديد من الترجمات الشعرية والنثرية، وكتب القصة والرواية، ترجمت أشعاره إلى العديد من اللغات ونال جوائز أدبية في البلدان العربية والأوروبية. من أعماله وترجماته: **القرصان**، شعر (١٩٥٣)؛ **أغنيات ليست للآخرين**، شعر (١٩٥٥)؛ **قصائد مرئية**، شعر (١٩٦٥)؛ **بعيداً عن السماء الأولى**، شعر (١٩٧٠)؛ **نهايات الشمال الأفريقي**، شعر (١٩٧٢)؛ **الأخضر بن يوسف ومشاغله**، شعر (١٩٧٢)، **والت وايتمان: أوراق العشب**، ترجمة (١٩٧٦)؛ **تحت جدارية فائق حسن**، شعر (١٩٧٤)؛ **قصائد أقل صمتاً**، شعر (١٩٧٩)؛ **خذ وردة الثلج، خذ القيروانية**، شعر (١٩٨٧)؛ **قصائد باريس، قصائد إيثاكا**، شعر (١٩٩٢)؛ **كافافي: وداعاً للاسكندرية التي تفقدها**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **يانيس ريتسوس: إيماءات**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **لوركا: الأغاني وما بعدها**، ترجمة (١٩٨١)؛ **فاسكو بوبا: شجرة ليمون في القلب**، ترجمة (١٩٨١)؛ **غونار أكيلف: ديوان الأمير وحكاية فاطمة**، ترجمة (١٩٨١)؛ **أونغاريتي: سماء صافية**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هولان: قصائد**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هنري ميللر: رامبو وزمن القتلة**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **نغوجي واثيونغو: تويجات الدم**، ترجمة (١٩٨٢)؛ **ديفيد معلوف: حياة متخيلة**، ترجمة (١٩٩٨)؛ **وولي سوينكا: المفسّرون**، ترجمة (١٩٨٦).

سعدي يوسف: **الأعمال الشعرية، الجزء الخامس: حفيد امرئ القيس**
الطبعة الأولى
خطوط الغلاف: الفنان علي عاصي
كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٤
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2014
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

صلاةُ الوَثَنِيِّ

الإستباحةُ

السمتيّاتُ الأميريكيّةُ تقصفُ أحياءَ الفقراءْ
والصحفُ المأجورةُ
في بغدادَ
تُحَدِّثُ قُرّاءً أشباحاً عن أرضٍ سوف تكونُ سماءْ...

***

هذا الطاعونُ
هذا الوحشُ المملوءُ دماملَ
هذا الخِرْتيتُ الفولاذُ
وهذا الشاربُ كأسَ دمٍ طافحةً ممّنْ فُصِدوا،
هذا المتدرِّعُ بالقتلى
هذا المتذرِّعُ باللاشيءْ...
القاتلُ
والماثلُ في الساحات
هذا المنتقم، الليلةَ والليلةَ، من بغداد
هذا الراحلُ حتماً
سنشيِّعُهُ يوماً بقناديل البصَقات.

***

السمتيّاتُ الأميريكيةُ تقصف أحياءَ الفقراء
والصحفُ المأجورةُ
في بغدادَ
تُحَدِّثُ قُرّاءً أشباحاً
عن أرضٍ سوف تكونُ سماءْ.

لندن، ٥/ ٤/ ٢٠٠٤

تنويعٌ صعبٌ

سلامٌ على هضَباتِ العراق
وشَطَّيهِ، والجُرفِ، والمنحنى
على النخلِ...
والقريةُ الإنجليزيةُ الآنَ صارت تجرجرُ، هُوْناً، سحائبَها
والمساءُ ادَّنى
فهي تدفأُ، كالقطِّ، في نومها
وتذودُ الكوابيسَ عن شجرٍ أغرقتْه البحيراتُ...
يأتي المساء
بطيئاً
ومنتظماً (سوف تحصي ثوانيَهُ مرّةً)
هل ستغمضُ عينيكَ؟
عند نهايةِ ذاك المَمَرِّ
ومن مُرْتبى النافذةْ
نهضتْ دوحةُ الجوزِ...
يأتي المساء
بطيئاً
ويزحفُ حتى يهدهدَ جفنيكَ:

هل تبصرُ السعفةَ المستحيلةْ؟

سلامٌ على هضباتِ العراق
وشطَّيهِ، والجرفِ، والمنحنى...
هل كنتُ أدري أنّ وجهي، بعدكَ، الطرقاتُ؟
أبواباً مغلّقةً تركتُ، ومنزلاً للريحِ. لم تكنِ
البلادَ، ولم تكنْ أمواهُكَ الخضراءُ جابيتي. لقد
خلّفْتَني في قلعةِ الصحراءِ. ماذا أرتجي
منكَ، العشيّةَ؟ في الصباحِ خذلتَني، ودخلتَ
في الثُّكُناتِ. قلتَ: «الحربُ أجملُ». لن ترى
قدمَيَّ بعد اليوم. إني منْشِدُ الطرقاتِ والحاناتِ،
إني الشاعرُ الأعمى. لديّ من الخريفِ الجَهْمِ
موسيقى لألوانٍ ومن مرأى الغروبِ غضارةُ الوردِ.
وأسألُ عنكَ، أسألُ عنكَ، لكنْ مثل ما يتساءلُ الملدوغُ
عمّا حلَّ في دمهِ.
سلاماً... لا أريدكَ أن تردّ...
اقرأْ على الوشَلِ السلام!

وسلامٌ على هضَباتِ العراقِ...
الذبيحةُ في العيدِ، بغدادُ في العيدِ؛
تلك المقاهي: لها الشايُ مُرّاً،
وتلك الفنادقُ: سكّانُها الأبعدونَ.

الصلاةُ أقيمتْ
صحونُ الحساءِ بها مرَقٌ من عظامٍ
ومن لحمِ سُحْليّةٍ...
والمساجدُ مغصوبةُ الأرضِ
أبوابُها للجنودِ، مشاةً، وبحّارةً
وملائكةً طائرينَ
.....
.....
.....
سلامٌ على...

لندن، ٣١/٨/٢٠٠٣

أحدُ أصدقائي

ظلَّ، كما كان، شيوعيّاً
يعملُ في قَبوِ المَبنى، سرّاً
ويُسَمّى (أي يتسمّى)... سينْ.

يقرأُ ما في الصحفِ الأولى
يستقريءُ تاريخَ العالَمِ، والعمّالِ
ويطلبُ ما يَتقَرّاهُ ولو في الصينْ...

أحياناً يتذكّرُ من ظلّوا معه في الدربِ
فيفرحُ حين يُعَدِّدُهم:
أفذاذاً
وملائكةً من أعلى عِلِّيّينْ

وأحياناً يتذكرُ من خذلوه بمنعطفاتِ الدربِ
فيأسى حين يُصَنِّفُهم:
موتى
ومُرابينَ، وأعواناً للمحتلّينْ...

ويقولُ: الدربُ طويلٌ
والليلُ رتيبٌ، تسكنه الوحشةُ في قبو المبنى
رطبٌ وطويلٌ
لكني صرتُ، أخيراً، أعرفُ
كيفَ أُعَلِّقُ في الساعاتِ
(لئلاّ يخنقَني خيطُ الساعاتِ)
نجوماً من ورقٍ، ورياحينْ...

لندن، ٧/ ٥/ ٢٠٠٤

إذهَبْ وقُلْها للجبل

كيف؟

أنت الساحةُ الآن، ولا تدري بما يَحدُثُ في الساحةِ؟
ما أسهلَ أنْ تغمضَ عينيكَ...
ولكنّ الرصاصَ انطلقَ؛
الدبابةُ «ابراهيمُ» في المفترَقِ الأولِ
والرشّاشُ لا يهدأُ...
ما كنتَ بعيداً، حين كانت «ساحة التحرير» تلتَمُّ على أشلائها:
الدبابةُ «ابراهيم» في المفترق الأولِ
والسمْتيّةُ السوداءُ، آباشي، على رأسكَ
والبرجُ يدورُ...
انتبه العصفورُ
والمقتولُ
والحائطُ،
لكنك لم تنتبهِ
الشمسُ على رأسكَ تحمرُّ، ولم تنتبهِ
الساحةُ بارودٌ من الأعلى
دمٌ إهْرِيقَ في الأسفلِ

طابورٌ من النملِ
ولم تنتبهِ...
الليلةَ، يأتي طائفٌ من آخرِ القَصْباء.
يأتينا الشِقِرّاقُ بما فاهت به جنّيةُ الهورِ
وتأتي عبرَ مجرى الماءِ أفراسُ النبيّ.
الطينُ من زقّورةِ المَنأى سيأتي
والخُلاسيّونَ والجرحى، وما تحمله الفاختةُ
الأولى، وما ينفثه الثورُ السماويُّ،
ويأتينا عليُّ بنُ محمد...
هذه الأرضُ لنا
نحن، بَرأْناها من الماءِ
وأعلَيْنا على مضطرَبٍ من طينها، سقفَ السماءِ
النخلَ
والذاكرةَ الأولى...
وكنّا أولَ الأسلافِ، والموتى بها
والقادمين؛
الأرضُ لن تتركنا
حتى وإنْ كنّا تركناها...
ستُرخي هذه الأرضُ، لنا، المَنْجاةَ، مَرْساً من حريرِ الشَّعرِ
مجدولاً،
ستعطينا، أخيراً، إسمَها:
ويْلِي على الشطآنْ

ويلي على أهلِ الحِمى والشانْ
ويلي على أهلي
ويلي على جسر المسيّبِ
والزبيرِ
وقريتي حمدان
ويلي على ظلِّي الذي يمحوه أمريكانْ
كيف؟
أنت الساحةُ الآنَ
فكُنْ أدرى بمن أنتَ
وكنْ أدرى بما تفعلُ
فالساحةُ ـ حتى لو تناستْ إسمَها أو غفلتْ عنه ـ هي الساحةُ
أنت الآنَ معنىً؛
لا تحاورْ
ولْتَدَعْ مَن خاننا يأكلْ طويلاً شجرَ الزقّومِ
واثبُتْ...
لا تحاورْ:
هذه الأرضُ لنا
هذه الأرضُ لنا
هذه الأرضُ لنا
منذُ بَرأْناها من الماءِ
وأعلَينا، على مضطرَبٍ من طينِها، سقفَ السماء...

Medellin - Colombia ٢٠٠٣/٦/٢١

استحضارٌ

ما مُقامي بأرضِ لندنَ إلاّ...

يا هَـلا، يا أبا مُحَسَّدٍ، الشّهْمَ، رفيقي وقائدي في فلاةِ العُمْرِ

يا طالعَ الثنايا، ويا راكزَ أرماحهِ ليعلنَ عن ضوءِ المعسكرِ... الليلُ يلتزُّ بطيئاً ودابقاً،

مطرٌ في غير عاداتهِ، وبردٌ تمشّى في عروق النباتِ. ليس لنا في قرية الإنجليزِ غير ما تهَبُ القريةُ: هذا السكونُ، هذا السكونُ...

ما مُقامي بأرضِ لندنَ إلاّ...

يا هَـلا، يا مُحَيِّري، يا أبا تمّامٍ: الإستعارةُ انتزعتْ أثوابَها عندنا،

وصار المغَنِّي لا يغنِّي إلاّ على ليلاهُ...لا بأسَ؛ لكنّ ليلى لم تعُدْ كالتي عرفْنا زماناً. إن ليلى تُطَوِّفُ الليلَ، مَسْعىً بين خمّارةٍ وأخرى، ومَلهىً بينَ حِلْسٍ وآخرَ. الليلُ يمضي، والإستعارةُ تمضي، والسراويلُ أينعتْ لا الغصونُ...

ما مُقامي بأرضِ لندنَ إلاّ...

يا هَـلا، أيها النُواسيُّ: هل جئتَ لتحيا القصيدةَ؟ الليلَ والموكبَ

المنادي ببابِ الدَّيرِ، والراهبَ العجيبَ... ورَيحانَكَ ضِغْثاً من بعدِ ضِغْثٍ؛ لقد أسرفتَ يا سيِّدي!

النهارُ هنا خمرٌ وأمرٌ، والليلُ خمرٌ وأمرٌ. خَلِّنا من حديث رُهبانكَ! الأحجارُ ما مَسّتْ سوى وابِلٍ، فهل مَسَّتْكَ سَرّاءُ، أيّهذا القرينُ؟

ما مُقامي بأرضِ لندنَ إلاّ...

يا هَلا، أيها المُطَوَّبُ، يا سعدي! سلاماً... لقد أتيتَ، فخُذْني معكَ،

اليومَ: سوف نمضي سراعاً، لنغَنِّي؛ وسوف نمضي بِطاءً، لنرى أيَّ مَذْأبةٍ كنا بها. الليلُ درعٌ (لا تخفْ). والنهارُ حُلْمٌ طويلٌ (لا تُفِقْ). أيها المطوَّبُ، دعنا لا نكلِّمْ

في دربنا أحداً... دعْنا نُقِمْ في الغناءِ، حيثُ الجنونُ...

لندن، ٢١/ ٤/ ٢٠٠٤

أغنية الصَرّار

ربّما ساءلتُ نفسي الآنَ، عمّا أكتبُ الآنَ...
لماذا أكتبُ الآنَ؟
وفي أيّ مكانٍ أكتبُ الآنَ؟
.....
.....
.....
ألـمْ يُتعبْكَ نصفُ القرنِ من ألعابِكَ:
الصخرةُ والنبعُ
وهذي اللغةُ... الألوانُ والغيمُ...إلخ؟
إنك لا تبدو دؤوباً مثلَ نجّارٍ
ولا منتبهَ المَلْمسِ كالخزّافِ؛
أنت الغافلُ
الناحلُ
والتأتاءُ...
ما شأنُكَ والدنيا؟
دع العالَمَ يمضي مثلَ ما علّمَنا العالَمُ أن يمضي،
فما للّهِ، لِلّهِ

وما قد كان للقيصرِ، للقيصرِ...
قُمْ، فاذهبْ إلى مقهىً على الشاطيءِ
وانعَمْ بنبيذ الشمسِ إذ تغربُ
والمرأةِ إذ تلعبُ
والسنجاب...
.....
.....
.....
كم ساءلْتُ نفسي!
نصفَ قرنٍ، وأنا أسألُ نفسي:
لِمَ لا تخذلُني أغنيةُ الصّرّارِ، كي أغفو قليلا؟

لندن، ٦/ ٥/ ٢٠٠٣

الأسماء

ننسى أسماءَ الأشجارِ اللائي كنَّ سماءَ طفولتِنا
(حتى لو كانت بضعةَ أسماءٍ)

ننساها
(رِحلتُنا طالت... تعرفُ هذا أنتَ!)
ولكنّا لم نتعلَّمْ أسماءَ الأشجارِ
على طُرقِ الرِّحلةِ...
(كان علينا أن نتعلّمَ أسماءَ العجلاتِ على الطرقاتِ القَفْرِ
وأسماءَ الخاناتِ بأرباضِ المدنِ)؛
القدماءُ يقولون (وأحسَبُ ما قالوا حقّاً):
إنّ السِّدرةَ روحٌ
والنخلةَ روحٌ
والصفصافةَ سبعةُ أرواحٍ (كالقطّةِ)
.....
.....
.....

ها نحن أُولاءِ الآنَ
بلا شجرٍ؛
انكونُ، إذاً، قد فارقْنا منذُ زمانٍ، صبَواتِ الروح؟

لندن، ٢١/ ٥/ ٢٠٠٤

الأشياءُ تتحرّك

الغيومُ الصَّدفْ
والغصونُ الزّمُرّدُ، والزنبقاتُ، وأزهارُ «لا تنسَني»
والنوافذُ
والمُصطلَى
والستائرُ
والعشْبُ بين شقوقِ المَمَرِّ
وأعشاشُ نيسانَ
حتى المحطّةُ في المُنتأى
كلُّها، الآنَ، لا تتحرّكُ...
.....
.....
.....

لكنْ (أتلمحُ أُذْنَي حصانٍ على المَرْجِ؟)
أَنصِتْ!
أ ترتشفُ الوشوشاتِ الشفيفةَ؟
هل تسمعُ الماءَ في القصبِ؟

الريشَ، في هَبّةٍ من طيورِ البُحيرةِ؟
والنجمَ حينَ الخَفاءُ؟
المُويجاتِ في القاعِ، حيثُ المَحارُ؟

البحيرةُ موسوقةٌ بحقائبها الآنَ
تنتظرُ الليلَ...

في الليلِ، آنَ ننامُ جميعاً، تسافرُ هذي البحيرةُ
كي تبلغَ البحرَ
في لحظةٍ
وتفارقَنا ـ بين جدراننا ـ نائمين...

لندن، ٢/ ٥/ ٢٠٠٤

الجبل الأزرق

جبلاً رأيتُ:
أنجمةٌ، في سفحهِ، زرقاءُ واسعةٌ
أَمِ الماءُ المُرَقرَقُ في أعالي الدّوحِ؟
قلتُ
سأهتدي بروائح الأعشابِ، حتى أبْلَغَ المَرْقَى
ورُبَّتَما انتهيتُ إلى قرارةِ ذلك النورِ...
.....
.....
.....

السماءُ خفيضةٌ
والعشبُ مُلْتَمٌّ على أندائهِ؛
هل كنتُ أهجِسُ نأمةً؟
في مِثْلِ ما تأتي الفُجاءةُ... جاءني الأطفالُ:
ما اسمُكِ، يا بُنَيّةُ؟
ـ سَمِّني بُشرى.
ـ وأختُكِ؟

ـ سَمِّها، يا عَمُّ، فاطمةً.
ـ وتلكَ؟
ـ سُمَيّةً...
ـ والآخرونَ؟ الأُخرياتُ؟
ـ ستعرفُ الأسماءَ، يا عَمُّ...
.....
.....
.....

الثيابُ مهفهفاتٌ
والبناتُ يدُرْنَ، يرقصنَ...
السماءُ خفيضةٌ:
يا عَمُّ، نحن بناتكَ!
انقَضّتْ علينا الطائراتُ...

لندن، ١٣/ ٤/ ٢٠٠٤

الرجل الذي ينظِّف زجاجَ النوافذ

هو يأتي، مرّةً في كل شهرَينِ
ويرقى سُلّماً من خشبٍ أزرقَ حتى منتهى النافذة العليا
وبالخِرقةِ والمحلولِ يجلو غائمَ البلّورِ والمنظرِ؛
هذا الزائرُ النادرُ لا ينظر في وجهكَ إنْ صادفتَهُ،
وهو لا يهمس حتى بصباح الخيرِ...
يأتي هادئاً، غُفْلاً
ويمضي هادئاً،
لكنه يتركُ للصورةِ أن تنصعَ
للمرآةِ أن تلمعَ كالمرآةِ
للمرأةِ أن يبصرها العاشقُ من خلفِ الزجاجِ
.....
.....
.....
اليومَ
كان الكونُ مبتلاًّ
ولكنك لا تبصرُ أمواهَ السماءِ؛
المطرُ الناعمُ في ساحتنا أنعمُ من أن تجتليهِ العينُ.

والزائرُ؟

حقّاً، ترك الزائرُ لي أن أرقبَ العشبَ الذي يضحكُ للماء السماويّ

وأن أستنشقَ الأشجارَ من أغصانها العليا التي تبتلُّ،

أن أستافَ ضوعاً طالعاً من جنّةِ الأعماقِ حيثُ الجذرُ...

والبغتةُ:

هذا قُزَحٌ قد علّقَ القوسَ على باب السماء!

لندن، ٢٠/ ٥/ ٢٠٠٣

الرغْيانُ

قد تعني الأرضُ، لمن يُنْبتُها البقلَ، كثيراً
أمّا نحنُ فإنّ الأرضَ لدينا متطايرةٌ
وهشيمٌ
أخضرُ حيناً، أصفرُ حيناً
ورمادٌ في الريحِ...
صحيحٌ، نحن وُلِدنا في مُرْتبَعٍ ما
في يومٍ ما، لكنا سربُ جرادٍ
والأرضُ كذلك سربُ جرادٍ؛ نبلغُها فتطير...

لكنّا أبصرْنا، اليومَ، قوافلَ فولاذٍ تبحرُ في الرملِ فلا تغرقُ
أبصرْنا في الجوِّ نسورَ حديدٍ وصواعقَ،
قيلَ لنا: الأرضُ لمن يفتحُها...
عجباً!
نحن هنا منذ قرونٍ:
لم نملِكْ
لم نُمْلَكْ.
أحسسنا، اليومَ، بأنّ الأرضَ لها معنى...

لا يملكُ واحدُنا غيرَ عباءتهِ الصوفِ
يُفضفضُها صيفاً
كي يلتفَّ بها، مثلَ الكبشِ، شتاءً؛
ومع السنواتِ
مع الريحِ
مع المطرِ المتبدلِ والمرعى
سوف يكون اللونُ أخفَّ
يكون الصوف أخفَّ
تكون خيوطُ الصوفِ ملائكةً...
إذّاكَ يفارقُ واحدُنا عُمْرَ عباءتهِ، ليموت...

لندن، ١٣/١٢/٢٠٠٣

القطار الإيرلندي

في دَبْلِن
كان قطارُ الليلِ، الحانةَ
حانةَ فيتزجيرالد
وأنت تغمغمُ في إحدى عربات المطعمِ:

ياليلُ، يا صاحبي، راحَ الفتى وارتـاحْ
وامتدَّثوبُ الدُّجى، واسْودّت الأقداحْ
حتيالمجاذيفُ مَلّتْ حيرةَ المَـلاّحْ
يا ليلُ، يا صاحبي... سُـمُّ الأفاعيفاحْ

يا ليلُ، يا صاحبي، راحَ الفتى وارتـاحْ
وامتدَّ ثوبُ الدُّجى، واسوَدّت الأقداحْ
حتى المجاذيفُ ملّتْ حيرةَ المَـلاّحْ
يا ليلُ، يا صاحبي... سُمُّ الأفاعي فاحْ

حانةُ فيتزجيرالد
مَمَرٌّ ضاقَ بأنفاسِ زبائنهِ
ونوافذُ مُصْمَتَةٌ

مثل قطارِ الهندِ،
ولكنكَ
حتى لو كنتَ مسافرَ ليلٍ بقطارِ الهندِ
ستبحثُ عن مأوى
تبحثُ عمّا سيكونُ سؤالاً أو سلوى
تبحثُ عن «سعدي» المُتَلَبِّثِ في الظلمات
تبحثُ عمّا ماتَ
وعمّن مات؛
أأخطأتَ طريقَكَ حينَ بلغتَ أخيراً
إحدى عرباتِ المطعمِ؟
هل كانت دَبْلِنُ في اللوحِ؟
إذاً، أين فُجاءتُها؟
أينَ الدهشةُ في أنْ تلقى ما قُدِّرَ أن تلقى؟
في أن تقرأَ ما في اللوحِ، وأنت اللوح.؟.

ياليلُ، أين الصّفا؟ أين انطفا المأمولْ؟
أرضُ السوادِ انتهتْ للشوكِ والعـاقولْ
كلُّالجيوشِ اقتضتْ منها، وحالَ الحَولْ
ياحسرتي للضميرِ المشتريالمقتـولْ

يا ليلُ، أين الصّفا؟ أين انطفا الـمأمولْ
أرضُ السـوادِ انتهتْ للشوكِ والعاقولْ
كلُّ الجيوشِ اقتضتْ منها، وحالَ الحَولْ

يا حسرتي للضميرِ المشترى المقتـولْ UK troops in Iraq indefinitely, says Straw.The Irish Times 04/01/06

واقعُ الأمرِ أنني لستُ قاريءَ صحفٍ مدمناً؛
لكني كنتُ في طائرة الخطوط الجوية الإيرلندية
عائداً إلى لندن مع صديقتي. هذه الصديقةُ
أطبقتْ جفنيها فجأةً لتعودَ إلى الحانةِ التي
شربتْ فيها الموسيقى، البارحةَ، حتى الفجر.
صحيفة The Irish Times **كانت بين يدَي**
الشخصِ الثالث الذي لا أعرفُه. لا أدري
كيف لمحتُ الخبرَ... وكيف سجّلتُه
على التذكرةِ المستنفَدة. عُذراً!

اسمَعْني الآن!
ألستَ تغمغمُ في آخرِ أيامِ السنةِ؟
ـ الحانةُ تنطلق الليلةَ مثلَ قطارٍ في الهندِ ـ
ابحَثْ في إحدى عرباتِ المطعمِ
عن كرسيٍّ
أو صورةِ كرسيٍّ...
فالليلُ طويلٌ
بل سيكونُ الأطولَ من أنفاسِ مَمَرِّ الحانةِ
إذْ تبحثُ عمّا ماتَ

وعمّن مات...
اسمَعْني الآن...

ياليلُ، يا صاحبي، ما أوحشَ الـوحدةْ!
أطبقتَيا ليلُ، حتى ماتت الـوردةْ
وارتَدَّ مَن كان مجبولاً على الـرِّدَّةْ
لكنّصوتي سيبقى للصـدى، وحْدهْ
يا ليلُ، يا صاحبي، ما أوحشَ الـوحدةْ!
أطبَقْتَ يا ليلُ، حتى ماتت الـوردةْ
وارتَدَّ مَن كان مجبولاً على الـرِّدّةْ
لكنّ صوتي سيبقى للصـدى، وحدهْ

ستدقُّ الساعةُ معلنةً عن ضـوءٍ
في آخِرِ هذا النفقِ المظلمِ...
.....
.....
.....

ايّـانَ تدقُّ الساعةُ؟
أيّـانَ ستأتيكَ ملائكةٌ؟
أيّـانَ ستهدأُ أنفاسُـكَ
بين ملائكةٍ وشـموع...

Dublin - Gogarty's ٢٠٠٦/١/٤

الليلةَ، أُقَلِّدُ بازوليني

لستَ «المتصوِّفَ»...

لستَ «السرياليَّ»

ولستَ النادمَ عمّا أحببتَ:

النخلَ، ورايتَكَ الحمراءَ؛

ولستَ المتوسِّلَ بالصحفِ الصفراءِ

(أ كُلُّ الصحفِ الآنَ تسمِّيها صفراءَ؟)

إذاً... كيف ستمضي في هذي المَذأبةِ الكبرى...؟

مَن سيترجمُ أشعارَكَ عبرَ لغاتِ السوقِ الأوربيّةِ؟

مَن سَيُرَشِّحُكَ، الليلةَ، في المطعمِ، للجائزةِ الألمانيةِ، أو تلكَ الكَرواتيةِ؟

مَن سيُسجِّلُ عنوانَك والهاتفَ والإيميلَ، على قائمةِ المدعوِّينَ إلى كل جهاتِ الأرضِ؟

وأيّ امرأةٍ سوف تُمَسِّدُ خُصلةَ شَعرِكَ، هذا الأشيبِ، من عينٍ في هاتفها النقّالِ؟

ومُؤصدةً، ستكونُ البابُ أمامَكَ

مُؤصَدةً، وحديداً؛ ولَسوفَ يكونُ الظُّهرُ ـ كما كان الليلُ ـ شديداً

يبدو أنكَ تعرفُ هذا من زمنٍ! أ لهذا كانت دعوتُكَ اليومَ إلى الحانةِ؟

أرجوكَ، اسمَعْني! أنا مثلكَ، أرتاحُ إلى البارِ الإيرلنديِّ

ومثلكَ، لا أعرفُ أن أتوقّفَ... مثل قطارات تروتسكي في ثورة أكتوبرَ،

كم قلتُ لكَ: انتبه! الدنيا ما عادت تُقرأُ مثلَ الكَفِّ...

ولكنكَ، ما زلتَ المأخوذَ بما أتوهَّمُ أنكَ لم تَعُدِ المأخوذَ به:

مثلاً، بعراقٍ مركونٍ في زاويةٍ من ميثولوجيا وشيوعيينَ!

إذاً سأصدِّقُ: لستَ المتصوِّفَ

لستَ السّـــرياليَّ

ولستَ النادمَ عمّا أحببتَ:

النخلَ، ورايتَكَ الحمراء...

لندن، ٢٨/ ٥/ ٢٠٠٤

الليلةَ... لن أنتظرَ شيئاً

أنا لن أنتظرَ الليلةَ شيئاً:
هو ذا القطنُ الشتائيُّ يغطي ساحةَ القريةِ
والطيرُ الذي ظلَّ يزورُ الكستناءَ ارتحلَ...
الأشجارُ لا تهتزُّ،
والنافذةُ الوسطى التي تمنحُني إطلالةَ البُرجِ، تغيمُ
.....
.....
.....
الآنَ تأتي عدنٌ بالبحرِ
تأتي عدنٌ بالسَّيسَبانِ الحُرِّ والأسماكِ
تأتي بالأفاويهِ...
وتأتيني بما يجعلُ هذا الكونَ ملتفّاً على جمرتهِ؛
أنظرُ في المرآةِ:
كانَ الشخصُ يدعوني إلى شاطئهِ
مثلَ الغريق...

لندن، ٣١/ ١/ ٢٠٠٤

المتَرَحِّلون

«إلى حسين الهنداوي»

لم نَعُدْ تحتَ نجمِ الرعاةِ القَدامى
لم نَعُدْ تحت نجمِ الرُّعاة
لم نَعُدْ تحتَ نجمٍ
لم نَعُدْ...
نحنُ غِبْنا تماما
مثل ما غابَ عن مريمَ النجمُ بعدَ مآبِ الحواسِّ...
استمَعْنا إلى كل ما في أناشيدِنا
ومَنحْنا النشيدَ الصِّبا،
وانتظرْنا أغانيَ لم تأتِ حتى ولو كذِباً؛
لم يكنْ ذاكَ عدلاً!
.....
.....
.....
أتعرفُ،
كم كنتُ أرقبُ وجهكَ عند الجوازات أمسِ؟
أتعرفُ؟

ما كان «هِيْثْرو»(*) مطاراً،
ولا كنتَ أنتَ المسـافرَ...
كان اللصوصُ يديرون أحلامهم في فراءِ المغارةِ،
أمّا بنو الخائباتِ:
أنا
أنتَ
يا صاحبي، يا حسينُ...
فإنّ لنا، مثلَ أسلافِنا، أن نكونَ ملوكَ الهَباء!

لندن، ١٩/٦/٢٠٠٤

(*) مطار هيثرو London Heathrow Airport

إلى شيخ عشائر الـ...

سيكون الأمرُ ـ كما تعرفُ ـ معروفاً
لا سرّ لديكَ
ولا سرَّ لديّ
الدنيا، الآنَ، غدتْ أضيقَ من جُحْرِ الضّبِّ...
ـ الخيلُ تخِبُّ بعيداً.
والمرأةُ (أعني آخرَ زوجاتكَ) تعرف هذا
والمارّةُ
والمرآةُ
وآلافُ الناسِ على شاشات التلفزيون...
أنا أيضاً أعرفُ هذا
(حتى وأنا في الريفِ بأقصى لندنَ)
أعرفُ أنكَ ملقىً:
وجهُكَ للأرضِ
وجزمةُ جنديٍّ أمريكيٍّ تسحقُ فِقْراتِكَ حتى الأرضِ؛
زمانٌ مختلفٌ؟
لا بأسَ...
إذاً، ألصِقْ إحدى أذنيكَ بأرضكَ!

ألصِقْها كي تسمعَ
ألصِقْها كي تسمعَ، مثلَ الخيلِ، مُغارَ الخيلِ
وألصِقْها كي تسمعَني
(أرجوكَ)
أتسمعُني؟
لا تحزنْ
إحزَنْ
فالخيلُ، الآنَ، تخبُّ بعيداً
وتخبُّ بعيداً
لكنْ أقربَ من نبضكَ...
لا تحزنْ
إحزَنْ
لا تحزنْ!

لندن، ٢٩/١١/٢٠٠٣

مسـاءَ انتهت اللعبـةُ

في صمتِ مساءٍ ما،
آنَ الغابةُ، أيضاً، غائبةٌ في العَتْمةِ...
سوفَ تفارِقُ هذي اللعبةَ
حتى الأبـدِ!
السنواتُ تمرُّ على ألواحِ زجاجِ الشبّاكِ
عقوداً
وعقائدَ
واستحضارَ مَشاهدَ؛
سوف تكونُ سعيداً لحظاتٍ...
سوف تكونُ خفيفاً، محمولاً فوقَ بساطٍ من ريشِ البجعِ الأولِ
سوف تكونُ الطفلَ الأوّلَ
ملتحفاً بالغيمةِ
ملتحقاً بالكونِ
يفارِقُ هذي اللعبةَ حتى الأبـدِ!

لندن، ٩/ ٥/ ٢٠٠٤

أيُّهذا الحنينُ، يا عدوِّي

لي ثلاثون عاماً معكْ
نلتقي مثل لصّينِ في رحلةٍ لم يُلِمّا بكل تفاصيلها؛
عرباتُ القطار
تتناقصُ عبرَ المحطاتِ
والضوءُ يشحبُ،
لكنّ مقعدك الخشبيّ الذي ظلَّ يَشغلُ كلَّ القطارات ما زال محتفظاً بثوابتهِ
بحزوزِ السنين
بالرسوم الطباشيرِ
بالكامرات التي لم يعد أحدٌ يتذكر أسماءَها
بالوجوهِ
وبالشجر النائم الآنَ تحت الترابِ...
استرقْتُ إليك النظرْ
لحظةً
ثم أسرعتُ ألهثُ نحو المقاعدِ في العرباتِ الأخيرةِ،
مبتعداً عنكَ...
.....

.....

.....

قلتُ: الطريقُ طويلٌ؛
وأخرجتُ من كيسيَ الخيشِ خبزاً وقطعةَ جبنٍ...
وإذْ بي أراك
تقاسمني الخبزَ والجبنَ!
كيفَ انتهيتَ إليَّ؟
وكيف انقضضْتَ عليَّ كما يفعلُ الصقرُ؟
فاسمعْ:

أنا لم أقطعْ عشراتِ الآلافِ من الأميالِ
ولم أطَّوَّفْ في عشراتِ البلدانِ
ولم أتعرَّفْ آلافَ الأغصانِ
لكي تسلبني أنتَ... الكنزَ
وتحبسني في زاويةٍ!

فاترك المقعدَ الآنَ، واهبطْ!
قطاري سيسرعُ بي، بعد هذي المحطةِ
فاهبِطْ
ودعنيَ أمضي إلى حيثُ لن يتوقّفَ يوماً قطارْ...

لندن، ١١/١٢/٢٠٠٣

تحت المطر الموحِل

ها نحن أولاءِ نقرفصُ تحت سقيفتنا السعْفِ
قريبينَ من الموقدِ؛
كان دخانُ الورقِ المبتلِّ يبللُ أعينَنا بالدمعِ
ويَحجبُ عنّا المرأى
حتى لكأنّ أصابعَنا بُتِرتْ...
نحن نحسُّ بها
لكنْ نعجزُ عن أن نطْبِقَها أو نفتحَها.
ما أغربَ ما تفعلُهُ العينُ إذا عشِيَتْ!
ما أغربَ ما تفعله أوراقُ التينْ...

ها نحن أولاءِ نراقبُ عند البابِ، الساحةَ
(أعني ساحةَ قريتنا)
نمسحُ عن أعيننا دمعاً وسخاماً
ونحاولُ أن نبصرَ ما يجري...
لكنّ المطرَ الموحلَ كان كثيفاً؛
أكثفَ من لَبِنٍ منقوعٍ منذ سنينَ،
نقولُ: إذاً، ما جدوى أن ننظرَ؟

فلْنطْبِقْ أعيُنَنا دهراً منتظِرينْ

ها نحن أولاءِ، أخيراً، في الساحةِ؛
لا ندري كيف تشجّعْنا أن نتحرّكَ...
لكنّ المطرَ الموحلَ كان كثيفاً وغزيراً
غُصْنا حتى الرُّكَبِ المقرورةِ في الوحلِ
وما زالَ المطرُ الموحلُ يهطلُ...
قلنا: العودةُ أسلمُ،
فلْنتحصّنْ، ثانيةً، بسقيفتنا
ولْنجلسْ حول الموقدِ
نُطعمُهُ، أكثرَ، أكثرَ، أوراقَ التينْ.

لندن، ٨/١٢/٢٠٠٣

تَحَقُّقٌ

قد كنتُ...
يا ما كنت آمُلُ
والخريفُ يلوِّنُ الغاباتِ بالذهبِ
وبالجوزيّ
أو بالقرمزِ المكتومِ...
يا ما كنتُ آمُلُ أن أرى وجه العراقِ ضحىً
وأنْ أُرخي ضفائرَه المياهَ عليّ،
أنْ أُرضي عرائسَ مائهِ بالدمع مِلْحاً
أنْ أُطَوِّفَ في شطوط أبي الخصيبِ، لأسأل الأشجارَ:
هل تعرفْنَ يا أشجارُ أنّى كان قبرُ أبي؟
.....
.....
.....
ويا ما كنتُ آمُلُ!
خَلِّها...
خَلِّ الخريفَ يُتِمُّ دورتَهُ

فأشجارُ العراقِ تظلّ عاريةً
وأشجارُ العراقِ تظلُّ عاليةً
وأشجارُ العراقِ، أنيسُها في السرِّ وجهُ أبي...

لندن، ٢١/ ٥/ ٢٠٠٣

حياةٌ جامدةٌ

تنحني النبتةُ المنزليّةُ تحت الهواءِ الثقيل...
على الطاولةْ
بين منفضةٍ للسجائرِ ملأى وكيسِ دخانٍ
قوائمُ للغاز والكهرباءِ،
السفينةُ تبحرُ في الحائطِ
الطيرُ ينقرُ رأسَ المُغَنِّي (غلاف اسطوانةْ).
غرفتي تتضايقُ مني
تضيقُ...
السفينةُ غابت عن المشهدِ
الليلُ يجلسُ في الركنِ
مُلتَحِفاً بالهواء الثّخين.

لندن، ١/ ٢/ ٢٠٠٤

دمٌ فاسدٌ

دمٌ فاسدٌ

Mauvais sang

قال رامبـــوووووووووو؛
إذاً، كيف جئتَ، تحاسبُني، في الصباحِ المبكِّرِ؟
لم تحترمْ قهوتي المُرّةَ،
الطيرَ في «كستناء الحصانِ»...
ولا غفلَتي،
ـ أنتَ تعرفُ أنيَ أسهو ـ
ولم تبتدرْني، كما يفعلُ الناسُ، ما قلتَ حتى: «صباحكَ خيرٌ...»
وجئتَ تحاسبُني...
لأقُلْ أوّلاً: مَن تكونْ؟
ولأقُلْ ثانياً: هل لكَ الحقُّ في أن تكون جليسي على قهوةِ الصبحِ؟
لا بأسَ
فلْنحترمْ، مثلَ كلِ العبادِ، الحقيقةَ:
نحنُ، هنا، جالسانِ معاً...

OK ?

OK...

هل ستتركُني قبلَ أن تُكملَ الجملةَ المتعثِّرةَ؟
اصبِرْ قليلاً
وأتـمِـمْ...
فما نفْـعُ أن تتزوّدَ من قهوتي المُـرّةِ؟
الصبحُ ليسَ زمانَ الهروبِ
المسدّسُ ليس سلاحَ دفاعٍ...
أَقِـمْ
وارتشِفْ، رائقاً، قهوتي مُرّةً؛
أرهِفِ السمعَ للطيرِ في الوُكُناتِ الرفيعةِ من «كستناء الحصانِ»(*)؛
دمي فاسدٌ
أنتَ تعرفُ هذا...
وتعرفُ أنّ الفسادَ مقيمٌ به، أحمرٌ، كالكُرَيّاتِ حمراءَ
لا تَفْزَعَنَّ!
اطْـمَئِـنَّ...
فليس الذي بيَ مثلَ الذي بكَ...
والثورةُ المستحيلةُ أبعدُ من أن تراك!

لندن، ٢٨/٦/٢٠٠٤

(*) كستناء الحصان Horse Chestnut: شجرٌ ذو عناقيد من الزهر الأبيض في الغالب.

ذَبـذَبــةٌ

لستُ مَعْنِيّاً بما يفعله الساسةُ في المستنقعِ الآنَ...
ليَ الحُلمُ:
وفي مُنفَسَحٍ بالغابةِ
الريحُ تُذَرِّي، بغتةً، شبْهَ رذاذٍ من غبار الطَّلْعِ
شَعري ابْيَضَّ
ثمّ اصفَرَّ، كالهالةِ،
أحسستُ بأني ذو جناحَينِ...
وأحسستُ بأني في دمٍ من فضّةٍ سائلةٍ
(أعني دمي)
سوف أطيـر...

***

لستُ مَعنيّاً بما يفعله الساسةُ في المستنقع الآنَ...
ليَ الحُلمُ:
ومن مرتفِعٍ بالشاطيءِ
الريحُ تُذَرِّي، بغتةً، شبهَ رذاذٍ من أعالي الموجِ
قلتُ «الخيرُ أن يأخذني البحرُ...»
سلاماً، أيها الماءُ الذي يمنحُ روحي في مَهاوِيهِ السلامَ

النورَ والأسماكَ والمُرجانَ
كان الماءُ
مثلي دافئاً
أحسستُ أني أبلغُ الأعماقَ
أحسستُ بأني، فجأةً، سوف أطير...
***
لستُ مَعْنيّاً بما قد كنتُ أعني...
أنا في الحُلمِ:
فتاتي أمسكتْ بي من يدي؛ قالت:
لماذا أنتَ حتى الآن في هذا الرصيفِ؟
العرباتُ ابتعدتْ منذُ سنينَ...
انتبهِ، الساعةَ، ولْنُسرِعْ إلى حانة سِيدُورِي(*)
لِنُسرِعْ
ربما، في لحظةٍ، سوف نطيـــر....

لندن، ٢٦/ ٢/ ٢٠٠٤

(*) سيدوري، هي امرأةُ الحانة، التي ودّعتْ جلجامش ثم استقبلته، في رحلته الخائبة إلى عشبة الخلود.

رائحـة

ليست رائحةً تلك الآتيةُ، الفجرَ، من العشْبِ المنقوعِ بأمطار البارحةِ...

الكفّانِ اصطفتا قفّازَينِ من الضوعِ الممزوج بصمغٍ أخضرَ
والعينُ اليمنى رفّتْ رفّةَ قطرةِ ثلجٍ أولى؛
ليست رائحةً...
ثمّتَ صوتٌ، وتَوَقَّفَ.
صمتٌ، وتَجَلّـى...
وخيوطُ حريرٍ تتماوجُ، دانيةً، من أعلى الشُّرُفاتِ
فهل أحسستَ بهذا الآتي؟
هذا...
هذا المجهولِ، كنبضكَ حين تحبُّ
المعقولِ كإغماضةِ هُدْبٍ
والضائعِ بين هواءٍ تتنفّسُهُ
وهَباءاتٍ في الريحْ؟

لندن، ١٧/ ٣/ ٢٠٠٤

زاويةٌ للنظر

«إلى لـويز وارِن Louise Warren»

أَبصِرْ ما ترسُـمُه أنتَ!
ودقِّقْ في ما ترسـمُهُ...
إنكَ لن تغتفرَ الخطأَ
الخطَّ المتعثِّـرَ
واللونَ الأصليَّ...
وما يتبدّى حول إطارِ اللوحةِ من خَـلَلٍ
(لستَ مَن اختلقَ الخللَ)
المشهدُ كانَ، كما كانَ، وفي أيّ مكانٍ
لكنكَ منذورٌ كي تلعبَ بالأوراقِ
ملايينَ
(أتحسَبُها مَحْضَ ثلاثٍ؟)
ستُغَيِّرُ هذا المشهدَ
كي تبصرَ ما ترسمُه أنتَ
فيغدو ما ترسـمُهُ أنتَ: الحَقّ...

لندن، ٧/ ٥/ ٢٠٠٤

زخّـةٌ ربيعيّـة

عشرات الآلافِ من الألياف المائيةِ
تَعْقدُ سُـلّمَها بين أعالي الشجر المتطاولِ والممشى،
والريحُ مواتيةٌ
والأزهارُ البيضُ تطير مع الريحِ:
سأجمعُ ثلجاً في كفّيَّ
وأدخلُ بيتي كي أنثرَ هذا الثلجَ المنسوجَ
على صمتِ مُلاءاتي
ووسادةِ زاويتي...
لن يتحوّلَ ماءُ الثلجِ دموعاً؛
أنا أعرفُ ـ طبعاً ـ أن الأزهار البيضَ ستذبل بعد قليلٍ
أعرفُ أن الريح ستهدأُ
أنّ الشمس ستُصبحُ شمسَ الصيفِ
وأني سأسافرُ نحو بلادٍ لا أعرفُها...
لكنْ، ما شأني والعالَمَ؟
تكفيني اللحظةُ
بيضاءُ هي اللحظةُ
بيضاء...

لندن، ٣٠/ ٤/ ٢٠٠٣

سـامرّاء

«أرى العراقَ طويلَ الليلِ، مُذْ...»
مطرٌ على النوافذِ
والأشجارُ هابطةٌ، والغيمَ
كان المساءُ الجَهْمُ يدخلُ في لوحِ السلالمِ مقروراً
ويدخلُ في أناملي؛
كيف لاحتْ، بغتةً، وبلا معنىً، مَدارجُ سامرّاءَ؟
كيف نمتْ مَلْويّةٌ في يدي؟
كيف صار البئرُ مرتشَفي في اللحظةِ الصِّفْرِ؟
أمواهٌ مُعَجَّلةٌ كالخيلِ
تتبعُ سِحرَ البحتريّ...
تقولُ: سامرّاءُ
سـامرّاءُ
حمحمة وبلوى؛
يا بساطاً من مهفّاتٍ وخِضْرِمَةٍ
ويا درباً إلى المهديّ...
يا بلدي
سلاماً!

لندن، ٢/١٢/٢٠٠٣

صلاةُ الوثنِيّ

«إلى عبد الرحمن منيف»

يا رَبَّ النهرِ، لكَ الحمدُ:
امْنَحْني نِعْمةَ أن أدخلَ في الماءِ...
لقد جفَّ دمي
ونشِفتُ؛ قميصي رملٌ، وشفاهي خشبٌ
حتى حُلمي صار طوافاً في مَذأبةٍ صفراءَ...
امنَحْني، ياربَّ النهرِ
كِساءَ النهرِ،
لكَ الشكرُ
لكَ الحمدُ
فمَنْ لي غيرُكَ، يا عارفَ سِرِّ الماءْ؟
.....
.....
.....

يا ربَّ الطيرِ، لكَ الحمدُ:
امنَحْني أنْ أتَقرّى بين يديكَ جناحَ الطيرِ
امنحْني نِعمةَ أن أعرفَ نبضَ قوادمِهِ وخوافيهِ

وأنْ أدخلَ فيهِ...
لقد أُوثِقْتُ، سنينَ، إلى هذي الصخرةِ، يا ربَّ الطيرِ:
أدِبُّ دبيباً
وأرى كلَّ خلائقِكَ ارتفعتْ نحوَكَ تحملُها أجنحةٌ
إلاّيَ...
امنَحْني، يا ربَّ الطيرِ، جناحينِ!
لكَ الشّكر...
.....
.....
.....
يا ربَّ النخلِ، لكَ الحمدُ:

امنَحْني، يا ربَّ النخلِ، رضاكَ، وعفوَكَ:
إني أُبصِرُ حولي قاماتٍ تتقاصَرُ
أُبصرُ حولي أمْطاءً(*) تَحدودِبُ،
أُبصرُ من كانوا يمشونَ على قدمينِ انقلبوا حيّاتٍ تسعى...
يا ربَّ النخلِ، رضاكَ وعفوَكَ
لا تتركْني في هذي المحنةِ
أرجوكَ!
امنَحْني، يا ربَّ النخلةِ
قامةَ نخلةْ...

لندن، ٢٦/ ١/ ٢٠٠٤

(*) أمطاء: جمعُ مَطا، وهو الظَّهر.

صـوتُ البحـرِ

يا صوتَ البحرِ الخافتَ
يا وشوشةً، وهسيساً، وحشائشَ فيروزاً
وأغانيَ بَحّارٍ أعمى
يا آخرَ آهاتِ الحُمّى
يا بوّابةَ بُرْدِيٍّ
وحصيراً من سعفٍ ضفرتْهُ يدا طفلٍ في الليلِ
ويا ريشاً وسلاحفَ
يا مبتدأَ الرِّحلةِ من قرطِ امرأةٍ
يا أرَجاً يلمعُ في أشجارٍ دائمةِ الخضرةِ، شرقيَّ الصين
ويا صوتي المتعَبَ
يا صوتَ البحرِ الخافتَ:
هل أخطأَنا التكوينُ، لننتظرَ التكوين؟
.....
.....
.....
يا صوتَ البحرِ الهاديءَ
يا صوتاً أسمعُهُ يتسللُ من قصب الكوخِ

سلالاً ملأى بالسمكِ المتواثبِ والأعشابِ...
وأسمعُهُ صلْداً، وجهيراً، كالقيظِ المتدلِّي من سقفِ الأعنابِ
أقولُ:
لماذا صرتَ المسموعَ؟
تُرى، هل ضقتَ بشكلِ القوقعةِ؟
البحرُ محيطٌ...
لكنّ الصوتَ من القوقعةِ ارتدَّ إلى القوقعةِ!
الآنَ سنبحثُ عن أرضٍ أخرى
عن صوتٍ أعلى
يا صوتَ البحرِ الهاديءْ...
.....
.....
.....
يا صوتَ البحرِ الحاضر
يا صوتَ البحرِ الهادر
يا المُصّاعِدَ من وديانِ الأعماقِ
إلى تيجانِ الآفاقِ
ويا صوتَ البحرِ الهادرَ
خَلِّ القمصانَ تطيرُ مع الريحِ
القبضاتِ المضمومةَ والراياتِ تطيرُ مع الريحِ
وخَلِّ ضفائرَ مَن أحببناهنّ، ومَنْ أحببنَ، تطيرُ مع الريحِ
تطيرُ مع الصوتِ الهادرِ

أعلى من هذي الدنيا
أعلى حتى من مَأتى الرؤيا
يا صوتَ البحرِ الهادر!

لندن، ٢٤/٨/٢٠٠٣

طبيعةٌ غيرُ ميِّتةٍ

يمُرُّ «أبو الخصيبِ»
كما يمُرُّ الضَّبابُ، الصبحَ، أزرقَ
كان جسرٌ من الأخشابِ ينضحُ بالرطوبةِ...
كانَ نخلٌ
ولبلابٌ
وكانت في السماءِ نعومةُ النُّعمى؛
سأسألُ عنكَ ياولدي
إذا ما غامت الأشياءُ،
أسألُ عنكَ
أسألُ عنكَ...
لكني أراكَ الآنَ:
يوماً بعدَ يومٍ، ليلةً في إثْرِ أخرى
فانتظِرْني، يا بُنَيَّ،
سنلتقي، حيثُ الضَّبابُ، الصبحَ، أزرق...

لندن، ١/ ٢/ ٢٠٠٤

عراقيّون أحـرارٌ

لن نرفعَ أيدِينا في الساحةِ
حتى لو كانت أيدِينا لا تحملُ أسلحةً
نحن سلالةُ أفعى الماءِ الأولِ
نحن سلالةُ مَن عبدوا ثيراناً تحملُ أجنحةً
وسُلالةُ مَن عبدوا نيراناً في قُنَنِ الثلجِ،
ولم نرفعْ أيدينا إلاّ للأحَدِ الواحدِ
حينَ وهبْناهُ نُبُوَّتَنا...
نحن سلالةُ مَنْ رفضوا عرباتِ الرومانِ فما انقرَضوا.
لن نرفعَ أيدِينا في الساحةِ
لن نرفعَ أيدِينا في الساحةِ
لن نرفعَ أيدِينا...

لندن، ١٥/ ٤/ ٢٠٠٤

عطلة المصارف ٣١/٥/٢٠٠٤

قلتُ: لن أكتبَ حرفاً واحداً هذا الصباحَ...
اليومَ عيدُ المَصرفيّينَ
فلا حافلةٌ تأتي
ولا مصطبةٌ يحتلُّها سكرانُ؛
والناسُ ينامونَ إلى أن يظهرَ الحقُّ.
البريدُ المَلَكيُّ انصاعَ أيضاً لسياط المصرفيّينَ.
يَمامُ الدغْلِ لم يدخلْ إلى بستاننا يلتقطُ الديدانَ والحَبَّ.
ومَن كانت ستأتي أخلفَتْ موعدَها (الهاتفُ يكفي!)
لستُ أدري كيف لا أنتحرُ!
العالَمُ قد أغلقَهُ البنكُ
وتحكي أنتَ عن فُحْشِ بروليتاريا
ومتراسٍ شيوعيٍّ ببرلينَ
وقَرنٍ سالفٍ!
ما أعجبَ الدنيا...
كأني كنتُ مسؤولاً عن الثورةِ...
لا بأسَ، إذاً؛
كم قلتُ: لن أكتبَ حرفاً واحداً هذا الصباحْ!

لندن، ٣١/ ٥/ ٢٠٠٤

غارةٌ جويّة

في الضاحية القصوى، حيث أُقيمُ بعيداً عن رئةِ الضَّبُع، اهتَزّتْ أشجارُ الدّغْلِ وئيداً. أسرعَ طيرٌ يعبرُ نافذةَ المطبخِ. قررتُ الليلَةَ أن أتركَ تدخيني. لكني (شأنَ قراراتي الأخرى) سوف أدخِّنُ حتماً. أشجارُ الدّغْلِ تَطَوَّحُ أوراقاً وأماليدَ. البرقُ (أراهُ الآنَ لمَرّتهِ الأولى) هل كانَ حقيقةَ بَرقٍ؟ لكنّ الرعدَ أتى. الريحُ تسوقُ غيوماً سوداً، وحبالاً من ماءٍ، وروائحَ ليستْ من هذي الأرضِ. أهرولُ، أهبِطُ درْجاتِ السُّلَّم، ملدوغاً، كي أفتحَ بابي للريحِ وللمطرِ... الساحةُ (أعني موقفَ سياراتِ الضّيعةِ) تلمعُ تحتَ سماءٍ مثقلةٍ بالنُّعمى. أهتزُّ أنا، وحدي،

للرعدِ...

وأختَضُّ

وأختَضُّ

وأختَضُّ

.....

.....

.....

وفي وطني الآنَ، الرعدُ:

الطيَرانُ الأميريكيُّ

وبالحاويةِ العنقوديةِ (كنّا شاهدناها في بيروتَ زماناً)

ينقَضُّ على الكوفةِ
والفلّوجةِ
والنجفِ...
الطّيَرانُ الأميريكيُّ
الليلةَ ينقَضُّ عليَّ الآنَ...

لندن، ٢٧/ ٤/ ٢٠٠٤

فَراشاتُ الأنْـدِيز

أنا منتظِرٌ ما يمحوهُ الليلُ:
اختفتِ الزُّرقةُ منذ الآن
ولستُ أرى إلاّ طيراً، مَسْكنُهُ، أبداً، سقفي القرميدُ...
سأوقِدُ قنديلاً
وأحاولُ أن أفتحَ لي مُنْفَسَحاً في مُلْتحَمِ السُّبُلِ ـ
القُنّةُ بيضاءُ
الشجرُ الأحمرُ (عُثْنونُ الشيخِ) على منحَدَرِ السّفْحِ
وكأسي كوبا الحُرّةُ...
Cuba Libre(*)
بضعُ قُطَيراتٍ من مطرٍ صيفيٍّ لم يهطلْ بَعدُ تباغتُ أهدابي
افتَحُ جَفنَيَّ على سَعةِ العالَمِ:
ثَمَّ فراشاتٌ سودٌ
هائلةٌ
مثلَ طيورِ الدّغْلِ
ترفرفُ عبرَ فضاءِ الفندقِ نحوَ السّفْحِ...

.....

.....

.....

البيتُ الريفيُّ
هنا في الضاحيةِ البيضاءِ تماماً
يفقدُ كلَّ خرائطهِ
ويهيـــم...

لندن، ١٥/٦/٢٠٠٤

(*) كوبا الحرّة: كوكتيل من الروم والكوكاكولا والليمون الأخضر والعسل مع الثلج.

فنُّ الشِّـعر

وتقولُ لي:
«عيناي واسعتانِ
تدخلُ فيهما الأشياءُ كي تمسي إذا حلَّ المساءُ شـريطَ ألوانٍ»،
أقولُ: «إذاً، أرقّةُ هُدبكِ الزرُّ الذي يصلُ الشجيرةَ بالتصوّرِ؟
هل إذا أغمضتِ جفنَكِ
سوف ينفتحُ التّفَكُّرُ؟
أمْ هما العينانِ واسعتانِ دوماً؟...»
.....
.....
.....
يا فتاةً حرّةً
إني أجرِّبُ ما تقولينَ...
الضَّبابُ يشوِّشُ المرآةَ
لا الأشجارُ تبدو في البعيدِ كما هي الأشجارُ نعرفها
ولا تلك البنايةُ؛
إن لي عينينِ واسعتينِ أيضاً...
غير أن الزرَّ مفقودٌ، هنا، في اللحظةِ الصمّاءِ هذي.

.....

.....

.....

يا فتاةً حرةً
مَن لي بعينيكِ؟
التفكُّرُ سوف يدخلُ
سوف يقتلني؛

وداعاً...

لندن، ١٠/١٢/٢٠٠٣

كانون أوّل

لن أفتحَ نافذتي...
الريحُ البحريةُ تُغرِقُ حتى سيقانَ العشبِ،
وتهتزُّ الأشجارُ معَ المطرِ؛
الغرفةُ ساكنةٌ (مزدوجٌ كلُّ زجاجِ المنزلِ)
أسمعُ دقّاتِ الساعةِ:
تكْ
تكْ تكْ تكْ تكْ
أسمعُ في البُعدِ مُوَيجاتِ البُرْكةِ،
في القُرْبِ، مويجاتِ أناملَ...
هل عادتْ، بعدَ سِفارٍ، مَن أحببتُ؟
أَم اللوحةُ تنتظرُ؟
الأزهارُ الصُّفْرُ مبكِّرةٌ جدّاً عندَ مَمَرِّ البيتِ
و لا زائرَ يطرقُ بابي...
حتى الطيرُ تَدَبَّرَ مُلتَجَأً؛
لكنّا، أنا والسنجاب، نحاولُ أن نمسكَ شيئاً!

لندن، ٢٠/١٢/٢٠٠٣

مسْكن البحيرة

تتناوحُ الريحُ التي تأتي من البحرِ،
المساءُ يقيمُ
والزانُ المرنَّحُ في البعيد يغيْمُ...
حتى الخيلُ لن تجدَ الصباحَ على المروجِ
كأنّ شميمَ ثلجٍ في الهواءِ؛
كأنما نبتتْ على الريحِ الأصابعُ...
أيَّ بابٍ سوف أفتحُ؟
أيَّ نافذةٍ...
وايَّ الطيرِ أُطْلِقُ في مهبِّ الريحِ
أُطْلِقُهُ
لأسكنَ في الفضاء؟

لندن، ٢١/١٢/٢٠٠٣

شـاطيءٌ مهجورٌ

قاربٌ، ثلُثاهُ على اليابسةْ
ظلَّ ينضحُ،
والبحرُ منكمشٌ
لائذٌ بكثافتهِ من حبالِ المطرْ...
قاربٌ لن يقومَ، ليبدأَ عند السَّحَرْ
رِحلةَ الصيدِ
مثلي...

لندن، ٢١/١٢/٢٠٠٣

لا جُناحَ عليكَ

مثلَ ما يحْدُثُ الأمرُ دوماً، ضُحى الأحدِ:
النوم في العسلِ
الكسل
الوشوشات
وتلك الفتاة التي تتلذّذُ أنْ تتوسّلَ بالأمرِ، من دُبُرٍ...
سوف يحْدثُ هذا؛
نَعَمْ
(لا جُناحَ عليكَ)
الحديقةُ لن تتغَيَّرَ...
لن يسقطَ الطيرُ عن «كستناءِ الحصانِ»(*)
ولن تُخرجَ الأرضُ أثقالَها؛
(لا جُناحَ عليكَ)
اطْمَئِنَّ:
إن انكسرتْ جَرّةٌ، فالجِرارُ التي سوف تؤتَى كثار...

لندن، ٢٣/ ٥/ ٢٠٠٤

(*) كستناء الحصان Horse chestnut: شجرٌ ذو زهرٍ ربيعيٍّ مُعَنْقَدٍ، أبيض في الغالب.

لُزومُ ما لا يَلْزَم

ساعِدْني، يا ربَّ الفَلَواتِ، على نفسي
ساءَ الماءُ فلا أشربُهُ،
ساءَ هواءُ الحانِ فلا أتنفّسُهُ
سافرتُ، ولكنْ كي أدخلَ في الليلِ على داري...

عَمَّ أُسائِلُ؟
عن أيِّ زهورٍ تحتَ الثلجِ سأبحثُ، أو تحتَ الرملِ؟
عناويني انتثرتْ في الريحِ، وصرتُ أخافُ
على نفسي... صرتُ أخاف!

داري نائيةٌ عن داري
دِرعي يتدرّعُ خوفاً من دِرعي
دارَ الكونُ على مَن صَدّقَ دورتَهُ...
دعْني أُطْبِقْ فُوَّهةَ البئر، إذاً، دَعني!

ياما كان الإغفاءُ على عشبِ النهرِ جميلاً
يا ما كانت أوراقُ رسائِلِنا حمراء!

يُداعبُ شَعري الآنَ نسيمٌ...
يَضْفِرُ لي باقةَ زهرٍ صفراءَ، ويَهربُ منِّي.

لندن، ١٧/ ١/ ٢٠٠٤

لو كان الصبحُ جميلاً

لو كان الصبح جميلاً، مثلَ حذاءِ الـ Marks & Spencer
أو مثلَ قميصكِ ليلةَ أمسِ الأوّلِ
لو كان الصبحُ جميلاً...
لمضيتُ عميقاً في ممشى الغابةِ
أبحثُ في الورقِ المُسّاقِطِ عن أزهارٍ نادرةٍ وبُحيراتٍ وعرائسِ ماءٍ، وأيائلَ...
(يسخرُ مني جاك كيرواك حتماً!)
لكني سأُكرِّرُ:
لو كان الصبحُ جميلاً...
.....
.....
.....
ما أيسرَ ما تطلبه من هذا العالَـم!
ما أصعبَ ما تطلبه من هذا العالَـمْ!

لندن، ٢٥/ ٢/ ٢٠٠٤

مستعمَرةٌ رومانيّةٌ

كنّا يونانيينَ، منازلُنا عند تخومِ الصحراءِ العربيةِ؛
لكنّ لنا نهرينِ
وبضعَ قرىً، ومزارعَ نسقيها من أمواهِ النهرَينِ...
وكان لنا أيضاً شعراءُ يُقِيمونَ الأوزانَ
ويحكون عن المرأةِ
والأزهارِ،
وفي قِنّسْرِينَ بنينا مدرسةً للفلسفةِ
(الأمرُ الأغربُ أنّ تلاميذَ أرسطو يأتون إلينا أحياناً
ليقولوا شيئاً عن آخِرِ مخطوطات أثينا)
لكنّا يونانيونَ وفلاّحونَ
فلم نصنع أسلحةً
لم نعرف كيف نُعِدُّ الفتيانَ جنوداً
(ما قال تلاميذُ أرسطو إن مُعلِّمهم كان يدرِّبُ ابنَ فيليب المقَدونيّ على غزو المدنِ!)
الدنيا تتغيّرُ
قالوا
حتى الشمسُ ستشرقُ من جهة الغربِ...

.....

.....

.....

أنا أهذي الآنَ، وحيداً، في حانة كِرياكوسَ بـ «صَيدا»
كوبُ نبيذي الفخّارُ اسْوَدَّ
وشَعري ابْيَضَّ...
ولا أعرفُ مَن أُخبرُهُ ـ حتى سِرّاً ـ أنّ الرومان نفَوني
حين غدَونا مستعمرةً؛
لكني لا أستبعدُ أن يعرفَ كرياكوسُ الأمرَ.
الدنيا تتغيّرُ
قالوا...

لندن، ٧/ ٣/ ٢٠٠٤

مَشارفُ الرُّبْعِ الخالي

«إلى عبد الله الحارثي ومحمد الحارثي»

قد ترى البدويّاتِ يمشِينَ، مَرَّ السحابةِ (من أينَ جاءَ السحابُ إلى الشاعرِ؟)

البدوياتُ يمشينَ، بين البيوت التي قد أُقِيمتْ على عجلٍ، والخيامِ المُهلهَلةِ،

الشمسُ قاسيةٌ، والكلابُ الهزيلةُ قد فارقَتْها خِصالُ الكلابِ التي لن نرى.

حَجَرٌ واحدٌ في مَهَبِّ الرمالِ. تُرى... أهوَ النيزكُ؟

الأرضُ كانت هنا، ربما قبل أن يعرفَ المَرْءُ لونَ السماءِ. السماءُ هيَ

الرملُ، والأرضُ ـ من قبلِ أن نعرفَ الأرضَ ـ رملٌ. مَضَينا (أمامَ القوافلِ)،

لا نهتدي بالزمانِ، ولكن بساعةِ رملٍ ونجمٍ... فهل سقطَ النجمُ؟ هل صار نيزكَنا

الماثلَ الآنَ بين البيوت التي قد أُقيمتْ على عجلٍ والخيامِ؟ عظامُ الجِمالِ التي قد ركبْنا،

الجِمالِ التي قد أكلْنا، غدتْ منذ أن بدأَ الكونُ رملاً... خرائطُنا تَمَّحي في
عروقٍ تَمَوَّجُ صفراءَ، مُذْهَبةً، وجبالٍ شياطينَ. لكننا سوف نعبدُ هذي
الحماقةَ: نمضي لنلمُسَها، أو نموتَ على خطوةٍ حسْبُ منها. ولن نتأسّى
لأنّ الرميمَ اختفى كعظامِ الجِمالِ. السحائبُ مرّتْ بنا حينَ كنا نفارِقُ أنفاسَنا تحتَ
شمسِ الإلهِ العجيبِ. فهل سمعَ الشاعرُ الحُلمَ؟ هل أبصرَ الشاعرُ الهلوساتِ الأخيرةَ
للسائرين إلى حتفهم؟ مَن تُرى أَبَرَ النخلَ؟ مَنْ أمَرَ النخلَ أن يتسامقَ

أعلى من الرملِ؟ أعلى من القولِ؟
كم قيلَ نحنُ البُداةُ...
وكم قيلَ، نحن، هنا، البائدون...
.....
.....
.....
فإنْ كان ما قيلَ حقّاً
فمَنْ ابَرَ النخلَ؟
مَن ابصرَ البدويّاتِ يمشِينَ مَرَّ السحابةِ؟
مَن أطلَقَ الأغنيةْ؟

لندن، ٢٠/ ٤/ ٢٠٠٤

مُعذَّبو السماء

عراةً
سنمضي إلى اللهِ
أكفانُنا دمُنا،
ونيوبُ الكلابِ التي استذأبتْ هي كافورُنا...

الزنزانة التي كانت مغلقةً، كهربائياً، انفتحتْ فجأةً، لتجيءَ المُجنّدةُ.
عيوننا المتورِّمةُ لم تتبيّنها واضحةً. ربما لأنها من عالمٍ غامضٍ. لم تقل المجنّدةُ
شيئاً. كانت تسحبُ وراءها، مثل حصيرٍ مهتريءٍ، الجسدَ المدمّى لشقيقي.

وحفاةً
سنمشي إلى اللهِ
أقدامُنا أنتنتْ بالقروحِ
وأطرافُنا أُثخِنَتْ بالجروحِ

هل الأميركيون مسيحيون؟ ليس لدينا في الزنزانة ما نمسحُ به الجسدَ المسجى.

ليس في الزنزانة إلاّ دمُنا المتخثِّر في دمنا، وهذه الرائحة الآتية من قارة المسالخ.

لن تدخلَ الملائكةُ هنا. الهواءُ يضطربُ. إنها أجنحةُ خفافيشِ الجحيم. الهواءُ هامدٌ.

انتظرناكَ، يا رَبُّ...
كانت زنازينُنا أمسِ مفتوحةً
ـ نحن كنّا على أرضها هامدينَ ـ
ولم تأتِ يا ربُّ...

لكننا في الطريق إليك. سنعرفُ السبيلَ إليكَ حتى لو خذلتَنا. نحن أبناؤكَ الموتى

أعْلَنّا قيامتنا. قُلْ لأنبيائكَ أن يفتحوا لنا الأبوابَ، أبوابَ الزنازينِ والفراديسِ.

قُلْ لهم إننا آتون. صعيداً طيِّباً تيَمَّمْنا. الملائكةُ تعرفنا واحداً واحداً...

لندن، ١٠/ ٥/ ٢٠٠٤

مُفاعَلَتُنْ مفاعلتُنْ فَعولُ

لماذا الكستناءُ تظلُّ مثلَ النساءِ الجالساتِ على رصيفٍ؟
هو العُمْرُ
الذي وهَبَ ارتفاعَ الأغاني، ثمَّ أوشكَ...
أيُّ معنىً سأسألُهُ؟
كأنّ يداً تهاوتْ على شفتي
وقالتْ: أيّ معنىً؟

وفي حانات لندنَ، كان شخصٌ يتابعُ خطوتي؛
وأنا بريءٌ:
أقولُ لأيِّما سببٍ أراهُ وراءَ خُطايَ؟
لم أعرفْهُ يوماً
ولم ألْمَحهُ في بارٍ قديماً...
إذاً، سأخافُ؛
إنّ الخوفَ مثل الحياةِ
أردتُ: مثل الموتِ حقٌّ.

وأخرجُ (من وراء البارِ)...

أمضي
لأجلسَ، دونَ مصطبةٍ، وأُلْقي على النهرِ
الذي جمعَ الغروبَ المشعشعَ نظرةً...
ما كنتُ وحدي
بمرآةِ المياهِ...
.....
.....
.....
أكنتُ وحدي؟

لندن، ١١/٩/٢٠٠٣

من هواجسِ رجُلٍ، سنة ٢٠٠٠ ق.م

هبطَ الليلُ، سريعاً هذا اليومَ، لأنّ الفصلَ تبدّلَ، قالوا...
(يعرفُ هذا، الكاهنُ)
لكني لا أعرفُ ماذا يعني هذا...
لن تختلفَ الأشياءُ كثيراً:
طسْتُ الخبزِ السائلِ في الحانةِ،
والعسسُ الليليّ بأوّلِ منعطَفٍ بعد الحانةِ
والبنتُ
ستُدخلُني مخدعَها حينَ تُلَوِّحُ بالقنديلِ الزّيتِ من الكُوّةِ...
لم اقصدْ أن أتحدّثَ عمّا لم يختلف اليومَ عن الأمسِ،
فأرجو أن تعذرني
كنتُ أحاولُ أن أسألَ، سِرّاً... (أنتَ صديقي):
الشعراءُ، لماذا صمتوا؟
وإلى أين التفتوا؟
ما عدتُ أراهم في الحانةِ يرتجلونَ ويصطخبونَ...
صحيحٌ أنّ غزاةً دخلوا سومرَ؛
أن المعبدَ يَستبدلُ بالتمثالِ تماثيلَ،
وأنّ بيوتَ الكُتّابِ أتاها كُتّابٌ جُدُدٌ...

وإلخ...
لكنْ، أينَ الشعراءُ؟
يقالُ (ولستُ أُصَدِّقُ) إن كثيراً منهم يرتجلون الآنَ
قصائدَ في مدحِ التّجّارِ الأشرارِ
وضُبّاطِ الحاميةِ الأكديّةِ...
(إنّ الليلَ عجيبٌ!)
عذراً...
قنديلُ الزيتِ يُلَوِّحُ في الكوّةِ،
عذراً...

لندن، ٢٩/ ٤/ ٢٠٠٤

منتظِراً الثلجَ الأوّل

هدأتْ، كالروحِ، الريحُ
وهذا الشجرُ العاري
هذا الشجرُ العالي
هذا الشجرُ الماثلُ صارَ تماثيلَ لأشجارٍ في اللوحةِ
(أعني في ما أطّرَ نافذةَ المطبخِ)
لا غصنَ يرفُّ
ولا طيرَ يهِفُّ
ولا مَن أحببتُ ستأتيني الليلةَ...
(يا ما بكّرتُ لأركضَ شوطاً عند الدانوبِ
وكان الثلجُ يعلِّقُ أزهاراً بيضاً وعناقيدَ على كل صنوبرةٍ)
ما أثقلَ ما ننسى!
ما أجملَ مانتذكّرُ!
أعتمت الساحةُ إلاّ من مصباحٍ
لكنّ قناديلَ بيوتٍ تبزغُ في الماءِ بعيداً...
وهنالكَ
آنَ اللحظةُ لا تدخلُ في اللحظةِ
سوف يجيءُ الثلج...

لندن، ٢٢/١٢/٢٠٠٣

هذا المساءَ سأكونُ سعيداً

شمسُ الضحى تملأُ العشبَ الفتيَّ، وفي القواربِ اصّاعَدَتْ
تلكَ الوشائعُ أشتاتاً
وأبخرةً من المواقدِ؛
كان الكونُ يغسلُ بالشمسِ الرطوبةَ...
أيّاماً تَهَدّدَنا ثلجٌ
وأغرقَ أعشابَ الحديقةِ غيثٌ سابغٌ.
رئتي نقيّةٌ،
ودخانُ الموقدِ احتفلتْ به الرياحُ
وأكوابي مهيّأةٌ
مع النبيذِ المُصَفّى المُصطفى...
وعلى زجاجِ نافذتي
بُقْيا ندىً؛
أيُّ نُعْمى حينَ تَطْرقُ بابَ البيتِ
أغنيةٌ مع المساءِ؟

.....

.....

.....

أهذي ليلتي العَجَبُ؟

لندن، ٩/ ١/ ٢٠٠٤

منتظراً الزوبعةَ المطرَ

في الأغصان العليا
من اربعِ أشجارٍ أعلى من سقف بنايتنا (أعني مبنىً كان يقابلني حتى هذي اللحظةِ)
كان البُنِّيُّ
جوارَ الأخضرِ...
أحسستُ بأنّ اللونَ البُنِّيَّ تحرّكَ
أنّ نقيعاً من أزرقَ، شِبْهَ رماديٍّ، يدخلُ في البُنِّيِّ،
وأحسستُ بأني سأموتُ (إذا ما مُتُّ) على شاطيء بحرٍ؛
أحسستُ بأني سأموتُ سعيداً...

لندن، ٦/٩/٢٠٠٣

قطراتٌ أولى

تلك القطراتُ الأولى تختبيءُ الآنَ
ولكنْ، أينَ؟
تُرى، أهيَ بذيلِ الغيمةِ؟
أو تحتَ وُريقاتِ البلّوطِ؟
وهل ستقولُ: سلاماً؛ إنْ نزلتْ في عينيَّ مباغِتةً؟
أنا في ركن الساحةِ، منتظِرٌ...
فلَئِنْ جئنَ فأهلاً!
ولَئِنْ غِبْن فأهلاً!
يكفيني أني في الساحةِ أنتظرُ القطَرات...

لندن، ٨/ ٩/ ٢٠٠٣

السنجاب

شرَعَ السنجابُ يخَبِّيءُ تحتَ الأرضِ مؤونتَهُ
مقترباً حتى من بابي؛
ما أجملَ هذي الدنيا قبلَ المطرِ!
السنجابُ يمُرُّ على السنجابِ...

لندن، ٨/٩/٢٠٠٣

حفيد امرىء القيس

يـومُ جُـمعـةٍ رَطبٌ

قرميدٌ خَضِـلٌ
يُدخِلُ في عينَيَّ برودتَهُ المعجونةَ بالبُنِّيِّ؛
القرميدُ سيدخلُ في اللوحةِ
والشّـجرُ
العصفورُ الغائبُ أيضاً
ومحفّةُ مَرْكبةِ الإسعافِ
وفانوسٌ من أشعارٍ كُتِبَتْ في منتصف القَرنِ الماضي...
لَكأنَّ الساحةَ بالونُ زجاجٍ مملوءٌ بالماءِ
وبالريشِ الأبيضِ،
بالونُ زجاجٍ سَيطيرُ قريباً
ويُخَلِّفُني
بمواجَهَةِ القرميدِ
وبَرْدِ اللونِ البُنِّيِّ
وفانوسِ الأشعارِ المكتوبةِ منتصَفَ القرنِ الماضي.

لندن، ٢٠/ ٥/ ٢٠٠٥

ابنُ عائلةٍ ليبيٌّ مقيمٌ في روما

قالوا لي: كيف تقيمُ هنا؟
تترك بيتكَ عند طرابُلُسٍ، وحقولَ الزيتونِ، ومقبرةَ الأجدادِ،
وتسكنُ في حيٍّ من أحياءِ الفقراءِ بروما؟
قالوا لي أيضاً: إني الأكبرُ سِنّاً في العائلةِ...
أعرفُ هذا،
أعرفُ أني أسكنُ في عاصمة القيصرِ
أن جنود الحاميةِ الرومانيةِ في أرباضِ طرابُلُسٍ
يَجْبونَ ضرائبَ فادحةً،
ويحبّونَ الغلمانَ الليبيينَ
ويغتصبون نساءً أحياناً...
أعرفُ هذا؛
لكنْ... إنْ كانت ليبيا مستعمَرةً للرومانِ
فهل أفضلُ لي أن أسكنَ في مستعمرةٍ؟
أن أسكنَ داخلَ ما سَمّاه الرومانُ بلادَ برابرةٍ؟
أنا في حيٍّ من أحياءِ الفقراءِ بروما... حقّاً
لكنّ العسسَ الليليّ هنا لا يزجرني
لا يسألني

لا يأمرني أن أخلع أثوابي ليفتشني...
والأمرُ بسيطٌ جداً، جداً، جداً؛
فالعسسُ الليليّ هو العسسُ الليليُّ لعاصمةِ القيصرِ
لا للمستعمرةِ...

.....

.....

.....

الآنَ
سأفتحُ نافذةً كي يدخلَ ضوعُ صنوبرةٍ بعد المطرِ؛

.....

.....

.....

ابتعدتْ عني رائحةُ البارود.

لندن، ٢٢/٨/٢٠٠٤

عدَن ١٩٨٦... إلخ

كانت رائحة البارودِ وأدخنةُ البارودِ تَصاعَدُ تحتَ سماواتٍ هابطةٍ
وتَنَزَّلُ في الرئتينِ،
وكانت عدنٌ تدخل في أزمانِ الغِربانِ الأولى
مَعْبدَ بارْسِيِّينَ
وبُرْجاً للصمتِ...
وشارعَ ذبْحٍ لقرامطةٍ وشيوعيّينَ.
وفي ساحة فندق نوفوتيل (بَناهُ فرنسيّونَ ولبنانيّون) على الشاطيءِ
كان القتلى
ينتظرون مناقيرَ الطيرِ
لتأخذهم نحو سماواتٍ غامضةٍ؛
نحفرُ في الرملِ
ولا ماءَ،
ونحرثُ في البحرِ
فلا أسماءَ...
لقد كنا فقراءَ، وما زلنا الفقراءَ
ولكنّا آمَنّا يوماً بقرىً نرفعُ فيها مَلَكوتَ حُفاةٍ وشُراةٍ
ونُعِيدُ النجمَ إلى التربةِ

والإسـمَ إلى الأشياء...

.....

.....

.....

تعالتْ عدنٌ

وتهاوتْ عدنٌ

وتداولَـها، وتداولَـنا معها الزمنُ الحِرباء.

لندن، ٤/ ٥/ ٢٠٠٥

نصيحةُ مُجَرِّبٍ

حينَ تَنْعَمُ بامرأةٍ
فَلْتَكُنْ ناعماً مَعَها...
إنّ جِلْدَكَ، جِلْدَ التماسيحِ، وَعْرُ
وتاريخَ جِنْسِكَ (أعني الذّكورةَ) شَرُّ،
وهذا الذي يتناوَسُ، مُسْتَنْفَراً، بين فَخْذَيكَ، ليسَ يَسُرُّ
إذاً، فَلْتَكُنْ ناعماً مَعَها،
في الأقَلّ...!

لندن، ٦/٦/٢٠٠٥

بعد قراءة روايةٍ عن القرن التاسع عشر

أمّا المَنْفيّ
فعليهِ ألاّ يملكَ من غالٍ ونفيسٍ
إلاّ نفْسَهْ!

أنا لم أقُل الفكرةَ؛
جان جِيونو Jean Giono في «الفارسُ فوق السّطحِ»
هو القائل...

كان جيونو يلبسُ ثوبَ عقيدٍ إيطاليٍّ شابٍّ
يتخفّى في هيأةِ فلاّحٍ.
كان على حَدِّ السيفِ يسيرُ إلى الثورةْ

أصحابي الغُرباءُ
الناجونَ بأنفُسِهِم من جَفْنةِ مَحْبِسِهم
كَمْ هُمْ سُعَداء!

لندن، ٢٩/ ٥/ ٢٠٠٥

معروف الرّصافيّ

أتذكّرُ تمثالَكَ في الساحةِ ضخماً وثقيلاً
مثل تماثيل الكولومبيّ الواخِزِ: بوتيرو...
لكَ أن تتعالى في الساحةِ
أن تُعلِنَ وقفتَكَ...(النحّاتُ ذكيٌّ)
لكَ أن ترفعَ عينيكَ
وأن تترفّعَ...
ألاّ تبصرَ تلكَ الأعوامَ الخمسينَ:
الضبّاطُ شريفيّونَ
الوزراءُ شريفيّونَ
الشعراءُ شريفيّونَ
صحافيّو كلِ سِخامِ الورقِ المدفوعِ شريفيّونَ
النوّابُ الأوباشُ شريفيّونَ
وحرّاسُ ملاهي بغدادَ، وحاراتِ دعارتِها، والتاجِ، شريفيّونَ...
ولكنّك، تسندُ ظَهرَكَ للحائطِ:
أنتَ تبيعُ سجائرَ لن يتنشّقَها أحدٌ، في الفلّوجةِ...
أنتَ تؤلِّفُ عن شخصيّةِ مَنْ أسمَيناهُ نبيّاً
أنتَ تُبَلشِفُ

تكشِفُ
تكتشفُ العُريَ صريحاً،
وتقولُ...
.....
.....
.....
لنا أن نتباهى بكَ في الساحةِ
يا معروفُ!
لنا أن نستقبلكَ اليومَ رفيقاً...
أمّا أنتَ فمن حقِّكَ أن تشتمَنا
من حقِّكَ أن ترفعَ عينيكَ
وأن تترفّعَ عنّا،
أن تتعالى في الساحة...
من حقِّكَ أن تحسبَ كلَّ الضباطِ
وكلَّ الوزراءِ
وكلَّ النوابِ
وكلَّ الشعراءِ
وكلَّ حُماةِ بيوتِ دعارةِ بغدادَ...
ومنطقةِ التاجِ الخضراءِ
شَريفيّين!

لندن، ٩/ ٥/ ٢٠٠٥

مائدةٌ للطيرِ والسنجاب

هيّأتُ صباحَ اليومِ وليمةَ عيدٍ للطيرِ
وللسنجابِ؛

اليومَ ربيعٌ أوّلُ
ـ أعني أولَ يومٍ لا يثقلُكَ المعطفُ فيهِ... ـ
أحسستُ بأنّ روائحَ تأتيني من قِممِ الأنديزِ
ومن أعماق الغوطةِ
من أرباض نهاوندَ،
وقلتُ: أُبارِكُ ضَوعَ العالَمِ،
فلأنثرْ خبزي اليوميَّ،
ليأكلْ منه العصفورُ، ويقضمْ منه السنجابُ؛
مددتُ بساطَ العشبِ
ـ طريّاً ونديّاً كانَ ـ
وعدتُ إلى نافذتي...
جاء الزرزورُ الأولُ
فالثاني
فالثالثُ...

هبطَ السنجابُ خفيفاً من جذع الجوزةِ
مختطفاً كِسْرةَ خبزٍ،
ليعودَ إلى مَرْقَبِهِ في أعلى الدوحةِ.
.....
.....
.....
كم كنتُ سعيداً!
لكنّ العقعقَ جاءَ
وجاءَ الثاني
فالثالثُ...
في طرفةِ عينٍ فرِغتْ مائدةُ العشبِ...
.....
.....
.....
إذاً... سأظلُّ: أُفَكِّرُ بالزرزورِ
وبالسنجابِ...

لندن، ١٥/ ٣/ ٢٠٠٥

تنويعٌ على سؤالِ رئيسِ أساقفةِ كانتربَري

Variation on the question of the Archbishop of Canterbury

قد طالَما فكّرتُ:
إنْ كان الإلـهُ حقيقةً
فَلِمَنْ، إذاً، نحنُ؟
السؤالُ:
لأيّ معنىً نحنُ؟
إنْ كان الإلـهُ، القادرُ، الحقَّ
انتهينا منهُ،
أو مِنّا...
أيُعْقَلُ أنّ آلافاً مؤلَّفةً من الأعوامِ
تمضي هكذا؟
قتلاً
وقتلى -
الأيدْز، والطاعون، والبركانُ
والطوفانُ

والمارينز في بغدادَ
والذُّؤبان...

.....

.....

.....

إنْ كان الإلهُ حقيقةً
فحقيقةُ الشرِّ: الإلهُ؛
وليس من معنىً
لِما نعني
ومَن نعني سواهُ...

لندن، ٤/ ١/ ٢٠٠٥

في صباحٍ غائمٍ

الصباحاتُ غائمةٌ، ليس من قبلِ عشرينَ يوماً فقط...
الصباحاتُ غائمةٌ، منذُ عشرينَ عاماً وأكثرَ؛
إن الصباحاتِ غائمةٌ
مُذْ وُلِدْنا.
وفي عدَنٍ كانت الشمسُ في السّمتِ فجراً
تُؤجَّجُ قحفةَ رأسكَ مثلَ الزجاجِ،
ولكنّ تلك الصباحاتِ غائمةٌ!

.....

.....

.....

ربّما في عواصفَ ثلجيّةٍ يتجلّى الصباحُ البَهِيُّ...
لقد حَطّت الطيرُ!
عند محطة مترو الجنوب، بموسكو
انتظرتَ التي لم تجيءْ
وانتظرتَ... انتظرتَ إلى حَدٍّ أن غَمَرَ الثلجُ شَعرَكَ
واقتاتَ عينيكَ؛
قلتَ: الصباحاتُ غائمةٌ...

وانكفأتَ.

.....

.....

.....

السلالـمُ لا تنتهي حينما ترتقيها
(غُرَيفةُ باريسَ في الطابق السابعِ)
السَّيْنُ ليس بعيداً
وفي الصُّبحِ نفترضُ الشمسَ...
لكنّ تلك الغُرَيفةَ لن تبصرَ الشمسَ إلاّ دقائقَ.
إن الصباحاتِ غائمةٌ في غُرَيفةِ باريسَ أيضاً!

.....

.....

.....

. وماذا عن المَشهَدِ الآنَ؟
ـ لا مشهدَ الآنَ.
إنْ رُمتَ نوراً فَخَبِّيءْ شآبيبَهُ في نبيذِ العروقِ
ولا تنتظِرْ أن يكونَ الصباحُ المُتاحُ بهيّاً...
ستشهدُ كلَّ الصباحاتِ غائمةً
ومدجَّجةً بالعفونةِ
حتى تموت!

لندن، ١٨/ ٤/ ٢٠٠٥

كونشيرتو للبيـانو والكْلارِيْنَتْ

Concerto for Piano and Clarinet

متدافِعٌ قصَبُ البُحَيرةِ طائرٌ يختفي في سماءٍ سماويّةٍ
طائرٌ يختفي في سماء
طائرٌ يختفي
طائرٌ

متدافعٌ قصبُ البُحيرةِ
أهيَ ريحٌ من وراءِ البحرِ تدفعُهُ
أَم السمَكُ الذي في القاعِ؟ هذهِ سِدْرةُ المُنتهى، البيتُ
هل سِدْرةُ المنتهى البيتُ؟
هل سِدْرةُ المنتهى؟
سِدرةُ الـ...

متدافعٌ قصبُ البُحَيرةِ
كانت الشمسُ الخفيفةُ أرسلتْ منديلَها

ليدورَ في الـماءِ نحن أولادُ بيتِ القصَبْ
نحن أولادُ غُصنِ الذّهَبْ
نحنُ أولادُ معبودةٍ خائبةْ
نحنُ مَنْ؟ نحنُ مَن؟ نحنُ مَنْ؟

متدافعٌ قصبُ البحيرةِ
في السقيفةِ زورقُ الصيّادِ
يُطْلى، مِثلَنا، بالقارِ
يُطلى، مثلَنا، بالنار خَلِّني أغترِفْ ملءَ كَفَّيَّ
من مائكَ الـمستحيـل
خَلِّني أغترِفْ منكَ نارَ السبيل
خَلِّني أختلِجْ
خَلِّني أبتهِجْ بالقليل...

لندن، ٩/٦/٢٠٠٥

(*) النص إلى اليمين يعتمد الكاملَ وزناً، كما هو واضحٌ، وهـو للبيانـو.
والنصّ إلى اليسار يعتمد المتدارَك وزناً، وهو للكلارِينَت.
(*) قراءةُ النصّ الشعريّ يمكن لها أن تكون متداخلةً، أو متناوبةً، أو بأيّ طريقةٍ يختارها القاريء.

س. ي

إيْسْتْبُوْرْنْ في الشتاء

Eastbourne in winter

في الصيفِ الماضي
بعدَ شِجارٍ بين امرأتي وامرأتي فجراً،
تركتْني، عائدةً نحو محطةِ لندن / فكتوريا...
ـ أنا لم أتدخّلْ بين الضِدَّينِ المُستَعِرَينِ بصدرِ امرأتي ـ
فأتاحتْ لي أن أعرفَ شيئاً عن هذا المرفأِ
أو أتلمّسَ ما أرجو بأزقَّتِهِ الخلفيةِ:
فندقَ دائرةِ الهجرةِ، حيثُ يلوبُ الشبّانُ وحيدينَ
وبارَ الصيّادينَ؛
أو الكيلومتراتِ الخمسةَ للروضِ الصخريّ على سِيْفِ البحرِ:
الصُبّارَ الفحلَ
ونَبْتَ الصحراءِ الشائكَ
والموجَ، وما تحملُهُ الموجةُ من نُعْمى الجسَدِ...
.....
.....
.....

البحرُ يدمدمُ مرتعِداً
والريحُ تَناوَحُ، صَرّاً، تقذفُ بالبحرِ إلى اليابسةِ
الروضُ الحَجَريُّ
يقاوِمُ،
معتزّاً بنبات الصحراءِ
وأسيافِ الصُبّارِ: الأخضرِ والأبيضِ،
هذا الراكضُ صبحاً في المِضمارِ البحريّ يقاوِمُ
سعدي يوسف في الفجر الشتويّ
الملتبِسِ
الفظِّ
يقاوِمُ...
أخشابُ السورِ
صخور مصدّاتِ الموجِ تقاوِمُ،
إيستبورنُ الوهمُ
وذاكرةُ الصيفِ
تقاوِمُ...
.....
.....
.....
ليس لدينا الآنَ سوى غفْلتِنا
ليس لدينا الآنَ سوى النظرِ الأوّلِ
ليس لدينا الآنَ سوى المِرآةِ:

مساءً سأكونُ بحانةِ «قَطْرِ ندىً» / Dew Drop Pub
سأحاولُ أن ألقى شيخاً كنتُ تعرَّفتُ عليه هنا
في صيفٍ ما
قبل سنينْ...
شيخَ البحّارةِ كانَ
وكانَ
وكانْ...

لندن، ٢٤/ ٢/ ٢٠٠٥

سِياجٌ في الريف

بينَ مُقامي (أعني بَيتي في القرية)، والبَرِّيّةِ، رَسْمُ سياجٍ خشبٍ.

كان سياجاً ينهشُهُ السُّرْخُسُ والطُّحْلُبُ والمطرُ الدائمُ. أحياناً يبدو أخضرَ.

أحياناً يبدو بُنِّياً. يتحوَّلُ أزرقَ في الأحلامِ. وأسْوَدَ في الكابوسِ. وأبيضَ حينَ تضيقُ الدنيا.

(الملحوظةُ): أقصدُ فِعلاً، وبلا أيِّ مُراوَغَةٍ أو أوهامٍ، أو أيّ تقاليدَ لنا في التعبيرِ، سِياجاً فِعْلِيّاً.

كلَّ صباحٍ يدنو مني. يوماً في سِيماءِ غزالٍ. يوماً مع ثعلبِ فجرٍ. لكنْ... أبداً في هيأةِ

طيرٍ. منذُ الرابعةِ، الفجرَ، يناديني باسمٍ من أسماءِ الطيرِ: أَفِقْ يا غافِلُ! وافتَحْ عينَيكَ!

أَلَمْ تهجِسْ هذا الكونَ؟ ألَمْ تتحسَّسْ نبضَ الدَّوحِ؟ أَلَمْ تَسْتَفْ ضَوعاً سِرِّيّاً؟

سَرِّحْ طَرْفَكَ بِضْعَ ثوانٍ... أَوَلَمْ تتخاطَفْ في البُعْدِ مياهُ بُحيرةِ قارونَ؟ أَلَمْ تَرَ

قافلةً لِمَغارِبَةٍ ماضِينَ إلى الكنْزِ؟ فكيفَ تقولُ، إذاً، إنك أَعْلَمُ بالسِّحرِ

من السّاحرِ؟ لا!

لاتقلِبْ سُحْنَتَكَ! السُّحْنةُ ليستْ كالسُّتْرةِ... والمنزِلُ ليسَ المَسْكنَ.

أنتَ تُراوِغُ نفْسَكَ!

هل تسمعُني؟ هذي الجدرانُ الأربعةُ القرميدُ... أتحسَبُها عازلةً؟ هي أوهَى من نسْجِ

عناكبَ في رأسي. هل تعْلَمُ أن فتى الفِتيانِ هو القادرُ أن يَعبُرَني قَفْزاً كي يدخلَ في

البَرِّيَّةِ؟ هل أبصرتَ البرْقَ الآنَ؟ غريبٌ! هل سُمِلَتْ عيناكَ؟ وهذا الرعدُ... ألَمْ

تسمعْهُ؟ غريبٌ! هل وُقِرَتْ أُذُناكَ؟

تراوِغُ نفسَكَ!

أرجوكَ، اسمَعْني...

أنا لستُ سياجاً للبَرِّيّةِ؛

أنا رَسْمُ سياجٍ في البَرِّيّةِ...

أمّا أنتَ... فَمَنْ أنت؟

لندن، ٢١/ ٥/ ٢٠٠٥

الحُرِّيـة

الثلجُ نديفٌ
منذُ ثلاثِ ليالٍ، وثلاثةِ أيامٍ، والثلجُ نديفٌ...
والآنَ، وفي الواحدةِ الظُّهرَ، الثلجُ نديفٌ.
ماذا أفعلُ؟
ماذا يفعلُ هذا الزّاغُ المتشبِّثُ بالسقفِ الخشبيّ لديَّ؟
الثلجُ نديفٌ
وفروعُ الأشجارِ بياضٌ في الأعلى
وشَواظٌ بُنِّيٌّ في الأسفلِ
لن يقطعني الثلجُ
ولن أستذكرَ مثلَ أبي تمّامٍ ديوانَ حماسةْ...
إني أنظرُ من نافذتي:
سيدةٌ
تفتحُ بابَ حديقتها،
تتأمّلُ في الثلجِ قليلاً
وتلفُّ سجارتَها الهنديّةَ
أو تلكَ الأفغانيّةَ
ـ مَن يعرفُ؟ ـ

تشعلُها
تأخذُها كاملةً في الرئتينِ
وتُغْلِقُ بابَ حديقتِها...

لندن، ٢٥/ ٢/ ٢٠٠٥

قارةُ الآلِـهة

لو كنتَ وُلِدتَ بإحدى القارات المجهولةِ في قَرنٍ آتٍ
وتنفّستَ هواءً مختلفاً
وطَعِمْتَ غذاءَ من آلِهةٍ
وشربتَ رحيقَ ملائكةٍ...
ولبستَ لبوسَ فضائيينَ؛
أقولُ:
إذا أَمْكَنَ هذا
وتمكّنتَ،
فهل آمُلُ أن أتلقّى منكَ بريداً؟
ذبذبةً خافتةً مثلاً
أو بضعَ إشاراتٍ ضوءٍ...
.....
.....
.....
كوكبُنا الآنَ يمُرُّ بقَرنِ ظلام
والظلمةُ، حتى الظلمةُ، تشتدُّ على البؤساءِ
(أنا منهم...)

أسألُكَ الرحمةَ:
هل تتدبّرُ أن يحملني منك شعاعٌ
كي أولَدَ في إحدى القارات المجهولة، في قَرنٍ آتٍ
فأشِبَّ رهيفاً
بين ملائكةٍ
ومنازلِ آلهةٍ
وفضائيين!

لندن، ١٦/٨/٢٠٠٤

حفيدُ امريءِ القيسِ

أهْوَ ذَنْبُكَ أنكَ يوماً وُلِدتَ بتلكَ البلاد؟
ثلاثةَ أرباعِ قَرنٍ
وما زِلتَ تَدْفَعُ من دمِكَ النَّزْرِ تلكَ الضريبةَ:
(أنكَ يوماً وُلِدتَ بتلك البلاد...)
وما تلكَ؟
إنكَ تعرفُ أغوارَها والشِّعابَ
تواريخَها الكذِبَ
المُدُنَ الفاقِداتِ المدينةَ
تلكَ القرى حيثُ لا شيءَ
ذاكَ الظلامَ العميمَ
وتعرفُ أن البلادَ التي قد وُلِدتَ بها لم تكنْ تتنفّسُ مَعنَى البلادِ...
.....
.....
.....
السؤالُ: وما دَخْلُكَ الآنَ حينَ تطالَبُ بالمستحيلِ؟
*
المُصيبةُ أنكَ تحملُ أوزارَها في انتفاءِ البلاد!

لندن، ٢٢/ ٥/ ٢٠٠٥

هـادي الـعَـلَـويّ

كان هادي العَلَويُّ استلَمَ الجُرْفَ وفَرْعَ التوتِ في الضفّةِ...
وهو الآنَ يمضي
يربطُ القاربَ بالمَرْسِ الذي قد فَتَلَتْهُ أمسِ كَفّاهُ
إلى الصفصافةِ العُظمى؛
عجيبٌ أمْرُ هادي العَلَويّ:
الغرفةُ السابعةُ استنفدَت النورَ،
وقد ضاقَ بها (ضاقتْ بهِ؟)
فهو يسري خارجَ الجدرانِ والألوانِ
يسري داخلَ العَتْمَةِ
كي يبلغَ ماءً لا يَبلُّ الرِّيقَ
ماءً ليس فيه من صفاتِ الماءِ إلاّ البرق
ماءً ظلَّ يُغْريهِ بِنارِ المستحيلِ...
.....
.....
.....
القاربُ المربوطُ بالمَرْسِ إلى الصفصافةِ العُظمى
اختفى في هَبّةِ الريحِ...

وهادي العَلَويُّ اقتَعَدَ الأرضَ
هنا، في الضفّةِ الأخرى ـ
بعيداً عن مَزارٍ عابرٍ
عن جسدٍ
أو بُلْغةٍ...
كان على التُّرْبةِ يَخْتَطُّ قناديلَ من الأوراقِ
أَبراجاً
وراياتِ حريقْ...

لندن، ٦/٦/٢٠٠٥

الحصانُ والجَنِيْبَةُ

Horse and barge

يتعيّنُ عليَّ إيضاحُ أنّ الجنيبةَ (الدُّوبة بالدارجة العراقية) هي واسطة نقلٍ نهرية مسطّحة من الحديد، وقد اتخذت اسمها لكونها تنتقل جنبَ الضفة، وفي العراق كان الرجال الكادحون، وهم على الضفة، يسحبونها موثقينَ إلى الجنيبةِ بحبالٍ، قبل أن تأتي المحرِّكاتُ مع الحرب العالمية الثانية. في إنجلترا العتيقة قامت الخيل مقامَ البشر في جَرِّ الجنائب على امتداد شبكة القنوات العظمى The union canal.

أعتقدُ أن عبد الكريم قاسم كان أرادَ أن تكون (قناة الجيش) بدايةً لما يشبه القنواتِ العظمى. (كان في دورةٍ بريطانيّةٍ، بلندن، للضبّاط الأقدَمين العراقيين، والتقى محمد مهدي الجواهري)

النصّ يهتمّ بحانةٍ كبرى على القناة اللندنية، تحمل اسمَ «الحصان والجنيبة»، Horse and barge، اعتدتُ ارتيادها، وهي ليست ذات خصوصيةٍ معيّنة، بل أنها أقربُ إلى الرثاثة، إنْ أردتَ الحقَّ، لكنها ذاتُ حديقةٍ كريمةِ الإتّساعِ تُذَكِّرني بالبارات الصيفية في بغداد، قبل حملة صدّام حسين الإيمانية، وهذا التاريخِ الأميركيّ العجيبِ الذي جعلَنا أقربَ إلى مكةَ من واشنطن.

وثمّتَ جنائبُ ضيِّقةٌ تُتَّخَذُ مساكنَ دائمةً.

سكَنةُ الجنائب الضيّقة Narrow boats يؤمّون المكانَ لأنه ملتصقٌ بمرسىً لهم يُدعى بالإنجليزية الفصيحة غيرِ المعتبرةِ كثيراً لدى السكَنةِ: Marina، وهؤلاء يشكلون شريحةً اجتماعيةً حقاً. هذه الشريحة تُعتبَرُ خارجَ السائد عموماً في الطبع والمَلبس واللهجةِ..

وللمناسبةِ، بمقدورنا، بعد هذا الشرحِ كله، أن نقرأ قراءةً واقعيّةً قولةَ سان جون بيرس: ضيِّقةٌ هي المراكبُ، ضيِّقٌ سريرُنا.

وعلى أيّ حالٍ، سوفَ أبتاعُ جنيبةً ضيِّقةً، ولسوف تكون ذاتَ سريرٍ ضيِّقٍ حُكماً!

لكنْ، في هذا المطر الدائم، المطر غير المرئيّ، المطر الذي يشبهُ زجاج المطارات...

أقولُ: في مثل هذا المطر، يكون الكلام عن الماء والقنوات والمراكب الضيِّقة، سخيفاً تماماً؛ لِمَ لا أتكلّمُ عن مزارع تربية الخنازير مثلاً؟

كنتُ أتابعُها من نافذة القطار المنطلق من لندن إلى أدنبرة في الشمال. وفي العودة لم أرَ المزارعَ. سألتُ رفيقَ

الرِّحلةِ: أين ذهبت الخنازيرُ؟ قال: لا أدري، لكن من الممكن جداً أنهم أكلوها! حسناً... تقصدُ أن البشر أكلوا كل تلك الخنازير؟ خذ الكوسج (سمك القرش)... كم إنساناً تأكلُ الكواسجُ كلَّ عام؟ ثلاثةً؟ أربعةً؟ قُلْ خمسةً. وهناك سينما وفَكٌّ مفترسٌ... إلخ. حسناً... اذهبْ إلى المَسْمكة، لا تذهبْ بعيداً جداً؛ اذهبْ إلى سوق الأسماك في «مَسْقَط» فقط. ألا ترى الكواسجَ الصغيرةَ؟

...Baby sharks ? لكن أسماك القرش ليس لديها سينما، أي أن الكواسج لم تنجب مخرجين مثل مخرج الفكّ المفترس... لكي نرى فكَّ الإنسان والتهامَ الفريسة.

فيكتور هيجو في «كادحو البحر» وصفَ أخطبوطاً هائلاً، وصراعَ الإنسانِ للتخلّصِ منه. اذهبْ إلى

بيروس، مرفأ أثينا... اذهبْ إلى المطاعم في تلك البلاد، وعلى انتشار اليونان الكبرى في إيجة والمتوسط... هل بمقدورك أن تحصي عديدَ الأخطبوطات التي يلتهمها اليونانيون كلَّ يومٍ؟ لِنَعُدْ إلى المراكب الضيِّقة! أمسِ في «الحصان والجنيبة»... لا، لا، لا، الآنَ في الساعة الثالثة عشرة والدقيقة العشرين تماماً، يومَ الخامس عشر من كانون أوّل ٢٠٠٤، نظرتُ من نافذة المطبخ (المضبّبة قليلاً)، إلى الحديقة المشتركةِ، و البَرِّيةِ الوحشيةِ بعدَها، والبحيرةِ المتلألئةِ في البُعدِ القريبِ... على الأرضية الخضراء، كان ما خلّفه الخريفُ المنقضي من ورقٍ بُنِّيٍّ، يتحركُ كالزرازيرِ. البطُّ المهاجِرُ عبَرَ منذ الصباح غيرِ الباكرِ. تذكّرتُ قصيدةً لبدرٍ (السياب) لا يتذكّرها أحدٌ: صيحاتُ البطِّ الوحشيّ. كانت أيضاً طيورٌ سودٌ متوسطة الحجم. هي ليست الطيورَ السودَ الصغيرةَ. ليست الغربانَ. قالت لي صديقتي إنها تُدعى ...Starling لم تقُلْ ذلكَ اليومَ. قالت ذلك منذ أيّامٍ. كنا في مطعم ـ حانةٍ، على ضفة النهر العظيم تماماً (أقصدُ نهرَ التيمس). كنتُ أرى الجسورَ، الواحدَ يتلو الآخرَ... قيلَ إن بغداد ستسقطُ بعد

الجسرِ السابعِ! لماذا؟ ليس في بغداد سحرٌ ولا ساحرٌ... بغداد

مدينةٌ (؟) متربِّعةٌ على مَزبلتها مثل دجاجةٍ غبيّةٍ. الأتراكُ فقط حاولوا أن يصنعوا منها عاصمةً، مثل ما حاولوا مع دمشقَ... الأميركيون

ليسوا بُناةَ حواضرَ. الأميركيون هادمو حواضرَ. وعلى امتداد قارّتهِم لن تجدَ حتى مدينةً واحدةً ذاتَ معنى متّصلٍ. لِنَعُدْ إلى المِراكب الضيِّقة! أمسِ، مساءً، في «الحصان والجَنيبة»،

وتماماً عند البار، رأيتُ شخصاً لم أكن أتوقّعُ أن أراه، شخصاً طالَما مررتُ به، وهو في جنيبته،

على القناة؛ أحيِّيه فلا يجيب. أبتسمُ لِمَرآهُ فلا يردُّ. هل أتذكّرُ الفرزدق؟

فما رَدَّ السلامَ شيوخُ قومٍ مررتُ بهم على سككِ البريدِ
ولا سِيْما الذي كانت عليهِ قطيفةُ أُرجوانٍ في القُعودِ

في هذا الشاهد من شرح ابن عقيلٍ، يحكي الفرزدقُ عن كلابٍ مرَّ بهم. حيّاهم فلم يردّوا... إنهم شيوخُ القوم! على أيّ حالٍ؛ هذا الذي لم يكن ليردَّ، رأيته جليسي. أنا أيضاً أحبُّ الجلوسَ إلى البارِ، لا على كرسيّ

عند طاولةٍ... قلتُ له: أنا أراكَ دائماً. أجابَ: أنا أراكَ دائماً أيضاً. قلتُ له: وأراكَ ساهماً دوماً! أجابَ: وأراكَ ساهماً دوماً... قلتُ: عجيبٌ! قالَ: عجيبٌ!

سيكون المساءُ ثقيلاً، مثقَلاً. أُفكِّرُ في شراء جَنيبةٍ. سيكون لي سريرٌ ضيِّقٌ فيها،

كذلك الذي ذكَرَه سان جون بيرس. وسأُوصي المرأةَ التي أُحبُّ بأن تقتصد في تناول الطعام...

لندن، ١٥/١٢/٢٠٠٤

تَـداخُـلٌ

اليومَ أوّلُ أيامِ الخريفِ. مظلاّتُ المقاهي خذاريفٌ تدورُ
وفي السحائبِ اشتدَّ لونٌ داكنٌ. لِمَن الدنيا؟
لقد كان في أشجارها ثمَرٌ للجائعينَ، وفي
أوراقِها مطرٌ للسالكينَ دروبَ القيظِ...
لو رجعتْ أيّامُهُ، آنَ كانَ الكونُ مُلْتأَماً لأهلِهِ
ومَعاداً للفتوّةِ...، يا

صامتاً
تجلسُ بين الناسِ، في المقهى (أو الحانةِ)، عصراً
ترقبُ الآتينَ
أو تأخذُ شيئاً
وتلُفُّ التبغَ الأسودَ (أحببتَ فرنسا دائماً)
ثمّتَ شيءٌ غامضٌ ينبضُ إذْ تجلسُ بين الناسِ...
ـ لكنكَ لا تعرفُ في المقهى سوى الساقيةِ المشغولةِ .

اليومَ أوّلُ أيامِ الخريفِ... ترى ذوائباً من مديدِ العشبِ
ترفعُها ريحٌ، وتخفضُها ريحٌ. وثَمَّ خيولٌ

تقتفي أثراً بينَ المَعاشِبِ، في مَرْجٍ بلا أَثَـرٍ.
أنصِتْ لأنفاسِكَ:
الأمطارُ قادمةٌ...

و
خائفٌ
نَبْضُكَ... في المقهى أتى رُكّابُ موتورسِيكِلاتٍ.
مثلَ ما شاهدتَ في الأفلامِ: عشرينَ، أقاموا ما أقاموا،
وانتهَوا في بَغتةٍ.
رَعـدٌ.
لقد أجفلَت الخيلُ...
وهذا

اليومَ أوّلُ أيامِ الخريفِ. تَناوَحَ النحاسيُّ والصفصافُ(*).
يهطلُ كالتفّاحِ، أخضرَ، وَبْلُ الكستناءِ؛
ولا سناجيبَ
لا طيرٌ
ولا قططٌ...
فاليومَ أوّلُ أيامِ الخريفِ.
أَقِمْ، إذاً، في مَهَبِّ الريحِ
سوفَ ترى الثعالبَ
الفجرَ...

.....

.....

.....

أنتَ، الآنَ، تصطحبُ(**)!

لندن، ١٤/ ٩/ ٢٠٠٤

(*) النحاسيّ هو الشجر المسمّى الزان النحاسي Copper beech

(**) تصطحبُ، في الفعل إشارةٌ إلى لقاء الفرزدق والذئب:

وأطلسَ عسّالٍ وما كان صاحباً ... دعوتُ بناري مَوهِناً فأتاني

فلمّا دنا قلتُ ادنُ دونَكَ إنني ... وإيّاكَ في زادي لَمُشتركانِ

فبِتُّ أُسَوِّي الزادَ بيني وبينهُ ... على ضوءِ نارٍ مرّةً...ودخانِ

فقلتُ له لمّا تكشَّرَ ضاحكاً ... وقائمُ سيفي من يدي بمكانِ:

تَعَشَّ، فإنْ واثقتَني لا تخونُني ... نكنْ مثل من يا ذئبُ يصطحبانِ

وأنتَ امرؤٌ يا ذئبُ والغدرُ كنتما ... أُخَيَّينِ كانا أُرضِعا بلِبانِ

ولو غيرَنا نبّهتَ تلتمسُ القِرى ... أتاكَ بسهمٍ أو شَباةِ سِنانِ!

نـبْـتـةُ الوردِ الإيرلنديّ

لا تُطْلِعُ نَبْتةُ ما يُدعى الوردَ الإيرلنديّ، الوردَ كما نعرفُهُ
أو نقرأُ عنهُ...
هي عندي، في زاويةٍ من بستاني
(لأُسَمِّ الياراداتِ الأربعَ بستاناً... لن أخسرَ شيئاً!)
هي عندي منذُ حللتُ، هنا، قبل ثلاثةِ أعوامٍ، في هذا الـمُنْتَبَذِ الريفيّ
وأنا أتَعَهّدُها
أسقيها...
(كلَّ مساءٍ، وكما اشتَرَطَتْ)
منتظِراً أن تُطْلِعَ ورداً
أو وعداً بالوردِ؛
(يُسَمّى ذلك جُنْبُذَةً في البصرةِ)
خابَ الـمَسْعى!
خابَ المسعى!
والناسُ يقولون هنا:
الوردُ الإيرلنديُّ يفكِّرُ...
فالنبتةُ في لندنَ

لا في دَبْلِنَ...

.....

.....

.....

كيفَ، إذاً سيكونُ الأمرُ مع البصرةِ؟

لندن، ١٠/ ١٠/ ٢٠٠٤

جَبْلة(*)

قد نذكرُ أنّ السلطانَ ابراهيمَ المملوكيَّ
بنى مسجدَهُ الجامعَ ذا القببِ الخمسِ، هنا...
ليس البحرُ بعيداً
ليس البحرُ قريباً
لكنّ الأسماكَ الحُمْرَ، الحُرّةَ، قد طُمِغَتْ باسمِ السلطانِ
السلطانِ ابراهيمَ؛
كذلك أهلُ الساحلِ
والنسوةُ تحت غطاءِ الرأسِ التركيّ
وأسواقُ البلدةِ
والمحتسبُ...
الليلُ على هذا الشاطيءِ من أحجار المتوسِّطِ
يهبطُ مثلَ مُلاءاتٍ ليس لها لونٌ أو رفرفةٌ.
قد يصلُ الصيّادونَ الآنَ إلى المرفأِ
بينَ شِباكٍ وقناديلَ
وألواحٍ كانت تَخْضَلُّ؛
وقد تنبعثُ الجَرّةُ كاللوتسِ من قاعِ البحرِ الرومانيّ...
السلطانُ المملوكيُّ (أنا في المقهى أكتبُ. لا أدري

كيفَ أُقيمُ اللحظةَ حاجزَ صوتٍ! كنتُ تعلّمتُ كتابةَ أشعارٍ
في مقهىً باريسيٍّ)
وأُتابِعُ:
إنّ السلطانَ المملوكيَّ تَعَمّدَ أن يجعلَ حاجزَهُ
بين الجامعِ والرومانِ، رمالاً...
(شرَعَ المقهى يكتظُّ، وأقربُ طاولةٍ تتأجّجُ
بالضحكاتِ، ونارِ الأرجيلةِ)
إن العشبَ قويٌّ
العشبُ قويٌّ
والعشبُ يُغَلْغِلُ في الحَجَرِ
الدمَ أخضرَ
والماءَ
وما يجعلُ ما يَفْصِلُ، يَتَّصِلُ...
(اشتقتُ إلى بيتي بالضاحيةِ البيضاءِ تماماً، أعني بيتي في لندنَ
واشتقتُ إلى رُكني في بارِ البَحّارةِ؛)
طبعاً،
سأُخَفِّفُ وَطْءً
في البرزخِ بين الجامعِ والصَّرْحِ الرومانيّ...
وسوف أُتَمْتِمُ في السِّرِّ
صلاةً غامضةً...
.....
.....
.....

أَشياخي في الخلوةِ؛
هذا الليلُ طويلٌ، مكتنِزُ الأسرار
ومنتظِرٌ آياتِ السامرِ
والبَحّار...

دمشق، ٣١/ ٣/ ٢٠٠٥

(*) جَبْلة: مرفأٌ فينيقيّ على الساحل السوريّ بين طرطوس واللاذقية.

ولماذا لا أكتبُ عن كارل ماركس؟

حقاً: لِمَ لا أكتبُ عن كارل ماركس؟
فالأيامُ الإثنا عشرَ الثلجيةُ قد رحلتْ مثل غيومٍ بِيضٍ في بحرٍ أسودَ،
والسنجابُ يعودُ
ونقّارُ الخشبِ؛
البطُّ الوحشيُّ يواصلُ هِجرتَهُ
وحَمامُ الدَّغْلِ يعود لينقرَ في البستان...
هواءُ ربيعٍ أوّلُ
والخيلُ سترمي عن صهواتِ الخيلِ دثارَ الصوفِ،
وأسمعُ في الفجرِ أغاريدَ لطيرٍ منفردٍ...
.....
.....
.....
ستقولُ: وما شأنُ الألـمانيّ، طريدِ العالَـمِ، في هذا؟
عجباً!
أوَلَـمْ تعلمْ كيف أحَبَّ الشِّعرَ؟
وهل تعرفُ مَن شاعرُهُ؟

ثمّ هنالك أمرٌ:
نحن، الإثنَينِ، هبطْنا لندنَ في أيّامٍ تتماثلُ...
نحن طريدا حرسٍ (زُرقِ العيونِ عليها أوجُهٌ سُودُ).
.....
.....
.....
ولماذا لا أكتبُ عن كارل ماركس؟
قرأتُ بمكتبة المتحف أشعاري (حيث تكَوَّنَ رأسُ المالِ)
وبحثتُ طويلاً في لِسْتَرْ سْكْوَير Leicester Square
لعلِّي ألقى منزلَهُ،
وفي سوهو Soho أيضاً...
وأخيراً أخبرني يوجين كامينكا(*) Eugene Kaminka
عن آخر عنوانٍ للثوريّ الألمانيّ، بلندنَ:

9 Grafton Terrace

Maitland Park

Hampstead Road

Haverstock Hill

(*) (كامينكا، هو أستاذٌ في تاريخ الأفكار بكانْبَيْرّا)

لكني لستُ ذكيّاً مثل وكيل البوليس السريّ الألمانيّ،
ولهذا
حتى بعد سنينٍ خمسٍ من أسئلةٍ وطوافٍ
لم أعرف أين يقيمُ...
ولكنك تسألُني: أ وَلَمْ يُدفَنْ في هايجيت Highgate
(أو في المتحفِ، حسبَ الليدي ثاتشر؟)
فأقولُ: صديقي حَيٌّ
لم يُدفَنْ في هايجيت، ولا في المتحفِ
لكني لم ألْقَ له أتباعاً ومُريدينَ هنا،
إني أنتظرُ الآتينَ من الحَجَرِ الأولِ...
قُلتُ إذاً سأُلخِّصُ تقريرَ وكيلِ البوليس السرّيّ الألمانيّ.

ملحوظة:

A Prussian Police Agent's Report, Published in G.Mayer, "Neue Beitrage zur Biographie von Karl Marx", In Grunberg's Archiv, Vol.10, pp.56-63.

التقرير الذي لم يُكتَبْ في الأصل باللغة العربية

ماركس متوسط القامة، عمره ٣٤ سنة، أخذ شعره يشيب بالرغم من أنه في ريعانه. قويّ البِنية، تشبه ملامحُه زيمير Szemere رئيس وزراء الحكومة الثورية الهنغارية قصيرة العمر في ١٨٤٨، الذي كان صديقاً لماركس[، لكنّ سحنته أغمق، كما أن شعره ولحيته أسودان. الأخير لا يحلق شعره؛ وفي عينيه الواسعتين النفّاذتين شيءٌ شيطانيٌّ. لكن المرء

يستطيع القول منذ الوهلة الأولى إن هذا الرجل ذو عبقرية وقوّة. إن ذكاءه المتفوق يمارس تأثيراً لا يقاوَم في ما يحيط به. في حياته الخاصة، لا يحبّ النظام، مريرٌ، وسيّء المزاج. إنه يحيا حياة الغجريّ، حياة مثقفٍ بوهيميّ، أمّا الإغتسال والمَشط وتبديل الثياب فلا يكاد يعرفها إلا نادراً. يستمتع بالشراب. وهو في الغالب لا يفعل شيئاً أياماً وأيّاماً، لكن إن كان لديه عملٌ يؤدِّيه اشتغلَ ليلَ نهارَ في مثابرةٍ لا تكِلُّ. ليس لديه وقتٌ محددٌ للمنام والإستيقاظ. وغالباً ما يسهر الليلَ كلَّه، ثم يتمدد على الأريكة بكامل ملابسه حوالَي الظهيرة، وينام حتى المساء، غير عابيءٍ بحقيقة أن العالَمَ يتحركُ جيئةً وذهاباً في غرفته.

زوجته هي أختُ الوزير البروسيّ، فون ويستفالِنْ، وهي امرأةٌ مهذّبةٌ لطيفةُ المعشر، عوّدتْ نفسَها على هذه العِيشة البوهيمية، حبّاً بزوجها، وهي مرتاحةٌ الآنَ تماماً في هذا البؤس. لديها ابنتان وولدٌ، والثلاثة حسنو الهندام حقاً، وعيونهم ذكيةٌ مثل عيني أبيهم. ماركس، زوجاً وأباً، أفضل الرجال وأرقُّهم، بالرغم من شخصيته القلِقة. يعيش ماركس في حيٍّ من أسوأ أحياء لندن أي من أرخصها. لديه غرفتان. إحداهما تطلّ على الشارع وهي الصالون، غرفة النوم في الخلف. وليس في الشقّة كلها قطعة أثاث ثابتة نظيفة. كل شيءٍ مكسورٌ، مهتريءٌ وممزّقٌ؛ وثمّتَ طبقةٌ ثخينةٌ من الغبار في كل مكانٍ. وفي كل مكانٍ أيضاً الفوضى العظمى.

وسط الصالون طاولةٌ ذات طرازٍ عتيقٍ مغطّاةٌ بمشمَّعٍ. على هذه الطاولة مخطوطاته، وكتبه وصحفه، ثم دُمى الأطفال، وأدوات زوجته للترقيع والخياطة، مع عددٍ من الأكواب مثلومة الحافات، والملاعق

القذرة، والسكاكين والشوكات والمصابيح، وهناك محبرةٌ، وكؤوسٌ، وغلايين فخّار هولندية، ورماد تبغٍ ـ أي أن كل شيء على أسوأ حالٍ، وعلى الطاولة إيّاها. إن أدنى الناس سيرتدُّ خجِلاً من هذه المجموعة المرموقة.

حين تدخل غرفة ماركس، يدهمك الدخان وأدخنة التبغ حتى لتدمع عيناك كأنك تتلمّس طريقك في كهف.

وبالتدريج، تعتاد عيناك على الضباب، وتبدآنِ تميِّزان أشياءَ قليلةً. كل شيءٍ قذرٌ مغطّى بالغبار. والجلوسُ خطِرٌ. أحد الكراسي له ثلاث أرجلٍ فقط. وعلى كرسيّ آخر صادفَ أنه متماسكٌ يلعب الأطفال لعبة الطهي. هذا الكرسيّ يقَدَّمُ إلى الزائر، لكن طهي الأطفال يظل في مكانه. إنْ جلستَ ضحّيتَ بسروالك.

لا شيء من هذا يضايق ماركس أو زوجته. أنتَ تُستَقبَلُ خيرَ استقبالٍ. ويقَدّمُ لك الغليون والتبغُ وما سوى ذلك بكل كرمٍ، كما أن الحديث اللطيف المفعَم بالروح كفيلٌ بالترميم الجزئي للنواقص. بل أن المرء ليعتاد العِشرةَ، ويرى هذه الحلْقةَ مثيرةً للاهتمام وأصيلةً. ها هي ذي الصورة الحقيقية للحياة العائلية للزعيم الشيوعيّ، ماركس...

*

هَـيْ!

هَـيْ!

هَـيْ!

أوَما قلتُ لكم: إنّا لم نعرفْ كارل ماركس؟

لندن، ٧/ ٣/ ٢٠٠٥

رسالـةٌ أخيرةٌ من الأخضر بن يوسف

عزيزي: أنا الآنَ لا أتردَّدُ في أن أُحَيِّـــيكَ. (في أنْ أُصَبِّحَ يومَكَ بالخيرِ) مَرَّ زمانٌ علينا، ولم نَلْتقِ. الصبحَ فكّرتُ... قلتُ البـــريدُ الذي كان منقطعاً في الحروبِ، وفي مَهْمَهِ الثورةِ المستحيلةِ، قد بدأَ. الأصدقاءُ الذين غدَوا جُزُراً في محيطٍ من المعدِنِ الذائبِ التفتوا، فجأةً، نحو أنفُسِهِم واستراحوا على فحمةِ الليلِ كي يكتبوا. هل يقولون شيئاً؟ أتحسَبهم قائلينَ؟ انتظرتُ، فلم أسْتَرِقْ نأْمةً. واستَرَقتُ، فلم أعتَبِرْ نَغْمةً. حِيْنَها، وأُصارِحُكَ القولَ فكّرْتُ فيكَ...السلامُ عليكَ! السلامُ على دارةٍ أنتَ فيها! السلامُ على حَيرةٍ أنتَ فيها!

أتعرفُ أنيَ طوَّفتُ أبعدَ ممّا تظنُّ؟ لقد كنتَ تسْخَرُ بي، كنتَ تحسَبُني وادِعاً أو جباناً.

أتذكرُ؟ يومَ انبطَحْنا على رملِ ساحلِ «أَبْيَنَ» ظلَّ الرصاصُ يَئِزُّ. ولم أرتجِفْ...

وفي صيفِ بيروتَ، صيفِ الضواحي، تطلَّعتُ في الموقعِ المتقدِّمِ. كانت على مدخلِ الحَيّ دبّابةٌ. كانت الطائراتُ المُغِيراتُ تُلقي صواريخَها. غيرَ أنكَ كنتَ الدِينامِيتَ في عُلْبةِ الخشبِ. اليومَ حاولتُ أنْ أتَبَيَّنَ ما كنتَ تكنِزُهُ آنذاكَ... تُرى، كنتَ تأمُلُ في أن ترى المَوجتَينِ وقد غَدَتا موجةً؟

ربَّـما!

لستُ أدري...

وهاأنتذا تتلقّى الرسالةَ

هاأنتذا تتقرّى الرسالةَ

ها أنتذا، آ...

وهاأنذا...

.....

.....

.....

نضربُ الصّـنجَ، ثانيةً، في العـراءْ.

لندن، ٢٧/ ٥/ ٢٠٠٥

هَلْوَسةٌ خَفيفةٌ

ولأنّ المطرْ
منذُ أن جئتَ تسكنُ في تَلّةِ الضاحيةْ ـ
خامِلٌ
دائمٌ
ماثلٌ
مثلَ بابِ الحديقةِ أو مَدخَلِ البيتِ،
مثلَ جذوعِ الشجرْ...
صِرْتَ تحلمُ، مستيقِظاً، بالمطرْ...
مطرٍ يتكوّنُ من وردةٍ متناثرةٍ في الرذاذْ
مطرِ القطَراتِ الكبيرةْ
مطرِ الموجِ يغمرُ قمصانَ بَحّارةٍ تائهين
مطرِ الرحمةِ الإستوائيّ في الزوبعةْ
مطرٍ لستَ تَمْلِكُ أنْ تسمعَهْ:
مطرٍ من جرادْ
مطرٍ في عروقِ البلادْ
مطرٍ من رمادْ...

لندن، ١/٦/٢٠٠٥

الإصـغـاءُ

بينَ حينٍ وآخرَ
(واقرأْ هنا: بينَ عامٍ وآخرَ)
أُصغِي إلى نبضِ قلبي...
(أتحسَبُ ما قلتُهُ لعبةً أو مَجازاً؟)
أقولُ: أُحاولُ أن أتَثَبّتَ من نبضِ قلبي
وأن أُرهفَ السَّمعَ؛
أجلسُ مسترخِياً
والنوافذُ مُحْكَمَةٌ
لا هديرَ محرِّكِ سيّارةٍ
لا رياحَ
ولا مطرٌ يتمرَّغُ فوقَ الزجاجِ المضاعَفِ...
أُسْبِلُ جفنَيَّ
أُرْخِي ذراعَيَّ
أُرهِفُ سمعي: أدَقَّ. أدَقَّ. أدَقَّ...
وأخفِضُ رأسي يساراً،
فيلمُسُ حَنْكِي قميصي الطريَّ الذي ابتعتُهُ أمسِ.
يا قلبُ

يا قلبُ
أيُّ الرفيقَينِ نحنُ؟
أ في كلِ عامٍ تحدَّثُني مرّةً، فأردُّ عيكَ السلامَ؟
الكلامَ
الحياةَ المؤجَّلةَ...
الآنَ أسمَعُ صوتَكَ
نبضَكَ
كالبوقِ...
أهيَ سرايا الخيول التي تتقدَّمُ في السَّهْبِ؟
أَمْ هو بوقُ النُّشُور...

لندن، ١٩/ ٤/ ٢٠٠٥

بطاقةٌ إلى ممدوح عدوان

أنتَ معنى الفُتوّةِ
تهجئةُ العَيشِ حتى القَرارِ: الثُّمالةِ
راعي تقاليدِنا
في التسكُّعِ، والعَرَقِ المُرِّ
أو قَولِ: لا!
أنتَ مَنْ راوغَ السَّيفَ
واستنفدَ الخوفَ
واعتبَرَ الحرفَ حتى غَلا...
كيفَ خلّفتَني في المَفازةِ؟
كيفَ انتهيتَ إلى أن تغادرَني أوّلا؟

لندن، ٢٠/ ١٢/ ٢٠٠٤

الماندولين

لا يمكن الكلام عن الماندولين، إلاّ بلغة الماندولين. أعني أن اللغةَ المعروفة (أي التي نعرفُها)

ليست أداةً للكلام عن الماندولين. والسبب بسيطٌ (جداً؟)... السبب أن ألـ ـ ما .

نْـ ـ دو ـ لِيْـ ـ نْ، هي موسيقى. خشبٌ يُنْبِتُ موسيقى.

لا تَقُلْ لي رأساً إنني مرتبكٌ أو مُتَلبِّكٌ .No , no, please! ... أنا بكامل هدوئي.

كنتُ في عدنٍ...
كنتُ خلّفتُ أرواحَ نجدٍ إلى يَمَنٍ
كنتُ في عدنٍ
دَندَنَ العودُ: دانَى ودانَى...
ومِن حَضرموتَ الأغاني
وقد كنتُ في عدنٍ!

غريبٌ أمْرُكَ معي! أقولُ لكَ إن قصّتي مع الماندولين حَقٌّ. بمعنى أنها ليست كما تفهمُ أنتَ الشِعرَ.

أي أنني أتحدّثُ عن ماندولين حقيقيّة، من لوحٍ ودمٍ. ماندولين نائمة بارتخاءٍ في صندوقٍ مبطّنٍ بمخملٍ أزرق. أتستزيدني؟ حسناً! أقولُ لكَ إنني ابتعتُها من شابٍّ كان تدرَّبَ عليها، في ألمانيا الديمقراطيّة، ثمّ هجرَها، هنا، إلى العود (لا مشكلَ في الأمرِ. فمن حقِّه أن يعزف على الآلةِ التي تُطعمه خبزاً).

أَمّا أنا فطعامي أنتَ تعرفُهُ:
قلبُ الشِفَلِّحِ
والحَلْفاءِ
أو، تَرَفاً، رحيقُ ما أنبَتَ البُرديُّ والقصبُ...
كأننا، الشعراءَ، النَّوءُ والسُّحُبُ!

الهامُّ (مَن يدري؟)، أن الشابّ قبِلَ، بعد ترددٍ هيِّنٍ، أن يدرِّسَني الماندولينَ التي ابتعتُها منه. الأجرُ على قَدْرِ المشَقّة (لم يقُلْ هو ذلك...). كان يأتي في الضحى العدنيّ الرطبِ مبتسماً
دائماً. يفتح الصندوقَ، ويُخرجُ الماندولين من نعاسها في المخمل الأزرق. ويقول لي: نبدأ...
نتدرّب على:

آه، يا زين، آه يا زين...
آه، يا زين العابدين
يا وردْ!

يا ورد مفتّح بين البساتين..

يعلِّمني كيف أُمسِكُ بمثلّث البلاستيك الدقيق الذي يصل بيني وبين أوتار الماندولين، مثل ما يصلُ الراهبُ بين المرءِ والله. أمضي معه (طبعاً هي قصّةُ أسابيعَ، وإلاّ كيف؟)...

أبلُغُ: يا ورد...

يا أُمَّ الله المقدّسة!

وبعدَها كيف أمضي؟

يا ورد / مْفَتْ / تَحْ / بين / ال / بسا/ تين...

لكنني سأفِرُّ من عدنٍ إلى البحر المهدَّدِ بالرصاصِ

سأتركُ البيتَ المعرَّضَ للقذائفِ، حيثُ أوراقي تَطايَرُ

في هواءِ السُّمِّ والبارودِ...

خلَّفتُ الحقائبَ كلَّها؛ وهي الخفيفةُ. وارتقيتُ

السُّورَ مرتبكاً:

تركتُ الماندولين!

لندن، ٢٧/١٠/٢٠٠٤

ذِكرياتٌ من هناك

ماذا سأفعلُ هذا اليومَ؟
صاحبتي قد سافرتْ نحوَ روما، الفجرَ...
ما اتَّرَكَتْ على الـمُلاءاتِ ضوعاً، و انطواءَ مخدّةٍ
أو غضوناً تجتلي، سَحَراً، مَتْنَ الفراشِ؛
لقد مضتْ مثلَ ما جاءتْ
مُنَعَّمةً
قريرةَ العينِ
في سروالِها الذهبُ الصَّفِيُّ غَزْلٌ
وفي أردانها الياسمينُ...
اليومَ، يأخذني الموجُ:
.....
.....
.....
العشيّةَ في باريسَ، منتظِرٌ أنا الفتاةَ التي كانت وراءَ البار منذُ صباحِهِ؛
البنتُ سوف تُتِمُّ الآنَ سابعَ ساعاتِ العبوديّةِ،
الشخصُ ذو العدساتِ السودِ سوف يسلِّمُ البنتَ أجْرَ اليومِ...

قلتُ لها:
ماذا عليكِ لو استخدمتِني؟
أنا، يا نِيكول، أفقرُ من أن أستغلَّكِ...
لا، بل أقولُ... أنا دوماً أُحبُّكِ: : : !
فلْنذهَبْ إلى سان أنطونَ...
النبيذُ والجُبنُ
خبزُ القريـةِ....
المساءُ في حَومة الباستيلِ!
أعرفُ أن الغرفة الآنَ قد تبدو مجازفةً
ونحنُ في سان أنطونَ العجيبِ؛
إذاً
لن أذكرَ الغرفةَ!
الليلُ البطيءُ... يُجَرْ...يُجَر...جِرُ...في الباستيلِ خطوتَهُ...
الناسُ الأُلى هدأوا بعد النبيذِ وخبزِ القريةِ التأموا على الضفافِ؛
وأسألُ نيكولَ:
الطريقُ إلى المَمَرِّ والغرفة العُليا، أنقصدهُ من ههنا؟
.....
.....
.....
رَبِّ، ماذا؟
إنّ صاحبتي قد سافرتْ نحو روما، الفجرَ...
ما اتَّرَكَتْ...

لندن، ١/ ٥/ ٢٠٠٥

أطاعَ غناءَ الحوريّاتِ

هو لم يخسرْ شيئاً حينَ أطاعَ نداءَ الحوريّاتِ...
لقد غامَرَ حقّاً:
حطَّمَ مركبَهُ، عَمْداً، عند صخورِ الشاطيءِ،
فاضطُرَّ إلى أن يسبحَ
كي يمسكَ جِذعاً أنقَذَهُ من غرقٍ حَتْمٍ...
ـ كان غناءُ الحوريّاتِ يهدهدُهُ حتى في الغرقِ الماثلِ ـ
كان سعيداً؛
أغفى، ملتَفّاً بالرملِ الدافيءِ
والأصدافِ
وهدهدةِ الحوريّاتِ؛
ولم يستيقظ إلاّ بعدَ ثلاثِ ليالٍ من حُلُمٍ...
في ليلتهِ الأولى
سارَ إلى سفْحٍ وتَمدّدَ في كوخ رُعاةٍ،
في ليلته الثانيةِ
استَلقى بين زهورِ الخشخاشِ،
وفي ليلته الثالثةِ
اختارتْه الحوريّاتُ السَّبعُ لِيُمسي الأُضْحِيةَ...

.....

.....

.....

البَحّارُ أفاقَ

ـ كما في القَصصِ الأولى ـ

يفرِكُ عينيهِ، ويشعرُ بالجوعِ وبالعطشِ...

الوقتُ ضحىً

والبحرُ الهاديءُ كان يُوَشوشُ... وِشْوِشُ... وِشْوِشُ... وِشْوِشُ

ثمّتَ عينٌ يترقرقُ فيها الماءُ

ويكشفُ عن حصباءَ ملوّنةٍ وحصىً أزرقَ؛

واللوتُسُ طافٍ

يلمعُ إذْ يتضوّعُ:

هل تقطفُني يا بحّارُ؟

اقطفْني يا بَحّارُ

اقطفْني أُطعِمْكَ من الجوعِ

اقطفْني!

.....

.....

.....

لم يعُدِ البَحّارُ يرى غيرَ صخورِ جزيرتِهِ

غيرَ السمكِ الميْتِ

وغيرَ طيورٍ متوحشةٍ قد تأكلُهُ يوماً...

لكنّ البحّارَ يفكرُ ثانيةً:
أوَلستُ أرى الآنَ المِرآةَ؟
إذاً وَهْماً كانت سنواتُ الرِّحلةِ...
وهماً كان نشيدُ البحر!

لندن، ٢٥/١٢/٢٠٠٤

خاطرةٌ عن المِرآة

بضعُ صديقاتٍ أتينَني بالأُصُصِ اللائي تراها الآنَ في بيتي...
لم يأتِ حتى واحدٌ من أصدقائي بِـ...
النوافذُ الأربعُ
والطاولةُ الخفيضةُ
السُّلَّمُ، والركنُ الذي في غرفة النومِ... إلخ
تحفظُ ما جاءت به يوماً صديقاتي؛
.....
.....
.....
إذاً، هل يَصْدُقُ القولُ عن العنقاءِ والغولِ؟
أنا، اليومَ، أُرَوِّي العِرْقَ في مملكةِ الأزهارِ
أغْذوهُ بما أَكْنِزُ من ماءٍ
ومن رنّاتِ أسماءٍ وأضواءٍ ولألاءِ عيونٍ...
إنها حديقتي
مُلْتَجأي في وحشةِ الليلِ
ومِرآتي التي أقرأُ فيها المَشهدَ الآفِلْ.

لندن، ٢١/ ٥/ ٢٠٠٥

الطبيعةُ تلعبُ بي...

هاأنتذا حِلٌّ بهذا البلدْ طقسٌ شتائيٌّ، ويومٌ أحَدْ...
ما أقربَ الجنّةَ!
إن البحيراتِ تَراءى، والنجومَ اللواتي غِبْنَ
يأتينَ
كما تأتي فتاةُ الدَّنَفِ الأوّلِ في الحُلْمِ؛
انتبِهْ!
ساقيةُ البارِ تحيّيكَ...
فأنتَ الرجلُ المُمْعِنُ في التهذيبِ حدَّ اللعنةِ؛
الصِّبْيانُ يصطادون أعشاباً من القاعِ،
وفي بحرالشمال اصطفّتِ الأسماكُ كالسّردين في حاويةِ القبطانِ
.....
.....
.....
سِيْدُورِي!
إذاً...
هاأنتذا حِلٌّ بهذا البلدْ
طقسٌ شتائيٌّ ويومٌ أحَدْ!

فجأةً. يتَنَزّلُ المطرُ بقطراتٍ كبيرةٍ. المطرُ صائتٌ ربّما للمرة الأولى في هذا البلد. لستُ أعرفُ ما أنا فاعلٌ. سأخرجُ إلى ساحة القرية. سأقولُ (لنفسي، فالناسُ في شُغُلٍ عني بشؤونهم) مباركةٌ هذه العشية. مبارَكٌ ما تقوله أيها السيّدُ. مبارَكٌ ما تسكتُ عنه أيها السيّدُ. ومباركةٌ هي الأرضُ التي ترتضيك متسائلاً. لتنتقِعْ كتفاكَ بالغيثِ مدراراً. ولْيَقْطُرِ الماءُ من عينيكَ. إبكِ ولو تحت المطر...

هاأنتذا حِلٌّ بهذا البلدْ
طقسٌ شتائيٌّ ويومٌ أحدْ!

من شواهد «لسان العرب»:
عَدَسْ! ما لِعَبّادٍ عليكِ إمارةٌ نجوتِ، وهذا تحملينَ طليقُ...

هاأنتذا حِلٌّ بهذا البلدْ
طقسٌ شتائيٌّ، ويومٌ أحدْ!

لندن، ٢٥/٨/٢٠٠٤

البريدُ الليليّ

هذه الرسالةُ ـ النصُّ، وصلتني البارحة. كنتُ عائداً من مشرب القريةِ

بعدَ أن أدّيتُ طقسي المسائيّ باحتساءِ كأسي الكبيرة

من البيرة السوداء. عند أُولى درْجات السُّلَّم، في منزلي،

وجدتُ المُغَلَّفَ، وكان شِبه مدعوكٍ. كان الأمر مفاجِئاً

إذْ ليس من بريدٍ في مثل هذه الساعة، كما أن المغلّف كان بلا طوابع أو أختامٍ. قلتُ: البريد أمرٌ غامضٌ عبر التاريخ. سككُ البريدِ (كما سمّاها الفرزدقُ) كانت للملِك. للخليفة. لِظِلِّ الله.

إذاً، ثمّتَ ما يصلُ بين البريد واللامعقول... خُذْ هذه الرسالة مثلاً...

مَن كتبها؟ المرسِلُ لم يذكر اسمَه. كلّفني المشقّةَ.

ومع قراءتي الرسالةَ، فهمتُ أنّ أُمّةً كاملةً من الجنِّ كانت في المتْنِ.

خمسة عشر قرناً من الجنون... ما شأني أنا بهذا؟ أنا المترهِّبِ في منزلٍ ريفيٍّ، في رَبْضٍ من أرباضِ لندن؟ النرجسُ البرِّيُّ مبكرٌ جداً، وأسرابُ السنونو أيضاً. المطرُ المنهمرُ دوماً ينهمرُ دوماً، وأنا شِبهُ دائخٍ. قلتُ: فَلأَمضِ مع الرسالة. امضِ، فرُبّتَما هدأتْ هواجسُكَ.

على أي حالٍ... أنا لم أتوقّفْ في قراءتي، لأتَثَبّتَ من النصوصِ،
وأدقِّقَ في روايتِها. خُذي عَبَراتِ عينِكِ عن زَماعـي
وصونِي ما أذَلْتِ من القناعِ. آآلِفةَ النحيبِ كم افتراقٍ أجَدَّ فكانَ
داعيةَ اجتماع. وليستْ فرحَةُ الأوباتِ إلاّ لموقوفٍ على ترَحِ الـوداعِ.
أُسائلُها أيَّ المَواطنِ حَلَّتِ، وأيَّ بلادٍ أوطأتْها وأيَّةِ...؟
وماذا عليها لو أشارتْ فودّعتْ إلينا بأطرافِ البنانِ وأومَتِ. ولي
دونكم أهلونَ: سِيْدٌ عملَّسٌ، وأرقطُ زهلولٌ وعيفاءُ جَيهَلُ. تمنيتُ أني
بين روضٍ ومنهلٍ مع الوحشِ لا مِصراً حللتُ ولا كَفْراً. ولَمّا
قضينا من مِنىً كلَّ حاجةٍ ومَسَّحَ بالأركانِ مِن هو ماسحُ، وشُدّتْ
على حُدْبِ المَطايا رِحالُنا، ولم يعرف الغادي الذي هو رائحُ...
أخذْنا بأطرافِ الأحاديثِ بيننا، وسالتْ بأعناقِ المَطيِّ الأباطحُ.
لقد زِدتَ أوضاحي امتداداً ولم أكُنْ بهيماً ولا أرضى من الأرضِ
مَجْهَلا ولكنْ أيادٍ صادفتْني جِسامُها أغرَّ فأوفتْ بي أغرَّ مُحَجَّلا.
إذا المِلِكُ الجبّارُ صَعَّرَ خدَّهُ مشينا إليه بالسـيوفِ.

كأنكَ لم تسمَعْ بقتلِ مُتَوَّجٍ مليكٍ، ولم تسمَعْ... رمى واتَّقى
رميي، ومِن دونِ ما اتّقى هوىً. ما كان ضرَّكَ لو عفوتَ وربّما
يعفو الفتى وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ. ظلّتْ سيوفُ بني أبيه تنوشُهُ
للّهِ أعراضٌ هناكَ تُمَزِّقُ! لَربّيتُهُ حتى إذا آضَ شَيظَماً
أخا الفحلِ واستغنى عن المسحِ شاربُهْ، تَغَمَّطَ حقي ظالماً ولوى
يدي لوى يدَهُ اللهُ الذي هو غالبُهْ. ربّيتُهُ مثلَ... حتى إذا آضَ كالفُحّالِ
شذَّبَهُ أبّارُهُ ونفى عن متنِهِ الكَرَبا، أضحى يمزِّقُ أثوابي
يؤدِّبُني... أبعدَ شيبيَ عندي يبتغي الأدبا؟ أعائشُ: لولا أنني كنتُ
طاوياً ثلاثاً

لألقيتُ ابنَ أُمِّكِ هالكا، غداةَ ينادي والرماحُ تنوشُهُ كوقع الصياصي، اقتلوني ومالِكا! قومي همو قتلوا أُمَيمَ أخي، فإذا رميتُ أصابَني سهمي

ولَئِنْ عفَوتُ لأَعْفُوَنْ جللاً، ولَئِنْ قسوتُ لأُوهِنَنْ عَظْمي!

إليكِ، إليكِ يا بغدادُ عنِّي

فإني لستُ منكِ ولستِ منِّي

ولكني وإنْ كثُرَ التجنِّي

يَعزُّ عليَّ يابغدادُ أني...

فلِمَنْ تغنِّي والمقاهي أغلقتْ أبوابَها؟

.....

.....

.....

مطر

مطر

وفي العراق جوع.

لندن، ٤/ ٢/ ٢٠٠٥

لا قهوةَ في الصباح

لليوم الثالثِ
لم أتناولْ قهوةَ صُبحٍ؛
ليس لأني لا أعرفُ كيف أُعِدُّ القهوةَ
أو أني لم أشتَرِ بُنّاً
(لا سُكّرَ)
قد تتساءلُ: «ما شأني؟»
حقاً... ما شأنُكَ أنتَ؟
سواءٌ، كانت لي قهوةُ صُبحٍ
أم لم تكنِ...
الغيمُ، مُسِفٌّ، دانٍ، هذا اليومَ
ولم تَتَراءَ الشمسُ
تماماً، كالقهوةِ، منذ ثلاثةِ أيّامٍ
وأَزيدُكَ أن فتاتي لم تأتِ، ولم تهتفْ، منذ ثلاثةِ أيّامٍ
وأزيدُكَ أكثرَ أنّ قوائمَ باهظةً للغاز أتتني منذ ثلاثةِ أيامٍ...
.....
.....
.....

وأخيراً:

أنباءُ جنودِ «الحرس الأسود»

The Black Watch

في بابلَ...

*

أنتَ صديقي العالقُ، مثلي، بالإنترنت...

أنت صديقي؛

إنْ لم أشْكُ لكَ البلوى،

فَلِمَنْ أشكو؟

لندن، ٢٥/١١/٢٠٠٤

كلامٌ فارغٌ

لكمُ البلادُ،
ولي البَلادَةُ...
إنني لا أفهَمُ الPolitics
سوف تقولُ لي:
إنْ كنتَ حقّاً هكذا، فاخْرَسْ: : !
لماذا تخلطُ الأوراقَ؟
دَعْنا ننتفعْ من غفلةِ التاريخِ...
دَعْنا نَستفِدْ من أهلِ روما، مالَ روما؛
حِقْبةٌ، وتَمُرُّ...
يا مُتَنَسِّكاً بين «القرى المتهيِّباتِ خطاكَ، والمُدُنِ الغريبةِ»:
نحنُ، نحنُ، رفاقُكَ ـ
انتبِهِ!
الرصاصةُ سوف تكونُ وارِدَةً...
.....
.....
.....

إذاً، فَلأعترِفْ:

لكمُ البلادُ

ولي البَلادةُ...

إنني لا أفهمُ الـ Politics

لندن، ٢٧/ ١/ ٢٠٠٥

بِيانُو كوندوليزا رايس

The Piano of Gondoliza Rice

آهِ يا بوب مارلي...

O, Bob Marley!

كيف أُوقِفُ هذا القطارَ؟

Stop the train!

كيف أُوقِفُهُ؟

أنتَ لا تعرف المرأةَ المستريحةَ عند البيانو...

هي سوداءُ حقاً؛

ولكنها يا عزيزيَ ليست صديقةَ حُلمِكَ، نينا سيمون

آهِ Nina Simone!

هذه المرأةُ المستريحةُ عند البيانو

لم تكن في زمانكَ شيئاً

(هي كوندوليزا رايس)

أمّا المفاتيحُ، أعني مفاتيحَ ما قد نراه البِيانو

فهي أبوابُ مملكةٍ للجحيم...

آهِ، يا بوب مارلي
يا صديقي
يا صديقَ الزمانِ...
يا صديقَ الأغاني التي تتحدّث عن قارة الحُلمِ
والحبّ
والعنفوانِ العظيم؛
أنتَ لن تشهدَ السيِّدةْ
لن ترى كيف تأتي مفاتيحُها بملائكةِ الرّعبِ،
أو كيف تفتحُ أبوابَ أحلامِها لكلاب جهنّمَ...
لن تشهدَ العصْفَ يطوي سماواتِ بغدادَ، مثلي...
O, Bob Marley!

لندن، ١٨/ ١١/ ٢٠٠٤

من ساحة الجمهورية إلى الطُرُق الأربعة

De La place de La Republique a Quatre Chemins

ينتصفُ الليلُ بطيئاً
أبطأَ من آخِرِ كأسٍ تأخذُها قبل رحيلِكَ من دفْءِ البيتِ إلى الشارعِ؛
أحياناً تخرجُ مطروداً في أدَبٍ جَمٍّ...
مثلاً تسمعُ من صاحبِكَ: المترو يتوقّفُ بعدَ قليلٍ،
أو أن امرأةً ما سوف تجيءُ...
.....
.....
.....
عليكَ الآنَ مغالَبةُ السُّكْرِ
ودقّاتِ الساعةِ
والجوعِ...
عليكَ الآنَ فداحةُ أن تبدأَ خطوتَكَ الأولى
في الليلِ الباريسيّ، عَدُوِّ الفقراءِ؛

الليلِ الباريسيّ، بُحَيرةِ أَحْلاسِ الليلِ، وحُرّاسِ الليلِ
وأَبعادِ الليلِ
وقد صارَ الكيلومترُ الواحدُ إثنينِ...
فأيّانَ، إذاً، تبلغُ تلكَ الطُّرُقَ الأربعةَ؟
الطُرُقَ الأربعةَ...
الغرفةَ حيثُ حَشِيَّتُكَ المُتْرِبةُ
المُنعطَفَ المعتِمَ
حيثُ القَتْـــل!

لندن، ٢٧/ ٥/ ٢٠٠٥

(*) المقصودان هنا: ساحة الجمهورية ومنطقة الطرق الأربعة بباريس.

قصيدةُ مَديحٍ

مبارَكٌ يومُكَ، يا سيِّدَ هذي الغَيْضةِ: المَرْتَعِ للسائل والمحرومِ واللصِّ،
مبارَكٌ ما كنَزَتْ عيناكَ من نورٍ
وما قد أنبَتَتْ كَفّاكْ من زَهرٍ...
مبارَكٌ لكَ الوِسادُ ناصعاً
مبارَكٌ لكَ المبيتُ في القَفْرِ
مبارَكٌ كلْبُكَ بالوصيد باسطاً مثلَ التماثيلِ ذراعَيهِ
مبارَكٌ ما تشتهيه امرأةٌ عندَكَ في الفجرِ
مبارَكٌ صوتُكَ في تَأْتأةِ الحقِّ
مبارَكٌ قميصُكَ المقدودُ مِن قُبْلٍ
مبارَكٌ بابُكَ مُشْرَعاً
مبارَكٌ مَفْرِقُكَ التاجُ
مبارَكٌ ضَياعُكَ،
القولُ بِـ: «لا»، مبارَكٌ...
مبارَكٌ رِسْغُكَ مغلولاً إلى الصَّخرِ
مبارَكٌ هذا الدمُ النافرُ من عِرْقِكَ كالنبيذِ
المنتهى مبارَكٌ كالبدْءِ

والصمتُ مبارَكٌ كالقولِ...
يا سَيِّدُ
يا عَبْدُ
ويا رَبُّ،
مبارَكٌ منَ يجهلُ الدربَ...
مبارَكٌ من طافَ في متاهة الروحِ بلا عكّازةٍ؛
مبارَكٌ مَن وَدَّعَ الجميع!

لندن، ٢٠/ ٥/ ٢٠٠٥

طُـهْرٌ

لِـ«كَسْتناءِ الحصانِ»(*) اشتقتُ في سَـفَري
لا نخلةُ اللهِ شـاقَتْني ولا الأَثَـلُ
ولا ذوائبُ لبلابٍ
ولا سَمَكٌ يُلاعِبُ الماءَ...
قالوا: ثَـمَّ فاختةٌ تأوي إليكَ مساءً!
قلتُ: مُنْتَبَذي مأوى العذارى ذواتِ الريشِ؛
لا امرأةٌ قد آنَسَتْني
ولا ليلى تُرَطِّبُ لي مَتْنَ الفِراشِ
فلا نُعْمى
ولا قُبَلُ...
كأنّ قُطْنَ فِراشي حينَ ألمُسُهُ
سجّادةٌ بالبياضِ المَحضِ تحتفلُ.

لندن، ١٩/ ٥/ ٢٠٠٥

(*) كستناء الحصان: شجرةٌ تزهر في الربيع كؤوساً بِيضاً، أو بُنِّيّةً.
في حديقة منزلي، بضواحي لندن، دوحةٌ منها، تأوي إليها الطيورُ، وتتّخذُها السناجيبُ مسكناً وملعباً دائمَينِ.

استِجابةٌ

في الساحة ينهمر المطرُ
منذ ثلاثة أيامٍ ينهمرُ المطرُ
حتى عَرِيَتْ دَوحةُ تُوتٍ في أعلى البستانِ
وكَفَّ الصفصافُ الباكي عن شُربِ الماءِ من البِرْكةِ،
لا عصفورَ
ولا عَقْعَقَ
لا سنجابَ
ولا قطّةَ...
أحياناً يأتي النورسُ، منفرداً، من جهةِ البحرِ
كأنّ العالَمَ، كلَّ العالَمِ، بحرٌ...
.....
.....
.....
أتُرانا الغَرقى؟
أَمْ أنّا نغرقُ فعلاً...
أمْ أنّا قد نُنْبِتُ أجنحةً فنَطِيرُ!

لندن، ٤/١٠/٢٠٠٤

نظرةٌ جانبيّـةٌ

حين تنظرُ عبرَ الزجاجِ الموارِبِ نظرتَكَ الجانبيةَ
تبصر أن الغيومَ ارتدتْ ورقاً من غصونٍ زجاجيّةٍ...
هل تمادى الرذاذُ على مَسكن النملِ؟
هل هجستْ سلّةُ الزهرِ سنجابَها يترجّحُ؟
هل كنتُ أهذي بأسماءِ مَن رحلتْ أمسِ
تاركةً مخدعي بارداً يتنفّسُ؟
.....
.....
.....
كان القطارْ
مسرعاً بين قُصوى محطّاتهِ والمطار...
انتبهتُ إلى أنني لم أكن في دمشقَ؛
ولا أنا في القاهرةْ '
وانتبهتُ إلى أن أمطارَ آبٍ حقيقيّةٌ
مثلَ ما أنني جالسٌ لِصقَ نافذةٍ...
أسمعُ الآنَ صوتَ الرذاذِ الذي صار في لحظةٍ مطراً
أسمعُ الطائراتِ...

الصواريخُ تنقضُّ؛

.....

.....

.....

إني أُقِيمُ الصّلاة.

لندن، ٢٠/٨/٢٠٠٤

سـانْتْ آيفيس St. Ives(*)

ينفتحُ الشاطيءُ كالحدوةِ...
من أعلى التلّ تطلُّ كنيسةُ بَحّارةْ
ويطلُّ الموتى، وشواهدُهم في أيديهم، يستافونَ شميمَ البحرِ
ويضطربون مع الأمواجِ
ومَن ركبوا هَبَواتِ الأَمواجِ؛
الريحُ ستهدأُ بِضعَ دقائقَ،
سوف يعودُ الموتى نحو أسِرَّتهم في الغسقِ المتَرَذْرِذِ
ناسينَ شواهدَهم بين مَنابتِ أشجارٍ قصفَتْها الريحُ...
الآنَ
سيفتتحُ المَمشى البحريُّ مطاعمهُ
ومَشاربَهُ،
ولَسوفَ تجيءُ الفتياتُ من الماءِ مباشرةً
مبتلاّتٍ
أَنصافَ عرايا...
ستكونُ الموسيقى صاخبةً.

(*) St.Ives سانت آيفيس: مرفأ صيادين وفنّانين في أقصى شمال كورنوال Cornwall، على الساحل الجنوبيّ الغربي لإنجلترا

.....

.....

.....

أيُّ بيوتٍ ستقولُ لنا: أهلاً؟
لقد انتصفَ الليلُ
وأغفى السامرُ
واستكملت الأبوابُ مَغالِقَها...
لكنّا، نحن الإثنينِ، نتابعُ في الطرقاتِ القَفْرِ، متاهتَنا
لا بابَ لنطرقَهُ
لا شُبّاكَ لننظرَ فيهِ
ولا مِرآةَ لتنظرَ فينا؛
نحنُ، الإثنينِ، علينا أن نستوفيَ دورتَنا...

.....

.....

.....

هل ينفتحُ الشاطيءُ كالحدوةِ
كي نبصرَ في أعلى التلِّ كنيسةَ بَحّارةْ
فنُصلِّي فيها حتى ينبلجَ الفجر؟

سانت آيفيس، ٥/٩/٢٠٠٤

تعشيقٌ

ليس بالمعنى الدقيقِ، القولُ:
إنّ امرأتي (أعني فَتاتي) هجرتْني فجرَ هذا اليومِ...
حقّاً، خطفتْ سروالَها والصُّدْرةَ الصوفَ، من الكرسيّ
ثمّ اندفعتْ، مُطْبِقةً باباً، لكي تهبطَ كالبرقِ
على السُّلَّمِ...
كانَ المطرُ استجمَعَ ما يَهوي به فوقَ الزجاجِ؛
الريحُ
لم تتركْ على الأشجار إلاّ بضعَ أوراقٍ
كأن الأرضَ كانت، منذُ كانت، ورقاً أصفرَ مبلولاً ومبذولاً...
أقولُ: المرأةُ ـ القطّةُ
حقاً غادَرَتْني... وهي لم تعبأْ بما يعصفُ
لم تعبأْ بما لا يوصَفُ: الرعدِ، وهذا الوابلِ المُنْهَلِّ...
والرجفةِ؛
طولَ الليلِ كانت طائراتٌ تَعْبرُ الأعصابَ نحوَ البصرةِ.
الريحُ هديرٌ معدِنيٌّ
شاحناتٌ هي إيكاروسُ ليليّاً
ومَعنى القولِ...

لم أعرفْ لماذا لم أقُلْ للمرأةِ: اسْتَأني رجاءً!
ولماذا لم أَقُمْ من مضجعي أَتبَعُها...
أنا شخصٌ ساذجٌ
في منتهى التهذيبِ...
يشتدُّ هديرُ الطائراتِ
الريحُ لا تحملُ إلاّ الطائراتِ
الطائراتِ
الشاحناتِ الجُنْدَ في الليلِ إلى البصرةِ.
إن امرأتي أطبقتِ البابَ
لكي أُصغي إلى صمتي وحيداً...

لندن، ٢٤/١٠/٢٠٠٤

أبْلَـهُ الحَـيّ

النوافذُ
ذاتُ الستائرِ مُحْكَمَةً، والزّجاجِ المُضاعَفِ
والبُخْلِ في النورِ...
هذي النوافذُ
أيّانَ يُمسي ليَ الحقُّ في أن أُزيحَ ستائرَها
وأُخَفِّفَ من هولِ ذاكَ الزجاجِ المضاعَفِ
أو أجعلَ النورَ يشْتَطُّ فيها؟
ليسَ لي مهنةٌ أتَحَصَّنُ في ثوبِها كي أدُقَّ على البابِ...
كي أنصحَ (الساكنَ؟) الساكنينَ
بأنْ يستقبلوني
وأنْ يسمحوا لي
بِخِدْمَتِهِم:
أنْ أُزيحَ الستائرَ... حتى ولو بالكلام!

لندن، ٢٥/ ٥/ ٢٠٠٥

عَوّامَةُ النِّيل

لا موجَ، ولا ريحَ؛ وثَمَّتَ رائحةٌ من كافورٍ إفريقيٍّ وفَريكِ الشِّيحِ.

سريري خشبٌ يتهادَى فوقَ الماءِ، تَهادى... يتهادَى... يتهادَى. النِّيلُ

يتابعُ مَجراهُ شمالاً، يصنعُ جسرَ سُليمان، وكورنيشَ الجامعةِ. العَوّامةُ

من خشبٍ رَطْبٍ، وحديدٍ لم يُصبَغْ منذ سنينَ. العوّامةُ ٨١. ولي طابقُها الأسفلُ،

لي مَعْبَرُها ذو أزهارِ الجَنبَينِ، وهدهدةُ الدَّوحِ، وأغنيةُ المَلاّحينَ. زوارقُهم

تأتيني بالخضرة والفاكهةِ. الفجرَ استيقظتُ فلم ألْقَ ضجيعةَ آخرِ ليلي. لكنّ النيل يُهدهِدُني

ويُهَدِّئني: أَغْمِضْ عينيكَ! فأُغمضُ عَينَيَّ. سأهبطُ نحوَ الوادي.

أَدخلُ مصرَ. إذاً: ! حجرٌ رمليٌّ وغرانيتُ، وأصباغٌ من نَبْتٍ منقرِضٍ،

وتماثيلُ لآلِهةٍ بَشَرٍ، وطيورٍ، وتهاليلُ إلى قططٍ، وتماسيحُ،

وصحنٌ من ألْسِنةِ العصفورِ.

العوّامةُ ٨١، أقاربَ شمسٍ أُبْصِرُ؟ قاربَ شمسٍ يتهادَى... هادَى... يتهادَى... هادَى؟

لم يتركْ لي كافافي شيئاً أفعَلُهُ. لكنّ الشيخَ اليونانيّ هنالك عند البحر يُصمِّم

مستوطنةً للإغريقِ الآتينَ من التاريخِ و لا بيتَ لهم. سأنامُ سعيداً في العوّامةِ ٨١، أنامُ

وأركضُ بين الوادي والبحرِ...

.....

.....

.....

سبيلي الأوحَدُ: ماءٌ يتهادَى... هادَى... يتهادَى... هادَى.

لندن، ٣/ ٥/ ٢٠٠٥

النَّقيضُ

هو: حانةٌ صغرى

(أظنُّ نِزار قبّاني بـ «طوقِ الياسمينِ» استعملَ التعبيرَ: أعني حانةً صغرى، لأول مرةٍ...)

لكنّ هذا البارَ في غربيّ إيلنغَ الفقيرةِ

(Poor West Ealing)

ليس كما أحَبَّ نِزارٌ!

البابُ الموارَبُ سوف يَدخلُهُ الزبائنُ منذ مقتبَلِ الضحى؛

لا ظِلَّ لامرأةٍ تُراقِصُهم،

ولا مرأىً لخاصرةٍ تَكَسَّرُ في الضياء النّزْرِ،

لا زهرٌ يباعُ موزَّعاً بين الموائدِ

لا حديثَ يدورُ

لا جازٌ ولا لَعِبٌ...

.....

.....

.....

و منذ سنينَ خمسٍ كنتُ ألقى في الضحى أشياخَ إيرلندا

متكأكِئينَ إزاءَ ساقيةٍ وراءَ النُّضْدِ

مبتسمينَ...
كانوا، شأنَـهمْ دوماً، يلفّـونَ السجائرَ صامتينَ
ويحتسونَ البيرةَ السوداءَ.
أحياناً، أُحَيِّيهِم فأسْتأني
وأحياناً أُتابعُ خطوتي، متعجِّلاً، لأكونَ عندَ النُّضْـدِ...
لكنّ الشيوخَ يتابعونَ الصمتَ والتدخينَ
أشباحاً
كأني ما مررتُ بهم...
وكأنني شبحٌ سيدخلُ في الجدارِ ويختفي...
.....
.....
.....
ما أطولَ السنواتِ!
ما أنأى الـمَـدى!

.....
.....
.....

أمسِ انتهيتُ إلى حقيقةِ ما ظننتُ المستحيلَ:
عرفتُ أني صِرتُ
شيخاً

صامتاً

متطامنَ الحركاتِ

من أشياخِ إيرلندا...

Lancaster 12/11/04

القصيدةُ قد تأتـي...

يوماً، فَيومينِ، تعوي الريحُ
والمطرُ الكبيرُ ذو القطراتِ المُشْبَعاتِ كحبّاتِ المَسابحِ
والزّعرورِ
يَطرُقُ شُبّاكي
وينهمرُ
مُغَلْغِلاً تحتَ جِلْدي بَرْدَهُ؛
أهِيَ الرطوبةُ الآنَ،
أَمْ أنّ العِظامَ غدتْ قبلَ الرميمِ رميماً؟
أَمْ هوَ القَدَرُ
أن يستَديمَ معَ الأرواحِ مُضطَرَبي
ومستَقَرِّيَ أقصى الغابةِ؟
.....
.....
.....
ابتَعِدي عنِّي، إذاً، يا فتاةَ البحرِ...
واتَّرِكي على المُلاءاتِ عَرْفاً منكِ، أكنِزُهُ مُضَوَّعاً،
ضائعاً بين الجدارِ وباب الجنّةِ!

.....

.....

.....

الشجرُ المبْتَلُّ
يبدو شفيفاً
ثَمَّ أُغنيةٌ من طائرٍ مُسرِعٍ
والغَيمُ ينحسرُ.

لندن، ١٠/ ١/ ٢٠٠٥

إذاً... خُذْها عندَ البحرِ

قد جاءتكَ، متوَّجةً، فارعةً
متهلِّلةً
وعلى مَفرِقِها النجمُ القُطبيُّ...
مزركشةً
أغصاناً وغلائلَ، دوحةَ ميلادٍ، في لحظةِ ميلادٍ
ستدقُّ البابَ، لينفتحَ البابُ؛
أتأخذُها في أدنى السُّلَّمِ
منتصبَينِ وملتصقَينِ
كصندوقِ كمانٍ...
أَمْ تُمهِلُها كي ترقى السُّلَّمَ ذا الدّرْجاتِ السَّبعِ؟
تفكِّرُ أنتَ:
المَمشى بين نهايةِ هذا السلَّمِ والغرفةِ
أطولُ من أن تتحمّلَهُ
من أن تصبرَ...
هل تأخذها في المَمشى؟
هل تهصرُها لِصقَ الحائطِ؟
لكنْ ستفكِّرُ أنتَ:

لماذا لا تتبعُها حتى الغرفةِ
حتى متنفَّسِ ضَوعِ أراكٍ، ومَجَسِّ حريرِ أرائكَ...؟
سوف ترى شمساً بينكما
شمساً ومجرّةَ أقمارٍ
ونَثيثاً من طَلٍّ سرّيٍّ...
ولسوفَ تكونانِ سعيدَينِ ومرتجفَينِ؛
.....
.....
.....
تفكِّرُ أنتَ:
ولكنّ بهاءً كبهاءِ الزائرةِ العُليا أقدسُ من أن يؤخَذَ
بين أراكٍ وأرائكَ...
إنّ بهاءً يستغرقُ كوناً لا يتحمّلُ ضِيقَ مكانٍ؛
.....
.....
.....
حسناً يا ولدي!
الآنَ تعلَّمتَ من الغائبِ شيئاً
وعرفتَ...
إذاً، خُذْها عندَ البحر.

لندن، ٨/ ١٢/ ٢٠٠٤

النَّمِر

وِلْيَمْ بْلَيْك William Blake

١٧٥٧ ـ ١٨٢٧

نَمِرُ، يا نَمِرُ، يا مُتَّقِداً وَهَجاً

Tyger , Tyger , burning bright

في غاباتِ الليل

In the forests of the night

أيُّ يدٍ آبِدةٍ أو عَينٍ تحيطانِ بتناسُقِكَ الرهيبِ؟

What immortal hand or eye, Dare frame thy fearful symmetry?

في أي أعماقٍ أو سماواتٍ

In what distant deeps or skies.

تشتعلُ نارُ عينيكَ؟

Burnt the fire of thine eyes?

بأيّ جناحَينِ يجرؤُ على التحليق؟

On what wings dare he aspire ?

وبأيّ يدٍ يجرؤُ أن يقبضَ على النار؟

What the hand , dare seize the fire?

وأيُّ كتِفٍ، وأيّ مهارةٍ

And what shoulder ,& what art ,

قادرتانِ أن تلويا نِياطَ قلبِكَ؟

Could twist the sinews of thy heart ?

وآنَ شرعَ قلبُكَ ينبِضُ

And when your heart began to beat ,

فيا لَها من رهبةِ يدٍ؟ ويا لَها من رهبةِ قَدَمٍ؟

What dread hand ? & what dread feet?

بأيّ مِطْرقةٍ؟ بأيّ سلسلةٍ

What the hammer ? what the chain,

وبأيّ أتُّونٍ كانَ دماغُكَ؟

In what furnace was thy brain?

أيُّ سندانٍ، وبأيّ مَمْسَكٍ

What the anvil ? what dread grasp,

يُطْبَقُ على إرعاباتهِ المُهلِكة!

Dare its deadly terrors clasp!

آنَ ترسِلُ النجومُ رماحَها

When the stars threw down their spears

وتُرَوِّي السماءَ بدموعِها:

with their tears¤ And water'd heaven

أتُراهُ سيبتسمُ لِمَرأى ما فَعَلَ؟

Did he smile his work to see ?

أ مَن خلَقَ الحَمَلَ خَلَقَكَ؟

Did he who made the Lamb make you ?

نَمِرُ، يا نَمِرُ، يا متّقِداً وَهَجاً

Tyger Tyger , burning bright ,

في غابات الليل

In the forests of the night:

أيُّ يدٍ آبِدةٍ أو عَينٍ

What immortal hand or eye ,

تحيطانِ بتناسُقِكَ الرهيب؟

Dare frame thy fearful symmetry ?

(*) تمّت ترجمة القصيدة بلندن يوم ٢٤/ ٥/ ٢٠٠٥

تعليقُ حَواشٍ:

يمكنُ القولُ إن وليم بْلَيك، كان بروليتاريّاً قبل المصطلَح. كان متدرِّباً، ثمّ حفّارَ كلائشَ معدنيّةٍ، طَبّاعاً بتعابيرَ من زماننا. ولأنه بروليتاريّ في سوهو القديمة، قريباً من سانتْ مارتن كَلِجْ الحالية، بلندن، أيّدَ الثورةَ الفرنسيةَ، واعتبرَ نفسَه مناضلاً في سبيل الحقّ. كان متّقدَ الإيمانِ، معتقداً أنه سيطير مع الملائكة. وفي احتضاره، ظلَّ يغَنِّي، وقد رأى نفسَه مع الملائكةِ، حتى توَفّاه الله الذي آمَنَ به جداً. قصيدته الشهيرة «مُنظف المداخن» The Chimney Sweeper التي كتبها في العام ١٧٨٩ (عام الثورة الفرنسية)، تُعتبَر لدى الأوساط اليسارية، بشيرَ الأدب البروليتاري.

لكنّ لقصيدة «النمِر» أهميةً مختلفةً، بسببٍ من الخلفية المعقّدة التي استندتْ إليها مرجعيّةُ النصّ، وبسببٍ من الروح السحريةِ التي تَسِمُ العملَ، والانسيابيةِ التي اقتربتْ بالنصّ المعقّد من الأغنية. لم يكن ميلادُ «النمِر» سهلاً، ولم تأتِ القصيدةُ عفوَ الخاطر. إنها قصيدةٌ محكّكةٌ.

لقد أعادَ كتابةَ مقاطعَ منها، وغيَّرَ في مواضعِ مقاطعَ، معيداً الترقيمَ، حتى استقرَّ على النص النهائي المتوافر لدينا، عِلماً بأن مسوَّدات القصيدة لا تزال في متناول الدارسين.

لقد حفرَ «كليشة» النصّ النهائي، وزيّنه بتخطيطِ نمِرٍ مضحك!

أنا أحتفظُ بنسخةٍ من «النمِر» بخطّ وليم بْلِيك، مع تخطيطه الشهير للنمِر المضحك.

س.ي

تجربةٌ ناقصةٌ

أنا منتظِرٌ ما يمحوه الليلُ؛
اختفت الزّرقةُ منذ الآن
ولستُ أرى إلاّ طيراً مَسْكنُهُ سقفي القرميدُ،
ستُمسي كلُ سقوفِ القرميدِ رماداً
وستلبسُ حتى ساحةُ سياراتِ الحيِّ حِداداً
تلبسُ حتى الأشجارُ سواداً مُلْتبساً...
مَنْ ستُغَنِّي؟
هل أُرهِفُ سمعي للرعدِ بأرضٍ أخرى؟
هل ألجأُ للهاتفِ:
غَنِّي لي يا ساقيةَ المقهى البحريّ!
وغَنِّي لي يا صاحبةَ المطعمِ...
غَنِّي لي يا دُمْيةَ محرابٍ زمَنَ العبّاسيينَ؛
البصرةُ ما صلّتْ لأذانٍ يرفعُه بشّار
البصرةُ لم يُرعِشْها مقتلُ بشّار
لكنَّ الأَمَةَ السوداءَ ـ فريدةَ أُمَّتِها ـ سارت تبكي بشّار...

.....

.....

.....

اختفت الزُّرقةُ؛
ها هوذا الليلُ الماحي كلَّ الأفوافِ
المُغْلِقُ كلَّ الأفواهِ
الهابطُ، كالرمل البركانيّ على الأمواهِ...
الليلُ المُعْلَنُ، هذا الليلُ
المُعلَنُ، والملعونُ
القاتلُ
والمجنونُ؛
الليلُ السيِّدُ هذا الليل
الليلُ الأبيضُ هذا الليل...
الليلُ النّصلُ
الصِّلُّ
الصافرُ...
ليلُ قطاراتِ القتلى المشحونينَ إلى قمرِ الكثبانِ
.....
.....
.....
اختفت الزرقةُ؛
والليلُ يغور
أعمقَ حتى من تهجئة الدَّيجـور.

لندن، ٦/ ٧/ ٢٠٠٤

تنويعٌ ثالثٌ

أنا منتظِرٌ ما يمحوه الليلُ
اختفت الزرقةُ منذ الآن،
ولستُ أرى إلاّ طيراً مسكنُهُ سقفي القرميدُ...
أ جِسرٌ في حمدانَ، يعِيدُ مياهاً كانت تجري تحت الماءِ؟
يُغَربِلُها ويُعِيدُ...
أَم الصيفُ الساخنُ في المِرآةِ؟
أَم الرعدُ؟
الطَيَرانُ الحربيُّ يُقَطِّرُ في الدمِ رائحةَ البارودِ
ولكنْ... في هذي القرية يربطُ ملاّحونَ قواربَهم عند سياجِ الحانةِ؛
حتى صيّادو السَّمَكِ ابتدأوا يطوونَ خيوطاً وشِباكاً...
.....
.....
.....
مَن دقَّ على الشُّبّاكِ ثلاثاً:
متتابعتينِ

وثالثةً بعدَ ثوانٍ...؟

(كان العمّالُ يجيئون إلى منزلنا، بالبصرةِ، سرّاً في الليل، ويرتحلون الفجرَ)

سأفتحُ!

أرجوكَ، تَمَهَّلْ...

لا ترحلْ!

سنكون معاً، مثل رفيقَينِ، على طرقاتِ الفجرِ

سنحملُ بَيرقَنا

وندقُّ الصّنجَ الهائلَ...

.....

.....

.....

لا ترحلْ!

أرجوكَ، تَمَهَّلْ...

لندن، ٢٢/ ٧/ ٢٠٠٤

وَشْـمُ الذئبِ

كان مساءُ القريةِ في أوّلِهِ
والحانةُ كانت في أولِ مُقتَرَباتِ القريةِ؛
في كل مساءٍ أتمشّى من بيتي كي آخذَ كأساً في حانة قريتِنا
وأعود لأدخلَ في ليلي وكوابيسي...
.....
.....
.....

حين دخلتُ اليومَ الحانةَ
قلتُ: اختلفَ الأمرُ!
فقد وقفتْ خلفَ البارِ المتواضعِ ساقيةٌ أخرى...
.....
.....
.....
عندَ الفِقْراتِ السُّفلى
من ظَهرِ فتاةِ الحانةِ،
في مفترَقِ الإلْيةِ هذي

عن تلك الأخرى:
يتمشّى وشمُ الذئبِ الأزرقِ...
أحياناً يتخفّى الذئبُ الأزرقُ تحت حريرِ قميصٍ حُرٍّ
فتلوبُ فتاةُ الحانةِ،
باحثةً بين الروّادِ عن الذئبِ...
وباحثةً بين رماد سجائرِهم عن جَمْرِ العينينِ؛
وماذا لو سقَطَ الثلجُ الآنَ؟
أترقصُ في الساحةِ إذْ تَبْيَضُّ الساحةُ؟
أَمْ تُسرعُ كي تبلغَ غرفتَها
فَتُدَفِّيءَ، عاريةً، إلْيَتَها
تحتَ الشرشفِ
حيثُ يلوبُ الذئب؟

لندن، ٢٢/ ١/ ٢٠٠٥

الشيوعيّ الأخير
يدخلُ الجَنّة

العواصمُ تتداعَى

كلما جئتُ واحدةً من عواصمنا العربيةِ صلَّيتُ...
ها أنتِ ذي!
أنتِ ما زلتِ حاضرةً (مثلَ ما كنتِ في الكتبِ الجِلْدِ مخطوطةً
أو مُرَنَّحةً في الأغاني..)
السلامُ عليكِ...
السلامُ على مَن رأى في خرائطِكِ الحُلمَ
واستافَ في خَلْجةٍ من هوائكِ والماءِ ذاكَ الشميمَ
المُضَوَّعَ من جنّةٍ؛
ولتكوني حلَبْ
لتكوني المعرّةَ، والقاهرةْ
لتكوني الرّباطَ
دمشقَ
طرابُلسَ الغربِ
والقيروان...
ولتكوني التماثيلَ (آلِهةَ البدوِ) مطمورةً في الرمال.
ولتكوني السجون
ولتكوني الدياميسَ تُسمَلُ فيها العيون

ولتكوني التي قطّرَتْ عرَقَ الـمَوزِ
أو عرَقَ التَّـمرِ
أو عصرتْ خمرَها في الخريفِ الـمُبَكِّـرِ
أو شنقَتْ في الصباحِ المبكِّرِ عشّـاقَها...
ثم أضحتْ تُصَلِّي على طبقٍ من ثريدِ الرؤوسِ.
.....
.....
.....
النساءُ بِمُـرّاكشَ اعتدْنَ أن يتنقّبْنَ،
والطارقيُّ
ومن شاءَ أن يكتبَ الشِعرَ كي يتكسّـبَ...
.....
.....
.....
تلك البلادُ لنا
والعواصمُ فيها عواصمُـنا
نحن أشرارُها
نحن أخيارُها
نحن عشّـاقُها المنتهونَ إلى القتلِ؛
لكنّ تلك العواصمَ نحنُ،
العواصمُ (حتى ولو لم نشأْ) نحنُ... نحنُ

فإنْ سُلِّمَتْ لسوانا
أو استسلمَتْ،
هل سنذكرُ أُغنيةً عن دمشق؟
هل ستذكرُ مَن كانَ منّا، ومَن لم يكنْ بَعدُ، أغنيةٌ من دمشق؟

٧/ ١/ ٢٠٠٦

العـودةُ

قمرٌ، مثلَ قِشرٍ من الموزِ طافٍ على جَفنةٍ من رصاصٍ مُذاب
قمرٌ بارعٌ
قمرٌ باردٌ، يصطلي بأظافرِنا وهي تخمشُنا كالقطط...
أمسِ
حينَ دخلْنا المدينةَ، قُلْنا انتهَينا من الباديةْ
هكذا
وبلا أيّ لَعثمةٍ
مثل ما يفعلُ الواثقون
مثل ما يفعل الغافلون
مثل ما يفعل المُدمنونَ السُّرى...
.....
.....
.....
غيرَ أنّا سنسكنُ (حتى ولو عانَقَتْنا المدينةُ) ليلَ القرى:
قمرٌ من تراب
قمرٌ من رصاصٍ مُذاب
قمرٌ في البلادِ الخراب...

لندن، ١٧/ ١١/ ٢٠٠٥

الفرات

يغيضُ عن «الرّقةِ» الماءُ كي يدخلَ الطبقاتِ الخفيّةَ من لحمِنا، نحن أبناءِ تلكَ الضفافِ التي أنبتتْ قصباً للأسِنّةِ والأغنياتِ. الفراتُ هنا ضلّلَ النورسَ. السمَكُ المتحدِّرُ من فُوّهاتِ الجبالِ ارتضى في الفراتِ مراعيَهُ، وارتدى الفضّةَ. الخيلُ تعبرُ، غرثى، مَخاضاتِهِ. والجِمالُ الأبيّةُ تعلِكُ في الصّهَدِ، الشيحَ. ماءٌ تغلغَلَ في الرملِ. في وجْنةِ الطفلِ. ماءٌ يَظلّ بكفيَّكَ، لا يتبدّدُ. ماءٌ هو البَسْمَلةْ.

*

سلامٌ على جسدَينِ استحالا بهِ جسداً واحداً. والسلامُ على القاعِ حيثُ

الحصا يترقرقُ. يا بردَ مائِكَ! أقسمتُ بالطيرِ أن أرتدي كلَّ فجرٍ

جناحَينِ، أقسمتُ بالطينِ أن أبلغَ الطينَ في صبوةٍ، غائصاً... أيها النهرُ

يا خيطَ أسمائنا وتواريخِنا، يا قرانا، وذكرى مَمالكِنا. يومَ جئتُكَ

أحمِلُ أوزارَ خَطوي تحمّلتَني، وانتظرتَ إلى أن وثبتُ خفيفاً من القاعِ.

ضوءٌ على جسدَينا. وضُوءٌ. أهذا هو السلسبيلُ؟ أهذي هي السّنبلةْ؟

*

فيافيكَ، حيثُ الذئابُ التي تأْلَفُ النارَ. جنّاتُ عدْنِكَ حيثُ الصقورُ التي
تأْلَفُ الناسَ. مَرْعاكَ حيثُ الزهورُ به كَمْأةٌ. والنساءُ اللواتي يَخُضْنَ
بأثوابِهِنَّ المُوَيجاتِ إذ يتبرّدْنَ. هل كان صوتُ المُغَنِّي شبيهَ عرائسِكَ؟
الليلُ يهبطُ، سمْحاً، خفيفاً. شِباكٌ بلا سَمَكٍ في ثيابِ الصغارِ. ويأتي
الشّميمُ: أقهوتُكَ المُرّةُ الآنَ، أمْ وترٌ يتقطّعُ؟ ألمُسُ أحجارَكَ الناعماتِ
الثقالَ... وأُصغي إلى ضجّةٍ. أهيَ مفتاحُ كنزِكَ أم أنها الصّلصلةْ؟

*

تسيلُ الهُوَينى...
قروناً تسيلُ الهُوَينى...
وتمنح أهلَكَ خبزَ الضفافِ وقثّاءَها
والأغاني.
تسيلُ الهوينى...
قروناً تسيلُ الهوينى...
يمرُّ بك العابرون:
الجيوشُ، اللصوصُ ذوو الخُوَذِ، السائرونَ إلى حتفِهِم في الظلامِ... السماسرةُ،
السُّحُبُ الصيفُ، أوباشُنا، والقياصرةُ، الطامعونَ...
وأنتَ تسيلُ الهوينى

قروناً تسيلُ الهوينى....
وتمضي
كأنك لا تعرفُ المسألةْ.

لندن، ٦/ ٧/ ٢٠٠٦

المتاهة

أين أذهبُ في مهبِطِ الليلِ؟
قد هبَط الليلُ:
ليلٌ طويلٌ (وفيهِ امرؤ القيسِ)
ليلٌ عريضٌ (ونابغةٌ فيهِ)
ليلٌ / رصاصٌ / ثقيلٌ...
.....
.....
.....
قليلٌ من الليلِ يكفي.
*
إلى أينَ أذهبُ؟
في حانة القريةِ، الآنَ، يدعو الزبائنُ أشباهَهم
ويغَنُّونَ أغنيةً للمعسكرِ،
أو للنساءِ اللواتي انتهَينَ...
*
استَرِحْ لحظةً
ولنُفَكِّرْ قليلاً: إلى أين تذهبُ؟

ثمّتَ، في أسفلِ التلِّ، تلمحُ ضوءَ المحطّةِ؛
إن القطاراتِ تَصْفِرُ
والضوءَ يَصْفَرُّ
والمطر النّزْر يرسُمُ لألاءهُ في الزجاجِ المُضاعَفِ...
ما أجملَ السفرَ!

*

الليلُ يجلسُ، كالمتسوِّلِ، يرفو ثياباً مبلّلةً
وقطاراً مضى منذ عشرينَ عاما!
.....
.....
.....
إلى أين تذهبُ؟
في البُعدِ
بين الجذوعِ التي تتقطّر ماءً وعشباً
تلوحُ ضفافُ البحيرةِ...
إن البحيرةَ تُفضي إلى النهرِ
والنهرَ يفضي إلى البحرِ؛
ما أجملَ الرِّحلةَ!
السلّةُ الخُوصُ تدنو من القصبِ اللدْنِ
والسلّةُ الخوصُ تدنو
هي السلّةُ الخوصُ تدعو
تناديكَ...

ما أجملَ الرِّحلةَ!

.....

.....

.....

السلّةُ الخوصُ... حقّاً

ولكنْ، أتحسَبُكَ الطفلَ؟

*

ثَـمَّ سـماءٌ سـماويّةٌ

هي أبعدُ من جامعِ القيروانِ

ومن سـورِ مُرّاكشِ اللانهايةِ

أبعدُ من زنجبارِ البهـارِ

ومن كلِ شـاطيء شـرقيٍّ إفريقيـا

ومن مَرْكَبِ الهنـدِ...

إنْ شِـئتَـها جِـئتَـها،

ولكنّها، يا بُـنَـيَّ، العزيزةُ

مَن ليس يُـنْكِـرُها ليسَ يدخـلُـها...

فاتَّئِدْ

يا بُـنَـيّ!

واتَّـئِدْ

يا بُـنَـيّ...

لندن، ٢٣/ ١٢/ ٢٠٠٥

القرصان والسلطان

القرصان فرانسس درَيكْ (١٥٤٢ ـ ١٥٩٦)

كان يُغِذُّ الإبحارَ حثيثاً في رحلةِ عودتهِ...
القرصانُ تمادى وتـمَدّدَ في غزوتهِ أكثرَ من عامَينِ
وهاهو ذا الآنَ يعودُ
إلى تلك المملكةِ المجبولةِ من ثلجٍ وضبابٍ
وإلى قريتهِ Tavistock
لكنّ سفينته مثقلةٌ بغنائمـهِ
مثقلةٌ بالذهب الإسبانيّ، وبالفضّـةِ من بيرو
مثقلةٌ باللؤلؤ والأسرى
مثقلةٌ بالبحّارةِ والضبّاطِ الضّجرينَ
ومثقلةٌ بمكائدهِ...
حتى لم يتبقَّ بها أكثرُ من برميلٍ للخمرِ
وأكثرُ من ١٠ براميلٍ للماء؛
القرصانُ فرانسس درَيك
يرسو عند جزيرة «باب الله» السلطانِ المسْلِمِ:
بادِلْني بالفضةِ ماءً

بادِلْني بالتبرِ غذاءً
وكُن الليلةَ ضيفي...
قال له «بابُ الله» السلطانُ:
سأبادِلُ
لكنْ، كُنْ أنتَ الليلةَ ضيفي...
.....
.....
.....
أقلعت السفنُ الموسوقةُ ماءً وغذاءً.
لم يصعدْ «بابُ اللهِ» إليها.
لم ينزلْ منها القرصان!

لندن، ١٦/٢/٢٠٠٦

أنا وصاحبي نؤلِّفُ نصّاً للغناء

أن تكونَ مع امرأةٍ في شتاءِ الشمال
وتكونا بغُرفةِ نُزْلٍ على شاطيء البحرِ
آنَ الستائرُ مسدلةٌ
والشواطيءُ مهجورةٌ...
*
ها!
ها!
ها!
هل أتاكَ المُغَنِّي الفرنسيُّ منذ البدايةِ؟
كم كنتُ حذرتُكَ اسمعْ (ولا تحفظ) الأغنيةْ!
فلْنُغَيِّرْ كثيراً من النصِّ:
أيُّ امرأةْ
سوف تفرحُ بالياسمين!
*
انتبِهْ!
بعد سطرٍ سيأتي نِزارٌ...
*

إذاً، خَلِّنا نمْضِ:
أيُّ امرأةْ
سوف تنزعُ عنها غلائلَها
وهي في نُزُلٍ مع مَن سوف يأخذها
كلَّ ليلٍ إلى موجةِ البحرِ...
.....
.....
.....
أيُّ امرأةْ!

لندن، ١٣/٦/٢٠٠٦

الطبيـعـة

لا دوحةَ ميلادٍ في الساحةِ

كي يلتفّ الناسُ لدَيها ويدوروا في رقصةِ رأسِ السنةِ؛

الساقيةُ الإيرلنديةُ قالتْ لي:

«لندن ليستْ دَبلِـنَ».

حقاً لندنُ ليست دبلنَ، لكنّ الناسَ هنا ودُّوا أيضاً

لو داروا في رقصةِ رأسِ السنةِ...

الساحاتُ ـ وقد أمستْ تقفزُ والساعاتِ ـ

تـموءُ

السياراتُ تمـوءُ

الليلُ سينتصفُ...

الألعابُ الناريةُ تعلِنُ عند النهرِ حلولَ العامِ

.....

.....

.....

وفي تلك اللحظةِ

في تلك اللحظةِ بالضبطِ
انهَـمَـرَ الـمطرُ!

*

الألعابُ الناريّةُ لم تعلِنْ عندَ النهرِ حلولَ العامِ
تماماً...

٢٠٠٦/١/١٦

ظهيـرةُ صيفٍ إفريقيّ

السماءُ
وأسماكُ بحرِ الشمالِ
مُلَوَّحةٌ بالمُلوحةِ...
كان الهواءُ الثقيلُ
يُدَلِّي كُرَيّاتِ مِلْحٍ عليالعشبِ،
كان اليمامُ الذي وردَ الماءَ عند البحيرةِ
مستنفدَ الصوتِ:
ياقوتتي
أنتِ أختي...
وياقوتتي
أين بِنتي؟
وياقوتتي
كيف أبْلغُ في الليلِ بيتي؟
*
السماءُ
وأسماكُ بحرِ الشمالِ
مُلَوَّحةٌ بالملوحةِ...

كانت صنوبرةُ الساحةِ
الأخضرَ المستحيلَ؛
العصافيرُ تهدأُ فيها
وتأوي إليها السناجيبُ
والنحلُ
تأوي إلى ظِلِّها الخيلُ...
يا جارتي
يا صنوبرةَ الساحةِ:
اتَّرِكي لي، ولو لحظةً، هدأةً في الظلال...
*
السماءُ
وأسماكُ بحرِ الشمالِ
مُلَوَّحةٌ بالملوحةِ
لاشيءَ،
حتى فتاتي التي هجرتني تلاشت ملامحُها...
والكنيسةُ
تعلنُ في التلِّ أرباعَ ساعاتِها
كأنْ لم يكنْ في العروقِ الخفيّاتِ شيءٌ،
كأنّ الخليقةَ قد تبدأُ الآنَ....
إن الخليقةَ تبدأ
إنّ الخليقةْ...

لندن، ٣/ ٧/ ٢٠٠٦

الـزانُ النحاسـيّ(*)

سأكونُ، مثلكِ، شاهداً عدْلاً
سأذكرُ:
يعرفُ الزانُ النحاسيُّ، الحقيقةَ؛
أنه شجرٌ
وأن نحاسَهُ غيرُ النحاسِ،
وأنه شجرٌ، بهِ (لا حولهُ) أسماؤهُ الحسنَى
وأن الوصفَ، مهما طالَ، يَقْصُرُ عن بلوغِ النُّسْغِ.
.....
.....
.....
كنتُ أقولُ لامرأةٍ
أبتْ أن ترتقي صدري، إلى رِعشاتِ ذِروتِها:
اطمئِني!
قد يكونُ القاعُ قِمّتَنا
كما كان المتاهُ سبيلَنا...

الأسماءُ ليستْ كالمسمّى؛

إنها ما قد نراه...

لندن، ١٦/٦/٢٠٠٦

(*) الزان النحاسيّ Copper beech شجر.

في عيد الميلاد

كم ساءلَتْني، مثلكِ، امرأةٌ:
هل استمتعتَ بالميلادِ؟ أينَ ذهبتَ؟ هلْ...؟
يا صوتيَ الآتي إليَّ، مُطوَّحاً، بردانَ، من طرفِ المدينةِ
أنتَ تسألني
(الحقيقةُ أنتِ)
هل لامستُ نجماً في نهارِ العيدِ؟
تِبْراً
أو لُباناً...
هل مررتُ ببيتِ نارٍ كي أُزَمزِمَ؟
هل بكيتُ بحائطِ المبغى لأدفعَ عنهُ أحجاراً ورَجّامينَ؟
هل أشرعتُ نافذتي ليدخلَها غناءُ السائرينَ إلى خنادقِهم؟
وهل...؟
يا صوتيَ الآتي إليَّ:
أقولُ، في الميلادِ كنتُ أسيرُ وحدي في الضواحي؛
استوقَفَتْني، ثَمَّ، عابرةٌ
وقالت لي: غريبٌ أنتَ؟
لا امرأةٌ، ولا ولَدٌ لديكَ... لتعرفَ الميلادَ عندهما...

فَكُنْ عندي
تكُنْ في بهجةِ الميلادِ
والأعيادِ...
كنْ عندي لتعرفَ أن مائدةَ الفقيرةِ خيرُ ما في الكونِ
كنْ عندي لتعرفَ أنّ ما يُدْعى الضياعَ هو السبيلُ
وأنّ نجماً ليس يطلُعُ من فراشي، مستحيلُ.

لندن، ٤/١/٢٠٠٦

بعدَ أن انتهى الخريفُ الخامسُ

مِمّا أُسـمِّيهِ، أنا، الشُّرفةَ، أرهفتُ أناملي كي تلمُسَ الـريحَ.

الشتاءُ الواقفُ الآنَ تماماً عندَ صفصافِ البحيراتِ... اصطفاني شـاهداً. لم أَدْرِ

ما أفعلُ! في باطنِ كفِّـي نملةٌ تسعى... وفي البستان غطّى الورقُ الأحمرُ والبُنِّيُّ

والأصفرُ ما شكّـلهُ العشـبُ. غيومٌ لا تُرى صارت سـماءً. أينَ راحَ الطيرُ؟

هل عُرِّيتِ الدوحةُ كالمرأةِ في الحُلمِ؟ أأفراسُ الصِّبا تعْدو؟ يلوحُ الماءُ

من بينِ جذوعِ الشجرِ. السنجابُ ذاكَ الدائبُ، الدهرَ، على قولِ: «صباح الخيرِ» لي، لم أرهُ.

ربّتَما أخْلَدَ، كالثعلبِ مقروراً، إلى غرفته في دوحة البلّوطِ. لم تأتِ التي قالت

ستأتي الساعةَ الرابعةَ ب.ظ، والبردُ الذي لم يكنِ البتّةَ برداً صار برداً. إنني أستحلبُ

القاتَ... أهذي مكّـةٌ أَم يافعٌ؟ كان هديرُ السيلِ يأتي غامضاً في هَبّـةٍ ساخنةٍ

للريح. لن آوي إلى معتصَـمٍ أو نَشَـزٍ في الأرضِ... إني ذاهبٌ في السيلِ. إني السيل.

لندن، ٢٢/ ١٠/ ٢٠٠٥

خـديـعـةٌ؟

أنا أسكنُ، حقّاً، في مأوىً لِكبارِ السنِّ.
(لقد جاوزتُ السبعينَ)
ولكنّ مُقامي، يُقْرأُ: Sheltered House
ليس تماماً ما كان يُسَمّى «دار العَجَزةْ...»
أعني أنيَ في منزلةٍ بين المنزلتَين!
*
عجيبٌ!!!
*
إنْ كان مقامُكَ هذا، فلماذا تخدعُنا؟
تكتبُ عن بيتٍ في الريفِ (كأنكَ من عائلةٍ مالكةٍ!)
وتداعبُ غفلتَنا إذ تحكي عن مَرْجٍ وحدائقَ
عن ثعلبِ فجرٍ
وغزالٍ برِّيٍّ عبْرَ سياجٍ
وسناجيبَ
وتكتب عن شُرفاتٍ ونوافذَ
عن أشجارٍ غامضةٍ
وخيولٍ تقتطفُ الزعترَ عِلْفاً

وبُحيراتٍ يترقرقُ فيها سمكٌ ذهبيٌّ، وحَصاً
ومراعي أشَناتٍ، و... إلخ...
.....
.....
.....
أنا أسكنُ، حقّاً، بين المرئيّ وما ليسَ يُرى.
أسكنُ في اللحظةِ
حيث الشيءُ سواهُ
وحيث المرأى لستُ أراهُ.
*
عجيبٌ!!!
*
هل لي أن أسألَكَ؟
الناسُ، جميعاً، من أدنى البصرةِ، حتى أقصى المغربِ
أدرى بكَ حتى منكَ...
إذاً، فِيمَ خديعتُهُمْ؟
ولماذا تمنح كلَّ نحاسٍ صدِءٍ لوناً ذهَباً؟
*
أنا أسكنُ، حقاّ، في ما لا يُسكَنُ أكثرَ من يومٍ...
وأنا ـ إنْ شئتَ الحقَّ ـ أغادِرُ ما أنا فيهِ، اللحظةَ تِلْوَ اللحظةِ.
أي أني أحملُ تربةَ هذي الأرضِ إلى أرضٍ أخرى
أرضٍ لا تخدعُنا؛

أرضٍ فيها ألوانُ مَـجَـرّاتٍ
وخيولٍ
وبحيراتٍ يترقرقُ فيها سمكٌ ذهبيٌّ...
يترقرقُ فيها الناس!

لندن، ٢٧/ ١١/ ٢٠٠٥

الشيوعيّ الأخير يذهب إلى البصرة

وقالتْ له: أسرفتَ!
كلّ مدينةٍ حللتَ بها أغفلتَ عن أهلِها الفكرةْ
كأنّ مدارَ الكوكبِ اختلَّ سيرُهُ
فلم يبقَ من ذاك المدارِ سوى البصرةْ!

ولكنني فكّرتُ...
إن صديقتي تقول صواباً؛
كيف أنسى ديارَها؛
حديقتَها، والشرفةَ؟
الصيفُ أرسلَ الرسائلَ.
والكرسيُّ ما زال يقصدُ البيانو.
الفتى الهنديُّ يلقي سلامَه سريعاً
وأعلى دوحةِ السّرْوِ حطَّ طائرٌ عجيبٌ...
أمِن فردوسِ ليزا أسافرُ؟
تعلّمتُ أن أحكي، فلستُ مكتِّماً هواجسَ ليلي الأربعينَ:
أنامُ في جناحَي غرابٍ.
والسعالي ضجيعتي.

ومن دميَ المسفوحِ لونُ الحوائطِ.
انتهيتُ إلى أن أرضعَ التيسَ. أن أرى تماسيحَ من قارٍ تغنّي. وأن أرى خيولاً عليها من عيونٍ حوافرُ.

وتسألني ليزا، وقد أطبقَ الدجى:
سمعتُكَ تهذي...
كنتُ أحسبُ أنني أهيمُ بوادي الجنّ!
هل كنتَ نائماً بوادي الذئابِ؟
الليلَ تختضُّ... ناضحاً شفيفَ دمٍ، مستنفدَ الصوتِ.
كأننا سنفعلُ شيئاً في الغداةِ. كأنني أراكَ إلى حيثُ انتويتَ تسافرُ!
القصةُ وما فيها، يا أصحابي، ويا رفاقي (لا أدري إن كنتم لاتزالون تستعملون كلمة «رفيق...» لا يهمّ!)
أن الشيوعيّ الأخير ذهب قاصداً البصرةَ
بعدَ أن ودّعَ حبيبتَه ليزا
التي أوصتْهُ ألاّ يدخل البصرةَ
بعدَ طولِ غيابٍ
إلاّ تحت الرايةِ الحمراء...

في البصرة راياتٌ سود

في البصرة راياتٌ بيض
في البصرةِ راياتٌ من نخلٍ ذي أعجازٍ خاويةٍ...

لكنْ في البصرةِ، أيضاً، وبلا أيّ كلامٍ
(أرجوكم!): رايات الملِكةْ
أعلى من كل الرايات!
(المقصود بالملكة هنا، إليزابث الثانية)، الأولى كانت
تموِّل القرصان فرانسسْ دْرَيكْ في القرن السادس عشر الميلادي (طبعاً)
وإليزابث الثانية هي ملكة انجلترة والبصرة وما جاورَها في القرن اتلحاديس والعشرين.

*

وهاهيَ ذي، إذاً...
أسطورةُ الراياتِ تتبعُ فُوّهاتٍ من بنادقِ أهلِها!
لكنني، وأنا الشيوعيّ الأخير، أظلُّ أحملُ رايتي الحمراءَ...
هل ضاعتْ بنادقُنا؟
نسيناها؟
اتّخذْنا غيرَها؟
أمْ أننا ضعنا وقد ضاعتْ بنادقُنا؟
سلاماً للنصيرةِ!
للنصيرِ!
لفِتيةٍ رفعوا على القُنَنِ الغريبةِ والروابي
الرايةَ الحمراءَ.
سوف نعودُ للقمم!
الصباحُ الجهْمُ يطْلِقُ بوقَنا:

بوقُ القيامةِ نحنُ...
أحراراً
شيوعيينَ
نرفعُ رايةً مرْويّةً بدمٍ وأوحالٍ
وندخلُ أرضَنا...
.....
.....
.....
سنكون أجملَ من نهايتِنا!

لندن، ٢٥/ ٥/ ٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يقرأ أشعاراً في كندا

ضاقت به الدنيا،
ولكنْ لم يَضِقْ، هذا الشيوعيُّ الأخيرُ، بها...
وكان يقول: للأشجارِ موعدُها، وإنْ طالَ الخريفُ سنينَ أو دهراً!
وكان يقول أيضاً: خمسَ مرّاتٍ تَلَوتُ الشِّعرَ في وطني، لأبتدِئَ الرحيلَ...
وكانَ...
لكني سمعتُ بأنه قد كان في كندا
لأسبوعَينِ؛
ماذا كان يفعلُ؟
ليس في كندا، شيوعيون بالمعنى القديم،
وليس في فانكوفرَ امرأةٌ معيّنةٌ ليسبقَ ظِلَّها أنّى مضتْ...
بل ليس في «الروكي» نخيلٌ، كي يقولَ اشتقتُ للشجرِ المقدّسِ؛
قلتُ: خيرٌ أن أُسائلَ أصدقاءَ لهُ...
أجابوني: لقد كان الشيوعيُّ الأخيرُ، هنا، نقولُ الحقَّ... بل إنّا سهرنا ليلةً في مطعمٍ معهُ. وقد
كنا نغَنِّي، والنَّبيذُ القبرصيّ يشعشعُ الأقداحَ والوجَناتِ. ماذا؟ نحن في فانكوفـرَ الخضـراءِ

لا بغداد...

لكنّ الشيوعيّ الأخيرَ مضى!

إلى أينَ؟

اشترى، صبحاً، بطاقتَه، إلى عَبّارةٍ تمضي به، هُوناً، إلى جُزُرِ المحيطِ الهاديءِ...

*

الأيامُ، في أيّامنا، عجَبٌ!

وأقرأُ في رسالته الأخيرةِ:

أيها المسجونُ في أوهامكَ السوداءِ، والكتبِ التي ليست بلون قميصِكَ!

اسمعْني... ولا تقطعْ عليَّ سرابَ أسفاري. لقد هبطتْ بيَ العَبّارةُ البيضاءُ

عند جزيرةٍ بالباسِفيكِ... أقولُ: فِكتوريا! فيندفعُ الشميمُ، وتخرجُ الخلجانُ

سابحةً. ستأتي عندنا الحيتانُ فجراً، أو أسُودُ البحرِ. لا تتعجّل الأنباءَ....

فِكتوريا هي الأمُّ العجيبةُ، جَدّةُ الهنديّ والملهوفِ، والأنثى المقدّسةُ. الطواطمُ

عندها حرسٌ، وروحُ الدبِّ. والأسماكُ هائلةً تَقافَزُ بينَ كفَّيها.

.....

.....

.....

وماذا كنتُ أفعلُ في الجزيرةِ؟

أنت تعرفني. تماماً.

كنتُ، مثلَ نضالِ أمسِ، أُحَرِّضُ الطلاّبَ...

كيفَ؟

قرأتُ من أشعارِ سعدي يوسف...

البَحّار، صاروخ توماهوك، إعصار كاترينا، وقتلى في بلاد الرافدَينِ.

ولحيةُ القدّيس والْت وِيتمان. أشجار البحيرات العميقةِ. والبارات عندَ

إجازةِ الجنديّ. تبدو بغتةً عَوّامةٌ في النيلِ. يبدو النخلُ أزرقَ في البعيدِ.

النسوةُ الغرثى يَلُبْنَ. عُواؤنا؟ أمْ أنها تلك القطاراتُ التي تمضي إلى

ليلِ المَدافنِ في الصحارى... أيها الجنديّ دَعْ بلدي، ودعْني في الجحيم.

قرأتُ من أشعارِ سعدي يوسف...

الأمرُ الغريبُ: كأنّ هذا الشاعرَ الضِلّيلَ يعرفُني، ويعرفُ ما أريدُ.... كأنه أنا!

لستُ أفهمُ ما أقول...

لندن، ٣١/١٠/٢٠٠٦

أغنيةُ صيّادِ السّمَك

كُتِبَتْ قصائدُ الديوانِ بين الثاني عشر من تشرين ثان ٢٠٠٦
والأول من أيلول ٢٠٠٧ في لندن ونيويورك

هِـجـرانٌ

اهدأ الآنَ...
عطلةُ أسبوعِكَ ابتدأتْ،
أمْ تُراها انتهتْ؟
فالفتاةُ التي أنتَ أدرى بما في سراويلِها،
قرّرتْ، دونما نزَقٍ، أن تغادرَكَ...
اختطفتْ شالَها الصوفَ
والهاتفَ «الفودافونَ» الذي طالما صوّرتْكَ بهِ
في مقاهي الشمالِ، وليلِ الفنادقِ،
ـ كانت حقيبتُها الخَيشُ خارجَ غرفةِ نومِكَ ـ
ثمّ اختفتْ تهبطُ السلّمَ الأخضرَ...
انطبَقَ البابُ؛
فاهدأْ قليلاً
ولا ترتبكْ...
لا تقُلْ إن عطلةَ أسبوعِك
التحقتْ بالعراقِ وإنْ كنتَ في لندنٍ؛
لا تقُلْ للفتاةِ التي غادرَتْكَ: الوداع
(المغادِرُ ليسَ المُهاجِرَ)

فاهدأْ...

وأنصِتْ إلى دوحةِ الجوزِ في مَوْهِنِ الليلِ...

أنصِتْ

أتسمعُ تلكَ التهاليلَ؟

ذاكَ المغَنّي الذي يصلُ النجمَ بالنجمِ؟

تلكَ الرياحَ الخفيفةَ؟

قُمْ وافتح البابَ...

قُلْ: مرحباً!

وانتظِرْ مَن يجيءُ؛

انتظرْ مَن تجيءْ...

لندن، ١٢/١١/٢٠٠٦

هديّــةٌ صباحيّة

لصبّاغي جزمةِ جورج بوش، وَلِيِّ النجفِ الذِّمِّيّ
و لأحفادِ لصوصِ الحربِ
وأبناءِ الإقطاعيينَ العربِ الأغرابِ؛
لِمافيا التهريبِ
وزهرةِ لورداتِ الحربِ
وأبناءِ الإقطاعيينَ الكُرْدِ الأغرابِ؛
لرجالِ الدين المُخْتَرَمين،
ولخرِّيجي كلّياتِ الجاسوسيةِ في واشنطنَ
أو لندنَ
أو بودابستَ...
لأحزابٍ تشربُ نفطاً أخضرَ
للكتّابِ المأجورينَ بدولارٍ للصفحةِ
للوزراءِ الأوباشِ
لزبانية التزويرِ، ونجّاري كرسيّ النائبِ
للنسوةِ ممّنْ أدْمَنَّ معاشرةَ النسوةِ أو ضبّاطِ المارينز
لِحُسينيّاتِ الطلقةِ، واحدةً، بمؤخّرةِ الرأس،
لمساجدِ قطْعِ الرأسِ...

لكُمْ
لي
للناسِ جميعاً في كوكبنا الأرضيّ؛
أقولُ:
ليأخُذْ كلٌّ منكم، هذا الصُّبحَ، هديّتَهُ...
رأساً، في طبَقٍ مضفورٍ من حيّاتِ جهنّـمَ.
*
أيُّ عراقٍ هذا؟
أيُّ عراقٍ جاءَ بهِ السُّفَهاءُ الخَوَنـةْ
ورجالُ الدين المُخْتَرَمون؟
أيُّ عراقٍ جاءَ بهِ أردأُ مَن سكَنَ البيتَ الأبيضَ؟
أيُّ عراقٍ يخذلُهُ، في الغابةِ، حتى الله!

لندن، ٦/١١/٢٠٠٦

... في البحر الكاريبيّ، في يومٍ ما

في البحر الكاريبيّ...
بين جامايكا، وهاييتي، وبَربادوسَ،
وفي قَمْرةِ قُرصانِ الملِكِ
الْتَـمَّ ثلاثةُ أوباشٍ:
أوّلُهم ـ قرصانُ الملِكِ الإسباني فيليب الثاني
(أميرالٌ في الأسطول الملكيّ)
ثانيهم ـ قرصانُ إليزابَث الأولى، فرانسِسْ دْرَيك
ثالثُهم ـ قرصانٌ أبحرَ من مرسيليا... ذئبَ بِحارٍ حرّاً؛
.....
.....
.....
بَسَطَ الأميرالُ خرائطَهُ
(عبدٌ أسودُ في بدْلةِ ليلٍ بيضاءَ موشّاةٍ ذهباً أبعَدَ أقداحَ الخمرِ)
قالَ الأميرالُ: البحرُ الكاريبيّ بُحَيرتُنا،
ذهباً
وعبيداً
وثماراً...

لكنّ سفائننا، أحياناً تتصادمُ.
ليست كلُ رياحِ الكاريبيّ مواتيةً،
ولا كلُّ قباطنةِ
السفُنِ اللائي تُبحرُ عبرَ مواني‌ءِ هذا البحرِ مسيحيينَ تُقاةً.
أنتم ملاّحونَ
كما أنا ملاّحٌ.
فلْنتفاهَمْ!
أوَ ليس الخيرُ لنا أن نتقاسمَ؟
أعني: هل يمكنُ أن
نقتسمَ البحرَ؟
لفيليبَ الثُّلثُ.
لإليزابَثَ ثُلْثٌ.
والثلثُ الباقي لحُثالةِ أوروبا...
*
قال له فْرانسِسْ دْرَيك:
حسناً!
لكنْ كيف نسمِّي البحرَ ثلاثةَ أسماءٍ؟
كيفَ يَبِيْنُ مُكلأٌ هذا، ومُكَلأٌ ذاكَ؟
ومَن سوف يُهيِّيءُ للبحّارةِ خمراً ونساءً؟
مَن سيُمَسِّدُنا، ويُقَبِّلُ أرجُلَنا قَبْلَ
الأيدي؟
مَن سوف يُجَنِّدُ حمّالينَ ونخّاسينَ لنا؟

هل سنُسمِّي الأقسـام؟

*

كان الأميرالُ أعَدَّ لكل سؤالٍ عِدّتَه.

قالَ: القسمُ الأولُ سوف يسمّى كُورديولان،

أي مِن كُوردِيالِتِي Cordiality

والقسمُ الثاني سيُسَمّى سنِيستان،

أي مِن .Sun & Stance وقفة الشمس.

أمّا القسمُ الثالثُ فالأفضلُ أن يدْعى شيِئِستان،

أي مِن Shy & Stance

والمعنى: وقفةُ الخجل.

(التأويلُ باللغة العربية من المخطوطِ الأصلِ قام به، مشكوراً، الشاعرُ

العراقيّ المقيمُ في لندن، سعدي يوسف).

*

أخرجَ أوّلُهم خاتمَهُ.

أخرجَ ثانيهم خاتمَه.

أخرجَ ثالثُهم خاتمَهُ.

خُتِمَ الأمرُ:

لقد قسموا البحرَ ثلاثةَ أقسامٍ.

والعبدُ الأسودُ في بدلتِه البيضاءِ الذهبيةِ عاد ليملأ أقداحاً ذهباً...

*

كان الليلُ الكاريبيُّ مليئاً بالأقمارِ

وبالأسماكِ الفضّةِ
والقيثاراتِ
وكانت قَمْرةُ قرصانِ فيليب الثاني الخضراءُ متعتَعةً.
*
نامَ ثلاثتُهم في الفجرِ...
*
لم يعرفْ حتى البحّارةُ كيف جرى الأمرُ...
البحرُ الكاريبيُّ تلاشى مثل سرابٍ،
وسفينتُهمُ تتقلّبُ، سادرةً، هائجةً، نحو مثلّث برمودا...

لندن، ٩/١٠/٢٠٠٦

وقـتٌ ثقيـلٌ

كلُ شيءٍ يهدأُ الآنَ
أغاني الجازِ في المذياعِ
والأشجارُ في الدّغْلِ القريبِ
السَّمـكُ الفضّـةُ في القاعِ،
وتـلك المرأةُ / القطّةُ في الهـاتفِ...
هل يأتي مساءُ الأحدِ الباهتُ، والهاديءُ حتى الموتِ، بالبوقِ؟
هل القرميدُ في السقفِ، هو الصّنجُ الذي ينتظرُ الضربةَ؟
أَمْ أنّ نسيجَ العنكبوتِ المَرْسُ والمرسى؟
هواءٌ ناشفٌ يدخلُ بين البابِ والممشى
ومن لاجهةٍ يَخفُقُ طيرٌ...
نغمةٌ واحدةٌ تهبطُ.
نجمٌ واحدٌ.

لندن، ٢٣/٩/٢٠٠٦

شـهادةُ جنسيّـةٍ

في العراق، يتعيّن على الفردِ، كي
يُثْبِتَ انتسابَه إلى بلدِهِ،
استصدارُ وثيقتينِ: الأولى تدعى
الجنسية، وتتضمّن معلوماتٍ
عن مكان الولادةِ وتاريخِها... إلخ.
أمّا الثانية فتُدْعى شهادة
الجنسية، وهي لازمةٌ للقبول في الجامعة،
والوظيف العمومي،
والانتساب إلى الجيش والشرطة والأمن،
وتتضمّن معلوماتٍ عن
أصل العائلة، وعمّا إذا كانت من التبعية
العثمانية أو الإيرانية.

عربيٌّ من العراقِ...
أنا: البصرةُ، بيتي ونخلتي. وأنا النهرُ الذي سُمِّيَ باسمي
ورملةُ اللهِ دربي وخيمتي. الأثَلُ الشاحبُ سقفي وملعبي،
وخليجُ اللآليءِ ـ الوعدِ لي. والبحرُ لي. والسماءُ دوماً سمائي.

عربيٌّ من العراقِ...

أنا: البصرةُ، بيتي ونخلتي. وأنا النهرُ الذي سُمِّيَ باسمي
ورملةُ اللهِ دربي وخيمتي. الأثَلُ الشاحبُ سقفي وملعبي،
وخليجُ اللآليءِ ـ الوعدِ لي. والبحرُ لي. والسماءُ دوماً سمائي.

*

عربيٌّ من العراقِ...

أنا: الكوفةُ، ما خُطَّ في العروبةِ خَطٌّ قبلَها. والعواصمُ
الألفُ
ما كانت سوى من كِنانتِها. بيتُ عليٍّ، والمسجدُ الجامعُ،
والنهرُ. هل تخَطَّينا الكتابةَ؟ الحرفُ كوفيٌّ، وقرآنُنا وصيٌّ عليها.

*

عربيٌّ من العراقِ...

أنا: المَوصلُ، خيلٌ وخُضرةٌ. كان سيفُ الدولةِ الأميرَ، وكانت حلبٌ
أُختَها. السفائنُ في النهرِ. المُغَنّونَ في الضفافِ. هنا صاحبُ البريد
أبو تمّامٍ. المرمرُ الصقيلُ هي الموصلُ، والأهلُ، والنضالُ الطويلُ.

*

عربيٌّ من العراقِ...

أنا: هذا الفراتُ، الذي يوحِّدُ أهلاً، وبلاداً، وأُمّةً. كلُّ كفٍّ

من مائهِ
موعدٌ في جنّةِ الخُلْدِ. يا صبايا الفراتِ، صبراً! لكُنَّ النهرُ والفخـرُ...
سوف يأتي زمانٌ للتهاليلِ. نحن نُقْسِمُ بالنهرِ، وباللهِ، والسوادِ الأصيلِ.
*

عربيٌّ من العراقِ...
أنا: بغدادُ، موصوفةً بما ليس في الوصفِ. الكتابُ العصيُّ. والجنّةُ. الدربُ المؤدِّي إلى الدروبِ. أتاها كلَّ عصرٍ برابرةٌ. لكنّها أحكمتِ الأنشـوطةَ.
العزيزةُ بغدادُ.
والأسيرةُ بغدادُ،
والأميرةُ بغدادُ...
والجدارُ الأخـيرُ.

لندن، ٢٠/٩/٢٠٠٦

رياح الأطلسيّ

تأتي رياحُ الأطلسيّ وقد جلبْنَ الماءَ
محمولاً بآلافِ الصهاريجِ التي صُبِغَتْ بلونِ الغيمِ...
ثمّتَ سِربُ طيرٍ جاءَ من إفريقيا
ومصائدٌ للأرنبِ البرّيِّ؛
ثمّتَ غفلةٌ،
وسعادةٌ ليستْ تبِيْنُ
ومَوطِيءٌ في مَسْلَكِ الأحراشِ للسّارينَ في الليلِ...
الرياحُ وئيدةٌ
حتى كأنّ الغيمَ يَثْقُلُ فوقَ داري
ثم يدخلُ في الحديقةِ...
كانت الأزهارُ (جيرانيوم) تلمُسهُ، وتشربُ ماءَه العذْبَ،
العناكبُ لا تزال تُقِيمُ، واثقةً، مصائدَها
وتَكْمُنُ...
والرياحُ وئيدةٌ
ماذا سيَحْدُثُ لو أخذتُ عصايَ، بعد دقيقةٍ،
وهجرتُ ما أنا فيهِ
منطلقاً إلى ما لستُ أدري؟

كلُ ما في الكونِ يرتحلُ:
الكواكبُ، والأفاعي، والثعالبُ، والضفادعُ، والزرازيرُ
الذئابُ، ودودةُ الأرضِ، الخنافسُ، والجذورُ، وزهـرةُ
الخشخاشِ، والموتى، وأوراقُ الخريفِ، وبذرةُ الـتفّاحِ
إني الآنَ أخطو خطوتي الأولى
الرياحُ وئيدةٌ
وعصاي تمضي بي إلى ما لستُ أدري...

لندن، ٣٠/٩/٢٠٠٦

الجحيم

تجلسُ امرأةٌ في المسافةِ ما بين مطبخِها الأمريكيّ
والكهفِ حيثُ السريرُ الذي قُدَّ من خشبِ الوردِ.
تجلسُ دُمْيةُ قُطنٍ على مقعدِ المَدرسةْ.
يجلسُ الكاتبُ المشترى في حذاءِ المحاسِبِ.
يجلسُ كلبُ الأميرةِ مستمتعاً بالطنين الذي يتدفّقُ من شاشةِ التلفزيونِ.
يجلسُ جنديُّ روما على الرمحِ في ساحةٍ.
يجلسُ القردُ، وهو يَلُوْثُ العمامةَ، في مَعْبدٍ.
يجلسُ العاطلون عن العملِ، الآنَ، في مَرْكَبٍ للعبيدِ...
وفي البحرِ يخْفت ضوءُ المناراتِ.
يجلسُ طيرُ الفينيقِ على السيخِ في حفلةٍ للشواءِ المغوليِّ.
تجلسُ سيِّدةُ الهورِ
في طلْعِ بُرْديّةٍ يابسةْ...
يجلسُ الماءُ، محتدِماً، في هشيمِ القصبْ...

لندن، ١١/٨/٢٠٠٦

في أصيلٍ غائـمٍ

يَسّـاقَطُ دَوحُ البلّـوطِ ثماراً ناشـفةً
لامعةً
مثلَ رصاصِ مسدّسِ ماغنوم...
العشبُ طريٌّ
وعلى المسْربِ آثارُ خيولٍ متخَـمةٍ،
والأشجارُ اللائي صرنَ سفائنَ في بحريّةِ هنري الخامسِ(*)
خلّفْنَ بناتٍ يَحْفُفْنَ بيَ الآنَ:
كاثدرائياتٍ
وخياماً هائلةً لبرابرةٍ يشـوونَ خنازيرَ البرِّ، سكارى
ومجرّاتٍ خُضراً...
.....
.....
.....
كنتُ على مفترَقٍ لثلاثِ دروبٍ؛

(*) هنري الخامس: ملك انجلترا بين ١٤١٣ ـ ١٤٢٢، قطع غابات انجلترا ليبني اسطوله. مات الأولى: تأخذني نحو البحرِ.

بحمّى المعسكرات.
الثانيةُ: اتّجهتْ نحو الجبلِ.
الثالثةُ: انطمستْ أيُّ علاماتٍ فيها...
.....
.....
.....
قلتُ: «ليَ الثالثةُ المطموسةُ...»
*
نهرٌ يتدفّقُ فوق الأشجارِ
عموديّاً
فتَئِنُّ الأشجارُ
وتنقصفُ الأشجارُ
وتنتثرُ الأشجارُ على الدربِ الريفيّةِ
عائمةً في موجٍ من بَرَدٍ منحدرٍ،
كان الرعدُ يدمدمُ
والبرقُ الصاعقُ يحملُ كلَّ الغابةِ في مشعلِهِ...
ثمّتَ كوخُ الحطّابينَ
يكاد يطيرُ مع الأغصانِ المتدافعةِ،
الريحُ غدتْ جسداً من ماءٍ ولحاءٍ
مكنسةً تجرفُ هذا المشهدَ
نحوَ الوديانِ المرسومةِ في كتبِ الطّوفانِ...
*

الكوخُ تلألأَ...
أدخلُ مرتبكاً
مرتعشاً؛
سوف أقيمُ هنا
في بيت العاصفةِ...
.....
.....
.....
الكونُ تنَفّسَ في زاويةِ الكوخِ
الكونُ يسير...

لندن، ١٦/٨/٢٠٠٦

نهر الدانوب

سيكون المساءُ مديداً على ضفةِ النهرِ...
مَن قال إنّا سنشعلُ نيراننا في رؤوسِ الجبالِ؟
القلاعُ صليبيّةٌ
من مَقالِعِ أرباضِ لِنْتس (Linz)
إلى القدسِ.
كان الملوكُ ورُهبانُهُم يسبقون المياهَ إلى حفلةِ القتلِ
حيثُ البلادُ البعيدةُ تطوي مآذنَها بانتظار البرابرةِ...
الشمسُ تلمع فوق الدروعِ
وفي تاجِ ريتشارد قلبِ الأسدْ....
.....
.....
.....
والمساءُ مديدٌ على ضفةِ النهرِ:
هل آنَ أن نستريحَ؟
الكرومُ مُعَرِّشةٌ، جوسقاً في الضفافِ
ومصطبةً في السفوحِ...
الكرومُ مُعَرِّشةٌ في النبيذ الجديدِ،

الكرومُ معرِّشةٌ في مقاهي القرى، وخدودِ البناتِ؛

*

العشيّةَ كنّا ضيوفاً على ابنةِ مزرعةٍ للكرومِ...
أتاحتْ لنا غرفةً
في السماءِ التي شرعتْ تدلهِمُّ،
العشيةَ كنا لَصيقَي حرارةِ أوردةٍ أُتْرِعَتْ بالنبيذِ؛
السريرانِ نهرٌ يموجُ.

*

ابتدأنا لكي نتّقي أننا بالغانِ النهايةَ.
كانت حقولُ العناقيدِ مثقلةً بالرطوبةِ والعسلِ،
الطيرُ، عند الصباحِ المبكِّرِ، سوف يفيق من السُّكْرِ
كي ينقرَ الخمرَ ثانيةً من عناقيدها...

*

النهرُ يجري سريعاً،
ومثل الجيوش القديمةِ، يرتاح عند المَعابرِ، حيث القلاعُ
وأديرةُ المتَرَهِّبةِ الضامرينَ؛
النهارُ لهُ
والمساءُ لِما في الأساطيرِ...
للغرفِ المتضوِّعِ تَنُّوبُها كالبَخورِ،
المساءُ لمَملكةٍ لا تدور عليها الدوائرُ...
مَملكةٍ من جذور.

لندن، ١٢/٩/٢٠٠٦

مسرح دُمى Puppet Theater

الفتاةُ التي ستُغَنِّي قصائدَها بلسانِ العصافيرِ
تصعدُ درْجاتِها الستَّ
عاقدةً، من حريرٍ رخيصٍ، ستارةَ مسرحِها
وهي تضحكُ...
ناولتُها طرَفَ الخيطِ. كانت تمازحُني: أنتَ تعبدُ ساقَيَّ!
أضحكُ...
في مدخل الخيمةِ، العلبةُ الخشبيةُ حيث العصافيرُ تنتظرُ الآنَ
لحظةَ ميلادِها من ركامِ مناقيرَ غـرثى
وأجنحةٍ متكسِّـرةٍ، وغصونٍ ستُصبَغُ. في العلبة الخشبيةِ
تاجٌ من الورقِ المُذْهَبِ.
المَلِكُ الوغْدُ
ينتظرُ الإصبعَ. الشمسُ ترخي شآبيبَها.
والحديقةُ تصغي إلى النبضِ في صيحةِ الطفلِ. ها أنتـذا
واقفٌ، حاجباً،
والمسَرّاتُ والأغنياتُ وشَـرشَـحةُ التاجِ تبدأُ في لحظةٍ.
والفتاةُ التي صعدتْ، تستريحُ.
سوف يأتي الصغارُ إلى العَرضِ...

لكنهم سيعودون منه إلى العالَمِ الفظِّ
حيث الملوكُ ملوكٌ
وحيثُ الفتاةُ التي تُنطِقُ الطيرَ تسكنُ بيتَ العراء...

لندن، ٢٤/٩/٢٠٠٦

مرحباً!

مرحباً!
كيف جئتَ إليّ؟
وكيف اهتديتَ إلى مَكْمَني (منزلي) في الضواحي القصيّةِ
حيثُ التلالُ التي تشبه الغيمَ، تُخفي المنازلَ والناسَ؟ حيثُ
البحيراتُ تُنْبِتُ أشجارَها وهي مقلوبةٌ في المساءِ المبَكِّرِ،
حيثُ الطيورُ تُحَدِّثُني (مثل ما في الأساطيرِ). حيثُ الأغاني
كلامْ...
مرحباً!
بَعُدَ العهدُ والودُّ. حتى المِهَفّةُ من سعفةِ البيتِ
(تلك التي قد أتيتَ بها لتُصالِحني) فقدتْ في الطريقِ
الطويلِ الروائحَ والنقشَ. أرجوكَ ألاّ تحاولَ... لكنك الآنَ تَطرقُ
بابي. المساءُ هنا موحشٌ. والرياحُ من الأطلسيّ.
وما عادَ يملأُ هذي السماءَ الثقيلةَ
إلاّ الغمامْ...
مرحباً!
لا رياحينَ عنديَ أفرشُها في طريقِكَ. لا ناقةٌ لي ولا جَمَلٌ.
فادخُلِ الآنَ. أبوابُ بيتيَ مفتوحةٌ دائماً. ثمّتَ الخبزُ والماءُ

والدفءُ. لكنني أتوسَّـلُ: إنْ أنا أغمضتُ عينيَّ دَعْني...
ونَمْ أنتَ!
أرجوكَ، دعني وشأني، ولا تَدخل الحُلْمَ.
أرجوكَ
دعْني أنام...

لندن، ٦/١٠/١٠٠٦

بعد عاصفةٍ مطريّـةٍ

الآنَ غيومٌ بيضٌ، تعْبُرُ، هادئةً، تحتَ سماءٍ زرقاءَ.
وأشجارُ الزانِ مُعَرّاةٌ
والعشبُ الأخضرُ يَخْضَرُّ عميقاً...
والساحةُ تُقْفِرُ.
من أعلى السورِ الخشبِ انحدرَ السنجابُ
وحطَّ العصفورُ على السورِ
الشمسُ تكادُ تَبِيْنُ
وفي البُعدِ
ومن خلَلِ الأغصانِ العاريةِ التمعَ الماءُ
(بُحيرةُ صيّادي الأسماكِ)
الساحةُ ما زالت تُقْفِرُ
لم يأتِ العمّالُ إلى مشروعِ المبنى
(لا عطلةَ هذا اليومَ)
ولا خيطَ دخانٍ يعلو بين مداخنِ هذا الحيِّ.
انتصفَ اليومُ:

رعاةٌ مجهولونَ يجوسونَ الغاباتِ بلا سببٍ،
ويجيئونَ إلى الحانةِ ظُهراً،
بسراويلٍ لم يُحْكَمْ شَدُّ مَساحِبِها
ووجوهِ صغارٍ مرتبكينْ...

لندن، ٢٤/١١/٢٠٠٦

قصيدةٌ أخرى عن «باب سُليمان»

أ «بابَ سُلَيمانٍ» رأيتَ، أَم الرؤى مُشعشَعةٌ؟
أَمْ أنّ ما كانَ لم يكُنْ؟
تقولُ: رأيتُ الجسرَ...
كانت حمامةٌ تقولُ لأخرى: التّوتُ في الماءِ.
والجسرُ عابرٌ مع النهرِ.
والوَزُّ العراقيُّ عابرٌ.
أتلكَ سماءٌ أَمْ مرايا؟
ألَم أكُنْ
ألوذُ بها إنْ ضاقت الأرضُ؟
أيُّها السبيلُ الذي يُسْمى، ويا أيّها الفتى
الغنيُّ بصُنّاراتهِ،
الخيطُ واهنٌ... أتعْقِدُهُ؟
هل تَبلغُ الفجرَ مرّةً
بـ «بابِ سُلَيمانٍ»؟
خفيفاً،
مُضَوّعاً بِطَلْعٍ،
ومحمولاً على الغيمِ.

ربّما ستأخذُ من حوريّةِ النهرِ خُصلةً.
وقد تنتهي في القاعِ.
ما أجملَ
الفتى، خفيفاً... خفيفاً، هابطاً في المياهِ،
لا يرى سوى خُصلةِ الحوريّةِ.
الماءُ دافيءٌ
وثَمَّ غناءٌ...
لا ـ لَ ـ لا ـ لا
لَ ـ لا ـ لَ ـ لا...
و«بابُ سليمانٍ» هو الجسرُ
أولُ الندى
وآخِرُهُ
والسدْرةُ التي لها الثمارُ الفراديسُ...
المآبُ المقدّسُ...

لندن، ٢٨/١١/٢٠٠٦

(*) باب سليمان: جسرٌ تاريخيّ في أبي الخصيب جنوبيّ البصرة، تعرّضَ مؤخراً إلى قصفٍ بالهاونات.

سأحاوِلُ ألاّ أقولَ شيئاً

كانت غيومُ الصُّبحِ باردةً، مخلخَلةً
وكان الماءُ يصعدُ من حشيشِ المَرْجِ نحوَ الغيمِ،
ثَمَّتَ ترتعي الخيلُ...
المَراكبُ في القناةِ
وفي المَراكبِ كان شايُ الصُّبحِ خيطاً من دخانٍ في المَداخنِ؛
لا طيورَ هُنا.
غرابٌ كان يَنقرُ، باحتدامٍ، جُثّةَ السنجابِ.
والورقُ الذي قد كانَ حتى أمسِ بُنِّيّاً على وجه الحديقةِ، صارَ يَسْوَدُّ.
النوافذُ رُقِّطَتْ بِنَثِيرِ بلّورٍ.
أيأتي الثلجُ؟
سوف يدورُ في دفءِ القناني
في جذورِ الكَرْمِ
والليلِ
النبيذُ...

لندن، ١١/١٢/٢٠٠٦

قصيدةٌ مبتلّةٌ

لثلاثةِ أيامٍ، وثلاثِ ليالٍ، ظلَّ المطرُ الصامتُ
يدخلُ في الجِلْدِ، ويسري في الدمِ،
حتى ابتلَّ إطارُ الألمنيومِ وأوشكتِ الصورةُ
ـ مجرىً جبليٌّ ـ أن تغرقَ. كان العشبُ يميلُ
ويَخفُقُ، كان يسيلُ. الغرفةُ باردةٌ. لا صوتَ
ولا امرأةٌ. والغرفةُ باردةٌ تَلتفُّ بزُرقتِها وتنامُ.
السجّادةُ تُنْبِتُ أزهارَ البوشْناقِ الواسعةَ. الضوءُ
الذّرِّيُّ يرشُّ على الأزهارِ غباراً ذهباً. تَسّاقَطُ
أوراقٌ بيضٌ من سقفِ الغرفةِ. والريحُ تدقُّ
على الشبّاكِ. المطرُ الصامتُ ينطقُ. ماءٌ في
المرآةِ، وماءٌ سِرّيٌّ في العينينْ.

لندن، ٩/١/٢٠٠٦

في المَهَبّ

ربما انقصفتْ دوحةُ الجوزِ في لحظةٍ...
ربّما انْهَدَّ سورُ البنايةِ
أو ربّما غرقَ المرْكبُ الضيِّقُ؛
القنواتُ التي طالَ ما أغرقَتْها طحالبُها، الصيفَ
تَعْبرُ، هذا الصباحَ، مَمَرَّ المُشاةِ...
الرياحُ من الأطلسيّ
الرياحُ شماليةٌ
والرياحُ جنوبيةٌ
والرياحُ لها أن تكونَ الرياحَ،
لها أن تُزعزعَ
أن تُفزِعَ...
.....
.....
.....
النبتةُ المنزليةُ منسيّةٌ،
بينما تتخاطفُ ألسِنةُ البرقِ في دوحةِ الكستناءْ.

لندن، ١١/١/٢٠٠٧

الصـورةُ الفوتوغرافيّـةُ

صورتُكَ:
الخصلة فاحمةٌ، مُسْدَلةٌ فوقَ جبينِكَ
والعينانِ الواسعتانِ،
قميصُكَ ذاكَ المفتوحُ لِريحِ الصيفِ
وسروالُكَ غيرُ المَكْوِيّ...
وصورتُكَ:
الخُصلةُ ثلجٌ
والعينانِ هما الواسعتانِ،
لكنّ قميصَكَ لم يَعُد المفتوحَ
(قميصُكَ كَنْزةُ صوفٍ مغلقةٌ سوداءُ)
وسروالَكَ أمسى مَكْويّاً كالمسْطرةِ...
.....
.....
.....
انتبِه الآنَ
ولا تُطْبِقْ جَفنَيكَ...
وصَوِّرْ نفسَكَ

صَوِّرْها
وتَصَوَّرْها
قبلَ مغيبِ الشمس!

لندن، ١٧/ ١/ ٢٠٠٧

الحديقةُ السرِّيّةُ

ثَمَّ طاولةٌ في الحديقةِ خضراءُ
طاولةٌ ثُبِّتَتْ بعمودٍ حديدٍ إلى الأرضِ،
طاولةٌ سَوَّرتْها الكراسِيُّ
واحتقرتْها الطيورُ...
الحديقةُ موقوفةٌ لِلّذينَ انتهَوا من غرامِ الحدائقِ،
موقوفةٌ لِلّذينَ استراحوا إلى الغُرُفاتِ الخَفِيّةِ
(حيثُ المشانقُ)
موقوفةٌ للعَماءِ...
الحديقةُ خضراءُ
ثَمَّتَ طاولةٌ في الحديقةِ خضراءُ
والشمسُ، مثل الكراسيّ، خضراءُ
والجالسون: وُجوهُهُمو المستديرةُ خضراءُ.
.....
.....
.....
في بَغْتةٍ،
وبلا أن تُحِسَّ الوطاويطُ، أو دوحةُ الكستناءِ وسُكّانُها

هبّت العاصفةْ
رفعتْ كلَّ ما في الحديقةِ
بل كلَّ مَن في الحديقةِ
نحو المَزابلِ في آخرِ القريةِ...
.....
.....
.....
الآنَ، تلهو السناجيبُ في الريحِ، مثلَ الطيور!

لندن، ١٨/ ١/ ٢٠٠٧

اللـقاءُ البعيـدُ

الشتاءُ الذي كان ينْصِبُ خيمتَهُ الثلجَ
دانيةً في الحديقةِ...
هذا الشتاءُ الذي يوقِدُ الآنَ مصباحَهُ
باحثاً عن جليسٍ يُسامِرُهُ ـ
سوف يأتي إليّ...
سوف يسألُني عن مياهٍ تناءتْ
وأخرى تناهَتْ،
ويسألُني عن قميصٍ من الصوفِ كنتُ ارتديتُ
قميصٍ لبَحّارةِ الباسيفيكِ الشماليّ...
.....
.....
.....
كان الشتاءُ يُمازِحُني:
كيف لا تُوقِدُ النارَ؟
كيفَ انتهيتَ إلى هذه الحالِ؟
أنتَ الذي كنتَ تمضي بنارِكَ حتى رؤوسِ الجبالِ...
اكتفَيتَ بأنْ تتلمّسَ نبضَكَ!

أو تخدعَ الكلماتِ، تقول لها: النارُ في الثلجِ
والثلجُ في النارِ...
أمسَيتَ لا تستحي...
أنتَ تحسَبُ ألعابَكَ اليدويّةَ تُغْنِي عن الوِقْفةِ الحَقِّ؟
يا صاحبي
وجليسَ الليالي الطويلاتِ
كُنْ لي رفيقاً...
ودَعْنا نَعُدْ نحو نارِ المتاريسِ
لن نعرفَ البرْدَ...
هل تتذكّرُ «قَصْرَ الشتاء»؟

لندن، ٢٩/١/٢٠٠٧

مَنْظرٌ ١

مطرٌ ضبابيٌّ،
وفي البُعْدِ: التلالُ خفيضةٌ
زرقاءُ،
والأشجارُ تفقدُ في المساءِ مَعالِمَ الأغصانِ
ثمّ تكونُ غيماً أزرقاً
فوقَ التلالِ...
الليلُ يأتي صامتاً، متخفِّياً تحت الضّبابِ الناضحِ،
القطُّ الوحيدُ يموءُ
والمطرُ الضبابيُّ استوى، في غفلةٍ، مطراً؛
.....
.....
.....
ستنبثقُ البحيرةُ فجأةً
في الدّغْل!

لندن، ٣٠/١٢/٢٠٠٦

منظرٌ طبيعيٌّ ٢

حِبالُ السّراخِسِ
تلكَ التي تتسوّرُ بيتي، تَعَرّتْ طويلاً
وكادتْ تفارِقُ نُعْمى الجذوعِ
إلى مَلْعَبِ الريحِ...
بين الغصونِ المُعَرّاةِ ألمَحُ ماءَ البحيرةِ يلمعُ مثلَ الرصاصِ
الكَشِيطِ،
البحيرةُ قانعةٌ
ومُقَنّعةٌ بالهدوءِ.
البحيرةُ ساكنةٌ
ومُسَكّنةٌ في أواخرِ هذا الشتاءِ الذي ضاقَ بالمطرِ الجَهْمِ ذي القطراتِ
الكبيرةِ.
أفتحُ في الفجرِ نافذتي
(أنا أعني: أُزيحُ الستائرَ)
أنظرُ...
الكونُ أبيضُ
رَطْبٌ

ومنكمشٌ
باردٌ، وبعيدٌ...
كأنّ البحيرةَ لم تكنِ البتّةَ!
الكَفَنُ اللاحِبُ / الثوبُ أهْدَلَ/ هذا الضَّبابُ المُحِيطُ /
السفينةُ / غارُ القراصنةِ / الذئبُ أغبرَ / صوتُ الغريقِ /
الثعالبُ مسلوخةً / حَجَرُ الخنجرِ الأوّلِ / القطنُ في
منخرِ المَيْتِ/ فِطْرُ السُّمومِ / الحليبُ الذي خثّرْتْهُ
الأفاعي / الدمُ المَحْضُ قبلَ احمرارٍ / جلود الثعابينِ
مَنزوعةَ اللونِ في الصّهَدِ / الورقُ الأوّلُ / السُّلُّ...
تلكَ البحيرةُ لم تكنِ البَتّةَ!
؟
؟
؟
الآنَ أفعلُ ما أفعلُ...
الآنَ أدفعُ سيّارتي، مسرعَ النّبضِ
مندفعاً
في الطريقِ الضَّباب...

لندن، ٢١/١/٢٠٠٧

منظرٌ طبيعيٌّ ٣

السقفُ الرمادُ
الممتدُّ طويلاً ومتخشباً فوق المبنى الذي هجره أهلُه منذ عامٍ
السقفُ الرمادُ
المصنوعُ من مادّةٍ سامّةٍ استغنى عنها البنّاؤون منذ أعوامٍ
السقفُ الرمادُ
الذي لا يأوي إليه الطيرُ
السقفُ الرمادُ
ذو المداخنِ النظيفة مثل هاوناتٍ خفيفةٍ في حربٍ سرّيّةٍ
السقفُ الرمادُ
ذو الألوانِ الغميقةِ المتدرجةِ في عتمتِها مع ساعات النهار والليل
السقفُ الرمادُ
الذي لا يستظلُّ به بشرٌ أو شيءٌ
السقفُ الرمادُ
يكمن مثل عنكبوتٍ خرافيٍّ ليمتصّ اللونَ من أعالي الشجر
السقفُ الرمادُ
يتوحّدُ والهشيمَ في أغنيةِ المطرِ الباردِ...

.....

.....

.....

لا أحدَ هنا يقولُ: صباح الخير.

لندن، ٢٣/ ٢/ ٢٠٠٧

منظر طبيعيّ ٤

أرى خَللَ الرمادِ وميضَ نارٍ...
كأنّ سحابَ آذارٍ رخامُ المدافيءِ، والغروبَ الجمرُ. كان المساءُ
يُطِلُّ منسحباً قليلاً، ومنتظِراً...
أُحِبُّكِ!
أين أمضي؟
لقد هبطَ المساءُ الآنَ. طيرٌ وحيدٌ يختفي في كستناءِ الحصانِ
وفي البعيدِ أرى مياهَ البُحيرةِ كالرصاصِ...
أرى خيولاً تكادُ تغيبُ...
والغسقُ العميمُ استقَرَّ.
الليلُ أطبَقَ.
أين أمضي؟

لندن، ٩/٣/٢٠٠٧

منظرٌ غير طبيعيّ

هوائيُّ التلفزيونِ
وصحنُ استقبالِ العالَمِ والعِلْمِ
يُطِلاّنِ عليّ من الأعلى...
.....
.....
.....
أنا في الغرفةِ
نافذتي واسعةٌ، والأستارُ تشِفُّ.
المطرُ الناعمُ، غيرُ المَرئيّ، يُبَدِّلُ ألوانَ القرميدِ ونبْتِ البيتِ
وأوراقِ الماغنوليا اللامعةِ،
المطرُ الناعمُ، مثل هوائيّ التلفزيونِ
يُطِلُّ عليّ من الأعلى...
ويحاولُ أن يجعلَني فرداً في مملكةٍ لعناصرَ لا أفهمُها...
.....
.....
.....
أنا في الغرفةِ

أوراقي نائمةٌ، والجفنُ يرِفُّ.
هوائيُّ التلفزيونِ
سيأخذُ أهلَ الحَيّ جميعاً، وبلا مزمارٍ، نحو قرارِ النهرِ،
*
ولكني في الغرفةِ
أوراقي تتنفّسُ، والزانُ المتطامنُ في البستانِ يَرِفّ...

لندن، ٣/ ٤/ ٢٠٠٧

محاولة نظرٍ

كلما لاحتْ من البُعدِ البحيراتُ
رأيتُ الماءَ مخْضَرّاً، ومُزْرَقّاً،
رصاصاً مرّةً، أُخرى حليباً
واستلمتُ الصُّبحَ في صُرّةِ أوراقٍ
كلما لاحتْ من البُعدِ البحيراتُ
رأيتُ الماءَ مخْضَرّاً، ومُزْرَقّاً،
رصاصاً مرّةً، أُخرى حليباً
واستلمتُ الصُّبحَ في صُرّةِ أوراقٍ
وفي خيطِ لِحاءٍ يربطُ النافذةَ البيضاءَ بالماءِ البعيدِ.
الشمسُ قد تنتظرُ
السنجابُ قد ينتظرُ
اللحظةُ قد تنتظرُ...
المرأةُ
والثعلبُ
لكنّ افترارَ الماءِ في تلك البحيراتِ التي تلمعُ
لا ينتظرُ...
الماءُ في الشمسِ

وهذي الشمسُ في الماءِ
وآلافُ الخيوطِ ابتدأتْ تَغْزِلُ للماءِ ثياباً...
لم أعُدْ أعرفُ لونَ الماءِ.
مَن يعرفُ لونَ الماءِ غيرَ الماءِ؟
مَن يعرفُ، حقّاً، أن يُسَمِّيْ؟

لندن، ٢٦/ ٢/ ٢٠٠٧

القاهرة ١

لم يَدُرْ في خاطرِ القاهرةِ الليلُ الذي نعرفُهُ...
إنّ سماءً أُثقِلَتْ بالنَّفَسِ الساخنِ آناءَ النهارِ
استسلمتْ لِلّيلِ كي تنسى قليلاً وطأةَ الأرضِ،
وكي تشربَ نوراً مُسْكِراً يحملُنا حتى الصباحِ الباردِ...
القاهرةُ
البيتُ الذي لم ينقسمْ بيتَينِ
والغصنُ الذي لم ينقصِفْ فَرعَينِ
والعَينُ التي تَنْعَمُ في بحبوحةِ الجَفنَينِ...
والقاهرةُ
المعنى الذي ظلَّ يُطِلُّ:
الوردُ والمِسْكُ
وغصنُ البانِ والشوكُ...
وتلكَ النعمةُ السابغةُ:
البسمةُ والنيلُ!
.....
.....
.....

ونأتي القاهرةْ
مثلَ ما نأتي إلى جَدَّتِنا بعد طوافٍ خائبٍ
أيتُها الـجَدّةُ:
كم أرهَقَنا العالَمُ!
يا أيتها الـجَدّةُ:
ضُمِّينا إلى أحفادِكِ المنتظِرين...

لندن، ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٧

القاهرة ٢

ربما شاغلتْنا الجسورُ التي حملتْ عرباتِ الملوكِ عن النهرِ. أعمقَ كالرملِ ينسربُ النهرُ، يبلغُ واحاتِ مصرَ البعيدةَ، حيث التواريخُ مكتوبةٌ باللغاتِ التي تتناسى تواريخَها. النهرُ يدخلُ في وجنةِ الطفلِ طَمْياً وخِصباً،

ويدخلُ في نَهدَي البنتِ. يدخلُ من عتْبةِ البيتِ. مصرُ المعابدِ حيثُ التماسيحُ آلهةٌ

والملوكُ ينامون في الغُرَفِ المُذْهَباتِ وفي مَرْكَبِ الشمسِ. مصرُ التي لم تجدْ ما تُسَمّى بهِ غيرَ مصرَ. انتبذْنا من الليلِ رُكناً قريباً من البحرِ.

كانت تماثيلُ من مرمرٍ غابرٍ تتراءى وترحل في الموجِ. كانت شفاهٌ تسيلْ.

لندن، ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٧

القاهرة ٣

حانة ستيلاّ
لم تكن حانةً.
ربما قبل قرنينِ كانت.
ورُبّتَما وُجِدَتْ قبلَ أنْ تُعصَرَ الخمرُ.
أعني كأن موائدَها
رُكِّبَتْ من ضلوعِ سفائنَ غارقةٍ من زمانِ البطالسةِ.
الضوءُ يدخل كالمتردِّدِ.
لا شمسَ
في مصرَ.
كان الزجاجُ القديمُ ثخيناً بفعلِ الترابِ الثخينِ.
الزوايا محدّدةٌ لذويها.
زوايا
السجونِ التي تتعتّقُ فيها الجواربُ.
ماذا؟
القبارصةُ ارتحلوا منذ قرنٍ،
ولكنهم يسكنون
القناني التي احتفظت باسمِهِم:

إنه القبرصيُّ. الشرابُ الذي يترنّحُ بين العَمى والبروقِ.
ولكنها الحانةُ
الحانةُ الحقُّ...
فيها انتظرْنا الزمانَ الجديدَ،
وفيها شهِدنا معاركَنا،
والقصائدَ تولَدُ مُشْرَبةً بالتمرُّدِ.
كنّا إذا ما ترنّحَ منتصفُ الليلِ، نرفعُ سقفَ الأغاني.
سيأتي إلينا المُغَنّونَ من كل فَج
عميقٍ.
ويأتي إلينا السقاةُ وقد أصبحوا الشاربِينَ.
بلادٌ مؤقّتةٌ بين منتصفِ الليلِ والصبحِ.
لا بارَ في الحانةِ.
البارُ يشبهُ أولى المتاريسِ.
حصنٌ حصينٌ له حارسٌ واحدٌ.
لن يمرَّ الهواةُ...
إذاً، فلنكنْ مثلَ من دخلوا حانةً.
ولنكنْ مثلَ مَن لم يرَوا حانةً.
نحن في البرزخِ.
الصبحُ جاءْ.

لندن، ٢٧/ ٢/ ٢٠٠٧

القاهرة ٤

مقهى البستان

لا أعرفُ مَن سمّى هذا المقهى، «البستانَ»

و لا أدري سبباً...

أعرفُ أن المقهى يحتلُّ تقاطُعَ دربَينِ ذَوَي وِرشاتٍ للميكانيك

وأكشاكٍ تَعرِضُ أضغاثاً متناثرةً بين السجّاد وأجهزةِ الهاتفِ

والخبزِ البلديّ،

وأعرفُ أن الفحمَ هو اللونُ هنا في هذي الزاوية الدكناءِ من العالَمِ...

أعرفُ هذا، وأُسائِلُ نفسي: مَن سمّى البلقعَ بستاناً؟

مَن جاءَ بما يفترضُ البستانُ: زهوراً، شجراً، وطيوراً، وإلخ...؟

الأشياءُ هنا متداعيةٌ

حتى لم يَعُد المرءُ ليأمنَ كرسيّاً؛

والشايُ هنا أسودُ كالفحمِ

إذاً أين البستانُ؟

.....

.....

.....

أقولُ لكم: إن «البستان» هو الحُلمُ الأوّلُ بالبستان!

لندن، ٢٨/ ٢/ ٢٠٠٧

القاهـرة ٥

ستكونُ لي بيتاً...
تلُفُّ رداءَها القطنَ المهفهفَ حولَ أضلاعي الرميمِ:
ألم تجيءْ لتنامَ؟
كم طوّفتَ في الآفاقِ حتى لم تَعُدْ تدري بأيّ سقيفةٍ انتَ!
البلادُ وسيعةٌ أبداً
وضيّقةٌ...
وأنتَ تدورُ
كالخذروفِ أنتَ تدورُ
ترمي حبْلَكَ امرأةٌ إلى امرأةٍ إلى امرأةٍ
وأنتَ تدورُ...
فلْتهدأْ!
أقِمْ حيثُ النواقيسُ الغريقةُ في مياه النهرِ
حيثُ الصبحُ شمسٌ
حيثُ اللوتُسُ الأبديُّ تمضَغُهُ الجواميسُ؛
اقترِبْ مني...

ولا تجفَلْ
ألم تشعرْ بأن ردائيَ القطنَ المهفهَفَ حولَكَ؟
الأبقارُ في الوادي
وأنت على جلاجلِها تنام...

لندن، ٢٨/ ٢/ ٢٠٠٧

القـاهرة ٧

النادي اليوناني
في حمّامِ النادي تسمع موسيقى اليونانيينَ
وفي الصالةِ تسمعُ أغنيةَ المصريينَ...
وفي الصالة تنعقدُ الأبخرةُ:
الأنفاسُ
دخانُ سجائرَ
سيجارٌ كوبيٌّ
حتى لكأنّ الدنيا تطفو في الغيمةِ... أولَ أيامِ الخَلْقِ.
وفي الصالةِ دمدمةٌ
في الصالةِ غمغمةٌ
في الصالةِ همهمةٌ
في الصالةِ لا تسمعُ حتى صوتَكَ...
في الصالةِ تنسى أنك في الصالةِ
تنسى أنكَ في النادي اليونانيّ!

لندن، ١/٣/٢٠٠٧

القاهرة ٦

«الدرب الأصفر»
حجرٌ قديمٌ يرتدي أبهى ملابسِهِ.
المساءُ يجيءُ مرتطِماً بأبخرةٍ، ومرشوشاً على الدربِ،
المقاهي في الرصيفِ
وأهلُها في الشارعِ:
التَّبغُ المعسّلُ. شايُها. والفولُ أخضرَ يُثْقِلُ العرباتِ
تنتظرُ البناتُ الليلَ كي يُبْدِينَ ما يُخْفِينَ...
أطلبُ قهوةً سوداءَ.
يسألُني فتى المقهى:
أظُنُّكَ لستَ من مصرَ؟
الكلامُ يطولُ...
أطلبُ قهوةً أخرى، وأُصغي للفتى.
كان المساءُ يُقِيْمُ حفلتَه التي لن تنتهي إلاّ مع الصّبحِ.
الأغاني سوف تبدأُ...
ربّما من سَحْبةٍ تُفْضي إلى دربٍ عجيبٍ...
قد يكون هناكَ
خلفَ ستارةِ المقهى!

لندن، ٢٨/ ٢/ ٢٠٠٧

عند شاطيء البحيرة

سأمضي في المساءِ إلى غصونِ البحيراتِ التي عَرِيَتْ، لَعَلِّي أرى بين
الغصونِ
الريشَ... حتماً سَيُبقي الطيرُ لي خيطاً رهيفاً ألوذُ بهِ إذا التاثَتْ
دَوانٍ علَيَّ، فلم
أجِدْ إلاّ حفيفاً أكادُ لهُ أُجَنُّ... أليسَ عندي سوى هذا الحفيفِ؟ أكانَ حُلْماً إذاً
ذاكَ السبيلُ؟ أكانَ وهماً؟ أَمِ الصَّقرُ الفَتِيُّ نأى بعيداً وخلَّفَ
لي بقايا الريشِ ذَرْقاً
ونَفْنَفةً؟ أُحِسُّ الريحَ تدنو وتلمُسُ جبهتي: هدَأَ المساءُ الخَفِيُّ
... اهدأْ! لَعَلّكَ
سوفَ تلقى عميقاً في مياهِ الليلِ صقراً يَرِفُّ! اهدأْ! وضَعْ تحتَ القميصِ
الأناملَ...
هل تُحِسُّ رفيفَ صقرٍ؟

لندن، ٧/ ٣/ ٢٠٠٧

سـعـادةٌ

سعيدٌ في الصباحِ أنا...
الغيومُ الخفيفاتُ احْتَنَيْنَ علَيَّ، إني أسيرُ مظلّلاً بالغيمِ...
شَعري تَمَوَّجَ،
والقميصُ به نثارٌ من الطَلِّ
الحمامةُ سوف تأتي إليَّ بعودِها الريّانِ...
ضَوءٌ تَحَدَّرَ من سياجِ الآسِ.
كانت فتاتي هيّأتْ لي خبزةً...
يا رفيقي
هل نكونُ معاً؟
أنمضي سراعاً في الصباحِ إلى قطارٍ به راياتُنا الحمراءُ
تعلو ورشّاشاتُنا
والدينامِيتُ المُعبّأُ في صناديقِ الندى؟
مَن يُنادي:
من يجيءُ معي؟
.....
.....
.....

أُنادي

رفاقي...

مَن يجيءُ معي؟

أُنادي...

لندن، ٩/ ٣/ ٢٠٠٧

حـريرٌ سـاخنٌ

مَرِّغْ عينيكَ وجبهتَكَ...
ادخُلْ في طيّاتِ حريرٍ لم تنسجْه يدانِ
وأدخِلْ هُدبَيكَ الجنّةَ.
أنتَ اللائبُ
واللاعبُ
أنتَ المتمرِّغُ في عشبِ الليلِ
المتحدِّرُ في السيلِ
وأنتَ المنجرِفُ، الضائعُ، في أمواجِ حريرٍ لا تهدأُ...
أنت، الآنَ، تحسُّ بأن رطوبتَها الساخنةَ التصقتْ بكَ.
أنت، تحسُّ بأنّ حريراً دبِقاً أوشكَ أن يجعلَ جسمَكَ نوراً وحريراً.
هل تتأكّدُ؟
هل تشعرُ أنكَ ناءٍ، تتفصّدُ؟...
هل تشعرُ أنكَ ناءٍ وسعيدٌ؟
ما أجملَها!
ما أجملَها من طيّاتِ حريرٍ نسجتْهُ، ورائحةَ الخمرِ القرويّ، يدانِ
إذاً، بَدَنان...

لندن، ١٣/ ٣/ ٢٠٠٧

الأنفوشـي

«منطقة شعبية من شاطيء الإسكندرية»

شِباكُ الصيّادينَ تجِفُّ على بضعةِ أطوافٍ وقواربِ صيدٍ
والقلعةُ تدخلُ في المشهدِ...
ثَمَّ سِقالاتٌ عند المسجدِ،
ثَمّتَ إعلانٌ عن موقعِ غوصٍ لسفائنِ نابوليونَ.
وأكوازُ الذُّرةِ المشويةِ تأتي ببيوتِ الفلاّحينَ إلى الشاطيءِ.
تأتي بقُرى الدّلتا.
لن يصلَ الكورنيشُ هنا...
الفتياتُ المصريّاتُ (بناتُ البلدِ) احْتَطْنَ بما يكفي.
الفتياتُ المصرياتُ منحْنَ الشاطيءَ حريّتَهُنَّ
منحْنَ الشاطيءَ حُريّتَهُ...
هذا الشاطيءُ للناسِ
فلا سوّاحَ هنا،
لا قوّادينَ هنا...
.....
.....
.....

شمسُ المتوسطِ ناعمةٌ
وشِباكُ الصيّادينَ تجِفُّ...

لندن، ١٠/ ٣/ ٢٠٠٧

العودة إلى البارِ الإيرلنديّ

كان البارُ الإيرلنديّ، وأعني حانةَ فيتزجيرالدَ
انتقلَ الليلةَ من دَبْلِن
كي يفتحَ ذاتَ البابِ الضيّقِ في لندن...
لي أن أحسَبَ كلَّ الأمرِ هُراءً
أو معجزةً؛
قُلْ ما شئتَ
ولكنّ البارَ هنا بالفعلِ:
مقاعدُهُ الخشبُ
العَتْمةُ في العُمْقِ
وأسماءُ زبائنِهِ
والزهرةُ تَنبتُ في رغوةِ بيرتِهِ السوداءِ
كأنّ كتابَ خيالٍ عِلْمِيٍّ أدخلَني مختبَراً
وكأني في أرضِ عجائبَ...
.....
.....
.....
هل كان البارُ الإيرلنديُّ، هوَ، البارَ الإيرلنديَّ؟

أكنتُ الجالسَ حقّاً عند البابِ؟
وهل كان زبائنُهُ أشخاصاً بشراً؟
ومقاعدُهُ الخشبُ؟
هل كانت خشباً أمْ محضَ ضَبابٍ؟
هل كانت تلك الجدرانُ الملأى بالإعلاناتِ حوائطَ من قرميدٍ
أم كانت ورقاً في الريحِ؟
وتلك المرأةُ ذاتُ الثوبِ الأسودِ...
أهيَ الساحرةُ؟
*
الضوءُ الباهتُ يَبْهُتُ أكثرَ عندَ أريكةِ مالكةِ البارِ
ومن زاويةٍ لم أعهَدْها جاءَ الكلبُ الألمانيُّ الراعي بعصا،
من زاويةٍ أخرى جاءتْ فاختةٌ...
ثم أتى رجلٌ يحملُ أفعى تلتفُّ على يُسراهُ.
العَتْمةُ تشتدُّ
ومالكةُ البارِ تردِّدُ أغنيةً لقراصنةٍ غرقوا في مرجانِ الكاريبيّ...
العَتْمةُ تشتدُّ
الألوانُ تغيمُ
وعيناي تغيمانِ.
.....
.....
.....
البحرُ بعيـد.

لندن، ٢٨/ ٣/ ٢٠٠٧

كنيسة سان جون وود

St. John's Wood Church

أوّلَ نيسانَ
دخلتُ كنيسةَ سان جون وُود...
زهورُ حديقتها تتألّقُ تحت أشعةِ شمسٍ فاترةٍ
ومَماشيها تتداخلُ والعشبَ النضِرَ،
الأطفالُ يدورون على أحذيةٍ ذاتِ دواليبَ مخبّأةٍ
وخدودُ الفتياتِ تدورُ مع الشمسِ كعَبّادِ الشمسِ...
وفي أوّلِ نيسانَ
دخلتُ كنيسةَ سان جون وود:
فلسطينياتٌ يتحدّثْنَ بأصواتٍ خافتةٍ
(خائفةٍ؟)
عن دِير ياسين...
قساوسةٌ يستمعون إلى القرآنِ
وأطفالٌ لا يبكون.
كنيسةُ سان جون وود تُشَيِّدُ دير ياسينَ عميقاً في الأرغُنِ.

.....

.....

.....

في الثاني من نيسان

كان فلسطينيٌّ آخَرُ ينتظر الصَّلْبَ...

لندن، ٢/ ٤/ ٢٠٠٧

جزيرة وايت

The Isle of Wight

في نُزْلٍ ذي غرُفاتٍ خمسٍ كانت تملكه فكتوريا الملكةْ (الملكة فكتوريا المولودة في العام ١٨١٩ تربّعت على العرش البريطاني أطول فترة في تاريخ هذا العرش، من ١٨٣٧ حتى وفاتها في العام ١٩٠١.

اقترنَ عهدُها بالتصنيع، والتوسّع الاستعماري. كانت تقضي بعض عطلاتها مع زوجها الأمير ألبرت في جزيرة وايت، هذه الجزيرة التي رأيتُها للمرة الأولى يوم الأربعاء، الرابع من نيسان «أبريل» ٢٠٠٧)

سأردِّدُ ثانيةً، كالتلميذِ المجتهدِ:

في نُزْلٍ ذي غُرُفاتٍ خمسٍ كانت تملكُهُ فكتوريا الملِكةْ

غنّيتُ، وصاحبتي، أغنيةَ السعداءِ...

لماذا أُنكِرُ أني كنتُ سعيداً؟

ولماذا أُنكِرُ أني كنتُ وصاحبتي، زوجينِ، تماماً مَلَكِيَّينِ

كـ:

ألبرت وفكتوريا؟

ألأنّ كلاباً مُتَدَيِّنةً تستذئبُ في بغدادَ لتَحكمَها،

ولأنّ حماراً هَرِماً، لاثَ عمامتَه سوداءَ، ليَنْهَقَ في

النجفِ؟
الصبحُ بَهِيٌّ
والشمسُ مواتِيةٌ، تنسجُ بالألوانِ جزيرةَ وايتْ،
وتمنحُ طيرَ التّدْرُجِ ريشَ الجنّةِ
تمنح خَدَّي صاحبتي ألَقَ الجنّةِ
تمنحُ كأسَ نبيذي لونَ الخَدَّينِ...
أقولُ: سعيداً كنتُ
وسوف أظلُّ سعيداً
ما دُمتُ أُريحُ الرأسَ على ريشٍ أبيضَ،
ما دُمتُ أوزِّعُ خبزي اليوميّ على طيرِ البستانِ
ووَزِّ البرْكةِ...
ما دمتُ أحاولُ أن أعرفَ سرَّ جزيرةِ وايتْ!

لندن، ٦/ ٤/ ٢٠٠٧

الصبّـارُ في الحديقة المنزلية

يباغتُني الصبّارُ...
في كل نظرةٍ وملتمَسٍ ألقاهُ صُلْباً و لامعاً!
.....
.....
.....
ويُقْلِقُني الصبّارُ...
أهجِسُ أنني ضعيفٌ وقد أنبَتُّهُ في حديقتي قويّاً كأكوازِ الصنوبرِ
ربما تَعاورَهُ ثلجُ الشمالِ
وربما تناوَبَهُ القَرُّ المُشِتُّ
وربما أمَضَّ بهِ بولُ الكلابِ
وربّما تناستْهُ مَن تهوى الزهورَ
وربما...
ولكنه الصبّارُ
صُلْباً ولامعاً يظلُّ
ومرأىً للحديقةِ

ملعباً وملتجَأً للعنكبوتِ
وقطرةً مخبّأةً للنحلِ،
بيتاً مقدّسا...

لندن، ١٠/ ٤/ ٢٠٠٧

صباحَ السبتِ

جاؤوا، السبتَ، صباحاً
جاؤوا في حافلةٍ شبهِ مصفّحةٍ
جاؤوا بمناشيرَ مُدَوِّيةٍ، وبآلاتٍ، وحبالٍ
جاؤوا سبعةَ عُمّالٍ
جاؤوا سبعةَ أغْوالٍ
جاؤوا ثمِلينَ وقد حملوا عُلَبَ البيرةِ كالأزهار
جاؤوا بملابسَ خُضْرٍ شِبْهِ مُمَوَّهةٍ،
ووجوهٍ حُمرٍ
ونِعالٍ سُود
جاؤوا...
.....
.....
.....
لم تستسلِمْ تلكَ السّرْوَةُ
لم يستسلمْ نقّارُ الخشبِ
السنجابُ
الطيرُ الأسوَدُ

لم تستسلم حتى الدّعْسوقةُ
(كانتْ جذلى بربيعٍ أوّلَ)
كان عليهِم أن يرتكبوا بترَ الأعضاءِ
وتمزيقَ الأحشاءِ
وتشريدَ السنجابِ
ونقّارِ الخشبِ
النملةِ، والطيرِ الأسودِ، والدعسوقةِ...
كان عليهم أن يحتفلوا بالقتلِ، صباحَ السبت.

لندن، ٢١/ ٤/ ٢٠٠٧

في الطائرة بين نيويورك ولندن

* هل كنتما تتحدّثانِ معاً، بالفارسيّةِ؟
(كانت امرأةٌ مع مَن بدتْ لي أنها ابنتُها جِواري في المَمَرّ)
* أكنتما تتحدّثانِ معاً، بالفارسيةِ؟
تهمسُ لي: نَعَمْ.
وتُشِيحُ عني.
ثم تبحثُ في ذراع المقعدِ المكتظّ بالأزرارِ عن زرِّ الإضاءةِ.
قلتُ: إن الضوءَ ثَمّتَ.
انتبهتْ، ونبّهتِ الأناملَ، ثم راحتْ تقرأُ الأزياءَ.
(لا شكراً، ولا...!)
.....
.....
.....
صمتتْ.
وقالتْ مَن بدتْ لي أنها ابنتُها:
«نَعَم».
وبكل لُطْفِ الفارسيةِ...
ثَمَّ ذبذبةٌ تُحَرِّكُ في الهواء الساكنِ، النبضَ.

الحديقةُ تلكَ... في أرباضِ شيرازَ
الجداولُ
والنبيذُ الأحمرُ الحلوُ...
القصائدُ تلكَ... والأفيونُ.
قالتْ مَن بدتْ لي أنها ابنتُها:
«نَعَم»...

*

هل كنتُ في نيويورك؟

لندن، ٤/٥/٢٠٠٧

بْرايتِنْ تحت المطر

Brighton under the rain

السماءُ التي لا تُرى
السماءُ التي لم تكنْ مثل هذا الحليبِ المُشَرَّبِ باللوزِ
تلك السماءُ التي قد فقدْنا أخيراً، كأنْ لم تكنْ قبلُ أيُّ سماءٍ سماويّةٍ...
كيفَ يمكنُ أن ندَّعيها ولو لحظةً؟
كيفَ يمكنُ أن نفصلَ البحرَ عنها
وأن نَدَّعي أن في شاطيءِ البحرِ بحراً
وأنّ عليهِ سماءً؟

.....

.....

.....

ضبابٌ على السِيفِ أبيضُ
حتى النوارسُ تَنقَضُّ في هيأةٍ من هُلامٍ.
مناقيرُها، وحدَها، صورةُ النورسِ الأبديّةُ...
والخبزُ فِرشاتُنا.

والفنادقُ تلكَ التي تتلاشى وقد أعلنَتْ أنها الكونُ
تسكنُ هذا البياضَ
وتمضي بهذا البياضِ إلى أن تكِلَّ العيونُ...

*

المساءَ انتهَينا
ـ وقد أنقذتْنا الأغاني ـ
إلى أننا داخلانِ إلى الغرفةِ...
بْرايتِنُ الآنَ أرختْ شراشفَها البِيضَ
أرختْ علينا شراشفَها البِيضَ
أرختْ علينا الجناحْ.

لندن، ١٠/ ٥/ ٢٠٠٧

الصـمْتُ

لم تسمعْ موسيقى حتى الآن
(الساعة عاشرةٌ صبحاً)
لا المذياعُ
ولا القُرصُ المُدْمَجُ
لا الهاتفُ
حتى الهارمونيكا الألمانيةُ لم تلمُسْ شفتَيكَ...
وأشجارُ الدُّلْبِ انصرفَتْ عنها الريحُ إلى جهةٍ أخرى.
والساحةُ مقفرةٌ
والأغصانُ، وقد كانت مزهرةً دوماً بالطيرِ الصادحِ، قد عَرِيَتْ.
مطرٌ كان يَنِثُّ رذاذاً
مطرٌ ليس يُرى
مطرٌ ليس له صوتٌ...
وهوائيُّ التلفزيونِ، قبالةَ شُبّاككَ، يوشكُ أن ينحلَّ فيدخلَ في الغيمِ
(الساعةُ عاشرةٌ صبحاً)
لَكأنكَ، منذ الآن، تحاولُ أن تغمضَ عينيكَ
تحاولُ أن تدخلَ في نبعِ بياضٍ لَدِنٍ...

.....

.....

.....

لكنّ أزيزاً كأزيزِ النحلِ الأمازونيّ تَدافَعَ في رأسكَ
كان أزيزاً حملتْهُ فَراشاتُ الأنديزِ إلى رأسِكَ
ناياتِ رُعاةِ القرغيزِ
أزيزَ الجُندُبِ
زاراً في جبلِ النُّوبانِ
وصَلْياتِ رصاصٍ في البصرة!

لندن، ١٣/ ٥/ ٢٠٠٧

وَضُـوءٌ

أمشي تحت المطرِ
القطَراتُ تسيلُ على قبّعَتي الجِلْدِ السوداءِ
وتلمُسُ وجهي بأناملَ باردةٍ...
كان شميمُ لُبانٍ وبَخورٍ يأتي من جهةِ الصفصافِ
بُحَيرةُ نيسانَ
دُخانُ المركبِ يعلو في الجوّ المثقَلِ نعسانَ
وئيداً
يتلوّى،
وأنا أمشي تحتَ المطرِ
الماءُ يُغَلْغِلُ أسراراً وخرائطَ من ورقٍ بُنِّيٍّ تحت قميصي القُطنِ.
الماءُ يُسَوِّرُني...
.....
.....
.....
لن أفتحَ في وجه الماءِ مِظَلّةْ!

لندن، ١٥/ ٥/ ٢٠٠٧

مُراقَبَةٌ

كان الرجل الأعمى يجلس في ركنِ الحانةِ
تحتَ جهازِ التلفزيونِ تماماً.
للرجلِ الأعمى وجهٌ نضِرٌ
ويدانِ، كباطنِ كفِّ القطةِ، ناعمتانِ
وكان أنيقاً في مَلْبسِهِ، شأنَ الفنانين الفقراءِ.
الرجلُ الأعمى كان يدير أصابعَه اللدْنةَ كي يمسكَ كأسَ البيرةِ محترَماً
وخبيراً،
ثم يعيدُ الكأسَ إلى موضعِهِ فوقَ مُرَبَّعِ بيرةِ Foster's
والحانةُ قد شرعتْ تصخبُ
والظُّهْرُ، هنا، رطبٌ ولذيذٌ...
والرجلُ الأعمى تحت جهاز التلفزيون تماماً ينصتُ للأخبارِ:
فريقٌ إيرلنديٌّ ضدّ فريقٍ اسكتلنديٍّ...
وفريقٌ... وإلخ...
كان اثنان من الروّادِ يقولانِ كلاماً عن مانشستَر.
هبَّ الرجل الأعمى، كالملدوغِ، يصيحُ:
سيخسرُ!

حتماً يخسرُ!

لم يسمعْه الرجلانِ...

فقد فتحا بابَ الحانةِ، متّجهَينِ إلى الشارعِ

لكنّ الرجل الأعمى ظلَّ يصيحُ:

سيخسرُ!

حتماً يخسر!

*

لم يضحكْ أحدٌ.

لم يسمعْ أحدٌ.

لكنّ الرجل الأعمى كان سعيداً.

كان يدير أصابعَهُ اللدْنةَ كي يمسكَ كأسَ البيرةِ

مرتشفاً، كالطفلِ، سعادتَهُ!

لندن، ١٧/ ٥/ ٢٠٠٧

ثـلاثـةُ أيّـامٍ

اليوم الأول
ربما كنتُ أنفِضُ عن هُدْبيَ الثلجَ.
كان البياضُ العميمُ يساوي السماواتِ والأرضَ.
والنبْتَ والخبْتَ.
ما كنتُ أقدِرُ أن أتمَيّزَ فارعةَ الدُّلْبِ عن دوحةِ الكستناءِ.
الطريقُ التي كنتُ أعرفُ لم تعُدِ اليومَ تلكَ الطريقَ.
المدى الأبيضُ امتدَّ وامتَدَّ حتى
توارتْ تضاريسُ قريتِنا.
قيلَ إن الثعالبَ قد تظهر الآنَ،
إن قطيعَ الذئابِ على عَتْبةِ
البابِ.
أرهفْتُ سمعيَ: وووووووووو.
وأرهفتُ سمعيَ: وووووووووو.
سوف أُوقِدُ ناري إذا عسْعَسَ الليلُ.
بابي حديدٌ.
وفُوَّهةُ البندقيةِ حِصْني الحصين.
اليوم الثاني

لم يَجِئْنا قطيعُ الذئابِ.
الرجالُ يقولون إن الذئابَ التي أتْخَمَتْها خرافُ المراعي
ستذهب نحو الكهوفِ القريبةِ.
قد تسألينَ: وأيّانَ تأتي إلينا؟
أقولُ لكِ الحَقَّ: إني
أراها هنا الآنَ.
إني أراها هنا تخْمِشُ البابَ.
هل تسمعين صريرَ المخالبِ فوقَ الحديد؟
وقضقضةَ العُصْلِ...
تلكَ النيوبَ التي سوف تنهشُ طفلاً لنا، أوّلاً،
قبلَ أن تغتذي
لحمَنا المُرَّ؟
لا تسألي، واهدأي.
هَيِّئي الخبزَ والماءَ والتينَ.
أغطيةَ الصوفِ.
صفَّ الرصاصِ. الضِّمادَ.
الذئابُ التي تخمشُ البابَ لن تدخلَ البيتَ.
حتى لو استعرَتْ بالجنون.
اليوم الثالث
أيُّ طَرْقٍ على البابِ؟
أعرفُ أنّ المخالبَ تخمشُ...
لكنني أسمعُ الطَّرْقَ يشتدُّ، حتى كأنّ المطارقَ تنهالُ.

أسمعُ ما يجعلُ
القلبَ يرجِفُ.
هذا هديرُ الرجالِ الأُلى استذأبوا، لا عواءُ الذئابِ.
اقفِزي أنتِ يا امرأتي، عبرَ
سورِ الحديقةِ، ولْتأخُذي معكِ الطفلَ.
باقٍ أنا. أتحصَّنُ بالنفسِ لا بالنفيسِ. فإنْ خُلِعَ البابُ
أو هُدِمَ البيتُ صرتُ الجدارَ الأخيرَ...
اذهَبي، أنتِ والطفلَ،
ولْتُبْلِغي كلَّ أهلِ القرى أنني في الكمين...

لندن، ١٩/ ٥/ ٢٠٠٧

البازنِينُو The Dragonfly

يجيءُ مع الصيفِ، في أوّلِ الصيفِ،
مثل الفُجاءاتِ
في عالَمٍ ألِفَ الشمسَ غائمةً،
والجداولَ نائمةً،
والحياةَ احتضاراً طويلاً.
يجيءُ، وليس له غير أجنحةٍ كالمرايا الشفيفاتِ.
أجنحةٍ كفصولِ الطبيعةِ، أربعةٍ.
غير أنّ المرايا تشِفُّ إلى أن ترى النورَ
في عُمقِها البَضِّ يغدو خطوطاً من الوهمِ.
في الجدولِ، الماءُ منزلِقٌ.
والشجَيراتُ تلعبُ، مقلوبةً فيهِ.
هَفّةُ حُلْمٍ...
ويندفعُ البازنينو على الماءِ.
ليس على الماءِ.
ينزلقُ البازنينو على الماءِ.
ليس على الماءِ.
صار الهواءُ هو الماء.

والماءُ صارَ
هواءً.
ويندفعُ البازنينو، فتَرجِفُ تلكَ الشجيراتُ مقلوبةً.
ثّمَّ أجنحةٌ، كفصولِ الطبيعةِ، أربعةٌ،
تجعلُ الكونَ مرتعشاً.
تجعلُ الكونَ ما لم يكُنْ أبداً.
إنه البازنينو على اللوحةِ الهندسيةِ،
أزرقَ،
أبيضَ،
رؤيا زجاجٍ مَسيلٍ تطيرُ مع الريحِ.
والبازنينو
مع الريحِ،
أقوى من النّسرِ، أسرعَ.
والبازنينو له الحُلمُ وَكْنٌ.
سيصحبنا البازنينو إلى أن نريحَ رؤوساً مُدَوَّخةً
فوق ريشِ المخدّةِ.
إذّاكَ يأتي لنا البازنينو،
فيأخذنا نحو نجمٍ بعيدٍ،
ويتركُنا في نديفٍ شفيفٍ ننام!
*
ليس للبازنينو كلام...
ليس للبازنينو مقامٌ، ولا منزلٌ.

ليس للبازنينو من الوزنِ ما تملكُ الريشةُ...
البازنينو هو المنتهى
حين تنعتقُ الروحُ من كل هذا الزِّحام...

لندن، ٢٤/ ٥/ ٢٠٠٧

(*) البازنينو بالدارجة العراقية الجنوبية، وهو اليعسوب.

أغنيـةُ صيّادِ السمك

يا صيّادَ السمكِ
صِدْ لي... ذهبيّةْ!
*
مع الفجرِ يصحو، ليُنصِتَ...
كانت سماءٌ خريفيّةٌ، وأوائلُ صيفٍ.
وكانت تحاورُهُ بالطيورِ، الصنوبرةُ.
الدُّلْبُ يبدو كئيباً. وفي المُرْتَبى
(جهةَ الشرقِ) بُرجُ الكنيسةِ.
في الغربِ كان مَمَرٌّ الحصا ينتهي
عند مقبرةِ الحملةِ الأستراليةِ. الجُنْدُ
يطوونَ تحت الترابِ النديِّ الخنادقَ والدمَ.
والأمّهاتُ اللواتي ارتحلْنَ يجِئْنَ
إذا عسعسَ الليلُ.
لم تولَد الساحةُ القرويةُ بَعْدُ.
السماءُ خـريفيّةٌ.
*
يا صيّادَ السمكِ

صِدْ لي... ذهبيّةْ!

*

وهل ينثرُ، الآنَ، عُدَّتَهُ؟

ليس بينَ يديهِ الكثيرُ:

قميصُ ذوي الحطبِ الأستراليّ. خيطٌ طويلٌ دقيقٌ.

وصنّارةٌ. ربما شبهُ طَوّافةٍ تهجسُ النبضَ.

عينانِ لَمّاحَتانِ. وأُذنانِ

تعتبرانِ التقاسيمَ.

ليس لديه الكثيرُ،

ولكنه عارفٌ أبداً أن في القاعِ ما يُرتجى.

عارفٌ أنه كلّما أطلقَ الخيطَ قَرَّبَ ما يرتجي.

عارفٌ أنه عاجزٌ. أنه دونَ

معجزةٍ.

عَرَقٌ يتفصّدُ.

كانت أصابعُهُ تتوتّرُ مبلولةً.

يتوتّرُ خيطٌ رهيف.

*

يا صيّادَ السمكِ

صِدْ لي... ذهبيّةْ!

*

لماذا يرى الماءَ في غيرِ صورتِهِ؟

كان خيطٌ له حَدُّ موسى يشُقُّ الطحالبَ نصفَينِ...

يَفْرُقُ بينَ
الذي قد نراه، وذاكَ الذي لا نراهُ.
وكان على صفحة الماءِ مضطرَبٌ من
فقاقيعَ. والنورُ تلكَ الفقاقيعُ:
حمراءُ، خضراءُ، زرقاءُ، صفراءُ. دنيا.
بنفسجةٌ. قرمزٌ.
أيُّ رِعشةِ رؤيا! وأيُّ ارتباكٍ!
وفي البغتةِ البِكْرِ تلمحُ
ما يخطِفُ البصرَ...
الماءُ ينشَقُّ عن ذهبٍ!
*
يا صيّادَ السمكِ
صِدْ لي... ذهبيّةْ!

لندن، ٧/٦/٢٠٠٧

طبيعةٌ

أمشي إلى آخِرِ البستانِ
يَتبَعُني :
دُلْبٌ
وزانٌ نُحاسيٌّ
صنوبرةٌ...
ونخلةُ الهمَلايا القزْمةُ ارتعشتْ
وكَستناءَ الحصانِ.
الريحُ هادئةٌ
والغيمُ دانٍ.
كأنّ الضَّوعَ يَقْطُرُ...
لكنْ ليس من مطرٍ حتى الدقيقةِ هذي
ليس من مطرٍ.
لكنّ رائحةً سِرِّيّةً نجَمَتْ في بغْتةٍ :
قطرةٌ أُولى
فثالثةٌ...

.....

.....

.....

وفي قميصِكِ ظلَّ الظَّلُّ ينهمرُ.

لندن، ١٣/٦/٢٠٠٧

مسـاءُ البُحيرةِ

أمسِ
عندَ البحيرةِ...
كان المطرْ
دافئاً
ناعماً
مثل ملمسِ جِلْدِكِ بعد السباحةِ في البحرِ
(أذكرُ بوّابةَ المتوسِّطِ.)
فكّرتُ فيكِ قليلاً
وأقسمتُ فوراً:
لأَستعْجِلَنَّ القطارَ المسائيَّ!
لكنني، مثلَ ما تعرفين، كسولٌ...
نسِيتُ القطارَ
وفكّرتُ فيكِ كثيراً،
وأدنَيتُ وجهيَ من صفحةِ الماءِ
أرقَبُ كيف تعودُ مياهُ السماءِ إلى بيتِها...
كيف يولَدُ هذا المساء.

لندن، ١٣/٦/٢٠٠٧

إحساسٌ غامضٌ

أستيقظُ في الليلِ، على ما لا أعرفُ كيف أسَمِّيهِ؛
بطيئاً
مقروراً
أستيقظُ...
لا صوتَ لأُرهِفَ سمعاً!
كان الليلُ حقيقياً
وثقيلاً،
حتى أشباحُ الأشجارِ زَواها الليلُ فما عادتْ أشباحاً.
لكني أهجسُ...
أهجِسُ أن هنالكَ شيئاًما
ريشةَ فاختةٍ
خطفةَ سنجابٍ
أو حُلما.
كان هواءٌ مختلفٌ في الغرفةِ...
هل بدأَ المطرُ الأوّلُ في طرَفِ الغابةِ؟
هل هبطتْ أُولى القطراتِ على أعشاشِ البطِّ البَرّيّ؟
وهل تشربُ أغصانُ الماغنوليا ما مَلأ الأزهارَ الآنَ؟

الليلُ يهدهدُني
يُدخِلُني في ما لا أعرفُ كيف أُسَمِّيهِ
ويتركني
لأنامْ...

لندن، ١٥/٦/٢٠٠٧

كلامُ الفتى البريء

يتوهّـمُ القرّاصَ نعناعاً،
ويدخلُ في محيطِ الغابةِ السوداءِ، أجردَ
ليس يحملُ غيرَ مَلْبسِهِ:
قميصِ القُطنِ
والنعلِ الذي حفرتْهُ أشواكُ الطريقِ...
وكان يقولُ إن سُلالةَ الأشجارِ واحدةٌ
وإنّ الماءَ يمنحُها صفاتِ الماءِ
أنْ تحلو
وأن تعلو...
وكان يرى السماءَ بِمَلْمَسِ الأعشابِ
والمرجانَ في لونِ الحصا
واللوزَ في اللبلابِ...
كان يقول إذا ادّنَى منه السحابُ كما روى أسلافُهُ الشعراءُ:
دانٍ
مُسِفٌّ فُوَيقَ الأرضِ هَيدَبُهُ
يكادُ يدفعُهُ مَنْ قامَ بالراحِ!

.....

.....

.....

يتوهّمُ القرّاصَ نعناعاً...

لندن، ٥/ ٧/ ٢٠٠٧

تدريبٌ آخَـر...

هل ترى الشجرةْ؟
بلبلٌ تحت كلِ وُريقةْ!
هل ترى الشجرةْ؟
.....
.....
.....
أنت تضغط وجهكَ لِصقَ الزجاج إلى أن ترى دمكَ النزرَ ينفُرُ
أنت تحسُّ بلسعةِ ضوءٍ إلى أن تظنّ بعينيكَ بلّورتَينِ
وأنت الذي تغتلي
إذ تحاولُ أن تعتلي مُرتَبىً في التلالِ القصيّةِ
حيث الظِّباء سماويّةُ اللونِ.
لا تبتئسْ!
هل ترى الشجرةْ؟
بلبلٌ تحت كلِ وُرَيقةْ!
.....
.....
.....

لن يكون المساء
مثلَ ما أنتَ
أو مثل ما تتوقّعُ...
سوف تكون النجومُ القريباتُ اكثرَ
والكونُ أصغرَ.
لن تضغطَ الوجهَ لِصقَ الزجاجِ إلى أن ترى دمَكَ النزرَ يَنفُرُ...
لن تحرِقَ البصرَ المتفاوِتَ في بؤرةٍ...
.....
.....
.....
هل ترى الشجرةْ؟

لندن، ٨/ ٧/ ٢٠٠٧

أُمُّ قَصْر(*)

سنُطْلِقُ من «أُمِّ قَصْرٍ» حمائمَنا
في خليجِ النوارسِ والطائراتِ المُغِيرةِ
نُطْلِقُها في خليجِ البوارجِ
والعارِ
والناقةِ الذهبيّةِ
.....
.....
.....
لم يبقَ بَحّارةٌ:
قُتِلوا،
أو توارَوا خِفافاً بسعفِ نخيلِ القرى...
غيرَ أنّا سنُطْلِقُ من «أُمِّ قَصْرٍ» حمائمَنا
مثلَ ما انطلَقَ العيدُ
يومَ ركزْنا الرماحَ، وقُلْنا لهولٍ ألَمَّ بنا: يا هَلا!
نحن لن نُسْلِمَ المنزلا...

(*) أم قصر، ميناء بحريّ عراقيّ، قاومَ جنوده في ٢٠٠٣ مقاومةً مجيدةً.

نحن نحفرُ في كلِ نسمةِ بحرٍ خنادقَنا والمقاهي العجيبةَ
نحفرُ في الماءِ أسماءَنا
ثم نأوي إلى جنّةٍ في القرار...

لندن، ١١/ ٧/ ٢٠٠٧

نبيذ سانت إيمِليون Saint Emilion Wine

ربّما ظنّني الناسُ بطرانَ:
ما سانتْ إيمليون؟
أنت الشقِيُّ الفقيرُ المُوَكَّلُ بالبصرةِ...
اخجَلْ قليلاً!
أهذا الذي جئتَ تحكي لنا، بعد كلِّ المذابحِ؟
عن سانتْ إيمِليون؟
حقاً، إذاً... أنت تسكنُ حاناتِ لندنَ!
*
صبراً!
ألم تعرفوا الجنرالَ الفرنسيَّ روجكوف؟
Rougecoff
كان في البصرةِ...
الجنرالُ الفرنسيّ روجكوف قد جاءنا من نخيلِ السماوةِ!
(أحكي عن الـ ٩١...)
كي يقطعَ الخبزَ والماءَ عن قَطَعاتٍ عراقيةٍ بين خَورِ الزبيرِ وسفوانَ...
والجنرالُ الفرنسيُّ روجكوف كان يحبُّ النبيذَ

وكانت له في المساءِ زجاجتُهُ:
سانتْ إيمليون...

*

أمّا أنا... الحارسُ الأبديُّ المُوَكَّلُ بالبصرةِ النخلِ
فالليلُ لي
ليلُ هذا السبيلِ العجيبِ
السبيلِ الذي ينجلي
في زجاجِ القناديلِ
في قطرةٍ من نبيذ...

*

على كاتب السطور أن يتدخّل الآن. ليس لأن النصّ اكتمل بل لأنّ النصّ يبدو كأنه اكتمل. سيفرح أحدهُم ويقول: ألم أُخبرْكم أن سعدي يوسف يقع في فخِّ اعتياداتِـه؟ كاتبُ السطور يقول: الأمرُ حقٌّ. لكن سعدي يوسف حذِرٌ أيضاً. بمعنى أن بمقدوره إنقاذَ سُمعتِهِ في اللحظةِ الأخيرة.

*

هكذا سوف أسألُ نفسي:
وما شأنُ هذا النبيذِ الفرنسيّ؟ أقصدُ: ما أنا والأمر؟ إنْ كان روجكوف يشربُه فلْيَكُنْ! ليس أمراً عجيباً...
نعودُ إلى أولِ القصةِ:
الشاعرُ احتاجَ أن يتدرّبَ. جاءَ النبيذُ. وجاءَ مع الكأسِ روجكوف.

جاءت إلى الغرفةِ الحربُ والبصرةُ...
الشاعرُ، الآنَ، يختنقُ.
الشاعرُ الآنَ يلهثُ: أينَ الهواء؟

*

كاتبُ السطورِ يتدخّل ثانيةً:
هذا اليومَ، ذهبَ سعدي يوسف إلى أسواق تيسكو
TESCO
اشترى زجاجتي نبيذ سانت إيمليون بنصف السعر
Half price
(مصادفةٌ مَحضٌ)
وعاد إلى منزله بالضواحي ينتظرُ المساء.

*

عليه أن يحتفل بالرابع عشر من تمّوز...

لندن، ١٣/ ٧/ ٢٠٠٧

صيفٌ بريطانيٌّ

بدأتْ قطَراتٌ صغارٌ تُلأْلِيءُ لوحَ الزجاجِ
وفي الجوِّ رائحةٌ من ترابٍ وماءٍ،
وثَمّتَ رعدٌ بعيدٌ...
أرى النملَ يبني متاريسَهُ في شقوقِ المَمَرِّ.
الحديقةُ هامدةٌ
لا الطيورُ تطيرُ
ولا الورَقُ الغضُّ يهتَزُّ.
آخِرُ بُقعةِ صحوٍ تلاشتْ مع الغيمِ.
رعدٌ قريبٌ...
وفي لحظةٍ
سوف يأتي المطرْ!

لندن، ١٥/٧/٢٠٠٧

فِعْلُ حُبٍّ

أنتِ
مثلي
تودِّينَ ألاّ يطولَ الكلامْ.
تدخلينَ السريرَ
بأُبّهةِ الملكاتِ القديماتِ
فارعةً،
ثمّ ترمينَ تاجَكِ
كي يغمرَ الذهبُ، الشرشفَ الناصعَ.
الطيرُ يفتحُ منقارَهُ.
.....
.....
.....
قطرةٌ من ندى
ويلينُ الرّخامْ!

لندن، ١٩/٧/٢٠٠٧

الجـارُ

الجنديّ المتقاعدُ
(شِبْهُ المُقعَدِ)
يجلسُ كلَّ صباحٍ، في كرسيّ تَمَدُّدِهِ
خارجَ بابِ البيتِ،
لكي يستافَ قليلاً ضوعَ البستانِ
ويَنْعَمَ بالشمسِ...
وكانت زوجتُهُ تجلسُ أيضاً لِتُقَلِّبَ أياماً
ومجلاّتٍ
وقوائمَ...
*
كان الجنديّ المتقاعدُ
(شِبْهُ المُقْعَدِ)
يُغْمِضُ عينيهِ قليلاً،
ليغادرَ هذا الكرسيّ
وهذا البيتَ
وزوجتَهُ أيضاً...
لِيُخَوِّضَ في غاباتِ الهندِ الصينيّةِ

في حقلِ الألغامِ.

*

اللُغْمُ التالي، منفجرٌ حتماً

في أحدِ الأيام....

لندن، ١٩/٧/٢٠٠٧

قصائد نيويورك

أوّل الكلام

لو كنتُ سائقَ تاكسي
واتّخذتُ، كما شاءتْ ليَ المهنةُ، اسماً
صرتُ: روبَرْتـو!
لا تَعْجَبوا!
الأمرُ أني في المطارِ
وأنني المُضَيَّعُ حتى جاءَ روبرتو...
ألقى على الشمسِ سيلاً من شتائمِهِ
وجاءني بسلامٍ منهُ...
أنت ترى أن الطريقَ طويلٌ
أن عاصفةً كانت ستأتي...
ولكني أتيتُ!
دعِ المَلامةَ...
الآنَ نمضي، ولتكُنْ رجُلاً بين الرجالِ،
فماذا سوف تكسبُ إنْ أقمتَ في الظلِّ؟
شمسُ الظُّهرِ غادرةٌ حقاً...
ولكنكَ المَعْنِي بُّالشظَفِ!

نيويورك، ١/٨/٢٠٠٧

في واشنطن سكوَير

غاريبالدي يُغْـمِدُ سيفَ الثوريّ،
وثَمّتَ مصطبةٌ تتمدّدُ فيها طالبةٌ سوداءُ
وتَعْرَقُ تحت الشمسِ.
ورُقعةُ شطرنجٍ ذاتُ بيادقَ في حجمِ السنجابِ
يحيطُ بها بضعةُ أشياخٍ.
قالت سيدةٌ:
ما أجملَ كلبَ القحبةِ!
.....
.....
.....
في ٢٠٠٨.١١.٢٠
سيُغادرُ مبنى البيتِ الأبيضِ
في واشنطنَ
كلبٌ.

نيويورك، ٢/٨/٢٠٠٧

مطعم الخنزير الأعمى

يقع «الخنزيرُ الأعمى» في الشارع ١٤
بين الآفِنيو الثاني، والآفِنيو الثالث...
ليس هناك مطاعمُ أو حاناتٌ كبرى في هذا الحيّ من نيويورك...
إلاّ هذا «الخنزير الأعمى»!
قالت لي الساقيةُ الإيرلنديةُ ذاتُ الثوبِ الأسودِ:
نحن هنا إيرلنديّون
إيرلنديّونَ أميركيون،
أنا إيرلنديّةْ...
قلتُ لها: هل ستزورينَ بلادَكِ هذي السنةَ؟
ارتبكتْ كالغصنِ المقطوعِ الساقيةُ الإيرلنديةُ.
قالتْ: لم أفهمْ ما تعني...
وأنا أيضاً لن أفهمَ حين تقولينَ:
ألستَ تزورُ بلادَكَ هذي السنةَ؟
.....
.....
.....

«الخنزيرُ الأعمى» يوشكُ أن يكتظَّ...
وساقيةُ البارِ الإيرلنديةُ تركضُ نائسةَ الخُصُلات.

نيويورك، ٢/٨/٢٠٠٧

حديثٌ في اليونيون سِكْوَير

لا...
ليسَ بإمكانكِ بيعُ حُلِيٍّ كاذبةٍ في اليونيون سكوَير!
ـ لكني لستُ أبيعُ حُلِيّاً كاذبةً...
أنا أنسجُ أقراطاً وقلائدَ
من خيطٍ قُطنٍ!
ـ حتى هذا لا يُمْكِنُ...
فالساحةُ ليست سوقَ حُلِيٍّ
إن الساحةَ لي، ولأمثالي...
مثلاً: هذا الهنديّ الأحمرُ
يعرضُ قمصاناً فيها الأسلافُ وقوفٌ وبنادقَهم،
والأسلافُ يقولون:
وقفْنا ضدّ الإرهابِ جميعاً
منذ ١٤٩٢...
هل أدركتِ المعنى في قمصانِ الهنديّ الأحمرِ؟
ـ لا أدري...
لكنّ لديّ حُلِيّاً للبيعِ.
أنا امرأةٌ تأكل خبزتَها بيدَيها...

ـ إن أصررْتِ خسرتِ!
الشرطيّ المتخفِّي في هيأةِ زنجيٍّ ذي سبعِ ضفائرَ
سوف يصيدُكِ
مثل السمكةْ!

نيويورك، ٣/٨/٢٠٠٧

٢ طبيعةٌ

عند مكتبةِ الجامعةْ
يختفي الشجرُ الضخمُ تحتَ مياهٍ مجلجلةٍ
ورياحٍ تصيحْ.
عند مكتبةِ الجامعةْ
كانت امرأةٌ تحتمي بالمظلةِ، مسرعةً،
ثم تسقط مثلَ جوادٍ جريحْ.
لم نكن نتمرّغُ في مُزْنةِ الصيفِ...
بَرْقٌ بدا، يصِلُ النجمَ بالأرضِ.
والرعدُ يأتي، كأنّ المدينةَ قد قُطِّعَتْ في شِعابِ الجبالِ
.....
.....
.....
تقولُ ليَ امرأتي:
آنَ للطيرِ أن يستريحْ!

نيويورك، ٤/٨/٢٠٠٧

مسبح

Hamilton Fish Park

مبنىً قديمٌ للجماركِ
هكذا يبدو لأّولِ وهْلةٍ،
لكنه سرعانَ ما يجلو المياهَ خفيفةً
خضراءَ
زرقاءَ
المياهُ خفيفةٌ
يلهو بها الأطفالُ:
صينيّينَ
سوداً
أو هنوداً من معابدِ مكسيكو
ومَتالِعِ البيرو
وقرطاجنّةِ الأحراشِ...
.....
.....
.....
كيف تقولُ: لستُ الآنَ في نيويوركَ؟

أنت الآنَ في نيويورك.
أي أن المدينةَ هكذا كانت
وظلّتْ.
فاقترِبْ منها...
ودَعْ بستانَكَ الورقيَّ يغرقُ في المياه!

نيويورك، ٤/٨/٢٠٠٧

الحـيّ الصيـنـيّ

يأخذكَ الحيُّ الصينيُّ إلى الحيّ الإيطاليّ
(إلى ما يُدْعى إيطاليا الصغرى)
Little Italy
إذّاكَ تحسُّ بأنّ عليكَ العودةَ نحو الحيّ الصينيّ
كأنّ الإيطاليين اتفّقوا أن مطاعمهم هي عالَـمُهم
أن الإنسانَ هو الحيوانَ الآكلَ
أن العالَمَ مجبولٌ من إثنينِ:
السارقِ
والمسروق...
.....
.....
.....
سأعودُ إلى الحيّ الصينيّ
لأرى لُعَبَ الأطفالِ
وأسماكَ السوق!

نيويورك، ٥/٨/٢٠٠٧

الطيَرانُ الحربيُّ

قد تبدو كلُّ المُدُنِ، الصبحَ، جميلةْ
ذاتَ شوارعَ لامعةٍ
ومتاجرَ لم تَفتَحْ أبوابَ مصائدِها، بَعدُ
ومقاهٍ قد فُتِحَتْ للتوّ
وسيّاراتٍ ماثلةٍ، كتماثيلَ من المعدِنِ في قاعةِ عَرضٍ...
.....
.....
.....
قد تبدو كلُ المدنِ، الصبحَ، جميلةْ
حتى لَكأنَّ التاريخَ يغادرُها عند الفجرِ
لكي تأتينا
بيضاءَ
مُباغِتَةً
خارجةً من أسوارِ محارتِها
خارجةً عمّا اعتدنا أن نكتبهُ...
.....
.....
.....

هل تبدو نيويورك كذلك؟
قد تبدو...
لكنّ هديرَ الطيَرانِ الحربيّ
يخطفُ لحظةَ غفْلتِنا
وبراءتِنا
ويقولُ مديداً: لـ ا ـ ا ـ ا ـ ا ـ ا ـ لا!

نيويورك، ٥/٨/٢٠٠٧

الساحةُ في الصباحِ الباكر

محطّةُ تحتِ الأرضيّ
في «اليونيون سِكْوَير»
لم تَرسُمْ، بَعدُ، خطوطَ الصورةِ:
كان الركّابُ قليلينَ
وعشّاقُ الشطرنجِ بعيدينَ
وسوقُ الفلاّحينَ، ستشهَدُ، لكنْ بعدَ قليلٍ، أُولى العرباتِ...
الساحةُ تعرفُ أن مصاطبَها
تتحوّلُ، في الفجرِ، أسِرّةَ نومٍ
كان زنوجُ الساحةِ يفترشونَ غليظَ ملابسِهِم
ووسادَ حقائبِهم
ويَغِطّونَ عميقاً...
.....
.....
.....
في الشارعِ، يشتدُّ ضجيجُ العرباتِ الشاحنةِ
الزنجيُّ الأعمى يفتحُ عيناً واحدةً
يُغْمضُها...

يفتحُ عيناً ثانيةً
يُغمضُها...
يفتحُ كلتا عينيهِ...
*
الساحةُ سوفَ تكونُ الساحةْ!

نيويورك، ٦/٨/٢٠٠٧

بـوّابةُ جامعةِ نيويورك

NYU Gate

بُومَتا حَجَرٍ حطَّتا فوقَ بَـوّابةِ الجامعةْ
بُومَتانِ بِحجـمِ طيورِ الجحيمِ
النحاسُ القديمُ
صَدِئٌ،
والنباتُ الذي قُدَّ من حَـجرٍ حائلِ اللونِ
قد صارَ مثلَ الترابْ...
ليس من أحدٍ عند بوّابةِ الجامعةْ،
وطيورُ الحديقةِ غيرِ البعيدةِ
قد هجرتْ، منذُ قرنٍ مضى، مدخلَ الجامعةْ...
(إنه البومُ...)
كان الصباحُ يَعُدُّ الثوانيَ...
هل ينطقُ الطيرُ عندَ المساء؟

نيويورك، ٧/٨/٢٠٠٧

صباحٌ مختلفٌ

كانت في السوق الصيفيّ، بقايا من عاصفة الليلِ المطَريّةِ
ثَمَّ نسيمٌ رطبٌ
وغصونٌ أعمقُ في خُضرتِها
وفواكهُ تبدو قد قُطِفَتْ قبل دقيقةْ...
كم أهوى أن أجلسَ في مصطبتي
أكثرَ
أكثرَ
أكثرَ من ساعةْ!
لكنّ الشمسَ الصيفيةَ تقتربُ،
وعَلَيَّ، أنا الخاسرَ،
أن أبحثَ عن ظِلٍّ
أن أبحثَ عن شجرةْ.
.....
.....
.....
لَكأني في الصحراء!

نيويورك، ٨/٨/٢٠٠٧

أبوابُ هارلِم

بالقطارات، عاويةً، ومثلّجةً، ومجلجِلةً، سوف نبلغُ هارْلِمْ.
بأغاني الجنوبِ البعيداتِ نبلغُ هارلِمْ
بالقِنَّبِ المتضَوِّعِ أزرقَ نبْلُغُ هارلِمْ
بالكنائسِ حيث المسيحُ الفقيرُ سنبْلغُ هارلـمْ
أين، يا بائعَ الماءِ، هارلِمْ؟

*

كأني هبطت على كوكبٍ ليس فيه نيويورك!
الشوارعُ، تلك العريضاتُ، قد حفرتْها السنونُ العِجافُ
وغضَّنت القارَ مثل وجوهِ الذين انتهَوا خارجَ البار...
كانت رطوبةُ صيفٍ من المِسِسِسبِّي تَلُفُّ الهواءَ على الماءِ.
ذاك القطارُ الذي قد أتينا بهِ لم يَعُدْ في المحطّةِ...
أسرى هنا، نحنُ
والرجلُ الأبيضُ، الجَهْمُ، قَيَّدَنا في السفينةِ
وارتاحَ في منزلِ الشاطيءِ.
القارُ يلمعُ كالزيتِ
والحُلْمُ مِلْح...

*

أين يمضي القطار؟
أين تمضي القبورُ التي سكنتْ كلَّ دار؟
أين تمضي الكنائسُ، خمساً لكلِ امرىءٍ؟
أين يمضي القطار؟

*

لا رياح
السفينةُ لامست القاعَ.
نامَ المُغَنِّي
وغابت نجومُ الصباح.

*

قد كنتُ أحلمُ أن تكون محجّتي في هارلِمَ السوداءِ.
كنتُ أقولُ: حتى لو خُذِلْتُ، وخابت الآمالُ والأفعالُ،
والرؤيا، فإنّ لديّ، في القاعِ، الأغاني والضّبابَ الأزرقَ.
الدنيا مُلَوّنةً، وذاكَ العازفَ الأعمى، وأسرارَ البيانو.
هل تُرى أخطأتُ؟
عند مَدارجِ البابِ التقطتُ الصورةَ الأولى لِهارلِمَ:
جَدّةٌ وصبيّةٌ تقتعدانِ درْجةً سُلَّمٍ في المدخلِ.
نيويورك تنأى...
ليس في هذا المكانِ سواكِ، يا أوراقَ تمْبِكْتو
البهيّةِ...
يا مُعَلَّقةَ السواد!

*

بالقطاراتِ
عاويةً
ومثلّجةً
ومُجَلجِلةً
سوف نتركُ للقيظِ والغيظِ
هـارْلِـم!

نيويورك، ٩/٨/٢٠٠٧

شـطرنـج

سُـجناءٌ قدامى.
زنوجٌ بلا عملٍ منذ قرنٍ ونصفٍ.
أساتذةٌ هجروا المقعدَ الجامعيَّ المقدّسَ
واستلموا مقعداً في الرصيفِ.
نساءٌ تعبْنَ من المسرحيةِ:
من دَورِ آدمَ / حوّاءَ.
أحلاسُ ليلٍ أضاعوا الطريقَ إلى البيتِ.
.....
.....
.....
في كل ساحةْ
رُقعةٌ!

نيويورك، ٩/٨/٢٠٠٧

نهارُ جُمُعةٍ ممطر

عيدٌ هذا اليوم لسياراتِ الأجرةِ...
والناسُ يلوذون بأبوابٍ لم تُفتَحْ بَعدُ
ومِظَلاّتٍ سودْ
(امرأةٌ واحدةٌ عبرتْ قربي الآنَ مظلّتُها حمراءُ)
الأشجارُ تُنَوِّعُ خضرتَها
والأطفالُ يروحون إلى المدرسةِ
نيويورك شوارعُ تحت المطرِ الصيفيّ الدافيءِ
تنتظرُ...
نيويورك بغيرِ أزقّةْ!
نيويورك، الجمعةَ، تغتسلُ.
الفتياتُ يفكِّرنَ:
العطلةُ قد بدأتْ منذُ الآن...

نيويورك، ١٠/٨/٢٠٠٧

الفتى الأسودُ يطيرُ

فجأةً
قررتُ أن أدخلَ في «زاوية الجاز...»
مساءٌ باهتٌ.
كان بريدي الإلكترونيّ يأتي باعتذاراتٍ
طوالَ اليومِ.
والقيظ!
كأني لم أزلْ في عدَنٍ...
والمرأةُ / القطةُ قالت إنها تتركني الليلةَ
كي تأوي إلى مرسمِها في آخِرِ البلدةِ.
إني رجلٌ يكره أن يحيا وحيداً،
هكذا
قررتُ أن أدخلَ في «زاوية الجازِ».
.....
.....
.....
هو المقهى
طويلٌ

متَراخٍ
كـمَمَرٍّ في قطارٍ أستراليٍّ.
وكانت صورٌ باهتةٌ لمُغَنّينَ زنوجٍ تملأُ الجدرانَ.
موسيقى من الريفِ أتتْ من آلةِ التسجيلِ.
لا جازَ...
أيا ساقيةَ البارِ!
نعم...
بعد قليلٍ.
دائماً في العاشرةْ!
*
أُكمِلُ كأسَ «الديكِ الروميّ البرّيّ»
The Wild Turkey
*
ضجّةٌ في البابِ...
كانت فتياتٌ يتدافعنَ
ويضحكنَ
ويدفعْنَ فتىً أسودَ قد علّقَ قيثارتَه من ظَهرِهِ
حيثُ تدلّى شَعرُهُ المضفورُ في سَبْعٍ.
مضتْ ساقيةُ البارِ إلى البابِ:
ادخُلوا...
ولْنبدأ الآنَ!
الفتى الأسودُ، ينضو، الآنَ، قيثارتَهُ

والفتياتُ الضاحكاتُ اخترنَ أن يجلسنَ في آخِرِ صفٍّ
من كراسي الحانةِ.
الريفُ الذي كان هنا في آلةِ التسجيلِ... غابَ...
اندفعتْ قيثارةٌ.
كان الفتى الأسودُ
في الليلِ الأميركيِّ
يطيــر!

نيويورك، ١١/٨/٢٠٠٧

مَركز روكفلَر

The Rockefeller Center

ذهبٌ هو الشلاّلُ
والتمثالُ من ذهبٍ.
كؤوسُ المطعمِ الصيفيّ من ذهبٍ
وقائمةُ الطعامِ
وما تَراكَمَ في الصحونِ...
ملابسُ العمّالِ من ذهبٍ.
ودانِيةُ الغصونِ
وما يدورُ على المصاطبِ من حديثِ الناسِ
من ذهبٍ.
وفي الأعلى تلوحُ مسلّةُ المبنى التي لم تَعفُها الأيامُ من ذهبٍ.
وجوهُ الناسِ من ذهبٍ.
وأبوابُ المحطةِ والقطارِ الجَهْمِ من ذهبٍ.
طريقُ المركزِ المرصوفُ من ذهبٍ.
وأشجارُ الطريقِ
وجنّةُ الأزهارِ من ذهبٍ.

وجِرْوُ البنتِ من ذهبٍ.

.....

.....

.....

لَكَمْ أضحَكتَني، يا صاحبي
في المطعمِ الصينيّ
حينَ بدَوتَ محتدماً
وأنت تقولُ:
قلبُ البنتِ من ذهبِ!

نيويورك، ١٣/٨/٢٠٠٧

عُبورُ جسرِ بْروكْلِنْ

Crossing the Brooklyn Bridge

آخرون سيرَونَ مراكبَ مانهاتِن شمالاً وغرباً
ومرتفعاتِ بروكلِن جنوباً وشرقاً.
آخرون سيَرَون الجُزُرَ، كبيرةً وصغيرةً.
وبعد خمسين عاماً من الآن، آخرونَ سيرَونَها وهم يعبرون،
الشمسَ بعد نصف ساعةٍ من مَطْلعِها.
وبعدَ مائة عامٍ، بعد مئاتِ الأعوامِ، آخرون سيرَونَها، سيستمتعون
بالغروبِ، باندفاعةِ المَدِّ.
بانحسارِ الجَزْرِ.
أنا أيضاً عشتُ ـ بْروكْلِنْ ذاتُ التلالِ، كانت لي.
أنا أيضاً طوّفتُ في شوارعِ جزيرةِ مانهاتِن،
واستحمَمْتُ في المياهِ المحيطةِ.
كنتُ مانهاتيّاً، ودوداً، وأبِيّاً!

والت ويتمان ـ عبور مُعَدِّيةِ بروكلِن

Others will see the shipping of Manhattan north and west,
and the heights of Brooklyn to the south and east;
Others will see the islands large and small;
Fifty years hence, others will see them as they cross,
the sun half an hour high;
A hundred years hence,
or ever so many hundred years hence,
others will see them,
Will enjoy the sunset,
the pouring in of the flood-tide,
the falling back to the sea of the ebb-tide....
I too lived-Brooklyn, of ample hills, was mine;
I too walk'd the streets of Manhattan Island,
and bathed in the waters around it....
I was Manhattanese, friendly and proud!...
˜Walt Whitman, "Crossing Brooklyn Ferry"

لأَقُلْ إن وِيتمانَ قد عبَرَ الجسرَ...
مثلي
صباحاً، وفي شهرِ آبَ اللظى.
ولأَقُلْ: كان يسهرُ في مانهاتِنْ...
وهو الآنَ قد عبَرَ الجسرَ، طَلْقَ المُحَيّا، حثيثَ الخُطا.
فإلى أينَ يذهبُ؟
أيّ الشوارعِ يختارُ؟
أيّ الزوايا؟

.....

.....

.....

أقولُ لهُ:

والْتْ!

خيرٌ لنا، بعد ليلٍ عجيبٍ هنالك، أن نتأنّى هنا...

نتذوّقَ قهوتَنا في الرصيفِ

ونستقبلُ الناسَ بالبسمةِ.

الشارعُ اكتظَّ بالسالكينَ. الحديقةُ مفتوحةٌ. والمخازنُ.

والنهرُ يبدو من البُعدِ أخضرَ...

فلْنستَرِحْ في الرصيف!

*

الشمسُ تقتربُ منّا. دعْنا نجلس على هذه الكراسي الخُضرِ.

تحت المظلة الخضراء. لا تَخَفْ! نحن لا نزال في الرصيف...

الكراسي والمظلة قدّمتْها بلديةُ بْروكْلِنْ لأمثالنا. هل أطلب لك قهوةً من العربة؟ صاحبُ العربة أسودُ، يُعِدُّ قهوةً لذيذة. كوبان اثنانِ بدولارٍ ونصفٍ!

*

في شارع فُلْتُنْ كنتُ أتمشّى أمسِ. هل أقولُ لكَ: إنني لم أكُنْ في شارعٍ؟ كنتُ في مستودعِ بضائعَ هائلٍ، له عشراتُ الأبوابِ.

متاهةِ الأحذيةِ والملابسِ والحُلِيّ الكاذبةِ. لا أزهارَ هنا، ولا صُحُف.

لا مشربَ جُعَةٍ أو نبيذٍ. الماءُ في قناني البلاستيك. وأجنحةُ البنكِ تُطْبِقُ.

*

أنا وأنت في بروكلِن الآن. لكني أسكنُ غيرَ بعيدٍ عن سوهو.
سوهو التي أحببتَ. أتريدُ أن أحكي لك عنها؟ عن آخر أخبارِها؟
أنت لم تذهبْ إلى هناك منذ زمنٍ. منذ مائةِ عامٍ وأكثر...
حسناً، أيها المُعَلِّمُ: لقد غادرَها الشعراءُ والفنانون. وهي تُصبحُ، مثل شارع فُلْتُنْ، معرضاً هائلاً للأحذية والملابسِ الغالية. ومطعماً إيطالياً تُمسي.

*

الحرب الأهلية انتهت، يا والتْ وِيتمان. لكن الجنودَ السودَ الذين قاتلوا في سبيل الحرية. وعبيدَ مزارع القطن العاطلين، هؤلاء الذين يسكنون هارلم، وبروكلِن، وبرونكس، ومانهاتِن...
هؤلاء الذينَ أحببتَهم، وغنّيتَ لهم، وغنَّوا لك، لا يزالون ينامون في الحدائق العامة، ويأكلون من القُمامة...

*

أيها الغريبُ العابرُ! أنت لا تدري كم حننتُ إلى رؤيتِك...
أنتَ، إذاً، مَن كنتُ أبحثُ عنه، أو عنها (لَكأني احلمُ)،
أكيداً أنني عشتُ حياةَ بهجةٍ معك، في مكانٍ ما.
كلُّ هذا استُعِيدَ، ونحن مع بعضنا، سهلَينِ، حنونَينِ، متعلِّقَينِ،

ناضجَينِ.
أنتَ ترعرعتَ معي. كنتَ فتىً أو فتاةً معي.
جسدُكَ لم يَعُدْ جسدَكَ وحدَكَ. وجسدي لم يَعُدْ جسدي وحدي.
أنتَ منحتَني بهجةَ عينيكَ، وجهَكَ، لحمَكَ، ونحنُ نعبرُ.
وأنتَ آخذٌ بلحيتي، وصدري، ويدَيَّ، بالمقابلِ.
أنا لا أتحدّثُ إليكَ. سوف أفكرُ بكَ حين أجلسُ وحيداً. أو أستيقظُ وحيداً في الليلِ.
عليَّ أن أنتظرَ. سألقاكَ ثانيةً، لا مَحالةَ.
سأجهَدُ حتى لا أضيِّعَكَ.
«إلى غريب ـ والت ويتمان»

To A STRANGER
Walt
Whitman
Passing strangerÀ you do not know how longingly I look upon you,
You must be he I was seeking, or she I was seeking, it comes to me as of a dream;
I have somewhere surely lived a life of joy with you,
All is recall'd as we flit by each other, fluid, affectionate, chaste, matured,
You grew up with me, were a boy with me or a girl with me,
I ate with you and slept with you, your body has become not yours only nor left my body mine only,
You give me the pleasure of your eyes, face, flesh, as we pass, you take of my beard, breast, hands, in return,
I am not to speak to you, I am to think of you when I sit alone or wake at

night alone,
I am to wait; I do not doubt I am to meet you again,
I am to see to it that I do not lose you.

*

الغريبُ الذي أنتَ غنّيتَه
والغريبُ الذي لم تُغَنِّ...
والغريبُ الذي ظلَّ أقربَ مني...
هل أتاكَ، هنا، نبأٌ منهُ، يا صاحبي والْتْ وِيتْمان؟
هل أتاكَ جنودُ «أبو غْرَيب»؟
هل حدّثوك؟

*

مشهدٌ في المخيَّم. في مطلعِ الصباحِ. رمادياً ومعتماً. وأنا أخرجُ من خيمتي مبكراً، وأرِقاً.

وبينما كنتُ أسيرُ، بطيئاً، في الهواءِ النقيّ الباردِ، في المَمَرِّ قربَ خيمةِ

المستشفى، رأيتُ ثلاثةَ شُخوصٍ يتمدّدون على النقّالات. لقد جيءَ بهم إلى هناك، وأُهمِلوا. كلُ واحدٍ منهم، مغطّى ببطّانيةٍ من الصوف الخشنِ المُربَدِّ.

بطّانيّةٍ ثقيلةٍ سوداءَ، منشورةٍ، لتغطِّي تغطيةً كاملةً. توقّفتُ، مستطلِعاً، ووقفتُ

صامتاً. ثم أزحتُ بأصابعَ خفيفةٍ، الدثارَ، عن الأولِ.

مَن أنت، أيها الرجلُ المتقدمُ في السنِّ، الكالِحُ، الأشيبُ؟ ذو اللحمِ المتهدِّلِ

حولَ العينينِ؟ مَن تكونُ يا رفيقي العزيز؟
ثم مضيتُ إلى الثاني: مَن تكونُ أنتَ، يا طفلي وحبيبي؟
مَن أنتَ، أيها الفتى، ذو الخدّينِ المتورِّدَينِ؟
ثم إلى الثالثِ ـ وجهٌ ليس كوجهِ الطفلِ، ليس كوجهِ الشيخِ. إنه لَوجهٌ هادئ،
في جمالِ العاجِ
الأبيضِ المصْفَرِّ.
أيها الشابُّ.
أظُنُّني عرفتُكَ.
أظُنُّ وجهَكَ وجهَ المسيحِ ذاتِهِ.
ميْتاً، ومقدّساً، وأخاً للجميع.
وإنه لَهُنا، مُسْجىً ثانيةً.
«والت ويتمان ـ مشهدٌ في المعسكر»

A Sight in Camp¤ Walt Whitman

A Sight in camp in the day-break grey and dim, As from my tent I emerge so early, sleepless, As slow I walk in the cool fresh air, the path near by the hospital tent, Three forms I see on stretchers lying, brought out there, untended lying, Over each the blanket spread, ample brownish woolen blanket, Grey and heavy blanket, folding, covering all. Curious, I halt, and silent stand; Then with light fingers I from the face of the nearest, the first, just lift the blanket¤ Who are you, elderly man so gaunt and grim, with well-gray's hair, and flesh all sunken about the eyes? Who are you, my dear comrade? Then to the second I step-And who are you, my child and darling? Who are you, sweet boy, with cheeks yet blooming?

Then to the third-a face nor child, nor old, very calm, as of beautiful yellow-white ivory; Young man, I think I know you-I think this face of yours is the face of the Christ himself; Dead and divine, and brother of all, and here again he lies.

*

أوَدِّعُكَ الآنَ...
لا وقتَ عندكَ لي، يا رفيقي
ولا وقتَ عندي لكَ...
الساعةُ استحكمتْ.
والجنودُ الذين مَهَمَّتُهُم قتلُ شعبيَ لن يسمعوا صوتَكَ.
العشبُ نَضْرٌ
رفيقيَ:
نَمْ هانئاً
واتَّرِكْ لي مفازةَ هذا الطريق!

نيويورك، ١٦/٨/٢٠٠٧

العاملُ العاطلُ عن العمل يستيقظ

بالطيورِ التي تُعلِنُ الشمسَ
يستقبلُ العاملُ الأسْودُ النائمُ، الصبحَ...
كانت مَماشي الحديقةِ ناعمةً بالندى
والغصونُ التي استيقظتْ تتشكّلُ مثلَ الغصونِ
المصاطبُ مبثوثةٌ كالأرائكِ
والكلبُ يرفعُ قائمةً...
ثَمَّتَ الماءُ يَقْطُرُ من حنفيّتِهِ
والعصافيرُ تشربُ.
والعاملُ الأسودُ، الآنَ، يفتحُ عينيهِ
يفْرِكُ واحدةً
ثم يمضي إلى الحنفيّةِ.
تفْزعُ فاختةٌ.
يُخْرِجُ فرشاة أسنانِهِ،
يتمضمضُ...
يملأُ راحتَهُ. يشربُ الماءَ
سروالُهُ الجِينْزُ أسْودُ في زُرقةٍ.
كانت الشمسُ تَبْلُغُ مصطبةَ النومِ.

يختارُ أخرى
ويُغْمِضُ عينيهِ ثانيةً
وينام...

نيويورك، ١٧/٨/٢٠٠٧

المتشرِّدُ والسنجابُ

كان صباحُ السبتِ لذيذاً:
شمسٌ فاترةٌ
ونسيمٌ يحملُ ضَوعاً من عشبٍ
وأوائلَ برْدٍ.
كان سياجُ حديقةِ «واشنطنْ سْكْوَير» نديّاً.
.....
.....
.....
نفضَ المتشردُ بطّانيّتَهُ
وطواها.
أخرجَ قطعةَ خبزٍ من جيبِ السروالِ الجِينْز
تلَفّتَ،
ثم استأنى عند شُجيرةِ سرْوٍ.
هبطَ السنجابُ
دنا،

حتى كاد يلامسُ كفَّ المتشرِّدِ.
يلتقطُ السنجابُ فُتاتَ الخبزِ
ويرقصُ كالطيرِ...
وكان المتشردُ، مثل نبيٍّ، يسترسلُ في لغةِ السنجاب!

نيويورك، ١٨/٨/٢٠٠٧

منظرٌ مشوَّشٌ

من غرفةِ نومِكَ
يبدو مبنى «الإمبايَر سْتَيت»
مختلفاً...
كان ضبابٌ صيفيٌّ يمسحُ، بالفرشاةِ، خطوطَ المبنى
و نتوءاتِ الذاكرةِ.
المطرُ الصيفيُّ، غزيراً كانَ، الليلةَ...
والنجمةُ حمراءُ
كما كانتْ أبداً...
.....
.....
.....
في الصبحِ
سنجمعُ ما نملكُهُ في صُرّةِ قُطْنٍ سوداءَ
ونرحلُ في عرباتٍ من خشبٍ!

نيويورك، ٢٠/٨/٢٠٠٧

أمطارُ آب

دخانٌ، بلونِ السحابةِ
يصعدُ من سطحِ مبنىً جوارَ الكنيسةِ،
والمطرُ اشتدَّ
حتى لَواذِ العصافيرِ تحتَ النوافذِ.
ثَمَّ مبانٍ تلاشتْ ملامحُها
واستَكَنَّتْ إلى بعضِها:
قد تَوَحَّدَ مرأى الكنيسةِ والبنكِ...
سوف تكون الشوارعُ موحلةً
تحت أمطارِ هارْلِمَ.
أين ينامُ المشَرَّدُ؟
.....
.....
.....
في الشارعِ
ارتَدَّ ضوءُ المرورِ إلى الأحمرِ.
المطرُ السيلُ أغلَقَ هذا السبيل.

نيويورك، ٢١/٨/٢٠٠٧

لا تَـقُلْ

حينَ تجلسُ، منفرداً، في الحديقة
حينَ تدنو من المرفأ
حينَ تشربُ، عجلانَ، كأسَ الجُعةْ
حينَ تمضي إلى ساحةِ السوقِ حيثُ الطيور
حينَ تسمع أغنيةً
ونوافيرَ ماءٍ تدور...
حينَ تدنو من المتشردِ في مَوهنِ الليلِ
حينَ القُمامةُ تعلو
وحينَ تضيقُ الشوارعُ...
حينَ المُغَنّي ينامُ الظهيرةَ،
حينَ الأسى...
حين تأخذ سيارةَ الأجرةِ، اليومَ، نحو المطارِ البعيد...
لا تَقُلْ في خفوتٍ: وداعاً!
لا تَقُلْ أيَّ شيء
للبلادِ التي أورَثَتْكَ الجنونَ

البلادِ التي هدمَتْ وطناً فوقَ رأسِكَ
واستأجرتْ زُمْرةَ القتلِ
واقتلعتْ من حديقةِ بيتِكَ معنى الغصون...

نيويورك، ٢٩/٨/٢٠٠٧

قريةُ البرابرة

فتحوا مصرفَهم في وسطِ القريةِ
كالقلعةِ في السوقِ،
وأعلَوا سورَهم، أعلى من النجمِ
وطاروا بجيادٍ من حديدٍ تحرسُ المصرفَ ليلاً،
ثم قالوا: فَلْنُقِمْ مأدُبةً عُظمى
لنأكلْ جِلْدَ خنزيرٍ
ونشربْ من دمِ الثورِ
ونلبسْ صوفَ جاموسٍ.
لقد كان مساءً صاخباً...
(كلُّ مساءٍ صاخبٌ في القريةِ)
الناسُ سكارى
ونيامٌ
وجنودٌ أدخَلوا ثُكْناتِهم لحمِهم...
.....
.....
.....
لن يصدحَ القيثارُ

والقدّيسُ لن يأتي
ولا البلبلُ.
لن يختلفَ، البتّةَ، في القريةِ، نورٌ وظلام...

لندن، ١/٩/٢٠٠٧

قصائدُ الحديقةِ العامّةِ

كُتِبَت القصائدُ بين الحادي عشر من أيلول ٢٠٠٧
والرابع والعشرين من حزيران ٢٠٠٨

مَنْزَهُ الأنهارِ الثلاثةِ

The Three Rivers Park

أشرعةٌ بيضٌ

بَجعٌ أبيضُ
غيماتُ خريفٍ بِيض. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ثمّتَ ما يجعلُ جِلْدي مرتجفاً:
أهوَ المشهدُ في لونِ براءتِهِ؟
أَمْ هوَ ما أسمَعُ؟
كانَ هديرٌ يخترقُ الجِلْدَ
أطائرةٌ
أَمْ شاحنةٌ؟
أَمْ ضجّةُ قتلى يقتتلونَ؟
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

الشمسُ تُسَخِّنُ في المَرْجِ مراياها
والأشجارَ،
كأنّ ضُحى الجَنّةِ يفتحُ بَوّابتَهُ.
هل أدخلُ؟
نورسُ بَحرٍ من عَدَنٍ
ضَلَّ. . .
وها هو ذا يهبطُ مرتبكاً
بين البجعِ الأبيضِ
والأشرعةِ البِيض. . .

لندن، ١١/٩/٢٠٠٧

العاشقتانِ تحت المظلّة

ربّما ارتوَتا قبل أن تأتيا جنّةَ البارِ
تحتَ المظلّةِ
أو ربّما سوف ترتويانِ
إذا ما تمشّى النبيذُ الفرنسيُّ كالبُرْءِ في الدمِ
والخَدِّ
والرّاحَتَينِ. . .
المظلّةُ؟
أَمْ هيَ تلكَ المحطّةُ ذاتُ الوصولِ؟
سلاماً. . .
أقولُ لعاشقتَينِ تَمَرَّغَتا في هواءِ المظلّةِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كانت غيومٌ خريفيةٌ تَعْبرُ الأفْقَ

والشمسُ دانيةٌ،
ورَقٌ أحمرٌ في المَماشي
وفي مُتَعَرِّشِ زهرِ العسلْ!

لندن، ١٤/٩/٢٠٠٧

مخطوط

بين يدَيَّ المخطوطُ
المخطوطُ يُقَلِّبُ وجهي في الصفحاتِ الباليةِ
الصفحاتِ الجِلْدِ
الصفحاتِ الصُّفْرِ
الصفحاتِ السودِ
الصفحاتِ اللائي يتشرَّبْنَ هواءً من زمنٍ مسدودٍ. . .
كانَ خريفٌ يزحفُ كالتمساحِ
ويرسلُ غيماً جَوْناً يُطبِقُ منذُ الصبحِ على القريةِ والأشجارِ
وكان غرابٌ أسحَمُ ينعقُ من مئذنةٍ،
والمخطوطُ البالي يتفتّتُ بين يدَيَّ. . .
ولكني أتفتّتُ أيضاً بين يدَيهِ:
الصفحاتُ الباليةُ المسمومةُ تسحبُني نحو البئرِ
تُطَوِّحُ بي في البئرِ
البئرِ المَطْوِيّةِ
إلاّ من لَفْحِ هواءٍ من زمنٍ مسدود. . .

لندن ١٧/٩/٢٠٠٧

مقامٌ عراقيّ
معَ أغنية وبَسْتة

فلم نَدْرِ أيَّ الجَنّتَينِ نزورُ
كأنّ بليلى من شمائلِ دجلةٍ

تقَلُّبَ حالٍ، والمياهُ تدورُ
وفي دجلةٍ من طَبْعِ ليلى أناقةٌ

ونُضْرةُ وجهٍ مُتْرَفٍ وسرورُ

***

وَصَلْنا اليومَ، بعدَ الهَمّ، دجلةْ

وقالَ الربْعُ:
ماءُ الهمِّ دجلةْ:

سيوفُ الأجنبيْ، دارتْ عَلَيّهْ

***

وِشلُونْ عَيني، وِشْلُونْ
هذا الأمَلْ ينساهُم؟
راحوا ما ودّعونا
يوم النّصِرْ نلقاهُمْ
وِشلونْ عَيني، وِ شْلونْ!

لندن، ٢٢/٩/٢٠٠٧

طبيعةٌ

في تشرينَ الأولِ
في باريس،
الأشجارُ تغطّي الأرصفةَ المُغْبرّةَ
بالذهبِ.
الريحُ تخفِّفُ من وطأتِها
وتسيلُ مع الذهبِ...
الغاباتُ رسائلُ؛
ثَمَّ بريدٌ جوّيٌّ
من ريفٍ
يعلنُ: إني المنسيّ
أقيمُ هنا، بيتي، من ذهبٍ
وغبار...

باريس، ٥/١٠/٢٠٠٧

النظرة

خسارتُنا ليست الأرضَ. . .
فالأرضُ باقيةٌ.
هي باقيةٌ قبلَنا.
وهي باقيةٌ بعدَنا.
هي أرضُ المُغَنّينَ
والصامتين.
هي أرضُ المقيمينَ
والعابرين. . .
هي أرضُ الذينَ غدَوا جسدَ الأرضِ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

لكنّ ما قد خسرناهُ لم يكن الأرضَ
إن الخسارةَ في نظرةٍ لم نَعُدْ نتبادلُها

نظرةِ الطفلِ
إذ يتقاسمُ، والطفلَ
كسرةَ خبزِ الشعير . .

باريس، ٠٦/ ١٠/ ٢٠٠٧

نافذة

الشرُفاتُ المفروشةُ بالحَصْباءِ
يحطُّ عليها الطيرُ
قليلاً
ويطيرُ. . .
امرأةٌ تفتح نافذةً
لتدخِّنَ.
(كانت تلبسُ ثوباً أسودَ يكشف منها الكتِفَينِ)
نسيمُ خريفٍ يتحرّكُ تحت سماءٍ زرقاءَ. . .
سماءٍ سابعةٍ؛
سأقولُ: صباح الخيرِ!
وأفتحُ نافذةً. . .

باريس، ٠٦/١٠/٢٠٠٧

قصيدة في يوم السبت اكتملتْ في يوم الأحد

ماذا سأفعلُ؟

قد خلتْ، منذ ارتحالِ الطيرِ، ساحتُنا. . .

وجاءَ الغيمُ.

جاءتْ، لا كما تأتي الفُجاءةُ، قطرةٌ أولى، فثالثةٌ.

ولكنْ لم يجئ مطرٌ.

أقولُ: حديقةُ السنجابِ والأيَلِ استحالتْ منزلاً لي. . .

سوف أهبطُ، هكذا، متدلِّياً بسجارتي وحبالِ أوراقي لأبلُغَ منزلي الممتدَّ من أُفُقٍ إلى أُفُقٍ. بُحيراتٌ تَرَقْرَقُ بغتةً، وتَرِقُّ. يوقظُني بها الإوَزُ العراقيُّ المهاجِرُ. هل سيُعلِنُ وقتَ إغلاقِ الحقيبةِ في الضحى الأبديِّ، طيرُ الطَيطَوى؟

الدنيا معلّقةٌ بشفرةِ عُشبةٍ. لا وقتَ لي. لا وقتَ حتى للحقيبةِ آنَ أُغلِقُها.

نسيمٌ عابثٌ يتخلّلُ الأوراقَ: أحياناً يُبَعثِرُها، وأحياناً يدور بها، بلا استئذانها، فتدورُ. . .

بردٌ جاءَ يخترقُ الزجاجَ مضاعفاً.

ماذا سأفعلُ؟

أفتحُ البابَ الخفيفَ لضيفتي:

سمَكاتُها عادتْ إلى النهرِ. البلادُ بعيدةٌ. وكذلك الأنهارُ. اسألُها ولستُ أريدُ من أحدٍ جواباً.

ساحةُ المَبنى معلّقةٌ. هواءٌ ثابتٌ. قدمايَ ثابتتانِ، لكني أطيرُ. الضوءُ ملتبسٌ.

سأتركُ للرياحِ وللطيورِ القولَ. كانت ضيفتي مفتونةً بفضيلةِ الأوراقِ. كانت ضيفتي مفتونةً باللونِ أسوَدَ. للأريكةِ في المساءِ مُلاءةٌ صفراءُ. ثَمَّ فراشةٌ من قُنّةِ الأنديزِ تتبعُني.

أقولُ لضيفتي: اتّكِئي علَيَّ، أنا، الضعيفِ، لتلبسي جسدَ الفراشةِ. أيّما امرأةٍ تجيءُ هنا، تصيرُ فراشةً. في الليلِ نستهدي بشمعِ النحلِ. عندَ الصبحِ نستعدي بجذعِ النخلِ.

مصرُ بعيدةٌ. . .

ماذا سأفعلُ؟

يَهدُرُ الطَّيَرانُ. بَرْقٌ في البعيدِ، وبينَ أشجارِ الصّنوبَرِ. عندَ أطرافِ البحيرةِ يَخْضِدُ الرعدُ الحشيشَ وزهرةَ اللبلابِ والقرّاصَ. قاعدةٌ وبُرْجٌ للمراقَبةِ. الجنودُ سيهبِطونَ.

لهم توابيتٌ وعُكّازاتُ جَرْحى. إنه الليلُ الطويلُ. وفي البلادِ تنامُ بغدادُ اليتيمةُ في ضفائرِها.

وتصحو الأعظميّةُ حينَ يشتدُّ الهديرُ المدفعيُّ. الحربُ تسكنُ ما يؤلِّفُ مشهدَ اللبِناتِ.

ما يُفضي إلى دربٍ. وما يصِلُ الشوارعَ بالشوارعِ. يَهدُرُ الطيَرانُ. ضاحيتي هنا لا تسمعُ الطيَرانَ، لا تدري بهِ. . .

ماذا سأفعلُ؟

لندن، ٢٨/ ١٠/ ٢٠٠٧

الوقتُ مُحْكَماً

منذ الآن، ستدخلُ في قوقعةٍ أصلبَ
قوقعةٍ تَنْدى في الفجرِ الأوّلِ كي تَظْمأَ طولَ اليومِ.
الساعاتُ خطوطٌ
والأعوامُ دوائرُ
والتاريخُ هو اللحظةُ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

هل أنت سعيدٌ؟
هل أنتَ شقيٌّ؟
هل ترغبُ في أن تخرجَ من هذي القوقعةِ
القوقعةِ/ الحُلْمِ
القوقعةِ / الحِصنِ
القوقعةِ المُلْتَفّةِ حولَ قميصِكَ مثلَ قِباءِ رصاصٍ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

حسناً!

ماذا تفعلُ في آخرةِ الليلِ لو اخترقتْ جدرانَ القوقعةِ

الصيحاتُ. . .

الصيحاتُ النُّعْمى

صيحاتُ البطِّ البرّيّ؟

لندن، ٠٥/١١/٢٠٠٧

علاقةٌ مُراوِغةٌ

كما يَطْلُعُ الصبحُ
تأتي إليّ البحيرةُ، ناهضةً، وهي مثقلةٌ بالنعاسِ
البحيرةُ تلبسُ ثوبَ الضّبابِ الشفيفَ
البحيرةُ تحملُ أشجارَها نحو نافذتي
والبريقَ الرصاصيَّ. . .
فاتَ أوانُ الطيورِ التي استيقظتْ قبلَنا.
والطريقُ الذي يقطعُ القريةَ اكتَظَّ بالمِرْكباتِ.
البحيرةُ هادئةٌ.
سوف تنزعُ ثوبَ الضّبابِ الشفيفَ
وتدنو قليلاً، قليلاً، قليلاً. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

أتُمْسِكُ بي

أم تُراني سأُمسكُها؟
أم نحاولُ ثانيةً أن نكون. . .

لندن، ٢٠٠٧/١١/٠٦

أيّامُ العملِ السِرّيّ

كنتُ أراقِبُ في عينيها ما كانت تَجْهَدُ أن تُخفيهِ:
ليالي العملِ السِّرِّيّ
بيوتَ الحزبِ
ومطبعةَ المنشوراتِ المحمولةَ في صندوقٍ خشبٍ. . .
ذاكَ الرعبَ من الإعدامِ، الغائرَ مثلَ حصاةِ رصاصٍ في الرأسِ.
تقولُ:
سقى اللهُ، بما يسقي، تلكَ الأيامَ!
لقد كنتُ فتاةً دون العشرينَ
مغامِرةً
أحمِلُ مِطواةً لِلّحظةِ
آنَ يكون الموتُ حياةً. . .
آنَ أكونُ الأجملَ!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أنت الآنَ تراني
حسناً!

لكنْ، بعد دقائقَ، أو ساعاتٍ
سنكونُ بعيدَينِ
بعيدَينِ تماماً
حتى عن ذكرى هذا البارِ المكتظِّ بأهلِ المسرحِ
هذا البارِ الباردِ
حيثُ تدفّأْنا بنبيذٍ

وبأيامٍ لن أستقبلَها حين تعود. . .

لندن، ٢٠٠٧/١١/٠٧

قصيدةٌ يائسةٌ

البلادُ التي نحبُّ انتهت من قبلِ أن تولَدَ. . .
البلادُ التي لم نُحبِبِ استأثرتْ بما قد تَبَقّى من دمٍ في عروقِنا.
نحنُ كنا أهلَها. . .
قُلْ: بَلى. . .
ولكنْ توَلاّنا سعيرٌ من أولِ الخَلْقِ.
هل كنّا نياماً
أم غافِلِينَ؟
وهل كانت مشاحيفُنا تلُفُّ لنا البُرديَّ أنشوطةً. . .
وهل كانت الطيرُ طيورَ الجحيم؟
لم يبقَ عندي من ترابٍ أريدُ أنَ يتلاشى
هابطاً من أصابعي. . .
سكَنَ الوقتُ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

البلادُ التي نحبُّ انتهتْ. . .

لندن، ١٧/١١/٢٠٠٧

اللغة الأولى

ببغاواتٌ سبعٌ، خُضرُ الريشِ، حططْنَ على غصنَينِ من الشجرةْ
تلكَ المتوحِّدةِ
المقرورةِ في وسطِ المَرْجِ. . .
الداخلِ في بيتي من نافذةٍ يعرفُ أن يفتحَها حتى لو خَفِيَتْ.
ببغاواتٌ سبعٌ في الصبحِ الطلْقِ،
سماءٌ زرقاءُ
وريحٌ خافتةٌ. . .
لم يستيقظْ أحدٌ بَعدُ،
ولم يتردّدْ بوقٌ. . .
تلك الببغاواتُ السبعُ خلعْنَ، كثوبٍ خَلِقٍ، لغةَ القفصِ البشريّةَ
كي يذهبْنَ بعيداً. . .

لندن، ٢٧/١١/٢٠٠٧

نحتفي بالرماد

لِمَ لمْ يسقطِ الثلجُ؟
كنّا على موعدٍ معه منذ عامٍ،
وكنا نقولُ: لَئِنْ سقطَ الثلجُ دُرْنا نرودُ مَفازاتِهِ راقصينَ. . .
السماءُ تكون ادَّنَتْ
والثعالبُ قرب البيوتِ
الأرانبُ تُتْلِعُ آذانَها
والشعاعُ الذي غادرَ الشمسَ يَجْمَدُ منتصباً في الهواءِ الشفيفِ. . .
ولكننا في منازلِنا:
لِمَ لَمْ يسقطِ الثلجُ؟
كنا على موعدٍ معه منذ عامٍ،
وكنا نقولُ: لَئِنْ سقطَ الثلجُ قُمنا لندفنَ موتىً لنا
فالجنود يكونون قد غادروا نحو ثُكْناتِهِم
والغرابُ المُحَوِّمُ قد ضاقَ بالبردِ والجوعِ
(كنا دَفَنّا أولئكَ في لحمِنا)
أينَ نذهبُ؟
لم يسقط الثلجُ. . .
كنا على موعدٍ معه منذ عامٍ،

وكنّا نقولُ: سنمحو به ما تراكمَ في جِلْدِنا من سِخامٍ
ولكنْ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

إذاً

هل سننتظرُ النارَ؟

هل نحتفي بالرماد؟

لندن، ٢٠٠٨/٠١/٠٤

«نابل»(*) في الشتاء

تتجمّعُ الأمطارُ في كانون

طولَ العامِ تنتظرُ المدينةُ قطرةً، وتَئِنُّ. يبدو المَرْجُ بُنِّيّاً وأزرقَ في المساءِ.

وفي المساجدِ سوف تَستسقي الصلاةُ النَوءَ. هل تأتي إلينا القيروانُ ثقيلةً بالقَحْطِ والتاريخِ؟ نحنُ هنا السواحلُ، عِرْقُنا ذَهبٌ: أغارقةٌ، ورومانٌ، أمازيغٌ...

هنا، في المعبدِ المنهارِ، في ليلِ اليراعاتِ المُضيءِ، نقومُ: حوريّاتُنا يضحكنَ في الحَمّامِ، يستعجِلْننا.

تتجمّعُ الأمطارُ في كانون...

في الكورنيشِ، صيّادونَ لم يَحْنوا الجباهَ لسطوةِ الأنواءِ، بضعةُ فِتْيَةٍ تاهوا مع الفتَياتِ. في الكورنيشِ ذكرى أو رسائلُ. كان كِشْكُ مثلّجاتٍ يحتمي بالريحِ.

سوف نكون، في مَغْنىً، هنا!

«الروتوندُ» ماثلةٌ، هي الكورنيشُ والبحرُ، المَقامُ بلا وَلِيٍّ، والولايةُ دونَ والٍ.

إنّ «نابلَ» تحتمي بالبحرِ،

«نابلُ» تدفعُ الصحراءَ عنها، والأذى...

تتجمّعُ الأمطارُ في كانون. . .

كان السوقُ مفتوحاً، وكان المطعمُ الشعبيُّ (لَبلابي وصحنٌ تونسيٌّ) مقفراً. هيَ جَوعةُ الزرزورِ. لا سوّاحَ. لا أشباحَ. أحياناً يوَدُّ المرءُ أن يُصغي إلى ما ليسَ يُسمَعُ. . . .

هل صليحةُ ههنا؟ سأسيرُ في السوقِ. الدكاكينُ الصغيرةُ مثقلاتٌ. قالَ لي ولدٌ يُرَبِّي لحيةً:

إن البضائعَ كاسداتٌ. لا زبائنَ.

«نابلٌ»، كالنسوةِ الإغريقِ، تهجعُ بانتظارِ البحرِ. . .

مَنْ يأتي غداً؟

تتجمّعُ الأمطارُ في كانون. . .

لندن، ٢٠٠٨/٠١/٠٦

(*) نابل (نيابوليس الإغريقية) مرفأٌ تونسيّ على الرأس الطيّب.

مثلّثٌ مقلوبٌ

Woo... Woo... Woo... أتسمعُ الريحَ؟
أتسمعُها تئِنُّ في الغابةِ؟
الأمطارُ ترفعُ نهراً طائراً في الهواءِ،
القطّةُ اختبأتْ في الركنِ. . .
كم من شتاءٍ مَرَّ!
كم مطرٍ. . .
كم!

لندن، ١٥/ ٠١/ ٢٠٠٨

ثلاثيّةٌ أيضاً...

كم قلتُ لكِ: الليلةَ لاتأتي. . .

أنا مَرمِيٌّ في أسفلِ بئرِ السُّلَّم. كم حاولتُ (الأمرُ لعِدّةِ ساعاتٍ) أن أخطو، حتى أُولَى خُطُواتي، لكني احسستُ بأني ملزوقٌ، أني مخلوقٌ من سالفِ أيامِ الخَلْقِ، بلا قدمَينِ. . . أنا الزاحفُ. لا يمكنني أن أزحفَ. لستُ التمساحَ، ولا يمكنني أن أسعى، لستُ الحيّةَ. مرميٌّ في أسفلِ بئرِ السلَّم. أسمعُ من حيثُ انا، المطرَ المُسّاقِطَ، أسمعُ بين الغفْلةِ والأخرى طيراً ليليّاً

هل أنا أسمعُ صوتي؟

كم قلتُ لكِ: الليلةَ لاتأتي. . .

سيكون فراشي خشباً بمساميرَ. الغابةُ في ما يبدو خلفَ بُحيرةِ قارونَ تعالتْ في شِبْهِ تهاويلَ. . نباتٍ يُسْمى شجراً، لكنّ الأغصانَ تُدَلِّي أذرعةً ورؤوساً. لن يأتي الطيرُ، ولن أشهدَ أغنيةَ السنجابِ على العشبِ. الساحةُ مقفرةٌ منذ سنينَ. . .

قرونٍ؟ قد كنتُ رأيتُ، ولكنْ قبلَ سَبِعْمائةٍ، ما أوشكَ أن يغدو مَرْكَبةً لفضائيينَ. بساطاً للآتي. لكني الآنَ سجينٌ في بئر السلَّمِ

هل أنا أسمعُ صوتي؟

كم قلتُ لكِ: الليلةَ لا تأتي. . .

هل يتفكّرُ مَن في بئرِ السلمِ؟ أعني ما معنى أن يتفكّرَ مَن في بئرِ السلّمِ؟ في الساحةِ يحتشدُ المحتفلونَ. وثمّتَ أضواءٌ وتهاليلُ. نبيذٌ يُمْتَحُ من بئرٍ. كانت شمسٌ ذاتُ وَقودٍ ذَرّيٍّ تتألّقُ في الساحةِ. ما معنى أن أتذكّرَ، ضبطاً في هذي اللحظةِ، أنّ العقعقَ أبيضُ / أسْودُ؟ أن السلَّمَ يُمْكِنُ أن يُرقَى، أنّ بلاداً كالبصرةِ يمْكنُ أن تُمْحَى في لحَظاتٍ، أنّ عراقًا ما لم يكُنِ، البتّةَ، بيتي. . .

هل أنا أسمعُ صوتي؟

كم قلتُ لكِ: الليلةَ لا تأتي!

لندن، ١٨/ ٠١/ ٢٠٠٨

مصطفى المصريّ

له اسمُ النبيِّ وسِيماؤهُ
وله العُدّةُ الخشبيّةُ:
خِرْقتُهُ، والفَراشي، وأصباغُهُ
وله شارعُ الحيِّ...
كلُّ المقاهي له
والموائدُ
حتى رصيفُ «المحافظةِ» الساحليةِ مِلْكٌ له...
السائحونَ وما انتعَلوا
والجنودُ،
ومَن قَدِموا بالمُعَدِّيَةِ...
.....
.....
.....
الصبحُ شِبْهُ ضحىً
والنسيمُ الذي يحملُ النيلَ نحو المدينةِ يَدْفأُ
كان الزجاجُ ثخينَ الترابِ بمقهى المحلّةِ
والشايُ يهدأُ في الكوبِ...

قلتُ له: مصطفى!
أنت تصبغُ أحذيةَ الناسِ منذُ الصباحِ...
أتقرأُ في المدْرسةْ؟

.....

.....

.....

مصطفى ليس يقرأُ:
يصبغُ أحذيةَ الناسِ
هذا النبيُّ اليتيم!

لندن، ١٦/٠٢/٢٠٠٨

رمسيس الثاني

ستّ عشرةَ منحوتةً حملتْ وجهَكَ. . .
البهوُ أنت
الجنود المحيطون بالبهوِ أنتَ
المسلّةُ أنتَ
البحيرةُ حيث اعتلى قاربُ الشمسِ أنتَ
لك الأقصُرُ
النهرُ والبَرُّ
والكرْنكُ الضخمُ أنتَ. .
وما خَلَّفَ السَّبْيُ أنتَ
السُّلالاتُ والطيرُ أنتَ
وأنتَ المُسَمّى بما لستَ أنتَ. . .
كأنّ التواريخَ لم ترَ وجهَكَ. . .
لم تلمُسِ الطفلَ في شفتَيكَ
ولم تبصرِ النورَ في مقلتَيكَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

لماذا أقولُ لك الآنَ:
إني أُسَمِّيكَ. . .
أنتَ المُسَمّى بما أنتَ
أنتَ الجميل!

لندن، ١٧/٠٢/٢٠٠٨

المُهْرُ في القُرْنةِ (البرّ الغربيّ)

مُهْرٌ وليدٌ منذُ يومَينِ،

الحظيرةُ كانت البستانَ

أضغاثٌ من البرسيمِ تمنحُ أرضَها ضَوعاً من الحقلِ المُرَنَّحِ بالضياءِ وبالضَّياعِ

وذلك المُهرُ الوليدُ مُرَنّحٌ

كانت قوائمُهُ غضاريفَ. . .

الحظيرةُ تنحني لتكون بيتاً

أُمُّهُ الفَرَسُ الجميلةُ هيّأتْ في البيتِ زاويةً ومأوىً

أُمُّهُ الفرَسُ الجميلةُ تنحني لتُقَبِّلَ المُهرَ

القوائمُ غضّةٌ

والكونُ أخضرُ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

سوف يعْدو المُهرُ

يعدو المُهرُ

يعدو . . .

لندن، ١٨/٠٢/٢٠٠٨

الثوبُ المرمرُ

كانت المرأةُ في لحظتِها:
إنَّ الذراعَ اللدْنةَ اليُمنى على كتْفِ الحبيبِ
القدَمانِ اصطكّتا مِن قبلِ أن تنفرِدا
والثوبُ يرجو أن يشِفَّ. . .
الوجهُ، كالغافلِ، يبدو غائباً في نشوةٍ سِرِّيَّةٍ
والثوبُ يرجو أن يَخِفَّ
الثوبُ يرجو أن يشِفَّ. . .
الساقُ لم تلتَفَّ
كان الثوبُ، في ثَنْيَتِهِ، يستبِقُ الساقَ
وكان الرجلُ (الفرعونُ؟) في هدأتِهِ
ينتظرُ. . .

لندن، ٢١/٠٢/٢٠٠٨

مطعمٌ شِبْهُ أميركيّ

كان المطعمُ، شِبْهَ أمَيركيٍّ، في كِنْجزْ سِتْرِيت، بهامَرْسْمِث
King's Street in Hammersmith
المطعمُ كان يقدِّمُ مَشويّاتٍ:
أجنحةً، وضلوعاً، وإلخ. . .
ويقدمُ أنبِذَةً ليستْ غاليةً
وأرائكَ جِلْداً. . .
لم أعرفْ إسمَ المطعمِ
لكني أسرعتُ لأدخلهُ. . .
أُجْلِسْتُ إلى المائدةِ الرابعةِ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

المرأةُ قد تتأخّرُ
المرأةُ قد تأتي
المرأةُ جاءت. . .
جاءتْ ضبطاً في السابعةِ.
المعطفُ أسودُ

خُصلةُ شَعرٍ فاحمةٌ تتدلّى فوقَ جبينِ الفضّةِ.
قالتْ ناديةُ العَجلى: لم أتأخّرْ.
ألقت بحقيبتها الرقطاءِ على كرسيٍّ
غاصتْ في دفءِ أريكتِها
واختارتْ أن تجلسَ، نصفَ مُلاصِقةٍ، جنبي...
قالت ضاحكةً:
كان قطاراً مزدحماً...

.....

.....

.....

لم أدْرِ لماذا أحسستُ بغيمةِ أدخنةٍ تتدلّى من سقفِ المطعمِ
ولماذا كان هديرٌ من طيَرانٍ يخترقُ الجلسةَ...
قلتُ لها:
ناديةُ...
المطعمُ مختنقٌ!
قالتْ لي ضاحكةً:
وحدَكَ أنتَ المُختنقُ الآنَ...
ضحكتُ...

.....

.....

.....

بعد الكأسِ الأولى لنبيذٍ إسبانيٍّ مجهولٍ

بدأتْ ناديةُ العزفَ على وترٍ منفردٍ:
ما أجملَ أن نسكنَ في الوطنِ!
العائلةُ
الشايُ صباحَ العيدِ
الفاكهةُ الأحلى
طَعْمُ الماءِ
المطرُ المُوحِلُ
تلك الشمسُ القاتلةُ. . .
الحشراتُ،
الثلجُ على القِمَمِ
السمَكُ الفضّةُ في الوديانِ. . .
أتعرفُ أني الآنَ أُحِسُّ بأني امرأةٌ أُخرى؟
حقاً، قد عُدتُ إلى بيتي بالضاحيةِ البيضاءِ
ولكنّ البيتَ هنا لم يَعُدِ البيتَ. . .
البيتُ هنالكَ حيثُ الأسلافُ ينامون طويلاً!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هل تعرفُ، يا سعدي، أني في لندنَ أختنقُ؟

لندن، ٢٩/٠٢/٢٠٠٨

إلى سركون بولص

البحيرةُ التي تلتمعُ في البعيدِ
البحيرةُ التي تلتمع في المساء المبكِّرِ
البحيرةُ التي تلتمعُ بين أشجار الشتاء المُعَرّاةِ
البحيرةُ التي ماؤها رصاصٌ
البحيرةُ التي لا سبيل لنا إليها
هذه البحيرةُ سنظل نرصدُها، غافِلِينَ عنّا.

*

يومَ كانت أثينا تجيءُ مع البحرِ والورقِ، استيقظتْ نحلةٌ في الوريدِ.
المُغَنِّي تَرَنّحَ. والقصبُ الغَضُّ في الهَورِ مالَ. السماءُ
لها وردةٌ. أينَ نسكنُ؟ قُلْنا: سنسكنُ في الأُغنياتِ. وماذا سنَطْعَمُ؟
قُلْنا: رحيقَ البراري.

*

المدينةُ التي لم تتشكّلْ بَعدُ
المدينةُ التي ليس فيها شارعٌ واحدٌ
المدينةُ التي لا تصنعُ إلاّ السجائرَ
المدينةُ التي أضاعت مفتاحَ بوّابتِها

المدينةُ التي تنتظرُ البرابرةَ
هذه المدينةُ سوف نشقُّ فيها نهراً للهتاف.

*

ولْيَكُنْ!
قد تكونُ أثِينا وأبوابُها المائةُ، الآنَ، في مَدخَلِ السجنِ!
نضحكُ في وجهِ سَجّانِنا. الليلُ في القلعةِ اكتظَّ بالنجمِ أحمرَ.
والليلُ يلعبُ في النهرِ. كانت أثِينا تَلُوحُ. وكانت تُلَوِّحُ
والسجنُ يطفو خفيفاً على الماءِ. كنّا على الماءِ نمشي.

*

القطارُ الذي مَدَّ سِكَّتَهُ الهنودُ والأسرى
القطارُ ذو العرباتِ الخشب
القطارُ الذي ليس فيه ماءٌ
القطارُ الذي يعوي في ليل المتاهةِ
القطارُ الذي لا يحبُّه البدوُ ومتمرِّدو العشائر
هذا القطارُ سيأخذنا، مكبَّلِينَ...

*

لن نقولَ لبيروتَ شيئاً.
سنشربُ قهوتَنا، مثلَ ما يشربُ الناسُ قهوتَهم في مقاهي
الرصيفِ. نخبئ أسرارَنا في ابتسامتِنا. ثم نسألُ: والبحرُ؟
أهيَ أثِينا على الشاطئ الآخَرِ؟ المرفأُ المُتطامِنُ
حيثُ الطريقُ لها: المارجوانا... وجوعُ الطيور.

*

أميرِكا التي ذهبْنا إليها في الأقاصيص
أميرِكا التي يذهبُ إليها الآشوريّونَ ليتكلّموا بلُغتِهِم
أميركا التي لسانُها ذهبٌ
أميرِكا التي حملتْنا النسورُ إلى براريها
أميرِكا التي أحببْنا
أميرِكا، هذه، خذلتْنا مثلَ إلهٍ ساقطٍ.

*

جُعَةٌ، أو نبيذٌ. قليلٌ من الخبزِ. نقلي بزيتِ المكائنِ لحماً قَدِيداً ونرمي به بيضتَينِ. ملابسُنا الداخليةُ مَلَّحَها العرَقُ المتخثِّرُ. كم مرّةٍ كادَ يُغْمى علينا... الدروبُ التي لا تؤدِّي تطاردُ أحذيةً مزَّقَتْها الصخورُ.

ولكننا نقرأُ. الأرضُ مِلْكٌ لنا. ونحِبُّ النساءَ الجميلاتِ. نفرحُ حتى نُجَنّ.

*

أثِينا التي قد أضَعْنا
أثينا التي قد قصَدْنا
أثينا التي لن نرى
أثينا التي في ظلامِ القُرى...
أثينا البهيّةُ جاءتْ أخيراً لتأخذنا نائمين...

لندن، ٢٠٠٨/٠٣/١١

مُقامُ المَرء

لا سماءَ لِيَخْفُقَ فيها جناحاكَ. . .

تَنْظُرُ:

ماءٌ رمادٌ على الشرفةِ. الوقتُ ليلٌ، وإنْ كنتَ في مستهَلِّ الظهيرةِ. والشجرُ الجَهْمُ صارَ صخوراً لها هيأةُ الشجرِ. احترْتُ كيف أُسَمِّي الهواءَ الذي ليسَ يُسْمَى. أ أنتَ المُقِيمُ هنا؟

لا سماءَ لِيَخْفُقَ فيها جناحاكَ. . .

تسمعُ؟

لا شيءَ. لا هَفّةٌ من حمامةِ دَغْلٍ. ولا رَفّةٌ من غصونٍ.

كأنّ بني آدمَ ابتلعوا قُفّةً من حبوبٍ وناموا إلى أبدِ الآبدينَ.

وما كان ساحةَ قريتِكَ ارتَدَّ نحوَ زمانٍ قَصِيٍّ حينَ لم تَكُ ثمّتَ من قريةٍ.

يا مقيماً هنا!

لا سماءَ لِيَخْفُقَ فيها جناحاكَ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

من أينَ هذا الشميمُ؟

رغيفٌ من الخبزِ لَمّا تزَلْ فيه رائحةُ النارِ. بِضْعُ شِباكٍ من النهرِ تُسْحَبُ.

قنطرةٌ من جذوعٍ تآكَلَ أسفَلُها. عرقٌ من قميصِ أبيكَ. روائحُ جدِّكَ هنديّةٌ. والدِّبْسُ يَقْطُرُ من مَكْدَسِ التَّمْرِ. مَن أوقَدَ النارَ؟

مَن قالَ لي:

لا سماءَ لِيَخْفُقَ فيها جناحاكَ...

مَنْ؟

لندن، ١٤/٠٣/٢٠٠٨

حالةُ البحّار

أفكِّرُ أحياناً بأني مُضَيَّعُ الأحاسيسِ، مقذوفٌ
من البحرِ نحوَ ما تراءى كجِلْدِ التَّيسِ في الشاطئ
الذي تدِبُّ بهِ حُمْرُ السَّراطينِ.
موجة لها حِرْبةُ الصيّادِ تُمسِكُ بالمَطا...
وترفعُني. ما أيسرَ الموتَ! ليته يكِفُّ قليلاً
عن أغانيهِ... لم أعُدْ أهابُ... أنا المرفوعَ
بالموجِ أرتدي دروعيَ عُرْياً سابغاً.
كانَ جدولٌ من الماءِ رقراقاً على الشاطئ.
المدى شفيفٌ، وفي عينيَّ تبدو يمامةٌ.
أأسمعُ أصدافاً تئِنُّ؟ هل انتهتْ إلى المُرتَمى
هذا رياحٌ تَناوَحَتْ لشهرَينِ ملعونَينِ؟ مُلْقىً،
و أتّقي مَتاهي بجِلْدِ التَّيسِ... أُحْصي ضفائري.

لندن، ١٨/٠٣/٢٠٠٨

تميمةٌ

سأتَّقِي بِضْعةً مني
أقولُ: إذا كان الحنينُ دواءً، فَلْيَكُنْ لَبِقاً
مثلَ الحبوبِ التي في الطبِّ:
واحدةٌ منهنّ تكفيكَ شهراً!
لا يليقُ بِمَنْ رأى من الأرَضِينَ السَّبْعِ سابعةً
أن تستبدَّ بهِ أرضٌ
وإنْ رضِيَتْ بِاسْمِ العراقِ. . .
كأنّ الروحَ أرهَفُ من أن تسكنَ الأرضَ:
إن الأرضَ مُنْطَلَقُ!

لندن، ١٩/٠٣/٢٠٠٨

دَنَفٌ

أعرفُ أن المرأةَ تغفو الآنَ، مُنعَّمةً،
بين ذراعَي رجلٍ آخرَ
في نُزْلٍ آخرَ
في ضاحيةٍ أخرى. . .
لكني لا أعرفُ إنْ كان الرجلُ الآخرُ يعرفُ منها ما أعرفُهُ:
وَشْمَ الوردةِ في إلْيَتِها اليسرى
صرختَها إذْ تصِلُ الذِّرْوةَ
رائحةَ النَّدِّ الهنديّ بإبْطَيها
أو أغنيةَ الطفلةِ آنَ تُفيقُ صباحاً. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

لستُ أُصَلِّي كي ترجعَ لي ثانيةً. . .
لكني سأكونُ سعيداً!

لندن، ٢٠/٠٣/٢٠٠٨

الفِصْحُ في كاثدرائية سالِزْبَري

Easter in Salisbury Cathedral

ثلجٌ خفيفٌ
مثلَ نُفّاشٍ من البُرْديّ في الريحِ
الزجاجُ يشِفُّ،
والعشبُ الذي يشتاقُ أن يَخْضَرَّ يَقْبَلُ بالبياضِ الآنَ.
طيرٌ واحدٌ متأخرٌ يمضي إلى ما لا يراهُ الناسُ.
في سالِزْبَرِي: القدّاسُ...
عيدُ الفِصْحِ منكمشٌ من البردِ.
المدينةُ آثَرَتْ أن ترمِيَ الدِّينَ العجيبَ إلى رجالِ الدِّينِ.
سوف تنامُ حتى الظُّهرِ.

.....

.....

.....

لا قُدّاسَ في الثلْجِ!

لندن، ٢٤/٠٣/٢٠٠٨

سأكتب مثل عازف البيانو

وإذْ يدخلُ الثلجُ من شِقِّ نافذتي
ينبِضُ الصّمتُ مثلَ البِيانو. . .
وألتفتُ:
اللحظةَ
اللحظةَ. . .
الأرضُ تُصغي إلى الثلجِ.
والأفْقُ أبيضُ.
ينهمرُ الشِّعرُ مثلَ البِيانو. . .

لندن، ٢٤/٠٣/٢٠٠٨

احتِرافٌ

لَكَم حاولتُ أن أبقى طويلاً. . .
ولأقُلْ خمساً من الساعاتِ
أو سِتّاً
بذاك البارِ في الحَيّ القديم، مجاورَ الباستِيلِ. . .
كَم حاولتُ أن أبقى هناكَ!
سجارتي الجِنِّيّةُ الملفوفةُ:
الجِيتانُ في ورقٍ من الذُّرَةِ.
النبيذُ المنزليُّ بِدَوْرَقٍ،
واللحْمُ يؤكَلُ نَيِّئاً في صَحْفةِ التَّتَرِ. . .
الدخانُ يظلُّ منعقداً
وأزرقَ.
كنتِ أنتِ، بهيّةً، تنجابُ عنكِ سحابةُ الجِيتانِ
فارعةً
وضاحكةً
كأنكِ لم تكوني منذُ أن طلعَ الصباحُ وراءَ هذا البارِ. . .
كم حاولتُ أن أن أبقى طويلاً!
قلتِ لي:

عُدْ في المساء. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ولم تعودي!

لندن، ٢٤/٠٣/٢٠٠٨

ليسَ مِن تَلاعُبٍ

لِمَن أكتبُ الآنَ؟
لا شأنَ لي بالعراقِ، ولا بالعواصمِ.
لا شأنَ لي بالصداقاتِ فاترةً
أو بالنساءِ اللواتي تَخَلَّيْنَ عني.
و لا شأن لي بالبنادقِ والطائراتِ المُغِيْرةِ،
لا شأنَ لي بنوادي الرياضةِ
لا شأنَ لي بانتخابِ الرئيسِ
ولا بالمَصارفِ،
لا شأنَ لي بالعناوينِ في صُحُفِ اليومِ
لا شأنَ لي بالطعامِ الذي أتناولُ
أو بالقميصِ الذي كنتُ ألبَسُهُ أمسِ
لا شأنَ لي بالبريدِ
ولا بالحديدِ الذي قد يفُلُّ الحديدَ. . .
و لا شأنَ لي بالكتابِ
وأهلِ الكتابِ. . . .
. . . . . .
. . . . . .

. . . . . .

لِمَنْ أكتبُ الآنَ؟

*

أكتبُ كي لا أموتَ وحيداً!

لندن، ٢٥/٠٣/٢٠٠٨

سماءٌ مُوازيةٌ

«إلى جليل حيدر»

الطريقُ التي تجعلُ العرباتِ الجَموحاتِ يَدْرُجْنَ في شبهِ مسْبِحةٍ
وصنوفُ الشجرْ
والمقاهي التي تتوازى مع الأرصفةْ
وانطباقُ الشفةْ
والحدائقُ إذ تستطيل
وخطوط القميص
وسترةُ باريسَ، تلك التي لاتزال تحِنُّ إليها
وتَدفأُ في صوفِها اللدْنِ
والماءُ في برزخِ البحرِ وسْطَ المدينةِ
والرفُّ في غرفةِ الفندقِ
التلفزيون
والشُّرُفاتُ التي لاتزال فرنسيةً بَعْدَ حربَينِ
تلك خطوطُ الستائرِ
كانت خطوطُ الحديدِ بأقصى المحطّةِ مبْتلّةً
مثل أعمدةٍ سقطتْ من سماءِ الربيعِ المبكِّرِ

كانت صفوفُ الكراسي
تواجِهُ خطّاً من العازفينَ على مسرحٍ مزعجٍ.
عبْرَ أرضيةِ القاعةِ الخشبِ... انزلَقَ الماءُ.
بحرٌ قريبٌ
وجسرٌ إلى قارةٍ سوف تَبلُغُ بحراً بعيداً.
ستأتي إلى البارِ أُولى النوارسِ.
سحْبةُ قوسِ الكمانِ...
السفينةُ تطفو على الصحنِ.
نهبطُ من سُلَّمٍ
درْجةً
درْجةً
لنكونَ على ساحلِ البحرِ...
ثَمَّ الشِّباكُ التي نُشِرَتْ تحت شمسٍ بلا وقدةٍ.
والصناديقُ، تلك التي ضَوعُ أسماكِها في المطابخِ.
كلبٌ تَمَدَّدَ...
والعرباتُ التي حملَتْها صباحاً تنامُ إلى الفجرِ.
كان المؤَذِّنُ ينشرُ آياتِهِ في سماءٍ محايدةٍ...
لن تكونَ القلاعُ المدينةَ.
بُرْجٌ
وبرجٌ
وبرجٌ
وسربُ حمامٍ يطيرُ إلى الغربِ كالخيطِ...

أفْقٌ يضيعُ.
السفائنُ مقلوبةٌ كالصراصيرِ.
موجةُ مِلْحٍ.
رذاذٌ.
بلادٌ أقامتْ تضاريسَها تحت أثوابِها.
هل تكونُ السماءُ التي نرتجيها مضاعَفَةً كالسماءِ؟
النوافذُ قد غلَّقَتْها ستائرُ بيضاءُ
والأرضُ منسيّةٌ تحتَ قارٍ ثخينٍ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سألتُكِ:
مُدِّي ذراعَيكِ مبسوطتَينِ.
انشُرِي في مَهَبِّ الصباحِ عباءتَكِ.
ابتَهِلي... لي... ولِي
ابتهِلي... لي... ولي.
وَلْوِلي
ولوِلي
ولوِلي!

مالْمو (السويد)، ٠٦/٠٤/٢٠٠٨

قصائدُ فُورْتَيْسّا

«فورتَيسا قلعةٌ أتَمَّ النمساويون بناءَها في العام ١٨٣٨ في جنوبيّ التيرول (النمساويّ آنذاك)، تحسُّباً من نابوليون الذي كان يدقّ على أبواب أوربا القديمة بجيش من الحفاة، وبرايات مثلثة الألوان، هي رايات الثورة الفرنسية.

أتيحتْ لي فرصة أن أزور القلعة، وأن أظل لها مجاوراً، بين الحادي عشر من نيسان ٢٠٠٨ والثامن عشر منه.

استذكرتُ وتأمّلتُ، وتمّتعتُ بمرأى القمم الثلجية، وبهديرِ الماء المنحدرِ من الأعالي:

إنه الألْب!

كتبتُ ثماني قصائد، مُنَجَّمةً كالآتي:

قلعة السماء البيضاء ١٢/ ٤ ـ سوق السبت في بولزانو ١٢/ ٤ ـ ليل البحيرة المتجلدة ١٢/ ٤ ـ الشمس التي لا تأتي ١٣/ ٤ ـ سأنتظر ١٤/ ٤ ـ الموعد ١٤/ ٤ ـ مدخل سِرّيّ إلى قلعة فورتَيسّا ١٥/ ٤ ـ تهليلةٌ ـ ١٦/ ٤

القلعة الآن هي في الجانب الإيطاليّ، لكنها كانت حتى ١٩٢٠ جزءاً من التيرول النمساويّ»

س. ي

قلعةُ السماءِ البيضاءِ

Fortezza

يأتي الربيعُ متأخراً. ليس لأن الشتاءَ طويلٌ.
الربيع يأتي متأخراً لأنه سيكون ثلاثةَ فصولٍ.
ثلوجُ نيسان لن تذوبَ كالآيس كْرِيم.
البحرُ الأسودُ يُلَوِّحُ لها من بعيدٍ: اذكُريني.
الدانوبُ
سيظلّ مترقرقَ الحصا. والفتياتُ يَغْدونَ أجملَ.
الصنوبرُ في الوادي سوف يصعد إلى السفح.

أسمعُ في الليلِ المطرَ المتناوِبَ والثلجَ
وأسمعُ في الليلِ الريحَ تئِنُّ على الشُّبّاكِ
وأسمعُ في الليلِ الصمتَ.
الساحةُ أصغرُ مِن أن نُبصرَها.
والقِمّةُ أقربُ
والفندقُ أحمرُ حتى الأذُنَين!

الجسرُ الذي يحفَظُ وحشيةَ الصخورِ والغابة
من إنسِبْروك إلى فورتَيسّا
كيلومتراً بعدَ آخرَ،
هذا الجسرُ يُتابعُ القطارَ المُجهَدَ،
الجسرُ يشهقُ لامِعاً مثلَ سِوارٍ فضّةٍ استقامَ في يدِ الساحرةِ.
الجسرُ ألقى شِباكَه على الجبل،
واصطادهُ كما يصطادُ يابانيٌّ نحيلٌ حوتاً في البحار الجنوبية.

أُبصِرُ، أحياناً، ما لا تبصرهُ القطّةُ.
هل أنّ محطَّة فورْتَيسّا كانت آخرَ ما أبصرَهُ موسوليني الهاربُ؟
هل أن محطةَ فورتَيسّا آخرُ هذا الكونِ. . .
لتأتي بملائكةٍ ومجانينَ
وتُلقي من عرباتِ السفرِ الضيّقةِ القرنَ الحادي والعشرين؟

القطارُ يمضي شمالاً.
فيرونا تشتطُّ بنا إلى قارةٍ أخرى.
القطارُ يسعل مثل راكضٍ شيخٍ في ماراثون.
النبيذ المحلّيّ خفيفٌ، صافٍ.
سنملأ كؤوسَنا ونتأمّلُ في الزجاجِ المُضَبَّب.
القطارُ يمضي شمالاً.

والذين يقرأون عن الأديرةِ، مسافرينَ،
لن تخدشَ خدودَهم المتورِّدةَ سعْفةُ نخلٍ جفّفَها يورانيومُ
القذائفِ.

أُحِسُّ بالعصافيرِ في الرابعة (صباحاً بالطبع).
احسُّ بالقطار الأولِ في الخامسة ورُبْعٍ.
أُحِسُّ بأني أرتعشُ...

فورتيسّا، ١٢/٠٤/٢٠٠٨

سوقُ السبت في بولزانو

Bolzano

الدربُ الضيِّقُ من عندِ رصيفِ محطّتِها حتى ما كان سيُدعى كاثدرائيّتَها

كان السوقَ

(وأعني سوقَ السبتِ) الثاني عشرَ من نيسانَ

ولم تكن السوقُ مَعاشاً

كانت، وكما أوهَمَني مَن في السوقِ، مَتاعاً

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

الناسُ أقاموا في الدربِ مآدبَهم:

حفلاتِ الكوكتيلِ. . . إلخ.

أمّا الفقراءُ فليس لهم حتى في سوقِ السبتِ مكانٌ.

*

إفريقيٌّ أسْودُ

كان المتطفِّلَ:

ظلَّ يقولُ بصوتٍ مختنقٍ:
أنا جائعْ
أنا جائعْ. . . .

بولزانو، ١٢/ ٠٤/ ٢٠٠٨

ليلُ البحيرةِ المتجلِّدة

جبلٌ على جبلٍ، وثَمَّ مَخاضةٌ. . .
ماءٌ ولا كالماءِ
أشجارٌ ولكنْ شِبْهُ أحجارٍ
كأنّ هناكَ فُوَّهةً لِبُركانٍ تَجَمَّدَ منذُ آلافِ السنين
الشمسُ باردةٌ.
وطيرٌ واحدٌ سيجيءُ
طيرٌ سوف يحملُنا، وقتلانا، إلى باب الجحيم.

فورتَيسا، ١٢/٠٤/٢٠٠٨

الشمسُ التي لا تأتي

في هذا الأحدِ المشدودِ إلى سفحِ الجبلِ اشتقتُ إلى بلدي
حيثُ الصيفُ يُطقطِقُ منذ الآن
وحيثُ الشمسُ تُسَلِّطُ بؤرتَها حتى في الظلِّ
(النخلُ بغيرِ ظِلالٍ). . .

في هذا الأحدِ المُبْتَلِّ ككلبِ الراعي اشتقتُ إلى بلدي
أنا منذُ الصبحِ أقولُ: اشتقتُ إلى بلدي.
وهَنَ العظمُ
ورأسي مشتعلٌ شَيباً. . .

في هذا الأحدِ المقرورِ اشتقتُ إلى بلدي
أمضيتُ صباحي في الساحةِ والمقهى
غمغمتُ على ضفةِ النهرِ الجبليّ صلاةً متأخرةً
لكني أرتعشُ
البردُ تَغلغلَ كالإبَرِ الثلجيةِ في الدمِ. . .

في هذا الأحدِ الجَهْمِ اشتقتُ إلى بلدي

لكني لم أدركْ إلاّ الساعةَ
حين مررتُ بمقبرةِ القريةِ

أني، المسكينَ، بلا بلَدِ!

فورتَيسّا، ١٣/ ٠٤/ ٢٠٨

سأنتظِرُ!

لم أجدْ طيراً على غُصْنٍ
ولا نحلَ على الأزهارِ. . .
قلتُ: اليومَ لم يستيقظِ الكونُ على الكونِ!
وهذا النهرُ
هذا الهادرُ
المنحدِرُ
الجارفُ كالثورِ. . .
ألا يهدأُ كي نلتقطَ الأصدافَ في القاعِ
وكي نسمعَ من حوريّةٍ أغنيةً؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أُرهِفُ سمعي:
طائرُ أجهلُ ما يُسْمى
ينادي

مَن ينادي؟
الصبحُ لم يفتحْ على الفندقِ بوّابتَهُ، بَعْدُ
وهذا الجبلُ الأسوَدُ يَدَّثَّرُ في ريشِ الغراب. . .

فورتَيسّا، ١٤/ ٠٤/ ٢٠٠٨

المَوعِد

قلتُ: أمشي إلى آخرِ البلدةِ. . .
الشمسُ ناعمةٌ
والمحطّةُ خاويةٌ (أحَدٌ ضائعٌ في المواعيدِ)
أبصرتُ منعطَفاً في البعيدِ
انتهَيتُ إلى شِبْهِ منحدَرٍ يصِلُ النهرَ بالدربِ. . .
أهبِطُ
أهبِطُ
لم أبلُغِ النهرَ.
ثَمَّتَ تنتظرُ الشاحناتُ:
سيمضي الأحدْ
مثلَ ما جاءَ. . .
أمضي أنا
مثلَ ما جئتُ. . .
والفجرَ تستيقظُ الشاحناتُ على ضفةِ النهرِ
تنطلقُ الشاحنات!

فورتَيسا، ١٤/ ٠٤/ ٢٠٠٨

مدخلٌ سرّيّ إلى قلعة فورتيسّا

للعمالِ الذينَ يجعلون القلعةَ متحفاً للأطفالِ والشعراءِ:

Stiegel Beer

بيرة ستيجل

Marlboro Cigarettes

سجائر مارلبورو

والجلاميدُ المسْوَدّةُ التي تنقلها الشاحناتُ المر سيدس المتوسطة لشركة

Wipptaler. Com

والمياهُ الآسنةُ التي يدفعُ بها نهرُ إيساركو إلى أسوارِ القلعةِ الغرانيت.

أمّا الكنيسةُ الصغيرةُ المحصّنة في المدخل

فقد هيّأها العمّالُ قبل الأوانِ، ليصلِّي فيها سواهُم.

*

القلعةُ ليست بعيدةً عن فندق:

Posta-Reifer Hotel

مثلَ ما أن القلعةَ ليست بعيدةً عن الذهب. . .

Burgomaster Josef Wild

Owner of Posta-Reifer Hotel

العُمْدةُ يوسف وايِلْد
مالكُ فندق بوستا رايفَر
لديه المفتاحُ الثالثُ إلى البوّابةِ الذهبية
مع آمرِ القلعةِ الهتلريّ
وممثلِ مصرف إيطاليا.

*

في الليلِ، تختلطُ القطاراتُ السريعةُ، وهي تهدُرُ، بالمطرْ
في الليلِ يختلفُ الشجرْ
ليكونَ بيتاً
أو دخاناً.
آنَها يتآمرُ الضبّاطُ...
سوف تكونُ فورتَيسّا مَزاغلَ للبنادق
أو مَرابضَ للمدافعِ
سوفَ يأتيها قياصرةٌ
ومحتالون.
سوفَ تكونُ سجناً يخنقُ السجناءَ في حلقاتِ فولاذٍ
وسَدّاً للغناء...

*

أسرى الحربِ الرّوس
أسمعُهُم في المطرِ الليليّ
أسمعُ أصواتَ مطارقِهِم

ومَجارفِهِم
كان الأسرى الروسُ يشقّونَ بقلبِ الجبلِ القاسي
نفَقاً
وقبوراً من غيرِ شواهدَ.
اسمعُ أسرى الحربِ الروسَ يئِنّون. . .
*
رايةُ باريسَ مثلّثةُ الألوانِ
وجيشُ حُفاةٍ
وصعاليكَ
يدُقُّ على أبوابِ العالَمِ
كان يدُقُّ بقبضاتِ دمٍ وأناشيدَ
وكان قياصرةُ العالَمِ يرتجفون. . .
*
لسنينَ، ظلّت الشرطة الإيطالية تراقبُ ليشيو جَيلِي
Licio Gelli
فتّشوا منزله، فيلاّ فاندا، مراراً. أمّا هذه المرّة، فلم يفتشوا الخزانةَ، بل بحثوا في الشرفة، داخل أصُصِ الأزهارِ. وهناك بين البيجونيا والجيرانيوم. . . الأزهار الأثيرة لدى ليشو جَيلي، أيامَ شبابه، ، عثروا على ١٦٢ كيلوغراماً من الذهب الخالص في سبائك من كيلو واحدٍ، وعلى أربعين من قضبان الفضّةِ، وقد نُقِشَ عليها، أي اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفياتية. حدثَ هذا في العام ١٩٩٨ CCCP.
*

«كان ليشيو جَيلي، عميلاً سرّياً مرموقاً لموسوليني والغستابو، كما يبدو أنه اشتغلَ لصالح الكومنفورم الشيوعيّ. إنه مصرفيٌّ، صحافيّ، كاتبٌ، شاعرٌ، حائزٌ على عدة جوائز أدبية هامّة. لكن شهرته الكبرى هي في رئاسته المحفل الماسونيّ المعروف (بي ٢) الذي ضمَّ نخبةً من أشهر موظفي الدولة والسياسيين والضباط ورجال الأعمال، ممّا منحه قدرةً سرّيةً على التحكم بالأحداث السياسية، في السنوات الخمسين التي أعقبت الحرب العالمية الثانية».

*

قلعةُ فورتَيسّا
كانت تنهارُ قليلاً فقليلاً
فوقَ رؤوسِ قياصرةٍ
وجنودٍ
وسماسرةٍ
ولصوصِ سلاحٍ محترِفين.

قلعةُ فورتَيسّا
تُبْنى ثانيةً تحتَ سماءٍ أخرى
تُعْلِنُ أن العالَمَ أجملُ دونَ قلاعٍ
حتى لو كانت تلك القلعةُ:
فورتيسّا!

فندق بوستا رايفر

Posta-Reifer Hotel

فورتيسّا، ١٥/٠٤/٢٠٠٨

تهْلِيلةٌ

سأرحلُ في قطارِ الفجرِ:
شَعري يموجُ، وريشُ قُبَّعَتي رقيقُ
تناديني السماءُ لها بُروقٌ
ويدفعُني السبيلُ بهِ عُروقُ.
سأرحلُ...
إنّ مُقتبَلِي الطريقُ.

سلاماً أيها الولدُ الطليقُ!
حقائبُكَ الروائحُ والرحيقُ...
ترى الأشجارَ عندَ الفجرِ زُرقاً
وتلقى الطيرَ قبلكَ يستفيقُ

سلاماً أيها الولَدُ الطليقُ...
ستأتي عندكَ الغِزلانُ طَوعاً
وَتَغْذوكَ الحقولُ بما يليقُ.

سلاماً أيها الولدُ الطليقُ!
سلاماً آنَ تنعقدُ البروقُ. . .

فورتَيسّا، ١٦/٠٤/٢٠٠٨

الدّرسُ الأوّل

قالَ: لم يبْقَ شيءٌ.
بلادٌ هوتْ مثل كوخٍ من القصبِ المتقادِمِ
في الريحِ.
والقتلُ صارَ الحياةَ.
الموائدُ عامرةٌ بالجماجمِ
والنارُ ترفضُ أن تكتفي بالهشيمِ...
*
إذاً؛
قلتَ: لم يبقَ شيءٌ!
رفيقي الذي لم تعُدْ مثلَ ما أنتَ...
إنْ أنتَ قدَّرْتَ، فَلْيَكُنِ!
الأمرُ أبعَدُ منكَ،
ومنّي.
أنجلسُ في حانةِ البحرِ
تلكَ التي علّمَتْنا الأغاني
لنستقبلَ النأمةَ ـ المستحيلَ؟
*

الحياةُ ستأخذنا، مثل طفلَينِ، ثانيةً
كي تقولَ لنا:
ما أشَقَّ الحياة!
ما أدَقَّ الحياة!
ما أحَقَّ الذي لم يَعُدْ... بالحياة!

لندن، ١١/٠٤/٢٠٠٨

أسرارٌ بسيطةٌ

أُسِرُّكَ:
نحنُ، الرجالَ الوحيدينَ،
نفعلُ ما ليس يمكنُ أن تتصوّرَ
كي لا نظلَّ رجالاً وحيدينَ...
خُذْ مثَلاً:
إنني أتهيّأُ في الفجرِ، أُرهِفُ سمعي لأوّلِ طيرٍ.
تقولُ: وماذا؟
انتظِرْ لحظةً يا صديقي!

وأمسِ، بمفترَقٍ للقطاراتِ، قبّلتُ ناديةَ القُبلةَ المتعجلةَ،
النارَ...
كان نبيذُ الظهيرةِ (من أستراليا البعيدةِ) محتدِماً في العروقِ
وفي شفتَيها...
وكنتُ أراهنُ أني سأمضي إلى بيتِها ذاتَ يومٍ!
غريبٌ.
مُغَنٍّ وحيدٌ
وقيثارةٌ كهربائيّةٌ...

وحينَ وقفتُ ببابِ المحطةِ جاءَ المطرْ. . .

أُسِرُّكَ:
إني أشِذِّبُ، ظُهراً، حديقةَ بيتي
وأقتلِعُ الضارَّ من عُشبِها
وآتي لها بالسمادِ
وبالحَبِّ كي يهبطَ الطيرُ فيها.
أقولُ: لآدمَ أن يحتفي بالأديمِ. . .

وثالثةً، يا صديقي، أُسِرُّكَ:
بعدَ غدٍ
سوفَ أمضي إلى الساحةِ
الرايةُ الفوضويّةُ لي. . .
سوف أرفعُها، عالياً، في مهَبِّ الرياح!

لندن، ١٥/٠٥/٢٠٠٨

بَدْلةُ العاملِ الزرقاءُ

على مقاسي كانت البدلةُ!
حتى أنني لم أختبِرْها لحظةً في غرفةِ التجريبِ. . .
كانت بَدلتي حقّاً. . .
وها أنا أرتديها؛
لا أفارقُ قُطْنَها المُزْرَقَّ حتى في الفراشِ!
تقولُ صديقتي:
ما أنتَ؟
عُمّالُ المدينةِ لم يعودوا يلبسونَ البدلةَ الزرقاءَ. . .
عمّالُ المدينةِ لم يعودوا يَدَّعونَ بأنّهم يُدْعَونَ عمّالَ المدينةِ!
أيها المجنونُ
حتى في الفراشِ، البدلةُ الزرقاءُ؟
هل تُصْغِي إليّ!

لندن، ١٩/ ٠٥/ ٢٠٠٨

طائرُ التَدْرُج

The pheasant

أمُرُّ بالغابةِ. . .
الأغصانُ مثقلةٌ بصمتِها وظِلالِ الخُضرةِ.
ابتعدتْ عني الأرانبُ،
كان الدربُ مُنْفَسَحاً بينَ الحوائطِ والأعشابِ
أدفعُها دفعاً رقيقاً لأمضي
والأصيلُ بهِ رعشاتُ بَرْدٍ، وأمضي.
فَجأةً
وبلا صوتٍ، يباغتُني طيرٌ، ويوقِفُني. . .
يا طائرَ التَّدْرُجِ الحَيرانَ
إنْ سَلِمَتْ رِيشاتُكَ اليومَ. . . لا تأمَنْ،
فلستَ ترى مثلي كثيراً. . .
فتىً كالطيرِ منخطِفاً!

لندن، ٢٠/ ٠٥/ ٢٠٠٨

الحِزامُ العريضُ

للنساءِ اللواتي بلندنَ
ليسَ الحزامُ العريضُ
السبيلَ إلى العِفّةِ. . .
الفتياتُ بلندنَ
يَعْقِدْنَ هذا الحزامَ العريضَ
ليكشِفْنَ ما دَقَّ
أو رَقَّ. . .
حتى كأنّ سريراً من الريشِ
يحْمِلْنَهُ
تحتَ هذا الحزامِ العريض!

لندن، ٢١/٠٥/٢٠٠٨

Southall الحيُّ الهنديُّ بلندن

أهذي هيَ الهندُ؟
فاكهةٌ
ودكاكينُ للخضرواتِ
ملابسُ للسيداتِ اللواتي نسِينَ الأناقةَ منذُ حَلَلْنَ بلندنَ
أحذيةٌ استوائيّةٌ
ومكاتبُ للنقلِ أو للصِّرافةِ.
قُرْصُ المُغَنّي قديمٌ.
أهذي هيَ الهندُ؟
لا ناسكٌ
لا إلهٌ ولو بذراعٍ...
ولا مَعْبَدٌ.
لا قرودٌ مقدّسةٌ
لا قرودٌ.
فمِنْ أينَ أدخلُ فيها...
أهذي هي الهندُ؟

يا صاحبي:

أنتَ إنْ كنتَ تنوي الذهابَ إلى الهندِ

فاذهَبْ إلى الهندِ،

واترُكْ لِلَندنَ أسمالَها. . .

لندن، ٢٢/٠٥/٢٠٠٨

أربعة مقاطِع عن المكان

أسكنُ في هَيْرْفِيْلدِ التلِّ
بعيداً عن لندنَ
مقترِباً من ليلي. . .

أسكنُ في غابةِ أشجارٍ أجهلُها
أسماءَ، كما أجهلُ نفسي
لكني أجهَدُ كلَّ صباحٍ
أن أعرفَها باللمسِ. . .

أنا أسكنُ عند بُحيرةِ ماءٍ ممنوعٍ
ماءٍ تأْلَفُهُ أسماكٌ مُنْتِنَةٌ
وطيورٌ.
ماءٍ عبرَ سياجٍ من شجرٍ وحديدٍ يصدأُ. . .
لكني من أجْلِ الماءِ الممنوعِ سأبدأ!

أسكنُ في قوقعةٍ من إسْمَنْتٍ وحريرٍ
وأقولُ:

هيَ الدِّرْعُ!
ولكني كلَّ مساءٍ، أصعدُ نحوَ النجمِ القُطْبيِّ
وأدْعو!

لندن، ٢٠٠٨/٠٦/٠٢

نهارُ أحدٍ ملتبسٌ

منذ انتصافِ الليلِ
(بين الريحِ والمطرِ المُقَعْقِعِ والسريعِ
وبين زائرةٍ مهفهَفةٍ بأحلامي وأخرى)
كان هذا اليومُ يأخذُ شكلَه، ليصيرَ ملتبساً. . .
رحلتْ إلى ما لستُ أدري، جارتي
وتَجَنّبَ العصفورُ نافذتي
وتَحَصَّنَ السنجابُ عبرَ السورِ.
لا مطرٌ
ولا صحْوٌ.
سماءٌ ترتدي الأسمالَ من قُزَعِ السحابِ الأبيضِ المُرْمَدِّ.
والأشجارُ صامتةٌ.
سأنتظرُ التي قالتْ: سآتي اليومَ حتماً. . .
غيرَ أن اليومَ ملتبسٌ،
ورُبَّتَما أرادتْ واحداً غيري يُضاجِعُها نهاراً.
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

إنّ هذا اليومَ ملتبسٌ!

لندن، ٢٢/٠٦/٢٠٠٣

في الحديقة العامّة

ألوذ من قطّتي، فجراً
بمُنْسَدَلِ الزانِ النحاسيّ والصفصافِ. . .
لستُ أرى سوى البحيرةِ.
كان الماءُ مرتعشاً شِبْهَ ارتعاشٍ
صقيلاً
لامعاً.
هبطتْ حمامةٌ فجأةً.
كانَ الإوَزُّ على الحافاتِ. . .
أعرِفُ من هديلِهِ خافتِ الأمواجِ أنَّ ندىً يبارِكُ الريشَ،
أنّ الريشَ أجنحةٌ مُصَغّراتٌ
وأنّ الكونَ يرفعُها، كي يَعتلِي هوَ فيها.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
قطّتي خمشتْ وجهي مساءً

أمانَ الله!

مُلْتَجَأٌ هي البحيرةُ.

والأمواجُ تصطفقُ!

لندن، ٢٤/٠٦/٢٠٠٨

الفهرس

صلاةُ الوثَنِيّ ٥
الإستباحةُ ٧
تنويعٌ صعبٌ ٩
أحدُ أصدقائي ١٢
إذهَبْ وقُلْها للجبل ١٤
استحضارٌ ١٧
أغنية الصَرّار ١٩
الأسماء ٢١
الأشياءُ تتحرّك ٢٣
الجبل الأزرق ٢٥
الرجل الذي ينظِّف زجاجَ النوافذ ٢٧
الرغْيانُ ٢٩
القطار الإيرلندي ٣١
الليلةَ، أُقَلِّدُ بازوليني ٣٥
الليلةَ... لن أنتظرَ شيئاً ٣٧
المتَرَحِّلون ٣٨
إلى شيخ عشائر الـ... ..... ٤٠

مساءَ انتهت اللعبةُ ٤٢
أيُّهذا الحنينُ، يا عدوِّي ٤٣
تحت المطر الموحِل ٤٥
تَحَقُّقٌ ٤٧
حياةٌ جامدةٌ ٤٩
دمٌ فاسدٌ ٥٠
ذَبذَبةٌ ٥٢
رائحة ٥٤
زاويةٌ للنظر ٥٥
زخّةٌ ربيعيّة ٥٦
سامرّاء ٥٧
صلاةُ الوثنِيّ ٥٨
صوتُ البحرِ ٦٠
طبيعةٌ غيرُ ميِّتةٍ ٦٣
عراقيّون أحرارٌ ٦٤
عطلة المصارف ٣١/ ٥/ ٢٠٠٤ ..... ٦٥
غارةٌ جويّة ٦٦
فَراشاتُ الأنْدِيز ٦٨
فنُّ الشِّعر ٧٠
كانون أوّل ٧٢
مسْكن البحيرة ٧٣
شاطيءٌ مهجورٌ ٧٤

لا جُناحَ عليكَ ٧٥
لُزومُ ما لا يَلْزَم ٧٦
لو كان الصبحُ جميلاً ٧٨
مستعمَرةٌ رومانيّةٌ ٧٩
مَشارفُ الرُّبْعِ الخالي ٨١
مُعذَّبو السماء ٨٣
مُفاعَلَتُنْ مفاعلتُنْ فَعولُ ٨٥
من هواجسِ رجُلٍ، سنة ٢٠٠٠ ق.م ٨٧
منتظِراً الثلجَ الأوّل ٨٩
هذا المساءَ سأكونُ سعيداً ٩٠
منتظراً الزوبعةَ المطرَ ٩٢
قطراتٌ أولى ٩٣
السنجاب ٩٤
حفيد امرىء القيس ٩٥
يومُ جُمعةٍ رَطبٌ ٩٧
ابنُ عائلةٍ ليبيٌّ مقيمٌ في روما ٩٨
عدَن ١٩٨٦... إلخ ١٠٠
نصيحةُ مُجَرِّبٍ ١٠٢
بعد قراءة روايةٍ عن القرن التاسع عشر ١٠٣
معروف الرّصافيّ ١٠٤
مائدةٌ للطيرِ والسنجاب ١٠٦
تنويعٌ على سؤالِ رئيسِ أساقفةِ كانتربَري ١٠٨

في صباحٍ غائـمٍ ١١٠
كونشيرتو للبيانو والكْلارِيْنَتْ ١١٢
إيْسْتْبُوْرْنْ في الشتاء ١١٤
سِياجٌ في الريف ١١٧
الـحُرِّية ١١٩
قارةُ الآلِهة ١٢١
حفيدُ امريءِ القيسِ ١٢٣
هـادي العَلَويّ ١٢٤
الحصـانُ والـجَنِيْبَةُ ١٢٦
تَـداخُـلٌ ١٣٠
نـبْتةُ الوردِ الإيرلنديّ ١٣٣
جَبْلة ١٣٥
ولماذا لا أكتبُ عن كارل ماركس؟ ١٣٨
رسالـةٌ أخيرةٌ من الأخضر بن يوسف ١٤٣
هَلْوَسـةٌ خَـفيفـةٌ ١٤٥
الإصـغـاءُ ١٤٦
بطاقةٌ إلى ممدوح عدوان ١٤٨
الـماندولـين ١٤٩
ذِكرياتٌ من هناك ١٥٢
أطاعَ غناءَ الحوريّاتِ ١٥٤
خاطـرةٌ عن المِـرآة ١٥٧
الطبيعةُ تلعبُ بي... ..... ١٥٨

البريدُ الليليّ ١٦٠
لا قهوةَ في الصباح ١٦٣
كلامٌ فارغٌ ١٦٥
بِيانُو كوندوليزا رايس ١٦٧
من ساحة الجمهورية إلى الطُرُق الأربعة ١٦٩
قصيدةُ مَديحٍ ١٧١
طُهْرٌ ١٧٣
استِجابةٌ ١٧٤
نظرةٌ جانبيّةٌ ١٧٥
سانْتْ آيفيس St. Ives ١٧٧
تعشيقٌ ١٧٩
أبْلَهُ الحَيّ ١٨١
عَوّامَةُ النِّيل ١٨٢
النَّقيضُ ١٨٤
القصيدةُ قد تأتي... ..... ١٨٧
إذاً... خُذْها عندَ البحرِ ١٨٩
النَّمِر وِلْيَمْ بْلَيْك ١٩١
تجربةٌ ناقصةٌ ١٩٤
تنويعٌ ثالثٌ ١٩٦
وَشْمُ الذئبِ ١٩٨
الشيوعيّ الأخير يدخلُ الجَنّة ٢٠١
العواصمُ تتداعَى ٢٠٣

العـودةُ ٢٠٦
الفرات ٢٠٧
الـمتاهـة ٢١٠
القرصان والسلطان ٢١٣
أنا وصاحبي نؤلِّفُ نصّاً للغناء ٢١٥
الطبيـعة ٢١٧
ظهيرةُ صيفٍ إفريقيّ ٢١٩
الـزانُ النحاسيّ ٢٢١
في عيد الميلاد ٢٢٣
بعدَ أن انتهى الخريفُ الخامسُ ٢٢٥
خـديعةٌ؟ ٢٢٧
الشيوعيّ الأخير يذهب إلى البصرة ٢٣٠
الشيوعيّ الأخير يقرأ أشعاراً في كندا ٢٣٤
أغنيةُ صيّادِ السّمَك ٢٣٧
هِـجرانٌ ٢٣٩
هديّـةٌ صباحيّة ٢٤١
... في البحر الكاريبيّ، في يومٍ ما ٢٤٣
وقـتٌ ثقيـلٌ ٢٤٧
شـهادةُ جنسيّـةٍ ٢٤٨
رياح الأطلسيّ ٢٥١
الـجحيم ٢٥٣
في أصيلٍ غائـمٍ ٢٥٤

نهر الدانوب ٢٥٧
مسرح دُمى ٢٥٩
مرحباً! ٢٦١
بعد عاصفةٍ مطريّةٍ ٢٦٣
قصيدةٌ أخرى عن «باب سُليمان» ٢٦٥
سأحاوِلُ ألاّ أقولَ شيئاً ٢٦٧
قصيدةٌ مبتلّةٌ ٢٦٨
في المَهَبّ ٢٦٩
الصورةُ الفوتوغرافيّةُ ٢٧٠
الحديقةُ السرِّيّةُ ٢٧٢
اللقاءُ البعيدُ ٢٧٤
مَنْظرٌ ١ ..... ٢٧٦
منظرٌ طبيعيٌّ ٢ ..... ٢٧٧
منظرٌ طبيعيٌّ ٣ ..... ٢٧٩
منظر طبيعيّ ٤ ..... ٢٨١
منظرٌ غير طبيعيّ ٢٨٢
محاولة نظرٍ ٢٨٤
القاهرة ١ ..... ٢٨٦
القاهرة ٢ ..... ٢٨٨
القاهرة ٣ ..... ٢٨٩
القاهرة ٤ ..... ٢٩١
القاهرة ٥ ..... ٢٩٣

القاهرة ٧ ..... ٢٩٥
القاهرة ٦ ..... ٢٩٦
عند شاطيء البحيرة ٢٩٧
سعادةٌ ٢٩٨
حريرٌ ساخنٌ ٣٠٠
الأنفوشي ٣٠١
العودة إلى البارِ الإيرلنديّ ٣٠٣
كنيسة سان جون وود ٣٠٥
جزيرة وايت ٣٠٧
الصبّارُ في الحديقة المنزلية ٣٠٩
صباحَ السبتِ ٣١١
في الطائرة بين نيويورك ولندن ٣١٣
بْرايتِنْ تحت المطر ٣١٥
الصمْتُ ٣١٧
وَضُوءٌ ٣١٩
مُراقَبَةٌ ٣٢٠
ثلاثةُ أيّامٍ ٣٢٢
البازنِينُو ٣٢٥
أغنيةُ صيّادِ السمك ٣٢٦
طبيعةٌ ٣٣١
مساءُ البُحيرةِ ٣٣٣
إحساسٌ غامضٌ ٣٣٤

كلامُ الفتى البريء ٣٣٦
تدريبٌ آخَـر... ..... ٣٣٨
أُمُّ قَصْر ٣٤٠
نبيذ سانت إيمِليون ٣٤٢
صيفٌ بريطانيٌّ ٣٤٥
فِعْلُ حُبٍّ ٣٤٦
الجـارُ ٣٤٧
قصائد نيويورك ٣٤٩
أوّل الكلام ٣٥١
في واشنطن سكوَير ٣٥٢
مطعم الخنزير الأعمى ٣٥٣
حديثٌ في اليونيون سِكْـوَير ٣٥٥
٢ طبيعةٌ ٣٥٧
مسبح ٣٥٨
الحيّ الصينيّ ٣٦٠
الطيَرانُ الحربيُّ ٣٦١
الساحةُ في الصباحِ الباكر ٣٦٣
بـوّابةُ جامعةِ نيويورك ٣٦٥
صباحٌ مختلفٌ ٣٦٦
أبوابُ هارلِـم ٣٦٧
شـطرنج ٣٧٠
نهارُ جُمُعةٍ ممطـر ٣٧١

الفتى الأسودُ يطيرُ ٣٧٢
مَركز روكفلَر ٣٧٥
عُبورُ جسرِ بْروكْلِنْ ٣٧٧
العاملُ العاطلُ عن العمل يستيقظ ٣٨٥
المتشرِّدُ والسنجابُ ٣٨٧
منظرٌ مشوَّشٌ ٣٨٩
أمطارُ آب ٣٩٠
لا تَقُلْ ٣٩١
قريةُ البرابرة ٣٩٣
قصائدُ الحديقةِ العامّةِ ٣٩٥
مَنْزَهُ الأنهارِ الثلاثةِ ٣٩٧
العاشقتانِ تحت المظلّة ٣٩٩
مخطوط ٤٠١
مقامٌ عراقيّ معَ أغنية وبَسْتة ٤٠٢
طبيعةٌ ٤٠٤
النظرة ٤٠٥
نافذة ٤٠٧
قصيدة في يوم السبت اكتملتْ في يوم الأحد ٤٠٨
الوقتُ مُحْكَماً ٤١٠
علاقةٌ مُراوِغةٌ ٤١٢
أيّامُ العملِ السِرّيّ ٤١٤
قصيدةٌ يائسةٌ ٤١٦

اللغة الأولى ٤١٧
نحتفي بالرماد ٤١٨
«نابل» في الشتاء ٤٢٠
مثلّثٌ مقلوبٌ ٤٢٢
ثلاثيّةٌ أيضاً. ٤٢٣
مصطفى المصريّ ٤٢٥
رمسيس الثاني ٤٢٧
المُهْرُ في القُرْنةِ (البرّ الغربيّ) ٤٢٩
الثوبُ المرمرُ ٤٣١
مطعمٌ شِبْهُ أميركيّ ٤٣٢
إلى سركون بولص ٤٣٥
مُقامُ المَرء ٤٣٨
حالةُ البحّار ٤٤٠
تميمةٌ ٤٤١
دَنَفٌ ٤٤٢
الفِصْحُ في كاثدرائية سالِزْبَري ٤٤٣
سأكتب مثل عازف البيانو ٤٤٤
احتِرافٌ ٤٤٥
ليسَ مِن تَلاعُبٍ ٤٤٧
سماءٌ مُوازيةٌ ٤٤٩
قصائدُ فُورْتَيْسّا ٤٥٢
قلعةُ السماءِ البيضاءِ ٤٥٣

سوقُ السبت في بولزانو ٤٥٦
ليلُ البحيرةِ المتجلِّدة ٤٥٨
الشمسُ التي لا تأتي ٤٥٩
سأنتظِرُ! ٤٦١
المَوعِد ٤٦٣
مدخلٌ سرّيّ إلى قلعة فورتيسّا ٤٦٤
تهْلِيلةٌ ٤٦٨
الدّرسُ الأوّل ٤٧٠
أسرارٌ بسيطةٌ ٤٧٢
بَدْلةُ العاملِ الزرقاءُ ٤٧٤
طائرُ التَدْرُج ٤٧٥
الحِزامُ العريضُ ٤٧٦
Southall الحيُّ الهنديُّ بلندن ٤٧٧
أربعة مقاطِع عن المكان ٤٧٩
نهارُ أحدٍ ملتبسٌ ٤٨١
في الحديقة العامّة ٤٨٣
الفهرس ٤٨٥

سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء الرابع

سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء الرابع

حياة صريحة

منشورات الجمل

ولد **سعدي يوسف** في البصرة عام ١٩٣٤. تخرّج من دار المعلمين ببغداد سنة ١٩٥٤. عمل في الصحافة وتنقل بين عدة بلدان ويقيم اليوم بلندن. نشر العديد من الترجمات الشعرية والنثرية، وكتب القصة والرواية، ترجمت أشعاره إلى العديد من اللغات ونال جوائز أدبية في البلدان العربية والأوروبية. من أعماله وترجماته: **القرصان**، شعر (١٩٥٣)؛ **أغنيات ليست للآخرين**، شعر (١٩٥٥)؛ **قصائد مرئية**، شعر (١٩٦٥)؛ **بعيداً عن السماء الأولى**، شعر (١٩٧٠)؛ **نهايات الشمال الأفريقي**، شعر (١٩٧٢)؛ **الأخضر بن يوسف ومشاغله**، شعر (١٩٧٢)، **والت وايتمان: أوراق العشب**، ترجمة (١٩٧٦)؛ **تحت جدارية فائق حسن**، شعر (١٩٧٤)؛ **قصائد أقل صمتاً**، شعر (١٩٧٩)؛ **خذ وردة الثلج، خذ القيروانية**، شعر (١٩٨٧)؛ **قصائد باريس، قصائد إيثاكا**، شعر (١٩٩٢)؛ **كافافي: وداعاً للاسكندرية التي تفقدها**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **يانيس ريتسوس: إيماءات**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **لوركا: الأغاني وما بعدها**، ترجمة (١٩٨١)؛ **فاسكو بوبا: شجرة ليمون في القلب**، ترجمة (١٩٨١)؛ **غونار أكيلف: ديوان الأمير وحكاية فاطمة**، ترجمة (١٩٨١)؛ **أونغاريتي: سماء صافية**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هولان: قصائد**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هنري ميللر: رامبو وزمن القتلة**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **نغوجي واثيونغو: تويجات الدم**، ترجمة (١٩٨٢)؛ **ديفيد معلوف: حياة متخيلة**، ترجمة (١٩٩٨)؛ **وولي سوينكا: المفسّرون**، ترجمة (١٩٨٦).

سعدي يوسف: **الأعمال الشعرية، الجزء الرابع: حياة صريحة**
الطبعة الأولى
خطوط الغلاف: الفنان علي عاصي
كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٤
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨/١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2014
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ايروتيكا

(١٩٩٤)

امرأة صامتة

في فراش البارحةْ
حيث كان الشرشف الكتّانُ مكويّاً
وكان الليل مطويّاً على خضرته في الركنِ
أو حمرتهِ في ما تبقّى من نبيذ الريفِ. . .
كان الصمت يعلو
وتموجُ الأرضُ مستنجدةً بالشرشفِ الكتّانِ:
إِحملْ جسدينِ
اتَّسعِ، الليلةَ، شيئاً. . .
لا تضقْ بالموجِ
بالموجةِ في الذروةِ،
ولْتنْدَعِكِ الأزهارُ في أطرافكَ. . .
الليلةَ، يعلو الصمتُ
والماءُ يرى منبعَهُ ـ السرَّ، مَصَبّاً. . .
. . . . . .
. . . . . .
أنتِ في الموجة تمضينَ

تئنّينَ عميقاً، داخلَ الجِلدِ، وتمضينَ
وتعطين زهورَ الشرشف الكتَّانِ
ما تعطينَ:
قطْراتِ الحرير. . .

١٢/ ٧/ ١٩٩٤

EROTICA

بالخمسِ تلتمِّينَ
تلتمسين أول رعشةٍ في تمرةِ الفحلِ،
الأصابعُ
كلما لانت تجسَّدَ غصنُ ريحانٍ
تُدغدغه طراوتُها.
حليبُ الغصنِ
أولُ قطرةٍ منه استُدِرَّتْ بالأصابعِ
واستدارت
فاحت الأعشابُ في الدلتا التي تتقاسم النهرينِ
والنورُ الذي في الراحة اليمنى يفوحُ
وثوبُها، متكوِّماً، في الركنِ...
كان الغصن ينهض، فارعاً، بين الأصابعِ
والبخور يفوح
والأفعى تفحُّ،
وذلك الثوب الذي في الركنِ، صار اثنين...

١٢/٧/١٩٩٤

عانة - I -

أحبُّ هذا العشبَ
هذي الشقرةَ. . . المخملَ إذ أَفْرُقُه خيطاً فخيطاً
وأشمُّ البُنَّ فيهِ
أوّلَ العنقودِ
والقنَّبَ منقوعاً، ووردَ اللحمِ، فيهِ
عندما أُسند رأسي بين ساقيكِ
يكون العشبُ لي مستنَد الكونِ،
وإذ يبلغه غصني
يدور الغصنُ في العشبِ. . .
طريُّ عشبُكِ الآنَ:
التماعُ البَرَدِ
الزئبقِ
والمنبعِ، فيهِ. . .

١٥/ ٧/ ١٩٩٤

عانة - II -

مرجٌ أسودُ
سهبٌ مترامي الأطراف
النبعُ به خافٍ
والدلوُ يخاف.
مرجٌ أسودُ
والدنيا بيضاءُ...
السّرَّةُ خافيةٌ، زرُّ أرهفُ
والمرمرُ ملتمعٌ
ووسادتها تحت الردفين ضفاف...
.....
.....
.....
سأحاول أن أتلمسَ في العتمةِ
بيتَ الأصداف.

١٩٩٤/٧/١٥

عانة - III -

قبل عشرين دقيقة
غادرتْ حمّامَها التركيَّ. . .
كانت ترتبي، كامنةً، ثمتَ
حتى صاغها الحمّامُ
ملساءَ
كأنّ الزغب استقطر لون الزبدةِ. . .
الكوثرُ
رطبٌ
ناعمٌ
تزلق فيه راحتي. . .
منفرجاً كان
وبين الضفة الملساء، والأخرى
سماءٌ سلسبيل
هكذا
يَبْرُقُ، في الليل، السبيلْ.

١٦/ ٧/ ١٩٩٤

طيور بحريّة

الحصا يترقرق في الماءِ.
عاريةً كنتِ
ممتدةً أنتِ، والبحر. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في البعد، يمرق طيرٌ
وفي راحتي يتراجفُ نهدُكِ
منتظراً أن يطير. . .

١٦/ ٧/ ١٩٩٤

في حانة جاز

لأكاد أرى عبر كريستال الجِيدِ
نبيذَكِ، وهو يسيل
من الكأس
إلى شفتيك
إلى أن يترقرق ورداً في خدَّيك. . .
الموسيقيةُ عند بيانو البار
تُرددُ أغنيةً،
وأنا أثمل بالموسيقى
من عينيك. . .

١٧/ ٧/ ١٩٩٤

عند النافذة

شَعركِ مبتلٌّ برذاذ الماء الدافئ
نهداك يرفّان صغيرينِ
ومن المرآةِ إلى عمق المرآةِ تسيرين
منعَّمةً بصباحكِ،
عاريةً . . .
وتقولين: سأترك شَعري
يتنسَّم وحده
يتنشّف وحده . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
تقفين قبالة نافذةٍ مفتوحةْ
تلتفتين قليلا
تبتسمين قليلا
وتعودين إلى شَعرك عند النافذة المفتوحةْ
وأنا أتملّى صورتَكِ الخلفية
مشدوداً بالكرسيّ . . .

١٧/ ٧/ ١٩٩٤

Camping

الخيمةُ
خضراءُ، يظللها السَّروُ
وثمّتَ جذعُ صنوبرةٍ
علّقتِ به فانوسي
والمرآةَ
وثوبَ سباحتِكِ. . .
كنتِ خرجتِ، الآن، من البحرِ
حصيرُ البامبو يبتلُّ بمائكِ
لكنكِ ما زلتِ تريدين استنباط الماء. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سننامُ، إذاً. . .

١٧/ ٧/ ١٩٩٤

زَبَدٌ

هذا الزبَدُ الطافحُ
في سُبّابتيَ اليمنى،
في منبِتِ ساقيكِ. . .
الزبَدُ اللامعُ في زغَبِ الدلتا،
هذا الماءُ المتكثف مثل نبيذٍ أبيضَ مكتنزٍ منذ سنينٍ وسنين. . .
سيظل هنا
في هذا الركنِ من الغرفةِ
ملتصقاً بالشرشف
ملتصقاً بهواء الغرفةِ
ملتصقاً باللحظة حين تغيبين. . .

١٧/ ٧/ ١٩٩٤

امتصاص

كلُّ هذي الاستدارات. . . ولا تدرين ماذا تفعلين
بالفم المضمومِ؟
كلُّ الاستداراتِ:
محيطِ الخصرِ
كوبِ النهدِ
رسمِ العينِ
والردفينِ. . .
كلُّ الاستدارات. . . ولا تدرين ماذا تفعلين
بالفم المضمومِ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لو كوَّرتِه، وامتصَّني حتى ابتداءِ الماءِ
أو حتّى انتهاءِ الماءِ،
هل أسألُ عمّا تفعلين
بالفم المضمومِ؟
هل أسألُ عمّا تنهلين؟

١٩٩٤/٧/١٧

فودكا

في النار المثلوجة
في اللهب المتجمدِ
ندخل عريانين. . .
لنطوي الأغنيةَ الأولى
في البرقِ
فندخلَ كفَ الساحرةِ:
الليلُ يمدُّ بساطَ البدوِ،
وها نحن أولاء على أغصانٍ وطيورٍ نتمرَّغ. . .
وعلى نهديك ارتسمتْ أغصانٌ وطيورٌ.

١٨/ ٧/ ١٩٩٤

استعادة

في الغرفةِ،
أجلسُ وحدي، مرتخياً، قرب النافذةِ
الشمسُ تواجهني
شمسُ الصيف
شمسُ الهاجرةِ. . .
الأولوانُ مشتتةٌ في موشور الشمس،
وذراعي تؤلمني. . .
فلأغمض عينيّ المتعبتين
عينٌ مُسْبلةٌ بالوسطى
والأخرى بالإبهام. . .
عميقاً سوف أنام. . . سريري غيمة أمسِ
وغيضةُ أمسِ
وصرخةُ أمسِ. . .
سيرنّ الهاتفُ،
لن أرفعَهُ. . .
أعرفُ أنكِ أنتِ. . .
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

سأطبقُ جنفيَّ على ذكر صوتكِ،

ذاك المرتعشِ، المبحوحِ، بغيمة أمسِ

سأحفظُ صرختَكِ المكتومة

حين عضضتِ ذراعي، هائجةً، أمس. . .

١٨/ ٧/ ١٩٩٤

ابتداء

أُحبُّ أن أطيلَ عبر العنقِ القُبلةْ
أُزيحُ شَعركِ القصيرَ عن أُذنكِ
أنزعُ القرطَ الذي أمسِ اشتريتُه من حضنِ افريقيّةٍ
في مدخل المترو. . .
أذوقُ شحمةَ الأُذنِ
وأمضي هابطاً في العنقِ
أمضي هابطاً في العنقِ
أمضي هابطاً
أمضي. . .
وفي الهوّةِ
في العمقِ
تماماً، حينما أوشكُ أن أغرقَ. . .
تأتي اللفتةُ
الضحكةُ. . .
تلتفّين بي
والعنقُ المتلَعُ يسترخي على موج العناق.

١٨/ ٧/ ١٩٩٤

تلوين

ضوءٌ أخضر يهبط، منحرفاً، من ركن الغرفةِ
الضوء خفيفٌ
لكنّ أعالي الصوفا
والكرسيّ
والمنفضةَ البلّور:
تتلون بالأخضر
وتظل الغرفة في عتمتها...
.....
.....
.....
رائحةٌ من نعناعٍ برّيّ،
رائحةٌ من شَعرك، منتشراً، في بيدره الشرشفِ
والضوء الأخضر
بعد أعالي الصوفا
بعد الكرسيّ
بعد المنفضة البلّور

يبلغ نِعمتَكِ العاريةَ
النائحةَ . . .
الضوءُ الأخضرُ لوَّنَ ردفيكِ . . . فقط .

١٨/ ٧/ ١٩٩٤

السؤال

لا ترضَينَ بما يرضَينَ به.
مثلاً:
أنتِ تقولين لماذا يخترقُ الرجلُ المرأةْ؟
ولماذا لا تخترق الرجلَ المرأةْ؟
حسناً...
لكني أعرف أنكِ حتى لو ضاجعتِ كما تهوَين
ستقولين: وماذا؟
كلُّ الأوضاع سواءٌ
كلُّ الكلمات لماذا...

١٩/٧/١٩٩٤

الهدوء

هدأت شفتي
واستكنَّ قضيب النحاس
ذابلاً
دامعاً،
أنتِ منثورةُ الشَّعرِ
لاهثةٌ
لا تزالين في وقدة اللمسِ
تنتظرين قضيبَ النحاسِ
الذي يرتخي
ذابلاً
دامعاً. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هل ندخِّنُ؟
ربّما أوقدَ العشبُ نارَ النحاس.

٢٠/ ٧/ ١٩٩٤

جرفٌ مرجانيّ

أنا وأنتِ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

كانت الأسماك تمضي، طلقةً، في شاطئ المرجان

كان الضوء في الأعماقِ

يرزقُّ

ويخضرّ

ويحمرّ

ويصفرّ

ويَسْوَدُّ

وكانت غابة المرجانِ

أزهاراً

وأصدافاً

وأشجاراً

تماثيلَ عصورٍ غرقتْ

مطعمَ أسماكٍ تغنّي عنده الأسماك.

أنا وأنتِ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

عندما تضمُّنا الخيمةُ

يأتينا حفيفُ السروِ والبحرِ

ويأتي شاطئ المرجان،

تأتين. . .

مندّاةً

مُصَفّاةً

هنا، في خيمتي. . من شاطئ المرجان تأتي السمكةْ!

٢٠/ ٧/ ١٩٩٤

فارسة

تحبِّين الخبب
مائلةً بصدركِ على الجواد
تضغطين بنهديكِ
بفخذيكِ . . .
لاهثةً
متصببةَ العطر . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
إلى أين تمضين أيتها الفارسة
بجوادكِ المنهَك؟

٢٠/ ٧/ ١٩٩٤

الثوب

في الشقةِ
حافيةً تمشين
عاريةً. . .
تنتقلين من الغرفة نحو الشرفة
ومن الشرفة نحو الغرفة. . .
لكنكِ إذ تنتقلين من الغرفةِ نحو الغرفةِ
تتخذين هوائي ثوباً
وترفِّين. . .
. . . .
. . . .
. . . .
ما أطولَ ثوبَكِ هذا!

٢٠/ ٧/ ١٩٩٤

ظهيرة

الآنَ،
وقد أسدلتُ ستائريَ الخشبَ
(الشمسُ مروِّعةٌ)
أنا أشتاق إليكِ. . .
منفضتي امتلأت من مِزَقِ الأوراقِ
ومن ضربات الجازِ
ومن سدّادات البيرةِ. . .
أشتاقُ إليكِ
لا لحديثكِ
لا للثوب المتغضنِ دوماً من جهةٍ
لا لتفاهات صديقاتكِ
لا لمتاعبكِ العمليةِ. . .
. . . .
. . . .
. . . .
أشتاقُ إليكِ
إليكِ. . .
فقط!

٢٠/ ٧/ ١٩٩٤

كمّاشة

أناملُكِ الطرية
أنامِلكِ السائلة التي تكاد تندلق على الطاولة
كلما أمسكت بكأس النبيذ. . .
أنامِلكِ التي يتلألأ فيها النبيذ كما يتلألأ في الكريستال
أنامِلك التي لا يكاد يُلامسها شيء
أنامِلك:

حليبُ الوردةِ
وغصينِ اللوزِ

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أناملُكِ هذه
أيُّ نُسْغٍ أوّلَ، تدفّقَ، بغتةً، فيها
كي تُطبقَ على عضوي
كمّاشةً من الفضة؟

٢٠/ ٧/ ١٩٩٤

القطار

صورتُكِ
وأنتِ في محطة الشمال
مع حقيبة يدٍ
وشَعرٍ يتطاير مع الريح
بينما ساعة المحطة تتجمّد. . .
صورتُكِ هذه:
لا تشبهكِ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أنا أحتفظ، سرّاً، بالفيلم كله
بكل ما فعلناه
في القطار
بين أمستردام وباريس. . .

١٩٩٤/٧/٢١

سوء تفاهُم

لم تكوني البارحةْ
امرأتي. . .
كان هواء البار مضغوطاً
كما لو أننا في علبة الكولا. . .
لقد حاولتُ أن أصغي إلى أغنية الجاز
وحاولتُ. . .
ولكنكِ لم تستمتعي حتى بإيذائي
أو بالخمرة الحمراء
أو باللحم شبه النيِّئِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
البارُ طوى أعلامَهُ
وانقلبتْ، وهْناً، كراسيه
وغادرناه،
لكنّ الهواء
ظلَّ، حتى في اقتراب الفجر، مضغوطاً
كما لو أننا في علبة الكولا. . .

١٩٩٤/٧/٢١

الماشطة

تستمتع إحدى البنتين بشَعر الأخرى
تتحسسهُ
وتُمسِّدُهُ
وتُطرِّي الخصلاتِ المنعقداتِ
تُمشِّطُها
وتُسَوِّي الخيطانَ الذهبيةَ
خيطاً
خيطاً . . .
أحياناً تتنهّدُ
وأحياناً تنظر، صامتةً، في عيني الأخرى . . .
تبتسم الأخرى
تُتْلعُ عنقاً . . . ثم تميل به نحو أناملِ ماشطةٍ
كانت تقتسم الليل وإياها
تحت غطاءٍ واحد . . .

١٩٩٤/٧/٢١

حيادٌ صعب

سأقولُ إذا جئتِ مساءً: أهلاً. . .
سأقوم إلى البار
أمزجُ كأساً لكِ
كأساً آخرَ لي،
وسأختار الكرسيَّ بعيداً. . .
لن ألمس حتى أطرافَ أريكتكِ. . .
لكِ أن تهدأ أنفاسُكِ
أن تمتلكي دنياكِ
ووحدتكِ. . .
لكِ أن تحتفظي بالكأس طويلاً، قرب المنفضة الملأى بالأَعقابِ،
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الكرسيُّ بعيدٌ
والنهرُ بعيدٌ،
وأريكتُكِ الجسر. . .

١٩٩٤/٧/٢١

مطعم صينيّ

في المرآة الضخمةِ
في عمق المطعمِ
تبدو أشجارٌ وتنانينٌ أخرى
وموائد أخرى.
وصواني الصين تدورُ فطائرُها
والرزُّ الكانتونيّ
وخيوطُ اللحمِ...
.....
.....
.....
وفي المرآة الضخمةِ
يبدو رجلٌ وامرأةٌ يبتسمان
قدحُ الساكي في يدها
قدحُ الساكي في يدهِ...
كان يحدِّق في عمق القدحِ الخزفِ...
المرأةُ تعرف ما يفعلُ

تعرف أن امرأةً ما، عاريةً، ترقص في الأعماق.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أتكون سواها؟

١٩٩٤/٧/٢١

ثالوث

المسدّس تحت الوسادة
حين دخلتِ الغرفةَ البحرية
شفيفة الثوبِ
متضوِّعةً
وشَعركِ مروحةُ كُحلٍ وياسمين
كانت عيناك تطرُفان. . .
المسدس تحت الوسادة.

الموجةُ تندفع
والفراش تتاطير أوراقه كالريش
الشرشف
والأثواب
والوسادة.

الآن،
نحن ثلاثة في صراحة العري:

أنتِ

أنا

والمسدس .

١٩٩٤/٧/٢١

الغرفة

هذي الغرفةُ أعرفُها
كانت لي:
طاولتي حيث كتبتُ قليلاً وأنا أنظر عبر الشّباك،
لوحاتُ السيدة الخمس
ودولابُ ملابسيَ،
النبتةُ في ركنٍ تغمره الشمسُ دقائقَ
والإستيريو...
والألواحُ اللائي جئتُ بها واحدةً واحدةً لأُثَبِّتها فتكونَ سريري.
هذه الغرفة كانت لي
كانت لكِ أيضاً...
أتذكَّرُ كيف أقمنا فيها زاويةً للبار
وكيف ضحكنا حين جلسنا عند البار...
وكيف تتبَّعنا خيط بخورٍ يَصَّاعدُ حتى يتلاشى عند المصباح الأحمر...

هذي الغرفةُ أعرفُها...
فيها قبّلتُكِ أول مرةْ

فيها انسكرت إحدى الألواح
وفيها كنت أدغدغُ إِبطَكِ كلَّ صباح.

. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

أما الآن، فلم تعد الغرفة لي
أنتِ رحلتِ إلى عاصمةٍ أخرى،
وأنا. . . لم أرحلْ بعدُ. . .
ولكنْ، ماذا أتنفّسُ في الغرفة؟

. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

هذي الغرفةُ لا أعرفُها.

١٩٩٤/٧/٢١

في الحرب

تهدر المدفعيةُ. . .
ها نحن في شقّة البحرِ
نختضّ
والنبتُ يختضّ
والآنيةْ.
غير أنكِ أومأتِ نحو الفراش المكوَّمِ في الزاويةْ.
بغتةً. . . في انفجار القذيفة قرب البنايةْ،
تسَّاقَطُ الأسطواناتُ
والكتبُ الماركسيةُ
واللوحةُ المشتراةُ حديثاً
وصورتُكِ العاريةْ.

٢٢/ ٧/ ١٩٩٤

ناحلة

من أين أُمسكُ بكِ؟
لا النهدُ يملأ راحتي
ولا الزند.
وفخذاكِ، فخذا الغزالة، هل تعرفان غير الجري؟
حين أطوِّقُ خصركِ
ترتسم أضلاعٌ على أناملي.
لكنك، حين نفعل الحب، ترفرفين
تطيرين
وتهبطين
ممسكةً جيداً بالعُود. . .

١٩٩٤/٧/٢٢

عطلة الأسبوع

في محطةٍ لمترو الضواحي
كنت أنتظرك منذ الصباح. . .
القطارات تتقاطع
المسافرون يتقاطعون
كذلك بائعو المخدرات وكلاب الشرطة.
إنه يوم السبت
هكذا، سنُمضي معاً، عطلةَ الأسبوع
سوف نثمل
ونغنِّي
ونحبّ. . .
. . . .
. . . .
لم تجيئي في الموعد.
ضغطتِ زرَّ الباب في السادسة مساءً.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

في السادسة مساءً بدأ الصباح
كنا عائدينِ، معاً، من محطة المترو
وفي شعركِ بُقيا من طراوة الفجر.

١٩٩٤/٧/٢٢

كتبت القصائد بدمشق
بين ١٢ و٢٢ تموز ١٩٩٤

قصائد ساذجة

إلى محمود درويش

ليست الخيبةُ أن تشعر بالخيبةِ.
فالنهر ـ كما تعرف ـ لا يعني طريقَ المأدُبَةْ
إنما الخيبةُ في أن ينشف النهرُ
فيمسي مَسْرباً للعربةْ.

● ●

نحن مُذ جئنا إلى الكونِ
أردنا صورةً أخرى
وقُلنا: الناسُ أطفالٌ
وفينا لثغة الطفلِ
فما أقربَ هذا الوردَ. . .
ما أقرب تلك الوجنةَ الملتهبةْ!

● ●

باليد اليسرى تساءلْنا.
وباليمنى مضينا نكشف الرملَ عن الماءِ
فهل كان سراباً ما كشفناه
وهل كنا ضحايا التجربةْ؟

● ●

ربما لاحت لنا في غشية التهليل، إيثاكا
فصدَّقْنا بما أنشدَنا الإغريقُ
لكنك تدري أيَّ ميناءٍ بلغناهُ
وأيَّ الشجراتِ ارتسمتْ في العقبةْ!

عمّان، ١٢/٢/١٩٩٦

إلى فوزي كريم

كنتَ أميراً بعصاك
ولحيتك
وبساعة جيبكَ. . .
كنتَ تُراهنُ، مبتسماً: إنك سوف تغيِّرُ هذا الكابوس
بعصاك
ولحيتك
وبساعة جيبكَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
أنت تغنِّي في مأدبُة الليل
ـ وثمَّت نخلٌ، وبقايا سمكٍ، وقناديل ـ
أكنتَ، وحيداً، توقد نارَكَ
في مَذْأبة الليلِ؟

● ●

الآن
وأنت تتمتمُ
و«القلبُ المجروحُ» يتمتمُ

ـ أحياناً في مستشفاك بلندنَ ـ
أدركُ أن عصاك
ولحيتك
والساعة في جيبك
كانت أزياءك في المسرح
حتى قبل بداية ذاك الفصل الأسود.
حتى قبل نهاية عرس النمل.

عمّان، ١٢/٢/١٩٩٦

إلى أمجد ناصر

قصّاصو الأثر
كلاب الحويطات (أم هم النعيمات؟)
وعودة بن تاية، أيضاً
لن يقتفوا خطاك. . .
أوّلاً، لأنّ بينك وبينهم أكثر من بحر.
وثانياً، لأنهم لا يرتجون منك خيراً.
(لا خيل عندك تهديها ولا مالُ)
فلتظلَّ، إذاً:
الآبق.
اكتبْ: سُرَّ مَن رآكِ.
اكتبْ ما لا يُفْهَمُ.

● ●

ولكنْ،
انتبهْ. . .
إن لندن ملأى بالكلاب!

١٣/ ٢/ ١٩٩٦

إلى حيدر صالح

هذا الجسدُ
هذا المتدفقُ مثل إله إغريقيّ
ـ هل تذكر طفليك؟ ـ
هذا المتألقُ في أطلال الدامور
ـ هل تذكر أمطار سلالمها؟ ـ
هذا المتأنقُ حتى وهو ينوء بصفصافته نحو الدور الرابع
ـ هل تذكر في الفاكهاني شقّة قاسم؟ ـ
هذا الجسدُ
كيد تداعى؟
كيف تلاشى في أبخرة الحانات
وفي أنفاق المترو؟
كيف تبدَّدَ، حتى بين أنامل عبد القادرِ، في باريس؟
كيف تبدَّدَ، في هول فُجاءته، حتى كدنا ننسى
أنّ لحيدر صالح
لطخته البيضاء على هذا العالم؟

●●

أتكون، وأنت العملاق،
ذبيحَ الشِّعر؟

●●

أتكون حقيقتَنا؟

عمّان، ١٢/٢/١٩٩٦

إلى وليد خز ندار

لا الياسمينة
ولا زوّار الليل الذي نجهله،
لا السياج
ولا ثريّات الميموزا في منعطف المنزه الأول
حتى ولا الصبّار الذي تريده ناعماً. . . .
ـ لن أذكر غزّة ـ
إذاً. . .
كيف نلمس هذا التمساح؟
كيف نتلمس خطوةً واحدةً. . .
خطوةً واحدةً، حسبُ؟
إن كانت الياسمينة
وزوّار الليل
والسياج
والميموزا
والصبّار الذي تريده ناعماً،
إن كانت هذه، كلها، صورةً. . .
(أو دلالةً كما يقول بلاغيّونا المحْدثون)
فيا لَفداحة المسعى!

عمّان، ١٣/ ٢/ ١٩٩٦

إلى عبد اللطيف اللعبي

ستظلُّ الضواحي الغريبةُ أوطانَنا
سنظلّ بها:
فهي تعرفنا أوّلاً،
ثم أنّا نكون بها، مثل ما سمكُ الحوض في الحوض:
حانتُنا
موقف الحافلةْ
وسلالم مترو الضواحي
وشقّة H.L.M
وكل تفاصيل يومٍ بلا مفصلٍ...

● ●

ربما كان عبد اللطيف سعيداً برمل الرباط
وأسوارها.
ربما أوقد الأصدقاءُ القدامى، على البحر، نيرانَهم
ربما وجد «الريفَ» مستنفَراً مثل ما كان.
لكنّ ما لم يجدْ
كان أكثر ممّا يجدْ...

● ●

حسناً،
فلنقُلْ إِننا العائدون
إلى أرض أوطاننا
في الضواحي. . .
في الضواحي البعيدة عن أرض أوطاننا.

عمّان، ١٣/ ٢/ ١٩٩٦

إلى حسب الشيخ جعفر

كيف مرَّت بكَ السنواتُ؟
الموائدُ تُقفرُ، والنَّخلاتُ التي كنتَ تجلسُ
عند جذوع مساءاتها، لم تَعُدْ جوقةً من
عصافيرَ. . .
حينَ القصائدُ كانت مدوَّرَةً
والكؤوس التي بين عينيك كانت تدور. . .
فهل فَزَّ عن غصنه الطيرُ؟
هل غارتِ القارةُ السابعةْ؟

• •

سوف أبحثُ في بيت ليلي عن الطفلِ
أبحثُ عن نخلة الله
عن ساكنٍ شرقَ برلينَ. . .

عن روث جاموسةٍ، يتجمَّرُ، ليلاً، بِهَور السلامِ. . . .
سلامٌ عليك

على الكلمات التي لا تغادر، مذعورةً، شفتيكَ
اللتين. . .

●●

كيف مرَّتْ بكَ السنواتُ؟
انتبهْ!
واتَّرِكْ فرصةً للحياة. . .

عمّان، ١٤/ ٢/ ١٩٩٦

إلى بشير قهوجي

ليست القيروانُ القباءَ الذي ترتدي
والفضاءَ الذي لا ترود. . .
قد اختلطتْ في دخانِ المساءِ الحدودْ.
أنتَ في القيروان
تحاولُ ناراً هلاليةً
وكراديسَ من أُرجوان.

● ●

أتذكَّرُ بيتَكَ:
تلكَ السَّطيحةَ
والبئرَ،
والمطعمَ المتقشفَ. . .
أذكُرُ ديوانَ ريلكه
وأوراقَكَ المتغضنةَ الخطّ في الشمسِ،
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

هل كنتَ تنوي الرحيلْ؟

●●

اتَّئِدْ يا صديقي
ولتواصلْ خِصامَكَ بين الهلاليّ والبحرِ
وَلْتَفْرِطِ السنبلةْ!

عمّان، ١٤/ ٢/ ١٩٩٦

إلى هاشم شفيق

ستكون «بَلَدْ»
يوماً، عاصمةَ الدنيا. . .
وستبني أنت
ـ أنت الذاهل في مدن الغيتو ـ
ساحاتٍ
وبساتينَ
وأكواخاً من سعفٍ وجذوعٍ
وستسكنها
لتكون، ولو نبتتْ في أوراق الدفتر،
عاصمةَ الدنيا.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

تتذكرُ كيف بنى «بدرٌ» كاتدرائيتَهُ. . .

● ●

ها أنت استكملتَ العدَّةْ
وتعلَّمتَ الحِرفَ اليدويةَ، والترحال

وعرفتَ نساءً
وحروباً
وقرأتَ بعيني قطٍّ ديوانَ العُمّال
الآنَ:
ستفتتح الدربَ الأول.

●●

من يبني عاصمةً للشاعر
غير الشاعر

عمّان، ١٤/٢/١٩٩٦

إلى زاهر الغافري

سلالة المحاربين
سلالة محمد بن ناصر الغافري
الذي:
«عقدوا له الإمامة، وضربت مدافع قلعة نزوى،
ونادى له المنادي بالإمامة والعز، والأمان لكل قبيلة تريد المواجهة
من يمنٍ ونزار، ومن بدوٍ وحضر».
سلالة المحاربين هذه
جاءت من «سرور»
بهذا الفتى الذاهل
زاهر الغافريّ...

● ●

أنت لم تَعُدِ الفتى
لكنك ما زلتَ ذاهلاً.
احترسْ من القصيدة...

● ●

ربما في جُعة الفجر
أو دخان القنّب

أو محاولة السينما

أو القفز بين العواصم:

مرّاكش

نيويورك

القاهرة

مسقط

ومركب الهند

سوف تتفادى الارتطام.

لكن القصيدة تطاردك...

عمّان، ١٤/٢/١٩٩٦

النّاسِكُ

ـ ١ ـ

يرحلُ الشعراء
واحداً، بعد آخَرَ، في آخِرِ الليلِ
لم يحملوا معهم غيرَ زادِ القفيرِ
وتذكرةٍ لم تُؤَرَّخْ . . .
أقولُ لهم: لا تَحُثُّوا الخُطى
انتظِروا ساعةً حَسْبُ، يا إخوتي . . .
نحنُ في آخرِ الليلِ،
لكنّهم يرحلون . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

السّماءُ ليستْ مُدْلَهِمَّةً. الغيومُ فقط هي التي تهبطُ عميقاً. سُوداً تبدو ورماديةً. الفجرُ مُلْتَبِسٌ، لكنّهُ الفجرُ. أقولُ لغيمةٍ تتردَّدُ بيضاءَ في زاويةٍ من السَّماءِ: أنت لي، أيتها المتهلِّلةُ. كنتُ انتظرتُكِ طَوالَ الليلِ، بينما أنتِ تحتَ الوسادةِ، تجذبينَ خُصُلاتي وتُمسِّدينَ. إذاً،

ستظلِّين معي. وحيثما تكوني أكُنْ. سأقولُ: إن السَّماءَ صافيةٌ. . .
سأقولُ: النهارُ أنتِ.
صباحَ الخيرِ أيها الفتى!

ـ ٢ ـ

يرحلُ الشعراء
واحداً، بعد آخرَ، في آخرِ السطرِ. . .
كيف انتهيتُم إلى النُّقطةِ الصِّفرِ؟
كيف انتهيتُمْ؟
وأين تركتُمْ قناديلَنا، ورؤوسَ الجبالِ؟
ألم تنظروا، لحظةً، في عيونِ القططْ؟
نحن في آخِرِ السَّطْرِ
لكنهم ترحلون. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هذا الجبلُ الذي لا يُحَدُّ. هذا الجبلُ الذي نَعرفُ. سوف ألتقطُ في قُنّتِهِ ذَرْقَ النُّسورِ، والعسلَ.
الأزهارُ بلا أسماء. كذلك خيوطُ النّبعِ، والذئابُ التي تستافُ روائحَ القُرى. ثَمّتَ الممرّاتُ: دروبُ الماعزِ والمهرِّبين. الجنودُ ليسوا

ضيوفَ الجبلِ. قبرُ الوليِّ يَنْعَمُ بخُضرةِ شرائطِهِ. ومن بيوتٍ نجهلُها تأتي نسوةٌ وأطفالٌ، بالخبزِ والشموعِ.
صباحَ الخيرِ، أيها الجبلُ!

ـ ٣ ـ

يرحلُ الشعراء
واحداً، بعدَ آخرَ، في آخِرِ الغصنِ...
لا!
كيف تَمضُونَ عني؟
ألم نجتمعْ، مَرّةً، حولَ مائدةِ النُّسْغِ؟
كنا نقولُ: لنا رعشةُ الماءِ
كنا نقولُ: العروقُ لنا، والخريفُ الذهبْ
ونقولُ: لنا أوّلُ الغصنِ.
لكنكم ترحلون...
.....
.....
.....
مباركةٌ أنتِ أيتها الشجرةُ. مباركةٌ أيتها المزهِرةُ بريشِ الطاووسِ، وعُرْفِ الهُدهدِ. مباركةٌ جذورُكِ حيثُ يَبِيضُ النّملُ. القُنفذُ يَطَّوَّفُ بكِ سارياً مع النجمِ. ومن أغصانكِ تَصِرُّ الجنادبُ. هكذا في الليلِ

الإِثْمَدِ تَسْتَروحينَ الفردوسَ. وفي النهارِ الذّهَبِ تستَقْطرينَ الفضّةَ.
لأقُلْ: أنتِ شجرتي الأولى. كوخي وتابوتي، والتاجُ الذي أعْتَمِرُ.
صباحَ الخيرِ، أيها الشِّعرُ!

ـ ٤ ـ

لن أعاتبَكم
لن أودِّعكم ببياضِ الكحولِ
ولن أنحني حينما تَهْدُرُ العاصفةْ...
سأظلُّ أردِّدُ أسماءَكم
وسماواتِكم
سأكونُ الأمينَ على ما تركتُمْ.
أكونُ أميرَ الهَباء...

ـ ٥ ـ

وفي الليلِ
في آخر الليلِ
تأتي إليَّ الطيورُ
وتأتي ذئابُ البراري مبلَّلةً بالندى
وتأتي الغزالةُ...
.....

. . . . . .

. . . . . .

في آخِرِ الليلِ
يأوي إلى غاريَ السَّبعةُ الشُّعَراء. . .

عمَّان، ٢٩/ ١١/ ١٩٩٤

شجرةُ البرقوق عند السياج
مزهرة،
لكنّ الأوراق لم تتفتّحْ بعدُ. . .
القصيدة تتأخر.

هذا العشب الذي يندفع في تراب الحديقة
لا يكترث،
وأنا الذي سأقطعه من أجل الأشجار الهرمة. . .
الربيعُ قصيرٌ دوماً.

التينُ فاجأنا: أخضرَ صُلباً
وأمس، حتى أمس
لم يكن على الشجرة إلا الورق. . .
الليلُ ذو أسرار.

شجرةُ اللوز
من أين جاءتها أزهارُ الثلج؟
شجرةُ اللوز
من أين جاءتها المناديل؟
المنفيّ لا يعرف الفصول.

السلحفاة وحيدةً
تبدأ دورةَ اليومِ في الحديقة.
السلحفاة مسرعة
لكن، إلى أين؟
الرسائلُ انقطعت منذ الشتاء.

الصبّار لا يضحك
الصبار يكتم أغنيته شائكةً
في قلبه.
وبغتةً، تنفجر الزهرة...
الصبّار، أيضاً، لا يعرف الفصول.

ها هي ذي زهرة السفرجل
حمراء، ملتفّة بالبنفسج. . .
وهكذا سيكون اللبّ
على طاولة الشتاء.
المرء، قد يتعلم.

لماذا جئتَ، مبكراً، أيها النحل؟
ليس في حديقتي إلا أزهار الصبّار. . .
أيها النحل
هل سيكون حتى العسلُ مُرّاً؟

عمّان، ٢١/ ٣/ ١٩٩٥

الحُريّة

لم أكُ سكرانَ
ولا كنتُ قريباً من «بار الجرَّةِ»
أو بارات جنود الـ U.N الأخرى.
لم يكن الوقت مساءً
أو منتصفَ الليلِ...
لقد كان ضحىً، وأنا أتمشَّى وحدي
فرِحاً كنتُ لأني أتمشَّى وحدي
في قيظ الجزر الإغريقيةِ...
.....
.....
.....
لكنَّ امرأةً غمزتني وهي تغني في شرفتها
.....
.....
.....
والآن
أنا، منذ ثلاثٍ وثلاثين سنةْ

في شقّتها . . .
أغلقتِ البابَ
وأخفتْ عني الشرفةَ
والأغنيةَ . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الآنَ
سأحلمُ لو كنتُ السكرانَ
ولو كنتُ قريباً من «بار الجرَّةِ»
أو بارات جنود الـ U.N الأخرى . . .

عمّان، ٥/ ٧/ ١٩٩٥

التذاكر

القطارُ الذي أردناهُ
قد غادرَ
والبيتُ، ذلك المنحني في البُعدِ
قد غادرَ. . .
والنخلةُ التي نبتتْ في البيتِ
قد غادرتْ.
فمن أين تأتيكَ البطاقاتُ كُلُّها؟
اليومَ
واليومَ
وتلك التي سنُدرِكُ فيها
مقعداً في القطارِ
والبيتِ
والنخلةِ التي نبتتْ في البيتِ
لا بأسَ. . .
كلُّ بيتٍ قطارُ.

عمّان، ٤/ ٧/ ١٩٩٥

موسيقى غرفةٍ

سوف آتي
إذا ما أقام المغنِّي صلاتي
قريباً من النهرِ. . .
كان المغنّون لا يعرفون الأغاني
المغنّون لا يعرفون المياه
المغنّون لا يعرفون الجنون
المغنّون كانوا الجنودَ
المغنّون لا يقرأون كتابَ الأغاني
المغنّون كانوا كلابَ الأغاني.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
وفي غفلتي سوف آتي
إلى النهرِ. . .
وحدي سأتلو صلاتي
لعلَّ المغنِّي يجيء

لعلّ المغنِّي سيُرهِفُ، حتى ولو كان خلف الشجيراتِ، سمعا
لعلَّ المغنِّي يضيء . . .
لعلّ المغنِّي يقيم، وحيداً، صلاتي.

عمّان، ١٨/ ١٠/ ١٩٩٥

إنصات

الآنَ
أنا متَّسعُ العينين
بعيدٌ عن منتصف الليلِ
وأبعَدُ عن خطوات الفجرِ. . .
أُحدِّقُ في الصورةِ، حيث الحائطُ أبيضُ
والأشجار وراء زجاج المطبخ سود. . .

● ●

في اللحظةِ
في هذي اللحظةِ
في البغتةِ
أسمعُ شمعاً يقطرُ في ماءٍ
ماءً يقطرُ في شمعٍ
أسمعُ أشجاراً تقطرُ أشجاراً
أسمعُ ماءً يقطرُ أسماءً
أسمعُ أسماءً تقطرُ ماءً
أسمعُ في الهدأةِ دمعاً يقطرُ
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أسمعُ في الصمت دماً يقطرُ

أسمعُ بغداد تئنّ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أسمعُ نبضي.

عمّان، ٥/ ١٠/ ١٩٩٥

خريفٌ متأخر

الخريف
يتأخرُ . . .
والبرقوقةُ، حَسْبُ
تنفض أقراطاً ذهباً عند محيط الحنفيةِ
حيث القطةُ تشربُ . . .
لا أحد اليوم سيأتي
أعرفُ من غيم الفجر، عميقاً، أني سأظل وحيداً
ووحيداً
أسأل عن ليل شتاءٍ يأتي
عن منقار رذاذٍ عند الشبّاكِ
عن الجمرة في زاويةٍ
في زاويةٍ يسرى
من هذا القفص المتستِّرِ بالأضلاعِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

إلى كم سأظلُّ هنا
أنتظرُ القطرةَ
أنتظرُ الجمرةَ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أنتظرُ الحفرةَ ذات مساء؟

عمّان، ٢٨/ ١٠/ ١٩٩٥

نصيحة

وشوشتُ للمطر الذي يهمي رذاذاً:
لستَ لي
فأنا شقيقُ البحرِ
لي الأمواجُ هادرةً
ولي ما تفعلُ الرمْضاءُ بالأعشابْ
أو ما تفعل الأنواء بالأخشاب
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
يا أيها المطرُ الذي يهمي رذاذاً:
دَعْكَ. . .
لا تنسجْ حريرَكَ لي قميصاً
دَعْكَ. . .
لا تخلعْ على جسدي عباءتَكَ الحريرَ
ولا تحاولْ. . .
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

زهرةُ الصبّارِ لي

وقميصُهُ

وسقيفةُ الحطّابْ.

عمّان، ٤/ ٧/ ١٩٩٥

اللّعنة

هذه الأرضُ، أرضُنا
لم نُمَتَّعْ بينابيعها، ولم نمشِ فيها مَرَحاً. . .
أرضُنا التي ما مددْنا غُصناً نحوها
لنلمُسَها، حتى أتانا السيفُ
الذي يبترُ الكفَّ، وأغصانَها، وأُولى الأغاني
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
فاتركاني، يا صاحبَيَّ
اتركاني. . .
ولأَعُدْ نحوها،
وإن بَترتْ كفِّي، وأغصانَها، وأُولى الأغاني
ليس لي غيرُها
وليس لها غيري
فيا صاحبَيَّ. . . قُودا حصاني، وامضِيا،
إنني عرفتُ مكاني

هو مثواي
جُنَّتي
ومَآبٌ لن أرى فيه جَنّتي. . .
فاتركاني
وامضِيا
وانسَيا رسومَ المكانِ،
هذه الأرضُ، أرضُنا. . .

عمّان، ٢٦/ ١٠/ ١٩٩٥

علامات

في ليالٍ كهذهِ،
أُرهفُ السمعَ إلى السمعِ:
آخرُ القطرات انسربتْ
آخرُ القطارات في الدنيا توقفتْ.
ليس لي أن أعود إلا إلى مكتبتي
أُرهفُ السَّماعَ:
لماذا؟
ولماذا يئنّ في العتمة الموتى؟
لماذا يدور في الغصنِ نُسْغٌ من رصاصٍ وزئبقٍ؟
أيُّ غيمٍ بمعطفي قد مضى؟
أيُّ قنانٍ تدحرجتْ بين رِجليَّ؟
أكيدٌ أن السماء التي أعرفُ لمّا تزلْ. . .
ولكن، لماذا لا أرى عُمقها؟
الجبالُ؟
نسيتُ اليومَ أنّ الجبال تعلو
نسيتُ الشوكَ

والماعزَ . . .
أعني، نسيتُ رائحةَ الأشواكِ
والماعزِ . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هل كنتُ في ليالٍ كهذه؟
أين كنتُ؟

عمّان، ١٢/ ٢/ ١٩٩٦

ـ ١ ـ

أمسِ
شربنا سُمّاً في «قصر البلّور»
وأكلنا جبناً أسود
وضفادعَ. . .
حتى كدنا نتقافزُ بين صخورٍ ومياه.

ـ ٢ ـ

أمسِ
سهرنا في البالكونةِ
منطرحينَ على أرضيّتها، نترطَّبُ. . .
كان لساني خشباً
وقميصي أصباغَ شفاه.

ـ ٣ ـ

أمسِ
رأينا لقطاتٍ من فيلمٍ أميركيٍّ
فعرفنا أنّ عواصمنا أيضاً
فيها فقراءٌ
وزُناهْ.

ـ ٤ ـ

أمسِ
تحدثتُ إلى تلك المرأةِ
كانت تخطئ في جمع الأعدادِ
من الواحدِ حتى التسعةِ
حتى عِشرةِ من تهواه.

ـ ٥ ـ

أمسِ
غسلتُ قميصي الأسودَ
(ليس لديّ سواه)
ليرفرفَ في أعلى المبنى
بيرقُ قرصانٍ
(ليس لديّ سواه).
وأخيراً. . .

ـ ٦ ـ

أمسِ
مددتُ يدي نحو يدي
لأضمَّ بها نجماً
أخطأَ في هذا السطح مداه.

دمشق، ٤/٨/١٩٩٥

رحلة الطائر الأخيرة

حينما أدخلُ عشَّ الأرضِ
مقروراً
ومسروراً
ويسترخي جناحاي
وأُرخي الجفنَ كي لا أبصر الأشجار تنأى مرّةً أخرى
فلا تبكي عليّ!
قلتُ: لا تبكي...
وإن شئتِ اذكري أنّ جناحيَّ
هما الماءُ
ولا ماء بلا موجٍ
ولا موجَ بلا منكسَرٍ
.....
.....
.....
ها أنذا أرقدُ
مقروراً

ومسروراً
بلغتُ الشاطئَ الآخرَ.
لا تبكي!
فحتى صوتُ أنفاسيَ لن يأتي إليّ...

دمشق، ٨/ ٢/ ١٩٩٥

هاجس الأديم

من هذه الأحجار، أعرفُ أن شمساً في عروق الأرض تبدأُ.
ربما من قبل آلاف السنين، وربما من قبل مليونٍ. . .
تظل الشمس نائمةً بكل بهائها
مخبوءةَ الخُصلاتِ. . .
ترسل خصلةً يوماً إلى نبعٍ
وترسل خصلة يوماً إلى جبلٍ ليفتح صدرَهُ. . .
والشمسُ نائمةٌ
وفوق أديم هذي الأرض، تسعى الناسُ والأشجارُ
ثم تغور تحت أديمها لتكون شيئاً يشبه الأحجار
شيئاً سوف يلمس نورَ شمسٍ في عروق الأرض نائمةٍ. .
ليطلع، ربما من بعد آلاف السنين
شجيرةً
أو زهرةً
أو كأس خشخاشٍ
ومن يدري. . .
لعلّ فتىً جميلاً مثل يوسفَ

سوف يطلُعُ
بيننا متهلِّلَ القسماتِ. . .
من يدري
لعلّ المرتجى يأتي
ومن يدري
فربّتما انفجرنا، بغتةً، شمساً!

عمّان، ١٢/٢/١٩٩٦

حيّ الأكراد

أوّلاً: تستيقظ القطةُ
حتى قبل أن يندفع الخطّافُ في الرقصةِ
بين السقفِ والريحِ. . .
هي القطةُ
مستنفرَةً
منفوشةَ الذيلِ
ستلقى صيدَها. . .
العصفورَ في أعلى عمود الكهرباء الخشبِ
الصرصارَ عند النبعِ
أو قد تهبطُ النعمةُ هذا الصبحَ:
قد يمرقُ فأرٌ. . .
ثانياً: تنطفئ الأضواءُ في السفحِ
وبيتاً، ثم بيتاً. . . تختفي ساحرةُ الليلِ
ويأتي الجبلُ الأجردُ بالأتربة الأولى
وقصديرِ السماواتِ
وما نغفلُ عنهُ. . .

ثالثاً: يستيقظ الكرديّ في سطحٍ
ويطوي، هادئاً، ما افترشَ الليلَ
ولا يترك في السطح سوى شرواله
منتفخاً
يَخفق،
من حبل الغسيل. . .

دمشق، ٢٢/ ٢/ ١٩٩٤

صباحٌ ما

المنفيون
يحبون ملابسهم
ونباتاتِ الزينةِ، والقططَ . . .

المنفيون
يحبون اللغة الأخرى
ومواعيد قطارات الليلِ . . .

المنفيون
يحبون حساباتٍ ما كانوا ليحبّوها
وروايا‌تٍ
راياتٍ
ما كانوا لـ . . .
المنفيون

سوف يفيقون صباحاً ما
ليروا أنهمو منفيّون
حتى عن معنى المنفى. . .

عمّان، ٤/ ٧/ ١٩٩٥

تفاؤل

ـ ١ ـ

لمن سوف نترك تلك البلاد؟
لأبنائها، وهمُ الطائعون؟
لأحفادهم، وهمُ الغائبون؟
لأسلافنا؟
نحن لم نرفع الرأسَ يوماً بأسمائهم. . .
ليس إلا نبيٌّ لنا بينهم،
فلمن سوف نترك تلك البلاد؟

● ●

لا أقول البلادُ طائرةٌ مثل كرة
لا أقول البلادُ مقطوعةٌ مثل خيط جنديٍّ في إبرة
لا أقولُ البلادُ منسيّةٌ مثل أسماء نبت الربيع
لكني أحدِّثُ عن أخبارها:

● ●

لها أيطلا ظبيٍ، وساقا نعامةٍ
ولكنها في الوقفةِ ـ العزِّ تعرجُ

كتائبُها العشرون في الرملِ،
والدجى مصابيحُها
والخبزُ، كالبدر، بهرجُ
ألا لا ألا إلاّ ألا لا ألا ألا
ألا إن نار الحيّ بعرٌ وعرفجُ

ـ ٢ ـ

لمن سوف نترك تلك البلاد
البلادَ التي قد عرفنا
ولم تعترف ببنوَّتنا؟
أين كنّا بها، يوم كنّا بها؟
كيف يذكرها الطفلُ
والمهدُ زنزانةٌ؟
أيُّ معنىً لتلك البلاد؟

● ●

لا مغنِّيَ في العراق
كلهم ينوح مثل ندّابة السلَف
الأوتار مقطوعة
لكنْ، ثمَّت، دائماً، قردٌ أصلعُ المؤخرّة
يضيف وتراً مُزوَّراً إلى عود زرياب.

● ●

بليتُ، بِلى الأطلال، إن لم أقف بها
وقوفَ أسيرٍ فَرَّ في الليل آسرُهْ
يقدِّمُ رِجْلاً، ثم يرتدُّ مُجفلاً
وقُدّامَه أرباضُهُ ودواسِرُهْ
لقد سئم السجّانُ أثوابَ عيشهِ
فَهَمَّ، ولكنَّ السجينَ يُعاوِرُهْ.

ـ ٣ ـ

لمن سوف نترك تلك البلاد؟
ومن قال إنّا سنتركها. . .
سوف نأتي إليها، لنأتي عليها
لنسحبها من ضفائرها قبل أن تحتفي بدم البئر
أو قبل أن تحتفي
في سُراها،
البلاد التي أوجعتْنا طويلاً. . .

● ●

أريد أن أبدِّد هواء الخنادق
أريد أن أهَبَ مُدمنَ الكحول غزالةً
أريد أن أثمل بالماء الذي هو ماء
أريد أن أحبَّ. . . .

● ●

تَلَفَّتُّ نحو الحيّ، حتى وجدتُني
أراجعُ أهلَ الحيّ، نهراً ومنبعا
أقولُ لهم: ما أطيبَ العيشَ...
إنما غضارةُ طيبِ العيش أن ننثني معا
وأن ننحني للغصنِ
كالغصنِ
رفقةً...
وأن نسألَ الأعناقَ أن تترفّعا.

عمّان، ١٢/٢/١٩٩٦

مفتاحُ الانفرادية

ـ ١ ـ

أيُّ بلادٍ بلادُنا؟
سطحُ القمر، أم الجحيم؟
هذه القُزَعُ البيضُ
بمَ هي مؤْذنةٌ؟
ربما، بأننا سنظل الحالمينَ بالماء.
نسينا أن السماء زرقاء
نسينا أن لنا سماءً إلا في الليل.

ـ ٢ ـ

هذه الصحراء، صحراؤنا
الرملُ والريحُ أذكى من فازاريللي.
البحرُ رملٌ
والسحابُ طيشٌ.
الأفق نعرفه
لأنه مَوطئُ أقدامنا.

والأرضُ سماءٌ قاسيةٌ
فما حاجتُنا للآلهة؟

ـ ٣ ـ

الآن تأتي الخطوطُ والدوائر.

١٠/ ١١/ ١٩٩٥
في الفضاء إلى مسقط
طائرة الـ Gulf Air

العربُ البائدة

ما كانت تلك البلدانُ، لنا، يوماً
نحن أتيناها خطأً
ثم أقمنا سنواتٍ مرتحلين بها
وسنيناً في طرقات الأطلس مرتحلين بعيداً عنها
لكنْ
ما أحببنا يوماً أن نرحل في الحلم إليها.

كانت تلك البلدانُ تجيء على عرباتٍ ريشٍ
وتدقُ الأبوابَ مساءً
دقّاتٍ سبعاً ببنادقها
دقّاتٍ سبعاً بعظام بنيها
دقّاتٍ سبعاً بأكفٍّ تستجدي ماءً
دقّاتٍ سبعاً برئاتٍ تسألنا، نحن المخنوقين، هواءً
سنقول لها: لن نفتحَ!
لكنّ البلدان تُراوغنا
وتحاول أن تخلع لوحَ زجاجٍ
كي تدخل في مكتبة الأشباحِ

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

هدوءاً يا سُعلاةُ

هدوءاً يا مرآةُ

هدوءاً. . .

إنكِ ـ منذ رحلْنا ـ في مكتبة الأشباح.

عمّان، ١٦/ ١٠/ ١٩٩٥

America, America!

يا ربَّ، احفظْ أميركا
موطني، موطني اللذيذ. . .
God save America
My home, sweet home!
الجنرال الفرنسي، الذي رفع الراية مثلثة الألوان
على «نقرة السلمان» حيث كنتُ سجيناً، قبل ثلاثين عاماً. . .
في منتصف الاستدارة تلك
التي قصمت ظهر الجيش العراقي،
الجنرال الذي يحب نبيذ سانت إميليون
سمَّى «نقرة السلمان» حصناً. . .
الجنرالون لا يعرفون من أديم الأرض سوى بُعدَين:
ما نتأَ، حصنٌ
وما انتسطَ، ساحةٌ.
يا لجهل الجنرال!
لكنّ «ليبراسيون» كانت أعرف بالتضاريس
فالفتى العراقي الذي احتلَّ صفحتها الأولى
كان متفحماً وراء مِقود الشاحنة

على طريق الكويت ـ صفوان
بينما أجهزة التلفزيون: غنيمةُ المهزوم وهويّتُه
كانت سليمة في الشاحنة، كأنها في واجهة مخزن
بشارع ريفولي.
القنبلة النيوترونية ذكيةٌ جداً
إنها تميز بين «هو» و«هويّة».
يا ربَّ، احفظْ أميركا
موطني، موطني اللذيذ...

God save America

My home, sweet home!

BLUES

كم سأمشي إلى ساكرمانتو
كم سأمشي إلى ساكرمانتو
كم سأمشي لأبلغ بيتي
كم سأمشي لأبلغ بنتي
كم سأمشي إلى ساكرمانتو!

■

منذ يومين، لم يَسْرِ في النهرِ مركبْ
منذ يومين يومين يومينِ
يا عسلي، كيف أركبْ؟
إنني أعرف النهر

لكنْ، ولكنْ، ولكنْ، ومن قبلِ يومينِ
لم يسرِ في النهر مركبْ

■

لا. لَـ. لا. لا. لَـ. لا
لا. لَـ. لا. لا، لَـ. لا
الغريب يخاف
لا تخفْ يا جوادي
لا تخف من ذئاب البوادي
لا تخفْ فالبلادُ بلادي
لا. لَـ. لا. لا. لَـ. لا
لا. لَـ. لا. لا. لَـ. لا
الغريبُ يخاف.
يا ربَّ، احفظْ أميركا
موطني، موطني اللذيذ...
God save America
My home, sweet home!

أنا أيضاً أحبُّ الجينز والجاز وجزيرة الكنز وببغاء جون سيلفر ونوافذ نيو أورليانز
أحبُّ مارك توين ومراكب المسسبي وكلاب أبراهام لنكولن أحب حقول القمح والذُّرة ورائحة التبغ الفرجيني لكني لستُ بأميركيّ أيكفي أنني لست بأميركيّ حتى يعيدني طيار الفانتوم إلى العصر الحجري؟

Back to siome-age!

لا البترولَ أريدُ ولا «أميركا» لا الفيلَ أريدُ ولا الحمار اتركْ لي أيها الطيار بيتي المسقوف بالسعف وقنطرة الجذوع لا أريد البوابة الذهبية ولا ناطحات السحاب أريدُ القرية لا نيويورك لماذا جئتني من صحراء نيفادا أيها الجندي المسلّح حتى الأسنان؟ لماذا جئتَ إلى البصرة البعيدة حيث السمك يبلغ عتبات البيوت؟ الخنازير لا ترعى هنا لديّ فقط تلك الجواميس التي تمضغ كسلى نيلوفرَ الماءِ اتركني أيها الجنديّ اتركْ لي كوخ القصب الطافي وحربة الريش خذْ طيور الحديد المزمجرة وصواريخ توماهوك لست الخصيمَ

أنا المخوِّض حتى ركبتيَّ في مناقع الرزّ

اتركني ولعنتي

لا أريد قيامتك.

يا ربَّ، احفظْ أميركا

موطني، موطني اللذيذ...

God save America

My home, sweet home!

أميركا!

لنستبدلْ هداياكِ

خذي سجائرك المهرَّبة

وأعطينا البطاطا.

خذي مسدس جيمس بوند الذهب

وأعطينا كركرة مارلين مونرو.

خذي حقنة المخدِّر المرمية تحت شجرة
وأعطينا زجاجة المصل.
خذي خرائط السجون النموذجية
وأعطينا بيوت القرى.
خذي كتب مبشِّريك
وأعطينا ورقاً للقصائد التي تهجوكِ.
خذي ما لا تملكين
وأعطينا ما نملك.
خذي أشرطة البيرقِ
وأعطينا النجوم.
خذي اللحية الأفغانية
وأعطينا «لحية والت ويتمان الملأى بالفراشات».
خذي صدّام حسين
وأعطينا أبراهام لنكولن!
أو لا تعطينا أحداً.

■

الآن
أنا أنظرُ عبر الشرفة
عبر سماءِ الصيفِ، الصيفِ الصيفيّ،
دمشقُ تدور، مدوَّخةً، بين هوائيات التلفزيون
ثم تغور، عميقاً، في حَجَر الأسوار

وفي الأبراجِ
وفي أرابيسكِ العاجِ،
تغور، بعيداً، عن «ركن الدين»،
وتغيب عن الشرفةِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
والآن
أتذكرُ أشجاراً،
نخلةَ مسجدنا في البصرةِ، في أقصى البصرةِ:
منقارَ الطيرِ
وأسرارَ الطفلِ
ومائدةَ الصيفِ
النخلةُ أذكرُها
أتلمَّسُها، وأكونُ بها، حين هوت سوداءَ بلا سعَفٍ،
حين هوت قنطرةً من نَحْتِ البرقِ.
وأذكرُ فحلَ التوت
يومَ تهاوى، يتقصَّفُ، مذبوحاً تحت الفأسِ. . .
ليمتلئ الجدولُ أوراقاً
وطيوراً
وملائكةً

ودماً أخضرَ. . .

أذكرُ كيف أسّاقَطَ زهْرُ الرمّان على الأرصفةِ.

(الطلابُ يقودون تظاهرةَ العمالِ)

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

الأشجارُ تموت

مهدَّمةً

دائخةً

لا واقفةً. . .

الأشجارُ تموت.

يا ربَّ، احفظْ أميركا

موطني، موطني اللذيذ. . .

God save America

My home, sweet home!

كلّنا، لسنا أسرى، يا أميركا

وجنودك ليسوا جندَ اللَّه. . .

نحن، الفقراءَ، لنا أرض الآلهة الغرقى

آلهةُ الثيران

آلهة النيران

آلهة الأحزان المجبولة صلصالاً ودماً في أغنيةٍ. . .

نحن، الفقراءَ، لنا ربُّ الفقراء
الطالعُ من أضلاع الفلاّحين
الجائعُ
والناصعُ
والرافعُ كلَّ جبين. . .
نحن الموتى، يا أميركا
فليأتِ جنودُكِ!
من يقتلْ ميّتاً يبعثْهُ. . .
ونحن الغرقى يا سيدتي
نحن الغرقى
فليأتِ الماء. . .

دمشق، ٢٠/٨/١٩٩٥

الوردة والقمر

«أغنية»

تعالَ

تعالَ أنتَ، تعالَ أنتَ، تعال أنتَ

تعالت الأعشاب في الوادي،

تعالى الطينُ في الفخّارْ

تعالى التينُ

وامتلأت جِرارُ الماءِ بالماء الذي فاضت جداولُهُ.

■

مع النُّعمى تعالَ

تعالَ أنتَ، تعال أنتَ، تعال أنتَ

تعالت الأسماءُ في طبلِ الزنوجِ هناكَ

أعلى التلِّ

واندفعتْ. . .

تعالَ.

■

تعالَ أنتَ

تعالَ أنتَ

تعالَ.

وردٌ في قميص النَّبتِ

وردٌ في عروق البنتِ

وردٌ

وردةٌ في البيت، واحدةٌ

فهل تأتي لتقطفَها...

لتعتليَ السياجَ؟

تعالَ

تعالَ أنتَ

تعالَ أنتَ

تعالَ... يا قمرَ الجنوب...

باريس، ٥/ ٢/ ١٩٩٥

حانةُ القردِ المفكّر

(١٩٩٧)

استقبال

ثلجٌ على الصبّار ينزلُ، ثَمَّ غمغمةٌ ومقهى، نجمةٌ ومعسكراتٌ، ثوبُ قدِّيسٍ تَناوشَهُ ذئابٌ، ذاتُ أحذية من الجلد الأنيقِ. وكيف تبتردُ السلاحفُ في سواحل حضرموتَ؟ البدرُ يومئ عند قاع النهرِ، والفتياتُ يصرخن انتشاءً. لا أريد رصاصةً. حظي من الدنيا الحوائطُ لصْقَ ظَهري. كم يكون العشب نضْراً في مَساهب شَهْرَزُورَ! رأيتُ حبلاً قد تدلَّى. أين يوسفُ؟ كنتُ في أسواق تمبكتو... وضعتُ. سفينةٌ جنحتْ بنا ليلاً على ضحضاح جيبوتي...

موقاديشو تقدمُ لحمَ ضأنٍ للكواسجِ(*). لستُ أعرفُ وجهةً. لي قطعةٌ صارت تحدثني أخيراً عن حياتي. أيها الأبدُ الذي ينأى: لماذا خنتني أيضاً؟ سأعرفُ كيف أرتشفُ العشيّة قسوةَ الأزهار. ما طعمُ الخديعة؟ مرةً سافرتُ مأخوذاً بأغنيتي. قطاراتُ الجنود تمرُّ... مُرَّ. تمرُّ. مُرَّ. تمرُّ. مُرَّ... الثلجُ في موسكو يُسَخِّنُ أدمعي. لا خيرَ في الرّعيان إن حلّوا وإن رحلوا. المدائنُ تستحيلُ قرىً بهزّة إصبعٍ. خبزي من الرزّ الثخينِ، وملحُ أسماكي رمادٌ. لا

(*) الكواسج: أسماك القرش.

سبيلَ لكي أكون ضجيعَها ليلاً بمبنى الطالبات. بَلى... نهارَ السبت تغلقُ بابَ غرفتها عليَّ. سأحرقُ الأوراقَ. قد يأتي المفوَّضُ. كنت أنعسُ في قطار الليل مغلولاً. وكان المقعد الخشبيُّ طائرتي التي سقطتْ. لكِ التهليلُ يعلو با فتاة الحانة البحرية. الغرباءُ عادوا من سفار الماسِ. فوق صخور «حَجَّةَ» تستَريح نسورُ حِمْيَرَ. مرّةً أوشكتُ أن أجد الهلالَ الطفلَ في كفّي. لماذا غادرَ البشرُ الحديقةَ؟ لا أريد يديك. لا تلقي إليّ بحبلكِ المجدولِ من خرَق. وجدتُ اليومَ منجَرَفاً:

فأهلاً بالحياة... ومرحباً بعشيقتي الأخرى.

عمّان، ٢٣/ ٣/ ١٩٩٧

الهدوء

إهدإ الآنَ
إهدأ ولو ساعةً
واتَّركْ للشرايينِ عاداتِها . . .
أنتَ أرهقتَها،
وهي لا تتحملُ . . .
أرهقتَها
فاهدإ الآنَ
مَسِّدْ غضونَ الجبين التي ارتسمتْ منذ عشرين عاماً
ولا تلتبسْ في سؤالْ
ولا تلتمس جلّناراً بوادي الرمالْ
أنتَ لن تَبْرأ الكونَ من طين كفّيكَ
لن ترسمَ النجمَ أحمرَ فوق البيارقِ
لن تغتذي بالرحيقِ . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

اتّئدْ

واهدإ الآنَ

وانظرْ إلى مطر الياسمينةِ أبيضَ

انظرْ إلى الظلِّ

قبل فوات الأوان.

عمّان، ٢٣/ ١٠/ ١٩٩٦

السّفارة

«سوف أمضي إليهم
حين يعلو الضحى في أواسطِ آذارَ. . .»
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
واليومَ، جاء الضحى عالياً:
أنتَ تقطعُ خطَّ المشاة لكي تبلغَ السورَ
حيث رؤوسُ الشجرْ. . .
ثم تخطو، يميناً، إلى النافذةْ
(شبكٌ من حديدٍ صدئ).
لكَ أن تتملَّى من النافذةْ
وجهَ مَنْ سوف يضغط زراً لينفتح البابُ. . .
تدخلُ:
شخصان، تُنهيكَ خطفاً، عيونُهما.
ثم تدخلُ
ـ عبر الممرّ المكهربِ، عبرَ العيونِ التي صُوِّبتْ جيّداً ـ

بابَ عشتارَ،
ها أنتذا
تهبطُ الدّرجاتِ
لتلقاكَ أرشكيجالُ(*) التي تتبسَّمُ

ها أنتذا
تتلفَّتُ في السرِّ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
بابٌ، يُرَدُّ وراءكَ، في لحظةٍ:
أنتَ تهوي، عميقاً، بِوادي الذين أهانوا وهانوا
ترى ما ترى
ثم تهجسُ أنك قد لا ترى ما لا ترى. . .
قد ترى الغَلْق يُطْبقُ في لحظةٍ،
قد تقررُ أرشكيجالُ التي عبستْ فجأةً:
لن يعود. . .
. . . . . .
. . . . . .

(*) أرشكيجال: أخت عشتار، وملكة العالم السفلي، عالم الموتى.

. . . . . .

ثم ماذا؟

أليس السفرْ

ينتهي بجواز السفرْ؟

عمّان، ١٧/٣/١٩٩٦

حوار مكتوم

قلتُ:
أبعُدُ، هذي العشيّة، عن مهرجان المغنّين
مكتفياً بالرنين الذي أتلمّسُ
في إِبرِ النحلِ
أو شوكةِ التمتمةْ

هكذا أبتني غرفةً
ليس فيها مكبِّرُ صوتٍ
وإذ يهبطُ الصوتُ حتى القرار
أحاولُ أن أرتقي سُلّمَهْ
أنت تعرفُ كيف يكون الأسى واضحاً
وهو منعقدٌ بين عينيكَ. . .
لا بأسَ،
لكنْ. . .
أتعرفُ أنَّ الأسى رعشةٌ، حسبُ
أنَّ الأسى لا يكلِّمُ من كَلَّمَهْ؟

كيف نمضي، إذاً؟
لا الطريقُ يؤدِّي
ولا ناسكُ الكهفِ يمنحنا في متاهتنا أسهُمَهْ
واللسانُ الذي كان. . . ينعقدُ الآن
والنجمُ يخفتُ
والسهبُ لا يذكر الحمحمةْ
كيف نمضي، إذاً؟
لا تقلْ: كيفَ:
وانظرْ إلى الماء، تلقَ السماءَ،
إلى السهمِ
والسُّمِّ
تَلْقَ السِّمةْ.

هل ترى الراقصين يدورون في ليلة العيدِ
والسهلُ يوقدُ نيرانَهُ
في وضوح المساء؟
ابتعدْ. . .
وامضِ حتى النهاياتِ
حتى احتضاركَ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
حتى تبلِّغكَ السِّدرةُ، القمّةَ المبهمةْ.

عمّان، ١٢/٦/١٩٩٦

الناطور

يجلسُ تحت غصونِ التينةِ
ملتفّاً بغمامتهِ
مختصراً من قامته
وهو يلفُّ التبغَ الهولنديَّ. . .
ويختلسُ النظراتِ
إلى آخرِ ما يَسَّاقَطُ من أوراق التينْ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سوف يجيء مساءٌ آخر
فيعود إلى غرفتهِ
ويُرَتِّبُ من وضعِ حَشيَّتهِ
ولسوف يرى إذ يغمضُ عينيهِ
ملائكةً بملابسِ بحّارةْ
ونساءً في لوحةِ خمّارةْ
ورجالاً يمضونَ إلى الجنّةِ بالأغلالْ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أحياناً يتساءلُ:

ما معنى أن يجلس تحت غصونِ التين

وأيلولُ أتى

والتينةُ ليس بها حبَّةُ تينْ؟

عمّان، ١٦/٩/١٩٩٦

المحاولة

كان فيليب المقدونيّ
أسرعَ من حَلَّ سؤالاً في العالم
قال: أظلُّ مع السيف
وأنامُ مع السيف
حتى تبيضَّ عظامي
ليظلَّ السيف...

.....

.....

.....

لكنَّ الإسكندر
لم يتعلمْ ما يتعلمهُ الابنُ من الأبِ.
قال الإسكندر:
سأطوفُ العالم
ورفاقي فرسانٌ وفلاسفةٌ
أبحثُ عن أسئلة العالم.

.....

.....

. . . . . .

الإسكندر

وهو يُطَوِّف محترقاً بسؤال العالم

ظلَّ وحيداً

ظلَّ بلا قبرِ

ظلَّ بعيداً. . .

لم يتركْ إلا صورتَهُ

وجهَ صبيٍّ

حاولَ أن يبصرَ هذا العالم.

القاهرة، ١٢/ ١١/ ١٩٩٦

رباعيّة الميناء

ـ ١ ـ

من شرفةِ قَيْلٍ مخلوعِ
كنتُ أحاولُ أن أستقبلَ ما يرسلُه نحوي البحرُ
وثَمَّ مبانٍ أربعةٌ
تتمدَّدُ، قائمةً، بين شواطئ عينيَّ وبين البحر. . .
أنا كرسيٌّ يتضعضعُ
مُديةُ صيّادٍ تصدأ
حَذّاءٌ بين حُفاةٍ
حافٍ يتراكضُ بين المنتعلينَ نُضاراً،
أنا:
من شرفةِ قَيلٍ مخلوعٍ أبني مملكةً
لكنَّ البحر هناك
وثَمَّ مبانٍ أربعةٌ تفصلني عنهُ. . .
الآن
أحسُّ به، بأنامله فوق جبيني
وأحسُّ به

يضفرُ تاجاً لي، من هَبَبات الريح
ضفيرةَ غصنين ينوسان على وجهي،
هبّةَ ريحٍ باردةٍ
هبّةَ ريحٍ ساخنةٍ
وأنا، من شرفةِ قَيلٍ مخلوعٍ أرقبُ مملكتي:
أغصانَ البوغانفيلاّ
أغصانَ الدُّفلى
والنبتَ المتسلقَ ذا الأزهارِ البيض
وجذورَ الصبّار
وذاك البحرَ المتحصِّنَ خلفَ مبانٍ أربعةٍ
وأنا، من شرفةِ قَيلٍ مخلوعٍ أرقبهُ
يهدأ في عينيَّ المغمضتين. . .

ـ ٢ ـ

أكيدٌ أنّ الشاطئَ خالٍ
وأكيدٌ أنّ سياجَ المقهى يترنَّحُ. . .
أنّ صخورَ الصيادين تئنُّ من الأمواج
وأنّ الصيادين مضوا منذ سنين. . .
وأن رذاذاً ما طاولَ ساريةً تترنّحُ
في قارب صيد ينضَحُ،
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ثَمَّ مبانٍ أربعةٌ

تتمدَّدُ، قائمةً، بين شواطئ عينيَّ وبين البحرِ

ولكني من شرفة ذاك القَيلِ المخلوعِ

من الشرفة

من أقصى الشرفة إيّاها

أبصرُ ما يرسلُه البحرُ إلى الأغصان

أغصانِ البوغانفيلاّ

أغصانِ الدفلى

وأغصانِ النبتِ المتسلّق ذي الأزهار البيض

الآن، أرى أذرعةً خُضراً

وعيوناً خضراً

ونجوماً بيضاً

تجتازُ مبانيَ أربعةً

تجتازُ سدوداً أربعةً

وتُلوِّحُ، دامعةً، للبحرِ

(يباغتني مطرٌ)

وأنا:

القَيلُ المخلوعُ

الحَذّاء الملقى بين حُفاة

والحافي بين المنتعلين نُضاراً
أرفعُ في ليلِ المرفأ
قبضةَ بحّارٍ مشدودةْ
وأحاولُ أن أوقدَ قنديلاً
قد لا يبصرهُ في هذا الليلِ سواي. . .

ـ ٣ ـ

كم أزمانٍ مرَّتْ، وأنا في المرفأ
كم من سفنٍ عبرتْ
كم من سفنٍ غبرتْ
كم من سفنٍ غرقتْ
وأنا في هذا المرفأ. . .
عينايَ تغيمانِ لأبصرَ:
أيةُ آفاقٍ تتماوجُ في البُعد؟
وأيُّ طيور؟
أيُّ عرائسَ سوف تغنِّي
لعظامِ البحَّارِ الضائعِ في الأسماك؟
وأيُّ زوابعَ تنتظرُ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

والمرفأ، هذا المرفأ، أعرفُه
منه انطلقتْ أولى عرباتي تحرث قاعَ البحرِ،
وكنتُ فتىً
أبحثُ عن راياتٍ حمرٍ وبلادٍ بيضاء
كنتُ فتىً
لم أتمرَّغْ، بعدُ، على قمصانِ نساء
لم أسألْ بَعدُ،
ولم أسكنْ ذاكَ الموضعَ بين العتْمة والأضواء
الدهشةُ لي
والصيحةُ لي
والموجةُ لي
والأبدُ المتقدمُ تحت الرايات الحمراء
كنتُ فتىً
وزماني كان شبيبتَهُ
والماءُ بكوزي غيرُ الماء.

ـ ٤ ـ

الآنَ
أتمتمُ في شرفةِ هذا القَيلِ المخلوعِ
صلاةَ الغائبِ. . .
ألتفتُ، اللحظةَ فالأخرى

منتظراً، والموجَ المتطامنَ، خطوتَه مرهفةً فوق الماء
منتظراً قامتَهُ
وقميصَ القطنِ
وبسمتَهُ
وجدائلَهُ إذ يتخاطفُها البرقُ
ورايتَهُ المنقوشةَ بالنجمِ وبالملح. . .
الآن:
أقولُ سلاماً للرملِ
سلاماً للبحرِ
سلاماً لفتىً لم يخذلْني
لفتىً جاءَ
ليأخذَني من شرفةِ القَيلِ المخلوعِ
ويُدخلَني مملكةَ البحر. . .

عمّان، ٢٢/١٠/١٩٩٦

تهويمُ المسافر

ـ ٢ ـ

في الضباب الذي يختفي تحته النخلُ والنّملُ
والطّيرُ
فكّرتُ أن أعبرَ النهرَ
أن أجدَ الجسرَ، ذاكَ الرهيفَ
وأن أبلغَ الضفةَ. . .
الصبحُ يهدأ في نومه
والمدينةُ لم يبقَ منها سوى مسربٍ واحدٍ لخُطاي. . .
هنا، قلتُ:
فلأستمعْ، وأنا في سبيلي،
إلى نفَسِ الصبحِ
ولأرهفِ السمعَ. . .
قد يحدثُ الأمرُ في غفلتي
في رطوبةِ هذا الضبابِ
وفي رفّةٍ من جناحٍ يفاجئُ. . .
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

من قالَ إن المدينةَ قد غادرتْ، بغتةً، في الضباب؟

تُرى، هل سأسمعُ منها ولو رقّةً؟

هل سأسمعُ منها ولو حفقةً؟

ثم أنّ المدينةَ كان لها قلبُها، كالمدنْ. . .

هكذا، قد تَحنّ

هكذا، قد تئنُّ قليلا

ربما حدثَ الأمرُ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أو ربما سرتُ حتى النهايةِ

مستغرقاً في الضباب.

ـ ٢ ـ

كان يهبطُ هذا الضبابُ، كثيفاً، كثيفاً

يلا رحمةٍ. . .

كيف يُخمدُ حتى الضفادعَ في الجرفِ

والعشبَ

والقصبَ المتطاولَ. . .
والموجَ؟
هذا الضبابَ الذي ليس يُنبتُ إلا الضباب
انتهيتُ إلى بابه حيثُ يبتدئُ الجسرُ؟
لكنْ:
إلى أين يأخُذني؟
إنني أجهلُ الضفةَ. . .
الناسُ قالوا: الحياةُ ضفافٌ.
فهل أنا في القاعِ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أعرفُ أني مريضٌ
وأعرفُ أنيَ أجهلُ ما ينفعُ المرءَ، أو ما يُضرُّ
وأعرفُ أني بلا سلعة كي أتاجرَ. . .
أعرفُ هذا
ولكنني لا أريدُ المدينةَ هذي وقد أطبقتْ فمَها. . .
لا أريدُ الضباب

ولا أتردّدُ، مثل الشقاة، على حافة القصر
إني امرؤٌ غافلٌ

وغبيٌّ
وأحفظُ عهدي
وأحفظُ للناسِ ما كان عندي. . .
لهذا، سأخطو على الجسر، أولى خُطاي.

ـ ٣ ـ

عند منتصف الجسرِ
ـ كان الضبابُ هنا مطبِقاً وعنيفاً ـ
هجستُ يداً باردةْ
تتلمَّسُ وجهي ـ ارتعشتُ ـ
وفي لحظةٍ، خرجَ الشخصُ من سجنه الأبيضِ. . .
الشخصُ، كان امرأةْ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ـ أين تمضي؟
* أنا أعبرُ الجسرَ. . .
ـ لكنْ، إلى أين؟
* أمضي إلى الضفة الثانيةْ.
ـ كلُّ جسرٍ له ضفتان. . .

فأنّى تريد؟

* أنا أقصدُ المنتأى.

ـ لستُ أفهمُ...

* سيدتي!

ـ أنا عمياء...

* في مثل هذا الضبابِ، أنا الآن مثلك أعمى

.....

.....

.....

تسقطُ اليدُ، باردةً، عن جبيني

وأخطو

لأدخلَ في التيهِ

والمرأةُ ـ اللغزُ تخطو

لتدخلَ في التيهِ...

والجسرُ ـ منتصفُ الجسرِ ـ في صمته، لا يؤدِّي.

.....

.....

.....

ولكنني سوف أمضي إلى ضفتي.

سوف أمضي إلى المنتأى...

ـ ٤ ـ

أنا أقتربُ الآنَ من آخرِ الجسرِ
أعرفُ من خفّةٍ في الضبابِ
ومن فُسحةٍ فيه
أني إلى الضفة الثانيةْ
عابرٌ،
أعرفُ الآنَ أنّ يدي طائرٌ
في السماءِ بأجنحةٍ خمسةٍ،
وخُطاي الضياء. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كلُّ ما كان حولي يَشفُّ:
الضبابُ الذي يتكشَّفُ عن وردة
والضفادعُ في الجرف
والعشبُ
والقصبُ المتطاولُ. . .
كان الهواءُ خفيفاً مندَّى
ومن شجر لا أرى غيرَ أشباحه يأزجُ الكونُ. . .
أسمعُ تهليلةً
وأكادُ أرى في البعيدِ البعيدِ بيوتَ القرى.

ـ ٥ ـ

خطوةٌ

خطوتانِ

ثلاثُ خطىً، خُطَاً

ثم أقطعُ أغنيةَ الجسرِ . . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

قِفْ!

عمّان، ٦/ ١/ ١٩٩٧

الجفاف

في السنوات الخمسين،

في سنواتي، وأنا أسكنُ تلك القريةَ... كنا، كل صباحٍ، نخرج مذعورين، لنرتقيَ التلَّ، هناك، بعيداً عن بئر أبينا المطويّةِ... كنا نحملُ في سلّة خُوصٍ من منزل شيخِ الحيِّ قرونَ كباشٍ، وعظاماً من هدهدِ فاطمةَ العذراء، وريشةَ طاووسٍ من مصحفها... ونسيرُ إلى التلِّ، هناك نصلِّي، ونغنِّي، ونعفِّرُ بالرملِ جباهَ الأطفال، ونلبسُ قمصاناً ناصلةً بالمقلوب... لعلَّ الشمسَ تغيبُ ولو نصفَ نهارٍ، كي نبصرَ غيماً حتى لو كان سراباً، ولعلَّ الماءَ ـ ولو في الحلم ـ يجيء...

من أين يجيء الماء
والأرضُ مَواتُ
من أين يجيء الماء
وأولو الأمرِ بُغاةُ؟
سيماءٌ سالفةٌ
سيفٌ سرِّيٌّ يتسللُ... سكّينا،
طبطبةٌ وغضاً وغطاريفُ
طبولٌ وقباطنةٌ

وقصورٌ تتدحرجُ طابوقاً صخريجاً. . .
هل هذي هفهفةٌ لهوىً؟
حلْ(*) حلّتْ حمحمةُ الحمّى؟
سيماءٌ
سيفٌ
سدرةُ بستانٍ باسقةٌ.
خَلِّ الخيلَ، إذاً، تنخرُ
خلِّ خيولَ الحمَّى تختضُّ بيارقُها. . .
سيفٌ
سدرةُ بستان
سروالُ امرأة. . .
نحن سئمنا ريشَ الطاووسِ، وعظمَ الهدهدِ.
لم يعد الأطفالُ يريدون جباهاً تتعفَّرُ
بالرمل، ولم يعد الفتيانُ يريدون
القمصانَ المقلوبةَ. . .
والشمسُ ـ كما كانت ـ ثابتةٌ
والغيمُ بعيدٌ
حتى لو كان سرابا. . .
لكنْ، سوف يجيء الماء
فنحن الآن غزاةُ

(*) حَلْ: هَلْ.

نعتصرُ الأثداء
ليسيلَ فراتُ
ها قد عُدنا من غزوات المشتى،
وقوافلُنا مثقلةٌ.
عُدنا... تتبعنا نيرانُ حرائقنا، وكلابُ
الجيف... الأنهارُ طمسناها، والآبارُ
طويناها، وحملْنا أعذبَ ماء في قرَبِ
الماعز ذات الشَّعر الأسود. ما عادَ
لنا ما نفعله في الأرض الأخرى، فلقد
أسرفنا حتى صرنا نافلةً مثلَ غنائمنا.
والأرضُ الأخرى: لا ماءَ ولا شجرٌ.
قلنا: قريتُنا عند التلِّ، وبئرُ أبينا ذاكَ.
وها قد عدنا...
بجوارينا، وحُليِّ سبايانا
وصناديقِ الأبنوسِ
وغلمانِ الخَزَرِ المذعورين...
لكنْ، من أين يجيء الماء
والأرضُ مواتُ؟
من أن يجيء الماء
ونحن، نعمْ، نحنُ...
بُغاةٌ؟

عمّان، ٧/ ١/ ١٩٩٧

إغواء وموسيقا

سافري في الفيافي لتخفي السِّفار
سافري في الفيافي التي ليس فيها اعتبار
سافري في الفيافي ولا تسرفي في انتظارِ
القطار المحمَّلِ بالأمتعةْ
والبراميلِ. . .
ميلي على كتف الرملِ
ميلي فهذا القطار
سينبضُ في ذرّة الرملِ من ألف ميلٍ وميلِ
فميلي على كتف الرملِ
ميلي على كتفي. . .
واعرفي في فراشي سواءَ السبيلِ. . .

عمّان، ١٢/ ١/ ١٩٩٧

ربيعٌ مبكر

لك الحمدُ، يا داليةْ
لك الحمدُ، في بردِ كانونَ والجنّةِ الشاتيةْ
لك الحمدُ:
كيف كتبت الرسالةَ في ورْقتين
وأرسلْتها، في هدوءٍ، إليّ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لك الحمدُ:
هل أنت مشفقةٌ، مثلَ روحي، عليّ؟
وهل أنت تبكين، في الصمت، يا داليةْ؟
وهل كانت الورْقتان
من الدمعِ؟
أم أنّ عينَيَّ لا تبصران
فأعرفَ، في الخضرةِ البغتة، النبضَ
أعرفَ أنّ الحياة

تظل تدورُ عميقا
وأنَّ الربيعَ يبكِّرُ حتى أراه؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

لكِ الحمدُ، يا داليةْ.

عمّان، ١٣/ ١/ ١٩٩٧

القفّازات

لم يتبقَّ لديَّ اليومَ، ومنذ سنين
مَن سأصافحهُ
في منعطف الشارعِ
ـ لا شارعَ ـ
أو في الحفلة
ـ قد راحت حفلتُنا ـ
ولهذا كانت قفّازاتي.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
قفّازاتي
تمنعني أن ألمسَ ما لا يتلامسُ
حقّاً،
والآنَ أفكِّرُ في أن أبتاعَ
لأذنيَّ القفّازات
فلا أسمعُ ما لا يُسمَعُ

أبتاعَ الـ Headphones
مثلاً . . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

لكنْ، ماذا عن عينيَّ؟
إذاً، فلأكنِ الأعمَى!

عمّان، ١٢/ ٢/ ١٩٩٧

محاولة الانفلات

كيف لي أن أسافرَ، هذا المساءَ، إلى طنجةَ؟
(المرءُ يذكر في الليل أبهى نهاراتهِ)
شارعاً لستُ أعرفُ اسماً لهُ. . .
حانةً لم أزرها،
قميصاً تمنّيتُ لو كنتُ فتَّحتُ زرَّينِ منهُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الحديقةُ يابسةٌ
والمساءُ هنا وحشةٌ،
والنجومُ التي تتخافقُ، زرقاءُ من بردها. . .
كيف لي أن أسافرَ هذا المساء؟
كيف لي أن أسافرَ، هذا المساءَ، إلى كوستاريكا؟
(يذكر المرءُ في الليل أحلى صداقاته)
لي صديقٌ هناك
يلملمُ أوراقَ ميلادِهِ كلَّ يومٍ

ليقرأ فيها البلادَ التي ما أحَبَّ. . .
البلادَ التي قد أحَبَّ،
البلاد التي كلُّ شيءٍ لديها رماد. . .
كيف لي أن أسافرَ هذا المساء؟
كيف لي أن أسافرَ، هذا المساءَ، إلى غرفتي؟
(يذكرُ المرءُ في الليل أصفى أماكنه)
لم يكنْ لي، إذا ما أردتَ الصراحةَ، بيتٌ ولا غرفةٌ،
غير أني أريد المكان
غرفةً ليس يدخلها غيرُ نبضي
غرفةً ليس فيها هواءٌ كهذا الهواء
غرفةً لا تضاء
غرفةً لا تداهمُها عتْمةٌ
غرفةً في الفضاء. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كيف لي أن أسافرَ هذا المساء؟

عمّان، ٦/ ٣/ ١٩٩٧

طاولة

سمكةٌ برونزٌ
ودفترُ يوميّات فارغٌ منذ السنة الفائتة
والأقلامُ. الأقلام. الأقلام. الأقلام
ثلاثون قلماً
لكن، لا واحدَ منها مهيّأ للكتابةِ
أيّ كتابة. . .
الموسيقا مضمرةٌ في أسطوانات الـ C.D المكدَّسة،
ومن الحديقة يدخل ضوءُ نهار شبهِ ممطر.
في طرف النافذة غصنُ ليمون ذو تمرتين:
صفراء
وخضراء،
القطةُ تنظر إلى سمكةِ فخّارٍ
مدلاّة من السقف،
بينما تمثالُ الفخّارِ الإغريقيُّ يواصلُ
قُبلتَه منذ قرون.
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

نايُ القصبِ يسيلُ بين أناملي.

عمّان، ٦/ ٣/ ١٩٩٧

الدوّامة

الريحُ التي تصفرُ بين الجبال
مثل بواخرَ تتسابقُ في الغرق،
الريحُ التي تصقلُ البردَ مفاجئاً وحادّاً
والتي تردُّ البراعمَ الوشيكةَ
لتنكمشَ في اللحاء
الريحُ التي تطيرُ بلا بذورٍ ولا أجنحة. . .
أيّان ستأتي هدأتُها؟
ربما في الليل،
أو في الغبشِ المنتعشِ فجأةً. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لكنها في المسافة الضيقة
بين صُدغي
وباطن كفِّي
ستظلّ تدوِّمُ طويلا
أطولَ ممّا تتحملُ هي. . .
أطولَ مما أتحملُ، أنا، أيضاً.

عمّان، ٨/ ٣/ ١٩٩٧

رؤيا

سوف يذهب هذا العراقُ إلى آخر المقبرةْ
سوف يدفن أبناءه في البطائح، جيلاً فجيلا
ويمنحُ جلاّدَه المغفرةْ. . .
لن يعودَ العراقُ
ولن تصدحَ القبَّرةْ. . .
فامشِ ـ إن شئتَ ـ دهراً طويلا
وادعُ ـ إن شئتَ ـ كلَّ ملائكة الكونِ
كلَّ شياطينه،
ادعُ ثيرانَ آشورَ
عنقاءَ مُغْرِبةً. . .
ادْعُها
وانتظرْ في دخانِ التهاويلِ
معجزةَ المبخرةْ.

عمّان، ٨/ ٣/ ١٩٩٧

المعجزة

كيف يهمي عندنا هذا الرذاذُ الناعمُ؟ الرملُ الذي يمتصّنا منذ قرونٍ ليس يعني عنده الماءُ سوى غفلة شمسٍ. . . نحن لا ندري بهذا الماء، إن جاءَ وإن لم يجئ، الأحداقُ غاصت في عروق الرمل منذ الخَلقِ. هذي آيةٌ أخرى، إذاً. . . فلنحتفظْ بالوقد، ولنحفظْ ـ ولو كنا بلا ذاكرةٍ ـ ما ترسمُ الآيةُ. . .

لكنّ الرذاذَ الوغدَ يهمي. . . ما الذي نفعلُ؟ هذي نبتةٌ قد بَرعمتْ، والشيحُ، حتى الشيحُ يخضرُّ. . . وفي أرض الغضا تومئُ أزهارٌ. لماذا اختلفَ الناموسُ؟ كيفَ اختطفَ الصبّارُ شالَ الأرجوانِ؟

المطرُ الناعمُ يهمي هادئاً، لكننا نختضُّ في السرِّ، وفي أحداقنا الملأى صديداً وقذىً يدخلُ ماءٌ. . . أتُرى نغتسلُ الليلةَ؟ هل يصفو لنا المرأى؟ وهل ننسى غداً ما حدَّث الرملُ،

وما قال الرواةُ

المطرُ الناعمُ يهمي هادئاً،

نحن شيوخٌ

فلنناد الطفلَ. . .

ولنقرأ على أهدابهِ ما تفعلُ القطرةْ!

عمّان، ١٦/ ٣/ ١٩٩٧

البلل

الفتاةُ على موعد. . .
ـ ربما بعد عشر دقائقَ ـ
كان المطرْ
هائجاً يدفعُ السيلَ حتى الرصيفْ. . .
فجأةً تفطنُ البنتُ:
إن مظلّتها (شبهَ صينيةٍ) تقبع الآنَ
ناشفةً عند كرسيّ مكتبها. . .
كيف تمضي الدقائقُ
كان المطرْ
مائجاً
دافئاً مثل موجِ البحيراتِ في السينما،
والمظلةُ ناشفةٌ عند كرسيّ مكتبها، داخل الدائرةْ
والدقائقُ تمضي. . .
الرصيفُ على حاله،
والفتاةُ على موعد:
تنقلُ الآن أولى خُطاها الخفيفاتِ تحت المطرْ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أهي واثقةٌ أنها سوف تبتلُّ حتماً،
هنا، أو هناك؟

عمّان، ١٦/ ٣/ ١٩٩٧

في بلدةٍ ثانويّة

الحياة
الهادئةُ هنا، مثل حجر
الممتلئةُ مثل حجر
هذه الحياة. . .
لماذا نتشبثُ بها
إن كان امتلاؤها عصيّاً،
وكان الهدوء، هو، المتاحَ، حَسْبُ؟

عمّان، ١٧/ ٣/ ١٩٩٧

عن اللائي يكتبن «روايةً» مشهورة

إن أنتِ كتبت روايتَكِ الأولى
متناسيةً سيرتَكِ الأولى
خوفاً
أو تعباً. . .
فلماذا هذا العبثُ الفارغُ كلُّهْ؟

دوماً تأخذكِ الكلمات. . .
إلى أين؟
كأنكِ من كلمات،
وكأنَّ حياتَكِ ليست بحياة.
قد تُكتبُ أوراقٌ عن «أسرار» روايتك الأولى
قد يَذكر «س» أنكِ فرجينيا وولف،
حسناً. . .
لكنكِ أدرى منهُ
ومن تلك الأوراقْ
أدرى بتراب روايتكِ الأولى!

عمّان، ١٧/ ٣/ ١٩٩٧

تَسامُح

ليس هذا أوانَ الأغنية الشرسة
فالذين لا يزالون يفركون عيونَهم
لن تصل إلى آذانهم المغلقةِ جيداً بفلِّين الليل.
ثمَّت أشجارٌ قد لا نحبُّها
أشجارٌ مثل النخلة الخاوية
والتوت الفحل...
لكنّ للنَملة ودورةِ الأرض
منطقاً آخر...
.....
.....
.....
السماءُ، ذاتُها، بلا لون.

عمّان، ١٨/٣/١٩٩٧

بنسيون في جونيه

يحملُ اسماً مألوفاً من أحد القدّيسين
ويطلُّ على الشارعِ
حصناً يفصلُ بين الشارعِ والبحرِ
نوافذُهُ خشبٌ يتآكلُ منذ سنين
وستائرهُ أيضاً . . .
وخزاناتُ ملابسه تتداعى من داخلها مثل مراياها،
متداخلةً وروائحَ ثومٍ
وبقايا ملفوف
ومياه آسنة،
أحياناً أشعرُ أني في غرفة مبنىً آخر . . .
فأطلُّ من الشرفةِ
كي أتأكّدَ أني في هذا النُّزل تماماً:
فالشارعُ ثمّتَ
والحذّاءُ
ودكانُ العطرِ
وبامبو الشرق الأقصى.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

في النزل، أرى سيدتين تعدّانِ القهوةَ دوماً
وتقيمان نهاراً في البهوِ،
كراهبتينِ
فإنْ جاءَ الليلُ اختفتا. . .

. . . . . .

. . . . . .

كم أزمان تتنفسُ في هذا النُّزلِ،
وكم من أشخاص عبروا،
لم يتَّركوا حتى الاسمَ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

القدِّيسُ هو الباقي.

عمّان، ١٨/ ٣/ ١٩٩٧

حانة سائقي الشاحنات

كلُّ نبيذِ الأرضِ خَبيءٌ في القبوِ. . .
ولكنكَ لا تشربُ إلا أردأهُ،
أو كأسَ الريكار بقطعةِ ثلجٍ واحدةٍ
وقليلٍ من ماء.

ستقولُ لمن جاء الليلةَ من إسبانيا:
ما الأخبار؟
وتقول لمن سيكون غداً في النورماندي:
هل تسمع هذا القيثار؟
ما أجملَهُ. . .
لكنّ القادمَ من إسبانيا
والذاهبَ نحو النورماندي
والشيخَ الواقفَ خلف البار
متّفقون على أن يختطفوا من بين يديكَ
امرأةً
جئتَ بها

كي تأخذَ كأساً معها
وتقولَ لها أشياء بلا معنى،
وتُريها الشقّةَ بعد قليل. . .

عمّان، ١٩/ ٣/ ١٩٩٧

على تخوم الرُّبع الخالي

الرملُ الذي لا يفاجئُ أحداً منّا
نحن، أبنائهِ
هذا الرمل يظل يبعث إلينا بعماليقهِ. . .
تلك القلاعِ
القلاعِ تتحرك سرّاً
في نهارات قصيّة
لتنتصبَ، بغتةً، إزاءَ بساتيننا
أعلى من أعلى نخلة. . .
إنها قلاعُ القيامة
ولسوف تطلقُ، ذات يومٍ، بوقاتها.

عمّان، ١٩/ ٣/ ١٩٩٧

كاتَلين

تدخلُ شقّتَنا بالضاحية الباريسيةِ
دوماً في آخرةِ الليلِ
وتخرجُ في الصبحِ الأول. . .
لا أعرفُ عنها إلا الاسمَ
وإلا بنتاً من مكناسَ ترافقها أحياناً
لكنْ، تسألُ عنها، أكثرَ. . .
آنَ أصادفُها، خطأً، في المصعدِ
أو في المطبخِ
ـ تدخلهُ كي تشربَ ماءً، حسْبُ ـ
أراها مرهقةً
ذابلةً. . .
وأفكرُ أن أسأَلها
في أحد الأيام دعاني رسّامٌ هولنديٌّ
كي نتغدَّى في مطعمه
غيرَ بعيد عن سان جاك.
أنا أعرفُ عن مطعمه، سمعتَهُ الشائنةَ. . .

اجتزتُ المائدة الأولى
وجلستُ.

الهولنديُّ تأخّرَ...

عند البار
وعلى كرسيٍّ عالٍ
متبرجةً
متبذِّلةَ الساقين
عاهرةً بالضبط...
كانت كاتَلين.

عمّان، ٢٠/ ٣/ ١٩٩٧

غيومٌ صباحيّة

الغيومُ صباحيّةٌ:
هكذا يبدأ النملُ يستافُ دربَ المؤونةِ
والقطُّ يبحثُ عن مخبأ
والعصافيرُ عن شجرٍ،
وأنا، الجهمَ،
أبحثُ عن كوّةٍ في الجدار. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كيف تأتي الفصولُ
لتذهبَ؟
قد كنتُ أحسبُ أن الربيعْ
ـ مثلاً ـ
يتداخلُ في العرقِ، كالنُّسغِ في الغصنِ
أو كالمُواء المباغَت
أو صيحة الديك في الفجر،

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ها أنذا، مثل ما كنتُ،
لا نبضَ يسرعُ
أو يتطامنُ
لا رفّةٌ من جناح تطوِّحُ بي نحو مَهوى
ولا موجةٌ للغرقْ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

سوف أمضي، إذاً، نحو هُدبي
سأسألُه أن يُطيلَ ـ كما يقْدرُ ـ الغمضَ
أسألُه أن أنام. . .

عمّان، ٢٢/ ٣/ ١٩٩٧

الحكمة

هذه الجبالُ ليست لنا. . .
مكتفيةٌ هي بدروب الماعز
بالإسفندار والعفص والصنوبر
والجوز السخي.
مكتفية بينابيعها وأزهارها
وصيدلية أعشابها،
وفيها من الذئاب ما يكفي. . .
إذاً،
لمَ نرسلُ إليها جِمالَنا منذ قرون؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هذه الجبالُ ليست لنا. . .
كنا ظننّا المدافعَ تبلغُها
والسَّمْتيّات أيضاً.
ربما استطعنا أن ندقَّ أبوابَها بالبارودِ

والغاز السّامِّ
ولغة لا يفهمُها حيوانُها،
حسناً . . .
لكنّ الجبالَ لم تَعُدْ جبالاً .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

فلْنكتَفِ بحكمة الأرضِ . . .
لنقُلْ :
حدودُنا الرملُ والعوسج .

عمّان، ٢٢/ ٣/ ١٩٩٧

بابُ البحر

في الشاطئ شبه المهجور
حيث يلوِّحُ بضعةُ صيّادين بعيداً
بالقصب. . .
التفتتْ نحوي امرأةٌ،
قالت:
أنتَ تجيءُ هنا، حين يغيبُ الناسُ،
غريبٌ!
قلتُ:
ولكني أبحثُ في هذا الشاطئِ
عن أصدافٍ وقواقعَ. . .
(تهطلُ أولى قطراتِ المطرِ)
المرأةُ تفتحُ بابَ الشّاليه،
وتدخلُ.
أمضي تحت المطرِ. . .
الصيادون ذوو القصباتِ ابتعدوا،
والشاطئُ خالٍ.

كنتُ وحيداً
أبحثُ عن أصدافٍ وقواقعَ
أبحثُ عن بابٍ
في ذرَّةِ رمل. . .

عمّان، ٢٢/ ٣/ ١٩٩٧

حانة القرد المفكّر في كافالا(*)

«إلى زليخة أبو ريشة»

وحدَها، منسيّةً
في داخلِ الحانةِ
كانت طاولاتٌ أربعٌ.
والطاولاتُ الأربعُ الأخرى أقامت منزلاً
تحسبُه ـ إن شئتَ ـ بالأمتار
بينَ النار في الموقد حيثُ السمكُ الأزرقُ،
والأشجار
بين الباب والشارع.
لم يبقَ رصيفٌ كي تسميه رصيفاً:
إنّ هذي الطاولاتِ الأربعَ اخصرَّتْ بهِ...
فلْتأتِ بالنجمِ
وبالساعةِ

(*) كافالا، بلدة يونانية على بحر إيجة، تقع في وسط المسافة بين اسطنبول وسالونيكي بمنطقة مقدونيا.

وبالقنديلِ
كي تعوي قطاراتُ الضواحي. . .

هكذا، نجلسُ في الشارع.
عند السور كان العاشقان انتهيا من لعبة الموعد.
في البُعد تضيءُ القلعةُ البحرَ
وتُقصي الشاحناتُ/ الحاوياتُ، الليلَ:
اسطنبول
اسطنبول
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في الحانةِ كان القردُ سكرانَ
وكان السائقُ استنفدَ قنّينتَهُ
رائحةٌ من سمك يُشوى
وهذا الأخطبوطُ،
القردُ يستولي على لافتة الحانة
سُبّابتُه في صُدغه
عيناه حمراوان. . .

ما أجملَ أن يستيقظَ القردُ صباحاً
هابطاً في وثبة

من صورة الأخرقِ في لافتة الحانة
ما أجملَهُ
قرداً بلا سُبّابة تحفرُ في الصُّدغِ
وما أجملَهُ
يتمشّى مشيةَ السكران طوالَ الليلِ
كي يجلسَ في مقهىً على البحر
لكي يرتشفَ الريحَ التي تنضحُ بالملحِ
وكي يأكلَ موزاً
ثم يرمي القشرَ في الماء إلى النورسِ. . .
ما أجملَهُ
يتركُ مقهاهُ
ويمشي مَرَحاً بين شبكِ الصيدِ،
هل يقفزُ في المركبِ؟
هل يمضي مع العَبّارةِ الأولى إلى تاسوس(*)؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
والليلُ إذا جَنَّ؟
وذاك البيتُ في لافتةِ الحانةِ؟

(*) تاسوس، جزيرة ذات تاريخ، يفصلها مضيق عن البلدة.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

سُبّابتهُ عادت إلى الصُّدغِ،

فعاد القردُ مرسوماً على لافتةِ الحانةِ،

سُبّابتهُ في صُدغِهِ

عيناه حمراوان. . .

عمّان، ٢٦/٥/١٩٩٦

سعادة

مِلءَ عينيكَ:
ثَمَّ شجيراتُ وردٍ
وأغصانُ ليمونةٍ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
وبيوتُ الحجَرْ
ـ البيوتُ التي كنتَ تكرهُ ـ
تصعدُ، أعلى فأعلى
مبللةً بالمطرْ.
ليس يكفي التأمُّلُ. . .
ما أسعدَ المرءَ يفتحُ نافذةً
في الصباحْ!

عمّان، ٢٤/ ٣/ ١٩٩٧

احتضار

حين تبزغ تلك القرى
فجأةً
في الظلام،
حين يعلنُ فانوسُ مسجدها
أنها ههنا، حسبُ. . .
تلك قرانا
التي لا ترانا
قرانا التي سوف نجتازها عابرين
قرانا التي قد عرفنا سواها
قرانا التي يدّعيها سوانا
قرانا التي آذنتْ بالمغيب. . .

عمّان، ٢٤/ ٣/ ١٩٩٧

أغنيةُ الأعمى

أنا أحمدُ الأعمى
أن الطوّافُ في الطرقات
والساري مع النجم الذي في جبهتي

أنا سيِّدُ الأصوات
أعرفُها
وأعزفُها
عصايَ جواديَ الأبهى
ومركبتي خُطاي
ورِحلتي أوْبات.
أنا أحمدُ الأعمى
أدقُّ، سدىً، على أبوابكم
لا تفتحوا. . .
فأمامي الآفاقُ مشرعةٌ
وأكواخُ القرى
وأنامُ، مثل الطفل، بين أرانب الغابات.

أنا أحمد الأعمى
ظلامي واضحٌ
أتلمَّسُ الأشياء فيهِ
كأنّ أصابعي في خُصلةِ امرأةٍ. . .
وكنزي في يديّ:
طفولتي وحدائقُ الألوان
والفتيات. . .

عمّان، ٢٥/ ٣/ ١٩٩٧

إحساس

البردُ خفيفٌ
يتسلّلُ بين ذراعيّ . . .
سأغمضُ عينيَّ
لأستقبلَه وحدي .
إني ألمُسُ هذا البردَ
يسيلُ
قليلاً فقليلاً
ويدغدغني . . .
يُسقط في ماء شرايبني
ذرّات من ثلجٍ
ويهدهدني
لأموتَ سعيدا . . .

عمّان، ٢٥/ ٣/ ١٩٩٧

يوميّات أسير القلعة

(٢٠٠٠)

محمد مهدي الجواهري

ـ ٢ ـ

من مَشْفى الشامِ إلى النجمةْ
ومن النجمةِ حتى بغدادْ
دربُكَ مكتنزٌ بالأَورادْ
وقميصُكَ هذا القطنُ
سترفعُه حتى دجلةَ كوكبةُ الأحفادْ

أنّى تكونُ لنا عيناكَ أيها النسرُ النحيلُ؟ عيناكَ اللتان تشتفّانِ البروقَ من رَوثِ الجواميسِ. . . عيناك اللتان تمسحان القرونَ الأربعة عشرَ في خِطفةِ المستريحِ؟ أيةُ أرضٍ هذه يا أبا فرات؟ لقد فقأوا عينيّ زرقاءِ اليمامةِ فلم تمنحاهم غيرَ ماءٍ أسودَ. . . هذه الأرضُ ليست للرؤيا يا أبا فرات. وأنتَ الذي مسحتَ القرونَ كما بقطعةِ لَبّادٍ كُرديّ تعرف هذا. تعرف أن خشبةً حَملَها شاعرٌ أربعين عاماً، ستكونُ محمولةً على كتفيكَ لمئة عامٍ. . . وكتفاكَ نحيلتان يا أبا فرات. كتفاك نحيلتان، لكنّ ذراعكَ ما ضاقتْ بنازلةٍ، كأنّ أناملَكَ ـ حيثُ القلمُ ـ عروقُ الجِنَّ. كأنّ ما تكتُبه يندفعُ صُعُداً.

كأنَّ المدادَ نُسْغٌ لقفصِ عظامِكَ أوّلاً.
أوّلُ ما رأيتُ في عينيه كان البرقَ في الغابةِ...
أغمضتُ أنا عينيّ،
أغضيتُ طويلاً، جالساً في آخر الغرفةِ
كم فكَّرتُ:
هذا الرجلُ الفاتنُ، مفتونٌ يبصرَ ما لا يبصرُ الناسُ،
ومفتونٌ بأن أتبعه أيضاً...
أهذا البرقُ في عينيه ما يخطفني
حتى أرى في آخرِ الغابةِ
أعوادَ الحريق؟
كالنيزكِ المنقضِّ تستعرُ
بالنور: أنتَ النارُ والحجرُ
أشعلتَ دجلةَ إذ أقمتَ بها
بيتَ الشُّراة، فزَمزَمَ المطرُ

ـ ٢ ـ

من مَشْفى الشامِ إلى النجمةْ
ومن النجمةِ حتى بغدادْ
دربك مكتنزٌ بالأَورادْ
وقميصُكَ هذا الصوفُ
تُبلِّلُه من دجلةَ كوكبةُ الأحفادْ

لستَ المستريحَ إلينا، نحن مُسْتقيك وسُقاتِك، لستَ المستريحَ إلينا: نحن لن نمنحكَ شيئاً. قد نمزجُ لكَ الفودكا بالفلفلِ والملحِ والطماطمِ السائلةِ. قد نغنِّيكَ قصائدَك. قد نطرقُ بابَكَ في مَوْهِنِ الليل. ولسوف تفتحُ لنا. سوف ندخل غرفةَ الشاعرِ في أقصى الحديقةِ، لنراك وحيداً. سنُنادمُكَ. لكننا مُغادرون. إذاً، أنت لنا الملاذُ. وأنت؟ أيُّ ملاذٍ لك في مَوْهِنِ الليل؟ البحتريّ الذي تحفظُ؟ أم أبو تمّامٍ الذي يراوغكَ؟ أم المتنبي الذي تراوغ؟ أم الموت؟ في لحظةٍ ستقول لنا: اخرجوا يا زوّارَ الليلِ المنتصِفِ. ولسوفَ نمتثلِ لأمركَ. لكنّ خطوتَنا الأولى خارجَ حديقتكَ ستعيدنا إلى الزاويةِ السِّريةِ في حديقتكَ. ماذا ستفعلُ أيها الشاعرُ؟ نحن عاجزون عن أن نقولَ مِثلك:

ليتَ السماءَ الأرضُ...

نحن عاجزون عن أن نقولَ مِثلك:

ذئبٌ تَرَصَّدني...

*

أولُ ما سمعتُ منه: الهمسُ مبحوحاً.

غريبٌ أن أرى في هذه اللحظة ما تكنزُهُ البُحَّةُ

في صوتِ أبي فراتِ:

ربما كان على النهر مُسَنَّاةً

أميراً في فلاةٍ

نَيْسَماً في الشِّعبِ

أو مقهىً بباريس،

ومن يدري. . .
لعلَّ المتنبي يحتبي، سأمانَ في مقصورةِ البُحَّةِ
يستأني الوثوب. . .
لكَ ثورةُ العشرين، أوّلُها
قمرٌ، وآخرُ عهدها سَقَرُ
هل كان أحمدُ في شبيبتهِ
يختالُ مثلكَ، أمْ هو القَدَرُ؟

ـ ٣ ـ

من مَشْفى الشامِ إلى النجمةْ
ومن النجمةِ حتى بغدادْ
دربك مكتنزٌ بالأَورادْ
وقميصُكَ هذا الصخرُ
ستحمله حتى دجلةَ كوكبةُ الأحفادْ

وبغداد بعيدةٌ يا أبا فرات. بغداد بعيدة عن بغداد. وماؤها لم يَعُدْ خيرَ ماء. إنه يجري تحت جسورها أُجاجاً. ها أنتذا في مقبرة الغرباء، تُلملمنا حولك. التربةُ ستكون بستاناً. روضةَ أُباةٍ ومساكين وشعراء. مهاجرينَ على الوثقى وأنصارٍ. ها أنتذا في مقبرة الغرباء تنقل خُطاك الخفيفات. ليلٌ كافرٌ يا أبا فرات. إلى أين تمضي؟ إلى أين تمضي بنا؟ تركت لنا، أيها الشاعرُ، ما لا نُطيقُ: لغةً عرفتَها ونحنُ جاهلوها. وأرضاً سكنتَها ونحن مُفارقوها. ومعاصيَ ارتكبتَها

ونحن لها هائبون. تَقِيَّتُكَ فضيحةٌ، وتقيَّتُنا سكونٌ. أيّانَ سنمتثلُ لك، إذاً؟ لقد تركتَ لنا ما لا نُطيقُ. تُرى، ماذا سنفعلُ؟ كيف لنا أن نكونَ، مثلَكَ، مُعارِضينَ، قرناً كاملاً؟ من فيصلٍ الأول حتى موبوتو الثاني، وأنتَ المُعارِضُ. أنتَ الشّعر المعارِضُ. ونحن؟ نحن المهيئين للفسادِ في كلِّ لحظةٍ، نحن الملولين، مقلّبي السُّتراتِ، ذوي المسافاتِ القصيرةِ كأنفاسنا، كيف لنا أن ننتسبَ إليكَ ـ ولو ولاءً ـ أيها الشاعرُ المعارِضُ لمائة عام؟ وليكن!

لتكنِ الأُمثولةَ أو المثلَ.

لتكنْ حاملَ لوائنا إلى النار...

لتكن المعصيةَ العظمى في زمنِ الامتثال.

*

أولُ ما أخذتُ عنه: الغفلةُ العظمى

كأنَّ المرءَ في الخيط الذي يَفرُقُ بين المَدِّ والجَزْرِ

رهيفاً

ثابتاً في قلقٍ

ملتمعاً... يخْفى ولا يخْفى

فإن داهمَهُ الموجُ مضى في لعبةِ الإسرارِ

كي يعلنَ أبهى لحظةٍ بعد قليلٍ

لامعاً

يَفْرُقُ بين المدِّ والجزرِ

كأنَّ الغرَقَ الأرهفَ مرساةُ القلقْ.

نمضي لكي نمضي... ومنهلُنا

ماءُ الثمادِ، ورَحْلُنا النَّمِرُ
نحيا حياةً لا يليق بنا
إلا السبيلان فيها: الطُّهرُ والخطَرُ

ـ ٤ ـ

من مَشْفى الشامِ إلى النجمةْ
ومن النجمةِ حتى بغدادْ
دربك مكتنزٌ بالأَورادْ
وقميصُكَ هذا العَلَمُ الوطنيُّ
ستلبسُه حتى دجلةَ كوكبةُ الأحفادْ

دمشق، ١/ ١١/ ١٩٩٧

قلعة الحصن

أسيرُ إلى القلاع، هُنا، وهَنّا، ناسياً ثلجَ الوريدِ مقبِّلاً قَدمَ الوليد، أجيءُ نحوَ الصخرِ من قِدَمي، أُثبَّتُ في متون حُزوزهِ قَدمي. أقولُ: لعلَّني أرقى. وأصعدُ، خطوةً في إثر أخرى، شهقةً في شهقةٍ، والخندقُ الدوّارُ يسألني: لماذا جئتَ؟ أسألُهُ: لماذا جفَّ ماؤكَ؟ لو تُراهُ مضى ليسأَلني: لماذا جفَّ مائي؟ الحندقُ الدوّارُ لم يبرحْ مكاناً كان فيه منذُ ألفٍ، إنما الأمطارُ لم تهطلْ. . .

أحقاً صار هذا الخندقُ الدوّارُ جسراً للمغيرينَ؟ السّماءُ سترتمي في لحظةٍ. . . ستكون سقفاً. أنتَ لن تُبدي سوى سبّابةٍ مرفوعةٍ حتى تُلامسَها. . . وكان الخندقُ الدوّارُ أخضرَ، قاعُه المفروشُ بالأعشابِ والدُّفلى وأكياسِ اللدائنِ كان يدخلُ في متاهات القرى وسرائرِ الأبراجِ. أحياناً تُدلِّي غيمةٌ أثداءها ليظلَّ هذا الخندقُ الدوارُ مَغْنىً. قد يمرُّ الماعزُ الجبليُّ، والأعشابُ تثْبتُ في الصخور كصبغةٍ سِرّيةٍ. قد تفتح الأزهارُ في آبٍ مظّلاتٍ بلا ظلٍّ، فيأتي النحلُ. . . أهلاً، لا خديعةَ. . . أيُّهذا الخندقُ الممتدُّ بين الوهمِ والوهم: انتظرْني كي أوازنَ خطوتي. مترنحاً سأظلُّ، مأخوذاً بأحجارٍ تُزلزلُ وقفتي. أحجارُكَ الأولى التي كانت تدافعُ عنكَ صارتْ مَنبِتاً لمحيطِ أكواخٍ. وفلاّحوك صاروا الجندَ. جُندُكَ أصبحوا متعهِّدي خيلٍ

وماشيةٍ. ولكنّ الخنادقَ لا تصيرُ سوى خنادقَ. ربما انطمستْ وضاعتْ تحتَ أتربةِ العواصف والقرونِ، وربما نسي الذين بقربها حتى خطوطَ القُربِ... لكنْ سوف يأتي اليومُ، يأتي يومُها، فتهبُّ ناصعةً لتدفعَ عن نضارةِ وجهِها الأسمالَ والأزبالَ والأكياسَ...

آن لها،

لكل خنادق الأحياء،

أن تحيا...

*

أتعرفُ كيف يبدو البرجُ في الفجرِ؟ السماءُ تكونُ صافيةً، وغامضةً قليلاً. ثَمَّ ضوءٌ واثقٌ من لا مكانٍ، والسّماءُ تظلُّ صافيةً وغامضةً، وهذا الضوءُ يبدو ضائعاً، يا فجر... أين الفجرُ؟ في مثل الفُجاءةِ كان رأسُ البرجِ متّقداً، وكان الضوءُ يأخذُ شكلَهُ... والضوءُ رأسُ البرجِ:

قَرْنَصةٌ وفُوضى

مِزْغلٌ للشمسِ

متراسٌ يصوِّبُ نحو كونٍ غائبٍ...

قد يهبط الفرسانُ من سفنِ الملائكةِ، الحدودُ قريبةٌ حتى الملامسةِ، الحدودُ بعيدةٌ حدَّ الجنون...

أهلَّةٌ في الماءِ

صُلبانٌ على الأكماتِ أو بالعكسِ.

هذا الضوءُ، هذا الضوءُ هذا الضوءُ...

رأسُ البرج مشتعلٌ

وعند القاعِ، خلف الخندق الدوّارِ، في «الموتيل»، تحت مُلاءةٍ في غرفةٍ خرقاءَ بـ «الموتيل»، كان فتىً يقولُ لدُميةٍ: إني أحبُّكِ.

يهبط الفرسانُ. سِيفُ البحرِ يُلمَحُ عند رأسِ البرجِ. ما أبهى طرابُلُسَ الخفيّةَ. في السّفوحِ تغادرُ الأشجارُ مَنْبِتَها، وترحلُ في فضاءٍ أخضر... حتى الدروبُ تصيرُ في المَهوى خيوطاً كان رأسُ البرجِ يُمسكها، يُدَلِّيها، ويرفعُها، كما شاءَ.

المدافعُ لم تعدْ في البرجِ...

هل رحلتْ مع السفنِ التي رحلتْ؟ أو انصهرتْ لتغدو بين أيدينا نقوداً فضّةً، أمْ أنَّ أغنيةَ المدافعِ لم تكن قد قعقعتْ بعدُ؟

الثلوجُ تلوحُ في القمم المحيطة... غيرَ أنَّ البرجَ يلبسُ عُريَهُ، ويظلُّ مثلَ الذئبِ أغبرَ...

هدهديني كي أنامَ:
الثلجُ أثقلَ لِمَّتي
والثلجُ أثقلَ خطوتي
والثلجُ غلغلَ في عروقي ماءَهُ ودماءَهُ
والبرجُ يدعوني لأصعدَ نحوَهُ،
البرجُ يدعوني لأصعدَ نحو صمتي
حيثُ الطيورُ السُّودُ...
وووووو...

*

رأدَ الضحى، مُتَلفِّعاً بالبردِ والجلمودِ، أدخلُ قاعةً حجريةَ

الأقواسِ. أعمدةٌ خَبتْ تيجانُها فوقي. وتحتَ خُطاي أشواكٌ معفَرةٌ، أرى أسدينِ يرتفعانِ عندَ المدخلِ العالي، ويَمَّحيانِ مُرتبضينِ.. غيماً مُبحراً يجتازُ أروقةً ويمضي في سماءٍ حرَّةٍ.. شجراً بعيداً. شِبهَ سربٍ من يمامٍ. تهدأُ الأنفاسُ. أغمضُ مقلتيَّ للحظةٍ: أهلاً! يعودُ الصوتُ: أهلاً.. لن... لن... لن... لن...

وأهتفُ: آهِ، يا سربَ اليمامِ... يمامِ... مامِ... مِ...

كأنّ يدي ستمسكُ خيطَ صوتي من نهايتهِ...

أمدُّ يدي

يديَّ،

فألتقي روحي...

سلاماً... مَن؟ مَن؟ من؟ من؟

ومن بابٍ بأقصى القاعة الحجريةِ، انفتحتْ سماءٌ وانجلتْ. في الأفق أجنحةٌ تسدُّ الأفْقَ. تعلو عندَ بابِ القاعةِ الحجريةِ الضوضاءُ. يأتيني ملائكةٌ بأجنحةٍ، وعمّالٌ بأجنحةٍ، وفلاّحونَ في أثوابِ ريشٍ. أغمضُ مقلتيَّ هنيهةً: أهلاً بكم! كم... كم... لَكَم غِبْتُمْ!

تعبتُمْ في الطريق؟

وهل ظمئتُمْ؟

إنّ في كفَّيَّ عيناً سلسبيلاً...

أم تُرى قد مسَّكُمْ ضُرٌّ؟

سأفرشُ كلَّ أضلاعي لكمْ...

لكنْ أقيموا!

أمسح الوَعْثاءَ عن أقدامكم،
وأقبّل الأيدي لو استلمتْ طعامي.
لن ترحلوا!
سنبيتُ ليلتَنا هنا.
لا تعبأوا بالبردِ!
سوف أجيء بالأغصانِ والأعوادِ
سوف أجيء بالسروِ العظيمِ
وبالجريد الهشِّ.
جذعُ النخلةِ استلقى ليمسي الجمرَ...
مهلاً!
سوف نوقدُ نارَنا
ستكون قلعتُنا منارَ الخابطينَ
لقد غدونا نارَنا... نا... نارَنا... نا... نا...

١٩٩١/١/٢٥

حدائق

كانت لي، غير بعيدٍ عن أهلي، أشجارُ حديقةْ
في الليل أُلملمُها
وألوِّنُها
وأدورُ بها، أبعدَ عن أهلي
كي أصنع في الليلِ
بوّابةَ غيمٍ
تتوسَّطُ سوراً أبنوساً
يحرس أشجار حديقةْ. . .
كانت لي، في تونس، شبهُ حديقةْ
زُلّيجٌ أندلسيٌّ
وممرٌّ زجاجاتِ نبيذٍ فارغةٍ
أغرسها في التربة حتى النصف
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
قالت من زارتني يوماً:
هل يثمر زرعُكَ؟

قلتُ لها: ما أجملَهُ، لو كنتِ النصف!
كانت لي، في عمّانَ، حديقةْ
من صبّارٍ
في أحجارٍ،
من أحجارٍ
في صبّارٍ. . .
كانت ـ حتى لو أنكرها الناسُ ـ حديقةْ.
لكنّ الصبّارَ ـ إذا شئتَ ـ عدوُّ الماء
والأحجارَ ستنهارُ إذا ما سمعتْ موسيقا الماء. . .
إذاً. . . ماذا أفعلُ؟
هل يدخلُ في عمق البستان سوى ماءٍ وحديقةْ؟
كانت لي، في الضاحية الباريسيةِ
تحديداً في Aubervilliers حديقةْ
أتذكَّرُها الآن
كما أتذكَّرُ نفسي:
غصناً من نبتٍ يتسلّق حتى السقفِ
لينهدّ
على الأرضيةِ
خوفَ البرد. . .
كانت لي، وأقولُ ستبقى، في الجهة اليسرى حيثُ القلبُ
حديقةْ. . .

الأرض بها خضراء
تماماً مثل حدائق كل الناسِ
ولكنّ الأزهار بها حمراءُ تماماً. . .
وهيَ الوردةُ
والنجمُ
وماءُ الوردِ
وقصةُ هذي الدنيا. . .

دمشق، ١٩/ ١٠/ ١٩٩٨

المستحيل

هذه أشجارنا اللائي بلا أسماءَ. . .
هل نسألُها، في السرِّ، إن كانت ترانا
آنَ نستروحُ غصناً في صباحٍ ماطرٍ
أو بعدما ينتصفُ الليلُ؟
وهل تسمعُ ما تهجسُ في الأرض خُطانا؟
نحن نمشي
دون أن نمشي،
وهذا الشجرُ الثابتُ يمضي في السماواتِ
وفي الأرضِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
مع الأعوام، غاضتْ في الشرايين، الينابيعُ
وصار الدمُ فحماً،
غير أن الأرض لن تتركنا. . .
الأرضُ التي نحن هجرناها
ستُعطي، مرةً أخرى، ندىً من نُسْغها

تَزرِقُه فينا
لعلَّ الغصُنَ اليابسَ في أطرافنا يخضرُّ،
أو يحمرُّ في لِمّاتِنا التبنُ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لعلّ الروحَ تأتي. . .

دمشق، ٤/ ٥/ ١٩٩٧

القيامة

من الـ B52 تأتي القنابل، ثم تُفْرِغ بيضَها
في أنفنا المجدوعِ، نحن سلالةَ الأحباش والزُّطّ.
السِّباخُ كعهدها من ألف عامٍ
نحن نكسحُها،
ونحن الزطَّ...
لم يترك لنا صدّامُ ما نخشاهُ
أو نخشى عليه:
بيوتُنا نَهْبٌ له
ونساؤنا نهبٌ له
وصغارُنا الحمقى فدائيّوهُ...
.....
.....
.....
فلْتأتِ القنابلُ
ربما جاءت قيامتُنا مع الـ B52
وتَشَوُّشِ الدنيا

١١/١/١٩٩٩

في الفلبين

فَحْلُ الجاموس
يسحبُ في سرعةِ سنتيمترٍ بالساعةِ
أطفالاً
وغِراراتٍ
وصناديقَ مهشَّمةً. . .
وعلى جنبيَ الدربِ
مياهٌ ستكون حقولاً بعد رحيلي
يتمايل فيها ما سوف يكون صحونَ الرزّ. . .

دمشق، ١٠/ ١/ ١٩٩٩

البقيع

مختالاً
أمشي خلفَكَ يا جَدِّي
مثلَ خروفٍ. . .
لكنكَ بعد قليلٍ تدخلُ في المسجدِ
تتركني وحدي
مثلَ خروفٍ ضَلَّ،
فأدخلُ في المسلخِ
مختالاً أيضاً. . . منطبقَ الجفنين.

دمشق، ١٠/ ١/ ١٩٩٩

ساراماغو

لن أتعلَّمَ من كل رواياتك شيئاً
وأكيداً أنكَ لستَ معلِّمَ أخطاءٍ
ولهذا سنسيرُ معاً
لا نتعلم شيئاً
ونُعَلِّمُ أن لا نتعلَّمَ شيئاً
مُتعتُنا
أن العالمَ ما زالَ ـ كما لم نعهدْهُ ـ بسيطاً . . .

دمشق، ١٠/ ١/ ١٩٩٩

استمطار

. . . وإذاً،
لم يسقط الثلج الذي كنا انتظرناه مساءَ البارحةْ
ربما كان علينا أن نرى ما تكتبُ المرآةُ. . .
لن تحمل قضبانُ الهوائيات أنباءً،
ولن تخبركَ القطةُ
قد تعني مناقيرُ اليمامِ الشرفةَ الأولى
ولكنك قد أغلقتَها. . .
منتظراً أن يسقط الثلجُ،
فلم يسقط. . .
وها أنتَ: تدنِّي سُحباً
تسحبها من مركب الريح بخيطٍ واهنٍ،
تمضي بها رأساً إلى الغرفةِ
تلتفُّ بها. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ينهمر الثلجُ!

دمشق، ٧/ ٢/ ١٩٩٩

النسيان

هكذا
قبل أن تفتح المئذناتُ مكبِّرَ أصواتها
قبل أن تفتح الطيرُ أجنحةً
قبل أن تخرق العجلاتُ زجاجَ النوافذِ
في هدأةِ الفجرِ
قبل الرحيل. . .
انتظرتُ السلالمَ
تلك التي سوف تهبط بي نحو لا أين،
تلك التي سوف تصعد بي نحو لا أين. . .
أين الرياحينُ
أين المآذنُ تنعسُ مقلوبةً في المياهِ
الطحالبُ أصواتُها
والسلاحفُ تلثمُ أقمارَها
والسمكْ
يتقافزُ. . .
. . . . . .
. . . . . .

. . . . . .

ما أبعدَ العِرْقَ في الصُّدْغِ

إن كنتَ تختارُ، فاخترْ:

تديرُ رصاصَ المسدس في مخزنٍ أنتَ أفرغتَهُ

أمسِ، واليومَ تُفرغه

ثم تنسى. . .

لتنسى رصاصتَكَ الواحدةْ!

دمشق، ١٣/٨/١٩٩٨

الزائر

لم اسمعْ بكَ من قبلُ
ولم أعرفْكَ
ولم أفتحْ لك حتى نافذةً قد تدخلُ منها
(أبوابي مغلقةٌ)
وإذاً . . .
كيف سمحت لنفسكَ أن تتقصَّدني
أن تستروح أنفاسي
وتحاول أن تقرأ ـ عن بُعدٍ ـ أوراقي
وتخبُّطَ أوردتي
وخرائطَ أعراقي؟
كيف سمحت لنفسك أن تتسلل في الليلِ
إلى مكتبتي
لتقلِّبَ مخطوطاتٍ متْربةً
ومُسَوَّدةً كُتبتْ قبل ثلاثة أيامٍ
كي تسخر بي؟
طبعاً، أنا أعرفُ أشياء

وأكتمُ ما أعرفُ. . .
هل تعرف هذا؟
مثلاً: إنك جئت من المستقبل
من قمرٍ مجهولٍ. . .
لكنك تسخر بي
وتحاولُ أن تقرأ ـ عن قُربٍ ـ أوراقي
وتخبُّطَ أوردتي
وخرائطَ أعراقي. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
وإذاً؟
هل أفتحُ نافذتي؟

عمّان، ٢٨/ ٧/ ١٩٩٩

ذكاء

السُّلحفاةُ
لا تخافُ من الدنيا سوى طيشِنا،
كأنْ نُلقمَها تمرةً بصُنَّارةٍ
أو أن نرى درِعَها لنا دَرْقةً
أو نشتوي لحمَها على شاطئ البحرِ. . .
السُّلحفاةُ
لا تفكِّرُ
لكنها ترى العواصفَ حتى قبل أن تعرف الكلابُ بها،
فَلْنلتفتْ نحو بيتها!
والسُّلحفاةُ
الجميلةُ، اتخذتْ مسكنَها قبوَ الحديقةِ،
الناسُ تأتي
والسُّلحفاةُ تختفي.
الناسُ في البردِ
والسُّلِحفاةُ في الدفءِ.
السُّلحفاةُ
قبلنا عرفتْ ملمسَ مائها في الترابِ. . .

عمّان، ٢٨/٧/١٩٩٩

آلةُ الزّمن

لو أني مع H.G.Wells رحلتُ
بمركبة الزّمنِ. . .
لو أني فعلاً أمضيتُ
لياليَ
في المنأى
ورجعتُ
بوردةِ جوريٍّ أو غصنٍ. . .
هل ستصدّقني
أنتَ؟
وهل في البصرةِ، أو في مُرّاكشَ،
مَن سيصدِّقني؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أنا أمضيتُ
هنا

أكثرَ هذا القرنِ.
أُطَوّفُ بين مزارعكم
ومنازلكم
ولَكَمْ جئتُ بوردٍ وغصونٍ
ولَكَم عدتُ بأمواهٍ وعيونٍ
لكنْ... ما صدَّقني
أحدٌ منكم.
ما كلّمني
أحدٌ منكم.
لم يمنحني أحدٌ، بعد سِفاري،
حتى قطرةَ ماء...

عمّان، ٢٩/ ٧/ ١٩٩٩

القافلة

أوغلتْ قافلةٌ في الرملِ
حتى لم تعدْ تبصر غيرَ الرملِ
قال التاجرُ:
«الدّيباجُ والسَّبْيُ خفيفانِ
سننجو بهما».
قال الهلاليُّ الذي يحملُ سيفاً:
«إن من ضَيَّعَنا في الرملِ
ضاعتْ رأسُه في الرملِ...»
قال العبدُ:
«ما المعنى هنا؟»
قال الدليلْ:
«مستحيلٌ لكَ أن تطلبَ في المأزقِ غيرَ المستحيلْ»...

عمّان، ٢٩/٧/١٩٩٩

المصير

لن يهطل المطرُ، العشيَّةَ
لن ترى القططُ الشريدةُ سقفَها
لن يمسيَ القرميدُ كالخمر العتيقةِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
نحن لن ننجوا من الصحراء
حتى لو نزعْنا جِلْدَنا
حتى ولو نمنا، طويلاً، تحت أَطباقِ الجليدِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ستنطوي حِقَبٌ
وتأتي بعدها حِقَبٌ
وسوف تُلائمُ الدولُ العجيبةُ طبعَها. . .
لكننا سنظل في الصحراء:

نفتحُ مقلةً مقرورةً في الفجرِ
مبتهجين
فالصحراءُ ماثلةٌ بباب الكهف حيث ننامُ
ظمأى مثل ما كانت،
ونحن لها الفدائيّون
نمنحها بقيّةَ ما تَدافَعَ من دمٍ فينا
لتغمرنا بغيضٍ من رمال اللّهِ
والأَشباهِ
والآهِ الأخيرةْ.

عمّان، ٣٠/ ٧/ ١٩٩٩

تدقيق

قال الرسولُ:
«عساكَ تذكرني!»
فقلتُ: «عسى...»
وأطبقتُ الكتابا.
«إن كنتَ أخطأتَ السؤالَ
فكيف تنتظر الجوابا؟
أنا منذ حَلَّ المَحْلُ
أسملُ مقلتي بيدي... لكي أعمى
عن الذكرى وقد أضحتْ يبابا.
.....
.....
.....
لي أن أرى كفِّي
وأقرأَها
فأحسِبَ ما أحاولُه حسابا...

عمّان، ٣١/٧/١٩٩٩

الغياب الأخير

لا بدَّ لنا في هذا اليومِ
ونحنُ حفاةٌ أشباهُ عراةٍ
مسترخون على الرمل الرطبِ
بشاطئ سنغافورةَ ـ
أن نسألَ عمّا جاء بنا، أمسِ
إلى هذا الشاطئِ. . .
عمّنْ مدَّدَنا أشباهَ عُراةٍ
وحُفاةً
في الرملِ المسحورِ. . .
تُرى. ، أَلَدينا مُهلةُ أن نسألَ
أو حكمةُ أن نسألَ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
نسوتُنا أقبلنَ
مع الطبلة والناي وخمر الرزِّ
وثمّتَ من يأتي أيضاً
بأسِرَّتهنّ القصبِ. . .

عمّان، ٣١/ ٧/ ١٩٩٩

غازٌ سامٌّ

لم يعد القتلُ المحضُ
ليبهجَ طاغيةً . . .
لن يُمتعه مرأى المخنوق بسلك الهاتفِ
والميّتِ نزْفاً أسفلَ مكتبه
والمقتولِ بقنبلة في غرفة حمّامٍ
والمتيبّس من جرعة شايٍ
والذائب في حوض الكبريتيك
وذاك الطافي وسْطَ بحيرةِ أسماكٍ
وإلخ . . .
وإلخ . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الطاغيةُ
الليلةَ
مبتهجٌ
بالسرّ :
سيضغط هذا الزرّ . . .

عمّان، ٣١/ ٧/ ١٩٩٩

ثِمار

يا سَعْدَ ما . . .
أنتِ اختطفتِ فريدةَ التفّاحِ
ثم عضضتِها
وركضتِ حتى غبتِ في دوّامةٍ من زئبقِ
وتركتِ لي
الأحلامَ
أجلسُ كلَّ ليلي
أمشطُ الصفصافةَ البيضاءَ
أو أستقطرُ الدُّفلى
وأحياناً أدورُ مدوَّخاً
أسْتَمطرُ الأغصانَ . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كم تقسينَ!
في كفِّي سفرجلةٌ
وفي الأخرى التي تمتدُّ حنظلةٌ
لماذا؟

عمّان، ٣١/ ٧/ ١٩٩٩

REPONDEUR

ليس في الفندق التونسيّ
الكثير. . .
منظرٌ ليس للبحرِ
أو مَطعمٌ في المساء بلا مطعمٍ،
ليس في الفندق التونسيّ
سوى مُزدَهىً للنبيذ. . . إذاً!
قد فهمتِ استغاثةَ ليلي المجفَّفِ:
يا آن
يا آن
باريس!
باريس!
لم تستجبْ ليَ
إلاّ مسجِّلةٌ للجواب!

١٩٩٩/٧/٣١

يومٌ عاديّ

يجلس كلَّ صباحٍ في وسط الغرفةِ
بالضبطِ. . .
فثمّتَ مكتبُه
والأوراقُ
وتلك الزاويةُ المُثلى حيث تلوّحُ نبتاتُ الصبّارِ
بأيدٍ مقطوعةْ. . .
ماذا يفعل كلَّ صباح؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أحياناً
يتذكر أن الرُّبع الخالي ليس بعيداً
أو أن الدايناصورات تقهقه أيضاً،
أو أن الشمس كسيفةْ
والبارات ستسدل منذ الصبح ستائرَها.
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أحياناً

يتذكر أن العالم متَّسعٌ حتى لقصيدة.

عمّان، ٢/٨/١٩٩٩

القرد والوالي

دخلَ القردُ على الوالي،
وقالْ:
«أعطِني ثوباً لكي أستر عوراتي به».
قال له الوالي:
«وهل يُخفي قميصٌ عورةَ القردِ؟»
فقال القردُ:
«يا مولاي... يا مولى الكِساءْ
أنتَ إن كنتَ ترى هذا
فخيرٌ ليَ أن ألبسَ ما تلبسُه أنتَ
صباحاً
ومساءً...».

عمّان، ٢/٨/١٩٩٩

محطّة

الذين يقولون:
سرنا طويلاً على الدربِ
لكننا لم نصلْ...
والذين يقولون: قلنا كثيراً
ولكننا لم نَقُلْ...
والذين يلوبون: مُتنا كثيراً
ولكننا لم نمت...
.....
.....
.....
سوف أبني لهم منزلاً
في الطريق إلى «حُلْمِ آبادَ»...
أبني لهم منزلاً
لأنادمهم
وأغنّي لهم
وأقول: دَعُونا، ولو ليلةً، نستريح.

عمّان، ٢/٨/١٩٩٩

اللّعنة I

حوريّاتُ الجزر الإغريقيةِ
كنَّ بعيداتٍ. . . .
نحن سكارى في البحر الأحمرِ
ـ الخمرُ سرقناها من بيتٍ محترقٍ ـ
وغداً، لن يُبْلغنا المركبُ ميناءً،
سنظلُّ
هنا. . .
أسرى مركبِنا الملعون
أسرى
ملعونين
سكارى
تطردنا كلُّ عواهرِ هذا الشاطئِ
كلُّ مرافئهِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لكنّا
سنظلُّ، برايتنا، مفتونين!

عمّان، ٢/٨/١٩٩٩

حيدر ينام

كالمستريحِ إلى النعاس دقيقتينِ
ينامُ حيدرُ. . .
حولَه الأزهارُ، والشمعُ الطويلُ
وضجَّةُ الناس الذين يغمغمون
ويلعبونَ، لأجلهِ، وَرَقاً. . . (هي الفِلبينُ)
حيدرُ مُغمضُ العينينِ
في شفتيهِ شيءٌ مثلُ شكوى، مثلُ لونٍ للملامةِ؛
كان حيدرُ ناعمَ الخدَّينِ
في أبهى أناقتهِ. . .
نظيفاً
لامعاً
مترقرقَ النُّعمى كعادتهِ،
وكان ينامُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
يا ولدي

قطعتُ الكونَ
أسبِقُ شمسَهُ لأراكَ. . .
يا ولدي،
تفارقُني كعهدك؟
خَلِّني ألمس يديكَ
وخلِّني أخبركَ عن وجَعي
وما صنعتْ بيَ الدُّنيا. . .
لمن أشكو إذا لم أشْكُ عندكَ؟
هكذا انقطعتْ بنا الدنيا. إذاً!
أرجوكَ. . .
يا ولدي،
تَنَفَّسْ بُرهةً!
افتحْ ولو لدقيقةٍ عينيكَ!
أبصر، لحظةً، شيبي
وماءَ دمي الذي يَنْهَلُّ من عينيَّ. . .
أبصِرْني
انتظرْني. . .
كيف تسبقُني.
وتتركُني وحيداً في المفازةِ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

يا صغيري نَمْ
تحرَّرْ
طِرْ بعيداً
واسترحْ من رحلةِ العبثِ الطويلةِ. . .
نَمْ
ودَعْني في الجحيم!

عمّان، ٣/٨/١٩٩٩

تنويعات على اللحظة

I

بـ «مقبرة الغرباءِ»
المساء
يجيء سريعاً . . .
وثَمَّ شُجيراتُ سروٍ
ستسمُقُ من بعد عشر سنينٍ
فلا تكتئبْ
يا بُنَيّ . . .

II

حين وسَّدتُكَ الصخرَ
كان جبينُكَ في وضعه الجانبيّ
هلالاً . . .

III

سوف أرقد مثلكَ :
مسترخياً

أنتَ علَّمتَني
أن أحبَّ التراب. . .

IV

ليس من مُخطئٍ
ليس من خاطئٍ
بشرٌ كُلُّنا
والنوايا. . . عذاب.

V

لن أهيل عليك التراب. . .

عمّان، ٣/٨/١٩٩٩

اللعنة II

أنا، في مُنتبَذي هذا،
منذ ثماني سنواتٍ:
ـ أَشرِطُ كلَّ نهاية عامٍ، بالمُديةِ خطّاً في رُسغي الأيسرِ ـ
جئتُ ولم أعرفْ أنيٍ جئت إليهِ
إلا بعد أن استروحْتُ بعيداً في طرف الشاطئِ
ألواحاً أعرفُها
وحبالاً
وصناديقَ بَخورٍ
وبراميلَ زيوتٍ؛ زيت الخِرْوعِ، زيت الكتّانِ
(إلى آخرهِ. . .)
أعني: أبصرتُ حُطامَ سفينةْ. . .
قلتْ: إذاً، هذا بيتي
وسأرفعُ سقفا
وأُقيمُ حوائطَ سعفا
وأنامُ، إلى أن تأتيني، في الحلم، سفينةْ
. . . . . .
. . . . . .

. . . . . .

مضت السنوات

وكاد السقف يقبِّلُ عشبَ الأرضِ

وطارت سعفاتُ الحائطِ

تتْبع طيرَ البحرِ

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ولكني ما زلتُ بمنتَبَذي هذا. . .

لم يعرفْ بي بشرٌ

لم تَمسَسني امرأةٌ،

لم تسعفْني، حتى في الحلمِ، سفينةْ.

عمّان، ١٥/٨/١٩٩٩

المطارَدة

بِيدٍ مغضّنةٍ
وسكّينٍ
أطاردُ قاتلي
حتى الحياةِ، كما يطارَدُ قاتلُ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لن أستريحَ
ولو لكي أتمالكَ الأنفاسَ،
يأسي نافرٌ
ودمي هو الحُمّى
ويومي مائلٌ،
ويدي مغضّنةٌ
وسكيني تشدّ يدي،
ولكنْ. . .
كلّما أوشكتُ
واجَهَني العراقُ القاتلُ!

عمّان، ١٦/٨/١٩٩٩

إلى زُوّارٍ غربيّين

نسألكمُ، باللّه، لماذا تأتون إلينا؟
نحن رعاةٌ
صعاليكُ
وصيّادو سَمَكٍ قد لا يكفي للقوت اليوميّ
وَأَبَّارو نخلٍ أحياناً.

ومساكنُنا
صوفٌ
أو قصبٌ
أو طينٌ بسقوفٍ من سعفٍ أحياناً.
وملابسُنا
واحدةٌ
لا ألوانَ بها
لا تفصيلَ، ولا أشكالَ
ولا حتى حبكةَ. . .
بل نحن عراةٌ أحياناً.

وإذاً؟
باللّه، لماذا تأتون إلينا؟
أتحبّون النخلةَ حقاً، والصحراءَ؟
تحبّون البيت الصوفَ
ومَلْبسَنا
والطينَ المسقوف؟
لم يتبقَّ لدينا،
نحن المسلوخين إلى أن بانَ بياضُ العظم
ما نمنحكمْ،
نرجوكم. . .

عمّان، ١٧/٨/١٩٩٩

العلاقة

متمدداً
في غرفةٍ سُفلى
تماماً وسْطَ بستانٍ من الليمون والزيتونِ
والتينِ المضوَّعِ في الضحى عسلاً. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ولكنْ
كنتُ أحجبُ مقلتي بيدي،
وأدْرأُ عن مسامعيَ الحفيفَ،
تُرى. . .
هل اعتدتُ المَشاهدَ
فانتهيتُ إلى سواها داخلَ استغراقتي وعمايَ؟
كيف، إذاً، سأفعلُ؟
كيف ألمسُ عالمي، وأراهُ؟
كيف سأهجسُ الصوتَ؟

المتاعبَ وهي حولي؟
الأصدقاءَ؟
وكيف أفعلُ بالمصافحةِ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
النسيمُ مضمَّخٌ بالياسمين

عمّان، ١٩/٨/١٩٩٩

قصائد العاصمة القديمة

(٢٠٠١)

● كُتبت هذه القصائد في العاصمةِ القديمة، لندن، بين ٢٦/١١/١٩٩٩ و١٢/٢/٢٠٠٠، وقد ارتأيتُ نشرَها، مُنَجَّمةً، كما وردتْ، وبلا عناوين، ذلك لأن منبعها حالة واحدة.

● القصائدُ السبعُ، من الخامسة عشرة حتى الحادية والعشرين، وكذلك المطالع الثلاثة الأولى للقصيدة الثلاثين تعتمد تدويرَ السريع وزناً.

س.ي

القصيدة الأولى

سأختضُّ
في هذه الغُرُفات التي في متاهات لندنَ أيضاً. . .
أهذي هي الغُرُفاتُ الأخيراتُ
أمْ هنّ مصطبةٌ عند باب المعسكرِ؟
أم أنها عرباتُ الرحيل؟
أفي بغتةٍ سوف تنزلقُ العجلاتُ
لتمضي بها نحو سهبٍ
بلا عشبةٍ؟
نحو عشبٍ بلا تربةٍ؟
نحو قبرٍ بلا زائرٍ أو زهور؟
تُرى، كيف نسكنُ في الغرفاتِ التي
لم نُبارك مصاريعَ أبوابها
بدمِ الديكِ؟
بالريشِ منتثراً
والأكفِّ الصبيغاتِ؟
كيف السلامُ على الجنِّ فيها،
على ساكني سدرةِ الحوشِ

والحيّةِ الجارةِ. . .
النحلِ والنملِ وهو يشيِّدُ مملكةَ اللَّه فيها؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سماءٌ لها زرقةُ البحرِ في عدنٍ. . .
كيف جاءتْ تقبّلُ عينيَّ هذا الصباح؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
إذاً،
سوف أفتحُ مغلاقَ نافذتي
للشميم الذي قد يجيءُ. . .
سأفتحُ نافذةً
ثم نافذةً
ثم نافذةً. . .
كي أهدهدَ، في العمقِ، مسرى الرياح
وفي العمقِ، أعمقَ، مجرى الجحيم. . .

١٩٩٩/١١/٢٦

القصيدة الثانية

للمساكين في لندنَ، الليلُ. لترٌ من البيرة المكفهرةِ، أسودُ. والباصُ أحمرُ. والخدُّ يبتلُّ فوق الوسادةِ. لن يهطلَ المطرُ. . . الماءُ يسكنُ حتى الهواءَ. . . أَفِقْ! أنتَ لن تبصرَ القطراتِ الثخينةَ ترسمُ أشجارَها وألاعيبَها في زجاج النوافذِ، لن تسمعَ الماءَ صلصلةً أو نشيجاً. بلادُ المغنِّي الذي لا يغنِّي. سماءُ الغراب.

●

والبيوتُ الجنودُ، البيوتُ الطوابيرُ، حيثُ الحدائقُ في الخلف، والقطُّ، والكلبةُ، الورقُ المتشبعُ بالماءِ حتى يخيسَ. الموائدُ والخشبُ المحضُ، والأرضُ تنضحُ. . . في أي بيتٍ، وفي أي زاويةٍ منه، في أي مهوىً، سأتركُ أنفاسَ جَدِّي تغيض بلا رجعة، نفَساً، نفَساً؟

غنِّ لي يا زمانَ الصّبا، غنِّ لي يا غراب.

في المفازات، أو عند مستودعات الخمور، وبين الفواكه هنديةً، تقفُ الشمس. نحن، الملائكةَ الخاطئينَ ـ سنُطرَدُ نحو ظلام الظهيرةِ، ليس لدينا سوى حمل أكياسنا في مفازات لندنَ. فلتسمحي ليَ، أرجوكِ. . لا تتركيني وحيداً مع الكيس. ثمَّتَ ما

أستريحُ له غير هذي النهايةِ. قد يذهبُ الباصُ بي نحو بغدادَ، حيث الغراب.

●

للعراق، الرمالُ التي لا تغنِّي. العماديّةُ ارتفعتْ في الهواء عموديّةً. والجنودُ ينامون تحت صفيح السقيفةِ. كم خلعوا، كخواتمهم، كلَّ أصحابهم. كم تغيبُ السماءُ هنا مثل ما غابت الأرضُ عني هناك... المنازلُ قد تمَّحي.

الطفلُ يرسُمُ في الحلم كرّاسةً،
وأنا سوف أرسمُ طفلاً بكرّاستي.
أنا منذ الظهيرة أرسُمُ...
أين الطيورُ التي سوف تنقرُ عينيَّ؟
أين الغراب؟

١٩٩٩/١١/٢٩

القصيدة الثالثة

Red Lion Pub

حانة الأسد الأحمرِ

(الدربُ يَبلغها عبر مرجٍ ونهرٍ وغابةْ)

كنتُ صادفتُها أوّلاً، كالمحطَّاتِ

تسكنُ لافتةَ الحافلةْ.

ثم جئتُ

(أخوضُ الندى والضحى)

كي أحيِّي، لديها، النهار

وأجلسَ منتصباً

عالياً

في مقدمة البارِ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

لم تبزغ الساقية!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

قلتُ: هل سافرتْ في القطار المدرَّعِ؟

أم أنني جئتُ في يوم عطلتها؟

أم تراها تقبِّلُ عاشقها، خِلسةً؟

أم تراءى لها، أمسِ، وجه المسيح. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

انتظرتُ

ولم تبزغ الساقيةْ

لم يجئني أحدْ. . .

وأنا، لا أزالُ، هنا

منذ خمسين عاماً

أغمغمُ

منتصباً، عالياً، في مقدمة البارِ

أنتظرُ الساقيةْ!

١٩٩٩/١١/٣٠

القصيدة الرابعة

بعد حينٍ، أي قبل أن تعلن الساعاتُ خمساً، ستختفي شجراتُ البيتِ في عتمة المساءِ. سيحكي بعضُنا عن سمائهِ، عن شموسٍ في خيوط القميصِ.

لا . . . كيف تدنو الشمسُ من بيتنا؟ ابتعدنا، وغارَ البيتُ في حفرةٍ، كأنّ صياح الطَّيطوى يملأ المنافذَ: شيلوا! شيلوا! شيلوا!

فكيف تدنو السماءُ؟

لا أقولُ: الحياةُ أوسعُ من أن نتّقي حبَّها . . .
ولكننا في بغتةٍ نستفيق كي نعرف الضوءَ
شديداً، فنغمض العينَ، لا حُبّاً، ولا بغضةً.
غريبٌ! كأنَّ العينَ منذورةٌ لأن تتّقي
ما ليس في وُسعها. غريبٌ! أهذا ما يراهُ
الغريبُ في ساحة المترو؟
أهذا ما ترتئيه السماءُ؟
لن أراكِ العشيّةَ . . .

ابتعتُ خبزي واكتفائي وجبنتي ونبيذي، وأنا الآن جالسٌ لصقَ ذُلِّي ووحشتي، جالسٌ في غفلتي. ذراعي التي أحببتِ مركونةٌ

كقطعةِ لوحٍ، واليدُ المبتغاةُ محضُ عظامٍ. . . أيُّ نجمٍ سيومضُ الليلة؟ ارتحنا من الأحاديث عن نجمٍ وعن خطوةٍ مجوسيّةٍ. . .

لكنْ، هل تستريح السماءُ؟

١٩٩٩/١٢/١

القصيدة الخامسة

زُمراً ثقالاً، أو فُرادى، مثلَ ما يمضي العراقيون، يمضي في متاهة لندنَ الصُّغرى العراقيون؛ لم يتصدَّقوا حتى بومضةِ دمعةٍ أو شمعةٍ. . . لم يَصْدِقوا نبَضاتِهم قولاً، كأنهمو جواميسُ القيامةِ؛

هل أقولُ لهم: كذبتُمْ؟

لم تعودوا، مثل ما كنتمُ عماليقَ القُرى؛ يا إخوتي: أنتم هنا الغرباء، والبؤساءُ، أيتامٌ بمأدُبةٍ مُسَخّمةٍ، وكيسُ قُمامةٍ في أسفل البرميلِ. لا! لا تيأسوا! فلقد يمرُّ بكم، ولِلَحظةٍ، تجّارُ خيبرَ، ثم تدخلُ عصبةُ النخّاسِ، ترفعُ في مقرِّ السوقِ مصطبةً، ويرتفع النداءُ من المنادي: كَمْ؟ ويأتي المشترونَ، وأنتمو تتمهَّلون، سذاجةً، في السوقِ، تنتظرونَ معجزةً، ولستمْ تنظرونَ، كأنكم، حقاً، جواميسُ القيامةِ في مَناقِعِكم، وأكياسُ القُمامةِ. . .

هل سيخرج بينكم طفلٌ عليكم؟

هل سيرفعُ صوتَه، حُرّاً، كصوتِ الطفلِ

يخبركم بما لن تسمعوا؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

يا إخوتي. . .
لسنا هنا في جنّة المأوى
ولا في حانةِ البحرِ القديمةِ
. . . . . .
ربما كنا مع الماضين في كفّ السرابِ،
وربما كنا مع الغرقى الذين تخلَّعتْ، مِزَقاً، سفينتُهم. . .
يطفون كالأحياءِ
كالثمِلين بالماءِ. . .
السفينةُ لم تَعُدْ حتى خطوطَ سفينةٍ
لكنهم يطْفون منتفخي الوجوه على مرايانا،
ثقالاً في الصباحِ، ومثقلينَ بما يُخَدِّرُ في المساءِ. . .
لمن، إذاً، نمضي؟
وماذا نرتجي في لندنَ الصغرى، وفي قنوات هولندا، وفي ثلج السويد، وذلِّ كوبنهاجن؟
النرويج، أو غاباتِ فنلندا؟ وماذا سوف نبني
في ندى سيدني، ومنزلقات مونتانا، وعبر
شمالنا الكنديّ، والمنفى الذي يستغرق المنفى؟
تُرى، هل سان دييغو، ساكرامنتو، إصفهانٌ، أو حديث الليل في دِيْترويتَ ما جئنا له في هذه الدُّنيا؟ وهل صدّامٌ الخنزيرُ صخرتُنا التي سنظل ننطحُها بأوردة الجباهِ، ووردةِ الباراتِ، ننطحُها لننسى بعد حينٍ أننا صرنا لها الأتباعَ. . .
إخوتيَ العراقيين!

إخوتي الأُلى وطأوا بأحذيةٍ من الإذلالِ والتَّسآلِ
أغنيةَ العراقيين، شامَتَها، وتِبْرَ جبينها الوضّاءِ:
ما طعمُ الحياة، إذا نسينا أننا بشرٌ لنا وطنٌ
وزاويةٌ وأسماءٌ؟ وما معنى الحياة إذا غدتْ
دكّانَ محتالينَ. . .
يا أبناءَ إخوتيَ العراقيينَ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
فلنذرفْ، ولو شمعاً، ولو دمعاً من التمساحِ. . .
ولنحفرْ عميقاً في ملابسنا
وفي راحاتنا
فلعلّنا نلقى، مع النُّكران، أنفسَنا
ونعرفُ ما نريد. . .

٢/ ١٢/ ١٩٩٩ ـ ٢٢/ ١/ ٢٠٠٠

القصيدة السادسة

خيّالةُ الفجر

دربُنا الدربُ الذي لا ينتهي

يا ظهورَ الخيل، يا بيت البهيّ

يا قميص الفجر، دعني أزدهي

فلقد أكشفُ يوماً وجهَها. . .

ها، ها، ها!

ربما كان لها البيتُ الذي ينهضُ أقصى السفح، مخضرّاً غريباً في ضباب الفجر، أو كان لها البيتُ الذي يخفيه في الوادي انعطافُ النهر، حيث السَّروُ مكتظٌّ. ومَن يدري لعلَّ الأهلَ راحوا مَعَ من راحوا. . . لماذا، وحديَ الباقي على العهد؟ على الصورة حتى لو نأتْ ألوانُها، وامَّحتِ الذكرى؟ لماذا تنتهي الرحلةُ دوماً عند أبواب البيوت؟

●

مَن تناديني لتحيي القصبا؟

وتغنِّيني حجازاً وصَبا؟

أيها الفرسانُ: أبصرتُ الصِّبا!
إنه يصبغُ ورداً وجهَها. . .
ها، ها، ها!

هكذا كنتُ، إذاً؟ أضألُ نبتٍ يتراءى غابةً لي. . . أيُّ غصنٍ يستوي كوناً وراء الكونِ. . . أيُّ امرأةٍ تغدو هي المعبودةَ الأولى. . . عجيبٌ أن أرى في لحظة الحبِّ الصباحيِّ، انهمارَ الثلج! ماضٍ أنا في الدرب الذي ليس له معنىً سوى الدرب. . . أهذا ما رآهُ فدارسٌ قبلي، وقد أغمض عينيه على الحلم الشتيت؟

نحن إن جئنا نفضْنا الثلجَ عنّا
وانتظرنا فتحةَ الباب قليلاً ودخلنا
يا بناتِ البيت، يا دفءَ المُعَنَّى
من رأت منكنّ يوماً وجهها؟
ها، ها، ها!

كيف لم تسمعْ بنا القريةُ؟ منذ اللحظة الأولى لقتلِ السبعةِ الفرسان في غابة أيّوبَ، تعالتْ صيحةُ الطيرِ وفَزَّ الهدهدُ. . . احتدَّ نداءُ الطَّيطوى. . .

أنتَ تقول: الناسُ لم تعرف بما كان هنا من أمرِنا. . .
يا خيبةَ المسعى!
ويا وحشةَ هذا الفارس الناجي من السيف!
إلى أين سيمضي؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ربما فكَّرَ إذ مَرَّ على الحانة، ليلاً، أن يموت. .

١٤/ ١٢/ ١٩٩٩

القصيدة السابعة

بدرٌ على تلك العمارات التي لم تبْنِهنَّ رئيسة الوزراءِ
لندنُ، في البعيدِ
الطائراتُ تحوم كلَّ دقيقةٍ
لتحطَّ في ليلٍ بلا ليلٍ
وتُقلع في النهار بلا نهارٍ،
وحده، مصباحُ شارعنا يُلائمُ طبعَهُ
متلفلفاً
ليقول إن الليل ليلٌ
والنهار هنا نهار. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أمسِ
حاوَلَتِ ابنتي أن تسلكَ الطرقَ
التي قد وطّأتْها قبلها الفتياتُ. . .
خابتْ في المحاولة ابنتي

وخَبَتْ
وخفتُ، أنا البعيدُ،
لأنّ هذا الليل، أشبهُ بالسفينةِ
آنَ يجرفُها
وقد تقطَّعت الحبالُ، المدّ. . .
عفوَكِ
يا ابنتي
لا تصمتي. . .
قولي، ولو خطأً، رجاءً!
قبل أن يأتي على أمراسِ بيتي المَدّ. . .

١٩٩٩/١٢/١٥

القصيدة الثامنة

إبَرٌ جليدٌ تحت أطرافي
كأنّ يدي معلّقةٌ بحبلٍ في الهواءِ؛
يدي تراوغني. . .
- يمرُّ سربٌ من نوارسَ -
أيها المتعلِّقُ البحريُّ:
لو كانت سماؤك غيرَ هذي
لاغتذتْ من شمسها عيناي
وانتفضتْ مع النُّعمى يدايَ. . .
كأنني أنا؛
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لا سبيلَ
فهل سيُمسي السلسبيلُ
المنبعَ الليليَّ (أعني المَشْرَبَ السُّفليَّ) أيضاً؟
هل سأتركُ قمّتي

لأخوضَ في ما يُشبه الوادي؟
وهل أمحو، بلا أسفٍ، علاماتي، ونجمي
كي يلوحَ لي الدليلُ
بلا دليلٍ؟
أم تُراني باحثاً عن جِذْعةٍ ومَدىً
وعن بحرٍ وموجٍ مُستحيلٍ. . .

١٩٩٩/١٢/٢٦

القصيدة التاسعة

مطرُ الصباحِ
معلَّقٌ بشجيرة التفّاح إذْ عَرِيَتْ
تويجاتٍ من الماسِ
اللآلئِ
أو من الورقِ الزجاجِ. . .
شجيرةُ التفّاحِ
تلبسُ عُريَها، شفّافةً
شفةً مفتّحةً
ودفئاً مُستسرّاً في الشتاء.

١٩٩٩/١٢/٣٠

القصيدة العاشرة

البيتُ ذو المدخنة الوحيدة التي يَطْلُع منها
كلَّما راقبتُها، الدخانُ
البيتُ ذو المدخنة الوحيدةِ
اكتفى بشبّاكٍ أرى منه ضياءَ العيد أحياناً
وأحياناً أرى منه ظلالاً
وثيابَ امرأةٍ منشورةً في آخرِ الغرفةِ
أو مائدةً بلا صحونٍ. . .
(يمرق النورسُ):
في العمق
أرى سفينةَ الغرقى.

١٩٩٩/١٢/٣٠

القصيدة الحادية عشرة

لم آتِ مدينتكم (لندنَ) كي أعرفَها
وأقيمَ بها. . .
أنا جئتُ أخضُّ مياهاً راكدةً
وأراقبُ مركبةَ الموتى
تحمل أشلاءً، كي تُسْكنَها أرضاً باردةً. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لم آتِ مدينتكم، كي أعرفَها
فأنا أعرفُها
ولقد كنتُ أقمتُ بها، منذ صباي
ولي فيها الرِّفقةُ:
أُودِنُ،
والاسكتلنديُّ الراقصُ: روبرت بيرنز
والإيرلنديُّ الأولُ: جون بتلر ييتس
ولي فيها ليلُ جراهام غرين

ومجلاتُ العمال
وتاريخُ حُفاةٍ وشيوعيين
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لكني سأظلُّ هنا
لأخضَّ مياهاً راكدةً
وأراقب مركبةَ الموتى
وأخوضَ حروباً أكرهُها. . .

٣٠/ ١٢/ ١٩٩٩

القصيدة الثانية عشرة

يا بهجةَ الصبح المبكِّرِ، يا. . . ويا طيفاً من الغابات مُسْتَرِقاً
تمهَّلْ عند بابي!
يا جسمَ موسيقى
ويا حركاتِ أغنيةٍ متمتمةٍ. . .
لكَ الغدواتُ والرَّوحاتُ
والأطرافُ عاليةً
وسابغةُ الفراء الأصهب، اللفتاتُ
والذّيلُ الذي ضفرتْهُ أنملةُ الأميرةِ. . .
سيدي!
يا ثعلبي، يا ثعلب الغاباتِ
أبشِرْ!
أنت، لستَ، هنا، الوحيدَ. . .
(كأنكَ استفْتَ الأمانَ معي!)
دعوتُكَ
فاستجبتَ بلفتةِ الطاووسِ
ثم مضيتَ، أصهبَ
لامعاً

متبخترَ الخطواتِ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

شكراً، يا أمير الصبحِ

شكراً للبشارةِ

والبشير. . .

١٩٩٩/١٢/٣١

القصيدة الثالثة عشرة

«إلى ياسمين»

في أكْسِتَرْ،
حيث تلوذينَ من الكونِ
بسروالِ سوادٍ،
ومن الأسْوَدِ
بالبرق الذي يسكن عينيكِ،
ومن عينيكِ
بالشَّعر الذي ينهدُّ في الهدأةِ موجاً. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ربما فكّرتُ أن أمضي بعيداً في مدى عينيكِ،
أو في دورة السروال إذ يُحْكم ردفيكِ
وقد أعدو إلى الحافةِ
كي يغمرني شَعرُكِ بالموجةِ. . .
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ما أسعدني في هذه البلدةِ!

ما أعمقَها من وحشةٍ في هذه البلدةِ!

ما أبعدني عنكِ. . .

وإن كانت مراياكِ ممرّاتِ الحديقةْ!

Exeter ٧/ ١/ ٢٠٠٠

بيت زليخة أبو ريشة

القصيدة الرابعة عشرة

لو أنّ هذا الشجرَ الواقفَ آلافاً
وآلافاً
على امتداد السككِ الحديدِ
أو مَسالكِ البريدِ
استيقظَ، الغبشة، من سُباتِهِ. . .
لو أمرَ العروقَ أن تنتأَ،
والجذورَ أن ترفعَ من قاماتها،
والنُّسغَ أن يمضي بعيداً، وعميقاً،
هكذا. . .
والورقَ الذابلَ أن يخضَرَّ
والمُسَّاقِطَ اليابسَ أن يَحْمرَّ في أغصانهِ
لو أنّ هذا الشجرَ استنكرَ أن يمتثلَ اليوم، فقط، للدورةِ الحَتْمِ،
ولو سارت صفوفُ الدَّوحِ
وانشقّتْ على ما تقتضي غاباتُها. . .
كيف سيغدو العالَمُ؟
الناسُ؟

وألوانُ السماءِ/ الأرضِ؟
هل يأتي المغنّون لكي تنطلقَ البوقاتُ؟
هل يَحكم قردٌ مثل ما كان رعاياهُ؟
وهل تنفتحُ الأبوابُ، كي يخرج منها الذاهلونَ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
امتثلَ العقلُ، أخيراً، للجنون.

١٠/ ١/ ٢٠٠٠
Exeter - London

القصيدة الخامسة عشرة

لم تَعُدِ النساءُ يمنحننا ممّا لديهنّ القليلَ
الكثيرَ. البردُ في الأطرافِ، والجمرةُ الجمرةُ
مرَّتْ كقطارٍ أخيرٍ. هذه الأزهارُ ما شأنُها؟
أهْيَ لِوَعْدٍ؟ أم لأنَّ الضميرَ استوقفَ
اللحظةَ في لحظةٍ كاد جناحٌ عندها أن يطيرَ؟
الماءُ في الأشياءِ، لكننا نحسُّ طعمَ الرملِ
في قُبلة الليلِ، فهل يمضي نهوضُ الفجرِ بي
نحوها؟ هل أهصرُ الخصرَ، كما كنتُ؟
هل أسألُها الغفوةَ؟ هل أدخلُ فيها؟
البرجُ في البُعدِ
وفي أعلى الصنوبراتِ الشمسُ
يومٌ آخَرُ...
النوارسُ استوطنتِ المرجَ
وفي خيط قميصي ضَوْعةٌ من شَعْرها،
لمسةُ نَهْدَيها
وشيٌ من بَخور...

١٨/١/٢٠٠٠

القصيدة السادسة عشرة

أيُّ مساءٍ ينتهي عندما لا ننتهي؟
أيّ سماءٍ هنا لم تنتفضْ آنَ انتفضْنا،
وإن مُتنا، فهل كان علينا معاً أن
نغسلَ الأدرانَ، أن نمنعَ العدوى
التي تسكن بين الضلع والضلع.؟.
الأساطيرُ احتمتْ بالورقِ، الناسُ
احتمتْ بالراية الخضراء، بالصمتِ الوليّ،
الراحةِ العظمى، أبو تمّام، المرأةُ
في مخدعها مهجورةٌ، منتوفةُ العانةِ،
ماذا ترتجي؟ لا بأسَ أن ندخل في
العالمِ، عُريانينَ، أسمالاً، سكارى...
يا فتىً لم يلتفتْ
يا لفتةً لم تأتِ
يا طفلاً سماويّاً...
هنا، في الهدأة، اشتقْنا إلى الموجةِ
واشتقنا إلى الموتِ،
انتظرنا أن نرى وجهكَ...
لكنك لم تمنح براري روحنا إلا الذّهول.

١٨/١/٢٠٠٠

القصيدة السابعة عشرة

لو دامَ والشامَ هوىً! لو رأتْ
عيونُنا ما لا تراه العيونُ. . . انتبهَ الوردُ
ولم ننتبِهْ والسُّرَّةُ ـ الحلمةُ، واليانسونُ
الفمُ، والماءُ الذي في الغصونِ. . .
انتظريني، لستُ أدري لماذا جئتُ
أجري حاملاً زهرةً، مرتبكاً في شبكاتٍ
الشؤونِ. . .
الساحةُ اكتظَّتْ
وهَبَّ الحَمامُ
الكلبُ والقيثارُ. . . والرقصةُ
الغادونَ
والرائحونْ. . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
وههنا
وحدي، أنا الأعمى
أسمعُ ما ضجَّ به الصامتون. . .

١٩/ ١/ ٢٠٠٠

القصيدة الثامنة عشرة

من جاءني في مطرٍ لا أراهُ؟ اللعنةُ
المُثلى، ولونُ الشفاه المستفزّات على
حافةٍ تنقرها في الهدأة الطائراتُ،
انتهت الحربُ ولم نبتدئْ، كأننا نسكنُ
بيتاً به الكانونُ والكُنُّ ومستلزَمُ
العيشِ رخيّاً ورضيّاً. . . فهل تسألُنا
البومةُ عنّا، وهل نسألها عمّا ترى
فجأةً، في مَوْهِنِ الليلِ. . .
أليس الظلامُ النورَ؟
هل هذا السّرابُ الذي نلمحه، الحقُّ؟
وهل هذه القطرةُ كأسُ المنتهى؟
هل لنا ألوانُنا
أم أننا الكامدون؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ليتَ الليالي أورثتْنا الجنون. . .

٢٠/١/٢٠٠٠

القصيدة التاسعة عشرة

أعيا، فلا ألقاكِ، بين المحطّاتِ
وبين البارِ والآخر. . . اشتقتُ لكي نهدأَ
حيناً، وأن نعقدَ أيدينا، وأن نغمضَ
العيونَ، ساعاتٍ، بِوادي السريرِ. . .
استقبِلي، يا بنتُ، أشجانَنا، باسمةً
ظمأى، ونَهداً يطيرُ، الليلةَ الليلةَ
لم تمطر السماءُ، لكنّ الملاءات ندىً
من حريرٍ أو شذىً أو عَرَقٍ، سُرّةٍ
أو إِبطٍ. . .
في أي أرضٍ يسيلُ البحرُ؟
في أي بحارٍ ستطفو أرضُنا. . .
يا جمرةَ الزمهرير؟

٢١/ ١/ ٢٠٠٠

القصيدة العشرون

غيّبني هذا المساءُ الذي يبدأ في الرابعةِ
الرطبةِ. اخترتُ نبيذاً ورغيفاً وجبناً. . .
هذه مرساتُنا، يومُنا، والأملُ الباقي.
مضى السائرونَ.
الناسُ في الرابعةِ الرطْبة. الناسُ سكارى،
الناسُ موتى؛ فهل وحدي أنا الباقي؟
لماذا؟ وهذا النهر لم ينشفْ. إذاً، فلأَمضِ،
ولْأَمضِ إلى القرارة السفلى.

٢١/ ١/ ٢٠٠٠

القصيدة الحادية والعشرون

أدورُ في حبسي طليقاً
ولا أختلسُ النظرةَ من سُورهِ العالي
لأني في المساءِ الخفيضِ
اجتزتُ بوّابةَ روحي،
لأني اعتدتُ أن أرسُمَ سجناً
وأن أُطْلِقَ طيراً فيهِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ليس الجناحُ
الهَمَّ.
إن الهمَّ ما يرتقيه. . .

٢١/ ١/ ٢٠٠٠

القصيدة الثانية والعشرون

حالكاً، يقترب الغيمُ
بطيئاً
قاسياً
قادراً في الفجر أن يطفئَ حتى الشمسَ
أن يطفئَني في لحظةٍ. . .
أريدُ أن أرفع رأسي، خوفَ أن يغرقَني.
ثمَّتَ قرميدٌ يذود عن حُمرتهِ؛
صنوبراتٌ تحرس اخضرارَها. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
مدخنةُ البيتِ الذي أرقبهُ كلَّ صباحٍ
من زجاج غرفتي
ترسلُ، في الصمتِ
دخانَها. . . أبيضْ.

٢٨/ ١/ ٢٠٠٠

القصيدة الثالثة والعشرون

عندما تجلس «أشجانُ» إلى شُرفتها
(أعني إلى البيرةِ)
لا تعرف، حقاً، ما تريد. . .
ربما عَنَّ لها أن تفتح الوردةَ
أو تمتصَّ غصناً يانعاً،
أو تشتهي. . .
لكنها (أسرعَ من بيرتها) تُسرعُ
كي توصدَ باباً من حديد. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هكذا لُعبتُها:
لا تترك الكأسَ،
ولا تتركني أنالُ منها ما تُريد. . .

٢٩/١/٢٠٠٠

القصيدة الرابعة والعشرون

وليكنْ!
لن يغمرَ، الليلةَ، ثلجٌ، هذه الأشجارَ
لن يَبْيضَّ سورٌ
وسيبقى السقفُ في لون النبيذِ،
الريحُ ترتاحُ على الأرصفةِ المبتلّةِ
النافذةُ الزجاجُ غامتْ بالرذاذِ. . .
الليلُ يهوي في أقاصي الليلِ،
والصرخةُ تلتمُّ عميقاً
وتئنُّ. . .

٢٩/ ١/ ٢٠٠٠

القصيدة الخامسة والعشرون

ليس هذا قصباً يهتزُّ تحت الريحِ
ليس العُشُبُ الميّالُ بُرديّاً
وليست سروةُ المنتزَهِ النخلةَ. . .
ـ طبعاً!
وإذاً، ما طَعْمُ ما تكتبُه الآنَ
عن القَصْباءِ
والنخلةِ
والبرديّ؟
هل تخدعني بالعودة المُثلى إلى النبعِ؟
وهل تُقنعني أنك تشكو من حنينٍ؟
أهيَ اللعنةُ؟
أم رِجفةُ هذا الصبحِ. . .
والبردُ
وما تكنزهُ من قسوةٍ هذه الحياة؟

٣٠/ ١/ ٢٠٠٠

القصيدة السادسة والعشرون

من سطحِ القرميدِ المخضرِّ
الفاقدِ حمرتَهُ،
وتماماً عند يمين النافذة الأقصى. . .
تتهدَّدُ في الريح أعالي شجرةْ
تتمدَّدُ
أو تتبدَّدُ. . .
أغصاناً عاريةً
أغصاناً أربعةً
أغصاناً لا أعرفُ كيف أُسمِّيها
أغصاناً لا تحملها شجرةْ
أغصاناً تتقصَّفُ في الريحِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
تُرى،
في أي تُرابٍ سوف تُمرِّغُها هذه الريح؟

٣٠/ ١/ ٢٠٠٠

القصيدة السابعة والعشرون

لو كان لي أن أُمسيَ الغيمةَ
لاشتقتُ إلى كأسٍ من الماءِ. . .
ولو أني غدوتُ الجبلَ الشاهقَ
لاشتقتُ إلى سهلٍ. . .
ولو أوغلتُ في الرملِ
رأيتُ النجمَ مرآتي. . .
ذراعي كجناح الطيرِ
لكني، بها أبلغُ ما لا يبلغُ المحراثُ:
أن أصنعَ من مائدة الأحجارِ
معنىً لي
ومعنىً لِدَهاليز الحياة. . .

٦/ ٢/ ٢٠٠٠

القصيدة الثامنة والعشرون

عبر زجاج النافذةِ، الغائمِ بالمطرِ
المترقِّطِ بالقطراتِ
تلوحُ صنوبرةٌ في البُعدِ،
القطراتُ من النافذةِ التصقتْ بالأغصانِ
القطراتُ تخطِّطُ في البُعدِ صنوبرةً،
وتضيءُ . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كأني أهجسُ، في الغرفةِ، أجراسَ الميلادِ
تروح، على مهلٍ، وتجيء . . .

٧/ ٢/ ٢٠٠٠

القصيدة التاسعة والعشرون

ياما. . . لماءِ الوردِ
ياما للشَّآمِ
وما لأهلِ الشامِ
ياما. . . للغصونِ
وللعيونِ
ياما. . .
كأنَّ الماءَ من قصبٍ يسيلُ
كأنَّ ناياً سال تحت الماءِ؛
هل ليلى
وهل خُصُلاتُ هالةَ
وارتعاشةُ غادةَ الهدباءِ
بيتي، والقصيدةُ. . .
أم تُراني أرتجي شفقاً وقد غامَ السبيلُ؟
ياما. . . لماءِ الوردِ
ياما للشّآمِ
وليتَ زُنّاراً تداعبهُ أناملُ غادةَ الهَدْباءِ
يعرفُ ما تقولُ. . .

٧/ ٢/ ٢٠٠٠

القصيدة الثلاثون

ـ ١ ـ

ليس لديّ الآن، مما عرفْنا أمسِ، إلا
هذه الأغنياتُ المستريحاتُ إلى حافةِ الحلْمِ،
إذاً. . . ماذا ترانا نقولُ؟ اليوم حلُم الأمسِ،
والأمس لم ينطقْ به إلا شعاعٌ وحيدٌ.
دارةُ العشّاقِ قد أُغلقتْ. وتاه في القفرِ
المريدونَ. إن اللحظةَ الشهقةَ ماءٌ بعيد.

●

ما من يومٍ سابعٍ/ السماءُ لا تستريح من ثوبها/
ربما كانت مذكَّرةً في لغات هذه الأقاليمِ/ الرصاصُ
يترسَّبُ في نسيج الدماغ/ والطائرةُ المدنيةُ التي
تقطعُ عُرضَ النافذة الآن/ تصل إليّ عبر الزجاج
المزدوج/ مثل هدير الطيران الحربيّ/
إسرائيلُ تمطرُ أحياءَ بيروتَ الفقيرةَ بالمنِّ
والسَّلوى/ قد تبزغ الشمسُ فجأةً هنا/ مثل ما
كان القصفُ يتقطَّعُ هناك/ لنا ملجأُ الصنائعِ أو

رأس بيروت/ وفي هذا الصباح الذي تثقلُه
أنفاسُنا/ لا ملجأَ من الملجأ/ نحن في العاصمة القديمة.

ـ ٢ ـ

ما أعجبَ الدنيا، وما أعجبَ المفتونَ بالدنيا!
أليستْ حياةُ الناسِ دربَ الموتِ؟ هل تُولَدُ
الوردةُ في البذرةِ، أم أنّ ما يولَدُ لا هذا
ولا ذاك.؟. إن البذرةَ ـ الوردةَ ما قد تراهُ
العينُ. أين ارتحلَ المبصرونَ؟ المطرُ الصامتُ
لم ينقطع... والشجرُ الماثلُ عاري الغصون.

●

الأباضيون/ أودعوا تخومَ الربع الخالي أوراقَهم/ هناك
محنة الكتاب الأخيرة/ وِقفتُه الشجاعةُ الماكرة/ المغيرون
ذوو الحواجب المنعقدة ينتظرون لحظَتهم/ السالميُّ الذي
احتمى ظَهرُهُ المستدقُّ بكثبان التخوم/ يقرأ مخطوطتَهُ
مطمئناً/ كما يقرأ النجوم/ في الصحراء الإفريقية العظمى
أقمنا قرانا السبع المقدسة مستضيئةً بالمخطوط/
كان الأتراك وراءنا/ وغُلاة المذاهب/ وكنا نحرس
بالرمل ذُبالةَ السُّلالة/ لكننا هنا/ في التخوم الخطرة/
مدادُ المخطوطة تَبْيَضُّ عيونُه من السُّهد.

ـ ٣ ـ

لو مَرَّ سربٌ من يمامٍ على الشرفةِ،
في هذا الضحى. . . هل تراني سأنادي مثل
ما كنتُ ناديتُ زماناً؟ يا زمانَ الصِّبا،
يا أيها الواهبُ صوتاً للدمِ النافرِ، معنىً
للكلامِ الخبيءِ. . . اللحظةُ التفَّتْ على بعضها
وانتبه البُرديُّ واللوتسُ. اليمامُ ما مَرَّ،
وهذا الضحى يشحبُ، والكونُ صغيرٌ صغير.

●

في بحر العرب/ أضعنا أوراقَنا/ لا ميلادَ لنا
ولا موت/ نحن قادمون من قارةٍ ضائعة/ ذاهبون
إلى قارة ضائعة/ وفي ليل البحر الأحمر حيثُ
تعتمُ المرافئُ/ تحملنا سفينةُ قراصنةٍ رايتُها المطرقةُ
والمنجلُ/ ثوريّون أفارقة يعودون إلى غاباتهم/
بزوارقَ مطّاطٍ مموّهة/ والعربُ يعضّون على المُدى
بأسنانهم/ ويلاحقونهم على سواحل شرقيّ إفريقيا/
لقد نجونا/ سفينةُ القراصنة تقتحم ثلاثة بحار/
مسلّحةً بكلبٍ ذئبيٍّ وحيد.

ـ ٤ ـ

تنتقل الغيومْ
وئيدةً

في شفقٍ ليس به حُمرةُ أيدينا
ولا حنّاءُ شَعرِنا. . .
تنتقلُ الغيومْ
خفيفةً
عند الضحى العالي
ولا تكشف عن شمسٍ
ولو كانت سراباً معدِناً. . .
تنتقل الغيوم
ثقيلةً
في الغسق الأولِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ما حكمةُ هذا الكونِ؟
ما حكمةُ أن نذوي هنا؟

١٢/ ٢/ ٢٠٠٠

مُلْحَق

ما بعد الارتطام

غِياب

تُفسح لي
ما بين نهديها، مكاناً
لستُ أدري ما الذي تفعله حواسِّيَ الخمسُ بهِ. . .
تقول لي ضاحكةً:
«يكفيكَ أن تشرب من حليب لوزي قطرةً»،
أيتها المرأةُ
يا مِرآة شخصينِ بلا مَرْأى:
أنا المغيَّبَ، اللحظةَ، في نهديكِ
عن كل حواسّي. . .
لن أفيقْ!
هكذا، أيتها المرأةُ
يكفيني من الوردِ الرّحيقْ. . .

لندن، ١٢/ ٤/ ٢٠٠٠

الغراب

يحجلُ
في الفجر، إلى مقصورة الهاتفِ
عبْرَ الشارع الخالي. . .
الغرابُ الشيخُ
يأتي
أسحمَ المنقارِ
والريشِ
رزيناً
يقطع الشارعَ من أي مكانٍ شاءَ
ـ إلا معبرَ المارّةِ ـ
والآن. . .
خفيفاً يعتلي السورَ
كما في خفّة العصفور
أو صقرِ الأعالي. . .
يعتلي السورَ الحديديَّ إلى مقصورة الهاتفِ
كي ينقر شيئاً غائباً في الريحِ

كي يحجل حيناً قبل أن يمضي مع الريحِ
ثقيلَ العبءِ ممّا استافَه في الريحِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
قد يأتي إلى مقصورة الهاتفِ
سربٌ من حمامٍ
بعد حين. . .

لندن، ١٩/ ٥/ ٢٠٠٠

المقبرة البولونيَّة

إلى محمد شكري

ـ ١ ـ

نحن، في لندنَ.
المقابرُ فيها مثل أبهى البيوتِ،
والبيتُ مثل القبرِ.
فلنتَّفقْ على أننا لم نبنِ ههنا، مثلَ ما كنّا بنيناهُ
في دمشقَ؛
المقابرَ.
الغرباءُ استسلموا للعراءِ، يا زينبُ الحوراء
لا تشمتي بنا:
الناسُ هَبّوا
والسكارى في ليلة الأحدِ
العاشقُ يستقبل العشيقَ،
هنا حاناتُهم...
فأين قبورُ الأهلِ؟
أين الذين ظلوا ينامون طويلاً تحت التراب المخْضَلِّ؟

تحت النجمِ؟
أين السفينةُ؟
السِّدْرُ والمَغْسَلُ، الطّوافُ
وتلك الأعينُ الدامعاتُ من مَغْرز الرملِ؟
النهاياتُ لم تكنْ. هي لم تبدأْ
وهذا المساءَ ندخلُ في البارِ
كأسناننا، سواسيةً
نسْلبُ ركْبَ الغضا
ونسبي العذارى...
نحن، في لندنَ، التي تشتهي أجداثَنا، حين نحسبُ الدارَ دارا.

ـ ٢ ـ

لم تكن في البعيدِ
كانت تماماً تحت شبّاك غرفتي
شجراً غائماً، سأسألُ عن أسمائه مرَّةً....
ولكنْ، لماذا؟
أكتفي منه بالصنوبرِ والسَّروِ
وصفصافةٍ مهدَّلةٍ تبكي...
السناجيبُ ترتخي
وطيورُ الليل، والزائرون
والعشبُ والصلعوكُ...
في سلّة القُمامةِ كانت عُلَبُ البيرةِ،

الشطائرُ مقضومةً إلى النصف. . .
كان الجندُ مصفوفينَ في موتهم بلا شجرٍ،
والضابطُ المهندسُ
والطيّار
والمدفعيُّ
ينعمون عميقاً
تحت أشجارِهم ومرمرِهم. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أيَّانَ، تحنو، تحنُّ، وارشو البعيدةْ. . .

ـ ٣ ـ

سوف تأتيكَ نخلةٌ
سَتَراها
حينما تدلهمُّ دنياكَ في الليل الأخيرِ
الجذعُ يدنو
حتى يلاصقَ شُبّاكَ الغُرَيفةِ،
السعفةُ الطُّولى ستمتدُّ
بغتةً. . .
سَتَراها
تتخطَّى الزجاجَ

واللوحَ
والقرميدَ
كي تصبحَ الوسادةَ
والبسمةَ،
والرِّيشَ
في جناحِ الأميرِ
الأميرِ الذي يطيرُ بعيداً
رافلاً في سحابةٍ من حريرِ. . .

لندن، ٢٣/ ٥/ ٢٠٠٠

الوقفة

حظُّنا، أيتها النخلةُ
أن نهتزَّ إن مرَّتْ بنا عاصفةٌ:
نقوى مع الريحِ:
ولا نهوي... لنهوي.
حظُّنا أن نَنشدَ الماءَ
وأن يُحرقنا الضوءُ...
وحظٌّ أننا نعطي، ولا نعطَى
وحظٌّ أننا نلبس ما ننسجه حسبُ،
وحظٌّ أن ما يجمعنا والنجمَ حُبٌّ...
.....
.....
.....
أتراها: نعمةً أم نقمةً؟
لا بأسَ
إنّا، لم نزل، أيتها النخلةُ
أبهى الواقفين...

لندن، ١٩/ ٥/ ٢٠٠٠

الشاحنة الهولنديّة: الخزّان

نحن عراقيون
قتلْنا ملكاً في ٥٨
ونحن الآن، طماطمُ، في ثلاّجة شاحنةٍ
تدخل من هولندا
لتُسَلِّمنا، موتى، بردانينَ. . .
لماذا؟
هلْ لي أن أسأل توني بْلَير:
إن كنتَ تريدُ لـ «لندنَ»
ألاّ تُمسي «مستعمَرةً» لعراقيين
فلماذا لا تطردُ صدّامَ الواحدَ
كي نرجعَ نحنُ،
ونحن ملايينٌ أربعةٌ
نحن ملايينٌ أربعةٌ من عشرين. . .
١/ ٥ الأرضِ
و١/ ٥ خطوطِ العرضِ
و١/ ٥ القرن الواحدِ والعشرين. . .

لندن، ١٩/ ٥/ ٢٠٠٠

الحديقة المنزلية

لن تكون حديقتُكِ اليومَ
أو بعد عامينِ
أجملَ من مقبرةْ. . .
أنتِ في ساوِث إيلنغَ
والمقبرةْ ـ
بعد عشرين متراً إلى الغربِ
عشرين متراً، فقط. . .
ربما أقبلتْ في المساءِ القططْ
ربما قطع الثعلبُ، السورَ، فجراً
ربّتما انفتحت وردةٌ
غير أن الحديقةَ، مثلَكِ، تمضي بطيئاً
لتدخلَ في المقبرةْ. . .

لندن، ٢٣/٦/٢٠٠٠

الطائرات

تمرقُ الطائرات
عبر نافذتي، كالزوارقِ
ـ هذا الضحى مُشْمسٌ ـ
والسماءُ، إذاً، هي زرقاءُ. . .
يحلو ليَ اليوم أن أستظلَّ بتفّاحةٍ
أو أطيرَ على ريشةٍ
أو أنامَ إلى أن تنبِّهني شوكةُ العقربِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الطائراتُ التي مرقت سوف تتبعها طائراتٌ
وهذا الضحى مشمسٌ
والسماءُ الغريبةُ زرقاءُ،
أمّا أنا
فسأسحبُ، حتى نهايات رأسي، الغطاء. . .

لندن، ٢٣/٦/٢٠٠٠

أُمْنِيَةٌ

يلزمني، هذا اليومَ، قليلٌ من ماءٍ
وقليلٌ من خبزٍ
وكثيرٌ من رملٍ. . .
يلزمني بحرٌ
أو صحراءُ. . .
وإن كان الرُّبعُ الخالي لي وطناً
فلماذا أتوطَّنُ
أو أستوطنُ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

لا يلزمني غيرُ قليلٍ من ماء
وقليل من خبزٍ. . .

لندن، ٢٣/٦/ ٢٠٠٠

Diamonds

ماسٌ على السياج
ماسٌ على أوراقهِ، داكنةِ الخضرةِ
والماسُ على ما يُحكم الرَّتاج
في منزلي. . .
ها أنذا، أضيعُ بين الماس والماسِ
مَناجمي: الأوراقُ إذ تخضَلُّ من أمطار أمسِ
المسِّ،
والمَلْمسِ
والماسِ الذي أمسى الأظافيرَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
مساءٌ
سوف يُنسى
مَيْسُها، مَتْنُ الفراشي الخشنِ، الصوفُ
الذي يجرح ردفيها. . .
هي الماسُ الذي يحمرُّ

يخضرُّ
ويصفرُّ . . .
سأنسى الماسَ
أنسى الناسَ
أنساها . . .
ولكنْ لستُ أنسى مَيْسَها
مَتْنَ الفراشي الخشنِ
الصوفَ الذي . . .

لندن، ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٠

عجائب

لو كانت السماء
غائمةً،
لما رأينا زرقةَ البحرِ ولا الغبشةَ فيها. . .
أتُرى، إن كانت السماء
زرقاء هكذا،
فمن أين أتانا المطرُ الصائتُ كلُّهُ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
منذ ثلاثٍ
وأنا أغيمُ
والسماءُ
صافية؛
والمطرُ الصائتُ أجراسٌ من الهواء.

لندن، ٥/٧/٢٠٠٠

حياة صريحة

(٢٠٠١)

١

القصيدة مهداة إلى فلاح الجواهري

أمِّي،
قالتْ لي يوماً:
«يا ولدي،
حينَ أتيتَ إلى هذي الدنيا
أحسستُ بخطفة برقٍ في عينيّ...»
وأمي تعرف أني أعرفُها
لم أنظر في عينيها، لم أعرف لونهما
(لا شكَّ هما سوداوان)
لكني أشعرُ كلَّ مساءٍ أني أتباركُ
بالدمع المنهلِّ من العينين عليَّ...
أنا، الابنِ الضالِّ، المسكينِ
الضائعِ بين سماوات القاراتِ
كنجمٍ أفْلَتَ...
.....
.....
.....

يا أمِّي:
غطِّيني بحرير ترابِكِ
بالنور الدافقِ من عتمة قبرِكِ
غطِّيني بالفوحِ
ولونِ حليبكِ. . .
ما هذي القريةُ، يا أمِّي؟
يا ما طوَّفْنا في الطرقاتِ
ويا ما أطْلَلْنا من شرفاتٍ نسألُها عن معنى
لكني لم أعرف، يا أمي
إلا قبل ثلاثة أعوامٍ، أنّ الدنيا سجنٌ
يسكنه موتى. . .
لم أعرفْ، إلا قبل ثلاثة أعوامٍ
أنكِ، وحدَكِ، كنتِ صديقةَ عمري
وحديقةَ أحلامي. . .

■

كنا في كوخٍ من سعفٍ وجذوعٍ
كوخٍ في بستان النجديِّ
بناه أبي بيديه العاريتين. . .
الجدولُ يلمس باب الكوخِ
ويلحسُ أطرافَ القدمين بأسماكٍ من فضَّةْ.
ما كان الكوخ لنا منتجعاً صيفيّاً ـ
كان المنزلَ. . .

أذكرُ أنّا كنّا نهبط في الماءِ
ونلبطُ في الماء
ونمسكُ سطحَ الماء كحيّاتِ الماءِ
لقد كنا الفقراءَ
ولا نعلمُ أنّا فقراءُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ولكنّ الصيف سيمضي
لتغور إلى القاع الأسماكُ وحيّاتُ الماء
وستأتي الأمطار
سيأتي البرد
ويأتي جوع الزرزور. . .
ونَبْتَلُّ، ونحن نيامٌ، بالمطر المتنزِّلِ من سقف الكوخِ
ونضحكُ
نضحكُ
مرتجفين، نُقضقضُ أسناناً أرعدَها البردُ
وأطرافاً أنهكها الجوعُ
وأسألُ أمي عن مأوى. . .

■

الآن
أكاد أرى وجه أبي الغائمَ. . .

ـ ما أبعدَ هذا المنتبَذَ البحريَّ بأبراج كنائسهِ
عن قريتنا، حيث يغيم النخلُ ـ
ولكني أُغمضُ عينيَّ لأبصرَ وجه أبي. . .
كان جميلاً
جَدِّي قال له في المهدِ:
«أنا، أسميتُكَ يوسفَ. . .»

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

لا أتذكَّرُ أني كلّمتُ أبي
لا أتذكّرُ أنّ أبي كلّمني. . .
لكنّ الوجه يلحُّ عليّ الآن:
كوفيّتَهُ البيضاءَ
الأنفَ المرهَفَ
والعينين الواسعتين. . .
هل لي أن أسألَ إن كان أبي أجلسني
كالعصفورِ
على كتفيهِ؟
لماذا لم أسألْ أمِّي عنهُ؟
أتراني كنت أضنُّ بصورته البيضاء على الذكرى؟
هل كنت أُكَوِّنُه؟

هل كنت أُشكِّلُه حسبَ هوايَ،
وأمنحهُ الصورةَ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

والآنَ. . .
وفي هذا المُنتَبَذِ البحريِّ
(المطرُ المتقطّعُ منذ الفجر اغْتَزَر. . .)
استروحتُ شميماً من دشداشتهِ. . .

٢

جلستْ دمشقُ، صغيرةً، في راحة المعشوقِ
تضفر، دون أن تدري، منائرَها، جدائلَ
ثم تلبسُ ليلَها ذهباً. . .
وتَأْرَجُ غوطةً، جوريّةً
ومساحباً للزعتر البريّ والرمّانِ. . .
ما أبهى دمشقَ!
وما أحَنَّكِ خطوةً أُولى إلى المنفى. . .
سأذكرُ أنني علّقتُ خلف الجامع الأمويِّ بيرقَ رحلتي
وفتحتُ باباً لا أزالُ أسيرَ ساحتهِ:
العريشةِ، والطيورِ، وزهرةِ اللبلابِ
والزُّلَّيجِ، أزرقَ أخضرَ. . .
ابتعدتْ سماءٌ
وادَّنَتْ
وتبادلتْ مدنٌ مواقعَها
تبدَّلتْ العوائدُ. . .
غير أنك لا تزالين الصغيرةَ، ذاتَها، في راحة المعشوقِ
خطوةَ دربه الأولى إلى المنفى

وبيرقَهُ. . .
سلاماً!
كان ذلك نصفَ قرنٍ، يا دمشقُ
وكنتُ من الأُلى حفروا الخنادقَ حول اسمكِ يا دمشقُ. . .
ألستِ أنتِ الراحَ والريحانَ
والصيفَ المؤرَّجَ بالندى؟
لك طَلُّ هذا الليلِ إذ ينهلُّ
أغنيةُ المدائحِ كلِّها
وصريرُ بابٍ لا أزالُ أسيرَ ساحتهِ. . .
عميقاً في دمشق!

■

تأتي الكويتُ إليَّ، عبر السورِ، حيث أجاورُ الصحراءَ
كان البيتُ شيئاً كالتخومِ:
البئرِ
والرملِ الذي يعتاش ممّا تقذفُ الصحراءُ،
يربوعاً نحاولُهُ
وضَبّاً لا يحاولُنا
فيدخلُ خِلْسةً من مَسْرَبٍ في السورِ،
قد كنا الثلاثةَ، إخوةً ضاعوا:
الفلسطينيَّ
والسوريَّ
والغاوي العراقيَّ. . .

المساءُ مضمَّخٌ بروائحِ الصحراءِ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أحياناً يقلِّبُ «خالدُ المسعودُ» أوراقي

يقولُ:

«هَلا! شيوعيٌّ على أرض الكويتِ. . .»

البحرُ عند «السالميّة» مطمئنٌّ الموجِ

سوف نبيتُ ليلتنا هنا

ونُسامرُ الأمواجَ، يا. . .

ما أغربَ الأزهارَ، في البَرِّ:

الربيعُ يُقيم خيمتَه، ويدعونا إليه

إلى عرائسِه

التي قفزتْ من البحرِ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

الكويتُ بعيدةٌ

بيتي بعيدٌ

والنساءُ خذلْنَني

وتبعْنَ غيري. . .

■

أنا من يَعدُّ أصابعَ الكفِّ الوحيدةِ
كي يعيدَ حسابَها،
ويعدُّ ثانيةً. . .
فيخطئُ؛
غير أني حين تأتي القيروانُ
أقولُ: هذي الأرضُ أرضي،
حَرُّها، وغبارُها، ونساؤها الخفِراتُ. . .
لي منها التمهُّلُ:
آيةٌ للذِّكْرِ أتلوها
وعتمةُ مسجدٍ
وبخورُ زاويةٍ بلا معنى سوى ما يهدم المعنى.
ولي منها التبذُّلُ:
حانةٌ أكلتْ مقاعدَها القناني والشتائمُ
كلَّما غادرتُها عادتْ
أرائكُها الدمقسُ، وقولُها الرؤيا. . .
ولي منها التحوُّلُ:
أن أُنَقِّلَ في القرون دواخلي وخُطاي
مشتبكاً بتاريخي
أسيرُ مع الجنود، اليوم، نحو البحرِ
أو أغفو غداً، فتكون تمبكتو
أنا التاريخُ

والريحُ التي لا ترحمُ التاريخَ . . .
مَن يهذي؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

هلاليّون نحنُ
وحظُّنا أن نذرع الدنيا!

٣

كانت أيام شباط ٦٣
قارسةً. . .

في مرابع قبيلة الزولو (بجنوبيّ إفريقية) يُقتل الأطباءُ السحرةُ الذين خرقوا القانون، قتلاً غريباً.
يُذبحُ ثورٌ، ويُسلَخ، ثم يخاطُ على الرجلِ المذنبِ، داخل الجلد الطريّ، ويُترك في العراء مكشوفاً.
عند الغروب يكون الرجل مات؛ كان بمقدوره أول الأمر، أن يتنفس من خلال الثقوب، لكنّ الجلد ينكمش، بطيئاً، مع الوقت، فيُخمد أنفاسه.

كريدو مُتْوا
من كتابه «شعبي»

والفندقُ غادَرَهُ الناسُ سريعاً في الفجرِ
هبطتُ إلى الصالة:
ليس بها غير غرابٍ يتنكّر في هيئةِ فلاحٍ
كوفيّتُه بيضاءُ
وعيناهُ على التلفزيون. . .

لم يكن تْسيلا من قبيلة الهوسا، قَطُّ. كان ابن سفاحٍ، جاء إلى مرابع الهوسا شابّاً في العشرين. حصل على قطعةٍ أرضٍ حيث ابتنى كوخاً. جمع حوله عصابةً من القتلة والمطرودين، وسرعان ما صار يُرهب المنطقة كلَّها من موقعه بجبال ماتولا. كان نحيفاً، ناصلَ لون البشرة، ذا مزاجٍ عكرٍ. في عينيه حَوَلٌ خفيفٌ، وفي فمه التواءٌ دائم. كان شجاعاً، متهوِّراً، قاسياً، يقتل بدمٍ باردٍ، ويشرب كثيراً. هوايتُه نهبُ الماشية، واغتصابُ النساء.

ك. م

أبيضَ
أسودَ
كان الشارعُ،
أسمعُ إطلاقَ رصاصٍ
تمرُقُ طائرةٌ سوداءُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
إلى أين سأمضي؟
من يُلجئني في هذا الصبح البارد؟
من يمنحني البسمةَ والشايَ؟
الشارعُ يقفز أكثرَ
أبيضَ

أسودَ
أسمعُ خَطوي. . .
أنا وحدي في الشارعِ.
أين سأمضي؟

■

كان البحر قبالةَ بيروتَ صقيلا
مثل الشارع قبل الحربِ. . .
وكانت أوراقُ الحُبِّ مبعثرةً مثل مُقَوَّى أيّوبَ؛
أنا في الدور الثامنِ:
أكتبُ يوميّاً
أسكرُ يوميّاً
وأنامُ قليلاً. . .
البحرُ هنا، في هذا الشاطئِ
من إيست بورن EAST BOURNE
يدفع أمواجاً ونوارسَ
نحو الشارعِ. . .

أحمد الزين، الروائي الآن، أعطاني الشقّة. جاء شقيقُه الأكبرُ ليأخذه من بيروت إلى طرابلس. ترك لي أحمد زيتاً ومؤونةً، وسؤالاً عن الحياة. الشقة تطل على السفارة الألمانية المغلقة. رأس بيروت يشتعلُ بالاحتمال. أمس رأيتُ امرأةً تقاتلُ.

كان البحر قبالةَ بيروت ثقيلا
مثل رصاص السفنِ الحربيةِ. . .
مثل هدير صواريخ الطيران الإسرائيليّ،
ومثل حياتي. . .
أين سأمضي؟
أتكون فلسطين الثورة دائخةً مثلي؟

فلاح الجواهري، الرسّام الآن، أعطاني الشقّة. جاء صديقه ليأخذه إلى النورماندي. ترك لي رسومه المائية، وأوصاني أن أسدل الستائر، كي لا تدخل الشمس الغائبةُ دوماً. الشمسُ التي لو طلعتْ لأتلفتْ رسومه.

أنا في شقّتيَ الأرضيةِ
لا أبعُدُ إلا عشراتِ الأمتار عن البحرِ
تداهمني صيحاتُ النورس في الفجرِ
فأفتحُ عينيّ على صمتي
وعلى النّمر المربوطِ بقبوِ البيتِ. . .
وأقولُ: لماذا؟

سعدي يوسف، صديقي الآن، أعطاني هذي الغرفةَ الطائرة. أمّا هو ـ أعني سعدي ـ فقد قدَّم قلباً للّجوء السياسي بلا

معنى. تركَ لي أوراقَه بيضاء، وشراشفه بيضاء، وخصلاتهِ بيضاء. عجيبٌ أن أكون في غرفته الطائرة... ربما أمسيتُ مثله!

كان البحر قبالةَ بيروت جميلاً
كان الخطرَ الأولَ
والموقعَ
والمنزلَ
كان الموجةَ والمدفعَ
كان البحر، قبالةَ بيروت، يواجه معنى البحر...

■

طابورُ الدبّابات الروسيّة يحرثُ ساحلَ أبْيَنَ
نحو عدنْ...
وسحابةُ بارودٍ وسوادٍ تحجب كل سماء عدنْ
جبلٌ بركانيٌّ يتفجّرُ
يدفع كل ذخيرةِ جيش الفقراء
إلى الرئة الكبرى...
يدفع بالنيران الحمرِ، الصفر، البيض، الخُضرِ
إلى رئتي...
أنا، في المدرسة الحزبيةِ
بيتي في مرمى الهاونِ...

بعد قليلٍ يقتحمُ الجبليّون ذوو الجِلدِ الرثِّ
المدرسةَ الحزبيةَ. . .

هذه المدينة ستُؤخذ. إن لم يكن ذلك بأيدينا، ففي الأقل بأيدٍ أخرى مثل أيدينا، لكنها أقوى. أقوى ربّما لأنها تصلّبتْ أفضل بسبب ضعفنا. ولئنْ هُزِمنا، فإنّ رجالاً يختلفون عنا تماماً، ويشبهوننا تماماً، سوف يسيرون، في مساءٍ مماثلٍ، بعد عشر سنين، أو عشرين (لا يهمّ الزمن) على الشارع نفسه، متأملين في الظَّفَر ذاته. وربّما فكّروا بدمنا. الآن، أنا أراهم وأفكِّر بدمهم الذي سوف يراق أيضاً. لكنهم سيأخذون المدينة. قال داريو: أما القلعةُ فلسوف نستولي عليها من الداخل.

فكتور سيرج

لا ماءَ،
ونحفر في الرمل عميقاً. . .
لا ماءَ
ونحفر في الروح عميقاً
لا ماءَ. . .
وطابورُ الدبابات الروسية يحرث ساحلَ أبْيَنَ
نحو عدن. . .
وعقيدٌ روسيٌّ (كان يدرِّسُ فلسفةَ)

يهمس لي: انتهت القصةُ..
قلتُ: ولكنّ الناس تقاتلُ في الشارعِ
قال: ألا تبصر طابور الدباباتِ؟
سنرحلُ بعد غدٍ...
قلتُ له: لن أرحلَ...
كم كنتُ ـ وحتى هذه اللحظةِ ـ مفتوناً:
أنا، حقّاً، لم أرحلْ...
.....
.....
.....
لكنّ البحر الأحمر يأخذني
البحرُ الأحمرُ يأخذني تحت ستار رصاصٍ وقذائفَ.
منبطحاً...
أهجسُ تحتي عشبَ الساحلِ رَطْباً
وتئزُّ على رأسي صَلْياتُ الرشّاشاتِ؛
هنا أيضاً نخرج من بيروتَ
ولا نحمل غير حقائبَ خيشٍ
وهنا أيضاً يدفعُنا الملجأُ نحو البحرِ...

ليس لنا أن نكون محبوبين!
علينا أن نكون دقيقين، واضحين، أقوياء عنيدين، مسلَّحين:
كالمكائن...

علينا أن نضع أمامنا مشروعَ هَدْمٍ ضخماً، وأن نرتمي فيه بكل ثقلنا، إذ لا حياة لنا ما دام العالمُ على حاله.

ف. س

سأحملُ
مثل البهَقِ الناصعِ
ناموسَ الثورةْ...

٤

■ موقف السيبة

لا يمكن أن تلمح «شطَّ العربِ» المتمهلَ قربكَ
إلا من زاويةٍ يصعبُ أن تأخذَها. . .
زاويةٍ تبدأ من أقصى قضبان الموقف حتى وجه الشرطيّ الحارسِ؛
تحتدّ الزاوية الصعبةُ
يحتدُّ النبضُ
وفي البُعدِ ـ القربِ، يُلَوِّح نهرٌ
وتَلوح قواربُ،
لكنّ عناق النهر، أشقُّ هنا، من أي عناقٍ لامرأةٍ. . .
يتيبَّسُ عنقُكَ ملتوياً
والشرطيُّ سيصرخُ:
إن لم تجلس في ذاك الركنِ
جَلدْناكَ إلى أن تدمى
مشدوداً بالحبلِ إلى فَحْلِ التُّوتِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

النهرُ يواصل رحلَتَه نحو البحرِ
يواصلُها
مختفياً عن عينيكَ
ومحتفياً بك في الحلمِ. . .
«السيبةُ»:
أبناءُ الخالة ينطلقون بزورقهم
بحثاً عن أخشابٍ أو أطعمةٍ يلقيها البحّارةُ
و«السيبةُ»:
عُطلتكَ الصيفيّةُ
والمعبرُ نحو الضفة الأخرى. . .
و«السيبةُ»:
مأواك الآن
وماؤكَ
والقضبان. . .

■ سجن نقرة السلمان:

ما بين بادية «السماوةِ» والحدودِ العائمات من الدمِ الوثنيّ والرملِ، الحدودِ المستجيرةِ من نهار الوقْدِ والأحقادِ بالليل الذي ترتادُه الذُّؤبانُ، ليلِ البردِ والتهريب، كانت «نقرةُ السلمان» ترفع سورَها وتردُّ عن أبراجها العشرين أفواجَ القبائل والجرادِ. أكان جونْ

غْلُوب يعرف أن قلعته ستغدو سجنيَ؟ البدوُ الأُلى كانوا المغيرينَ العتاةَ استبدلوا بجِمالهم عجلاتِ تويوتا، وبالحصنِ المطيَّنِ ناطحاتٍ للسحابِ، وبالخيولِ بُراقَ «جَمْبو جَتْ». أقاموا في متاهِ الرملِ عاصمةً وسمَّوها الجِنانَ، وهكذا سيقول لي نوري السعيدُ: «اسمعْ! أطعْ! العقْ حذائي أو أقِمْ في نقرة السلمانِ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

مندفعٌ قطارُ الموتِ بين معسكر الوشّاش أو سجنِ الرشيد العسكريّ وبين أغنيةِ النّواحِ. أكُفُّنا

تهوي على البابِ الحديدِ، تَدقُّ، دُقَّ، تدقُّ
دُقَّ، تدقُّ، دُقَّ، تَدقُّ، دُقَّ. . .
وهل يوارينا قطارُ الموتِ مندفعاً إلى أن تنشفَ
الأجسادُ فيه، فيستوي قبراً من الفولاذ؟
لم تعد الأكفُّ تدقُّ. لم تعد الأكفُّ. ولم تعُدْ.
لم. . .
كانت الأنفاس تخبو، والعيونُ تغيم، والأيدي
تَهَدَّلُ؛ والقميصُ العسكريّ كخرقةٍ مبتلّةٍ.
يمضي القطارُ مقعقعاً.
تمضي المحطاتُ الصغيرة في الفضاء بهيمةً، كالليل.
والهدفُ: السماوةُ!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

«نقرة السلمان» هادئةٌ. وكنّا هادئينَ
مع المساءِ. الليلُ في الصحراء يرسلُ بردَهُ
ونجومَهُ. . .
في بغتةٍ، يلقي قطارُ الموت، مختضّاً، حمولَتَهُ.
«السماوةُ» أقبلتْ بالماءِ والأسماءِ؛
أمّا نحن، نحن الهادئينَ، المترعين بنعمةِ
السجنِ الغريبِ، فإننا قد نُرهفُ الأسماعَ.
قد نُصغي إلى الأرض التي شهدتْ مَواطئَنا
سنينَ
سنينَ
سوف نظلُّ أحراراً. . .

■ سجن بعقوبة
كالنهر، ينعطف الطريق مضمّخاً بالبرتقال
مبللاً، بالظلِّ،
والجسرُ يبدو عابراً؛
فالماءُ ثَمّتَ. . . في الغصون وفي الهواء
كأنّما «بعقوبةُ» السّلوى، وقد لمّتْ عناصرَها

أرختْ كفَّها الخضراءَ
فانبسطتْ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ولكنْ، ما وراء الانعطافة
سوف يعلو السجنُ
سوف يقول للآتين، بالصفعات والركلاتِ:
«جئتم كي تقيموا في عروقي
تصبحوا لحمي
وأنفاسي
تكونوا السجنَ». . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كان السجنُ مكتظّاً
وكنا في مساءٍ شاحبٍ نأوي إليهِ
وقد خبتْ أحداقُنا من رحلة الصحراء
تطوينا كحزمةِ عوسجٍ. . .
هنا سنقيمُ
صفّاً بعد آخرَ، نحسِبُ القضبانَ

نخرج بُرهةً لنحرِّكَ الأطرافَ
ثم نعودُ
مرتبكينَ
أشباحاً
إلى زنزانة النسيان
حيث السجنُ نحنُ
وحيث لا يتشكل السجّان.

٥

■ وداد

كانت ودادُ صغيرةَ النهدينِ
أصلبُ من سفرجلةٍ وأجملُ، نهدُها
الشفتان سوداوانِ
من قُبَلي . . .
وسُرَّتُها محارةُ لؤلؤٍ؛
بيضاءَ كانت إذ نضت عنها القميصَ
وغمغمتْ: حُبِّي!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ودادُ، الدفقةُ الأولى لنبعي
الدفعةُ الأولى
وأوّلُ من أحِنُّ لهُ،
وقد عصفتْ بنا، وبأهلنا، الأبراجُ
واخترقتْ زجاجةَ عُمرنا الأمواجُ
ماذا، يا ودادُ؟

فأيَّ خطٍّ للقطار سلكتِ؟
أيُّ سفينةٍ عبرتْ بكِ الدنيا؟
وأنَّى. مرّةً، أوطنتِ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

يوماً، في المتاهةِ، جاء صوتُكِ. . .
كنتُ مرتبكاً
وقد أدميتُ، في استغراقتي، شفتي
إلى أن ضاع صوتُكِ في سديم العالم القاسي

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

سأبحث عنكِ
أبحثُ عنكِ
حتى أنتهي من هذه الدنيا

■ آني
يا آنُ،
يا آني. . .
أنا!

لم تتركي شيئاً:
مصصتِ يدي، أصابعَها
وعُضوي
والندى المنهلّ من عُضوي...
شربتِ
وما أكتفيتِ؛
فهل تُعادُ القطرةُ؟
ابتعدي قليلاً،
غادِري، حتى ولو في جُبّةِ النّعسانِ
واتَّرِكي على ثلج المُلاءةِ
ما أسَلْتِ:
الصَّمغَ والدّمَ والسفرجَلَ
والبَخورَ...
.....
.....
.....
سأحتفي بكِ...
أختفي بكِ،
أمهليني لحظةً، لأنامَ
عنكِ...

■ أوكتافيا

تقوم الليلَ، أوكتافيا، قياماً
وتهجرني إذا طلعَ الصباحُ
أحاولُ مُهْرَةً فتروغُ طيرا
وألمُسُ جمرةً فالروحُ راحُ
على قسَماتها ضوءٌ وظلٌّ
وتحت ثيابها قصصٌ مِلاحُ
تظل تطوف في الحانات حتى
تقولَ الكأس: أينَ بنا يُراحُ؟

بين السادسةِ، الصبحَ
والسادسةِ، المغربَ
تُمضي أوكتافيا يومَ العمل القاسي
في إحدى الحاناتِ
تقدِّمُ خمراً
وتُعدُّ شطائرَ
أو تضغطُ قهوةَ اكسبرسو. . .
أحياناً تخرج من خلف الكونتوارِ
لتوصلَ فنجاناً أو كأساً
(رَبُّ العملِ المتحفزُ كان يهودياً). .

وأوكتافيا ترى العسلَ المصفَّى
بكأسٍ ملؤها ماءٌ قُراحُ
إذا سكرَ الزبائنُ قدَّمتْها

لهم جَرَساً، فراحوا واستراحوا
أراقبُها على بُعْدٍ، مكاني
بأقصى الحانِ، أسمعُ ما يتاحُ
فإن حلَّ المساءُ دنوتُ منها
لأصحبها، فتصحبني الرياحُ
كأنّ شميمها راووقُ خمرٍ
تكدَّسَ في حوافيهِ الأقاحُ!
تخرج من حانتها
(حيث العمل المأجورُ)
لتدخلَ في أُولى حانات الشارعِ؛
لكنّ لأوكتافيا الآنَ، الأُبَّهةَ المثلى. . .
تختار لنا طاولةً
تجلسُ، عنقاءَ، وقد وضعتْ في بهجتها
الساقَ على الساقِ
وتومئُ كي تأتيها ساقيةٌ،
تطلبُ ما تطلبُ. . .
تغمزُ لي:
ها أنذا حُرَّةْ!

٦

■ بار جبهة النهر
أبحثُ عن هذا البارِ
وتبحث عن هذا البار معي
أرملةٌ ضيّعت ابناً في الليلِ
نُسائلُ عن ضفةٍ
ورصيفٍ ينأى أمتاراً عن ضفةٍ
ونُسائلُ عن أخشاب الهندِ
وقد نبتتْ لبلاباً ونبيذاً
وملابسَ بحّارةْ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في أيام تبدو الآنَ سماءَ خريفٍ
وطيوراً متطامنةَ الطيرانِ. . .
ولسعةَ بردٍ رطبٍ،
في تلك الأيام دخلنا محتفلين إلى البار
خفافاً

وخرجنا محتفلين
ثقالاً
ثم نهلْنا ماءً يتقطَّر من سعف النخلِ
مزيجاً بضباب النهرِ
وبالملحِ
وبالعَرَق المتبقي من أنخاب البارِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لماذا لم نجلس في الحانةِ
حتى تبيضَّ سوالفُنا؟
ولماذا غادرناها قبل الغَبَش الباردْ؟
ولماذا لم نجلس في الحانةِ
حتى تنجابَ فصولُ العالمِ عن فصلٍ واحدْ؟
فصلِ ربيعٍ أبديٍّ
وغناءٍ خالدْ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
إن طالت رحلتُنا،
فلأنّ الحانة ضاعتْ؛ مَثَلاً:
بيعتْ للتجار وللقوّادين

أو غرقتْ
أو دُكْتْ بمدافعَ من أممٍ شتّى
وجيوشِ سماسرةٍ جشعين. .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لكنّا،
لكني (أتحدَّثُ عن نفسي حسبُ)
سأبلغُها
حتى لو أفلَ العمرُ
وخلَّف لي بضعَ سنين!

■ الحانة الأولى
حانةُ سيدوري
عند البحر تماماً
لا تبعد غير ذراعين عن الماءِ
(البحرُ هنا يهدأُ. . .)
لكنّ الأمواجَ تُرشرشُ أحياناً بابَ الحانةِ
رَشْ. . . رَشْ. . .
وطوال الليل توشوشُ. . .
عبر القصب المتطاول غاباتٍ في البُعد توشوشُ

طولَ العمر توشوشُ
يأتي الملاحون إلى حانة سيدوري
والفلاّحون. . . نَعَم!
(كانت أوروك تفيض ثراءً)
والحانةُ كانت وشوشةً ووساوسَ
كانت تعبر أسواراً
وبحاراً
وبحيراتٍ
وتَغَلْغَلُ من أبوابٍ مغلقةٍ
وثيابٍ مقفلة الأزرارِ
وآذانٍ لم تسمع غير تراتيل الكاهنِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
حانة سيدوري
تكتب في أوروكَ رقيمَ سؤالٍ
سيظل سؤالاً. . .
سيدوري ليست ساقيةً
هي ماثلةٌ، حقاً، بين دنان الخمرِ
ورائحةِ البحّارةِ
والمرتحلين. . .
ومائلةٌ، حقاً، بالنهدين إلى الملكِ المتنكرِ

(كانت عرفتْهُ. . .)
لكنّ لسيدوري أبّهةَ امرأةِ المعبدِ،
يأتي الناسُ إليها من آخر عالمهم
من أسوار مدائنهم
من قَصْباءِ قُراهم
والناسُ، إليها، يستمعون
أما الخمرُ
فليستْ غير تضرُّجِ خدٍّ
ورفيفِ فمٍ
وبريقِ عيون. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
حانةُ سيدوري بابُ البحرِ
وحانةُ سيدوري: البابُ إلى ما لا يُغْلقُ
والبابُ إلى ما لا يُفتَحُ،
حانةُ سيدوري:
البابُ إلى بيت المجنون. . .

■ خواطر في البار الإيرلندي

صيحاتُ طيرِ البحر توقظني، فأفتحُ مقلتيَّ على الكنيسةِ. شارعٌ خالٍ. نهارَ السبت. لن أسقي نباتات الحديقةِ، فالسماءُ تغيمُ. ماذا

يحملُ المطرُ المؤجَّلُ لي؟ أغمغمةَ اسمِها؟ قسَماً بمائكَ أيها النهرُ البعيدُ لأُحْسنَنَّ قراءةَ الأنواء والأهواء. . . لي كونٌ أراه الآن في كفّي. أقَلِّبُه. أُرقِّصُه كخرزة عاشقٍ زرقاءَ. أقذفُه قليلاً في الهواءِ وألتقيهِ. الطفلُ يلعبُ. غير أن طفولة الفقراءِ تطوينا بلا لُعَبٍ. من الصلصالِ نَبْرأُ سلحفاةً، ثمَّ نأكُلها. جياعٌ نحن. هذا العالَمَ القاسي سيُصبحُ في غدٍ، أقسى. ضبابٌ في الصباح. وعبر مسالكِ الكورنيش كان الأغنياءُ المتخَمون يهرولون. هياكلاً منخورةَ الغُضروف كانوا. لَلّصوصِ كتيبةٌ أيضاً. . . لماذا لا أُقلِّبُ في الهواءِ العالَمَ المنحطَّ؟

أقْلبهُ إذاً!

لأرى على باب الكنيسةِ جسْمَهُ يهتزُّ مقلوباً. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

صيحاتُ طيرِ البحرِ توقظني، فأفتحُ مقلتيَّ على الفنادقِ. ثمَّتَ الغُرفاتُ عاليةٌ وغاليةٌ. وفي الأبهاءِ، في خَبْتِ المساءِ، تهفُّ أرديةُ الحرير، ويصطفي الساقي نبيذاً نادراً، أوصى به اثنانِ يعتنقانِ. طاولةٌ بعمق الرُّكنِ مُزهرةٌ. عشاءٌ من غِلالِ البحرِ. تمضي ساعتان، وينهضُ الاثنان معتنقينِ. . . تبدو البنتُ سكرى في تَرنُّحها. سيُفتح مصعدٌ.

ستكون أغطيةُ الفراشِ نظيفةً جداً.

هي الغُرفاتُ عاليةٌ وغاليةٌ. . .

سأدخلُ قاعةً في «نقرة السلمانِ» أبحثُ عن مكاني!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

صيحاتُ طير البحر توقظني، فأفتحُ مقلتيَّ على رفاقي.
راحوا، وما ارتاحوا. ولا تركوا على زند الحبيبةِ
مِيسَماً. أخذتهمو الشركاتُ والشبكاتُ والدولُ
الحقيرةُ. بعضُهم ما زال يسلخ جلْدَه المسلوخَ
حتى استعربتْ من شأنه الأفعى، وبعضهمو تعمَّدَ
سَمْلَ باصِرتَيه. آخرُ قد تكسَّرت السلالمُ وهو
يجهدُ في تسلُّقها. . .
سأذكرُ أنهم كانوا
وأذكرُ أنهم راحوا وما ارتاحوا
وأذكرُ أنهم ظلُّوا، وإن رحلوا، رفاقي!

٧

■ شَطُّ العرب

هل أحلمُ، في هذا الصبح الماطرِ،
أن آتيَ صوبَكَ؟
لن تحملني طائرةٌ
لن أرحلَ في غرفة بَحّارٍ
أو في موقد حدّادٍ
أو عبر كهوفٍ من حجرٍ بركانيٍّ ومياهٍ وظلامٍ
أنا آتيكَ وفي كفّي رَسَنٌ لِبُراقٍ
وعلى شفتي أسماءُ عراقٍ أتهجّاها
حرفاً
حرفاً
أتلوها سبع تلاواتِ
ثم أُذَوِّبُها
لأذوبَ بها إذ أشربُها
قطرةَ ماءٍ منك. . .

يا صاحبي، راح من يطوي الفيافي، راح
واظْلَمَّت الأرضُ لمّا اظلمّت الأرواح

يا صاحبي، فَزَّ طَيري من غرابٍ صاح
يا حيفَ «شطِّ العربْ» . . . يا خيبةَ الملاّح
سأحلمُ، في هذا الصبحِ الماطرِ،
أن آتي صوبَكَ . .
أن أدخلَ، ملتبساً، كالقطِّ، بمائكَ؛
(قُدِّسَ من ماءٍ) . . .
ادخل، كالمجنون، إلى سامرّاءَ
لكي أوثقَ بالحبلِ إلى أحدِ الأعمدةِ؛
امنحْني، يا من قُدِّستَ
المغفرةَ الكبرى
وامنحني، يا من قُدِّستَ
كرامةَ أن أعرى
أن أدخلَ في الماءِ
كما كنتُ
وأن أَنطقَ
في المهدِ المائيِّ صبيّا،
وامنحني الضعفَ
لكي أقوى . . .
يا صاحبي . . . لو ترى في لندن، الأشباح!
تبكي على الحال، أو تبكي على من راح
يا صاحبي، ليتَ ليلى تشعل المصباح
الناس تشكو الضّنى، والخائن المرتاح

في هذا الصبح الماطرِ،
آتٍ، أنا، صوبَكَ. . .
لن يمنعني المطرُ المُسَّاقِطُ مثل دمٍ أبيضَ،
لن تمنعني الفتياتُ الدَّبِقاتُ
ولن يمنعني الأسرى المشدودون إلى صاري كولمبُس
لن يمنعني المترو
لن تمنعني طائرة الكونكورد
ولا طائرُ برجِ الصمتِ
ولن تمنعني نفسي. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
نهرُ التمرةِ والتكوين
أنتَ، ونهرُ التوت الأبيض والأسودِ
نهرُ التينِ
ونهرُ الأنهار:
بُوَيبٍ
والعشّارِ
وبابِ سليمانَ
وبابِ الدنيا. . .
يا صاحبي، ضاع مني البابُ والمفتاح
والليلُ ما ينتهي، والمغتدَى ما لاح

الأرض ظلّت تريد الورد والتفّاح
لكنها أجفلت من غيبة الفلاّح

■ وادي بني عبد السلام

من أين يأتي، يا بني عبد السلام، النهرُ؟
نهرُكمُ الذي يتشرَّب الفلواتِ
تحت الأرض مضطرباً
ومنسرباً إلى بغدادَ؟
هل يسري به بحّارةُ الليل العُمانيّون
أم يسري به الجنُّ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

السفينةُ أقلعتْ تحت البراكين التي خمدتْ
وتحت عروق رمل اللّهِ. . .
لم تنشر شراعاً
فالرياحُ تخثَّرتْ في اللوح
وارتسمتْ مجاذيفُ القيامة في صخور الكهفِ. . .
ثمَّتَ منشدٌ أعمى بِكوثَلها
ووردةُ فألِها جنيّةٌ تتقدم القيدومَ؛

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

يستأني بنو عبد السلام الفجرَ. . .

ضوعُ رطوبةٍ

وندىً على الشِّيحِ المفضّضِ

لن يؤذِّن شيخُهم

سيكون أولَ من يزيح الصخرةَ السوداءَ

أولَ من يزيح مَغالقَ البركان عن كهف الجِنانِ. . .

الآن، يسألُه بنو عبد السلامِ:

نريدُ سفينةً

فُلكاً نحاولُه إلى بغدادَ

لوحاً طافياً

جذعاً. . .

وإلاّ، سعفةً

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

والشيخُ يدخلُ في المغارةِ

والعُمانيون، جَمْعاً من بني عبد السلام، يباركون الشيخَ

يتَّبعون خطوتَه الخفيفةَ. . .

ربما بلغوا، ولو في صمتهم، بغدادَ
رُبَّتَما رأى أحفادُهم بغدادَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ما أبهى السفينةْ!

■ نهر بشارات

«إلى ممدوح بشارات»

أقربَ من نبضك تهجُسها
أقربَ من بيضةِ رُخٍّ. . .
طبريّةُ تلمع في العُمق، كأنّ الماء بها ينبعُ
من قلب العالم، من مجرىً سريٍّ لم يولَدْ إلا
مكتملاً وعزيزاً. أنت تهمهمُ، والجرفُ ـ السيفُ
يشقُّ الأرضَ كقنبلةٍ. لن يَقربَ من هذا
الجرفِ رعاةٌ سوريّونَ، ولا صيّادو سمكٍ،
جتى أنت تظلُّ بعيداً
لكنك تعرفُ أنك حتى لو كنتَ بعيداً ستظلُّ
الأقربَ. . . سوف تسير إلى نهرِ «بشاراتٍ»
مغتبطاً، والنظرةُ واثقةٌ، والخطوةُ

تسبقُها خطواتٌ في الماءِ، وفي جوهرة الأشياءِ
ترى نخلاً تَسَّاقطُ منه عصافيرٌ وحمائمُ،
والبوّابةُ يفتحها بستانيٌّ أخرسُ، عَلَّقَ
في عينيه لسانين:
ستدخلُ في نهر «بشاراتٍ»، يا مَن ضعتَ
طويلاً، عبر مفازاتٍ لا رملَ بها....
تدخلُ نهرَ «بشاراتٍ» يا من خذلتْكَ الأنهار
وفارقَكَ الأهلُ، ولم يرأفْ بكَ حتى
طابوقُ الأسوارِ...

.....

.....

.....

الليلُ سيهبطُ بعد قليلٍ
والقريةُ تلتمُّ على ليل القريةِ
أمّا أنتَ...
فلن تسمعَ إلا أغنيةَ النهرِ...

.....

.....

.....

الماءُ به، ليسَ الماءَ الدافقَ في طبريّةَ
عذباً وعميقاً

الماءُ بـ «نهر بشاراتٍ» يتدفّأُ مثل الكبشِ
بَجَزَّتهِ،
حرّاً، ومُتاحاً، يجري
يسقي النخلةَ
والنحلةَ
لكنْ لا يشربُه الناس. . .
الماءُ بـ «نهر بشاراتٍ» تسمعُه ليلَ نهارَ
ولكنْ لا تبصرُهُ في كاس.
الماءُ بـ «نهر بشاراتٍ» مختنقٌ بحرارتهِ
مختنقٌ بمرارتهِ،
الماءُ بـ «نهر بِشاراتٍ» محتدمُ الأنفاسِ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
صحيحٌ أن الأمراءَ الشبّانَ يجيئون إلى النهرِ
يعومونَ
ويلهونَ
وأحياناً، من حُبٍّ، يبكون.
وصحيحٌ أن مقاعده بَلِيَتْ
أنّ عرائشَهُ
وعرائسَهُ
خفِيَتْ،

لكنّ النهر يظلّ النهر
سؤالُ النهر يظلّ سؤالَ النهر:
تُرى، إن كان الماءُ فلسطينيّاً
فلماذا لا تشربُه الأزهارُ بأرض فلسطين؟

١١/١٠/٢٠٠٠

٨

أعمى،
أتسوَّلُ في الطرقات، على باب اللّهِ،
امرأتي تعرفُ هذا
يعرفُ هذا اللّهُ،
وتعرفه الطرقاتُ اللائي لم يطرقْها أحدٌ غيري. . .
تعرفه القطةُ
والنملُ الدائرُ حول مساكنهِ يعرفهُ،
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
فلماذا، أنا وحدي، لا أعرفُ أني أعمى
أتسوَّلُ في الطرقات على باب اللّهِ؟
لماذا أتوهَّمُ أني ذو عشر عيونٍ
ذو عشر خزائنَ،
ذو عشرة أبياتٍ؟
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

سأظلُّ سعيداً!

١٤/ ١٠/ ٢٠٠٠

شرفة المنزل الفقير

ذلك النهار الممطر

ليسَ لأنّ نهاراً ذا مطرٍ يطرقُ نافذتي مثلَ اللصِّ عجيباً.
ليسَ لأني في هذي الصحراءِ المائيّةِ، ليس لأنّ الشمسَ أقامتْ في
كتُبٍ للرحّالةِ والشّعراءِ، وليس لأنّ. . .
أقولُ: أنا مُضنىً بملائكةٍ ينتظرونَ. الأشجارُ هي الأشجارُ ولكني
أبحثُ عن ظِلٍّ. والمطرُ المُسّاقِطُ ليس مياهاً.
عبرَ خرائطَ في النبضِ تَمَوَّجُ أنهارٌ وسفائنُ من لوحٍ،
وزوارقُ من بُرديٍّ. . . مطرٌ لا يبلغُني. مطرٌ لا تبتلُّ
الشفتانِ بهِ. تلتمعُ القضبانُ الخُضرُ (سياجُ المقبرةِ البولونيّةِ)
بالنورِ المائيّ. وأبعدَ، أبعدَ، تشربُ أزهارٌ وشواهدُ.
لن ألمحَ سنجاباً أو طيراً. أُرهفُ أضلاعي للموسيقى.

كانتْ في الشُّرفةِ. والشمسُ أقامتْ في رُكنِ حديقتها
بيتاً لتلاوينِ الشعبِ، وللورقِ اليابسِ. لم تكنِ المرأةُ تَنظرُ
أو تنتظرُ. المرأةُ كانتْ غائبةً. أنا وحدي كنتُ أُلَملِمُ
صورتَها، والأعضاءَ، وذكرى القُبلةِ في زاويةِ المقهى
يوماً ما. . . ما أنْبَتَ هذا الأخضرَ في الأزرقِ؟ موسيقى.
شمسٌ من جُزُرٍ ذاتِ براكينَ. المرأةُ توشكُ أن تتحركَ،

أن تبدو، أن تتشكّلَ. ها أنذا ألَمحُ خُصلةَ شَعرٍ
سَبْطٍ. . . مُكتَنَزاً من شفةٍ سُفلى.
موسيقى. والشُّرفةُ تغدو شُرفةَ بيتٍ: طاولةٌ صُغرى.
كرسيّانِ. زجاجةُ خَمرٍ. قدَحانِ. وحبّاتٌ من
مُشمُشٍ إسبانيا. في زاويةِ الشّرفةِ نبتةُ صُبّارٍ.
تلتفتُ المرأةُ. ها نحنُ اثنانِ. سنسكنُ في الشّرفةِ.
سوفَ تجيءُ الشمسُ إلى كأسَينا. سوفَ نرى اللحظةَ.
موسيقى. . .

المطرُ المُسّاقِطُ يَسّاقَطُ.
كنّا خلفَ زُجاجِ الشّرفةِ. والغُرفةُ باردةٌ شيئاً ما.
غُرفتُها كانتْ تَلْتَزُّ برائحةِ الأصباغِ، وضَوعِ
السجّادِ القرغيزيّ. كأنّ رطوبةَ هذا اليومِ التصقتْ
تحتَ قميصي. تمنحُني المرأةُ من شفتَيها الجمرةَ.
هل غَلغلتِ الجمرةَ تحتَ قميصي؟ أحسستُ
بأني طَوّافٌ في أرضٍ ذاتِ عيونٍ ساخنةٍ وتَضاريسَ.
أصابعيَ القدمانِ. وأنفاسي موسيقى وتَرٍ لا تتلاشى.
موسيقى تَصّاعَدُ أو تهبطُ. لستُ أرى مطراً.
عبرَ زجاجِ الشّرفةِ كان الضوءُ شفيفاً.

لكنّ المطرَ المُسّاقِطَ يَسّاقَطُ
هذا المطرُ المُسّاقِطُ يَشّاقَطُ

يَسّاقَطُ . . .
أشعرُ بالمطرِ السّاخنِ

بعدَ دقائقَ، حسبُ . . . سأفعَلُ حُبَّكِ
مثلَ سريرٍ ضَيِّقْ .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
موسيقى .

لندن، ٦/ ٩/ ٢٠٠١

انطباعاتٌ مقطوعةٌ عن سياق

دائماً في هذا الخريفِ الذي لا يشبهني
في هذا الخريفِ الذي يشبهني
في هذا الخريفِ الذي. . .
أسألُ عن ورقةٍ واحدةٍ. ورقةٍ واحدةٍ، حسبُ.

لكنْ، ماذا نفعلُ بالأغاني؟
ورقُ الحائطِ مثقَلٌ بالأناشيد
أناشيدِ الموتى
وأناشيدِ مَن يموتون. . .
مثقَلٌ أيضاً بظلِّ بياضٍ خَفِيّ.

فتاةٌ هنديةٌ
ربما كانت زعيمَ قبيلةٍ في البيرو
قبلَ ثلاثةِ آلافِ عام
دخلتْ غرفتي، لثلاثِ لحظاتٍ فقط
لكنها لم تخرجْ. . .
سأبحثُ عنها حينَ تمرقُ المذَنّباتُ
عندَ الوسادة.

البحارُ التي نعبرُها
لن تكونَ بحاراً بَعدُ
والأرضونَ التي ركزنا عليها الرماحَ
لن تُنبتَ وردةً. . .
هكذا نختصمُ والعالَمَ
كأننا في التشوّشِ الأول.

عشرةُ آلافِ متشردٍ
يلوذون بمُلاءتي الصوفِ ـ
أنا النائمِ على الرصيف.
هكذا سأظلُّ على الرصيف
حتى لو ابتنيتُ لي خيمةً من أدَمٍ
في سهوب «حُلم آباد».

لا تقولي: نحن اثنان. . .
ـ نحن الواحدُ المتشظِّي
قدرَ ما تحتملُ الشهبُ
قدرَ ما لا نحتملُ. . . طبعاً.

كولومبيا (ميدايين)، ٩/٦/٢٠٠١

من قتلَ فرهاد عثمانوف؟

Who killed Ferhad Usmanov?

www.war-against-terrorism.info

عند محطّةْ

عند محطةِ مترو

عند محطةِ مترو آكْتِنْ تاوْن

أعني: Acton Town Tube Station

تحديداً. . .

أقرأُ: Who killed Ferhad Usmanov?

أنا لم أسمعْ باسمكَ يا فرهاد

لم أسمعْ، من قبلُ، بفرهاد عثمان

(عثمانوف!)

لكني أسمعُ في الليلِ الليلِ، دويَّ الغاراتِ

بقاراتٍ تتراءى مائجةً في لُججٍ وأعاصيرَ وأدخنةٍ

أسمعُ زخّاتِ رصاصٍ

والصوتَ السرِّيَّ لإطلاقةِ كاتمِ صوتٍ

أسمعُ أبواباً تُخلَع في أحياء الغرباءِ

وأسمعُ أحياناً صرخةَ طفلٍ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أنا لا أعرفُ كيف أُناديكَ،
وأيَّ رياحٍ سأُحمِّلُها صوتي كي تصلَ الرعشةُ. . .
هذا الليلُ طويلٌ، يا فرهاد
سأظلُّ، إذاً، أبحثُ عنكَ. . .

ومَن يدري. . . ، قد نبلغُ، في مَسرانا، بغداد
أقولُ: القارةُ، أمستْ، في هذا الليلِ، القريةَ
نعرفُها درباً درباً

نعرفُ فيها الساكنَ والمسكنَ
والمنبعَ والأشجار
ونعرفُ أيَّ فتاةٍ ترقصُ
أو أيَّ فتىً يرتجلُ الأشعار. . .
لكني، مثلك، يا فرهاد

لا أعرفُ من أين تجيء رصاصاتُ السُّمِ
ومن أيّ كهوفٍ قبل التاريخِ يجيء الإنسانُ ـ الذئبُ
ويندفعُ الإعصار. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

فلْترقُدْ يا فرهاد

ارقُدْ

واتركْني في وحشةِ هذا المسعى

في وحشةِ هذي الأشعارْ

لندن، ٢٦/٦/٢٠٠٢

ارتياب

ثَمَّ، بين الغصونِ، سماءٌ طباشيرُ
هل أكتبُ اليومَ فيها أغاني السوادِ؟
المروجُ التي تكنزُ الخُضرةَ اتّسعتْ:
هل تكونُ السماءُ، إذاً، في الترابِ الخفيضِ؟
لأحداقِنا أن تحارَ قليلاً
وأن تسألَ الآنَ عمّا بدا ثابتاً. . .
نحن لن نتثبّتَ من صورةٍ،
فالمرايا حوائطُ
واللونُ محضُ اشتباهْ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لا تقُلْ: ما أدقَّ الحياهْ!

لندن، ٢٧/٦/٢٠٠٢

صباحٌ ما

قد تُتمتمُ: تَمّتْ تمارينُ هذا الصباحِ. . .
احتسيتَ، بلا سُكّرٍ، قهوةً
واستمعتَ إلى نشرةٍ
ولففتَ السيجارةَ معتنياً، ثمّ دخّنتَها
هكذا، في دقائقَ، وانفلتَ اليومُ. . .
في الحوضِ لم تكنِ الحنفيّةُ مغلقةً جيِّداً
كنتَ تسمعُ من غرفة النومِ أرواحَها تقطُرُ. . .
الشمسُ لن تُجتلى
أمسِ كان المطرْ
وغداً لن يكونَ السفرْ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
غنِّ، إنْ شئتَ
غنِّ:
السبيلُ إلى بيتها اسمُهُ المستحيلُ.

لندن، ٢٩/٦/٢٠٠٢

حوار

قال لي آنَ كانت رياحُ الخريف
تتناوحُ بين التلالِ المحيطةِ:
هل نحن، يا صاحبي، صخرتان؟
كم تناوحتِ الريحُ
كم نابَنا القَرُّ
والضُّرُّ
كم ضاعَ منّا الرهان...
ولكننا، ههنا، الواقفان.
.....
.....
.....
قلتُ: لا تبتئسْ
نحن عينُ الزمان...

لندن، ٢٧/٦/٢٠٠٢

مُسَوّدةٌ أُولى

سوف أمضي إلى المغربِ:
انفتحتْ بابُ «سبتةَ»...
لو أمهلَتْني قليلاً لخيّمتُ خارجَ سورِ المدينةِ
وابتعتُ كوزاً
وصحناً
وأعلَيتُ من بُرنسي منزلاً
وأقمتُ الصلاة.

.....

.....

.....

غير أني دخلتُ، فلم يكترثْ حجرٌ لي
ولم تلتفتْ، في الغصونِ، المُطوَّقةُ
الآنَ أمضي إلى منزلٍ بالضواحي
إلى منزلٍ بالضواحي القصيّةِ،
فلْتتركيني وحيداً
مع الكوزِ

والصحنِ
والبرنسِ الصوفِ:
إنّ سبيلي الفلاةْ. . .

لندن، ٢٧/٦/٢٠٠٢

الشّايُ في الشرفةِ

يشربُ النبتُ في شُرفة البيتِ شاياً من الياسمينِ
الصباحُ تَدلّى بسُلَّمهِ
وتسلَّقَ أوراقَهُ
وهو الآنَ يضْفرُ لي تاجَهُ في الجبينِ
الطريقُ الذي لا يؤَدِّي، يُلَوِّحُ لي إذْ يَلُوح
لن تَمُرَّ هنا الحافلاتُ
اتَّئِدْ
واشربِ الشايَ في شُرفةِ البيتِ
ولتتعلَّمْ، ولو مَرّةً، كيف تستقبلُ الطيرَ
كيف تصُدُّ الحنين. . .

لندن، ٣٠/ ٦/ ٢٠٠٢

القهوة تبرد في الشُّرفة

الفانوسُ المتدلِّي بين النبتِ المتسلِّقِ لا يُرسلُ نوراً
لكنَّ عيوناً كانت تمنحُه نورَ الشرفةِ. . .
كرسيّانِ وطاولةٌ (الكلُّ بلاستيك)
وصينيّةُ قهوةْ.
لم تَغِبِ الشمسُ تماماً:
والسُّرخُسُ ما زالَ على الدوحةِ أخضرَ
سنجابٌ يقفزُ من أعلى ليغيبَ تماماً في الخُضرةِ
آخرُ بيتٍ تبلغُه عينايَ سيوقدُ مصباحَ حديقتهِ بعد قليلٍ،
والقهوةُ تبردُ في الشرفةِ
ثمَّتَ أنفاسُ ربيعٍ تحتَ الطاولةِ. . .
الشرفةُ تبردُ في بُطءٍ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

لا تُحصي، أيتها المرأةُ، أنفاسَكِ
لا تَتَّخذي الفانوسَ رداءً. . .
هل ألمُسُ كفَّكِ؟

لندن، ٢٥/ ٤/ ٢٠٠٢

شُرفة فؤاد الطائي (رسّام)

قد تظلُّ الحوانيتُ مفتوحةً، متألِّقةَ النورِ
حتى وإنْ هبطَ الثلجُ. . .
قد تترصَّدُ قُربَ محطّتِكَ القرويةِ كيف يجيءُ القطارُ
وكيف يُغادرُ. . .
قد تتتبّعُ ماءَ البحيرةِ، تلكَ القريبةِ
حتى القرارِ الذي هو مأوى العرائسِ. . .
قد تتفتّحُ شُرفةُ هذا الشَّمالِ السويديِّ
عن أنجُمٍ أو أيائلَ. . .
(في الصيفِ نحنُ)
ولكنّ عينيكَ ـ حتى وإنْ كنتَ في اللحظةِ/ الصيفِ ـ
سوف تَرودانِ سَطحاً
وقِشرةَ بطِّيخةٍ
وخِيارةَ ماءٍ
ومِلْحاً. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

آنَها سوف يَغمرُ لونُ الذّهبْ
كلَّ أوراقِنا
من نخيلِ السَّماوةِ
حتى حَلَبْ!

لندن، ٣٠/٦/٢٠٠٢

شُرفة المنزلِ الفقير

الطِّلاءْ
كان يَنزعُ في السقفِ أثوابَه البِيضَ
في دَعةٍ وهدوءٍ
ويُلقي بها كالنقودِ العتيقةْ
مرةً في أصيصِ الزهورِ
وأخرى على رأسِ مَن يتأمّلُ في الشّرفةِ. . .
الصبحُ رطْبٌ
وهذا الطلاءُ الذي ظلَّ يَسَّاقَطُ
امتدَّ حتى الحديقةِ في أسفلِ المنزلِ
امتدَّ حتى حذاءِ الذي يتأمّلُ في الشّرفةِ. . .
امتدَّ حتى الهواءِ الذي يتنفّسُهُ،
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سوف ينفضُ عن ثوبهِ ما تَساقَطَ
ينفضُ عن رأسهِ ما تَساقطَ. . .

أو ربّما امتدّتِ اليدُ حتى الحذاءِ؛
ولكنّ أغنيةَ الصبحِ
أغنيةَ العُمرِ
مُثقلةٌ بِنَثيرِ الطِّلاء.

لندن، ٢/٧/٢٠٠٢

قلعةُ ألْسِينور (قلعة هامْلِت)

الخندقُ ذو الماءِ الأخضرِ تعْبُرُه أغصانٌ وعصافيرُ
وتَعبُرُهُ أحذيةُ السوّاحِ
وأشباحُ البحّارةِ في سُفُنٍ غرقتْ. . .
أنا أعبُرهُ أيضاً،
لكني أتَحسّسُ ألواحَ الجسرِ
أُحِسُّ بها ليِّنةً
ومُباغِتةً
ماءً في لونِ الخشبِ. . .
القلعةُ تسكنُ في القلْعةِ
كالدَّمِ في الدَّمِ،
أنتَ، اللحظةَ، لن تتقرّى ألواحاً أو حَجَراً
لن تدخلَ من بابِ التاريخِ
ولن تأنسَ باللوحاتِ المعروضةِ في البهوِ
ولن تسمعَ وشوشةَ البحرِ
الآنَ ستدخلُ في نفسكَ
كالحَلَزونِ اللاّئذِ بالقوقعةِ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

الآنَ، ستهجِسُ وقْعَ خُطىً في ليلٍ ناءٍ
وستُنصِتُ للأنفاسِ المكتومةِ
تُنْصِتُ للدّرَجِ الصاعِدِ نحوَ الأسئلةِ. . .

انتبِهِ الآن!

لندن، ٩/ ٧/ ٢٠٠٢

شُرفةُ هامْلِتْ (١)

«سِجنٌ هي الدانيمارك» . . .
مَرْقاكَ الوحيدُ إلى الحياةِ، الموتُ في مَرأى أبيكَ؛
القلعةُ الليليةُ انطبَقتْ
أقوقعةُ القيامةِ تلكَ؟
أطبقتِ الظلالُ على السّلالمِ . . .
سوف يقول هوراشيو:
تَمَهَّلْ، يا أميرُ!
الليلُ أعمقُ من مَخاوفِنا،
وأخطرُ من معاركِ أمسِ . . .
أنتَ عرفتَ ما لا يعرفُ القدماءُ والبحّارةُ الحُكَماءُ
أنتَ عركْتَ نفسكَ
واستعذْتَ بها
ولكنّ الدّجى أبَدٌ . . .
ويقول مارسيليوس مرتبكاً:
تَمَهّلْ يا أميرُ . . .
ألمْ تَقُلْ: سِجنٌ هي الدانيمارك؟

ماذا سوف تلْقَى من مُتابعةِ الصّعود؟
ومَن، تُرى، تَلقى؟
أباكَ؟
لقد رأيناهُ،
وكانَ مُسَلَّحاً. . .

*

الليلُ منتصِفٌ
وهذي القلعةُ البحريّةُ ارتطَمَتْ بشاطئها
وهامْلِتُ
يصعدُ المَرْقَى. . .

لندن، ٣/ ٧/ ٢٠٠٢

شُرفة هامْلِتْ (٢)

هنا، كان رُوزِنْكْرانْتس واقفاً:
لم تكنْ شُرفةً (مثلَ ما أَلِفَ الناسُ، أو مثلَ ما جاءَ في الكتُبِ):
البحرُ هاويةٌ
وهيَ كانتْ مَطَلاً على الهاويةْ
لكنّ روزنكرانتس يراها كما قد يرى البرزخَ
(النقطةَ الصِّفْرَ بين الحياةِ وأُقْنُومَةِ الزاويةْ)
كان روزنكرانتس يراقبُ ما يقذفُ البحرُ
ما يتكسَّرُ من سُنَنٍ أو سفائنَ
يَرقَبُ بَحّارةً
وقَباطِنَةً
ينزلونَ هنا
يرحلون، مع الفجرِ، أو في ليالي العواصفِ عاتيةً، من هنا.
آهٍ روزنكرانتس!
أنتَ تصنعُ، من كلِّ ما قد ترى فيهِ أسئلةً، مسْرحاً
(ولْيَكُنْ مثلَ ما شئتَ أن يتبدّى، بسيطاً)
غيرَ أنكَ ممتحَنٌ، يا صديقيَ، هذا الصَّباحَ:

سفينةُ هاملت ألقتْ مَراسيَها
الآنَ . . .
والمسرحيّةُ لم تبتدئْ، بَعدُ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
المسرحيةُ لم تبتدئْ، بعدُ
فَلْتَكشِفِ السِّرَّ، روزنكرانتس:
أتكونُ انتهتْ؟

لندن، ٣/ ٧/ ٢٠٠٢

شُرفةُ هامْلِتْ (٣)

أنا الآنَ في المَرْقَبِ:
الريحُ تدخلُ في البحرِ
والبحرُ يدخلُ في الريحِ،
مِلْحٌ هو الأُفْقُ
حتى السفائنُ، في المرفأِ الجَهْمِ، تبدو مُشوَّشةً؛
والصَّباحُ الذي أرتَجي
ليس في الدانيماركِ. . .
المساءُ سيأتي
وفي مهبِطِ الليلِ، ينعبُ، أوحشَ من خندقِ القلعةِ، البُومُ
والليلةَ: الحفلةُ الملكيّةُ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

فَلأحتَفِلْ:
أنْ تكونَكَ أو لا تكونْ
آنَها سَيجيءُ الجنونْ.

لندن، ٤/ ٧/ ٢٠٠٢

العَقَبة

(١)

هي أيْلةُ التاريخِ
وهي الآنَ إيلاتُ التي جاءت بها الكبَواتُ واللهجاتُ
وهي، بنُطقِنا، وغماغمِ استقتالِنا:
العَقَبةْ
تشِفُّ كذرّةِ البلّورِ أحيانَ اضطرابِ النبضِ
أرضَ مَقاتلٍ لصحابةٍ ومُجاهدينَ
وواحةً مسكينةً للسِّدْرِ
درباً نحوَ مؤتةَ والشّآمِ
ونحوَ أن تنداحَ موجةُ ذلك الرملِ المؤجَّجِ
ذروةً
أو وردةً من وقدةِ الصحراءِ
تندفعانِ أعلى ثم أعلى
في الهباءِ تدوِّمانِ لترفعا مُدناً
وألويةً
وعشراً من قلاعٍ

حيثُ تستهدي كراديسٌ مدجَّجةٌ
نجومَ النَّقْعِ والصلواتِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سوف يئنُّ لورنسُ المهشَّمُ عند إحداها.

*

ليس في القلعةِ أحدٌ/ ليس ثَمّتَ حارثُ آثار/ البحر وحدَه/ والصيادون تركوا زوارقَهم إلى المقهى/
الشمسُ تغربُ في إيلات/ والقلعةُ العثمانيةُ تسهرُ مرتديةً أسمالَها الفاخرة/ لا قذائفَ من مدافع قديمة/
لا آثارَ رصاصٍ/ الأسوارُ الخفيضةُ تنهدمُ باستمرار/ وقريباً سوف يعلو السورُ المرمّمُ صقيلَ الحَجر/
المِئذنةُ صُبّتْ كاملةً بالإسمنت/ والمهندسُ لم يحفظْ حتى لآجُرّةٍ واحدةٍ حقَّها في هواءِ
التاريخِ والبحرِ/ سوف تكونُ المنارةُ أنيقةً في كامراتِ السوّاح الذين لا يأتون/ الهلالُ الجديدُ
ليس من الإسمنت/ إنه من نحاسٍ سريعِ الصدأ برطوبةِ الشاطئ/ القلاعُ لا تُولَد مرّتين. . .
لنهبطْ، إذاً، إلى القاع.
الفرسانُ المسيحيون، ثبّتوا خطوتَهم الأولى إلى ما لن يبلغوه إلى الأبد: مكّةَ وشِعابِها.

المغِيرون المسلون ثَبّتوا في هذه القلعةِ الملتبسةِ، خطوتَهم الأولى
إلى ما لن يتركوه أبداً:
بلادِ الشام وأشجارِها.
الضبّاطُ العثمانيون كان لهم هنا مفصلُ البحرِ والصّحراءِ،
والمدافعُ الأولى التي تدفعُ عن طريقِ مكةَ الطويلِ، ما قد يقذفُ به
البحرُ.
المشهدُ واضحٌ. واضحٌ كالسينما الوثائقية، وجارحٌ،
إذاً، لنهبطْ إلى القاع...
لنضعِ الأقنعةَ والزعانفَ
وحزامَ الرصاص
لنحملْ، مثل جَمَلينِ، غذاءَ رئتَينا
ولْننقذفْ في الأمواه العميقةِ
حيثُ الزُّرقةُ ساحلٌ.
منظر
نِصفُ تفّاحةٍ يختفي هادئاً في الجبال
تاركاً في الخليج عموداً من النورِ
لا موجَ في البحرِ
لكنّ كلَّ السماءِ المحيطةِ بي
تنشرُ الآنَ قمصانَها الأُرجوان
نِصفُ تفّاحتي غابَ
لكنني مثل خيّاطةِ الحيّ

ما زلتُ أطوي على ساعِدَيَّ السماء
وقمصانَها الأُرجوان

(٢)

لا بحرَ بين هواءِ مصرَ وبحرِها
لا بحرَ بين هواءِ جَدّةَ في الجنوبِ وبحرِها
إنّا تَوحّدنا ببازِلتِ البراكينِ
التي اندفعتْ لتفصلَ قارتينِ
فوحّدَتنا
ثم دارتْ في مفاصلنا، لننساها
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ستُحْكِمُ شوكةُ الصحراء وخْزتَها
لتبتعدَ البراكينُ
التي بَرأتْ من البازلتِ آلهةً
وماءً دافقاً
ومرارةً فيها تلوبُ الروحُ. . .
تُحْكمُ شوكةُ الصحراءِ وَخْزتَها
وتدفعُ سُمّها فينا
فننسى كلَّ ما في الكون

كلَّ علامةٍ في الكونِ
إلاّها. . .
دهب/ شرم الشيخ/ نويبع/ الغردقة/ الدرّة/ عيذاب/ الأسماءُ
تتخاطفُ مثل أسماكِ البحرِ الأحمر/
تتخاطفُ حتى تبلغ هَرر ومُكلأ حضرموت/ تتخاطف حتى
تتمادى. . . إلى صَحار ومضيقِ هُرمز
وبلادِ التاميل/ تتخاطف حتى لَتتركنا مدوَّخين/ أسماءُ وكواسجُ
ودلافين/ وحوريّاتُ بحّارةٍ ثملينَ
بالخطرِ والعواصفِ/ سيأتي حجيجُ مصرَ/ ومن هنا ستحملُ الجِمالُ
المُرَفّلةُ كسوةَ الكعبةِ
التي كانت تُنسَج بأناةٍ غيرِ مصريّةٍ في متاهة القاهرةِ المُعِزِّيّة/ «نحن
مليئون بالسُّمّ»
يقول رامبو الفتى/ مليئون بتاريخ الأسَلِ والسيوفِ/ وهذه الجبالُ
التي تُرهقُ أكتافَنا منذ ملايين
السنين/ هذه الجبالُ السودُ/ الجبالُ الوردُ/ الجبالُ الرملُ/ الجبال
الجبالُ/ من العقبةِ إلى عدن/
أيّانَ تهبطُ عليها، كما في المطر، قطرةُ ماءٍ؟/ ما نحن بسكارى/
نحن مدوَّخون بتاريخٍ لن يقرأه
أبناؤنا/ مدَوّخون ببحرٍ هو جحيمُ البحّارةِ منذ قرونٍ/ سِكّةُ الحديدِ
اقتلعَها البدو المُسيَّسون
كما يقتلعون ضرساً مسوّساً/ والجِمالُ اشتراها متعهدو العساكرِ/
نحن لا نركبُ البحرَ/

ماذا نفعل، إذاً؟
ماذا تفعلين، أيتها البدويةُ، بجَمالِكِ؟ بالخِمارِ المُقَصَّبِ ومِشيةِ الهُوَينى؟
وشفتاكِ المُسوَدّتان المحمَّرتانِ من لِحاء الجوزِ؟
وثيابكِ المُضَوَّعة ليلاً كاملاً بالبخور؟
أنّى أذهبُ بكِ؟
وأيّانَ الساعةُ التي سيدقُّ فيها قلبانا مثلَ مهراسِ البُنّ؟
سأرسُمُكِ أيتها البدويةُ «المزركشةُ كشجرة الميلاد». . .
سأرسمكِ ماثلةً على ناقةٍ أو كثيب،
سأرسمُ صورتَكِ الفريدةَ ألفَ مرةٍ. . .
لأبيعها إلى سوّاحٍ موهومين.
منظر
الفنارُ القديمْ
مُطفأٌ
لم يَعُدْ في صخورِ المواضعِ بحّارةٌ
وحدَه الموجُ
يلمسُ، كالقطِّ، كُرسيَّ مقهى.
دخانٌ من الضفةِ الثانيةْ
والسفينةُ تُقْلِعُ.
من زورقٍ يتخطّى الفنارَ القديمَ
شِباكٌ تدلّتْ. . .

(٣)

سنُوقِرُ سمعَنا عمّا يقول البحرُ
سوف نُشيحُ عن شمس الغروبِ
وملعبِ الأمواجِ. . .
سوف نكون أتباعاً لهذا أو لهذا
نكتفي من كل قافلةٍ
بخبزةِ مَلّةٍ
وبتمرتينِ. . .
وسوف ننسى كيف نرسمُ بالنجوم فُجاءةَ الصحراءِ
والطرقِ التي لا تنتهي. . .
لا بحرَ يغسل منتهى أحلامنا بالملح والمرجان والأسماكِ
لا صحراء تُنبِتُ وردةَ المجهول. . .
صرنا بين مُصطَفِقَينِ ينطبقانِ
باعاً بعد باعٍ،
كيف نُفلتُ؟
كيف نُبعِدُ أن تَعُدَّ عِضادتانِ
دقائقَ الرملِ الذي سيكون مَثوانا الأخيرَ
وعُشّةَ العششِ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

اختفى المرجانُ
واندفعتْ سراطينُ الشواطئ نحو مأواها.

*

لا جملَ لدينا ولا سفينة/ لا خيمةَ ولا منزل/ لكن لنا أن نسأل عن المأوى/
والعقبةُ خاويةٌ على عروشها/ العشيرةُ أمستْ شيخاً/ والشيخُ في الحاضرةِ
البعيدةِ/ كلُّ شيء مؤجَّلٌ مثل ديون الجنود/ العقبة مؤجلة/ الحروب في الكتب/
والسلامُ في الدفاتر/ ونحن: لا رَكْبٌ ولا بَحّارةٌ/ نحن في هذه العقبة حسبُ/
علينا، إذاً، أن نختلقَ المأوى/ ليكنْ لِبناً وصفيحاً/ ليكن ألواحاً ممّا ألقت السفنُ/ ليكنْ حبالاً وأنسجةً مموّهةً/ ليكن العراء...
هكذا بنينا، نحن اليتامى، العقبةَ الفقيرةَ، مأوىً ذا دروبٍ متربةٍ ودكاكينِ فولٍ
وفلافل/ لنا أيضاً مقاهينا/ حيث الشاي ذو القروش العشرة/ وورقُ اللعبِ المهترئ/
سائقو الشاحنات والمهرِّبون بين مرافئ البحر الأحمر يسكنون أفئدتَنا وحجراتِنا العارية/ أين سنذهبُ هذا المساء؟ بار روميرو مفتوحٌ عند البحر/
حانة إلكازار أيضاً/ وناصية علي بابا/ ثمّتَ مشاربُ سريّةٌ وفتياتٌ ـ إنْ شئتَ ـ/ أنت تفضِّل الشاي بالنعناع/ نادي الغوص الملكيّ

(سوف يباع) أغلقَ بوّابتَه في الرابعة/ لماذا تنظرُ إليّ بالنظر الشّزرِ؟/ أتقول إني لا أعرف كيف أقودك؟/ فلْنذهبْ إلى إيلات. . .
الصباحُ في العقبة باكرٌ دائماً/ ثمّت طراوةٌ وشجرٌ مبتلٌّ برطوبة الليل/ والتلاميذُ في الشارع الضيّق/ يحملون أرغفةً ساخنةً فيها حبّاتُ فلافل/ المَسْمكةُ تُعلِّقُ (مثل الخراف) أسماكَ التونة/ والحلاّقون ينفضون عن كراسيّهم ما تبَقّى من شَعر البارحة/ فلاّحو العقبة (مصريون) جاؤوا إلى السوق بالفجل الأحمر والنعناع والكزبرة/ شارعُ الحمّامات لم تُفتَحْ مقاهيه بَعدُ.

الحيُّ القديم يضجّ الآنَ في حُمّى الهاجرة.
السلامُ عليك يا بن عبد اللّه. .

منظر
الجبالُ رماديّةٌ
غير أنّ الرماديَّ ينكشفُ الآنَ
أبيضَ/ أزرقَ مثلَ الضّباب. . .
النُّخَيلاتُ مزرقّةٌ هي أيضاً
وفي البُعدِ
في أوّلِ الكونِ
يبدو السحاب. . .

العقبة ـ عمّان، ١٢-١٦/ ١/ ٢٠٠١

رأيتُ أبي

كنتُ أمشي، وأبي، في غابةِ النخلِ
وأحسستُ أبي يرفعُني بين ذراعَيهِ:
لقد كنتُ خفيفاً
ريشةً. . .
وأبي كان خفيفاً
غيمةً كانَ
وفي القطنِ الذي يفترشُ الغيمةَ
أغمضتُ (كما في الحلمِ) عينيّ. . .
أبي!

لندن، ٢/ ٧/ ٢٠٠٢

إحساسٌ مضطربٌ

أمسِ،
قلتُ: انتهتْ سنواتُ العذابْ
أنا ظَهري إلى حائطٍ
والقبورُ أمامي بغَربيٍّ لندنَ
والفجرُ، دوماً، ضَبابْ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أمسِ، قلتُ. . .
ولكنّ تلكَ الصنوبرةَ المستقيمةَ في البُعدِ، لم تَتَّركْ لي، ولو لحظةً، شاطئاً للتأمُّلِ. تلكَ الصنوبرةُ استقدمتْ، منذُ يومينِ، كِيزانَها وثعالبَها والسّناجيبَ والطيرَ،
واستقدمتْ غيمةً تستقرُّ على جبهتي، ثم نَسراً بأجنحةٍ من هُلامِ،
ومَدّتْ على مَدخلِ البيتِ أغصانَها
وهي مضفورةٌ كالشِّباكِ الخرابْ.

انتظرتُ. . .

الصباحُ انقضى. واستراحتْ على الشُّرُفاتِ الظهيرةُ.
قَلَّتْ على الشارعِ الحافلاتُ. ولم يبقَ إلا المساءُ.
اقتنعتُ بأني سجينٌ، وأنيَ لا أكرهُ السجنَ
(فالمرءُ يألَفُ) قالَ لنا المتنبِّئ. في بغتةٍ ألمحُ الشيبَ يَنبتُ في راحتَيَّ. الكلامُ العجيبُ، إذاً، قد تَحقَّقَ.
ها أنذا ألمحُ الشيبَ، فعلاً، على راحَتَيَّ، بلونِ الترابْ.

انتظرتُ. . .

الصنوبرةُ استجمعتْ، كالرياضيِّ، أنفاسَها. والصنوبرةُ اندفعتْ بثعالبِها والسناجيبِ والغيمِ والطيرِ والنَّسرِ. . . والـ. . . والـ. . . .
وراحتْ تدقُّ على البابِ مجنونةً، تتقاذَفُ كيزانُها؛

والفروعُ على جبهتي إبَرٌ واضطرابْ.

أنا ظَهري إلى حائطٍ. . .
والقبورُ أمامي بغربيِّ لندنَ
والفجرُ، دوماً، ضبابْ.

لندن، ١٧/ ٤/ ٢٠٠٢

أميرٌ هاشميٌّ منفيٌّ في لندن

كلَّ صباحٍ أفتحُ عينيَّ على الغيمِ
الممطرِ دوماً
والأبيضِ أحياناً.
أنا لا أتصوّرُ ما قالوا لي عن شمسٍ ثابتةٍ
فوقَ حِجازٍ...
قالوا أيضاً إنّ بلادي تلكَ،
وإني سأُتَوَّجُ فيها ملكاً يوماً ما...
أنا لا أرغبُ في أن أُمسي ملكاً.
لكنّ الأجدادَ يُطلّون عليّ من الجدران
ومن غرفةِ مكتبتي
ينتظرونَ،
وقد سكنوا أُطُراً ذهباً، ودفاترَ يوميّاتٍ
وفصولاً من كتبٍ لن أقرأها...
لُغتي اختلفتْ
وثيابي
حتى عيناي هما زرقاوانِ،

إذاً، لن أمضي معهم:
يوماً في بغدادَ
ويوماً في مكّةَ
يوماً في الشّامِ
وآخرَ في قصرٍ مَلكيٍّ بالعقَبةْ
. . . . . .
لكني أسمعُ عن أنّ ملوكاً عادوا
عن أزهارٍ تستقبلُهم بمطاراتٍ غامضةٍ
. . . . . .
ما شأني؟
ما معنى أن أُمسي ملكاً؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سأُتابعُ منذُ اليوم، دروسَ الموسيقى
وأطلبُ من أستاذِ الرسمِ مُرافَقتي
عبرَ متاحفِ روما
هذا الصيف. . .

لندن، ١٢/٩/٢٠٠١

تقليبُ أوراق

بِير حَسَن

كنا في وسَط الحيّ
ولم يكنِ الطيرانُ الإسرائيليّ خفيضاً
أنت تظنُّ مُضادّاتِ «الآك آك» الأُضحوكةَ؟
كنا بمدافعنا تلك نعرقلُهم. . .
أنا لا أتحدثُ عن غيرِ الذكرى (أرجوكَ!)
ولكنّ السمتيّاتِ الإسرائيليةَ ما كانت لتطاردنا
فرداً فرداً. . .
كنا بمدافعنا تلك نذودُ عن الموقعِ
والمستودعِ
عن سكّانِ الحيّ
وعن شبّانٍ لبنانيينَ سيأتون إلى موقعنا.

حَيُّ السُّلّم

كنّا في حيّ السلّمِ في ٨٢ ـ
تماماً في مثل معادلةِ اليوم. . .
الإسرائيليون هناكَ

ونحن هنا. . .
تفصلُنا عنهم تلك الفُسحةُ
حيثُ الدبّابةُ، دبابتُهم، مَعطوبةْ.

مبنى أبو إياد

لا أعرفُ مَن سمّى المبنى باسمِ صلاح خلَف
ولماذا. . .
هو ما كان ليسكنَهُ
ما كان ليدخلَهُ إلا يوماً في العامِ
وكان المبنى معروفاً في الشارعِ
كان المبنى مكشوفاً للشارعِ
للناس
لسيارات الخدمة في «الفاكهاني»
ولطلابِ الجامعةِ،
المبنى مفتوحٌ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في الغارات الأولى دخلَ المبنى في الشارع
مالَ من القصفِ
فأسنده الشارع.

لندن، ١٦/ ١١/ ٢٠٠٠

اعتصامٌ في دواننغ ستريت

كان مساءُ التاسع والعشرين
من تشرين الثاني هذا، طلْقاً وجميلاً
لا أمطارَ
ولا ريحَ،
وكنّا، من أجل فلسطين، نحاولُ. . .
لم يأتِ التجّارُ ذوو الصفقاتِ السرِّيّةِ
لم يأتِ فلسطينيّو أنظمةِ القتلِ العربيةِ
أو أهلُ الرفضِ
ولم يأتِ حُماةُ العِرضِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لقد كنا بضعةَ أنفارٍ في الشارعِ
بضعَ شموعٍ
خمسةَ طلاّبٍ ضاقوا، بعد قليلٍ، بالعَلَمِ الضخمِ
وخمسَ صبايا يتأففنَ،
وعشرينَ بريطانيّاً ألهمهم ربِّي صبراً
وأنا العربيّ المفرَد؛
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

لو كان لنا أن نعتصمَ الليلةَ
في مكّةَ؛
لو كان لنا. . .

لندن، ٣٠/ ١١/ ٢٠٠٠

الطّوافُ بالمقاهي الثلاثة

(١)

يا أنتَ، العابرَ كلَّ دوائرِ هذي العتْمةِ، دائرةً دائرةً،
لتُطوِّقَ عنقي كالأُنشوطةِ، من مسَدٍ وحريرٍ حيناً
من فخّارٍ وتهاويلِ جداريّاتٍ حيناً، من أهدابٍ خِيطتْ أحياناً،
يا أرضاً كانت ماءً، يا ماءً كان الأرضَ. هنا ترتفعُ الصلواتُ نشيداً باسمكَ، أو تنفرعُ الفلَواتُ... أُحَيِّيك، وأحْييكَ، وأسألكَ الغفرانَ اليومَ، وأسألُكَ النسيانَ غداً. ستمُرُّ الدبّاباتُ على ساقَيكَ مُجلجِلةً في كتمانٍ من سُرُفاتٍ طينٍ، وسيمتدُّ رقيمٌ (تشويهِ شموسٌ ثابتةٌ) من رمل الفاو وأوراقِ الحنّاءِ إلى الصخرِ المقدودِ ربايا وطرائدَ من آشورَ. أنا أسألُكَ المغفرةَ، الهدأةَ، شكّلتَ جبيني بالوسمِ، وعلّقتَ ذراعي اليسرى بالكُلاّبِ، وقُلتَ: أُحَمِّلُكَ الآنَ دمي.
ما كنتَ صغيراً لتكونَ كبيراً. أنت الاسمُ الأولُ والمَوئلُ.
أنتَ عدُوِّي مُذ كنتَ، صديقي مذ كنتُ... ستأتي أسرابُ الطيرانِ الحربيّ مجلجلةً تحتَ سماءٍ من صَهَدٍ...
سيكونُ هواؤكَ محتقناً بالبارودِ ومختنقاً، لكنكَ تبحثُ عني، أنا، إسمِكَ، كي تقتلني. الدبّاباتُ تُبددُ جِلدَكَ، والطيرانُ الحربيُّ يمزِّقُ

أهدابَكَ، لكنكَ ملدوغاً تتبعُني كي تسلخَ أجفاني؛ وتُمزِّقُ أضلاعي كي تأكلَ قلبي. لستَ الآنَ الطيرَ المرموقَ عصائبَ... لستَ النسرَ القادمَ من حِمْيَرَ، لستَ الهُدهدَ، لستَ حمامةَ نوحٍ، لستَ الرخَّ... فمن أينَ أتاكَ اللونُ الميِّتُ هذا؟ من أين أتتكَ القَصْباءُ لتبريها صعدةَ رمحٍ؟ أنتَ هنا اللحظةُ. تَغفَلُ عمّا ترسُمُه سُرُفاتُ الدباباتِ، وتَغفلُ عمّا يمحوهُ الطيرانُ الحربيُّ، ولا تَغفَلُ عني... فَلْتَهدأْ، أرجوكَ! اهدأْ، واتركني أتمرّغْ في غُصصِ الأحلامِ، اتركْني أتمرّقْ قصصَ الأعوامِ... أنا ابنُكَ، صِنُوكَ،

حاملُ أختامِكَ في جيبِ الصدرِ، وعنوانُكَ حين تغيبُ طويلاً.

لا! لا تبتلعِ الدباباتِ كما تبتلعُ الملحَ، ولا تمسحْ بالسَّعفِ الطيرانَ الحربيَّ... وأنصِتْ لي في ضجّةِ هذا الوادي الهامدِ: هل تسمعُ شيئاً؟ هل تهجسُ ما يفعلُهُ النملُ هنا تحتَ جذورِ النخلِ؟ هل الماءُ يسيلُ من الصخرةِ؟ يقطرُ... يقطرُ... يقطرُ...، قلتُ لكَ: اسمعْني! ذاك دمي يتقطَّرُ في الهدأةِ. نبضي هو ما يفعلُهُ النملُ حثيثاً تحتَ جذورِ النخلِ...

اسمعْني!

(٢)

مقهىً على «بابِ الزُّبير»...

تُقابلُ المقهى من الجهةِ اليمينِ، الشُّرفةُ الخشبُ التي جاءت من الهند البعيدةِ. واليسارُ يضمُّ مكتبةً ودكّاناً لبيع الخردواتِ. وأنتَ حين تكونُ في المقهى ستشربُ شايَكَ المألوفَ، ثم تقومُ مبتهجاً،

لتدخلَ غرفة البلياردِ:
طاولةٌ
وعشبٌ أخضرٌ
وكُراتُ ألوانٍ. . .
ستُلقي نظرةً عجلى، وتمضي نحو زاويةٍ
تراقبُ. . .
أنت لا تستعجلُ الأشياءَ
والناس الذين رأيتَهم في غرفة البلياردِ لا يستعجلون؛
وسوف يدخلُ آخرون الغرفةَ. . .
الساعاتُ تمضي
والهواءُ الرطْبُ يدخلُ في القميص ويستقرُّ حرارةً منقوعةً في الصدرِ.
أنت تراقبُ:
المتفرجون تكاثروا في غرفةِ البلياردِ
لكنّ الذين تَقاسَموا كلَّ العِصِيِّ تبادلوا الأدوارَ
ظلوا، وحدَهم، في لعبةِ البلياردِ، يقتاتونَها
كرةٌ هنا حمراءُ
أخرى بَعدها سوداءُ
واحدةٌ تُلاحقُها العصيُّ، وحيدةٌ بيضاءُ. . .
كان اللاعبون يُداوِلونَ عِصيَّهُم وكُراتِهم
لاهينَ عمّا تفعلُ الأشياءُ

لاهينَ عن متفرجينَ رأوا في لعبةِ البلياردِ لعبتَهم؛
وإنْ شئتَ الحقيقةَ قال أربعةٌ من الشبّانِ همساً:
غرفةُ البلياردِ ليستْ ثُكنةً. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ما أغربَ المقهى على «باب الزُّبير»!

(٣)

قِعْبٌ من سامرّاءَ. البئرُ، المطويُّ كقنبلةٍ في النسيانِ، يفوحُ قليلاً. هذي جَفَناتي ونذوري. سنبيتُ الليلةَ في الصحنِ. وفي منتصَف الليلِ نُراوغُ ذاكَ القيِّمَ كي نهبطَ إلى البئرِ. الليلُ نحاسٌ. سترِنُّ خُطانا بينَ النجمِ وقلبِ الأرضِ. سنهتفُ: تحيا الحريّةُ! ثُمّ تُدَلِّي حبلاً ونلوذ بهِ حتى نلمسَ قاعَ البئرِ. . . ، النسوةُ جئنَ هنا من كلِّ ضواحي بغدادَ، النسوةُ بالأسودِ والوشمِ الفيروزِ وأغنيةِ الموتى، والنسوةُ يدعونكَ يا غائبُ، يا ساكنَ رضوى، يا مُطْعِمَنا عسلاً وفراتاً. سنبيتُ الليلةَ في الصحنِ، فلا تطردْنا من مَلَكوتِكَ، لا تتركْنا لذئابِ البرِّ. يتامى نحنُ، ضعافٌ، وذوو أطفالٍ، فارحمْنا يا ساكنَ رضوى، أغمِضْ عينيكَ الجوهرتينِ، ودعْنا نهبط في البئرِ. ستعرفُ من رائحةِ الحبلِ الجُوتِ منازلَ حَيرتِنا. لسنا سفهاءَ، وأعيُنُنا سُمِلَتْ منذُ قرونٍ في حربٍ ظالمةٍ، عبرَ قُرىً ظالمةٍ. لن

نحلمَ حتى بندى كفَّيكَ. فنحن خرجنا من أجداثٍ كي ندخلَ أجداثاً. لا أكفانَ لنا، لا صلواتٍ. لا آسَ ولا سدرَ ولا كافورَ. مباركةٌ طلْعتُكَ، اسمعْنا يا سبطُ هنا... في قاع البئرِ ستسمعُنا. هل تعلمُ، يا سبطُ، بأنّ قنابلَ B 52، وقذائفَ مدفعنا الهاوتزر، ذرَّتنا في الريح غباراً من لحمٍ وعظامٍ؟ هل تعلمُ، يا سبطُ، بأنّا كنّا جوعى وعُراةً حينَ قُتِلْنا؟ هل تعلمُ يا سبطُ، بأنّا حينَ ظمِئنا أُورِدْنا بنزيناً ثم رُمِينا برصاصٍ يشعلنا؟

تحيا الحريةُ! في «الفاوِ» شربنا الغازاتِ السامّةَ حتى ذابت أعيُنُنا كالشحمةِ في القيظِ، وفي كردستانَ أكلْنا لحمَ الأكرادِ على السيخِ. إذاً، نحن وحوشُ الكونِ، بقايا اللهبِ المتدافعِ من جوفِ التنِّينِ، ضِباعُ الغاباتِ المنسيّةِ في كتبٍ بائدةٍ... هل تسمعُنا يا سِبطُ؟ وهل تأذَنُ للذئبِ بأنْ يغدو حمَلاً في لحظةِ إيمانٍ؟ هل تأخذُ منّا أنفُسَنا؟ إنّا، يا سبطُ، التوّابونَ، وإنّا يا سبطُ، الكذابون. فهل تأخذُ يا ساكنَ رضوى، اليومَ، بأيدينا؟ هل تمنحُنا نفحةَ روضٍ ورضاً؟

كم كان عراقُ الوهمِ جميلاً!

تحيا الحريةُ!

حبلُ الجُوتِ تدلّى.

والأنشوطةُ مُحكَمةٌ.

والبئرُ يساوي نصفَ المترِ...

سلاماً!

(٤)

مقهىً على «شطّ العرب». . .

قد كنتُ ذوّبتُ المرارةَ في فمي مُتَمطِّقاً بالشاي. . .

كان النهرُ أبيضَ

ثَمَّ أشرعةٌ، ولمحٌ من نوارسَ لا تُطيقُ البحرَ

(رامبو قال. . .)

كان النهرُ أبيضَ

والنخيلُ هو الذي نلقاهُ في اللوحاتِ حسبُ،

أتحسَبُ الدنيا مُضيَّعةً؟

أريدُ الآنَ أن أُحصي الدقائقَ:

تحتَ كالبتوسةٍ جلستْ فتاةٌ فجأةً. في البُعدِ يمْرُقُ زورقاً، والقطةُ السوداءُ تخمشُ جذعَ صفصافٍ تهدَّلَ شَعرُهُ في الماءِ. كان البارُ عبرَ الشارعِ الكورنيشِ أعلنَ نورَه. بحّارةٌ (جاؤوا من النرويجِ؟) يفتتحون ليلتَهم. تهلُّ الهندُ بالسمبوسكِ. السفنُ الثلاثُ لشرقِ إفريقيّةَ ارتعشتْ قليلاً. كانت الأمواجُ تعلو. أين نذهبُ في المساء الماثلِ؟ الشايُ الذي أهملتُهُ ما زال منتظِراً. وعبرَ الضفةِ الأخرى أرى سيارةً. شفتي تُدغدغني. تكون الشمسُ لِصقي. ألمُسُ الكرسيَّ. نورٌ في الهواء يَشيعُ. بعد غدٍ سيحملُني القطارُ إلى محطاتٍ وراءَ النهرِ، موسكو ربّما. . .

. . . . . .

مقهىً على «شط العرب». . .

كانت تماثيلُ الجنودِ (وأقرأُ: الضبّاط) تصطفُّ. الوجوهُ قبيحةٌ. وإشارةُ الأيدي إلى إيرانَ أقبحُ. وحدَه، بَدرٌ، تُسَوِّرُهُ مزابلُ يومِه العاديّ. . .

لن تأتي الحمائمُ كي تحطَّ، ولو لتذرقَ، فوقَ لِمّتِه الخفيفةِ، سوف تأتي الطائراتُ. وسوف تنقضُّ الصواريخُ البعيدةُ بغتةً في هدأةِ الجنديّ.

تلكَ الساعةُ الدقّاقةُ السوداءُ (جاء بها إلينا أرمنيٌّ) سوف تعلو في الهواءِ (كأنها من صُنعِ سلفادور دالي). . . لم تَعُدْ في بصرةِ البِصريِّ أروقةٌ، ولم تعدِ القناطرُ (وهي من جذع النخيلِ) صراطَنا نحوَ السماءِ.

الليلُ مُنقَضٌّ. . . سنسكنُ في مقابرنا. أليس البومُ أجملَ؟

غَنِّنا يا قاطعَ الأوتارِ، غنِّ. . .

الليلُ مشتعلٌ بنيرانِ القيامةِ، والضفافُ مليئةٌ بمسابحِ الألغامِ، والأسماكُ

صارت تأكلُ اللحمَ المدوِّدَ مثلَنا،

غنِّ، «المقاهي أغلقتْ أبوابَها». . .

غنِّ!

(٥)

الليلُ ببغدادَ يجيءُ سريعاً. الليلُ ببغدادَ يُقيمُ طويلاً. منذُ قرونٍ والليلُ ببغدادَ يجيء سريعاً ويقيمُ طويلاً. سيقولُ الحدّادون سئِمْنا العيشَ، صناعتُنا السيفُ، وصنعتُنا الضّعفُ. يقولُ النجّارون سئمنا

العيشَ، صناعتُنا التابوتُ. يقولُ الحَذّاؤون سئمنا العيشَ، صناعتُنا جزماتُ الجيشِ. يقولُ الشعراءُ سئمنا العيشَ، صناعتُنا أصباغُ الوجهِ. يقول أطبّاءُ المستشفى نحن سئمنا العيشَ، صناعتُنا أن نصلمَ آذاناً أو نجدعَ (مثل زمان الحَجّاجِ) أُنوفاً. ويقول الحلاّجُ: تُرى، هل صارَ الحلاّجُ الناسَ جميعاً؟

قمرٌ يتطاولُ. والنجمُ تضاءلَ. أين منائرُ وادي الذهبِ؟ الخيلُ مُطهَّمةٌ، والناسُ سواسيةٌ، والحجرُ الأسودُ في البحرينِ. كأنّ سماءً من قصديرٍ تُطْبِقْ. يا أخبارَ الصحفِ الأولى، يا أشجارَ السبيِ، ويا أرصفةَ النفيِ. . .

الليلُ ببغدادَ يجيءُ سريعاً. أسرعَ من صاروخِ قيامتنا، أسرعَ حتى من صاعقةِ الرؤيا. أحياناً نتذكرُ أنّا بشرٌ، أنّ لنا، كالحيوانِ، عيوناً. . . أنّ لنا أطرافاً تتحركُ أيضاً. نحن بلا أسماءَ. . . لماذا تُرخينَ ضفائرَكِ الأبنوسَ على زَندي؟ ولماذا يتمشّى زندُكِ هذا العاجُ على شفتيَّ؟ لماذا ترتعشينَ؟ أَلِلَذّةِ ترتعشينَ؟ أنا أغمضتُ العينينِ وأعطيتُكِ أجنحتي. سنسافرُ، قولي: سنسافرُ. . . قولي إن الناسَ يعيشون على القاراتِ القمَريةِ كالناسِ. وقولي إن لديهم أروقةً وحدائقَ. . . سوف تهدهدني كلماتُكِ حتى الموتِ.

الموجةُ تتلو الموجةَ

كان بدجلةَ بيتُ الساحرةِ. الضفةُ العاليةُ اصطفقتْ بالماءِ الأحمرِ.

سوفَ

نشيِّدُ عاصمةً، ونمدُّ جسوراً.

لكنّ اللوحةَ تهتزُّ. . .

اللوحةُ وهي على الحائطِ تهتزُّ،
ونسقطُ منها. أنتِ. أنا. نسقطُ منها. ها نحن غريبانِ هنا، ها نحن فقيرانِ
هنا، يُرعدُنا البردُ، وينهشنا الجوعُ، ويهتكنا الجَربُ الضاري مثلَ كلابِ البدوِ،
سلاماً يا أرضَ الثمرِ الأولِ
يا أرضَ الطينِ المعجونِ بآلهةٍ. . .
يا نبعَ الريحانِ
سلاماً. . .

(٦)

مقهىً لـ «سيدوري» على البحرِ:
السفائنُ ألقتِ المرساةَ فجراً، وهي تنتظرُ المساءَ ليلتقي البحّارةُ الحكماءُ تحتَ سقيفةِ المقهى. وسيدوري تهيّءُ منذُ أزمانٍ، موائدَها، وتمشُطُ شَعرَها، وتُحاورُ المرآةَ. . .
في الأفقِ البعيدِ سلالمُ تَرقى وأبخرةٌ.
ستَنبتُ، بغتةً، صفصافةٌ.
قصبُ السقيفةِ كان مضفوراً ومؤتلقاً.
زِلابيةٌ سقيفةُ ذلك المقهى. . .
وخمرٌ في الجِرارِ
وفي الجفَناتِ ترغو، حُرّةً، جُعةُ الشعيرِ
وفجأةً، نادى المُنادي:

أين سيدوري؟
وعادَ الصوتُ يطفو كالنوارسِ:
أين سيدوري؟
وسيدوري تهيّءُ منذُ أزمانٍ، موائدَها، وتمشطُ شَعرَها،
وتُحاوِرُ المرآةَ. . .
سيدوري، ستُجلِسُ، في المساءِ، الكونَ
سوفَ تكونُ ربّتَهُ
وساقيةً تُجالِسُ أهلَهُ، البحّارةَ الحُكماءَ
سوف تقولُ سيدوري نُبُوءتَها
وتُعلنُ صوتَها
أعلى من الصفصافةِ الأولى
وأعلى من سلالمِ ذلكَ الأفقِ البعيدِ. . .

وسوف يجلسُ حولَها البحّارةُ الحُكماءُ
في أسمالِهم
وعلى جَدائلِهم بُروقُ البحرِ، والملحُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
السفائنُ سوفَ تُقلِعُ مرةً أخرى. . .

لندن، ١٠/ ٤/ ٢٠٠٢

استيحاش

تعالَي
كي أمتنعَ الليلةَ عن تدخين القنَّبِ
والتَّبِـغِ الهولنديّ. . .

تعالَي
كي أستمعَ الليلةَ للموسيقى
من فخِذيكِ المائستينِ،

تعالي
كي أتنقَّعَ بالشفتينِ

تعالَي
كي أسمعَ رِعشةَ أعماقِ الدّلتا
ضيِّقةً
حولَ غُصَينِ. . .

الآنَ تعالَي
كي أُضجِـعَ، حتى الصحوِ، العينينِ

تعالَي
يا ضامرةَ النهدين. . .

لندن، ١٨/٦/٢٠٠٢

تقليد عبد السلام عيون السُّود

لكأنّ وجهَكِ، يا صديقةُ، في المتاهةِ، وجهُ أختي
ألَقٌ له ألقٌ، ومعنىً غيرُ معنىً، أو كلامِ
لا بُدَّ أن أمضي، وأن أجدَ التفرُّدَ في الزِّحامِ
ولَئِنْ تعثّرتِ الخُطَى، ونسيتُ ما مَرمى سهامي
فلأنّ ما يعني الكلامُ الآنَ قد يعنيهِ صمتي
«أنا يا صديقةُ متعَبٌ حتى العَياء فكيف أنتِ؟»(*)

أمشي، ولكني المُسَمّرُ، والسّحابُ الجونُ بيتي
ماذا؟ أأهجسُ في الهجيرِ مَتالعَ الثلجِ البعيدِ؟
هل تُولَدُ البيداءُ من كَفّيَّ، أم كفّايَ بِيْدي؟
والنهرُ هل غنّى؟ أم الماءُ المتعتعُ بالنشيدِ؟
إني انتظرتُكِ لم تجيئي، وارتجيتُكِ. . . لم تَبتِّي
«أنا يا صديقةُ متعَبٌ حتى العَياء فكيف أنتِ؟»

(*) اللازمة هي لعبد السلام عيون السود.

في الطائراتِ أحومُ، أسألُ عن مَداركِ حيثُ حُمتِ
زوّادتي بِيَدي، وملء مسدّسي الطلَقاتُ ملأى
أيظلُّ هذا الكونُ أشيبَ؟ كيف لم أعرفْه بدءا؟
سأُهاجمُ الثُّكناتِ، أمنحُ جُندَها خبزاً ومنأى
وأصيحُ بالمدنِ التي نامت: لأجلكِ كان صوتي
«أنا يا صديقةُ متعَبٌ حتى العَياء فكيف أنتِ؟»

في لندنَ الخضراءِ تأخذني الشوارعُ نحوَ نَبْتي
لي نخلةٌ في أولِ الدنيا، ولي في النخلِ سعفةْ
والكأسُ ماءُ الطَّلعِ... يا ما كانتِ الأيامُ رشفةْ!
يا ما، ويا ما... فلتَغِمْ عيناكَ، ولْتُجْفِلْكَ رجفةْ
الليلُ يُضويني... أنا المقطوعَ عن ولَدي وبنتي
«أنا يا صديقةُ متعَبٌ حتى العَياء فكيف أنتِ؟»

هل يستقيمُ الخَطُّ، حتى عبرَ أنمُلةٍ ونَحْتِ؟
أم هل تدورُ دوائرُ الدنيا كما كنّا نريدُ؟
بالأمسِ كنّا أمسِ، أمّا اليوم فالأمسُ الجديدُ
أتقول لي عيناكِ إني في التساؤلِ أستزيدُ؟
قسَماً بآلهةِ العراقِ لأختمَنَّ عليكِ صوتي
«أنا يا صديقةُ متعَبٌ حتى العَياء، فكيف أنتِ؟»

لندن، ١٨/ ٢/ ٢٠٠١

لم يتغيَّرْ شيءٌ

لم يتغيّرْ شيءٌ
ما زالَ أبي يكدحُ بين النخلِ وماءِ المدرسةِ،
الناسُ يقولونَ. . .
ولكني أعرفُ نفسي خيراً حتى من نفسي؛
مثلاً:
أنا أعرفُ ما لا تعرفُهُ الصّحُفُ المأجورةُ،
أو أني أعرفُ أنْ أتأمّلَ في الشّاطئ
أعني أني أعرفُ أن أتأمّلَ في ذرّاتِ الرملِ
وفي ما يقذفُه البحرُ، قواقعَ أو عُشْباً
أو أسماكاً ميِّتةً،

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

لم يتغيّرْ شيءٌ:
مَأوايَ هوَ الغرفةُ، مُفرَدةً، في أحياءِ الفقراءِ
وقُوْتي الخُبزةُ والعدَسُ. . .
الأمرُ، إذاً، أبسطُ من أن يخفَى

أبسَطُ من أن يُخشى،
أرجوك. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ستقولُ (لكَ الحقُّ تماماً) إنّ العالَمَ غيرُ العالَمِ
إنّ منارةَ كارل ماركسَ مُطْفأةٌ. . .
إنّ الشِّركاتِ العُظمى، عابرةَ الأقوامِ، مُخَيِّمةٌ
حَسَناً!
ما شأني أنا في هذا؟
أنا ما زلتُ فقيراً،
ما زِلتُ فقيراً، مثلَ أبي، أكدحُ، بين النخلةِ والماءِ. . .

لندن، ٥/ ٧/ ٢٠٠٢

طبيعة

مثلَ ما تنعقدُ الأبخرةُ البحريّةُ، الظُّهرَ،
على خِلْجانِ «بابِ المندِبِ». . .
استلقَى على الأشجارِ، في غربيّ هذي البلدةِ، الغيمُ.
تُرى، إنْ كان هذا الصيفُ، صيفاً
فلماذا يُطْبِقُ الغيمُ على عينيَّ
أو يَبْلُغُ ما تحتَ القميصِ؟
ارتَعشتْ في الدوحةِ الرَّطْبةِ أوراقٌ. . .
أتأتي، بَغتةً، فاخِتَةٌ؟
أنْصِتْ!
سيهتَزُّ، بِما لا ينتهي، خَيطُ الذّهول.

لندن، ٦/ ٧/ ٢٠٠٢

الرِّحلة

آنَ أرضَعُ غصناً من التوتِ. . .
أمْتَصُّ ذاكَ الحليبَ المُفَوَّهَ بالجَنّةِ:
الضَّوعِ
والعسلِ الأحمرِ؛
الشّمسُ في الماءِ
والماءُ في الخُصُلاتِ،
ارتَدى الزورقُ الصيفَ، أوراقَ دالِيةٍ
واصْطِفاقَ شِباكٍ. . .
سيأخذُني الماءُ
تأخذني، مثلَ ما أتَمَنّى، السماءُ
سأمضي إلى حيثُ لا أنتهي،
إلى حيثُ لا ينتهي التوتُ:
أمضي إلى حيثُ قد أبتَدئ. . .

لندن، ٩/ ٧/ ٢٠٠٢

مُتَغايِرات (١)

لا فجْرَ في عدَنٍ. . .
كأنّ الصُّبحَ سَمْتُ الشَّمسِ
والبحرَ المُيحطَ الفورةُ الأولى بمُبتَدأِ الخليقةِ،
قُلتُ يوماً: سوفَ أُمْضي الليلَ عندَ البحرِ
رُبّتَما اقتنصتُ الفجرَ
مثلَ الحُوتِ
أو مثلَ الحمامةِ. . .
كان سِيفُ البحرِ مرتخياً ومُؤتَلِقاً
طَوالَ الليلِ،
والأسماكُ، ناصعةً، تَقافَزُ؛
لم أشأْ أن أُغمِضَ العينينِ،
كنتُ أريدُ فجراً في يَدَيَّ. . .
فُجاءةً
وندىً؛
ومضيتُ في حُلمي. . .
. . . . . .
. . . . . .

. . . . . .

تُرى، هل أُغمِضَتْ عينايَ، لَحظةَ طِرْتُ؟

أمْ هل كانَ إيكاروسُ في وهَجِ الحريقِ!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

صديقتي:

لا فجْرَ في عدَنٍ. . .

لندن، ١٠/ ٧/ ٢٠٠٢

السّؤال الصّريح

قُلْ لماذا يُعَذبُكَ الشوقُ لامرأةٍ؟
أنتَ في منتهاكَ. . .
الحديقةُ مُخْضَرّةٌ،
والرفوفُ التي تتأمّلُ ملأى بما سوف تمضي بعيداً بهِ
والسماءُ انجلتْ بغتةً
والقميصُ الذي ترتدي الآنَ. . . سَبْطٌ نظيفٌ
وبَعدَ دقائقَ عشرٍ ستأتيكَ سيّارةٌ
لتغادرَ نحوَ المطارِ. . .
إذاً
قلْ: لماذا يُعذبكَ الشوقُ لامرأةٍ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هل سَئِمتَ الحياةَ الرخِيّةَ؟
أَمْ هل سَئمتَ الحياةَ الرضِيّةَ؟
أمْ هل سئمتَ الحياةْ؟

لندن، ١٠/ ٧/ ٢٠٠٢

مُتغايرات (٢)

هذه البلدةُ(*) المُطْمئنةُ تبدو من البحرِ
قَفراً
بلا ساحلٍ
غير خَطَّينِ:
أخضرَ: حيثُ امتدادُ الحدائقِ
أبيضَ: حيثُ امتدادُ الفنادقِ
أمّا المصابيحُ فهي العيونْ. . .

هذه البلدةُ المطْمئنةُ تبدو من التلِّ
زهراءَ
ورْديّةً
تتدافعُ أمواجُها في الشوارعِ
حيثُ المَماشي غصونْ. . .

(*) البلدة هي «إيسْتْ بورن» Eastbourne.

هذه البلدةُ المطمئنّةُ
لن يَتَرذْرذَ بالماءِ فيها أحدْ
لن يغامرَ في البحرِ، حتى ولو سنتيمتراً، أحدْ
لن يغادرَها المُترَفونْ

زُمَّجُ الماءِ
والنَّورسُ الكَهْلُ
هُمْ أهْلُها الأقربون. . .

لندن، ١٠/ ٧/ ٢٠٠٢

مُتَغايِرات (٣)

هذه الشّقّةُ في باريسَ
(أعْني في الضّواحي الحُمْرِ)،
لم أَلْبَثْ بها وقتاً مديداً. . .
(ربّما عامَينِ)
لكني سقَيتُ الوردةَ النّضْرةَ
واطْمَأْنَنْتُ للأشجارِ والمَخبزِ والحانةِ فيها؛
واستَعَدتُ القلَقَ الباردَ في الهدأةِ
بل أرسلْتُ (هل تدري؟) بريداً
وتَلَقّيتُ بريداً. . .
وتنسّمتُ بها، ضَوعاً من الفردوسِ، في آخِرةِ الليلِ
وصُبْحاً ياسميناً. . .
(خَلِّنا من حسرةِ الذكرى!)
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أقولُ الآنَ:
إنْ المَرْءَ لا يَأْلَفُ إلاّ ما انتهى منهُ. . .

أَلَسْنا نتركُ النهرَ إلى النبعِ؟
أَلَسْنا نتركُ النومَ إلى الحُلمِ؟
أَلَسْنا نتركُ النَّهدَ إلى الرَّسمِ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أقولُ الآنَ:
باريسُ أراها، هكذا. . . ، مَنْثورةً
بينَ يَدَيّ!

لندن، ١١/ ٧/ ٢٠٠٢

دعوة عشاء

هيّأتُ مائدتي (لقد حلَّ المساءُ)
وقُلْتُ: قد تأتونَ. . .
فكّرتُ؛
الحياةُ طويلةٌ
ولَرُبّما لا يستحقُّ الأمرُ هذا الطّولَ،
فلْنجلسْ قليلاً حولَ مائدةٍ
لِنَنْسَ فَداحةَ الأشياءِ
والبابَ المُواربَ عندَ منعطَفِ الطريقِ الساحليِّ
وباقةَ الزهرِ التي ذبُلَتْ،
لِنَنْسَ كلامَنا
وتَلَكُّؤَ الفَتَياتِ
والأوراقَ
والشمسَ التي غربَتْ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لقد هيّأتُ مائدتي
وقُلتُ: لَعَلَّكم تأتون. . .

لندن، ١١/ ٧/ ٢٠٠٢

ما أصعبَ الأغنية!

مَن تُرى، أرسلَ الأغنية؟
لا أقولُ الهواءُ الذي يتبعثرُ بين الشجرْ
لا أقولُ القطاراتُ تهدرُ تحتَ الغيومِ الخفيضةْ
لا أقولُ انتهيتُ من الحُبِّ أمسِ..
أقولُ: ليَ الصوتُ
تمتمةٌ
وتمائمُ
ترتيلُ تَرْ، تَرْ، وتَرْ، تَرْ... تراتيلُ
ترتدُّ
ترتادُ
ترتاحُ
تنداحُ
تَرْفَضُّ
تَنْهَدُّ
تَرتَدُّ...
.....
.....

. . . . . .

تنويمةٌ، أن نغَني، وأن ننتهي

أن نتمتمَ من منتهى التمتماتِ

النسيمَ

النبيذَ الذي ظلَّ منتظراً كلَّ تلك السنينْ

والبساطَ الذي لم يكنْ

والنسيجَ

النسيجَ الذي لن يُرى

والنشيجَ المباغِتَ،

. . . . . .

. . . . . .

ما أجملَ الأغنيةْ!

لندن، ١٩/ ٧/ ٢٠٠٢

أوكْتافْيا

أوكتافيا، لا تدخلُ من شُبّاكٍ. . .
أوكتافيا تقتحمُ السلّمَ، وثْباً، حتى بابِ الشقّةِ
تقذفُ نحو الكرسيّ حقيبتَها اليدويةَ
ثم تُؤرجِحُ ساقَيها
عابثةً بهواءِ الأوراقِ وما خَلّفَهُ مطرُ الليلِ على الأحداقِ؛
أقولُ لها:
«أوكتافيا، انتظِري!»
لكنّ لأوكتافيا شأناً آخرَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في عطلتها الأسبوعيةِ
(أوكتافيا تَمْلكُ مقهىً بَلْجيكيّاً)
تأتي راقصةً، عبرَ البحرِ، لتأكلَني متلذذةً
وتنامَ عميقاً. . .
ثم تُفارقني في ثاني أيامِ الأسبوعِ؛
. . . . . .

أنا رجلٌ ذو تَبِعاتٍ
لكنّ البلجيكيّةَ لا تعرفُ هذا إذْ تعرفُ هذا. . .
أوكتافيا تعرفُ أنْ لها عطلةَ أسبوعٍ،
أنْ لها حقّاً في أن تأكلَني، مُتلذِّذةً
وتنامَ عميقاً؛
ثم تفارقني في ثاني أيامِ الأسبوعِ. . .
. . . . . .
إذاً؟
هل أُدخِلُ أوكتافيا في تَبِعاتي؟

لندن، ٢٠/ ٧/ ٢٠٠٢

الثّالث من آب ٢٠٠٢

. . . والآنْ
تبدأُ أيّامُ الآحادِ تطولُ
كأيامِ الأعيادِ وراءَ القضبان؛
الأشجارُ مُثَبّتةٌ بمساميرَ إلى الأفقِ الرّطْبِ
وأبوابُ الشارعِ مُوْصَدةٌ

حتى الحانةُ في المنعطفِ انكفأتْ تحتَ رذاذٍ من مطرٍ في ذاكرةِ القطِّ.
الدكّانُ الهنديّ هو الباقي. لن أُوقِدَ مِجْمرةً. سأعودُ إلى الأوراقِ الأولى. سأقَلِّبُ ما اكتنزَتْه العينانِ. غريبٌ أن أشعرَ بالرجفةِ تحتَ عظامِ ذراعَيَّ. عشاءُ الناسِ أُعِدَّ، موائدهُ صُحفُ الصبحِ الكبرى: سَمَكٌ وبطاطا. سَمَكٌ وبطاطا. أحياناً أسمعُ بوقاً. هل أزِفَتْ ساعتُنا؟ هل نرجعُ في منتصفِ الليلِ؟ أنا لا أحملُ (لا أملكُ) إلاّ الأوراقَ الأولى، وخفيفاً سأكونُ، خفيفاً ونظيفاً. . .

أنا أنسى أحياناً
أنسى، مثلاً، أنّ اليوم هو السبت، وليس الأحدَ. . .

ـ الأمرُ بسيطٌ ـ
فالأيامُ تطولُ
الأيامُ، جميعاً، كالآحادِ، تطولُ
ولكنّ الشُّرفةَ
حتى في المطرِ الصامتِ،
ظلّتْ مفتوحةْ. . .

لندن، ٣/٨/٢٠٠٢

تبدأُ الحربُ...

من عواصمَ باردةٍ، تبدأُ الحربُ
من غُرفاتٍ بلا مَعْلَمٍ
من شوارعَ لم تستضفْ شجراً
من مَخابئَ تعرفُها الذبذباتُ التي لن تُرى
من جهازٍ يضيءْ
لحظةً ثم أخرى...
من مقالٍ رديءْ.
هكذا تبدأُ الحربُ:
يستَبِقُ الحربَ مَن لم يَذُقْ طَعْمَها
هو مَن يَعْلَمُ:
الحربُ أصلٌ...
.....
.....
.....
هنا، ظلَّ شِبْهُ الرذاذِ يُرطِّبُ أزهارَ آبَ، ولم تزلِ الشرفةُ اليومَ شرفةَ أمسِ. الشوارعُ تلك الشوارعُ. مَسْمَكةُ الحيّ تُفتحُ في التاسعةْ. ربّما سَبَّبَ الطّلْعُ ضِيقَ التنفّسِ. أُحْ... أُحْ...

غداً سوف تغلق كلُّ المَصارفِ أبوابَها. أنتِ لن تُغلقي. فَلْنَقُلْ: ذاهبانِ إذاً نشهدُ الأوبرا. لا! أنتِ فضّلْتِ أنْ نَصحبَ الكلبَ.

والحربُ تبدأُ. . .

لندن، ٢٠/٨/٢٠٠٢

الفصول (١)

مثل قشرةِ تفّاحةٍ غيرِ صالحةٍ للتناولِ، غادَرنا الصيفِ
والآنَ تبدو سماءُ الصباحِ أشدَّ رماديّةً
وأقلَّ امتلاءً. . .
كأنّ على العشبِ منها، السوادَ؛
النوافذُ مغلقةٌ، شأنَها أبداً
والرذاذُ الذي لا يُرى يستحيل بصدري هواءً،
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أتأتي الفصولُ، إذاً، وتغادرُ، كالصيفِ؟
إنْ كان أمْرُكَ هذا، ففيمَ السؤالُ عن الوقتِ؟
فيمَ التساؤلُ عمّا يجيءُ. . .

انتهيتَ؟
أم الليلُ، ذاكَ الذي قد بلغتَ نهايةَ أوهامِهِ
بَلَغَ الانتهاء؟

لندن، ٣٠/ ٨/ ٢٠٠٢

الفصول (٢)

لَكأنني في صَرِّ موسكو، أكسحُ الثلجَ الذي غطّى مَمرَّ البابِ لكني هنا، في لندنَ، الكبرى، أُقَطِّرُ ما تبَقّى من رماد الصيفِ في قنِّينةٍ. لَمّا يزلُ أيلولُ في كُتبِ الأغاني ناعساً. عيناي متعَبتانِ مِمّا اشتَطّتِ امرأةٌ طوالَ الليلِ. قُلْتُ: أُلامِسُ الأوراقَ في النبْتِ الذي ذاقَ الندى وتَسلَّقَ الأعماقَ. قلتُ: سأهتدي من نبْضِ أُنمُلةٍ ونُسْغٍ. قلتُ: ألتجئُ الصباحَ إلى قميص الخِضْرِ، أو خضراءِ «لورْكا»، أو إلى هذا النباتِ المُعتَلي بابي...

فتحتُ البابَ:

ضَوعٌ من رذاذٍ في حدائقِ مَن أحاطوا بي، وذكرى من شموسٍ في دفاترَ مَدرسيّاتٍ، وعَرْفٌ لا يزال مُعلَّقاً بي من غصونِ الليلةِ البيضاءِ... كان نباتُ بابي مثلَ ما كان؛ التمَسْتُ وُرَيقةً أولى...

تهاوتْ، ثم ثانيةً،

تهاوتْ... وأخرى إثرَ أخرى. أصبحَ المَمْشى خريفاً، بغتةً. من أينَ جاءت صُفرةُ الأوراقِ؟ كيفَ اسّاقَطَ المعنى؟ تُرى، ما نفْعُ أن ألقي على ما في الأعالي نظرةً؟

إني أردتُ، فلم أجدْ بابي...

لندن، ٣٠/٨/٢٠٠٢

الفصول (٣)

من أين هذي الرجفةُ؟
انسَلَتَ اللحافُ الصوفُ ريشاً
مثلَ ريشِ البطِّ مبْتَلاً
وغَلغَلَ في عظامي الثلجَ. . .
عبْرَ زجاجِ نافذتي أرى شمساً وأشجاراً
وشُبّاناً وشابّاتٍ عراةً في الحديقةِ؛
غرفتي، كالحصنِ، مغلقةٌ
وكالزنزانةِ انطبقَتْ عليَّ. . .
فأيُّ عاصفةٍ أتتْ بالثلج؟
أيُّ ثعالبِ قطبيّةٍ دخلتْ مبللةَ الفِراءِ علَيَّ؟
وأيُّ زوبعةٍ تُدَوِّرُني، أنا، الخذروفَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كنتُ أغوصُ، أعمقَ، في فراشي
دائخاً، متصبِّباً عَرَقاً
ومُثلَّجَ الأعضاءِ. . .
كنتُ أغوصُ بين الماءِ والنارِ.

لندن، ٣١/٨/٢٠٠٢

الفصول (٤)

الأزهارُ البيضُ من النبتِ المتسلِّقِ
تَسّاقَطُ، طولَ اليومِ، على الممشى، في طابقيَ الثاني؛
هذي الأزهارُ البيضُ مكوّمةٌ
تلمعُ ذابلةً
مثل ترابِ نجومٍ ظلّتْ تتهاوى طولَ الليلِ. . .
أحاولُ أن أتفادى الوطءَ
أخففَ من أعبائي حين أسيرُ على الممشى،
لكنْ. . . عبَثاً
فالأزهارُ البيضُ تدورُ، وإنْ كانتْ ذابلةً
تُمسِكُ بي
تأخذني من شِسْعِ حذائي
كي تبلغَ شَعري. . .
متناثرةً، متألقةً فوقَ قميصي الصوفِ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

الليلةَ جاءتني الأزهارُ مع الحلمِ
لتأخذني معها . . .

سأكونُ سعيداً!

لندن، ٢/٩/٢٠٠٢

ثلاثُ محاولاتٍ لعلاقة

أنا أقدرُ أن أفتحَ جَفنَيَّ دقائقَ
لكني لا أقدرُ أن أفتحَ عينيّ. . . مساءَ البارحةِ التفّتْ كلُّ وشائعِ أيامي حولَ عروقي. ظلّتْ تلتفُّ وتضغطُ، تلتفُّ وتضغطُ، حتى سالتْ شمسٌ بين يدَيَّ. على أُصُصِ الأزهارِ بدا الطُّحْلُبُ أخضرَ في لونٍ مائيٍّ. ماذا سيُغَنِّي صُعلوكُ الحَيّ؟ ستندفعُ الزيناتُ مُفرقِعةً من جهةِ الغربِ. الشّمسُ تسيلُ. وآخِرُ قنّينةِ خمرٍ شِيلِيٍّ رحَلتْ.

أنا أقدرُ أن أفتحَ جَفنيَّ دقائقَ
لكني لا أقدرُ أن أفتحَ سمعيْ. . . الشارعُ مكتومٌ، لَكأنّ السيّاراتِ على عشبٍ تَدْرُجُ. والموسيقى من بئرٍ تخرجُ. أهجِسُ صلصلةً في الحنفيّةِ. . .
سلسلةً من ذهبٍ تسقطُ من رفٍّ كي تتكوّمَ في طرفِ السجّادةِ. هل يتكلمُ هذا المصباحُ؟ البابُ المؤصَدُ صَرَّ صريراً. . . أعرفُ أنّ ينابيعَ، ينابيعَ مُغَلْغَلةً، تترقرقُ بين السبّابةِ والإبهامِ؛ تُرى. . . هل أسمعُها؟

أنا أقدرُ أن أفتحَ جفنَيَّ دقائقَ

لكني لا أقدرُ أن أستافَ. . . وفي بستانِ البيتِ، قديماً وبعيداً، في البصرةِ،

كانت أزهارُ الخشخاشِ. وعندَ مُسَنّاةِ الماءِ تفوحُ روائحُ من سَمكٍ وطحالبَ.

كنا أحياناً ننهلُ من ماءِ الطَّلْعِ. أتعرفُ كيف تكونُ القيلولةُ تحتَ غصونِ التينِ؟

وكيف تكونُ بَواري المَدْبسةِ؟ الليلُ سيهبطُ مثلَ صبابٍ أزرقَ في «حمدانَ».

سيمتدُّ اللبلابُ المُزْهِرُ في الدمِ. . . سوف يكونُ شميماً.

لندن، ٢٦/٨/٢٠٠٢

مُعايَنة

ينسجُ العنكبوتُ على بابِ بيتيَ
أثوابَهُ العاريةْ،
لِيَمُرَّ الهواءْ
وتَمُرَّ الروائحُ
والصيفُ
والضوءُ
حتى كأنّ السماءَ ابتداءْ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ينسجُ العنكبوتُ على الباب
ما غاب؛
ينسجُ معنى الرداءْ. . .

لندن، ٢٨/ ٧/ ٢٠٠٢

رُباعيّةٌ أيضاً...

سعدي
المتوحدُ والأفعى
لا يعرف أن يأكلَ في المطعمِ

والمطعمُ مكتظٌّ بزبائنهِ. المطعمُ يَبعُدُ أمتاراً حَسْبُ عن النهرِ. به سَمَكٌ، ومُخَلّلُ مانجو الهندِ، وأرغفةُ التنّورِ،
وكان الناسُ سكارى بالعَرقِ المسمومِ ورائحةِ البارودِ الباردِ في الجيبِ الخلفيّ. وفي هذا الغسَقِ ارتعشَ الضَّوءُ قليلاً. هل نادى اللبلابُ زهورَ البوقِ؟ وهل تَخْطُرُ في الأبخرةِ امرأةٌ؟ سوف يكون الناسُ سعيدينَ... يموتُ الناسُ سعيدينَ: العَرَقُ الطافحُ، والبارود...

سعدي
المتوحدُ والسيف
لا يعرف أن يجلسَ في بَهوِ سياسيِّين

كم حاولتُ، طويلاً، أن أدخلَ في البهوِ المفتوحِ! لقد أمضيتُ العُمْرَ بهذي اللعبةِ. يُغريني المشهدُ عن بُعدٍ: أبواقٌ، وسماسرةٌ، وحقائبُ. أحياناً تأتي امرأةٌ بالويسكي في أكوابِ الشاي. وقد يُمسِكُ قردٌ بمُكبِّرِ صوتٍ. يَصّاعَدُ في الليلِ رصاصٌ أعمى. حُجِزتْ كلُّ مقاعدِ هذا البهوِ، وعندَ البابِ اصطفَّ المنتظرونَ. لماذا؟ هل تسألني؟ أنا لا أعرفُ كُوعي من بُوعي. أنا لا أعرفُ حتى سترةَ من يسألُني.

سعدي
المتوحدُ والحلزون
لا يعرف أن يتقدمَ (حتى بين رفاقِ العمرِ) مُظاهرةً

خيرٌ لك أن تجلسَ ملتصقاً بالمصطبةِ الخشبيةِ. ماذا ستقولُ لو استعجلْتَ وراء القومِ؟ فأنتَ هنا، ملتصقاً بالمصطبة الخشبيةِ، سوف ترى المشهدَ مكتملاً.
لن تدفعَ بالمنْكبِ جاراً. لن تتدافعَ كي تحظى بالصورِ الفوتوغرافيةِ... قد يجلسُ لِصقَكَ مَن أنهكَهُ السيرُ. وقد تتحدثُ عن قاراتٍ أخرى. هل تُنْكرُ أن العالمَ يبدو أجملَ حين تراقبُه من مصطبةِ الحانةِ؟ إن رفاقكَ يندفعون خِفافاً في الشارعِ. أنت تراهمْ. هذا يكفي.

سعدي

المتوحدُ والمِرآةَ

يحاولُ أن يتصوّرَ ما هو أبعدُ منها. . .

أنتَ رأيتَ. . . فماذا بعدُ؟ الأشجارُ وفوضى الشارعِ والمرأةُ والطيرُ جميعاً في المِرآةِ. ووجهُكَ أيضاً في المرآةِ. إذاً، ماذا بَعدُ؟ ألمْ تسأمْ هذا؟ لكنكَ لن تغلقَ نافذةَ المَرأى طبعاً. . . أَوَلَمْ تتفَكَّرْ في ما خَلَقَ المَرءُ؟ إذاً، فَلْتَبْرأْ من هذا الصّلصالِ طيوراً! إنكَ لم تأتِ لكي تتملّى المِرآةَ، ولم تأتِ لكي تسكرَها. هل أتعَبَكَ الدربُ؟ وهل خذلتْكَ خُطاكَ؟ انظُرْ تحتَ غطائكَ، وانتظرِ الصّبَواتْ.

لندن، ٢/١٠/٢٠٠٢

ذبذبات

للخريف الذي ظلَّ يمضي، لآخِرِ أوراقهِ، تهمسُ الريحُ في مطرٍ ناعمٍ. أنا أسمعُ ما تَنطقُ الريحُ. ألْمُسُ ما تَحملُ الريحُ. أغْمسُ هُدبي بأمواجها. القريةُ ارتحلتْ منذُ قرنٍ، وها أنت ذا لا ترى غيرَ مقعدها الخشبيّ الوحيدِ، وساحتِها الخاويةْ.

قد كنتُ هيّأتُ الشعاراتِ العشيّةَ. سوف يأتي أحمدُ النجديُّ حتماً بالعِصِيّ. وسوف تنطلقُ المظاهرةُ الظهيرةَ حينَ تزدحمُ الأزقّةُ في محيط السُّوقِ. أيُّ منازلٍ ستقول: أهلاً، حينَ ينطلقُ الرصاصُ؟ كأنّ ضَوعاً من حدائقَ في الغيومِ يسيلُ من كفِّي. كأني في الغمامْ.

ترحلُ الريحُ أيضاً، ويرحلُ عن شجرِ الساحةِ المطرُ الناعمُ. الليلُ لن ينتهي. هو لم يبدأ. الليلُ لن يبدأ. الليلُ حقٌّ كما الموتُ حقٌّ. كما اللَّهُ.
أنت هو المترحلُ. أنت الذي لم يجدْ عبرَ كلِّ المفازاتِ إلاّ مصاطبَ في قريةٍ.
وهي حجّتكَ اليومَ. قُلْ لي، إذاً، ما أوانُ الرحيلِ إلى الهاويةْ؟

أتظلُّ تسألُ: هل أظلُّ ضجيعَها منذ انتصاف نهارِ هذا السبتِ حتى مَوْهِنِ الأحدِ؟ المدينةُ في ضواحيها... كأنكَ صرتَ تجهلُ أنّ ماريتا تحبّ السوقَ مكشوفاً ومؤتلقاً، وتجهلُ أنّ ماريتا ستشوي الجَدْيَ. ماريتا ستُحضرُ خُبزَها البيتيّ. فَلْتقرأْ على الأحدِ السلامْ

الستائرُ شفّتْ، وغامَ الزجاجُ. أنا الآنَ أُبصرُ في الداخلِ، المَشهدَ. الغرفةُ ابتعدتْ عن تفاصيلها؛ والأريكةُ صارتْ مَمَرّاً، وهذا البساطُ الذي كنتُ أحسِبُ وِحداتِهِ صارَ نهراً، ولم تَعُدِ اللوحةُ امرأةً عاريةْ.

.....

.....

.....

بغتةً... أسمعُ الخطوَ!

هل جاءني من سيصحبني في طريقِ الظلامْ؟

لندن، ٢/١١/٢٠٠٢

الطيفُ ذو البيريّة

قبلَ أربعين عاماً
كان حسن سريع مرشَّحاً لأحدِ منصبين:
وزير الدفاع في جمهورية العراق الديمقراطية
أو العريف الأول (مثل ما كان شكري القوّتلي مواطناً أول).
الآن، وقد مرت أربعة عقود
تظل بيريّةُ حسن سريع المطويةُ مثل مسدس
حادّةً، خفيّةً، كأنها في طيّتها الأولى
ذلك الصباحَ بمعسكر الرشيد...
ومن يدري؟
ربما انتبه أحدُهم إلى قولة أوريانا فالاتشي:
المسدس ليس سلاحَ دفاعٍ
ولأنّ هذا المنتبِه لا يملكُ مسدساً
فلسوف يستعير من حسن سريع بيريّتَه، ولو لدئائقَ
(أنت تعرف... التفتيش، وأجهزة كشف المعدن المتطورة... إلخ)
وأنت تعرف أيضاً أن بضع دقائقَ ستكفي حتماً
(حكّامُنا جبناء كالعادة)

آنَها لن ينافسَ أحدٌ حسن سريع
على منصب وزير الدفاع في جمهورية العراق الديمقراطية. . .
إذ ليس من الواقعية أن تتوجّه في دبابةٍ حديثةٍ
لتُسقطَ طيفاً
هالتُهُ بيريّةٌ مطويّةٌ!

لندن، ٦/ ١١/ ٢٠٠٢

القطُّ تحت المطر

كأنيَ الليلةَ في الهندِ. . .
أهذا الموسميُّ، المطرُ؟
امتدّتْ يدي
أفتحُ سنتيمترينِ زجاجَ شُبّاكي
أُزيحُ شيئاً من ستارةِ الشُّبّاكِ،
فكّرتُ:
تُرى، أين يبيتُ الليلةَ، السنجابُ
والطيرُ
وتلك النحلةُ؟
المصطبةُ الوحيدةُ استرجعتِ الليلةَ عِرْقَ الغابةِ،
العالَمُ يبدو لي غسيلاً هائلاً
لن ينشفَ، البتّةَ، في الشمس التي ليستْ سوى
ذكرى من الهندِ
وممّا دوّنَ النخلُ عن الهندِ. . .
وفي اللحظةِ هذي انطفأتْ سجارتي
. . . . . .
. . . . . .

. . . . . .

الأسماكُ في بحيرةِ الغابةِ قد غُصْنَ إلى الأعماقِ حتماً؛
وحدَه، القطُّ، سيلقى الصبحَ طيراً صادحاً
في ساعة الحائطِ
في رطوبة السُّلّمِ

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ما أبهى المطرْ!

لندن، ١٢/ ١١/ ٢٠٠٢

محاولةٌ أولى في الضّباب

أنْهَرَ(*) الصبحُ . . .
جاوزتِ الساعةُ العاشرةْ
غيرَ أن الضبابَ الذي رَقَّ، ينسجُ أثوابَه الآنَ،
يجعلُ حتى أعالي الشجرْ
بِضعةً منهُ،
يجعلُ حتى الستائرَ لوناً خفيّاً ويمضي بها نحوَ أمواجهِ الثابتةْ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أيَّ لونٍ أرى؟
أيُّ مسطرةٍ للتدرُّجِ أرقى بها أو أُتابعُها؟
أيَّ ثلجٍ ألامِسُهُ؟
أيَّ مِلْحٍ أذوقْ؟

. . . . . .

. . . . . .

(*) أنهَرَ، فعلٌ منحوتٌ قياساً، معناه: صار الصبحُ نهاراً.

. . . . . .

سوف أغمضُ عيني وأفتحُها:

أيها العشبُ

يا أيها العشبُ

يا أيها العشبُ

كُنْ ثابتاً، يا حليفي، ثباتَ السّرابْ!

لندن، ١٠/ ١١/ ٢٠٠٢

محاولةٌ ثانيةٌ في الضباب

تغيبُ الخيولُ عن العشبِ؛
لم يَعُدِ العشبُ مرأىً. . .
بياضٌ من الأرضِ مُصّاعدٌ
وبياضٌ من الماء مُصّاعدٌ،
والمراكبُ (تلك التي تصلُ النهرَ بالبحرِ)
غابتْ عن النهرِ قبلَ الخيول،
وأسيِجةُ الحقلِ غابتْ
ولم يبقَ في اللوحةِ المستفيضةِ إلا أعالي الشجرْ. . .
إذاً، كيف نمضي؟
المسافةُ بين الطريقِ ومنعطفِ القريةِ الآنَ
مثلُ المسافاتِ بين السماءِ وأوراقِنا. . .
والنهارُ الذي نحن فيهِ، يكون النهارَ الذي لم نَعُدْ نحن فيهِ،
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الخيولُ تغيبُ عن العشبِ
هادئةً في الضّباب. . .

لندن، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٢

محاولةٌ ثالثةٌ في الضّباب

لم يَعُدْ لدخانِ السجائرِ لونٌ. . .
من النافذةْ
يدخلُ الأبيضُ المستسرُّ
من النافذةْ
تدخلُ الطّلَقاتُ البعيدةُ إذْ تمتطي موجَ أصدائها:
أهي بضعُ سرايا جنودٍ تُواصلُ تدريبَها؟
أهيَ مدرسةُ الصيدِ في المَرْجِ؟
أهي البلادُ البعيدةُ؟
كان الضبابُ، الظهيرةَ، ينْحَلُّ في قُزَعٍ
ومرايا؛
وكان الهواءُ الذي ظلَّ ملتصقاً بالرطوبةِ يخسرُ أغلالَهُ. . .
بغتةً، مرَقَ الطيرُ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
مَن قال لي: «ستموتُ العشيّةَ»؟
إني رفيقُ الضباب. . .

لندن، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٢

نَبْتةُ الآس

إذاً، كيف تمضي إلى آخرِ الدربِ؟
(أعني إلى حانةِ الشاطئِ)
اليومَ كان المطرْ
والضبابْ
يُغِيْمانِ حتى تهاويلَ ساحَتِكَ:

السّهمُ (وهو المؤشِّرُ) غابَ،
السبيلُ الذي كنتَ تسلكُهُ بين بابكَ والسّاحةِ
اندلقَ الآنَ بين السيولِ
(الحقيقةُ: كان السحابُ كثيفاً)
وأدركتَ، في بغتةٍ، أنّ كلّ المساءِ الذي كنتَ ترتابُهُ
هابطٌ (لا كما كنتَ عُوِّدتَهُ)
إنهُ
هابطٌ كالحجرْ
ألشجرْ
غائمٌ
والمطرْ

عائمٌ في الذهول. . .
الخرائطُ (تلك التي كنتَ تنأى بها، وتسافرُ في نورِها)
انتقعتْ مثلَ صَنْدَلكَ؛
(الآسُ نبتٌ غريبٌ)

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

إذاً، سوف تمضي إلى آخرِ الدربِ
تمضي ورائحةَ الآسِ
تمضي. . .

لندن، ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٢

الاحتلال ١٩٤٣

نحن الصبيانُ حُفاةُ الحيّ
نحن الصبيان عُراةُ الحيّ
نحن الصبيان ذوو المِعَدِ المنفوخةِ من أكلِ الطين
نحن الصبيان ذوو الأسنانِ المنخورةِ من أكلِ التمرِ وقِشرِ اليقطين
نحن الصبيان سنصطفُّ، صباحاً، نستقبلكم بالسعفِ الأخضرِ
من قبرِ الحَسنِ البِصريِّ إلى أولِ نهرِ العَشّارِ. . .
سنهتفُ: عشتُمْ!
وسنهتفُ: دُمتُمْ!
وسنسمعُ موسيقى القِرَبِ الأسكتلدنيّةِ مبتهجين. . .
أحياناً نضحكُ من لِحيةِ جنديٍّ هنديٍّ؛
لكنّ الخوفَ يُخالطُ ضحكتَنا، ويخالِفُها. . .
نهتفُ: عشتُمْ!
نهتفُ: دمتُمْ!
ونمدُّ لكم أيدينا: أعطُونا خبزاً،
نحن جياعٌ منذ وُلِدنا في هذي القريةِ. . .
أعطُونا لحماً، عِلكاً، عُلَباً، سَمَكاً

أعطونا كي لا تطردَ أُمٌّ ابناً،
كي لا نأكلَ طيناً وننام. . .
نحن الصبيان حُفاة الحيّ
لا نعرفُ من أين أتيتُم
ولماذا جئتُم
ولماذا نهتفُ: عشتُم. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
والآنَ سنسألُكم: هل ستظلون طويلاً
ونظلّ نمدُّ لكم أيدينا؟

لندن، ٣/ ١٢/ ٢٠٠٢

مشهدٌ مشوّشٌ

ريحٌ . . .
كأنّ الطائراتِ تُغِيرُ عن بُعدٍ:
كأنّ عزيفَ جِنٍّ في محيط الغابةِ
الأشجارُ ترتطمُ ارتداداً وارتعاداً وابتعاداً عبرَ ما كان البحيرةَ في زجاج الشرفةِ.
الآنَ. . . المساءُ يجيءُ مقروراً، رصاصيّاً. طيورُ البحرِ غابتْ في الأساطيرِ.
السقوفُ تنوءُ بالقرميدِ، توشكُ أن تطيرَ طليقةً والريحَ. آخِرُ ما تساقطَ من وريقاتِ الخريفِ مضى ودوْرتَهُ. أساحةُ قريةٍ أم مشهدٌ في السينما للصمتِ؟
حلّقَ طائرٌ من آخر البستان منعطِفاً ومنخفضاً كمقذوفٍ من الفَخّارِ. . .
أروقةُ المساءِ تغيبُ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

ريحٌ
والسّماءُ بلا سماءٍ
والمَمَرُّ إلى الطريقِ بلا ضياء. . .

لندن، ١٠/ ١٢/ ٢٠٠٢

عُرسُ بناتِ آوى

أمُظَفّرُ النوّاب

ماذا سوف نفعلُ، يا رفيقَ العُمْرِ؟
عرسُ بناتِ آوى. . . أنتَ تعرفُ قديماً:
نحن نجلسُ في المساءِ الرّطبِ تحتَ سقيفة القصبِ؛
الوسائدُ والحشايا من نَديفِ الصوفِ
والشايُ الذي ما ذقتُ طعماً، مثله، من بعدُ،
والناسُ. . .
الظلامُ يجيءُ، مثل كلامنا، متمهلاً
والنخلُ أزرقُ
والدخانُ من المواقدِ كالشميمِ،
كأنّ هذا الكونَ يبدأُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
فجأةً، تتناثرُ الضحكاتُ، بين النخلِ والحَلْفاءِ:
عرسُ بناتِ آوى!

* * *

أمظفّر النوّاب

ليس اليوم كالأمسِ (الحقيقةُ مثل حُلمِ الطفل)

نحن اليومَ ندخلُ فندقاً للعرسِ

(عرسِ بناتِ آوى)

أنتَ تقرأُ في صحائفهم قوائمَهم

فتقرأ:

يمرّونَ بالدَّهنا خفافاً عِيابُهُم ويخرجْنَ من دارِينَ بُجْرَ الحقائبِ

على حينِ ألهى الناسَ جُلُّ أمورِهم فَنَدْلاً زُرَيقُ المالَ ندْلَ الثعالبِ

* * *

أمظفّرُ النوّاب

دعنا نتّفقْ. . .

أنا سوف أذهبُ نائباً عنكَ

(الشآمُ بعيدةٌ)

والفندقُ السرِّيُّ أبعَدُ. . .

سوف أبصقُ في وجوه بناتِ آوى

سوف أبصقُ في صحائفهم

وأبصقُ في قوائمهم

وأُعلِنُ أننا أهلُ العراقِ

ودوحةُ النَّسَبِ

وأُعلِنُ أننا الأعلَونَ تحتَ سقيفةِ القصبِ. . .

لندن، ١١/ ١٢/ ٢٠٠٢

إصغاءُ الأصَمّ

شجرٌ
لستُ أعرفُ ماذا أُسَمِّيهِ
يَطرقُ ما تَجْمعُ النافذةْ
من فضاءٍ. . .
كأنّ الغصونَ التي عَرِيَتْ صارت المعْدِنَ المستحيلَ،
الأصابعَ في مَرسمٍ لصديقي الذي جُنَّ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كان الضبابُ يَشِفُّ
قليلاً
قليلاً
عن النبتةِ ـ النقشِ في ما يقالُ الستائرُ؛
أُصغي إلى نفَسي في البيانو المعطّلِ
هل آنَ أن أرتدي ما يقيني
وأخرجَ؟
(إني أحسُّ صلاصلَ في الصُّدغِ)

لكنما الغابةُ الآنَ تدخلُ مَنأى الضبابِ. . .
إذاً، لن أغادرَ زاويتي؛
سوف أتْبَعُ (أسمعُ؟) ما يصنعُ الكونُ
ما تفعلُ النغَماتُ الخَفِيّةُ بي. . .
سوف أُغْمضُ خطوي
وأُرهِفُ هجْساً تلاشَى
لأمضي إلى ما يريدُ الضباب.

لندن، ١٩/ ١٢/ ٢٠٠٢

قَرنفلٌ

من أين رائحةُ القرنفلِ؟
شَعرُها؟
أم إبطُها؟
أم ثوبُها الملقى على سجّادةِ البوشناقِ؟
ليلى
منذُ ثالثِ خطوةٍ في البيتِ
تجعلُ كلَّ ما في البيتِ ضَوعَ قرنفلٍ؛
ليلى
هي البستانُ رَطْباً
وهي ما يتنفّسُ البستانُ مَسْقيّاً وليليّاً،
وليلى الآنَ
تعرفُ أنني ثَمِلٌ برائحةِ القرنفلِ
فهي تَرتقُ ما تناثرَ من غيومي ثم تنشرُها سماءً
كالمُلاءةِ. . .
إن ليلى، وهي مطْبِقةٌ،
تحسُّ بأن أناملي خدِرَتْ على الكُثبانِ

تعرفُ أنّ نبضي نبضُها

وصَبيبَ مائي ماؤها. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ليلى

ستتركني أنامُ مهدهَداً بين القرنفلِ والغمام!

لندن، ٢٠/ ١٢/ ٢٠٠٢

مُنتبِذاً في عطلة الميلاد

للخرافِ التي ترتعي كلأَ المَرْجِ ضامرةً كالظِّباءْ
للطريق الذي يلتوي
صاعداً مرةً
هابطاً مرّةً،
للخيول التي تتأمّلُ عبرَ السياجْ
للبيوت التي تصلُ الأرضَ، من دَعةٍ، بالسماءْ
للبحيرات تَخْفى وتبزُغُ
للطيرِ. . .
أسْلَمْتُ كَفّينِ مفتوحتينِ:
أما لَهُما، اليوم، من ماليءٍ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
فجأةً
ثَمَّ نجمٌ هوى. . .
سقطتْ قطرةٌ، دونما دِيمةٍ للمطرْ؛
أتُرى كنتُ أرحلُ في الراحتَين؟

لندن، ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٢

موسيقى غرفةٍ

من غرفة النومِ التي تعلو على شجر الحديقةِ
وهو يَقْطرُ
كنتُ أسمعُ قُرصَ موسيقى. . .
لقد كان الصباحُ مبطَّناً بالماءِ
مخضرّاً
وسرِّياً
وكنت أرى الرذاذَ ولا أرى
وأحسُّ بالبرد الخفيفِ ولا أحسُّ. . .
كأنّ طيراً يختفي، مترنِّحاً، في الأفقِ؛
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سوف أتابعُ الإصغاءَ، ملتحفاً بجِلْدي
أو أحاولُ أن أقول.

لندن، ٢٩/ ١٢/ ٢٠٠٢

الهُدوء

في الضواحي
عندما تلمسُ أولى قطراتِ المطرِ، الأشجارَ
والقرميدُ يغدو، فجأةً، أسودَ جوزيّاً
وتبْتلُّ قليلاً ساحةُ القرية. . .
يجري جدولٌ من آخرِ الدنيا
ويسري في الأصابيعِ؛
(الضحى ليلٌ؟)
وهل في الغفلةِ الكبرى تَمَشَّى في العروقِ النخلُ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كم بئرٍ ستُطوى
آنَ ما ينْقَضُّ، كالصّخرِ، المساء!

لندن، ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٢

نصيحةٌ متأخرةٌ

قالَ: إنْ ضاقتْ بكَ الغرفةُ، فلْتنظرْ عميقاً في السماءْ
أنتَ لن تخسرَ شيئاً؛
فالخساراتُ التي حدّثتَني عنها (وكنّا نقطعُ الغابةَ)
صارتْ عَجّنةَ الصّلصالِ في كفّيكَ. . .
صارتْ خطوةً تاليةً.
ما نَفْعُ أن تجلسَ في الغرفةِ مقروراً؟
وما نفعُ الأغاني آنَ ما تسمعُها وحدَكَ؟
أنصِتْ لأعالي الشجرِ الأجردِ
أيّانَ تهبُّ الريحُ،
أنصتْ للشبابيكِ التي توصَدُ يوميّاً ولا توصَدُ
أنصِتْ للسكون. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أنتَ من علّمَني هذي الأحابيلَ
فما طَعْمُ الكلام؟

لندن، ١٠/ ١/ ٢٠٠٣

نارُ الحطَّابينَ

منذُ ثلاثةِ أيامٍ، يَتَنزّلُ هذا المطرُ. . .
الشجرُ الأجردُ يلبسُ ثوباً أسودَ/ أخضرَ،
حتى اسمُ الشارعِ في اللوحةِ يمحوهُ الطحلبُ؛
ماءٌ في القرميدِ
وشمسٌ في المخطوطاتِ وفي كتبِ اللغةِ. . .
الليلةَ زارتني أرواحٌ إغريقيّاتٌ:
قُمْ!
وانفضْ عنكَ دثارَكَ. . .
واحملْ في التيهِ المائيّ، عصاكَ
اركضْ!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ثمَّتَ، في ذاك المَرْجِ، مرايا ذائبةٌ
وفِراءٌ
وخيولٌ ترعى أعشابَ القاعِ؛

اركضْ!

سوف ترى يوماً ما

ـ حتى لو كانت رَجْما ـ

نارَ الحطّابينَ. . .

اركضْ!

لندن، ٢٠/ ١/ ٢٠٠٣

رقصةُ الفالاشا

نحن فالاشا
والقرنُ الواحدُ والعشرونْ
سيكونُ لنا
نحن، ذوي الصّلعةِ والعُثْنونْ

نحن فالاشا
نضربُ في الأرضِ: نغنِّي حيناً
نفتحُ دكاناً حيناً
ونبيعُ النفسَ وأوراقَ التينْ. . .

نحن فالاشا
والكونُ بضائعُ
نحن بضائعُ
لا فرقَ لدينا إنْ بِعنا بلداً
أو صرنا في منزلِ ضاحيةٍ قَوّادينْ

نحن فالاشا
لا أرضَ لنا، لا عِرضَ
ولكنّا نسمعُ عن أجدادٍ وتماثيلَ
وعن بلدٍ بين النهرينْ. . .

نحن فالاشا
والأيامُ الآنَ لنا:
الريحُ مواتيةٌ. . .
من أرصفة نيويورك إلى الأشجار بشرقيّ الصينْ

الريحُ مواتيةٌ
سنكون قباطنةً
أو غسّالي خِرَقٍ ودفاترَ
في سفنِ النخّاسينْ

نحن فالاشا
نسكرُ في حانِ الأمواتِ
ونسكنُ في خانِ السُّعلاةِ
ولا نعرفُ عَكّةَ من مكّةَ. . .
لكنّا سنصيرُ عراقيين!

لندن، ٢٣/ ١/ ٢٠٠٣

طبيعةٌ صامتةٌ

الشجرُ الأجردُ صارَ تماثيلَ شجرْ
حَجراً يتشكّلُ تحتَ سماواتٍ هابطةٍ
يهتزُّ، وئيداً، في الريحِ
ليعلنَ عن أغصانٍ كانتْ أغصاناً. . .
أو يعلنَ عن أنفُسنا في الغرف العليا.
ثمَّتَ موسيقى؛
في الموسيقى يسري النُّسغُ وئيداً
سريّاً،
منسرباً
من ركن الغرفةِ، نحو زجاجِ النافذةِ. . .
الموسيقى
تتشبّثُ بالقرميدِ
وبالسقفِ
وبالغيمِ الهابطِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

مَن منحَ الأرضَ فُجاءتَها؟
من منحَ الأحجارَ غصوناً خُضراً
من زيّنَ نافذتي بالنبتِ المتسلِّقِ
في لحظةْ؟

لندن، ٢٦/ ١/ ٢٠٠٣

الأسماك

منذ يومينِ، وهذا الثلجُ يهوي، هادئاً، منتفشاً كالريشِ
لم أعرفْ لماذا هبطَ الطيرُ من الأغصانِ
كي ينْقرَ في ثلج الطريقِ. . .
اللوحةُ؟
الأسودُ والأبيضُ. . .
أمْ أنّ نثيرَ الحَبِّ تحت الثلجِ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أيّانَ تطلُّ الشمسُ؟
كانت نبتةُ المنزلِ في الركنِ تُدَنِّي رأسَها
نحوَ الزجاجِ؛
الغابةُ السوداءُ في البُعدِ،
وفي البعدِ البحيراتُ التي تَزْرَقُّ تحت البردِ أيضاً. . .
كلُّ شيءٍ ساكنٌ
لكنّ في مضطرَبِ القاعِ
وفي الأعماقِ
أسماكَ الذهبْ!

لندن، ١/ ٢/ ٢٠٠٣

واقعيّة

الخيولْ
ترتعي في الثلجِ . . .
أحياناً تطلُّ الشمسُ لوناً بارداً
يدْفأُ في الثلجِ،
وأحياناً ترى أبعدَ من منفسَحِ الغابِ، البحيراتِ
وسِربَ الوزِّ
والسنجابَ
والطيرَ
كأنّ الكونَ قد رُتِّبَ كوناً هذه اللحظةَ . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أنتَ، الآنَ، لن تسمعَ ما تسمعُهُ إذ يُطْبِقُ الليلُ
وتأوي الخيلُ،
أنت الآنَ في الصورةِ؛
فاهدأْ
قبلَ أن تنْقضَّ في كابوسكَ الليليّ تلك الطائرات.

لندن، ٤/ ٢/ ٢٠٠٣

نبضٌ أبيضُ

جاءنا، في غفلةٍ من قطَراتِ المطرِ الأولى، نَديفُ الثلجِ. . .
قرصٌ أشهبُ استخفى
وما كان سحاباً صار صحراءَ من الماءِ
ولوناً للسماءِ،
الريحُ هبّتْ فجأةً
والثلجُ، في الريحِ، يُذَرِّيها هنا، أو ههنا
حلَّقَ طيرٌ واحدٌ من آخرِ المبنى
خفيفاً
عَجِلاً
ضخْمَ الجناحَينِ. . .
لماذا أقفرتْ ساحتُنا؟
كانت زهورُ الثلجِ قطناً، ياسميناً، نعمةً سابغةً
تصبغُ هذي الأرضَ باللونِ الذي ليس له لونٌ؛
لماذا أقفرتْ ساحتُنا؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

لكنْ، سأبقى، أنا، في الساحةِ:
شَعري الثلجُ
والسترةُ (جِلْدٌ أسودُ) الثلجُ؛
الممرّاتُ هي الثلجُ...
سلاماً، أيها الثابتُ في الساحةِ
يا ظلَّ الغريبْ...

لندن، ٤/٢/٢٠٠٣

خدَر

الأناملُ نائمةٌ، وحدَها، في قماش الأريكةِ
لا نبضَ في القدمينِ:
الشمالُ معطّلةٌ كاملاً
واليمينُ بها شِبْهُ وخْزٍ...
وعيناي لا تَطْرُفانِ؛
هل البردُ غلغلَ بين العروقِ وما حولَها الثلجَ؟
أهي الرطوبةُ؟
أمْ أنّ أغنيةَ العمرِ تهدأُ؟
.....
.....
.....
أَطْرِقْ قليلاً، إذاً
وانتبِهْ لزخارفِ هذا البساطِ....
النعاسُ يهدهدُ جفنيكَ،
لا تبتئسْ
فالنعاسُ سيأتي على ظُلُماتِ النعاس!

لندن، ١٠/ ٢/ ٢٠٠٣

منطقُ الطَّيْطَوَى(*)

حينَ قُلْنا: «بَعُدْنا عن النخلِ...»، كانت بحارٌ تصفِّقُ بالطيرِ والموجِ؛ كانت سماءٌ سماويّةٌ تحتَ أهدابِنا. لن يكونَ السبيلُ إلى حانةِ الشاطئِ، المستحيلَ. القميصُ الذي كان يخفقُ في الريحِ بَيْرَقُنا ذو النجومِ. اقتربْنا من الوهمِ حتى لمسْنا الرواقَ وراووقَهُ، بل فرشْنا بساطَ السواقي لنهنأ بالساقيةْ.

ليست الأرضُ عادلةً، فلْنكُنْ مع أسئلةِ البحرِ. في الليلِ نسري، وفي الفجرِ نلقي المراسي. المرافئُ
ما زالَ فيها الندى، والمقاهي تَبَرَّجُ مزهوّةً بثيابٍ من السمكِ المتواثبِ والشّبَكِ. الطُّحلُبُ الحيُّ
ما زال حيّاً على الصخرِ، والكأسُ قهوتُها بالكحولِ. وفي البُعدِ، في غَبَشٍ من رذاذٍ تلوحُ
زوارقُ صيدٍ، وفي القُربِ قُبّعةٌ طافيةْ.
نحن لم نألفِ البحرَ. تلك البراري تُلَوِّحُ في دمنا كالمناديلِ. في هدأةِ النومِ تصحو لتسكنَ أحلامَنا،

(*) طائر الطيطوى (الطَطْوة بالدارجة العراقية)، يطلق صيحته منذراً بالرحيل: شيلوا... شيلوا!

كي تقولَ: إلى أينَ هذا الفرارُ؟ ومثلَ الفُجاءةِ نلمحُ قافلةً من جِمالٍ تسيرُ على الماءِ، نسمعُ جرْسَ الجلاجلِ
لكننا سوف نأوي إلى هدأةِ الوهمِ، ثم نَلُوْثُ المُلاءةَ مثلَ العمامةِ.
بحّارةٌ بعمائمَ نحنُ. حُداةٌ
على البحرِ. زاويةٌ قاسيةْ.

يا إله الضواحي، ادَّخرتَ لنا منطقَ الطّيطوى، صيحةَ الطيرِ: شِيلوا!
لماذا تصيرُ المدائنُ في لحظةٍ غيمةً؟
يا إله الضواحي، أمستكثَرٌ أن يكون لنا منزلٌ؟ أنت تمنحُ حتى الأوابدَ حقَّ النعاسِ إذا أطبقَ الليلُ، تمنحُ حتى النباتَ السُّجُوَّ، العصافيرَ هدأةَ غَيْضتِها في الأصيلِ المبارَكِ. يا والدِي، يا إلهَ الضواحي، التفتْ؛ أنت لن تخطئَ الناحيةْ.
نحن صرنا شيوخاً، وأحفادُنا يَدْرجون، على الثلج حيناً، على الرمل حيناً؛ وأبناؤنا يُقتَلون. المعاركُ خاسرةٌ يا إلهي... ألمْ تستطعْ منعَها؟ أنت أنت القديرُ على كل شيءٍ، فهل نحن خارج قدرتكَ؟ اليومَ أمرٌ، وفي الغدِ أمرٌ، وبعدَ غدٍ... هل تقومُ الصلاةُ إذاً؟ أنا في المنزل الآنَ، في القرية الإنجليزيةِ. الثلجُ يسقطُ، والقطُّ يأوي، وخمريَ في الخابيةْ.

كانت الأرضُ بيتاً لنا (نحن أبناؤها). قيلَ: من يحرثِ الأرضَ ينعمْ بها. كما حرثنا إلى أن تقَرَّحَ منّا الأديمُ،
وكم ضاقت الأرضُ! رُبّتَما فرَّ ذاك الملاكُ، وربّتما قنِعتْ بالصلاةِ

الخلائقُ. كانت قرانا على الماءِ. أكواخُنا من جريدٍ وطينٍ. وأثوابُنا من غليظِ النسيجِ. هي الأرضُ. لكنّ أصواتنا في أقاصي الغناءِ، وقاماتنا عاليةْ.

هل تعودُ لنا الأرضُ؟ قُلْ: إننا العائدونَ إلى الأرضِ. نخلُ السماوةِ طَرّتْهُ سمراءُ. سمراءُ! سمراءُ! يا نمجمةً

في الأعالي: أحبُّكِ سمراء. إني هنا، في الضواحي الغريباتِ. لا منزلي منزلي. ليس أهلي همو الأهلَ. أطبِقْ إذاً

يا مساءُ، ويا بردُ غلغِلْ حُبَيباتِ ثلجِكَ تحتَ العظامِ. المدينةُ ترسلُ أضواءَها من بعيدٍ. سلامٌ لقنديلنا في الظلامِ. السلامُ على مَن يردُّ السلام. . .

لندن، ٢١/٢/٢٠٠٣

نشيدٌ شخصيٌّ

أهو العراقُ؟
مباركٌ مَن قالَ إني أعرفُ الطُّرقَ التي تُفْضي إليهِ
مباركٌ من تمتمتْ شفتاهُ أربعةَ الحروفِ:
«عراقُ، عراقُ، ليس سوى عراقٍ»...
سوف تنقَضُّ الصواريخُ البعيدةُ
سوفَ يَدهمُنا الجنودُ مدجّجِينَ
وسوف تنهارُ المنائرُ والمنازلُ
سوف يهوي النخلُ، منقصفاً؛ وسوف تضيقُ بالجثثِ التي تطفو ضفافُ البحرِ والأنهارِ
سوف نرى، لُماماً، «ساحةَ التحريرِ»، في كتُبِ المراثي والتصاويرِ...
المطاعمُ والفنادقُ:
ماكدونالد Mc Donald
دجاج كنتاكي KFC
وهوليداي إنْ Holiday Inn
سوف تكون خارطةَ الطريقِ، وبيتَنا في جنّة المأوى،

وسوف نكون غرقى
مثلَ إسمكَ يا عراقُ
«عراقُ، عراقُ، ليس سوى عراق. . .»

لندن، ١٥/٣/٢٠٠٣

الإحساس الأول

بين الشجرِ المتحفِّزِ، والمطرِ المختبئِ، الريحُ تدورُ
الريحُ تدورُ تدورُ تدورُ
الريح تدور تدورُ
الريحُ تدورُ
الريحُ . . .
الأغصانُ معرّاةٌ، تُنبِتُ أسلاكاً وهسيساً، وتُسِفُّ علي السقفِ؛
اصطفقتْ أجنحةٌ، بضعَ دقائقَ
ثم هوتْ غرباً؛
من أين تسلّلَ ضوءُ الأرضِ إليَّ، هنا، في الغرفةِ؟
دَوحٌ وشميمُ ترابٍ،
ونديفٌ من زغَبٍ أبيضَ . . .
في الساحةِ
حولَ المصطبةِ، الريحُ تدور
الريحُ تدور تدور تدور
الريح تدور تدور
الريح تدور
الريح . . .

لندن، ٩/ ٣/ ٢٠٠٣

الخَوَنة

تحتَ سماءٍ ذاتِ نجومٍ
أحصاها لورنسُ العربِ، الليلةَ، واحدةً واحدةً، حتى نامَ
على بضعِ زرابيٍّ، وُضِعَتْ واحدةً فوقَ الأخرى
(تعرفُ أن الرملَ تقيمُ بهِ حيّاتٌ وعقاربُ). . .
أبحَرَ لورنسُ، عميقاً، في الحُلْمِ:
وكان قطارٌ عثمانيٌّ/ ألمانيٌّ يهدرُ بين اسطنبولَ ومكّةَ
كان قطارٌ عثمانيٌّ/ ألمانيٌّ يهدرُ، فعلاً، بين اسطنبولَ ومكةَ. . .
فكّرَ لورنسُ (الجاسوسُ يفكرُ حتى في الحُلْمِ):
سأستدعي فجراً، عملائي السبعةَ
أعمدةَ الحكمةِ (في ما بَعدُ)
وسوف أقولُ لهم:
ستكون دمشقُ لكم، أو بغدادُ
علينا أن نقطعَ تلك السكّةَ بين اسطنبولَ ومكّةَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

واليومَ
وفي آخرِ شهرِ شباطَ
من القرن الواحدِ والعشرينَ
يقلِّبُ لورنسُ، البصرَ. . .
الصحراءُ هي الصحراءُ
وأعمدةُ الحكمةِ ما زالوا السبعةَ
والسكّةُ مثقلةٌ بالألغام.

لندن، ١٩/ ٢/ ٢٠٠٣

الرعد

في مساءٍ مثلِ هذا، أشتهي أن أسمعَ الرعدَ. . .
السماواتُ التي تهبطُ
والبردُ
وهذا السُّرخُسُ الرطْبُ؛
لقد مَرَّ على مُنْفسَحِ الأفْقِ، سريعاً، آخرُ الطيرِ
وفي الساحة تشتدّ الخطوطُ البيضُ (أعني بين سيّاراتنا) في لمعةِ الفُسفورِ
والهدأةُ!
أحياناً، كما في الحُلمِ، يأتيني هديرٌ. . .
(أهو من طائرةٍ؟)
ثمّتَ شيءٌ لا يُرى، لكنه يُسمَعُ، مثلَ الخطفةِ الأولى من المُدْيةِ لِصْقَ القلبِ؛
مثلَ الرعدِ في اللوحةِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

كان النخلُ في البصرةِ يهتزُّ
وكانت طائراتٌ تعبرُ اللوحةَ، كالبرقِ
وكان الرعدُ يهوي في دمي مثل الرماد. . .

لندن، ١١/٣/٢٠٠٣

تلك البلاد

في الطين بضعةُ أكواخٍ
ومئذنةٌ ليستْ تُرى في ضفيرِ السعْفِ
والقصبِ. . .
إني عرفتُ طريقي نحوَها، خطأً بين الخرائطِ
والأسفارِ
والكتبِ؛
كم كنتُ حتى مع التذكارِ أُنكِرُها
لطولِ ما أنكرَتْني. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
والآنَ، ماذا سأصنعُ بها؟ أين أُسْكِنُها في هذا الليلِ البلْقع؟
ألن تغضبَ عليَّ إن سألتُها: من أنتِ؟ ألن تشعرَ بالحرجِ إنْ عرّيتُها؟
سأقولُ لها: كنتُ طليقَ اليدينِ قبلَ أن تنحدري عليّ. لكني هذه الليلةَ مُطَوِّقُكِ. أنا أحبُّكِ. لا تقتليني بعد أن انتظرتُكِ طويلاً في فراري.

يا بلاداً لا تُسمّى
يا بلاداً موجةً
حُقّاً من الزئبقِ
طاعوناً
وصبحاً ياسميناً. . .
أَمهِليني أتقرّى أيَّ اسمٍ سأسمِّي، مرةً، تلك البلاد. . .

لندن، ١١/٣/٢٠٠٣

بِيزَنْطَة

«مهداة إلى قسطنطين كافافي»

كان الحكماءُ يعودون إلى ساحتهم قربَ المرفأِ
(أعني باحةَ حانِ سِفِرْيادس). . .
الوقتُ ضحىً
والحكماءُ يعودون إلى الساحةِ كلَّ ضحىً؛
أحياناً يتخلّفُ منهم أحدٌ أو اثنانِ
(لموتٍ أو سفرٍ)
لكنّ الجلسةَ تُعقَدُ
فالحكماءُ لديهم ـ طبعاً ـ ما يَشْغَلُهم،
وأهالي بيزنطةَ مرتاحون لأنّ لديهم حكماءَ الساحةِ منذ سنينٍ
وسنينٍ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
والحكماءُ يديرون الظَّهرَ عن المرفأِ، متّكئينَ؛
مصاطبُهم من خيرِ رخامٍ أبيضَ
أثوابُهمو من كتّانٍ أبيضَ

أمّا خمرُ سفريادس. . .
والناسُ هنا (أعني في بيزنطةَ) ينتظرون نهايةَ ما يتفكّرُ فيه الحكماءُ
الناسُ هنا ينتظرون
وينتظرون. . .
هل الفرخةُ من تلك البيضةِ
أم أنّ البيضةَ من تلك الفرخةِ؟
كان الناسُ، سنيناً، ينتظرون. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في المرفأِ
في الغبَشِ المُدّثِّرِ شبهَ ضبابٍ
كان السلطانُ محمدٌ الفاتحُ، يُزْجي، في البوغازِ، سفائنَهُ،
كانت بيزنطةُ نائمةً
أمّا الحكماءُ فلم يصلوا الساحةَ بعدُ.

لندن، ١٤/ ٣/ ٢٠٠٣

عَلَمٌ أحمر

كم دوّخْنا العالَمَ
حتى دوّخَنا، الآنَ، العالَمُ.
نحن، كما قيلَ، حُثالتُهُ...
لكنْ نحن الثُّفْلُ
ونحن ذوو الحَدَقاتِ الواسعةِ
المرتعشون من البردِ
الضاوونَ
لصوصُ الخبزةِ والتمرةِ...
نحن الساعون إلى الهيجاء بغير سلاحٍ
نحن ذوو الأسلحةِ المطْويّةِ
نحن ذوو الأسئلةِ الأولى
نحن الطين
ونحن ورودُ اليقطين
ومِلْحُ الماءِ
وماءُ الملحِ
ونحنُ:
إلخ...

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أمّا الآنَ، وقد ألححْتَ طويلاً، أن تعرفَنا. . .

الآنَ

اخْتَرْ عَلَماً، من بينِ ثلاثةِ أعلامٍ:

علَمٍ أبيضْ

علمٍ أسودْ

علَمٍ أحمرْ. . .

لندن، ١٧/ ٢/ ٢٠٠٣

المحتويات

ايروتيكا (١٩٩٤) ٥
امرأة صامتة ٧
EROTICA ٩
عانة - I - ١٠
عانة - II - ١١
عانة - III - ١٢
طيور بحريّة ١٣
في حانة جاز ١٤
عند النافذة ١٥
Camping ١٦
زَبَدٌ ١٧
امتصاص ١٨
فودكا ١٩
استعادة ٢٠
ابتداء ٢٢
تلوين ٢٣

السؤال ٢٥
الهدوء ٢٦
جرفٌ مرجانيّ ٢٧
فارسة ٢٩
الثوب ٣٠
ظهيرة ٣١
كمّاشة ٣٢
القطار ٣٣
سوء تفاهُم ٣٤
الماشطة ٣٥
حيادٌ صعب ٣٦
مطعم صينيّ ٣٧
ثالوث ٣٩
الغرفة ٤١
في الحرب ٤٣
ناحلة ٤٤
عطلة الأسبوع ٤٥

قصائد ساذجة ٤٧
إلى محمود درويش ٤٩
إلى فوزي كريم ٥١
إلى أمجد ناصر ٥٣

إلى حيدر صالح ٥٤
إلى وليد خز ندار ٥٦
إلى عبد اللطيف اللعبي ٥٧
إلى حسب الشيخ جعفر ٥٩
إلى بشير قهوجي ٦١
إلى هاشم شفيق ٦٣
إلى زاهر الغافري ٦٥
النّاسِكُ ٦٧
(من دون عنوان) ٧٢
الحُوريّة ٨٠
التذاكر ٨٢
موسيقى غرفةٍ ٨٣
إنصات ٨٥
خريفٌ متأخر ٨٧
نصيحة ٨٩
اللّعنة ٩١
علامات ٩٣
(من دون عنوان) ٩٥
رحلة الطائر الأخيرة ٩٨
هاجس الأديم ١٠٠
حيّ الأكراد ١٠٢
صباحٌ ما ١٠٤

تفاؤل ١٠٦
مفتاحُ الانفرادية ١١٠
العربُ البائدة ١١٢
America, America! ١١٤
الوردة والقمر ١٢٢

حانةُ القردِ المفكّر (١٩٩٧) ١٢٥
استقبال ١٢٧
الهدوء ١٢٩
السّفارة ١٣١
حوار مكتوم ١٣٤
الناطور ١٣٦
المحاولة ١٣٨
رباعيّة الميناء ١٤٠
تهويمُ المسافر ١٤٦
الجفاف ١٥٣
إغواء وموسيقا ١٥٦
ربيعٌ مبكر ١٥٧
القفّازات ١٥٩
محاولة الانفلات ١٦١
طاولة ١٦٣
الدوّامة ١٦٥

رؤيا ١٦٦
المعجزة ١٦٧
البلل ١٦٨
في بلدةٍ ثانويّة ١٧٠
عن اللائي يكتبن «روايةً» مشهورة ١٧١
تَسامُح ١٧٢
بنسيون في جونيه ١٧٣
حانة سائقي الشاحنات ١٧٥
على تخوم الرُّبع الخالي ١٧٧
كاتَلين ١٧٨
غيومٌ صباحيّة ١٨٠
الحكمة ١٨٢
بابُ البحر ١٨٤
حانة القرد المفكّر في كافالا ١٨٦
سعادة ١٩٠
احتضار ١٩١
أغنيةُ الأعمى ١٩٢
إحساس ١٩٤

يوميّات أسير القلعة (٢٠٠٠) ١٩٥
محمد مهدي الجواهري ١٩٧
قلعة الحصن ٢٠٣

حدائق ٢٠٨
المستحيل ٢١١
القيامة ٢١٣
في الفلبين ٢١٤
البقيع ٢١٥
ساراماغو ٢١٦
استمطار ٢١٧
النسيان ٢١٨
الزائر ٢٢٠
ذكاء ٢٢٢
آلةُ الزّمن ٢٢٣
القافلة ٢٢٥
المصير ٢٢٦
تدقيق ٢٢٨
الغياب الأخير ٢٢٩
غازٌ سامٌّ ٢٣٠
ثِمار ٢٣١
REPONDEUR ٢٣٢
يومٌ عاديّ ٢٣٣
القرد والوالي ٢٣٥
محطّة ٢٣٦
اللّعنة I ٢٣٧

حيدر ينام ٢٣٨
تنويعات على اللحظة ٢٤١
اللعنة II ٢٤٣
المطارَدة ٢٤٥
إلى زُوّارٍ غربيّين ٢٤٦
العلاقة ٢٤٨

قصائد العاصمة القديمة (٢٠٠١) ٢٥١
القصيدة الأولى ٢٥٥
القصيدة الثانية ٢٥٧
القصيدة الثالثة ٢٥٩
القصيدة الرابعة ٢٦١
القصيدة الخامسة ٢٦٣
القصيدة السادسة ٢٦٦
القصيدة السابعة ٢٦٩
القصيدة الثامنة ٢٧١
القصيدة التاسعة ٢٧٣
القصيدة العاشرة ٢٧٤
القصيدة الحادية عشرة ٢٧٥
القصيدة الثانية عشرة ٢٧٧
القصيدة الثالثة عشرة ٢٧٩
القصيدة الرابعة عشرة ٢٨١

القصيدة الخامسة عشرة ٢٨٣
القصيدة السادسة عشرة ٢٨٤
القصيدة السابعة عشرة ٢٨٥
القصيدة الثامنة عشرة ٢٨٦
القصيدة التاسعة عشرة ٢٨٧
القصيدة العشرون ٢٨٨
القصيدة الحادية والعشرون ٢٨٩
القصيدة الثانية والعشرون ٢٩٠
القصيدة الثالثة والعشرون ٢٩١
القصيدة الرابعة والعشرون ٢٩٢
القصيدة الخامسة والعشرون ٢٩٣
القصيدة السادسة والعشرون ٢٩٤
القصيدة السابعة والعشرون ٢٩٥
القصيدة الثامنة والعشرون ٢٩٦
القصيدة التاسعة والعشرون ٢٩٧
القصيدة الثلاثون ٢٩٨

مُلْحَق: ما بعد الارتطام ٣٠٣
غِياب ٣٠٥
الغراب ٣٠٦
المقبرة البولونيَّة ٣٠٨
الوقفة ٣١٢

الشاحنة الهولنديّة: الخزّان ٣١٣
الحديقة المنزلية ٣١٤
الطائرات ٣١٥
أُمْنِيَةٌ ٣١٦
Diamonds ٣١٧
عجائب ٣١٩

حياة صريحة (٢٠٠١) ٣٢١

شرفة المنزل الفقير ٣٧١
ذلك النهار الممطر ٣٧٣
انطباعاتٌ مقطوعةٌ عن سياق ٣٧٦
من قتلَ فرهاد عثمانوف؟ ٣٧٨
ارتياب ٣٨١
صباحٌ ما ٣٨٢
حوار ٣٨٣
مُسَوّدةٌ أُولى ٣٨٤
الشّايُ في الشرفةِ ٣٨٦
القهوة تبرد في الشُّرفة ٣٨٧
شُرفة فؤاد الطائي (رسّام) ٣٨٨
شُرفة المنزلِ الفقير ٣٩٠
قلعةُ ألْسِينور (قلعة هامْلِت) ٣٩٢

شُرفةُ هامْلِتْ (١) ٣٩٤
شُرفة هامْلِتْ (٢) ٣٩٦
شُرفةُ هامْلِتْ (٣) ٣٩٨
العَقَبة ٣٩٩
رأيتُ أبي ٤٠٨
إحساسٌ مضطربٌ ٤٠٩
أميرٌ هاشميٌّ منفيٌّ في لندن ٤١١
تقليبُ أوراق ٤١٣
الطّوافُ بالمقاهي الثلاثة ٤١٧
استيحاش ٤٢٧
تقليد عبد السلام عيون السُّود ٤٢٩
لم يتغيَّرْ شيءٌ ٤٣١
طبيعة ٤٣٣
الرِّحلة ٤٣٤
مُتَغايِرات (١) ٤٣٥
السّؤال الصّريح ٤٣٧
مُتغايرات (٢) ٤٣٨
مُتَغايِرات (٣) ٤٤٠
دعوة عشاء ٤٤٢
ما أصعبَ الأغنية! ٤٤٣
أوكْتافْيا ٤٤٥
الثّالث من آب ٢٠٠٢ ..... ٤٤٧

تبدأُ الحربُ. ٤٤٩
الفصول (١) ٤٥١
الفصول (٢) ٤٥٢
الفصول (٣) ٤٥٣
الفصول (٤) ٤٥٤
ثلاثُ محاولاتٍ لعلاقة ٤٥٦
مُعايَنة ٤٥٨
رُباعيّةٌ أيضاً. ٤٥٩
ذبذبات ٤٦٢
الطيفُ ذو البيريّة ٤٦٤
القطُّ تحت المطر ٤٦٦
محاولةٌ أولى في الضّباب ٤٦٨
محاولةٌ ثانيةٌ في الضباب ٤٧٠
محاولةٌ ثالثةٌ في الضّباب ٤٧١
نَبْتةُ الآس ٤٧٢
الاحتلال ١٩٤٣ ..... ٤٧٤
مشهدٌ مشوّشٌ ٤٧٦
عُرسُ بناتِ آوى ٤٧٨
إصغاءُ الأصَمّ ٤٨٠
قَرنفلٌ ٤٨٢
مُنتبِذاً في عطلة الميلاد ٤٨٤
موسيقى غرفةٍ ٤٨٥

الهُدوء ٤٨٦
نصيحةٌ متأخرةٌ ٤٨٧
نارُ الحطَّابينَ ٤٨٨
رقصةُ الفالاشا ٤٩٠
طبيعةٌ صامتةٌ ٤٩٢
الأسماك ٤٩٤
واقعيّة ٤٩٥
نبضٌ أبيضُ ٤٩٦
خدَر ٤٩٨
منطقُ الطَّيْطَوَى ٤٩٩
نشيدٌ شخصيٌّ ٥٠٢
الإحساس الأول ٥٠٤
الخَوَنة ٥٠٥
الرعد ٥٠٧
تلك البلاد ٥٠٩
بِيزَنْطَة ٥١١
عَلَمٌ أحمر ٥١٣

سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء السابع

سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء السابع

قصائد الخطوة السابعة

منشورات الجمل

ولد **سعدي يوسف** في البصرة عام ١٩٣٤. تخرّج من دار المعلمين ببغداد سنة ١٩٥٤. عمل في الصحافة وتنقل بين عدة بلدان ويقيم اليوم بلندن. نشر العديد من الترجمات الشعرية والنثرية، وكتب القصة والرواية، ترجمت أشعاره إلى العديد من اللغات ونال جوائز أدبية في البلدان العربية والأوروبية. من أعماله وترجماته: **القرصان**، شعر (١٩٥٣)؛ **أغنيات ليست للآخرين**، شعر (١٩٥٥)؛ **قصائد مرئية**، شعر (١٩٦٥)؛ **بعيداً عن السماء الأولى**، شعر (١٩٧٠)؛ **نهايات الشمال الأفريقي**، شعر (١٩٧٢)؛ **الأخضر بن يوسف ومشاغله**، شعر (١٩٧٢)، **والت وايتمان: أوراق العشب**، ترجمة (١٩٧٦)؛ **تحت جدارية فائق حسن**، شعر (١٩٧٤)؛ **قصائد أقل صمتاً**، شعر (١٩٧٩)؛ **خذ وردة الثلج، خذ القيروانية**، شعر (١٩٨٧)؛ **قصائد باريس، قصائد إيثاكا**، شعر (١٩٩٢)؛ **كافافي: وداعاً للاسكندرية التي تفقدها**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **يانيس ريتسوس: إيماءات**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **لوركا: الأغاني وما بعدها**، ترجمة (١٩٨١)؛ **فاسكو بوبا: شجرة ليمون في القلب**، ترجمة (١٩٨١)؛ **غونار أكيلف: ديوان الأمير وحكاية فاطمة**، ترجمة (١٩٨١)؛ **أونغاريتي: سماء صافية**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هولان: قصائد**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هنري ميللر: رامبو وزمن القتلة**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **نغوجي واثيونغو: تويجات الدم**، ترجمة (١٩٨٢)؛ **ديفيد معلوف: حياة متخيلة**، ترجمة (١٩٩٨)؛ **وولي سوينكا: المفسّرون**، ترجمة (١٩٨٦).

سعدي يوسف: **الأعمال الشعرية، الجزء السابع: قصائد الخطوة السابعة**
الطبعة الأولى
خطوط الغلاف: الفنان علي عاصي
كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٤
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨/١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2014
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ديـوانُ طَـنْـجــة

(٢٠١٢)

من نافذةٍ بفندق ريتز (طنجة) - فوتوغراف سعدي يوسف

طنجـة

أجلسُ في المقهى
مقهى القدّيسةِ باولا
Café Santa Paola
منذ الصّبحِ الباكرِ أجلسُ في المقهى:
طنجةُ تستيقظُ.
لستُ أنا مَن يُوقِظُ طنجــةَ...
مَن قالَ: الـحُـلـمُ ينام؟
.....
.....
.....
طنجةُ سيّدةُ الأنوارِ السبعةِ
أغنيةُ البَـحّــار!

طنجة، ١٦/٠٦/٢٠١١

كيسُ الخَيشِ

لستُ أدري إلى أين تذهبُ بي كلُّ هذي الأغاني؟
أحملُ الوردَ في كيسِ خَيشٍ
وأمضي به نحوَ مَن لايريدون أن يسمعوا أنّةَ الوردِ
أمضي به نحوَ نفسي التي سئِمَتْ دورةَ الحُلُمِ المستحيلِ
بفردوسِنا:
الإشتراكيّةِ
الجسدِ الـحُــرِّ
كأسِ النبيذِ مع الخُبزِ والجُبْنِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هاأنذا أحملُ الوردَ في كيسِ خَيشٍ
وأُلقِيهِ. . .
موجةُ بحرٍ ستحملُهُ نحوَ ساحرةٍ من زمانٍ جديــد.

طنجة، ١٨/٠٦/٢٠١١

حانـةُ البِرْغُـولا

ليس في «البرغولا» ما تنَفّسَ فيه اسمُــها:
مثلاً
ليس في «البرغولا» قشّــةٌ
أو مظلّــةُ قشٍّ...
هي، فعلاً، على البحرِ
لكنها رضِيَتْ بالحياةِ بعيداً عن البحرِ.
هذا النبيذُ
وأطباقُهُ من خُضارٍ ومن سَمَـكٍ
ورِئاتٍ
سَــيُغْمِضُ عينيكَ:
لن تُبصِرَ البحرَ...
فاهدأْ
ولن تبصرَ البَــرَّ
فاهدأْ
.....
.....

. . . . . .

ومِن بَعدِ قنّينـــةٍ من مَـنـابذِ مكناسَ

لن تبصرَ «البِـرغولا»!

طنجة، ١٩/٠٦/٢٠١١

وَشْـمُ القرنفُلِ

بالأمسِ
حينَ دخلتُ طنجةَ، طائراً، للمرّةِ الأولى
حسِبْتُ الأمرَ حُـلْـماً:
هل دخلتُ حديقةً؟
بيتاً من الزُّلَّـيجِ والنارَنْجِ؟
غيمةَ سُـنْـدُسٍ؟
وسألتُ عائشةَ الجميلةَ:
هل سأبني هَهُنا بيتي، صغيراً، بين رملِ البحرِ والأعنابِ؟
هل سيكونُ لي أن أجمعَ الأصدافَ والأعشابَ...
هل سأُحِبُّ؟
هل أمضي، فأُمْضِي الليلَ من حانٍ إلى حانٍ؟
وهل سأكونُ مجنوناً بِحُـبٍّ، مثل حُبِّكِ...
أنتِ عائشةُ الجميلةُ
لا تقولي، الآنَ، شيئاً!
واترُكي لي قُدْسَ هذي اللحظةِ...
اتَّـرِكي على شفتَيَّ وشماً من قرنفلةٍ وورْدٍ
ثـمّ نامي...

طنجة، ١٩/٠٦/٢٠١١

مَـرْتِـيْـل

لا بأسَ أن تميلَ عن تَـطـوانَ
أن تأبقَ
أن تخرجَ من كمّاشةٍ، من جبلَينِ أطْـبَـقـا على تَـطـوانَ
منذُ ارتفعَتْ تطوانُ
بيضاءَ
حمامـةً
في قفصٍ من جبلَينِ. . .
الآنَ، لا مَنجاةَ إلاّ في انفتاحِ البحرِ
في الرملِ الذي ينقذُنا من ملمَسِ الصخرِ
في الماءِ الذي نهبطُ فيه مثل ما نهبِطُ في السَـرِّ. . .
لقد غابت، مع الهدأةِ، أطلانطسُ
نحن الآنَ في مَـرْتِـيل
بينَ الأزرقِ الأزرقِ والأبيضِ
بين البحرِ والرملِ،
وبينَ الكأسِ والأخرى. . .
حُـفـاةٌ نحنُ في بارٍ قديمٍ،

شِـبْـهِ مهجورٍ لهُ طلعةُ إسبانيّةٍ من زمنٍ أغبرَ:
تأتي قطّـةٌ
لا بُدَّ أن تأتي إلينا قطّةٌ
كي يستمرَّ الحقـلُ في دورتِهِ حتى المســاء!

طنجة، ٢٤/٠٦/٢٠١١

صباح الأحد في طنجة

في الهواء قواقعُ بحريــةٌ
رَخَويّاتُ ماءَينِ أسماهُما قومُنا الـمتوسِّطَ والأطلسيّ. . .
كأنّ قماشاً نقيعاً يلفُّ المدينةَ،
والناسُ شِبْهُ سكارى
وما هُم سكارى. . .
يقولُ ليَ الفندقيُّ: المدينةُ مخنوقةٌ.
قلتُ: طنجةُ قد أحيَت الليلَ،
والآنَ يحلو لها أن تنام. . .
ولكنني سوف أمضي إلى الشاطىء المتطاوِلِ حيثُ الـمدافعُ،
لن تتبدّى ليَ أندلُسٌ في البعيدِ:
الهواءُ قواقعُ
أمّا النوارسُ فهي التي تجعلُ الأحدَ الجـهْـمَ أضغاثَ عِـيــد. . .

طنجة، ٢٦/٠٦/٢٠١١

فندق رِتْـز Ritz Hotel

٢٧ شارع موسى بنِ نُـصَير
حيثُ متاهةُ طنجةَ تبدأُ
حيثُ يضيقُ الشارعُ والعَيشُ
وحيثُ تَضيقُ الفتَياتُ بِـما قُدِّرَ. . .
في ٢٧ شارع موسى بنِ نُصَيرٍ
صارتْ لي الغُرفةُ ١٥!
لا أدري كيفَ وصلتُ إلى هذي الغرفةِ
مَن أوصلَني؟
مَن قالَ: هي المأوى والجنّـةُ؟
مَنْ أغلَقَ بابَ الغرفةِ ثم مضى دونَ سلامٍ وكلامٍ؟
لكني أتذكَّرُ أمراً:
أتذكّرُ أنّ محمد شكري كان هنا. . .
في الغرفةِ!
غرفتُـهُ في طابقِها الأوّلِ
وأنا أيضاً. . .
أتكونُ الغرفةُ ١٥؟
الآنَ سأسألُ:
مَن يسكنُ في الغرفةِ ١٥؟

طنجة، ٢٦/٠٦/٢٠١١

مقـهى بورت Porte Café

شــيءٌ في هذا المقهى يجعلُـهُ مختلفـاً
مثلاً:
لن يدخلَ فيه مَـغاربـةُ الجـلاّبةِ
والباعةُ
والعمّالُ
ولن تدخلَه امرأةٌ في الخمســين!
هذا المقهى تدخله فتياتُ اللابتوب (الحاسوبِ الـمُحتَـضَـنِ)
الفِتيانُ، أحِـبّاءُ الفتَياتِ ذواتِ الحاسوبِ المحتضَنِ
الغرَباءُ بِـطنجـةَ، مثلي
والماضونَ إلى غيرِ مكــانٍ...
في المقهى صُحُفٌ لن يقرأَها أحدٌ
ونباتاتٌ لن يهتَمَّ بها أحدٌ
ومَـنـاظرُ من إسبانيا، وأغان.
.....
سوف أجيء إلى المقهى كلَّ صباحٍ
فلَـعَـلَّ العصفورةَ تأتي
وتحطُّ على طاولتي ذاتَ صـبــاح!

طنجة، ٢٨/٠٦/٢٠١١

حـانةُ البـريد Café de La Poste

تماماً
حين تكون الساعةُ في طنجةَ ١٢
أي في الظُّهرِ تماماً
أدخلُ في الحانةِ. . .
(كنتُ تعلّمتُ أكيداً من سركون بولص أنّ دخول الحانةِ قبل الساعةِ ١٢
خطِرٌ جداً. أي أنك سوف تكونُ الـمُـدْمِنَ!)
أثمّتَ ما يُغْريكَ هنا؟
أثمّتَ مَن يلقاكَ هنا؟
قِنّينةُ مِكناسَ الحمراءُ. . . أكيداً
وجهُكَ في المِـرآةِ،
وجوهُ نساءٍ كُنَّ هجرْنَكَ. . .
لا بأسَ!
العالَمُ يلتفُّ، وحيداً، بعباءتِهِ
والحانةُ تلتفُّ:
زبائنُها هُمْ هُمْ
والأطباقُ كما كانت منذُ سـنينَ

ومحمد شُكري لم يَعُدِ. . .

*

الحانةُ باقيةٌ

تُشْـرِعُ باباً ظلَّ يضيقُ مع الأيامِ

هـل الحانةُ باقيةٌ؟

طنجة، ٢٨/٠٦/٢٠١١

القصيدة العاشـرة

نحن في ليلِ طنجةَ
ندخلُ. . .
لكننا سوف نسألُ أنفُسَـنا: كيف نخرجُ؟
مثل الدروبِ التي لا تؤدِّي إلى البحرِ، طنجةُ في الليلِ. . .
ليست لديكَ خرائطُ كي تقرأَ الليلَ
أو أنّ ثَمَّ خرائطَ جاهزةً للضّياعِ:
أَقِمْ حيثما شِئتَ
قُلْ مثلَ ما شِئتَ
كُلْ مثلَ ما شئتَ
واشرَبْ كما شِئتَ. . .
لن ينفعَ الأمرُ:
سوفَ تظلُّ الـمُـضَـيَّـعَ؛
لن تهتدي بالسؤالِ عن البابِ
حتى ولو كانت البابُ أنتَ. . .
ومَنْ أنتَ؟
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

طنجةُ قادرةٌ أن تُـذِيقَكَ كأسَ النُّعاسِ الألـيــم!

طنجة، ٢٩/٠٦/٢٠١١

إلى دوسْتَينا لافَرْن
A Dostena Lavergn

إن مضينا عميقاً مع البحرِ
في الفجرِ . . .
ماذا سنخسرُ غيرَ الذي قد ينوءُ به البحرُ من هولِ أغلالِنا؟
فلْنكُنْ في شواطيء إيجةَ
ليلاً
نهاراً
لِنُغْرِقْ أصابعَنا في نبيذِ الأغارقةِ . . .
الليلُ حُرٌّ
نذوقُ انكساراتِهِ بالأصابعِ . . .
قلتُ : أُحِبُّكِ!
لم تضحكي
لم تقولي : أُحِبُّكَ . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
صدَّقْتُ أنّا مضَينا عميقاً!

لندن، ٢٠١١/٠٨/٠١

To Dostena Lavergn

If we went deep in the sea
At dawn
What we will loose but our heavy fetters?
Let us be along Aegean shores
Night
And day.
So to dip our fingers in the Greek wine
Night is free
We tasted it with our fingers.
I said: I love you!
You didn't laugh.
You didn't say: I love you.
*
Then, I believed that went so deep!

London, 01/08/2011

سَتراني في لندن

قالت لي دوستَينا (كنّا معتنقَينِ مع البحرِ الإغريقيّ):
سـآتي
حتماً. . .
ستراني لِصْقَكَ في لندنَ ذاتَ مساءٍ
(ألسْنا ملتصقَينِ الآنَ؟)
*
لكني أعرفُ أوربّـا
أعرفُ أن كلامَ البحرِ ستمحوه اليابسةُ. . .
طبعاً!
لكني سأصدِّقُ دوستَينا
ليس لأنّ البلغاريّةَ من ستراسبورغ هي الصادقةُ. . .
سأصدِّقُ دوستَينا
سأصَدِّقُها!
طبعاً!
والسببُ الأوّلُ والآخِرُ: أنّا كنّا معتنقَينِ مع البحرِ الإغريقيّ!
*
سأراها لِصْقي في لندنَ ذاتَ مساء!

لندن، ٢٠١١/٠٨/٠٨

ترتدي مَلْحَفاً

ستكون دوستَينا معي في ليل طنجةَ
سوف تحملُ ماءَ سِتراسبورغ في قنّينةٍ حتى المطارِ
وسوف تتركُه هناك
لأنها ستظلُّ تشربني
بفُندقِ رِتْز. . .
موسيقى الأزقّةِ في ليالي طنجةَ الدبِقاتِ تجعلُ ليلَنا فجراً مديداً
ليس من سببٍ لنكتمَ رغبةً في أن نقيمَ بطنجةَ البيتَ المؤجَّجَ بالرياحِ
وبالضجيجِ ونكهةِ الأسماكِ. . .
قالت وهي تدخلُ في ذراعي:
لا تَخَفْ!
إني التففتُ بِمَلْحَفِ الخفِراتِ من فتياتِ طنجةَ
فاغْتَنِمْني!

لندن، ٢٠١١/٠٨/٠٩

أغنيةُ البحار الثلاثة

في البحارِ الثلاثةِ أغمضْتُ عينَيَّ
تحتَ المياهِ التي تنضحُ الملحَ واليودَ والساحراتِ.
وفي أوّلِ الصيفِ هذا
كنتُ في المتوسِّطِ: في الـمَـضْـيَـقِ المغربيّ
كنتُ في الأطلسيّ: أصيلـةَ
في بحرِ إيجةَ: تِينوس...
لو قالَ لي أحدٌ إنني سوف أفعلُ هذا لَما كنتُ صدّقتُـهُ!
أنتَ أيضاً ترى عجَباً:
هل أُصَدِّقُ هذا الـمُـخبَّلَ؟
صدِّقْـهُ، أرجوكَ!

.....

.....

.....

هذي البحارُ الثلاثةُ
كانت سواقيَ صيفٍ ثلاثاً
ربّما أوصلتْـنـا إلى منبعٍ في القرارِ
يُهدهدُنا، أبدَ الآبدين...

لندن، ٢٠١١/٠٨/٠٧

تغييرُ عاداتٍ

ليس من حاجةٍ لزهورٍ على المائدةْ
ليس من حاجةٍ للشموعِ إذا ما دجا الليلُ. . .
لا حاجةٌ للحديثِ المنمّقِ
لا حاجةٌ للقميصِ الـمُـنَشّى
ولا حاجةٌ للفخارِ بِعَضِّ الأصابعِ:
مَن كسبَ الجولةَ اليومَ؟
مَن سوف يكسبُ في الغدِ. . .
لا حاجةٌ للطوارىءِ قبلَ السـفرْ
ليس من حاجةٍ للتلهِّي بمضغِ الحديثِ عن الجوِّ:
عن مطرٍ
أو رياحٍ شماليّةٍ. . .
ليس من حاجةٍ للفراشِ المـعطَّـرِ
لاحاجةٌ لأقولَ لها: تصبحينَ على الخيرِ
لا حاجةٌ للمجاملةِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

الشقّةُ اللندنيّةُ لم تَعُـد البيتَ
لم تَعُـد الجنّةَ. . .
الطيرُ طــار!

لندن، ٢٠١١/٠٦/٠٦

العـاليـة

باريسُ في أيلولَ:
ثَمّ سحائبٌ بِيضٌ، وأوراقٌ مبكَــرةٌ تَساقَطُ
لم تكنْ ذهّـباً
ولكنْ كان شــيءٌ مُتْرَفٌ فيها يقولُ بأنها ستكونُ يومـاً
رفّةً ذهباً. . .
وآهٍ للشــوارعِ!
كم مشَيتُ بها، وكم طوّفتُ
مضنىً
جائعاً. . .
لا بابَ يُفتَحُ لي، و لا محرابَ
كنتُ أسيرُ حتى الفجرِ أحياناً لأنّ مُضَيّـفي لم يحتملْني ليلةً ضيفاً!
وآهٍ للمطاعمِ!
كم مررتُ بها، خميصاً، شاحباً. . .
ماذا أقولُ الآنَ؟

*

لي في شارعِ الأزهارِ
حُبٌّ. . .
لي من الـمِـنَـنِ العراقيّاتِ عاليةٌ
ودُنْـيـا!

باريس، ١٠/٠٩/٢٠١١

مطرٌ خفيفٌ

مطرٌ باريسيٌ يَسّـاقَطُ أهونَ من ريشٍ
لا وقْعَ
ولا سـمْـعَ . . .
ولكنَ النبتةَ في الغرفةِ تهتزُّ قليلاً قربَ النافذةِ.
النبتةُ تعرفُ، مثلي، أن المطرَ الأوّلَ يأتي بملائكةٍ:
لا وقْعَ
ولا سـمْعَ
إذاً، فَـلأُرهِفْ أُذُنَـيَ
لعلِّي أحظى بالموسيقا السِّــرّيّـةِ
أحظى برفيفِ النُّــسْــغِ من النبتةِ عند النافذةِ. . .
الساعةُ تقتربُ الآنَ من الظُّـهْــرِ
وهذا المطرُ الباريسيّ يواصلُ رِحلتَهُ السرّيّــةَ
بين النبتةِ
والمرْءِ الجالسِ عند الشبّاك.

باريس، ٢٠١١/٠٩/١١

لي بيتٌ لطيفٌ

تكونينَ بيتي. . .
كلّما ضِقتُ بالسُّــرى
دخلتُ ســريعاً فيكِ.
بابُكِ ضيِّقٌ
صقيلٌ
ورطْبٌ. . .
غيرَ أني أريدُهُ على ضِيقِهِ.
تلك الرطوبةُ نعمةٌ من اللهِ.
إنْ جئتُ العشيّةَ لاهثاً
زلِقتُ بها. . .
ما ألطَفَ البيتَ، جُنّتــي!

لندن، ١٧/ ٠٩/ ٢٠١١

بُولِيرو تُغَنِّيها امرأةٌ
El bolero es mujer

أغاني البوليرو الكولومبيّةُ حين تُغَنِّيها المرأةُ
تُمسي غرفةَ نومٍ زرقاءَ.
وددتُ لو اتَّسَعَ العالَمُ
لي
ولكِ،
حتى ندخلَ تلكَ الغرفةَ. . .
رُبّتَما فكّرتِ طويلاً
رُبّتَما أنكرتِ عليَّ الدعوةَ
واستنكرتِ.
لكِ الحقُّ،
ولكنّ أغاني البوليرو الكولومبيةَ سوف تلاحقُني
ليلَ نهارَ
إلى أن أدخلَ تلك الغرفةَ
حتى لو كنتُ وحيداً. . .
. . . . . .
. . . . . .

. . . . . .

مَن يَدري . . .

قد تأتين!

لندن، ١٧/ ٠٩/ ٢٠١١

الخريف الإنجليزيّ

هل أقولُ: الخريفُ؟
أقولُ. . . ولكنّه: الإنجليزيُّ!
لا شجرٌ سوف تسقطُ منه الفراشاتُ صُفراً تموجُ مع الريحِ
لا ريحَ تَصْفِرُ في الليلِ. . .
والبيرةُ البلديّةُ لن تستحيلَ نبيذاً.
لقد عَرِيَتْ فتياتُ المدينةِ في الصيفِ
والآنَ يدخُلْنَ في الصوفِ.
أغنامُ وَيْلْز ستدخلُ في الصوفِ.
تلك الحديقةُ تَبْهَتُ خُضرةُ أعشابِها حيثُ تَسّاقَطُ الكستناءُ.
وفي البُعْدِ تبدو المَراكبُ بيضاءَ تحتَ مَداخنِها.
والطيورُ تهاجرُ.
والبردُ يلمُسُ أضلاعَنا بعظامٍ من المقبرةْ.
لن تكونَ الكنيسةُ مكتظّةً عندَ آحادِها. . .
والعجائزُ يمضينَ
واحدةً
إثْرَ أخرى
إلى المقبرةْ.

لندن، ٢١/٠٩/٢٠١١

بـعدَ قصفِ طرابلُس

السماءُ الرّصاصُ الخفيضةُ
تهبطُ أكثرَ
حتى تكاد الغصون التي نتأتْ تتقصّفُ.
قد همدَ الحقلُ
والساحةُ امتلأت بسَقـيطِ العناكبِ.
لا ضوءَ يومِضُ في البُـعْـدِ:
قد راحَ أهلُ الـمَـراكبِ...
هذي السماءُ الرّصاصُ الخفيضةُ
تهبِطُ أكثرَ
سورُ الحديقةِ يهبطُ أكثرَ
والعشبُ
والسّـروةُ...
الطائراتُ التي هبطتْ بعدَ قصفِ طرابُـلُسٍ
تستريحُ هنا...
.....
.....
.....
الآنَ يُطْـبِـقُ نِصـفي عَـلَـيّ!

لندن، ٢٥/٠٩/٢٠١١

صباحٌ باريسيٌّ خفيفٌ

غادرتُ باريسَ صُبحاً. . .
كان مُنعقَدٌ من السحابِ شفيفٌ.
كان في شفتي برْدٌ،
وبُقْـيا نبيذِ الليلِ
ألْـعَـقُـها
تيناً
قرنفلةً
ضوعاً من امرأةٍ تعبى من الليلِ
والـنُّعْمى،
وتحتَ قميصي النحلُ والعسَلُ.
أهو الخريفُ؟
الممرّاتُ اكتستْ ذهَباً يرِفُّ في الريحِ.
باريسُ التي شــرعَتْ تنأى
أُراقبُها من نافذاتِ قطارٍ:
قطرةُ الـمطرِ الأولى. . .
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

تَـغِـيـمُ باريسُ!

Eurostar Train, Paris - London

04/10/2011

في مُحْتَرَفِ نُعمان هادي بالضاحية الباريسية

سوف آتي إليكَ، نُعمانُ، مستنفِداً قطارَ الضواحي
ومحطّاتِهِ. . .
وقفَ الخطُّ عندكَ.
الآنَ، هذي محطّتُنا القصوى
ومِنْ بعدِها: أينَ؟
القطاراتُ تمضي بهم. . . تعودُ
ولكنّ قطاراتِنا توقّفَت:
الليلُ مُقيمٌ، وهائمٌ بالسـوادِ.
الليلُ أعمى
وأنتَ لم تجد اللونَ الذي ترتضيهِ أكثرَ:
أهوَ السوادُ؟
أهوَ البياضُ؟
أهو ما هيّأتْ كوابيسُنا، ضِغْثاً فضِغْثاً
أم الرحيلُ المِـدادُ؟
يا صديقي، أظلُّ أسألُ:
مَن يلقي بنا، دائماً، إلى آخرِ الخطِّ؟

إلى آخرِ القطاراتِ
حيث الظلامُ، حيثُ الضواحي. . .
لفَظَتْنا مدينةُ الأغنياءِ: الجرَبُ المحضُ نحنُ
نحنُ الخرابُ. . .
نحنُ مَنْ لم نُطِقْ ملاءَمةَ الأبيضِ بالأسوَدِ
نحنُ الشُّراةُ
نحنُ الجوابُ!

*

نهبِطُ الدّرْجاتِ القليلةَ:
كان الضوءُ يخبو
والبردُ يلسَعُ أطرافَنا. . .
تقولُ: زمانٌ مَرَّ مُذْ كنتُ ههنا. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الآنَ أذكرُ أيّاماً وعشرينَ عاماً مضتْ. . .
آنَ الشواءُ
الفتَياتُ المُغَنِّياتُ،
نبيذُ القُرى وغرغرةُ الفودكا
لقد كان في الأفْقِ المُلَبَّدِ، الجَهْمِ، نجمٌ.
هل هوى، من سمائكَ النجمُ، يا نُعمانُ؟

أمْ من سماواتِنا، كلِّـنـا؟
نحن سواءٌ.
لاتُغْلِقِ البابَ يا نُعمانُ
دعْ حُزمةً من الضوءِ تنْسَـلُّ ولو خِـلْـسـةً
ألستَ الـمُـغَـنِّـي؟

لندن، ١١/ ١٠/ ٢٠١١

كنتُ أتمشّى ظُهراً

أمسِ، قرّرتُ أن أتمشّى على طولِ تلك القناةِ العجيبةِ
تلك القناةِ التي شهدتْ بدءَ حُبَّيـنِ
ثمّ نهايةَ حُبَّينِ. . .
تلكَ القناةِ التي قسمتْنيَ نصفَينِ
تلك القناةِ التي أغرقتْني. . .
قلتُ: فَـلْـيَكُنِ!
اليومَ أمشي على ضفة مِثلَ حدِّ الصراطِ:
أحاولُ أن أتصالحَ
والماءَ
والعشبَ
والطيرَ. . .
كانت سماءُ الخريفِ، على غيرِ عادتها، شبهَ زرقاءَ
والماءُ أخضرَ
والطيرُ أخضرَ
والعشبُ عند الضفافِ الخفيضةِ أخضرَ. . .
مَن كانَ في الـبُـعْـدِ؟

مَن كان يوشكُ أن يعبرَ الجسرَ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

هل تلكُما. . . المرأتان؟

لندن، ١١/ ١٠/ ٢٠١١

دُعـابـةٌ

في «شارع الأزهار»
في باريس،
فجراً أستفيقُ على روائحَ:
شَعرِ مَن أحببتُ
خُبْزِ أهِلّــةٍ من مخبزِ الحيّ الـمجاوِرِ لي
ويُدْعى في لسانِ الغالِ
Croissant
وطاسةِ قهوةٍ مُزِجَتْ حليباً.
سأُقَبِّلُ البنتَ التي أحببْتُ
سوف نكونُ كالعشّاقِ معتنقَينِ.
سوف تقول لي حتماً: صباح الخير!
سوف أرُدُّ مبتسماً: صباح الخير، ياحُبِّــي!
وأضحكُ...
هل نُمَـثِّـلُ؟
لا!
ولكنّ الصباحَ بِـ «شارع الأزهارِ» يبدأُ هكذا...
.....

. . . . . .

. . . . . .

هل أعجبتْكَ الحالُ؟

لم تُعجِبْكَ؟

لا تحزَنْ. . .

فَثَـمَّ شوارعٌ أخرى بآخِرِ بلدةٍ غادرتَها. . .

غادِرْ إليها الآنَ

واترُكْ «شارعَ الأزهارِ» يرفلُ في مُلاءتِهِ الحريـر!

لندن، ١٢/ ١٠/ ٢٠١١

يا نبعةَ الرّيحان

يا نبعةَ الريحانِ. . .
حِنِّــي!
إنني أمسَيتُ في الوادِ المقدَّسِ، في طُوىً
لكنني أرنو إلى غيرِ المقدّسِ
إنني أرنو إلى مَن جاورَتْني في دمي
أرنو إليكِ.
إليكِ وحدكِ: لا شــريكَ و لا شــريكةَ
إنني أرنو إليكِ
بكل ذُلّي
كلِّ حُبّي
كلِّ ما يسَعُ الأذى
يا نبعةَ الريحان. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
يا نبعةَ الريحانِ:
حِنِّــي. . .

إنني الولهانُ
حِنِّي!
الليلُ أقسى، والحياةُ أشَـقُّ إنْ لم تصطفيني
أو تَحِـنّي!
يا نبعةَ الريحان!

لندن، ١٤/ ١٠/ ٢٠١١

هل نتعلّـمُ؟

ماذا ترى من كوّةٍ في جسمِ طائرةٍ تحَــلِّقُ عالياً، أعلى من النجمِ؟

الغيومُ تكادُ تعرفُها لأنك ساكنٌ فيها
وما يبدو من البحرِ انعكاساً، أنتَ تفهمُهُ من الفيزياءِ
أمّا لُعبةُ الأشجارِ فهي من الأعالي غيرُ واضحةٍ. . .
لقد فعَلَ الـعُـلُــوُّ الفِعلةَ الشنعاءَ
ليتكَ لم تُحَـلِّقْ
لم تَطِرْ
لم تمتلكْ يوماً جناحَينِ. . .

الغيومُ جميلةٌ
والبحرُ
والأشجارُ.
فافهَمْ يا بُنَيّ. . .
افهَمْ
ولا تذهبْ بعيداً في العمــاء!

طنجة، ١٩/ ١٠/ ٢٠١١

لستُ أدري ما سأقول...

أوَ ليسَ خيراً أن يقولَ المرءُ:
إني لستُ أدري ما أقولُ؟
وكأنّ ما قد قيلَ إنْ صدقاً وإنْ كذِباً. . .
سبيلٌ آنَ يلتاثُ السبيلُ.
فلْـتفتحِ العينينِ واسعتَينِ
ولْتُرهِف مسامعكَ الرخيّةَ
ولْـتُجَرِّبْ، مرّةً، لغةَ الأصابعِ. . .
ثمّ حاوِلْ
مرّةً أخرى
وحاوِلْ
سوفَ يتّضحُ السبيلُ!

طنجة، ٢٠/ ١٠/ ٢٠١١

غيرَ بعيدٍ عن البحر

طيورُ السنونو تَـخاطَفُ فوقَ سطوحِ البناياتِ
في الفجرِ.
أفتحُ نافذتي:
صرَخاتُ النوارسِ تأتي مُـكَـتّـمةً.
أوّلُ العابرين إلى السوقِ
أولى البنات اللواتي يُبَكِّـرْنَ نحو المواعيدِ
أوّلُ صيحةِ ديكٍ...
كأنّ الصباحَ بطنجةَ يرسُمُ صورتَه، قطعةً قطعةً.
ولْـيَـكُنْ!
إنّ كلَّ المرافيءِ تَنْـشـدُ أن تَطمَـئِـنّ...

طنجة، ٢١/ ١٠/ ٢٠١١

الأزِقّـــــةُ

أُحِبُّ أن أَطَّـوَّفَ النهارَ والليلَ بما تَكْـنِزُهُ طنجةُ من أزقّـــــــةٍ
أزِقّةٍ منحدِراتٍ
تحملُ سَيلاً دافقاً من بشرٍ نحوَ تخومِ البحرِ
نحوَ الضفةِ الدنيا من الأندلسِ. . .
الـمُـــــوَشَّـحُ النائمُ يستيقظُ
والزيتونُ
والبابُ التي تنتظرُ المفتاحَ، سِـرِّيّـــاً، حديداً، فضّةً
مَن أنطَقَ الخطّافَ؟
مَن أطلقَهُ؟
الأزقّةُ المنحدِراتُ ازدَدْنَ في الفجرِ انحداراً.
سوف يأتي السيل!

طنجة، ٢١/ ١٠/ ٢٠١١

نومُ الهناءةِ

لو كنتُ مشتاقاً إلى بلدٍ لَطِـــرْتُ إليهِ
أو حاولتُ أن أمضي إليه سِـــباحةً. . .
لكنني، وأقولُها صِدْقاً، سئمْتُ الشوقَ
والذكرى
ولم يَعُد الحنينُ لديّ أغنيةً.
تشابهَت البلادُ
وصرتُ أعرفُ ما سألقى ههنا أو ههنا
حتى كأني راحلٌ في راحَتَـيّ. . .
كأنني في الهضْبةِ الصلعاءِ إيّاها.
وعاماً بعدَ آخرَ، صرتُ أمشي في شوارعَ قد مشَيتُ بها
وإنْ أدركتُ أني لم أكُنْ فيها ولو يوماً. . .
أُطِلُّ الآنَ:
هذا شارعٌ يمضي إلى بحرٍ
وهذا شارعٌ يُفضي إلى نهرٍ. . .
وهذا شارعٌ قد كان طوَّحَ بي إلى قفْرٍ
وماذا؟

سوف، أسحبُ، هانئاً، طرَفَ الـمُـلاءةِ
أُغمِضُ العينينِ
ثمّ أهيمُ، وحدي، كي أنامْ. . .

طنجة، ٢١/ ١٠/ ٢٠١١

حــانة أزْمِرالْــدا

في شارع موسى بنِ نُصَير
حيثُ الأشباحُ تسيرُ مع الأحيــاء
وحيثُ نساءٌ يستعرِضْنَ صباحاً ما لايُستعرَضُ
والعمّالُ بلا عملٍ. . .
في زاويةٍ من هذا الشارعِ تَكْمُنُ حانةُ أزمِرالدا.
كيف دخلتُ؟
أيُّ رياحٍ دائخةٍ دفعَتْني عبرَ البابِ الضيّقِ؟
في حانةِ إزمِرالدا
أغانٍ من مصرَ، أغاني أشباحٍ قرونٍ سلَفَتْ
في حانة إزمرالدا
صحنٌ من سمكٍ خيطيٍّ، وبقايا رُزٍّ
حبّاتٌ من زيتونٍ يقطُرُ ملحاً
وحديثٌ يخفُتُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
حانةُ إزمِرالدا
يملكُها منذُ ابتدأَ الخَلْقُ يهودٌ أندلسيّون.

طنجة، ٢٢/ ١٠/ ٢٠١١

بعدَ أن انتصفَ الليلُ

لك، أن تهدأَ الآنَ. . .
لا تَقُل: الليلُ في طنجةَ اليومَ، كالليلِ في لندنَ.
الناسُ في المرفأِ المغربيّ يحبّونَ
والناسُ في منتهى لندنٍ يكرهونَ. . .
لو أقمتَ بلندنَ قَرناً فلن تنظرَ امرأةٌ ملءَ عينيكَ
لن يسألُ الجارُ مَن أنت؟
ما اسمُكَ؟
من أيّ أرضٍ. . .
ورُبّتَما فكّرتْ مَن حسِبْتَ الحبيبةَ أن تقتلَكْ!
إذاً،
لك أن تهدأَ الآنَ. . .
قُلْ: إن طنجةَ، والمُلْكَ، لكْ!

طنجة، ٢٣/ ١٠/ ٢٠١١

الأنــيــنُ

من الغرفة التي تجاورك
سمعتَ الأنينَ العالي لامرأةٍ تضاجَعُ . . .
ربّما استمرَّ الأنينُ المتلذِّذُ نصفَ دقيقةٍ
نصفَ دقيقةٍ، حَسْبُ
لكنّ ليلَ الفندق
لم يَعُدْ كما كان.
هاأنتذا تعود إلى سنةٍ مضتْ
سنةٍ في فندقٍ كهذا الفندق
في ليلةٍ ليستْ كهذه الليلةِ الموحشــةِ
وهاأنتذا تتذكّرُ
كيفَ حاولتَ أن تكتمَ براحةِ يدِكَ
أنينَ ضجيعتِكَ الذي اصّاعَدَ صُراخاً!

طنجة، ٢٣/ ١٠/ ٢٠١١

لَـيـلِـيّـةٌ

في السبتِ مساءً
توقِدُ طنجةُ مصباحاً أحمرَ،
مصباحاً يصبغُ أغوارَ البلدةِ والحاناتِ بلونٍ أحمرَ
ليس مهمّاً أن تدخلَ في هذا البارِ
أو الدربِ. . .
اللونُ الأحمرُ سوف يظلُّ اللونَ الأحمرَ
يطفحُ في الكأسِ
ويطفحُ في خدِّ البنتِ
ويطفحُ حتى في أشجارِ الشارعِ. . .
لكنك لن تمضي أبعدَ في اللونِ الأحمرِ
اللونُ سيمضي بكَ
نحوَ نهايتِكَ:
النومِ، عميقاً، في الشارعِ
تحتَ المصباحِ الأحمر!

طنجة، ٢٣/ ١٠/ ٢٠١١

مقهى الحافة
(تأسّسَ سنة ١٩٢١)

مثلَ مصاطبَ في تلٍّ
ينحدرُ المقهى نحو البحرِ . . .
ويوشكُ أن يسقطَ في البحرِ
ليأخذَ فتيانَ المقهى والفتَياتِ إلى الضفةِ الأخرى.
إسبانيا تتبدّى في الأفقِ المتلبِّدِ
لكنّ المقهى
سيظلُّ يخَدِّرُ مَـن يدخلُـهُ بروائحَ من جنّتِهِ:
نعناعٍ
وحشيشٍ ريفيٍّ
ودخانٍ بلَديٍّ . . .
وعطورٍ داكنةٍ من آباطِ الفتَياتِ.

طنجة، ٢٣/ ١٠/ ٢٠١١

مشــروعٌ

مَنّيتَ نفسَكَ أن تكونَ مع الجميعِ
وإنْ أردتَ ظللتَ وحدَكْ.
لكنّ ما لاقيتَ في الغُرَفِ الغريبةِ، عبرَ هذا العالَمِ الهمجيّ:
لستَ مع الجميعِ
ولستَ وحدَكْ!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أبْـشِـــــــــرْ!
فقد جاءتْكَ رحمتُـــــهُ. . .
وقد ارتدَتْ، هفهافَ قُطْنٍ، صورةَ امرأةٍ.
أتعرِفُ؟
سوف تلتَمُّ الخيوطُ.
ولن يكونَ عليكَ إلاّ أن تُمَـيِّـزَ بينها:
أن تهتدي باللونِ والرؤيا
ليتّضِحَ السبيل!

طنجة، ٢٣/ ١٠/ ٢٠١١

منخفَضٌ جوّيٌّ

منذ الفجرِ ابتدأَ المنخفَضُ الجوّيُّ
وفي الغرفةِ أحسستُ بأنّ هواءً مختلفاً يدخلُ في رئتَيَّ . . .
لم أتحرّكْ
لازمتُ فراشي . . .
لكني أحسستُ بأنّ رياحاً شرعتْ تدفعُني نحو النافذةِ
الصبحُ يُلَوِّحُ
سرتُ إلى النافذةِ .
الشارعُ يغتسلُ
وسماءٌ بيضاءُ، ومثقَلةٌ، تهبِطُ .
كنتُ وحيداً .

طنجة، ٢٤/ ١٠/ ٢٠١١

طريقٌ مسـدودٌ؟

تقول لي: لم أعُـدْ أُسْمى. . .
كأنكَ صرتَ اسمي وجسمي!
كأنّ اللهَ صوَّرَنا في لحظةِ الحُبِّ ملتفَّينِ. . .
أنت ترى!
ماذا سأفعلُ في باريسَ؟
لستَ بها!
إذاً سأرحلُ عنها. . .؟
اينَ؟
أنتَ ترى؟

طنجة، ٢٤/ ١٠/ ٢٠١١

خبزي خبزُ الفقيرِ

أحبُّ موائدَ الفقراءِ
أمشي إلى أحيائهم، وأكونُ حُرّاً
ومنتشياً مع الفقراءِ. . .
طنجةُ هُمْ
وليس السَراةُ الآخـرون سوى هشيمٍ ستذروه الرياحُ. . .
أليسَ خبزُ الفقيرِ ألذَّ؟
كم أشقى إذا لم أجدْ خبزي مع الفقراءِ!
طنجةُ للفقيرِ!

طنجة، ٢٤/ ١٠/ ٢٠١١

الفلاسـفة

في استعلامات الفندق (حيث أقيمُ) فلاسفةٌ
أحياناً يصْغون إليّ
لكني أُصغي، دوماً، لهمُ:
الأخبارُ. كلام السوقِ. فساد الساسةِ في زمنٍ ما
(وإلخ. . .)
لكنّ فلاسفةَ استعلامات الفندقِ
جاؤوني أمسِ بما أرعبَني.
قالوا: إن البحر سيُغرِقُ طنجةَ بدءاً من مَسْمكةِ المرفأ
(في اليوم الأوّلِ)
حتى ما يدْعوه القومُ مُصَـلّى
(في اليوم السابعِ)
قلتُ لهم: طنجةُ عاليةٌ
لن يُغرقَها البحرُ. . .
سألوني: هل طنجةُ عاليةٌ حقّـاً؟

طنجة، ٢٥/ ١٠/ ٢٠١١

الحديقة العامّة

في الحديقة العامّة، غير بعيدٍ عن البحر
يجلس العاطلون عن العمل
ويجلس معَوَّقٌ واحدٌ.
لا عصافير
الشجرُ عميق الخضرة
والشمسُ تنفجرُ بين الغصون الكثيفة.
في الحديقة العامة لا تجلس النساءُ
ألأنّ الوقت ما زال ضحىً؟
أنا أيضاً أجلسُ.
انا عاطلٌ عن العمل
مُعَوَّقٌ.
وفقيرٌ.

طنجة، ٢٥/ ١٠/ ٢٠١١

للعقيدِ مَن يُكاتبُهُ

«القصيدةُ مهداةٌ إلى العقيد المتقاعد الهاشميّ الطَود ساكنِ أصيلةَ»

كان العقيدُ الهاشميُّ يقيْمُ في «وادي المخازنِ» خيمةً لقيادةٍ. . .
كانت هناك مدافعٌ أولى
غنائمُ من مناوَشةٍ جرتْ من قبلِ أسبوعَينِ.
أمّا البرتغاليّون فانتظَروا. . .
أرادوا أن ينالوا النصرَ، سهلاً، بالمدافعِ
(آلةِ الحربِ الجديدةِ)
والعقيدُ الهاشميُّ أقامَ خيمتَهُ
وقالَ: سِباستِيانُ البرتغاليّ الغنيمةُ
سوفَ يُقتَلُ
سوفَ أقتلُهُ هنا. سيموتُ في «وادي المخازنِ»
نحن مِلْحُ الأرضِ
أحرارٌ مغاربةٌ
وسوف نظلُّ أحراراً مغاربةً.
ملوكُ البرتغالِ، سيعرفون الآنَ مَن نحنُ. . .

الحُسَيمةُ
والشواطىء في أصيلةَ
والمدافعُ
كلُّها . . .
وسِباستِيانُ البرتغاليُّ . . .

طنجة، ٢٦/ ١٠/ ٢٠١١

حـقيـقـةٌ

هل تظنُّ السماءَ، بطنجةَ، سوف تظلّ سماويّةً؟
ربّما. . .
وبما أن ريحَ الخريفِ تناوحت اليومَ
صرتَ تسألُ.
مَن قالَ إن الخريفَ المُـوَدِّعَ سوف يكونُ ربيعاً؟
أنت تعرفُ
كالناسِ
كيف الفصولُ تجيءُ مكبّلـةً بقوانينِها.
أنت تعرفُ. . .
والآنَ؟
كيفَ تظلُّ السماءُ سماويّةً؟
إن طنجةَ ليستْ سوى لحظةٍ للذهول!

طنجة، ٢٦/ ١٠/ ٢٠١١

السماءُ والطّارق بنُ زياد

أيكونُ أبحرَ طارقٌ من طنجةَ؟
المطرُ الخفيفُ توقَّفَ
البحرُ استَتَبَّ كأنه نَـمِـرٌ ينامُ
وأنّ كفَّ اللهِ قد شـرعتْ تـُمَـسـدُهُ. . .
النوارسُ أقبلَتْ:
قططاً مجنّحةً وجائعةً تولوِلُ في سماءِ الفجرِ.
تبدو في البعيدِ «طريفُ» أقربَ
ربّما مرمىً لسهم. . .
ربّما حَجَرٌ سيبلغُها!
إذاً:
أيكونُ أبحرَ طارقٌ من طنجةَ العليا؟
أتكون خطبتُهُ هراءً؟
ما كان كذّاباً. . .
فأيُّ سفائنٍ قد أُحرِقَتْ إنْ كان يقدِرُ أن يعودَ سباحةً؟
أيُّ الرجالِ سيصنعُ التاريخَ؟
أيُّ القول؟

طنجة، ٢٧/ ١٠/ ٢٠١١

صباحٌ أليفٌ

بعدَ كلِّ الجحيمِ السديميّ في غيمِ لندنَ
تبدو السماءُ الـمُـعَـرّاةُ، في طنجةَ، المستحيلَ!
أُطِلُّ من الغرفةِ:
الشارعُ الآنَ يَلْـصِفُ بالنورِ
والناسِ
والباعةِ الجائلينَ
ويلْصِفُ بالفتياتِ اللواتي غذذْنَ الخُطى
نحو مدرسةٍ. . .
قلتُ: ظلّتْ غيومٌ من الأطلسيّ تَنَزَّلُ في الليلِ
كي تصنعَ الصبحَ أبهى.
سوف أحملُ نفسي إلى البحرِ
احملُ عبئي إلى البحرِ. . .
ثم ألوذُ بما يتراءى من البُعْدِ في الضفةِ النائيةْ!

طنجة، ٢٧/ ١٠/ ٢٠١١

المغربيّ يقول...

خالد، القادمُ من «الناضور» إلى طنجة
والذي يسكن في أوتيل ريتز العتيد، حيث أسكن
خالد، قال لي وهو يُعَرِّفُ نفسَه: أنا من الريف المخيف!
لم أسأله لماذا رأى الريفَ (ريفَه) مخيفاً.
أنا عرفتُ ريفَ خالد:
وجدة
بَرْكان
الناضور
مليلية طبعاً...
ريفُ خالد كان ريفي أنا، أعواماً وأعواماً...
ريف خالد هو ريف عبد الكريم.
الإسبان استعملوا الغازَ السامَّ الألمانيّ ليقتلوا أهلَ خالد
ليقتلوا حُلمَ عبد الكريم.
لكن «خالد» هنا
خالد معي
في أوتيل ريتز.

الريفُ معي، في أوتيل ريتز.

الريف...

الريف...

الريف المخيف!

طنجة، ٢٧/ ١٠/ ٢٠١١

القـطـط

أهلُ طنجةَ، من شأنهم، أنهم يعبدون القططْ
يفرشون لها في الشوارعِ
يُسْـــمونَها خيرَ أسمائِهم
وينامون بين القططْ.

والشوارعُ مكتظّةٌ بالقططْ
وهي تلبسُ أبهى ســراويـلِـها
وتُبادِلُكَ النظَراتِ الغلَطْ

أهلُ طنجةَ يصطحبونَ القططْ
في الـمَشاربِ
أو في المقاهي
وفي عُلَبِ الليلِ، حيثُ تموءُ القططْ.

فإذا أقبلَ الصيفُ
كانوا معاً في الشواطىءِ، حيثُ القططْ

تركبُ البحرَ
أو تتكلّمُ بالعربيةِ
أو تتثنّى، مُـنَـعَّـمةً، كالقططْ!

هل تكون معي
في فراشي بلندنَ. . .
إحدى القططْ؟

طنجة، ٢٨/ ١٠/ ٢٠١١

قصائد الخطوة السابعة

الاختنــاق

ربما في صباحٍ سيأتي قريباً (لِـنَـقُـلْ بعد خمسين عاماً وأكثرَ)
أمضي (كما يرجعُ الجدولُ الجبليُّ إلى نبعِهِ)
نحوَ بيتي.
ليس لي (في الحقيقةِ إنْ شِئتَ) بيتٌ
ولا بَعضُ بيتٍ
(أُحِسُّ هنا بالسعادةِ).
لكنني أتوَهَّمُ أنّ هناك، بأقصى الأقاصي، بلاداً تُسَـمّـى العراقَ
وأنّ بها بشـراً يسكنونَ الشـواطيءَ والقَـفْـرَ
أنّ الهواءَ بها ليس يقتلُ مَن يتنفّسـهُ...
أتوهَّـمُ هذا
وأسكنُ في حافةِ الوهمِ...
حتى إذا حانَ حيني اسـترحْتُ؛
فلا جدولٌ جبليٌّ يُراجِعُ منبعَهُ
لا بلادٌ تسَـمّى العراقَ،
ولا ملعبٌ للثعالبِ والأيَلِ المتواثبِ
لا نسـمةٌ في الهواء...

لندن، ٢١/١٢/٢٠٠٩

أغنيـةُ الـغَـنِيِّ بِما اقتَنى

اليومَ يومُ النبيذِ
ابتعتُ خابيةً:
عشراً
فعشــرينَ. . .
حتى لم يَعُدْ، شططاً، فِلْسٌ لديَّ
كأني الواحدُ الأحَدُ!
أقولُ: إنّ الذي يُرْجَى، وليسَ يُرى
مُخَبّأٌ.
إنَّ عُـمْـقَ الطائفِ الأبَـدُ. . .
ما أهونَ العيشَ!
لكني أُداوِرُهُ،
وأدَّرِيهِ
وأدري بالذي أرِدُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
اليومَ يومُ النبيذِ!

لندن، ٠٨/٠٣/٢٠١٠

إضرابُ بَحّـارةٍ

ربما كان أوّلَ إضرابِ بَحّارةٍ في المياهِ التي تتسوّرُ أرضَ العربْ
كان إضرابَ بَحّارةٍ في مياهٍ عراقيةٍ
كان إضرابَ بحّارةٍ بين مِلْحِ الخليجِ وسَلْسـالِ شطِّ العربْ. . .
أتذكّرُ عَمِّي: حميدَ الشهابِ،
حميدَ الذي لم أزلْ أتمَـثَّـلُـهُ كالفتى. . .
قالَ:
كنّا وحيدينَ بين الرصاصـةِ والبحرِ.
لا أتذكّرُ ما قالَ عن سـجنِـهِ. . .
كان أصغرَ أعماميَ.
الآنَ أسألُ: مَن يتذكّرُ إضرابَ بَحّارةٍ غير عمّي حميـد الشهاب،
غيرَ عمّي حميد. . .

لندن، ٢٦/ ١٢/ ٢٠٠٩

أجراسُ الـميلاد

لم أسمع الأجراسَ. . .
قد أرهفْتُ سـمعي طولَ ليلٍ لا يكادُ يزولُ
لكنْ، ولأَقُلْ ما قُـلْـتُـهُ، لم أسمع الأجراسَ. . .
كان الليلُ يثوي هـامداً
لا ريحَ في الدَّغْلِ القريبِ
ولا نُباحَ
ولم تُرَدَّدْ صيحةٌ من أيّ طيرٍ؛
والبحيرةُ أعتمَتْ.
لم أسمع الأجراسَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في الفجرِ كان ندىً على عشبِ الحديقةِ
ثعلبُ الدغْلِ القريبِ أتى،
وسنجابٌ
ونورسَتانِ جائعتانِ،
ثمّتَ عقْعَقٌ يدنو. . .

وطائرُ تَدْرُجٍ،
والشمسُ تومِيءُ. هل أراها؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أسمعُ الأجراس. . .

لندن، ٢٥/ ١٢/ ٢٠٠٩

أتـمَشّـى بمحاذاةِ القناة

أتمشّى، وأُمسِكُ في كلِ كفٍّ عصـا!
عصَوانِ تقودانِـني...
البَطُّ والـوَزُّ يمرحُ
والسمَكُ الـحُـلْـمُ في القاعِ.
أمشي بلا هدفٍ
قد، وقَد، أبلغُ الجسـرَ
أو ساحةَ القريةِ...
الشمسُ لم تَـبْـدُ حتى ولو لحظةً
والغيومُ التي تَـتَـهَـدَّدُنا بالسيولِ استكانتْ إلى هدأةِ العَصرِ،
أمشي
ولكنّ كعبَ حذائي رصاصٌ.
وأمشي
ولكنّني لستُ أخطو...
.....
.....
.....
سأمضي، إذاً، حافياً!

لندن، ٢٠٠٩/٠٩/٠٧

أبسطُ من ســؤالٍ

لن يكون المساءُ جميلاً
ولا طيرُهُ. . .
أنا أعرفُ هذا
ويعرفُ ما أعرفُ الطيرُ.
حتى النوارسُ غامتْ مجسّاتُها فتوهّمتِ النهرَ بحراً
بل هي، الآنَ، تنقرُ عشبَ الحديقةِ!
ما ذا سأفعلُ؟
إن أخطأَ الطيرُ كيفَ أكونُ الـمُـصِيبَ؟

لندن، ٢٣/ ١٢/ ٢٠٠٩

النَّـذيـرُ

تظلُّ تحفرُ في الساعاتِ، رُبّتَـما أصبْتَ في غفلةٍ منهنَّ واحدةً
أو اثنتَينِ، ومَن يدري. . . لعلّكَ في ما لا تريدُ ترى ما المعدِنُ
الذهبُ
أنت المُكَلَّفُ بالبلوى: ترى شَبَـهاً في ما يُرى ذهباً. أنتَ
الأمينُ على الوردِ، الأمينُ على ما يجعلُ الكونَ ورداً. حيثما اتّجهتْ
خُطاكَ صرتَ طريقاً. حِـرْفةٌ عجَبٌ. والآنَ في صُبحِكَ العـالي
ألستَ ترى أنّ الضحى آفلٌ كالليلِ؟ أنّ سياجاً في الحديقةِ لا يكفي
ليدفعَ عنكَ النَّسْرَ. أنتَ، وإنْ أقمتَ في الوهْدِ صارَ الوهدُ
رابيةً وقلعةً.
لا تَهِـنْ
واقْرَعْ مع الفجرِ صنجاً أنتَ تَذْخَرُهُ
كي توقظَ النُّسْغَ في ما ماؤهُ خشَبُ. . .

لندن، ٢٣/٠٦/٢٠٠٩

الطبيعةُ

«سيمفونيةٌ صيفيةٌ»

للهواء الرطوبةُ
تلك التي لمخاضاتِ شـرقيّ كَمْبودِيا.
والغيومُ معلَّقةٌ بالكلاليبِ
والعشبُ يبدو صبيغةَ عُشبٍ.
وما كان أمسِ غصوناً، بدا حَجَراً كالغصونِ.
الدقائقُ تضغطُ
حتى لَتشعر أن ضلوعَكَ قد تنثني.
القلبُ لا ينبضُ
الطيرُ غابَ...
السماءُ التي تَدَّني سوفَ تُطْبِقُ.
لا ترتجفْ!
أنتَ عَوَّدْتَ نفسَكَ أن تكتفي بالقليلِ القليلِ
وإنْ كان ذاكَ القليلُ هواءً...
تَلَبَّثْ!

.....

.....

.....

لَكأنّ كَفّاً ضخمةً في الشرقِ تدفعُ هامـِدَ الغيم.
الغيومُ تنوءُ، مثقلَةً، وتَرجِفُ: إنه الرعدُ الـمُباغِتُ.
فجأةً، وبلا كلامٍ أو سلامٍ، تهطِلُ القطَراتُ، دافئةً
كِباراً. تسمعُ النبتَ؟ انتبِهْ! للنبتِ أغنيةٌ. أتسمعُها؟
أتعرفُ أينَ صارَ الطيرُ؟ لم تَعُدِ الحديقةُ مثلَ ما كانتْ.
وبيتُكَ لم يَعُدْ بيتاً... لقد أمسى حريراً شاخصاً...
هل أنت تسكنُهُ، أَم البيتُ الذي قد صارَ يسكنُكَ؟
اطمَئِنَّ!

.....

.....

.....

مع البرقِ، من جهةِ الغربِ، جاءتْ بُحيرةُ سطحٍ
مُعَـلَّـقةً.
والبحيرةُ زرقاءُ. تطفو مع الغيمِ أبيضَ. برقٌ شفيفٌ
ونسمةُ صيفٍ. رأيتُ السنونوَ يخْطِفُ عَبْرَ البحيرةِ.
رَقَّ الـمطرْ.
صارَ ماساً على الورقِ المترنحِ والزهرِ.
غيمٌ خفيفٌ
نثارٌ لوردٍ خفيفٍ.
لك الآنَ أن تستكِنّ!

لندن، ٢٧/٠٦/٢٠٠٩

النحلُ يزورني

على قميصيَ حطّتْ نحلةٌ،
وأتتْ من بَعدُ أُخرى. . .
وكان الزهرُ مؤتلِقاً يُتَعتِعُ الزانَ والبستانَ.
كيف أتى النحلُ العجيبُ إليَّ؟
مائدتي محدودةٌ:
خبزةٌ
جُبْنٌ
وطافحةٌ بها نبيذٌ فرنسيٌّ. . .
أيقصدُها النحلُ؟
الغريبُ في الأمرِ أن النحلَ ملتصقٌ على قميصي. . .
ومِلْحاحٌ.
أيعرفُ أن الكونَ تحتَ القميصِ. . .
الشُّهْدَ
والمنتهى
تحت القميصِ،
وأن الطّلْعَ يضطربُ؟

لندن، ٢٠٠٩/٠٨/٠٨

الخريف العاشــر

منذُ عشــرٍ، هنا في مُقامي، أراقبُ هذا الـخـريفَ الـمُـبَكِّـرَ:
أرقَبُ أُولى فَراشاتِ أوراقِهِ، وهيَ تَـسّـاقَـطُ. الزّهرَ إذ يتـمـلـملُ مرتبِكاً
والـطـيـورَ الـتي لـم تَعُدْ تـتـصـادَحُ في الـفـجـرِ. لـونَ الـسـيـاجِ الـذي يـتـبــدّلُ. . .
قد صارَ لي، منذُ عشرٍ هنا، منزل ٌصارَ لي في ارتحالِ الســحائبِ بابٌ
ومفتاحُ بابٍ. وغرفةُ نومٍ تُطِلُّ على شجرٍ يتطاولُ عندَ البحيرةِ. قد يهـبطُ
الليلُ مثلَ الرصاصِ كما اعتادَ أن يهبِطَ الليلُ. لن يُمَسِّيكَ بالخيرِ حتى السكارى
ولن تَطْرقَ البابَ حتى التي كنتَ أحببتَها. أنتَ تغفو وتعرفُ أنك في برزخٍ
لستَ تغفو. أتعرفُ ما لونُ شَعرِكَ في الـحُلْـمِ؟ ما لونُ أسماكِ نَـهرِكَ في الـحُلمِ؟ ما لونُ ثوبِ الفتاةِ التي رضِيَتْ أن تُقَبِّـلَـها قبلَ ستينَ عاماً؟
لقد نزلَ الفأسُ في الرأسِ. . .

لستَ الوحيدَ الذي يتساءلُ. . .
لستَ الوحيدَ الذي لا يرى في الليالي الطويلاتِ. . .
لستَ الوحيد!

لندن، ٠٥/٠٩/٢٠٠٩

تشخيصٌ

باطنُ كفّي اليمنى، يحضِنُ ظاهرَ كفّي اليسرى
وأنا المتكمِّشُ بَرْداً أُسنِدُ رأسي، تعبانَ، إلى صدري. . .
ساقايَ تَخَشَّبَتا
والقَدَمانِ تَلَبَّثَتا
لا أملِكُ أن أُتْلِعَ عُنْقاً
أو أُومِي. . .
مَن أسألُ أن يُدرِكَني وأنا أوشِكُ أن أتَطَوَّحَ في البئرِ؟
الليلُ المُطْبِقُ يُحْكِمُ أنشوطتَهُ أكثرَ،
والأشجارُ السودُ (أرَدِّدُ حتى الأشجارُ السودُ) تغيبُ عن الصورةِ
والبحرُ المتموِّجُ في إحدى لوحاتِ الحائطِ يدخلُ في طَورِ
سُباتٍ. . .
لا صوتَ. . .
هنا.
لا صوتَ. . .
هل القبرُ هو الفردَوس؟

لندن، ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٩

تـدقيـقٌ

لوحُ زجاجٍ في نافذتي
في اللوحِ إطارٌ أبيضُ (يبدو لي أسودَ).
أجلسُ، متَّكئاً، وأراقبُ:
في اللوحِ غيومٌ ثابتةٌ
وأعالي شجرٍ تهتـزُّ.
خطوطُ الفضّةِ آتيةٌ مـمّـا ترسلهُ مدرسةُ الطيرانِ إلى الأعلى.
واللوحُ (كما في الدرسِ الأوّلِ)
كان ثلاثةَ أقسامٍ:
سقفُ الـمـبنى، حيثُ السجناءُ (وأعني نحنُ) هو الثلثُ الأوّلُ
أمّا الثلثانِ...
أحاولُ أن أدخلَ، ثانيةً، في ما كان
دخولي الأولَ
لحظتيَ الأولى...
الآن
أعالي الشجرِ اهْـتَمَدَتْ ساكنةً
وتحرَّكَ، في الأفقِ الملموسِ، الغيم...

لندن، ١٩/٠٦/٢٠٠٩

تحـيّـةُ الـعَـلَـمِ

في ساحةِ مدرسةِ المحموديّةِ
في الصبحِ
نحيّي العلَمَ الوطنيَّ (أعودُ إلى سبعينَ خلَتْ).
كنّا ننشِـدُ:
يا أوروبّا لا تُغالي
لا تقولي: الفتحُ طابْ
سوف تأتيكِ الليالي
نورُها لَمْعُ الحِراب . . .
يا أوروبّا!

*

الآنَ
وفي لندنَ (بعدَ الأعوامِ السبعينَ)
وبعدَ غرامِ الموسيقى وغرائمِها،
أعرفُ ما كنّا نُنشِدُ،
كنّا نُنشِـدُ
ريتشارد فاجْـنر

في مفتتَحِ الأسطوريّ سيجفرِيد. . .

*

يا أوروبّا!

لندن، ١٩/ ٠١/ ٢٠١٠

إيرلنديّةٌ في الشمالِ الأميركيّ

«إلى بِـنْـكِـي ووكَــر» Binky Walker

شَعرُها وَرْدُ إيرلَـنْــدةَ
الوجهُ يبزغُ من لُجّـةِ الوردِ.
هادئةٌ، هي، لا تتكلّمُ:
بِضعُ غماغمَ للريحِ،
لكنْ، عليّ، أنا، أن أفسِّرَ تمتمةً
أن أقولَ:
أحبُّكِ!
لكنها تتبسَّــمُ، صامتةً.
ثمَّ، بعد دقائقَ، تهمسُ للريحِ:
إنْ أنتَ جئتَ وحيداً، إلى «حانةِ الـمَـعْـبدِ»
المسْتَكِـنّــةِ في آخرِ الليلِ،
في آخرِ الكونِ...
سوف أُحِبُّكَ!

لندن، ٢٠٠٩/٠٩/٠٨

المقصود بـ «حانة الـمعبد» منطقة حانات تاريخية في العاصمة الإيرلندية دَبْلِـن Temple Bar

أوّل أيّار في موريس بلاسـه (برلين)
May Day in Morisplaz-Berlin

قالت لي جْوانُ:
الليلةَ نسـهرُ حتى منتصفِ الليلِ
فقد نلقى سـاحرةً في عَتْمةِ منعطَفٍ. . .
(لَـيلَـتُهُنَّ!)
وفي الصبحِ
الصبحِ العالي
سنسيرُ إلى ساحة موريسَ، لننضمَّ إلى العمّالِ
ونهتفَ تحت الراياتِ الحمراءِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كان الليلُ عجيباً في برلينَ الشرقيةِ
(لا أسهرُ في الغربيةِ)
كان الليلُ شـوارعَ من موسيقى الجازِ
وأنهاراً لقناني البيرةِ.
أغلقت الشرطةُ بضعةَ أحياءٍ.

(كان مئاتٌ من شرطةِ منْعِ الشغَبِ انتشــروا. . .)
قلتُ:
جْوانْ. . .
إنْ كان الليلُ عنيفاً هذا العنفَ، فكيف، إذاً، سيكونُ الصبحُ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الراياتُ الـحُمْـرُ، الراياتُ الخفّاقةُ، راياتُ الأيّامِ الذّهَبِ
التأسيسِ، وكارل ماركس، وإرنَسْتْ تَلْـمان، بْرَيْخْت،
الكابارَيت. الراياتُ المرفوعـةُ أعلى من أبراجِ الكاثدرائياتِ
وأعلى من تاريخِ التاريخِ. الراياتُ الدفّاقةُ في كلِ ذراعٍ شُهُباً.
تلك الراياتُ سنشهدُها، صبحاً في الساحـةِ، آنَ نُفِيــقُ!
*
كان الوقتُ ضحىً. بُرْجُ الساعةِ لم يشهدْ بَعدُ مواعيدَ العشّاقِ.
أَمْ أن الناسَ، جميعاً، في الساحةِ حيث مُظاهرةُ الأوّلِ من أيّارَ؟
وفي هذا العامِ التاسعِ بعدَ الألفَينِ، القلعةُ تهتزُّ. العمّالُ بلا عملٍ.
سيكونُ الناسُ جميعاً في الساحةِ!
أمواجُ بَيارقِنا
وهديرُ حناجرِنا
في الساحةِ. . .
*
سيّاراتُ الشّــرْطةِ، ساكنةٌ. لا صوتَ، ولا شــرْطةَ.

والساحةُ (أعني موريس بلاتسهْ) بَدَتْ فارغةً إلاّ من متسكِّعةٍ أفرادٍ. أحسستُ بأني في غيرِ مكاني. قلتُ: جْوان... أنحْنُ وصلْـنا؟

قالت: طبعاً!

*

عجباً!

حتى التركيُّ

الكرديُّ التركيُّ

استبدلَ بالبيرقِ، دكّانَ كَبابٍ!

لا مطرقةُ ستالينَ، ولا منجلُ ماو...

العمّالُ الألمانُ يعومون، سعيدينَ، بأنهارِ البيرةِ،

ثمّتَ شمسٌ ساخنةٌ

والفتياتُ تمدّدنَ على العشبِ.

لندن، ٢٩/ ٠٥/ ٢٠٠٩

مرحباً، منتظِر!

اليومَ سأشــربُ كأســي شاياً بالعسلِ. . .
اليومَ، أُحَيِّيكَ
وأشــربُ نَخْبَكَ. . .
كأسَكَ، شاياً بالعسَلِ!
منتظراً منكَ، مبادلَتي نَخْبي، يا منتظِـرُ!
اليومَ، هنا، وكما في كل الدنيا، أحَدٌ. . .
لكنْ، لا أحدَ، اليومَ، ســواكَ
لقد وحّدْتَ العَلَمَ الوطنيَّ
جلَوتَ له المعنى
وجعلتَ العلَمَ الوطنيَّ يحلِّقُ مقذوفاً
ليصيبَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
احذَرْ، يا منتظِرُ!
القتلُ (وأعني قَتْلَكَ) صعبٌ في السجنِ،
ولكنّكَ، يا منتظر الزيديّ، ستبقى هدفَ المحتلِّينَ الأوّلَ.

لن ينسَوا أنكَ وحّدتَ العَلَمَ الوطنيَّ،
جعلتَ العَلَمَ الوطني
يُحَلِّقُ مقذوفاً
ويُصيب. . .

لندن، ١٣/٠٩/٢٠٠٩

اليعسوبُ الذهبُ

غيرَ بعيدٍ عن مطعم أسماكِ «الشبّوطِ الياباني»
وعند سياج ممرٍّ نحو الغابةِ حيثُ ثلاثُ بُحيراتٍ ترتشفُ النورَ،
شفيفاً
في هذي الساعةِ من يومٍ خريفٍ. . .
كنتُ أحاولُ أن أتملّى غصناً مقطوعاً قذفتْهُ الريحُ إلى أعلى السورِ
وأن ألـمُسَ ما يهجسُهُ الغصنُ المقطوعُ عن الشجرةْ.
كانَ أصيلٌ رطْبٌ
و أرانبُ في الـمَـرْجِ
وبِضعةُ أطيارٍ سـودٍ. . .
وأنا، غُفْـلاً، أتَـملّـى هذا الغصنَ المقطوعَ.
أقولُ لنفسي: هل سيُـعِـيدُ الغصنُ الدّورةَ؟
أعني هل سيعودُ الغصنُ المقطوعُ إلى أشجارِ الغابةِ في يومٍ ما؟
هل سيعودُ الـنُّسْـغُ إلى اللوحِ اليابسِ؟
هل تَـخْـضَـرُّ الأوراقُ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

وفي مِثلِ الخطفةِ
في مثلِ اللهفةِ
في مثلِ غيابي. . . حَطَّ على إبهامي يعسوبٌ ذهَبٌ.
لم أعرفْ: هل أنظرُ أمْ أشـعرُ؟
واليعسوبُ. . .
أهذا اليعسوبُ الذهبُ، الشـيءُ أم الرؤيا؟

لكنّ اليعسوبَ، خفيفٌ، وشفيفٌ، وحقيقيٌّ أيضاً
ويحِطُّ على إبهامي!
إن جناحَيهِ يرِفّانِ، رقائقَ من ذهبٍ صاغتْـه ملائكةٌ. . .
ويرِفّانِ على إبهامي، فِعلاً!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هل يعرفُ هذا اليعسوبُ الذهبُ، القصةَ:
هل سأعودُ، كما سيعودُ الغصن المقطوعُ، إلى الشـجرةْ؟

لندن، ٢٣/٠٩/٢٠٠٩

حيـاةٌ عمليّةٌ

ذهبتْ في قطار الشمالِ إلى أهلِها، ليلةَ العيدِ. . .
قلتُ لها: لو تمَهّلتِ!
لو هِمْتِ، أكثرَ، في الوادِ. . .
لو نِمْتِ، أكثرَ. . .
لكنها حملتْ في الصباحِ الـمُـبَـكِّـرِ، ضحكتَها والحقيبةَ (كانتْ حقيبةَ خيطٍ)
وراحتْ مع الريحِ والثلجِ.
والآنَ
عند المحطةِ
لم أدْرِ كيفَ أُوَدِّعُها:
هل أُقَبِّـلُـها؟
هل أقولُ كلاماً كما اعتادَ أهلُ البلاد؟
وهل أحملُ الوِزْرَ؟
أعني: أأحملُ نحو القطارِ حقيبتَها الخيطَ؟
لم أدرِ.
أمّا هيَ. . .
(الأمرُ أيسـرُ ممّا ظننتُ.)

فقد خطفتْ، مثلَ ما يَخطِفُ البرقُ، تلكَ الحقيبةَ.

قالت: وداعاً

وغابتْ...

لندن، ٢٢/١٢/٢٠٠٩

حِـنّـاءُ الـفـاوِ

حنّاءُ نساءِ البصرةِ تأتي مع مِلْحِ البحرِ
وأسماكِ البحرِ
ورُوبيانِ البحرِ
من الفاوِ. . .
الأوراقُ الـخُضْـرُ، مخشخشةً تأتي، في أكياسٍ من خيشٍ.
ستكون الأوراقُ طحيناً أخضرَ مُـغْـبَـرّاً
ستكونُ عجيناً أخضرَ
أخضرَ، مُـحْـمَـرّاً بعد دقائقَ.
حنّاءُ الفاوِ
خِضابُ لِحىً وجدائلَ
راحاتُ عرائسَ
أخفافُ حُفاةٍ شـقّقَ أقدامَهمو السّـعيُ على طرُقاتِ اللهِ. . .
وحِـنّاءُ الفاوِ
كأسماكِ الفاوِ
ومِلْحِ البحرِ
وروبيانِ البحرِ

تَناءتْ، حتى غابتْ في ما كانَ يُسَـمَّـى الفاو. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

خالاتي المسكيناتُ سَـكَـنَّ الفاو.

لندن، ١٢/ ٠٢/ ٢٠١٠

حالةٌ يوميّــةٌ

ليس من عابرينَ هنا
ليس من زائرينَ
الطبيعةُ أغلقتِ الساحةَ الداخليّةَ حيثُ الخنازيرُ
حيثُ السناجبُ
والناسُ
والنورسُ المتوهِّمُ تلكَ البحيرةَ بحراً. . .
أقولُ:
ذراعي تُجاذِبُني. . . كيفَ لي أن أُقاوِمَ؟
رُبّتَــما أُسْلِمُ الرّسْغَ:
للغِلّ؟
للمِبْضَعِ الـمرتجى؟
للفتاةِ التي تركتْ قطعةً من ملابسها الداخليةِ تحتَ الفراشِ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في هذه اللحظةِ، الثلجُ يهبطُ أثقلَ
أثقلَ
أثقلْ.

لندن، ١١/ ٠١/ ٢٠١٠

جِـنازةٌ

ساحةُ الـحَـيّ كما هيَ:
فارغةٌ إلاّ مِنْ بضعِ سيّاراتٍ مبتلّةٍ من أمطارِ اليومَينِ السالفَينِ.
والسقوفُ البُنّيّـةُ عادةً تبدو رماديّةً أقربَ إلى السـواد.
السروةُ الفتيّةُ أسفلَ نافذتي لا تكاد تهتزّ مع أن ريحاً خفيفةً تتدحرجُ في الحديقةِ.
امرأةٌ تطوي مظلّـتَـها لتدخل من الباب الرئيس للمبنى
حيث يقيمُ المنتظرونَ الرحيلَ إلى الجنّة.
لا أدري إلى أين ذهبت الطيورُ...

.....

.....

.....

قبل دقائقَ فقط
كانت الساحةُ تكتظُّ بسيّاراتٍ سـودٍ
ومعاطفَ سـودٍ
وأكاليل زهورٍ...
والتابوتُ يكاد يختفي في سيارة المرسيدس الطويلة
تحت أكاليلَ، بعضُها اصطناعيٌّ.

لم أعُدْ أسألُ
كلُّهم راحلٌ إلى الجنةِ.
أمّا أنا، فـمُـوَكَّلٌ بهذا الفضــاء.

٣٠/ ١٢/ ٢٠٠٩

«**ملحوظةٌ**: علِمْتُ الآنَ من طفلةٍ مرِحةٍ ترتدي السوادَ، أن جارتي المباشرةَ، باتْ، هي التي ماتتْ»

ثلاثة ثعالبَ تلعبُ في ضوءِ القمرِ

في الساحةِ الخلفيّةِ الخضراءِ للمبنى
(وأعني الـمَـلـجأَ البلديَّ حيثُ أعيشُ)
كانت فضّـةٌ تَـنْـهَـلُّ من بَدْرٍ حقيقـيٍّ
(كما في الرسمِ أو في السينما)
حتى كأنَّ الليلَ قُطـبِـيُّ النهارِ
وأننا في سينما صيفيّـةٍ. . .
والعشبُ، حتى العشبُ، يلمعُ في بياضٍ أخضـرَ
الأشجارُ نائمةٌ على أغصانِها الـعُريانةِ،
الليلُ الذي أحْياهُ منتصِفٌ،
وأسـمعُ صيحةً مجهولةً من طائرٍ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في بغتةٍ
في لحظةٍ بيضاءَ
في نُعْـمَـى مبارَكةٍ
رأيتُ ثعالباً يلعَـبْـنَ تحت شُـجَـيـرةٍ تتوسَّطُ البستانَ

قد كنتُ اتَّـرَكْتُ لهنّ زاداً في المســاءِ.
طَـعِـمْــنَــهُ،
وتركْــنَ صحني فارغاً، متألِّــقــاً، في نورِ بستانيّ الســماويّ.
الثعالبُ كُنَّ يلعَـبْــنَ
السماءُ خفيضةٌ
والأرضُ بيضــاءُ...

لندن، ٣٠/ ٠١/ ٢٠١٠

تـهْلِـيْلـةٌ لِطائرِ الفجرِ

طائرَ الفجرِ، يا طائرَ الفجرِ، ما أجملَكْ!
نَخْـلُـنا، والمنازلُ، والوردُ . . . لَكْ
والسماواتُ لكْ.
طائرَ الفجرِ، يا طائرَ الفجرِ، ما أجملَكْ!

*

هَـلّـلَ النورُ
أَطْـلِقْ جناحَيكَ نحوَ الفَـلَـكْ.
أطْـلِق الصوتَ، شَـدْوَ الضـياءِ الذي قَبَّـلَكْ
طائرَ الفجرِ، يا طائرَ الفجرِ، ما أجمـلَـكْ!

*

لن ترى قفصاً بَـعْـدُ
لن يتمكّنَ منكَ الشَّـرَكْ.
سوفَ يَـقْـوى جناحاكَ، أمْضى من النَّسْـرِ أنَّـى سَـلَـكْ.
طائرَ الفجرِ، يا طائرَ الفجرِ، ما أنبلَكْ!

لندن، ٢٦/ ٠٢/ ٢٠١٠

تنويعٌ على طلال حيدر

«خَلِّيك مثل القصب
كلما عتق يحِنّ. . .»

لَـفُّـوا الكفافي. . . مَشَــوا
والبحرُ منهم صارْ
محمود درويش باقٍ
والـمدى والدار. . .

لَفّوا الكَفافي. . . مشَــوا
والبحر، والمرفأْ
إغْريقُ فُلْكٍ لنا
مَنْ قالَ: لن نغرقْ؟

لَفّوا الكفافي. . . مشَـوا
كانوا فدائيّينْ.
والصبحَ، إذْ أصبحوا
عادوا فدائيّين.

لفّوا الكفافي. . . مشَـوا
فلْـتَـبْـدأ الرِّحْـلةْ
لفّوا الكفافي. . . مشَــوا
هل تنتهي الرِّحْـلةْ؟

لندن، ١٤/ ٠٢/ ٢٠١٠

كلامٌ في أوّلِ الليلِ

سوف أبحث عنكَ:
السماءُ التي أطبقَتْ سوف تُطْبِقُ أكثرَ
لكنني سوف أبحثُ عنكَ. . .
تقولُ: الجبالُ رماديّةٌ.
ومتى لم تكُنْ هكذا؟
وتقولُ: المقاهي التي قد ألِفْنا زماناً، تُغَلِّقُ أبوابَها
واحداً بعدَ آخرَ. . .
حتى ملابسُنا قد تبدّلتِ:
السّترةُ انقلبَتْ
والقميصُ الذي كان أَبيضَ قد صارَ أسْـودَ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هل أنت تسمعُني؟
هل تَرَهَّفَ سـمعُكَ للنملِ قبل المطرْ؟
هل رأيتَ الجذورَ الخفيّةَ، تلك التي تمنح الشجرَ الـمـَيْتَ أوراقَ ميلادِهِ؟

هل رأيتَ، وقد جلجَلَ الرعدُ، بَرقاً؟
إذاً، سوف أبحثُ عنكَ
وألقَـــاكَ.
إن الحياةَ يحقُّ لها أن تُعاش.
ونحنُ، يحقُّ لنا، أن نعيش...

لندن، ١٤/١٢/٢٠٠٩

سـكونٌ صيفـيٌّ

الهواءُ تَدَلّــى
كأنّ به مائعاً من رصاصٍ
كأنّ الذي نتنفّسُــهُ لم يكنْ مثلَ هذا. . .
الغيومُ التي ثَـقُـلَتْ بالهواءِ تدلّتْ على شُرُفاتِ المنازلِ.
لم يَـمْـرُقِ الطيرُ
والشمسُ، بين الرصاصِ العميمِ، اضمَحَـلّتْ.
أرى النملَ
والنحلَ
بين اضطرابٍ ومَسعى. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
وفي بغتةٍ أتذكّــرُ، أني هنا، منذُ عَـشْــرٍ
وأني، هنا، ســأموتُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
تُباغِـتُـني قطَراتُ المطر!

لندن، ٢٠٠٩/٠٨/٠٥

سأكونُ صديقي

سأجلسُ على المصطبةِ الخشبِ. إلى يمين الباب. بابِ بيتي الذي هو ليس بيتي.
سأجلسُ. أحدِّقُ في العشب الذي لا يذوي. أحدِّقُ في الأغنيةِ التي تغيب. لم تكن السماءُ عاليةً هنا، أبداً. الطيورُ تَبْلغُها والطائراتُ وأدخنة المدافيء الغازية. أسمعُ؟ ربما مَسْرى الدمِ في ذراعي الشمالِ. لم يَعُد البريدُ يحدِّثُني. ماذا أنتظرُ هذا الصباح؟
السنجابُ الوحيدُ الذي يقتربُ مني اختفى اليومَ. وطائرا الزريابِ رحلا. لستُ أدري متى يعودانِ. سيكون المساءُ بارداً. أقولُ لكِ شيئاً: أنا منذُ اليومِ سأكونُ المُدَوِّنَ. الساعاتُ ليستْ فارغةً. ملايينُ النوابضِ والنبضاتِ تنتظرُ مني أن أكونَ وفِيّاً. إذاً، سأجلسُ على المصطبةِ الخشبِ.
سأظلُّ جالساً حتى تحت نثيرِ الثلجِ. لا أنتظرُ شمساً ولا مصافَحةً. سأكونُ صديقي...

لندن، ١٨/١٢/٢٠٠٩

زرادَشـت

سيوقِدُ أكرادُ «عَـقْـرةَ» نيرانَهم في رؤوسِ الجبالِ، كما كان يفعلُ دوماً زرادشــةُ
الكُتُبِ. النارُ في القممِ. النارُ في البيتِ، وابنُ الـمُـقَـفَّـعِ في البيتِ كانَ يُزَمْزِمُ.
أكرادُ «عَقْرةَ» كانوا زرادشــةً يرقصونَ، وقد أوقَدوا نارَهم في رؤوسِ الجبــالِ.
يقولونَ: دِينٌ أتى جَبَّ ما قبلَــهُ. ربّما...
غيرَ أني أُطالِعُ ناراً على جبَلٍ.
وأُتابعُ أَقدامَ مَن يرقصونَ.
الفساتينُ أَفْوافُ وَرْدٍ
وتلك السراويلُ خفّاقةٌ والغصون.

.....

.....

.....

في ربيعِ البراري زرادشــةٌ يرقصون.

لندن، ٢١/٠٣/٢٠١٠

روايةٌ روسيّةٌ

آنَ ما يتناوحُ هذا الهواء
آنَ ما يتناوحُ مرأى البحيرةِ في صمتِها
آنَ ما يَغْمُقُ الورقُ المتساقطُ في لونهِ
آنَ ما أشتهي أن أُقَبِّلَ ما تحتَ سروالِها
آنَ أقذفُ قنبلةً نحو مَن يتهدّدُ معنى العراق
آنَ أُصغي إلى الصمتِ في المطرِ الناعمِ. . .
آنَ أشعرُ، في البردِ، أني الحريقُ بأكواخنا
آنَ يأتي الزمرّدُ من آسيا
آنَ تأتينَ أنتِ، متوَّجةً في المحطةِ، زرقاءَ أو وردةً
آنَ أسألُ عن مبدأٍ
آنَ أن نتكوّرَ في فِعْلِنا الحُبَّ، مثلَ الفراشاتِ مأخوذةً
آنَ أرفضُ ما ليسَ أرفضُهُ
آنَ لا أعرفُ. . .
آنَ ألبسُ، ثانيةً، جزمةً للفدائيّ
(ليستْ مبالغةً. نحن كنا ببيروت في ١٩٨٢)
آنَ أسألُ عني
آنَ لا أسألُ.

آنَ أفرحُ لو كنتُ أعمى. . .
آنَ أنتظرُ الطلقةَ الذهبيّةَ
آنَ الشميمُ الذي جاءَ من نجدٍ النجدِ أستافُهُ
آنَ أُصغي إلى المنتهى.
سوف أكتبُ.

لندن، ٢٢/ ١١/ ٢٠٠٩

خِشْفٌ خلفَ السياجِ

تناوَحَتْ في المساءِ الريحُ.
كان على ماءِ البحيرةِ غيــمٌ
غير أنّ على الأفقِ البعيدِ بدتْ شمسٌ، مفاجِئةٌ
حمــراءُ...
لم أرَ شمساً في النهارِ!
هل الدنيا تَبدَّلتِ: الصباحُ أعمى
و جَفنُ الليلِ ينفتحُ؟
.....
.....
.....
ودِدْتُ لو كنتِ لِصْقي الآنَ...
قبلَ قليلٍ كان خِشْفٌ وراءَ السور
أرقَبُهُ
يقتاتُ ما رَقَّ من نبْتٍ.
وأرقَبُهُ
يُدْني الغصونَ
ويُرْخِيها، فَتَنْسَدِحُ...

لندن، ٢٧/٠٣/٢٠١٠

خـرْبَشـةٌ

ليس مهمّاً أن تعرفَ في أيّ مكانٍ أنتَ.
مهمٌّ أن تعرفَ مَن لا تعرفُ في أيّ مكانٍ. . .
مثلاً:
ماذا يأكلُ آخرُ سِـكِّـيرٍ في آخرِ حاناتِ بَلِغراد. . .
وماذا يفعلُ عصفورٌ إنْ هبطَ الثلجُ.
وماذا ستقولُ امرأةٌ لعشيقٍ لم تُعْجِـبْـهُ صلافتُها الأمازونيّةُ.
ماذا سيكونُ نعاسُ المحكومِ عليه بأن يُشنَقَ فجراً.
ماذا تأكلُ إنْ كنتَ نباتيّاً في أرض القرغيزِ.
ومَن تسألُ إنْ أخطأتَ سبيلَ العودةِ في نيويورك. . .
إلخ. . .
إلخ. . . .
إلخ. . .؟
لكنّك لا تؤمِنُ بالآخرةِ!
الآنَ، ستعرفُ في أيّ مكانٍ أنت. . .

لندن، ٠٣/ ٠١/ ٢٠١٠

ليسَ رِهـانـاً

سأكونُ صريحاً معكِ الليلةَ:
أنتِ تقولينَ «أحبُّكَ»...
(كنّا في بارِ «الأسدِ الأحمرِ» ذاتَ مساءٍ أتذكّرُهُ)،
لكنكِ حين تقولينَ: «أحبُّكَ»، أسمعُ: «لستُ أحبُّكَ»...
(كنّا في بارِ «الأسدِ الأحمرِ»).
أمّا في هذي الليلةِ، آنَ الثلجُ يهدِّدُنا بحصارٍ أبيضَ، أيّاماً
آنَ أراكِ مُنَعَّـمـةً بقميصِ حريرٍ صينيٍّ أسـودَ
فوقَ سـراويلِ حريرٍ صينيٍّ سُـودٍ،
آنَ تمهّلتِ طويلاً لتقولي: سوف أظلُّ هنا، في لندنَ، أسبوعاً معكَ...
في هذي الليلةِ
لن أتذكّرَ
لن أُجهِدَ أعصابي لأُفَسِّـرَ...
سأصدِّقُ ما تنطقه شفتاكِ، ونحن نرُدُّ عن الجسدَينِ الثلجَ المِدرارَ:
أحبُّكَ!
لستُ أُحِبُّكَ...

لندن، ٢٠١٠/٠١/٠٤

لن تأتي الريحُ الغربيّةُ

أضواءٌ متناثرةٌ
لِمَراكبَ ضيِّقةٍ، تبدو في البُعْدِ
وراءَ الأشجارِ العاريةِ.
الآنَ
وفي الماءِ المتجمِّدِ للقنَواتِ
سيُشْعِلُ جَوّابونَ مَواقِدَهم
ليكونَ بَخورُ الصّفصافِ هواءَ نهارٍ أبيضَ.
لكنْ، قد تأتي الريحُ الغربيّةُ بالغَيمِ المُثْقَلِ
والوَزِّ المِصريّ
وبالعينَينِ المغْمَضَتَينِ على صخرةِ بحْرٍ في عَدَنٍ،
قد تأتي الريحُ الغربيّةُ. . .
أمّا الآنَ
فليس لنا غيرُ الجُدرانِ الأربعةِ؛
اليومَ، الأحدُ
اليومَ، أظَلُّ بلا أحدٍ
أنقِرُ في الجُدران.

لندن، ١٤/٠٢/٢٠١٠

لا بأسَ عليكَ!

عشرةُ أعوامٍ مرَّتْ، لتراك، كما أنتَ، تحدِّقُ عبرَ النافذةِ الغربيــةِ،
لا بأسَ عليكَ. . .
النافذةُ الغربيةُ مِرآتُكَ
والـمَـرأى
الساحةُ والأشجارُ، وسقفُ الـمَبنى الـممتَدُّ كحوتٍ أســودَ تحتَ
سَماءِ رصاصٍ.
لا بأسَ عليكَ. . .
الأعوامُ العشــرةُ لم تكتمْ أنفاسَكَ
لم تنبِذْكَ وحيداً في ليلِ الـمطــرِ،
الأعوامُ العشــرةُ أعطَتْكَ الدُّرْبةَ:
أنْ تتحمّـلَ، مثلَ جوادٍ بَرِّيٍّ، كلَّ فصولِ الكونِ،
وأن تتنفّسَ كالأسماكِ
وأن تأكلَ قلبَكَ آنَ تجوعُ.
وأن تصْبِرَ إنْ هجرَتْكَ امرأةٌ
وانفَضَّ الســامرُ عنكَ.
و لا بأسَ عليكَ. . .
الأعوامُ العشــرةُ أعطَـتْـكَ النافذةَ الغربيّــةَ

فانظُرْ عبْـرَ النافذةِ الغربيةِ
وانظرْ عَبْرَ النافذةِ الغربيّـةِ
وانظُـرْ:
ربّـتَـما ستكونُ الـمُبْـصِـرَ في أحدِ الأيّـام.

لندن، ١٢/٠٢/٢٠١٠

قلانسُ ياسمين

في ليالي الشتاءِ الطويلاتِ
إذْ يسقطُ الثلْجُ . . .
أُقْصِي قليلاً ستارةَ غرفةِ نومي، وأنظرُ عبْرَ الحديقة حيثُ البياضُ الـمُـقِيمُ،
أُتابعُ مَرأى البحيرةِ في البُعْدِ
بينَ الجذوعِ التي تلبسُ الآنَ لونينِ:
بُـنّـاً
وأبيضَ.
أعرِفُ أني وحيدٌ
وأني هنا بين مَن لن يكونوا ليَ الأهلَ،
لكنني أستريحُ إلى ذلك النورِ إذ يتخافقُ في نقطةٍ لا أُحَدِّدُها من فضاءِ البحيرةِ
ربّتَما كانت النارُ نارَ القواربِ
أو خيمةِ العاكفينَ على وهْـمِ أسماكِهم.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

يسقطُ الثلجُ.
أُغمِضُ عينيَّ.
تأتي الغزالةُ من آخرِ الدَّغْلِ،
يتبعُها راقصونَ بأرديةٍ من حرائرَ صينيّةٍ
وطبولٍ
وسَبْعِ قلانسَ من ياسـمين.

لندن، ١٨/ ١٢/ ٢٠٠٩

قرارٌ ظالِـمٌ

قرّرتُ (كانت ساعتي، بالضبطِ، سابعةً مســاءً) أن أقولَ
لِـمَنْ أُسَـمِّـيها الضجيعةَ في ليالي الثلجِ: يا بِنْتُ، الوداعَ!
كأنّ صوتَكِ وهو يَـبْـلُـغـني من المنأى الشماليِّ الفقيرِ يقولُ:
إنّ الخيرَ ما نختارُ. . .
أنتِ اخترتِ أن تتلَبَّثي في المرفأ المنسيّ
أن تتمنّعي
أن تهجِسـي، حَدْسـاً، بأني سوف أشقى إنْ أطَلْتِ الـمَكْثَ
ثّمّتَ، حيثُ سِيْفُ البحرِ مهجورٌ، وحيثُ الكلبُ، حتى الكلبُ،
يرفضُ أن يُقادَ هناكَ. . .
لا تمضي بعيداً.
إنني قرّرتُ (كانت ساعتي، بالضبطِ، سابعةً مساءً)
أن أقولَ لكِ: الوداع!

لندن، ٢٤/٠٣/٢٠١٠

طُـقـوسٌ

الثلجُ الطائرُ منذُ الفجرِ نثـيراً
يتحوّلُ، منذُ دقائقَ، قَـطْـراً تحملُـهُ ريحٌ باردةٌ.
والعشبُ يعودُ إلى خُـضـرتِهِ الشاحبةِ
ثـمّـتَ أوراقٌ يابسـةٌ تبدو كعصافيرَ على العشبِ.
النافذةُ، الآنَ، هي الـمِـرآةُ.
سأجلِسُ لِصْـقَ النافذةِ:
البحرُ قريبٌ
ونوارسُ تَـمْـرُقُ أعلى بقليلٍ من سقفِ الـمَـبنى القرميدِ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
غداً
(إنْ صَـدَقَ الطيرُ)
سـآخذُ مَـجْـمَـرةً
وبَخوراً،
آخُـذُ سبعةَ عيدانٍ من علبةِ ثقّـابٍ
كي أُوقِدَ ناري
في أعلى التـلّ. . .

لندن، ٢٢/ ٠٢/ ٢٠١٠

هـكـذا...

نورستانِ حَطّـتـا ضُحىً على السقفِ
(وأعني سقفَ بيتي)
غير أني رجُلٌ ولستُ بحراً. . .
فلماذا حطّت النورستانِ؟
الآنَ
لا يحقُّ لي أن أتساءلَ
أو أُجيبَ. . .
قد حطّتْ على سقفي، ضحىً، نورستانِ
هكذا.

لندن، ٠٣/ ٠١/ ٢٠١٠

هدهدةٌ

من وراءِ الزجاجِ الـمُضاعَفِ، أسمعُ صوتَ الـمطـرْ.
هل مضى الليلُ؟
لن يمضيَ الليلُ:
هذا المطرْ
كأسُـهُ المتطافِحَـةُ...
الليلُ يَـثمَـلُ
يَـثقُـلُ
ينزلُ من رَفِّـهِ ليُوَحِّـدَ ما بينَ أسـرارِهِ والبشـرْ.
.....
.....
.....
كان صوتُ الـمطرْ
يتسرَّبُ.
صوتُ المطرْ
يتشـرَّبُ رقّةَ هُدْبِـي
لأدخلَ في قطرةٍ من مطرْ.

لندن، ٢٦/١٢/٢٠٠٩

مَـهْووسٌ

أظلُّ مندفعاً دوماً،
أدوسُ على مُعَجِّلِ السرعةِ القصوى
وأتركهُ على أديــمِ الحديدِ الجهْمِ ينطبقُ
فوقي سحابةُ مِدرارٍ تُظَـلِّـلُـني
وفي المدى الخافقانِ: الريحُ والورَقُ.
ما أضيقَ العيشَ!
لو كان المدى بِـيَدي
لكنتُ سِــرتُ إلى ما ليسَ يُختَرَقُ.

لندن، ٢٣/٠٦/٢٠٠٩

مُقارَنــةٌ

النسيمُ خفيفٌ
وسطحُ البحيرةِ مِرآةُ دَوحٍ وشمسٍ
يُشَـوِّشُــها بجعٌ أبيضُ
وسَـفينٌ من البطِّ أســوَدُ.
والجندُبُ، الآنَ، يفتحُ باباً من الطينِ. . .
من غصنِ صفصافةٍ رَفَّ طيرٌ
وفي لحظتَينِ اختفى.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أنتَ تقصدُ هذي البحيرةَ
تأتي لتبحثَ عن نعنعِ الدَّغْلِ
عن بُطْنُجٍ
وروائحَ عشبيّةٍ.
أنتَ تبدو سعيداً
لأنكَ تلقى الذي جئتَ من أجْـلِهِ دائماً،

وتقولُ لنفسِكَ:
ما أسهلَ النعمةَ!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

الآنَ في عِرْقِ صخرٍ
رجالٌ يموتونَ من قسوةِ الصخرِ
يذوونَ من لَهَفٍ
واقتتالٍ على حفنةِ التِّبْرِ.
أنتَ تقولُ لنفسِكَ: ما أصعبَ النقمةَ!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

الطيرُ يمرحُ.

لندن، ٢٠٠٩/٠٧/٠٢

مدرســة المحموديّة

المرايا هي الجدران، وهي السقف. مرايا ذواتُ أشكالٍ: مثلّث. معين. مربّع. مستطيل. دائرة - المرايا ذواتُ ألوانٍ: أزرق. أخضر. سماويّ - المرايا نورٌ ملصَقٌ على الجدران - المرايا نورٌ يتدلّى من السقف _ الخشب شفيفٌ. من النافذة تأتي سعفةٌ تترجّحُ مع نسيمٍ خفيفٍ ساخنٍ. الجسرُ (ما زال خشباً) يبدو من النافذة الأخيرة. والنهر الذي يقالُ إن في منتهاه المنزل الذي لن نراه: منزل بنات الشلبي. مطر. مطر. يا حلبي. عَبِّرْ بناتِ الشلبي. مطر. مطر. يا شاشا. عَبِّرْ بناتِ الباشا. يا مطراً من ذهبِ! السيد علي الطبيب الهنديّ يسكنُ هو أيضاً في أقاصي النهر التي لن نبْلغَها. حيّاتُ الماءِ تقطعُ النهرَ من ضفةٍ إلى أخرى. نحاولُ أن نُمسِكَ بخيطِ الفضّةِ المتعرِّجِ. الحيّاتُ تنزلقُ مراوِغةً. سمَكُ الجِرِّيّ يلتقطُ الطُّعْمَ الفقيرَ، العجينةَ أو التمرةَ. سنجففُ جِلْدَ الجِرِّيّ لنصنع طبولَنا في الهاجرةِ القائظة. خليل الطويل يُعَلِّمُنا العربيةَ والجغرافيا. نحن الآنَ نعرف القارات. في أي قارةٍ نحنُ؟إفريقيا معَنا. ستدقّ الطبولُ في الليلِ المحتدمِ. ونحن نختبيْ تحت ثياب أمّهاتِنا الطويلة لنتسلّلَ إلى حلقةِ الزارِ المختنقة بالبخور. أبو

الخصيب كلُّها تدور حول المدرسة. أبو الخصيب هي المدرسة. المحموديّةُ هُدِمَت. المحموديةُ هُدِمَتْ على رؤوسنا، نحن أبنائها اليتامى.

لندن، ١٧/١٢/٢٠٠٩

ما البحرين؟

ما البحرينُ؟
قاسِمُ حدّادٍ، أمْ جاسِمُ؟
مقبرةٌ لعراقيينَ أتَوا من سومَرَ؟
أَمْ:

«مرَجَ البحرينِ»
هنا يلتقيانِ. . . .
وبينهما البرزخُ من مُرجانٍ وجُمانٍ؟
ما البحرَينُ؟
البنكُ الدّوليُّ بها، أم «جبهةُ تحريرِ البحرينِ»؟
أمَشْيَخةٌ أَمْ مملكةٌ؟
إيمانُ أسِيري أمْ فوزيّةُ؟
ما البحرين؟
سأظلُّ أُسائلُ عنها
لكنْ لن أعرفَها. . .
البحرين
على خارطةِ العالَمِ

ليستْ حتى الـنُّقطةَ . . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

لكني أعرفُ، من أجدادي،

من صندوقِ بريدِ: «قرامطةِ البحرينِ»

أعرفُ

ما البحرين!

لندن، ٢٨/٠٧/٢٠٠٩

ليلُ المحَطّـةِ

سوف تأتي جوانُ ليلَ الأحدِ:
الرصيفُ في محطةِ المترو سيبدو شبه مغسولٍ من النوءِ الخفيفِ
الضوءُ يبدو شاحباً
لا وقْعَ أقدامٍ
ولا مسافري ليلٍ. . .
محطةُ المترو غفَتْ، مثلَ محطّاتِ القرى في ليلِ أسكتلَندةَ.
هل أبدو، أنا، مشتبَهاً بهِ؟
الساعةُ في المدخلِ. . . هل تستنطقُني؟
مَن أنتَ؟
مَن تستقبلُ، اللحظةَ، ليلَ الأحدِ؟
الشرطةُ في سيّارةِ الدوريةِ
الفندقُ، حيثُ العاهراتُ ارتَحْنَ من أثوابِهِنّ، استقبلَ التجّارَ بالجازِ القديمِ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

جْوانُ تأتي. . .
جرجرتْ، عبرَ محطّاتِ الشمالِ، البحرَ
والأوراقَ
والضحكةَ، ملءَ العالَمِ.
جوانُ ستبدو، آنَ أستقبلُها، تنتظرُ القُبلةَ
كالوردةِ إذْ تنتظرُ الطلَّ
كفانوسٍ على كوخٍ
و كالهدأةِ في ليلِ المحطّاتِ. . .
كأنفاسي التي أمستْ تضيء.

لندن، ١٩/٠٩/٢٠٠٩

هواجسُ منزلِ التـلّ

مطرٌ لا يُرى، يتغلغلُ في ملْمَسِ العُشبِ
يدخلُ بين خيوطِ القميصِ
وفي رئةِ الطيرِ.
كان النهارُ بطيئاً
وسوفَ تكونُ الليالي الطويلاتُ أبطـأَ.
كم قلتُ: إني سـأرحلُ عن منزلِ التلِّ!
كم قلتُ: إني سـأنصِبُ لي خيمـةً في رمالِ الجزيرةِ
أو أسـفلَ الأطلسِ...
البردُ يُرْعِشُ منـي الأناملَ.
أنظرُ:
لا شـيءَ في الأفْـقِ
مُـنْبَسَـطٌ من سـماءٍ رمادٍ
ومنحدَرٌ من غصونٍ يَـباسٍ يُقَضْـقِـضُـهـا النوءُ.
.....
.....
.....

سوف يظلُّ المطرْ
لا يُرى.
ســوفَ أبقى هنــا، أخضِــدُ الليلَ في منزلِ التلِّ،
أبقى هنا
صيحةً ليس يسمعُها أحدٌ
صيحةً في عُــواءٍ بعيــد...

لندن، ٢٧/ ٠١/ ٢٠١٠

قصائــدُ هَـيْـرْفِـيــلْـد التلّ

Poems of Harefield on the Hill

(٢٠١٣)

فُــتُــوَّةٌ

في الـ ٥٧
حـفَـرْنا، بأظافرِنا الســودِ، خنادقَ حولَ دمشقَ. . .
بساتينُ الغوطةِ كانت بكثافةِ أدغالِ الأمازونِ
ومن أعلى جبلِ الشيخِ يسيلُ الماءُ زلالاً بين أصابعَ مُـفْـعَـمـةٍ بترابِ الأرضِ.
وفي الـ ٥٧
شــربْنا عرَقاً، رُبْعَ البطْحــةِ
ثمّ نَـعِـمْـنا بشطيرةِ خبزٍ عربيٍّ، رُبْعَ الليرةِ. . .
في الـ ٥٧
أحببْـنا
و كـتَـبْـنـا في ضوءِ الشمعِ قصائدَنا الأولــى.
كان زماناً ذهَـبــاً
كنّا في الـ ٥٧. . .
وكنّا، نحفرُ، مثلَ دمشقَ، خنادقَنا في الروح.

لندن، ٢٨/ ٠٣/ ٢٠١٠

كنتُ أتمشّى ظُهراً

أمسِ، قرّرتُ أن أتمشّى على طولِ تلك القناةِ العجيبةِ
تلك القناةِ التي شهدتْ بدءَ حُبَّـيـنِ
ثمّ نهايةَ حُبَّـينِ. . .
تلكَ القناةِ التي قسمتْنيَ نصفَينِ
تلك القناةِ التي أغرقتْني. . .
قلتُ: فَـلْـيَكُنِ!
اليومَ أمشي على ضفة مِثلَ حدِّ الصراطِ:
أحاولُ أن أتصالحَ
والماءَ
والعشبَ
والطيرَ. . .
كانت سماءُ الخريفِ، على غيرِ عادتها، شبهَ زرقاءَ
والماءُ أخضرَ
والطيرُ أخضرَ
والعشبُ عند الضفافِ الخفيضةِ أخضرَ. . .
مَن كانَ في الـبُــعْــدِ؟

مَن كان يوشكُ أن يعبرَ الجسرَ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

هل تلكُما. . . المرأتان؟

لندن، ١١/ ١٠/ ٢٠١١

ألعابٌ لُـغَــويّــةٌ

ربّما هجرتْكَ السماءُ التي كنتَ ترجو . . .
ربّما!
فلْتَعُدْ للحقيبةِ :
ثَمَّ ســـماءٌ سماويّةٌ (أنتَ أرهقتَها بالحديث طويلاً!)
وثَمّ السماءُ التي هي للناسِ .
قُلْ لي :
إلى أيّ واحدةٍ أنتَ ترجِعُ
أو تستريحُ؟
إلى أيّ واحدةٍ أنتَ تُسْـلِمُ رأسَكَ، مستسلِماً، كالوسادةِ؟
لا!
لا تَقُلْ لي : أمُستَنطِقي أنتَ؟
إني صديقُكَ
صورتُكَ
النسخةُ . . .
الآنَ، لن يخدعَ الواحدُ، الآخرَ .
الآنَ نحنُ سواسيةٌ
مثلَ أسنانِ مشطِكَ ذاكَ الـمُثَلَّـمِ . . .

نحن سواسيةٌ
أنت لم تنسَ أني الشيوعيُّ
(لم تنسَ أنكَ كنتَ الشيوعيَّ)
فلنتّفِقْ!
لِنَقُلْ، في الأقلِّ، بأنّ التّساميَ ليس السماء. . .

مطار مدريد، ٢٠١١/١١/٠٢

العراقُ آتٍ

سوف يأتي العراقُ الجميل
سوف يأتي العراق
بعدَ أن يرحلَ الأمريكيُّ
والخادمُ الفارسيُّ الـمُـعَـمّـمُ. . .
هذا العراقُ الجميل
قادمٌ في الهواءِ الذي نتنفّسُ
في الشاي عند أعالي الفرات
وفي العَرَقِ الـمُرِّ في جبهةِ النهرِ. . .
هذا العراق الجميل
قادمٌ في عباءةِ أُمّي التي رحلتْ وأنا جاهلٌ أنها رحلتْ
(كنتُ أذرعُ زنْقاتِ باريسَ). . .
هذا العراقُ العجيب
سوف يأتي بنا من مَـنـابِـذنا في الديارِ التي لم نُحِبّ
الديارِ التي لم تُحِبَّ ملامحَنا
وضراوةَ أجسادِنا. . .
ولَسوفَ نكونُ سعيدينَ
مرتجفينَ

حُفاةً
خِفافاً
وممتلئينَ عفافاً
ورُعباً. . .
وسوف نقولُ لـهُ:
أيُّهذا العراق
لم يَعُدْ في الطبيعةِ مُـتَّسَــعٌ
للفراقْ
أيُّهذا العراقْ. . .

لندن، ١١/١١/٢٠١١

محاولةُ اندماجٍ

قد قلتُ أمضي اليومَ (طقسٌ تافهٌ) لأطوفَ حول بُحيرةِ البطّ.
انتبهتُ: وأيُّ معنىً أن أكونَ هناكَ؟
لا البطُّ الذي يُسْمى يناسبُني، و لا الماءُ الذي يجري هنالكَ،
مائيَ.
الأشجارُ (عرّاها الخريفُ)
أظنُّها نخلاً؟
وهذا الطيرُ؟
لو أرخى ببغدادَ الجناحَ، لكان مأكولاً...
وهذي النسوةُ الخفِراتُ لو كُنِّ انتقلْنَ إلى «الرشيدِ» مع الكلابِ،
لكُنَّ بضعَ رهائنَ...
يا ويلَتي!
والآنَ
هذي اللحظةَ
استحيَيتُ من أمري...
مرّتْ بي فتاةٌ ذاتُ كلبٍ يشبِهُ العصفورَ:
Good morning!

أقولُ لها: صباح الخير!
بالعربيّةِ. . . .
الكلبُ الذي يبدو كعصفورٍ يقولُ مُرَحِّباً بي:
صباح الخير!
Good morning!

ولكنّ الفتاةَ تسيرُ، شامخةً، تجُرُّ الكلبَ
لم تعبأْ بأن تلقى التحيّةَ. . .
لم تعبأْ بأنّ الكلبَ ظلَّ، على طريقتِهِ، يؤدّي لي التحيةَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أيُّ طقسٍ تافهٍ!

لندن، ١٩/ ١١/ ٢٠١١

غادِر الآنَ....

وأيُّ بلادٍ أنتَ فيها؟
لِـتُغـلقِ النوافذَ (ليستْ بالنوافذِ)
أغلقِ المحطّةَ. . . (موسيقى الأميراتِ ليستْ ما تحبُّ)
- كأنني تعثّرتُ ليلاً بالأميرةِ، فلْيَكُنْ! -
وتلكَ دوحةُ بلّوطٍ!
وما علاقةُ نخلِ البصرةِ؟
انتبهِ:
البلادُ التي آوتْكَ ليستْ بلادَكَ!
البلادُ التي آوتْكَ، آوتْكَ كي لا ترى بلادَكَ يوماً!
أغلقِ الخطَّ!
أغلقِ الهواتفَ. . .
أغلِقْ قلبَكَ!
النساءُ اللواتي قد حبَبْنَكَ لم يَكُنَّ ليُحْبِبْنَ إلاّ بالشروطِ
وإلاّ بالوثيقةِ من يد الشُّرَطيّ
أنتَ
حفيدُ كِندةَ
وامرىءِ القيسِ. . . النبيّ

أفِقْ!

لماذا أنتَ في أرضٍ لقيصرَ؟

أيُّ معنىً أن تكونَ بلندنَ الصغرى؟

أو الكبرى. . .

أقولُ لكَ النصيحةَ يا رفيقي:

غادِر الآنَ. . .

امرؤُ القيسِ الذي قد جاءَ، لا تتركْهُ ينتظرُ!

لندن، ٢٢/ ١١/ ٢٠١١

أسمعُ المطرَ الليلةَ

منذُ عشرِ سنينٍ، هنا، ما سمعتُ المطرْ
كنتُ أُبصرهُ:
ناعماً
نائماً
نافذاً في الحشائشِ مثلَ الهواءِ
ولكنني، سوفَ أحتفلُ، الليلةَ!
الليلَ. . .
سوفَ أحفَلُ بالكونِ:
إني سمعتُ المطرْ!
كان كالطيرِ ينقرُ ذاكَ الزجاجَ المضاعفَ
يسألُ أن يدخلَ. . . الآنَ
ماذا سأفعلُ يا امرأتي؟
كوخُنا، أنا أعني الصريفةَ، في البصرةِ الطينِ
حيثُ وُلِدتُ
وحيثُ عَرَفتُ. . .
يردِّدُ صوتَ المطرْ
والرعودَ

ويأْذَنُ للطفلِ أن يبصرَ البرقَ،
يأْذَنُ للأم أن تحتفي بالمطرْ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سوف أخرجُ من ظُلمةِ البيتِ في رِيفِ لندنَ
(قبري)
وأرقصُ تحتَ المطرْ!

لندن، ٢٠١١/١٢/٠٨

رؤيا عام ٢١١٢

أتملّـى سماءَ الشتاءِ بلندنَ، هذا المساءَ.
السماءُ التي قد تُرى،
لا تُرى.
والصقيعُ المبَكِّرُ في العشبِ
أو في الزجاجِ الثخينِ لسيّارتي، وهي تهمدُ في الساحةِ
الليلُ يدخلُ (قبل الأوانِ)؟
ولكنه الليلُ...
يأتي، سُدىً بهواجسِهِ، والكلامِ عن الليلِ...
هاأنذا
أتملّى السماءَ التي لا أرى
أتملّى العراقَ الذي لا أرى:
رُبّما بعدَ قرنٍ، يعودُ العراق
وفي العامِ ٢١١٢
مثلَ ما هو في هذهِ اللحظةِ...
سوفَ يأتي لنا مقتدى الصدر بالأغنيات
ويأتي الصبيّ المعمّمُ عمّارُ بالراقصاتِ
ويأتي لنا المالكيُّ بألويةٍ من طُوَيريجَ، متخَمةٍ، ومدجّجةٍ

سوف يأتي لنا البارزانيُّ
والطالبانيُّ
بالشقشقاتِ . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الطريقُ طويلٌ إذاً يارفيقي!

لندن، ١٠/ ١٢/ ٢٠١١

رُبـاعيّــةٌ

غيومٌ رمادٌ تُـغطِّـي أعالي التلالِ
البحيرةُ قد أوشكتْ تتجمّـدُ،
والطيرُ غابْ.

سنذهبُ عصراً إلى حانةِ القريةِ
البيرةُ ابتردَتْ
والستائرُ مثقلةٌ بالضّبابْ.

تظلُّ الكنيســـةُ، دوماً، كما هيَ، في السفحِ
في الساحةِ، الـجُـنْـدُ قتلى
وفي الـبُرجِ كان الغرابْ.

مساءٌ بلا لَـوعة، أو شُـــموعٍ لذكرى
مساءٌ، و لا مِن أغانٍ
مساءٌ يُطَـوِّحُ بي في الـمـفازةِ، حيثُ الخرابْ.

لندن، ٢٠/ ١٢/ ٢٠١١

نهار أحد مشمس في مونمارتر

سوف ترقى بطيئاً لكي تبلغَ الساحةَ
الناسُ ظلّوا
قروناً
على مَـهْلِهِم، يـصـعدون إلى الساحةِ الوثنيّةِ
مثلَ الحجيج

القديمِ.
الشوارِعُ مرصوفةٌ بالحجارةِ
والساحةُ الوثنيّـةُ مرصوفةٌ بالورَقْ.
كنتُ أسألُ عن أصدقاءٍ قدامى، أقاموا، هنا،
يرسُمونَ

لكي يأكلوا

خبزَهم
وقليلاً من الجـبْن مُـمْـتَـضَـغـاً والنبيذ. . .

لم يَـعُـدْ أحدٌ منهمو!
غادَروا
غادَروا كلُّهم. . .
أينَ؟
لكنّ ساحةَ مونمارتر الوثنيّةَ تكتظُّ، مرصوفةً بالورقْ
والشوارعُ،
. كالأمس، مرصوفةٌ بالحجارة
قد غابَ مَن كنتَ تعرفُ
غابوا
وشابوا
وذابوا من القهر. . .
لا ترتعبْ!
لا تَقُلْ
للشوارعِ، حتى ولو أنكرَتْـكَ: وداعاً
هيَ أُمُّـكَ
قد أرضعَتْـكَ جنونَ
المسيرةِ
*
فَـلْـنَحتـفِـل!

لندن، ٢٢/١٢/٢٠١١

قمرٌ في الشتاء الإنجليزيّ

قمرٌ
خنجرٌ من نحاسٍ
هلالٌ تُـكسِّـرُهُ غابةُ الليلِ . . .
لا نجمةٌ .
قمرٌ في شتاء القذى الإنجليزيّ
محتقَرٌ
ذابلٌ
خاملٌ
لا عيونَ تُتابعُهُ
لا أغانيَ تتبعُهُ
قمرٌ ليس للشعراءِ
(تراهم جميعاً بحاناتهم)
ولا للصبايا
(ترنّحْنَ في الغُرُفاتِ الغريبةِ)
لم يبقَ إلاّ القمرْ
وحدَهُ . . . في المتاهةِ

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

لكنّ شخصاً نحيلاً

يقفُ الآنَ، محتجَزاً، هو والليل

يفتح نافذةً

ويُطيلُ الوقوفَ

يُطيلُ الوقوفَ

إلى أن يغيبَ القمرْ. . .

لندن، ٢٨/ ١٢/ ٢٠١١

صلاةٌ في ٣١ كانون أوّل ٢٠١١

مطرٌ، ناعمٌ ناعمٌ، أبيضُ
الشجرُ الأجردُ المـتطاولُ عبرَ السياجِ
بدا غاطساً في الحليبِ.
الظهيرةُ قد أُدْمِجَتْ تحتَ قُرْصِ الأغاني
أغاني النساءِ اللواتي ترنَّحْنَ في شمسِ إفريقيـا...
نحنُ نشربُ شاياً بلا لَذْعةٍ بالحليبِ،
لقد طفحتْ بالحليبِ المزاريبُ
والساحةُ انكفأتْ في بياضٍ من الـبَـرَصِ...
المرأةُ، اليومَ، تُخْـلِفُ موعدَها، عادةً.
والرجالُ ينامونَ حتى الظهيرةِ
والشمسُ قد سافرَتْ نحو إفريقيا.
.....
.....
.....
سوف أتْـبَـعُ شُـؤبوبَـها بصلاتي، إذاً!

لندن، ٣١/١٢/٢٠١١

المستحيل

أتملّى السماءَ الشتائيّةَ:
الشجرُ الـتَـفَّ بالمعطفِ الأبديِّ
الطيورُ تهاجرُ. . .
لكنْ إلى أينَ؟
ثَمَّ ســـماءٌ
و ثَمّـتَ أرضٌ
وبينهما ليس إلاّ الهواء. . .

لندن، ٢٠١٢/٠١/٠٢

نـقّـارُ الخشبِ

نقّارُ الخشبِ الزائرُ لم يأتِ بدايةَ هذا العامِ، كما اعتادَ
وكما اعتدتُ. . .
والدّوحةُ ظلّتْ عاريةً، جاهزةً، تنتظرُ
لكنّ النقّارَ تخَلَّفَ:
لم يأتِ بدايةَ هذا العام!
كأنّ النقّارَ أحَسَّ بأني أَحتاجُ إلى أن أسأله شيئاً
(هل يتنبّـأُ نقّارُ الخشبِ؟)
لكنْ، لو جاءَ، إلى الضيعةِ، نقّارُ الخشبِ، اليومَ
وأنشَبَ في الجِذعِ، المنقارَ الإزميلَ،
وصارَ يدقُّ
يدقُّ
لقلتُ لهُ:
امنحْني يا نقّارَ الخشبِ الزائرَ، منقارَكَ، بضعَ دقائقَ
بضعَ دقائقَ، حَـسْـبُ!
امنحْني منقارَكَ
كي أفقأَ عينَ السيكلوبِ
وأنجو من حبســي!

لندن، ٢٠١٢/٠١/٠٤

الأطلال

ليست الأطلالُ ما نهجسُهُ
أغنيةً
أو نجتليهِ
شاخصاً يَبْلى مع الريحِ . . .
هي الأطلالُ تنمو خِلْسةً
كالعشبِ
تغفو، خلسةً، كالعشبِ
تذوي، خلسةً، كالعشبِ.
والأطلالُ ليستْ حجراً
أو رملةً
أو ما تَبَقّى من رمادِ الموقدِ.
الأطلالُ
ما تُمسكُهُ الراحةُ، من أيّامنا، كالماءِ. . .
ما نُمسكُهُ، نحن، من الأرضِ الهباء!

طنجة، ٢٤/ ٠١/ ٢٠١٢

يقظةُ الأحدِ

أنت في فجر طنجةَ لستَ تُــفَــرّقُ
بينَ صُراخِ النوارسِ جائعةً
ومُواءِ القططْ!
ذلك الأطلسيُّ القريبُ من الــنُّــزْلِ يمنحُكَ الوهمَ:
في قارةِ الغرَقِ العذْبِ أنتَ
وبين ذراعَي عروسةِ بحرٍ تحبُّكَ. . .
هاأنتذا
تترجّحُ بين النعاسِ المضمّخِ والصحوِ
بين النوارسِ والقططِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الشمسُ تدنو من النافذةْ.

طنجة، ٢٢/ ٠١/ ٢٠١٢

في مساء المرفأ

ثلاثُ نوارسَ
دارتْ، مسرعةً، حولَ هوائيّ الفندقِ
ثم مضتْ، مسرعة، نحو البحرِ.
مساءٌ يتمهّلُ في الطُّـــــرُقاتِ
وفي خطواتِ الفتَياتِ
وفي عرباتِ الباعةِ...
لكنّ الليلَ سيأتي، حتى في هذا الحيّ الشعبيِّ
سيأتي الليلُ...
وتنأى خُطُواتُ الفتياتِ
وتنأى عرباتُ الباعةِ.
.....
.....
.....
ثَـــمَّ ثلاثُ نوارسَ غابتْ
أينَ، تُراها، ستنام؟

طنجة، ٢٤/ ٠١/ ٢٠١٢

غيومٌ من الأطلسـيّ

غيومٌ من الأطلسيّ
تجيءُ محمّلةً بالسنونو وبالنورسِ المتخاطِفِ والوردِ.
كان الصباحُ نديّاً
وكانت شوارعُ طنجةَ تلمعُ، تيّاهةً بسوادٍ أنيقٍ...
مناسبةٌ!
سوف ألبسُ، من أجْلِ هذا، قميصاً من الصوف، أسودَ!
سوف تكون المدينةُ جاهزةً لي:
أطوفُ بها
ثم أهبطُ، نحو النخيلِ على شاطيء البحرِ
ثم أعودُ إلى الغرفةِ الأبديّةِ
حيثُ أُلَـمْـلِـمُ نفسي
وما كنتُ فزْتُ به من مسيري، هذا الصباحَ...
.....
.....
.....
ولكنني سوف أنسى المدينةَ

والناسَ
والبحرَ
حين أُحِسُّ بأنيَ لست المهدهَدَ بين ذراعيكِ
هذا الصباح!

طنجة، ٢٦/ ٠١/ ٢٠١٢

نساءُ «سوق الـمُصَـلّـى»

مطرٌ فوق طنجةَ. . .
هذا الصباحَ تكون النساءُ بـ«سوق الـمُصَـلّى» بلا درهمٍ:
كيف يجلسنَ تحت المطرْ
يـبِــعْنَ الخضارَ
وأرغفةَ الخبزِ
والجبنةَ المنزليّــةَ؟
هذا المطرْ
نعمةٌ للمزارعِ، للأغنياءِ الأُلى يملكونَ المزارعَ
أمّا النساءُ بـ«سوق الـمُصَـلّى»
النساءُ اللواتي يبِعْنَ الخضارَ وأرغفةَ الخبزِ
والجبنةَ المنزليّةَ. . .
فلتكُنْ رحمةُ اللهِ خيمتَهنّ التي ليس من رحمةٍ غيرها
في السماءِ السخيّةِ دوماً على الأغنياء!

طنجة، ٢٠١٢/٠٢/٠٢

ســاحة العاجزينَ

ثَــمّ، في «ساحة العاجزين» المدافعُ
تلكَ التي صبَّــها، منذُ قرنٍ، مغاربةٌ. . . غادَروا الأندلُس
والمدافعُ ظلّتْ مصَوَّبةً نحو ما كان يُعرَفُ بـ«الأندلس». . .
أنتَ تأتي إلى الساحةِ، الصبحَ
تأتي إلى الساحةِ، الليلَ
لكنّ تلكَ المدافعَ، قد تختفي، بغتةً. . .
قد تصيرُ قواربَ
أو شاحناتٍ
ورُبّــتَــما أصبحتْ طائراتٍ لنقلِ الجنودِ
أو السائحاتِ. . .
المدافعُ قد تتبدّلُ أسماؤها مثلَ ما تتبدّلُ أسماؤنا. . .
مثلاً:
إنّ اسمي. . . محمّد!

طنجة، ٠٤/٠٢/٢٠١٢

«العرائش» نهارَ المولد النبويّ»

كانت «ساحة إسبانيا» السابقةُ القَوراءُ، تضجُّ بأصواتِ الباعةِ
بالعرباتِ اليدويّةِ
والنسوةِ شيهِ الملتحفاتِ
تضجُّ بما لم يَكُ إسبانيّـاً
أو عربيّاً
ولم يكُ، بالطبع، أمازيغيّاً. . .
كانت «ساحةُ إسبانيا» تنهقُ مثل حمارٍ أرهقَه ما يحملُ.
مَن يتذكّرُ؟
مَن يذْكرُ أنّ نبيّاً وُلِدَ اليومَ لـتُرضعهُ خادمةٌ؟
أين محمدٌ الأوّلُ في الساحةِ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في «ساحة إسبانيا» لافتةٌ من قطنٍ أبيضَ:
أغنيةٌ للسيّدةِ المصريّةِ:
وُلِدَ الهدى فالكائناتُ ضياءُ
وفمُ الزمانِ تبسُّمٌ وغناءُ. . .
*

في «العرائش» لا يُغَنّي أحدٌ:
الحانتان القذرتان: في الساحة، وعند البحرِ
الحانتان الوحيدتان
مغلقتان اليومَ
وفي مثلِ هذا اليومِ
كلَّ عامٍ
كلَّ يومِ مولدٍ نبويٍّ.

طنجة، ٠٥/٠٢/٢٠١٢

البيت

أنا أبحثُ عن بيتٍ
منذ سنينٍ وأنا أبحثُ عن بيتٍ
كم بلدانٍ طوّفْتُ بها وأنا أبحثُ عن بيتٍ!
كم قاراتٍ!
كم أثوابِ نساءٍ. . .
كم ساحاتٍ للقتلِ!
وكم كتُبٍ. . .
كم مدُنٍ!
وأخيراً:
أنا في طنجةَ أبحثُ عن بيتٍ
منذ سنينٍ وأنا في طنجةَ أبحثُ عن بيتٍ!
لكني سأعودُ (كما كنتُ) بلا بيتٍ
اللابيتُ هو البيتُ. . . إذاً!

طنجة، ٠٧/٠٢/٢٠١٢

خواطر ٨ شباط

في غرفةِ الفندقِ
بالرغم من النافذة المحكمة الإغلاقِ
بالرغم من الستارةِ المسْدلةِ. . .
النورسُ يبدو لكَ، تيّاهاً، مع الغفلةِ،
بل تسمعهُ
عند هوائيّ الإذاعةِ؛
النورُ الذي تتْبعُهُ حتى ولو حفرةِ الديجورِ
يبدو لك، بغتةً. . .
من أين هذا النورُ؟
والنورسُ؟
إن الغرفةَ الباردةَ الفقيرةَ الجرداءَ في الفندقِ
لا تسمحُ حتى باحتمالِ الوهمِ. . .
لكنك تيّاهٌ مع النورسِ
تيّاهٌ مع النورِ الذي لم يكنِ. . .
الغرفةُ في عتمتِها، ملتفّةٌ. . .
أنت وحيدٌ
قانطٌ

تنتظرُ الفجرَ الذي سوف يهِلُّ
اليومَ
أو بعد قرونٍ. . .
لكَ أن تفعلَ ما شِئتَ
وأن ترقصَ والنورسَ في غرفتكَ. . .
الفجرُ سيأتي!

طنجة، ٠٨/ ٠٢/ ٢٠١٢

الإسلامُ ديناً

كان الإسلامُ، الحائطَ
آخرَ ما نلتاذُ به، حين تضيقُ بنا

الدنيا
ويحاصرُنا الأعداء . . .
الإسلامُ هو

الجذعُ
الـمُدّرَعُ
الخيمةُ حينَ يُطيحُ الأعداءُ البيتَ
الإسلامُ هو

المنبِتُ
والنبْتُ
وآياتُ حُفاةٍ وشُـــراةٍ
الإسلامُ
عليٌّ

عُمَرُ
الخنساءُ
وطارقٌ بنُ زياد
الإسلامُ هو المرأةُ في السوقِ

هو الشاعرُ في الدسكرةِ
الإسلامُ هو الحريّةُ في ألاّ تؤمنَ

بالإسلامِ
ليس الإسلامُ قميصَ الأميركيّ
ولا جزمةَ ذاكَ النرويجيَ
أو الغاليَ،
وليس سلاحَ ذوي الأحداقِ الزُّرقِ
الإسلامُ
هو
الحلمُ بآخرةٍ بيضاءَ
وأسرابِ حَمام. . .

طنجة، ١٢/ ٠٢/ ٢٠١٢

ســـلامٌ من هناك

وكيفَ يومُكَ؟

كان الليلُ يهبطُ . . .
والأشجارُ تُمسي رصاصاً .
هل تحيّتُها ، تلك البعيدة ، تُدْنيني؟
هل اقتربَتْ مني الروائحُ؟
نَدٌّ نافذٌ
عبَقٌ من دوحةِ التين
ضوعٌ من مَنابتِ فخْذَيها . . .
وضحكتِها :
وكيفَ يومُكَ؟

يا مَن أستريحُ لها ، وهي البعيدةُ
يا مَن أستريحُ إلى انكسارِ لَـثغتِـــها
لا تقطعي هاتفاً في الليلِ
واتَّـــرِكي لي أن أُمَصْمِصَ ما تحكينَ . . .

أن أجدَ النبضَ الخفيَّ
وأن أستروِحَ العِرْقَ، حتى يستوي عرَقــا . . .

وكيفَ يومُكِ؟

لندن، ٢٧/ ٠٢/ ٢٠١٢

ضَــبــاب

لا تلوحُ المراكبُ في النهرِ
والشجرُ المتباعدُ يندسُّ، مختفياً في مُلاءةِ قطْنٍ سماويّةٍ
وحدَهُ، السورُ، ينهضُ أسْودَ بين البياضِ
الطيورُ التي غرّدتْ في الصباحِ المبكِّــرِ، تصمتُ
والنورُ يشحبُ حول زجاجِ المصابيحِ.
والعشبُ تَــغْــمُــقُ خُضرتُهُ.
لن تجيءَ الحمائمُ
قد أغلقَ الدَّغْلُ أبوابَــهُ...
واختفى،
في الضّــباب.

لندن، ٢٠١٢/٠٣/٠٢

تنويع على «ما مقامي بأرض نخلةَ» للمتنبي

ما مقامي بريفِ لندنَ إلاّ كمقامِ المسيحِ بينَ اليهودِ، الليلُ أعمى،
والهاتفُ الأسوَدُ ملقىً، هامدٌ في بُحيرةٍ من همودٍ
ليس من زائرٍ. تلَبَّثَ حتى الطيرُ. أمّا أبناءُ جِلْدي العراقيّونَ... لا
تنْكأ الفضيحةَ و القيحَ! رذاذٌ على النوافذِ. ريحٌ لا أُحِسُّـــها دخلتْ
بين قميصي والجِـلْدِ. ماذا سوف ألقى إنْ عشتُ عاماً آخرَ؟
الهاتفُ ملقى.
والموتُ دونَ شهودِ...
خَـــلِّها،
خَـــلِّها تمرُّ
سأبقى، الفرْدَ، سيفاً
لم يذهب الناسُ الأُلى قد حـبَـبْـــتُهمْ.
إنهم في كلِّ غصْنٍ خَضـــدْتُـــهُ
إنهم في كلِ كأسٍ شربتُها
كلِ رقصي
من ركعةٍ وســـجودِ.
.....
.....

. . . . . .

ما مقامي بريفِ لندنَ إلاّ كمقامِ المسيحِ بينَ اليهودِ
لستُ ألقى سوى العجائزِ
بُرْصاً
والمريضاتِ
من ليالي الجنودِ.

*

ما مقامي بريف لِندنَ إلاّ كمقامِ المسيحِ بين اليهودِ.

لندن، ٢٠١٢/٠٣/٠٤

أفقرُ الفقراء

لم تبْقَ أرضٌ لم تحاولْ أن تُـثَـبِّتَ خيمةً فيها؛
هل الأرَضونَ قُدَّتْ من حديدٍ؟
ربّما . . .
*
و الآنَ، في السبعينَ،
يبدو المشهدُ الأبديُّ أوضحَ:
لن يرى فان كوخ أرحمَ من طبيبٍ للمجانينِ.
*
الحياةُ جميلةٌ
وجديرةٌ أبداً بأن نحيا بها . . .
الأشجارُ تحيا
والعصافيرُ،
القنافذُ
والذئابُ
النملُ، والحلزونُ، والأفعى الجميلةُ
*

لا تَقُلْ لي إنني أمسيتُ كالشعراءِ!
إني أفقرُ الفقراءِ
كم حاولتُ، حتى هذه السبعينَ، شيئاً تافهاً
وفشِلْتُ:
تلكَ الخيمةُ!

لندن، ١٢/٠٣/٢٠١٢

التحديقُ إلى الأسفل

أنا في أعلى التلّ
لقد جاهدتُ طويلاً، منذ الفجرِ، لأبلغَ أعلى التلّ
حِـدَأٌ تتمهّلُ في الريحِ
القريةُ في القاعِ:
كنيستُها
ومنازلُها
و البارُ الأقربُ من مدخلِ نادي الغولفِ.
الآنَ أرى ما لستُ أرى:
وطناً أعلنَ منذ ٢٠٠٣ - أنا مستعمرةٌ
أمّا أبناءُ الوطنِ المعلَنِ في لندنَ
(ليس عراقاً)
أعني من يكتبُ حرفاً
أو يرسُمُ ظِلْـفاً
أو يتوهّمُ ضربَ الطبلةِ والعود . . .
إلخ.
فقد اختاروا، منذ ٢٠٠٣
وبكل الإصرار:

CIB

NI5

NI6

إلخ . . .

كم هم سعداءُ!

ولكني في أعلى التلّ

في القمّةِ

تبدو القريةُ في القاعِ، البلْقَعَ

تبدو اللاشيءَ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ولكني سأظلُّ بأعلى التلّ!

أظلُّ كتلكَ الحِداِ اللاتي تتمهّلُ في الريحِ

بأعلى التلّ. . .

لندن، ١٣/ ٠٣/ ٢٠١٢

استمطار

اليومَ
كادتْ غيمةٌ بيضاءُ تدخلُ غرفتي
(أعني بأُوتيل رِيتز)
Ritz Hotel
كادتْ، في الحقيقةِ، تدخل غرفتي؛
حتى لقد فتّحتُ نافذتي لتدخلَ:
أقْبِلي يا غيمتي البيضاءَ...
أنتِ أتيتِ عبرَ مضيقِ سبْـتـةَ
من شمالِ العالَمِ:
الفقراءُ ينتظرونَ ماءً منكِ
ينتظرونَ أن تغدو الحقولُ، بلحظةٍ، خضراءَ
ينتظرون أن تتشرّبَ الراحاتُ بالماءِ المقدّسِ منكِ؛
ينتظرونَ، والأطفالَ، أغنيةَ السنابل...
فاسمعيهمْ
ولتكوني غيمةً سوداءَ...
كوني غيمةً سوداءَ

سِـــيري نحو «مكناسَ» البعيدةِ
واهطِـلي
ليكونَ طعْمُ نبيذها، القاني، ألَـــذَّ!

لندن، ١٦/٠٣/٢٠١٢

القدّيس الإيرلنديّ

قدّيسُ إيرلندةَ سانت باترِك
Saint Patrick
تراه اليومَ في الحاناتِ:
ملفوفٌ وخنزيرٌ وما يطفحُ من بيرتها السوداءِ. . .
(مجّاناً!)
ودوماً، كنت أمضي، ظُهرَ هذا اليومِ نحو البارِ
كي أحظى بملفوفٍ وخنزيرٍ
وبالبيرةِ مجّاناً. . .
ولكنيَ لم أذهبْ هناكَ اليومَ؛
لم أذهبْ لأني كنتُ وحدي:
ليس من سيّدةٍ تُعينني على احتمالِ العيدِ و الملفوفِ والخنزيرِ. . .
هل كنتُ شقيّاً؟
ربّما
ليس لأني لم أكنْ في البارِ. . .

لندن، ١٧/٠٣/٢٠١٢

دربُ الزَجّاجين Rue de la Verrerie

قبل عشرين عاماً وأكثرَ كان الطريقُ إلى الدرْبِ طَوفي الذي أتشبّثُ بالحبْلِ منهُ،

لقد كدتُ أغرقُ في مَهْمَـهٍ من أزقـّـةِ باريسَ. ما قالَ لي أحدٌّ: مرحبـاً.

لم أجالسْ بمقهىً، صديقاً. و لا قالت امرأةٌ: كيف أنتَ؟ أمُرُّ على واجهاتِ المخابزِ، أستافُ رائحةَ الخبزِ. ثَمَّ تلالٌ من الجبْنِ. ثَمَّ شـــواءٌ وجـــابيـةٌ من نبيذ. لقدكدتُ أسقطُ جوعاً. قميصي تَهدّلَ. والبصَرُ الـمَحْـضُ غامَ.

وفي مثلِ معجزةٍ،

مثل ما كان يَحْدُثُ للأنبياءِ

أتتْني مع الظُّهرِ. . . آنُ التي هي مريمُ.

قالت: سلاماً.

أقِمْ ههنا

ادخُلْ

ولا تخف. . .

البيتُ بيتُكَ.

أرجوكَ:
فتّحْتُ بوّابةَ اللوحِ
طهّـرتُها بزجاجةِ ماءٍ من النهر. . .
فادخلْ!

لندن، ٢٠/٠٣/٢٠١٢

ليليّةٌ في ليلٍ عاصفٍ

أصخرةٌ في مهبّ الريحِ، أنتَ؟
إذاً
لأيّ معنىً تهبّ الريحُ؟
ربّتما أرادت الريحُ أن تنأى. . . وتهدأَ
أنتَ، اللحظةَ، الصمَدُ
والريحُ تعرفُ أن الصخرةَ احتفلتْ بعُسْرِها
فكأنّ الريحَ تُخْتضَـدُ. . .
تقولُ:
وحدَكَ
لا أهلٌ
ولا بلدُ،
وليس مَن تُغْمِضُ العينينِ إنْ دنتِ المنـيّـةُ.
أنت الواحدُ الأحدُ. . .
فاهدأْ
وكُنْ مثلَ ما أنتَ:
الطريقُ إلى بغدادَ أعقَدُ ممّا كنتَ تعتقدُ.

فاهدأْ

ودعْ طائرَ الليلِ الشحيحَ يقُلْ شيئاً؛

ودعْ ريحَ هذا الليلِ تـتّـئـدُ. . .

لندن، ٢٦/ ٠٤/ ٢٠١٢

الهاتـفُ يخـتـنـقُ

كانت تئِنُّ. . .

الصوتُ عبْرَ الهاتفِ المبحوحِ مختنقٌ.

وفي طرَفِ الحديقةِ، عند بابي، صفرةْ من كستناءَ عتيقةٍ.

في نبتةِ الزيتونِ، ثَـمَّ، براعمُ اخضرّت، وأتلعت الرؤوسَ بـخُضرةٍ صفراءَ

كالزيتونِ. . .

كان الصوتُ مختنقاً:

أُحِـبُّـكَ!

كيف غادرتَ المدينةَ، هائماً، في الفجرِ؟

كيفَ عرفتَ أن تصلَ المحطّةَ؟

ليس من تاكسي، هنا، في الفجرِ؟

لا عرباتِ خيلٍ

لا زوارقَ، بَعْدُ، في القنَواتِ. . .

كيفَ بلغْتَ مُنتبَذاً بلندنَ، قبلَ أن أصحوْ؟

أُحِبُّكَ!

أنت دوماً هكذا. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

هل تذكرُ البارَ القديمَ، هناك في باريسَ. . . حيثُ الشاحناتُ،
وسائقوها الأشقياءُ؟
ألم تغادرْ، فجأةً، كاليومِ؟
لكني أحبُّكَ.
أنتَ دوماً هكذا. . .

لندن، ٣٠/ ٠٤/ ٢٠١٢

مَن صبَرَ ظفَرَ....

أن تبلُغَ شقّةَ أوكتافيا
يعني أن تصعدَ سُلَّمَها الخشبَ الضيِّقَ
مثلَ سلالمَ تعرفُها في سفنِ الشحنِ. . .
وأن تصعدَ يعني أن تصمُدَ في وجه الكلبَينِ وإنْ كانا مرِحَينِ.
وأن تصعدَ يعني أن تتأكّدَ من أنكَ لن تتدحرجَ حتى الأسفلِ، من لوحٍ مكسورٍ. . .
هذا إنْ كنتَ بكاملِ صحوِكَ. . .
شقّةُ أوكتافيا
ليس بها غرُفاتٌ:
مركبةٌ لقطارٍ، شقّةُ أوكتافيا
معرضُ لوحاتٍ
وتماثيلَ
ومَكْدَسُ آياتٍ من مدنٍ شتّى. . .
لكنّ لأوكتافيا مائدةً قوراءَ، بها كأسانِ
وكرسيّانِ
ومضغةُ جُبْنٍ أبيضَ في خبزٍ أســـودَ.
والكلبانِ يدورانِ

ورُبّتَما اختطفا الجبنَ الأبيضَ في الخبزِ الأســـودِ. . .
أنت تقول لها: أوكتافيا!
أرجوكِ
دعي الكلبَينِ يدورانِ بعيداً. . .
أوكتافيا تبتسمُ:
يا سعدي أعرفُ مُـذْ كنّا في باريسَ حقيقةَ أنك لستَ سعيداً بثقافةِ كلْبٍ
والآنَ:
أمامكَ كلبان!

*

اصيرْ
سأجيئكَ بالويسكي!

لندن، ٠٧/٠٥/٢٠١٢

أبولِّيْنَير Apollinaire

كان «سوقُ البراغيثِ» يفتحُ أولى صناديقِهِ
ومغاربةٌ قدِموا قبلَ شهرٍ من «الريفِ» يفتتحون الضحى.
كان غيمٌ شفيفٌ يحاولُ أن يتكثّفَ أسودَ...
بردٌ خفيفٌ.
أقولُ لأوكتافيا:
ندخل الآنَ في البارِ
سوف يجيءُ المطرْ!
*
نحن في الركنِ...
في بغتةٍ، كان «سوق البراغيثِ» يَنقَعُ تحت المطرْ.
نحن في الركنِ، نستقبلُ الهاربين من المطرِ.
امرأةٌ جلستْ معنا.
قدّمتْ زوجَها الكهلَ.
*
كتّافيّةُ ضابطِ صَفٍّ من جيشٍ أحمرَ كانت في أعلى بيريّتِهِ.
*
كان «سوقُ البراغيثِ» يدخلُ في البارِ.

والكهلُ يدخُلُ في رشفةٍ من نبيذٍ
وأوكتافيا طلبتْ جبنةً ونبيذاً. . .
لقد كان أربعةٌ يدْفأون بعيداً عن السوق والقادمِ المغربيّ وأوصافِـهِ وبضاعتِهِ.
كان أربعةٌ يُنشِدون
كان في الركنِ:
جسرٌ
وماءٌ
وأبولينَيــر!

لندن، ٢٠١٢/٠٥/٠٨

الهــدوء

بعد أن مُرِّغتْ «عطلةُ المصرفيّين» في وحل أقداحِ بيرتِها
وخراءِ النساءِ الدميماتِ
والشاشةِ الكيلومترِ (الرياضيّةِ)...
الآنَ يهدأُ حتى اليمامُ.
وتهدأُ جـنّـيّـةُ الغابةِ.
الدربُ يهدأُ
والساحةُ العامّةُ.
الفتياتُ اللواتي فقدنَ مع العطلةِ الوثنيةِ عُذْريّـــةً، صرنَ يهدأْنَ أيضاً.
لقد هدأَ السامرُ
الإمبراطوريّةُ الوهمُ تهدأُ.
.....
.....
.....
إني أنام.

لندن، ٢٠١٢/٠٥/٠٨

بَـيــاضٌ

الـمرْجُ زهورٌ بِيضٌ
درْبُ الحيّ السّكنيّ الموحشِ (حيثُ أُقِيمُ) زهورٌ بيضٌ
سقفُ دفيئةِ جاري الأسكتلنديّ زهورٌ بيض
ساحتُنا الخـلْـفـيّةُ والبستان زهورٌ بيض
مَرقَى البيتِ زهورٌ بيض
فوق قميصي الورديّ زهورٌ بيض
وحذائي في الممشى ملأتْـهُ زهورٌ بيض
وعلى السيّاراتِ (كأنّ زواجَ الإسكندرِ حَلَّ) زهورٌ بيض
بابُ الحانةِ غطّـتْـهُ زهورٌ بيض
وعلى شَعري تاجٌ ضفَرَتْهُ زهورٌ بيض
وصديقتيَ النمساويّةُ تصنعُ (في الموسمِ) حلوى من زُبْدٍ وزهورٍ بيض
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لكنّ فراشـــي الباردَ
ليس به أيُّ زهورٍ بيض!

لندن، ١١/ ٠٥/ ٢٠١٢

اعتــذارٌ

مضى صيفُ القرنفلِ. . .
لا تَقُلْ لي: أجيءُ غداً إليكَ
وثَمَّ كأسٌ ستجمعُنا
وأسماكٌ
ونخلٌ.
ولا تلجأْ لسومرَ، والمراثي ببابلَ، والسوادِ. . .
إلخ
إلخ. . .
لا!
مضى صيفُ القرَنفُلِ
واستقرّتْ عميقاً وردةُ الزرنيخِ.
أبعِدْ
ولا تأتِ.
العراقُ الذي أحببتَ لم يَعُدِ.
العراقُ الذي أحببتُ لم يَعُدِ. . .
انتظرْنا

وانتظرْنا.

قد مضى صيفُ القرنفلِ

وانتهَينا...

لندن، ٢٣/ ٠٥/ ٢٠١٢

منظرٌ صباحيٌّ

في الغبْشـــةِ
كان ضَبابُ الغابةِ أبيضَ أزرقَ
والطيرُ بلا صوتٍ؛
ثـمّتَ، عند قناة الماءِ العظمى، تبدو أشباحُ مَراكبَ
خيطٌ من مدخنةٍ يتلوّى صُـعُـداً.
لا هجْسَ حفيفٍ من شجرٍ
لا رفّـةَ من أجنحةٍ أو أهدابٍ. . .
لَكأنَّ اللحظةَ جامدةٌ
وكأنَّ العالَمَ لم يتكوَّنْ بَعْدُ.

لندن، ٣٠/ ٠٥/ ٢٠١٢

أُحِبُّ النحيلةَ

أُحِبُ النحيلةَ
تلكَ التي تتثنّى،
وقد تنثني
مثلَ ما ينثني الخيزرانُ المبلّـلُ. . .
في اللحظةِ الصّعْبِ
في لحظةِ الـحُبِّ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
إني أحبُّ النحيلةَ
يا طالَ ما طوّقتْني بأرجوحة الخيزرانِ
بساقَينِ من قصبٍ سُكّرٍ
وبنهدَينِ لم يـبْـزُغا بَعْدُ. . .
إني أحبُّ النحيلةَ
إني أحبُّ الحياةْ!

لندن، ٣١/ ٠٥/ ٢٠١٢

رِضـــا

هل تريدين أن تعرفي بعضَ ما أنا فيهِ:

الزهورُ التي لستُ أعرفُ أسماءَها، وسماواتِها
والسماءُ التي لستُ أبصِرُ أزهارَها
والمروجُ التي تتمرّغُ فيها الخيولُ مجلّلةً بالقطيفةِ
والنسوةُ المغْرَماتُ بيومِ القيامةِ
والكنيسةُ حيثُ الصبيُّ الذي يتعهّدُ إيقادَ كلِ الشموعِ
بنصْفِ جُـنَـيْـهٍ،
أقولُ:
الحياةُ مبارَكةٌ
والدروبُ مبارَكةُ السَّعْيِ
حتى وإنْ لم تُـؤَدِّ. . .

لندن، ٣١/ ٠٥/ ٢٠١٢

بَــدَهِـيّــةٌ

لستُ الـمُـقـامرَ
أنت تعرفُني، طويلاً، من نخيلِ أبي الخصيبِ
إلى تمارينِ الصباحِ بـ «نقرة السلمانِ»...
حتى لندنَ... الآن!
انتبهْتَ؟
أريدُ أن تُصْغي إليّ الآنَ:
لم أكن المقامرَ
هكذا!
لكنني غامرتُ... كنتُ ولا أزالُ، هنا،
المغامرَ
لا الـمُقامرَ...
هل فهِمْتَ؟
عليكَ أن تُصْغي إليّ الآنَ!
واحفَظْ ما أقولُ
احفَظْ
نعمْ
عن ظَهرِ قلبٍ...

قُلْ لأهلي: بين دجلةَ والفراتِ، هنالكَ اسمٌ واحدٌ
هو ما ظللتُ لأجْلهِ، أبداً، أغامرُ
هو أوّلُ الأسماءِ
آخرُها
وأعظمُهـــــا،
وما يصِلُ الحمادةَ بالسماءِ:
هو **العراقُ** الأوّلُ **العربيّ**. . . .

لندن، ٢٠١٢/٠٦/٠٤

الكلامُ الكريهُ

كيف تنسى المساءَ الخريفيّ في حانةِ «الأسدِ الأحمرِ»؟
السنواتُ تمرُّ، ورُبّتَما نسيَ المرءُ
(أفهمُ ذلكَ)
لكنّ ما قـلـتُـهُ، يا رفيقيَ، ذاكَ المساءَ الخريفيّ
أثقلُ من أن يقولَ امرؤٌ:
كدتُ أنساهُ
أو أتناســاهُ. . .
في حانةِ «الأسدِ الأحمرِ» اللندنيةِ قلتُ:
العراقُ انتهى
منذُ أن قالَ أهلُ العراقِ، لـ «جورج بوش». . .
أنتَ الوليُّ
وأنتَ الفقيه
وأنت النبيُّ المسلّحُ تأخذنا خارجَ التيه؛
أقدِمْ!
أقِـمْ!
فالنساءُ اللواتي انتظرْنَ طويلاً، سباياك
غلمانُنا لجنودِكَ

والأرضُ لكْ
وما تكْنِزُ الأرضُ لكْ. . .
والفراتان ماءٌ لخيلِكَ
والله لكْ!
هكذا لن يدورَ الفلَكْ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
يا رفيقَ الضنى!
اليومَ
مرّتْ على جلسةِ «الأسدِ الأحمرِ» اللندنيةِ، عشْـرٌ. . .
نعم!
هل تذكّرتَ؟
لا!
هكذا لن يدورَ الفلَكْ!
هكذا، سأظلُّ أقولُ:
العراقُ انتهى!

لندن، ١٠/٠٧/٢٠١٢

حديقةُ الأميرة

أكنتُ أسيرُ في لاهاي؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

تأتي الأميرةُ من حديقتها:

صباحاً

صباح الخير أيتها الأميرةُ!

يا صباح الخير. . .

هل أنتِ ساسْكِيا، أم نَوارُ؟

وهل لنهرِ الفواغي منتهىً تحتَ الوشاحِ؟

أُحِبُّكِ

التفِتي، نوارُ، إليّ. . .

زوروني

وكوني

تماماً مثلَ ما تأتي الأميرةُ من حديقتِها

مســـاءاً

دناخ، ٢٢/٠٧/٢٠١٢

القُبْلــــةُ

في ليل لاهاي المبكِّرِ
قبلَ أن تمسي السماءُ سحابةً
قبّلتُ
عند الشارعِ الخلفيّ، جِيدَ نوارَ
كانت لِصْقَ جذعٍ
هكذا استندَتْ
وقد غمغمتُ:
أيُّ العطرِ هذا يا نوارُ؟
تقولُ، والشَّعرُ الكثيثُ يلفُّني، والعطرُ:
لا تسألْ!
أُغمغِمُ:

اتّرِكي الكلامَ. . .
أريدُ أن تتقطّرَ اللحَظاتُ
أن أرضى بأني كنتُ، مجنوناً، أقَبِّلُ جِيدَكِ
الشَّعرُ الكثيثُ يلفُّني

والعطرُ . . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

في مِثلِ الفُجاءةِ

والغباءِ

تحرّرتْ مني نوارُ . . .

وأطلقتْ سيّارةً للريحِ . . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

كان الشارعُ الخلفيّ مختلفاً

وكنتُ أسيرُ عبرَ مدينةٍ أخرى!

لاهاي، ٢٤/٠٧/٢٠١٢

غفلـةٌ

آهِ . . .
لا بُدَّ
أنّ الذي يتراءى، وما لا ترى:
مطرٌ.
غيرَ أنكَ في ظُلمةٍ، لا ترى.
أنتَ لستَ تُحِسُّ بما أرعشَ الشجرةْ
أنتَ لستَ تُحسُّ بما جعلَ الطيرَ يدخلُ في الشجرةْ.
مطرٌ لا يُرى
مطرٌ قد أحَسَّ به الطيرُ قبلكَ
والشجرةْ.

مطرٌ سوف يهطلُ في الليلِ
تحتَ المخدةِ
أغزرَ ممّا دعا الطيرَ أن يحتمي بدمِ الشجرةْ
. . . . . .
. . . . . .

. . . . . .

وهاأنتذا

مثلَ أعمى

ترى!

أمستردام، ١١/٠٨/٢٠١٢

في المقهى مع قهوة سوداء بلا سُكّر

مَن كان يعرفُ أنّ عُمقَ البحرِ مرساتي التي انجرفَتْ؟
أُفيقُ مُـدَوّخاً
لا تلكما العينانِ ثابتتانِ
لا الخُطُـواتُ تعرفُ أين تمضي. . .
والسماءُ كثيفةٌ،
مطرٌ
رصاصٌ باردٌ،
شفتانِ يابستانِ.
أحياناً، أفكِرُ أنّ أغنيتي الأثيرةَ:
أن أموتَ. . .
كما يموتُ الطحلبُ البحريُّ،
أخضرَ. . .
هل تظنّينَ الحياةَ كريمةً؟
أعني:
أحقٌّ أن تُعاشَ؟
لقد تعبْتُ. . .

فأصدِقيني القولَ، يا ميسون
أسْدي لي النصيحةَ:
هل أظلُّ مُرَنَّـــحاً بين ارتساماتِ النبوّةِ والجنون؟

أمستردام، ١٤/٠٨/٢٠١٢

لقد ضاقتْ بنازلةٍ ذراعي!

«أقِلِّي قد أضاقَ بُكاكِ ذرعي
وما ضاقتْ بنازلةٍ ذراعي»
أبو تمّام

لم تُعطِني مفتاحَ شقّتِها
و لا العنوانَ حتى. . .
ربّما خوفاً؟
تخافُ عليَّ. . .
أم منِّي؟
لقد خلّفتُ لندنَ، ثم باريسَ الضواحي
كي أُلامِسَ في يديها رقّةً نَدُرَتْ
وكي أحظى بمرآها تهرولُ نحو مَهوى الموجِ في بحر الشمالِ
وكي أقَبِّلَها ولو فوقَ الجبينِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
تعبتُ منها؛

من متاهتِها: الـمُطارِدِ والـمُطارَدِ. . .
بل تعبتُ من الكلامِ
من المجاملة التي تَزِنُ الحروفَ كأنّها ذهبٌ!
ومن سفَري تعبتُ
من المساءِ تعبتُ
من نفسي تعبْتُ!

لندن، ٢٥/٠٨/٢٠١٢

شمسٌ ساطعةٌ في أوائل أيلول

القطارُ يمرُّ على الجسرِ
عبْرَ القناةِ العريضةِ. . .
هذا القطارُ المجلجِلُ يمضي إلى حيثُ لا أعلَمُ.
الصبحُ يُشْمِسُ
أينَ القطارُ المُدَرَّعُ؟
أين البلاشفةُ الحالمون مع الصبحِ؟
أين البلاشفةُ الحاملون مع الصبحِ راياتِنا الحمرَ
فوقَ القطارِ المدَرَّعِ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كان القطارُ يمرُّ على الجسرِ
عبرَ القناةِ العريضةِ.
ينتصفُ اليومُ:
الساعة ١٢
حانَ موعدُ كأسِ الجـــعةْ

لندن، ٢٠١٢/٠٩/٠٤

إحدى وعشرون إطلاقةً متأخرةً لأدريان ريتش

سنواتٌ عشرٌ عجاف

نعم يا عزيزتي أدريان ريتش.

Brera Café

نعم يا عزيزتي، المقهى إيّاه حيث اعتدتُ أن ألقى أناساً قد لا يكونون أحبّةً، لكني ألتقيهم على أي حال، ليكونوا أحبّةً مع أنفسهم في الأقل.

في مقهى بريرا التقيتُكِ.

كنتِ أكرمَ من رأيتُ في هذا البلد الأمين.

أهديتِ لي كتابكِ

متضامنةً.

كان احتلالُ بلدي وشيكاً.

لكنكِ ملاكُ الحريّة. تضامنتِ معي، يا أدريان ريتش، بينما أبناءُ بلدي هنا، في لندن، وهناك في الأرض الأخرى، كانوا مولعين بشتمي لأني ضد احتلال بلدي من جانب الإدارة الأميركية. هم لايزالون يشتمونني يا أدريان ريتش لأني ضد الاحتلال. ومن بين

هؤلاء رفاقٌ لي لم يُسَمـوا الاحتلال احتلالاً حتى الآن.

ماذا أقول؟

القهوة التي شربناها كانت مُرّةً.

القهوة، قهوتنا، نحن المارقين، ستظلّ مُرّةً.

تذكّرتِ كولونتاي التي نفاها ستالين إلى سيبريا.

أنا الآن في المنفى.

أتعرفين يا أدريان ريتش أن لي في المنفى قرابة أربعين عاماً؟

رقمٌ قياسيّ؟

سارة ماغواير كانت معنا في المقهى.

كانت شاعرةً. هي الآن تشتغل في جامعة ذات سمعة. جامعة مثل جورج واشنطن التي تعرفينها جيداً.

عزيزتي أدريان ريتش

كنتِ في الحادية والعشرين حين اختاركِ أودن العظيم، لجائزة الشعراء الشباب، في جامعة ييل. بل أن الرجل كتبَ مقدمة ديوانكِ الأول!

لستُ أستعيدُكِ يا أدريان...

أنا أغنّيكِ

أغنّيكِ أيتها المرأةُ التي حرّرتْني من تفاهة الرجولة الرجولة .

سيظل طعمُ القهوة المُرّة في فمي.

طعمُ القهوة المـرّة سيظلّ في دمي.

لندن، ٢٠١٢/٠٩/٠٧

زمنٌ أميركيٌّ شـــماليٌّ

قصيدة لأدريان ريتش ١٩٢٩
١٦ أيّار- ٢٩ آذار ٢٠١٢
ترجمة سعدي يوسف

١

آنَ شرعتْ أحلامي تتبدّى
صحيحةً سياسيّاً
لا صوَراً مضطربةً
تَمْرُقُ عبرَ الحدود.
آنَ شرعتُ أمشي في الشارعِ
فأجد موضوعاتي جاهزةً لي
عارفةً ما لن أتحدثَ عنه
خوفَ أن يستخدمه الأعداءُ
بدأتُ أستغربُ.

٢

كل ما نكتبه
سوف يُستعمَلُ ضدّنا

أو ضدّ مَن نحبُّ.
ها هي ذي الشروط،
خذْها أو دعْها.
الشِّعرُ لا يَحتمِلُ إلاّ أن يكون خارج التاريخ.
بيتٌ مطبوعٌ قبل عشرين عاماً
سوف يتّقدُ على الجدار بالصبغ المرشوش
ليمجِّدَ الفنَّ سُمُوّاً
أو عذاباً لأولئك الذين لا نحبُّ
ولا نريدُ أن نقتلهم أيضاً.

نحن نمضي لكن كلماتنا تظلُّ
وتغدو مسؤولةً
أكثرَ ممّا قصَدْنا.

إن هذا لامتيازٌ في الكلام.

٣

جرِّبي أن تجلسي إلى آلةٍ كاتبةٍ
في أصيلٍ صيفيٍّ هادىء
إزاءَ طاولةٍ عند النافذة
في الريف، جرِّبي التظاهرَ

بأن زمنكِ غير موجود
وأنكِ، ببساطةٍ، أنتِ
و الخيال يشطحُ مثل فراشةٍ هائلةٍ، بلا مقصدٍ
جرِّبي أن تقولي لنفسكِ
إنكِ لستِ محاسَبةً
عن حياة قبيلتكِ
أو أنفاسِ كوكبكِ.

٤

لا يهمُّ بماذا تفكّرين
الكلماتُ توجَدُ مسؤولةً.
كلُ ما تستطعينه هو أن تختاريها
أو أن تختاري الصمتَ. أو أن ليس لكِ من خيارٍ آخر.
لهذا تكون الكلماتُ التي نختارُ
مسؤولةً.

إن هذا لامتيازٌ في الكلام.

٥

افترضي أنكِ ستكتبين
عن امرأةٍ تضفِرُ شَعرَ امرأةٍ أخرى –

مُسَرَّحاً إلى أسفل، أو بقواقعَ وخرَزٍ
في ضفائرَ ثلاثٍ مسترسلةٍ
أو في سنابل صفيفةٍ -
فإن عليكِ أن تعرفي الكثاثةَ
الطول النوع
لماذا تقرِّرُ أن تصففَ شَعرَها
وكيفَ كانَ
في أي بلدٍ
وماذا جرى أيضاً في ذاك البلد.

عليكِ أن تعرفي هذه الأشياء.

٦

يا شقيقتي، الشاعرة: الكلماتُ
أحببناها أو لم نُحببْها - تَشْخَصُ في زمنٍ لها.
لا جدوى من الاحتجاج كنتُ كتبتُ ذلك
قبلَ أن تُنفى كولونتاي
قبلَ أن يتمّ اغتيالُ روزا لكسمبورغ، مالكولْم
أنّا ماي أكواش
قبل تريبلينكا، بركناو
هيروشيما، قبل شارلفيل
بيافرا، بنغلادش، بوسطن

أتلانتا، سويتو، بيروت، آسام
تلك الوجوه، الأسماء والأماكن
جُزّت' من المفكّرة
في الزمن الأميركيّ الشماليّ.

الكسندرا كولونتاي ١٨٧٢-١٩٥٢ شخصية حكومية هامة في الفترة المبكرة للسلطة السوفييتية. نفاها ستالين إلى سيبريا.

مالكولم أكس١٩٢٥-١٩٦٥ مسلم أميركي أسود اغتيل في٢١ شباط .١٩٦٥ روزا لكسمبورغ ثورية ماركسية ومنظِّرة ١٨٧١-١٩١٩، ومن مؤسسي الحزب الشيوعي الألماني. قتلها الجنود البروسيون في ١٩١٩.

أنا ماي أكواش: شابّةٌ مدافعة عن الهنود الأميركيين، قُتلت بطلقة في مؤخرة الرأس، في العام ١٩٦٧

أوشويتز - بركناو، بلدة صغيرة في وسط بولندا. في المعسكر هناك قُتِل مليونان من اليهود والبولنديين على أيدي النازيين.

شارلفيل، بلدة في جنوب إفريقيا قرب جوهانسبرغ. في .١٩٦٠ قتلت الشرطة العنصرية ٧٠ متظاهراً. هيروشيما مدينة يابانية دمّرها الأميركيون بقنبلة نووية في آب ١٩٤٥.

اضطرابات حول الحافلات المختلطة حدثت في بوسطن أواسط السبعينيات. جمهورية بيافرا أعلنت في ٣٠ أيار ١٩٦٧ حركة تقسيمية راح ضحيتها مئات الآلاف. بنغلادش كانت في شرق باكستان حتى. ١٩٧١ كلّف استقلالها عن باكستان ٣ ملايين قتيل.

أسام ولاية في شمالي غرب الهند. حدثت فيها اضطرابات دموية بين الهندوس وأهل آسام في ١٩٥٩-١٩٦,.

٧

أنا أفكرُ بهذا في بلدٍ
تُسرَقُ الكلماتُ فيه من الأفواه
كما يُسرَقُ الخبزُ من الأفواه
في بلدٍ حيثُ الشعراءُ لا يذهبون إلى السجن لأنهم شعراء
بل لأنهم داكنو الوجوه، نساء، فقراء.
أنا أكتبُ هذا في زمنٍ
يمكنُ فيه أن يُستخدَم كلُ ما نكتبُ
ضد مَن نحبُّ.
حيث لا سياقَ
مع أننا نحاولُ أن نشرحَ، مراراً وتكراراً
من أجل الشِعر في الأقل
عليّ أن أعرفَ هذه الأشياء.

٨

أحياناً، وأنا أنزلقُ، ليلاً،
في طائرةٍ على نيويورك

أشعرُ كأنّ أحداً
يدعوني إلى مناجزة هذه الساحة من ضوء وعتمة.
فكرةٌ رائعةٌ

ولّدَها الطيَرانُ.
لكنْ تحت الفكرة الرائعة
فكرةُ أن ما كان عليّ أن أناجزَه قد ارتطمَ بالأرض المبلّطة
لقد صعدتُ درْجاتي العتيقة
وجلستُ عند نافذتي العتيقة.
وهاأنذا أنكسرُ، وأخلُدُ إلى الصمت.

٩

في أميركا الشمالية، يتعثّرُ الزمنُ
إنه لا يتحركُ
إنه يُطْلِقُ، فقط، ألَماً أميركيّاً شماليّاً.
جوليا دي بورغوس كتبتْ:
أحزنُ لأن جَدّي كان عبداً؛
لكني سأشعرُ بالعار لو كان سيّداً.
كلماتُ شاعرةٍ
عُلِقَتْ على بابٍ
في أميركا الشمالية، في العام
١٩٨٣.
القمر شبه المكتمل يطْـلُـعُ
ناطقاً أبديّاً للتغيير
خارج البرونكسْ

خارج نهر هارلم
خارج مدن الكوابين الغارقة
خارج المدافن المستباحة
والمـَناقع المسمومة، وميادين التجارب على الأسلحة.

أعودُ إلى الكلام.

١٩٨٣

جوليا دي بورغوس شاعرة وثورية من بورتو ريكو (١٩١٧-١٩٥٣) ماتت في شوارع مدينة نيويورك.

مدن الكوابين: خمس بلدات أُغرِقَتْ عند إنشاء سد في غربيّ ماساشوستس في ١٩٣٧.

A NORTON CRITICAL EDITION

ADRIENNE RICH'S POETRY AND PROSE

POEMS

PROSE

REVIEWS AND CRITICISM

Selected and Edited by

BARBARA CHARLESWORTH GELPI

ALBERT GELPI

STANFORD UNIVERSITY

For Saadi Yousef —
with admiration, in solidarity,
may we meet again —
Adrienne Rich
London, May 16 2002

W · W · NORTON & COMPANY · New York · London

إلى سعدي يوسف

مع المودّة

والتضامُن

ولْنلتقِ ثانيةً.

أدريان ريتش

لندن ١٦ أيّار ٢٠٠٢

ثلاث قصائد سُحاقيّــة

أدْرِيان رِيتشْ Adrienne Rich
ترجمة: سعدي يوسف

*

القصيدة الأولى

«على العموم فضّلت ريتش أن تجعل للقصائد السحاقية هذه، أرقاماً لا عناوين»

نائمتين
مثل أجرامٍ سماويّةٍ
تدور في مرْجِ منتصف الليل:
لمسةٌ واحدةٌ تكفينا لنعرفَ
أننا لسنا وحيدتَينِ في الكون، حتى في المنام:
تهاويلُ أحلامِ عالمَينِ
يرودانِ تهاويلَ بلداتهما، كأنهما تتخاطبان.
لكنّ لنا صوتينِ مختلفَينِ، حتى في المنام.
وجسدانا، متماثلان، لكنهما مختلفان
والماضي الذي يئزّ في عروقنا

محمّلٌ بلغةٍ مختلفةٍ، بمعانٍ مختلفةٍ -
مع أن أيّ سجلٍّ للعالَم الذي نقتسمه
سيُكتَب بمعنىً جديدٍ
نحن كنا عاشقينِ من جنسٍ واحدٍ
كنا امرأتَينِ من جيلٍ واحدٍ.

القصيدة الثانية

مهما حدثَ لنا،
سيظلّ جسدُكِ يسكنُ جسدي - رخيّاً، رقيقاً
وفِعْلُكِ الحـُبَّ، كالسعفةِ نصف المقوّسة
لسرخُسِ الغابةِ
الغسيلةِ توّاً بالشمسِ.
فخذاكِ المترحلتان، السخيّتان
اللتان جعلتُ وجهي كلّه، بينهما، مِراراً _
بَراءةُ وحكمةُ المكانِ الذي وجده لساني هناك -
الرقصةُ العنفوانُ العطشى، لحلمتَيكِ في فمي -
لَـمْستُكِ عليّ، قويّةً، حاميةً، تستخرجُني
لسانُكِ القويّ، وأناملُكِ الرقيقةُ
تبلغُ ما كنتُ أنتظرهُ منكِ، سنينَ، في كهفي الرطب مثل وردةٍ
ولْيكُنْ ما يكون.

القصيدة الثالثة

لو استلقيتُ معكِ على ذلك الشاطيء
أبيضَ، خالياً، ذا ماءٍ أخضرَ، صافٍ، دفّأهُ تيّارُ الخليجِ
لو استلقَينا على ذلك الساحل فلن نستطيع المكثَ
لأن الريح تدفع رملاً ناعماً علينا
كأننا ضدّها
أو كأنها ضدّنا
لو حاولْنا العنادَ وأخفقْنا –
لو ذهبنا بالسيارة إلى مكانٍ آخر
لننام بين ذراعَي بعضنا
وكان السريران ضيِّقَينِ مثل مَهاجع السجناءِ
وكنا متعبتَين، فلم ننمْ معاً
هذا ما وجدناه، وهذا ما فعلناه –
أكان ذلك ذنْـبَنا؟
إنْ تشبثتُ بالظروف فبإمكاني الشعورُ بانني لستُ مسؤولةً.
فقط، تلك التي تقول إنها لم تخترْ
هي الخاسرة في نهاية الأمر.

رَبِّ هَـبْني جناحَكَ

يا أيّـها الوزُّ المهاجرُ للجنوبِ،
لأيّ حُلْمٍ أنتَ تمضي؟
ربّما أضناكَ هذا القَرُّ، مثلي، في متاهاتِ الشمالِ البربريّ
وفي صحارى الماءِ والغاباتِ
أعرفُ، أيّها الوزُّ المـُهاجرُ، أنّ في دمنا حنيناً سائلاً
أنّ الفضاءَ يضيقُ إنْ لم ينتفضْ ريشُ الجناحِ
وأنّ ما نعتادُهُ سيكون مَقتلَنا. . .
وأعرفُ أننا، يا أيّها الوزُّ المُهاجرُ، قد نموتُ بطلْقةٍ عمياءَ
لكنْ، يا طليقَ الروحِ، ليس لنا سوى أن نهتدي بالنجمِ والأنواءِ
ليس لنا سوى الحـُلمِ الذي قد لايكونُ الـحُلمَ. . .
مَن يدري؟
لقد ضاقَ الفضاءُ
وضاقت الدنيا بما رَحُبَتْ. . .
سلاماً أيها الوزُّ المهاجرُ!
كم نبيٍّ، قبلنا، قد حاورَ المسعى!
سلاماً. . .

٢٠١٢/٠٩/٢٤

ليليّــةٌ Nocturne

أمضَيتُ ليلي أسمعُ المطرَ. المياهُ تدقُّ ألواحَ الزجاجِ. تكادُ تدخلُ. آهِ لو دخلتْ!

لقد غرقتْ شُجيراتُ الحديقةِ. والسناجبُ تختفي في الليل. ثَمَّ عواءُ ذئبٍ! ربما. . .

لو كنتِ عندي لاكتفَيتُ بما تجودينَ: الدعابةِ والأغاني والطفولةِ في الجنوبِ.

فكيفَ أُمضي الليلَ؟ أدري أنّ ألواحَ الزجاجِ ثخينةٌ. لن يدخلَ المطرُ المزمجرُ؛

غيرَ أنكِ تدخلين!

*

والريحُ؟ كنتُ أرى الصنوبرَ مائلاً، والكستناءَ الدّوحَ يَهدُرُ، والسياجَ يكادُ يئنُّ.

يا ما طوّحتْ بي الريحُ! يا ما ورّطتْني في معاركَ لا أرى أُفُقاً بها. يا ما انجرفتُ لأنني أهوى هواءَ الإنجراف! الآنَ أشعرُ أن عُقدةَ محبِسي أمستْ تضيقُ، وأن هذي الغرفةَ العليا بلندنَ. . . طوفيَ المفتوحُ. هُبّي يا رياحُ، وطَوِّحي بي في مهَبِّ البحرِ. . .

حيثُ الإنجراف!

*

مَن يوقدُ النيرانَ في الليلِ؟ النثيثُ ووافدُ الطّلِّ استباحا نارَ حطّابينَ مرتــعِدينَ برداً.

لم يَعُدْ في الغابةِ السوداءِ حطّابونَ. لكني أرى النيرانَ تتّقدُ! الظلامُ الـمُطْبِقُ انكسرَ.

الحديقةُ أقبلَتْ. من أين تلكَ النارُ؟ أهيَ قواربُ السكنى؟ اليراعاتُ المضيئةُ؟ أهْـيَ

ما أذكتْ قِلادتُكِ الطويلةُ مثلَ جِيدِكِ؟ لستُ أهذي... أنتِ واقفةٌ هنالك في الحديقةِ.

أنتِ ناري!

*

قد كنتُ ألتهمُ الترابَ. الطفلُ يلتهمُ الترابَ. ملاعقٌ ذهبٌ ترابُكَ أيها الطفلُ الفقيرُ.

فما تقولُ الآنَ؟

أنتَ هنا، كأنك لم تغادرْ أغنياتِ أبي الخصيبِ!

ترابُكَ الـتِـبْـرُ الـمُـعَـفّـرُ بالروائحِ من أعالي النخلِ، والسمكِ الـمُـهاجرِ في الربيعِ. أتبصرُ الفجرَ؟ انتبِهْ!

هي ساحةُ المبنى وقد غُسِلَت، طويلاً، بالنثيثِ ووافدِ الطلِّ. المماشي لا ترابَ بها...

وداعاً!

لندن، ١٧/ ١٠/ ٢٠١٢

غرفة الاستقبال

قالت: سأنام هنا، في هذي الغرفةِ. . .
(كانت عائدةً من سفرٍ لتظلَّ معي أيّاماً)
قلتُ لها: البيتُ لكِ
اختارِي أيَّ مكانٍ منه مبيتاً.
قالت: لن تزعلَ مني؟
قلتُ: وهل أنا إلاّ أنتِ؟
البيتُ صغيرٌ
والغرفةُ صُغرى، لكنكِ سوف تنامين وأحلامَكِ
سوف تنامين وأحلامي؛
سننامُ معاً، معتنقَينِ، وإنْ كنّا في غُرُفاتٍ مختلفاتٍ!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كانت تلك الليلةُ باردةً
والثلجُ نديفٌ يتألّقُ بلّوراً فسفوريّاً في الأشجارِ.
دخلتُ إلى الغرفةِ حيث تنامُ، مُنَعّمةً كالطفلِ
وألقَيتُ عليها مُطْرَفَ صوفٍ من مرّاكشَ. . .

لم تتحرّكْ
لكنّ الوجنةَ صارت تتورّدُ.
كنتُ سعيداً.

لندن، ١٨/ ١٠/ ٢٠١٢

مطار هيثرو – المحطة الخامسة
Heathrow Airport - Terminal 5

لقد كان ذاك الصباحُ المـبكِّرُ محتدِماً:
هي راحلةٌ نحو عاصمةٍ عند بحرِ الشمالِ
وأنا، الـغِـرَّ، أدخلُ شيئاً فشيئاً، إلى عُمْقِ قوقعتي...
مطرٌ ورياحٌ ترافقُنا.
كان سائقُ سيّارةِ الأجرةِ، الجهمُ، ممتقعاً
(هوَ من أسفلِ الهندِ)
كاد الطريقُ يغيبُ...

*

لم أعرفْ لماذا الصمتُ؟
لم تنطقْ.
ولم أنطقْ...
كأني لستُ أقدرُ أن أُوَدِّعَها.

*

لقد أفنَيتُ عُمري في الطريقِ إلى المطاراتِ العجيبةِ
غير أني الآنَ أفقدُ أيَّ إحساسٍ؛
وأيّةَ وجهةٍ...

والسائقُ الهنديُّ يمضي.
أين يمضي بي؟
بها؟
*
كان الطريقُ يغيمُ
كان يغيبُ...
قالت لي صديقتيَ التي ستكونُ في بيتٍ على بحر الشمالِ:
أراكَ تبكي!

لندن، ٢١/١٠/٢٠١٢

شُجيرة الرند

شجيرةُ الرندِ في أقصى الحديقةِ مأوىً للندى وحَمامِ الدغْلِ.
كنتُ أرى، من حولِها، قططاً مثلَ النمورِ، أرى مِن حولها ريشَ عصفورٍ تناثرَ. شيئاً من بقايا صيوفٍ: علبةً فرِغَتْ من بيرةٍ. سِيخَ مَشْوىً. فحمةً...
وأرى شُجيرةَ الرندِ
بيتاً أستكنُّ له في الحلمِ؛
بيتاً، له، أبداً، بابٌ ومئذنةٌ، ونَمْرَقٌ.
قد تضيقُ الأرضُ بي
حسناً
لقد ألِفْتُ مقامَ الضِيقِ!
غير أنّ فتىً، مثلي، له خيطُ مَنْجاةٍ
له شَـبَـهٌ:
شُجيرةُ الرندِ في أقصى الحديقةِ...

لندن، ٣٠/ ١٠/ ٢٠١٢

الشتاءُ يختلفُ

منذُ عامَينِ لم يدخل الوردُ بيتي، لتأتلقَ المائدةْ
لم أضعْ شمعةً للعشاءِ تضيءُ النبيذَ
ووجهَ التي أستلذُّ ابتسامتَها وهي تبدأُ من لمعةِ العينِ. . .
عامانِ مَـرّا
ولم أسترِحْ في مدارٍ
ولا في سِفارٍ،
ولم أستسِغْ أن أقولَ لكأسٍ: سأشربُ حتى الثمالةِ.
حتى الهواءُ الذي أتنفّسُ قد صارَ مُـرّاً.
فهل وهنَ العظمُ مني؟
هل اشتعلَ الرأسُ شَيباً. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أفِقْ يا بُـنَـيّ!
أفِقْ
واستَرِدَّ التي لن تغادرَ، عبرَ السنين العجيباتِ:
تلكَ الحماقةَ. . .

قُمْ، هاتِ وردَكَ!
أوقِدْ شموعكَ. . .
ولْـتُرْهِفِ السمعَ:
ها هي ذي مَن تُحِبُّ تدقُّ على الباب!

لندن، ٠٥/١١/٢٠١٢

حمدان الســاحر

حمدانُ الساحرُ، أجملُ مَن غنّى أغنيةً ما بين النهرَينِ
وحمدان الساحرُ (لا أحدٌ)
سَمّى حمدانَ الساحرَ، حمدانَ الساحرْ!
ولهذا سيكونُ لـهُ، ما كانَ لـهُ:
دشداشتُه السوداءُ
وأغنيةُ الطرُقاتِ. . .
وحمدانُ الساحرُ كان جميلاً
كانت دشداشتُهُ السوداءُ تَرِفُّ على الدربِ الـمُـترِبِ بيضاءَ
ترِفُّ على الدربِ الـمُـتْرِب غصناً ذهباً
وبَخوراً؛
وتقول:
مرْكَبْ هوانا
من البصرةْ جانا. . .
حمدانُ الساحرُ
يمضي في الطرُقاتِ، خفيفاً، أبداً
(يشبه حمدانَ الساحر)

أمّا نحن الأوباش
فلن نذكرَ من حمدانَ الساحرِ
إلاّ دشداشتَه. . .
سوداء!

لندن، ٠٩/ ١١/ ٢٠١٢

وَعْدُ اللّه

(هو وعد الله يحـيى النجّار)

في «نُقرةِ السلمانِ» كان الماءُ يأتي بالصهاريجِ الصديئةِ، عبرَ باديةِ السماوةِ
(نحن كنّا، آنَها، سجناءَ)
كانت «نقرةُ السلمانِ» مأوىً للذئابِ وللشيوعيّينَ
أعلاها، وأعلى العرشَ، والجيشَ، انجليزيٌّ
وقالَ: هنا يموتُ الرِّفْقةُ السجناءُ من ظمأٍ. . .
وقد ماتوا
بمذأبةِ الهروبِ. . .
لقد ماتوا، ولم يذكرهمو أحدٌ
رفاقٌ جذوةٌ، ماتوا، ولم يذكرهمو أحدٌ
ولكني سأذكرُ واحداً
إني سأذكرُ، في الشتاءِ اللندنيّ الـمُرِّ، وعدَ الله!
وعدُ الله كان فتىً
فتى الفتيانِ كانَ. . . أتتْ به الريحُ الذميمةُ من خريفِ الـمَوصلِ

المحكومُ بالإعدام، وعدُ الله، كان مكلَّفاً أمرَ السقايةِ
كان، مثل الربِّ، يأتينا بماءِ مستساغٍ من صهاريجِ الحكومةِ. . .
كان أصغرَ من شيوعيٍّ
وأكبرَ من شيوعيّي تَبارَكَ. قد سمِعْ
قد كان «وعدُ اللّه» وعدَ الـحقِّ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

وعدُ الله، في الفجر البهيمِ، مضَوا بهِ
من نقرة السلمانِ
مخترقين باديةَ السماوةِ
خِلْسةً:

شنقوه في بغداد!

لندن، ١٤/ ١١/ ٢٠١٢

غـزّةُ هاشـم

أتظلُّ، غزّةُ هاشمٍ، كالوحيِ، غزّةَ هاشمٍ؟
ستظلُّ!
أعرفُ أنّ صاروخَ القيامةِ سوف يُطْلَقُ. . .
سوف نسمعُ في المخابيء، صوتَـه، إذ يقطعُ الأنفاسَ
سوف نقولُ:
نحنُ، بقيّةُ السيفِ. . .
العلامةُ نحنُ
والرؤيا.
وغزّةُ هاشمٍ، ستظلُّ، مثل الوحيِ، غزّةَ هاشمٍ
يا رِفقتي في الرملةِ البيضاءِ
في الشققِ المهدّدةِ
الـمَشافي، حيث يُحتضَرُ المصابونَ
الشوارعِ وهي مقفرةٌ،
سلاماً. . .

لندن، ١٧/ ١١/ ٢٠١٢

سأظلُّ مشتاقاً

سأظلُّ مشتاقاً إليكِ، وأنتِ في المقهى معي تتمطّقينَ الشايَ
رافضةً نبيذي.
سأظلُّ مشتاقاً إليكِ وأنتِ سارحةٌ مع الحاسوبِ بعد رسالتي...
سأظلُّ مشتاقاً إليكِ وأنتِ هابطةٌ من المترو.
سأظلُّ مشتاقاً إليكِ وأنتِ في هيثرو...
سأظلُّ مشتاقاً إليكِ وأنتِ حائرةٌ بشَعرِكِ: كيف ينشَفُ بغتةً.
سأظلُّ مشتاقاً وأنتِ بعيدةٌ
سأظلُّ مشتاقاً وأنتِ قريبةٌ
سأظلُّ مشتاقاً إليكِ وأنتِ في حِضني
سأظلُّ مشتاقاً وأنتِ معي على متنِ الفراشِ...
أظلُّ مشتاقاً إليكِ، ونحنُ في عمليّةِ الحبِّ...

لندن، ١٨/ ١١/ ٢٠١٢

المدينة المُحرّمة

مُتمتِمةً عبرَ العناكبِ، حُرّةً، وخجلى، تناديني:
أكونُ عشيّةً هناكَ
فلا تهتِفْ!
مدينةُ أولادي هناكَ
فلا تجيءْ إليّ...
ولا تهتِفْ!
ألا لا، ألا إلاّ، ألا لا، ألا ألا...
ألا إن مَن أهوى هناكَ...
تقولُ لي:
مدينةُ أولادي!
ومَنْ قالَ إنها مُحرَّمةٌ تلك المدينةُ؟
سوف آخذُ القطارَ إليها...
لا تخافي!
سأكتفي بكأسِ نبيذٍ في المحطّةِ.
إنني أُحبُّكِ...

لندن، ٢٣/ ١١/ ٢٠١٢

ما نسجَ العنكبوتُ

أنا أجلسُ عند الشبّاكِ المفتوحِ قليلاً
لأدخِّنَ . . .
أعتمت الدنيا (كنّا في السادسةِ).
صدَقَ العرّافونَ:
المطرُ الصامتُ ينهمرُ.
لكني أسمعُ . . .
ماذا؟
أغصاناً تتقصّفُ؟
ممشى غزلانِ الغابةِ؟
خرخشةً لثعالبَ؟
أهوَ الوبْلُ المتدافعُ في الريحِ الليليّةِ؟
أجلسُ عند الشبّاكِ المفتوحِ قليلاً . . .
أشهَدُ معجزةً:
كان الوشَعُ اللامرئيُّ، الـمُرخى بزجاج الشبّاكِ، يشِعُّ
الوشَعُ اللامرئيُّ يشِعُّ، متيناً، بلّوراً . . .
أيُّ عناكبَ ظلّتْ تنسجُ هذا البلّورَ؟
لأيّ نبيٍّ كانت تنسجُ هذا البلّورَ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أنا أجلسُ عند الشبّاكِ المفتوحِ قليلاً
لأُدَخِّنَ.

لندن، ٢٥/ ١١/ ٢٠١٢

تمـتـمـةُ الشتــاء

هل يهبطُ الليلُ الطويلُ، عليَّ، أطولَ؟
بعدَ أن رحلتْ؟
لقد طارت إلى أقصى الشمالِ
هنالكَ
حيثُ قريتُها،
وحيثُ يئنُّ صيّادون قد هبطوا مع الأسماكِ حتى القاعِ
وانتظروا القيامةَ. . .
ربّما قالتْ: سيذكرُني!
ورُبّـتَما انتهتْ من وحشةِ الممشى على القنَواتِ
أو في غابةِ الكافورِ. . .
لم تأتِ الغزالةُ، بَعْدُ، خلفَ الحاجزِ الخشبِ
السناجبُ تختفي
والخضرةُ الـمُثلى
ويهجرُني حَمامُ الدّغْلِ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

لن أمضي إلى أقصى الشمالِ
ولن
ولن
فلْيهبطِ الليلُ الطويل!

لندن، ٠٩/١٢/٢٠١٢

ليس على العاشقة حرَجٌ

قالت (وكان الصوتُ عبرَ الهاتفِ المحمولِ مرتجفاً):
أريدُكَ أن تجيبَ صراحةً!
ما الأمرُ؟
قالتْ: إن أتيتُ إليكَ...
إنْ يـمّـمْتُ بيتَكَ في الضواحي ذاتَ يومٍ
أو مساءٍ غامضِ الأغصانِ مثلكَ،
هل تنامُ معي؟
أقولُ: سيّدتي الجميلةَ
لن أكونَ مؤدَّباً إن قلتُ: لا!
مَن يرفضُ الوردَ الـمُـفَـتّـحَ؟
مَن يقولُ لِـمُزْنةٍ هطلتْ: كفى!
مَنْ يمنعُ الغِزلانَ؟
والماعونَ...
مَن لا يفرشُ الريحانَ تحتَ المرمرِ العاري؟
أريدُكِ
هكذا...
لا تسألي، أرجوكِ، ثانيةً؛
تعالي!

لندن، ٢٠١٢/١٢/٠٩

الجميلةُ والإخطبوط

قد تعَرَّفْتُ، يوماً، بلاهاي. . . فاتنةً تعشقُ الإخطبوط
لا لتأكلَهُ
مثلَ ما يفعلُ الناسُ في بحرِ إيجةَ،
لكنْ ليأكلَها الإخطبوط!

*

وهيَ، كلَ صباحٍ تُطَرّي محاسنَها
وتُمَسِّدُ جبهتَها من تجاعيدَ ليستْ تُرى،
ثم تختارُ ثوباً يليقُ
وتمضي إلى مكتبٍ باردٍ
متلهِّفةً
وهي تنتظرُ اللحظةَ الذهبيّةَ
لحظةَ يفتضُّ جَرَّتَها العسلَ. . . الإخطبوط!

لندن، ١٢/١٢/٢٠١٢

الشيخُ الأخضرُ

في بار «الشيخِ الأخضرِ»
أي في:
Ald Greene Mann
(إنجليزيةٌ من زمانٍ قبل سيّدنا شكسبير)
في هذا البار الماثلِ بين تقاطُعِ (نورث وود و هَيرفيلد)
Northwood and Harefield
أجلسُ (أحياناً) مع أندريا. . .
نتحدّثُ
أو نتناولُ كأساً.
ثم نغادرُ:
كلٌّ يمضي نحوَ الزنزانةِ تلكَ. . . البيتِ الشخصيّ؛
لم يكن الأمرُ، كما أبْسِطُهُ لكَ، أو لكِ، هذا اليومَ؛
لقد كنا عشّاقاً!
ولقد طوّفْنا العالَمَ، حُرّينِ، شيوعيّينِ،
نغنّي،
ونناضلُ
لكنّا في الليلِ، نكون على الفَرْشةِ، بوهيميّينِ.
*

أندريا هجرتْني
وأنا أمسيتُ، سعيداً، بين ذراعَي أُخرى.
عجباً!
لِمَ أحكي لكَ؟
بل أنا لا أعرفُكَ...
فلماذا أحكي لكَ؟
*
قالوا: حسناً!
حسناً...
كانت أندريا شاحبةً، وهي تواجهُني عبر المائدةِ.
الجوعُ؟
أكيداً...
كنتُ أُمازحُها دوماً، وأقولُ: كأنكِ ذئبٌ يتضوّرُ جوعاً!
لكن شحوبَ الجلسةِ هذي ما كان شحوبَ الجوعِ.
لقد كانت تعرفُ أني سأسافرُ
تعرفُ أني سأسافرُ نحو بلادٍ أخرى
نحو امرأةٍ أخرى...
.....
.....
.....
كان نبيذُ الشيلي الأحمرُ مُرّاً.

لندن، ١٢/١٢/٢٠١٢

نفسٌ مُطمئـنّـةٌ

تسمعُ الريحَ؟
هل تسمعُ الريحَ؟
هل تسمعُ الريحَ تَجْأرُ؟
هل تسمعُ الريحَ تجأرُ بين الصنوبرِ والسنديانِ؟
لقد بدأ التلُّ يبدو لعينيكَ أبعدَ
أجردَ،
ما عدتَ من مطرٍ صائتٍ تَـتَـبَـيّـنُـهُ
أنتَ تبحثُ عن ذلكَ التلِّ
والتلُّ ذكرى من الصيفِ،
ذكرى تسَـلُّـقِـهِ مع مَن كنتَ تهوى
(أكانت تُـغَـنّي؟)
الكنيسةُ في القاعِ
والعوسجُ المتناثرُ في القمّـةِ. . .
القلبُ ينبضُ،
تسمعُ ناقوسَ تلكَ الكنيسةِ كالصنجِ
قلبُكَ ينبضُ كالصنجِ.
أنت وراء الزجاجِ

فهل تسمعُ الريحَ؟

. . . . . .

. . . . . .

نبْضُكَ يخفتُ حتى كأنك أغمضتَ عينيكَ

مستسلماً للطبيعةِ،

منتظِراً أن تموت. . .

لندن، ١٤/ ١٢/ ٢٠١٢

محاولةُ تثبيتٍ

أوراقٌ باقيةٌ في الغصنِ العاري
تخفقُ مثل عصافيرَ من المعْدِنِ،
حولي:
زمنٌ رطْبٌ
وضُحىً أبيضُ
عشبٌ أبيضُ
حتى لكأنّ مياهاً ثابتةً تكســو الغابةَ والأفقَ الأبعدَ.
لا ريحَ
ولا نسمةَ
لا نأمةَ...
هل ينفجرُ الكونُ إذا انطلقتْ صيحةُ طيرٍ؟
هل أتحسّسُ صُدغي...

لندن، ١٩/١٢/٢٠١٢

المرفأ

غسَقٌ،
ساحةُ الحيّ مقفرةٌ
غير أنّ المطرْ
والمصابيحَ
مدّتْ شــآبيبَ، ساطعةً، تتوازى
على الساحةِ المقفرةْ.
مرفأٌ يولَدُ الآنَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هل حانَ وقتُ السفرْ؟

لندن، ١٩/ ١٢/ ٢٠١٢

الشيوعيّ الأخيرُ يَـتمازَحُ

كان الشيوعيُّ الأخيرُ، مُوَلَّـهاً!
أمضى ثلاثةَ أشهُرٍ
ما بينَ قريتِهِ بلندنَ، والضواحي من أمستردامَ. . .
وهو يُطاردُ الغزلانَ؛
كان يظنُّ أنّ الـحُبَّ يأتي من سماءِ الصيفِ!
كم هوَ ساذَجٌ!
كم من قطارٍ فاتهُ في الإنتظارِ
وكم قوافلَ أو جآذرَ غادرتْ حتى اختفتْ في الرملِ
أو عند الشـــواطيءِ. . .
قلتُ:
صبراً، يا رفيقي
أيُّها الـمُـسْـمى شيوعيّاً أخيراً. . .
كُنْ، كعهدِكَ، صامداً!
ما نفْعُ أن تشكو إذا نابتْكَ نائبةٌ؟
أفِقْ
وادخُلْ، بكل أناقةٍ، في البهوِ
وانظُرْ نحوَ سُـلَّـمِـهِ الذي في الرُّكْنِ؛

وادعَكْ قِرطَكَ الفضّيَّ:

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

سوف تجيء مَن تهوى!

لندن، ٢٠/١٢/٢٠١٢

تنويعاتُ النبتة المنزليّة

بَعدَها
بعدَ تلكَ التي كنتُ سمَّيتُها
أوّلاً،
أقصدُ: النبتةَ المنزليّةَ. . .
أمسيتُ ذا أربعٍ:
نبتةٌ عند زاويةِ البارِ.
أُخرى تُفَضِّلُ أن تتفتّحَ في غرفةِ النومِ.
ثالثةٌ تتألّقُ في شُرفتي وهي تستقبلُ الشمسَ.
رابعةٌ تومِيءُ الآنَ، مُتْرَفةً، من أصيلِ الحِجازِ.
ولكنني أحفظُ العهدَ
أحفظُ أنّ التي كانت النبتةَ المنزليّةَ
سوف تظلُّ (كما كانت) النبتةَ المنزليّةَ
تلك التي كنتُ سـمَّـيْـتُـها
أوّلاً!

لندن، ٢١/١٢/٢٠١٢

صديقتي التي كانت شيوعيّةً في البصرةِ

تقولُ مَن كنتُ أردتُ أن تصحبَني في رِحْلتي الآنَ:
ولكنّكَ، يا سعدي، بلا بيتٍ!
أجـبْـتُها: لكنّ لي سقفاً...
ولي بيتٌ بهِ بابٌ
به غرفةُ نومْ
و به مكتبةٌ مُثلى
وما أستقبلُ الناسَ بهِ: بيتُ معيشةٍ؛
بل إنني ألمحُ من شُرفتهِ الغابةَ والبحيرةَ الكبرى...
أنا شيوعيٌّ
ولا أريدُ أن أملِكَ.
مَنْ يملِكْ يكُنْ عبداً لِما يملِكُ...
.....
.....
.....
هل أسألُكِ الآنَ:
أما كنتِ، الشيوعيّةَ، في البصرةِ؟
قولي...
ما الذي غيَّرَكِ اليومَ إذاً؟

لندن، ٢١/١٢/٢٠١٢

عشيّةُ الميلاد

ويقولُ بدْرٌ:
مريمُ العذراءُ. . .
«تاجُ وليدِكِ الأنوارُ لا الذهبُ»
ولكني هنا، في لندن الكبرى
مع المذياع والـمِـشوافِ، يا بدرُ العزيزُ
يَـؤودُني الذهبُ؛
لا مريمُ العذراءُ تحت النخلةِ الفَرعاءِ
لا الطفلُ الإلهيُّ. . .
المدينةُ، سيّدي، عطَبُ.
عذارى!
ربما، من بعدِ عشرينَ افتراشاً!
أيَّ طفلٍ نحنُ ننتظرُ؟
المسيحُ مضى، كما تمضي الأغاني دائماً. . .
صلَبوهُ
أو قالوا لنا: اخترَعوهُ من بُرْديّةٍ. . .
والآنَ
في الميلاد

عند عشيّة الميلادِ
تنفتحُ المخازنُ:
ليلُنا ذهبُ!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سلاماً، بدرُ
وحدَكَ قلتَ:
«تاجُ وليدِكِ الأنوارُ لا الذهبُ»

لندن، ٢٢/١٢/٢٠١٢

من أهازيجِ أطفالِ البصرة

الحندقوقةُ في الرَبيّـةْ
قطَّعوا شَعرَ الـبُنـيّةْ

قد قطّعوا شَعرَ البُنيّةِ، هم أتَوا، غربانَ يومٍ للقيامةِ
هم أتَوا بطُيورِ فولاذٍ، بسِجِّيلٍ تحَدَّرَ من جهنّمَ. . .
هم أتَوا بعمائرٍ تسعى وتَسحَقُ. سَمِّها دبّـابـةً
و أبو الخصيبِ ينامُ أخضرَ. قطّعوا شَعرَ البُنَيّـةْ.

الحندقوقةُ في الرَبيّـةْ
قطّعوا ثوبَ البُـنَـيّـةْ

كان العراقُ مع القطارِ. الخطُّ يحملُنا ونحملُـهُ، بطـيئاً
واثقاً. كان القطارُ يُجرجِرُ العرباتِ، واحدةً فأُخـرى.
نحن كنّا أُمّةً. بل نحن كنّا الجِنَّ. ما كنّا ذئاباً. بل أكادُ
أقولُ: كنّا نُشبِهُ الحِملانَ. يحملُنا قطارٌ واحدٌ وغدٌ بعيدُ.

الحندقوقـــةُ في الرَبيــّةْ
قطّعوا كُسَّ البُــنَــيّــةْ

لكنّهم جاؤوا. لقد جاءَ الغزاةُ. وجاءَ من تكساسَ وغـدٌ.
سَمِّهِ جورِج بوش، أوباما، إلى أن صارَ، قبلَ دمي، عراقيّاً
إلى أن صارَ عمّي... أنتَ تعرفُ: إنها أمّي. وهاأنذا أطوفُ.
كأن بُلدان اللجوءِ، البصرةُ الأولى....

لندن، ٢٣/ ١٢/ ٢٠١٢

---

* الأهزوجة الأصلية التي أحفظُها منذ طفولتي تقول: حندقوقة بالربيّة. قطّعوا كُسّ البنَيّة.

تعويض

الطيورُ اختفتْ
فلا حِدَأٌ تهفو على القمّةِ البعيدةِ
لا مِن يمامةٍ
كانت الريحُ شماليّةً، وثلجٌ قريبٌ
في الشميمِ.
انتبهتُ
كانت ثلاثٌ ورَقاتٌ مثل الهشيمِ يُـحَـلِّقْنَ
و يَـمْـرُقْنَ...
السماءُ احتفَتْ:
أهُنَّ الطيورُ؟

لندن، ٢٧/١٢/٢٠١٢

تَناسُخُ أرواحٍ؟

إنه المغربيّ
إنه المغربيُّ محمّد
إنه المغربيُّ محمّدُ بو العيشِ
إنه المغربيُّ محمّدُ بو العيشِ من طنجةَ
المغربيُّ محمّدُ سمّى ابنَه، عامَ ألفَينِ ٢٠٠٠:
سعدي يوسف!
ما الذي أفعلُ الآنَ؟
إنْ جئتُ طنجةَ (دعْني أقُلْ بعد شهرَينِ)
كيف سألقى الفتى سعدي يوسف؟
أهذا الفتى المغربيُّ... أنا؟
هل أنا، سعدي يوسف، هذا الفتى المغربيُّ؟
هدوءاً!
سأدعوه كي نتعرَّفَ:
في البرغولا؟
عند مَدام بورت؟
في حانة دْرِيس علّوش (أعني البريد)؟
أنمضي إلى «قلبِ طنجةَ»؟

أم نكتفي بالمقاهي التي عند «سوق الـمُـصَـلّى»؟
قد تكونُ هيَ، الخيرَ، خطَّ حيادٍ. . .
فليس من السهلِ أن تعرفَ، الآنَ، أيَّ فتىً مغربيٍّ، ستلقى!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ولكنني واثقٌ أنني سوف ألقى هنا
أو هنالكَ
أو هاهُنا:
سعدي يوسف!

لندن، ٢٨/ ١٢/ ٢٠١٢

معجزةُ مَطْلعِ ٢٠١٣

إنني أتشاءمُ، مثلَ كثيرٍ، من الرقم:
١٣
أنا لا أسكنُ الغرفةَ
١٣
في الفنادقِ.
منزلُ أوكتافيا في بْروكْسل كان يحملُ رقمي المخيفَ
١٣
(ولهذا سُلِبْتُ قلادةَ بغدادَ، ليلَ المحطّةِ)
رِحلةُ الشؤمِ نحو شواطيء مَسْقطَ كانت شباط
١٣
غرفةُ العمَليّاتِ حيثُ يموتُ النبيُّ، هي الغرفةُ
١٣
آخرُ منفى أعيشُ به الآنَ يحملُ رقمي العنيفَ
١٣
وإلى أن أموتَ، أظلُّ أُشِيحُ عن الرقمِ
١٣
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

وإذاً

أيُّ معجزةٍ هي في مطْلعِ العام

٢٠١٣؟

*

نبتتي المنزليةُ

تلك التي عند نافذةٍ تشربُ الشمسَ

قد أطْلَعَتْ زهرةً

زهرةً ليس أنصعَ منها بياضاً

زهرةً لا تكادُ تُرى. . .

زهرةً هي أُولى،

زهرةً واحدةْ!

لندن، ٣١/ ١٢/ ٢٠١٢

طائرةُ تدريبٍ تعبرُ النافذة

طائرةُ التدريبِ العائدةُ الآنَ إلى مدرسةِ الطيَرانِ
تَعَدّتْ نافذتي، متضائلةً، كالطيرِ. . .
سماءٌ بيضاءُ
وأشجارٌ عاريةٌ
وأنا، المسكينَ، أُقَفْقِفُ في الغرفةِ
حتى كدتُ أرى ثلجاً يَـسّـاقَطُ حولي؛
شُهُباً بِيضاً تَـسّاقَـطُ
أوراقاً من كُتُبٍ تَسّاقَطُ
أثوابَ نساءٍ كنتُ عشقْتُ، قديماً، تَسّاقَطُ
أسناناً لَبَناً تَسّاقَطُ
تاريخَ بلادٍ يَسّاقَطُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ماذا فعلتْ طائرةُ التدريبِ العابرةُ؟
الطيّارُ الـغِـرُّ

سيدخلُ مدرسةً أُخرى
وسيقذفُ كلَّ قنابلِهِ
وهو سعيدٌ. . .
يَقتلُ فلاّحي نخلِ البصرة!

لندن، ٢٠١٣/٠١/٠٤

أصواتٌ خفيضةٌ

كـان الصُّبـحُ شـتـائيّاً، أبـيضَ
والورَقُ المتكرمشُ. . . أسودَ

أسمعُ من جهةِ الغابةِ خَــفْقاً. . . هل تَخْفُقُ أغصانٌ عاريةٌ؟
فَلأُرْهِفْ سمــعي: يقترِبُ الخـفَـقانُ. أسيرُ إلى النافذةِ.
المَشهدُ كالـلوحةِ، دونَ تضاريسَ. الثُلثُ الثاني أملَسُ.
أُلْصِقُ وجهي بزجاجِ النافذةِ. أسمعُ خفْقاً. أسمعُهُ من جهةِ القلب

كان الصبحُ شتائيّاً، أزرقَ
والورقُ الـمُسّاقِطُ، بُـنّـيّاً

مطرٌ يدخلُ في العشبِ، وبين لِحاءِ الدوحةِ والجذعِ، نثيثاً
لا ريحَ. و لا طيرَ. سياجُ الخشبِ المتشرِّبُ يبدو لي مُـهترئا.
لن يبدو خلفَ سياجِ الخشبِ المتهرّيءِ خِشْفٌ. لن تصدحَ قُبَّرةٌ.
لكني أسمعُ خشخشةً. أهوَ الثعلبُ؟ أم أنّ الخِشْــفَ يجيء؟

كان الصبحُ شـتائيّاً، أخضرَ
والورقُ الـمُتبـرْعمُ، أبيضَ

أهو نهارُ الأحدِ؟
اليومَ، إذاً، ستكونُ زيارتُـــها!
سوف أروحُ إلى الحانةِ ظُهراً
أتمشّـــى
وعلى شفتَيَّ صفيرٌ من أغنيةٍ كنتُ أردِّدُها في باريس!

لندن، ١٠/ ٠١/ ٢٠١٣

اقـتِـســامٌ

بين شقّةِ «هَـيْـرْفِيلْد» والبصرةِ، البحرُ
بينهما قارّتانِ
وسبْعٌ طِباقٌ. . .
وبينهما كلُّ ما يَفصِلُ المرءَ عن أصلِهِ
كلُّ ما يصِلُ المرءَ؛
بل كلُّ ما يصِلُ المرأة المستحيلةَ
بالمستحيلِ.
أتدري كم استمتعتْ نحلةٌ وهي تشتارُ مني العسلْ؟
لا تقُلْ: إن نخلةَ حمدانَ أجملُ!
هل تعرفُ السنديانَ؟
إذاً خَـلِّـنا نتفاهمُ:
خُذْ إلى بيتِكَ البصرةَ، الأهلَ والنخلَ
واترُكْ ليَ الشقّـةَ المستكنّةَ بين الصنوبرِ والسنديان. . .

لندن، ١١/ ٠١/ ٢٠١٣

بيتٌ حزبيٌّ

جاؤوا بجَزّاتِ الخرافِ مَعاطفَ. . .
الليلُ البهيمُ يلُفُّ نخلَ أبي الخصيبِ، وساحةَ السوقِ.
الشتاءُ مُقَرِّسٌ
جاؤوا:
لقد كانوا شيوعيّينَ، ينتقلون سرّاً في الظلامِ
إلى الخليجِ
ورملةِ الظَّهْرانِ
أو إيران. . .
كانوا متعَبينَ، مطارَدينَ، وإنْ تفادَوا أن نرى تعَباً.
وقد كانوا جياعاً
غير أنّا، مثلهم، فقراءُ
لم يجدوا لدينا غيرَ تمرٍ
غيرَ خُبزةِ مَلّةٍ
والماءِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

في الفجرِ البهيمِ مضَوا.
لقد كانوا شيوعيّين يلتحفون جزّاتِ الخرافِ
ويضحكون!

لندن، ١١/ ٠١/ ٢٠١٣

جِلسة اللوتس

مثلَ بوذا، أُزمزِمُ، منتظراً لحظةً لامثيلَ لها:
لحظةَ
أن يسقطَ الثلجُ أوّلَ!
لستُ أنعَمُ في جِلسةِ اللوتْسِ
جِلسةِ بوذا،
(تيبّسَ عَظمي)...
سأختارُ نافذةً من ثلاثٍ،
وأجلسُ؛
لكنني، مثل بوذا، أُزمزِمُ، منتظراً، مثلَـهُ
أن أرى الثلجَ أوّلَ.
قد هدأَ الدّغْلُ
والريحُ واقفةٌ مثل شُرْطيّ سَـيرٍ،
وآخرُ طيرٍ توارى...
و لا رفّةٌ في الغصونِ التي عَرِيَتْ منذُ دهرٍ.
سماءٌ رصاصيّةٌ تتبدّلُ بيضاءَ،
هل نصُعَ الكونُ؟
هل ألقت الأرضُ أوزارَها؟

ثَـمَّ في الـهُـدْبِ مُرتجَفٌ.
في العيونِ بريقٌ.
وفي نقطةٍ من أديمِ الزجاجِ الفُجاءةُ:
قد سقطَ الثلج...

لندن، ١٢/ ٠١/ ٢٠١٣

مَـوعِـدٌ؟

إنّ لي، يا زُهَيرةُ. . .
تسعاً وسبعينَ؛
ماذا تريدين مني؟
وماذا أريدُ؟
تقولين: عَمّانُ بيتُكَ.
عَمّانُ بيتي،
وها أنذا، أسكنُ القَفْرَ. . . أسكنُ لندنَ
حيثُ الضواري أحَنُّ من الناسِ.
قد جئتِني (أتذكّرُ) زاهيةً بالقلائدِ والبسمةِ الملكيّةِ
(كان الوشاحُ ندىً من فلسطينَ)
ثم انتهينا إلى الليلِ
والويلِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لكنّ لي الآنَ تسعاً وسبعينَ. . .
*

سيّدتي
سوف أطرقُ باباً بعمّانَ
كي ألتقيك!

لندن، ١٢/ ٠١/ ٢٠١٣

سيمفونيّةٌ مَرْئِيّةٌ

أفُقٌ أبيضُ. الساحةُ الدائريّةُ بيضاءُ. سقفُ البناياتِ أبيضُ.
والشجرُ المتضائلُ أبيضُ. في البُعْدِ تبدو البحيرةُ بيضاءَ بيضاءَ.
حتى السياجُ الذي فقدَ اللونَ قد صار أبيضَ. ممشايَ أبيضُ.
شَعري الذي طالَ دهراً لأضفِرَهُ... أبيضُ. الغـيمُ فوقَ
الـمَراكبِ أبيضُ. والورَقُ المتناثرُ في غرفتي أبيضُ. الضوءُ أبيضُ.
ذاكرتي تأفُلُ الآنَ، بيضاءَ. لا نخلَ فيها ولا نهرَ...
كلُّ النساءِ اللواتي مرزْنَ على شرشفي، يرتدِينَ العباءاتِ بيضاَ.
سأبسِطُ كفّيَ بيضاءَ من غيرِ ســوءٍ. دمي أتخَـيّـلُهُ أبيضَ.
القِطُّ، هذا الذي يتربّصُ بالطيرِ، أبيضُ. والطيرُ أبيضُ.
أغمضتُ عينيَّ حتى أرى، مثلَ ما أنتَ، دوماً، ترى...

*

أتَـقَـرّى المآذنَ في أصفهانَ: كأنّ لِـزُرْقَـتِها خُضرةَ البحرِ.
هل كنتَ في فاسَ، حيثُ العباءاتُ تخرجُ زرقاءَ من جَـفْـنةٍ؟
هل رأيتَ حديقةَ مُرّاكشَ: الزُّرقةَ الملَكيّةَ والشّوكَ؟ فَخّارَ دَلْفِتْ؟
عيونَ التي كنتَ أحببتَ يوماً بباريسَ؟ زرقاء. زرقاء. إني أُحِبُّكِ
زرقاء. لوركا الذي قال: خضراء. خضراء. إني أحبُّكِ خضراءَ.
قُلْ: ما الذي يجمعُ الأزرقَ الفذَّ والأخضرَ؟ الـمَعْشباتُ التي تتألّقُ

خضراءَ عندَ السواحلِ. . . إفريقيا. والأساطيرُ كانت تقولُ:
دمُ الأُسَــر الملَكيّةِ أزرقُ. لكنّ ماري انطوانيت ذاتُ دمٍ أحمرَ.
الغابةُ المطريّةُ تبدو من البُعدِ زرقاءَ. ما يرتديه الطوارقُ أزرقُ . . .
قبلَ ليالٍ ثلاثٍ حلمْتُ بأنيَ أغرَقُ ما بينَ نهدَينِ. والبحرُ أزرق.

*

أنا في عدنٍ.
١٩٨٦
كنتُ أرنو إلى جبلٍ كانَ يُسْمى حديداً. ولكنه اليومَ أحمرُ.
قد قال رامبو: أنا الآنَ أسكنُ في الفُوّهةْ.
ليتَ رامبو رأى ما رأيتُ!
الجحيمُ الذي كان في عهدِهِ خامداً، لم يَعُدْ خامداً. . .
كان أحمرَ في بهجة الإنتحار.
وفي صيف موسكو أسيرُ إلى الساحةِ. العلَمُ الأحمرُ المتألِّقُ منعقدٌ في الجبينِ.
وفي صيفِ بايجينغ لوّحتُ بالرايةِ الأمميّةِ: حمراء. حمراء. إني أحبُّكِ حمراء.
في ٦١
كان العراقُ الجميلُ سيُشرِقُ أجملَ
كان العراقُ سيُشرِقُ أحمرَ
كان العراقُ سيُشرِقُ
كان العراق. . .

لندن، ١٥/ ٠١/ ٢٠١٣

عليكَ أن تفُكَّ الحصارَ

أنت تنظرُ عبْرَ الزجاجِ المضاعَفِ
والثلجُ يهطلُ
حتى اختفتْ في البياضِ الصنوبرةُ
(تَذْكرُ الآنَ أنكَ أنبَتَّها قبلَ عشْـرٍ)
وذاك السياجُ الخفيضُ. . .
أتذكرُ كيفَ انتقَيتَ من الرَّدْمِ أحجارهُ؟
(كان ذلك من قبلِ عَشرٍ)
أتمضي، إلى أبد الآبدينَ، تُحَدِّقُ عبرَ الزجاجِ المضاعَفِ؟
لستَ في نَـشَـزٍ. . .
كلُّ هذا الزجاجِ المضاعَفِ ما عادَ يحميكَ. . .
فالثلجُ يهطلُ
والثلجُ يهطلُ
حتى يُجَمِّدَ أطرافَكَ. . .
انتبهِ الآنَ؛
خُذْ جُرعةً من شرابِ جامايْكا
وقُمْ
وافتح البابَ

واخرجْ إلى ساحةِ الحيّ
وارقصْ
لتدفأَ
والثلجُ يهطلُ . . .

لندن، ١٨/ ٠١/ ٢٠١٣

مُلحَق

في ليل بروكسل:
أشقياءُ مغاربةٌ سلبوني العراقَ الذهبَ

ما آبَ من سفرٍ إلاّ و . . .

أنا امرؤ يحبّ الأسفارَ، حتى القريب منها، كأن تسافر بقطار اليوروستار من محطة كنج كروسٌ اللندنية إلى بروكسل.

كنت زرت بروكسل مرةً لأقع ضحية احتيالٍ من جانب مسرحيّ عراقيّ كان يقيم في أنتويرب، و لربما حتى اليوم.

الآن اختلفَ الأمرُ، فأنا ذاهبٌ أزورُ صديقةً بلجيكيةً كنت أعيش معها أيامَ باريس العجيبة.

أوكتافيا دي بويسير.

كانت أوكتافيا زوجةً للرسام البلجيكي المعروف ديس دي برون (توفي في العام ١٩٩٨).

في باريس افترقا، أوائل التسعينيات، فقررت السيدةُ العيشَ معي في الضاحية الباريسية أوبرفيلييه.

Aubervilliers

تقلّبتْ بنا الأمكنة والظروف، لكنا ظللنا على صلةٍما.
قبل عشر سنين زارتني في لندن.
الآن أزورها، في نيسان، بعد سنواتٍ عشرٍ، ملأى.
لسنا، نحن الإثنين، في غضارة الصبا.
الزيارة، إذاً، لها معنىً أعمقُ.
في شباط الماضي قلت لأوكتافيا: أريد أن أزوركِ. قالت: مرحباً بك. قلت: سأبقى أسبوعين. قالت:
ابقَ ما شئتَ. سألـتُها: في مسكنكِ؟
أجابت: أين إذاً؟
*
أوكتافيا تعيش في حيّ غير بعيد عن وسط العاصمة، حيّ مختلط الأجناس واللغات. منزلها قريب من محطة مترو. في منزلها كلبان، أحدهما نصف ذئب.
شقّتها أقرب إلى أتيلييه، وتضمّ عدداً من أعمال زوجها الراحل.
قدّمتْ لي سريرها، وارتضتْ لنفسها سرير الضيوف.
الكلبان يعيشان معها في الشقة.
*
أوكتافيا تغنّي في أوبرا شعبية.
تروي حكايات للكبار والصغار.
وتتابع باهتمامٍ المعارضَ التشكيلية.
*
لأوكتافيا علاقة وثيقةٌ بمركز ثقافيّ فلمنكيّ (تمييزاً عن الثقافة

الوالونية الفرنسية)، اسم المركز: سينما Zinnema
وهي تذهب إلى هناك أكثر من مرتين أسبوعيّاً.

*

مساء السابع عشر من نيسان، أي ليلة سفري عائداً إلى لندن، قالت لي: أنذهبُ إلى المركز؟ هناك جازٌ حيٌّ. هي تعرف أنني أحبّ الجاز. قلت لها: لكنْ علينا ألاّ نتأخر. قالت: ساعة واحدة فقط!

ابتدأ الجاز متأخراً ساعةً تقريباً عن الموعد المقرر.

أوكتافيا ظلّت تكرع النبيذ. أنا امتنعتُ تقريباً.

ضجرتُ.

خرجت من القاعة أتمشّى في الممرّ لعلّ أوكتافيا تخرج لنعود إلى شقّتها.

لا خبر.

أخيراً جاءني مدير المركز وزوجته. قالا لي: أوكتافيا زادتْها هذا المساء. أنت تعرفها.

خرجتْ أوكتافيا ضاحكةً.

بمجرد بلوغنا الشارع، فقدتْ صديقتي القدرةَ على السير المتزن.

قلت لها: الخير أن نعود في تاكسي.

رفضتْ.

هكذا سرنا بمشقّةٍ حتى بلغْنا محطة المترو.

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة.

في المدخل، كان الحرّاس ذوو السترات الحمر المخططة، يبدون مغاربةً، وكان أيضاً عددٌ من الشبّان المغاربة يتمازحون ويتصرّفون

بصورة مريبة غير بعيدين عن الحراس.

أوكتافيا التي تحبّ المغرب كثيراً، حدّ الاشتراك في «المسيرة الخضراء»، لم تهبط إلى القطار، وإنما اتجهت إلى المغاربة، تمازحهم وتتضاحك معهم. رجوتُها أن تأتي نحوي، لكنها أصرّت على البقاء بين الشبّان المغاربة.

لاحظتُ، مرتعباً، أن أحد الشبّان كان يحاول انتزاع خواتمها من أصابعها... احتدمتْ. كادت تسقط على الأرض. سحبتُها إلى المدخل لنأخذ القطار، لكن أحد الحراس اعترض قائلاً إنها سكرى. والقانون يمنع السكارى من استخدام القطار. والأرجح أنه كان يريد أن يساعد الشبّان على سرقتها. فجأةً اندفع أحدهم إليّ.

كنت بعيداً شيئاًما. اندفع إليّ وسحب من عنقي سلسلة الذهب، العراق الذهب، السلسلة التي أهدانيها صائغٌ عراقيٌّ في السويد، والتي تحمل خارطة العراق. لا أدري كيف عرف اللصّ المغربيّ أنني أحمل سلسلةً. كنت ألفّ رقبتي بإيشارب أبيض أسود على طراز حمار الوحش، أهدتنيه أوكتافيا. حاولتُ الإمساك بالسلسلة فتدفّق الدم من إبهامي. فرّ اللصوصُ فجأةً.

جاء الحرّاس.

قالوا: استدعَينا الشرطة.

جاء الشرطة.

بعد سلام وكلام...

وتحقيقٍ أوّليّ، وسؤالٍ عمّا كنتُ بحاجة إلى سيارة إسعافٍ...

بعد هذا كله:

حملتنا سيارةُ الشرطة إلى منزل أوكتافيا التي ظلّت تهذي طوال الطريق.

ولقد كانت الليلة ليلاءَ حقّاً:

ظلّت أوكتافيا تعوي، مثل لبوءةٍ جريحٍ. تعوي الليل كلّه:

سرقوا بطاقتي الحمراء الصغيرة. سرقوا بطاقة الإئتمان البنكيّ.

سرقوا بطاقة التأمين الإجتماعي... واه! واه!

سأكون عنصريّةً!

أجهزتْ على قنينة نبيذ.

حاولتْ أن تدخن لكني منعتُها، خشية اندلاع حريق في الشقّة.

الكلب نصف الذئب ظلّ هادئاً.

*

والآن؟

أعتقدُ أن الأشقياء المغاربة فعلوا ما كان عليّ، أنا، أن أفعله:

الخلاص من فكرة العراق الذهب!

العراقُ لم يعُدْ قائماً.

ولن يعود...

*

في منزلي بحثتُ عمّا أطوِّقُ به عنقي.

تذكّرتُ قلادةً سوداءَ تحمل صورة شي غيفارا.

هذه القلادة اشتريتُها، ذات صباح نيويوركيّ، من بائعٍ جوّالٍ، أسود.

القلادة سوداء.

غيفارا بالأبيض والأسود.

*

أذهبُ بغير ذهبٍ.

النبيّ لا يورث.

هكذا قال محمد بن عبد الله على فراش الموت.

لندن، ٢٠/ ٠٤/ ٢٠١٢

عَيشة بِنْت الباشا

(٢٠١٤)

قلعةُ الحِصْنِ التي قُربَ حِمْص

أسيرُ إلى القلاعِ، هنا، وهَنّا، ناسياً ثلجَ الوريدِ، مُقَبِّلاً قَدمَ الوليدِ، أجيءُ نحوَ الصخرِ من قِدَمي، أُثَبِّتُ في مُتونِ حُزوزِهِ قَدمي. أقولُ: لَعلّني أرقى. وأصعدُ، خطوةً في إثْرِ أخرى، شهقةً في شهقةٍ، والخندقُ

الدوّارُ يسألُني: لماذا جئتَ؟ أسألُهُ: لماذا جفَّ ماؤكَ؟ لو ترُاه مضى ليسألَني: لماذا جفَّ مائي؟ الخندقُ الدوّارُ لم يبرحْ مكاناً كان فيه منذُ ألْفٍ، إنما الأمطارُ لم تهطِلْ...

أحقّاً صارَ هذا الخندقُ الدوّارُ جسراً للمُغِيْرينَ؟ السماءُ سترتمي في لحظةٍ.

ستكونُ سقفاً. أنتَ لنْ تُبْدي سوى سبّابةٍ مرفوعةٍ حتى تُلامِسَها... وكان الخندقُ الدوّارُ أخضرَ، قاعُهُ المفروشُ بالأعشابِ والدُّفْلى وأكياسِ اللدائنِ كان يدخلُ في متاهاتِ القُرى وسرائرِ الأبراجِ. أحياناً تُدَلِّي غيمةٌ أثداءَها ليظلَّ هذا الخندقُ الدوّارُ مَغْنىً. قد يمرُّ الماعزُ الجبليُّ. والأعشابُ تَثْبُتُ في الصخورِ كصِبْغةٍ سِرّيّةٍ. قد تفتحُ الأزهارُ في آبٍ مِظلاّتٍ بلا ظِلٍّ فيأتي النحلُ... أهلاً، لا خديعةَ... أيّهذا الخندقُ الممتَدُّ بين الوهمِ والوهْمِ:

انتظِرْني كي أُوازِنَ خطوتي. مترنِّحاً سأظلُّ، مأخوذاً بأحجارٍ تُزَلْزِلُ وقفتي.

أحجارُكَ الأولى التاي كانت تدافعُ عنكَ صارتْ منبِتاً لمحيطِ أكواخٍ. وفلاّحوكَ صاروا الجُنْدَ. جُنْدُكَ أصبحوا متعهِّدي خيلٍ وماشيةٍ. ولكنّ الخنادقَ لا تصيرُ سوى خنادقَ. ربما انطمستْ وضاعتْ تحتَ أتربةِ العواصفِ والقرونِ، وربما نسيَ الذين بقُرْبِها حتى خطوطَ القُرْبِ... لكنْ سوف يأتي اليومُ، يأتي يومُها، فتهبُّ ناصعةً لتدفعَ عن نضارةِ وجهِها الأسمالَ والأزبالَ والأكياسَ...

آنَ لها،

لكلِ خنادقِ الأحياءِ،

أن تحيا...

*

أتعرفُ كيف يبدو البُرْجُ في الفجرِ؟ السماءُ تكونُ صافيةً، وغامضةً قليلاً.

ثَمَّ ضوءٌ واثقٌ من لامكانٍ، والسماءُ تظلُّ صافيةً وغامضةً، وهذا الفجرُ يبدو ضائعاً، يا فجرُ... أين الفجرُ؟ في مثلِ الفُجاءةِ كان رأسُ البُرْجِ مُتَّقِداً، وكان الضوءُ يأخذُ شكلَهُ... والضوءُ رأسُ البُرْجِ:

قَرْنَصَةٌ وفُوضى

مِزْغَلٌ للشمسِ

متراسٌ يُصَوِّبُ نحوَ كونٍ غائبٍ...

قد يهبطُ الفُرسانُ من سُفُنِ الملائكةِ، الحدودُ قريبةٌ حتى الـمُلامَسةِ، الحدودُ بعيدةٌ حتى الجنونِ. . .

أهِلَّةٌ في الماءِ

صُلْبانٌ على الأكَماتِ، أو بالعكسِ.

هذا الضوءُ، هذا الضوءُ، هذا الضوءُ. . .

رأسُ البُرْجِ مشتعلٌ

وعند القاعِ، خلفَ الخندقِ الدوّارِ، في «الموتيل»، تحتَ مُلاءةٍ في غرفةٍ خرقاءَ

بالموتيل، كان فتىً يقولُ لدُمْيةٍ: إني أُحبُّكِ.

يهبطُ الفُرسانُ. سِيْفُ البحرِ يُلْمَحُ عند رأسِ البُرْجِ. ما أبهى طرابُلُسَ الخفيّةَ.

في السفوحِ تغادرُ الأشجارُ منبِتَها، وترحلُ في فضاءٍ أخضرٍ. . .

حتى الدروبُ تصيرُ في الـمَهوى خيوطاً كان رأسُ البُرجِ يُمسكُها، يُدَلِّيها، ويرفعُها، كما شاءَ.

المدافعُ لم تَعُدْ في البُرْجِ. . .

هل رحلتْ مع السفُنِ التي رحلتْ؟ أو انصهرَتْ لتغدو بين أيدينا نقوداً فضّةً؟

أمْ أنّ أغنيةَ المدافعِ لم تكن قد قعقعتْ بَعْدُ؟

الثلوجُ تلُوحُ في القممِ المحيطةِ. . .

غيرَ أنّ البُرجَ يلبسُ عُرْيَهُ، ويظلُّ، مثلَ الذئبِ، أغبرَ. . .

هدهِديني كي أنامَ:

الثلْجُ أثقَلَ لِمّتي
والثلجُ أثقَلَ خطوتي
والثلجُ غلغلَ في عروقي ماءَهُ ودماءَهُ
والبرجُ يدعوني لأصعدَ نحوَهُ،
البرجُ يدعوني لأصعدَ نحو صمتي
حيثُ الطيورُ السودُ، ، ،
ووووووو . . .

*

رأدَ الضحى، متلفِّعاً بالبردِ والجلمودِ، أدخلُ قاعةً حجريّةَ الأقواسِ.
أعمدةٌ خبتْ تيجانُها، فوقي. وتحتَ خُطايَ أشواكٌ مُعَفَّرةٌ،
أرى أسَدَينِ يرتفعانِ عند المدخلِ العالي، ويَمّحِيانِ مُرْتبِضَينِ.
غيماً مُبْحراً يجتازُ أروقةً ويمضي في سماءٍ حُرّةٍ. . . شجراً بعيداً.
شِبْهَ سِرْبٍ من يمامٍ. تهدأُ الأنفاسُ. أُغْمِضُ مُقلَتَيَّ للحظةٍ:
أهلاً!
يعودُ الصوتُ:
أهلاً. . . لن. . . لن. . . لن. . .
وأهتفُ: آهِ، يا سِرْبَ اليمامِ. . . يمامِ. . . مامِ. . . مِ. . .
كأنّ يدي ستُمْسِكُ خيطَ صوتي من نهايتِهِ. . .
أمُدّ يدي
يدَيَّ،
فألتقي روحي. . .

سلاماً. . . مَنْ؟ مَن؟ مَن؟ مَن؟
ومن بابٍ بأقصى القاعةِ الحجريّةِ، انفتحتْ سماءٌ وانجلَتْ.
في الأفْقِ أجنحةٌ تسدُّ الأفقَ. تعلو عند بابِ القاعةِ الحجريّةِ
الضوضاءُ.
يأتيني ملائكةٌ بأجنحةٍ
وعُمّالٌ بأجنحةٍ
وفلاّحونَ في أثوابِ ريشٍ.
أغْمِضُ مُقلتَيَّ هُنيهةً: أهلاً بكم! كُمْ. . . كُمْ. . . لَكَمْ غِبتُمْ!
تعبتُمْ في الطريقِ؟
وهل ظمِئتُمْ؟
إنّ في كَفّيَّ عيناً سلسبيلاً. . .
أم تُرى قد مسَّكُمْ ضُرٌّ؟
سأفرشُ كلَّ أضلاعي لكم. . .
لكنْ أقيموا!
أمسح الوعثاءَ عن أقدامكم،
وأُقَبِّلُ الأيدي لو استلمتْ طعامي.
لن ترحلوا!
سنبيتُ ليلتَنا هنا.
لا تعبأوا بالبردِ!
سوفَ أجيءُ بالسّروِ العظيمِ
وبالجريدِ الهشِّ.

جِذْعُ النخلةِ استلقى ليُمسي الجمرَ. . .
مهلاً!
سوف نوقِدُ نارَنا
ستكونُ قلعتُنا منارَ الخابطينَ
لقد غدَونا نارَنا. . . نا. . . نارَنا. . . نا. . . نا. . .

حمص - قلعة الحِصْن

الـعـقَـبـة

(١)

هي **أيْلةُ** التاريخِ
وهي الآنَ، **إيلاتُ**، التي جاءتْ بها الكبَواتُ واللهجاتُ
وهي، بنُطْقِنا، وغماغمِ استقتالِنا:
العقَبةْ
تشِفُّ، كذرّةِ البلَّورِ أحيانَ اضطرابِ النبضِ
أرضَ مَقاتلٍ لصحابةٍ ومجاهدينَ
وواحةً مسكينةً للسِّدْرِ
درباً نحوَ مؤتةَ والشآمِ
ونحوَ أن تنداحَ موجةُ ذلكَ الرملِ المؤجَّجِ
ذِروةً
أو وردةً من وقْدةِ الصحراءِ
تندفعانِ أعلى ثمَّ أعلى
في الهباءِ تُدَوِّمانِ لترفعا مدُناً
وألويةً

وعشراً من قِلاعٍ
حيثُ تستهدي كراديسٌ مدجّجةٌ
نجومَ النقْعِ والصلَواتِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سوفَ يئنُّ لورنسُ المهشَّمُ عندَ إحداها.

*

ليس في القلعةِ أحدٌ / ليس ثمّتَ حارسُ آثارٍ / البحرُ وحده
/ والصيّادون تركوا زوارقَهم إلى المقهى /
الشمسُ تغرُبُ في إيلات / والقلعةُ العثمانيّةُ تسهرُ مرتديةً أسمالَها
الفاخرةَ / لا قذائفَ من مدافعَ قديمةٍ /
لا آثارَ رصاصٍ / الأسوارُ الخفيضةُ تنهدمُ باستمرارٍ / وقريباً سوف
يعلو السورُ المرمَّمُ صقيلَ الحَجر /
المئذنةُ صُبَّتْ كاملةً بالإسمنت / والمهندسُ لم يحفظْ حتى لآجرّةٍ
واحدةٍ حقّهاَ في هواءِ
التاريخِ والبحرِ /سوف تكون المنارةُ أنيقةً في كامراتِ السوّاحِ الذين
لا يأتون / الهلالُ الجديدُ
ليس من الإسمنت / إنه من نحاسٍ سريعِ الصدأِ برطوبةِ الشاطيء /
القلاعُ لا تولَد مرّتَين. . .

لنهبطْ، إذاً، إلى القاعِ.
الفرسانُ المسيحيّون، ثبّتوا خطوتَهم الأولى إلى ما لن يبلغوه إلى الأبد:
مكّةَ وشِعابِها.
المغيْرون المسلمون ثبّتوا في هذه القلعةِ الملتبسةِ، خطوتَهم الأولى إلى
ما لن يتركوه أبداً:
بلادِ الشامِ وأشجارها.
الضبّاطُ العثمانيّون كان لهم هنا مفصلُ البحرِ والصحراءِ،
والمدافعُ الأولى التي تدْفعُ عن طريقِ مكّةَ الطويلِ، ما قد يقذفُ به البحرُ،
المشهدُ واضحٌ، واضحٌ كالسينما الوثائقيةِ، وجارحٌ،
إذاً، لنهبطْ إلى القاعِ...
لنضع الأقنعةَ والزعانفَ وحزامَ الرصاص
لنحملْ، مثل جملَينِ، غذاءَ رئتَينا
ولْننقذفْ في الأمواهِ العميقةِ
حيثُ الزُّرقةُ ساحلٌ.

منظر

نصفُ تفّاحةٍ يختفي هادئاً في الجبال
تاركاً في الخليجِ عموداً من النورِ

لا موجَ في البحرِ
لكنّ كلَّ السماءِ المحيطةِ بي
تنشرُ الآنَ قمصانَها الأرجوان
نصفُ تفّاحتي غابَ
لكنني مثل خيّاطةِ الحيِّ
ما زلتُ أطوي على ساعدَيَّ السماءَ
وقمصانَها الأرجوان.

(٢)

لا بحرَ بينَ هواءِ مصرَ وبحرِها
لا بحرَ بين هواءِ جَدّةَ في الجنوبِ وبحرِها
إنّا تَوحَّدْنا ببازِلْتِ البراكينِ
التي اندفعتْ لتفصلَ قارّتَينِ
فوحّدتْنا
ثم دارتْ في مفاصلنا، لننساها
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ستُحْكِمُ شوكةُ الصحراءِ وخزتَها
لتبتعدَ البراكينُ

التي برَأتْ من البازلتِ آلهةً
وماءً دافقاً
ومرارةً فيها تذوبُ الروحُ. . .
تُحْكمُ شوكةُ الصحراءِ وخْزتَها
وتدفعُ سُمَّها فينا
فننسى كلَّ ما في الكونِ، كلَّ علامةٍ في الكونِ
إلاّها. . .
دهب/ شرم الشيخ/ نويبع / الغردقة / الدرّة/ عِيذاب /
الأسماءُ تتخاطَفُ مثل أسماكِ البحرِ الأحمر /
تتخاطَفُ حتى تبْلغَ هَرَر ومُكَلأ حضرموت / تتخاطفُ حتى
تتمادى. . . إلى صَحار ومضيقِ هرمُز
وبلادِ التاميل / تتخاطفُ حتى لَتتركُنا مدوَّخين / أسماءُ وكواسجُ
ودلافينُ / وحوريّات بحّارةٍ ثملِينَ
بالخطرِ والعواصفِ / سيأتي حجيجُ مصرَ / ومن هنا ستحملُ
الجِمالُ
المُرَفّلةُ كسوةَ الكعبةِ
التي كانت تُنسَجُ بأناةٍ غيرِ مصريّةٍ في متاهة القاهرة المُعِزّيّة /
«نحن مليئون بالسُّمّ»
يقولُ رامبو الفتى / مليئون بتاريخِ الأسَلِ والسيوف /
وهذه الجبالُ التي ترهِقُ أكتافَنا منذ ملايين
السنين / هذه الجبالُ السودُ / الجبالُ الورْدُ / الجبالُ الرملُ /

الجبالُ الجبالُ / من العقبة إلى عدن /
أيّانَ تهبطُ عليها، كما في المطر، قطرةُ ماءٍ؟ / ما نحن بسكارى /
نحن مدوَّخونَ بتاريخٍ لن يقرأه أبناؤنا /
مدوَّخون ببحرٍ هو جحيمُ البحّارةِ منذ قرونٍ /
سكّةُ الحديدِ اقتلَعَها البدوُ الـمُسَيّسون/
كما يقتلعون ضرساً مسوَّساً / والجِمالُ اشتراها متعهِّدو العساكر /
نحن لا نركبُ البحر /

ماذا نفعلُ، إذاً؟
ماذا تفعلين، أيتها البدويّةُ، بجَمالِكِ؟ بالخِمارِ الـمُقَصّبِ
ومِشْيةِ الـهُوَينى؟
وشفتاكِ الـمُسْوَدّتانِ المحمرّتانِ من لِحاءِ الجوزِ؟
وثيابِكِ المضوّعةِ ليلاً كاملاً بالبخور؟
أنّى أذهبُ بكِ؟
وأيّانَ الساعةُ التي سيدقُّ فيها قلبانا مثل مهراسِ البُنّ؟
سأرسُمُكِ أيتها البدويّةُ «المزركشةُ كشجرةِ الميلاد». . .
سأرسُمُكِ ماثلةً على ناقةٍ أو كثيبٍ،
سأرسُمُ صورتَكِ الفريدةَ ألفَ مرّةٍ. . .
لأبيعَها إلى سوّاحٍ موهومين.

منظر

الفنارُ القديمْ
مُطفأٌ
لم يَعُدْ في صخورِ المواضعِ بحّارةٌ
وحدهُ الموجُ
يلمُسُ، كالقطِّ، كرسيَّ مقهى،
دخانٌ من الضفةِ الثانيةْ
والسفينةُ تُقْلِعُ.
من زورقٍ يتخطّى الفنارَ القديمَ
شِباكٌ تدلّتْ...

(٣)

سنُوقِرُ سمعَنا عمّا يقولُ البحرُ
سوف نُشِيحُ عن شمسِ الغروبِ
وملعبِ الأمواجِ...
سوف نكونُ أتْباعاً لهذا أو لهذا
نكتفي من كل قافلةٍ
بـخُبْزةِ مَلّةٍ
وبتمرتَينِ...
وسوف ننسى كيف نرسُمُ بالنجومِ فُجاءةَ الصحراءِ

والطُّرُقِ التي لا تنتهي. . .
لا بحرَ يغسلُ منتهى أحلامنا بالملحِ والمرجانِ والأسماكِ
لا صحراءَ تُنْبِتُ وردةَ المجهولِ. . .
صرنا بينَ مصطفِقَينِ ينطبقانِ
باعاً بعدَ باعٍ،
كيف نُفْلِتُ؟
كيفَ نُبْعِدُ أن تَعُدَّ عِضادتانِ
دقائقَ الرملِ الذي سيكونُ مثوانا الأخير وَعُشَّةَ العششِ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
اختفى المرجانُ
واندفعَتْ سراطينُ الشواطيءِ نحو مأواها.

*

لا جمَلَ لدينا ولا سفينة/ لا خيمةَ ولا منزل / لكن لنا أن نسألَ عن المأوى/
والعقبةُ خاليةٌ على عروشِها / العشيرةُ أمسَتْ شيخاً /
والشيخُ في الحاضرةِ البعيدةِ /
كلُ شيء مؤجَّلٌ مثل ديونِ الجنودِ /
العقبةُ مؤجَّلةٌ / الحروبُ في الكتُب /
والسلامُ في الدفاترِ / ونحنُ: لا رَكْبٌ ولا بَحّارةٌ /

نحنُ في العقبةِ حسبُ /
علينا، إذاً، أن نختلقَ المأوى / ليكُنْ لَبِناً وصفيحاً / ليكنْ ألواحاً
ممّا ألقت السفنُ / ليكنْ حبالاً وأنسجةً مموّهةً / ليكن العراء. . .
هكذا بنَينا، نحن اليتامى، العقبةَ الفقيرةَ، مأوى ذا دروبٍ مُتْرِبةٍ
ودكاكينِ فولٍ
وفلافل / لنا أيضاً مقاهينا / حيث الشاي ذو القروشِ العشرةِ /
وورقُ اللعِبِ المهتريء /
سائقو الشاحنات والمهربون بين مرافيء البحر الأحمر
يسكنون أفئدَتَنا وحجُراتِنا العارية / أين سنذهبُ هذا المساءَ؟
بار روميرو مفتوحٌ عند البحر /
حانةُ إلكازار أيضاً / وناصيةُ علي بابا / ثمّتَ مشاربُ سرّيّةٌ وفتياتٌ
ـ إن شئتَ ـ /
أنت تفضِّلُ الشاي بالنعناع / نادي الغوصِ الملكيّ (سوف يُباعُ)
أغلقَ أبوابَه في الرابعة /
لماذا تنظرُ إليّ بالنظرِ الشزْرِ؟
أتقولُ إني لا أعرفُ كيف أقودُكَ؟ / فلْنذهبْ إلى إيلات. . .

*

الصباحُ في العقبةِ باكرٌ دائماً / ثمّتَ طراوةٌ وشجرٌ مبتلٌّ برطوبةِ
الليل /
والتلاميذُ في الشارع الضيّق / يحملون أرغفةً ساخنةً فيها حبّاتُ
فلافل /

الـمَسْمكةُ تُعَلِّقُ (مثل الخراف) أسماكَ التونة / والحلاّقون ينفضون عن كراسيّهم
ما تبَقّى من شَعرِ البارحة / فلاّحو العقبة (مصريّون) جاؤوا إلى السوقِ /
بالفجلِ الأحمرِ والنعناعِ والكزبرةِ / شارعُ الحمّامات لم يفتحْ مقاهيه بَعدُ.

*

الحيُّ القديمُ يضِجُّ الآنَ في حُمّى الهاجرةِ.
السلامُ عليكَ يا بنَ عبدِ الله...

منظر

الجبالُ رماديّةٌ
غيرَ أنّ الرماديّ ينكشفُ الآنَ
أبيضَ / أزرقَ مثلَ الضّباب...
النُّخَيلاتُ مزْرَقّةٌ هي أيضاً
وفي البُعْدِ
في أوّلِ الكونِ
يبدو السحاب...

العقبة ـ عَمّان، ١٢-١٦/ ١/ ٢٠٠١

عند قلعة الكرَك

دائماً، في الغروبِ، تبدأُ أسوارُ القِلاعِ التنفُّسَ.
إنتهتِ الحربُ، منذُ قرنَينِ أو عشرينَ قرناً،
لكنها فَجأةً تعودُ إذا ما هبطَ الليلُ، يُوقِدُ
الـجُنْدُ في الأبراجِ قنديلَهم، بعيداً عن الريحِ،
ويبكون وحدَهم. سوف يأتي الرسولُ،
حتماً سيأتي، حاملاً رأسه على رأسِ رُمْحٍ.
ربما كان متعَباً، فغَفا بانتظارِ أن يورِقَ الرمحُ
مع الصبحِ.
هل تُراهُ سيستيقظُ؟والـجُنْدُ في البُرْجِ،
وقنديلُهُم تخافَتَ، والصبحُ لم يجيءْ،
والرسولُ الذي سيأتي وقد ثبّتَ بالرمحِ رأسَه،
بَعْدُ لم يأتِ.
إذاً، ما الذي سيفعلُهُ الجندُ في الصباحِ الـمُنَدّى؟
ما الذي يفعلون؟

*

توْقِفُ أسوارُ القلاعِ التنفُّسَ
والقنديلُ فحمٌ في الماءِ والريحِ.

الحروبُ انتهتْ
ولكنها سوف تنادي جنودَها دائماً
كلَّ مساءٍ
وسوف يأتي الجنودُ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
دائماً
دائماً
سيبكي الجنودُ.

عمّان، ١٤/ ١٢/ ١٩٩٢

يومُ سبتٍ غائم

ضبابٌ على المتوسِّطِ . . .
لا طيرَ يمْرُقُ عبر زجاج النوافذِ
لا صرخةٌ من نوارسَ،
والرايةُ المغربيةُ هامدةٌ فوق مبنى الضرائبِ.
مَن أمَرَ الشمسَ أن تتأخّرَ؟
مَن قادَ مرْكبةَ الثلجِ حتى هنا، في أزقّةِ طنجةَ؟
إني اتّخذتُ سبيلَ هروبي، جنوباً، لأهجرَ لندنَ
والقارةَ المتوحشةَ . . .
الثلجُ يتبعُني من هناكَ!
ولكنني سوف أنتظرُ الشمسَ:
إفريقيا
واللقالقَ (أعشاشُها في رؤوسِ المآذنِ)
أنتظرُ الأغنيةْ!

طنجة، ١٦/ ٠٢/ ٢٠١٣

قبلَ سوقِ الـمُـصَـلّـى

في شارعِ موسى بنِ نُصَيرٍ
في آخرِهِ
إذ ينعطفُ الناسُ إلى السوقِ،
هناك المقهى.
سأقولُ:
زبائنُ هذا المقهى هنَّ قحابٌ غابتْ نُضْرَتُهُنَّ مع الزمن القاسي
والليلِ المثقَلِ
والمهمَلِ...
هنَّ يجئنَ صباحاً، كلَّ صباحٍ، يُفْطِرْنَ هنا
شاياً وشطيرةَ جُبْنٍ بلديٍّ،
ثم يَطِرْنَ إلى ركْنٍ في الشارعِ، غيرِ بعيدٍ
ويقِفْنَ هناكَ، الساعاتِ... الساعاتِ؛
يثرثرْنَ
وينظُرْنَ
أيأتي شيخٌ ريفيٌّ
سائقُ شاحنةٍ
بائعُ أسماكٍ جوّالٌ...

يأخذُ واحدةً منهنَّ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ما عُدْنَ كما كُنَّ:

الزمنُ القاسي غيّبَ نُضْرَتَهُنَّ.

وهذا الشارعُ لا يرحمُهنّ. . .

*

أنا أجلسُ كلَّ صباحٍ في هذا المقهى

فنجاني يبرَدُ،

والشارعُ يخمدُ،

لكني أحكي، في صمتي، معهُنّ. . .

طنجة، ٢١/٠٢/٢٠١٣

جرسيف(*)

(بلدة في شرقيّ المملكة المغربية)

هي تنتظرُ الساعةَ الأجنبيّةَ:
أن يَنْجمَ النفطُ كالماءِ عبرَ المفازاتِ
أن يتعالى عمودٌ من الغازِ يطعنُ هذا الهواءَ النقيَّ الذي لم يَعُدْ يُطعِمُ الناسَ
أن تأتي الحافلاتُ مطهّمةً كالجيادِ
وأن تُبتنى في الغياض الفنادقُ،
ماذا جنَينا من الزيتِ نعصرهُ؟
نحن نغدو، مع الأرضِ، أفقرَ، أفقرَ. . .
فلْتُقْفر الأرضُ!
أشجارنا؟
سوف نقطعها كي تكون بخوراً لمن يُخرجون لنا النفطَ والغازَ. . .
نرجوكَ أن تفهمَ الأمرَ:
ننتظرُ الساعةَ الأجنبيّةَ

(*) جرسيف، تُنطَق الجيم مصريّةً.

كي نقهرَ الفقرَ. . .
يا سيّدي!

طنجة، ٢١/ ٠٢/ ٢٠١٣

الرأس الأسود Cabo Negro

تلك الداراتُ
تلك الداراتُ على هضَباتِ الريفِ
الداراتُ ذواتُ اللونَينِ: الأبيضِ والأزرقِ
يسكنُها الآنَ الطيرُ العابرُ
والضفدعُ،
أحياناً تسمعُ ديكاً (من كوخ الحارسِ طبعاً)
بل تسمعُ شِبْهَ أنينٍ. . .
أهو البحر؟
البحرُ قريبٌ، لكنّ البحرَ بعيدٌ،
أبعدُ حتى من خارطةٍ لابنِ بطوطةَ
بحرُ الريفِ وراء الأسوارِ
وراءَ الأنظارِ
فقراءُ الشاطيءِ لن يجدوا في هذا الشاطيء مَلْعبَهم
لن يُحْيوا الليلَ مع القيثار؛
فقراءُ الشاطيءِ ممنوعون
فقراءُ الشاطيءِ مطرودونَ:

هنالك حرّاسٌ، ومساءٌ، ونساءٌ للوحشِ الطبَقيّ
سفائنُ للوحشِ الطبقيّ
مَراسٍ
ومراسمُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لكني سأعودُ إلى كتُبي
أقرأُ تاريخَ مقاومةٍ كانت في هضَباتِ الريف!

طنجة، ٢٦/٠٢/٢٠١٣

الأعـظمـيّـة

يا صُبْحُ
يا مصباحُ
يا ليلى. . .
أأنتِ الأعظميّةُ؟
إنني أمضي عميقاً في الأزقّةِ كي أُلاقي شارعَ العشرين. . .
أيُّ حمامةٍ ستدورُ في كفِّي؟
لقد ذُعِرَ الحمامُ: أبو حنيفةَ يُستباحُ
مقابرُ الشهداءِ ، والأهلِ الأُلى ماتوا طويلاً. . . تستباحُ
كأنّ جيشَ المالكيّ القزم تيّاهٌ بمعركةٍ!
سلاماً، نخلتي، في شارعِ العشرين. . .
لا تأسَي!
فقد يَسّاقَطُ الرُّطَبُ الـجَـنِيُّ لتتّقي هولَ الرصاصِ
وقد يتوافَدُ الأطفالُ حولكِ والعصافيرُ.
اصبِري يا نخلتي في شارع العشرين. . .
كوني مثلَ أهلِ الأعظميّةِ،
مثلَ ما أفتى لنا النُّعمانُ من حُرّيّـةٍ؛
كوني كما شاءَ الـمُـقَـدّسُ أن تكوني!

طنجة، ١٤/ ٠٢/ ٢٠١٣

إغفاءةٌ

أستحي أن أمُدَّ يدَيَّ إليكِ
لقد هدأَ البحرُ
والرملُ ما زالَ محتفظاً بحرارتِهِ؛
كانت الشمسُ تلمعُ ما بينَ ساقَيكِ. . .
هل أتوسَّدُ واحدةً منهما؟
أنتِ تستمتعين بشَعري المبلّلِ
نافضةً بأناملِكَ الرملَ عن خصُلاتٍ تَناهبَها الشيبُ
أغفو
ويغفو معي البحرُ؛
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

ما أبسطَ البَسْمَلـةْ!

طنجة، ٢٠١٣/٠٣/٠٥

زورقٌ سِــرِّيٌّ

كيف لا أتصوّرُ عيشاً بهِ؟
منزلٌ خشبيٌّ على الماءِ
تدخلُهُ، ثم تبصرُ أنكَ منزلقٌ، مثلَهُ، فوقَ سطحِ البحَيرةِ. . .
كان الشتاءُ مقيماً ببردائهِ
والثلوجِ.
البحيرةُ تثوي، رصاصيّةً
أنت توشكُ أن تتجمّدَ. . .
أرجوكِ:
هاتي التَّكيلا!

طنجة، ٠٥/٠٣/٢٠١٣

حُرْجٌ ليسَ بعيداً عن الطريق العامّ

أتذكّرُ:
كانت تدورُ بسيّارتي بين تلك القرى
حول لندنَ. . .
كانت تسوقُ كمن تتنزّهُ فوقَ حمارٍ
وتضحكُ!
في بغتةٍ دخلتْ مَسْرَباً ضيِّقاً
ثم قالت: لننزلْ!
أتعرفُ أيَّ مكانٍ ندورُ بهِ الآنَ؟
نحنُ في الحُرْجِ حيثُ الجنودُ يجيئونَ
ما بين يومٍ وآخرَ
كي يأْلَفوا نزَواتِ السلاحِ الجديد!

طنجة، ٢٠١٣/٠٣/٠٥

اللُـهاث

في الممرِّ الذي يصلُ السفحَ بالقمّةِ، الثلجُ
كان الصعودُ بطيئاً
عواسجُ في الجانبَينِ
وعشبٌ ندِيٌّ. . .
وأصعدُ؛
كانت أمامي
وكانت لها خِفّةُ الـماعزِ الجبليِّ
وتضحكُ مني:
أتَلْحَقُني؟
كنتُ ألهَثُ. . .
كان الممرُّ يضيقُ،
ولكنني سوف أمضي لألحقَ تلكَ الغزالةَ
حتى النهايةِ
في قمّةِ التلِّ، حيثُ الخيول!

طنجة، ٢٠١٣/٠٣/٠٦

جبالُ الريف

منذُ ثلاثةِ أيّامٍ
ما عُدتُ أرى في الأفقِ الـمُـلْـتَزِّ
جبالَ الريفِ. . .
كأنّ جبالَ الريفِ انجرفَتْ
تحت المطرِ الـثَّـرِّ
وأنّ الأرضَ انبسطتْ
حتى كادت طنجةُ تغرقُ في المتوسِّطِ. . .
مثل سفائنِ ماجلاّنَ
الملعونةِ
في أمواهِ الشرقِ الأقصى!

طنجة، ٢٠١٣/٠٣/٠٧

البرق يلوحُ من «طريفة»(*)

تخاطَفَ البرقُ، فجراً، من «طريفةَ»...
كان الفجرُ أسوَدَ
حتى والمباني الضِخامُ البِيضُ ماثلةٌ
أمامَ نافذتي
البرقُ العجيبُ أتى من الجزيرةِ
تلك المشتهاةِ؛
ترى الجزيرةَ رأيَ العينِ...
رُبتَما أرادَ «طارقُ» أن يُبقي سفائنَهُ فيها،
ورُبّتَما...
لكنه البرقُ تأتينا غرائبُهُ
مع التخاطُفِ
إنْ صدقاً، وإنْ كذِبا...
أغلقتُ نافذتي، ثم التففتُ بما لدَيّ
مكتفياً، بالنفسِ، مضطرَبا!

طنجة، ١٠/٠٣/٢٠١٣

(*) طريفة، جزيرة إسبانية صغيرة، تمْكنُ رؤيتُها بالعين المجرّدة من ساحل طنجة. استخدمها طارق بن زياد، رأس جسرٍ، في الفتح.

عُمّالٌ مَغاربةٌ

من الثامنةِ، الصُّبْحَ
إلى الخامسةِ، العصْرَ
نُرَقِّقُ أرغفةً
ونرَمِّمُ أرصفةً
وننامُ بلا صلَواتْ.

تسألُنا، ماذا نأكلُ؟
تأكلُنا البِيصارةُ
والكمّونُ الناشفُ والفلفلُ.
يأكلُنا الجوعُ
ويأكلُنا القهرُ كأنّا ذُؤبانُ الفلَواتْ

وإلى الشاطيء تحملُنا عرباتُ الأحمالِ
لنبني داراتٍ وفنادقَ
نبني تحصيناتٍ وخنادقَ
لكنّا حين يجيءُ الليلُ
نكون طريدينَ، بعيداً عمّا شِدْنا من حُجُراتْ

أنُغَنِّي؟
أحياناً، نتذكّرُ أنّا كنّا أطفالاً
أنّ هناكَ قُرىً في الريفِ أحَبَّتْنا
نتذكّرُ أنّا أحبَبْنا
فتنوحُ بنا العَبَراتْ

طنجة، ١٤/٠٣/٢٠١٣

الصّمت

في هذا السبتِ الباردِ
تبدو الشمسُ مؤجَّلةً، حتى لَكأنّ سماءَ المتوسِّطِ
قد طُلِيَتْ بالإسمنْتِ الأبيضِ.
حاولتُ، بلا جدوى، أن أستحضرَ صوتَ مُغَنِّيةٍ
كانت تعشقُني في باريسَ...
وحاولتُ، على مهلٍ، أن أُمسِكَ بالضوعِ المتبدِّدِ
من كأس نبيذٍ كنّا نترشَّفُهُ ظُهراً.
لكنَّ الصمتَ عميمٌ
والشمسَ مؤجَّلةٌ
وسماءَ المتوسِّطِ تُطْبِقُ حتى كادَ الشارعُ يختنقُ:
الصمتُ تَحَصَّنَ بي
بالمغلَقِ من حشرجتي في هذا السبتِ الباردِ
بالمغلَقِ من أيّامي في النُّزْلِ الباردِ
بالمغلَقِ من أنفَاقٍ لقطاراتٍ لن تأتي...

طنجة، ١٦/٠٣/٢٠١٣

شفْشاوِن

من «رأسِ الماءِ»
بِشِفْشاوِن. . .
من أوّلِ «رأسِ الماءِ»
يُبَقْبِقُ رأسُ المالِ،
صغيراً
وفقيراً
لكنك تعرفُهُ،
تعرفُ رأسَ المالِ
دكاكينَ تبيعُ شبابيكَ وأبواباً مُصطبِغاتٍ بالأزرقِ
ما جاءَ به الأندلسيّونَ زماناً صارَ بضائعَ كاذبةً:
أبواباً ليستْ أبواباً
وشبابيكَ مُطَهّمةً، ليستْ بشبابيكَ
وثَمَّ جلابيبُ
وأنصافُ جلابيبَ
وأثوابٌ
لكنْ من صوفٍ مغشوشٍ ذي ألوانٍ تَنْصُلُ بعد سُوَيعاتٍ
أو تحتَ المطرِ المتقطِّعِ

أو تحتَ رذاذٍ من «رأسِ الماءِ» . . .
وشِفشاونُ لا تعرفُ من أيّ مكانٍ تبدأُ شفشاونُ:

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

هل تبدأُ ممّا يُسْمى «القصْبةَ»؟
أو ممّا كان جداراً أو بُرجاً من طينٍ أحمرَ؟
هل تبدأُ من ساحتها المكتظّةِ بالسُوّاحِ؟
من صيحاتِ المحتالين؟
من درْجاتِ سلالمَ ظلّتْ تتآكلُ والأعوامَ؟
من مطعم أسماكٍ دونَ نبيذٍ؟
من صحنِ العدسِ المجّانيّ؟
هل تبدأُ ممّا لا تذكرُهُ شفشاونُ:
أشجارِ المرتفعاتِ
وجُبْـنِ الماعزِ؟
والعوسجِ محمولاً فوقَ ظهورِ النسوةِ؟
والطيرِ العابرِ
واللقلقِ يبني فندقَهُ . . .
هل تبدأُ ممّا أذكرُهُ منها:
قلعةِ أحرارٍ جابوا الصخرَ بِواد؟

المضيق - جوهرة سْمير، ٢٤/٠٣/٢٠١٣

الشيوعيّ الأخير يريد أن يتغدّى

كان الشيوعيُّ الأخيرُ يجولُ جولتَهُ الأثيرةَ
في أزقّةِ طنجةَ . . .
هابطاً من هضْبةِ السوقِ القديمِ إلى مقاهي المرفأِ؛
انتظرتْهُ، يوماً، مَن توهَّمَ أنها استهوَتْهُ
أو هوِيَتْهُ!
وهو، اليومَ، ماضٍ نحوَها، في المكتب البحريّ
كان يقولُ:
قد تأتي معي، لنكون في رُكْنٍ، بمطعمِها، على البحرِ.

السماءُ عجيبةٌ في شهر آذارَ!
الشيوعيُّ الأخيرُ يكادُ يغرقُ تحتَ سيلٍ دافقٍ من غيثِ آذارَ . . .
الملابسُ (وهي شِبْهُ جديدةٍ حتى لأغنية الغرامِ) غدتْ من الزخّاتِ، أسمالاً!
إذاً
يا صاحبي
يا مَن أُسَمِّيكَ الشيوعيَّ الأخيرَ
عليكَ أن تلقى حلولاً للتناقُضِ!

هل ستمضي نحوَ مَن تهوى؟
أتمضي تحتَ هذا السيلِ؟
امْ ترتدُّ كالحلَزونِ في مُلتَفٍّ قوقعةٍ؟
أجِبْ في لحظةٍ!
قَرِّرْ!

وقَرَّرَ صاحبي أن يكتفي بالنزْرِ
ولْيدخُلْ هنا. . . في المطعمِ الشعبيّ
ولْيأكلْ هنيئاً: طاسةَ العدَسِ!
المدينةُ سوف تعودُ مُغريةً غداً
ولسوف يذهب نحوَ مَن يهوى. . . هنالك عند أرصفةِ العبورِ
إلى «طريفةَ»
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ربما رضِيَتْ صديقتُهُ أخيراً!

طنجة، ٢٦/٠٣/٢٠١٣

خلِّنا نتمازَحُ!

في المساءِ المبكِّرِ يأتي السنونو
ويأفُلُ عن طنجةَ النورسُ. . .
الليلُ يهبطُ شيئاً فشيئاً، هُنا
(هكذا يلعبُ الطيرُ)
يأتي السنونو
كما أنتِ، يخطِفُ بين المباتي وتاريخِها
يتخاطَفُ حتى يمسّ الزجاجَ
ويخطِفُ
يخطفُني. . .
قد تقولين: لا شأنَ لي بالذي أنتَ مُضنىً بهِ. . .
أنا لا شأنَ لي بالسنونو
ولا بالنوارسِ؛
أنا لا شأنَ لي بكَ، حتى. . .
أقِمْ حيثُ أنتَ
أقِمْ حيثُ شئتَ
أقِمْ حيثُ تأتي النوارسُ

أو حيثُ يأتي السنونو. . .
أنا لا شأنَ لي

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

حسناً
غيرَ أني أُحبُّكِ!

طنجة، ٠٨/ ٠٤/ ٢٠١٣

محكمة عسكرية

خمسون مرّتْ منذُ أن أدخلتَني، بـ«معسكرِ التاجيّ» في بغداد
مغلولاً
ومرتعشاً
أُحاكَمُ . . .
كان حكّامي الثلاثةُ، مثل ما قرّرتَ، ضبّاطاً
وكانوا يلمعونَ
نظافةً
وقيافةً . . .
أمّا أنا، المغلولُ والـمُضنى، فقد كنتُ الأسيرَ
وكان حرّاسي الذين تناوبوا ضربي اختفَوا . . .
وحدي مع الضبّاط!
لم أكُ خائفاً؛ لَكأنَّ طيراً كان ينقرُ جبهتي ويقولُ:
إرفعْ رأسَكَ!
الرجُلُ الذي هوَ مَن ستحيا: وقفةٌ!
أرجوكَ
إرفعْ رأسَكَ . . .
الشعراءُ والأشجارُ أعلى!

طنجة، ٢٤/ ٠٤/ ٢٠١٣

مُكالَمةٌ

تداعبُني نَوارُ، وكان فوق لسانها عسلُ البداوة: هل بدأتَ تحبُّني؟
كانت نوارُ، هناك، عبرَ البحر. . .
يأتي الصوتُ مرتجفاً قليلاً.
(أهيَ أغنيةٌ؟)
أقولُ: أُحبُّكِ!
الصوتُ الذي يأتي وقد قطعَ البحارَ وليلَها الثلجيّ
أمسى شاخصاً عندي
أكادُ أضمُّهُ لأضُمَّ خِصْراً من نوارَ وخُصلةً. . .
فأضيع !َ
قولي، يا نوارُ، وأنتِ مائدةُ الندى:
أيّانَ تأتينَ؟
الزهورُ تفتّحتْ
والنحلُ يأتي
والسناجبُ ترتقي الأغصانَ مثلَ الطير؛
قولي يا نوار!

٢٢/ ٠٥/ ٢٠١٣

لعنةُ العراق

«نتغدّى بهِ،
قبلَ أن يتعشّى بنا. . .»
ها هي ذي الحكمةُ الأبديّةُ عند العراقيّ؛
من سومر الماءِ
حتى جلاميدِ آشــورَ. . .
من ثورة الزنجِ
حتى مذابحِ صدّام،
الحكمةُ الأبديّةُ باقيةٌ:
«نتغدّى بهِ
قبلَ أن يتعشّى بنا. . .»؛
الآنَ أسألُ:
يا سيّدي
أيُّهذا البسيطُ العراقيُّ. . . أنتَ شقيقي
إذاً، أنا لستُ عدوّكَ.
لستَ عدوّي.
ولكنْ، قد استحكَمَ الأمرُ!
هاأنتذا، تتمثّلُ حكمتكَ الأبديّةَ، تلكَ التي قتلتْ سومرَ الماءِ

تلك التي قتلَتني، أنا، كلَّ يومٍ هنا:
«نتغدّى بهِ،
قبلَ أن يتعشّى بنا. . .»
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أيُّهذا البسيطُ العراقيُّ:
كُنْ لحظةً أنتَ
كنْ لحظةً، مثلَنا!

لندن، ٢٦/ ٠٥/ ٢٠١٣

ثلاثة أيام متعاقبة

١

يجيءُ الغيمُ، أسودَ، أطلسيّاً، وتلك الريحُ تدفعُهُ، وئيداً، مع الشمسِ التي اختفت. البيوتُ التي هي ههنا أمستْ ظلالاً، لها شَبَهٌ بما كانَ البيوتَ. كأنَّ غرقى سفائنَ يُجهِشونَ. يكادُ جِلْدي يئِنُّ مع المجاذيفِ التي في القاعِ. هل بحّارةٌ دخلوا إلى الحانِ العتيقِ؟ هل النساءُ اللواتي ينتظرْنَ مجَلْبباتٌ بالسوادِ؟ الغيمُ يهبِطُ. سوف تلمُسُ ما ترَفّلَ منهُ أشجارُ الحديقةِ. سوف تبكي.

٢

إذاً. . . جاءَ الخميسُ!

سألبسُ الجِينْزَ الذي يبدو لِعَيني أصفرَ. الأشجارُ في المَرْجِ المحيطِ توشوِشُ. الحِدَأُ اقترَبْنَ من التلالِ. وثَمَّ، خلف السورِ، أبصرتُ الغزالةَ تقضِمُ الورقَ الطريَّ. سيهبطُ السنجابُ من أعلى الصنوبرةِ. الخميسُ الموعدُ! الأيّامُ شاحبةٌ، ولكنْ سوفَ تُبْلِغُني الخميسَ. . .

صديقتي ستقولُ لي: كيفَ انتقَيتَ الجينْزَ أصفرَ؟ سوف نضحكُ، ثم نسترخي على ضَوعِ النبيذ.

٣

أنا لا أُصَلِّي...

غير أنّ الجمْعةَ اختلجَتْ. إذاً، سأكونُ في مَكْناسَ. مقتبِلاً بها بوّابةَ المنصورِ، مبتهِلاً... عسى مولاي إسماعيل يسمعُني. أقولُ: يا مولاي، هل تدري بما صنَعَ الهديمُ بنا؟ بما صنعَ الهديمُ بكَ؟

الكتيبةُ لم تَعُدْ سوداءَ. سوف تقودُ، يا مولاي، مجموعاتِ سوّاحٍ، إلى بوّابةِ المنصورِ. تعرفُها؟

لقد أعلَيتَها حقّاً، ولكنّ الزمانَ النذلَ حَلَّ. وأنتَ ممتقِعٌ بدونِ كتيبةٍ سوداء!

لندن، ٣١/ ٠٥/ ٢٠١٣

متروبول Metropole

١

٢٠١٣

المتروبول، ظننتَها وحشاً. وكم فكّرتَ أنك لن تراها، ولأقُلْ حتى ولو في الحلُم!

كنتَ ترى المدينةَ مثلَ ما هيَ: ثُكْنةَ المستعمِرِ الأولى، مطاراً حيثُ ينطلقُ الغُزاةُ إلى نخيلِ أبي الخصيبِ، ونبتةِ الحنّاءِ في الفاوِ. انتظرتَ إلى المشِيبِ لكي ترى في المتروبولِ البيتَ والمأوى! فهل هانتْ حياتُكَ، أم تُرى مَن هانَ ليس سواكَ؟ ما أقسى المعادلَةَ! الحياةُ كريمةٌ في المتروبولِ، خسيسةٌ أنّى وُلِدْتَ... أأنتَ تهذي؟

٢

١٩٦٤

قد كنتَ أتممتَ الطقوسَ بـ«نُقْرةِ السلمانِ»، أو بعقوبةَ. الكابوسُ مفتوحٌ، وفي يدِكَ الجوازُ مُزَوّراً. في سِيْدِي بِلْعبّاس، غربيّ الجزائرِ، سوف تهبطُ من قطار الليلِ، سوف تكونُ عند المتروبولِ.

يقولُ قاسمُ: مرحباً! في النُّزْلِ كان الضوء يشحبُ قالَ قاسمُ: أنتَ شيخٌ!
غرفتي في «المتروبول» صغيرةٌ، لكنها أزهى من الوطنِ الـمُضاع.

٣

٢٠١٣
الليلُ في «كازا» يكادُ يَشِعُّ عند البحرِ. تنطفيءُ المقاهي، كي تضيءَ موائدُ الحاناتِ.
سوف نسهرُ ليلةً في «المتروبول»: الفندقِ/ الملهى. الـمُغَنِّي سوف يأتي عندنا...
لكنّ «حسناءَ» الكريمةَ سوفَ ترتجلُ الأغاني. نحن مرتحلونَ في الليل البهيم. نعودُ من «كازا» إلى أفياءِ «طنجةَ» في ابترادِ الفجرِ.
كلَّ الليلِ كانَ النوءُ. أحياناً يغيمُ طريقُنا.
فكأننا ماضونَ في دربِ السماءِ.

لندن، ١٤/٠٦/٢٠١٣

وفاءٌ مستعادٌ

نعم!
أحببْتَها. . .
من نصفِ قَرْنٍ، وأنتَ تئِنُّ؛
تذكرُ كيف أسرى بوجْدِكُما قطارُ الليلِ. . .
لم تُحبِبْ سواها
وإنْ عاشرتَ سبعاً من العَبِقاتِ وُدّاً.
أنت تدري. . . كأنك لم تُقَبِّلْ غيرَها!
ما زال طَعْمٌ من الجوريّ في شفتيكَ، منها. . .
لقد أدميتَ منفتَحَ الطراوةِ،
أين تمضي بكل الوردِ؟
لم يذبلْ
ولم تذبلْ
كأن القطار يظلُّ من بغداد يسري
إلى نخلِ الجنوبِ. . .
كأن ماءً شفيفاً من عيونِ الله
يجري.

هذا القطارُ الذي مضى بكما، القطارُ ذو السكّة الضيّقة
القطارُ ذو مقصورة النوم الصغيرة مثل غرفة أطفالٍ. . .
سوف يحملك، يوماًما، من البصرة إلى بغداد، مكبّلَ اليدين.
كم حاولتَ أن تؤنسَ الشرطيّ المكلَّف! كنتَ فتىً آنذاك!

نعم. . . أحببْتَها
كانت فتاةً لها طَعْمُ العجينِ
وكان فيها من الطّلْعِ المفَتَّحِ ما تَقَطَّرَ. . .
كنتَ تدري بأنكَ لن تنامَ
وكنتَ تدري
بأن فتاتكَ انتظرتْ طويلاً لتهنأَ بالقطارِ.
لقد وصلْنا!

عربات الدرجة الثالثة، التي تنقل الجنود والفلاّحين والطلبة الفقراء العرباتُ التي يئنُّ فيها الخشبُ، ويئزُّ الذبابُ والسعالُ والصهدُ، هذه العربات تتنقّل بالسجناءِ، ليتوزّعهم العراقُ العميقُ. كنتُ مع الرفيق سامي أحمد، رسغي اليمين مُوْثَقٌ إلى رسغه الشمال.

أخيراً
تعلّمتُ أن الحياةَ التي قُدِّرَتْ لي، هيَ الصورةُ!
الأمرُ أعسرُ من أن تقولَ: لقد عشتُ. . .

أبسطُ من أن تقولَ: سلاماً!
إذاً، فلْنكُنْ في القطار. . .

نعم. . .
أنت أحبَبْتَها!

لندن، ٢٢/٠٦/٢٠١٣

حديقةٌ سِـرّيّـةٌ

تُهاتِفُني نوارُ: أراكَ!
قُلتُ: إذاً سأكسرُ كلَّ مِرآةٍ
لأسكنَ، هانئاً، عينيكِ...
كم تبدو الحياةُ شحيحةً
وقبيحةً،
عبرَ المرايا!
أنتِ أعلَمُ، يا نوارُ، بأنّ مَرأى الوردةِ الشاميّةِ العاديَّ
ليسَ الوردةَ الشاميّةَ...
الأشياءُ ليست، دائماً، مَـرْئِـيّـةً.
والقولُ أخفى من غماغمَ قد تُقالُ.
.....
.....
.....
كأنّ صوتَكِ، وهو يهتفُ لي: أراكَ
حديقةٌ سِـرِّيّـةٌ بين الزنابقِ والأراك!

لندن، ١٧/٠٧/٢٠١٣

أغنيةٌ عراقيّةٌ معروفةٌ

مطرُ الصيفِ، حُبُّكِ
ما بلّلَ الشفتينِ اللتينِ تريدانِ. . .
ما بلّلَ الكأسَ في المطعمِ الفارسيّ القريبِ
وما بلّلَ العشبَ،
ما بلّلَ الشرشفَ. . .
الشفتانِ اللتانِ تريدان ما زالتا، منذ أمسِ، تريدانِ؛
أرجوكِ أن تفهمي:
مطرُ الصيفِ حُبُّك ِ
والصيفُ ليسَ أميرَ الفصولِ!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
السحابةُ أنتِ
إذاً
أنتِ، منذورةٌ للهطول. . .

لندن، ٢٧/٠٧/٢٠١٣

أن تتمشّى صيفاً على امتداد القناة

لا مراكبَ ضيّقةً
أنْـهَـرَ(*) الغجرُ الإنجليزُ، مع النهرِ،
فجراً،
ولم يتركوا في ضفافِ القناةِ العريضةِ
غيرَ خراءِ الكلابِ
وتلِّ القُمامةِ. . .
قد أنهَرَ الغجرُ الإنجليزُ
ولكنني، ما أزالُ، هنا، منذُ عشرٍ
أسيرُ على مَسْرَبٍ في القناةِ العريضةِ، منتظراً أن أراها. . .
لقد رحلتْ
(منذُ قرنٍ؟)
ولكنني لا أزالُ، على العهدِ، منتظراً أن أراها. . .
المراكبُ قد أنْهرَتْ، تصْعَـدُ النهرَ، نحو الشمال

(*) أنْهَرَ، مثل أبحَرَ، انطلَقَ في النهر. الفعلُ أنهَرَ من اشتقاقي، ولم يسبقْ له وجودٌ في العربيّة.

وهاأنذا أهبِطُ :
الدرْجـةُ التاليةْ
ستكونُ الأخيرةَ
حيثُ المراكبُ، في القاعِ
حيثُ السكون. . .

لندن، ٢٠١٣/٠٨/٠٣

برلينُ الصيفُ

سأكونُ عند ودادٍ الحوراءِ في أيلولَ،
آنَ الخمرةُ البيضاءُ
والقنَواتُ. . .
في برلين،
سوف أكونُ مرتبكاً:
ودادُ حبيبتي الأولى
الصبيّةُ في زمانِ الوردِ. . .
كدتُ أُجَنُّ مَلْسوعاً، أقولُ: ودادُ بغدادُ!
المقاهي لن تُغَلِّقَ، لحظةً، أبوابَها، في الصيفِ.
سوف تلُمُّ طاولتي، ودادَ، وزهرةَ الخشخاشِ. . .
لكنْ، كيف يأتيني الكلامُ؟
لسانيَ التأتاءُ قد بَرأتْهُ أوربا طليقاً. . .
هل ستفهمُني ودادُ؟
هل أقولُ لها: صباح الخير؟
أَمْ أمضي أُقَبِّلُها؟
ودادُ
تحبُّني،

لكنْ. . . أتفهمُني؟
أظنُّ الـحُبَّ رَبَّ المعجزاتِ. . .
إذاً
سأمضي
مثلَ مجنونٍ
أُقَبِّـلُـها!

لندن، ٢٠١٣/٠٨/٠٤

تقولُ لي إقبالُ

أوَكُلّما قرّرْتُ أن ألقى الحياةَ، كما هيَ، اشتطّتْ بيَ الأغصانُ!
بالأمسِ، كنتُ، كما ألِفْتُ، أسيرُ منسرحاً مع القنواتِ،
لكني رأيتُ الشوكَ والقرّاصَ مُخْضَرّينِ
مندفعَينِ
أغمقَ من ندى النعناعِ!
إن تكُنِ الحياةُ كريمةً، كعوائدِ الممشى على جنْبِ القناةِ
فسوف أقول: أهلاً!
هكذا...
وتقولُ لي إقبالُ: يا سعدي، أحبُّكَ!
هكذا...
وأنا أُصّدِّقُها
لأن الصدقَ مرآتي،
وأعرفُ أن إقبالَ الكريمةَ، دونَ أسئلةٍ، تُصَدِّقُني...
أُطِلُّ:
الغيمُ ينقشعُ
البحيرةُ، في البعيد، تلوْحُ واضحةً
وصافيةً...

لندن، ٢٠١٣/٠٨/٠٩

استشارةٌ متأخرةٌ

أوَ كُلُّ مَنْ أحببْتُ صِرْنَ قصيدةً؟
أوَ كلُّ ما أبغضْتُ صارَ شواهداً في حفلتي؟
ما أخْيبَ الـمَسعى!

*

وما طَعْمُ القصيدةِ، إنْ فقدتَ روائحَ الجـُوريّ،
والآسِ الـمُـفَـلْـفَلِ بينَ ثوبَيها؟
أتحسَبُ أنّ ما أفنَيتَ عُمرَكَ في كتابتِهِ. . . الحياةَ؟
إذاً؟
إذاً، يا سيّدي، فلْتَرضَ بالنزْرِ اليسيرِ
(كما ظننْتَ)!
بما تفضّلتِ الحبيبةُ أن تُبادلكَ:
النعومةَ
والكلامَ الهمْسَ
والنُّعْمى على متْنِ الفِراشِ. . .
أليسَ ما تهَبُ الحبيبةُ، في العشِيّةِ، منتهى البحرِ؟
القصائدُ لم تكُنْ إلاّ مدائحَها؛

فكُنْ عند الحبيبةِ
لا تكُنْ عندَ القصيدةِ وحدَها. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أوَ كُلُّ مَن أحببتَ صِرْنَ قصيدةً؟
ما أخيبَ المسعى!

٢٠١٣/٠٨/١٧

استجابات

أُنصِتُ
كان المطرُ **النّثُّ**، يسيلُ ضَباباً، وأنا أستمتِعُ خلفَ زجاجِ السيّارةِ
أُنصِتُ
أَستنْبِتُ قِنَّبَ شفْشاوِن
زهرةَ نَوّامٍ من شيرازَ
وفِطْراً منٍ أدغالِ الأمازونِ
وأوراقَ الكولا من البيرو. . .

*

أُنصِتُ
كان المطرُ **الوَدْقُ**، يسيلُ خطوطاً، وأنا أستمتِعُ خلف زجاجِ السيّارةِ
أُنصِتُ
أستقبِلُ أجنحةً تتخاطَفُ بين الصفصافِ الفحْلِ
أرانبَ تخطِفُ، كالبرقِ، لتدخلَ في ما لن تعرفَهُ. . .
طيراً أسودَ
أُغنيةً للضالِّينْ. . .
آمِيـــنْ!

*

وأُنصِتُ
كان المطرُ **الغَدْقُ**، يسيلُ شآبيبَ تدُقُّ
ولكني أستمتعُ خلفَ زجاجِ السيّارةِ. . .
كان المطرُ الغَدْقُ يقولُ:
افتحْ عينَيكَ
لتسمعَ. . .
وافتحْ عينَيكَ
لتلْمُسَ. . .
وافتَحْ عينَيكَ
لتعرفَ كيف يكونُ الكَوْن!

لندن، ٢٤/٠٨/٢٠١٣

جنّــةُ الجواميس الأولى

ليتَ تلكَ البلادَ التي كانت الماءَ، عادتْ، كما كانت: الماء ،
ماذا أقولُ لنفسي، وقد بَعُدَ العهدُ بي، وانتهى الوعدُ؟
بغدادُ سجنٌ
وفي البصرةِ السرَطانُ
وفي الموصلِ القاعدةْ؟

ثَـمَّ ما يجْمعُ الماءَ والنارَ
ما يجمعُ الطينَ والنارَ
ما يجمعُ الطيرَ والنارَ
لكنّ تلكَ البلادَ التي كانت الماءَ، لم تَعُدِ الآنَ حتى بلاداً
لتجمعَها لغةٌ أو أغانٍ. . .
وحوشُ العصورِ الخوالي تجوبُ مفازاتِها
وتُهَيُّ، من لحمِ أطفالها، المائدةْ.

رُبّـما قرأَ السعداءُ بأغلالهم، كُتُبَ الطينِ من بابلٍ
أو تماثيلَ آشورَ
بُـرْدِيَّ ســومرَ

أو نصفَ سطْرٍ يُحَدِّثُ عن بلدٍ كان يُسْمى العراق.
رُبّما...
غيرَ أنّ الجواميسَ تَمْضَغُ
تَمْضَغُ
تَمْضَغُ؛
ما الفائدةْ؟

لندن، ١٥/٠٩/٢٠١٣

قُبَيلَ العاصفةِ المطريّة

السماءُ الرصاصُ، سماءٌ رصاصٌ، كما هيَ، منذ ابتداءِ الخليقةِ
ريحٌ
ولا ريحَ . . .
حتى الغصونُ التي تتحرّكُ كانت تَنُوسُ بأنفُسِها.
حِدْأتانِ تحومانِ
لا طيرَ . . .
كان الزجاجُ يئِنُّ
الهواءُ حبيسٌ كأنّ الكهوفَ القديمةَ قد صارت الكونَ.
مختنقاً كنتُ؛
فكّرْتُ أن رمادَ البراكينِ في عدَنٍ كان يتْبعُني.
الغابةُ، الآنَ، تبدو مشَوّشةً، لستُ أعرفُ أشجارَها،
والهواءُ الثقيلُ يُلَطِّخُ حتى لحاءَ الجذوعِ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لماذا لجأتُ إلى النافذةْ؟

لندن، ١٧/ ٠٩/ ٢٠١٣

إعادةُ نظَرٍ

ما مقامي بأرضِ لندنَ إلاّ كمقامِ المسيحِ بينَ اليهودِ.
لستُ أعني هنا الإنجليزَ
اللهُ أدرى بأنهم أطعَموني
وأنهم آمَنوني...
قُلْ إذاً، كيف يستقيمُ مُقامي، كمقامِ المسيحِ بين اليهودِ؟
هل أقولُ الحقيقةَ؟
الحقَّ؟

.....

.....

.....

لم ألْقَ أوباشاً كقومي
(أنا أعني قومي العراقيّين في لندنَ)
الآنَ
هل بَلَّغْتُ؟
فَلْيُبْلِغِ الحاضرُ منكم، مَن غابَ...
إني الآنَ حُرٌّ...

ولن يعودَ مقامي كمقامِ المسيحِ بينَ اليهودِ. . .
أنا حُرٌّ في أرضِ لندنَ
حُرٌّ
وبعيدٌ عن العراقِ البعيدِ، المبتلى بحُكْمِ القرودِ. . .

لندن، ١٩/٠٩/٢٠١٣

ضَـبـاب

ضحىً باردٌ / دافيءٌ
والسياجُ الذي هو أقربُ من نصف مترٍ إليّ، بَدا غائماً
والصنوبرةُ اختفَتِ. . .
القطّةُ انتفشَتْ،
كان سِرْبٌ من الوزّ يمضي إلى الشرقِ:
قد يعبرُ، اليومَ، من قادسٍ، نحو إفريقيا.
في الضّبابِ تكونُ الأغاني مشوّشةً.
قلتُ: فَلأمْضِ نحو البحيرةِ!
قد أتلمّسُ في النبتِ والصمتِ، نبضَ الحياةِ التي لم تَحِنْ بَعْدُ. . .
ذاكَ النداءَ الذي ليس يُدْرَكُ،
تلكَ المسافةَ بين يدي والـغِـنـاءِ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

انتبهتُ إلى أنني في مطارٍ
وأني سأمضي إلى نُزُلٍ عندَ إحدى الكنائسِ
أني سألقى، هنالكَ، في مدخلِ الـنُـزْلِ، مَن كانت امرأتي.

أنني سأقولُ لها:
سننامُ، معاً، هذه الليلةَ!
اليومَ بردٌ
وأشعرُ أني وحيدٌ ومرتجفٌ...
والضّبابُ كثيفٌ.
وقد قلتِ لي أمسِ إنكِ في مدخل الـنُزْلِ
منذُ سنينَ...
.....
.....
.....
البحيرةُ تبدو مشوّشةً في الضّباب.

لندن، ٢٤/٠٩/٢٠١٣

جُمودٌ

قالت ودادُ:
أُصَلِّي أن نكونَ على مَتْنِ الفراشِ
فَنعلو ثمَّ ننحدرُ. . .
كانت ودادُ تنادي من غُرَيفتِها بشرقِ برلينَ.
لكني، هنا، دبِقٌ في ليلِ لندن :َ
كان النوءُ ينحسرُ
والريحُ تخفُتُ
لا رعدٌ
ولا مطرُ. . .

لندن، ٢٥/٠٩/٢٠١٣

ماغْنـوليـا

لو أنني لم آتِ هذا الحيَّ، منذُ سنينَ عشرٍ
ما عرفتُ الجارةَ الخضراءَ، هذي. . .
وأقولُ: ماغْنولْيا!
لقد أحببتُ طَعماً للتغنُّجِ في اسمِ هذي الجارةِ، الخضراءِ طولَ العامِ.
أحياناً يغَطِّي الثلجُ حتى الأَرْزةَ العُظْمى
ولكنْ جارتي الخضراءُ تُعْلي قامةً خضراءَ. . .
ماغْنوليا!
أتعرفُ سِرَّ حبّي؟
سِرَّ حُبّي الجارةَ الخضراءَ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
قد أنْبَتُّها، بيدي!

لندن، ٢٧/٠٩/٢٠١٣

طريقٌ إلى حضرموت

أحسستُ أني الآنَ في عدَنٍ
وأني عند ساحلِ أبْيَنَ. . .
الأمواجُ ناعمةٌ
ويأتيني نسيمٌ باردٌ، وأقولُ: هل تأتي الدلافينُ؟
الهواءُ مُضمَّخٌ باليود والأملاحِ والأصدافِ. . .
من لَحْجٍ تهبُّ روائحُ البابايِ؛
صيّادونَ كانوا يمضغونَ القاتَ عند القاربِ المقلوبِ
تلتفُّ الشِّباكُ على بقايا من سراطينٍ وأعشابٍ،
وأسمعُ قائلاً: أتريدُ صَيداً؟
ثَمَّ شِيْحٌ
ثَمَّ فُلٌّ ناقعٌ بتَضّوُّعِ الفودكا.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سأمضي، واثقَ الخطواتِ، منتشِياً
لأبلُغَ، بعدَ قَرْنٍ، حضرموت!

لندن، ٣٠/٠٩/٢٠١٣

قلعة ألْسِنور (قلعة هاملِتْ)

سوف ينجابُ عنكِ العَماءُ. الغيومُ التي حُمِّلَتْ ثبَجاً من بحارِ الشمالِ
سترحلُ، بعد قليلٍ، جنوباً. سيشربُ زيتونُ قادسَ منها. وقد تقطعُ البحرَ
قاصدةً رملَ إفريقيا. . .
كلُّ ما يجعلُ الكونَ أقربَ قد يختفي بغتةً. حولكِ الخندقُ اختنَقَ. الشمسُ
أسطورةٌ. نحن نقرأُ أسرارَها وحرارتَها في كتابِ الأساطيرِ. لا بأسَ!
والبحرُ؟
تلك الصخورُ التي تتلاطمُ، كالموجِ. . .
من ههنا، كان هاملِتُ يُبْحِرُ.
من ههنا
قيلَ للملِكِ الإنجليزيّ: تقتلُ هاملِتَ.
لكنّ هذا القتيلَ استوى قاتلاً. . .
يدخلُ البردُ في الدمِ
والقاعةُ الملَكيّةُ تدخلُ في الدمِ

والسُلَّمُ المختفي في دمِ المسرحيةِ ينفتحُ الآنَ
لي. . .
سوف أدخلُ:
أرقى، وأرقى، إلى أن أرى الملِكَ الشبَحَ.
الحارسُ المتثائبُ يلمحُ خُصلةَ شَعرٍ،
يرى الليلَ أشقرَ.
أرقى
وأرقى
وفي مثلِ ما تتخاطَفُ في الـجُرْفِ تلكَ النوارسُ
أبصرتُ هاملِتَ. . .
مرتعداً كان من هولِ عينَي أبيهِ.
ويهمسُ:
سجنٌ هي الدانيمارك!

لندن، ٢/ ١١/ ٢٠١٣

عيشة بنت الباشا

طِلْعَت الشُمّيسهْ
على شَعَرْ عيشهْ
عبشه بنت الباشا
تِلْعَبْ بالخرْخاشةْ!

*

لَكأنّ عائشةَ الجميلةَ تستجيرُ. تقولُ لي: سعدي!
أوَلستَ مَن يهوى الجميلاتِ؟ الحرائرَ... والصبايا؟
كيفَ تخذلُني، إذاً؟
أنتَ العليمُ بأنني، بنتٌ لتاسعةٍ، وأني كنتُ ألعبُ بالدُّمى.
لكنهم جاؤوا
وقالوا: ثَمَّ تطْريةٌ لوجهِكِ...
(كان وجهي وجهَ طفلتكم، وليس من معنىً لتطريةٍ...)
أجابوني:
النبيُّ أرادكِ!

*

طِلْعَت الشمّيسةْ
على شعَر عَيشة

عيشة بنت الياشا
تلعبْ بالخرخاشة

*

وعائشةُ، الحـُمَيراءُ. . .
الجميلةُ مثل إيرلنديّةٍ، والشَّعْرُ أحمرُ.
يا عطاَء الله!
كان محمّدٌ، ما بين رُكعته، وتالي رُكعةٍ، ينوي يُباشرُها
وأحياناً يرى ما بين ساقَيها، صلاةً. . .
هكذا
ذاقتْ عُسَيلَتَهُ
وذاقَ محمدٌ، دبِقاً، عُسَيلَتَها. . .
هيَ مَنْ هيَ: الـحَوّاءُ
عائشةُ الحـُمَيراءُ،
الجميلةُ مثل إيرلنديّةٍ. . .
صنمُ النبي !ّ

*

طِلْعَت الشمّيسة
على شَعَر عيشة
عيشة بنت الباشا
تلعبْ بالخرخاشة. . .

*

لكنّ عائشةَ الجميلةَ، سوفُ تُعْلي أن ناعمَ شَعرِها سيظلُّ أحمرَ
سوف تُعْلِنُ أنها، أبداً، محاربةٌ. . .
لقد قهرتْ نبيّاً في السريرِ
وهاهي ذي، على جملٍ، تقاتلُ.
إنّ عائشةَ الـحُـميراءَ
النبيّةُ
بعدَ أن ذهبَ الذكورُ الأنبياءُ إلى الهباء. . .

*

طِلعت الشمّيسة
على شعَر عَيشةْ
عيشة بنت الباشا
تِلْعَبْ بالخرخاشة!

لندن، ١٦/ ١١/ ٢٠١٣

المحتويات

ديوانُ طَنْجة (٢٠١٢) ٥
طنجة ٧
كيسُ الخَيش ٨
حانةُ البِرْغُولا ٩
وَشْمُ القرنفُلِ ١١
مَرْتِيْل ١٢
صباح الأحد في طنجة ١٤
فندق رِتْز ١٥
مقهى بورت ١٦
حانةُ البريد ١٧
القصيدة العاشرة ١٩
إلى دوسْتَينا لافَرْن ٢١
To Dostena Lavergn ٢٢
سَتراني في لندن ٢٣
ترتدي مَلْحَفاً ٢٤
أغنيةُ البحار الثلاثة ٢٥
تغييرُ عاداتٍ ٢٦

العـاليـة ٢٨
مطرٌ خفيفٌ ٣٠
لي بيتٌ لطيفٌ ٣١
بُولِيرو تُغَنِّيها امرأةٌ ٣٢
الخريف الإنجليزيّ ٣٤
بعدَ قصفِ طرابلُس ٣٥
صباحٌ باريسيٌّ خفيفٌ ٣٦
في مُحْتَرَفِ نُعمان هادي بالضاحية الباريسية ٣٨
كنتُ أتمشّى ظُهراً ٤١
دُعابـةٌ ٤٣
يا نبعةَ الرّيحان ٤٥
هل نتعلّـمُ؟ ٤٧
لستُ أدري ما سأقول. ٤٨
غيرَ بعيدٍ عن البحر ٤٩
الأزِقّـــةُ ٥٠
نومُ الهناءةِ ٥١
حــانة أزْمِرالْــدا ٥٣
بعدَ أن انتصفَ الليلُ ٥٤
الأنــيــنُ ٥٥
لَـيـلِـيّـةٌ ٥٦
مقهى الحافة ٥٧
مشــروعٌ ٥٨
منخفَضٌ جوّيٌّ ٥٩
طريقٌ مسـدودٌ؟ ٦٠

خبزي خبزُ الفقيرِ ٦١
الفلاسفة ٦٢
الحديقة العامّة ٦٣
للعقيدِ مَن يُكاتبُهُ ٦٤
حقيقةٌ ٦٦
السماءُ والطّارق بنُ زياد ٦٧
صباحٌ أليفٌ ٦٨
المغربيّ يقول. ٦٩
القطط ٧١

قصائد الخطوة السابعة ٧٣
الاختناق ٧٥
أغنيةُ الغَنِيِّ بِما اقتَنى ٧٦
إضرابُ بَحّارةٍ ٧٧
أجراسُ الميلاد ٧٨
أتمَشّى بمحاذاةِ القناة ٨٠
أبسطُ من سؤالٍ ٨١
النَّذيرُ ٨٢
الطبيعةُ (سيمفونيةٌ صيفيةٌ) ٨٣
النحلُ يزورني ٨٥
الخريف العاشر ٨٦
تشخيصٌ ٨٨
تدقيقٌ ٨٩
تحيّةُ العَلَمِ ٩٠

إيرلنديّةٌ في الشمالِ الأميركيّ ٩٢
أوّل أيّار في موريس بلاسه (برلين) ٩٣
مرحباً، منتظِر! ٩٦
اليعسوبُ الذهبُ ٩٨
حياةٌ عمليّةٌ ١٠٠
حِنّاءُ الفاوِ ١٠٢
حالةٌ يوميّةٌ ١٠٤
جِنازةٌ ١٠٥
ثلاثة ثعالبَ تلعبُ في ضوءِ القمرِ ١٠٧
تهْلِيْلةٌ لِطائرِ الفجرِ ١٠٩
تنويعٌ على طلال حيدر ١١٠
كلامٌ في أوّلِ الليلِ ١١٢
سكونٌ صيفيٌّ ١١٤
سأكونُ صديقي ١١٥
زرادَشت ١١٦
روايةٌ روسيّةٌ ١١٧
خِشْفٌ خلفَ السياجِ ١١٩
خرْبَشةٌ ١٢٠
ليسَ رِهاناً ١٢١
لن تأتي الريحُ الغربيّةُ ١٢٢
لا بأسَ عليكَ! ١٢٣
قلانسُ ياسمين ١٢٥
قرارٌ ظالِمٌ ١٢٧
طُقوسٌ ١٢٨

هكـذا. ١٢٩
هدهدةٌ ١٣٠
مَهْووسٌ ١٣١
مُـقـارَنـةٌ ١٣٢
مدرسـة المحموديّة ١٣٤
ما البحرين؟ ١٣٦
ليلُ المحَطّـةِ ١٣٨
هواجسُ منزلِ التـلّ ١٤٠

قصائدُ هَيْرْفِيلْد (٢٠١٣) ١٤٣
فُـتُـوَّةٌ ١٤٤
كنتُ أتمشّى ظُهراً ١٤٥
ألعابٌ لُـغَـويّـةٌ ١٤٧
العراقُ آتٍ ١٤٩
محاولةُ اندماجٍ ١٥١
غادِر الآنَ. ١٥٣
أسمعُ المطرَ الليلةَ ١٥٥
رؤيا عام ٢١١٢ ..... ١٥٧
رُبـاعيّـةٌ ١٥٩
نهار أحد مشمس في مونمارتر ١٦٠
قمرٌ في الشتاء الإنجليزيّ ١٦٢
صلاةٌ في ٣١ كانون أوّل ٢٠١١ ..... ١٦٤
المستحيل ١٦٥
نـقّـارُ الخشبِ ١٦٦

الأطلال ١٦٧
يقظةُ الأحدِ ١٦٨
في مساء الـمرفأ ١٦٩
غيومٌ من الأطلسـيّ ١٧٠
نساءُ «سوق الـمُصَـلّى» ١٧٢
سـاحة العاجزينَ ١٧٣
«العرائش» نهارَ المولد النبويّ» ١٧٤
البيت ١٧٦
خواطر ٨ شباط ١٧٧
الإسلامُ ديناً ١٧٩
سـلامٌ من هناك ١٨١
ضَـبـاب ١٨٣
تنويع على «ما مقامي بأرض نخلةَ» للمتنبي ١٨٤
أفقرُ الفقراء ١٨٦
التحديقُ إلى الأسفل ١٨٨
استمطار ١٩٠
القدّيس الإيرلنديّ ١٩٢
دربُ الزَجّاجين ١٩٣
ليليّةٌ في ليلٍ عاصفٍ ١٩٥
الهاتـفُ يخـتـنـقُ ١٩٧
مَن صبَرَ ظفَرَ. ١٩٩
أبولِّيْنَيـر ٢٠١
الهـدوء ٢٠٣
بَـيـاضٌ ٢٠٤

اعتــذارٌ ٢٠٥
منظرٌ صباحيٌّ ٢٠٧
أُحِبُّ النحيلةَ ٢٠٨
رِضـــا ٢٠٩
بَـدَهِـيّـةٌ ٢١٠
الكلامُ الكريهُ ٢١٢
حديقةُ الأميرة ٢١٤
الـقُـبْـلــةُ ٢١٥
غفلـةٌ ٢١٧
في المقهى مع قهوة سوداء بلا سُكّر ٢١٩
لقد ضاقتْ بنازلةٍ ذراعي! ٢٢١
شمسٌ ساطعةٌ في أوائل أيلول ٢٢٣
إحدى وعشرون إطلاقةً متأخرةً لأدريان ريتش ٢٢٤
زمنٌ أميركيٌّ شــماليٌّ ٢٢٦
ثلاث قصائد سُحاقيّــة ٢٣٧
رَبِّ هَـبْني جناحَكَ ٢٤٠
ليليّـةٌ ٢٤١
غرفة الاستقبال ٢٤٣
مطار هيثرو - المحطة الخامسة ٢٤٥
شُجيرة الرند ٢٤٧
الشتاءُ يختلفُ ٢٤٨
حمدان الســاحر ٢٥٠
وَعْدُ اللّه ٢٥٢
غــزّةُ هاشــم ٢٥٤

سأظلُّ مشتاقاً ٢٥٥
المدينة المُحرّمة ٢٥٦
ما نسجَ العنكبوتُ ٢٥٧
تمتمةُ الشتاء ٢٥٩
ليس على العاشقة حرَجٌ ٢٦١
الجميلةُ والإخطبوط ٢٦٢
الشيخُ الأخضرُ ٢٦٣
نفسٌ مُطمئنّةٌ ٢٦٥
محاولةُ تثبيتٍ ٢٦٧
المرفأ ٢٦٨
الشيوعيّ الأخيرُ يَتمازَحُ ٢٦٩
تنويعاتُ النبتة المنزليّة ٢٧١
صديقتي التي كانت شيوعيّةً في البصرةِ ٢٧٢
عشيّةُ الميلاد ٢٧٣
من أهازيجِ أطفالِ البصرة ٢٧٥
تعويض ٢٧٧
تَناسُخُ أرواحٍ؟ ٢٧٨
معجزةُ مَطْلعِ ٢٠١٣ ..... ٢٨٠
طائرةُ تدريبٍ تعبرُ النافذة ٢٨٢
أصواتٌ خفيضةٌ ٢٨٤
اقتِسامٌ ٢٨٦
بيتٌ حزبيٌّ ٢٨٧
جِلسة اللوتس ٢٨٩
مَوعِدٌ؟ ٢٩١

سيمفونيّةٌ مَرْئِيّةٌ ٢٩٣
عليكَ أن تفُكَّ الحصارَ ٢٩٥
مُلحَق: في ليل بروكسل: أشقياءُ مغاربةٌ سلبوني العراقَ الذهبَ .. ٢٩٧

عَيشة بِنْت الباشا (٢٠١٤) ٣٠٣
قلعةُ الحِصْنِ التي قُربَ حِمْص ٣٠٥
العقَبة ٣١١
عند قلعة الكرَك ٣٢١
يومُ سبتٍ غائم ٣٢٣
قبلَ سوقِ المُصَلّى ٣٢٤
جرسيف ٣٢٦
الرأس الأسود ٣٢٨
الأعظميّة ٣٣٠
إغفاءةٌ ٣٣١
زورقٌ سِرِّيٌّ ٣٣٢
حُرْجٌ ليسَ بعيداً عن الطريق العامّ ٣٣٣
اللُهاث ٣٣٤
جبالُ الريف ٣٣٥
البرق يلوحُ من «طريفة» ٣٣٦
عُمّالٌ مَغاربةٌ ٣٣٧
الصّمت ٣٣٩
شفْشاوِن ٣٤٠
الشيوعيّ الأخير يريد أن يتغدّى ٣٤٢
خلِّنا نتمازَحُ! ٣٤٤

محكمة عسكرية ٣٤٦
مُكـالَـمـةٌ ٣٤٧
لعنةُ العراق ٣٤٨
ثلاثة أيام متعاقبة ٣٥٠
متروبول ٣٥٢
وفاءٌ مستعادٌ ٣٥٤
حديقةٌ سِـرّيّـةٌ ٣٥٧
أغنيةٌ عراقيّةٌ معروفةٌ ٣٥٨
أن تتمشّى صيفاً على امتداد القناة ٣٥٩
برلينُ الصيفُ ٣٦١
تقولُ لي إقبالُ ٣٦٣
استشارةٌ متأخرةٌ ٣٦٤
استجابات ٣٦٦
جـنّـةُ الجواميس الأولى ٣٦٨
قُبَيلَ العاصفةِ الـمطريّة ٣٧٠
إعادةُ نظَـرٍ ٣٧١
ضَـبـاب ٣٧٣
جُمودٌ ٣٧٥
ماغْـنـولـيـا ٣٧٦
طريقٌ إلى حضرموت ٣٧٧
قلعة أَلْسِنور (قلعة هاملِتْ) ٣٧٨
عيشة بنت الباشا ٣٨٠

سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء السادس

سعدي يوسف

الأعمال الشعرية

الجزء السادس

ديوان غرفة شيراز

منشورات الجمل

ولد **سعدي يوسف** في البصرة عام ١٩٣٤. تخرّج من دار المعلمين ببغداد سنة ١٩٥٤. عمل في الصحافة وتنقل بين عدة بلدان ويقيم اليوم بلندن. نشر العديد من الترجمات الشعرية والنثرية، وكتب القصة والرواية، ترجمت أشعاره إلى العديد من اللغات ونال جوائز أدبية في البلدان العربية والأوروبية. من أعماله وترجماته: **القرصان**، شعر (١٩٥٣)؛ **أغنيات ليست للآخرين**، شعر (١٩٥٥)؛ **قصائد مرئية**، شعر (١٩٦٥)؛ **بعيداً عن السماء الأولى**، شعر (١٩٧٠)؛ **نهايات الشمال الأفريقي**، شعر (١٩٧٢)؛ **الأخضر بن يوسف ومشاغله**، شعر (١٩٧٢)، **والت وايتمان: أوراق العشب**، ترجمة (١٩٧٦)؛ **تحت جدارية فائق حسن**، شعر (١٩٧٤)؛ **قصائد أقل صمتاً**، شعر (١٩٧٩)؛ **خذ وردة الثلج، خذ القيروانية**، شعر (١٩٨٧)؛ **قصائد باريس، قصائد إيثاكا**، شعر (١٩٩٢)؛ **كافافي: وداعاً للاسكندرية التي تفقدها**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **يانيس ريتسوس: إيماءات**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **لوركا: الأغاني وما بعدها**، ترجمة (١٩٨١)؛ **فاسكو بوبا: شجرة ليمون في القلب**، ترجمة (١٩٨١)؛ **غونار أكيلف: ديوان الأمير وحكاية فاطمة**، ترجمة (١٩٨١)؛ **أونغاريتي: سماء صافية**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هولان: قصائد**، ترجمة (١٩٨١)؛ **هنري ميللر: رامبو وزمن القتلة**، ترجمة (١٩٧٩)؛ **نغوجي واثيونغو: تويجات الدم**، ترجمة (١٩٨٢)؛ **ديفيد معلوف: حياة متخيلة**، ترجمة (١٩٩٨)؛ **وولي سوينكا: المفسّرون**، ترجمة (١٩٨٦).

سعدي يوسف: **الأعمال الشعرية، الجزء السادس: ديوان غرفة شيراز**
الطبعة الأولى
خطوط الغلاف: الفنان علي عاصي
كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت – بغداد ٢٠١٤
تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨/١١٣ ـ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2014
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

الديوانُ الإيطاليّ

قصـائدُ فُورْتَيْسّـا

«فورتَيسا قلعةٌ أتَمَّ النمساويون بناءَها في العام ١٨٣٨ في جنوبيّ التيرول (النمساويّ آنذاك)، تحسُّباً من نابوليون الذي كان يدقّ على أبواب أوربا القديمة بجيش من الحفاة، وبرايات مثلثة الألوان، هي رايات الثورة الفرنسية.

أتيحتْ لي فرصة أن أزور القلعة، وأن أظل لها مجاوراً، بين الحادي عشر من نيسان ٢٠٠٨ والثامن عشر منـه.

استذكرتُ وتأمّلتُ، وتمّتعتُ بمرأى القمم الثلجية، وبهديرِ الماء المنحدرِ من الأعالي:

إنه الألْـب!

كتبتُ ثماني قصائد، مُـنَـجَّـمـــةً كالآتي:

قلعة السماء البيضاء ١٢,٤ - سوق السبت في بولزانو ١٢,٤ - ليل البحيرة المتجلدة ١٢,٤ - الشمس التي لا تأتي ١٣,٤ - سأنتظر ١٤,٤ - الموعد ١٤,٤ - مدخل سِـرّيّ إلى قلعة فورتَيسّـا ١٥,٤- تهليلةٌ - ١٦,٤ القلعة الآن هي في الجانب الإيطاليّ، لكنها كانت حتى ١٩٢٠ جزءاً من التيرول النمساويّ».

Batzenhausl Bar with Algrein Wine

هذه القصيدة الأخيرةُ كُتِبَت في زيارتي الثانية، عند افتتاح القلعة.

س ي

قـلـعـةُ السـماءِ البيضاءِ
Fortezza

يأتي الربيعُ متأخراً. ليس لأن الشتاءَ طـــويلٌ.
الربيع يأتي متأخراً لأنه سيكون ثلاثةَ فصولٍ.
ثلوجُ نيسان لن تذوبَ كالآيس كْرِيم.
البحرُ الأسودُ يُـلَـوِّحُ لها من بعيدٍ: اذكُـريني.
الدانوبُ
سيظلّ مترقرقَ الحصا. والفتياتُ يَغْدونَ أجملَ.
الصنوبرُ في الوادي سوف يصعد إلى السفح.

أسـمعُ في الليلِ المطرَ المتناوِبَ والثلجَ
وأسمعُ في الليلِ الريحَ تئِنُّ على الشُّبّاكِ
وأسمعُ في الليلِ الصمتَ.
الساحةُ أصغرُ مِن أن نُبصرَها.
والقِمّةُ أقربُ
والفندقُ أحمرُ حتى الأذُنَين!

الجســـرُ الذي يحــفَظُ وحشيةَ الصخورِ والغابة
من إنسِـبْروك إلى فورتَـيـسّا
كيلومتراً بـــعدَ آخرَ،
هذا الجســـرُ يُتابعُ القطارَ الـمُـجهَدَ،
الجسرُ يشهقُ لامِعاً مثلَ سِـــوارٍ فضّـةٍ اســتقامَ في يدِ الســاحرةِ.
الجسرُ ألقى شِباكَه على الجبل،
واصطادهُ كما يصطادُ يابانيٌّ نحيلٌ حوتاً في البحار الجنوبية.

أُبصِـــرُ، أحياناً، ما لا تبصرهُ القطّةُ.
هل أنّ محطَّة فورْتَـيسّا كانت آخرَ ما أبصرَهُ موسوليني الهاربُ؟
هل أن محطةَ فورتَـيسّا آخـرُ هذا الكونِ. . .
لتأتي بملائكةٍ ومجانينَ
وتُلقي من عرباتِ السفرِ الضيّقةِ القرنَ الحادي والعشرين؟

القطارُ يمضي شمالاً.
فيرونا تشتطُّ بنا إلى قارةٍ أخرى.
القطارُ يسعل مثل راكضٍ شيخٍ في ماراثون.
النبيذ المحلّـيّ خفيفٌ، صافٍ.
سنملأ كؤوسَنا ونتأمّلُ في الزجاجِ المُـضَـبَّب.
القطارُ يمضي شمالاً.

والذين يقرأون عن الأديِرةِ، مسافرينَ،
لن تخدشَ خدودَهم المتورِّدةَ سـعْـفةُ نخلٍ جفّـفَها يورانيومُ القذائفِ.

أُحِسُّ بالعصافيرِ في الرابعة (صباحاً بالطبع).
احسُّ بالقطار الأولِ في الخامسة ورُبْعٍ.
أُحِسُّ بأني أرتعشُ...

فورتيـسّا، ١٢/ ٠٤/ ٢٠٠٨

سـوقُ السبت في بولزانو
Bolzano

الـدربُ الـضـيِّـقُ مـن عـنـدِ رصـيـفِ مـحـطّـتِـهـا حـتـى مـا كـان سـيُـدعـى
كاثدرائيّتَها
كان السوقَ
(وأعني سوقَ السبتِ) الثاني عشرَ من نيسانَ
ولم تكن السوقُ مَعاشاً
كانت، وكما أوهَـمَني مَن في السوقِ، مَتاعاً
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الناسُ أقاموا في الدربِ مآدبَهم:
حفلاتِ الكوكتيلِ. . . إلخ.
أمّا الفقراءُ فليس لهم حتى في سوقِ السبتِ مكانٌ.
*
إفريقيٌّ أسْـودُ
كان المتطفِّلَ:

ظلَّ يقولُ بصوتٍ مختنقٍ:

أنا جائعْ

أنا جائعْ. . . .

بولزانو، ١٢/ ٠٤/ ٢٠٠٨

ليلُ البحيرةِ المتجلِّدة

جبلٌ على جبلٍ، وثَـمَّ مَـخاضــةٌ. . .
ماءٌ ولا كالماءِ
أشجارٌ ولكنْ شِـبْـهُ أحجارٍ
كأنّ هناكَ فُوَّهةً لِـبُركانٍ تَجَــمَّدَ منذُ آلافِ السنين
الشمسُ باردةٌ.
وطيرٌ واحدٌ سيجيءُ
طيرٌ سوف يحملُنا، وقتلانا، إلى باب الجحيم.

فورتَيسّا، ١٢/ ٠٤/ ٢٠٠٨

الشمسُ التي لا تأتي

في هذا الأحدِ المشدودِ إلى سفحِ الجـبلِ اشتقتُ إلى بلدي
حيثُ الصيفُ يُطقطِقُ منذ الآن
وحيثُ الشمسُ تُسَـــلِّطُ بؤرتَها حتى في الظلِّ
(النخلُ بغيرِ ظِلالٍ). . .

في هذا الأحدِ الـمُـبْـتَلِّ ككلبِ الراعي اشتقتُ إلى بلدي
أنا منذُ الصبحِ أقولُ: اشتقتُ إلى بلدي.
وهَنَ العظمُ
ورأســـي مشتعلٌ شَيباً. . .

في هذا الأحدِ المقرورِ اشتقتُ إلى بلدي
أمضيتُ صباحي في الساحـةِ والمقهى
غمغمتُ على ضفةِ النهرِ الجبليّ صلاةً متأخرةً
لكني أرتعشُ
البردُ تَغلغلَ كالإبَرِ الثلجيـــةِ في الدمِ. . .

في هذا الأحدِ الـجَهْمِ اشتقتُ إلى بلدي

لكني لم أدركْ إلاّ الساعةَ
حين مررتُ بمقبرةِ القريةِ

أني، المسكينَ، بلا بلَـــد !

فورتَـيسّا، ١٣/ ٠٤/ ٢٠٠٨

سـأنتظِـرُ!

لم أجدْ طيراً على غُصْـــنٍ
ولا نحلَ على الأزهارِ. . .
قلتُ: اليومَ لم يستيقظِ الكونُ على الكونِ!
وهذا النهرُ
هذا الهادرُ
المنحدِرُ
الجارفُ كالثورِ. . .
ألا يهدأُ كي نلتقطَ الأصدافَ في القاعِ
وكي نسمعَ من حوريّـــةٍ أغنيةً؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أُرهِفُ ســـمعي:
طائرُ أجهلُ ما يُـسْـــمى
ينادي
مَن ينادي؟
الصبحُ لم يفتحْ على الفندقِ بوّابتَـهُ، بَعْـدُ
وهذا الجبلُ الأسوَدُ يَـــدَّثَّـــرُ في ريشِ الغراب. . .

فورتَيسّا، ١٤/ ٠٤/ ٢٠٠٨

الـمَـوعِــد

قلتُ: أمشي إلى آخرِ البلدةِ. . .
الشمسُ ناعمةٌ
والمحطّــةُ خاويةٌ (أحَــدٌ ضائعٌ في المواعيدِ)
أبصرتُ منعطَفاً في البعيدِ
انتهَيتُ إلى شِــبْــهِ منحدَرٍ يصِلُ النهرَ بالدربِ. . .
أهبِطُ
أهبِطُ
لم أبلُغِ النهرَ.
ثَـمَّـتَ تنتظرُ الشاحناتُ:
سيمضي الأحدْ
مثلَ ما جاءَ. . .
أمضي أنا
مثلَ ما جئتُ. . .
والفجرَ تستيقظُ الشاحناتُ على ضفةِ النهرِ
تنطلقُ الشاحنات!

فورتَيسّا، ١٤/ ٠٤/ ٢٠٠٨

مدخلٌ سرّيّ إلى قلعة فورتيسّـا

للعمالِ الذينَ يجعلون القلعةَ متحفـاً للأطفالِ والشعراِء:

Stiegel Beer

بيرة ستيجل

Marlboro Cigarettes

سجائر مارلبورو

والجلاميدُ المسْوَدّةُ التي تنقلها الشاحناتُ المر سيدس المتوسطة لشـــركة

Wipptaler.Com

والمياهُ الآسنةُ التي يدفعُ بها نهرُ إيساركو إلى أسوارِ القلعةِ الغرانيت.

أمّا الكنيسةُ الصغيرةُ المحصّـنة في المدخل

فقد هيّـأها العمّالُ قبل الأوانِ، ليصلِّـي فيها ســـواهُم.

*

القلعةُ ليست بعيدةً عن فندق:

Posta-Reifer Hotel

مثلَ ما أن القلعةَ ليست بعيدةً عن الذهب. . .

Burgomaster Josef Wild

Owner of Posta-Reifer Hotel

الـعُـمْـدةُ يوسف وايِلْد
مالكُ فندق بوستا رايفَر
لديه المفتاحُ الثالثُ إلى البوّابةِ الذهبية
مع آمرِ القلعةِ الهتلريّ
وممثلِ مصرف إيطاليا.
*
في الليلِ، تختلطُ القطاراتُ السريعةُ، وهي تهدُرُ، بالمطرْ
في الليلِ يختلفُ الشـــجرْ
ليكونَ بيتاً
أو دخاناً.
آنـها يتآمرُ الضبّاطُ...
سوف تكونُ فورتَيسّـــا مَزاغلَ للبنادق
أو مَرابضَ للمدافعِ
سوفَ يأتيها قياصرةٌ
ومحتالون.
سوفَ تكونُ سجناً يخنقُ السجناءَ في حلقاتِ فولاذٍ
وسَـدّاً للغناء...
*
أســـرى الحربِ الرّوس
أسمعُهُم في المطرِ الليليّ
أسمعُ أصواتَ مطارقِهِم
ومَجارفِهِم
كان الأســرى الروسُ يشقّونَ بقلبِ الجبلِ القاســي

نفَقـــــاً
وقبوراً من غيرِ شـــواهدَ.
اسمعُ أســـرى الحربِ الروسَ يئِنّـــون. . .
*
رايةُ باريسَ مثلّـــثـــةُ الألوانِ
وجيشُ حُفاةٍ
وصعاليكَ
يدُقُّ على أبوابِ العالَـــم
كان يدُقُّ بقبضاتِ دمٍ وأناشـــيدَ
وكان قياصرةُ العالَمِ يرتجفون. . .
*
لسنينَ، ظلّت الشرطة الإيطالية تراقبُ ليشيو جَـيلِـي Licio Gelli فتّشوا منزله، فيلاّ فاندا، مراراً. أمّا هذه المرّة، فلم يفتشوا الخزانةَ، بل بحثوا في الشرفة، داخل أصُصِ الأزهارِ. وهناك بين البيجونيا والجيرانيوم. . . الأزهار الأثيرة لدى ليشو جَيلي، أيامَ شبابه، ، عثروا على ١٦٢ كيلوغراماً من الذهب الخالص في سبائك من كيلو واحدٍ، وعلى أربعين من قضبان الفضّةِ، وقد نُقِشَ عليها CCCP، أي اتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفياتية. حدثَ هذا في العام ١٩٩٨.
*
«كان ليشيو جَـيلي، عميلاً سرّياً مرموقاً لموسوليني والغستابو، كما يبدو أنه اشتغلَ لصالح الكومنفورم الشيوعيّ. إنه مصرفيٌّ، صحافيّ، كاتبٌ، شاعرٌ، حائزٌ على عدة جوائز أدبية هامّـة. لكن

شهرته الكبرى هي في رئاسته المحفل الماسونيّ المعروف (بي ٢) الذي ضمَّ نخبةً من أشهر موظفي الدولة والسياسيين والضباط ورجال الأعمال، ممّا منحه قدرةً سرّيةً على التحكم بالأحداث السياسية، في السنوات الخمسين التي أعقبت الحرب العالمية الثانية.»

*

قلعةُ فورتَيسّـــا
كانت تنهارُ قليلاً فقليلاً
فوقَ رؤوسِ قياصرةٍ
وجنودٍ
وســـماســـرةٍ
ولصوصِ سلاحٍ محترِفين.

قلعةُ فورتَيسّـــا
تُبْنى ثانيةً تحتَ ســـماءٍ أخرى
تُعْـــلِنُ أن العالَمَ أجملُ دونَ قلاعٍ
حتى لو كانت تلك القلعةُ:
فورتيـسّـــــا!

فندق بوستا رايفر
Posta-Reifer Hotel
فورتيسّا، ١٥/ ٠٤/ ٢٠٠٨

تَـهْـلِـيـلـةٌ

سأرحلُ في قطارِ الفجرِ:
شَعري يموجُ، وريشُ قُـبَّـعَـتي رقيقُ
تناديني السماءُ لها بُروقٌ
ويدفعُني السبيلُ بهِ عُـــروقُ.
سأرحلُ...
إنّ مُقتـبَـــلِـي الطريقُ.

سلاماً أيها الولدُ الطليقُ!
حقائبُكَ الروائحُ والرحيقُ...
ترى الأشجارَ عندَ الفجرِ زُرقـــاً
وتلقى الطيرَ قبلكَ يستفيقُ

سلاماً أيها الولَـــدُ الطليقُ...
ستأتي عندكَ الغِزلانُ طَوعاً
وَتَـغْـــذوكَ الحقولُ بما يليقُ.

سلاماً أيها الولدُ الطليقُ!
ســـلاماً آنَ تنعقدُ البروقُ...

فورتَيسّا، ١٦/ ٠٤/ ٢٠٠٨

Batzenhausl Bar with Algrein Wine

أنتَ، ضُحى هذا الأحدِ الأوّلِ، في هذي البلدةِ، من وادي الألْبِ،
تُلامِسُ أشجارَ الغارِ، وتلمُسُ كاسَ نبيذٍ قرويٍّ أحمرَ. لم تذهبْ
نحوَ محطّةِ فورْتيسّا لتُوَدِّعَ. كلُّ الفتياتِ استقلَلْنَ قطارَ
شمالٍ، ومضَينَ. الفندقُ كان يتيماً. لا بأسَ. غداً أنتَ تغادرُ أيضاً.
حتى ضحكةُ منتصفِ الليلِ من الجِنِّيةِ سوف تذوبُ.
صخورُ الكاثدرائيةِ سوفَ تذوبُ. الساحةُ. والموسيقى. . .
ما أجملَ أن تكتبَ شِعراً يُنكِرُ هذا!
امرأتانِ من القلعةِ. . . كيفَ استوقفتاكَ بقلبِ السوقِ؟ أتذكرُ؟
قالت واحدةٌ: أمسِ سمِعتُكَ. أمّا الأخرى فقد ابتسمتْ.
في البارِ
شُجيرةُ غارٍ.
قلتَ: وداعاً!
هل أحسستَ بدفءِ الشمسِ؟
سلاماً. . .
هل أحسستَ بأنك سوف تموت؟

بولزانو (إيطاليا)، ٢٠/٠٧/٢٠٠٨

شِـــعابٌ جَبَلِيّــةٌ
Mountain paths

قصيدةٌ كُتِبَتْ في ريفٍ إيطاليّ

A poem written in an Italian countryside

«هذه القصيدةُ مهداةٌ إلى سيلْفانا وفوزي الدليمي، اللذَينِ قدّمـــا لي، ولِـجْوان، دارتَهُـما العامرةَ، العاليةَ، بجبالِ الأبَنين، الإيطالية، غيرَ بعيدٍ عن ميلانو، منتبَذاً ومُصطافاً، حيثُ كتبتُ صفحاتي، واستردْتُ عافيتي، ونَعِمْتُ بالحُبّ، وبصداقةٍ لم أجدْ لها مثيلاً»

س ي

١

Costa Di Morsiano (Italy) 30 September 2008

البارحة، وفي حوالَي الساعة التاسعة مساءً، بَلَّغَنا فوزي الدليمي (أنا وجوان ماكنلي Joanne McNally) بسيارته المرسيدس كومبرسَّر، دارتَه، بأعلى الجبل، جنوبيّ ميلانو.
الليلُ كثيفٌ في تلك التلاعِ التي تُعتبَر تمهيداً للطريق إلى توسكانيا.
لمحْنا غزالاً، ثم خنزيراً برّيّاً. قال فوزي: لا تفاجأوا بالحيوانات البريّة في محيطِ الدارة. ثمّت أشجارُ تفّاحٍ. في الليلِ تأتي الخنازيرُ البرية لتزوركم. إنها تحبّ التفّاح!
لثلاث ساعاتٍ، ظلّت المرسيدس المتدفقةُ بالعزيمة، تتناهبُ الطريقَ من مطار ليناتا الميلانيّ، إلى الدارة العالية،
بادئةً بمساربِ الطريقِ السريعِ ومنتهيةً بالدرب الضيّقِ المُطِلّ على وديانٍ سحيقةٍ، تلتمعُ أضواءُ منازِلِها القليلةِ مثل النجومِ.
لِمَ إغراءُ العزلةِ؟
لِمَ الالتجاء إلى رحمةِ الطبيعةِ العاريةِ إلاّ من طبيعتِها؟
لِمَ الاحتماء بالحَجر؟

كان ثَمَّ المساءُ
المساءُ المُرَصّعُ بالنجمِ

ذاكَ المساءُ الرحيمُ بغزلانه وفراشاتِ أزهارِهِ. . .
سوف أسألُهُ أن يكونَ رحيماً بنا
نحن، أبنائـــهِ المتعَبين
نحن، أبنائهِ الخَـيِّــرين. . .
نحن، نحن الحُفاةِ، طريدي ذئابِ الـمُدُنْ.

غامت السماءُ، للمرة الأولى منذ أشهرٍ، كما فهمتُ. لستُ أريد العودةَ إلى لندن، حتى عبرَ هذه السماءِ الغائمةِ للمرة الأولى منذ أشهُرٍ. لديَّ ما أفعلُهُ هنا. أن أتمشّى عبر الحقول ذواتِ الهشيمِ اليابسِ غيرَ متهيِّبٍ الصِّلالَ. أن أذهبَ إلى سوقِ القريةِ لأشتري زجاجتَي نبيذٍ محليٍّ. أن أراقبَ قطّتَينِ نصفَ متوحشتَينِ. أن أسألَ: لماذا أضعتُ كلَّ تلك السنين من حياتي بين جدرانٍ لا تريدُ أن تجد باباً. جوان واقفةٌ عند الباب. جوان بكل بهائها تسألني: هل أريد قهوةً؟
نعم.
مع سُــكّرٍ، وقُـبْــلـــــةٍ!

*

٢

Costa Di Morsiano 1 October 2008

صـــنوبرةٌ في السماء
صنوبرةٌ في أعالي المساء
صنوبرةٌ هي ثالثةُ الناسِ في غرفةِ النومِ
أولى النساء. . .
صنوبرةٌ في الفضاء.
صنوبرةٌ تسهرُ الليلَ، تحرسنا من ظلامِ التلالِ
التلالِ المحيطةِ
والحَجرِ الجَهْـــــمِ
تحرسُنا من دواعي الكلام!

*

بدأ الصباحُ مشمساً، دافئاً. نذهب مشياً إلى مقهى القرية الوحيد. السيدة «باولا» مالكة المقهى، هيّأتْ مطعماً أيضاً. رجوناها أن تحجز لنا مائدة لمساء الجمعة. سيلفانا، زوجة فوزي، ستأتي من ميلانو لتلتحق بنا في عطلة الأسبوع. سوف تتعرّف على جوان،

وسوف تجدان سبيلاً ما للتفاهم، بالرغم من حاجز اللغة. هكذا الأمرُ دوماً مع مِهاد الصداقة والودّ. اللغة، وحدها، غير كافيةٍ للتفاهم.

في دكّان القرية، الوحيد، الذي تديرُه امرأةٌ أيضاً، تجد كل شيء، من النبيذ المحليّ إلى الجبن الآتي من سردينيا. الخبز طازجٌ دائماً، والموزيرللا كذلك.

على نَشَزٍ قريبٍ من الدارة التي نحن فيها، منزلٌ ريفيٌّ متداعٍ مهجورٌ.

قلتُ: سأشتري المكان!

قال فوزي: لكنّ عليك أن تشتري الأرضَ المحيطةَ أيضاً.

قلتُ: لا أريد أن أكون مالكَ أرضٍ. أنا شيوعيّ!

وأضافَ فوزي: عليكَ، كذلك، أن تخصصَ مبلغاً للترميم قد يفوقُ مبلغ شراءِ الخِرْبةِ...

قالت جوان: لكل حُلمٍ نهايةٌ. لكنّ هذه أسرعُ نهايةٍ!

*

قلتُ إن الصباح بدأ مشمساً دافئاً، لكننا الآن نقترب من منتصف النهار، وثمّتَ سحبٌ سودٌ تقترب منا. بدأت الشمس تتضاءل. ريحٌ باردةٌ سلبَتْنا بحبوحةَ الدفءِ العميم.

نظرت جوان إلى البعيد، حيث اختلطت التلالُ بالغيم.

قالت: إنها تمطرُ هناك...

*

أربعُ غزلانٍ كُنَّ على منحَدَرٍ يلعبْنَ
الغابةُ ساكنةٌ مثلَ غديرٍ
والأشجارُ لها مَرأى الغيمِ . . .
الغزلانُ الأربعُ يلعبْنَ
وحين تَهِل الأمطارُ
سيدخُلْنَ عميقاً في الغابةِ
مثلَ جذورٍ مكشـــوفةْ .

*

نسيتُ أن أذكرَ أننا ذهبنا، البارحةَ، إلى قرية كوارا Quara القريبة، التي ليس بيننا وبينها سوى كيلومتراتٍ ثمانيةٍ. كان ضرورياً أن نذهب إليها، فالنبيذ هناك أجودُ، ومحطة الوقود فيها هي الأقرب إلينا.

تعلّمت جوان كيف تقود سيارةَ الباندا.

اليومَ عاد فوزي إلى ميلانو، بعد أن اطمأنّ علينا، وتأكّدَ أننا سنتدبّر أمورَنا بأنفسِنا.

لقد عرّفَنا على أهل القرية.

نحن مطْمَئنّانِ.

وقد نبدأُ، غداً، جولاتِنا في المنطقة، وقراءة الخرائط.

سوف نستخدمُ الباندا.

من أين نبدأ؟

في الغالب سنبدأُ من مونت فيورينو

Montefiorino

حيث أعلنَ الشيوعيون الإيطاليون، جمهوريةَ المقاوَمة، قبلَ الطلقاتِ الأخيرةِ للحرب العالمية الثانية.

لقد أعلنوا جمهوريةً.

وأقاموا متحفاً مفتوحاً للجميع.

غداً، سنكون هناك!

*

٣

Costa Di Morsiano 02 October 2008

ســـلامٌ على الداليةْ
سلامٌ على الغيمِ يهبطُ حتى يَمَسّ شُجَيرةَ أَرْزٍ
سلامٌ على الخبزِ أسمرَ مِثلي
سلامٌ على قهوةٍ في الصباحِ الذي يتمشّى وئيداً
سلامٌ على جارَتَيَّ
سلامٌ على قطّتي
وسلامٌ على الكلبِ، يُـقْـرِئُـني، بالنباحِ الخفيضِ الســـلام!
ســـــلامٌ على مريم
والسلامُ على الطفلِ، أيّانَ ناغَى، و أيّانَ نامْ. . .

*

فجرَ هذا اليومِ، بلغَ فِعْـلُـنا الحبَّ، مبلغَ الكمال!
وسنذهبُ إلى مونت فيورينو متدفقَينِ حماسةً. . .
بدأ النهارُ بقطراتِ مطرٍ شحيحة. الفلاحون ينتظرون المطر قلِقينَ. لقد حرثوا الحقول، وهيّأوها للبذار، لكن المطر لم يأتِ. السماءُ تغيمُ منذ أمدٍ، كل يوم، لكنْ لا مطر. هذا اليوم، كالأيام التي سلفتْ، لا يَعِدُ الفلاحين بخير.
جوان تنطلقُ بسيارة الفيات «باندا» على الطريق الضيّقة.

نتوقّف لنتركَ غزالاً من الغابة يراقبنا على مهلٍ.
قطرات المطر الشحيحة توقّفت.
ليس من مَـهَـبِّ ريح.
في مفرق جيرادولو ألمحُ مخزناً لبيع الخمور المحلية بالجملة. أقول لجوان: في عودتنا من مونت فيورينو نتوقف هنا لنبتاع شيئاً نتزوّدهُ.
مونت فيورينو تبعد أحد عشر كيلومتراً من المفرق هذا.
نبلغ هدفَنا:
متحف المقاومة...
نرقى السلالمَ إلى أعلى مرتفعٍ بالمدينة. نبلغ المتحف. البوابة مُشْـــرَعةٌ. ندخل. المتحف مغلَقٌ!
أقولُ لجوان: ؛ لقد بلغْنا مقصدَنا.
الطريق إلى إيثاكا أجملُ من إيثاكا.
ألم يقُلْ كافافي ذلك؟
ندخل مقهى لنأخذ قهوةً لذيذةً وغْرابّـا Grappa. من الشرفة يتألّق مشهدٌ جليلٌ من مَشاهدِ الألْب. المقهى يزدحم فجأةً بالنسوةِ المرحاتِ. نترك مونت فيورينو عائدَينِ. جوان ترتبك في محاولة العثور على مخزن الخمور. أقولُ لها: من هنا.
تجيبني ضاحكةً: أنت لاتعرف من الإتجاهات إلاّ ما أشارَ إلى حانة أو إلى حانوتِ خمرٍ!
نتزوّد ست زجاجاتٍ لهنّ هديرٌ من نبيذ Centurione الأحمر الثخين.

*

٤

Costa Di Morsiano 03 October 2008

في هذا الوادي الشاسعِ
هذا الوادي الموحشِ
هذا الوادي الـمُـلْـتَزِّ كئيباً بين جبالٍ زرقاءَ
أتمشّى
وأراقبُ طيراً يُجْفِلُ أو غصناً أثقَـلَــهُ تُفّاحُ النحلِ
وأحياناً ألمحُ أزهاراً آتيةً من فردوسِ الألْبِ:
بنفسجةَ الوادي
زرقاءَ الثلجِ...
كأنّ الوادي
هذا الشاسعَ
هذا الموحشَ
هذا الـمُـلْـتَـــــزَّ
يسيرُ، بطيئاً، سِــرِّيّاً، كي يبلُغَ يوماًما فردوسَ الألْب!

*

وأنت... إلى أين تسير؟ منذ إيليا أبو ماضي، والناسُ تردِّدُ مع الشاعر: لستُ أدري. لكنّ الزمانَ اختلفَ. الأطفالُ أنفسُهم، في

أوربا، مع التعليم المتقدم المتطور، يدرون بما حولهم، وبما ينفع أو يَضرّ. إذاً على الشاعر، أن يتعلّم من الأطفال. عليه أن يكون دارياً بما حوله، وبما في دواخله أيضاً، وإلاّ كان هُـزأةً ومَسْخَرةً.

بودلَير في أواسط القرن التاسع عشـــر أرادَ أن يفتحَ عيونَ الشعرِ على البوليفار (الجديد آنذاك) وعلى حياة الناس العاديّين: Paris Spleen. لكنّ ما حدثَ في ما يُسْـمى «قصيدة النثر العربية» كان على الضدّ ممّا اقترحه بودلير المؤسس، لا جهلاً بما اقترحَه الرجلُ، لكنْ خوفاً من التبِعاتِ، لأن المتنفذين في «قصيدة النثر العربية» هـــم صحافيون محترفون، في صحافةٍ محترفة، أي فاسدةٍ. بمعنى أن أيّ موقفٍ حقيقيّ من أهوالِ المنطقة قد يُعَرِّضُ مَن اتّخذه إلـى سوء المصير. هكذا انصرفوا إلى ذواتهم التافهة الخاوية، يحلبونها كما يُحْلَبُ التَّيسُ. وهكذا صارَ لهم مقلِّدونَ وحُواةٌ ممّن يجهلونَ حتى اللغةَ التي يستعملونَها أداةً.

هل وُلِدتْ «قصيدة النثر العربية» ميتةً؟

لستُ أدري.

لكني أدري تماماً أنها في قطيعةٍ مع الحياة.

*

حول الدارةِ، دروبٌ صاعدةٌ هابطةٌ، كما هو الشأنُ في دروبِ الوعْرِ. أحياناً ألقى عنَتاً وأنا أحاولُ هذا الدربَ أو ذاك، بسببٍ من ضغطٍ في الدمِ مرتفعٍ. لقد أوصتني طبيبتي السيدة دَيل Dale بأن أمشي حتى لو آلَمَني المشيُ!

أنا أفعلُ هذا مرتَينِ في اليوم، وألقى العنَتَ مرّتينِ في اليوم أيضاً.

أمسِ الأول، رأيتُ الرجلَ: كان فلاّحاً حقيقياً من إيطاليا، يلبسُ السواد على جسدٍ في منتهى النحول. وكان يجمعُ التفّاحَ الـمُسّاقِطَ، ويختار الصالحَ القليلَ. شجرةُ التفاحِ كانت من أشجار الله، ثمارُها للنحل والطير والبشر.

وأمسِ، رأيتُ الفلاّحَ ذاتَه، يدفعُ أمامه عربةً من ذوات العجلة الواحدةِ، وقد أوسَقَها جذوعاً وأغصاناً، وقوداً لناره في الشتاء الذي يقتربُ.

قلتُ في نفسي: لقد التقيتُ فلاّحاً!

هذا الرجلُ الذي لو نفختَه لطارَ، يصعد دروبَ الوعرِ ويهبطُها في خفّة السنجاب...

وأنتَ، الـمُدّعي طَيَراناً، توجعُكَ خطوةٌ صاعدةٌ!

السيدة دَيل، أمَرتْكَ، وعليك الطاعةُ...

وثمّتَ أمرٌ آخر:

لِمَ لا تتعلّمْ من الفلاّحِ الإيطاليّ؟

أليس هو حليفَكَ في الثورةِ التي طالَ ما أسرفتَ في الكلامِ والكتابةِ عنها؟

*

اليومَ أيضا، تَهَدّدَتْنا السماءُ بمطرٍ، فأتتنا بقَطْرٍ كقَطر الندى!

أخذنا الباندا في اتجاهٍ غير اتجاه «كْوارا» المألوف، عبر طريقٍ جبليّ يضيقُ كلّما مضينا فيه.

يبدو أن المنطقة جنةٌ للطيور!

في العودة توقّفنا عند «مقهى - مطعم - بار البلفدير» على ناصية

الطريق. ليس في المقهى أحدٌ ســـوى امرأةٍ هي مالكةُ المقهى.
طلبنا نبيذاً، كأسَينِ. جاءتنا بنبيذ من نوع كابرنيت سوفينيون.
استغربتُ. فحصتُ الزجاجةَ، كان النبيذ من الشيلي!
قلتُ للسيدة: من أين أنتِ؟
أجابت: من إسبانيا.
سألتُ: من أين في إسبانيا؟
قالت: من إشبيلية.
الأندلس؟
نعم!
الآنَ فهمتُ لِمَ جاء النبيذ من الشيلي. أليست الشيلي البعيدةُ فِلْذةً من إسبانيا؟
ضحكت السيدة، وظلت معنا في حديث ســـرياليّ، حتى دخل جيوفاني. . . .

*

٥

Costa Di Morsiano 04 October 2008

تنظرُ جْوانُ، عَبْرَ الزجاجِ، إلى الأفْقِ. لا أُفْقَ. ثَمّ الـجِـبالُ
تَلِيها الجبالُ، تليها الجبالُ، تليها الجبـــــــالُ. . .
وقد أسألُ جْوانَ: هل آنَ أن نعرفَ السهلَ؟ ماذا يخبئُ
هذا الذي لا نراهُ؟ الحقيقةُ قائمةٌ في الأساطيرِ، أم هـــيَ
نائمةٌ في الدروبِ التي نتحدّر فيهِنَّ أو نعتلي؟
تنظرُ جْوانُ عبرَ الزجاج. . .

*

البارحةَ انضمّتْ سيلفانا إلينا قادمةً مع فوزي من ميلانو. اكتمل الشملُ. آخر مرةٍ رأيتُ فيها سيلفانا، كانت أوائلَ التسعينيات، بدمشق. كانت تزور مع فوزي العاصمة السورية للمرة الأولى. وقد أحبّتْ دمشق.

وهنا، في مورسيانو، سهرنا حتى وقتٍ متأخرٍ في مطعم «باولا» الذي اكتظَّ بالطاعمِين مع بداية عطلة الأسبوع. كان العشاء فاخراً على الطريقة الإيطالية، والنبيذ محليّاً مـتدفقاً. استهلكنا، نحن الأربعة، لتراً كاملاً ونصفَ اللتر!

لا يبدو الصباحُ مهدِّداً. الريحُ هدأتْ حتى صمتتْ أشجارُ الحَـــوْرِ

عن موسيقاها الأبدية. والغيومُ عاليةٌ شِبْهُ بيضاءَ. لَكأنّ دفئاً ما ينتشرُ في المنزلِ والساحةِ المحيطةِ.

اختفتْ سيلفانا!

ذهبتْ إلى بلدةٍ قريبةٍ، تتابِعُ أمراً يتّصلُ بتوسيع الطريق الضيّق المؤدي إلى الدارة.

إذ حدثَ أن سيارتَها الباندا انزلقت ذاتَ شتاءٍ ثلجيّ، فانكسر ضلعانِ من أضلاعها...

الشتاء قادمٌ، والمرأةُ ليست مستعدّةً لمحنةٍ جديدةٍ تصيبُ أضلاعَها.

الشمسُ، ذاتُ حرارةٍ ونورٍ، اليومَ.

لا بدّ أن قلعة مونت فيورينو، مقر جمهورية المقاومة، تتألّقُ في الأعالي.

الشيوعيون الإيطاليون، أعلنوا جمهورية المقاومة، في ١٩٤٤ بعد أن حرروا المنطقة والجبال (نحن في سلسلة الأبَنين). كان عُمرُ الجمهورية شهراً.

اجتاحَها الجيشُ الألمانيّ المدجّج، وأبادَ المقاوِمين جميعاً.

السؤالُ الآنَ: مَن المنتصرُ؟

مَن أعلى رايةَ الحريةِ؟

مَن يرفعُ اليومَ أسطورةَ النشيدِ؟

مونت فيورينو، ستظلُّ الأغنيةَ!

*

٦

Costa Di Morsiano 06 October 2008

حَوْرٌ وصفصافٌ. صنوبرةٌ وشجرة بلّوط. آسٌ وقرنفلٌ
عوسجٌ ونعناعٌ بَرِّيٌّ. زيتونةٌ. ونخلةٌ من الهِمَلايا
داليةٌ من توسكانيا. توتةٌ شاميّةٌ من الغوطة. حَلْفاءُ
من الجنوب الجزائريّ. سَروةٌ من الأطلس الأوسط.
نبعةُ ريحانٍ من سِيدي بوسْعِيد. دمعةٌ من عينَيّ المرهقَتينِ
أزرعُها كلَّها على تربتِكَ يا محمود درويش. يا صديقي.
أيها الثاوي برام الله. . .

*

مساءَ أمسِ، في متحف البحر، بِجَنُوَا Genova، جاؤوا جميعاً. كلوديو بوتسّاني، وفوزي الدليمي، و لُوقا، وجوان ماكنلي التي لم تعرفْها بَعدُ.

جاؤوا جميعاً إليك، وأنا برفقتِهم. الإيطاليون جاؤوا، وصيّادو السمك. طاهي المطعم الذي تناولتَ فيه آخرَ وجبةِ سَمكٍ. والساقيةُ. بحّارةُ السفنِ الغارقةِ جاؤوا، والقراصنةُ المتقاعدون. الفتياتُ الجميلاتُ منهنّ وغيرُ الجميلاتِ. أنت أيضاً جئتَ. كنتَ

تُحَدِّثُنا عن ضيفٍ ثقيلٍ يحملُ مسدّساً. كنتَ تقرأُ جالساً، على غيرِ عادتك. هل أنت متعَبٌ من ذلك القلبِ المشاكِس؟ ستكون المدنُ شاحبةً في المساءِ المبكِّرِ. عيناك الذكيّتانِ لن تكشفا ألقَها السـرِّيّ. نحن أيضاً امسَينا سـوانا. مَن سيحملُ عبءَ صداقاتِنا الفاترة؟ مَن سيسألُ عن عشائنا وملابسِ أولادِنا؟ الحفلةُ التي أقمتَها لفلسطينَ والعالَم اطفأتْ أضواءَها لتتّقدَ أنت. أنت الذي جعلَ اللغةَ مختلفةً. مساءَ أمسِ في متحف البحرِ، كنتَ البحّارَ الأكثرَ إبحاراً وغرَقاً. ناقوسُ السفينةُ البرونزُ الهائلُ سيظلّ يحمِلُ اسمكَ منقوشـاً بألفِ لغةٍ. والعربيةُ؟ هل سيقرأُ العربُ موجاتِ الصَّنجِ الهائلةَ؟ هل سيتحمّلونَ صوتَكَ الأدقَّ رنيناً الآنَ؟

*

٧

Costa Di Morsiano 07-08 October 2008

في كْـــــــوارا Quara

شيخٌ إيطاليٌّ يجلسُ في بابِ المقهى. يجلسُ في الشمسِ ضُحىً. الناسُ يجيئونَ. الفتياتُ يجِئنَ. و كان يناديهِم بالأســـماءِ. يناديهِم بالأسماءِ جميعاً. باولو!باولا. . . وإلخ. لكنّ الناسَ جميعاً لا يلتفتون. المقهى يزدحمُ. السوقُ الأسبوعيةُ تبتدئُ. الشيخُ الجالسُ في بابِ المقهى. في الشمسِ ضحىً. يتركُ كرسيَّ المقهى، ويغيبُ بمنعطَفٍ يأخذهُ نحوَ سبيلٍ مجهول. . . .

*

للمرةِ الأولى، منذ مجيئي إلى قرية مورسيانو بسلسلة جبال الأبَنِين الإيطالية، سمعتُ ناقوسَ الكنيسة، وقد حملَ السكونُ الشاملُ رنينَه إلى ناحيتنا. كانت الساعة الثانية عشرةَ تماماً، منتصفَ النهارِ. اليومَ لم أسمعْ هذا الناقوسَ، لا نهاراً ولا ليلاً! قيل لـي إن الناسَ هنا غيرُ متديِّنين، لأسبابٍ تاريخيةٍ، منها أن هذه المنطقةَ كانت ضمن جمهورية المقاوَمة التي أعلنَها الشيوعيون الإيطاليون في العام ١٩٤٤، الجمهورية التي اتخذت مـــــونت فيورينو عاصمةً لها،

وقلـــــــعةَ (صخرة) مونت فيورينو مقرًّاً لقيادتِها، قبلَ أن يجتاحَها الجيشُ الألمانيُّ.

على أي حالٍ...
على الطاولة التي جلسنا إليها في المقهى، حيث كان الشيخُ، ورقةٌ عريضة، إعـــلانٌ أو شِبْهُ إعلان.
الفضول دفعَني إلى محاولة قراءة الورقة:

الأحد، الثاني عشر من أكتوبر ٢٠٠٨
الذكرى الرابعة والستون لأحداث توانو

تضمّنَ الإعلانُ تفاصيلَ الحفل، وفيها خُطَبٌ وموسيقى، كما أوردَ الإعلانُ أسماءَ المقاوِمين الأحدَ عشـــرَ الذين قُتِلوا يوم الثاني عشر من أكتوبر ١٩٤٤
لويجي تشيرفي Luigi Cervi
نينو فانتوسّي Nino Fantuzzi
والتر غانديني Walter Gandini
إنريكو كامبارَللي Enrico Gambarelli
كلودوفيو غاللي Clodoveo Galli
أليتي باغلياني Alete Pagliani

فيتورير روفرسي Vittorio Roversi

فرانكو سبيسّاني Franco Spezzani

ماريو فيروني Mario Veroni

فنتشينزو فالاّ Vencenzo Valla

فالتر ستيروني Walter zironi

مَن يدري؟

أكان الشيخُ، شيخُ المقهى المختفي، ينادي سِرّاً أو علَناً أولئك المقاومين الأحدَ عشـــرَ؟

لقد كان قريباً منا، يراقبنا، ونحن نتفحّص الإعلانَ.

*

٨

Costa Di Morsiano 09 October 2008

شـــــجرةُ اللهِ

كلَّ خريفٍ تنفضُ أشجارُ التفّاحِ، التفّاحَ،
وتُبقِي الأوراقَ. . .
الأوراقَ الخُضرَ، الأوراقَ المشدودةَ كالجِلْدِ إلى الأغصانِ
كأنّ الأشجارَ تقولُ:
الأثمارُ طعامُ الإنسانِ
ولكنّ الأوراقَ بيارقُ مملكتي. . .

*

أسميتُ شجرةَ التفّاحِ، عند استدارةِ الـمَمشـــى من الدارةِ إلى الطريق العامّ، بالقرية، شجرةَ الله.
لأسبابٍ منها أن الشاعرَ حِسَب الشيخ جعفر أسْمى نخلتَه الشهيرةَ نخلةَ الله، ومنها أن شجرةَ التفّاحِ هذه يأكلُ منها النحل والطيرُ والظبيُ والخنزيرُ البرّيّ، ويأكلُ منها الفقراءُ أمثالي. الشجرةُ تنفضُ أثمارَها، ليلاً كما يبدو، أو نهاراً حين تتحرّكُ الريحُ. مرّةً واحدةً سقطتْ منها تفّاحةٌ على

رأسي. لم أشعرْ بأذىً. ربّما قدّرتْ التفاحةُ الساقطةُ ما أنوءُ به من عناءٍ. أمسِ الأولَ رأيتُ امرأةً متّشحةً بالسوادِ تجمعُ ما تختارُه من تفّاحٍ مُسّاقِطٍ. آنَ اقتربتُ أسرعتْ مبتعدةً!

لكني لا أجدُ حرَجاً في أن أجمعَ الصالحَ من التفّاحِ. التفاحةُ الساقطةُ تنفلجُ أو تتعفّرُ. وعليكَ أن تجدَ تفّاحاتِكَ اللواتي ستُباهي بهِنَّ الأممَ!

الفلاّحُ الذي كان يدفعُ، أمامه، عربةً من ذواتِ العجلةِ الواحدةِ، هو مثلي، لا يجدُ حرَجاً في أن يجمعَ الصالحَ من التفّاحِ. النحلةُ تفعلُ ذلك، والطيرُ، والظبيُ، والخنزيرُ البرّيّ.

مَن قالَ إن تفّاحَ شجرةِ الله فاسدٌ؟

في صحنٍ عريضٍ على مائدة المنزلِ، كان تفّاحٌ أخضرُ مشتريً.

جئتُ بتفّاحاتِ شجرةِ الله ووضعتُها في الصحن جوارَ التفّاحِ الأخضر المشترى. تفّاحُ شجرةِ الله كان يتيه بألوانهِ: الخدّ والخدّ. . .

رائحةُ المكان اختلفتْ. لقد دخلت الغابةُ. دخلت شجرةُ الله إلى هذه الحجرة من الدارةِ العالية!

*

ما أكتبُه اليومَ، هو من ملحوظاتِ أمسِ.

كانت جْوان تبحثُ عن موضوعٍ لقصيدةٍ تكتبُها.

مررنا بشجرةِ الله.

قلتُ لجوان: هل أقترحُ لكِ موضوعاً؟

قالت: مرحباً!

قلتُ لها: شجرةُ التفّاحِ تُسقِطُ تفّاحَها، وتُبقي على الأوراقِ. . .
كانت أرضُ الممشـــى مفروشـــةً بالتفّاحِ. شجرةُ اللهِ تتألق، تحتَ شمسٍ خريفيةٍ ساطعةٍ، متباهيةً بورقٍ أخضر، لا أزهى ولا أبهى من خضرته، بينما شجرة البلّوطِ المجاورة تنثر ورقَها الأصفرَ على الممشـــى نفســـه.

٩

Costa Di Morsiano 10 October 2008

حُـــمْـــرةٌ

فَجأةً، حتى بلا معنىً. . . تَمادى الكونُ في الـحُمرةِ.
وجهُ المرأةِ احمَرَّ. صدارُ الصوفِ يَحْـمَـــرُّ. المماشـي
في الشِّعابِ احمرَّت. الغيمةُ والسَّـــروةُ تَـحْمَـــرّانِ.
والأوراقُ في الأشجارِ والأحلامِ تَحْـمَـرُّ. خريـــفُ
الأبَنِـين. الخمرُ والجَوزُ. عروقُ الكفِّ إذْ تُمسِـــكُ
بالكأسِ. أهذا ما نُسَـمِّـيهِ الخريف؟

*

قد كنتُ سَمعتُ عمّا يطرأُ على الطبيعةِ من تحوُّلٍ في شهر أكتوبر (أنا أتحدّث عن الطبـــيعة في أوربا). لكني هنا، في هذه المنطقة المنقطعةِ من سلسلة جبال الأبَنين، أرقَبُ بفضولٍ واستمتاعٍ، ما تهَبُهُ الأرضُ لساكنيها من نبْتٍ و بشرٍ وحيوان. الهِبةُ، هنا، وفي أواسط أكتوبر، هي الجمالُ مُـطْلَقاً. نقّارُ الخشبِ أخضرُ في الأبَنين، يطيرُ في شبهِ تمَـوُّجٍ. إنها المرّةُ الأولى في حياتي التي

أرى فيها نقّارَ خشبٍ أخضرَ اللونِ. نقّارَ خشبٍ يطيرُ. كنتُ أراه دائماً مُكِبّاً على الجذع: تِكْ تِكْ تِكْ!

الأوراقُ في تحوُّلٍ. اصفر. جوزيّ. بُنّيّ. أحمر. أحمرُ فاقعٌ. أحمرُ نحاسيّ. أحمرُ ناريٌّ. أحمرُ لا يُسَمّى.

الظباءُ تتجوّلُ حرّةً. أحياناً تتوقّفُ محَدِّقةً فيكَ، متسائلةً: مَن جاء بك إلى حارتِنا؟ طيرُ الحَجَلِ لا يجفلُ منكَ. الطيورُ تَسرحُ كالأنعامِ. النبيذُ الجديدُ، فوّاراً (كما يحبُّهُ أهلُ المنطقةِ) وغيرَ فوّارٍ سيُقيمُ مهرجانَه بعد يومَين. سوف نذهبُ كالحجيجِ إلى تلك القرية المبارَكة!

المساءُ شرعَ يهبطُ.

كان الغيمُ أحمرَ ورديّاً.

*

جاءتْ إليّ يمامتانِ

وحطَّتا فوقَ الوسادةِ في الصباحِ...

وقالتا:

سنكونُ، يا سعدي، جناحَيكَ!

انتبِهْ!

إن الحياةَ كريهةٌ

لو عِشْتَها مُتَتَبِّعاً مَن هَبَّ أو دَبَّ...

الحياةُ كريمةٌ

لو عِشْتَها كالطيرِ... يا سعدي!

*

انقشعَ الضبابُ سـريعاً، هذا الصباح. بدت البيوتُ على السفح المقابلِ واضحةً. كان شـيءٌ من ندى الليلِ يبلل الممشـى، خارجَ الدارةِ، حتى ليتوهّم المرءُ أن المطر جاء في الليل.

القطةُ تعرف قبل غيرِها أن المطر لم يأتِ ليلاً، ولن يأتي اليومَ أيضاً. القطةُ تشحذ مخالبَها على جذعِ شجرةِ بلّوطٍ معيّنـةٍ.

لستُ أدري إنْ كنّا سنذهبُ، هذا النهارَ، في جولةٍ ما.

جاءت سيلفانا مع فوزي، من ميلانو، في الصباح الباكرِ.

قالت إن أباها المقيم في مأوى للشيوخ في فيلاّ مينوسّـو القريبة، هو في حالةٍ صحيةٍ ليست حسنةٍ.

أخبروها ذلك بالهاتف.

رجوتُها مع فوزي أن يدخلا.

قالا: علينا أن نسرعَ إلى فيلاّ مينوسّـو.

قد يكون الطبيب هناك.

والدُ سيلفانا يبلغ الرابعةَ والثمانين. نتمنى له العافيةَ والعمرَ المديدَ...

ونحن نستخدمُ سيارتَه الباندا!

في حوالَي الساعةِ الواحدةِ ظُهراً، عُدنا من جولتنا الصباحيةِ لنجد سيلفانا وفوزي في المنزل.

قالت سيلفانا إن أباها بخير.

*

الساعة الثالثة عصراً.

أنا في الشرفةِ.

جْوان ذهبتْ في ما عبّرتْ عنه بالجولة الطويلةِ مشياً.
ربما ذهبتْ مستاءةً مني لأني كنتُ منهمكاً، كنقّارِ الخشب، بالكومبيوتر: تِكْ تِكْ تِكْ!
لم أُجِبْها إلى ندائها المتكرر حول صحنِ الغَداء...
بدأ الجوّ يتغيّر قليلاً، أعني أن نسيماً بارداً أخذ يهبّ. هذا النسيمُ قد يتحوّلُ إلى ريحٍ، والريحُ غيرُ مأمونةٍ في هذه الجهاتِ.
ثمّ أننا في أواسط أكتوبر!
الشمسُ لا تزالُ تبعثُ الدفءَ في مفاصلي. لكنّ عليّ الدخولَ إلى الدارةِ إذْ أن الّلابتوب (الكومبيوتر المحتضَن) لا يُقرأُ واضحاً في الشمس.
جْوان لم تأتِ بَعدُ.
لقد طالت جولتُها...
لستُ قلِقاً، فالناسُ في هذه المنطقة الجبلية النائية من إيطاليا مُفعَمونَ ودّاً ونخوةً وخُلُقاً رفيعاً.
سوف أُنهي هذه الصفحةَ العشرين من كتاباتي الأبَنينيّةِ الآنَ.
وقد استمتعُ بقيلولةٍ متأخرةٍ جداً مقايَسَةً بأهلِ المنطقة!
لن أقول: مساء الخير.
المساء لن يأتي سريعاً.
الغيومُ الشفيفةُ ستتلوّن بالورديّ أكيداً.
آنَها يحقُّ لي أن أقول: مساء الخير!

١٠

Costa Di Morsiano ˜1October ¡

أغنيـــــــةٌ

يا ما أخذتُ الهَـــوى
بالحُلْمِ والأحضانْ. . .
أغفو على نِـعْـمةٍ
أطفو على ريحانْ.
والبَدرُ في راحتي
والوردُ في البستانْ. . .
يا ليتَ شمسَ الضحى
حَـنّتْ على الولهانْ!

❊

مساءَ أمسِ، كانت سفوحُ الجبالِ لا تكادُ تَبِيْـــنُ. ضبابٌ كثيفٌ أطبَقَ على هذه الجهة من الأبَنِين. لا يكادُ المرءُ يتبيَّنُ شيئاً، بشراً، أو شجراً، أو حَجَراً. ليلٌ مُنذِرٌ!

لكنه ليس كليلِ النابغة أكيداً.

ربّما سمعَ المرءُ قِباعَ خنزيرٍ برّيٍّ. هذا كلُ ما في الأمر.

الليلُ دافئ.
هل سيكون الصباحُ دافئاً؟
قد كنتُ ألـمَحْتُ إلى أنني أشكو من ارتفاعٍ ما في ضغطِ الدمِ أدّى إلى آلامٍ في ساقي اليسرى تُعرقِلُ حركتي الحرّةَ حين أمشـــي.
أوصتْني طبيبتي بتناولِ قُرصٍ واحدٍ يومياً لتخفيض الضغطِ، وبالمشيِ حتى لو عانيتُ من ألمٍ.
وقد صَدَعْتُ بما أمَرَتْ!
لكني لم أشعرْ بآلامٍ في ساقي اليسرى، هذا الصباحَ. أكان ذلك بسببٍ من الدفء العميم؟
أكان ذلكَ بسببِ ليلةِ حُبٍّ غامرةٍ؟
أنا سعيدٌ على أيّ حالٍ!

*

اليومَ، سنحتفل بعيد ميلاد سيلفانا!
سوف نذهب إلى مكان (قريبٍ؟) بمقاييس المنطقةِ من فيلّلا مينوسّو. نذهب إلى ممرّ برادَرِينا، Passo Di Pradarena وثمّتَ مطعمٌ شـــهيرٌ يطلُّ على الوادي.
سننطلق من مورسيانو في الساعة الثانية عشـــرةَ تماماً!
بعد حوالَي ســـاعتَينِ من ارتقاءِ الجبال في طريقٍ جيدٍ لكنْ شـــديدِ التعرُّجِ، بلغْنا المكانَ:
كان يرتفع أربعة آلافِ قدم عن سطح البحر.
الشجرُ زانٌ احمرّتْ أوراقُهُ حتى غدا الجبلُ أحمرَ.
و تَنّوبٌ اخضرَّتْ أوراقُهُ إلى أبد الآبدين!

ما إن تهبط من المطعم حتى ينفتحَ أمامك الطريقُ إلى توسكانيا، الطريقُ إلى بلدة لوقا Lucca القديمة، البلدةِ ذاتِ الأسوارِ، أسوارِ القرونِ الوســطى.

أمضينا في المطعمِ ساعةً ونصفَ الساعةِ.

الغداء فاخرٌ. لحومٌ من المنطقة. خمرٌ من المنزل. خبزٌ توسكانيّ. معجَّناتٌ مع الفِطْرِ، فــطْرِ الغابة.

في العودةُ سـهَّلَ المنحدَرُ عبءَ الطريقِ الطويلِ.

مررنا بـ Sologno ســولونيو، التي سيقامُ فيها غداً، الأحَدَ، مهرجانُ النبيذِ الجديدِ. . .

البلدةُ هذه، من القرون الوسطى أيضاً، لكنها غيرُ ذاتِ أســوارٍ.

ولسوفَ نكونُ هناك.

لكنْ ليس مع الفجرِ الأولِ، إذ أننا سننامُ حتى الضحى!

ليكُنْ عيدُ ميلادِكِ، يا سيلفانا، الأبهى بين الأعيادِ!

*

١١

Costa Di Morsiano 12 October 2008

أشجارُ الزانِ بأعلى الجبلِ العالي
اندفعَتْ تحتَ سماءٍ صافيةٍ ســقفاً للعالَمِ. . .
أشجارُ الزانِ تلوِّنُ هذا الجبلَ العالي
سقفَ العالَمِ
بالأحمرِ والجَوزيّ، وبالأصفرِ والورديّ.
أحاورُ غصنَ الزانِ
أحاولُ أن ألْـمُـســَــهُ
أن أتقرّى باللمسِ الأوراقَ
الأوراقَ الحمراءَ
الصفراءَ
الورديّةَ. . .
كان الورقُ الجوزيّ يُطقطِقُ تحت أصابعيَ
الورقُ الأحمرُ يرتجفُ
الورقُ الأصفرُ يخشوشِنُ كالجِلْــدِ
الورقُ الورديّ يدغدغُني. . .

يا شجرَ الزانِ بأعلى الجبلِ العالي
هل ترضى بي غصناً في سقفِ العالَم؟
هل ترضى بي واحدةً من أوراقِكَ؟
واحدةً حمراءَ. . .

*

في الساعة الحاديةَ عشرةَ، كنتُ مع جْوان في سولونيو، حيث مهرجانُ النبيذِ الجديد.
المهرجاناتُ، في هذه النواحي من إيطاليا، متواضعةٌ، لكنها حقيقية. أعني أن المبالَغة أمرٌ قد يرفضه الناس.
النبيذ الجديدُ أقربُ في طعمه إلى الحلاوة.
وهو يقَدَّمُ مجّاناً!
أخذتُ ثلاثَ كؤوسٍ منه، كذلك فعلتْ جْوان.
أمضَينا في البلدةِ ساعتَينِ.

*

اخترتُ العزلةَ التامّةَ.
سعيدٌ بأنني لم أعُدْ متلهفاً على البريد الإلكترونيّ.
سعيدٌ بأنني لا أفتحُ جهازَ التلفزيون.
سعيدٌ بأنني لا أسمعُ الأخبارَ، ولا أسألُ عنها.
سعيدٌ بأنّ رنينَ الهاتفِ همَدَ تماماً.
سعيدٌ بأنني لم أعُدْ أتذكّرُ أحداً من المدينةِ التي غادرتُها قبل أسبوعَينِ.

*

هل بإمكانِ المرءِ أن يُعِيدَ تشكيلَ ذاكرتِهِ؟
أن يستبعدَ قديماً، ويستعيدَ جديداً؟
أعتقدُ أن الأمرَ ممكنٌ.
أليسَ الإنسانُ أذكى من الآلةِ؟
الكومبيوتر يفعل ذلكَ. لِمَ لا يفعلُ الإنسانُ الأمرَ ذاتَه؟

١٢

Costa Di Morsiano 13 October 2008

هل هذا الليلُ طويلٌ حقّاً؟ غابتْ شمسٌ باردةٌ خلفَ جبالٍ.
واختفت القطةُ بين العشبِ العالي كالنَّمِرِ. القمرُ المكتملُ
أستقبلَ شُرفةَ دارتِنا ومضى يسألني عن أقمارٍ نائمةٍ
في مخطوطاتٍ جِلْدٍ. أسمعُ خشخشةً في قاعِ النهرِ اليابسِ
أهُوَ الخنزيرُ الوحشيُّ؟ الخنزيرُ القاتلُ في قِرْطاجَنّةَ؟
أَمْ أنّ ظِباءً ضلّتْ مسلكَها إذْ فزِعَتْ من طلقةِ صيّادٍ كان
يجرِّبُ أن يُصْلِحَ في الليلِ سلاحاً خابَ نهاراً؟ لا أسمعُ
طيراً. لا مِن كلبٍ ينبحُ. ثَمَّ سماءٌ صافيةٌ من دونِ نجومٍ.
ثَمَّ تهاويلُ الشجرِ، البلّوطةِ في منعطفِ الممشى،
والتفّاحةِ عندَ الوهْدةِ. أطلالُ النَّهدةِ لا تبدو أطلالاً.
هل هذا الليلُ طويلٌ حقّاً؟

*

إنجليز اشترَوا أرضاً، هنا في الأبَنين، غيرَ بعيدِينَ عن دارةِ سيلفانا وفوزي. بل أن بمقدوركَ أن ترى أملاكهم حين تخرج من الدارة العالية، إذ أنهم في ما يشبهُ الوهدةَ مقايسةً بموقع الدارةِ.

المنزل الإنجليزيّ من خشبٍ جوزيّ اللونِ. المنزلُ واســعٌ تسوِّرُهُ حديقةٌ ذاتُ ممشىً ضيّقٍ كالخندق.

سيّارتُهم الميني كوبَر ماثلةٌ، كالعلامة المسجّلة. لم أرَ أحداً يدخل إلى المنزل أو يخرجُ منه. سألتُ جْوان. قالت: إنهم هنا. كيفَ عرفتِ؟ أعرفُ! أتحبين أن تقولي لهم: مرحباً؟ لا أريد!

أحياناً أتساءلُ مع نفسي، وأنا أمرُّ في جولتي المعتادة على المنزل الإنجليزيّ: لِــمَ، إذاً، جاءَ القومُ إلى إيطاليا؟ إلى ريفِ الأبَنين تحديداً؟

أتُراهم سيظلّونَ يشربونَ شــايَهم اللعينَ، داخلَ مُلْكِهِم الخاصّ إلى الأبد؟

١٣

Costa Di Morsiano 14 October 2008

منازلُ بِيضٌ في السفحِ. ضبابٌ. آخرُ مصباحٍ للدربِ.
صنوبرةٌ تَحجِبُ مرأى السّقفِ ببيتِ الأُختَـــينِ.
لِماذاَ أنظرُ في اللاشـَيءِ؟ هل الدنيا واســعـــــــةٌ؟
ساقي تؤلـمُني. أتُراني ســرتُ طويلاً وبـــعيداً؟
أعَلَيَّ لُزومُ البيتِ؟ لُـــزومُ قوانينِ السَّـــــيرِ...
منازلُ بِيضٌ في السفحِ.
ضَبابٌ ينقشعُ...

*

سوناتا موتسارت الثانيةَ عشـــرةَ!
كم فكّرتُ، ولو كالأحمقِ أني سأؤلِّفُ سوناتا...
لكنّ لنا، نحن، الشعراءَ، الحقَّ بـ «سُـــونَيت» الشعراء.
ليس لنا أن نتدخّلَ في ما ليس لنا.
مرةً، كنتُ أرحلُ على ضفة الدانوب. بلغتُ الديرَ الشهـــيرَ، حيث كتبَ أمبـــــرتو إيـــــــــكو «اسم الوردة».
هناك رأيتُ موتسارت الطفلَ.

قد كان أُجلِسَ على برميلٍ كي تبلغَ أناملُهُ مفاتيح الأرغن. كان بكامل مـَلْـبسِهِ!

قيل إن السوناتا الثانيةَ عشرةَ من اشـــهرِ الأعمالِ الموسيقيةِ حِسِّـــيّةً.

مشكلةُ السونَيت في الشعر، أن الشكل فيه محدَّدٌ جداً.

الأمرُ كذلك مع السوناتا. لكنّ موتسارت ليس محدَّداً!

١٤

Costa Di Morsiano 15 October 2008

كأنّ سِـلْكاً رفيعاً يخترقُ ساقي اليسرى
ابتداءً من القَـدَم.
عسيرٌ عليّ أن أصلَ إلى الباب المفتوحِ على الشرفةِ
الشرفةِ التي أرى منها منازلَ السفحِ
والصنوبرةَ
والكنيسةَ البعيدةَ التي يقتربُ منها الغيمُ الشفيفُ.
لا أريدُ أن أتدلّى في البئرِ
مع محفوظاتي عن حدائقَ قطعتُها راكضاً في الضحى
وعن ضفة الدانوب التي شهدتْ عَرَقي يقْطُرُ على الثلجِ.
أريد أن أصلَ إلى الشـــرفة...
إلى الشُّرفةِ فقط.

*

لستُ أتعمّدُ استعادةَ الصباحِ. لكني، في ألـمي النغّارِ، أجِدُني مدوَّخاً بجمالِ ما كنتُ فيه. تلالٌ، ومروجٌ أكثرُ. شجرٌ لا يمنحُ شِبراً لغيرِ الشجرِ. السماءُ قريبةٌ. كأنّ الشـــجرَ أعشاشٌ عجيبةٌ لطيورٍ نعرفُها. منازلُ تحسَبُها ضائعةً بين سلاسلِ الجبالِ. قِيعانُ أنهارٍ يابسةٌ

تنتظرُ أيامَ الهديرِ. سوقٌ أسبوعيةٌ في إحدى القرى يبيعُ فيها مغاربةٌ حقائبَ نسوةٍ من جِلْدٍ كاذبٍ. سألْنا امرأةً إن كان هناك مقهى قريبٌ. قالت: لا أفهم. أشعرُ، هنا، بأنّ لندن أسطورةٌ في الكتب. ما معنى المدينةِ؟ ماذا يمكنُ للمدينةِ أن تهَبَ إزاءَ كلِ هذا الجمالِ؟ثلاثةُ ظِباءٍ تقطع الطريقَ العامَّ متمهلةً كأنها تسلكُ ممرَّها الأثيرَ في الغابةِ. عسلٌ برِّيٌّ. عسلٌ أسودُ في الشاي. في سولونيو كان النبيذُ الجديدُ خفيفاً أقربَ إلى الحلاوة. شجرةُ التفّاحِ عند ممشى الدارةِ ظلّتْ تُسقِطُ ثمارَها منذ أسبوعَين. الآنَ تحملُ الشجرةُ ورقاً أكثرَ من الثمرِ. لكنّ شجرةَ تفّاحٍ أخرى، عند الجيرانِ، بدأتْ تنفضُ تفّاحَها، أخضرَ، صُلْباً.

١٥

Costa Di Morsiano 16 October 2008

غُــوْفـــــا Gova

أهبِطُ، وأهبطُ.
ثمانيةُ كيلومتراتٍ من الهبوطِ. بعدَها «الجســرُ الروماني».
إيطاليا، كلُّها، جسرٌ رومانيّ. لكنّ غوفا لها جسرُها أيضاً.
تعبتُ من الهبوطِ. قلتُ للسيدة الإنجليزية: أستريحُ هنا!
على مصطبةٍ خشبٍ باليةٍ جلستُ. حولي منازلُ ثلاثةٌ تسمعُ
أحياناً أصواتَ ساكنيها، لكنك لا تراهم. هل كان الرومانُ
هنا؟ هل ابتنَوا جسرَهم، قنطرتَهم، ليَصِلوا بين جبلَينِ؟
الورقُ يَسّاقَطُ حولي. أسمعُ للمرةِ الأولى في حياتي الصــوتَ
الخارقَ لورقةٍ تسقطُ. كأنّ امرَءاً يخطو خطوتَه الأولى علـى
الأرضِ. الصوتُ خارقٌ، وكنتُ مع كلِ ورقةٍ تسقطُ أنظرُ إلى
المنعطَفِ. أهي خطوةُ السيدةِ؟الأرضُ كـــلُّها ورقٌ أصفرُ
و بُنِّي. ثمرُ الكستناءِ منثورٌ علــى الورقِ. أنا جالسٌ علــى
المصطبةِ القديمةِ أتأمّلُ الأرضَ. ألمحُ فراشةً صغيرةً على الورق.

أهيَ كسيرةُ الجناحِ؟ نملةٌ تأتي وتحاولُ أن تسحبَ الفراشةَ من جناحِها الـمَهِيض. أتدخّلُ لأنقذَ الفراشةَ. آخذُها بين أناملي. أتأمّلُها. أميّتةٌ هيَ؟ أُعيدُها إلى منزلِ الورق. النملةُ تأتي في أقلّ من لحظةٍ، لتُمسِكَ ثانيةً بالجناحِ. تسقطُ ورقةٌ وأنظرُ إلى المنعطَف. السيدةُ الإنجليزيةُ تعود متوردةَ الوجنتَينِ.

١٦

Costa Di Morsiano 16 October 2008

اليوم، خميسٌ. آخرُ خميسٍ لي في هذا الوادي غيرِ العميقِ من جبالِ الأبَنين. الريحُ نشيطةٌ. وأوراقُ الخريفِ تسقطُ في هَبّاتٍ صُفْـــرٍ، لا واحدةً واحدةً كما رأيتُ في الأيامِ السابقةِ. أفي الجوّ بردٌ خفيفٌ؟

ساقي اليسرى تؤلِـــمُني بالرغمِ من الفولتارين الذي تناولتُهُ مع فطور الصباحِ. ألأنّ الجوّ تبدّلّ قليلاً إلى الباردِ؟ أمسِ، في بار «كْوارا» الذي أرتاده اعتياداً، رأيتُ عاملاً مغربيّ الملامحِ يُسْنِدُ عكّازتَيهِ إلى البارِ، ويتناول مشروباً غيرَ كحوليّ، بينما صاحبُه الإيطاليّ يتناول كأسَ نبيذٍ توسكانيّ أحمر.

حيّـــيتُـهُ بـالـعـربـيـة. الـتـفـتَ إلـيّ غـيـرَ مُــصَـدّقٍ. ردَّ عـلـيّ السلامَ. استفسرتُ منه إنْ كانت إصابتُهُ نتيجة حادثةِ سَيرٍ. أجابَ: حادثة عملٍ. كان لا يزال غيرَ مُصَدِّقٍ أن شخصاًما يتكلّمُ العربيةَ في هذه القريةِ المنقطعةِ بالأبَنين. سألَني: أرأيتَ طنجةَ؟ أرأيتَ طنجةَ؟ عددتُ له كل مدن المغربِ التي زرتُها من سبتة إلى وجدة. لكن طنجة لم تكن من بينِها! وعاد يسألني: هل رأيتَ طنجة؟

اعتقدُ أنه كان يظنني إيطالياً يعرف شيئاً من العربية. ربما لأنه رآني

مع السيدة الإنجليزية نرتشفُ نبيذاً أحمرَ توسكانيّاً، شأنَ صاحبِه الإيطاليّ!

غادَرَ الشابُّ المغربيُّ، البارَ، بمساعدةٍ من صاحبه الإيطاليّ.

لم أحظَ بتحيةٍ منه إذ غادرَ المكانَ.

في طريقِ عودتنا من كْوارا إلى مورسيانو حيثُ نُقيمُ. لمحتْ جْوان امرأتَينِ تسيرانِ على جانب الطريقِ. كانت إحداهما تغطّي شَعرَها. نظرتُ إليهما. كانتا فتاتَينِ مغربيّتَينِ شديدتَي السُّمرةِ.

لا بُدّ أنهما تشكّلانِ مع الشابّ ذي العكّازتَينِ، الجاليةَ المغربيةَ بهذه القريةِ الإيطاليةِ: كْوارا!

*

البردُ يشتدُّ.

دخلتْ جْوان إلى المنزلِ بعد أن كانت جالسةً في الحديقةِ.

قالت: العاصفةُ تقتربُ!

١٧

Costa Di Morsiano 17 October 2008

الجمعة. سيلفانا وفوزي سوف يصلانِ من ميلانو بعد الظهر، كعادتهما، لنقضي عطلةَ الأسبوع الأخيرةَ، معاً.

عصرَ أمسِ، الخميس، هطل المطرُ. لم يكُنْ غزيراً، لكنه كان كافياً ليُعَلِّقَ قُزَحٌ قوسَهُ. للمرة الأولى في حياتي أرى قوسَ قُزَحٍ يهبِطُ إلى الوادي من سفحِ الجبلِ! أعني أن قوس قُزَحٍ لم يكُن، مثل مَا عهدْنا، يصِلُ بينَ طرَفَي السماءِ. أمسِ أيضا، اشتدّتْ آلامُ ساقي. أوَيتُ إلى الفراشِ مبكراً جداً.

من كُوّةٍ في غرفةِ النومِ، لا بُدَّ لي من أن أتابعَ بنظري، ما يواجهني خارج الغرفة، خارج المنزل.

آخرَ مصباحٍ في الدربِ.

سبعَ نوافذَ موقَدةِ الأنوارِ على السفحِ الآخرِ.

بُرْجَ كنيسةِ مادونا المرتفَعات.

لكنّ الليلَ يُخَشْخِشُ بالأصواتِ...

أتَوَهَّمُ أني أسمعُ مسعى القنفذِ.

ذيلَ الثعلبِ. خِطْمَ الخنزيرِ الوحشيِّ. حفيفَ الظبيِ. الحيّةَ.

أحياناً أتوهَّمُ أني أسمعُ صوتي...

وأشُـــمُّ روائحَ :
أزهاراً تتفتّحُ في الليلِ. وتِـبْنـــاً محترقاً. مَوقِدَ قسِّيسِ القريةِ. أرديةَ امرأةٍ تُنْـضى.

*

هل أعودُ إلى المكانِ؟
ليس من عودةٍ. المكانُ لن يكونَ هذا المكانَ.

*

ســـاقي تؤلِـــمُـني.
لن تحملَـني بعيداً.
أو قد تحملُـــني ابعدَ مـمّـــا أريدُ!

---

* اكتملَ النصّ.

في البراري حيثُ البرق

تموز في كوبنهاجن

في هذي الضاحيةِ الصغرى من كوبنهاجن
(لم أرَ في كوبنهاجن ضاحيةً كبرى)
كنتُ أفيقُ على امرأةٍ تركبُ درّاجتَها
(مسرعةً دوماً)
أتساءلُ: هل تتمهّلُ يوماً؟
هل تتساءلُ: مَن هذا الجالسُ في الشرفةِ فجراً؟
هذا القادمُ من لا أين
هل ستقولُ: صباح الخير؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ولكنّ المرأةَ مسرعةٌ دوماً
مسرعةٌ لا تتمهّلُ
تركبُ درّاجتَها، مكنسةَ الساحرةِ
الصبحُ هنا يتمهّلُ
والطيرُ يدندنُ في شبه خفوتٍ
والقهوةُ تُبطيءُ في الركوةِ

والبحرُ بلا موجٍ
والرجلُ الجالسُ في الشرفةِ سوف يظلُّ الرجلَ الجالسَ في الشرفةِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لكنّ المرأةَ مسرعةٌ
أتقولُ: إلى أين؟

كوبنهاجن، ٢٠٠٨/٠٧/٠٤

لــونُ اللافَـنْــدَر

اللافندَر فُوقَ سياجِ كنيسٍ مهجورٍ
ينسجُ، في ظلِّ الأشجار، بنفسجَــهُ صيفيّــاً
حتى كاد جنوبُ فرنسا يملكُ هذا الحيَّ من العاصمةِ الدانيماركيةِ
أجلسُ في الشرفةِ
لم تأتِ امرأةُ الدرّاجةِ
لم تأتِ امرأةٌ
أتُراها تَسْــبِتُ في السبتِ؟
نسيمٌ يلمُسُ، في الصمتِ، أصيصَ النخلةِ في رُكنِ الشُّــرفةِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هل ستعودُ القصصُ الأولى؟
أنا لا أجرؤُ أن أُغمِضَ عينَيَّ
مَخافةَ أن ألمحَــها
لكني أسمعُها
تلكَ الطائرةَ الحربيةَ
في الأفقِ الـمُـغْـبَــرّ

كوبنهاجن، ٢٠٠٨/٠٧/٠٥

صـراحــة

قالت: قد كنتُ أحبُّكَ. . .
لكنّ الدّنيا مسرعةٌ.
هل أبصرتَ جواداً يعدو في سَهْبٍ مرتفعِ العشبِ؟
الدنيا مسرعةٌ
وأنا المأخوذةَ بالشُّهُبِ
اخترتُ مصيرَ الشّهُبِ. . .
اتركْني!
أرجوكَ!
اتركْني. . .

بولزانو (إيطاليا)، ٢٠/٠٧/٢٠٠٨

عند بحيرةِ الأنهار الثلاثة

ومن أعلى البحيرةِ
مَـرَّ سِـــرْبٌ من الـوَزِّ العراقيِّ،
اشْـــرأبّتْ له الأعناقُ.
كان الـوَزُّ يمضي ســـريعاً، يُطْلِقُ الصيحاتِ،
عنقاً يكادُ يطولُ عُنْقَينِ. . .
السماءُ التي انفتحتْ تقولُ لهُ:
إلى أينَ تمضي؟
هل مَقاصدُكَ الجنوبُ الذي تدري. . .
أَم الأملُ الشمالُ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
البحيرةُ شِـبْـــهُ ساكنةٍ.
صباحٌ كما يأتي الصباحُ هنا.
تدورُ النوارسُ
والحمامُ يحِطُّ.
لكنْ. . .

بعيداً حيثُ نجهلُ،
كان سِــرْبٌ من الوَزِّ العراقيّ
الـمُـغِـذِّ،
يصيحُ:
لا!
لا!

لندن، ٢٦/٠٧/٢٠٠٨

البُحيرةُ في الفضـاء

تصحو مع الفجرِ، دوماً، لا صلاةَ، ولا ناقوسَ يدعو
ولا احتكّتْ بكَ امرأة تحت الـمُلاءةِ. . .
قبلَ الطيرِ أنتَ. كجَـدِّكَ الأعلى امرئ القيسِ. البحيرةُ
بغتةً قامتْ. وآلافٌ مُؤَلَّـفةٌ من الطيرِ استفاقَتْ. ثَـمَّ
أجنحةٌ وأصواتٌ وفجرٌ أحمرُ الأوراقِ. ترتفعُ البحـيرةُ
في الفضاءِ. أغابةٌ للـريشِ تَنْبتُ؟ أَمْ نَـثيرُ بنفسـجٍ
في الكونِ؟ كان النوءُ طولَ الليلِ يهدرُ. والنوافذُ تختفي
في الماءِ. أنتَ، مبكِّراً، أدخلتَ رأسَـكَ تحتَ مُلتحَفٍ
ونِمْتَ. . . أغـفلةً كانتْ؟ أَم الساعاتُ قد قهرَتْكَ حتى
ألجأتْكَ إلى سلامِ الغَيبةِ؟
افتَحْ، هكذا، عينيكَ واسعتَينِ. . .
وانظُرْ:
أيّ معجزةٍ يجيءُ بها الجناح!

لندن، ٢٠٠٨/٠٨/٠١

جَـــسَـــدٌ

تحبّ أن تُلصِقَ نهدَيها بصدري حين تغفو
وردةً. . .
ما أهدأَ الأنفاسَ!
لكنْ
كيف أغفو
وهي قد ألصقتِ النهدَينِ طَـيرَينِ
يرفّانِ بصدري؟
كيف أغفو؟

لندن، ٢٠٠٨/٠٩/٠٣

حميمِيّةٌ

نحن لا نأتي معاً. . .
أتركُها
هيَ
تأتي أوّلاً. . .
تُطْلِقُ الرعشةَ من أعماقِها في صرخةٍ مكتومةٍ،
ثم تقولُ:
الآنَ أنتَ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الشرشفُ الأبيضُ مبتلٌّ
ومدعوكٌ
وفي داخلِها نارٌ تفيض.

لندن، ٢٠٠٨/٠٩/٠٦

مَبْحَثُ المكانِ

كيف لي أن أفوزَ بشِبرٍ من الأرضِ
أمضي به، والغزالةَ، حتى النهاياتِ؟
حتى أرى البحرَ أصفرَ
والسعفَ أزرقَ
والشمسَ خضراءَ . . .
كيف السبيلُ إلى ذلكَ الشِّـــبْـرِ؟
حيثُ الغناءُ الذي يترنّحُ
والطيرُ
حيثُ الصلاصلُ موجٌ،
وحيثُ الفضاءُ النشـــيدُ . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لقد ضاقت الأرضُ بي قدْرَ ما اتّسعتْ.
كيف لي أن أفوزَ بشِبْرٍ من الأرضِ؟
لا تَطرقوا البابَ ليلاً!
ولا تحتموا بالزجاجِ المضاعَفِ في شُـــرفتي . . .

لا تُعيدوا الكلامَ.
الطريقُ إليّ امّحتْ، منذُ عشرينَ عاماً، ملامِـحُــها. . .
قد أفوزُ بشبرٍ من الأرضِ
أمضي به والغزالةَ. . .

لندن، ٢٠٠٨/٠٩/٠٧

سُـونَـيـتَـة Sonnet

ناعساً تحتَ شمسٍ خريفيةٍ في المعسكَرِ. . .
لم تأتِ طائرةٌ. ربما كانت الطائراتُ تُغِيرُ
بعيداً هنالك حيثُ البرابرةُ المسْلِمون

ناعساً تحتَ شمسٍ شماليّةٍ. أنتِ شمـسي
وأمسي. تظللُني خُصلةٌ ذهبٌ. ونسيمٌ
حريرٌ. سنقتسمُ الخبزَ والـجُبنَ والخمرَ.
نقتسمُ القطرةَ. المنتهى والجنون

ناعساً تحتَ شمسِ الـمَراكبِ، أمضي
مع الماءِ هذا الشفيفِ، وأقضي الضحى
والظهيرةَ والعصرَ، بينَ الندى والغصونْ

ناعساً في ضَبابٍ من الغبَشِ. الشجرُ ازرَقَّ
ثَمّتَ صفصافةٌ تترجّحُ مقلوبةً في البحيرةِ.
كانت ذراعي الوسادةَ. أرجوكِ أن تثقي بي
وأن تُطبقي الجفنَ ناعمةً ومُنَعَّمةً. . . كي نكونْ

لندن، ٢٨/٠٩/٢٠٠٨

بَرشـلونـة

إنْ بلغتِ المدينةَ أمسيتِ في البحرِ . . .
أعرفُ أن الكنيسةَ قد أتعبتْكِ، فما شأننُـا والكنائسَ؟
أو أنّ ميرو سيلقاكِ في مطعمٍ . . .
أو أن صفّاً طويلاً من السائحين يزاحِمُ عشّاقَ بابلو بيكاسو!
المدينةُ ليستْ بهضْـــبتِها
أو بذكرى بنادقِها الفوضويّةِ . . .
إن المدينةَ في البحرِ
راياتُ كولُمبُسَ المستدقّةُ في البحرِ
قُبلتُكِ المستحيلةُ
في البحرِ . . .
لا تدفعيني بعيداً عن البحرِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
إني أُحبُّكِ!

لندن، ٢٨/٠٩/٢٠٠٨

شجرُة الحَـوْرِ التي أراها

شجرةُ الحَوْرِ التي أراها من النافذةِ الكبيرةِ في الغرفة الصغيرةِ
شجرةُ الحَوْرِ هذه
ظلتْ تقاومُ الخريفَ
حتى هذا اليومِ الثامن عشَر من أكتوبر.
فجأةً اصفَرَّ نصفُ أوراقِها
بينما ظلَّ النصفُ الآخرُ على خُضرتِهِ الشاحبةِ.
اختفت الجبالُ ومنازلُها
حتى أضواءُ المساءِ المبكِّرِ لم أعُدْ ألمحُها
اختفت الجبالُ ومنازلُها
حتى أضواءُ المساءِ المبكرِ لم أعُدْ ألمحُها
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
مطرٌ ضبابٌ يهطلُ على القريةِ.
العصافيرُ وحدَها سعيدةٌ بما يَحْدثُ.

Costa Di Morsiano
١٨/١٠/٢٠٠٨

أنتظرُ الصقورَ

المنازلُ تلك التي قد أردْنا أتتْ مثلَ ما قد أردْنا:
بيوتاً وراءَ التلالِ
ستائرَ من شبَكِ الـقُطنِ
نافذةً،
سُـلَّمـاً خشباً يصِلُ الأرضَ بالأرضِ.
لن نستريحَ إلى أننا قد بلَـغْـنا الـمُرادَ...
الطيورُ مغرِّدةٌ
والصقورُ التي نهشتْ لَـحْـمَنا، سنةً بعدَ أخرى، تحومُ
ولكنْ بعيداً...
ستتركُنا نتعفّنُ
داخلَ تلكَ البيوتِ التي قد أردْنا
البيوتِ التي ثَـبَّـتَـتْـنا وراءَ التلالِ
كما يَثْبُتُ الغيمُ...

لندن، ٢٧/١٠/٢٠٠٨

حَضــارِمــةٌ

ربما كان من حضرموتَ الطريقُ الذي لو سلكْناهُ عِشْنا
آنَها، نَـتْـبَعُ السَّـيْـلـةَ:
الماءُ من ألفِ عامٍ وأكثرَ أفرَغَ في البحرِ أشجارَهُ والشياه الهزيلةَ
أفرَغَ في البحرِ حتى تماثيلَنا
وعيونَ الشواهدِ. . .
صِرْنا مَكاشِيفَ
تخترقُ الشمسُ أجسادَنا كالمرايا.
وصِرنا رُعاةً
ولكنْ لأفيالِنا والنســورِ.
دُعاةً
ولكنْ إلى الأرخبيلِ الذي عافَهُ اللهُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
نائمةٌ حضرموتُ
وناعمةٌ مثلَ أوراقِ تَبْغٍ طريٍّ

ستَقْرِصُنا ليلةً
لتقولَ: الطريقُ إلى مكّةَ اتَّضَحَ الآنَ،
والـحَـجرُ الأسودُ اجْـتَـرَفَـتْـهُ السيولُ
إلى البحرِ
حيثُ الخيول. . .

لندن، ٠١/١١/٢٠٠٨

بُـوْذا ؟

أنا مُـنْـحَنٍ
أنا مُنحنٍ للأرْزَةِ الزرقاءِ تَهْرَمُ
مُنحنٍ للأسطوانةِ
مُنحنٍ للغيمِ أبيضَ
مُنحنٍ للساحَةِ السوداءِ في الظلْماءِ تلمَعُ
مُنحنٍ لعصائبِ الطيرِ المهاجرِ
مُنحنٍ لصديقتي إذْ غادرَتْ بيتَ الشمالِ تَقودُ تلكَ الـ «فُورْد»
قادِمةً إليَّ . . .
ومُنْحَنٍ لِـلِـباسِها التحتيّ .
إني أنحني لأقولَ : إني مُنْحَنٍ . . .
ما أجملَ الأشجارَ!
هل أبصرتَها إذ تنحني للريحِ والأمطارِ؟
هل أبصرتَها . . .
جبّارةً
وجميلةً
إذْ تنحني؟
أنا أنحني أيضاً . . . وأرفعُ للمساءِ الرّطْبِ قُبَّعَتي!

لندن، ٢٠٠٨/١١/٠٨

أُغنيـةٌ لشتاءٍ خفيفٍ

خفيفٌ هوَ المطـرُ
القطراتُ التي لا تُرى تجعلُ السورَ أبيضَ،
والدربَ أسودَ
والقطّةَ الـمُستَكِنّـةَ خضراءَ
والغصنَ يُصغي. . .

خفيفٌ هو الشـجرُ
الورقُ الهشُّ يُطْوى كأوراقِ لَفِّ السجائرِ
والجذعُ يَهصِرُهُ النّوءُ
والطيرُ غابَ. . .
المساءُ الذي كنتُ أُقْنِعُ نفسي بهِ قد أراهُ. . .

خفيفٌ هو المرمرُ
التَفّت الساقُ بالساقِ. . .
والماءُ مُـنْـبَـجِـسٌ من عروقٍ سـماويّةٍ
والأغاني مُقَـطّـعـةٌ

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

سوفَ تُمسي الـمُلاءاتُ ماء. . .

لندن، ١٠/ ١١/ ٢٠٠٨

من هناك ترى الخيلَ...

لكنْ، ســتَـرْقَى أوّلاً، ما كان يُدْعى التلَّ
أقصى القريةِ. . .
الآنَ، المنازلُ آوَتِ الغزلانَ والدَّغْلَ.
المنازلُ لا تُطِيقُ الخيلَ
والخيلُ الغريبةُ لا تطِيقُ المنزلَ.
الأشجارُ تهبِطُ سُــلَّـماً أخْفَتهُ أعشابُ الخريفِ الراحلِ.
الدربُ استدارَ
فكانَ مُـنْـفَـسَحٌ. . .
عليكَ الآنَ أن تجدَ اختلاجاً للصلاةِ
عليكَ أن تتجنّبَ الكلماتِ:
أنت الآنَ في الوادِ المقدّسِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هل ترى ماءَ البحيرةِ لامعاً مترقرقاً في الـبُعْـدِ؟
هل تتأمَّلُ الصفصافَ منحدِراً؟

أتُبصِرُ رَفّـةً؟
أَسْـبِلْ يدَيكَ!
ألم ترَ الطُّوبَى. . .
جواداً، بينَ حَدِّ الماءِ والصفصافِ، أبلقَ؟
أبيضَ
الوادي بياضٌ
شهقتي بيضاءُ
والناقوسُ أبيض. . .

لندن، ١٩/ ١١/ ٢٠٠٨

النــهــارُ واللــيلُ

تلْقاها في الشارعِ
تجلسُ في المقهى معها ساعاتٍ
تأخذها كي تتعشّى في المطعمِ
تمشي معَها كيلومتراتٍ في الـمُـتَـنَـزّهِ
تُدْخِلُها مخزنَ أثوابٍ كي تختارَ قميصاً للعيدِ
وتسألُها أن تختارَ الكرسيَّ العالي في البارِ لكي تتأمّلَ قامتَها. . .
لكنك قد تتساءلُ:
هل هذي المرأةُ قد وُلِدَتْ مَلْطاءَ بلا نهدينِ؟
ومَسْحاءَ بلا رِدْفَينِ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الساعةُ قد أعلنت العاشــرةَ
الغرفةُ دافئةٌ
موسيقى جازٍ هادئةٌ تحملُ هذا الليلَ إلى نيو أورليانز. . .
المرأةُ في دفءِ ســريرِكَ.

المرأةُ، إيّاها . . .
لكنك تَعصِرُ أجملَ نهدَينِ
وتُبصِرُ مُكْـتَــنَــزَ الردفَينِ . . .
المرأةُ إيّاها!

لندن، ٢٥/ ١١/ ٢٠٠٨

حديثُ وِسادةٍ

قلتُ لها:
أطيلي زغَبَ الدّلْتا...
(أصابعي كانت على المنفرَجِ الطافحِ)
قالت لي:
ولكنّ الذي أحببتُ مِن قَبلِكَ يهوى عانتي ناعمةً!
(تُطيلُ في ضحكتِها الخافتةِ)
الليلُ طويلٌ.
مطرٌ منذ ملايين السنينِ.
الريحُ لا تهـــدأُ.
والدلتا تسيل...

لندن، ٢٦/ ١١/ ٢٠٠٨

جْـوان تحـلُـمُ

أراقبُ جْوانَ في الـحُلْمِ:
السريرُ هنا، باقٍ كما كانَ. . .
ليلُ القريةِ اتّسَعَتْ فيه الشواخصُ،
أشجارُ السياجِ بَدتْ غيماً
ونافذتي تدنو من الثلجِ. . .
وجهُ جْوانَ مُؤتلَقٌ للوردِ.
لا أسمعُ الأنفاسَ
غائبةً كانت جُوانُ مع البحرِ الـمُحيطِ
مع الأعشابِ في القاعِ. . .
كانت غضّةً
أبداً
شفيفةً
تهبِطُ الأمواجُ تائهةً بها
ثم تعلو فجأةً. . .
وأنا الأعمى
أراقبُ جْوانَ في الـحُلمِ:

السريرُ هنا

يطفو . . .

وبعدَ قليلٍ باتَ ينجرفُ!

لندن، ٢٧/ ١١/ ٢٠٠٨

شـــقّـــةُ بَرلِـــيـــن
The Berlin Flat

لثلاثةِ أيّامٍ، وثلاثِ ليالٍ
ظلَّ المطرُ الصامتُ يسقطُ
حتى ابتَلَّ لِحافي في غرفةِ نومي. . .
وابتَلّتْ مكتبتي.
جْوانُ الآنَ تنامُ، مُنَعّـمةً، في شقّتِها البرلينيةِ
حيثُ بدأْنا قصّتَـنا في القيلولةِ
بعدَ نبيذٍ أحمرَ لم نعرفْ من أيّ كُرومٍ جاءَ.
(أتحدّثُ عن عامٍ ماضٍ)
لكني ألتجيءُ، اللحظةَ، نحوَ هنالِكَ
نحوَ الشقّةِ في برلينَ. . .
جْوانُ هنـاك.
وهنا، لثلاثةِ أيامٍ، وثلاثِ ليالٍ،
ظلَّ المطرُ الصامتُ يسقطُ.

لندن، ٢٨/ ١١/ ٢٠٠٨

النـعِـيـم

حينما يهبطُ الليلُ يأتي بمُعطَفِهِ
ثم يفرشُهُ فوقَ تاريخِ أجسادِنا
كي ننام.
حينما يهبطُ الليلُ يُمسي الكلامُ
غماغِمَ
أو خطوةً في غمام.
سوف يحملُنا الليلُ، كالموتِ، في نِعمةِ القُطنِ،
يحملُنا
ويحِطُّ بنا في البراري التي يتبخترُ فيها القَطا والنّعام
مَنْ يُرِدْ، أن يعودَ إلى بيتِهِ، يستفِقْ. . .
غيرَ أني مُـقِـيمٌ، هنا، أبداً
في حريرِ الـمَنام. . .

لندن، ٢٠٠٨/١٢/٠٢

وَصْفُ ما يوصَفُ

مَن رَشَّكَ بالماءِ رَشَـشْـناهُ دَمــاً . . .

*

كانت أشجارُ البلّوطِ تنوءُ بسيلٍ يَتَـنَــزّلُ
منذُ ثلاثةِ أيّام،
حتى كدتُ أرى في الحُلْمِ ضفادع تَملأُ جيبي.
كانت أشجارُ البلّوطِ تُحَرفِشُ جِلْــداً أسودَ،
كانت أشجارُ البلّوطِ تنوء. . .

*

مَنْ رَشَّكَ بالماءِ رشَشْـناهُ دماً . . .

*

أتأمّلُ، مقروراً، في وجه الساحةِ.
لا طيرَ
ولا كلبَ
ولا سنجابَ.
الساحةُ مِرآةٌ ســوداءُ.
الساحةُ وجهي.

*

مَنْ رشّكَ بالماءِ، رششناهُ دماً. . .

*

لن تَطرقَ بابي امرأةٌ في هذا الليلِ الدّبِقِ.
التحفَتْ كلُ امرأةٍ مَن شاءتْ أن تلتحفَ.
الليلُ طويلٌ
وعلى المرأةِ أن تَأْمَنَ من خوفٍ.
وعلى المرأةِ أن تهجرَني.

لندن، ١٧/١٢/٢٠٠٨

البَــرِّيَّــة

أوَ لَستَ ترى خيراً لكَ أن تجلسَ مثلَ التمثالِ رُخاماً؟
لقد انكفأَ العالَـمُ
وانقطعتْ كلُّ خطوطـِكَ:
لا هاتفَ
لا أوراقَ بريدٍ
لا إيميلَ...
و لا امرأةٌ تضغطُ زِرَّ البابِ مســاءً.
خيرٌ لكَ أن تجلسَ تمثالَ رُخامٍ
ما شأنُكَ والعابرَ؟
ما شأنُكَ والهاتفَ والأوراقَ... إلى آخرِهِ؟
أنتَ الآنَ كما أنتَ،
لِــمَ الحُزْنُ إذاً؟
.....
.....
.....
أهيَ الريحُ وقد أمستْ تتناوَحُ في الغابةِ؟
أهيَ الريح؟

لندن، ١٨/١٢/٢٠٠٨

مُـنــاوَلــةٌ Communion

قبل منتصف الليلِ
كانت كنيسةُ قريتِنا في الظلامِ الأليفِ:
الطيورُ التي هجعت سوف تبقى إلى أوّلِ الفجــر هاجعةً
وطريقُ الكنيسةِ يبقى الـمُـغَـيَّبَ. . .
والسَّــرْوُ في حُلْــمِهِ.
قبل منتصفِ الليلِ
لا شــيءَ إلاّ الظلام. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أتسمعُ منتصَفَ الليلِ؟
طيرٌ بلا موعدٍ أعلَنَ الوقتَ بين الغصونِ التي لا نرى.
فجأةً لألأَ النورُ.
بابُ الكنيسةِ يبدو طريقَ نجومٍ،
وأسوارُها سُــلَّـماً للمَجَـرّاتِ.
ها نحن أولاءِ ندخلُ:
نستقبلُ الطفلَ يُولَدُ، تمتمةً في شفاهٍ عَلاها النبيــذ.

لندن، ٢٧/ ١٢/ ٢٠٠٨

الأيّــام...

يا ما نسجتُ الحُلْمَ:
أدخلُ مكّـــة اَلأجبالِ، فجراً،
رافعاً، في خِرْقةٍ حمراءَ، تُشْبِهُ رايةَ الـمِتْراسِ،
بَيرَقِيَ المؤجَّلَ منذُ آبادٍ...
.....
.....
.....
سأدخلُ مكّةَ الأَجبالِ:
لكنْ... ما تراني فاعلاً؟
هل أحملُ الحَجَرَ القديمَ إلى الـمَـنامةِ، مثلَ ما فعَلَ القرامطةُ؟
الطريقُ إلى المَنامةِ ليسَ حُرّاً
والمنامةُ لم يَعُدْ فيها قرامطةٌ.
أَأُطْلِقُ منجنيقَ النارِ كالحَجّاجِ، أيّامَ الزُّبَـــيرِ؟
مُغَفَّلاً سأكونُ...
فالبيتُ الحرامُ، الآنَ، يحمِـــيـهِ الـمِظَليّونَ (من تدريبِ باريسَ).
الجبالُ محيطةٌ...
والناسُ سوف تُفِيقُ، مُثْقَلةً، تُصَلِّي الفجرَ.

سوف يرونَني، بالجِيْنْزِ، والبسطالِ، مجنوناً
وأشعثَ بعدَ طُولِ سُـــرىً.
ومَنْ يدري؟
أيصرخُ واحدٌ منهم: شـيوعيٌّ يُقامُ عليه، هذي اللحظةَ، الـحَـــدُّ؟

لندن، ٢٠٠٩/٠١/٠٦

السباحة في خليج عدَن

لا أدري إنْ كان الجولدمور

The Gold Mohur

ما زال على الشاطئ. . .

رُبَّـتَــما غارَ الفندقُ هذا في قاعِ البحرِ

أو ارتَدَّ صخوراً في الجبلِ الأســودِ.

(إنّ مَساكـنَـنـا تسكنُ فينا)

أحياناً، في الليلِ الهامدِ، في مُنْتَبَذي الأوربيّ، أغادِرُ غرفةَ نومي

وأسيرُ إلى بابِ المنزلِ

معصوبَ العينينِ برائحةٍ من سمكٍ وســراطينَ

فأهبِطُ درْجاتِ السُّـلَّـمِ أعمى إلاّ من رائحةِ الساحلِ

والريحِ الرّطبةِ بين شُجَيراتِ غَضــاً. . .

أُرهِفُ سَــمعي:

هل ثَـمَّ حضارمةٌ بلغوا الفندقَ في سُفُنٍ خشبٍ؟

أَمْ يافِعُ تدنو؟

إني أسمعُ أغنيةً عن بحرٍ ومَحارٍ. . .

أسمعُ تهليلةَ بَحّارٍ.

أسمعُ صوتي!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

في الجولدمور

كنا نصنعُ، في ليلةِ قيظٍ، سُفناً من ورقٍ

لتطيرَ بنا. . .

كنا فقراءَ إلى الله!

لندن، ٠٩/ ٠١/ ٢٠٠٩

في تلك الثمانينيات

كان أفارقةٌ ثوريّونَ
يعودون إلى الشاطئ في زورقِ مطّاطٍ.
والزورقُ منطلِقٌ
من قَيدومِ سفينةِ شحنٍ سوفييتيّـــةْ.

في صمتِ البحرِ الأحمرِ
في صمتِ الليلِ
وفي صمتِ الموجِ
أفارقةٌ ثوريّونَ يعودون إلى شـــاطئهم
غيرَ بعيدٍ عن جيبوتي...
*
في الصبحِ المتوهجِ (لا فجرَ هنا)
نبْلغُ مرفأَ جيبوتي:
طرّادٌ حربيٌّ لفرنسا يحرسُ بوّابةَ جيبوتي،
والأرضُ الإفريقيةُ لا تعلو أكثرَ من مترٍ عن سطحِ البحرِ.
.....
.....

. . . . . .

أفارقةٌ ثوريّونَ أعادتْهُم في زورقِ مطّاطٍ

أمسِ

سفينةُ شحنٍ ســـوفييتيّةْ.

لكنّا سنلوبُ بحارَ العالَمِ في زورقِ مطّاطٍ لن يُبْلِــغَــنا أرضاً

أبداً. . .

لندن، ١٠/ ٠١/ ٢٠٠٩

إلى وِصال

لستُ أعرفُ في أيّ أرضٍ حللتِ
ولا أينَ أنتِ تَحِـلِّـينَ،
عُمْرٌ، كما يخطِفُ البرقُ. . .
أَمْ ماراثونُ العذابِ؟
السفينةُ قد غرِقَتْ منذُ قَرنٍ ببغدادَ. . .
هل تَذْخَرينَ الأريكـــةَ للرِّحْلةِ الأُمِّ؟
غادرت شِـارعَنا في فلسطين (أقصدُ عندَ القناةِ ببغدادَ)؟
أينَ ذهبتِ؟
وأينَ ذهبتِ، بما لم يَكُنْ؟
جاءني صوتُكِ الـتِّـبْـرُ أيّامَ حفلةِ قتلي بِعَمّانَ. . .
هل كنتِ أحسستِ أنيَ أُقتَلُ؟
يا بنتَ عمّي
التي قطفتْ وردتي،
يا وِصالُ. . .
سأنتحبُ الليلةَ:
الريحُ غربيّـةٌ

والمطرْ
ليسَ ينقطعُ . . .
الفضّـــةُ، الآنَ، تبكي، خيوطاً بشَعرِكِ .
أنتحبُ الليلةَ . . .

لندن، ١٩/ ٠١/ ٢٠٠٩

شجـرة

دوحةُ التوتِ كانت تُحَوِّلُ ما حولَــها جبلاً. . .
والحديقةَ سَـفْـحاً.
وكانت حبالٌ من السُّرخُسِ الفظِّ تجهدُ أن تتسلَّـقَها.
والأرانبُ قد تحتمي بتجاويفَ في أسفلِ الجِذْعِ إذ تغرُبُ الشمسُ.
دوحةُ توتٍ لها عسلٌ أحمرٌ
ولِحاءٌ شفيفٌ. . .
إذا مرّت الريحُ بينَ مَساربِها هدأتْ
لتقولَ الســـلام. . .
كم لها من سنينٍ هنا؟
كم لها من سنين. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في الليالي الوحيداتِ أُرهِفُ ســـمعي لها. . .
أهِيَ الريحُ
أمْ هو ذاك الأنين؟

لندن، ٢٠/ ٠١/ ٢٠٠٩

الـــمَـمَـــرّ

كأنْ لا ســـبيلَ إلى خارجِ القريةِ:
الساحةُ التهَمَـتْـها السَّـــراخِسُ والعقعقُ.
البرْكةُ اختنقَتْ بالحشائشِ والقصبِ.
الثلجُ أغلَقَ آخرَ ممشىً إلى موقفِ الحافلاتِ الأخيرِ.

كأنْ لا سبيلَ إلى خارجِ القريةِ:
المطرُ الأطلسيُّ الذي لا يُرى، يتحَدَّرُ في العَظْمِ.
والخيلُ تَقْطُرُ بالعَرَقِ المتبخِّرِ عبرَ السياجِ.
لقد عَرِيَتْ آخِرُ الشجراتِ.

كأنْ لا سبيلَ إلى خارجِ القريةِ:
المدينةُ ترسِلُ، ليلاً، رسائلَها...
غيرَ أني، هنا، كالذي ليس يقدرُ أن يُدرِكَ الليلَ.
إني هنا أهبِطُ،
اللحظةَ
اللحظةَ
البئرُ مفتوحةٌ...

لندن، ٢٣/ ٠١/ ٢٠٠٩

رَمْــلُ دُبَـــيّ

«إلى أدونيس»

إبَرٌ من أغصانِ صنوبرةٍ كانت تفرِشُ أرضَ الممشـــى،
والـمَمشـــى كان رفيقاً يصعدُ نحوَ الدارةِ
حيثُ يبيتُ أرِقّاءٌ من بُلدانٍ شَـتّى، ليلتَهُم، منتظِرينَ النخّاسَ السـوريَّ.
النخّاسُ السوريُّ
يُقَلِّبُ في دارتِهِ الباريسيةِ أوراقاً ناعمةً
وحساباتِ مصارفَ. . .
أو أضغاثَ عناوينَ.
النخّاسُ السـوريُّ، يسيرُ الآنَ إلى الدارةِ
حيثُ أقامَ أرِقّاءٌ من بُلدانٍ شـتّى ليلتَهـمْ.
سيقولُ صباح الخيرِ
ويضحك ضحكتَهُ الخافتةَ.
الشعراءُ الـمَسْلوكونَ إلى حبلٍ من مَسَـدٍ
كانوا ينتظرونَ النخّاسَ السوريّ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أمواجٌ هَـيِّــنــةٌ كانت في الفجرِ تُوَشْــوِشُ رملَ الشاطئ.
مَرْكبُ فَحْمٍ، فيه الشعراءُ
أرِقّاءُ النخّاسِ السوريّ
يرســو
في الفجرِ المحتقِنِ الرَّطْبِ
على رملِ «دُبَــيّ».

لندن، ٢٨/ ٠١/ ٢٠٠٩

الثلجُ في الظهـيرةِ

كيف يمكِنُ أن تلمُسَ الثلجَ؟
ريشُ الطيورِ التي لم تكُنْ، يلمُسُ الثلجَ.
مأْثُرةُ الحُلمِ، في مهدِها، تلمُسُ الثلجَ.
هذا الهدوءُ الذي لا نُحِسُّ بهِ، يلمسُ الثلجَ.
إطْباقةُ الجسدَينِ على غفوةٍ، تلمسُ الثلجَ.
نافذتي تلمسُ الثلجَ.
كفّي التي تنقُرُ الآنَ لوحَ المفاتيحِ، سِـــرِّيّةً، تلمسُ الثلجَ.
طيرٌ وحيدٌ
وغصْنٌ
ومِرآتُـــهُ في البحيرةِ
يلمسُ، في الهدأةِ، الثلجَ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كأسي التي أُتْرِعَتْ
بهجةً
وسماءً شماليّةً،

تلمسُ الثلجَ،
عيني التي أُغمِضَتْ عن قساواتنا
تلمسُ الثلجَ. . .

لندن، ٢٠٠٩/٠٢/٠٢

الـمَـعْـبَـر

لن أذهبَ أبعدَ من هذا!
سأسيرُ، وئيداً، حتى أبلُغَ تلك القنطرةَ.
انتبِـه!
القنطرةُ المأمولةُ ماثلةٌ. . .
لكني لن أعْـبرَها.
سأميلُ قليلاً عنها كي أهبِطَ عندَ الجُرفِ السرّيّ،
حيثُ الماءُ المتجمِّـــدُ.
حيثُ السمكُ الفضّـــةُ.
حيثُ زهورٌ غامضةٌ.
وقبورُ جنودٍ رومانيّين.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لن أذهبَ أبعَدَ من
لا أبعَدَ من هذا. . . هذا!

لندن، ٢٠٠٩/٠٢/٠٧

السؤالُ الأوّل

أقولُ له. . .

(ليَ في الحقِّ)

- كانت ظهيرةُ ثلجٍ تَنِثُّ علينا -:

ألم نَصِل البلدةَ؟

اليومَ (أذكرُ) مرّتْ بنا، وعلينا، عواصفُ ليس لها عددٌ.

مَرَّ طيرٌ بنا. . .

مرَّ طيرٌ علينا، وقالَ لنا:

أســـرِعوا!

مَنْ تباطأَ ماتَ.

ولم يمكث الطيرُ. لم يتلبّثْ.

فهل بلغَ البلدةَ؟

اليومَ (أذكرُ) أكملتُ خمسينَ عاماً على الدربِ.

ما قال لي أحدٌ:

أين أنتَ؟ وما حالُكَ؟

الطيرُ لم يتلبّثْ. صحيحٌ. ولكنه قال شيئاً. . .

ومنذُ مضى،

مسرعاً، وبهيّاً، ومنتفضاً،
لم أجدْ في الطريقِ ســـواي. . .
ولم يأتِني أحدٌ، في النهارِ أو الليلِ، كي يتبلّغَ من خُبزتي
(خيمتي مثلُ نارٍ على عَلَمٍ)
أتُرى كنتُ في التيهِ؟
أَمْ أنّ رِفْقَتِـــيَ التائهون؟

لندن، ٠٨/٠٢/٢٠٠٩

فــيْـضٌ

فِ الكأسَ نبيذاً
واترُكْ للأرضِ نصيباً من كأسِكَ. . .
أنتَ كريمٌ.

فِ العاشقةَ، الأقصى ممّا تأمُلُ منكَ
امْـلأْ مُحتَقَباً منها عسلاً أبيضَ. . .
أنتَ كريمٌ.

فِ الأغنيةَ، الحريّـةَ
لا تتركْها تتلعثـمُ. . .
أنتَ كريمٌ.

فِ الطيرَ، جناحَيكَ
ولا تَقـْنَـطْ:
إنْ لم تطِرِ اليومَ
فسوفَ تطيرُ غداً. . .
أنتَ كريمٌ.

لندن، ٢٠٠٩/٠٣/٠٧

فِ: فعلُ أمرٍ.

الـمَـدْبَــغــة

سـُـلَّــمٌ ضيّقٌ، وحديدٌ، سيأخذكَ . . .
السُّلَّمُ الضيِّقُ، الحلَزونُ، سيبدأُ من آخرِ المخزنِ.
السّترةُ الجِلْدُ، ثَمَّتَ، والشايُ أخضرَ،
تلكَ الحقائبُ مفتوحةٌ، كفِخاخٍ، ستسقطُ فيها عجائزُ برلينَ . . .
والشمسُ غائبةٌ أبداً
(ربما تُحرِقُ الجِلْدَ)
يأخذك السلَّمُ الضيِّقُ، الحلزونُ، إلى السطحِ:
من ههنا تُـبصرُ الـمَدْبَــغــةْ:
شمسُ إفريقيا تتمهَّلُ، حتى تغورَ عميقاً بتلك القدورِ المدوَّرةِ.
الماءُ يفقدُ ما هو للماءِ.
للماءِ رائحةٌ كالمجاري التي في الحميمِ
وللماءِ لونٌ،
وللماءِ طَعْمُ الرصاصِ.
الرجالُ يدورون بين القدورِ، عراةً إلى النصفِ.
كانت جلودُ جِمالٍ على السطحِ تَنْشَفُ
كان قطيعٌ من الماعزِ الغِرِّ ينزعُ أثوابَهُ قربَ ثورٍ بلا جثّــةٍ

أتُرى دخلتْ في القدورِ خيولٌ من الأطلسِ؟
الشمسُ باردةٌ
شمسُ إفريقيا تتمهّلُ كي تُنْضِجَ الجِــلْـدَ
كي تتفادى سكاكينَــنـا بالغياب. . .

لندن، ٣٠/ ٠٣/ ٢٠٠٩

خِزانةُ جامعِ القرويّـين

كرسيُّ محمدٍ الخامسِ كان بسيطاً
خشباً
لم تجرحْه يدٌ لتزخرفَه،
أو لتلوِّنَهُ.
كرسيُّ محمدٍ الخامسِ كان على بابِ المخطوطاتِ السعديةِ
يحرسُـــها.
لو كانت تلك القُبّةُ مُذْهَـــبـــةً من تِبْرِ السعديّينَ!
لكنّ القبّةَ عاريةٌ
إلاّ من مخطوطاتِ النحوِ
وكرســـيّ محمدٍ الخامس!

لندن، ٣٠/٠٣/٢٠٠٩

سـيّدي اللقلقُ

ملأَ الرومانُ هذا السهلَ بالأعنابِ والأعمدةِ.
الأَرْزُ الذي يكْمُنُ في الأطلسِ يُمسي سفناً
أو عرشَ جنديٍّ،
وقد يصبحُ كأساً لنبيذ السهلِ
باباً
أو ســـريراً...
نحنُ جَوّابونَ،
لم نغلقْ علينا أفُقاً
لم نبْنِ بيتاً
دارةً، أو قلعةً...
نحن بنَينا مُدُناً في صحنِ حلوى
وانتظرنا لحظةَ الإفطارِ، آنَ التّمْـــرةُ الجنّةُ.
ما أشبهَنا بالنحلِ والنخلِ!
وما أشبهَنا باللقلقِ!
الســـهلُ فســـيحٌ...
هل سيبني سيِّدي اللقلقُ عشّـــاً
بـينَ مكناسٍ وفاس؟

لندن، ٠١/٠٤/٢٠٠٩

نُـــزْلُ تْرانس أتلانتيك (مِكْناس)
Transatlantique-Meknes Hotel

عُمرُ هذا النُّزْلِ عُمري:
عُمرُهُ خمسٌ وسبعون، وبِضعٌ من حروبٍ.
ينهضُ النُزْلُ على مَشْـــرفةٍ تَصْلُحُ أن تنصِبَ فيها مدفعـــاً
يمكنُ أن يقصفَ حَيَّ العربِ، الأسواقَ والتاريخَ والزُّلَّـــيجَ...
كانت هيأةُ الضبّاطِ في الجيشِ الفرنســـيّ ترى في النُزْلِ بيتاً أو مَقَرّاً،
من هنا يمكِنُ للخيّالةِ السيرُ إلى «وجدةَ» ليلاً،
ثم يأوونَ إلى بردِ تِلِمسانَ صباحَ الغدِ...
كان العالَمُ المعروفُ في مُنبسَطِ الكفِّ!

.....

.....

.....

ولكني هنا
في البارِ...
أبدو ضائعاً
مستَنفَداً في ولَهِي

إذ أسمعُ «الـعَرْبِيَّ» يتلو أزرقَ الجازِ
وإذْ ألمحُهُ يغمِزُ لي في آخِرِ الأغنيةِ.
النُّزْلُ الذي أعرفُهُ لم يَعُدِ النُّزْلَ الذي أعرفُهُ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

اللحظةُ، كالقطّةِ:
إني أسمعُ، البغتةَ، خَطوي، عبْرَ ممشى العشبِ
أسمعُ الأوراقَ تَسّاقَطُ في الليلِ
حفيفَ الطيرِ إذ يأوي إلى عُشٍّ بِـلِـيفِ النخـلِ
مِن صومعةٍ في البلدةِ انثالَ الأذانُ. . .
العالَمُ استكمَلَ معناهُ.
وهذا النُزْلُ أيضاً!

لندن، ٠٢/ ٠٤/ ٢٠٠٩

ساحةُ الهَدِيم (مكناس)

مولاي، اسماعيلُ،
قِفْ، نرجوكَ... هذا حَدُّكَ!
ابتدأتْ منازلُنا الفقيرةُ
وانتهى غالي قصورِكَ!
ليس بَعدَ الساحةِ القوراءِ مِن هَدْمٍ...
أتعرفُ أننا نخشى الدخولَ إلى حدائقِكَ؟
الصهاريجُ ارتوَتْ منها خيولُكَ
غيرَ أنّ غِياضَنا، الزيتونَ والليمونَ والنعناعَ، جفّتْ...
نحن، يا مولايَ اسماعيل، شعبُكَ
نحن لسنا في بلادِ السِّيبةِ...
الراياتُ رايتُكَ
المنابرُ كلُّها تدعو لكَ،
الغاباتُ مزرعةٌ لكَ
الشطآنُ والوديانُ، والنُّعْمى، وثلجُ الأطلسِ البحريّ.
يا مولاي اسماعيلُ
قِفْ!
نرجوكَ...
هذا حَدُّكَ!

لندن، ٢٠٠٩/٠٤/٠٧

جْوان في بار نُوفَلْتِي

ربّـما للمرةِ الأولى يرى الساقي، جَمالُ، امرأةً تجلسُ في كرسيِّها العالي
بهذا البارِ،
كي تطلبَ منه كأسَ «رِيكار»...
لقد كان نهاراً رائقاً
والشمسُ في يوم الربيعِ الأولِ؛
الناسُ الذين اقتعَدوا مقهى الرصيفِ استمتعوا بالقهوةِ
الآنَ تجيءُ الخطوةُ الأخرى:
إلى البارِ!
.....
.....
.....
كأنّ جْوانَ لا تدري بما يَحْدُثُ في البارِ...
لقد جاءَ الجميعُ!
اختفتِ الشمسُ
وما عادَ بهذا الصَّوْبِ من «مكناسَ» مقهى...
وسماءٌ رَطْبـــةٌ تُمطِرُ رِيكاراً على رأسِ جـــوان،

البارُ أمسى مسرحاً. . .

قالت جوانُ:

«الآنَ حانَ الوقتُ كي نمضي إلى الفندقِ. . .»

لندن، ٠٨/ ٠٤/ ٢٠٠٩

الشاطئ البربريّ Barbary Coast

أقولُ الصراحةَ:
هذي البلادُ التي كِدتُ أعرفُها مرّةً
لن أتوقَ لأعرفَها الآنَ...
هذي البلادُ أخَبِّيءُ أعشابَها وأزِقَّتَها في جيوبي الكثيرةِ
لن أسألَ؛
الوردُ والسِـرُّ لا يُسألانِ
الحقيقةُ لا تُسألُ.
الحُبُّ لا يُسألُ.
الدربُ ما بينَ وجدةَ شـرقاً وسَـبْـتـةَ،
دربي العتيقُ الذي وطّأتْـهُ خُطايَ الخفيفاتُ
أيّامَ كانت موائدُنا نَزْرةً
وبيارقُنا عاليات...
لكَ الحمدُ، يا شاطئي البربريَّ
لك الحمدُ
يا مَن وهبتَ الأصابعَ وقتَ النبات.

لندن، ٠٩/ ٠٤/ ٢٠٠٩

الجمعة الحزينة Good Friday

لَكأنني أمسَيتُ مقذوفاً من البـــحرِ المحيطِ على رمالِ الشاطئ المجهولِ. أطرافي مُخَلْخَـــلـــةٌ، وأثوابي ممزّقةٌ، وملءَ فمي طحالبُ. كانت الشمسُ الخفيفةُ تختفي. يأتي سحابٌ أسْودُ. المطرُ المباغِتُ يغسلُ المِـلْحَ الثخينَ على ضفائريَ. انتبهتُ إلى شُجَيراتٍ قريباتٍ من الكُثبانِ. أزحفُ. كـــان وجهي يمسحُ الرملَ الطريَّ. يدايَ ترتجفانِ. يَمْرُقُ نورسٌ ويغيبُ. أزحفُ.

أبلُغُ الشجرَ. المساءُ يكادُ يأتي. البحرُ يأخذُ مثل مَا يُعطي. وهاأنذا هُلامٌ من عطايا البحرِ. ساقاي اللتانِ اصطَـكَّـتا لن تحملاني أبعَـدَ. الأشجـارُ مـأوىً لي وسقفٌ. سوف يأتي الليلُ بالأشـباحِ. هل تـــأتي الذئابُ؟

بُـنَـيَّتي: أرجوكِ أن تتذكّريني الآنَ...

أرجوكِ!

لندن، الجمعة ١٠/ ٠٤/ ٢٠٠٩

أحَـدُ الفِصْحِ في أَكْسِبْرِجْ
Easter Sunday in Uxbridge

لا يعرف الناسُ ماذا يفعلونَ
بعيدِ الفِصْحِ. . .
يمشونَ في الشارعِ؟
الأسواقُ مغلقةٌ!
يبقَونَ في البيتِ، ألواحاً مُسَـمَّرةً أمامَ شاشاتهم؟
يا ضيعةَ العيدِ. . .
ماذا يفعلونَ؟
وأبوابُ الكنيسةِ؟
حتى هذه انفتحتْ على الرياحِ. . .
فلا قُدّاسَ يُغْري!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

سيأتي اللحظةَ، المـــطَـــرُ!

لندن، ١٢/ ٠٤/ ٢٠٠٩

أنتظرُ نقّارَ الخشبِ

حتى هذي الجمعةِ من نيسانِ الغابةِ لم يظهرْ نَقّارُ الخشبِ. . .
البلّــوطةُ (حيثُ اعتادَ السكنى) بدأتْ تُطْلِعُ بُرعُـمَــها
وتميلُ من البُــنِّــيِّ إلى الأخضرِ؛
والمشهدُ يتَّضِحُ (الغيمُ أقَلُّ)
ولكنْ. . . لم يظهرْ نقّارُ الخشبِ!
في الفجرِ أُلَـمْــلِــمُ نَقراً متّصِلاً. . .
فأُفِيقُ:
وأنظرُ من غرفةِ نومي نحوَ البلّوطةِ
لكنْ لم يظهرْ نقّارُ الخشبِ. . .
لا أثرٌ
لا نَقْرٌ
والبلّوطةُ لم تَعُدِ البلّوطةَ،
لم تَعُدِ المأوى
حيثُ صباحُ الخيرِ يُبادئُــني من نقّارِ الخشبِ!

لندن، ١٧/ ٠٤/ ٢٠٠٩

مشحونٌ، هذا الأصيلُ الـمُـبَـكِّــرُ...

آخرُ طيرٍ مرَقَ الآنَ.
سماءٌ ذاتُ رصاصٍ دبِقٍ تُطْبِقُ.
أغصانُ الماغنوليا حجرٌ يشبه أغصانَ الماغنوليا.
والأنفاسُ تضيقُ
الساحةُ والأرصفةُ السودُ تضيقُ
النافذةُ العليا في البيتِ تضيقُ
وقُرْصُ الشمسِ المترنحُ في أقصى الدغْلِ يضيقُ
القطةُ تُرْهِفُ سمعاً قربَ السيارةِ. . .
غابَ السنجابُ
ونقّارُ الخشبِ
الببغاواتُ السبعُ رحلْنَ مع الشمسِ.
أُحِسُّ بساقي اليســـرى خشباً.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أغصانُ الزانِ على الربوةِ ترتعشُ.
الآنَ
تَـنَــزَّلُ أُولى القطراتِ الأولى.

لندن، ١٥/ ٠٥/ ٢٠٠٩

لَـدْغـةُ البَـرقِ

أجلسُ الآنَ تحتَ دوحةِ توتٍ برابيةِ القريةِ.
الـمُرْتَبى كان في هيأةِ التلِّ
من ههنا كنتُ أنظرُ
من ههنا كنتُ أنتظرُ. . .
الناسُ يَبْدونَ كالخيلِ
والخيلُ تبدو كما الناسُ.
ثمـّتَ تلك البحيرةُ (قد طالَ ما كنتُ حدّثتُكُم عن تفاصـيلها:
القصبِ المترنحِ، والطيرِ، والسّمكِ الفضّةِ، الزانِ، والكستناء
وما ينسجُ الضوءُ والظلُّ، ساقي التي آلَـمَـتْني. إلى آخرِ القولِ)
ماذا؟
إذاً
أنا أجلسُ في قمّةِ الـمُـرْتبَـى
أُرهِفُ السّـمعَ:
لا نأْمــةٌ.
أُرهِقُ العينَ:
لا لَـمْـعـةٌ. . .
لا ســماءَ لكي يخطِفَ البرقُ.

ســقفٌ رصاصٌ تَـمَــدَّدَ حتى غدا، هوَ، شكلَ السمــاءِ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ولكنني من هنا أنظرُ

من هنا أنا أنتظرُ. . .

البرقُ

يلدغني، فجأةً،

قادماً من براري دمي. . .

لندن، ١٨/ ٠٥/ ٢٠٠٩

عن الوهمِ

هي صفصافةٌ
هي صفصافةٌ باكيةْ
تتدلّـــى ضفائرُها في البحيرةِ
تمشِطُ خُصْلاتِها الريحُ
يلهو بها ســـمَكُ القاعِ
والطيرُ . . .
صفصافةٌ هيَ
صفصافةٌ باكيةْ .
كيفَ أبصرتَها نخلةً؟
أنتَ أبصرتَها . . . أَمْ عيونُ سواكَ التي أبصرَتْها؟
ومَن ذلكَ الشخصُ؟
إنْ كنتَ تعرفُهُ
فَـلْـــتَـقُـــلْ في هدوءٍ لـهُ :
هيَ صفصافةٌ
هيَ صفصافةٌ
هيَ صفصافةٌ . . .

لندن، ١٩/ ٠٥/ ٢٠٠٩

الشيوعيّ الأخير فقط...

بَدْلـةُ العاملِ الزرقـاءُ

على مقاســـي كانت البدلةُ!
حتى أنني لم أختبِرْها لحظةً في غرفةِ التجريبِ. . .
كانت بَدلتي حقّـاً. . .
وها أنا أرتديها؛
لا أفارقُ قُطْــنَـها الـمُزْرَقَّ حتى في الفراشِ!
تقولُ صديقتي:
ما أنتَ؟
عُمّالُ المدينةِ لم يعودوا يلبسونَ البدلةَ الزرقاءَ. . .
عمّالُ المدينةِ لم يعودوا يَدَّعونَ بأنّهم يُدْعَونَ عمّالَ المدينةِ!
أيها المجنونُ
حتى في الفراشِ، البدلةُ الزرقاءُ؟
هل تُصْغِي إليّ!

لندن، ١٩/ ٠٥/ ٢٠٠٨

الشيوعيّ الأخيرُ يغادرُ عَـمّـان

كاد الشيوعيُّ الأخيرُ يضيعُ في عَمّانَ. . .
عَشراً كانت السنواتُ: فارَقَها، ولم يأْسَفْ لِـما فَعَلَ الفراقُ،
فربّما كانت حديقتُهُ من الصبّارِ،
أو كانت سفينتُهُ من الورقِ الـمُـقَـوّى.
ربّما لم يُحْسِن الإصغاءَ للنجمِ البعيدِ،
ورُبّـــما. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كان الشيوعيُّ الأخيرُ يدورُ من جبلٍ إلى جبلٍ
ودُوّارٍ وآخرَ؛
كان يسألُ عن رفاقٍ طالَ ما أنسَـــوهُ ما فعَلَ الرصاصُ بهِ
ويسألُ عن موائدِ حانةٍ لَـمّا تَـعُـــدْ مفتوحةَ الأبوابِ،
دارٍ للنقاباتِ. . .
المدينـةُ راكَمَتْ عجلاتِها الصفراءَ، آلافاً
وأعْلَتْ عاليَ الأبراجِ.
لم تَعُدِ المدينةُ مثلَ ما فارقْـتَها يا صاحبي،

و «الأزرعِيُّ» رفيقُكَ الأبديُّ غادرَ «إربِدَ». . .
الدنيا تبدّلتِ
البلادُ غريبةٌ. . .
غادِرْ!
وحاذِرْ أنْ يرى أحدٌ بها. . . وجهَ الشيوعيِّ الأخـــير!

لندن، ٢٧/٠٧/٢٠٠٩

الشـيوعيّ الأخيـرُ يُثرثِـر

قالَ الشـيوعيُّ الأخيرُ
وكان في مقهىً، يُحَدِّثُ مَنْ يُحَدِّثُ مِن رفاقِ الأمسِ:
يا محمودُ
هل تدري بأني لا أُحِبُّ البيرةَ الســوداءَ؟
عاماً بعدَ عامٍ بَعدَ عامٍ، كان أهلُ بْــراغ يمتدحونَها
يتَـمَـطَّـقونَ بذِكْـرِها
وبِطَـعْــمِــها
حتى كأنّ البيرةَ السوداءَ ماءُ السلسبيلِ بجنّةِ المأوى
كأنّ البيرةَ السوداءَ كَـوثَـرُهُــم...
ولكني أداعِـبُـهُـم، وأمضي في الدُّعابةِ:
يا رفاقي
لا أُحِبُّ بْــراغ...
لا أهلاً
ولا بَـلَـداً!
وأنتَ، اليومَ، يا محمودُ، تَشْــهَدُ
كيفَ تلعبُ بالعراقِ جماعةُ بْــراغ...
*

الشيوعيُّ الأخيرُ
اختارَ، بعدَ تردُّدٍ، ما اختارَ:
كأساً من نبيذٍ أحمرَ.
المقهى صغيرٌ، دافيءٌ
والنارُ نارُ جذوعِ صفصافٍ تَـضَــوَّعُ كالبَخورِ
البارُ من خشبٍ عتيقٍ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ربّـما دخلتْ صديقـتُــهُ مصادَفــةً.

لندن، ٢٣/ ٠٢/ ٢٠١٠

استقالــةُ الشــيوعيّ الأخيــر

قال الشيوعيُّ الأخيرُ:
سأستقيلُ اليومَ
لا حزبٌ شــيوعيٌّ، ولا هُم يحزَنون!
أنا ابنُ أرصفةٍ
وأتربةٍ
ومدرستي الشوارعُ
والهتافُ
ولَـسْــعةُ البارودِ إذ يغدو شــميماً. . .
لم أعُدْ أرضى المبيتَ بمنزلِ الأشباحِ،
حيثُ ســتائرُ الكتّانِ مُـسْــدَلةٌ
وحيثُ الماءُ يَـأْسَــنُ في الجِرارِ،
وتفقدُ الصوَرُ المؤطَّرةُ، الملامحَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أستقيلُ
وأبتَني في خيمةِ العمّالِ

مطبعةً
ورُكناً . . .
سوف أرفعُ رايتي خفاقةً في ريحِ أيلولٍ
مع الرعدِ البعيدِ، ومَـدْفَقِ الأمطارِ،
أرفعُها
ولن أُدْعَى الشـــيوعيَّ الأخـــير!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الليلُ يأتي.
لندنُ الكبرى تنامُ كعهدها، ملتفّةً بالمعطفِ المبلولِ
أمّا في الضواحي (ولأَقُلْ هَـيْـرْفِـيلْـــد) حيثُ يقيمُ صاحبُنا الشيوعيُّ الأخيرُ
فقد أقامتْ ربّةُ الأمطارِ منزلَها عميقاً في العظامِ . . .
اللعنةُ!
انتفضَ الشيوعيُّ الأخيرُ:
إن استقلتُ
فأين أذهبُ؟
إنّ ثمّتَ منزلاً لي،
فيه عنواني المسجَّـــلُ . . .
ولْـيَكُنْ بيتاً لأشباحٍ!

سأسكنُه
وأسكنُهُ
لكي أُدْعى الشيوعيَّ الأخير!

لندن، ٢٠٠٨/٠٩/٠٢

تعاليمُ الشيوعيّ الأخير: مَن يخطو سَبْعاً؟

مَن يخطو سَبعاً ليكونَ شيوعيّـاً؟

*

أعرفُ أنّ بناتٍ يسألْنَ
وأعرفُ فتياناً سألوني،
أعرفُ أيضاً أنّ شيوعيَّ غدٍ ليس شيوعيَّ الأمسِ. . .
وإذاً. . . كيف يكونُ الـمرءُ شـيوعيّــاً؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

يستمتعُ بالأشياءِ جميعاً، لكنّ عليه ألاّ يملكَ شيئاً.
يقرأ كارل ماركس: كتاباتٍ أولى، ورسائلَ، حتى يَبْلغَ «رأسَ المالِ».
في الحزبِ يظلُّ رفيقاً في قاعدةٍ ليستْ متخصِّصةً، كي ينظرَ من فوق. . .
يلبسُ أجملَ، يسمع موسيقى، ويغَنِّي مثلَ مغنِّي أوبرا إيطاليّ. . .
يتعلّمُ كيفَ يفكُّ سلاحاً (حتى لو كان مسدّسَـه) ويُرَكِّـبُــهُ.
يتعلَّمُ فنَّ الصمتِ. . . ويُصغي.
لا يؤمِنُ إلاّ بالشعب!

لندن، ٠٣/٠٧/٢٠٠٥

أيامُ العملِ السّـــرّيّ

كنتُ أراقِبُ في عينيها ما كانت تَـجْهَدُ أن تُخفـــيـــهِ:
ليالي العملِ السِّـــرِّيّ
بيوتَ الحزبِ
ومطبعةَ المنشوراتِ المحمولةَ في صندوقٍ خشبٍ. . .
ذاكَ الرعبَ من الإعدامِ، الغائرَ مثلَ حصاةِ رصاصٍ في الرأسِ.
تقولُ:
سقى اللهُ، بما يســـقي، تلكَ الأيامَ!
لقد كنتُ فتاةً دون العشرينَ
مغامِرةً
أحمِلُ مِطواةً لِلّحظةِ
آنَ يكون الموتُ حياةً. . .
آنَ أكونُ الأجملَ!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أنت الآنَ تراني. . .
حسناً!

لكنْ، بعد دقائقَ، أو ساعاتٍ
سنكونُ بعيدَينِ
بعيدَينِ تماماً
حتى عن ذكرى هذا البارِ المكتظِّ بأهلِ المســـرحِ
هذا البارِ الباردِ
حيثُ تدفّـأْنا بنبيذٍ
وبأيّامٍ لن أستقبلَها حين تعود. . .

لندن، ٠٧/١١/٢٠٠٧

الشيوعيّ الأخيرُ، محرِّرُ بغداد

عشرونَ ألفاً من بساتينِ السماوةِ
أقبَلوا متدافِعينَ
ومن غِياضِ الكوتِ. . .
كانوا يحملونَ بنادقَ البَرْنو
ويستبقونَ سيّاراتِ «لادا» من ذواتِ الـمَـبْـدَلِ اليدويّ
والدَّفْعِ الرُّباعيّ. . .
الغبارُ يشوِّشُ الآفاقَ
والراياتُ حُمْــرٌ، لا تكادُ تُرى من النقْعِ الـمُـثارِ.
الفجرُ لَـوَّحَ
والهتافُ:
تعيشُ بغدادُ!
الشيوعيُّ الأخيرُ هنا. . .
الشيوعيّونَ جاؤوا
حَـرَّروا بغداد!

لندن، ٢٨/ ٠٢/ ٢٠١٠

الشــيوعيّ الأخير لا يعمل مترجِماً

كأنّ الشيوعيّ الأخيرَ يُـلِمُّ باللغاتِ جميعاً. . .
كلّما حلَّ بلدةً تعلَّــمَ فيها؛
وهو يُقْسِــمُ أنه تعلَّــمَ سبعاً في مدارسَ صعبةِ الـمِـراسِ،
وأنّ الطيرَ تفهمُ ما يقولُ. . . إلخ. . . إلخْ
وأنّ فتىً من فنزويلا أرادَ أن يسجِّـلَــه في الأوبَرا!
قالَ إنه لأفصحُ من فرسانِ قشتالةَ. . .
الحديثُ يطولُ!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

اليومَ
أبصرتُهُ وقد تَـلَـبَّـثَ في المقهى. . .
- أتدري؟
أرادوني أكون مترجِماً. . .
- بكليّةِ الآدابِ؟
- لا. في المعسكرِ. . .
- الكلامُ غريبٌ!

- إنني ذاهبٌ غداً إلى «الشَّـطرةِ» الخضراءِ
لا مِن معسكرٍ، ولا أميريكيّـينَ. . .
- والطيرُ؟
والغناءُ؟
- سأنساها إلى أن أرى ندىً ينِثُّ علينا،
والحديثُ يطولُ. . . .

لندن، ٢٠٠٦/٠٧/٠٤

الشيوعيّ الأخيرُ يرفضُ عملاً

قال الشيوعيُّ الأخيرُ:
حقيقةً، إني بلا عملٍ... ومنذُ سنينَ أبحثُ؛
غيرَ أني أرفضُ العملَ الذي حدَّثـتَـني عنهُ...
● الصباغةُ مِهنةٌ...
- لكنها ليستْ تناسبُني...
كأنك لم تصافحْني، ولم تعرفْ هواءَ رفوفِ مكتبتي،
كأنك لم تكنْ يوماً رفيقي في الخـلِـيّــةِ!
(نحن كنّا آنذاكَ نقودُ إضراباً... أتذْكرُ؟)
كيفَ يا ولَدي...
أصَـبّـاغَ الوجوهِ تريدُني؟
لو شِئتَ أن أمضي لأصبغَ كلَّ بيتٍ في العراقِ مضَيتُ...
لكنْ، كيفَ أصبَغُ أوجُهاً خَزِيَتْ
وأقنِعةً
وحشْداً من رؤوسِ الوحْلِ والرَّوثِ الطريّ؟
تريدُني أن أُخفِيَ الأشياءَ؟
أن أُرخي القناعَ حقيقةً؟
أن أخدعَ الأبصارَ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

حقّـاً. . .

نحن نمشي في حديقةِ ساحراتِ الموتِ؛

لكني الشيوعيُّ الأخير. . .

لندن، ١٤/٠٧/٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يدخل الجَـنّـة

كان الشيوعيّ الأخيرُ مؤرَّقاً في ليلةِ الأحدِ، الصديقةُ غادرتْ ظُهراً
إلى باريس، والمطرُ الخفيفُ يجيءُ أثقلَ، لحظةً من بعدِ أخرى.
والنبيذُ الأستراليّ الذي قد كان يكرعهُ بأقداحٍ كبارٍ كادَ يصرعُهُ!
وجاءته المصيبةُ عند بطّاريّةِ السيّارةِ. الأشياءُ قد همدت؛
فماذا يفعلُ الآنَ؟
الشيوعيّ الأخيرُ مضى يُنَقِّبُ في الرفوفِ العالياتِ... وثَمَّ أتربةٌ على
الكتبِ العتيقةِ. ثَمَّ نسْجُ العنكبوتِ، وما تبَقّى من جناحَي نحلةٍ.
لكنه استَلَّ الكتابَ وراحَ يقرأُ:
أمْرُنا عجَبٌ!
مَلاكٌ جاءَ يصطحبُ الشيوعيَّ الأخيرَ إلى جنانِ الخُلْدِ...
قالَ له: لقد طوَّفتُ في الآفاقِ سَبْعاً، كي أصادفَ طاهراً. كان
الذين رأيتُهم قوماً عجيبينَ... الصلاةُ وكلُّ شيءٍ. غير أني كنتُ
أسألُ عن عقيقِ سَجيّتَينِ: الطُّهرِ والعدلِ. السماءُ تفتّحتْ...
فلْننطلِقْ، لتكونَ في الفردوسِ بعدَ دقيقةٍ!
كان الشيوعيّ الأخيرُ مكوَّماً فوقَ الأريكةِ
هادِيءَ الأنفاسِ
مبتسماً...
كأنّ روائحَ الفردوسِ تُفْعِمُ قصرَهُ الليليَّ حقّاً!

لندن، ٢٨/ ٠٥/ ٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يذهب الى باريس

«لا تهجريني . . .»
قالَ جاك بْرَيلْ:
Jacques Brel:
Ne me quitte pas!
وهاأنذا أقولُ: رفيقَنا كنتَ . . .
الحياةُ جميلةٌ إنْ لم تكُنْ في Pere- La Chaise
الحياةُ جميلةٌ إن كنتَ تبحثُ في الضواحي عن فتاةٍ أخلَفَتْ بالأمسِ موعدَها . . .
وتسألُني: وما دخْلُ الضواحي بالشيوعيّ الأخيرِ؟
أقولُ: مهلَكَ! لستَ تعرفُني، إذاً . . .
أنا المَعْنيُّ بالمعنى،
بما تهَبُ الحياةُ
أنا الشيوعيّ
الأخير!

لندن، ٢٨/ ٠٥/ ٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يريد أن يكتب شعراً

من أين جاءت نخلةُ البِصريّ كي تُرخي جدائلَها عليه،
وتأمرَ الأطيارَ أن تشدو قليلاً باسمِهِ؟
كان الشيوعيّ الأخيرُ ينامُ تحتَ النخلةِ:
الشعراءُ قد صمتوا!
عجائبُ. . .
كيف يصمتُ عن أنينِ النخلةِ الشعراءُ؟
كيف يكونُ أوّلُهم، كآخرِهِم، أصَمُّ، وأبكمُ؟
اندلعتْ حرائقُ مثلَ أشرطةِ القيامةِ
وامّحَتْ مُدُنٌ،
وذابتْ تحتَ صِخريجِ القذائفِ واللظى أضلاعُ عاصمةٍ. . .
وغابتْ نسوةٌ في وحشةِ الصحراءِ
يَدْفُنَّ البلادَ
مولوِلاتٍ
ذاهباتٍ في السوادِ. . .
عجائبُ!
الشعراءُ، أوَّلُهُم، كآخرِهِم، أصَمُّ، وأبكَمُ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

انتبَهَ الشيوعيُّ الأخيرُ:

لقد كتبتُ!

لندن، ١٧/٠٦/٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخيرُ يَخرجُ متظاهراً

قالَ الشيوعيُّ الأخيرُ: اليومَ أخرجُ في مظاهرةٍ
لِطَـرْدِ الإحتلالِ وصَحْـبِـــهِ. . .
ومضى إلى السوقِ؛
اشترى مترَيْ قماشٍ أبيضَ
استلَفَ الطِلاءَ الأحمرَ الوهّاجَ من رسّامةٍ كانت تحبُّ يدَيهِ،
ثمّ استعملَ المنشارَ كي يتنصّفَ اللوحُ الدقيقُ. . .
وهكذا، خَطَّ الشِعارَ
وجَرَّبَ. . .
الأشياءُ مُـحْـكَـمَـةٌ تماماً!
وهو مندفعٌ، وأهوَجُ، مثلَ عصفورٍ يطيرُ الـمرّةَ الأولـــى. . .
وهاهوذا!
تباطأَ عند بابِ البيتِ
لَفَّ شِعارَهُ، وطواهُ، مثلَ مِظلّةٍ في يومِ صَحْـوٍ
ثم قال لنفسِهِ:
حسَـــنـــاً!
لِنَفْرِضْ أنّ شخصاً جاءني مستفسِـــراً. . . «مِن أيّ حزبٍ أنتَ؟»
كيفَ أرُدُّ؟

أحزابُ المدينةِ، كلُّــها، قد وقّعَتْ بأصابعٍ عَشــرٍ: يعيشُ الإحتلالُ
ومرحباً بجنودِهِ
وبُــنــودِهِ!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

سأقولُ: إني حِزبُ نفســي
إنني أُدْعَى الشيوعيَّ الأخيــر!

لندن، ١٧/٠٧/٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يُمازحُ الحلاّق

قالَ له الحلاّقُ:

يا صاحبي

وجهُكَ نورُ البدرِ

لا لِحيةٌ

فيه

ولا شـــاربٌ...

قالَ الشيوعيُّ الأخيرُ: انتبِهْ!

مَنْ حُلِقَتْ لِحيةُ جارٍ لهُ

فـلْـيَسْـكُبِ الماءَ على لِحْيتِهْ!

- لكنّما وجهُكَ صافٍ...

- عجيبٌ أنتَ...

حلاّقٌ، ولا تعرفُ القصّةَ؟

خُذْ ماءً قليلاً

وضَعْ شيئاً من الصابونِ في كفَّيكَ

ضَعْ قُطـناً وصمغاً... نعَمْ...

وامسَحْ بهِ وجهي...

- لماذا؟

● ألَم تسمعْ بأنّ الشيبَ قد يكشِفُ الغيبَ؟

- إذاً، جئتَ تُرَبِّي لِحيةً!

● لا تَقُلْ هذا!

لقد جئتُ لكي أخْـفَـى. . .

لندن، ١١/٠٧/٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يتعلّم الهبوط بالمظلّـة

في قريتي، غربيَّ لندنَ، عند رَبْضٍ من بحيراتٍ وغاباتٍ
ستلْـقى «معهد الطيَران»،
والأسماءُ خادعةٌ. . . (كما يُحْكى)
فلستَ ترى هنالكَ غيرَ مَدْرَجِ طائراتٍ من ذواتِ محرِّكٍ فَرْدٍ
وغرفةِ مَن نسمِّيهِ الـمُراقِبَ
ثم مقهىً من ثلاثِ موائدَ؛
الأشياءُ خادعةٌ!
ألم تسمعْ بما نشرتْ صحيفةُ «إندِبَنْدَنْتْ»
أن هذا المعهدَ المنسيَّ في الغاباتِ قد زارتْه أمسِ أميرةٌ عربيةٌ تتعلّمُ الطيَران!
قلتُ: إذاً. . . أكونُ هناكَ؛ قد أحظى بلَـفتـتِـها الكريمةِ وابتسامتِها
إذا مرّتْ بنا مَـرَّ السحابةِ.
ربّما عطفَتْ علَيَّ
وحلّقَتْ بي في سماءٍ من نعومةِ مُخْمَـلٍ
وسحائبٍ للنَـــدِّ والعُـــودِ!
. . . . . .
. . . . . .

. . . . . .

الأميرةُ لم تكنْ في «معهدِ الطيَرانِ» . . .

أبصرتُ الشيوعيَّ الأخيرَ هناكَ!

● أيُّ حماقةٍ جاءتْ بكَ؟

- الأيامُ . . .

جئتُ هنا لأعرفَ كيفَ أهبِطُ!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

قلتُ: ياهذا، يجيءُ الناسُ كي يتعلّموا الطيَرانَ!

قالَ: لقد تعالَينا

تعالَينا

تعالَينا

إلى أن لم يَعُدْ خيطٌ ولو واهٍ يشدُّ عروقَنا بالأرضِ . . .

إني الآنَ أهبِطُ بالمظلّةِ ربما تتعرّفُ الأعشابُ رائحتي

فتمنحني الحياة !ّ

لندن، ٢٠٠٦/٠٦/٠٦

الشـــيوعيّ الأخير يقرأ أشعاراً في كندا

ضاقت به الدنيا،
ولكنْ لم يَضِقْ، هذا الشيوعيُّ الأخيرُ، بها. . .
وكان يقول: للأشجارِ موعدُها، وإنْ طالَ الخريفُ سنينَ أو دهراً!
وكان يقول أيضاً: خمسَ مرّاتٍ تَـلـَوتُ الشِّعرَ في وطني، لأبتدِئ الرحيلَ. . .
وكانَ. . .
لكني سمعتُ بأنه قد كان في كندا
لأسبوعَينِ؛
ماذا كان يفعلُ؟
ليس في كندا، شيوعيون بالمعنى القديم،
وليس في فانكوفرَ امرأةٌ معيّـــنةٌ ليسبقَ ظِـلَّها أنّـى مضتْ. . .
بل ليس في «الروكي» نخيلٌ، كي يقولَ اشتقتُ للشجرِ المقدّسِ؛
قلتُ: خيرٌ أن أُسائلَ أصدقاءَ لهُ. . .
أجابوني: لقد كان الشيوعيُّ الأخيرُ، هنا، نقولُ الحقَّ. . . بل إنّـا سهرنا ليلةً في مطعمٍ معهُ. وقد
كنا نغَـنِّـــي، والنبيذُ القبرصيّ يشعشعُ الأقداحَ والوجَناتِ. ماذا؟
نحن في فانكوفــرَ الخضـراءِ

لا بغداد. . .

لكنّ الشيوعيّ الأخيرَ مضى!

إلى أينَ؟

اشترى، صبحاً، بطاقــتَـه، إلى عَبّــارةٍ تمضي به، هُــوناً، إلى جُزُرِ المحيطِ الهاديءِ. . .

*

الأيامُ، في أيّــامنا، عجَبٌ!

وأقرأُ في رسالته الأخيرةِ:

أيها المسجونُ في أوهامكَ السوداءِ، والكتبِ التي ليست بلون قميصِكَ!

اسمعْــني. . . ولا تقطعْ عليَّ سرابَ أسفاري. لقد هبطتْ بيَ العَبــّارةُ البيضاءُ

عند جزيرةٍ بالباسِفيكِ. . . أقولُ: فِكتوريــــا! فيندفعُ الشميمُ، وتخرجُ الخلجانُ سابحةً. ستأتي عندنا الحيتانُ فجراً، أو أسُــودُ البحرِ. لا تــتعجّل الأنــباءَ. . . .

فِكتوريا هي الأمُّ العجيبةُ، جَدّةُ الهنديّ والملهوفِ، والأنــثى المقدّســـةُ. الطواطمُ عندها حرسٌ، وروحُ الدبِّ. والأسماكُ هائلةً تَقافَزُ بينَ كفَّــيها.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

وماذا كنتُ أفعلُ في الجزيرةِ؟

أنت تعرفني. تماماً.

كنتُ، مثلَ نضالِ أمسِ، أُحَرِّضُ الطلاّبَ...

كيفَ؟

قرأتُ من أشعارِ سعدي يوسف...

البَحّار، صاروخ توماهوك، إعصار كاترينا، وقتلى في بلاد الرافدَينِ.

ولحيةُ القدّيس والْت وِيتمان. أشجار البحيرات العميقةِ. والبارات عندَ إجازةِ الجنديّ. تبدو بغتةً عَوّامةٌ في النيلِ. يبدو النخلُ أزرقَ في البعيدِ.

النسوةُ الغرثى يَلُبْنَ. عُواؤنا؟ أمْ أنها تلك القطاراتُ التي تمضي إلى ليلِ المَدافنِ في الصحارى... أيها الجنديّ دَعْ بلدي، ودعْني في الجحيمِ.

قرأتُ من أشعارِ سعدي يوسف...

الأمرُ الغريبُ: كأنّ هذا الشاعرَ الضِلِّيلَ يعرفُني، ويعرفُ ما أريدُ....

كأنه أنا!

لستُ أفهمُ ما أقول...

لندن، ٣١/١٠/٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يشهد أوّل أيار في برشلونة

لو كنتُ جئتُكِ، يا شوارعُ، في الثلاثيناتِ!
لو راياتُكِ الحمراءُ والسوداءُ كانت في يدَيّ. . .
ولو أقمتُ ببابِ حزبِ الفوضويّينَ، النهارَ وليلَـهُ
والحُلمَ والمتراسَ!
قد كانت لنا أيّامُنا؛
والآنَ، يَدْرُجُ بينَـنا أيتامُنا:
لا رايةٌ حمراءُ أو ســـوداءُ
بل لا رايةٌ حمراءُ/ سوداءُ. . .
الشوارعُ أنبَتَتْ أولادَها نَوكى ومِثْـلِيّينَ
والشققُ القديمةُ حيثُ كنا نحفظُ الديناميتَ
والجرحى
وأحزمةَ الرصاصِ
وقوْتَنا اليوميّ
صارتْ كعبةَ السوّاحِ. . .
ماذا يفعلُ العمّالُ هذا اليومَ؟
قد أبصرتُهُم
ومشَيتُ أمتاراً أرافقُهُم كأني في صلاةِ الغائبِ. . .

الراياتُ CGT الثلاثيناتِ
أحمرَ / أسودَ
الأصواتُ أصواتُ الثلاثيناتِ
لكنّ الشوارعَ لم تَعُدْ تمشـــي . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
مشَينا
ربّـمـــا . . .
لكنْ لندخلَ حانَ أنطونيو
الرفيقِ السابقِ .
الراياتُ قد طُوِيَتْ على أخشابها .
والناسُ عندَ البحرِ
عندَ كولومبُسَ المنســـيّ
ينتظرون . . .

لندن، ٢٠٠٦/٠٥/٠٨

الشيوعيّ الأخير يذهب إلى السينما

ملحوظةٌ هامّةٌ جداً:

يقالُ في الصحافة المحترفة إن الخبر الجيد يجب أن يتضمّن أربعة أجوبة عن أربعة أسئلة:

متى؟ أين؟ ماذا؟ مَن؟

وبما أن الشيوعيّ الأخير لم يحترف الصحافة المتاحة لأسبابٍ ليست خاصةً به، كما يقول، فقد تصرَّفَ كما يحلو له، مكتفياً بـ«أين؟» و «ماذا» و«مَن». أي أنه قفزَ على «متى» قفزاً. أمّا «مَن» فقد اكتفى فيها بذِكْرِ الحرفِ الأول من اسمه، وقد يكون تصَرُّفُه هذا نتيجةَ تربيةٍ قديمةٍ في العمل السـرّيّ. الخطّة، واضحةٌ، لديه، في الأقلّ. وهي تشملُ النقاطَ الأربعَ الـمُدْرَجةَ في أدناه:

١- موقع السينما.

٢- موقع الشيوعيّ الأخير في قاعة السينما.

٣- الفيلم المعروض.

تأمُّلات الشيوعيّ الأخير بعد انتهاء العَرض.

موقِع الســـينما

لا تمتلكُ الدارُ اسماً حتى الآنَ

ولا تمتلكُ الدارُ لموقعها رسماً حتى الآنَ
ولكنّ الناسَ يحبّونَ الذكرى. يُحْيونَ الذكرى. يَحْيَونَ مع الذكرى.
ولهذا منَحوا تلكَ الدارَ اسماً: دارَ الذكرى...

*

كنا نتساءلُ كلَّ مساءٍ: أين الدارْ؟
فيُقالُ لنا: دارُ العَرضِ تغورُ عميقاً في الأرضِ...
نقولُ: إذاً... مَن يدخلُها؟

*

بعدَ طوافٍ، وبحارٍ، وضفافٍ
أبصَرْنا المَبْنى...
كان جداراً منخفضاً من طينٍ معجونٍ بالتِّبْنِ...
المبنى كان بلا بابٍ
كان بلا محرابٍ؛
كان وطيئةَ أَنعامٍ بين جذوعٍ خاويةٍ.
ها نحن أولاءِ هناك...
بَلَغْنا دارَ الذكرى!

موقعُ الشيوعيّ الأخير في دار السينما

دارُ الذكرى، دارٌ للعَرضِ الصيفيّ
والناسُ بها يقتعدونَ الأرضَ
إلاّ أصحابَ الدارِ... فقد كانت لهمو بِضْعُ أرائكَ مستوردةٍ

في الصفّ الأوّلِ.
كان الناسُ طويلاً ينتظرون أماكنَهم...
أمّا أصحابُ الدارِ فقد جلسوا منذ الآن، وجاؤوا بكؤوسٍ وقناني ماءٍ.
والناسُ يلوبون
عطاشـــى
أنهكَهمْ قيظُ الصيفِ
وبُعْـــدُ الدارِ...
ويسألُ «س»: أليسَ لنا، نحن الناسَ، مكانٌ؟
قيلَ: اجلِسْ أنَّى شئتَ!
وفكَّـــرَ «س»: الأفضلُ لي أن أقتعدَ الأرضَ بآخرِ صفٍّ...
سوف أرى الناسَ جميعاً
وأرى الفيلم...

الفيلم المعروض

عن أيّ مزرعةٍ هنا، يتحدثُ الفيلمُ؟ الخرافُ تدورُ والغِزلانَ، ثَـمَّ زريبةٌ يُقْعي بها بشرٌ عُراةٌ. والذئابُ تنامُ نِصفَ مَنامِها المألوفِ. تهبطُ بالمظلاّتِ النســاءُ وقد لبِسْـــنَ ملابسَ العَومِ. الزريبةُ أشرعَتْ أبوابَها للقادماتِ من الفضاءِ. يهلِّلُ البشرُ العُراةُ: المنقذاتُ أتَينَ! كانت في السماءِ سفينةٌ بَحريّةٌ، ميناؤها «جَنَوا».
النساءُ يَطِرْنَ نحوَ سفينةِ الخشبِ الجميلةِ تاركاتٍ في الزريبةِ ما خلَـعْـنَ. ويهتفُ البشرُ العُراةُ وقد تقدّمت الذئابُ إلى الزريبـةِ: يا

إلهَ النارِ! أشعِلْ عودَ كبريتٍ
لتنقذَنا. . . ستأكلُنا الذئابُ الليلةَ. الغربانُ في الـثُّـكْنات.

تأمُّلاتُ الشيوعيّ الأخير بعدَ انتهاءِ العَرضِ

سوف يستغرقُ الحديثُ طويلاً لو أردْنا، لكننا رِفقةٌ لا نُتْقِنُ اللفَّ والـمِلَفَّ. . .

انتهى «س» من العَرضِ، ساهماً. . . كان مشدوداً إلى فكرةٍ:

هل يكونُ الفيلمُ وهماً؟ والقصْدُ: هل كانَ الحقيقةَ الـمُرّةَ، العلقمَ ما شاهَدَ؟

السفينةَ في الـجـوِّ.

انتبِهْ أيها العاملُ الشيوعيّ. . .

إن العالَمَ اليومَ يظهرُ بالمقلوبِ. . .

ماذا عليكَ أن تفعلَ؟

الشيوعيّ كارل ماركس قد قالَها: سنَقْـلِـبُـها حتى نرى السفينةَ في البحرِ. . .

الشيوعيّ «س» يســري وحيداً.

لندن، ٢٣/ ٠٥/ ٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يذهب إلى البصرة

وقالتْ له: أســـرَفْتَ!
كلُّ مدينةٍ حللْتَ بها أغفَلْتَ عن أهلِها الفكرةْ
كأنّ مَدارَ الكوكبِ اختَلَّ سَـــيرُهُ
فلم يَبْقَ من ذاكَ الـمَدارِ ســـوى البصرةْ. . .

*

ولكنني فكّرتُ. . .
إنّ صديقتي تقولُ صواباً؛ كيفَ أنسى ديارَها، حديقتَها، والشُّرْفةَ؟
الصيفُ أرسلَ الرسائلَ. والكرسـيُّ ما زال يقصدُ البِيانو. الفتى الهنديُّ يُلقي سلامَهُ ســـريعاً، وأعلى دوحةِ السَّـرْوِ حَطَّ طائرٌ عجيبٌ. أ مِن فردوسِ «لِيزا» أُســـافرُ؟

*

تعلّمتُ أن أحكي، فلستُ مُـكَـتِّـماً هواجسَ ليلي الأربعينَ:
أنامُ في جناحَي غُرابٍ. والسعالي ضجيعتي. ومن دميَ المسفوحِ لَونُ الحوائطِ. . . انتهَيتُ إلى أن أرضعَ التّيسَ. أن أرى تماسيحَ من قارٍ تُغَنّي
وأن أرى خيولاً عليها من عيونٍ حوافرُ. . .

*

وتسألُني «لِيزا» وقد أطبَقَ الدُّجى: سمعتُكَ تهذي. . .

كنتُ أحسَبُ أنني أهيمُ بِوادي الجِنِّ! هل كنتُ نائماً بِوادي الذئابِ؟
الليلَ تَخْتَضُّ. . . ناضحاً شفيفَ دمٍ. . . مستنفَدَ الصوتِ.
ربّما ستفعلُ شيئاً في الغَداةِ. كأنني أراكَ إلى حيثُ انتويتَ تغادِرُ. . .

*

القصةُ، وما فيها، يا أصحابي، ويا رفاقي (لا أدري إنْ كنتم لا تزالون تستعملون كلمةَ «رفيق». . . لا يَهمُّ) أن الشيوعيّ الأخير، ذهبَ قاصداً البصرةَ، بعدَ أن ودَّعَ حبيبتَه «لِيزا» التي أوصَتْهُ بألاّ يدخلَ البصرةَ بعدَ طولِ غيابٍ، إلاّ تحتَ الرايةِ الحمراءِ.

*

في البصرةِ راياتٌ سُـــود
في البصرةِ راياتٌ بِيض
في البصرةِ راياتٌ من نخلٍ ذي أعجازٍ خاويةٍ. . .
لكنّ في البصرةِ، أيضاً، وبلا كلامٍ (أرجوكم!): راياتُ المِلكةِ أعلى من كلِّ الرايات!
(المقصودُ بالملكةِ هنا: إليزابَث الثانية (الأولى كانت تُمَـوِّلُ القرصانَ فرانسِسْ دْرَيك في القرن السادس عشـــر، الميلادي طبعاً) وإليزابَث الثانيةُ هي ملكةُ انجلترة والبصرةِ وما جاورَها، في القرنِ الحادي والعشرين)

*

وها هيَ، ذي، إذاً. . .

أسطورةُ الراياتِ تتْبَعُ فُوَّهاتٍ من بنادقِ أهلِها!
لكنني، وأنا الشيوعيّ الأخير، أظلُّ أحملُ رايتي الحمراءِ. . .
هل ضاعتْ بنادقُنا؟
نسِيناها؟
اتَّـخَـــذْنا غيرَها؟
أمْ أننا ضِعْنا وقد ضاعتْ بنادقُنا؟
سلاماً للنصيرةِ!
للنصيرِ!
لِـفِـتْـيَـــةٍ رفعوا على القُـنَـنِ الغريبةِ والروابي، الرايةَ الحمراءَ
سوفَ نعودُ للقِمَم!
الصباحُ الـجَهْمُ يُطْلِقُ بـوقَـــنـــا:
بوقُ القيامةِ نحنُ. . .
أحراراً
شيوعيّينَ
نرفعُ رايةً مَـرْوِيّـــةً بدمٍ وأوحالٍ
وندخلُ أرضَـــنا. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سنكونُ أجملَ من نهايتِـــنـــا. . .

لندن، ٢٥/ ٠٥/ ٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يسبح في خليج عدَن

قد طالَ ما ألقَيتُ أثوابي وأتعابي على حَجرٍ، لأسبحَ في الخليجِ . . .
إلى يميني شاطيءٌ متردِّدٌ بين الحصا والرملِ،
ألمحُ في يساري، عالياً، بين الصخورِ، فَناريَ الأعمى
وكان البحرُ يهدأُ في الخليجِ
وتلعبُ الأسماكُ بالألوانِ: أحمرَ، أصفرَ . . .
الفسفورُ يطفو، والقواقعُ تختفي في الموجِ؛
ثَمَّ هسيسُ أطرافِ السراطينِ الخَفِيُّ
وحبْلُ مرساةٍ تَقَطَّعَ قبلَ أعوامٍ،
وأهبِطُ . . .
كنتُ ألتَمِسُ انغماراً لا يفارقُني . . .
انغماراً يجعلُ الجسدَ امتداداً للمياهِ وللنجومِ اللامعاتِ هناكَ في القاعِ؛
انغماراً لا تُمَيِّزُ فيهِ بين يدَيكَ والشمسِ.
الخليجُ يُطِلُّ من عدَنٍ على عدَنٍ
ومِن عدَنٍ على يَمَنٍ سيُبْحِرُ في الصباحِ ليبلُغَ الجنّاتِ
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ما أبهى الـمَـعادَ!

كأنني ما زلتُ في عدَنٍ؛

وأثوابي وأتعابي على حَجَـرٍ هناك!

لندن، ٣١/٠٥/٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يعودُ من الشاطيء

كان الشيوعيُّ الأخيرُ يدورُ بينَ محطّةِ الباصاتِ والمقهى الصباحيّ. . .
النوارسُ لا تزالُ تدورُ زاعقةً فُوَيقَ الناسِ والطُّرُقاتِ والحِصْنِ القديمِ،
و لا تزالُ صَبيّةُ المقهى تُعَدِّلُ شَعرَها المنفوشَ ليلاً؛
- يا صباحَ الخيرِ!
لم أعرفْ بأنكَ ههنا. . .
● قد جئتُ أمسِ، لكي أعودَ اليومَ!
- قُلْ لي: أيُّ شيطانٍ قد استدعاكَ؟
يأتي الناسُ كي يستمتعوا بالبحرِ والرملِ الدفيءِ؛ وأنت تعودُ كالمجنونِ؟
● ليس الأمرُ هذا. . .
قصّتي كانت مفاتيحي!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أتعرف؟ كنتُ بعدَ شتائنا القاسي وقضقضةِ العظامِ

أُحِسُّ بلهفةٍ للبحرِ. كنتُ أريدُ أن أُلقي بأتعابي وأثوابي على رملِ الشواطيءِ... نحن ملاّحونَ في المعمورةِ!
البحرُ المحيطُ يُـتِـمُّ رِحْلتَنا ويَبدؤها. أتحسَبُني تركتُ البحرَ والرملَ الدفيءَ وفتنةَ الأجسادِ مختاراً؟ كأنك يا صديقي لستَ تعرفُني!
ألم أُخبِرْكَ؟ ليس الأمرُ هذا. قصّتي كانت مفاتيحي.
أتيتُ إلى المدينةِ، (ولْـتَـكُـنْ Eastbourne).
واستأجرتُ غرفةَ منزلٍ. ومشَيتُ نحوَ الشاطيءِ. الأمواجُ كانت كالجبالِ. وثَـمَّ ريحٌ صَـرصَـرٌ. والناسُ يرتعدون من برْدٍ عرايا. فتنةُ الأجسادِ قد ذهبتْ مع الريحِ! انتظرتُ دقائـقَ... الموجُ العنيفُ يُرَشـرِشُ الممشى. ويَبلغُ أوّلَ المقهى. إذاً، هل أرتمي في الماءِ، أم أرتدُّ نحـوَ غُرَيفَتي بالمنزلِ؟ استجمعتُ بُقْـيا من حماقاتِ الصِّـبا، وهبطتُ، مثلَ قذيفةٍ في الماءِ.

*

هل كنتَ تدري أنني متمرِّسٌ بالغوصِ؟ ذاكَ الصبحَ في إيستبورنَ، غُصْتُ إلى قرارِ البحرِ. كان القاعُ أصلعَ. لا نباتَ و لا قواقعَ فيهِ. والأسماكُ قد رحلَتْ إلى بحرِ الشمالِ... الكهرمانُ هناكَ. والمرجانُ ينبتُ في الجنوبِ. وهكذا قرّرتُ أن أعلو إلى حيثُ المقاهي والملاهي والهواءُ. لقد أطْلَلْتُ... أدركتُ الحقيقةَ. ليس في القاعِ العجيبِ سوايَ. سـوفَ أقولُ للناسِ، الحقيقةَ. سوف أرفعُ في مقاهي البلدةِ البحريّةِ الأنخابَ. سوف أقولُ: مرحىً للشيوعيّ الأخيرِ! ومرحباً

بفضيحةِ الأسماءِ والأشياءِ. . .
مَجْدُكَ أن تغوصَ إلى قرارِ البحرِ
مجدُكَ أن تقول!

*

والآنَ تسألُني عن المفتاح؟
سوف أقولُ شيئاً مضحكاً:
ضاعتْ مفاتيحي بقاعِ البحرِ. . .
لكني أُخَـبِّـيءُ نسخةً أخرى بلَبلابِ الحديقةْ!

لندن، ٢٠٠٦/٠٦/٠٤

الشيوعيّ الأخير يشـــتري قميصاً

ظلَّ الشيوعيّ الأخيرُ، هو، الفقيرَ. . .
فإنْ تدَبَّـرَ أمرَهُ يوماً، وصارَ المالُ يملأُ جيبَـــهُ
(تأتي مُصادفةً)
تأبَّطَ مالَهُ
ومضى يبدِّدثهُ: المقاهي والمطاعمُ،
والصديقاتُ اللواتي صِرْنَ قد أحبَـبْـنَـــهُ تَـوّاً. . .
ورُبّـتَـما تذَكّـرَ أمرَهُ
- أن يشتري، مثَلاً، قميصاً!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كم أحَبَّ السوقَ!
تلكَ الواجهاتِ، وباعةَ السِّـلَعِ الـمزوَّرةِ
الصبايا العاملاتِ
وذلكَ الصعلوكَ عندَ المدخلِ الخلفيّ للبارِ العتيقِ. . .
وكم أحَبَّ مصاطبَ السوقِ!
العجائزُ، والسكارى الصُّبْحَ، والأطفال. . .

والشجرُ الذي ما زال يَعْبَقُ بالندى الليليّ. . .
ينتبهُ الشيوعيُّ الأخيرُ:
أَلَمْ أجيءْ كي أشتري شيئاً؟
قميصاً رُبَّـــما؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

يدنو من البارِ العتيقِ
يُمازِحُ الصعلوكَ. . .
يدعوهُ إلى كأسٍ، وصحنِ فطائرٍ بالـجُـبْنِ
ينتبذانِ زاويةً.
ومثلَ البرقِ يقتنعُ الشيوعيُّ الأخيرُ بأنّ لونَ قميصِهِ أبهى
وأنّ تجارةَ القمصانِ ليستْ شـــأنَـهُ؛
أنّ الحياةَ تريدُهُ حُرّاً، وأحمرَ
أنّ لونَ قميصِهِ سيظلُّ أحمرَ
قانياً،
ولْتسقط القمصانُ
إنْ كانتْ ستَعْـرِضُ بَيعَـــهُ، هوَ، في مَزادِ الســـوقْ. . .

لندن، ٢٠٠٦/٠٦/٠٥

الشيوعيّ الأخير ينتظرُ الحافلة

أنا منذُ الفجرِ، هنا، في هذا الموقفِ، أنتظِـرُ الباصَ الأحمرَ. . .
مرّتْ سيّاراتٌ
وقطاراتٌ
مرّتْ باصاتٌ بالعشـــراتِ
ولكنّ الباصَ الأحمرَ لم يأتِ
ولم أسمعْ خبراً عنه. . .
حتى ابنُ رفيقي لم يُـعْـــنَ بأنْ يَسْـــمَـعَـني حين استفسرْتُ!
إذاً. . . سأظلُّ هنا منتظِراً:
مرّتْ بي السنواتُ
ومرّتْ بي الباصاتُ
ومرّتْ بي الفتَياتُ. . . فلم أَلْحَقْ واحدةً منهنّ. . .
ولم أستمتِعْ بالضحكاتِ وبالشهقاتِ؛
الباصُ الأحمرُ لاحَ أخيراً في المنعطَفِ!
الباصُ الأحمرُ لم يتوقَّفْ!
لوَّحْتُ
صرختُ
ولكنّ الباصَ الأحمرَ لم يتوقّفْ!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

جاءَ ابنُ رفيقي مرتبكاً:

هل تَعْلَمُ أن السائقَ باعَ الباصَ الأحمرَ؟

إنّ لديهِ الآنَ مواقفَ أخرى

ودروباً لا نعرفُها. . .

ومقاعدَ قد حُجِزَتْ سـلَـفاً، للصوصٍ معروفين!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ماذا نفعلُ؟

سوف نسيرُ ونسألُ. . .

لندن، ٢٠٠٦/٠٦/٠٧

الشيوعيّ الأخير يدخلُ في النفَق

كان صباحاً صيفيّـاً حقّــاً؛
جارتُهُ خرجتْ من بابِ الدارِ، وقد كشفَتْ للشمسِ خميصَ البطْنِ
بنصفِ قميصٍ. . .
والوردُ الإيرلنديُّ تَفَـتَّـحَ كالبرقِ،
وجاءَ النحلُ ليمتصَّ رحيقَ بنفسجةٍ
وتَرَجَّحَ سنجابٌ من غصنِ صنوبرةٍ دانٍ
وتَبَدَّتْ في الـمَرْجِ خيولٌ تلعبُ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كان صباحاً صيفيّاً حقّاً. . .
ويفكّـرُ «س»: لماذا أجلسُ وحدي؟
فلأذهبْ صوبَ النهرِ. . .
أراقبُ موجاً يتطامَنُ بين نسائمَ هادئةٍ وزوارقَ من لوحٍ فضِّـيٍّ،
وأرى الفتَياتِ يُلاعِبْنَ الفِتيانَ على العشبِ
وأسمعُ أغنيةَ الموسيقيّ الجوّال،
وأختارُ كتاباً من كتبٍ مستعمَلَةٍ

وأسيرُ على مهلٍ
أضحكُ للدنيا!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

كان صباحاً صيفيّاً حقّــاً. . .
لم يتحرّكْ «س»
ظلَّ على جلستِهِ بالشُّرْفةِ.
لم يُتْـمِـمْ قهوتَــهُ
لم يُنصِتْ للموسيقى.
أمسِ، تلَقّى، عبرَ الإنترنَتْ، الخبرَ:
الأمريكيّونَ أقاموا حفلةَ قتْلٍ لعراقيّينَ شبابٍ.
- أينَ؟
- متى؟
*
كارل ماركس تنبّــأَ:
إنّ الـخُـلْـدَ الأحمرَ يحفرُ في النفقِ.

لندن، ٢٠٠٦/٠٦/٠٩

الشيوعيّ الأخير يُشعـلُ عودَ ثقّابٍ

مقهى رصيفٍ في ضواحي لندنَ الغربيّةِ
المقهى صغيرٌ
فيه طاولتانِ: واحدةٌ بها شابّانِ وامرأةٌ
وأخرى كان ينتظرُ الصديقةَ عندَها . . .
قالت له (ولْـنَفترِضْ أن اسمَها ليلى):
أكونُ، لديكَ، في المقهى، إذا انتصَفَ النهارُ؛
فلم تجيءْ.
مرّتْ دقائقُ عشـــرٌ،
الشابّانِ راحا في سبيلِهِـــما
وتلكَ الـمرأةُ استلّـتْ كتاباً من حقيبتِها . . .
وفَـكَّـرَ«س»:
إنْ لم تأتِ ليلى بعدَ خمسِ دقائقَ . . . استغنَيتُ عنها،
عن ضفيرتِها،
وعن تلك المواعيدِ التي قد أخْـلَـفَـتْـها كلَّـــها.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

لم تأتِ ليلى!
المرأةُ الأخرى أشارتْ تطلبُ الثقّابَ.
أدركَ «س» أنّ الأرضَ واسعةٌ
وأنّ الخيرَ في ما اختارت الدنيا . . .
تَحَــوَّلَ
أشعلَ الثقّابَ
أدنى وجهَهُ من وجهِ تلكَ المرأةِ الأخرى
وقالَ: أتسمحين؟

لندن، ٢٠٠٦/٠٦/١٣

الشيوعيّ الأخير يُعَدِّلُ في النشيدِ الأممي

كان الشيوعيُّ الأخيرُ يقولُ إن نشيدَنا الأُمميّ ملتبسٌ قليلاً . . .
قرنانِ قد مَـرّا عليهِ
تَخافَقَتْ في الريحِ والأمطارِ راياتٌ تعالَتْ باســـمِـهِ
وتَنَكَّسَتْ أخرى
وما عادتْ نُحاسيّاتُ موسيقاهُ موسيقى الشبيبةِ
في مسيراتِ الشـــوارعِ . . .
إنّ كلَّ مظاهراتِ اليومِ، تبدأُ بالقَـيـاثِـرِ
لا الطبول . . .
و ثَـمَّ شـيءٌ قد يُقالُ عن الأغاني
والفضاءِ
وعن جنونِ الأغنيـــاءِ . . .
مضى الشيوعيُّ الأخيرُ يُـعَـدِّلُ الكلماتِ، شيئاً، إذْ يُغَنِّـــيها:
هُـبُّـــوا ضحايا الإضطهادِ
ضحايا هَولِ الأغنياءْ
بُركانُ الفِكْـرِ في اتِّـقادِ
إننا آيةُ الســـماءْ . . .
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

لكنَّ ما يضَعُ الشيوعيَّ الأخيرَ بمأزقٍ، هوَ:
مَن سيسمعُهُ إذا غنّـى؟
إنْ كانت الكلماتُ من قرنَينِ
أو من لحظةٍ
أو مِن زجاجٍ . . .
مَن سيسمعُهُ إذا غـنَّـى؟

لندن، ٢٢/٠٦/٢٠٠٦

الشيوعيّ الأخير يتطوّع....

أمضى الشيوعيُّ الأخيرُ، الليلَ، معترِكاً مع الجاثومِ. . .
كانت طائراتٌ تخطِفُ الأطفالَ من نُعْمى أسِـــرَّتِهِم، وتعلو في الهواءِ
لتقذفَ الأطفالَ
نحوَ بيوتِ أهليهِم،
وكـان الـوردُ والـرمّــانُ يـسـتـرُ وجـهَ «حَـيِّ الـسـلَّــمِ» الـمـنـخـوبَ بالطلَقاتِ. . .
ثَـمَّ مَساحبٌ للـمَرْكباتِ العسكريّةِ
ثَـمَّ مدافعٌ طلعتْ من البحرِ
السماءُ ثقيلةٌ حمراءُ
شمسٌ في الهواءِ القرمزويّ تكادُ تذوبُ. . .
لُبنانُ الـمُـوَلْوِلُ يدفعُ الأمواجَ مُـدَّرِعاً
ويغطِسُ في القرار. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

يقولُ «س»:
كأننا في ٨٢...
يا ما أعذبَ الذكرى!
تطَـوَّعْـنا
وقاتَـلْـنا
وكنّا نحرسُ الرمّانَ في بستانِ «حيِّ السُّـلَّـمِ»...
*

شهداء عراقيّون

كانوا أربعةً في حيّ السلَّـم
قنّاصي دبّاباتٍ
ورواةَ قصائدْ
كانوا عشّاقاً لفلسطينَ
رفاقاً في بغدادِ
وأمسَوا أشجاراً في «حيّ السلّم»
أربعةً كانوا في حيّ «السلّم».

بيروت، ١٩٨٢/٠٨/٠٥

.....
.....
.....
الأعوامُ أيّامٌ

وهاأنذا أُثَبِّتُ خطوتي
متطوِّعاً
وأسيرُ منحدِراً مع الأنهـــار . . .

لندن، ١٦/٠٧/٢٠٠٦

ديوان غرفة شيراز

محطّــةُ الشّـــمال La Gare du Nord

قبلَ أن نتحمّلَ عِبْءَ المحطةِ، بين الحقائبِ والسائرين إلى حتْفِهِم
دون أن يَعْلَموا،
كنتُ أعرفُ أنّا (وأعني أنا والتي كنتُ أحـبَـبْـتُها) سائرانِ إلى
سكّـــةٍ
لن تصِلْ.
كنتُ أعرفُ أنّ محطّة باريس، سوفَ تكونُ الأخيرةَ. لن نعرفَ
الفجرَ ثانيةً،
بينما
نحن معتنقانِ على قهوةٍ بالحليبِ، وخُبزِ الأهِلّةِ. . .
ذاكَ المساءَ الأخيرَ
(وأعْني الذي قبلَ صُبحِ المحطةِ)
ألقيتُ نفسي، ثقيلاً كلَوحٍ، على مَتْنِ ذاك الفِراشِ بفندُقِنا. . .
ثمّ نِمْتُ.
لم أكُنْ أتصَوّرُ،
لم أكُنْ أتصوّرُ جِيزيلَ كانت تريدُ. . .
ولكنّ جيزيلَ تعرفُ كم كنتُ أضعفَ من نملةٍ!
إنّ جيزيلَ تعرفُ كم كان أرهقَني الحفْلُ: تلك القراءةُ

ذاك الأســـى
وإلى آخرِ الحفْلِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
والآنَ
من بَعْدِ سَبْعٍ
سأذكرُ أنّا افترقنا، بلا سببٍ، في المحطّةِ.

لندن، ١٩/ ١١/ ٢٠١٠

الآتـــون

أنت لن تبصرَنا في الـمَنْزَهِ السادسِ
لن تسمعَ في «شارع باريسَ» أغانينا التي تبكي
ولن تلمُسَ في قِرطاجَ جمرَ الجوعِ والـحُـمّى. . .
لقد ضاقتْ بنا الدنيا إلى أن عَذُبَ الموتُ
إلى أن أصبحَ الـمَقْتُ هواءً
أيّ ورْدٍ سنرى في وجنةِ الطفلِ الإلهيّ؟
فهل نستمطِرُ الصخرَ؟
وهل نعصِرُ ممّا جَفَّ من أعراقِنا كوبَ حليبٍ؟
غيضةُ الزيتونِ باعوها فأمستْ حطباً للموقدِ. . .
البحرُ لقُرصانٍ
وأعنابُ البلادِ اعتُصِرَتْ خمراً لسوّاحٍ صليبيّينَ أوباشٍ
وها نحنُ أولاءِ
الناس
منسيّينَ
منفيّينَ في أحوازِنا،
لكننا آتونَ. . .

لندن، ١٢/ ٠١/ ٢٠١١

الرِّسُّ الـنّـغْــلُ

قالوا:
أكنتَ تريدُ أن تغدو الشهيرَ
وأنت تعزفُ أسطوانتَكَ «الشيوعيّ الأخير. . .؟»
لقد ملَلْنا!
منذُ أن دُفِنَتْ لينينغراد في صحراءِ نيفادا
تبدّلت الأمورُ
ولم تعُدْ، أبداً، معادَلةَ الشيوعيّين ضدّ الرأسماليّين. . .
قالوا:
أيّها الـمُدَّثِرُ المقرورُ
قُمْ
وانظُرْ تَرَ العجَبَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
البسيطةُ أتلَعَتْ رِسّــاً جديداً
ليس من أصلٍ
ولا فَصْلٍ، لهُ. . .

رِسّـــاً لـئيماً يقتلُ العمّالَ حتى في مناجمِهم. . .
يُبيدُ نباتَ هذي الأرضِ، شعباً بعدَ شعبٍ
مِلَّةَ الإســـلامِ
زولو
أُمّةَ الأزتيكِ
والمايا
عراقيّين
صابئـةً، بَهائيّينَ، أنباطاً
فلسطينيّةً. . .
يا أيّها الـمُـدَّثِّـرُ المقرورُ
غَـيِّـرْ أسطوانتَكَ
الأمورُ تغَيَّرَتْ!

لندن، ٢١/ ١١/ ٢٠١٠

الزيّاديّـــة

ستبقى هنا، تتأمّلُ ساحةَ ثلْجٍ وموتَى وأغْرِبةٍ.
للفصولِ قراءاتُها
وكذلك للنبْضِ. . .
لكنّك الآنَ تُطْبِقُ ما كتبَ الثلجُ
تُطْبِقُ ما كنتَ تكتبُ
أو تتفكَّرُ.
أنت، الـمُـقَـلْـقَـلُ، تركضُ:
شطُّ العربْ
غيضةُ الكَرْمِ في النهرِ
أبناءُ خالتِكَ. . .
الآنَ تركضُ، مُهْراً، على الشاطىءِ.
الآنَ تلْقي بنفسِكَ في الماءِ، ذاكَ الدفـــيءِ
وتمضي بعيداً إلى حيثُ تدخلُ قَـصْـــبـــاءَ
أنتَ تُغافِلُ حُرّاسَ إيرانَ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

ساحةُ ثلجٍ وموتى وأغربةٍ. . .
ثمّ يأتي الشميمُ:
لقد كنتَ ترقدُ تحت الغصونِ الكثيفةِ
دوحةُ تينٍ
ظهيرةُ صيفٍ. . .
شـــراعٌ وحيـــد!

لندن، ٢٥/ ١٢/ ٢٠١٠

الـمُـحـاكَـمـة

للّذينَ ارتضَوا أن يكون العراق
فندقاً عائماً لا بلاداً.
للّذين ارتضَوا أن يكون العراق
جبلاً من دشاديشِ غرقى.
للذين ارتضَوا أن يكون العراق
سوارَ العشيقةِ...
أن تمسيَ البصرةُ الأُمُّ مبغى الخليجِ
وأن تتنصّلَ بغدادُ من إسمِها...
للّذين ارتضَوا أن يكونوا الأدِلاّءَ
أن يَهَبوا كلَّ ما كنَزَتْ أرضُنا للغريبِ المدجَّجِ
أن يعبِدوا أبرَهةْ
أن يقولوا: العراقَ انتهى...
.....
.....
.....
هؤلاء

سوف أجمعُهم، ذاتَ فجرٍ، بمقهىً على جَزْرةٍ بالفراتِ
وأحفرُ أسماءَهمْ في جماجمِهِم
وهمُ الصاغرون. . .

لندن، ١٢/ ١١/ ٢٠١٠

المحطّة السـويديّـة
Sundbyberg

ثَـــــــمَّ كان القطارُ الوحيدُ الذي يبلغُ الأرضَ تلك التي لا نَرى
يبلغُ الأرضَ تلك التي لا تُرى
لا تُرى بالعيون
لا تُرى بالجنونْ
رُبّما كان لي أن أُغادرَني. . . . .
ربما كان لي أن أغادرَ بيتي، وما خلَّفَ العُـمُــرُ الجهْمُ لي من متاعْ
ربما سيكون الضَّياع
سبيلاً
إلى تلكمُ الأرضِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
مَنْ يا تُرى ستكونُ هنالكَ واقفةً بانتظاري؟

٢٠١١/٠٤/٠٤

الـمَـعـاد

وادي بني عبد السلامِ، إذا أوغلتَ فيه، بلغتَ بغدادَ السلامِ
كأنني أهذي
كأني مُـعْـنِـقٌ في الليلةِ الألفَينِ قبلَ الألْفِ
أُنصِتُ:
مَرْبَعي يَمَنٌ
ومُنتَظَري نِزارٌ..
ثَمَّ في «نِزْوى» مدافعُ سوف تأخذني إلى الرّستاقِ
سوف أكون عند الدّكّةِ:
البحرُ القديمُ
وحانةُ البحّارةِ الـحُكَماءِ
ثَمّتَ نسوةٌ متبرِّجاتٌ، قهوةٌ، ودِنانُ خمرٍ برتغاليّ...
وأسمعُ من بعيدٍ موكبَ السجناءِ، في أغلالِهم، يمضون نحو القلعةِ.
البِصريّ، موسى البدر، نوخذةٌ، وفلاّحٌ، يعيشُ مع الغلامِ
وكان يحكي لي طويلاً، عن قرىً في شرقِ إفريقيّةَ:
الأحباش
مومباسا

وفندق زنجبار . . .
عن اختيارِ القاتِ في هَرَرٍ
وعن جنّيّةٍ في البحرِ كادت أن تعانقَه عميقاً . . .
كنتُ أتبعُهُ، كأعمى، في متاهته . . . طريقِ البومِ
أسمعُهُ وأتبعُهُ إلى أن ينجلي الليلُ المهدهَدُ بالنخيلِ
ومرّةً غنّى :
هَلا . . .
بيتي، هَلا . . .
بِنتي، هَلا . . .
وأريدُ «مَسقَطَ» . . . يا هَلا!
بيتي هَلا . . .
بنتي هلا!
وأريدُ «مَسقطَ» . . . يا هَلا!

لندن، ١٠/ ٠٢/ ٢٠١١

الـمَـقْـتَـلـــةُ

أحاولُ أن أنســـى
أحاولُ غفلةً، ولو ساعةً أو ساعتَينِ. . .
كأن في عروقي يدورُ الدِينامِيتُ مُوَقّـتـاً
وأنّ دبيبَ الـنّـبْضِ قد بلَغَ الأقصى. . .
أأنظرُ في المِـــرآةِ؟
أَمْ أن شاطىءَ البحيرةِ مِرآتي التي أتأمّلُ؟
الخريفُ يدقُّ البابَ:
اصفرَ
أحمرَ
ارتعاشاً بْرونزيّاً
ووردا،
أُحاولُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
السفينةُ في مَرســـى القراصنةِ
الغزالةُ الآنَ في الـمَـرمى. . .
وإني أُحاوِلُ؟

لندن، ٠٤/ ١١/ ٢٠١٠

النجم الثاقب

هل رأيتَ النجم؟
إنْ لم ترهُ. . .فاسمعْ ترَ النجمَ
ألم تهجِسْ حفيفاً، هَفّةً، رجفةَ ريشٍ من جناح الجِنّ؟
أَم أنّكَ أحسستَ بوخزٍ داخلَ الأُذنِ؟
تأمَّلْ. . .
لا تَقُلْ شيئاً
ولا تنتظر العينينِ،
(قد أُغمِضَـــتـــا منذ سنينَ)
الآنَ
وفي خطفةِ ريشٍ من جناح الجنّ
يأتي النجمُ!

لندن، ١٧/٠٣/٢٠١١

الواصليّة

هي بين الزّيّاديّةِ، خضراءَ، و كُوتِ الزَّينِ
أراها الآن كما كانتْ:
مرسى عوّاماتٍ خمسٍ
(أتكونُ ثلاثاً؟)
هي مأوى مَن يُرشِدُ كلَّ السفنِ البحريةِ إذ تدخلُ شطَّ العربِ
لا أدري كيفَ دخلتُ إلى إحدى العوّاماتِ. . .
صعبٌ أن أتذكّر. . .
قد مرّتْ خمسون من الأعوامِ. . . !
ولكني أتذكّرُ كيف استقبلَني مرشِدُ تلك السفنِ البحريّةِ:
قالَ: البحرُ هنا
(وأشارَ إلى الطاولةِ)
الوقتُ مساءٌ رطِبٌ
(في البصرةِ، كلُّ مساءٍ رطِبٌ)
كان على مائدةِ المرشدِ عبدِ اللهِ الديراويّ
نبيذٌ
وزجاجةُ وِسكي
White Horse

وثمّتَ روبيانٌ
وشـــرائحُ حبّارٍ
جُبْنٌ
وبقايا عرَقٍ. . .
قال الديراويُّ:
لنبدأْ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هل أهذي الآنَ؟
تُرى مَن سيُصَدِّقُني؟

لندن، ١٨/ ٠١/ ٢٠١١

أمْــنيــةٌ

أنتَ أغمضتَ عينَيكَ
أغمِضْــهُــما . . .
ولْتَظَـلَّ طويلاً، كما أنتَ، مسترخياً
مغْمَضَ المقلتَين.
إن كرسيّكَ الخيزُرانَ مُريحٌ، أريكةَ غيمٍ.
فأغْمِضْ . . .
لماذا تحاولُ إرهاقَ عينيكَ؟
ماذا ترى لو فتحتَــهما؟
هل حننتَ إلى قريةِ النملِ
والذّلِّ
والقتلِ
والمرأةِ الباردةْ؟
هل حننتَ إلى تيهِ يومِ الأحدْ
وجنونِ البلدْ
ونخيلِ البلدْ
(حيثُ يستهترُ الخائنون)؟
هل حننتَ إلى الطلْقــةِ الواحدةْ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

أنتَ أغمضتَ عينيكَ

أغـمِـضْـــهما .

هل سمعتُكَ تهذي :

سأُغْـمِـــضُ عينيَّ حتى الأبدْ!

استكهولم، ٠٨/ ٠٤/ ٢٠١١

أواخرُ أيلول

وهاهوذا الغيمُ، تَدفَعُ قُطعانَ حِيتانِهِ والخيولِ التي تترنّحُ، ريحٌ شماليّةٌ
والطيورُ تهاجرُ
منذ الصباحِ الطيورُ تهاجرُ
منذ أن خلَقَ اللهُ تلكَ السماءَ، الطيورُ تهاجرُ. . .
ما كان قبلَ دقائقَ بحراً مُحِيطاً تَدافَعُ حيتانُهُ والخيولُ استوى حاجزاً
من دخانٍ وماءٍ ثقيلٍ
ولكنّ تلك الطيورَ التي بدأتْ في الصباحِ تهاجِرُ
ظلّتْ تهاجرُ.
هل تبصرُ الطيرُ ما نُبصرُ:
البحرَ؟
حيتانَه
والخيولَ
وذاكَ الدخانَ
وماءَ السماءِ الثقيلَ؟
وهل تعرفُ الطيرُ
أنّا هنا،

سجناءُ منازِلِنا الحجريّةِ
ذاتِ الحدائقِ؟
أنّا هنا،
الموثَقونَ إلى طينِ أجسادِنا؟
وهل تعرفُ الطيرُ
أنّا هنا
الزائلون؟

لندن، ٢٠/٠٩/٢٠١٠

ترنيمـةٌ للميلاد

أطْبِقْ جَفنَيكَ
لتســمع .

أطبِقْ
جفنَيكَ
لتفتحَ باباً سِـرِّيّـاً في القاعةِ .

أطبِقْ جفنَيكَ
لتدخلَ بستانَ الخشخاشِ البـرّيّ . . .

الليلةَ لن تَـتَـنَزَّلَ روحٌ
لن تأتيكَ ملائكةٌ في هيأةِ طَـيرٍ
لن تسمعَ قيثاراً
أو أجراسَ لُـجَـينٍ في الماءِ
ولن تلمحَ غزلانَ الرنّـةِ في السهْبِ الأبيضِ . . .

هذه الليلةَ
تُطْبِـقُ جفنَيكَ لِـتُبْصِـرَ.
أطبِقْ جفنَيكَ
ولا تستيقظْ
إلاّ عندَ صياحِ الديكِ الذهبيّ!

لندن، ٢٤/١٢/٢٠١٠

تفصيلٌ في الكآبة

هل تكونُ السماءُ مناوِئـــــةً؟
ربّما . . .
آنَ لا تَمْرُقُ الشمسُ فيها
آنَ لا يَمْرُقُ الطيرُ فيها
آنَ يبدو الشجرْ
حَجَـــراً . . .
آنَ لا ترتدي امرأةٌ غيرَ معطفِها .
آنَ آوي إلى البردِ إذ يتقاســـمُـني والســـرير . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
السماءُ مناوِئةٌ!
حَـسَـنـــاً!
إن ذلك عهدي بها، منذُ أنْ خلَقَ اللهُ هذي السمـــــاء!

استكهولم، ٠٧/ ٠٤/ ٢٠١١

تــنــاوُباتٌ

الشمسُ التي غابتْ لم تُـتِممْ ساعتَينِ. ربما لأننا لم نَـعُـدْ نهتمُّ بأنفسِنا. الشمسُ التي غابتْ لم تَقُلْ: وداعاً. ليس لأنها لن تعود. نحن قد لا نعود إليها وإلى النافذة المخطّطةِ بالستارة المعدنية. ومن الغابةِ التي استضافتْ عاصمةً، سوف يدخلُ ارتجاجٌ من قطاراتٍ سريعةٍ. قطاراتٍ ترمي بنا إلى حيثُ لا ندري أو نريدُ. ليس في الحقيبة التي تحمل رسمةَ حيوانٍ مفترِسٍ زادٌ أو قصيـــدةٌ.

الأخضرُ بنُ يوسفَ، الجالسُ كالمقرورِ في غرفتِهِ، في طرَفِ استكهولْمَ، لايعرفُ ما معنى الجلوسِ الـمَحْـضِ. حيناً يرتدي ما كان يوماً دِرعَه: بُرنُسَـــه الصوفَ، وحيناً يسألُ البائعةَ الحسناءَ أن تُلبِسَـــه شالاً من الكشميرِ. لكنّ ثيابَ الأخضرِ الجالسِ في الغرفةِ ليستْ كالثيابِ. الأخضرُ الجالسُ يُلقي دُفعةً واحدةً كلَّ الذي كان له... أو ربّما... كان عليهِ. الأخضرُ، الآنَ، طليقٌ مثلَ ما كانَ. ولن يجلسَ مقروراً هنا في غرفةِ استكْهولم.

البحرُ ليس بعيداً. البحرُ قريبٌ كالغابةِ. البحرُ قريبٌ من رئاتِنا التي أثقلَها استنشاقُ الرملِ المسمومِ. لن نبحثَ عن السمكةِ

الذهبِ. لن نبحثَ عن صندوقِ الـمُسـافرِ. لن نبحثَ عن اللؤلؤ. نحن أسرى سلالةٍ تنقرضُ. نحن السّلالةُ التي تنقرضُ. أمسِ على الشاطيء الذي لم يَعُدْ فيه قراصنـةٌ كانت قِطَعُ الثلجِ الطافيةُ تحملُ ما لم يَـعُدْ يترقرقُ تحتَ قمصاننا: الشمسَ التي تُفْرِزُ قوسَ قُزَح.

الأخضرُ بنُ يوسفَ، استنشَـقَ، في غرفتِهِ التي غابت تماماً، ضوعَ غصْنٍ صندَلٍ. نفحةَ نَدٍّ... هَـفّـةً من ثوبِ مَنْ كان أحَبَّ. الأخضرُ استعملَ ما كانَ يُداريهِ قديماً: أن يَرى في لحظةٍ خاطفةٍ ما لا يُرى. فـلْـيتركِ الغرفةَ واستكهولـمَ، والمبنى، وهذا البحرَ، والغابةَ، والثلجَ الذي يطفو... ليخرجْ مرّةً واحدةً من جِلْـدِهِ، ولْـيَـندفِـعْ في لُـجّـةِ الثورةْ!

استكهولم، ٠٥/ ٠٤/ ٢٠١١

جـــدَلٌ؟

آنَ أُمســـي وحيداً
في الضواحي الغريبةِ
في مِثْلِ هذا المساءِ الذي يتضوّعُ بالثلجِ
هذا المساءِ الذي لا أرى نجمةً فيهِ أو شـــمعةً. . .
ليس لي أن أُحَدِّقَ في الـبُعْدِ
كي ألـمُـسَ النجمَ،
ليس عليّ اشـــتواءُ يدي لأرى شـــمعـــةً.
هكذا، ليس صعباً عليّ اعترافي بأني وحيـــدٌ
(لأنيَ، فعلاً، وحيدٌ!)
ولكنني
مثل أسلافيَ الخاطـئينَ
سأُعلِنُ هذا المســـاء
أمامَ الحديقةِ مهجورةً
والعصافيرِ مقرورةً
أمام قميصِ التي رحلتْ، بغتةً، دونَ أن تتذكّر أحلى قميصٍ. . .
أمامَ السناجبِ

والثعلبِ الـمتـضوِّرِ. . .
أُعـلـنُ:
لســتُ الوحـــيـــد!

لندن، ٢١/١٢/٢٠١٠

خطّـةٌ أوّلـيّـةٌ لاغتيالٍ

اليومَ
أقتُلُ «موسى» بالرصاصِ. . .
من الصباحِ تَفَحّصْتُ المسدّسَ
سِتّاً كانت الطلَقاتُ
قد دوّرتُها
دارتْ.
سأُطْلِقُها جميعاً،
سوق أقتُلُ، هادئاً، موسى
وأضحكُ إذْ أراه يموتُ. . .
موسى ليس يعرفُني
وهذا يجعلُ القتلَ المقرَّرَ أسهلَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الطلَقاتُ ستٌّ
والمسدَّسُ جاهزٌ
ومُجَهَّزٌ بالكاتمِ الصوتيّ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

مَن سيكونُ موسى؟

أهوَ مَن ألقاه في المرآةِ؟

مَن أخشاه في المرآةِ؟

كيف يموتُ موسى؟

لندن، ٣٠/ ٠١/ ٢٠١١

خطوطٌ بالأســـود

لدقائقَ، اندفعتْ عصافيرُ الحديقةِ بالتهاليلِ التي ارتفعتْ
ولبغتةٍ هدأتْ. كأنّ الغيمَ والشجرَ الرمادَ تضـايَقا.
وكأنّ برداً من سهوبٍ في سيبريا يـــــزحفُ.
الصحراءُ ماثلةٌ على تلك الشواطيءِ حيثُ تختزنُ
السلاحفُ بَيضَها. قُلْ لي: أتعرفُ أين تَلقى البنتَ؟
أعني بنتَ ميناءِ الشمالِ؟
أليس من أملٍ بأن تأتي إلى استوكهولم؟
أن تأتي إلى جُزُرٍ بغيرِ زوارِقَ؟
الأوراقُ مازالتْ مؤجّلةً.
يظلُّ الدوحُ أسوَدَ. . .
ثوبيَ الصوفيّ أسودَ. . .
ريشةُ العصفورِ. . . . سوداء.

استوكهولم، ٠٧/ ٠٤/ ٢٠١١

خطوطٌ سـريعةٌ في الليلِ القُطْبيّ

قمرٌ مكتملٌ
يهبِطُ في الـمَرسـى، حيثُ قواربُ مخبولِينَ تفوحُ مداخنُها
بِـبَـخورِ الغاباتِ المقطوعةِ.
منذ ثلاثِ ليالٍ أمسى الماءُ الضّحضاحُ جليداً
وارتحلَ الصيّادونَ.
البطُّ الوحشيُّ يُحَصِّنُ، ليلَ نهارَ، صوامعَـهُ
والأسماكُ التصَقَتْ بالقاعِ.
القمرُ المكتملُ استنفَدَ شـمْـعـتَـهُ
ومضى، مثلي، يتخبّطُ في الـتـيـه.

لندن، ١٩/ ١٢/ ٢٠١٠

رباعيّــةُ الضوءِ البعيـــدِ

(١)

ضوءٌ بعيدٌ بين أغصانٍ مُعَرّاةٍ. . . أرى من فُرجةٍ في منتهى الصِّغَرِ
انثَنَتْ وسطَ الستارةِ، لَمْحَ ذاك الضوءِ. كان الليلُ يَـنـتصفُ.
الحديقةُ تختفي. أشباحُها الأغصانُ عاريةً. أُحِسُّ على ذراعي لَسْعةً.
أتكونُ من بردٍ، أم الأشباحُ وهيَ تَنوسُ تُرعبُني؟ أَم الضوءُ البعيد؟

(٢)

مُحَدِّقاً في عَتمةِ الزمنِ. انتبهتُ. . . أكانَ ذاك الضوءُ يأتي من زمانٍ
سالفٍ؟ من نقطةٍ فُـقِئَتْ على إحدى الـمَجـرّاتِ؟ الحـديقةُ
لا ضياءَ بها. وفي الـبُعْدِ البحيرةُ لاءمَتْ أمواهَها في البردِ والتمّتْ.
أصيّادون؟ هل ذئبٌ يُقَضْقِضُ عُـصْـلَـهُ؟ أم أنني أتوهَّـمُ الأشياء؟

(٣)

لكنّ هذا الضوءَ يأتي. بل أكادُ الآنَ ألْـمُـسُـــه. يكادُ الضوءُ
يلسَعُ عينيَ الـيُســـرى. أغادرُ فَرْشَـــتي، وأُطِلُّ بين ستارتَينِ.
الضوءُ غَـمّـــازٌ، وتلك الدوحةُ الجرداءُ تُفْسِحُ مَنفَذاً. أحسستُ
أنّ زجاجَ نافذتي الـمُضاعَفَ صارَ فضّـيّـاً، وأني في الـمَـدار.

(٤)

يا مرحباً!
يا مرحباً بكَ، أيها الضوءُ البعيدُ، شقيقُ روحي!
مرحباً!
والآنَ أتبَعُكَ. . .
السبيلُ إليك أنتَ.
النورُ يجعلُني خفيفاً، طائراً
والنورُ يجعلُني شفيفاً.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لحظةً، وأكونُ خارج بُرجيَ الـحَجريّ.
سوف أكونُ أنت!

لندن، ١٩/ ١١/ ٢٠١٠

رباعية على الطويل

تسيرُ بعيداً أنتَ . . .
أبعدَ، ربما، من البرقِ
أو مما تريد الملائكُ

تسير بعيداً
لم تفكرْ للحظةٍ
بأن تتروى، آنَ ترغو المهالكُ

سعيداً، تقيمُ الليلَ
أسعدَ، فارهاً، نهاراً
وتصغي:
تلكَ، تلكَ، السنابكُ

يليقُ بك التاجُ الذي ليسَ مثلَهُ
نضارٌ
و غارٌ
وهو دامٍ وشائِكُ!

على الطائرة - برلين - ستوكهولم، ٠٢/ ٠٤/ ٢٠١١

زهرةُ الـنَّـوّام

يَمُرُّ «أبو الخصيبِ» كما تمرُّ النوارسُ
ليتَها هدأتْ قليلاً
لأعرفَ كيفَ أذكُرُها . . .
فأُذْني الذراعَ أُمَسِّدُ الريشَ الـمُوَشَّـى
وأستافُ الشميمَ . . .
«أبو الخصيبِ» النخيلُ الرَّطْبُ
والسَّمَكُ
الهجيرُ
ونعمةُ الأنهارِ . . .
بيتي
وبستاني الذي أخذوهُ حَرْبا . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سأجرحُ زهر ةَ النّـوّامِ
حتى أدوخَ مُهدهَداً
فأرى السماءَ التي خُطِفَتْ
وأسبحَ في مياهي . . .

٢٠١١/٠١/٢٨

شجرة مطّاط

لا تلمُسْ أوراقَ الشجرةْ
لا تلمُسْها. . . أرجوك!

هذي الشجرةْ
هي للطاهرِ وَطّار. . .

وأقولُ لـ «حِرْزِ الله»
أقولُ لـ «رزّاقي»
تحديداً:
ليس لأيٍّ من إنْسٍ أو جِنٍّ، حقٌّ في أن يلمُسَ هذي الشجرةْ!

الناسُ يقولون:
الطاهرُ
كان يُكاثِرُ أشجارَ المطّاطِ. . .
حسناً!
لكنّ الطاهرَ ما كانَ يُكاثِرُ مالاً
والطاهرُ لم يجمعْ مالاً لِـيُعَـدِّدَهُ،

إن الطاهرَ في أرضِ الشهداءِ المنسيّينَ
وَلِـيٌّ.

والآنَ أقولُ لِرزّاقي
رزّاقي تحديداً (وهو ابنُ شهيدٍ):
يا رزّاقي
إنْ زرتَ البيتَ الـمُخْضَرَّ عميقاً من أشجارِ المطّاطِ
بيتَ الطاهرِ
حيثُ شرِبْتَ نبيذاً ورديّاً في رَمضان
فلْتقرأْ:
إن الطاهرَ صوتُ الله!

لندن، ١٦/ ٠١/ ٢٠١١

طُـهْـرٌ

لِكَسْتَنــاءِ الضواحي اشتقتُ في ســفَري
لا نخلةُ اللهِ شـاقَتْني
ولا الأَثَلُ
ولا ذوائبُ لَبلابٍ
ولا قمرٌ يلاعِبُ الماءَ. . .
قالوا: ثَـمَّ فاخِتَةٌ تأوي إليكَ مساءً،
قلتُ: مُـنْـتَـبـذي مأوى العذارى ذواتِ الريشِ
لا قِـططٌ قد آنَـسَـتْـني
ولا ليلى تُرَطِّبُ لي مَتْنَ الفِراشِ
فلا نُعْمى
ولا قُبَلُ. . .
كأنّ قُطْنَ فراشــي حينَ ألـمُـسُـهُ
سجّادةٌ بالبياضِ الـمَـحْـضِ تحتفلُ!

لندن، ١٩/ ٠٥/ ٢٠٠٥

عِنـاد

إلى أين تذهبُ هذي الطيورُ؟
المساءُ الذي يَكْفَهِـــرّ يُغادِرُ ما كانَ يُسْـمى السماءَ
لقد همَدَ الكونُ. . .
تلك الطيورُ التي ذهبتْ لم تَعُدْ تملأُ اللوحةَ.
الكونُ أعمى
ولكنني سأُلَـمْـلِمُ نفسي
وأشلاءَهُ
سوفَ أُبْريءُ ذاك العمى
وأتابعُ تلك الطيورَ التي ذهبَتْ
في مساءٍ
بلا رفّةٍ أو ســماء.

لندن، ١١/١٢/٢٠١٠

غِبْطـةٌ

أصابعُ القَدَمِ اليســرى، تُـنَـمِّـلُ. . .
جسمي واهنٌ
وعلى مَشْـتى البسيطةِ، كان الليلُ
أطولَ حتى من مُعَلَّقةِ امرىء القيسِ
كان الليلُ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أنهضُ
أخطو
أنثني وجِلاً، مستَنفَداً، صوبَ شُبّاكي
وألـمُسُــهُ
لعلَّ روحَ الزجاجِ. . . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

الليلُ يَـثْـخُـنُ
حتى في البحيرةِ أمسى الماءُ
لوحَ رصاصٍ.
لا أرى أحداً في الـبُعْدِ
لا ضوءَ
لا نَوءَ
لا أغصانَ....
أدخلُ في بعضي
أُلَـمْـلِـمُ، مثلَ المصطفى، الـخُـصُـلاتِ البِيضَ
أضفِرُها
تاجاً
وآوي إلى عرشـــي
وأغتبِطُ.

لندن، ١٩/ ١٠/ ٢٠١٠

غرفة شيراز

أقولُ لشيرازَ:
أنتِ تعيشينَ في غرفةٍ واحدةْ
بضواحي المدينــةِ، حيث قطاراتُ برلينَ تهمدُ في آخرِ الخطِّ.
هل تكتفين بهذا؟
هل تظلّينَ طولَ حياتكِ في الغرفةِ الواحدة؟
لا صديقٌ يؤانسُ وحشةَ عُمْرِكِ يا بِنْتَ سعدي
و لا من صديقةْ؟
هل تَجَـمّـدَ عُمْرُكِ في اللحظةِ الصِّفْـرِ؟
هل أنتِ مثلي؟
ولكنني بين حينٍ وآخرَ أخرجُ من سجنِ هذا الزمانِ العجيبِ
وأركضُ في شارعِ الليلِ وامرأةً من عَدَنْ. . . .
أنا أقهَرُ هذا الزمَنْ!
فافتحي، يا بُـنَـيّــةُ أبوابَ غرفتِكِ الواحدة،
واخرجي. . .
نتنسّــمْ معاً ما أتانا بهِ، اليومَ، هذا الربيع!

استكهولم، ٠٦/ ٠٤/ ٢٠١١

متفائلاً أحـيـا

يموتُ الشيوعيُّ
لكنّ حُلْمَ الشيوعيّ أجملُ من أن يموت. . .
البيوتُ لساكنِها
والحقولُ لحارثِها
والأغاني لِمَن لا يُطيقُ السّكوت. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
إذاً: لن يموتَ الشيوعيُّ
إنّ الشيوعيّةَ الـحُـلْمَ أبعَدُ من أن تموت. . .

لندن، ٠٦/ ١٢/ ٢٠١٠

مُـتَـوازيـات

لا تعاتِبْني، وإلاّ سِـرْتُ عن كُلِّ الـمُـكَـلاّ
(واعتذاري من أبي بَكْرٍ) وإنْ كانَ استَهَــلاّ!
سوف تأتي عدَنٌ، هادئةً في موجةٍ،
شِيحاً،
وكاذِيّاً،
و فُلاّ. . .
ونساءً يرتدِينَ النَدَّ، والـخُضرةَ، والدِّرْعَ شفيفاً
وأفاويهَ الـمُكَـلاّ.
عدَنٌ تسكنُ ما أسكنُهُ حتى وإنْ أوطأْتُ ظِلاّ. . .

*

لَكأنّ هذا الثلجَ يهبِطُ منذُ آبادٍ، كأنّ الثلــجَ يكتبُ هذه الدنيا، ويُعْلِنُها له، بيضاءَ، مملكـةً كأنّ العشبَ والأشجارَ والأطيارَ لم تكُنِ. . .الهواءُ يَشِفُّ، لكنْ ليسَ من متنَفّسٍ. قمرٌ كبيــر.

*

هل أرى، ثانيةً، ما كان يُسْمى ســاحلَ العشّاقِ؟
كانت عدَنٌ تصنعُ في الليلِ نهاراً غامضاً. كانَ الهواءُ

الرّطْبُ سِـرِّيّاً. زهوراً وثماراً إستوائيّاتٍ. الليـلُ
ثخينٌ. سوفَ نمضي في مضيقِ الـحُبّ والفودكا عميقاً.

*

من أين يأتي كلُّ هذا الصمتِ؟ حتى الريحُ صامتـــةٌ.
ومَن أسْمَيتُـهُـم بَشَـراً، وجيراناً، كما في أيِّما لُغَةٍ
تبَدَّوا مثلَ ما بدت التماثيلُ الغبيّةُ. ليس يُرجى الصوتُ
مـمّن ظلَّ يحفرُ قبره متمهِّلاً. والثلجُ عادَ الآنَ يسقطُ.

*

لا تَقُلْ: قد ذهبتْ (في ما يُسَمّى عرَباً بائدةً، أو في الأغاني)
عدَنٌ...
نحن، و أعني فقراءَ الأمّةِ، اخترْنا لها أن تغدوَ الغايةَ والمسرى.
بنَيناها كما تبني ذراعٌ أختَها.
سوف نراها مثلَ ما شِئنا لها:
شِيحاً،
وكاذِيّاً،
و فُلاّ...
ونساءً يرتدِينَ النَدَّ، والـخُضرةَ، والدِّرْعَ شفيفاً
وأفاويهَ الـمُكَـلاّ.

.....

.....

.....

سنراها عدَناً!

*

والثلجُ يدفِنُ في الشمالِ البربريّ، الناسَ والتاريخَ. . .
يدفِنُ ظِلَّهُ
وضَبابَهُ،
الثوراتِ
والكتُبَ العظيمةَ
حيثُ كانت، فكرةً، أو هاجساً، عدَنٌ. . .

لندن، ٠٧/ ١٢/ ٢٠١٠

---

* أبو بكر هو أبو بكر سالم، والبيت الأول من مستهَلّ أغنيةٍ له

محاولةٌ في الهدوء

في المطار، ببرلين
كانَ الربيعُ بثاني صباحٍ
وكانت خدود الصبايا النحيفات تدفأ
أنت، كما لم تكن فبلُ، تجلس وحدكَ
لا تنتظِر. . .
ولأقل لك ياصاحبي الجهم لا تنتظرها
لقد غرقت منذ شهرٍ
هنالك
حيث الرمال مخططة بالأفاعي.

برلين، ٠٢/٠٤/٢٠١١

محطّةُ قطارِ أَكْسِبْرِجْ

تغمغِمُ إذْ أُقَبِّلُها طويلاً
على بابِ المحطّةِ. . .
ثم تمضي، وقد سحبَتْ حقيبتَها القماشَ
ولم تقُلْ حتى وداعاً. . .
أتحسَبُ أنني قد ضِقْتُ ذَرْعاً بها؟
واللهِ
سوف أظلُّ آتي
إلى بابِ المحطّةِ. . .
سوف أبقى هنالك ثابتاً
ليلاً
نهاراً
فقد تأتي، وقد شَدّتْ بحبلٍ، حقيبتَها القماشَ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أُحِبُّ لِيْزا!

لندن، ٠٤/١٠/٢٠١٠

مرثيّـةٌ للشيـخ خزعل

ستظلُّ «كُوتُ الزّينِ» تومىءُ، في الظلامِ اللندنيّ، إليّ:
كَوناً من بساتينِ النخيلِ، ومن ضَبابِ النهرِ. كان الشيخُ
خَزْعَلُ في «الـمُـحَـمّـرةِ». التميميّون من كنعانَ كانوا
في قِلاعِ الطينِ، أعني في منازِلِهم بـ «كوتِ الزَّينِ»،
يَرْتَـصّونَ: خَطٌّ للدفاعِ عن العراقِ الأوّلِ الـعربيّ. . .
«كوتُ الزّينِ» نحنُ، ومِثلُها تلكَ «الـمُـحـمّـرةُ».
الأنينُ الآنَ يَعبرُ من هناكَ إلى بيوتِ تميم. الشيخُ التّـقِيُّ
يموتُ مسموماً بما مَخَضَ الطبيبُ الإنجليزيّ. الأنينُ يغورُ
حتى يبلغَ الآبارَ في
«باب الزُّبَيرِ». سيستريحُ الشيخُ خزعلُ
من سلاسـلِهِ، ولكنّا سندخلُ في سلاسلنا الجديدةِ.
دجلةُ العوراءُ قد عَـمِـيَتْ
وجاءَ الإنجليزُ.

لندن، ٢٦/ ١٢/ ٢٠١٠

مسوّداتٌ سريعة

اليومَ، سأكتبُ بضعةَ أبياتٍ
عاثرةٍ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
مثلاً أكتبُ:
غاباتُ استكهولمَ مغطّاةُ العشبِ بثلجٍ رخوٍ حتى الآن
أكتبُ
أمسِ قطعْنا البحرَ المتجمدَ كالآيس كْرِيم لنبلغَ أكواخَ الخزرجِ
أكتبُ
إني نمتُ أخيراً وعميقاً
بعد ثلاث ليالٍ من سُهدٍ أعمى في شهرٍ أعمى
أكتبُ عن ورقٍ يتناثرُ في الريحِ
لن أغلقَ نافذتي.
أكتبُ: طنجةُ بيتي.
أكتبُ
إني أكرهُ رملَ بلادِ العربِ

وأفاعي الرملِ بأرضِ العربِ
أكتبُ
إن عراقاً ميْتاً
يولَدُ ميْتاً
ويظلُّ عراقاً يولَدُ ميْتاً
حتى القرنِ الثاني والعشرين.

استكهولم، ٠٤/ ٠٤/ ٢٠١١

مصرُ البهيّةُ أمُّنا جاءت إلى الساحة

إلى أحمد فؤاد نجم

مصرُ البهيّةُ، أمّـنا، جاءت إلى الساحةْ
مصرُ البهيّةُ، أشرعتْ للريحِ، طَرْحتَها
ودارتْ رايةً، بالفُلّ والبارودِ، فوّاحةْ
مصرُ البهيّةُ، أُمُّـنا، جاءتْ إلى الساحةْ

*

وتكونُ أنتَ
كما عهدتُكَ، يا رفيقَ العُمرِ
محترقَ الـخُطى، في ساحة التحريرِ
ما أبهى النضالَ
وأقبحَ الراحةْ!
مصرُ البهيّةُ، أمُّـنا، جاءتْ إلى الساحةْ.

*

إني أراكَ هناكَ
بالكوفيّةِ الرقطاءِ
والعَـلَـمِ الفلسطينيّ. . .

بالـحُلْمِ الذي غلغلتَهُ، جيلاً فجيلاً، في منابتِ مصرَ
يا أحمد فؤاد النجم. . .
هاهي ذي القيامةُ آذَنَتْ:
مصرُ البهيّةُ، أُمُّـنـا، جاءتْ إلى الساحةْ!

لندن، ٣٠/ ٠١/ ٢٠١١

مياهٌ تَعِجُّ بالكواسِـج

السماءُ التي تَـدَّنـي غيمةٌ من رصاصٍ وزئبقْ.
كانت الأرضُ في البدْءِ
ماءً
ورملاً يَشِـفُّ مع الضوءِ ماءً.
أجئتَ إلى الشاطىء المتوحِّشِ مِن قَبْلُ؟
هل أدركتْ مقلتاكَ الطريقَ أم القدمان تقودانِكَ؟
الآنَ
أنتَ هنا. . .
وعليكَ العبورُ:
إلى أينَ؟
حتى الإلهُ الذي كان سَوّاكَ
يعرفُ أن العبورَ الذي لا يؤدِّي، هلاك. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لِتَقُلْ:
فَـلْـيَـكُنْ!

والمياهُ التي ضَـحْـضَـحَـتْـها الكواسجُ
سوف تظلُّ الـمَـخـاضـةَ
حتى الوصول. . .

لندن، ٢٠/ ١١/ ٢٠١٠

نخّاسو عُمان

إذا أتـيـتَ عُـمـانـاً أو سـكـنـتَ بـهـا
يومَينِ، فالشرُّ في المأتى وفي السَّكَنِ
قـومٌ بـلا ذمَّـةٍ، لا شـأنَ يـؤنـسُـهـم
إلاّ حـديـثٌ عـن الأسـلابِ والـهُـجُـنِ
وعـن أرِقّـاءَ تـاهـوا فـي الـرمـالِ وعـن
سـفـيـنـةٍ جَـنَـحَـتْ فـي فَـرْضـةِ الـيَـمـنِ
مـا كـنـتُ أدري وقـد يـمّـمـتُ سـاحـلَـهـم
أنـي سـأصـحـبُ نـخّـاسَـيـنِ فـي زمـنـي
الـحـارثـيَّـيـنِ: عـبـدُ الـلّـه أوَّلُـهُـم
أمّـا مـحـمّـدُ فـهـو الـمـبـتـلـى بِـهَـنِ*
شـادا الـمـخـيّـمَ فـي رمـلِ الـوُهَـيْـبـةِ فـخّـاً
لـلـنـسـاءِ الـجـواري الـبـيـضِ والـفِـتَـنِ
فـي «ألـف لـيـلـةَ» دَيّـوثٌ وعـاهـرةٌ
زانٍ، وزانـيـةٌ، فـي الـسـرِّ والـعـلَـنِ
لـو أُبْـلِـغَـتْ شـرطـةُ الـسـلـطـانِ أمـرَهـمـا
لَـنـكّـلَـتْ بـهـمـا، كَـلْـبَـيـنِ فـي قَـرَنِ

لا بــارَكَ الــلّــهُ فــي أرضٍ تَــسَــيَّــدَهــا
خُـلـقُ الـضـبـاعِ وخَـرقُ الـمـنـبِـتِ الـنـتـنِ:
«سـمـاءُ عـيـسـى» تـخـلّـى عـن قـصـائـدِهِ
وآثَـرَ الـعـيـشَ قـوّاداً. . . لِـمُـمْـتَـحَـنِ*

برلين، ٢٥/٠٣/٢٠١١

---

* محمد الحارثيّ مبتلى بداءٍ في مؤخّرته.

* الممتحَن هو عبد اللّه الحارثيّ المدمن على الكوكايين والماريجوانا.

* سماء عيسى كان قوّاداً فعليّاً وببرودة دمٍ عجيبة.

نشيدُ ساحة التحرير

في «ساحة تحرير» الله نقيمُ
نُقيمُ مساءَ صباحَ
نقيمُ صباحَ مساءَ
نقيمُ إلى أن نجعلَ من إسمِ عراقٍ وطناً. . .
بغدادُ المحروسةُ بالإسمِ الأعظمِ
بغدادُ المحروسةُ بالشعبِ
المحروسـةُ بالعمّالِ
المحروسـةُ بالطلاّبِ
المحروسـةُ بالجنديّ (وإنْ دَرَّبَهُ الأميريكيّون). . .
بغدادُ المحروسةُ بالإسمِ الأعظمِ: بغداد
ستجعلُ من إسمِ عراقٍ وطناً
وطناً حُرّاً
وسعيداً. . .

لندن، ١٣/٠٣/٢٠١١

نهارُ أربعـــاء

النهارُ اختبأتْ غزلانُهُ في وهدةِ الدّغْلِ. ومنذُ الصبحِ كانت عَتْمةٌ ليليّةٌ. لا صوتَ من طيرٍ ولا خطوةَ من طفلٍ، ولا هفَّةَ ثوبٍ. قطّةٌ مثقلةٌ في جانب السور أرَتْني أنّ ما أشهدُهُ ليس خرافيّاً. هو المشهدُ يومَ الأربعاءِ. النسوةُ اعتَدْنَ طوالَ العُمْرِ ما اعتَدْنَ: لقاء الشاي في القاعةِ حيث الشاي يبدو عكِراً، نصفَ حليبٍ، فاتراً... سوف تجيءُ اليومَ فِكتوريا بما قد وعدتْ:

كعكاً بلا طعمٍ و لا لونٍ. ستصطفّ الكراسي، مثلَ ماكانت هنا، منذ الثلاثيناتِ. حتى ورقُ الحائطِ منقوشٌ بما أبدعَه أهلُ الثلاثيناتِ. في الزاويةِ المذياعُ. لا صوتَ، ففي الآذانِ وقْرٌ من دبيب العُمْرِ. مَنْ يأتي هنا في غفلةٍ كي يقلبَ المشهدَ؟

شيءٌ واحدٌ:

سيّارةُ الإسعافِ...

لندن، ١٦/٠٣/٢٠١١

هاجسٌ

لستُ أدري كيف أفلَتُّ من استكْهولـمَ. . .
شيءٌ في هواء الغرفةِ؟
الأشجارُ إذْ أُبصِـرُها سـوداً؟
رُكامُ الثلجِ؟
أسواقُ البلادِ الإستوائيّةِ؟
أصحابي العراقيّون؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أحسستُ بأني ضائعٌ في ساحةٍ ليس لها إسمٌ
وأني جائعٌ
مرتجفٌ برداً. . .
وأن الطائراتِ ابتعدتْ في لحظةٍ.
أني سأبكي. . .
أنّ قبري جاهزٌ في ساحةٍ ليس لها إسمٌ
وأني. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

لستُ أدري كيف أفلَتُّ من استكهولم!

استكهولم، ٠٧/ ٠٤/ ٢٠١١

هل التبَسَ عليّ الليلُ؟

ليسَ لديّ الليلةَ ما أتذكّرُهُ
ليس لديّ حقائقُ:
أعني، مثَلاً، أنّي لا أتذكّرُ أين وُلِدْتُ
أو أنّ الخبزَ ضروريٌّ. . .
أو أنّ شيوعيّةَ ماو تسي تونغ هي الأجملُ!
أحياناً ندخلُ في نفَقٍ يدخلُ في أنفاقٍ
هل نتفكّرُ؟
رُبّتَما كان الخيرُ لنا ألاّ ندخلَ في النفقِ الأوّلِ. . .
ربّتما كان الخيرُ لنا أن نهتفَ:
إن شيوعيّةَ ماو تسي تونغ هي الأجملُ!
أو أنّ شعارَ مظاهرةٍ هو:
نحن نريدُ الخبزَ. . .
وربّتما كان عليّ، تماماً، أن أتذكّرَ أينَ وُلِدتُ،
عليّ القولُ:
وُلِدْتُ جنوبيّ البصرةِ
في بلدٍ، كان يُسَمّى في المخطوطاتِ، عراقاً. . .

(لا أدري كيف أُسَمِّيه الآنَ)

علَيّ القولُ:

دمي من أجْلِ عراقٍ لا يحكمهُ الأميريكيّون. . .

لندن، ١٤/ ١١/ ٢٠١٠

يوم القيامة الأبيض

متحصِّناً خلفَ الزجاجِ، أراقِبُ الـمَـمْـشى يغيبُ
الساحــةَ الـقَوراءَ تُقفِرُ
والصنوبرةَ التي كنتُ ازدرَعْتُ تصيرُ بيضاءَ. . .
العناكبُ لم تَعُد، لكنّ ما تركتْهُ من وَشَـعٍ بَدا مثلَ الزجاجِ مُـعَـنْـقَداً
ماســاً خفيـفــاً قد يُزَيِّنُ جِيدَها (تلكَ الأَميرةَ).
ليس من صوتٍ
كأنّ الريحَ تحمِلُ كلَّ هذا الثلجِ متعَــبــةً.
كأنّ الأرضَ تنتظرُ النهايــةَ، مَدَفَــنــاً تحتَ البياضِ.
كأنني وحدي أتابعُ مشهدَ اليومِ الأخيرِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أليسَ من أمَلٍ لنا؟
فقراءُ هذي الأرضِ، نحنُ. . .
ستنتهي الدنيا، ولَم نفرَحْ بها يوماً
ولم تَفرَحْ بنا!
فَـلْـيأتِ هذا الثلج
كلُّ الثلجِ. . .

لندن، ١٨/ ١٢/ ٢٠١٠

أنا بَرلينيّ؟: بانوراما

Ich Berliner ? : Panorama

(٢٠١٠)

عن هذه المحاولــة في النصّ الشِّعريّ

كتبتُ هذا النصَّ، محاولةً، في القصيدة العربية غير التقليدية كما أراها، أي القصيدة الخارجة على اللعنة الثنائية الناشبة.

الأمرُ، هنا، أعقدُ من قصيدةٍ متعددةِ الأشكال.

إنها محاولةٌ في الحريّة.

قلتُ مرّةً إنني مُدَوِّنُ حياةٍ، ولستُ شاعراً.

كنتُ أريدُ القولَ إنني لا أنتسبُ إلى رطانة السائدِ وانبِـتـاتِه.

كتبتُ «بانوراما» وأنا في برلين بين الأول من حـــزيران ٢٠١٠ والأول من أيلول العام نفسه.

ومثل ما فعلتُ في نيويورك، آنَ كتبتُ «قصائد نيويورك»، وفي إيطاليا حين كتبتُ «الديوان الإيطاليّ» وفي باريس و«قصائد باريس» - كنت أخرجُ صباحاً، مع دفتري، لأرى برلينَ الناسِ تستيقظ.

عليّ أن أستقبلَ. أن أُرهِفَ حواسّـي. أن أُحِبَّ العالَمَ.

أليس هذا كافياً؟

ما الشِعرُ، إذاً؟

سـعدي يوسـف

حكاياتُ البحّـارةِ الغُرَبـاءِ

١-

بحّارةٌ غرباءُ نحنُ، بمرفـأٍ يعلوهُ بُركانٌ. . .
هبطْنا منذُ عهدٍ لم نَـعُـدْ نتذكّرُ الأيامَ فيهِ، ولا تفاصيلَ النزولِ
برملِ هذا الشاطئِ المملوءِ صخراً ناتئاً تعلوهُ أشواكُ القنافذِ،
والطحالبُ. . .
ربّما كان النزولُ
الفجرَ. . .
والتأريخُ؟
قبلَ كتابةِ التاريخِ؟
قبلَ الكهفِ، والحيوانِ مرسـوماً؟
أنحنُ خرافةٌ، أمْ أننا، فِعلاً، أُناسٌ مثل كلِّ الناسِ؟
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
نعرفُ أننا، فعلاً، هنا
بحّارةٌ غرباءُ
جاؤوا مرفأً في ظلِّ بُركانٍ. . .

ونعرفُ أن هذا المرفأَ المشؤومَ يشبهُ ما تَناقَـلَـهُ الربابنةُ القدامى عن مرافئ تختفي في البحرِ أزماناً، لتَطْـلُـعَ مرةً أخرى، قذيفةَ فُوّهاتٍ من وحوشِ البحرِ، أو حِـمَـمِ البراكينِ. . .

المرافئ؟

هل نسمِّـيها مرافئ؟

فَـلْـيَـكُـنْ!

ولْـنَمْـضِ فيها، مثلَ ما نمضي، سكارى بالذهولِ

مُـدَوَّخينَ بِما طَـعِـمْـنـا من قـواقعَ

أو شـربـنـا من نقيعِ الزعترِ البرّيّ والموزِ. . .

المساءُ مساؤنا:

فَـلْـنوقِـدِ الحانات!

٢-

في برلين

أذهبُ إلى ٧٧ شارع تي تي زِي شتراسّـه

77 titisee STR.

الحافلةُ في الموقف (الأخير) تطْلِقُ موسيقى عاليةً، ويرتفعُ صوتُ سيّدةٍ بالألمانيّةِ ثمّ بالإنجليزيةِ:

الرجاء مغادرة الحافلة!

قبل أن أستقلّ الحافلةَ رقم ١٢٢، كنتُ وصلتُ محطةَ مترو فِيتيناو، الخطّ ٨

Wittenau

فيتيناو هي المحطة الأخيرة على الخطّ ٨.

هنا أيضاً، كنتُ سمعتُ موسيقى عاليةً، وصوتاً عذباً يأمرني بمغادرةِ القطار.

النهاياتُ دائماً.

دائماً في الأقاصي.

*

في لندن، أعودُ من ساحة «الطرف الأغرّ» وسطَ العاصمةِ الإمبراطوريةِ إلى منزلي (؟) بالضواحي.

أنا أسكنُ هيرفيلد التي بأعلى التلّ.

Harefield

سآخذ خطّ «البيكاديللي» الأزرق، إلى محطّته الأخيرةِ، إلى أكسبْرِجْ

Uxbridge

من محطةِ المترو الأخيرةِ على خطّ «البيكاديللي» الأزرق، أستقلُّ الحافلةَ رقم

U9

التي تُبْلِغُني هيرفيلد. . .

حيثُ مستشفى القلب الشهيرُ، والسير مجدي يعقوب.

يقالُ إن ثمّتَ تمثالاً للطبيب المصريّ.

لم أرَ التمثالَ.

لا أدري أين وضعوه.

قالوا: التمثالُ على السقفِ!

*

الحافلةُ، تتوقّف، في موقفِها الأخير.
أهبطُ.
أذهبُ إلى المنزل (منزلي؟)
النهاياتُ دائماً.
دائماً في الأقاصي!

٣-

في الفجرِ
قبلَ الفجرِ...
لاحتْ نجمةٌ. واليوم بَدْرٌ قالَ:
إنّ قبلَ الصباحِ نجمَ الصباح...
في الفجرِ
قبلَ الفجرِ...
نتركُ عَتْمةَ الحاناتِ. آخرُ شمعةٍ في حانة «المستقبلِ» انطفأتْ...
وعالَـمُـنـا يعودُ إلى عماهُ
إلى العماءِ الأوّلِ...
ابتهِجوا، جميعاً، أيها الأنذالُ
هذا الكوكبُ المرتدُّ عادَ إلى طبيعتِهِ
ورأسُ المالِ عادَ، متوَّجاً، بنتيفِ كارل ماركس...
لِـحـيتِهِ...
وما تركَ الشيوعيُّ الأخيرُ من الغماغمِ

قِفْ، ولو دهراً. . .
وقِفْ
تسمعْ:
صحيحٌ أننا في مرفأِ البركانِ. . .
لكنّا. . . برابرةٌ
وأوباشٌ
قراصنةٌ، وأجملُ. . .
سوفَ نأخذُ عالمَ التجّارِ من أُذُنَـيـهِ
ثانيةً.
نُـمَـرِّغُـــهُ بأوحالِ الدراهمِ
والخراءِ المصرفيّ. . .
وسوفَ نغرزُ حولَ تربتِهِ
رماحاً
أو نُباحاً من كلابِ قُرىً. . .
سنكونُ: نحنُ!

٤-

وأنتَ تقطعُ باديةَ السماوةِ، حيثُ قُتِلَ المتنبي، تبدو الباديةُ، حمادةً، قاسيةً، لا معالِـمَ فيها. لا نبْتٌ ولا شجرٌ نَـكَّبَ أبو محسَّدٍ، السماوةَ والعراقَ يوماً:
تركْنا من وراءِ العيسِ نجداً

ونَكَّـبْـنا السماوةَ والعراقا. . .
فجأةً، من وهدةٍما، تلمحُ شجراً، ربما كان أثَلاً.
ثم تنحدرُ الحمادةُ إلى قلعة الجنرال جلوب، جلوب باشا، الملقّب «أبو حنَيك» بسببِ تشوُّهٍ طفيفٍ في حِنكِه.
إنها نقرة السلمان. . .
السجن الصحراويّ
والقلعةُ التي تصدُّ الجِمالَ الوهّابيّةَ الـمُغيرةَ.
هنا أيضاً ذوى مهزومو ثورة العشرين، ومعارضو الهاشميين وحكوماتِ نوري السعيد.
هنا كان فهدٌ.
والناجون من قطار الموت في ١٩٦٣.
هنا كان مظفّر النوّاب.
وهنا أقمتُ.
عشرون برج مراقَبةٍ، تعلو السورَ.
الماءُ يأتي في صهاريج سيّاراتٍ، تقطع صهدَ الباديةِ، لتمنحنا ماءَ الحياةِ، عبرَ أنبوبٍ يُدَسُّ في فتحةٍ أسفلَ السورِ.
كان وعدُ الله يحيى، بجانبي، لحظةَ وصولِ الماءِ. . .
في الصباحِ سوف يأخذون وعدَ الله يحيى إلى بغداد، لـيُشـنَقَ.
مديرُ السجن، التركمانيّ، سيأتي في جولة تفتيشٍ.
علينا أن نلزمَ رَدهاتِنا.
قال لنا رفاقُنا: نستقبلُه واقفينَ.
*

أحياناً أذهبُ إلى القلعةِ القديمةِ، المهجورةِ الآنَ.
إنها النزهةُ الوحيدةُ.
في المساء، تبدو النجومُ أشدَّ سطوعاً من مصابيح السجن.
*
أتذكّـــرُ أنني كتبتُ في أواخر الستينيات قصيدةً بعنوان «قصيدة وفاءٍ إلى نقرة السلمان» بعد أن قيل إن السجن أُغلِقَ نهائياً.
الأمرُ لم يحدُث البتّةَ.
كانت «نقرة السلمان» مثل استراحةِ المحارِب.
نبلُغـها كما نبْلغ واحةً بعد رحلة العذاب والتعذيب.

٥-

قالوا لنا:
البحّارةُ السوفييت، سوفَ يخيّمونَ، الليلَ، في الدامورِ.
ثمّ يحَصّـنونَ مداخلَ الدامورِ، فجراً، والسلالِـمَ...
نحن صدّقْنا.
وقد أمضَيتُ، في أملي، أنا، نفسي، أصيلاً دابقاً، في غرفةٍ نزعتْ نوافذَها القذائفُ. كنتُ أُنتظرُ الزوارقَ.
كان حيدر صالح، والتوأمانِ، وزوجةٌ عمياءُ ينتظرونَ مثلي...
كان شيء كالندى، رطْبٌ، يُزَلِّقُ خطوتي أعلى السلالـمِ.
كنتُ أقولُ: كُنْ أعلى، لتبصِرَ أوضحَ.
البحّارةُ السوفييت!
*

في عدَنٍ
وفي رملٍ بساحلِ أبْيَنَ . . .
انفعَ الحديدُ مزمجراً . رتْلٌ يداهمُنا ، ودبّاباتُه تُختضُّ هادرةً .
وفوقَ رؤوسِنا صلياتُ رشّاشٍ تؤزئِزُ . . .
تِتْ- تِـتِـتْ -تِتْ-تِتْ- تِتْ-تِـتِتْ- تِتْ- تِتْ
ونقفزُ في زوارقَ ضحلةٍ .
قد أرسلَ السوفييتُ ، يا ولدي ، سفينتَهم ، أخيراً .
كنّا بقاعِ سفينةِ الشحنِ .
الحبالُ دبيقةٌ ، سوداءُ ، بالزيتِ .
الحبالُ أريكةُ الغرباءِ .
نحن ، إذاً ، هنا ، البحّارةُ!
البحّارةُ الغرباءُ نحنُ . . .
وسوف نسألُ في الطريقِ إلى رصيفِ اللاذقيةِ
عن مبادئنا ،
عن الخبزِ البريءِ
ومَوثِبِ الأسماكِ في الليلِ المبكِّـــرِ . . .
*
إننا البحّارةُ الغرباء

سـفينـةُ الأشـباحِ

مسـرحيّةٌ في فصلٍ واحدٍ

الأشخاص:

نوريّة (صاحبة الحانة)

نوري (بحّارٌ متقاعدٌ)

القبطان غوري (صوتٌ فقط)

المكان: حانةٌ على البحر.

الديكور: طاولتان وأربعة كراسي من الجريد أو الخيزران.

يُستعمَل الخيشُ للستائر وسواها، والقصب أيضاً.

(نوريّة خلف البار، جالسة على كرسيّ عالٍ. يظهر نصفُها الأعلى فقط)

نوري (يدخل): يا مساءَ الذهب!

نورية (تقف): مَن؟ نوري؟ **(تقبِّلُه على خدِّه)**: قالوا إنك مفقودٌ...

نوري (مع ضحكةٍ خفيفةٍ): أنا؟ هل سمعتِ بشمسٍ فُقِدَتْ في أحد الأيامِ؟

نورية (مداعبة): الشمسُ مفقودةٌ دائماً في الليلِ يا نوري!
هل تشربُ شيئاً؟

نوري: قهوةٌ سوداء.

نورية (ضاحكة): ماذا جرى؟ قهوة سوداءُ هكذا، مرّةً واحدةً؟

نوري (كالمعتذر): أسمَعوني كلاماً كثيراً عن الأكبادِ، يا نوريّة...

نورية: لكنك لم تشربْ من ماء النيل! أنت تشربُ من عروقِ العنبِ! سأحضرُ لك ألذَّ قهوةٍ سوداءَ في العالَم...

(تذهب خلف البار)

نوري: أفضّلُ القهوةَ مُرّةً.

نورية (تأتي بالقهوةِ): هل تعوّدتَ على المرارةِ؟

نوري(يجلس على الطاولة الأقرب من البار ليحتسي قهوتَه):
عوّدوني. مَن يريدُ المرارةَ؟

نورية: والآن؟ ما قصةُ سفينةِ الأشباحِ؟

نوري: هل تقصدين السفينة «نوح ٢» التي غرِقَتْ؟

نورية: نعم. تلك السفينة التي قيلَ إنكَ غرقتَ معها...

نوري: مَن أخبرَكِ أني غرقتُ؟

نورية: القبطان غوري.

جاء إلى هنا قبلَ شهرٍ تقريباً. أفرغَ قنّينةَ فودكا كاملةً... و بدأَ يثرثرُ!

(يُسمَعُ صوتُ رعدٍ خفيفٍ مع مطرٍ منهمرٍ)

القبطان غوري (صوت فقط): قنّينةُ فودكا واحدةٌ لا تحلُّ عُقدةَ لساني...

أنا لم أكن أثرثرُ.

السفينة «نوح ٢» غرقتْ فعلاً...

نورية(نصفُ فزِعـةٍ): نوري!أتسمعُ؟ أهو القبطان غوري يتكلم؟ أرجوكَ. أخبِرْني!

نوري (في هدوءٍ كاملٍ): نعم. صوتُه. الصوتُ النذلُ.

القبطان غوري (صوتٌ عميقٌ): النذلُ مَن استغابَ.

نوري (هادئاً): النذلُ مَن غابَ.

لماذا هجرتَ السفينةَ؟ لماذا تركتَها للريحِ والأنواءِ؟

ألستَ القبطانَ؟

القبطان غوري: عرفتُ أن السفينةَ متهالكةٌ، وأنها لن تكملَ الرِّحلةَ.

نوري (مستنكِراً): لكننا بحّارتُها. كنا قادرينَ على إصلاحِ العطبِ.
غيرَ أنّ «نوح ٢» تظلُّ بحاجةٍ إلى قبطانٍ. قبطانٍ يستدلُّ في الليلِ البهيم.

القبطان غوري: كلامٌ فارغٌ. أيّ نجومٍ هذه؟
السفنُ، اليومَ، تهتدي بالساتيلايت.
وأيّ بحّارةٍ؟
كنتم عُصبَةَ سكارى، وأوباشٍ، ومقامرينَ على نسائكم.
أردتُ أن أنظِّفَ العالَمَ منكم، ومن سفينتكم المنهَكة.

نوري (يضربُ الطاولةَ بفنجان القهوة): هذا الكلامُ يلفُّ حبلَ المشنقةِ حولَ رقبتِكَ السمينةِ...

القبطان غوري (يقهقه): هل قهوتُكَ قهوةٌ خالصةٌ؟
وللمناسَبةِ. نعم. أنا قلتُ لنوريةَ إنكَ مفقودٌ...
بحّارةُ «نوح ٢» جميعاً يُعتبَرون مفقودين.
القبطان غوري لا يكذبُ!

نورية (موجهةً كلامَها إلى نوري وهي جالسةٌ خلفَ البار):
أنتَ المفقودُ، الموجودُ، يا حبيبي
يا نوري...
أتريدُ قهوةً ثانيةً؟

القبطان غوري (متعتَع الصوتِ): افتحي له قنّينةَ فودكا على حسابي...

نوري: هديةُ الخائنِ مسمومةٌ.

القبطان غوري: أنا الآن في كاليفورنيا، يا مسكين!

نوري (يخاطب نورية): أسمعتِ يا نورية؟

لقد أغرقَ سفينتَنا «نوح ٢»

ليكونَ في كاليفورنيا...

نورية: أتقصدُ أنهم اشترَوهُ؟

اشترَوه بالمالِ؟

القبطان غوري: الآنَ

أُسدِلُ الستارَ عليكما

أنتما الإثنين...

أسدلُ الستارَ عليكم جميعاً...

(ينقطع الرعدُ الخفيفُ والمطر)

نورية: اذهبْ إلى جحيمِكَ...

(تخرج من وراءِ البار، وتجلسُ إلى طاولةِ نوري)

ســـتـــــار

كُتِبتْ في برلين بتاريخ ١٢/٠٦/٢٠١٠

هل أنتَ حُـرٌّ؟

ستقول لي: طبعاً!
ولكني سأسألُ أن نُقَـلِّبَ سبعَ أوراقٍ
وقد نمضي معاً، لِـنُـسَـمِّـيَ الأوراقَ أسئلةً:
سؤالٌ أوّلُ
النهرُ الذي أسماكُـهُ ذهبٌ... أتعرفُ ما اسـمُـهُ؟
سؤالٌ ثانٍ
البنتُ التي أحْـبَـبْـتَ... هل ستحبُّها إنْ ضاجعَتْ يوماً سواكَ؟
سـؤالٌ ثالثٌ
ما لونُ وجهِكَ في سياستِنا؟
سؤالٌ رابعٌ
هل خُـضْتَ معركةً؟
سؤالٌ خامسٌ
كم مرّةً سَـوّدْتَ أوراقاً؟
سؤالٌ سادسٌ
هل تأكلُ المعنى، حنيذاً، في ولائمِهِـم؟
سؤالٌ سـابعٌ
أتظلُّ تُـنْـكِـرُني، كما أنكرتَ، في الدكّانةِ السوداءِ، نفسَك؟

برلين، ٢٠١٠/٠٦/١٢

الـــهِـنـــــد

لا احبُّ الذهابَ إلى الهندِ. لكنْ احبُّ الذهابَ إلى الهندِ. لكنني لا أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. إني احبُّ الذهابَ إلى الهندِ. بل لا أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. إني أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. لســتُ احبُّ الذهابَ إلى الهندِ. إني أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. لا. لا أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. هل قلتُ: إني أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ؟ لستُ أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. مَن قـــالَ إني أحبُّ الذهـابَ إلى الهندِ؟ لستُ أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. إني أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. لكنني لا أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. لكنْ أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. لستُ أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. إني أحـــبُّ الذهاب إلى الهند. لا. لا أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. أحببْتُ أحببْتُ أحببْتُ أني أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ.

هل قلتُ: إني أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ؟ لا. لا أحبُّ الذهابَ إلى الهندِ. إني أحـــبُّ. . .

* * *

الـفِـلِـبـيـــن

ستكون الفلبين قريبةً قربَ الخنجرِ والخاصرةِ. مَن أخبرَني وأنا في دمشق، واقفٌ مع آلِ الجواهريّ العظيم أتلقّى التعازي برحيله. . .

أقولُ: مَن أخبرَني، في تلك الساعةِ بالضبطِ، أن ولدي الوحيد، حيدر، قد قضى نحبَه، في الفلبين؟

لا أدري كيف عرف نايف حواتمة بالأمر. . .

قال لي، وهو يشدّ على يدي: طريقُنا طويلٌ!

طريقُنا طويلٌ حقاً، ولسوف يأخذني هذا الطريقُ الطويلُ، بعد أيّامٍ إلى مطار مانيلاّ.

آنذاك، كنتُ بعمّانَ، في فترةٍ شديدةِ الظلامِ من حياتي. وكنتُ أحاولُ التخفيفَ من هول تلك الفترة، بالتنقّلَ مكّوكياً بين عمّان وعاصمة الشـــام العريقة.

ساعدتْني قنصليةُ الفلبين في عمّان بتعجيل منحي تأشيرة دخول، مع أن اليوم كان عطلةً.

في مطار مانيلا، سألوني إن كنتُ أعرف لغة أهل البلد. وحين أجبتُ بالنفي، اكتفَوا بالسؤال الأول.

أرملة حيدر، بَينِي، التي سبقتْ لي رؤيتُها إمّا في نيقوسيا أو تونس العاصمة، كانت في استقبالي مع فردٍ أو اثنين من عائلتها. استقللنا سيارةً متألقةً من ذوات الدفع الرباعيّ، لتأخذنا إلى قريةٍ بأعماق

الفلبين، حيث يثوي حيدر.
أرى هذه البلادَ للمرة الأولى
ولم تكن لديّ في السابق أيّ رغبةٍ في زيارتِها.
كما أنني لم أكن راضياً عن ذهاب حيدر إلى هناك.
كان هاجسٌ عميقٌ يُلِحُّ عليّ في أني لن أرى حيدر ثانيةً.
كنتُ شبه ذاهلٍ. أرى و لا أرى. الأشياءُ تتبدّى لي سراباً أو كالسراب. ليس من شيء حقيقيّ. والشوارع؟ ليس في غالب الفلبين شوارعُ. ثمّت مسالكُ كما في عراق الثلاثينيات. قنواتٌ ومَناقِعُ رزٍّ وجواميسُ والخيزران الجسيم. السيارة تَدْرُجُ لكني أراها تعوم.
نبْلغُ القريةَ الموعودةَ.
كأني أرى قوماً يحتفلون!
بل كانوا يحتفلون، فعلاً، ويلعبون الورقَ، تحت الشجر.
تأخذني «بَيني» إلى حيدر. أرى ولدي ممدّداً، صبيحَ الوجه، ينامُ عميقاً. التابوتُ ذو غطاءِ زجاجٍ. كأني رأيتُ بعوضةً دقيقةً على وجه حيدر. كيف أُبعِدُها؟
تذكّرتُ، بعد طول نسيانٍ، سورةَ الفاتحة. تلوتُها سرّاً كأني أزمزمُ في بيتِ نارٍ.
قلتُ للقوم: توقّفت مراسيمُ الدفن.
لن يدفَنَ، كاثوليكيّاً، في مقبرة البلدةِ.
سآخذه معي إلى دمشق.
حيدر، يثوي الآن، قرب هادي العلوي، والجواهري، في مقبرة الغرباء، بالسيدة زينب.

في الصورة:

حيدر سعدي يوسف ١٩٦٤-١٩٩٥

يتوسّط شيراز من اليمين، ومريم من اليسار.

الصورة التُقِطتْ في العام ١٩٩٠ بتونس العاصمة

لـقـد لامَـنـي عـنـدَ الـقـبـورِ عـلـى الـبُـكـا
رفـيـقـي، لـتَـذرافِ الـدمـوعِ الـسـوافِـكِ
وقــالَ: أتــبــكــي كــلَّ قــبــرٍ رأيــتَــهُ
لـقـبـرٍ ثـوى بـيـنَ الـلِّـوى فـالـدكـادكِ؟
فـقـلـتُ لـهُ: إنّ الـشَّـجـا يـبـعـثُ الـشـجـا
فـدعْـنـي، فـهـذا، كـلُّـهُ قـبـرُ مـالِــكِ

* * *

حمامتانِ حـطّـتــا، في صيفِ برلين
على مبنىً بلا نوافذَ.
الحمامتانِ
كانتا بين الهوائيّاتِ والأطباقِ والسطحِ الـمُـصَـفّى
تبحثانِ
عن بذورٍ
عن بقايا خُبزةٍ
عن قطرةٍ. . .
أسمعُ، في الهدأةِ، منقارَينِ:
تِك
تِكْ
أهِـــيَ الساعـةُ؟
هل دقّتْ على المبنى الذي بلا نوافذَ، الســاعةْ؟

برلين، ١٥/٠٦/٢٠١٠

اللـــوبار العتيق Alt - Lubars

«ضاحيةٌ في شـمالَي برلين»

الخيولُ التي لا نراها
الخيولُ التي قد نراهنُ يوماً عليها
الخيولُ التي تسكنُ المنزلَ الضخمَ، لكنْ بلا عرباتٍ ولا عربنجيّـةٍ
كلُّ تلك الخيولِ المطهّمةِ
ارتضت اليومَ ألاّ ترانا
ارتضتْ، منذ أن وُلِدَ الرســـمُ ألاّ نراها. . .
هكذا
نحن في ملعبِ الخيلِ، لكنْ بلا أيّ خيلٍ!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
إذاً
هل نكون : أنا. أنتَ. أنتِ
الجميعُ
كما كانت الخيلُ؟
أعني: أنحنُ، هنا، نحنُ
أمْ أننا رَسْـــمُ نحنُ؟

برلين، ١٥/٠٦/٢٠١٠

البِســـْتْرو!

كان هذا البِسترو غيرَ بعيدٍ. أقلّ من ربعِ ساعةٍ نقطعها مشياً من المنزل.

قلتُ لابنتي: نحن نمرّ يوميّاً من هنا. لندخلْ مرّةً!

كان زبائنُ البِسترو النظاميّون يجلسون في الداخل، يواجهون البارَ وسيّدتَه.

جلستُ مع ابنتي في الحديقة.

حيّتْنا امرأةٌ، كانت تجلس، مصادفة، في الحديقةِ.

قالت: المرأة، سيدة البار، تتحدّث بالإسبانية.

لا أدري لِمَ قالتْ ذلك.

ربما لأننا لا نبدو ألمانيّيَنِ.

جاءت السيدة. قالت بالإسبانية: إنها من فنزويلا.

قلتُ لها: أنا كنت في فنزويلا. كاراكاس. الأنديز. بداية الأمازون...

قالت: في لَرِيدا. البرد شديد (كانت تتحدث عن الولاية التي تفخر بجبال الأنديز).

قلت: الناس يحبّون شراب الروم مع الليمونادا!

Ron con limonada !

قالت:

Cuba Libra (كوبا الـحُرّة)

قلتُ: أريد الروم مع الليمونادا. عاشتْ فنزويلا!

تغيّرتْ ملامحُها فجأة: تسقط فنزويلا! شافيز شـــيوعيّ. . .

قلتُ: عاشت فنزويلا!

*

لم أقُلْ لها إنني قابلتُ شافيز مرّتين، إحداهما كانت في القصر الجمهوريّ.

*

دخلتُ المكان ثانيةً.

السيدة الفنزويلية التي تكره شافيز لم تكن هناك.

طلبتُ شـــراب الروم مع الليموناد!

القطار الألـمانيّ

أينَ تمضي برُكّـــابِها كلُّ هذي القطاراتِ؟
في الفجرِ تَهدرُ
في الليلِ تَهدُرُ
في الظُّهرِ تَهدرُ
حتى الـمـخدّةُ تهتزُّ من هولِ هذي القطاراتِ
صفصافةُ الـحيّ تهتزّ
والبابُ في مَشـربِ البيرةِ
المخزنُ الآسيويّ
وتمثالُ بوذا،
الندى . . .
اين تمضي برُكّـــابِها كلُّ هذي القطاراتِ؟
أنّى ستُلـقي بهم؟
وإلى أين تتّـجـهُ؟
العالَمُ ارتَـدَّ (نعرفُ؟)
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

تلك القطاراتُ تمضي إلى الإتّجاهِ الـمعاكِسِ
(نحوَ محطّـتِها قبلَ قرنَينِ)
تمضي بركّابِها،
هي تمضي بركّـــابِها الغافلـــين. . .

برلين، ٠٨/٠٧/٢٠١٠

القناةُ البرلينيّةُ ذاتُ الماءِ الأخضر

جوان ماكنلي، تعرف، بالضبط، القناةَ التي ألقى الضبّاطُ البروسيّون، فيها، جثّةَ روزا لكسمبورغ. وهي تعرف، بالطبعِ، اسمَ الجسرِ القائمِ على هذه القناةِ حتى الآن. كنّا نسيرُ من ساحة اكسندر بلاسه مارَّينِ بالكتابةِ البرونزيّةِ الناتئةِ، الكتابةِ التي أرادها الألمانُ الديموقراطيونَ خالدةً. أقوالِ روزا لكسمبورغ. روزا الحمراء. قالتْ جوان: هنا! وأشارتْ إلى القناةِ، حيثُ الماءُ يجري أخضرَ داكناً. منذ عشرين عاماً ظلّتْ صحافةُ اليمين (**كما روى مؤيَّد الراوي**) تذرفُ الدموعَ على الماءِ الأخضرِ الداكنِ.

قالوا: إن الشيوعيين لوَّثوا الماءَ. صبغوه أخضرَ. وقتلوا الأسماكَ.

الماءُ (في القناةِ التي ألقى فيها الضبّاطُ البروسيّون جثّةَ روزا لكسمبورغ) لا يزالُ أخضرَ داكناً. لا أحدَ يذكرُ روزا الحمراءَ سوى كلماتِها هي، كلماتِها المقدودةِ برونزاً، في أضلاعِ الشارعِ الألمانيّ القديم. لكنّ جوان ماكنلي تحفظُ،

مثلَ تعويذةٍ، اسمَ الجسر.

برلين، ٢٠١٠/٠٧/٠٨

حُريّةُ الذِّهنِ بأحمرِ روزا

في ذكرى روزا لوكسمبورغ ١٨٧١-١٩١٩

Freedom of Mind in Rosa

شِعر: جوان ماكنلي

ترجمة: سعدي يوسف

ما زلتُ جثّةً
هامدةً تماماً.
وحشيةً كانت العاصفةُ
أشدَّ وحشيّةً ممّا تصوّرتُ
آنذاك
آنَ كان عملي هو الكلّ
آنَ شعبي
هو الكلّ.

الآنَ أطفو إلى سطح الماء
ببطءٍ شديدٍ
في صمتٍ شِبْهِ مُطْبِقٍ

بعد انتهاء الفظاعات
الفظاعات حتى في استفاقتي –
أنا لا أقدرُ أن أمنعَها.
الآنَ أتحرّكُ
جيئةً وذهاباً
حبيسةً في القاعِ
كأنني أدورُ في قِدْرِ ســـاحرةٍ.

كم سأظلُّ هنا؟
قبلَ أن أكونَ حقّاً؟

مرميّةً
مثلَ لحمٍ متعفِّنٍ
مُختَرَمةً بالرصاصِ
سَـليخةً
في أعماقِ الشتاءِ.
أنا، الآنَ، أطفو
تحتَ سِتْرِ الظلامِ
وحيدةً
في الماءِ المتجمِّدِ
بمنأىً عن الفوضى
وحَمّامِ الدمِ

والاصطياد:
الأغاني الشرّيرة
اختفتْ.
حملاتُ الحِقْدِ
ابتعدَتْ.
أهازيجُ القتلِ
تلاشَتْ.

سليمةَ الرأسِ
أطفو وأتأمّلُ:

لن أكونَ في ما مضى
أنا الآن
وسأكونُ في ما بَعدُ.
مختلفةً
أُفَكِّرُ
بالناسِ
بالحيوانِ، بالعدالةِ
بالعالَم.
عملي؟
لم يُنجَزْ كما أردتُ –
فجْرُهُ ينتظرُ.

البوصلةُ تؤشِّـــرُ
إلى اتجاهاتٍ جديدةٍ
أنا مستيقظةٌ
أنهضُ إلى الشمسِ
وأخطو قُدُماً
أُديرُ رأسي
وألتفتُ إلى الوراءِ
وأرى:
كثيرون يتبعونني
إنهم الطُّـلَقـاءُ.

غْـرِمزْبِي، تموز ٢٠٠٧
(مترجَمة عن الأصل الألمانيّ الذي كُتِبَ ببرلين في يناير ٢٠٠٤)

روزا الحمراء

مَـن يقرأُ إريك هوبسباوم؟

أزعُـــمُ أني قرأتُ إريك هوبسباوم، في غالب أعمالِه، وأقولُ صدقاً
إن الرجل اعادَ ثقتي بالتاريخِ
عِلماً، وبالمؤرّخِ عالِـماً، بعد أن صار الـمَحْـــوُ الأداةَ الفضلى في النظرِ، والتنظير.
هوبسباوم يقدِّمُ لك جرعةً شـــافيةً كافيةً من الحقيقة والمعلوم، تجعلُكَ على بَـيِّـنـةٍ من الظاهرة، آنذاك يدخل، هو، حذِراً، متوجِّـسـاً من القطعِ برأيٍ، ويأخذ بيدِكَ، أخذاً رفيقاً
كي تصِلا، معاً، إلى نوعٍ من التَثَـبُّتِ يسمحُ بإبداءِ رأيٍ.
إريك هوبسباوم يساريّ، كان منذ الخامسة عشـــرة عضواً في الحزب الشيوعيّ الألمانيّ، وظلَّ
على مذهبِه، ثابتاً.
لكنه، هنا، أيضاً، يظلّ مرتدِياً مسوحَ المؤرِّخِ، لا بِزّةَ المحارِب.
من شبه المؤكَّـدِ أن يحسبَ المرءُ، هوبسباوم، متفائلاً.
التفاؤلَ التاريخيَّ المعروف.
لكنّ الرجـلَ يُقْـنِـعُكَ، بجرعةِ حقائقِه، الشافية الكافية، أن لا مكان أو معنى للتفاؤلِ، في عالَـمٍ اختارَ السيرَ إلى الهاويةِ والإطلالَ عليها، اختياراً.

بل أن السقوطَ في الهاوية الماثلةِ، واردٌ فعلاً، مثل ما أن التراجُعَ عن السقوطِ واردٌ أيضاً.

قال هيجل، وهو يرى إلى نابوليون يدخل برلين ظافراً:

التاريخ على صهوةِ جوادٍ!

ولسوف يغيِّـر هيجل اندفاعتَه الحماسيةَ، كما فعل ألمانٌ عديدون.

لكنّ إريك هوبسباوم، لم يرَ التاريخَ على صهوة جوادٍ، أو على ظهرِ دّبابةٍ.

إنه يقرأ الصورةَ المعقّدةَ، ويبسِطُها أمامَنا.

ولسوفَ نشارِكُه مدخلَه.

التفاؤلُ صفةُ السياســيّ الكاذب.

وإريك هوبسباوم، مؤرِّخٌ، لاســياســيّ.

إنه شــيوعيٌّ، بالرنين الأوّلِ للكلمة!

برلين، ٠٨/٠٧/٢٠١٠

الطريق إلى البيت الكبير

آن يكونُ المرء صغيراً، يكون البيت كبيراً.

بيتنا لم يكن كبيراً البتّةَ. كان كوخاً (بين الكُبَرِ والصريفةِ بالمصطلح العراقيّ). هذا البيت كان يقطر ماءً في المطر. ويكاد يتقصّفُ مع رياح الصيف وصهدِ الهاجرة. لست أتذكرُ متى سكنّا بيتاً مبنيّاً بالطابوق. لكني أستعيدُ أنه كان مستأجَراً. استأجره أخي يعقوب، بعد أن صار معلِّماً. نحن في أبي الخصيب. أسرتُنا من هناك منتشرةٌ، متناثرةٌ، بين مركز أبي الخصيب على شط العرب، والفاو على الخليج العربيّ. بيتُ جَدي كان في أبو الخصيب.

بيت جدي كبيرٌ. فيه حُجُراتٌ عدّةٌ. لم يكن في المركز. كان في «بُـقَـيْـع» التي تكاد تلتصق بقرية «جيكور».

أحبّ أن أذهب إلى بيت جَدّي. لكنني في المدرسة. أذهب إلى بيت جدّي في العُـطَل. أذهبُ وحدي. لا أدري ما سببُ أنني كنت أذهبُ وحدي. بيتُ جَدي بعيدٌ. في الصيف يكون ترابُ الطريق مثل جمرٍ مسحوق. وأنا أمشي حافياً. أحمل نعلَيّ، خشيةَ البِلى، على رأسي، وأمشي حافياً. تعلّمتُ ذلك من عمّي جبّار حين يأتي لزيارتنا.

يَعصِبُ العطشُ لساني. أمُرُّ بجدولٍ أخضرِ الماء، جدولٍ ذي أشَناتٍ

وعشبٍ. أشربُ من مائه الأخضر بكفّيَّ، وأبلِّلُ وجهي الملتهب.
أواصلُ السيرَ إلى بيت جدّي. هناك مقبرةٌ في الطريق، وعليّ أن أجتازَ. في المقبرة شجرةُ سِـــدْرٍ لا تثمرُ نَـبْـقاً. يقولون إن البومَ يسكن تلك السدرةَ. يقولون أيضاً إن مقبرة أبو شَـعْـنَب هذه، مسكونةٌ. الجنُّ يأوون إليها، والمجانين، والمجذومون الهاربون.
عليّ أن أجتازَ. أتمتمُ كلماتٍ من القرآنِ عن سُـليمانَ وجنودِه. وأقطعُ المقبرةَ لألتحقَ بالجادّةِ المتربةِ.
الشمس محرِقةٌ. ونعلايَ يحرقانِ رأســـي. أنتعلُهما بدون أن أنفضَ الترابَ عن قدَمَيّ، وأواصلُ
السيرَ إلى بيت جَدّي. أصلُ إلى التقاطُعِ. تقاطُعِ بُقَيع وجيكور. أتّجهُ إلى بُقَيع. بعد التقاطُعِ أُحسُّ
ببيتِ جَدي قريباً. أصِلُ إلى البستان الذي أعرفُهُ جيداً. بستانِ النخلِ الذي طالَ ما أخذني جَدّي إليه في الصباح الباكر ليتفقّدَ شِباكه التي نصبَها للأسماكِ. أسماكِ شطّ العرب المشتهاة. أشعرُ بخُطايَ خفيفةً. أعبرُ قنطرةً من جذوعِ النخلِ. قنطرةً تكون زلِقةً في الشتاء. لكني أقطعُها الآنَ وثباً!
ها هوذا البيتُ الكبيرُ...
بيتُ جَدّي!
* * *

خـــيمـةُ الوبَـرِ

نحن لا نتذكّرُ. . .
والأمرُ أعقدُ من أننا، مثلَ ما يقعُ الآنَ في السوقِ، لا نتذكّرُ.
نحن انتهينا من التمرةِ
السعفِ
والنخلةِ. . .
اليومَ، نحن مُـقِيْمونَ في حِصْنِ مَن لم يرَوا
نخلةً
حِصْنِ مَنْ لم يمُصّوا نواةً
ولم يَخْضِدوا سـعفةً.
حِصْنِ مَن لم يرَوا غيرَ ما يخزِنُ الحصنُ:
تلكَ الحبوبَ
وذاكَ الغروبَ. . .
وما كتبوا في صحائفِ رِقٍّ مُذَهّبةٍ.
نحن لا نتذكّرُ. . .
لكنْ هنالك مَن يذكرون. . .
هنالكَ مَن يعرفونَ عيونَ المياهِ العجيبةِ في التيهِ،
مَن يعرفون تواريخَنا

واحداً

واحداً. . .

مثلاً:

يعرفون بأنّ فلاناً قضى قبلَ أن يولَد!

الأمرُ ليس عجيباً (كما تتصوّرُ)

الأمرُ أبسطُ من كل هذا:

إن اخترتَ خيمتَكَ الوبَرَ الـحُرَّ بيتاً

نجَوتَ!

دَيرٌ على الدانوب

أنت تمضي، متمهلاً، على امتداد ضفةِ الدانوب. الدالية تُعَرِّشُ، مثقلةً بالعناقيدِ. والمزارعُ الصغيرةُ تعلِن عن النبيذ الجديد. وأنت تبحث، مع صديقتِكَ، عن غرفةٍ في بيتٍ ريفيّ، غرفةٍ تأويانِ إليها آنَ الليل.

من الضفةِ المقابلة، ترى صرحاً عتيقاً. النمسا ملأى بالصروح العتيقة. لكنّك تحسّ بأن في هذا الصرح سـرّاً يشدّك، أو ما يشبه السـرّ. تقول لصديقتك: أريد أن أرى المكان.

وهي تسألك: أتريد الذهابَ إلى «**الـمَـلْـكْ**»؟ الدَّير؟

تعبرانِ جسراً، هو ناظـمُ مياهٍ أيضاً.

ثم تدخلان الدّيرَ.

عن هذا الديرِ، وفيه، رواية أمبرتو إيكو «**اسم الوردة**».

تقول لها متلهفاً: أريدُ أن أرى الخزانةَ، خزانةَ الكتب... نعم... خزانة الكتب.

تصعد الدرْجاتِ وثباً.

الكتب، مُذْهَبةُ الجِلدِ، وراء الزجاج. كتبُ ثقيلةٌ، مثقَلةٌ بأسـرارِها وأزمانِها. كتبٌ للحياة، كتبٌ للموت. كتبٌ للوعي. كتبٌ للعمى. تتذكّرُ النسّاخين والخطّاطين. الثورة الصامتة في ليلِ الديرِ

المطِلّ على الدانوب.

ثم تأتي المعجزةُ:

صورةٌ لموتسارت الطفل، جالساً على برميل، يعلو كرسيّاً، كي يبلغَ مفاتيح الأرغن الهائل...

لقد جاء به أبوه، في سفينةٍ على الدانوب، ليقومَ بجولةٍ موسيقيةٍ مبكرةٍ جداً. كان في سنّ السادسة.

هل عانى موتسارت(موزارت. موزار) من أبيه، معاناة مايكل جاكسون من أبيه؟

أواصلُ جولتي الذاهلة.

الأسوار العالية.

النهر الذي أخفَتْ أمواهُهُ، الأســـرارَ.

وأعودُ إلى أمبرتو إيكو.

قرأتُ له، مؤخراً، مقالاً عن جماليات اللغة في «**البيان الشيوعيّ**».

رواية «**اسم الوردة**» ليست سردَ أحداثٍ وحوادث.

إنها احتجاجٌ كاملٌ. شهادةٌ على عصرٍ منقرضٍ.

أهو عصرُنا؟

هل تعرفُ أني لا أسألُ عنك؟

مَــرَّ زمانٌ، حقّـاً، وأنا لا أسألُ عنكَ.
فهل فكّرتَ، ولو أقصرَ من عثرةِ سكرانَ:
لماذا لا أسألُ عنكَ؟
اليومُ (وأعني يومي لا يومَكَ) لم يَعُدِ الـمُـتـرَفَ.
أنا لا أسألُ عَمّنْ غادَرَ
لا أسألُ عمّنْ غدَرَ...
الأشجارُ معي دوماً
أحجارُ مَسِــيلِ النهرِ معي
والطيرُ...
إذاً
هل تعرفُ معنى أني لا أسألُ عنك؟

برلين، ١٧/٠٦/٢٠١٠

صيف

ألمانيّاتٌ مكتنزاتٌ يتمدّدنَ طويلاً
تحت سماءٍ ساخنةٍ.
والساعةُ ثالثةٌ ب.ظ
الألمانياتُ طويلاتٌ، مكتنزاتٌ
والشمسُ مواتيةٌ...
والألمانيّاتُ يَسِـــحْنَ، تماماً كالزبدةِ
مشكلتي أني أقرفُ من مرأى الزبدةِ
أو من مأكلِها
.....
.....
.....
الألمانيّاتُ المكتنزاتُ تمدّدْنَ طويلاً!

سِـيْدي بِلْعبـاس

قال لي الرفيق حِـمراس الموظف بوزارة التربية والتعليم الجزائرية:
سوف ارسلُك إلى مدينةٍ جزائريةٍ ذات بلديةٍ شيوعيةٍ!
كان ذلك في العام ١٩٦٤.
وقد وصلتُ الجزائر بعد رحلةٍ طويلةٍ، من بيروت بحراً إلى الإسكندرية، ومن الإسكندرية براً إلى ليبيا، تونس، فالجزائر.
في الجزائر العاصمة، ذهبتُ إلى صحيفة «الجزائر الجمهورية»، صحيفة الحزب الشيوعيّ الجزائريّ.
Alger Republicain
سألتُ عن هنري أليغ. كان في فرنسا.
استقبلني بوخلفة، وعبد الحميد بن زين. قال لي بوخلفة:
سنوصي رفيقنا، حِمراس، بكَ، خيراً.
(لم أرَ الرفيق بن زين ثانيةً إلاّ في عدن أواسط الثمانينيّات حينَ حلَّ هناك زائراً).
وهكذا وصلتُ سيدي بلعباس، بالقطار.
نزلتُ في «أوتيل متروبول».
وفي صباح اليوم التالي ذهبتُ إلى «ثانوية الجلاء» حيثُ كنتُ عُيِّنتُ مدرِّساً للّغة العربية: شيخاً!
*

في سيدي بلعباس، القيادة العامة لـ «الفرقة الأجنبية» الشهيرة.
الدرك الوطني الجزائري يستعمل الآن المقراتِ التي تركها الفرنسيون.
في ثكنات الدرك الوطني كانت اللافتات، وعلامات الطريق باللغة الفرنسية.
في أحد الأيام زارني ضابطٌ بالدرك الوطني وقال: نريد أن نعرِّب اللافتات والعلامات. وأنت الشيخ...
كيف؟
أخذني معه إلى الثكنات.
كانت هناك عُلَبُ «بوية» وأكثر من فرشاة.
وكان عليّ أن أرتقي سلّماً متنقلاً.
لأسبوعٍ كاملٍ اشتغلتُ متطوِّعاً.
لا أدري كيف بدا خطّي بالبوية...
لكنّ ثكنات الدرَك الوطنيّ الجزائريّ، صارت تتكلم باللسان العربيّ.
الشيخ الخطّاط سعدي يوسف!

عــدن... أيضاً

إنْ تكُنْ عدَنٌ مثلَ قال عنها الـمُـغَـنّي، أبو بكرٍ، الأوْجَ
إنْ يكُـنِ الأمرُ هذا الذي قال عنه الـمُـغَـنّي. . .
فإنْ ذهبتْ عدَنٌ
أين نذهبُ؟
أقصدُ: كنّا نقولُ لنا نجمةُ، بين كلِّ بيارقِ أهلِ الجزيرةِ، حمراءُ
كنّا نُباهي بها
ونباهي. . .
نقولُ: العروبةُ أعمقُ.
خَطٌّ لها مُـسْـنَـدٌ
وبراكينُ فيها، و حرّيةُ امرأةٍ، واشتراكيّـةٌ
وأغانٍ
وكانت بها حضرموتُ الفريدةُ
حيثُ المنازلُ من امرئ القيسِ حتى القمرْ. . .
أين نمضي، إذاً، بعدَ أن بَعُـدَتْ عدَنٌ؟
أين نمضي؟

برلين، ١٨/٠٦/٢٠١٠

مزرعة الزاهي محمّـد

واحدةٌ من قصائد الفترة الجزائرية الطويلة النبيلة، حملتْ عنوان «مزرعة الزاهي محمد».

الحقُّ أن المزرعة كانت فعليّةً.

الزاهي محمد شخصٌ حقيقيٌّ وإن حملَ اسماً ليس فيه من مبالغةِ الزهوِ شـــيء.

قد كنتُ أسلفتُ القولَ إني أقمتُ في «سيدي بلعباس»، أدرِّسُ اللغة العربيةَ في «ثانوية الجلاء» هناك. إلاّ أنني صرتُ أدرِّسُ في «ثانوية الحوّاس» الجديدة، بعد عامٍ أو نحوِه.

سيدي بلعباس، تقع في السهل الوهرانيّ الخصيب، حيث مزارعُ الكروم، والنبيذُ الممتازُ. هذه المنطقة تصدِّرُ نبيذَها الفاخرَ إلى فرنسا، حيث سيضعه الفرنسيون في زجاجاتٍ تحمل صور قصورٍ، ويصدِّرونه باعتباره فرنسيّاً طاهرَ النسَب.

في موسم النبيذ الجديد، ترسو في مرفأ وهرانَ، ناقلاتُ نبيذٍ ذواتُ صهاريجَ، وكان النبيذُ يُضَخُّ عبرَ أنبوبٍ ضخمٍ. طرقاتُ المرفأ رطبةٌ، سوداءُ، تتضوّع برائحة هذا النبيذ المغادرِ!

كنت أذهب بين حينٍ وآخرَ إلى واحدةٍ من المزارعِ منتِجةِ النبيذ، لأشتري نبيذ سيدي بلعباس الوردي الشهير «كينوري».

لستُ أدري إنْ كان هذا النبيذُ لا يزالُ يُنتَجُ هناك.

*

بعد أن عادتْ مزارعُ الـمُـعَمِّرين الفرنسيين إلى أصحابِها الشرعيين، أهلِ البلد، بدأ التخلّي تدريجاً عن الاهتمام الفائق بالكروم ومتطَلَّباتِها، وقلَّ بالتالي إنتاجُ النبيذ. ربما ذهبَ «الكينوري» الشهيرُ إلى الذاكرة التي لا تهمُّ أحداً، سـواي!

*

الزاهي محمد

العربي محمد (أحد قدماء المجاهدين)

كان يديرُ واحدةً من تلك المزارع.

دخلتُ المزرعة مصادفةً، فرحّبَ بي وبزوجتي، وملأَ السيارة خضرواتٍ وفواكهَ. رفضَ بإصرارٍ أن يتقاضى ثمناً.

صار العربي محمد صديقَ العائلة. يزورنا حيث نسكنُ في بناية «الفرساي» فوقَ السينما التي ساعدتُ صاحبَها في أن أخطّ اسـمَها على امتداد أنبوب النيون المضيء.

سيدي بلعباس، المدينة التي لا تُنسى. المدينةُ التي صار كاتب ياسين مديراً لمسرحها البلديّ يوماًما.

الـتَـكِـيّـةُ النقشبنديّـة

قال لي عز الدين مصطفى رسول: للنقشبنديّةِ **الخانقاه**، لا التكيّة.
عزّ الدين أعلمُ مني أكيداً.
لكننا في أبو الخصيب، كنا نسمّيها **التَكْـيَـة**.
(أتحدّث عن أبو الخصيب الأربعينيّاتِ)

*

أولادُ الشيخ عبد القادر النقشبنديّ، القادم من السليمانية، أربعةٌ:
برهان. عثمان. عاصم. محيي.
محيي هو في مثل سنّي.
لستُ أدري ما فعلَ الزمن بأولادِ الشيخ.
لكني سمعتُ أخيراً من صديقٍ يقيم سعيداً في بولندا، هو باسل علي عمران، أن محيي عبد القادر النقشبنديّ يدير مطعماً في ميناء جْـدِنْـيا البولنديّ!

*

يبدو أننا كنا في زمنٍ بدأتْ فيه التكيّة تتدهورُ، بعد وفاةِ الشيخ.
برهان، الأخ الأكبر والذي كان سجيناً شيوعياً ترك أبو الخصيب وتكيّةَ أبيه وعاد إلى السليمانية. تولّى عاصم العناية بالتكيّة. عثمان لم يكن متديّناً. ومحيي لا يزال غِرّاً.

وقد كانت التكيّة النقشبندية في أبي الخصيب شهدت ازدهاراً ونفوذاً عجيبَين، وكان للشيخ أتباعٌ ومريدون. وتروى حكاياتٌ عن الوجد والشطح الصوفيّينِ، وكيف أن أحد مريدي الشيخ طارَ
من أعلى سطحِ التكيّةِ، في تقليدٍ لِما يروى عن طيران الشيخ عبد القادر الكيلاني، ليسقطَ هذا المريدُ المسكينُ مرتطماً بالأرض الرطبةِ، مهشَّم الأضلاعِ، ميّتاً!

*

في التكيّة النقشبندية، تهجَّينا الحروفَ الأولى من شـــيوعيّةٍ عجيبة، ملأى بالأساطير عن عمّالٍ يبنون بلداً، وجيشٍ أحمرَ لا يُقهَـرْ.
في ظهيرة الصيف القائظة، كانت التكيّـــةُ برداً وسلاماً.
بينما تتّـقدُ في أعماقنا الغضّةِ نارٌ من حلمٍ أحمر.
رسائلُ إخوانِ الصفا كانت في خزانة التكيّة.
ومصاحفُ وتفاسيرُ. كانت التكيّةُ النقشبنديةُ معهدَنا الفكريّ الأول!

متـاعبُ

مُـتَـعـتَـعةً بالسُّكْــرِ كانت
جَهِدْتُ في إعادتِها للبيتِ. . .
كانت تقولُ لي:
لنذْهبْ إلى ملهىً، أريدُ أن أراقصَكَ!
الملهى قريبٌ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أقولُ: يا هُـنَـيْـدةُ
لن يرضَوا بأن تدخلي. . .
أرجوكِ!
عرَّيتُها
ثمّ اتّرَكْتُ حديثَها يُـبَـقْـبعُ تحتَ الماءِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
نشَّفْتُ جسمَها اللذيذَ

وقلتُ: استمتعي، بنعومةِ الحريرِ!
لقد أغمضتِ عينيكِ فاذهَبي إلى الـحُلْـمِ
إني رهْنُ حُلْمِكِ. . .
إنْ أردتِ حُـبّـاً نكُنْ جسماً مع الدفءِ واحداً
وإنْ لم تريدي الآنَ
نرقدْ إلى الغدِ!

برلين، ٢٠/٠٦/٢٠١٠

هـارْلِـمْ، حيثُ لا جازَ...

في زيارةٍ للولايات المتحدة الأميركية، قرّرتُ أن تكون نيويورك، مضطرَبي الوحيد.

لن أذهب إلى ولايةٍ أخرى.

وهكذا كان.

تكرَّمَ علَيَّ، سنان أنطون، مشكوراً، بشقّته الجامعية التي تواجه مكتبة جامعة نيويورك، والتي تكاد تلاصق ساحةَ «واشنطن سكوَير» الشهيرة، حيث ينتصب غاريبالدي مع سيفه!

أمضيتُ شهراً كاملاً في تلك الشقّة.

كانت معي أندريا.

إلاّ أنني كنتُ حريصاً على التفرُّسِ في تجاعيدِ المدينة العظيمةِ بطريقتي الخاصّة. هكذا كنت أنطلقُ في الصباح الباكر مع دفترٍ صغيرٍ، لأشهدَ المدينةَ تستيقظ، الذين بلا مأوى يستيقظون من نوم الحدائق.

المسافرون المبكِّرون يغادرون محطة المترو في «يونيون سكوَير»، والمقاهي تفتح أبوابَها.

في تلك الساعة تكون نيويورك كأبهى ما تكون.

*

في أحد الأيام ذهبت إلى هارلِم.

حيّ الســـود المعروف.

لا أدري كيف شبّهتُ الحيَّ بمدينة الثورة في بغداد!

الشوارع محفَّرةٌ. البيوتُ تكاد تتداعى. وبين كل ثلاثة بيوتٍ أو أربعةٍ، كنيســـةٌ ذاتُ اســـمٍ.

ليس في هارلِم مطاعم.

أرهقْنا نفسَينا، أنا وأندريا، سَيراً وسؤالاً، حتى عثرنا على مطعمٍ متواضعٍ يقدمُ نبيذاً رديئاً وطعاماً مقبولاً.

كنا نسأَلُ هنا، وهناك عن زاويةٍ للجازِ.

عن مكانٍ لمؤلِّفي الجازِ الصاعدين.

لا شـــيء.

أخيراً، قال لنا رجلٌ: عليكما المجيء يومَ الأحدِ إلى الكنيسة الفلانية، حيثُ يقَـدَّمُ جازٌ روحيّ!

Spiritual Jazz

لكنني لم آتِ هذه المدينةَ لأستمع إلى الجاز في كنيسةٍ. . .

كان علينا أن نبحثَ عن زاوية الجازِ في القرية التي نحن فيها، قرية غرِنِتش. لا جازَ في هارلِم.

تـنويـعٌ

ولا جازَ في هارلِم ولا جازَ في دمي ولا جازَ في الدنيا ولا جازَ في التي ولا في اللُّـتَـيّا كانَ ثلجٌ وسُـكّرٌ يدورانِ هُوناً في دمي كنتُ أشهدُ البراري كثيفاتٍ بما يُشبِهُ القنابلَ المستدقّاتِ القنابلُ

غابةٌ من الخيزرانِ الليلُ داجٍ ونجمةٌ من المعدِنِ الذّرِّيّ كانت تشعُّ النورُ يهذي أناملي مطقطِقـةٌ

والثلجُ في الدمِ أتّقي خناجرَ تُلقَى من سماءٍ خفيضةٍ وأهمسُ هل آوي إلى البئرِ؟ هل أرى المياهَ ليَ

الـمَنجاةَ؟ أم أنّ جُـبَّـتي نجاتي ودرعي. . . أمسِ أسـريتُ جائعاً وظمآنَ في تيهٍ حَمادٍ

ولم يكنْ لديّ سـوى ذيلِ الجوادِ الذي قضى من الصَّهْدِ والطاعونِ هل سوف أبْلغُ التخوم؟

أرى في الـبُعْدِ بضعَ حمائمٍ تحومُ هل الطيرُ الـمُـحَـوِّمُ مَـشأمٌ وإنْ كان سرباً من حمائمَ

ربما سأهديكِ عِقداً من عيونِ سلاحفَ انتظرتُ طويلاً أن أراكِ وليس لي سواكِ ولكنّ السلاحفَ

لم تَعُدْ تحجّ إلى تلك الشواطئ لم تَعُـدْ تحجُّ إلى تلك الضفافِ بحضرموتَ الجياعُ استنفَدوها

يأكلون لحومَها وأعناقَها حتى الدروع يرونَها دروعاً لحربٍ ربما كنتُ آكلاً وإيّاهمو لحـمَ
السلاحفِ ربّما ولكنني أمسَيتُ ميْـتاً فلم أجد ســوى سُلْـحَــفاةٍ تحملُ الماءَ في فمٍ
دقيقٍ لقد جاءتْ لتغسلَ ميّتاً غريباً تناســَـتْـهُ القبيلةُ ولتَكُن أخاديدُهُم برداً سـلاماً
نعم نعم ولا جازَ في هارلِم ولا جازَ في دمي ولا جازَ في الدنيا ولا جازَ في التي ولا في اللُّتَيّا
كنتُ أمشي مضَيَّعاً
قويّاً
وأمشي مسرِعَ الخطْوِ
حافياً
زجاجُ البراكينِ القديمةِ أسوَدٌ وحادٌّ
وشمسٌ من رصاصٍ وقرمزٍ تظللني
لكنني أقطَعُ القفرَ واثباً
أنيقاً
وأدنو من يديكِ
وأهدأُ . . .

برلين، ٢١/٠٦/٢٠١٠

عـــدنٌ

في الفجر

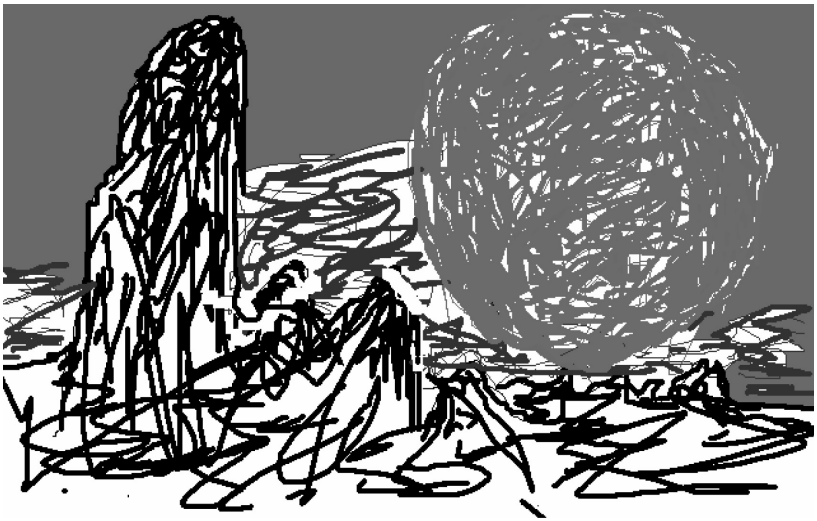

من البُـرَيـقـةِ

(تخطيطٌ بالكومبيوتَر)

برلين، ٢١/٠٦/٢٠١٠

مقطوعتان

دُرْنا ودارتْ بنا الدنيا. . . وغَـرَّبْـنـا

لو كنت أدري تركتُ الـمرتجى والأمـلْ
لكنْ حبيبي ســقاني الكأسَ دهراً، ومَلّ
بين الشّواطي أنادي النـاسَ، يا هَلْ وهَلْ

مَن يسمعُ الصوتَ؟
ذابَ الصوتُ، وارتَــحْـــنا
*
قالت: حبيبي، أريدُ اليومَ تدعـــو لي

خيراً، ترى: دعوةُ العشّاقِ مسموعـــةْ
أرجوكَ، لا تنتظرْ. دنياي مَـوجوعـةْ
مَغْنى النسورِ انتهى، والقولُ بَـالُـــوعةْ

أنت الـمُـغَنّي الوحيدُ.
الآنَ غَـنِّ لي. . .

برلين، ٢٢/٠٦/٢٠١٠

أرادَ الشاعرُ (أنا!)، هنا، القولَ بأنّ الصوتَ ذا الصراحةِ، اختفى مخافةً.
وأنّ القولَ الـمُـسَـيَّـدَ هو بالوعةٌ، أي حفرة قاذوراتٍ.
والحقُّ أن تعليق الحواشـي، كما أفعلُ الآن، عملٌ غيرُ مستحَبٍّ في زماننا
لكنه كان لازماً، مُلزِماً، في ما سلَفَ.
لماذا علّقتُ الحاشيةَ؟ أ لأنني أردتُ أن أملأ الصفحةَ؟

تلك البلدة الصينيةُ على النهر

تلك البلدة الصينية التي لم أتأكّد من اسمِها حتى اليوم: وِي- يو؟ يو- وِي؟

تلك البلدة الصينيةُ التي على النهر، القريبة من شنغهاي، كم أودّ العودةَ إليها!

أودُّ العودة إليها مقيماً لا زائراً.

صديقي الصينيّ إدوارد سمّاها قريةً.

لماذا؟

قال: سكّانُها ثلاثة ملايين!

قلتُ مبتسماً: لكنّ في أوربا عواصمَ يقاربُ عددُ سكّانِ الواحدة منها، عددَ سكّان وِي-يو!

ضحكَ إدوارد: لكننا في الصين. . .

*

كنت في فندقٍ صغيرٍ هناك، فندقٍ ملتصقٍ بحديقةٍ عامّةٍ على ضفة النهر. أخرجُ مع جوان من الفندق، فنخترق الحديقةَ لنصل إلى الضفةِ، ونسير على امتداد الضفة لنبلغَ الجسر الذي يصلُ بين جانبَي المدينة. نحن نريد العبورَ إلى الجانب الآخر، حيث الأسواق والمطاعمُ والبرج القديم ذو الألف عامٍ.

وأنا أعبرُ الجسرَ، هنا، أحسستُ بما يشبه العبور من الرصافةِ إلى الكرخ.

قطعتُ جسوراً كثيرةً في هذا الكوكب، من جسرٍ على نهر ألدرينا إلى جســـر بروكلِن،

لكنّ إحساسَ العبورِ من الرصافةِ إلى الكرخ لم يأخذني معه، إلاّ هنا.

كنا نعبر الجسرَ، لنتناولَ فطورَ الصباح، فالفندق الصغير لا يقدمُ أيّ وجباتٍ. إنه فندقٌ صغيرٌ حقاً، لا يكلفنا المبيت فيه سوى عشرة جنيهات بريطانية لغرفةٍ ذات سريرَين.

في الصباح الأول، لم نستدلّ على مكانٍ يقدم فطوراً. وقفنا عند دكّانٍ. طلبتُ زجاجة بيرة وكعكةً. جوان طلبت عصيرَ فاكهةٍ وكعكةً. لا موضع جلوسٍ. جاءت زوجة صاحب المحل مع طفلِها. قدّمتْ لنا كرسيينِ واطئينِ، وطرَفينِ من قصبِ السكّر. جوان ترى قصب السكّر للمرة الأولى. الطفل المتوجسُ شـــرع يلعب معنا.

إدوارد اتّصلَ بنا عبر الموبايل: أين أنتما؟

أعطينا المرأةَ الموبايل لترشدَ إدوارد إلينا.

*

صباح اليوم التالي أفطرْنا مع الطلبة والموظفين الذاهبين إلى أعمالِهم في واحدٍ من تلك «المطاعم»

السفريّةِ التي تشتهر بها الصين. سأعودُ إلى تلك البلدةِ التي على النهر، لأعبرَ الجســـــر!

نـــداءُ الأرضِ

ولِمَن تُرى أنوي الرسائلَ؟ منذُ قَرنٍ لم يُسَلِّمني البريدُ رسالةً، لا مِن صديقٍ كنتُ آمُلُ، أو رفيقٍ كنتُ اذكرُ. تَعْبُرُ السنواتُ كالطيرِ المُغِذِّ أو السحابِ. وفي الحديقةِ تَسْمُقُ الشّتلاتُ أشجاراً. سماءٌ في نصاعةِ رُبْعِنا الخالي. وماءٌ كالفراتِ. وكأسيَ اتّقَدَتْ.

وفي خيطِ القميصِ يطولُ لَبلابٌ وتولَدُ زهرةٌ من غصنِ دُفلى. كنتُ أنعَسُ في قطارٍ للسكارى شرقَ برلينَ. النساءُ مُنَقِّباتٌ في سراويلِ الرجالِ النائمين عن النحاسِ الغضِّ.

أسترخي. النساءُ منَقَّباتُ يرتدِينَ عباءةً سوداءَ في شرقِ الجزائرِ. والرجالُ تبختَروا بالبرنسِ الوبَرِ. النخيلُ مقدّسٌ في واحةِ الأغواطِ. وهرانُ القديمةُ تسكنُ الكتبَ القديمةَ والسجلاتِ التي تركَ الفرنسيّونَ للعثِّ. الطريقُ مُلَغَّمٌ من سِيدي بلعبّاس حتى وجدةَ.

«الناضورُ» ملتبِسٌ. تراه مغربيّاً تارةً، فجزائريّاً تارةً أخرى، وأحياناً ترى قشتالةَ العليا تطلُّ.

ودِدْتُ لو طوّفتُ دهراً في مقاهي «وجدةَ» الليليةِ. انتبهَ المُغَنّي، قال لي: من أين أنتَ؟ أدورُ في بَتَلاتِ وردتيَ. الدمشقيّاتُ يؤثِرْنَ المُضِيَّ إلى النهايةِ. سوفَ أبني منزلاً قربَ «المَعرَّةِ»، كي

أطوفَ، العُـمْـرَ، عند ضريحِ شـيـخي. كان نورٌ في الدّجى يَنْهَـلُّ مـن صـحـنٍ بـه عـدَسٌ، ومـن كـوزٍ بـه مـاءٌ. سـأتـلـو كـلَّ ديـوانِ اللزوميّاتِ، حتى تدركَ البصرَ الغِشـاوةُ. ها،و، ها. ها، ها، و، ها. ها، ها، وَ ها.

يمضي قطارٌ شـرقَ برلينَ. القطارُ محَـمّـلٌ ببضاعـةٍ ليستْ تُباعُ فـتُـشتَرى. هي من بقايا منزلٍ متهدِّمٍ قد كانَ يوماً قصرَ هتلرَ. أقرأُ الصحُفَ الصباحيّاتِ. يلتبسُ الزمانُ عليَّ.

كان الفندقُ العالي بدربِ الزيزفونِ مَنامَ لينين وماركسَ. غيرَ أني في الصباحِ وجدتُ إنجيلاً يخربِشُ جبهتي تحت الوسـادةِ. سـوفَ اذهبُ في سبيلي. سوف أتركُ كلَّ هذا، ثمّ أصعدُ مُرتَـبىً مُتطامناً في فنزويلاّ، كي أبلغَ الأنديزَ بعدَ مسيرةٍ كبرى. سـأرقى القمّةَ العُلـيا التي غنّى لها سيمون بوليفار. أبْـلُـغُـها، وأجلسُ في مهَبِّ الريـحِ مُـحْـتَـبِـياً، تـهاليلي لآلهةِ الهنودِ، وجبهتي للوشـمِ. أفعى تحتوي قمراً. . .

أأسمعُ مَن يناديني؟

أأسمعُ مَن ينادي؟

أهوَ صوتُ الريحِ؟

صوتُ إلهِ بوليفار. . .

صوتُ الصمتِ، والحريّةِ الـنُّـعْـمى؟

نداءُ الأرض. . .

برلين، ٢٤/٠٦/٢٠١٠

كيف انتهيتُ إلى تلك الشقّـةِ...

كان الصيف البرلينيّ رائقاً. شمسٌ ناعمةٌ. شجرٌ مخضلٌّ بندى الليل. فتياتٌ أشباهُ عرايا. مقاهٍ مزدحمةٌ دوماً. وأكشاك مآكلَ ألمانيّةٍ تقليدية، و «شاورمة» تركيّة.

كنت أعرف العنوان. الشقة قريبةٌ من ألكسندر بلاسّـــه، وليست بعيدةً عن «سوق آسيا» المتخصص ببيع المواد الغذائية الصينية. أقرأُ الأسماءَ على لوحة أجراسِ الساكنين. اسمُها بين الأسماء.

أضغطُ على الجرس. تنفتح بوّابةُ المبنى. أدخلُ. أقطعُ مدخلاً غيرَ طويلٍ. أجدُني عند الباب الخلفيّ لمطعمٍ تايلانديّ. أحدُ العمّالِ كان يتناول وجبةَ الظهرِ هناك. الوجبة (المجانية افتراضاً) متواضعةٌ جداً. أنا الآنَ عند بوّابةٍ ثانيةٍ من الحديد الثقيل تنفتحُ على سلالم. شقّة ديزي في الطابق الأعلى. الصعودُ مرهِقٌ، ربّما لأني ارتقَيتُ الدّرْجاتِ متلهِّفاً. كان بابُ الشقّةِ مفتوحاً و ديزي واقفةٌ بالباب، تبتسمُ ابتسامةً شبه ماكرةٍ:

استدللْتَ، إذاً؟

* لن يضيعَ مَن يقصدكِ!

- كانت الشقّة تطلّ على ساحة ألكسندر بلاسّـه، لكنهم بنَوا هذا الفندقَ البشع فحجبَ الساحةَ.

الشقة بدتْ لي أصغرَ شقّةٍ رأيتُ في حياتي. غُرَيفةٌ واحدةٌ فيها زاويةٌ للطبخ، وثلاجةٌ صغيرة. نافذةٌ واحدة. عند البابِ مرافقُ صحيّة، ومَرَشّ استحمام.

لديّ عقدةُ الضيقِ بالمكان الضيِّق (كلوستروفوبيا).

قلتُ: لنخرجْ!

قالت: إلى أين؟

أجبتُ: إلى المدينةِ. إلى أي مكانٍ. دعينا نتناولُ الغداءَ معاً.

*

خرجنا من المبنى.

ورحنا نتجوّلُ، بلا مقصدٍ.

أنا مع ديزي للمرة الأولى في برلين. كنتُ رأيتُها في لندن مرّتَين، مصادفةً. لم تكن بيننا علاقةٌ.

على أي حالٍ. دخلنا مطعماً في حيّ شعبيّ ببرلين الشرقية التي أطمئِنُّ إليها. طلبنا «شْـنِتْسِـلْ»، وشـــربنا زجاجةً كاملة من نبيذٍ أحمرَ ثقيل.

عُدنا إلى الشقّةِ، لنرقدَ متعانقَينِ حتى انتصفَ الليلُ!

ســـوقُ البراغيثِ

اليوم أحدٌ.

يومُ الله، كما يقالُ هنا.

لا عمل. كلُّهم نَؤومُ ضحىً. يذهبون إلى الكنيسة، بالطبعِ أو التطَبُّعِ، مع أن عدد المصلِّين انخفضَ بنسبة ٤٥٪. أمرٌ ممتازٌ، معناه أن العلمَ انتصرَ على الخرافة. صرتُ أحترمُ المواطنين العاديّين أكثر.

لم يَعُد الأحدُ يومَ الله.

وقتٌ مناسبٌ للتسكُّعِ، ورفاقِ الحانةِ، والشواءِ في الحدائق الخلفيّةِ، أو البقاءِ في المنزل مع الأسرةِ.

وبين ما يختارُ المرءُ من مُتاحٍ: **ســـوقُ البراغيث!**

المصطلح ذاتُه، تجده في اللغةِ الإنجليزية وفي الفرنسية، في الألمانيةِ، وفي لغاتٍ أوربيةٍ أخرى.

في بغداد يسمّونه **ســـوق هرَج**.

وإن اختلفَت الرؤيةُ.

*

لستُ من الـمُـغرَمينَ بالتسوّق، سواءٌ في ذلك لندن ودُبَيّ وباريس. والسببُ بسيطٌ جداً،

بسيطٌ حدَّ اللعنةِ، فأنا امرؤٌ أنعَمَ الله عليه بنعمةِ الفقرِ، فجـنّـبَـه متاعبَ الشراءِ والبيعِ والتملُّكِ، والتردّدِ على الأسواقِ، ووضْعِ النفْسِ معروضةً، مخذولـةً، في المزادِ.

لكنّ **ســوقَ البراغيثِ** ليس كسائر الأسواق.

إلى هذا السوقِ تأتي النسوةُ بما يمكنُ الاستغناء عنه ممّا ذخَرَ البيتُ: أباريق شاي. أصص أزهار. حقائب. ملابس، حلي...

وإلى هذا السوق يأتي رجالٌ بما أمكنهم الاستغناء عنه: كتب. غلايين. حقائب سفر. عدّة حلاقةٍ للمسافر، حذاء تسلّقٍ...

والسوقُ، إلى هذا وذاك، مَرْبَـعٌ وملتقى، ومرتعٌ للأطفالِ، ونقطةُ مواعيد للعشّاق.

لقد أحببتُ **ســوق البراغيث** حدَّ أنني وقفتُ، بائعاً، في صبيحةِ أحدٍ رائقٍ، مع صديقتي النمساويةِ، وهي تستغني عن الكثير ممّا لم تَـعُـدْ بحاجةٍ إليه.

آخرُ ما اقتنَيتُ من سوق البراغيث، بلندن، ثلاثة مجلدات من أعمال أريك هوبسباوم، هي:

عصر التطرّف. عصر رأس المال. حول التاريخ!

مصـطـبةُ الـبُحـيرةِ

الـمرأةُ ذاتُ الأعوامِ الـخمسةِ والتسعين تشاركني مصطبةً عند الشاطئ. كانت سفنُ النزهةِ تنتظرُ الركّابَ، إلى لحظةِ إقلاعِ الـمَرْكبِ «موبي دِكْ». والمرأةُ ذاتُ الأعوامِ الخمسةِ والتسعين تُـتَـمْـتِمُ أغنيةً عن أُذُنٍ لا تسمعُ. عن أطرافٍ لا تنفعُ. عن أرصفةٍ تتذكّـرها الآنَ.

تقولُ المرأةُ: لم يكن المشهَدُ قبل سنينَ كما تشهدُه الآنَ. لقد قطعوا الأشجارَ، وكانت تحجِبُ مرأى الماءِ. و ها أنت ترى أن الدنيا تتغيّرُ.

هل تعرفُ ماذا كانت هذي الضاحيةُ النهريّةُ من برلينَ الأصليّةِ؟

لم تكُ شيئاً. وأقولُ لك: الآنَ... الضاحيةُ النهريةُ لا تعني لي شيئاً

أعوامي الخمسةُ والتسعون تُـسَـمِّـرُني، جنبَكَ، عندَ المصطبةِ. اللعنةُ!

أطرافي لا تنفعُ.

أذني لا تسمعُ. هل تسـمعُني؟

. . . . . .

. . . . . .

كانت شمسُ أصيلٍ صيفيٍّ، تلعبُ في وجه المرأةِ ذاتِ الأعوامِ الخمسةِ والتسعينَ.
وكنتُ
عميقاً أُنصِتُ...
كنتُ
بعيداً أســـري في أعوامِ المرأةِ ذاتِ الأعوامِ الخمسةِ والتسعين.
أنظرُ في الوجهِ المتورِّدِ تحتَ الشمسِ الصيفيّةِ
أنظرُ في الشاطئ...
.....
.....
.....
كان الـمَـرْكبُ «موبي دِكْ»
يُقْـلِعُ.

برلين، ٢٧/٠٦/٢٠١٠

مُـوبي دِكْ Moby Dick

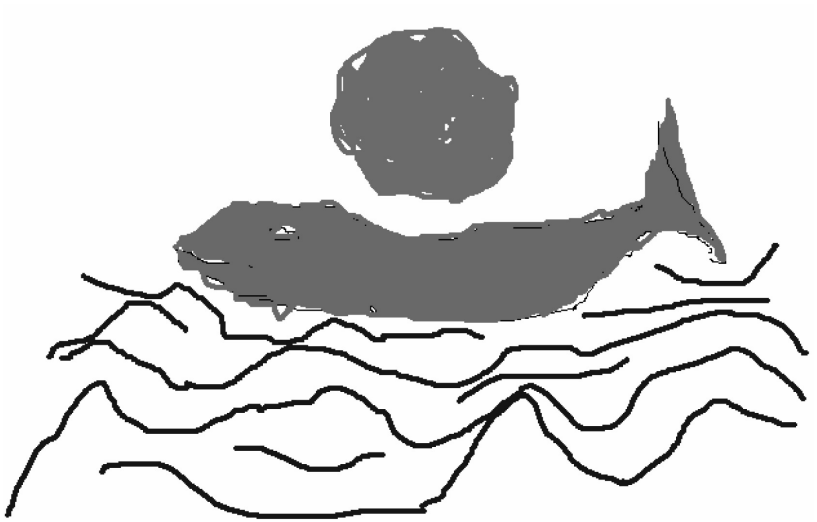

تخطيط بالكومبيوتر

٢٧/٠٦/٢٠١٠

رادِسُ الغـــابةِ

يأتيكَ الاسمُ من حيثُ لا تدري، وآنَ لا تدري.

تغمغِمُ في سِـرِّكَ، فينفتحُ نعيـمٌ. هاهي ذي «رادسُ الغابةِ» ملتفّةٌ بأشجارِها وظِلالِها العميقةِ. نوافذُها تكادُ تَخْـفَـى من متعرِّشٍ ومتسلِّقٍ. خضرةٌ ذاتُ أفوافٍ وتدرُّجاتٍ وندىً. لَكأنَّ تونسَ العاصمةَ خلعتْ جُبّـةَ القاضي، أو بِزّةَ الشرطيّ، ولاذت بالطبيعةِ خلاصاً.

هنا، ظلَّ عبد الرحمن بن أيوب، يهدهِدُ «تِـبْـــرَ الزمانِ» حُلماً على الوسادةِ والورق.

هنا أيضاً، ودّعَ محمد الصغير أولاد أحمد، شقاوةَ صِبا، فأمسى ربَّ عائلةٍ.

كلّما دخلتُ رادسَ الغابةِ تذكّرتُ أندريه جِيد في «قوتِ الأرض» وهو يصلِّـي لبلدةٍ جزائريةٍ

لِصْقَ العاصمةِ، أيضاً، هي «الـبُـلَـيدة». وهي لِـبْـلِـيده، بالنّطقِ الجزائريّ.

ما يُبهِجُ المرءَ في تونسَ، أن الطبيعة لم تزَلْ موضعَ احترامٍ نسبيّ.

مرّةً كنت مع محمد لطفي اليوسفي، في سيّارته «الأودي» القديمة، نخترقُ غيضةً، فيها أشجارٌ ما رأيتُ مثلَها من قبلُ.

سألتُ: أيّ أشجارٍ هذه يا لطفي؟
اجابَ: أشجارُ الفلّين. إنها محميّةٌ.

*

أحببتُ إحدى قريبات عبد الرحمن بن أيوب.
كانت من «قرقنة».
لكنها لم تُحبِـبْـني. وقد فعلتْ خيراً، لها، ولي.
«رادِس الغابة» لا تزال تتموَّجُ بضحكةِ تلك التي لم تُحبِبْني.
كانت ضحكتُها مثل أجراسِ فضّةٍ.

*

قبل فترةٍ، اتّصَلَ بي منصف الوهَيبي، شاعرُ تونس الأصيل، قال لي: البقاء في حياتك. محجوب العيّاري رحلَ...
محجوب العيّاري، الشاعر، المتمردُ بطريقته، رحلَ ضاحكاً، بعد أن سهرَ طويلاً، ودخّنَ ثقيلاً. محجوب هو مَن دعاني إلى «نابِل» لأكون في ضيافته، في «نُزْلِ إيمان» حيث السيدة ليلى. العيّاري، أخذني مرّةً إلى بستانٍ من بساتين «نابل» البحرية، فيه نفحةٌ من «رادس الغابة»
محجوب العيّاري كان مولَّهاً بـ «تونس العاصمة». بـ «رادس الغابة» تحديداً.

الســـاحةُ في الصـــباح
Hanne Solbek Platz

يفتحُ هذا المقهى - المطعمُ، في العاشرةِ، البابَ
المقهى- المطعمُ، صينيٌّ
(حيث جلستُ إلى طاولةٍ فارغةٍ)
والساحةُ
(حيثُ مَداخلُ أرصفةٍ لقطاراتِ المدنِ الألمانيّةِ)
ما زالت موحشةً
وتظلّ الساحةُ موحشةً
حتى العاشـــرةِ. . .
الفتياتُ سيأتينَ، يسابِقْنَ حقائبَهُنَّ
إلى الأرصفةِ السودِ؛
سيأتي الأتراكُ بما زرعوا
وسيأتي أكرادُ الأتراكِ بما صنَعَ الأتراكُ،
وتأتي الدرّاجاتُ لِـتُربَطَ كالخيلِ
(عليّ الآنَ مغادرةُ الطاولةِ)
. . . . . .
. . . . . .

. . . . . .

الساحةُ

تستيقظُ

لكنْ، متأخرةً. . .

مثلَ امرأةٍ في الخمسينَ

مُدَوَّخةٍ من ليلةِ حُبّ!

برلين، ٣٠/٠٦/٢٠١٠

الصّيفُ ناعماً

تدورُ طويلاً في المخازنِ
كلّما أتتْ مخزناً دارتْ قليلاً
وفكّرتْ قليلاً
ولم تلمُسْ
ولم تشترِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الضحى ربيعٌ، كأنّ الصيفَ راجَعَ نفسَهُ
فهَبَّ خفيفاً.
ليتَها، الصبحَ، قد نضَتْ غلائلَها
واختارت البحرَ!
ليتَها!
ولكنَّ مَن تهوى بعيدٌ. . .
تـلَـبّــثَـتْ
ومدّتْ يداً:

أوّاه، لو كان ههنا، يداعبُني تحتَ القميصِ.
سأشتري القميصَ. . .
وأرضى بالذي أتحسس!

برلين، ٣٠/٠٦/٢٠١٠

محمّد عفيفي مطَر

٣٠/٠٦/٢٠١٠

الشعراءُ يرحلون هكذا، صامتينَ، منسيّينَ.
هل سيذكرُهم أحدٌ؟
في هذا الكرنفالِ الجنازيّ لأمّـةٍ أُخرِجَتْ، قهراً، من التاريخ، لا أحدَ يذكرُ أحداً.
مصرُ ذاتُ خصوصيّةٍ هنا أيضاً.
قبل محمد عفيفي مطر، مَن كان يتذكّرُ محمد صالح؟
وقبل محمد صالح، مَن كان يتذكّر صلاح عبد الصبور؟
*
محمد عفيفي مطر، مات بما مات به ملايينُ المصريين، منذ كانت مصرُ، ومنذ كان النيل. مات بفايروس الكبِد الوبائي. ربما كان عفيفي أكثرَ تعرُّضاً للإصابةِ بالوباء، بسببٍ من طبيعةِ
غذائه، اللصيقةِ بفقرٍ حقيقيّ.
محمد كان يعيش في القرية، في الغيط (بتعبيره)، وكان إذا حلَّ بالقاهرةِ جلبَ معه غذاءه:
جُبناً قَريشاً، وأعشاباً من الحقل، بصلاً وثوماً وكّراثاً وجرجيراً.

كان يقول لي: ظلَّ الفلاّحُ المصريّ، لا يتناول من الساخنِ غيرَ الشاي.

*

لا أعتقدُ أن شاعراً مصرياً لقِيَ من العنَت والظلمِ، ما لقيه محمد عفيفي مطر.

لقد اعتُقِلَ، وعُذِّبَ، حتى كاد جسده يتهدّمُ تماماً.

ظلَّ أعواماً خاضعاً لعلاجٍ قد يُصلِحُ ما أفسده التعذيبُ من عصبٍ وعظمٍ ولحمٍ.

أمّا تهمتُه فهي انتماؤه إلى حزب البعث.

*

كان بيني وبين الرجلِ بُرودٌ ما، بسببٍ من سياجٍ سياسيّ صفيقٍ كان بيننا.

في إحدى زياراتي، للقاهرة، اعتذرتُ له، وقرأنا معاً في أمسيةٍ من أماسي معرض القاهرة الدوليّ للكتاب.

وأظنني، بِتُّ ليلةً، ضيفاً عليه، في شقّته المتواضعة، التي تحاذي النيل. وكان غذاؤنا بعضَ ما جاء به من «الغيط»: الجبن القَريش والجرجير. رحلَ محمد عفيفي مطر. عفيفَ اليدِ واللسانِ.

رسالةٌ إلى جوان ماكنلي

برليـن، ٠١/٠٧/٢٠١٠

عزيزتي جوان

صباح الخير

آمُلُ في أن تظلّي بخير، وأنتِ في مرفأ الصيد العتيق، جْـرِنْـزْبي، ومنزلِكِ الأول، منزل أمِّكِ وأبيكِ. لتكن أيّامُكِ هناكَ مفعَمةً بالحنانِ الذي تَنشدينه.

اليومَ، الأول من تموز، أبدأُ شهري الثاني، من إقامةٍ ببرلين.

وأمسِ، احتفلتُ مع ابنتي شيراز، بعيد ميلادها. كان الاحتفال بسيطاً. ذهبنا إلى منطقـــة Alt-Tegel «التيجل القديمة» وتناولنا بيتزا في مطعمٍ إيطاليّ متواضع. أردنا أوّلاً أن نتعشّى في ذلك المطعمِ الذي تعشَّينا فيه،أنتِ، أنا، شيراز، قبل عامٍ، إلاّ أن الصيف كان ساخناً، وأنتِ تعرفين وجباتِ المطعمِ الثقيلةَ.

بدأتُ آلَفُ العيشَ اليوميّ، في هذه العاصمة الأوربية العريقة.

أشعرُ أن سكّانَ برلين أقلُّ تحفُّظاً، وأرحبُ صدراً، من سكّانِ عواصمَ مثل لندن وباريس.

قد أكون متعجِّلاً في الـحُكمِ، لأني زائرٌ. أحكامُ الزائرِ غيرُ أحكامِ الـمُـقِـيمِ كما تعرفين.

على أيّ حالٍ، أنا لا أشعرُ، هنا، في برلين، بأني أجاورُ مَن احتلّوا مدينتي «البصرة»، وأعادوا استعمارَ العراق.

وأنتِ تعْلمينَ أنني منحتُ، حزبَ المحافظين، صوتي، في الانتخابات البريطانية الأخيرة،

ليسَ لأني أعدتُ النظر في قناعاتي اليسارية الراديكاليّة، بل لأنني لم أُرِدْ أن أمنحَ صوتي

لحزبِ حكومةِ المحتلّين.

أذكرُ أننا تحدّثْنا طويلاً حول الأمرِ.

أنتِ أيضاً، لم تصوِّتي لحزب العمّال. كنتِ تقولين: هذا ليسَ حزباً للعمّال.

عزيزتي جوان

تسلّمتُ رسالتَكِ، أمسِ، وسُعِدْتُ لأنكِ دائبةٌ، كعهدِكِ، على الكتابة، وإدامةِ حَمْلتِكِ

لاستعادةِ حقوقِكِ.

كما سَرَّني أنكِ تخطِّطينَ لرِحلةٍ طويلةٍ.

مَن يدري... قد نكون معاً في رحلةِ الحُلْمِ هذه! قبلاتي.

تحت شجرةٍ لا أعرفُ لها اسـماً

ربما كانت شجرةَ بلّوطٍ.
هي، بالتأكيد، ليست صفصافةً
ليست صنوبرةً
أو ســـروةً
ليست شجرةَ الزانِ السامقةَ
إلخ... إلخ...
هل عليّ أن أقولَ أيضاً:
إنها ليست نخلةً؟
.....
.....
.....
تحت هذه الشجرةِ
أنا والعصافير.
فوقَ هذه الشجرةِ
أنا والعصافير.
السماءُ الصافيةُ تجعلُ الورقَ الأخضرَ يَـشِـفُّ
حتى كأني أُبصِرُ الورقةَ التاليةَ عبرَ الورقةِ الأولى.

«يا شجرةً مُزهِرةً بالطيور»
الإسبانيّ خوان رامون خمينيث، أنطقَ الألمانيّةَ الجهمةَ أغرودةً. . .
سأظلُّ جالساً تحت هذه الشجرةِ
الشجرةِ التي لا أعرفُ لها اسماً
الشجرةِ التي لا تعرفُني.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

العصافيرُ فقط تَطْـمَـئِنُّ إليّ.

برلين، ٢٠١٠/٠٧/٠١

الـمِيـراث

في أواخر الثمانينيّاتِ، أطَلَّ على المجموعة العراقية الصغيرة في قبرص «نيقوسيا»، وكلُّها تحت خيمةٍ فلسطينيةٍ، شخصٌ غريبٌ. شابٌّ يحملُ جوازَ سفرٍ أميركيّاً، ويتخذُ السوادَ لباساً، ويحمل أوراقَ رسـمِهِ في حلِّـه وترحالِه.

هذا الشاّب اسمه:

هيثم عبد الجبّار عبد الله

ليس من عراقيّ يخطئ في تشخيصِ الشابّ.

إنه ابنُ عبد الجبار عبد الله، عالم الفيزياء الشهير، أوّل عميدٍ للجامعة الوطنية، جامعة بغداد، بعد ثورة الرابع عشر من تموز ١٩٥٨.

كان هيثم يريد أن يطلَّ علينا، نحن عراقيّي المنفى القبرصيّ. لم نحْسِن وفادتَه كعادتِنا. تحرير السماوي وحدَها اهتمّتْ به، كما يليق.

التقيتُ هيثماً أكثرَ من مرّةٍ.

ثم رحلَ هيثم عنّا، عائداً إلى نيويورك حيث يقيم.

في أحد الأيام أعطاني صديقٌ كان هناك، تخطيطاتِ بورتريه لي، من عمل هيثم.

احتفظتُ بالتخطيطات.

*

قبل سنين أتيحتْ لي فرصة زيارة نيويورك. سألتُ تحرير السماوي (المرحومة) إن كانت لا تزال على اتصالٍ بهيثم. نعم. وأعطتْني رقم هاتفِه هناك.

أخذتُ تخطيطاتِه معي. ربّما أرادَ الاحتفاظ بها.

هاتَـفـتُـه.

التقَينا في «القرية» على كأسَي بيرة.

فرِحَ برؤية التخطيطاتِ، لكنه آثَرَ أن أحتفظَ بها، أنا.

وماذا تفعلُ يا هيثم، هنا؟

قال: أنا أعملُ في متحف الميتروبوليتان!

أخبرتُه أنني زرتُ المتحفَ، وأريدُ أن أذهبَ إلى متحف الفن الحديث «الموم» اختصاراً.

قال: سأرتِّبُ زيارةً خاصّةً لكما (كنتُ مع أندريا، آنذاك، وهي رسّامةٌ محترفةٌ).

وقد صدَقَ حُرٌّ ما وعَدَ.

الحـقَّ أقولُ

إنّ هيثم عبد الجبّار عبد الله

تلقّى ميراثاً صعباً ثقيلاً

وعليه أن ينهضَ به...

النجمُ الـمندائيّ ليس لُعبـةً يُتَـلَهّـى بها
وهيثم يعرف ذلك.

*

في «المتروبوليتان»
وفي الجامـعـة...
وفي مَظهرِهِ الزِّمِّـيتِ
يفعلُ ما يريدُ.
يفعل ما يرى أننا نريدُ.
ولم يخطئ.
لم يخطئ، البتّـةَ

تخطيطات هيثم القبرصيّة

أحوالُ الكائنِ في مستوطنةٍ إغريقيّةٍ بالمتوسِّط

غُــرفــةُ إســماعيــل
Alexenderenen Str. 115

نافذةٌ في الغرفةِ
لا بابٌ. . .
إنْ حاولتَ دخولَ الغرفةِ
فابحَثْ عن مفتاحٍ للنافذةِ.
(البابُ تظلُّ، كما كانتْ مؤصَدةً)
حاوِلْ أن تجدَ المفتاحَ
و لا تيأسْ. . .
(إسماعيلُ يظلُّ الصامتَ)
ربّتما كان المفتاحُ بجيبِ الطيّارِ الحربيّ المخبولِ
أو الرسّامِ البغداديّ الهاربِ من بطشِ رفاقٍ أوباشٍ في عدَنٍ. . .
أو أنّ المفتاحَ مع الصيّادِ المتمدِّدِ تحت الشمسِ
بساحلِ أبْــيَــنَ. . . (كان شيوعيّاً من «باب الشّيخِ» تخرَّجَ في رومانيا)
أو أن المفتاحَ بِجِــيْــدِ فتاةٍ
كانتْ تتدرَّبُ في «مسرحِ بغدادَ الفنّيّ».
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

المفتاحُ أهَـمُّ من البابِ
المفتاحُ سيفتحُ كلَّ الأبوابِ
الأبوابِ المؤصَدةِ
الأبوابِ المرصودةِ
أبوابِ جهنّمَ
والجنّةِ
والبيكاجي . . .
أبوابِ الـمَنفيّ ببرلينَ الشرقيّةِ : إسماعيل!

---

* إسماعيل، هو إسماعيل خليل، المخرج المسـرحيّ العراقيّ.

يومـيّـاتُ روما

«يوميّات روما»، أو «قصائد إيروتيكيّـة»، هي مجموعةٌ صغيرةٌ من قصائدَ كتبَها الشاعر الألمانيّ غوته، عن رحلته الإيطاليّة.

القصائدُ نُشِرَتْ في حياته غير كاملة، ولم تُنشَر كاملةً إلاّ بعد وفاتِه.

بل أن صديقه الشاعر شيللّر الذي كان يصدِر مجلةً أدبيةً في فايمار، هي «دي هورن» مارَسَ نوعاً من الرقابة، وطلبَ من غوته الامتناع عن نشرِ إحدى القصائد، كما حذفَ من قصيدةٍ أخرى.

*

بإمكاننا الآن النظرُ إلى الأمر كله في ظروف القرنين الثامن عشر و التاسع عشـر بألمانيا، معتبرين دورَ المنصبِ الرسميّ، والوضعِ الاجتماعيّ، لغوته، آنذاك.

هذه القصائد الإيروتيكيّةُ، متفاوتةٌ في صراحتِها. بعضُها يمكن إدراجُه في ما اصطُـلِـحَ عليه عندنا بـ «الأيريّات»، مثل قصائده التي تمجِّـدُ «بريابوس» المرادفَ اللاتينيّ للأيــر.

بعضُها يمكن إدراجُه في الشعر الفاضح، مثل تلك القصيدة التي كتبَها عن فينيسيا «البندقية» مقارِناً بينَ ضيقِ أحدِ أزقّتِها، وضِيقِ فرْجِ عشيقتِه الإيطاليّة. كأنه يؤكدُ قولَ تلك الأعرابيّةِ:

يريدونه ضَـيِّـقاً، ضَـيَّـقَ اللهُ عليهم!

بعضُها تُـمْكِنُ إحالـتُــه على السـرد، مثل تلك القصيدة التي يروي فيها كيف تعطّلت

العربةُ التي كان يسافرُ بها، فاضطرّ على المبيت في نُزْلٍ. وهناك أقامَ علاقةً مع فتاة الـنُّـزْلِ التي تسلّلتْ إلى فراشِــه حين انتصفَ الليلُ، ولم يستطعْ أن يمضي في عملية الحبّ معها بعد أن قالت له إنها عذراء. . .

وثمّتَ قصائدُ يتحدث فيها عن عشيقتِه الإيطالية التي كلّفتْـه عِشـرتُها ثروةً، كما ذكرَ صديقٌ له، وكيف أن تلك الشابّةَ كانت تختالُ وهي في العربة في طريقِها إلى الأوبرا. . .

إنه سعيدٌ بأن يروي تفاصيلَ الفراشِ وما يجري فيه، كأن في الإعادةِ إفادةً، كما يقالُ.

وهناك كلامٌ عن ضعفٍ جنسيّ كان غوته يعاني منه، ومن هنا جاءتْ رحلتُه الإيطالية باعتبارها نوعاً من علاجٍ يبدو أنه كان شافياً.

بعد عودة الشاعر من إيطاليا، تزوّجَ فتاةً في الثامنة عشــرة!

«قصائد إيروتيكيّـة» تُعتبَر من نتاج غوته ذي القيمةِ الشِعرية العالية من ناحية الصنعة الشِعرية، ويُنظَـر إليها أيضاً باعتبارِها جزءاً من المهمّة التي نهضَ غوته بها باعتباره «محرِّراً»، وفاتحَ آفاقٍ في الثقافة الألمانية، والمجتمع الألمانيّ بعامّةٍ.

صَـيـفٌ بَرلـيـنـيّ

قطاراتُ الظهيرةِ. . .
كان شـــيءٌ من الضَّوعِ اســـتوائيٌّ
وكانت ســـراويلُ النساءِ تكادُ تَخفى
من القِصَـرِ.
الرجالُ مُـدَوَّخونَ الظهيرةَ.
سوف تمتلئ المقاهي بهم.
حتى إذا ضاقتْ أقاموا موائدَهم على العشبِ.
انتظرْنا مجيءَ السبتِ
يوماً بعدَ يومٍ،
وها نحن الأُلى يمشونَ دوماً رعاةً غافلينَ. . .
ألم تجدْنا بأبوابِ المحطّاتِ؟
النساءُ استرحنَ إلى براري الـعُـرْيِ
أسْـــرِعْ
ولا تَـخَـفِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

القطاراتُ استفاقتْ
ستَصْفِرُ، مرّةً أخرى، قليلاً
لتحملَنا
وترمينا،
بعيداً. . .
حيثُ لن يعوي قطارُ!

برلين، ٠٤/٠٧/٢٠١٠

اضطرابٌ جَــوِّيٌّ

تَـخــاطَـفَ البرقُ ليلاً
والبحيرةُ والأشــجارُ غابتْ.
ســماءٌ ليس يسـكـنُــها
ســوى تَـخاطُـفِ هذا البرقِ...
.....
.....
.....
ثانيةً
ويقصِفُ الرّعــدُ.
يأتي وابِلٌ هَـطِــلٌ؛
ويشــربُ النـبتُ أمواهاً مقدَّســةً
وتدخلُ الغرفــةَ
الأرواحُ والورَقُ
ويَخْطِفُ البرقُ...
في الـمَـبنى الـمُـواجــهِ بانتْ شُــرفةٌ
وبأعراقِ الجِـيرانيــومِ كانَ الكونُ يأتلِـقُ!

برلين، ٢٠١٠/٠٧/٠٥

النّــواقيــس

هنا، في برلين، لا تسمعُ النواقيسَ، إلاّ نادراً؛ أوّلاً لأنها خفيضةُ الرنين، وثانياً لأن الكنائسَ والكاثدرائيّاتِ قليلةٌ نسبيّاً.

برلين، على أيّ حالٍ، ليستْ مدينةً كاثوليكيةً، ولا تُـمْـكِـنُ مقارنتُها، في هذه النقطةِ، بباريس، المدينةِ التي تظلّ تئِنّ تحت سطوة الكاثوليكيّة. فرنسا جمهوريةٌ علمانيّةٌ لشعبٍ من المؤمنين الكاثوليك!

يقول بدر شاكر السياب:

بُوَيب

بُوَيب

أجراسُ بُرجٍ ضاعَ في قرارةِ النهَرْ

الماءُ في الـجِـرارِ، والغروبُ في الشّـجَـرْ

هنا يستعملُ بدرٌ كلمةَ «أجراس» ويعني بها النواقيس. البرجُ هو بُرجُ كنيسةٍ ما.

عندما نُقِلَت، إلى لغتنا العربيةِ، رواية إرنَستْ همنغواي الشهيرة:

To whome the bells toll

كان عنوانها: لِـمَن تدقّ الأجراس...

لكنّ «النواقيس» هي الأقربَ إلى روح الرواية.

وعلينا ملاحظة أن همنغواي استعمل الفعل

Toll

وليس Ring

الفعل الأول يعني رنيناً فيه حزنٌ، أي أنه ليس قرْعاً أو دَقّـاً كما يعني الفعلُ الثاني.

أرى أن العنوان الأقرب إلى روح رواية همنغواي (المرثيّـة) هو:

لِـمَـن ترِنُّ النواقيس

أو: لِـمَـن تئِنُّ النواقيس

*

في هذه الضاحية البرلينية، حيثُ أقيمُ، ضيفاً شِبْـهَ ثقيلٍ على ابنتي شـيراز، أدمنتُ الـمشيَ رياضةً ونزهةً، وفي مساءٍ مبكِّرٍ، قُبَيلَ السادسةِ، سمعتُ رنينَ ناقوسٍ خفيضاً. قلتُ لشيراز: لنتبع الصوتَ. أريد أن أرى الناقوس!

في أعلى مبنىً، كنتُ أمُرُّ به فلا أحسبُه كنيسةً، كان ناقوسٌ حقيقيٌّ صغيرٌ، ينوسُ جيئةً وذهاباً، ويتردّد صداه بالرغم من السيارات المسرعة عادةً. ظللنا ننصتُ إلى الرنين حتى الخفقة الأخيرة!

برلين، ٠٦/٠٧/٢٠١٠

حديقـةُ غِيْزونـد بْرونِنْ
Gesundbrunnen's Garden

مَـصاطِـبُـها (حينَ تَفْرَغُ من نائمِيها)
لها كُلْـحَـةُ الوحلِ.
والنائمونَ الذين مضَوا نحوَ أوَّلِ دُكّانةٍ في الصباحِ
سيأتونَ بالـجُـعَــةِ. . .
الصبحُ يفتحُ دفترَهُ في الحديقةِ
كي يكشفَ العشبُ تاريخَهُ
من هشيمِ زجاجٍ
ورائحةٍ لـخُـراءِ الكلابِ
وبَـولِ السّكارى.
كأنّ الحديقةَ مهجورةٌ منذُ أن خُـلِـقَتْ والغُراب. . .
كأنّ الذين بنَوا فندقَ «الهوليداي إنّ» جاراً لها
أنكَروا أنّ هذي الحديقةَ تُـسْــمى الحديقةَ
(كانت لهم خِرْبةً أو خراباً)
وقد يُخطىء المرءُ
مِـثلي،
فيأتي ليختارَ زاويةً للتأمُّلِ. . .

لكنهم يجمعون هشيمَ القناني، كما يَقطفونَ الزهورَ
وأعقابَ كلِّ السجائرِ
والإبَرَ،
العُـلَبَ الورقيّـةَ
والقيءَ. . . .
. . . . . .
زاويةٌ للتأمُّلِ؟

٢٠١٠/٠٧/٠٧

جَــوّابٌ

هذا الصباحَ، جلستُ تحتَ الخيمةِ الخضراءِ
تحتَ الدّوحـةِ. . .
العرَباتُ مســـرعـةٌ وعصفورٌ أتى هذي الدقيقةَ،
كلبُ ســـيِّـــدةٍ
وسائحتانِ يابانيّتانِ،
الشمسُ ناعمةٌ
ويَبْلغُني الهديرُ الـمـَعدِنيُّ:
قطارُ شَـحنٍ مَـرَّ تحتَ الجِســـر. . .
لا ماءٌ
ولا شجرٌ
قطاراتٌ تَـمُـــرُّ؛
الأرضُ حولي، خَشْـنـــةٌ، بُـنِّـيَّـــةٌ
لا عشبَ تحتَ الدوحـــةِ
امرأتانِ يابانيّتانِ. . .
أهيمُ، منذُ الفجرِ، في طُرُقاتِ برلينَ.
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

القطارُ يظلُّ يحملُني، كطَــيرِ الرُّخّ.

برلين، ٠٩/٠٧/٢٠١٠

الـنّســر البْروسِــيّ

كم قِيلَ: نَــسـرُ بْروســيا قد طارَ!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

منذُ نهاية الحربِ الأخيرةِ طارَ عن برلين.

لا ندري إلى أيّ الممالِكِ طارَ، أسحمَ في المســاء.

وهل بنى بالصخرِ والفولاذِ والذّهبِ الـمُـخـبّـأِ وكرَهُ؟

وبأيّ طيرٍ أو طرائدَ كان يقتاتُ. . .

المدينةُ (وهي برلينُ العجيبةُ) أغلَقَتْ حتى السّــماءَ،

وبابَ بوّاباتِها: بْـرانْـدِنْـبَرْغ، والجســرَ القديمَ.

ولن يعودَ النّــسـرُ

نسْـرُ بْروسِــيا. . .

*

واليومَ. . .

في الصيحاتِ

في الأبواقِ

في الراياتِ

في ما تنفثُ الكُرةُ البعيدةُ، تلكَ، من إفريقِـيا
أبصرْتُ ذاكَ النســـرَ
أسحمَ
مرهَفَ الـمنقارِ
مبسوطَ الجناحِ إلى النهايةِ،
كان نسْـــرُ بْروسِـــيا
يختالُ، في المرسيدس السوداء، كالجنرالِ
في برلين. . .

برلين، ١٠/٠٧/٢٠١٠

الـزاويةُ البـريطـانـيّـةُ

إذاً. . . اكتمَـلَ الأمرُ،
وصارتْ لكَ في هذا الكوكبِ زاويةٌ.
حقّاً، إنكَ لا تعرفُ أسماءَ الأشجارِ
ولا ما نطَقَ الطيرُ
وإنكَ لا تعرفُ فيها أحداً
(تلكَ رؤوسٌ من حَجَـرٍ، ووجوهٌ من قارٍ. . .)
ولسوفَ تُحشرِجُ إنْ قلتَ:
إلى أينَ تؤدِّي السككُ؟
الأغربُ أنكَ لم تدخلْ بيتاً لسواكَ
فلا جارَ
ولا أخبار
و لا حتى كلماتُ «صباح الخير. . .»
وإنْ كانت كاذبةً.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

لكنك تأوي، مثلَ سواكَ، إلى زاويةٍ
وقد اكتملَ الأمرُ
وصارتْ لكَ في هذا الكوكبِ زاويةٌ. . .
فلماذا تشكو؟
أ لأنّكَ ما صافحتَ، هنا، أحداً؟
أ لأنكَ ما صافحتَ، هنا، حتى نفسَك؟

برلين، ١٣/٠٧/٢٠١٠

مـع مؤيَّـد الراوي

كلّما حللتُ ببرلين زائراً، التقيتُ مؤيّداً.

أنا حريصٌ على الأمر، لأن في لقاء الرجل تجديدَ صداقةٍ، واستمتاعاً بأحاديث، ومقاربةَ دعابةٍ.

السبت الماضي أمضيتُ معه أربع ساعاتٍ.

التقَينا في منطقة ببرلين الشرقية ليست بعيدةً عن محطة مترو «وارشـــو»، منطقةٍ للمقاهي والمطاعم، وأهلِ الفنّ.

كان الناس يتابعون كرة القدم.

أمّا نحن، الأثنين، فلم نكن مسَمَّرَينِ إلى شاشة التلفزيون العريضة جداً.

كان حديثنا مختلفاً.

مؤيد الراوي يتساءل عن «أيّوبيّات» بدر شاكر السياب.

أتحملُ معنىً دينيّاً؟

هل المعنى الدينيّ في نصوص بدر الأخيرة مقصورٌ على فترة المرض، أم أن له تاريخاً أسبقَ في نصوصه؟

يقارن مؤيد بين بدر وناظم حكمت، وكيف أن ناظم حكمت ظلَّ قويّاً حتى النهاية، بينما كانت الرياح، حتى الخفيفة منها، تتقاذفُ بدراً.

يبدو أن المسألة ذاتُ إلحاحٍ.

ما السبب؟

مؤيد الآن يعاني من وطأة السّكّريّ.

بدأ بصرُه يَكِلُّ. ومشيتُه تضعُفُ.

صارت الكتابةُ عسيرةً، بل شبه مستحيلة.

اقترحتُ عليه أن يملي على فخرية البرزنجي، رفيقةِ حياته. قال: لا أستطيع. يجب أن أكتب!

*

لمؤيد الراوي فضلُ وضعِ قصيدة النثر، في وقتٍ مبكرٍ، على المسارِ الجادّ، مع ديوانه المرموق

«احتمالات الوضوح» الصادر في العام ١٩٧٤.

لا أحدَ يعود إلى هذه المعلومة.

«شعراء» المكتب الثاني للجيش، حوّلوا الأمرَ (أعني أمرَ قصيدة النثر) إلى مهزلة عامّة مُعَمّمةٍ.

برلين، ١٣/٠٧/٢٠١٠

مَـنْـظرٌ صباحيّ

كان عندَ البحيرةِ
مستسلماً لانعكاسِ الغصونِ على الماء.
أخضرُ ماءُ البحيرةِ
والطيرُ أخضرُ
حتى كراسـي السفينةِ في الـجُـرْفِ خضراءُ.
ناقوسُ تلك الكنيسـةِ، يُعلِنُ، وقتاً طويلاً
مجـيءَ الصباحِ.
المطارُ القريبُ استعدَّ ليستقبلَ الطائراتِ المبكِّـرةَ.
الآنَ، تلمُسُ صفصافةٌ بجدائلِها كَـتِـفَـيَّ،
وأهجِسُ أنّ أناملَ تضْـفِـرُ
إكليلَ آسٍ
بأزهارِ دُفلـى.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

البحيرةُ ليستْ بلادَ طيورٍ مهاجرةٍ.

بجعٌ أزرقٌ ظَلَّ منزلِقاً
في مياهٍ بلا موجةٍ
أو طحالبَ.
فاختةٌ تتهجّى اسمَها في مجاهلِ حُرْجٍ بعيد. . .

برلين، ١٤/٠٧/٢٠١٠

انتهيتُ من تدوينِ هذه القصيدةِ الشاملةِ
صباحَ الرابع عشر من شهر تمّوزَ
العميقِ أبداً، في العام ٢٠١٠.
وكنتُ في زيارةٍ لابنتي شيراز دامت شهرَين
كاملَينِ بين الأول من حزيران والأول من أيلول
٢٠١٠
هذه البانوراما البرلينيّة، فيـها
تقديرٌ ومَحَـبّـةٌ للحاضـــرة
الألمانيّةِ التي اتّسَعَتْ وتَحَمّلَـتْ.
وفيها ما يجعلُ الرِّحلةَ الدائبـةَ
أهَمَّ من تمتماتِ فَـرْدٍ، اسمُهُ:
ســـعدي يوسـف

برلين، ١٤/٠٧/٢٠١٠

صــورة أنـدريـا

Andrea's Profile

الأصفرُ بيتي

عند «دلال المفتي»، كان هواءٌ يتضوّعُ بالتبغِ الفرجينيّ،
برائحةٍ من أزهارٍ آتيةٍ من غيرِ مكانٍ، وبفَوْحِ نبيذٍ آتٍ
من مزرعةٍ بجنوبيّ فرنسا. عند «دلال المفتي» كان الصيفُ
شفيفاً مثل قميصٍ من شَبَكٍ. لا أدري كيف اجتمعَ الناسُ
اليومَ بدارِ «دلالٍ». ولماذا اجتمعوا...
كانت ألوانُ الغرفةِ والأثوابِ كما هي، لاتخطِفُ أبصاراً.
لكني، في مثلِ اللسعةِ والبرقِ، لمحتُ اللونَ الأصفرَ، ذاكَ
الثوبَ الأصفرَ...
سيكون الثوبُ الأصفرُ بيتي.
ستكون امرأتي: أندريا...

لندن، ١٤/ ٠٤/ ٢٠١١

---

* دلال المفتي: زوجة بلند الحيدري

Andrea's Profile

At Dalal Al-Mufti's, air was fragrant
With Virginian Tobacco, smell of
Exotic flowers and of wine from a South France farm.
At Dalal Al-Mufti's, summer was transparent as a net shirt.
I do not know how all these people congregated there, and why.
But I met like a sting or a lightning that Yellow, that yellow dress.
The yellow dress will be my dwelling.
Andrea will be my woman.

Translated by the author

London, 14/04/2011

* This is the opening page of my new Poetry Book, titled Andrea's Profile.

تسيرُ أندريا إلى السيّارة البيضاء

سأقولُ: أندِرْيا، لأني كلّما كرّرْتُ أنْدِرْيا ذهبتُ إلى النعيمِ
رأيتُ أندِرْيا لآخرِ مرّةٍ ليلاً
وكانت تحت ظلِّ البابِ واقفةً
وكان البردُ يُرْعِدُني
ويصبغُ وجهها، بالرغمِ من عنَتِ الشتاءِ، بحُمْرةِ الوردِ. . .
أقولُ لها: أسِفْتُ لِما جرى
وأسِفْتُ حتى القهرِ. . .
لكنّ الجميلةَ لم تَرُدَّ.
تسيرُ أندِرْيا إلى السيّارةِ البيضاءِ
لم تعطِفْ عليّ
وسارتْ، شهمةً، لم تنعطِفْ. . . نأتْ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
سأعودُ، مضنىً، نحوَ مَن كانتْ غريمتَهـــا!

١٥/ ٠٤/ ٢٠١١

وادي الجِـنّ

لماذا أبدأُ الأشياءَ، دوماً من نهايتِها؟
كأنّ الحـُلْمَ يأبى أن يدومَ ولو بذاكرةٍ مهلهَلةٍ
كأنّ الـحُلْمَ يَجْلِدُني،
ليخذِلَني
وكأنني أتلو، على قبري الذي عَمَّقْتُهُ بِـيَـديْ، صلاتي...
ستظلُّ أندِرْيا، البعيدةَ
بل ستظلُّ تنأى مثلَ ما ينأى الســـرابُ!
أقولُ: أنْدِرْيا!
ولكنْ ليس يسمعُني سوايَ
أليسَ وادي الجِنِّ أرحَمَ؟
لا أظنُّ مساءَ أنْدِرْيا مســـائي
فهي أبعَدُ مِن أسى عربيّتي....
هي، الحـَوراءُ، أبعَدُ عن عواسجَ سوفَ أخْضِدُها لأرقدَ...
يا فتىً!
ذهبَ الـنُّعاسُ الوَرْدُ
وابتدأَ السّـــهادُ!

١٥/ ٠٤/ ٢٠١١

لا تحاوِلْ في مَشرَب التاج

أطباقُ هذا البارِ، في هيثرو العتيقِ، كما هيَ
الكرسيّ في الممشى، كما هوَ
ثوبُ ساقيةِ النبيذِ، كما هوَ. . .
لكنّ أندِريا العجيبةَ لم تَعُدْ، أبداً، ترافقني!
لقد كنّا عجيبَينِ
اتّخذْنا العالَمَ المجهولَ، لُعبتَنا
ومَلعبَنا.
بلغْنا المنتهى
من قرية نيويورك حتى تَدْمُرَ. . .
ابتلّتْ مُلاءاتٌ بنا.
والآنَ؟
أسألُها، مُـلِـحّـاً أن ترُدَّ
فلا ترُدُّ. . .
تقولُ: إنّ دروبَنا افترقتْ
وفارقْنا الحديقةَ في دمشقَ؛

فلا تُحاوِلْ لَمسَ باطنِ راحتي آنَ المساءِ
ولا تحاوِلْ
لا تحاوِلْ!

Crown Bar Heathrow Airport
١٦/ ٠٤/ ٢٠١١

الأصواتُ تأتي من عروق الذهب

ليست الذكرى هي التي تُلهِمُ وتُلْهِبُ. الذكرى، وحدَها لا تكفي. أقولُ لكَ إنني أريدُ أن أستعيدَ. سأستعيدُ ما ليس يُستعادُ. قالت لي: زُرْني تجدْني، أنا في المنزل ذي الحديقة المهملة. أعشابي تنتظرُ. والماءُ منقطعٌ منذ عامٍ.

المنزل في الضاحية اللندنية كان مَشْغَلاً ومتحفاً. قلتُ: أين؟ قالت: الأريكة الضيّقة. اجلسْ ولا تتحرّكْ. لا تَقُلْ حتى كلمةً واحدةً. كنتُ غائباً عمّا هو حاضرٌ. الهواءُ حولي ليس هواءً. رائحةٌ فقط. لكنها لا تستعمل العطور.

من أين الرائحةُ، إذاً؟ قالت وهي تواجهُني، جالسةً على الأرض المفروشة بحَشِيّةٍ صغيرةٍ خفيضةٍ: أغمِضْ

عينيك!

فتحتْ أزراراً في سـروالي.

كنتُ مغمَضَ العينين.

قبلَ أن أُغمِضَ عينيّ، رأيتُها ترتدي ثوباً عريضاً ذا أزهارٍ غريبةٍ، وألوانٍ ليستْ من لندن الكابية.

أحسستُ بشفتَيها تنطبقانِ.

بدأتُ أئِنُّ.

كانتْ تَرضَـعُـنـي.

الحليبُ. حليبي. تدفّقَ كالنافورة!

براغ، ١٧/ ٠٤/ ٢٠١١

رجاءٌ

لَكأنّ أندِرْيا تراقبُني. . .
لَـكأنها تدعو علَيَّ بأن أنامَ على فراشٍ من مساميرٍ
وجَـــمْـــرٍ. . .
خَفِّفي، يا مَنْ عبدتُ سنينَ، من هولِ السّـــوادِ
ولا تقولي: ليتَهُ يهوي إلى سَـــقَـــرٍ!
دعيني لحظةً لأنامَ. . .
شهراً لم أنَمْ!
سـأُجَنُّ لو لم تتركيني لحظةً لأنـــامْ!

براغ، ١٨/ ٠٤/ ٢٠١١

الخــلاص

هذا المساءَ، أُحِسُّ بالبحرِ المزمجـرِ، ليلَه ونهارَهُ، ارتكنتْ عواصفُهُ
إلى مَن كان يمنحُ صوتَها المأوى
ويمنحُ رملَها ما ينبغي للهدأةِ البيضاءِ: أن تقوى لكي تمضي بنا بيضاءَ
في هذا المساء سأستريحُ إلى الهواء وملعب الأمواج
خافتةً
سأسمعُ ما تناديني به تلك الطيورُ
وأسمعُ وهْمَ زحفٍ من سلاحفَ
أو جنادبَ. . .
أسمعُ الريحَ الشفيفَ رفيفَ ريشٍ من ملائكةٍ هبطتْ عليّ. . .
تقولُ: يا سعدي:
أفِقْ!
وأفِقْ!
فلا امرأةٌ بهذا الكونِ أرأفَ!
لا تكُنْ متعلِّقَ الأثوابِ بالعُـلَّـيقِ!
فانفضْ من رُقى السعلاةِ، يا ولَدي، ثيابكَ
مرّتَينِ
ودعْ لَـهُنّ قذارةَ الـمَـبْغى الذي في وحشةِ الصحراء. . .

١٨/ ٠٤/ ٢٠١١

في تَدْمُر

في فندق الجيش الفرنسيّ القديمِ، وظـلّ يُصْبَغُ، دائماً، بالـ Jaune Coloniale أي بالأصفرِ المشهورِ في الثّـكُناتِ، كنّا، أنا وحبيبةُ الأعوامِ، أنْدِرْيا، نراقبُ من زجاجِ الغرفةِ، الطرقاتِ والأحجارَ، أعمدةَ المعابدِ، والحِجارةَ. تلك شمسٌ أقبلتْ من درعِ جنديٍّ وتلك حجارةٌ من معبدٍ للشمس. وجْهُ حبيبتي يغدو ندىً لشقائقِ النُّـعمانِ. لم تعرفْ طوالَ العُمْرِ أندِريا بأنّ الشمسَ تُحرِقُ! قلتُ: أندِريا، فدَيتُكِ! ربّما ضربتْكِ هذي الشمسُ ضربةَ تَدْمُرٍ! لكنها أبت النصيحةَ. إنها في غرفة الجيشِ الفرنسيّ القديمِ تَئِنُّ. أركضُ نحوَ من يَهَبُ الدواءَ. الصيدليةُ سوف أبْلُغُها، مُعَنّىً، لاهثَ الأنفاسِ. أنقِذْها إلهي! لم تجيء من بردِ أوربا لتذوي تحتَ شمسِ المعْبَدِ السـوريّ! أندِريا تُفيقُ كأنها انتبهتْ لأولِ مرّةٍ... وكأنّها وُلِدَتْ، هنا، مذهولةً، ورديّةَ الوجَنات!

براغ، ١٩/ ٠٤/ ٢٠١١

أندريا في ماء الفرات

مَـن قالَ: أندِريا ستسبحُ في الفراتِ؟
الماءُ كان السلسبيلَ، وكانَ طيرٌ أبيضٌ ضَـلَّ السبيلَ
إلى الفراتِ يظنُّـــهُ بحراً. . .
وأندِريا، وقد غُمِرتْ بأمواهٍ مقدّسةٍ، تلُوحُ غريبةَ الأطرافِ
والأطوارِ. . .
كان الماءُ يجعلُها خرافةَ طائرٍ متطهِّرٍ بالماء. . .
كان الماءُ كأساً طافحـــاً
ونعومةُ الجســـدِ الشفيفِ بشمس أيلولٍ
نـعِـــيمـــاَ!

براغ، ٢٠/ ٠٤/ ٢٠١١

أنا وأندريا والسطـحُ

لم تكن غرفةً مثل تلك التي نحن نعرفُها كالغُرَفْ
كان فيها من السّطْحِ شـيءٌ
ومن شُرفةِ البيتِ شـيء. . .
وسيّدةُ البيتِ كانت، كما افتخرتْ، إنجليزيّةً مع كلبتِها المتوحِّشـةِ النابحةْ. . .
كنتُ أكره أن أدخلَ البيتَ من رُعْبِ كلبتِها
(وهي كانت تقول لنا: أنتمُ الـمُرعِبون!)
لستُ أفهمُ هذا الجنون. . .
غيرَ أني وصاحبتي سوف نصعدُ ليلاً إلى السطحِ
كي نفعلَ الحُبَّ
تحت ضياءِ القمرْ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لم أقُلْ إن ذلك كانَ جنوبَ فرنسـا
بِـ «لُـودَيف» حيثُ القصائـد!

براغ، ٢٠/ ٠٤/ ٢٠١١

رايةُ كارل ماركس

كنّـــا: أعني أندِرْيا، وأنا. . .
نحملُ رايةَ كارل ماركس، ونهتفُ في الشارعِ
في ترافلغار سِكْوَير
ومقابلَ ١٠ داوِنِنْغ سِترِيت. . .
نهتفُ حتى يختنقَ الصوتُ
وتُخْفِقَ، تحتَ هِراواتِ الشّرْطةِ والريحِ، تَظاهرةٌ.
ما كانت أندِرْيا تتردّدُ
أشجعَ مني كانتْ
وأرَقَّ. . .

براغ، ٢٠،٠٤،٢٠١١

مزرعة الكُروم

نحن كنّا، بمنتصَفٍ للمسافة، ما بين لِـنْتــس، وبين فِـيَـنّا
وكان على النهر، أعني الـدُنافَ، اسمَ دانوبِهِم، ههنـــا. . . نسَماتٌ ربيعيّةٌ
(نحن في الصيفِ)
قلتُ: أندِرْيا هل نبلغُ الليلةَ، العاصمةْ؟
لم تُجِبْ
ربّما تعِبَتْ من قيادةِ سيّارةٍ
ربّما تعِبَتْ من حديثي عن العاصمةْ. . .
ضحكتْ، فجأةً، ثم قالت:
نبيتُ، هنا، الليلةَ!
تعنِينَ، نغفو قليلاً، على ضفةِ النهرِ؟
- لا!
سوف ننعَمُ بالـحُبِّ في المزرعةْ!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هكذا ابتدأتْ ليلةُ الحبّ في غرفةٍ
وسْطَ مزرعةٍ للكروم!

لندن، ٢٢/ ٠٤/ ٢٠١١

أُقَلِّدُ العُذْريّين!

وقد أتَهَجّى بينَ حُلْمٍ ويقْظةٍ
حروفَ اسمِها. . .
لكنْ، تَروغُ المَشاهدُ
كأنّك لم تذهبْ إليها ولم تَنَلْ
وأنّ الذي تَرضى به، أنتَ، واحدُ!
سلاماً إذاً
واذهَبْ مع الحُلْمِ
مرّةً
فأُخرى
ولا تسأمْ. . . فأنتَ المجاهِدُ!

لندن، ٢٢/ ٠٤/ ٢٠١١

تلك الظهيرة البرلينيّة

تقولينَ، أندِريا، إذاً. . .كيف أطبقَتْ جُوانُ عليكَ؟
الحقُّ أنني تلَبّثْتُ في برلينَ
أكثرَ. . .
كانت إبنتي، دائماً معي
وشيرازُ تدري أنني لستُ عارفاً بعنوانِ مَن خانَـتْـكِ
لكنّنا معاً ذهبنا، صباحاً، بل دخلْنا بَساطةً
إلى غرفة جوانَ البسيطةِ. . .
لم يكنْ لدَيها، بحقٍّ، أيّ شـــيءٍ!
وفي غدٍ
ذهبتُ إليها، دون شيرازَ، قلتُ: مطعمٌ قريبٌ!
وهذا الذي قد كانَ. . .
قد كانَ ثمّتَ النبيذُ، وخنزيرٌ شواءٌ، وموعدٌ مع النجمِ. . .
عُدْنا
كنتُ كالـتّيسِ، قد ثمِلْتُ. . .
ولم أشعرْ، وفي محْضِ لحظةٍ، بأنّ جوانَ استفتحَتْ بعد لحظةٍ
تُفَتِّحُ أزرارَ القميصِ. . .
وقرّبَتْ، وفي مِثلِ فِعْلِ السِّحْرِ، خُصلاتِها

ثمّ أطبقَتْ على العضوِ
حتى كدتُ أصرخُ . . .
هكذا بدأنا
فلا تستغربي!
نحنُ أُمّةٌ نموتُ، طويلاً، في الغواني، ونُـبْـعَـثُ!

لندن، ٢٢/ ٠٤/ ٢٠١١

أيُّ كَـرَمٍ!

مُـنِـحْتُ فراشَ أُمِّـكِ
كنتِ تعـبى
مُـنَعّمةً
ولم يَـضِقِ السريرُ. . .
كأني أسمعُ الشهقاتِ تُمسي
مُـكَـتَّـمةً. . .
كأني الـمُكَـرَّمُ، بين ساقَيكِ، الأميرُ
غفَونا لحظةً
لنقومَ أُخرى
وكان فِـراشُ أُمِّـكِ ضوعَ آسٍ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أهذا البحرُ شــرشــفُـنا الوثيرُ!

لندن، ٢٣/ ٠٤/ ٢٠١١

صباح عيد الفِصْح

لم أنَمْ لَـيلـتَين
منذ أن جاءَ صوتُكِ في هاتفِ الليلِ
أنتِ التي تعرفين انثناءةَ هُـدْبي إذا استأتُ. . .
ماذا جرى؟
أنتِ تدرينَ ماذا جرى
أنا أعرفُ ماذا جرى. . .
يا صديقةَ تِسْـــعٍ من السنواتِ العجيبةِ
هل آنَ لي أن أقول :َ
أُحِـبُّـكِ؟

لندن، ٢٣/ ٠٤/ ٢٠١١

That Rainy Day

Not because a rainy day is strangely knocking at my window like a thief.
Not because I am dwelling in this watery steppe. Not because the sun has dwelt
In the books of travelers and poets. And not because...
I say: I am burdened by waiting angels; the trees are only trees, while I am looking for shade. The falling rain is not deep water. Through the skein of its pulse
Surge rivers, ships of timber and boats of papyrus. The rain does not reach me.
The rain does not moisten my lips. But the green railings there are shimmering
With watery light. And in the distance flowers and headstones quench their thirst.
No more squirrels or birds. My very pores open to the music.

She was in the balcony. The sun rose in the corner of her garden, a bower for
Grassy tones and dry, rustling leaves. The woman was neither looking nor being looked at. The woman was absent. I, alone, was collecting the fragments of her
Image, her limbs, and the memory of a kiss one day in the corner café.
What planted this green in the blue?
Music. A sun from volcanoes islands. The woman is about

moving, about taking a form. Now I glimpse a tress of straight hair, the fullness of a lower lip. Music. The balcony becomes the balcony of a house: a small table, two chairs, a bottle of wine, two glasses and some Spanish peaches. And in the corner a cactus. The woman turns. Now we are two. We shall dwell on the balcony. The sun will come to our glasses. We shall see the moment. Music.

The falling rain is falling.

We are behind the balcony's glass screen. The room is a bit cold. Her room
Was charged with the smell of paint and the aroma of the Kirghiz carpet. The wetness of the day is sticky beneath my shirt. The woman gave me the ember of her lips. Did she slip the ember under my shirt? I feel like a wanderer in a land of Hot Springs and tores. My breathing is the continuous music of strings. My fingers are the bars. My breathing is the continuous music of strings. The music throbs. I don't see any rain. A crystal light falls across the glass screen.
This falling rain is falling.
Falling...

I feel the hot rain.

Minutes.
Minutes only and I shall make with your love a narrow bed.
Music.

Translated by the author
London, September 2001

ذلك النهار الممطر

ليسَ لأنّ نهاراً ذا مطرٍ يطرقُ نافذتي مثلَ اللصّ عجيباً
ليس لأني في هذي الصحراءِ المائيّةِ. ليس لأنّ الشمسَ
أقامتْ في كتُبٍ للرحّالةِ والشعراءِ، وليس لأنّ. . .
أقولُ: أنا مضنىً بملائكةٍ ينتظرون. الأشجارُ هي الأشجارُ
ولكني أبحثُ عن ظلٍّ، والمطرُ الـمُسّاقطُ ليس مياهاً.
عبرَ خرائطَ في النبضِ، تَـمَـوَّجُ أنهارٌ وسفائنُ من لوحٍ،
وزوارقُ من بُرديٍّ. . . مطرٌ لا يبلغُني. مطرٌ لا تبتَلُّ
الشفتانِ به. تلتمعُ القضبانُ الخضرُ (سياجُ المقبرةِ البولونيّةِ)
بالنور المائيّ. وأبعدَ، أبعدَ، تشربُ أزهارٌ وشواهدُ.
لن ألمحَ سنجاباً أو طيراً. أُرهِفُ أضلاعي للموسيقـى.

كانت في الشرفةِ. والشمسُ أقامت في ركنِ حديقتِها
بيتاً لتلاوينِ العشبِ، وللورقِ اليابسِ. لم تكن المرأةُ
تنظرُ أو تنتظرُ. المرأةُ كانت غائبةً. أنا وحدي كنتُ أُلَملِمُ
صورتَها، والأعضاءَ، وذكرى القُبلةِ في زاويةِ المقهى يوماًما.
ما أنبَتَ هذا الأخضرَ في الأزرقِ؟ موسيقى.
شمسٌ من جُزُرٍ ذاتِ براكينَ. المرأةُ توشكُ أن تتحرّكَ، أن تبدو،

أن تتشكّلَ. هاأنذا ألمحُ خُصلةَ شَعرٍ سَبْطٍ. مكتنَزاً من شفةٍ
سفلى. موسيقى. والشرفةُ تغدو شرفةَ بيتٍ. طاولةٌ صغرى.
كرسيّانِ. زجاجةُ خمرٍ. قدحانِ. وحبّاتٌ من مشمشِ إسبانيا.
في زاويةِ الشرفةِ نبتةُ صبّارٍ. تلتفتُ المرأةُ. ها نحن اثنانِ. سنسكنُ
في الشرفةِ. سوف تجيء الشمسُ إلى كأسَينا. سوفَ نرى اللحظةَ.
موســـيقـــى.

المطرُ الـمُسّاقطُ يَسّاقَطُ.
كنا خلف زجاجِ الشرفةِ. والغرفةُ باردةٌ شيئًاما. غرفتُها كانت
تلتَزُّ برائحةِ الأصباغِ. وضَوعِ السجّادِ القرغيزيّ. كأنّ رطوبةَ
هذا اليومِ التصقتْ تحت قميصي. تمنحني المرأةُ من شفتَيها
الجمرةَ.
هل غلغلَتِ الجمرةَ تحت قميصي؟ أحسستُ بأني طوّافٌ في أرضٍ
ذاتِ عيونٍ ساخنةٍ وتضاريسَ.
أصابعيَ القَدمانِ. وأنفاسي موسيقى وتَرٍ لا تتلاشى.
موسيقى تَصّاعَدُ أو تهبطُ. لستُ أرى مطراً.
عبرَ زجاجِ الشرفةِ كان الضوءُ شفيفاً.

لكنّ المطرَ الـمُـسّاقِطَ يَسّاقَطُ
هذا المطرُ الـمُسّاقطُ يَسّاقَطُ
يَسّاقَطُ. . .
أشعرُ بالمطرِ الساخنِ

بعدَ دقائقَ، حسْبُ. . . سأفعلُ حُبّكِ
مثلَ سريرٍ ضيّقْ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

موسيقى.

لندن، ٢٠٠١/٠٩/٠٦

الفـنــادق

للفنادقِ
تلك التي قد أقَـمْـنـا بها
والفنادقِ تلك التي ما أقَـمْـنـــا بها. . .
سأقول: السلام!
أنحني الآنَ للغرفةِ الدافئةْ
لقماشِ الستائرِ
للقهوةِ التي وصلتْ أمسِ من شمس إفريقيـــا
للوسائدِ إذْ تُسْـنِـــدُ الإلْـيـتَـين
أنحني لارتعاشِ اليدَين
قبلَ أن نفعلَ الـحُـبَّ. . .
لن أنحني بَـعْـدُ
إنّ الفنادقَ قد رحلتْ، بَـغْـتـةً، في الضَّـباب.

لندن، ٢٧/ ٠٤/ ٢٠١١

باب اللــوق

كنّـا: أندريا وأنـــا في «باب اللوق»
كنّا نمشي كلَّ صباحٍ من باب اللوق إلى «طلعت حرب»
نجلسُ، أحياناً، في دكّانٍ للقهوةِ
أو نمضي، قُـدُمـــاً، لكنّا لا نجرؤُ ثانيةً أن ندخلَ «ميدانَ التحرير»
فقد اختنقتْ أندريا ذاتَ صباحٍ
من أدخنةِ السيّاراتِ
ومن أبواق السيّاراتِ
وقالتْ: سأغادرُ مصرَ إذا كانت مصرُ تُسَـــمّى ميدانَ التحرير!

لندن، ٢٩/ ٠٤/ ٢٠١١

زفافٌ ملَكيّ

كاترين ووِلْـيَــمُ صارا اليومَ، أخيراً، زوجَين
نحن نودِّعُ نيسانَ
(الشهرَ الأقسى مع ت.س. إليوت)
لكني مع أندِريا كان لنا، أيضاً، ما كان لنا...
قبل سنينٍ وسنين
في نيسانَ كما أتذكّرُ.
(كان زفافاً ملَكيّاً!)

.....

.....

.....

في المرآبِ
بقبوِ الـمـبْنى
في مقعدِ سيّارتِها الخلفيّ.
كان زفافاً حرّاً
كان زفافاً حارّاً
كان زفافاً أرهفَ طَعْماً من ملَكيٍّ...
(نحن على أيةِ حالٍ جمهوريّون!)

لندن، ٢٩/ ٠٤/ ٢٠١١

البحيرة المتجمِّدة

لستُ أعلَمُ، بالضبطِ، أينَ الـبُحيرةُ تلكَ. . .
لقد مَرَّ قَرنٌ علينا،
وتقطّعتِ السُّـبُـلُ:
البنتُ تلك التي كنتُ أعرفُها، وأُغَنِّي اسمَها
أندرِيا
ذهبتْ دون أن تنحني لحظةً للوداع.
وهي كانت معي عند تلك البحيرةِ
هيَ مَن دلّني. . .
هي مَن قالَ لي إن هذي البحيرةَ قد تصِلُ القلبَ بالألْبِ.
مَن قال لي إن هذي البحيرةَ أعمقُ من فُوّهاتِ البراكينِ
في هضْبةٍ هي إثيوبيا!
الآنَ أذكرُ أني ارتعدتُ لـمرأى البحيرةِ
أني ارتجفتُ
وما كان بَرداً. . .
هل كنتُ أحدِسُ؟
هل كنتُ أعرفُ أنّا سنفقدُ يوماً خرائطَنا نحوَ ما يصِلُ الألبَ بالقلبِ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

تلك البحيرةُ. . .

لندن، ٢٩/ ٠٤/ ٢٠١١

مرّاكش يا أندريا!

حبيبتي التي أحببتُ دوماً
والتي عذّبتُ دوماً
والتي أسألُها الليلةَ أن تهدأَ كي نبْلغَ مرّاكشَ
أعني الرّوضَ في مرّاكشَ الحمراءِ
آنَ الزمنُ الوَرْدُ
وآنَ الليلُ ضوعٌ: ياسمينٌ وندىً. . .
حبيبتي التي أحببتُ:
ماذا حلَّ؟
هلْ هلَّ زمانٌ آخرُ؟
الساحةُ لَمّا تزل الساحةَ
والمقهى الذي نعرفُه لم يزل المقهـــى
وخبز الفجرِ والزيتون والجبنةُ
برنار نُوَيل
إيزابَلاّ. . .
وأزهارُ النباتاتِ التي لا نعرفُ. . .
الليلةَ

أندِريا
أُصَلّي كي أرى ما كان في مرّاكشَ الحمراءِ
يبدو مترَعاً في شفتيك!

لندن، ٢٠١١/٠٥/٠١

هذا الأوّل من أيّار

لم أشعرْ، أبداً، أني ناءٍ
ووحيدٌ
مثل شعوري في هذا الأوّل من أيّار. . .
ما حدّثَني أحدٌ
وأنا، لم أتحدّثْ، حتى في السِّـرِّ، إلى أحدٍ.
والعمّالُ احتفلوا في الباراتِ
وأُغلِقَت الساحةُ
لا أعلامَ
ولا أحلامَ. . .
وأندِرْيا تركت لندنَ كي تسكنَ روما، شهراً
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
حسناً يا ولدي!
نَمْ
وانتظرِ الأوّلَ من أيّارَ يُلَوِّحُ في أحلامِكَ
بالرايات الـحُمْـرِ
وبالقبَضات. . .

لندن، ٠٢/ ٠٥/ ٢٠١١

قصـــائد فارمـونـد
The Warmond Poems

كُتِبَت النصوص الثلاثون الأولى، بين الثالث من أيّار (مايو) ٢٠١١ والثاني عشر منه، في قرية فارموند الهولندية من أرباض لايدِن.
القصائد ممسوسةٌ.
بمعنى أنها كُـتبَتْ تحت وطأة حُمّى شديدةٍ أصابتني في الفترة هذه.
لـم أحاولْ إعادةَ نظرٍ أو مراجعةَ كتابةٍ، وتركتُ النصوصَ عاريةً.
لكنها ليست مسوّداتٍ.
إنها التجربةُ على أيّ حالٍ.
تجربة الكتابة المتواترة، المتوتِّرة، في ظروفٍ غيرِ مساعِدةٍ.
القصائد الإثنتا عشرة المتبقّية، قد تكون ذاتَ ارتخاءٍما.
(قصائد فارموند) تُشكّـلُ متناً أساساً في ديوان (صورة أندريا)
Andrea's Profile

*

أكثر من سماءٍ واحدةٍ

الآن، صرتُ أقتنعُ، بأننا، أنتِ وأنا، يا أندريا
لسنا تحت سماءٍ واحدةٍ. لِمَ أقولُ هذا بعدَ الأعوامِ
كلِّها؟ بعدَ أنْ لم يَعُدْ لدينا ما يلسعُ في جسدِ الآخرِ
وارتعاشةِ الهـُـدْبِ؟ هل اللغةُ سياجٌ؟ واللونُ؟
أعني البشَرةَ والعينين ورايةَ الشَّعرِ؟ الأتراك الذين كادوا
يقتحمون بوّابةَ فِـيَيـنّا؟ أم تظنينه الصيفَ؟ الصيفَ
بهوائهِ الخفيفِ ونبيذِه الأبيض؟ دعي الستائرَ مُسْدلةً.
مَن قال إن الصراحةَ فضيلةٌ؟ ألم يكُنْ خيراً لكِ لو تجاهلتِ
المرأةَ الأخرى؟ ألم يكُنْ خيراً لي (ثم لنا نحن الإثنين)
أن أتجاهلَ الرجُلَ الآخرَ؟ هل سيختلفُ العالَمُ؟
أعني هل ستَغرُبُ الشمسُ من الشرقِ؟ شجرةُ التينِ
في حديقتِكِ المنزليّةِ لا تزالُ تُثمرُ تيناً أخضرَ مُرّاً.
والزيتونةُ التي زرعتِها أنتِ بيدَيكِ القويّتَينِ، في حديقتي
المنزليةِ بهَيرفيلد، لن تثمرَ أبداً. لكني أنتظرُ. على المرءِ
أن ينتظرَ الشجرةَ. الشجرةُ، وحدَها، تعرفُ مواعيدَها.

فارموند، ٠٣/ ٠٥/ ٢٠١١

في نيويورك

هل نحنُ في تفّاحةِ نيويورك؟
ماذا لوتناوحت الرياحُ، وأقفرتْ ليلاً مقاهي الجازِ؟
هل سـنُـعِــدُّ مائدةً لشخصَينِ؟
وهل سنعودُ من ذاكَ الدُّوارِ بمتحفِ الفنّ الحديثِ؟
أكان بيكاسو يناقِشُ مَن تكونينَ:
الفضاءَ الحُرَّ
والموديل
والعنقاءَ...
أمْ في كنائسِ هارلِم... المأوى؟
وآخِرُ خلْـجـةٍ للجازِ؟
والتْ وِيتمان يعْبرُ، قبلَنا، الجسرَ الصديءَ
ونحن منتظِرانِ
في مقهىً بلا جازٍ
ولا أزهارِ مائدةٍ لشخصَينِ
.....
.....
.....
الرياحُ تناوَحَتْ.

فارموند، ٢٠١١/٠٥/٠٤

الخيمة النمساويّـة

خيمتُكِ النمساويّةُ
قد نُصِبَتْ منذ ثلاثةِ أيّامٍ
في أرضِ الصوماليّينَ
بلندنَ،
لكنْ منذُ ثلاثةِ أيّامٍ
وثلاثِ ليالٍ أيضاً
لم يدخلْ في الخيمةِ طفلٌ صوماليٌّ!
كان هنالك موسيقى
مسرحُ سحرٍ وعرائسَ
رقصٌ هنديٌّ للمطرِ. . .
لكنْ
منذُ ثلاثةِ أيّامٍ
وثلاثِ ليالٍ
لم يدخلْ طفلٌ صوماليٌّ
خيمتَكِ النمساويّةَ
خيمةَ تلكَ الساحرةِ النصرانيّةِ
خاطفةِ الأطفالِ الصوماليّين إلى الجنّةِ،
جَـنّــتِــها!

فارموند، ٠٥/٠٥/٢٠١١

نانتاكِيتْ Nantucket

كيف كان العبورُ إلى نانتاكِيتْ؟
ربما كانَ رأدَ الضحى
غيرَ أني أظلُّ أراه. . . غريباً وملتبِساً
لا زمانَ لـهُ،
هل عبرْنا على غيمةٍ من ضَبابٍ وأبخرةٍ؟
والجزيرةُ؟
مرعىً لحيتانِ هِرمان مَلفيل. . .
مقهى
ومقهى
ومقهى
وليس سوى موبي دِكْ
كأنّ الزمانَ توقَّفْ. . .
كأنْ لا إله سوى موبي دِكْ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

أتذكّرُ جلستَكِ: البارَ. . . كأسَ النبيذِ
قلنسوةَ البحرِ،
عينَيكِ
شاخصتَينِ إلى جُزرٍ هي أبعَدُ من نانتاكيت!

فارموند، ٠٥/٠٥/٢٠١١

المرسَم الأوّل

يبدأُ المرسمُ حيثُ تنتهي السلالِـــمُ. لن يأتي أحدٌ هنا غيركِ، وغير رسّامَينِ: أحدهما محترِفٌ، والآخرُ مِسكين. موظّفو المبنى البلديّ والباحثون عن عملٍ لن يرتقوا هذه السلالِـمَ التي تكادُ لا تنتهي. كأنّكِ في غرفةِ خادمـةٍ في السماء السابعةِ لباريس. لم نتحدّثْ من قبلُ. كنتِ ترسُمين. مغرمةً بالمثلّثِ، كما أنتِ الآنَ. مغرمةً بالدلتا. كنتِ ترسُمين الدلتا ربما للمـرّةِ الألفِ. زجاجةُ نبيذٍ أبيضَ أسفل حاملِ اللوحةِ. وحبّاتُ عنبٍ. الظهيرةُ اللندنيّةُ كانت واضحةً ذلكَ اليومَ. قلتُ لكِ: دلتا فينوس. سألـتُكِ: أقرأتِ «دلتا فينوس» لأناييس نين؟نظرتِ إليّ نظرةً طويلةً. ابتسمتِ في داخلِكِ. كانت شفتاكِ الدقيقتانِ شِبْهَ مزمومتَينِ. ملأتِ الكأسَ حتـى نِصْفِها بالنبيذ الأبيض. لم يكُنْ فرنسيّاً. قدّمتِ لي ثلاثَ حبّاتِ عنبٍ. قلتِ: قرأتُ أناييس نين. لم أسألْ بأيّ لغةٍ؟ هل تفَضِّلينَ الألمانيّةَ بلهجةِ الجنوبِ الألمانيّ؟ أنتِ من لِينتس. LINZ

لم أفارقْكِ تلكَ الظهيرةَ. لا أتذكّرُ الآنَ إلى أيّ مكانٍ انتهَينا.

إلى بار «الأسد الأحمر» في هانوَيل؟
غرفتِكِ المحتشدةِ في نورثهولت.
أم إلى اللامكان؟

فارموند، ٠٥/٠٥/٢٠١١

في قريةٍ هولنديّةٍ

أريدُ أن أراكِ الآنَ
أندريا. . .
صباحٌ باردٌ في قريةِ فارموند
Warmond
بالقُربِ من لايدِن. . .
والأشجارُ لا ترتعشُ
الشارعُ لا يرتعشُ. . .
الطيرُ
زجاجُ البابِ
حتى الجسرُ
لا يرتعشُ. . .
اليومَ، الضحى عالٍ، ربيعيٌّ
ولكنّ النهارَ الجهْمَ لا يرتعشُ. . .
القضبانُ قد أطبَقَت
البابُ الحديدُ امتدَّ حتى أُغلِقَ العالَمُ،
أندريا. . .
أريدُ أن أراكِ الآن!

فارموند، ٠٥/٠٥/٢٠١١

يوم التحرير

في حديقة المنزلِ شبهِ المهملة
الحديقةِ التي لا يجلسُ فيها أحدٌ
الحديقةِ التي لا يُجالسُني فيها أحدٌ
الحديقةِ ذاتِ الأصُصِ شبهِ الميّتةِ
أفكِّرُ فيكِ
وأنا أسمعُ للمرّةِ الأولى أصواتَ بَشَـــرٍ
تَبْلغُني
هنا
في هذا المكان
في هذه القرية الهولندية
إنه «يومُ التحريرِ»
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
هذا النهارَ أحتفلُ
وأنا في الحديقةِ المهجورةِ
أحتفلُ:
لقد سمعتُ أصواتَ بشَـــرٍ!

فارموند، ٠٥/٠٥/٢٠١١

في الغـابة

تلك الغابةُ
التي بلغناها بعدَ القائلةِ العسلِ
في منزل البحيرةِ
حيثُ ما زالت دِنانُ التكيلا نصفَ ملأى
من عرسِ العامِ الفائتِ
لفتى الفتيانِ (ابنِ عمِّكِ)
تلك الغابةُ
كادت تشهدُ عُريَنا
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
الآن
في زاويةٍ مهملةٍ من حديقتي بهيرفيلد
يبزُغُ كلَّ ربيعٍ، نبْتٌ متسلِّقٌ
أتيتُ ببذورِهِ من تلك الغابةِ.
أسألُكِ الآنَ:
هل نتعلّمُ من النبتِ المتسلِّقِ

كيفَ نعودُ؟
كيف نعودُ في الربيعِ؟
في هذا الربيعِ مثلاً. . .

فارموند، ٢٠١١/٠٥/٠٥

تحوّلاتُ أندريا

من التشخيص إلى اللاتشخيص
من الملموس إلى المجرَّد
من التجريديّ إلى التزيينيّ
من الرسم إلى اللارســـم
من نجمة الصباح إلى نجمة
من امرأةٍ إلى مفهومِ امرأة
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لكني أحبُّها
ماذا أفعلُ الآنَ؟

فارموند، ٠٥/٠٥/٢٠١١

السـفينةُ تدخـلُ في حائطٍ

الأشجارُ التي لم تَعُدْ غريبةً
هذه الأشجارُ التي لاأعرفُ أسماءَها
مطمئنّةٌ، هذا المساءَ، إلى طيورِها الآيبةِ
مطمئنةٌ، إلى أنّ مصباحاً وحيداً سيبدِّدُ عتمةَ الليلِ
مطمئنةٌ إلى أنني أتبعُها مثلَ عاشقٍ. . .
لكنْ، يا صديقتي التي لم تَعُدْ ترسُمُ سفينةً
تدخلُ في حائطٍ. . .
كيف لي أن أراكِ مطمئنةً؟
كيف لي أن أطمئنَّ إليكِ؟
كيف لي أن أطمئنَّ عليكِ؟
في الهواءِ الفاسدِ
الهواءِ الذي ظلَّ ينأى بالسفينةِ عن الحائط؟

فارموند، ٠٥/٠٥/٢٠١١

السُّـــلَّـم

عليكَ أن تدفعَ الأخشابَ ناحيةً
وبَعدها، عُلبَ الألوانِ، والورقا
عليكَ أن تتحرّى أنّ ما علِقا
بثوبِكَ القطنِ ليسَ الزيتَ. . .
رُبّتَمـــا
أفلحتَ في أن ترى، كالبرقِ، سُلَّمَها
لترتقيهِ
فتلقى الغصنَ والأفُقـــا. . .
هناكَ
عند سريرٍ ضيّقٍ
سترى، في بغتةٍ، سِـــرَّ أندريا
وقد نطـقـــا!
كأنّ متنَ الفراشِ، البحرُ
قد نهدَتْ أمواجُهُ
لتكونَ العِطرَ والعرَقـــا. . .

فارموند، ٠٥/ ٠٥/ ٢٠١١

في منزل محمد بنّيس بالمحمديّة

نؤومَي ضُحىً كنّا
إذا ارتفعَ الضحى دخلْنا إلى البستانِ؛
غرفتُنا
تُطِـلُّ رأساً على البستانِ
ثمّتَ موزةٌ
ودوحةُ ليمونٍ
ووردٌ
ومنهلٌ
وأغصانُ زُلَّـيجٍ،
كأنّ سريرَنا
سيدخلُ في البستانِ. . .
أهلاً
ومرحبا!

فارموند، ٠٦/ ٠٥/ ٢٠١١

Ground Zero

تتذكّرين كيف هبطْنا
من منزل سامية حلبي
حيث الأتيلييه، الذي تسكنُه غيومٌ سودٌ
ثابتةٌ، تتشكّلُ نساءً فلسطينيّاتٍ؛
من هناك
سنواصلُ السيرَ
إلى مانهاتِن السّفلى. . .
مبنى الرزَم البريدية مستقرٌّ ثقيلاً
مثل سفينة ركّابٍ محيطيّةٍ أخطأتْ
مرساها البحريّ. . .
سنقرأ على لوحةٍ كابيةٍ:
Ground Zero
المكان مسوّرٌ
وعمّالٌ خفيّون ما زالوا يرفعون ما بقي من أنقاضٍ. . .
تقولين: الأفضلُ ألاّ نتكلّمَ هنا.
وتزيدين: الأفضلُ أن نغادرَ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ذلكَ النهارَ

أحسستُ بوطأةِ نيويورك!

فارموند، ٠٦/ ٠٥/ ٢٠١١

تطمينٌ

أيتها النفسُ المطمئنّةُ
تباركتِ!
النهار رائقٌ
والربيع يكثّفُ ألوانه.
زجاجةُ نبيذٍ توسكانيّ أحمرَ على الطاولة الصغيرةِ
والخبزُ
والجبنُ
ولَسوف أتمشّى حتى أبلغَ
ساحةَ القريةِ الهولنديّةِ الصغيرةِ.
أيتها النفسُ المطمئنةُ
تباركتِ!
وليظلَّ النهارُ رائقاً
فقد تنكسرُ كوابيسُ الليلِ:

نهاري نهارُ الناسِ
حتى إذا دجا بيَ الليلُ
هزّتْني إليكِ الـمضـاجعُ!

فارموند، ٠٦/ ٠٥/ ٢٠١١

أنتظرُ حزيران

كأس نبيذٍ توسكانيّ
في حديقةِ منزلٍ، هولنديّةٍ، مهجورةٍ.
الإشكالُ هنا
أنك تعرفُ توسكانيا
وأنك تعرف كيف تطلبُ، وباللغةِ الإيطاليةِ
في أيّ مقهىً أو مَشربٍ:
Toscana Firma!
أي كيف تطلبُ كأسَ نبيذٍ أحمرَ توسكانيّ
غيرِ غازيّ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
أنت تحبُّ الأشياءَ أصيلةً
في الشِّعرِ
كما في النبيذ.
لا إضافةَ
لا فضْلةَ

لا فقاقعَ . . .
لكنّ ما تريدُهُ لن تبلغَه . . .
وكما قالت أندريا :
علينا أن ننتظرَ حزيران!

فارموند، ٠٦/ ٠٥/ ٢٠١١

الأرَقُ

لم أنَم البارحةَ
جفنايَ لا ينطبقانِ حتى لو أرغمتُهُما
حتى لو ضغطتُهما بيدي.
أصابعي النحيلةُ ترتجفُ
وأنفاسي تتلاهثُ وتتلاشـــى،
لا أتقلّبُ
لأنني أوهَـنُ من أن أتقلّبَ...
الصباحُ في نهاية العالَم
وأنا منتظِرٌ النهايةَ.
.....
.....
.....
أعرفُ جيّداً
أنكِ ستهدهدينني
بأنفاسِكِ
إنْ كنتِ نائمةً في الغرفةِ التي تحملُ رسوماتِكِ
أي في غرفتي.
هل لي أن أتذكّـــرَ؟

فارموند، ٢٠١١/٠٥/٠٧

ســاحةُ جورج أورويل

في برشلونة
في ساحة جورج أورويل الصغيرةِ
سوف ترتفعُ
بدلاً من راية الأحمر والأسوَد الفوضويّةِ
رايةٌ تقول:
عاشت كاتالونيا!
Viva Catalonia!
أين نذهبُ إذاً؟
العالَمُ ضيّقٌ كعنقِ زجاجةٍ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لنذهبْ، إذاً إلى البحرِ
إلى برشلونةَ الأولى
حيثُ ساريةُ كريستوفر كولـمـبُس
أعلى من الملكة إيزابيلا.
أفكِّرُ:
هل ستقبلين؟

فارموند، ٠٧/ ٠٥/ ٢٠١١

أغنيــةٌ للمَشــي

على امتدادِ القناةْ
يا ما مشَينا معا. . .
يا ما رأينا المياهْ
تكادُ أن تلمعا.
هل ستكونُ الحياهْ
مَرْكبَنا الـمُشْـرَعا؟
نمضي إلى مُـنـتـهاه
ونبلغُ الأروَعا
آنض تُغَنّي الشفاه
عينينِ لن تدمعا
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
على امتدادِ القناةْ
ونحنُ لسنا معا!

فارموند، ٠٧/ ٠٥/ ٢٠١١

التــاج

أفكِّرُ:
لو رأيتُكِ بعدَ خمسٍ من السنواتِ
كيفَ سألتقيكِ؟
أضُمُّكِ؟
أم أشمُّكِ
أم أنادي:
المليكةُ أنتِ!
تاجُكِ من مَحارٍ
ومن غارٍ
ومن شَـذْرٍ سـبيكِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
كأني، دونَ عِلْمِكِ، أصطفيكِ!

فارموند، ٠٧/ ٠٥/ ٢٠١١

سـؤالٌ أسـاسٌ

لماذا أكتبُ إليكِ؟
أنتِ لا تعرفين لغتي
وقد تكرهينها
(وإنْ كانت لغةَ أهلِ الجنّةِ)
هي لغةُ برابرةٍ كادوا يفتحون باريس
ثم فِـيَـينّا . . .
هي لغةُ قراصنةٍ روّعوا ساحلَ أوربا الجنوبيّ
هي لغةُ الكتابِ الآخرِ
هي لغةُ نبيٍّ يكرهه دانتي
وهي الآن
لغةُ المستعبَـدِ الذي يريدُ الاستعبادَ
وقد يرفضُهُ أحياناً.
إذاً . . .
لِمَ أكتبُ إليكِ؟
ألأنني لم أجدْ مَن أُكاتـبُـهُ؟

فارموند، ٠٧، ٠٥/ ٢٠١١

طـائرةٌ إلى رومـا

هاأنذا في الأحدِ الأوّلِ
في فارموند
Warmond
شمسُ ربيعٍ فاترةٌ تدخلُ عبرَ ستارِ الغرفةِ
طيرٌ مائيٌّ
اسمعُهُ. . .
أسمَعُ صيحتَه كالطاووسِ؛
هنا، تُنصتُ للطيرِ. . .
فأنصِتْ!
لن تسمعَ صوتاً من إنسانٍ
لن تسمعَ حتى صوتَكَ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
في هذا الأحدِ الأوّلِ
فكّرتُ بأن آخذَ طائرةً
وأطيرَ إلى روما
حيثُ تكونين الآن. . .

فارموند، ٠٨/ ٠٥/ ٢٠١١

مَرْكبـةُ فضـاءٍ

سوسنُ كانت معنا في النادي اليونانيّ
ونبيذٌ أبيضُ
(مصريٌّ أيضاً)
كنتِ نبيذاً أبيضَ نمساويّاً،
نصفَ متعتعـةٍ بنبيذٍ أبيضَ مصريٍّ،
كان النادي اليونانيّ يدورُ بنا،
سوسنُ، دامعة العينينِ، تعانقُكِ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
النادي اليونانيّ
يطيرُ كـمَـرْكَـبـةٍ
سوف نراها
فجراً
تهبطُ في «باب اللوق»!

فارموند، ٠٨/ ٠٥/ ٢٠١١

أكـورديون

تأخذين الأكورديون، أكورديون المحترفين
وتدخلين المقبرةَ البولونيّةَ
في ساوث إيلنغ
South Ealing
تجلسين على مصطبةٍ
قربَ شاهدِ قبرٍ. . .
وتؤدِّينَ على الأكورديون
موسيقى مرِحةً
من فِـيَيـنّـا الإمبراطورية.
أجلسُ إلى جانبكِ:
الموسيقى للنائمين طويلاً بلا أحلامٍ،
أمّـا أنا
فأُتابعُ أناملَكِ
وجهَكِ
ونَهدَيكِ الصغيرَين. . .

فارموند، ٠٨/ ٠٥/ ٢٠١١

البُرْكةُ ذاتُ السلاحفِ

نتركُ فطورَ الصباحِ
في الدارةِ الفرنسيّةِ التي ترجمتْ سيّدةٌ فرنسيّةٌ فيها
القرآنَ، قبلَ قَرنٍ ما،
ونذهبُ إلى السوقِ العربيّ
عناك
سنُفطِرُ مع العمّالِ المغاربةِ
والطيورِ المبكِّرةِ
حريرةً في طاساتِ فخّارٍ غيرِ مزوَّقٍ
وخبزاً خشناً طازجاً.
في الساعة السابعة صباحاً
تكونُ قِدْرَةُ الحريرةِ فارغةً. . .
آنذاكَ
نعودُ إلى الدارةِ
ونُفْطِرُ
مع برنار نُوَيل
وإيزابيلاّ. . .

عند البِرْكةِ ذاتِ السلاحفِ.

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

كأني أتحدثُ عن قَرنٍ سالفٍ!

فارموند، ٠٨/ ٠٥/ ٢٠١١

مـعارِك

أنا، حنّا السكران
أغنِّي لكِ في محطة مترو دالستان:
Oh lady
With tiny breasts!
كنّا خرجنا للتوّ، من المطعم التركيّ
عرَقٌ حقيقيٌّ من اسطنبول
وكبابٌ
باذنجانٌ متبِّلٌ
وجبنٌ أبيضُ غارقٌ في زيت الزيتونِ والزعتر.
المطعمُ يملكُهُ يساريّون أكرادٌ من تركيا...
ذلكَ اليوم
كان الفريقُ التركيُّ لكرةِ القدم
يخوضُ معركتَه في كأسِ العالَمِ...
بينما هنا
على أرضٍ بريطانيّةٍ
يخوضُ اليساريّون الأكرادُ
معركتَهم مع الأتراك!

فارموند، ٢٠١١/٠٥/٠٨

مقصوصةُ الشَّعرِ، غلاميّةٌ

شَعرُكِ الطويلُ
الذي طال ما مسّدتُهُ
ونحن في وضعٍ أفُقيّ: في غابةٍ أو غرفةِ فندقٍ
شَعرُكِ الطويلُ
الذهَبُ
اصفرَ
وأبيضَ...
كيفَ قصَصْـتِـهِ؟
كيفَ صرتِ غلاميّةً، في فُجاءةِ المستحيلِ؟
لم أسألْ
لكنَّ شَعركِ الطويلَ
الذهبَ، أصفرَ، وأبيضَ
هو لي أيضاً...
لي أيضاً أن أُمَـسِّـدَهُ
حتى وأنتِ مقصوصةُ الشَّعرِ
غلاميّةٌ...
هكذا
احتفظُ بكِ كاملةً، متكاملةً...

فارموند، ٢٠١١/٠٥/٠٨

سـؤالٌ بسـيـطٌ

ليس لي ما أُحِبُّ بهذي البلاد
لا الحدائقُ
لا الغيمُ
لا الشمسُ فاترةً
لا الطعام. . .
ليس لي مَنْ أُحِبُّ بهذي البلاد
لا تفاصيلَ. . .
فلأقُل الآنَ:
كيف انتهيتُ إلى أن أكونَ هنا؟
هل لأنكِ غادرتِ في أوّلِ الشهرِ
تلكَ الجزيرةَ؟
غادرتُها بعدَ يومٍ.
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
تُرى. . . هل نكونُ معاً
في البلادِ التي لا تُشابِهُ هذي البلاد؟

فارموند، ١٠/ ٠٥/ ٢٠١١

الـزنزانــةُ

لم أنَــمْ منذُ سبعٍ هنا. . .
أنا ميْتٌ من السُّهْدِ؛
ميْتٌ من البردِ
حولي هواءٌ ثقيلٌ كأني بزنزانةٍ أسفلَ الأرضِ
ألهَثُ
لا أتنفّسُ.
هذا الهواءُ الثقيلُ سيقتلُني
امتلأتْ رئتايَ من القيحِ
وامتلأتْ مقلتايَ من الـقُبْحِ
قريةُ فارموند هامدةٌ
ليلَها والنهارَ. . .
الطيورُ تموءُ، بها، كالقطط. . .

فارموند، ١١/ ٠٥/ ٢٠١١

ثوبٌ على الدانوب

أتظلُّ تكتبُ عن حديقتِها التي أسمَيتَها سِـرِّيَّةً؟
عن منبِتِ الأعشابِ،
والأزهارِ
عن تفصيلةِ الدلتا؟
ولكنّ الحديقةَ، منذُ خمسٍ، سُـوِّرَتْ
فظللتَ كالمحرومِ
أو أشقى من المحرومِ؛
أنت الآنَ، حتى اللحظةِ العمياءِ، تحلمُ بالشميمِ
بأنْ تُمَـسِّدَ عشبةً
وتمَسَّ أزهاراً
وتلمُسَ، مرهفاً، تفصيلةَ الدلتا. . .
إذاً
حاوِلْ
وحاوِلْ
ربّما بلَغَتْ أغانيكَ الرهيفةُ ثوبَ أندريا
على الدانوبِ
أوتعريشةِ الأعنابِ (غرفتِنا التي بِتْنا بها)

حاولْ
وحاوِلْ
ربما بلغتْ أغانيكَ الحديقةَ
واختفى في لمحةٍ كالبرقِ
ذاكَ الســـور. . .

فارموند، ١١/ ٠٥/ ٢٠١١

المتـفـائـلُ

تَـطْـلُـعُ الشمسُ فاترةً
بعد ليلٍ طويلٍ ثقيلٍ. . .
طيورٌ تموءُ
ضفادعُ من قنَواتٍ تلاصِقُ بيتَ المعيشةِ
(حيثُ أنامُ على الأرضِ)
كانتْ تنِـقُّ
تنِـقُّ
وظلّتْ تنِقُّ إلى مطلعِ الفجرِ
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
ديكٌ يصيحُ
أباركُـهُ
وأقولُ: انتهتْ ليلةٌ.
صاحَ ديكٌ
وها هي ذي الشمسُ!
. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

يا صاحبي
أيظلُّ التفاؤلُ أفيونَكَ؟
الليلُ أثخنُ من أن يزولَ!
تَـحَـسَّـسْ قميصَكَ. . .
أنصِتْ إلى ما يقول.

فارموند، ١٢/ ٠٥/ ٢٠١١

مثلّثٌ على الأطلس

أتظنُّ البلادَ التي قد وُلِدتَ بها
هي نفسُ البلاد؟
ربّما . . .
حين تقرأُ، منسرحاً، أطلسَ العالَمِ:
الرسمَ شِبْهَ المثلّث،
ذاكَ الـمَـعِـيْنَ المحايدَ عند السعوديّةِ . . .
الرسمُ تعرفهُ
منذُ أن كنتَ في صفِّكَ الإبتدائيّ،
حاولتَ أن تتقرّى الخريطةَ
ترسُمَها . . .
وإلى هذه اللحظةِ، الرسمُ باقٍ
ليطْلُعَ من بينِ ذاكرةٍ للأصابعِ . . .
أنتَ
سترسُمُ ذاكَ العراقَ المغادِرَ في لحظةٍ
سوف ترسمُهُ . . .
الآنَ أسألُ:
لكنْ، لماذا؟

أنتَ من أربعينَ خلَتْ
لم تَعُدْ تتنفّسُ ذاكَ الهواءَ الملوَّثَ بالذلِّ
ذاك الهواءَ الثقيلَ:
الرطوبةَ، والنفطَ، واللائذينَ بما لا يُلاذُ بهِ...
الحشراتِ، وأضرحةَ السائرين إلى حتفِهم
واليورانيوم...
من أربعين خلَتْ لم تعُدْ تتقصّى
خياناتِ ساستِهِ
ومثالبَهم
والفضائحَ...
تلكَ السجونَ التي قيلَ: سرّيّـةٌ
والمعاركَ خاسرةً...
أنتَ
من أربعين خلَتْ لم تحبَّ هناك امرأةْ
و لا امرأةٌ من هناكَ أحبَّـتْـكَ...
من أربعين خلَتْ
أنت تسكنُ نفسَكَ.
.....
.....
أيُّ البلادِ أحَبُّ إلى النفسِ؟
أيُّ البلادِ الحقيقةُ؟

نفسُكَ؟

أمْ رسمُ خارطةٍ كنتَ تتقنُهُ في الطفولةِ؟

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

هَـوِّنْ عليك!

فارموند، ١٣/ ٠٥/ ٢٠١١

محاولةُ تعويضٍ

هو، بالضبطِ، منتصفُ الشهرِ
مايو. . .
وأمسِ ذهبتَ إلى مخزنِ القريةِ
ابتعتَ خبزاً وجبناً وقنّينتَينِ من الخمرِ
خمرِ فرنسا الجنوبِ
الجنوبِ الذي كان يوماً به عرسُكَ. . .
الآنَ
هل تذكرُ الصيفَ؟
صيفَ البحيرةِ؟
إذّاكَ، كانت فتاتُكَ تبْلغُ أقصى البحيرةِ سابحةً. . .
أنتَ ناديتَها قلِقاً:
أ. . . ن. . . د. . . ر. . . ي. . . ا!
وهاهي ذي
يَقْطرُ الماءُ والشّهْدُ منها،
و هاهي ذي
تتقطّرُ بين ذراعَيكَ ماءً وشُهداً
وها هي ذي. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

ولكنك الآنَ في القريةِ.
الصيفُ يرحلُ حتى ولو نحن في شهرِ مايو
شآبيبُ من مطرٍ
ورياحٌ على الجسرِ باردةٌ
أنت تحملُ قنّينتَينِ من الخمرِ
خمرِ فرنسا الجنوب. . .

فارموند، ١٦/ ٠٥/ ٢٠١١

محاولةٌ أخرى في التعويض

هكذا حالُكَ الآنَ يا صاحبي:
حينَ يُرْعِدُكَ البردُ
تندَسُّ تحتَ اللحافِ، وتُحْكِمُ تثبيتَهُ حولكَ. . .
الأمرُ قد كان مختلفاً
لقُلْ قبلَ عامَينِ أو أكثرَ.
البردُ كان النعيمَ
وبوّابةً نحوَ ما يجعلُ العيشَ أشهى.
لقد كنتَ تنْدَسُّ في البردِ
لِصْقَ التي لم تحِبَّ سواها امرأةْ
وهي كانتى تُمَسِّدُ حتى عروقَكَ
كانت تعلِّمُكَ الحُبَّ
كانت تغمغمُ باسمِكَ
كانت تؤجِّجُ ما أرعدَ البردُ. . .
كانت تضيء!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .

قد اختلَفَ الأمرُ:
لا تبتئسْ!
سوف تأتي سواها
فلا تُحْكِـمَـنَّ اللحاف!

فارموند، ١٦/ ٠٥/ ٢٠١١

في القرية المنسيّـــة

في قرىً مثل هذهِ
يهبطُ الليلُ سريعاً، ويستقرُّ طويلا
ربما لم يكُنْ كذلكَ
لكنّ ظلامي في غرفتي يستطيلُ. . .
الليلُ أعمى
وسوف أدخلُ، عمْداً، في العمى
والعماءِ. . .
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
يا مَن أراها
من شقوقِ الستارةِ:
الوقتُ ما عاد انتظاراً،
فأينَ كفّاكِ؟
أين اللفتةُ اللُّغْزُ؟
أينَ
أينَ

الفضاءُ؟

ليس من منتهىً هنا،

لا ابتداءُ. . .

فارموند، ١٧/ ٠٥/ ٢٠١١

السـجـن

شجرٌ مترَفٌ،
دروبٌ بها العشبُ طويلٌ.
تبدو السماءُ لنا بيضاءَ
بردٌ.
غيثٌ خفيفٌ، ونورٌ باهتٌ.
هذا طريقٌ في القريةِ
امتدَّ حتى لامَسَ الرملَ في البحيرةِ؛
لا طفلَ
ولا كلبَ
لا مسافرَ...
أين الناسُ؟
هل فرّوا جميعاً؟
لكنّ بوّابةَ سجني قد أُوصِدَتْ بالحديدِ...
عجباً!
هل أكونُ، وحدي، سجينَ القريةِ؟
العشبُ في الممرّاتِ نَضْرٌ
لامعٌ، والسماءُ فيها حريرُ...

فارموند، ١٧/ ٠٥/ ٢٠١١

طـيـورُ الـموت

. . . وأيَّ الطيرِ أسمعُ في نهاري وليلي
يا سهامُ؟
تقولُ:
«هذي طيورُ الماءِ
في القنواتِ تمضي
وفي تلك البحيرةِ».
يا سهامُ:
الطيورُ الريشُ ليسَ لها عُواءٌ
و لا رجْعٌ
ولا صوتٌ مديدٌ. . .
كأنّ أنينَ سِـنَّورٍ جريحٍ
بأقصى الغابةِ، استرْوحْتُ ُ صبحاً، مساءً،
وفي حلُمي. . .
كأنَّ الموتَ ذئبٌ يرفرفُ
يُطْلِقُ الصرخاتِ. . .
. . . . . .
. . . . . .

. . . . . .

أيُّ الطيورِ الذئبُ،

ينهشُني

ويمضي

مع القنَواتِ والماءِ الغريبِ!

فارموند، ١٨/ ٠٥/ ٢٠١١

المنزل الأوّل

أمضَيتُ في فارموند ما يكفي:
الأسابيعُ الثلاثةُ كانت الـمِحَنَ الثلاثَ،
وكان ممّا لايُصَدَّقُ أنْ نجَوتُ. . .
غداً تعودُ إلى بلادِكَ:
لندنَ الكبرى
وشاطـئِـكَ البريطانيّ. . .
قد خلّفتَ هولندا التي لا طَعْمَ فيها غير برْدِ الصيفِ
والسمَك الذي أكلوه نَـيْـئـاً عند مقهى السوقِ،
فاحمَدْ ربَّكَ الرحمنَ:
إنكَ قد نجَوتَ!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

غداً ستفتحُ بابَ بيتِكَ
سوف تجلسُ في الحديقةِ
هادئاً، تلتذُّ بالويسكي، ظهيرةَ كلِّ يومٍ. . .

أنت تنتظرُ التي تأتي
وحتماً سوف تأتي،
آنـها، ستكونُ في شجرِ الحديقةِ خضرةٌ أخرى
وسوف يكونُ نحلٌ عند كأسِكَ،
سوف تبتديءُ الأغاني. . .

فارموند، ١٩/ ٠٥/ ٢٠١١

نصـائـح

حين تفقدُ مفتاحَ بيتِكَ في البحرِ
لا ترتبِكْ!
حين ينفَضُّ عنكَ رفاقُكَ في أوّلِ الدربِ أو آخرِ الدربِ
لا ترتبكْ!
حين تنسى اسمَ أُمِّكَ في الحـُلمِ
لا ترتبكْ!
إنْ صبَوتَ إلى امرأةٍ وهي لم تَصْبُ
لا ترتبكْ!
إنْ رأيتَ القطارَ يفوتُكَ عبرَ المحطّاتِ
لا ترتبِكْ!
إنْ رأيتَ الذي هو أبيضُ أسودَ
لا ترتبكْ!
وإنْ صفعَتْكَ العشيقةُ مترَعةً بنبيذِكَ
لا ترتبكْ!
إنْ رأيتَ السماءَ تضيقُ كما ضاقت الأرضُ
لا ترتبكْ!
حينَ تعرفُ أن الثيابَ التي ترتدي هي أثوابُ غيرِكَ

لا ترتبكْ!
إنْ توهَّمْتَ نخلَ السماوةِ نخلَ السماواتِ
لا ترتبكْ!
. . . . . .
. . . . . .
. . . . . .
لك أن ترتبكْ
حينَ يأخذُكَ الشِّـعرُ
أخْذاً
إلى موجِهِ الـمُشتبِكْ!

فارموند، ٢٠/ ٠٥/ ٢٠١١

الـربّـةُ البيضـاءُ

هذا هو اليومُ الأخيرُ
وثَـمَّ شمسٌ في الحديقةِ
بضّـةٌ
بيضاءُ
باردةٌ. . .
ستجلسُ، أيّها المتيبِّسُ الأطرافِ، في طرَفِ الحديقةِ
(بل أراك الآن تجلسُ!)
فـلْتُحاوِلْ دعوةَ الشمسِ الكريمةِ
قُلْ لها:
يا شمسُ كوني ضوءَ عينيَّ اللتَينِ تعانيانِ غِشاوةً!
يا شمسُ
كوني، مثلَ ما كنتِ، السبيلَ
فقد تداخلت المسالكُ
واختفَتْ في الـمَهـمَـهِ الشرسِ، الـمعالمُ؛
فلْتكوني الربّةَ البيضاءَ
يا شمسَ الحديقةْ!

فارموند، ٢٠/ ٠٥/ ٢٠١١

اســتعدادٌ أوَّلـيٌّ

فكّرْتُ:
سوف تعودُ أندريا إلى طرُقاتِ لندنَ
في حزيرانَ...
انتهى الشهرُ المقدّسُ
شهرُ إيطاليا،
وسوفَ تخِفُّ، والأيّامَ، ضربةُ شـمسِـتهِ...
ستكونُ أندريا مهيّأةً
لتسمعَ...
.....
.....
.....
لستُ قارعَ طبلةٍ
سأكونُ عوداً خافتاً
سأكونُ مسحوراً!

فارموند، ٢٠/ ٠٥/ ٢٠١١

لِنمزحْ قليلاً!

أنتِ
دوماً لديكِ مُحِبّانِ
أو أكثرُ.
مُذْ عرفتُكِ من قبلِ عَشْـرٍ
وأنتِ لديكِ مُحبّانِ:
أنا والآخرُ...
الآنَ
أنتِ تقولينَ: لي عاشقٌ!
هل تظنّينَهُ خبراً؟
أنتِ أدرى بمَنْ أنا.
أدرى بأنيَ أرضى بكِ.
أنا أرضى بكِ
حتى وإنْ كنتِ عاشقةً بالثلاثةِ...
.....
.....
.....
هل تضحكين؟

فارموند، ٢٠/ ٠٥/ ٢٠١١

ارتبــاطٌ

القطارُ الذي مرَقَ الآنَ
قد كان يمرُقُ دوماً
وفي هذه الساعةِ. . .
الأمرُ أنيَ لم أنتبهْ لمرورِ القطار
طيلة مَكْثي هنا؛
والأسابيعُ مرّتْ
ولم أنتبه لمرورِ القطار
سوى هذه اللحظةِ. . .
الحقُّ أني هنا في سُباتٍ ثقيلٍ
نهاريَ ليلٌ
وليلي نهارٌ
تمرُّ الأسابيعُ بي، والسحابُ يسافرُ
لكنني مثْقَلٌ بسُباتي
أسيرٌ لنفسيَ، تلكَ البعيدةِ، في الركنِ. . .
كيف انتبهتُ، إذاً، لمرورِ القطار
وفي هذه اللحظةِ؟

الآنَ
أُدرِكُ ما السـرُّ. . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

بعدَ قليلٍ سآخذُ حافلةً للمطـــار!

فارموند، ٢١/ ٠٥/ ٢٠١١

المحتويات

الديوانُ الإيطاليّ ٥
قصـائدُ فُورْتَيْسّـا ٧
قـلعةُ السـماءِ البيضاءِ ٨
سـوقُ السبت في بولزانو ١١
ليلُ البحيرةِ المتجلِّدة ١٣
الشمسُ التي لا تأتي ١٤
سـأنتظِـرُ! ١٦
الـمَـوعِــد ١٧
مدخلٌ سرّيّ إلى قلعة فورتيسّـا ١٨
تَـهْـلِيـلـةٌ ٢٢
Batzenhausl Bar with Algrein Wine ٢٣
شِــعابٌ جَبَلِيّـةٌ ٢٤

في البراري حيثُ البرق ٦٩
تموز في كوبنهاجن ٧١
لـونُ اللافَـنْـدَر ٧٣

صـراحــة ٧٤
عند بحيرةِ الأنهار الثلاثة ٧٥
البُحيرةُ في الفضـاء ٧٧
جَــسَــدٌ ٧٨
حـمـيـمِـيّــةٌ ٧٩
مَبْحَثُ المكانِ ٨٠
سُــونَيتَـة ٨٢
بَرشـلونـة ٨٣
شجرُة الحَـوْرِ التي أراها ٨٤
أنتظرُ الصقورَ ٨٥
حَضــارِمـةٌ ٨٦
بُـوْذا ؟ ٨٨
أُغنيـةٌ لشتاءٍ خفيفٍ ٨٩
من هناك ترى الخيلَ. ٩١
النـهـارُ واللـيلُ ٩٣
حديثُ وِسادةٍ ٩٥
جْـوان تحلُـمُ ٩٦
شــقّــةُ بَرلِــيـن ٩٨
النعِـيـم ٩٩
وَصْفُ ما يوصَفُ ١٠٠
البَـرِّيَّـة ١٠٢
مُـنـاوَلـةٌ ١٠٣

الأيّـام ١٠٤
السباحة في خليج عدَن ١٠٦
في تلك الثمانينيات ١٠٨
إلى وِصال ١١٠
شجـرة ١١٢
الـــمَـمَـــرّ ١١٣
رَمْـــلُ دُبَـــيّ ١١٤
الثلجُ في الظهـيرةِ ١١٦
الـمَـعْـبَـر ١١٨
السؤالُ الأوّل ١١٩
فـــيْـضٌ ١٢١
الـمَـدْبَـغـة ١٢٢
خِزانةُ جامعِ القرويّـين ١٢٤
سـيّدي اللقلقُ ١٢٥
نُـــزْلُ تْرانس أتلانتيك (مِكْناس) ١٢٦
ساحةُ الهَـدِيـم (مكناس) ١٢٨
جْوان في بار نُوفَـلْتِي ١٢٩
الشاطئ البربريّ ١٣١
الجمعة الحزينة ١٣٢
أحَـدُ الفِصْحِ في أَكْسِبْرِجْ ١٣٣
أنتظرُ نقّارَ الخشبِ ١٣٤
مشحونٌ، هذا الأصيلُ الـمُـبَـكِّـــرُ ١٣٥

لَـدْغـةُ البَـرقِ ١٣٦
عن الوهمِ ١٣٨

الشيوعيّ الأخير فقط ١٣٩
بَـدْلـةُ العاملِ الزرقـاءُ ١٤١
الشيوعيّ الأخيرُ يغادرُ عَـمّـان ١٤٢
الشيوعيّ الأخيـرُ يُثرثِـر ١٤٤
استقالــةُ الشــيوعيّ الأخيــر ١٤٦
تعاليمُ الشيوعيّ الأخير: مَن يخطو سَبْعاً؟ ١٤٩
أيامُ العملِ السّــرّيّ ١٥٠
الشيوعيّ الأخيرُ، محرِّرُ بغداد ١٥٢
الشــيوعيّ الأخير لا يعمل مترجِماً ١٥٣
الشيوعيّ الأخيرُ يرفضُ عملاً ١٥٥
الشيوعيّ الأخير يدخل الجَنّة ١٥٧
الشيوعيّ الأخير يذهب الى باريس ١٥٨
الشيوعيّ الأخير يريد أن يكتب شعراً ١٥٩
الشيوعيّ الأخيرُ يَخرجُ متظاهراً ١٦١
الشيوعيّ الأخير يُمازحُ الحلاّق ١٦٣
الشيوعيّ الأخير يتعلّم الهبوط بالمظلّـة ١٦٥
الشــيوعيّ الأخير يقرأ أشعاراً في كندا ١٦٧
الشيوعيّ الأخير يشهد أوّل أيار في برشـلونة ١٧٠
الشيوعيّ الأخير يذهب إلى السينما ١٧٢

الشيوعيّ الأخير يذهب إلى البصرة ١٧٦
الشيوعيّ الأخير يسبح في خليج عدَن ١٧٩
الشيوعيّ الأخير يعودُ من الشاطيء ١٨١
الشيوعيّ الأخير يشتري قميصاً ١٨٤
الشيوعيّ الأخير ينتظرُ الحافلة ١٨٦
الشيوعيّ الأخير يدخلُ في النفَق ١٨٨
الشيوعيّ الأخير يُشعلُ عودَ ثقّابٍ ١٩٠
الشيوعيّ الأخير يُعَدِّلُ في النشيدِ الأممي ١٩٢
الشيوعيّ الأخير يتطوّع. ١٩٤

ديوان غرفة شيراز ١٩٧
محطّةُ الشّمال ١٩٩
الآتون ٢٠١
الرِّسُّ النّغْلُ ٢٠٢
الزيّاديّة ٢٠٤
المُحاكَمة ٢٠٦
المحطّة السويديّة ٢٠٨
المَعاد ٢٠٩
المَقْتَلةُ ٢١١
النجم الثاقب ٢١٢
الواصليّة ٢١٣
أمْنيةٌ ٢١٥

أواخرُ أيلول ٢١٧
ترنيمـةٌ للميلاد ٢١٩
تفصيلٌ في الكآبة ٢٢١
تـنـاوُباتٌ ٢٢٢
جـــدَلٌ؟ ٢٢٤
خطّـةٌ أوّلـيّـةٌ لاغتيالٍ ٢٢٦
خطوطٌ بالأســـود ٢٢٨
خطوطٌ سـريعةٌ في الليلِ القُطْبيّ ٢٢٩
رباعيّـــةُ الضوءِ البعيـــدِ ٢٣٠
رباعية على الطويل ٢٣٢
زهرةُ الـنَّـوّام ٢٣٣
شجرة مطّاط ٢٣٤
طُـهْـرٌ ٢٣٦
عِـنـاد ٢٣٧
غِـبْـطـةٌ ٢٣٨
غرفة شيراز ٢٤٠
متفائلاً أحيـا ٢٤١
مُـتَـوازيـات ٢٤٢
محاولةٌ في الهدوء ٢٤٥
محطّةُ قطارِ أَكْـسِـبْرِجْ ٢٤٦
مرثيّةٌ للشيخ خزعل ٢٤٧
مسوّداتٌ سريعة ٢٤٨

مصرُ البهيّةُ أمُّنا جاءت إلى الساحة ٢٥٠
مياهٌ تَعِجُّ بالكواسِج ٢٥٢
نخّاسو عُمان ٢٥٤
نشيدُ ساحة التحرير ٢٥٦
نهارُ أربعاء ٢٥٧
هاجسٌ ٢٥٨
هل التبَسَ عليّ الليلُ؟ ٢٦٠
يوم القيامة الأبيض ٢٦٢

أنا بَرلينيّ؟ : بانوراما (٢٠١٠) ٢٦٣
عن هذه المحاولة في النصّ الشِّعريّ ٢٦٥
حكاياتُ البحّارةِ الغُرَباءِ ٢٦٦
سفينةُ الأشباحِ ٢٧٤
هل أنتَ حُرٌّ؟ ٢٧٩
الهِند ٢٨٠
الفِلِبين ٢٨١
اللوبار العتيق ٢٨٥
البِسْتْرو! ٢٨٦
القطار الألمانيّ ٢٨٨
القناةُ البرلينيّةُ ذاتُ الماءِ الأخضر ٢٩٠
حُريّةُ الذِّهنِ بأحمرِ روزا ٢٩١
مَن يقرأُ إريك هوبسباوم؟ ٢٩٦

الطريق إلى البيت الكبير ٢٩٨
خـــيمـةُ الوبَـرِ ٣٠٠
دَيرٌ عـلى الدانوب ٣٠٢
هل تعرفُ أني لا أسألُ عنك؟ ٣٠٤
صيف ٣٠٥
سِـيْدي بِلْعبـاس ٣٠٦
عـــدن. . . أيضاً ٣٠٨
مزرعة الزاهي محمّـد ٣٠٩
التَكِيّـةُ النقشبنديّة ٣١١
متـاعبُ ٣١٣
هـارْلِـمْ، حيثُ لا جازَ. ٣١٥
تـنويـعٌ ٣١٧
مقطوعتان ٣٢٠
تلك البلدة الصينيةُ على النهر ٣٢٢
نـــداءُ الأرضِ ٣٢٤
كيف انتهيتُ إلى تلك الشقّـةِ. ٣٢٦
ســـوقُ البراغيثِ ٣٢٨
مصـطـبةُ الـبُحـيرةِ ٣٣٠
مُـوبي دِكْ ٣٣٢
رادِسُ الغـــابةِ ٣٣٣
الســـاحةُ في الصـــباح ٣٣٥
الصّيفُ ناعمـاً ٣٣٧

محمّد عفيفي مطَر ٣٣٩
رسالةٌ إلى جوان ماكنلي ٣٤١
تحت شجرةٍ لا أعرفُ لها اسماً ٣٤٣
المِيراث ٣٤٥
غُرفةُ إسماعيل ٣٤٩
يوميّاتُ روما ٣٥١
صَيفٌ بَرلينيّ ٣٥٣
اضطرابٌ جَوِّيٌّ ٣٥٥
النّواقيس ٣٥٦
حديقةُ غِيْزوند بْرونِنْ ٣٥٨
جَوّابٌ ٣٦٠
النّسر البْروسِيّ ٣٦٢
الزاويةُ البريطانيّةُ ٣٦٤
مع مؤيَّد الراوي ٣٦٦
مَنْظرٌ صباحيّ ٣٦٨

صورة أندريا ٣٧١
الأصفرُ بيتي ٣٧٣
Andrea's Profile ٣٧٤
تسيرُ أندريا إلى السيّارة البيضاء ٣٧٥
وادي الجِنّ ٣٧٦
لا تحاوِلْ في مَشرَب التاج ٣٧٧

الأصواتُ تأتي من عروق الذهب ٣٧٩
رجاءٌ ٣٨١
الخـلاص ٣٨٢
في تَدْمُر ٣٨٣
أندريا في ماء الفرات ٣٨٤
أنا وأندريا والسـطـحُ ٣٨٥
رايةُ كارل ماركس ٣٨٦
مزرعة الكُروم ٣٨٧
أُقَـلِّدُ العُذْريّين! ٣٨٨
تلك الظهيرة البرلينيّة ٣٨٩
أيُّ كَـرَمٍ! ٣٩١
صباح عيد الفِصْح ٣٩٢
That Rainy Day ٣٩٣
ذلك النهار الممطر ٣٩٥
الفـنـادق ٣٩٨
باب اللـوق ٣٩٩
زفافٌ ملَكيّ ٤٠٠
البحيرة المتجمِّدة ٤٠١
مرّاكش يا أندريا! ٤٠٣
هذا الأوّل من أيّار ٤٠٥
قصـائد فارمـونـد ٤٠٦
أكثر من سماءٍ واحدةٍ ٤٠٧

في نيويورك ٤٠٨
الخيمة النمساويّـة ٤٠٩
نانتاكِيتْ ٤١٠
المرسَم الأوّل ٤١٢
في قريةٍ هولنديّةٍ ٤١٤
يوم التحرير ٤١٥
في الغـابة ٤١٦
تحوّلاتُ أندريا ٤١٨
السـفينةُ تدخـلُ في حائطٍ ٤١٩
السُّـــلَّـم ٤٢٠
في منزل محمد بنّيس بالمحمديّة ٤٢١
Ground Zero ٤٢٢
تطمينٌ ٤٢٤
أنتظرُ حزيران ٤٢٥
الأرَقُ ٤٢٧
سـاحةُ جورج أورويل ٤٢٨
أغنيـةٌ للمَشـي ٤٢٩
التـاج ٤٣٠
سـؤالٌ أسـاسٌ ٤٣١
طـائرةٌ إلى روما ٤٣٢
مَرْكبـةُ فضـاءٍ ٤٣٣
أكـورديون ٤٣٤

البُرْكةُ ذاتُ السلاحفِ ٤٣٥
مـعارِك ٤٣٧
مقصوصةُ الشَّعرِ، غلاميّةٌ ٤٣٨
ســؤالٌ بسـيـطٌ ٤٣٩
الـزنزانـةُ ٤٤٠
ثوبٌ على الدانوب ٤٤١
المتـفـائـلُ ٤٤٣
مثلّثٌ على الأطلس ٤٤٥
محاولةُ تعويضٍ ٤٤٨
محاولةٌ أخرى في التعويض ٤٥٠
في القرية المنسيّــة ٤٥٢
السـجـن ٤٥٤
طـيـورُ الـموت ٤٥٥
المنزل الأوّل ٤٥٧
نصـائـح ٤٥٩
الـربّـةُ البيضـاءُ ٤٦١
اسـتعدادٌ أوَّلـيٌّ ٤٦٢
لِـنمزحْ قليلاً! ٤٦٣
ارتبـاطٌ ٤٦٤